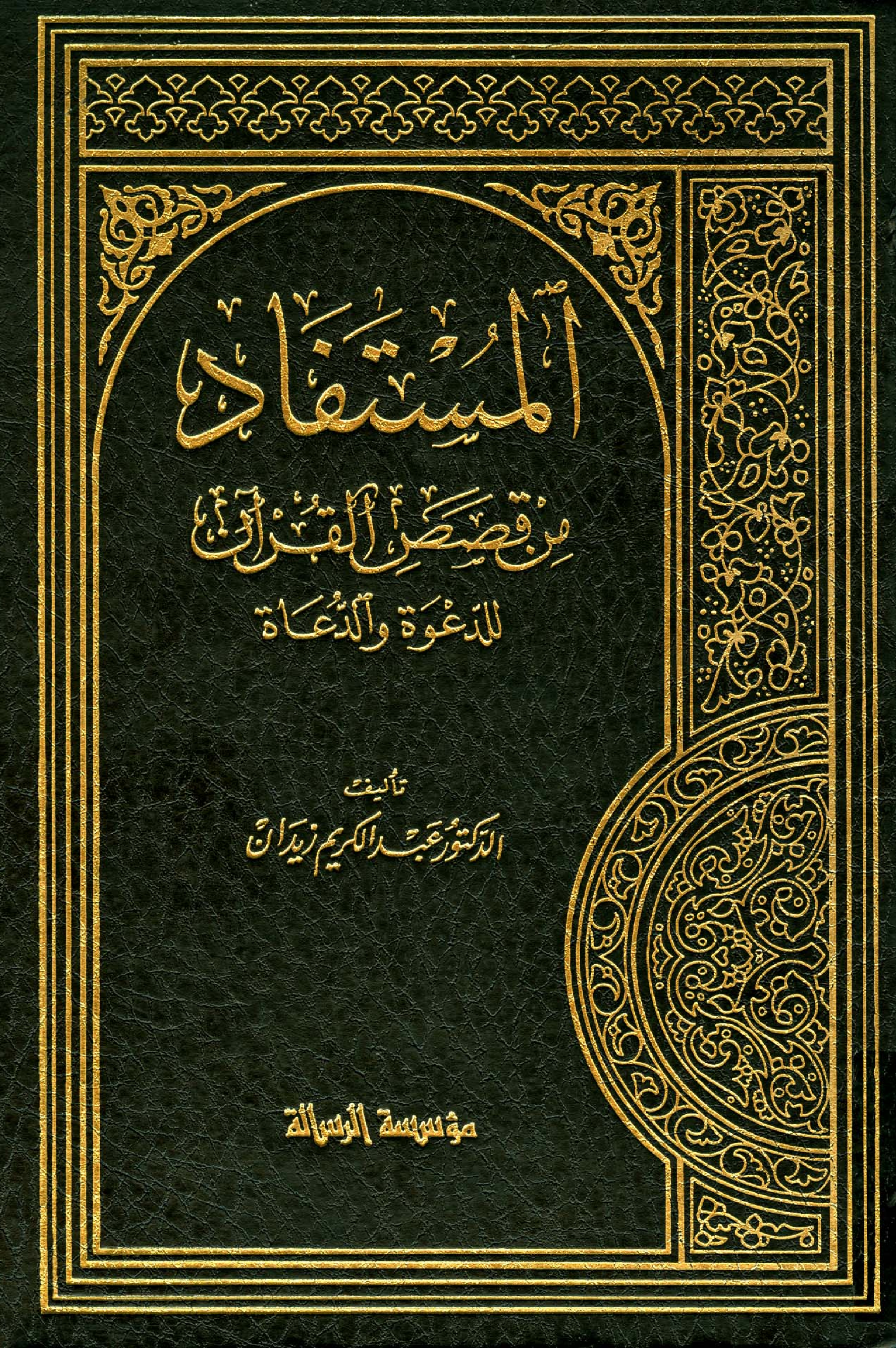
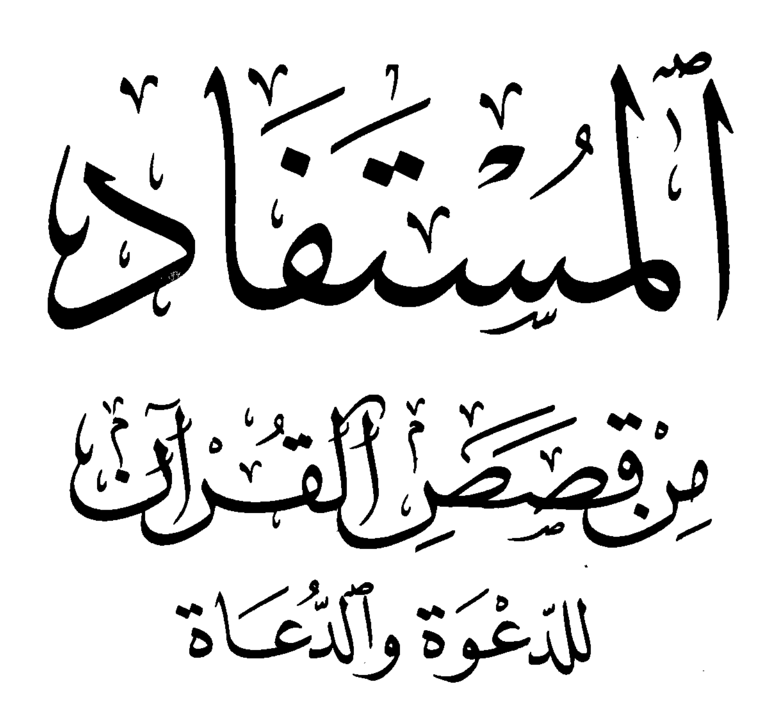

المستفاد
من قصص القرآن
للدعوة والدعاة
تأليف
الدكتور عبد الكريم زيدان
مؤسسة الرسالة



تأليف

الدكتور عبد الكريم زيدان

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة
ناشرون

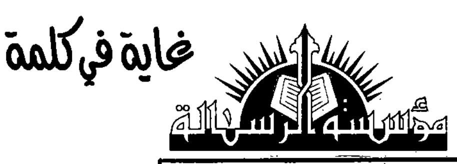


المُستَفاد

مِن قَصَصِ القُرآن

للدَّعوة والدُّعاة





للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب. : ١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت ـ لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

المقـــدمة

١- الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنَّ في القرآن العزيز قصصاً شتى عن الماضين من الأنبياء والمؤمنين كما أن فيه قصصاً عن الكفار والمفسدين مما سنعرض له في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

٢- قصص القرآن أحسن القصص:

وما قصّه الله علينا هو أحسن القصص، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ وهذا يتناول كل ما قصه الله تعالى في كتابه، فهو أحسن القصص[1] «وأحسن القصص» قيل: إنه مصدر، وقيل: إنه مفعول به، وعلى القول الأول يكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص، كما يقال: نكلمك أحسن التكيلم، ونبين لك أحسن البيان، وعلى القول الثاني يكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن ما يُقصّ، أي أحسن الأخبار المقصوصات، ويدل على هذا المعنى وأنه هو المراد قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال شيخ الإسلام بعد أن ذكر القولين: والصحيح أن «القصص» في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ مفعول به، وإن كان أصله مصدراً ولكن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٧ ص٢٢، والآية رقمها ٣ من سورة يوسف.

غلب استعماله في المفعول به[2]

٣- تكرار القصة في القرآن:

وقد تتكرر القصة الواحدة في القرآن، ولكن في تكرارها فوائد، في كل منها فائدة لا توجد في الأخرى من غير تعارض في المجموع، لأنها لما كانت مُنَـزَّلة لأجل العبرة والموعظة والتأثير في العقول والقلوب اختلفت أساليبها بين إيجاز وإطناب، وذُكِرَ في بعضها من المعاني والفوائد ما ليس في البعض الآخر حتى لا تُملَّ للفظها ولا لمعانيها. ثم إن الأقوال المحكية فيها إنما هي معبرة عن المعاني وشارحة للحقائق وليست نقلاً لألفاظ المحكي عنهم بأعيانها، فإن بعض أولئك المحكي عنهم أعاجم، ولم تكن لغة العربي منهم كلغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها. هذا وإنّ اختلاف الأساليب وطرق التعبير في قصص القرآن وفي القرآن عموماً عن المعنى الواحد لا تختلف إلا لنكت تفيد من فهمها فائدة لفظية أو معنوية[3].

ويقول الشهيد سيد قطب في تكرار القصة في القرآن الكريم: «ويحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سورشتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحد من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار»[4].

٤- الحكمة في قصص القرآن:

والحكمة فيما قصه الله علينا في كتابه العزيز تظهر من وجوه عديدة نذكر منها ما يلي:

أولاً - أن نَفْـقَه ما جاء في هذه القصص من أخبار وحقائق ومعانٍ وأنماطٍ من المدافعات بين أهل الحق والباطل وأن نعتبر به، فمن ذلك أنّ الله تعالى قصَّ علينا

---

(٢) المرجع السابق ص٣٢.

(٣) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ج٨ ص٣٤٣، ٣٤٦.

(٤) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج١ ص٥٥.

أخبار الأنبياء وما أصابهم وأصاب أتباعهم المؤمنين في الأذى في سبيل الله، ثم إن الله تعالى نصرهم وجعل العاقبة الحسنة لهم، وفي ذلك عبرة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٥).

ثانياً - في قصص القرآن بيان لسنن الله في خلقه من الأمم والجماعات والأفراد، وهي سنن جرت على الماضين وتجري على اللاحقين ليعتبرها المؤمنون، وقد فصلنا القول في طي كتابنا «السنن الإلٰهية في الأمم والجماعات والأفراد» فلله الحمد والمنّة. ولهذا فإن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم والأشْخاص وإنما يُذكَر منها مواضع العبرة والألفاظ والتذكر كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ولا تُستَقْصَى(٦).

ثالثاً - وفي قصص القرآن بيان لمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى والتزامهم بها وصبرهم عليها، والتأسي بهم فيها، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ - وأمته تبعاً له -: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، والاقتداء بهداهم والتأسي بهم إنما يكون في أساليبهم وطرائقهم في الدعوة. قال صاحب تفسير المنار الشيخ رشيد رضا رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وموافقة رسول لمن قبله في أصول الدين وبعض فروعه لا يسمى اقتداءً ولا تأسياً وإنما يكون التأسي به في طريقته التي سلكها في الدعوة إلى الدين وإقامته. ومن الشواهد على هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ . . ﴾ الآية، فإنه تعالى أرشد عباده المؤمنين إلى التأسي بإبراهيم ومن آمن معه وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم العملية التي كانت من هدى الله تعالى لهم وهي البراء من معبودات قومهم ومنهم ما داموا عابدين لها»(٧).

---

(٥) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٦) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ج١ ص١١٤. وآية «وكلاً نقص عليك.. الخ» في سورة هود ورقمها ١٢٠.

(٧) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج٧ ص٥٩٦، وآية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ في سورة الأنعام ورقمها ٩١.

رابعاً - وفي قصص القرآن نماذج للمؤمنين الصابرين الثابتين على الحق وبيان سلوكهم مع الكفرة المجرمين الذين ناصبوهم العداء لإيمانهم بالله وكفرهم بالطاغوت قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

خامساً - وفي قصص القرآن العزيز بيان لغرائز الإنسان وما جبل الله عليه من صفات ومن أنواع هذه الغرائز، وأثر ذلك في سلوكه وأفعاله وفي علاقاته مع الآخرين.

سادساً - ومن قصص القرآن بيان لأحوال الإنسان وطغيانه بسبب المال والسلطان. إلى غير ذلك من مضامين هذه القصص التي أخذت قسماً كبيراً من كتاب الله العزيز.

سابعاً - وفي قصص القرآن حقائق علمية تتعلق بهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وأرض ونجوم وسماء لم تعرف إلا في عصرنا الحديث، وفي معرفتها زيادة في العلم وتقوية لمعاني الإيمان التي جاء بها الإسلام.

٥-في قصص القرآن فوائد للدعوة والدعاة:

وكل ما ذكرناه من وجوه الحكمة في قصص القرآن يفيد الدعوة والدعاة، فمن هذه الفوائد التي لا يجوز للدعاة نسيانها تعريفهم بمناهج الدعاة من الأنبياء وأتباعهم في الدعوة إلى الله، وبيان ما أصابهم من أذى في سبيل الله وما قابلهم به الكفار، ليُعلَم أنَّ ما أصاب المؤمنين السابقين الدعاة إلى الله يصيب أيضاً الدعاة المؤمنين اللاحقين، وبهذا جرت سنة الله في الأولين كما تجري في اللاحقين، ولكن العاقبة كانت وتكون دائماً للمتقين قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٨] وفي قصص القرآن ما أشرنا إليه من بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من غرائز وميول ورغبات. وهذه أمور مهمة جداً يستفيد منها الدعاة في أساليب دعوتهم، وكيفية معالجتهم لأحوال الناس الذين يدعونهم ولأحوال أتباعهم من المؤيدين والأنصار، ولا يجوز للدعاة إغفال هذه الأمور المتعلقة بالنفس البشرية، لأنهم في دعوتهم يتعاملون مع بشر،

(٨) سورة الأعراف، من الآية ١٢٨.

ودعوة البشر، ووضعهم على الصراط السوي بعد تخليصهم من العوائقِ، وإقناعهم بمعاني الدعوة، كل ذلك يحتاج إلى فقه واسع وعميق وصحيح في النفس البشرية وطبعيتها وما جلبت عليه، وهذا يمكن معرفته وتعريف الدعوة به من خلال النظر فيما قصّه الله علينا من قصص الماضين المؤمنين والفجار والصعاليك وذوي السلطان. ومما يزيد من أهمية هذه الفائدة أن النفس البشرية وما جبلت عليه وطبيعتها وأصول غرائزها وصفاتها لا تتغير فهي هي الآن كما كانت من زمن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويكفي أن أشير هنا إلى قصة ابني آدم وكيف أن الحسد حمل أحد الأخوين على قتل أخيه، ولا تزال هذه الصفة - صفة الحسد - مغروسة في نفوس بني آدم حتىٰ الآن.

٦- الغرض من تأليف هذا الكتاب:

وإذا كان في قصص القرآن ما ذكرته من فوائد فقد ألفت هذا الكتاب لأكشف بعون الله وتوفيقه بعض ما يستفاد من هذه القصص للدعوة والدعاة؛ لأن الله تعالى ما قصَّ علينا ما قصّه من قصص في كتابه العزيز إلا للموعظة والاعتبار والاستفادة، ومَنْ أولى وأحق بهذه الموعظة والاستفادة والاعتبار من إخواني الدعاة إلى الله؟

٧- منهج البحث وتقسيم موضوعاته:

لقد اتبعت في بحث قصص القرآن جمع ما ورد من آيات في سور متعددة بشأن القصة الواحدة كلما كان ذلك الجمع ضرورياً، ثم قدمت خلاصة عن هذه القصة من خلال تفسير هذه الآيات، ثم بينت ما يستفاد من القصة للدعوة والدعاة في ضوء ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآيات وفي ضوء ما ينكشف لي من معاني القصة ومراميها بعد طول تأمل فيها. وجعلت الكتاب في (بابين) الأول في قصص القرآن عن الماضين من رسل الله وغيرهم قبل بعثه نبينا محمد ﷺ. و(الباب الثاني) جعلته فيما يتعلق من قصص القرآن بسيدنا محمد ﷺ وبأصحابه الكرام وبالمنافقين الذين كانوا في المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ هذا وقسمت كل بابٍ من هذين البابين إلى فصول، وقسمت الفصل إلى مباحث، والمبحث إلى مطالب، والمطلب إلى فروع بقدر ما يحتاجه الفصل من هذه التقسيمات، وجعلت لكل فصلة قصة،

وبدأت بقصص الأنبياء، لأن قصص الأنبياء كما يقول الشهيد سيد قطب: يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة الممتازة من البشر وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم[٩]، ثم عرضت بعد قصص الأنبياء قصص أتباعهم من المؤمنين، ثم قصص غيرهم من الأفراد الذين قصَّ الله علينا أخبارهم لما في قصصهم من عبرة، وهذا كله هو مضمون الباب الأول من الكتاب. ثم أتبعت ذلك بذكر ما قصه الله علينا فيما يتعلق بسيدنا محمد ﷺ وجهاده الطويل المبرور، وفي ضمن ذلك ما قصه الله علينا من أخبار أصحابه الكرام وهم يسيرون خلفه في جهاده الطويل المبرور، وبأخبار المنافقين الذين كانوا يعيشون في ذلك المجتمع الإسلامي الطاهر، وهذا كله هو مضمون الباب الثاني من هذا الكتاب. وإنما أخرت ذكر ما يتعلق بنبينا محمد ﷺ من قصص القرآن وجعلته موضوع الباب الثاني؛ لأنه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين وشريعته هي الباقية النافذة إلى يوم الدين.

٨- أمل ورجاء:

هذا وإني لأرجو أن أكون قد وُفِقت - بعون الله إلى الصواب فيما بحثتُه وبينتُه واستخلصتُه من فوائد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، وهذا محض فضل الله فله الحمد والمنة، وما لم أُوفَّق فيه إلى الصواب فإني أستغفر الله من ذلك واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الكتاب إخواني الدعاة إلى الله وعامة من يقرأ من المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّم والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

صنعاء في ٢٣ رمضان ١٤١٦هـ
١٢/ شباط/ ١٩٩٦

---

(٩) تفسير سيد قطب - في ظلال القرآن - ج١ ص٥٥.

الباب الأول

الفصل الأول

قصة آدم عليه السلام وإبليس

٩- تمهيد وتقسيم:

أقدم في هذا الفصل موجزاً لهذه القصة من خلال تفسير آياتها ثم أبين ما يستفاد منها للدعوة والدعاة. وعلى هذا أقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول - موجز القصة من خلال تفسير آياتها

المبحث الثاني - ما يستفاد منها للدعوة والدعاة

المبحث الأول

موجز قصة آدم عليه السلام وإبليس

من خلال تفسير آياتها

١٠- خَلْقُ آدم وسجود الملائكة له إلا إبليس:

خلق الله تعالى آدم من طين، ثم أمر الملائكة بالسجود له على وجه التحية له والتكريم واعترافاً بفضله، ولم يكن ذلك السجود على وجه العبادة له، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى[١٠] فسجد الملائكة لآدم إلا إبليس أبى واستكبر، أي امتنع من السجود تكبراً وعناداً، وكان في سابق علم الله أنه من الكافرين، أو بامتناعه من السجود صار من الكافرين، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١١] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١٢].

١١- إبليس كان من الجن:

وإبليس كان من الجن وإنما تناوله الأمر للملائكة بالسجود لآدم، لأنه كان في صحبتهم[١٣] قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

---

(١٠) تفسير الرازي ج١ ص٢١٢-٢١٣، تفسير المنار ج٨ ص٣٢٩-٣٣٠.

(١١) سورة ص الآيات ٧١-٧٤.

(١٢) سورة البقرة الآية ٣٤. وإبليس اسم للشيطان وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس. صفوة التفاسير للصابوني ج١ ص٥٠.

(١٣) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٣.

ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾(١٤) وقال ابن القيم: كان إبليس مع الملائكة بصورته، وليس منهم بمادته وأصله، كان أصله من نار وأصل الملائكة من نور(١٥).

١٢- سبب امتناع إبليس عن السجود:

وكان سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم زعمه أنه خير من آدم، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(١٦)، كأنه امتنع من السجود؛ لأنه بزعمه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين وجه هذه الخيرية بأنه خلق من نار، والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم. فنظر اللعين إلى أصل العنصر الذي خلق منه ولم ينظر إلى التشريف العظيم الذي ناله آدم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نصّ قوله تعالى للملائكة: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ كما إنه لم ينظر لعنه الله لأمر من أمره بالسجود وهو الله جلّ جلاله. ثم إن إبليس حتى في دعواه أنّ النار أشرف من الطين ادعاء غير صحيح، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، وهو محل النبات والنمو والزيادة، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة(١٧).

١٣- طرد إبليس من الجنة:

وكان من نتيجة استكبار إبليس عن طاعة ربه بالسجود لآدم أن طرده الله تعالى من الجنة ومن المنزلة التي كان فيها في الملكوت الأعلى، قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(١٨)، أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن أمري وتسكن دار قدسي. ﴿فَٱخْرُجْ﴾ تأكيد للأمر

(١٤) سورة الكهف الآية ٥٠.
(١٥) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٤.
(١٦) سورة الأعراف الآية ١٢.
(١٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٣.
(١٨) سورة الأعراف الآية ١٣.

بالهبوط من الجنة ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي من الذليلين الحقيرين، وذلك أنه لمّا أظهر الاستكبار ألبسه الله تعالى الذلّ والصغار، فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر على الله وضعه[١٩].

١٤- طلب إبليس إمهاله إلى يوم البعث:

ولما صدر أمر الله لإبليس بالطرد والإخراج من الجنة ومما كان عليه من المنزلة العالية، طلب اللعين من ربه أن يمهله ويبقيه حياً إلى يوم البعث، فأجابه الله تعالى إلى ما سألَهُ؛ لما له سبحانه من الحكمة والمشيئة التي لا تُخالَفُ ولا معقب لحكمه، قال تعالى عن طلب إبليس وإجابته: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[٢٠] أي أمهلني ولا تمتني إلى يوم يبعثون، أي بعث آدم وذريّتِهِ من قبورهم وهو يوم القيامة والحساب. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي من المؤجلين إلى ذلك اليوم[٢١].

١٥- كشف إبليس ما عزم على فعله:

ولما علم إبليس بإمهال الله له إلى يوم القيامة؛ كشف اللعين عن حقده وعداوته لآدم وذريته وما هو عازم عليه، لإيذائهم وإضرارهم وإضلالهم وصرفهم عن الصراط المستقيم، قال تعالى حكاية عمّا قاله إبليس:

أ- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٢٢].

الإغواء: الإيقاع في الغواية وهي ضدُّ الرشاد. وصراط الله المستقيم هو الطريق الذي يصل بسالكه إلى السعادة التي أعدّها الله تعالى لمن زكّى نفسه بهدايةِ دينه الحق. والمعنى: فبسبب إغوائك إياي من أجل آدم وذريته أقسمُ لأقعدَنّ لهم على

(١٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٤، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٦- ٢٧، صفوة التفاسير ج١ ص٤٣٨.

(٢٠) سورة الأعراف الآيتان ١٤، ١٥.

(٢١) تفسير القاسمي ج٧ ص٢٧.

(٢٢) سورة الأعراف، الآية ١٦.

صراطك المستقيم أو فيه، أو لألزمنّه ترصداً بهم كما يقعد قطاع الطريق للمارة، فأصدهم عنه وأقطعُهُ عليهم بأن أزيّن لهم سلوك طرق أخرى أشرّعها لهم ليضلوا عن الطريق الحق[٢٣].

ب- ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾[٢٤] جاء عن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي أشككهم في آخرتهم. ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي أُرغبّهم في دنياهم. ﴿ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أي أشبه عليهم أمر دينهم. ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ أي أُشهي لهم المعاصي. واختار ابن جرير «أنَّ المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يُحسنّه لهم»[٢٥]. ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ أي موحدين مستعملين قواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم في طاعة الله تعالى والتقرب إليه[٢٦].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٢٧] وقوله: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام، أحبب إليهم المعاصي وأرغبّهم فيها وأدفعم إليها[٢٨].

د- ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢٩] أي قال إبليس جرأةً وكفراً والرب سبحانه يحلم وينظر: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾، أي أخبرني عن هذا الذي كرمته عليَّ بأن أمرتني بالسجود له، لم كرمته عليَّ؟ ولِمَ فضلته عليَّ وأنا خير منه؟ ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي لئنِ أمهلتني إلى يوم القيامة؛ لأستولينَّ على ذريته أو لأضلنَّهم أو لأهلكنَّهم بالإغواء أو لأقودنَّهم إلى المعاصي كما تقادُ الدابة بحبلها إلا قليلاً من

---

(٢٣) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٧، تفسير القاسمي ج٧ ص٣١.

(٢٤) سورة الأعراف الآية ١٧.

(٢٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٤.

(٢٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٤، تفسير القاسمي ج٧ ص٣٢.

(٢٧) سورة الحجر الآيتان ٣٨-٣٩.

(٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥١.

(٢٩) سورة الإسراء الآية ٦٢.

ذريته وهم المخلصون[٣٠].

هـ- وبعد أن قال إبليس ما أخبرنا الله عنه بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ . . .﴾ الآية، قال تعالى له: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٣١]. هذه الآيات تبين جزاء من يتبع إبليس فما يدعو إليه، كما تبين بعض أفعاله في إضلال ذرية آدم. وخلاصة ما تدل عليه هاتان الآيتان ما يأتي: لما سأل إبليس الإمهال، قال الله تعالى له: ﴿ٱذْهَبْ﴾ أي أمهلتك، وامضِ لشأنك الذي اخترته أنت ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي إن جهنم هي جزاؤكم على أعمالكم، ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي وافراً أو موفوراً عليكم لا ينقصُ لكم منه. وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي استخف وأزعج ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أي من استطعت أن تستفزه فتخدعه ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بدعائك إلى الفساد. وصيغة الأمر هنا وهي ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ وردت للتهديد كما في قول القائل اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي صح عليهم من الجلبة وهي الصياح - ﴿بِخَيْلِكَ﴾ أي الخيالة أي ركبان الخيل ﴿وَرَجِلِكَ﴾ اسم جمع للراجل وهو الماشي. والمراد الأعوان والأتباع مطلقاً. ومعنى ذلك: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه واجمع عليهم كُلَّ ما تقدر عليه من مكايدك، وهنا أمر قدري لإبليس وليس أمراً تكليفاً له كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾. وقال ابن عباس في الآية: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أنه كل راكب أو راجل في معصية الله تعالى فهو من خيل إبليس وجنوده. وعلى هذا التقدير يدخل في معنى ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كل من يشاركه في الدعاء إلى المعصية. وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال سواء كان ذلك القبح بسبب أخذه من غير حقه وحلّه، أو وضعه في غير حقه، ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة. وأما المشاركة في الأولاد، فيدخل في معنى هذه المشاركة مشاركتهم في طريق تحصيل الولد،

---

(٣٠) تفسير الرازي ج٥ ص٣-٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٧.
(٣١) سورة الاسراء، الآيتان ٦٣و٦٤.

وذلك بالدعاء إلى الزنا، وأن يسمّوا أولادهم بعبداللات وعبد العزى، وأن يرغبّوا أولادهم في الأديان الباطلة كاليهوديّة والنصرانية وغيرهما، وأن يقدموا على قتل أولادهم. والضابط في هذه المشاركة أن يقال: إن كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي إلى ارتكاب منكرٍ أو قبيح فهو داخل في مفهوم المشاركة في الأولاد. وقوله تعالى: ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أي عدهم الوعود الباطلة مثل القول بأنه لا جنة ولا نار ولا حساب ولا بعث بعد الموت، أو بتسويف التوبة، أو بالأماني الكاذبة، أو بإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك. واعلمْ أنَّه لما قال تعالى: ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أردفه بما يكون زاجراً عن قبول وعده، فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهو تزيين الباطل بزينة الحق[32].

١٦- آدم وزوجه في الجنة:

وبعد أن طرد الله تعالى إبليس من الجنة؛ لاستكباره ورفضه السجود لآدم، أسكن الله تعالى آدم وزوجه في الجنة، وأباح لهما الأكل منها من حيث شاءا إلا من شجرة واحدة عيّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها، قال تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[33] والنهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه، فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري بالمنهي عنه وتفضي إليه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ[34]

١٧ - وسوسة الشيطان لآدم وزوجه:

ولما رأى إبليس ما أنعم الله به على آدم من أمر الملائكة بالسجود له، ومن إسكان الله له وزوجه في الجنة؛ حسدهما على ذلك، وسعى في المكر والوسوسة

---

(٣٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩-٥٠، تفسير الرازي ج٢١ ص٦-٨، القاسمي ج٩ ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣٣) سورة الأعراف، الآية ١٥.

(٣٤) تفسير المنار ج٨ ص٣٤٦.

والخديعة؛ ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن[٣٥]، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي ألقى لهما بصوت خفي؛ لإغرائهما بالأكل من الشجرة؛ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يُقْبُحُ كشفها. ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾. وهذا توضيح لوسوسة إبليس، أي قال لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين من الملائكة أو تكونا خالدين ها هنا في الجنة. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك إنه ناصح لهما فيما يقول في خدعهما، وقد يُخدَعُ المؤمن بالحلف بالله[٣٧].

١٨- الأكل من الشجرة الممنوعة:

وكان من نتيجة وسوسة إبليس وما قاله لآدم وزوجه حواء، وحلفه بالله على ما قاله، وأنه ناصح لهما فيما يقول، كان من نتيجة ذلك كله انخداع آدم وحواء بقول إبليس، فأكلا من الشجرة الممنوعة ووقعا في الخطيئة، قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٣٨] والمعنى: أن إبليس ما زال يخدعهما بالترغيب في الأكل من الشجرة والقسم على أنه ناصح بذلك لهما حتى انخدعا بقوله وأكلا من الشجرة.

١٩- تعليل أكل آدم وزوجه من الشجرة الممنوعة:

قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحدٌ بالله كاذباً

---

(٣٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٥.

(٣٦) سورة الأعراف الآيتان ١٩، ٢٠.

(٣٧) صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٣٨) سورة الأعراف الآية ٢٢.

فغرَّهما بوسوستة وقسمه لهما[39].

وقال ابن حزم الفقيه المشهور: إن آدم أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً بنص القرآن، ومتأولاً وقاصداً إلى الخير؛ لأنه قدرَّ أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكاً مقرباً أو خالداً فيما هو فيه أبداً، فأدّاه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به. وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه[40].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المتأخرين: الصواب أن آدم عليه السلام لما قاسمه إبليس إنه ناصح، وأكدّ كلامه بأنواع من التأكيدات، أحدها القسم بالله، ولم يظن آدم أن أحداً يحلف بالله كاذباً فظن صدقه، وأنه إن أكل من الشجرة المنهي عنها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل منها وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة الأكل في أثناء ذلك باعتذار أو توبة، كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية[41].

٢٠- التعليل الراجح للأكل من الشجرة الممنوعة:

والراجح في تعليل أكل آدم وزوجه من الشجرة الممنوعة اجتماع عدة أمور في نفس آدم، وفيما قاله إبليس، وبيان ذلك ما يأتي:

أولاً - نسيان آدم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[42]. والمعنى ولقد عهدنا إلى آدم أن لا يقرب من الشجرة، فنسي هذا العهد، أي هذا الأمر بأن لا يقرب من الشجرة، ولم نجد له عزماً أي تصميماً في حفظه، أي في حفظ العهد الذي هو أمره بعدم الاقتراب من الشجرة أي بنهيه عن الأكل منها. ولو كان له التصميم على حفظ العهد لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره[43]. وقال الإمام الرازي في قوله

(٣٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٤٩، صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٤٠) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٨.

(٤١) تفسير القاسمي ج٢ ص١٠٨-١٠٩.

(٤٢) سورة طه الآية ١١٥.

(٤٣) تفسير القاسمي ج١١ ص١٩٧.

تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ وفي نسيان آدم قولان:

(أحدهما) ما هو نقيض الذكر، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان.

(والثاني): إن المراد بالنسيان: الترك، وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمرتها. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة(٤٤).

ثانياً - ولكن هذا النسيان الذي حصل لآدم بالمعنى الذي ذكره الرازي والقاسمي، حتىٰ انخدع بقول إبليس، إنما حصل له لعدة أمور.

أ- بما ذكره ابن حزم من التأويل لنهي الله تعالى له عن الأكل من الشجرة.

ب- بما ذكره ابن تيمية من ظن آدم بصدق إبليس في حلفه؛ لأن آدم ما كان يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً، وأنه إن أكل من الشجرة لم يخرج من الجنة وأنه يتدارك ما صدر منه من الأكل بتوبة ونحوها.

جـ- إن إبليس أثار في نفس آدم بعض ما جبلت عليه من حب بلوغ المراتب العالية، ومنها مرتبة الملكية، وحب الخلود فيما يكون فيه الإنسان من نعيم، قال تعالى حكاية عما قاله إبليس لآدم وزوجه: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وأردف إبليس هذا الادعاء بادعاء آخر مقروناً بالحلف بالله، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فكان هذا كله مسهلاً لوقوع آدم في نسيان ما عهده إليه ربه من عدم الأكل من الشجرة، ومن لزوم التصميم على رعاية هذا العهد، فوقع المحذور، وأكل هو وزوجه من الشجرة الممنوعة.

٢١-ما بعد الأكل من الشجرة الممنوعة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٤٥).

---

(٤٤) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٢٤.

(٤٥) سورة الأعراف، الآية ٢٢.

قوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، أي لما أكلا من الشجرة الممنوعة أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عوراتهما[٤٦]. وقيل: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما[٤٧]. وقيل: كان لباسهما من حلل الجنة[٤٨]. وقال صاحب تفسير المنار: لا دليل على نوع اللباس الذي كان يلبسانه في الجنة، ولم يصح به أثر عن المعصوم ﷺ[٤٩]. والراجح أن يقال: إنه كان لآدم وزوجه لباس يسترهما ويستر سوآتهما والله أعلم بحقيقته ونوعه، وإن هذا اللباس نزع عنهما بعد أكلهما من الشجرة؛ فبدت لهما سوآتهما.

وقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليسترا بها بعد أن نزع عنهما لباسهما[٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، والاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ، أي قال لهما ربهُّما: ألم أنهكما وأحذركما من الأكل من تلك الشجرة، وأخبركما بأن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة فلا تطيعاه؛ لئلا يخرجكما من الجنة حيث العيش الرغيد إلى حيث الشقاء في المعيشة والتعب في الحياة، وهذا ما ورد في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[٥١]. وإنما أسند الشقاء إلى آدم وحده دون زوجه حواء مع اشتراكهما في الأكل من الشجرة؛ لأن في ضمن شقاء الرجل - وهو قيم وأمير على أهله - شقاءهم، كما أنّ في ضمنِ سعادته سعادتهم، فاختص الكلام بإسناده إليه، وقد يعلل ذلك بأنه أريد بالشقاء في الآية الكريمة التعب

---

(٤٦) تفسير القاسمي ج٧ ص٣٨.

(٤٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٦، تفسير الرازي ج٢٢ ص١٢٧.

(٤٨) صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٤٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٤٩.

(٥٠) صفوة التفاسير ج١ ص٢٣٩.

(٥١) سورة طه، الآية ١١٧.

في طلب القوت، وذلك على الرجل دون المرأة[٥٢].

٢٢- اعتراف آدم وزوجه بالخطيئة:

ولما سمع آدم وزوجه نداء الله تعالى لهما، وما تضمنه ذلك النداء من العتاب والتوبيخ على أكلهما من الشجرة المنهي عنها، علماً بأن الشيطان قد خدعهما وأوقعهما في مخالفة الرب، فندما وحزنا وتوجها إلى الله تعالى معترفين بالخطيئة تائبين من الذنب طالبين المغفرة والرحمة من ربهم الغفور الرحيم، قال تعالى حكاية عما قالاه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٥٣].

٢٣- توبة الله على آدم وزوجه:

وكان ما دعا به آدم وزوجه وهو قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . .﴾ الآية، هو الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وهي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥٤]. قالها آدم عليه السلام، ودعا بها بخشوع وتضرع إلى الله تعالى، وتبعته في ذلك زوجته. وهكذا تاب الله على آدم وزوجه[٥٥]، وإنما اكتفيَ بذكر توبة آدم دون ذكر توبة زوجه حواء لأنها كانت تبعاً له، وقد ذُكِرَ الاثنان في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . .﴾ الآية[٥٦].

٢٤- إخراج آدم وزوجه من الجنة:

لقد تاب الله على آدم وزوجه كما قلنا، ولكن هذه التوبة لم تمنع إخراجهما من الجنة، لأن الله تعالى قال لهما بعد دعائهما: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٥٧]. والخطاب لآدم وزوجه - حواء - وإبليس، أي

---

(٥٢) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٢٥.
(٥٣) سورة الأعراف الآية ٢٣.
(٥٤) سورة البقرة الآية ٣٧.
(٥٥) تفسير المنار ج٢٨ ص٣٥٠-٣٥١.
(٥٦) تفسير الرازي ج٣ ص٢٦.
(٥٧) سورة الأعراف الآية ٣٧.

اهبطوا من الجنة بعضكم وهو الشيطان، عدو لبعض وهو آدم وزوجته وذريتها، والمتبادر أن إخراج آدم وزوجه من الجنة كان عقاباً على تلك المعصية، معصية الأكل من الشجرة، لكون هذه المعصية ظلماً منهما لأنفسهما، وهو نوع من العقاب الذي قضت به سنته تعالى بأن يكون أثراً طبيعياً للعمل السيء مترتباً عليه ترتب المُسبَّب على سببه. وأما النوع الآخر من العقاب على العمل السيء من حيث هو عصيان الرب تعالى الذي يكون في الآخرة، فقد غفره الله تعالى لهما بالتوبة التي ذهبت بأثر المعصية من النفس، وجعلتها أهلاً لاصطفائه عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(٥٨). وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي ولكم في الأرض استقرار أو مكان تستقرون فيه، ومتاع تنتفعون به في معيشتكم إلى حين، أي إلى زمن مقدر في علم الله تعالى وهو الأجل الذي تنتهي فيه أعماركم. والمتاع هو ما ينتفع به(٥٩).

---

(٥٨) تفسير المنار ج٨ ص٣٥١.

(٥٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٥٢.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة آدم وإبليس

٢٥- تمهيد وتقسيم:

لغرض معرفة ما يستفاد من قصة آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله، رأينا تسهيلاً لتحصيل هذه الاستفادة وبيانها أن نبينها عند ذكرنا ما ورد في القرآن الكريم بشأن آدم عليه السلام، وإبليس، وبطبيعة العلاقة بينهما - أي بين آدم وإبليس، وبشأن مكايد الشيطان وبسبل الوقاية العامة منه ومن مكايده. وعلى هذا نقسم هذا المبحث إلى المطالب التالية.

المطلب الأول - المستفاد مما يتعلق بآدم عليه السلام.

المطلب الثاني - المستفاد مما يتعلق بإبليس.

المطلب الثالث - المستفاد مما يتعلق بطبيعة العلاقة بين آدم وإبليس.

المطلب الرابع - المستفاد مما يتعلق بمكايد الشيطان.

المطلب الخامس - المستفاد مما يتعلق بسبل الوقاية العامة من إبليس (الشيطان).

المطلب الأول

ما يستفاد مما يتعلق بآدم عليه السلام

٢٦- أولاً - آدم هو أصل البشر ودحض نظرية دارون:

إن آدم عليه السلام هو أصل البشر، فقد خلقه الله تعالى من طين على صورته البشرية الكاملة التي لم تأت عن طريق التدرج عن نوع من أنواع المخلوقات، أو عن صورة أو هيئة أخرى كما يزعم أهل الباطل أصحاب نظرية دارون، الذين يزعمون أنَّ أصل الإنسان قرد، ثم تدرج إلى أن صار إنساناً على هيئته المعروفة الحالية.

وهذا قول باطل لا دليل عليه، فالله تعالى خلق آدم من طين، ثم نفخ فيه الروح، فصار بشراً سوياً من لحم ودم بكامل هيئته وصورته الإنسانية، وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٦٠]. وهذه الآية تدل على أنه تعالى لما نفخ الروح في آدم وجب على الملائكة أن يسجدوا له؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مذكور بـ(فاء) التعقيب، وذلك يمنع التراخي[٦١]. ومعلوم أن ادم عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له كان عليه السلام بكامل صورته البشرية، ولم يكن على هيئة أخرى. وفي الحديث النبوي الشريف «خلق الله آدم على صورته»، فخلقُ آدم جاء كاملاً من جهة هيئته وصورته الإنسانية. وقال الإمام الرازي في تفسيره: إن الله تعالى خلق آدم على صورة الإنسان[٦٢].

---

(٦٠) سورة ص الآيتان ٧١، ٧٢.

(٦١) تفسير الرازي ج١٩ ص١٨٢.

(٦٢) تفسير الرازي ج١٩ ص١٧٩.

٢٧- ثانياً - جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله:

أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا له سجود تحية وتكريم وتعظيم واعتراف بفضله، وطاعةً لله رب العالمين دون تردد ولا اعتراض، مع أنهم في الملأ الأعلى وهم في حال تسبيح وتقديس وعبادة مستمرة لله رب العالمين، وقبل أن يصدر من آدم أيُّ نوع من العبادة تُرجّح على عبادتهم. وإنما كانت مبادرة الملائكة إلى السجود لآدم، والحال كما وصفنا؛ لأن الأمر لهم بالسجود لآدم صادر من الله رب العالمين، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً وبدون تردد ولا اعتراض ولا توقف في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر، وهذا هو جوهر الإسلام، وهذا هو الشأن بالمسلم: يسارع إلى طاعة ربه، والامتثال لأمره بدون تردد ولا اعتراض، ولا تعليق لهذه الطاعة على شيء آخر من معرفة سبب الأمر أو معرفةِ حكمتِهِ، أو موافقته لعقله وهواه، وبهذا نطق القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(٦٣).

٢٨- على الدعاة التأكيد على هذا المعنى:

وعلى الدعاة التأكيد على هذا المعنى، وهو أنَّ جوهر الإسلام هو الطاعة المطلقة لله رب العالمين في كل ما يأمر به، وينهى عنه، وبدون قيد ولا شرط ولا تعليق للطاعة على أي شيء كما قلنا. وعلى الدعاة أن يشرحوا هذا المعنى، ويزيدوه بسطاً وتوضيحاً وضرباً للأمثلة من نصوص القرآن الكريم، ومن أفعال الصحابة الكرام. وقد يكون من سبل البسط والشرح والتوضيح لهذا المعنى الذي نريد التأكيد عليه أن يقال: إن الإسلام يعني الاستسلام والانقياد التام لله رب العالمين، وأصل هذا الاستسلام والانقياد في القلب، ويشترط فيه أن يكون تاماً وعن رضا واختيار.

ومظهر هذا الاستسلام والانقياد الطاعة المطلقة لله رب العالمين في كل ما أمر به، وما نهى عنه دون تردد ولا اعتراض، ولا تعليق لهذه الطاعة على شيء آخر،

---

(٦٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

ومن هنا قلنا: إنَّ هذه الطاعة المطلقة التي هي ثمرة الاستسلام التام لله رب العالمين هي جوهر الإسلام.

٢٩- ثالثاً- قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة:

ويستفاد من وقوع آدم في مخالفة نهي الله له عن الأكل من الشجرة، قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة، وهذه القابلية متأتية من طبيعة الإنسان، فقد خلقه الله تعالى على طبيعة تجعل وقوعه في الخطيئة أمراً ممكناً، لما في طبيعته وما جَبَلَهُ الله عليه من ميول ورغبات وغرائز هي جوانب الضعف في الإنسان، والتي من خلالها ينفذ الشيطان بوساوسه إليه، ويزين له الوقوع في الخطيئة. ومن غرائز الإنسان الكامنة فيه أنه يحب أن يكون خالداً لا يموت، أو معمراً أجلاً طويلاً كالخلود، ويحب أن يكون له مُلْكٌ غير مُحَّدد بالعمر القصير المحدد[٦٤] فجاء إبليس إلى آدم من هذه الغريزة، فقال له ولزوجته: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[٦٥]، وأكدّ لهما ادعاءه بالحلف بالله بأنه لهما لمن الناصحين. وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول والرغبات، بل لا بد للمسلم من أن يضبطها ويكبح جماحها ويجعلها تابعة لأحكام الشرع، فقد جاء في الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به»، وهذه الميول والغرائز والرغبات هي ما تهواه النفس وغالباً ما تكون منفلتةً ومتجاوزة حدودها، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشرع، ولذلك يأتي ذم (الهوى) ويراد به ما تهواه النفس؛ لأن الغالب في هوى النفس أنه مذموم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فقدِ أطلق الهوى، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى، لأنه ينصرفُ عند الإطلاق إلى ما هو مذموم.

٣٠- رابعاً - خطيئة آدم تزيد من توكل المسلم على ربه:

إن خطيئة آدم تُظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة، وتثير الخوف والفزع في النفوس وبالتالي تزيد من توكل المسلم على ربه، واعتماده عليه؛ ليكفيه

---

(٦٤) في ظلال القرآن ج٣ ص١٢٦٩.

(٦٥) سورة الأعراف، الآية ٢٠.

شر الشيطان الرجيم. وبيان ذلك أن الله تعالى أسجد الملائكة لآدم إظهاراً لفضله وعلو منزلته عند ربه، وطرد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السجود له، وأسكنه وزوجه في الجنة، وأمره بالأمر الصريح بعدم الاقتراب من شجرة معينة وأباح له ما عداها من نعيم الجنة وثمارها، قال تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦٦]. وحذرهما من الشيطان، ومن خداعه وكيده؛ ليخرجها من الجنة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٦٧] ومع هذا كله فإن الشيطان استزلهما وغرهما، فأكلا من الشجرة، ووقعا في المعصية، فأخرجهما مما كانا فيه من نعيم الجنة، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٦٨].

من أجل هذا قلت: إن خطيئة آدم تثير الخوف والفزع في نفس كل مسلم يقف على قصة آدم عليه السلام؛ لأنه يتضح مدى إمكان تغرير الشيطان به، ودفعه إلى المعصية مما يجعله خائفاً فزعاً من هذا العدو الخبيث، وهذا الخوف من الشيطان، وإغوائه، يدفع المسلم إلى الالتجاء الدائم إلى الله تعالى، والتوكل عليه والاستعانة به على هذا الشيطان الرجيم الذي لا همَّ له إلا إغواء الإنسان، وجرّه إلى الخطيئة، ولا شك أن التوكل على الله، والاعتماد عليه من أعظم الأسباب؛ لدفع شر الشيطان، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ كما قال ربنا[٦٩].

٣١- على الدعاة تبصير الناس بما قلناه:

قلنا: إن خطر الشيطان على الإنسان خطر كبير لقابلية وقدرة الشيطان على الإغواء، وقابلية الإنسان لتقبل هذا الإغواء، وهذا يستدعي أن يقوم الدعاة بتبصير الناس بذلك، وأن يفهموهم بأن التجاءهم إلى الله، وتوكلهم عليه لدفع شر الشيطان

---

(٦٦) سورة الأعراف، الآية ١٩.

(٦٧) سورة طه الآيتان ١١٦ و١١٧.

(٦٨) سورة البقرة الآيتان ٣٥ و٣٦.

(٦٩) سورة الطلاق، الآية ٣.

عنهم، من الأمور الضرورية لدفع هذا الشر عنهم. ولكن التوكل على الله في هذه المسألة لا يعني ترك الحذر من الشيطان، وترك الوسائل التي تبعد شروره ووسوسته؛ لأن الأخذ بالوسائل المشروعة من الأمور المطلوبة، ولكن الاعتماد للوصول إلى المطلوب لا يكون عليها، وإنما يكون بالتوكل على الله تعالى، فعلى الدعاة تفهيم المدعوين بما قلناه، أي بالحذر من الشيطان باتخاذ الوسائل الوقائية المشروعة منه مع التوكل التامّ على الله في الخلاص من شر الشيطان.

٣٢ - خامساً - ضرورة التوبة والاستغفار:

عندما وقع آدم وزوجه في المعصية، ناداهما ربُّهما مذكّراً لهما بنهيه عن الأكل من الشجرة التي عينها لهما، فسارع آدم وزوجه إلى الاعتراف بالذنب طالبيْن المغفرة والرحمة من ربهم الكريم، قال تعالى: ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٧٠].
هكذا: اعتراف سريع بالذنب، مقرون بندم شديد، مفهوم من قولهما: ﴿ظلمنا أنفسنا﴾، وتوبة خالصة مقرونة برجاء قبولها، لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين، وهذا يفهم من قولهما: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. فإذا كان آدم وزوجه لم يستغنيا عن التوبة، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوم منزلتهما، فالواحد منا أولى بذلك[٧١]. وقد بادرا إلى التوبة دون إبطاء، وهكذا يجب أن يفعل المسلم إذا وقع في المعصية، وعلى الدعاة تفهيم الناس ذلك وتبصيرهم به. وشيء آخر نستفيده من توبة آدم وزوجه، أن المسلم يمكن أن يصدر منه العمل السيء، والمخالفة لأمر الله، أي الوقوع في الذنب، ولكن الشأن بالمسلم الإسراع إلى التوبة، جاء في الحديث الشريف «كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» والله تعالى يحب العفو والتوبة على عباده، والمغفرة لذنوبهم، جاء في الحديث النبوي الشريف «لولا أنكم تذنبون فتستغفرون لَخَلَقَ الله تعالى خلقاً يذنبون فيستغفرون

---

(٧٠) سورة الأعراف الآيتان ٢٢و٢٣.

(٧١) تفسير الرازي ج٣ ص٢٦.

فيغفر لهم» ذكره الرازي في تفسيره، وقال عنه: رواه مسلم[٧٢]. وفي الحديث القدسي «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا الذي أغفر الذنوب ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم»[٧٣]. فعلى الدعاة تبصير المدعوين بذلك مع تحذيرهم من سوء فهم هذه الأحاديث النبوية الشريفة، فالذنوب ليست مطلوبة، ولا يُؤمَر بها المسلم، و لكن وقوعها منه غير مستغرب؛ لأنه غير معصوم. فإذا كان صدور الذنب منه، لكونه غير معصوم، فعليه التوبة، والله يحب الراجعين إليه، المقرين بذنوبهم، الطالبين والراجينَ رحمة ربهم. والله عفو غفور يحبُّ العفو، ويغفر لعباده المذنبين التائبين، وهذا من مقتضى كونه تعالى «غفوراً» و«رحيماً». والإنسان خلق على نحوٍ يمكن صدور الذنب منه، والله شاء أن يخلقه هكذا، أي على هذه الصفة، وبهذه الكيفية، التي يمكن أن يصدر عنها الذنب.

٣٣- المبادرة إلى التوبة:

وعلى الدعاة تذكير المسلمين بضرورةِ المبادرة إلى الاستغفار والتوبة دائماً، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قوله: «توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في كُلِ يوم مائة مرة»[٧٤]. وتعليل المبادرة إلى التوبة، أن الذنب كالوسخ في الثوب، فإن لم تسارع إلى إزالته، فقد يصعب عليك إزالتُهُ مستقبلاً، لتمكنه واستقراره في الثوب، وكذلك الذنب يؤثر في قلب الإنسان، فإن لم يعاجل بالتوبة التي هي بمثابة الغسل للثوب الوسخ، فقد يتمكن هذا الذنب في القلب، ومن آثار تمكنِهِ قسوة فيه، وجرأة على ارتكاب ذنب آخر، وفي الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها». ولا شك أن التوبة أمرٌ حسن، فإذا وردت على السيئة التي عملها الإنسان، وتركت أثراً في قلبه، فإن هذه الحسنة - التوبة - تمحو أثر السيئة، فيرجع القلب إلى قوته وسلامته. وقد يكون من المفيد أن يذكر الدعاة للناس وهم يتكلمون عن قصة آدم، أو يتكلمون في موضوع الاستغفار والمبادرة إلى التوبة، أن يذكروا لهم أن التوبة تقوم على ثلاثة عناصر: الندم على اقترافِ الذنب، والإقلاع عنه حالاً، والعزم على

---

(٧٢) تفسير الرازي ج٣ ص٢٥.
(٧٣) تفسير الرازي ج٣ ص٢٥.
(٧٤) تفسير الرازي ج٣ ص٢٣.

عدم العود إليه مستقبلاً. وينضم إلى هذه الثلاثة عنصرٌ آخر هو ردّ الحقوق إلى أصحابها إن كان الذنب يتعلق بغصب حقوق الآخرين.

وعلى الدعاة تفهيم المسلمين بأن التسويف والتأجيل في التوبة من خداع الشيطان ومكايده، وربما ألقى في نفس الشاب الذي استزله بأنه شاب والأيام أمامه كثيرة، وأن تأخير التوبة لا يضره، بل سيعطيه فرصة لإشباع شهواته ورغباته ثم بعد ذلك يتوب. فهذا وأمثاله من نفث الشيطان، فعلى الدعاة تحذير المسلمين من ذلك بأن يذكروهم بأنَّ أجل الإنسان - أي وقت موته - مجهول، وقد يحضره الموت وهو متلبس بالآثام ولا يجد فرصة ليتوب؛ لأنَّ الموت قد يحل بالشاب قبل الشيخ الهرم، بل إن الموت في الشباب أكثر بدليل أننا لو أحصينا عدد الشيوخ في قرية لوجدناهم أقل عدداً من الشباب، وهذا يعني أن الذين نجوا من الموت من الشباب حتى صاروا شيوخاً كانوا أقل ممن حصدهم الموت وهم شباب، ثم يقال على سبيل التمثيل والتوضيح: إن الذنوب والمعاصي كالسموم في بدن الإنسان، وكالأقذار على جسم الإنسان، فهل من الحكمة ترك السموم في البدن مع القدرة على إخراجها؟ وهل من الحكمة ترك الأقذار على جسم الإنسان مع القدرة على إزالتها؟ والذنوب والمعاصي أشد ضرراً على الإنسان من هذه السموم والأقذار، لأن غاية ما تفعله أنها تمرض الإنسان، أو تميتُه، والموت عاقبة كل حي. أما الذنوب والمعاصي فإنها تمرض القلب، وتقسيه، وتمحق نوره، وتفقده حساسيته وقدرته على رؤية الحق، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[75]، أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية. والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ويرينُ عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه، ويحجبه عن النور، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتىٰ يتلبد ويموت[76]. وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وقال الحسن البصري: الرَّيْن هو الذنب على الذنب حتىٰ يعمى القلب

---

(٧٥) سورة المطففين، الآية ١٣.

(٧٦) تفسير سيد قطب ج٦ ص ٣٨٥٧-٣٨٥٨.

فيموت[77] . وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ، فإنه لا يستطيع التوبة حتىٰ لوأرادها؛ لأنه لم يعد يندمُ على معصية فعلها، أو هو متلبس بها، وليست له قدرة على الإقلاع عنها حالاً، ولا عزم لديه على عدم العود إليها مستقبلاً، وهذه الثلاثة هي أركان أو عناصر التوبة، فكيف يمكنه أن يتوب؟

المطلب الثاني

ما يستفاد مما يتعلق بإبليس

٣٤- أولاً - الاحتراز من الحسد والكبر:

ذكرنا فيما سبق أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم حسداً له وتكبراً عليه. قال قتادة: إن هذا السجود كان كرامة كرمً الله بها آدم، ولكنَّ إبليس حسد آدم على هذا التكريم[78]، فحمله هذا الحسد على الاستكبار والفسوق عن أمر ربه[79]. قال الإمام الرازي: إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر[80]،فكان بدء الذنوب: الكبر، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربه بالسجود لآدم، ولهذا جاء التحذير من الكبر، والوعيدُ للمتكبرين. قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»[81] وفي كتاب الله العزيز آيات كثيرة تذمُ الكبر والمتكبرين، وتبين سوء عاقبتهم يوم الدين.

وحقيقة الكبر: بطر الحق وغمط الناس، كما جاء في الحديث النبوي الشريف وبطر الحق: رده ودفعه، وعدم الخضوع له وعدم الانقياد له استخفافاً به، وترفعاً عليه، وعناداً له. وغمط الناس أو غمصهم: احتقارهم والازدراء بهم[82]. ومن أعظم مظاهر بطر الحق رفض أوامر الله، والتمرد عليها؛ لأن ما يأمر

---

(٧٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٨٥.

(٧٨) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٠.

(٧٩) تفسير المنار ج٨ ص٣٣٠.

(٨٠) تفسير الرازي ج٦ ص٢٢٧.

(٨١) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٨.

(٨٢) تفسير المنار ج٥ ص٩٦، ج٨ ص٣٣٤.

به الله هو الحق، فالتمرد على هذا الحق ودفعه يمثل حقيقة الكبر.

وإذا كان ما أوقع إبليسَ في معصية الله تبارك وتعالى هو الحسد والكبر، فإنَّ على المسلم أن يحترز منهما[٨٣]، وأن يفحص قلبه دائماً خوفاً من أن يلقي الشيطان فيه شيئاً من جراثيم الحسد أو الكبر، فيحمله ذلك على بطر الحق وغمط الناس حقوقهم.

٣٥- واجب الدعاة وجماعتهم المسلمة:

وعلى الدعاة وهم يدعون الناس إلى الإسلام، ويبصرونهم بحقائق الإسلام ومعانيه، أن يبينوا لهم تحريم الحسد وأضراره وشروره، ولذلك خصه الله بالذكر في جملة ما يستعاذ بالله منه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٨٤].

كما أن على الدعاة أن يبينوا للناس حقيقة الكبر ومظاهره وآثاره، وأنه بعيد عن أخلاق المسلم إلى غير ذلك مما يتعلق به.

وعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، التي تدعو إلى الله تعالى بصفة جماعيّة، أن تولي موضوع الحسد والكبر ما يستحق من أهمية واعتبار، ليس فقط فيما تبينه لعموم المسلمين من حكم الإسلام في الحسد والحاسدين، والكبر والمتكبرين، وإنما عليها أن تفقه أعضاءها والمنتسبين إليها من مؤيدين وأنصار ودعاة بمعاني الحسد والكبر وبيان تحريمهما القاطع في الإسلام، وأنه كتحريم الخمر والميسر. وعليها أيضاً أن تحذرهم من الوقوع في الوهم الباطل: وهو أن أعضاء الجماعة، وهم دعاة إلى الله أو أنصار لهم أو مؤيدون لهم، لا يتصور أن يقع فيما بينهم تحاسد، فهذا وهم باطل؛ لأن الحسد والتحاسد وقع بين إخوة يوسف حتى حملهم الحسد على التآمر على أخيهم يوسف، وهم كلهم يعيشون في كنف أبيهم يعقوب نبيِّ الله، وكادوا أن يقتلوه، ولكنهم تساهلوا معه فألقوه في غيابة الجب، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى. والحسد وقع أيضاً بين ابني آدم

---

(٨٣) تفسير الرازي ج٢٦ ص٢٢٧.

(٨٤) سورة العلق.

حتى حمل أحدهما على قتل أخيه، كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى. فليس أعضاء الجماعة المسلمة بمعصومين من الحسد، وليسوا هم في نجوة منه، والشيطان يحوم حولهم ليوقعهم فيه.

وسرّ المسألة أن الحسد يقع عادة بين المتعارفين المشتركين في شيءٍ ما، سواء كان هذا الشيء قرابة أو صداقة أو جواراً أو حرفة أو مهنة أو غيرَ ذلك مما يقع به الاشتراك، فيريد كل واحد من المشتركين أن يستأثر بما حصل عليه غيره من هؤلاء المشتركين، حتى لا يمتاز عليه بشيء مما يجعله في مرتبة أعلى منه. ولهذا نجد الحسد بين الأقارب أكثر من الحسد فيما بين الأباعد، ونجد الحسد بين أصحاب المهنة الواحدة، ولا نجده بين أصحاب المهن المختلفة، ونجد الحسد بين العلماء علماء الدين - مع الأسف - ولا نجده فيما بينهم وبين أصحاب الاختصاصات أو المهن الأخرى.

وهذا الذي أقوله ينطبق على أعضاء الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إلى الله، فهم مشتركون في انتسابهم إلى هذه الجماعة، وفي عملهم في مجال الدعوة إلى الله، فيقع الحسد فيما بينهم في غفلة من إيمانهم، وتسلط من الشيطان عليهم، فيريد أحدهم - حسداً من عند نفسه - أن لا يبزه غيره، ولا يتقدم عليه في مجال الدعوة، وإن كان في تقدمه عليه خير كثير، وإقبال من الناس شديد على الدعوة، فهو - أي هذا الحاسد - لا يريد أن يعلو اسم غيره من الدعاة، ولا أن ينتشر صيته بين الناس، ولا أن يتبوأ مسؤليات كبيرة في الجماعة. كل ذلك يحسه من نفسه، ويسعى إلى عدم حصوله لأخيه الداعية حسداً من نفسه، وإن ادعى غير ذلك. فلا بد إذن للقائمين على الجماعة من تبصير أعضائها بخطر الحسد، ومن آثاره التي ذكرنا بعضها، ومن احتمال أن يدب دبيبه في قلوبهم وهم عنه غافلون، وأن يطلبوا منهم أن يراقبوا ما في قلوبهم، ويبحثوا في دوافعهم في مواقفهم مما تقرره الجماعة فيما تعهد به من أعمال ومسؤولياتٍ لأعضائها، وهل أنهم في هذه المواقف يصدرون عن نظر شرعي، أم أن وراءه حسداً يدفعهم إلى هذه المواقف؟

وأما الكبر، فهو أيضاً، يمكن أن تتسلل جرثومته إلى نفوس أعضاء الجماعة فيقعون في بعض أسوائه. وقد قلنا: إن الكبر في جوهره: بطر الحق وغمط الناس

حقوقهم. ومن مظاهر بطر الحق الذي يقع فيه عضو الجماعة: دفع الحق الذي يوجبه عليه الشرع باعتباره فرداً في الجماعة وعضواً فيها. وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن معظم ما يحدث بين الجماعات الإسلامية من تناحر، أو بغضاء، أو تباعد سببه الحسد والكبر. وإن معظم ما يحدث بين أعضاء الجماعة الواحدة من انشقاقات، واتهامات وخروج من الجماعة سببه الحسد والكبر، وعلاج ذلك: المكاشفة أولاً، والخضوع لحكم الشرع ثانياً، وتجريد العمل من شوائب الرياء بجعله خالصاً لوجه الله تعالى ابتغاء مرضاته، وليس ابتغاء عَرَضٍ من أعراض الدنيا. وأعني بالمكاشفة: مكاشفة القائمين على الجماعة لجميع أفرادها بما يبدو منهم أنه علامة على وقوع الحسد، أو الكبر في نفوسهم، وأنْ لا بد من تحكيم الشرع في هذا الذي ظهر منهم من أقوال، أو أفعال، أو مواقف معينة من قرارات الجماعة فيما تعهده من مسؤولياتٍ لبعضهم، حتى يتبين أن ما صدر منهم لا يخفي وراءه حسداً، ولا يكون الدافع له حسداً أو كبراً، والطلب منهم تنقية نياتهم وقصودهم دائماً؛ لتبقى أعمالهم خالصة لوجه الله.

٣٦- ثانياً - لا رأي لأحد مع وجود النص ولا تعقيب عليه:

من قواعدنا الفقهية: «لا اجتهاد في معرض النص» أي: إذا وجد النص الشرعي وهو قول الله ورسوله القطعي الثبوت والدلالة، فلا رأي ولا قول لأحد في موضوع هذا النص من جهة جواز التعقيب عليه، أو المجادلة فيه، أو التوقف في تنفيذه، أو تعليق هذا التنفيذ على شيء آخر، كموافقته لهوى النفس أو رضا الناس، أو الاجتهاد في تعطيله، أو عدم الخضوع له بالحيلة أو الاستثناء، وإنما الواجب على المسلم إزاء هذا النص قبوله فوراً بكامل الرضا، والعزم على تنفيذه، والمبادرة إلى هذا التنفيذ دون تردد ولا ضيق ولا حرج ولا كراهية، وبهذا يتحقق في المسلم إسلامه، ويصدق عليه قول الله في المؤمنين: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٨٥).

٣٧- ومرد هذه القاعدة «لا اجتهاد في معرض النص»:

هو أنَّ دين الله الواحد الذي أرسل به جميع رسله هو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(٨٥) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٨٦). كما سنبينه فيما بعد. ومعنى الإسلام كما قلنا ونقوله هنا ونكررالقول فيه: هو الاستسلام لله رب العالمين عن رضا واختيار، لا عن كره واضطرار، وبدون قيد ولا شرط، ولا ضيق ولا حرج، ومظهر هذا الاستسلام لله رب العالمين: تلقي أوامر الله بهذه الكيفية، وإن أي رفض أو تردد لهذا التلقي بهذه الكيفية هو الكفر الصريح الذي لا يحتمل التأويل، وإن ادعى صاحبه أنه مجتهد في موقفه هذا الرافض، أو المتردد، إذ لا اجتهاد في معرض النصّ.

٣٨- كفر إبليس في رفضه أَمْرَ الله:

وإبليس عليه اللعنة وقع في هذا الكفر الصريح في رده أمر الله الصريح، فقد أمره الله تعالى بالسجود لآدم، وهو أمر له صريح بالسجود، وهو أمرٌ قطعي الثبوت، وقطعي الدلالة، وصدر من الله تعالى مباشرة، فرفض إبليس تنفيذه، كما جاء في صريح الآيات التي ذكرنا بعضها فيما سبق، فاستحق بذلك الرفض الطردَ والإبعادِ من رحمة الله والخلودَ في النار.

٣٩- إبليس عارض الأمر وعقّب عليه:

ولم يكتف إبليس بالمعصية، ومخالفة أمر الله، بل عارضه وعقّب عليه بادعائه وزعمه أن هذا الأمر لا ينبغي أن يُوَجه إليه؛ لأنه خير من آدم في زعمه وميزانه، فهو إذن في زعمه أفضل منه، فلا ينبغي أن يسجد له، وإنْ أمره اللهُ بذلك. قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(٨٧). وجوابه لعنه الله من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة بحجة أنه لا ينبغي أن يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟(٨٨) وهذا أقصى ما يُتَصور من التمرد على الله وأمره، فإنه لعنه الله عصى أمر الله، ولما سأله ربه عن سبب امتناعه عن السجود لم يعتذر ولم يعترف بمعصيته ولم يطلب العفو من الله، وإنما أصرَّ على عصيانه، وجادل ربَّهُ، وعقَّب على أمره، وجاء

---

(٨٦) سورة آل عمران، الآية ١٩.

(٨٧) سورة الأعراف الآية ١٢.

(٨٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٣.

بتبرير لعصيانه بأنه خيرٌ منه، وأنَّ مقتضى هذا التبرير بزعمه أنه لا ينبغي أن يؤمر بالسجود لآدم. ومقتضى ذلك أنه ينسب إلى الله عز وجل أنه يأمر بما لا يصح الأمر به. وهنا نلحظ الفارق العظيم بين موقف آدم عليه السلام وبين موقف إبليس اللعين. فآدم عليه السلام لما زلت به قدمه، ووقع في الخطيئة، وعاتبهما ربهما ووبخهما على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٨٩). سارع آدم وزوجه إلى الاعتراف بالذنب، والتوسل إلى الله تعالى بأن يغفر لهما زلتهما، ويتوب عليهما، لئلا يكونا من الخاسرين، قال تعالى حكاية عما قالاه في دعائهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٩٠).

٤٠- ما يجب على الدعاة والجماعة المسلمة:

وما ذكرناه وبيناه في شرحنا لقاعدة «لا رأي مع وجود النص ولا تعقيب عليه» يلزم الدعاة والجماعة المسلمة تبيينَهُ لمن يدعوهم من المسلمين، وأن يجعلوه من مواضيع الدعوة ولوازم التبليغ. وعلى الجماعة المسلمة أيضاً أن تربي أفرادها على الطاعة المطلقة لأوامر الرب جلّ جلاله، سواء عرفوا حكمتها أو لم يعرفوها، وأن لا يعلقوا طاعتهم لها على موافقتها لما تهواه أنفسهم، أو على ما يهواه الناس، أو على أي شيء آخر، وأن يُطَهِّروا نفوسَهم من أي معنى من معاني الاعتراض والتعقيب على شرع الله سواء كان هذا التعقيب وذاك الاعتراض بلسان الحال، أو بلسان المقال. إنَّ تربية الجماعة المسلمة أفرادها على هذا الطاعة المطلقة لشرع الله المبّرأةِ من كل اعتراض، أو تعقيب، ضرورية جداً لتكوين الجماعة الربانية ذات الشخصية الإسلامية القادرة على النهوض بواجباتها نحو الإسلام والمسلمين.

٤١- ثالثاً - ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لا تبرر مخالفة الشرع:

عندما سأل الله تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم علّل ذلك بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وفصّل هذه الخيرية بقوله لعنه الله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

---

(٨٩) سورة الأعراف الآية ٢٢.

(٩٠) سورة الأعراف الآية ٢٣.

فإبليس تكبر على آدم ولم يسجد له؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه، ومعنى ذلك في رأي إبليس أنه أشرف منه في الأصل والنسب، فكأنه يقول لعنه الله: فكيف أسجد له، وكيف أتواضع له[91].

٤٢- حجة إبليس عليه لا له:

وحجة إبليس في استكباره وعدم امتثاله لأمر ربه حجة داحضة، وهي حجة عليه وليس له؛ لأنه احتج بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وفي هذا الجواب ضروب من الجهل الفاضح ما أوقع اللعينَ فيها إلا حسدُهُ وكبرُهُ، فإنهما يعميان البصائر، ومن دلائل جهله الذي انكشف بجوابه ما يأتي[92]:

أولاً - اعتراضه على أمر ربه وخالقه فيما لا يوافق هواه، وهذا كفرٌ لا يقع فيه من يؤمن بالله؛ لأن الشأن في أمر الله جل جلاله أن يطاع مطلقاً، والشأن بالمؤمن بالله أن يطيعه مطلقاً.

ثانياً - احتجاجه على ربه بما يؤيد اعتراضه، والشأن بالمؤمن المذعن لربه ألاَّ يحتج على ربه في شيء، بل يعلم أنَّ لله الحجةَ البالغةَ.

ثالثاً - جعل - لعنة الله - امتثال أمر الرب مشروطاً باستحسانه له، وموافقته لرأيه وهواه، وهو رفض لطاعة الله، وترفع عن مرتبة العبودية لله، ووضع لنفسه موضع الند لله يجادله ويخاصمه، وهو في حكم الدين كفر.

رابعاً - استدلال إبليس على الخيرية بالمادة التي كان منها تكوينه وخلقه استدلالٌ باطلٌ وجهل فاضح ظاهر، فإن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من مارج من نار، وهو اللهب المختلط بالدخان، ولا شك في أَنَّ النور خير من النار، وقد سجد الملائكة وهم مخلوقون من النور امتثالاً لأمر الله، فكان هو أولى بالسجود.

خامساً - وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن خيرية الشيء تابعة للمادة التي هي أصل جنسه، فلا نسلّم أن النار خير من الطين، فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات، أو بالواسطة، وهي خير من النار بكل نوع

---

(٩١) تفسير الرازي ج٢١ ص١٣٦.

(٩٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٠٣، وتفسير المنار ج٨ ص٣٣٠-٣٣٢.

من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار أو لمارجها مثل هذه المزايا، ولا ما يقرب منها.

سادساً - إن إبليس غفل عما خصّ الله به آدم من خلقه بيده، والنفخ فيه من روحه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، وجعله بتلك المزايا أفضل من أولئك الملائكة، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة، وبالطاعة لله رب العالمين.

٤٣ - حجة المبطل تكون دائماً عليه وليست له:

هذا وإني ذكرت ما في احتجاج إبليس على معصيته من جهالات؛ لأبين فقط أنَّ كل مبطلٍ لا يأتي بحجةٍ على باطلةٍ إلاَّ كانت تلك الحجّةُ عليه لا لَهُ. ويكفي في بطلان أي احتجاج يقدمه إبليس على عصيانه، أنه احتجاج باطل، لأنه يعترض به على أمر الله جل جلاله، وهو ربه وخالقه، وحق الله أن يطاع مطلقاً، وواجب العبد أن يطيعه مطلقاً، وحتى لو فرضنا جدلاً أن إبليس خير من آدم فهذا لا يعفيه من واجب طاعة أمر الله بالسجود لآدم؛ لأن طاعته أَمْرَ الله واجبة على المأمور غير معلقة على أي شيء آخر.

٤٤- عبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لا تقال في الجماعة المسلمة:

الجماعة المسلمة نصبت نفسها للدعوة إلى الله، وإن أعضاءها انتسبوا إليها لهذا الغرض نفسه، فهي جماعة الدعوة والدعاة إلى الله، فيجب أن تشيع فيها وفي أفرادها معاني الإسلام، وخلق الإسلام، والوقوف عند حدود الله في أوامره ونواهيه حتى يمكنها أن تجذب الناس إليها، وتعطيهم القدوة الحسنة في سلوكها وسلوك أفرادها.
فلا يجوز أن يقال فيها ما نهى الله عنه، وما قاله إبليس في احتجاجِهِ الباطل على الله رب العالمين، وهو قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ لأن هذه العبارة بما تدل عليه تخالف معاني الإسلام، وتكون مدخلاً للشيطان؛ لإيقاع المسلم فيما حرمه الله عليه. وبيان ذلك بإيجاز فيما يلي:

٤٥- في العبارةِ تزكية للنفس:

إنَّ عبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ تزكية لنفس قائلها، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(٩٣)، فلا يليق بالداعي إلى الله أن يزكي نفسه، ويفضلها على غيره، فالله وحده هو الذي يزكي الأنفس، ويعلم من هو أفضل من غيره.

٤٦- في العبارةِ تكبر:

وفي عبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ معنى التكبر لدى قائلها على المقولة له هذه العبارة، والتكبر ليس من صفات المسلمين؛ لأن من معانيه أو من موجباته رد الحق واحتقار الخَلْقِ، فكيف يتخلق الدعاة إلى الله بصفة التكبر، وهم يدعون الناس إلى معاني الإسلام؟ و من هذه المعاني نبذ التكبر، ولزوم التواضع، وقد أمر الله به رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٩٤). فلا يليق بالمؤمن وهو يدعو إلى الله، وقد انضم إلى الجماعة المسلمة أن يتكبر على إخوانه الدعاة في هذه الجماعة. وقال تعالى في صفات المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه إنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٩٥)، قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «هذه صفات المؤمنين الكمّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾»(٩٦).

٤٧- في العبارة مدخل للشيطان:

وفي عبارة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ مدخل للشيطان، وثغرة يتسلل منها إلى صفوف الجماعة، فيفرقها ويكدر صفو ودها وإخائها؛ لأن هذه العبارة إذا قيلت في الجماعة، أو استقر معناها في قلوب أعضائها، فإن قائلها سينظر إلى تصرفات الجماعة والقائمين عليها في ضوء هذه الخيرية التي نسبها لنفسه، ومن مظاهر هذا النظر الكليل أنه يعترض على توزيع الأعمال في الجماعة، وإسناد الإمرة فيها إذا تجاوزه هذا التوزيع والإمرة فيها ولم يُعطَ من هذه الأعمال ما يعتقده هو الأحق به من غيره بناء على هذه الخيرية التي يراها لنفسه، إنه أصبح يرى في ضوء هذه الخيرية

---

(٩٣) سورة النجم، الآية ٣٢.

(٩٤) سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

(٩٥) سورة المائدة، الآية ٥٤، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ... ﴾ الآية.

(٩٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٧٠.

لنفسه أن توزيع الأعمال والإمارة فيها داخل الجماعة كمناصِبِ الدولة، ووظائفها، وليس كخدمات يُكَلَّفُ بها أعضاء الجماعة حسب اجتهاد القائمين عليها خدمة للإسلام، وقد يحمله إحساسه بهذه الخيرية على التمرد على الجماعة وأوامرها، والانشقاق عنها إذا لم يُعطَ ما يريد من مسؤوليّةٍ وإمرة وقيادة في الجماعة. ولا شك أن الشيطان سيجد ثغرة واسعة للولوج منها إلى صفوف الجماعة؛ لتفريقها وإشاعة الهوى فيها إذا وجد فيها من يقول ويردد هذه العبارة ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾.

٤٨- واجب الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة:

فعلى الجماعة المسلمة أن لا تسمح لعبارة ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ أن تقال فيها بلسان المقال، أو بلسان الحال، وأن تكثر من تذكير أفرادها بضرر هذه العبارة الخبيثة، وحمل معناها، وأن تكثر من ضرب الأمثال لتوضيح ما تقول. وعليها أن تبين لهم بأن هذه الخيرية أو الأفضلية حتى لو كانت ثابتة، أو ظاهرة لأحدهم، فهي لا تعني أبداً تمرده على أمر الجماعة والقائمين عليها إذا كان في هذا الأمر تأمير للغير عليه أو تكليفه بعمل شيء له. ألا يرى أن رسول الله ﷺ جهز جيشاً قبيل وفاته؛ لتسييره إلى أطراف الشام، لإرهاب الروم، وقد أمّر ﷺ على ذلك الجيش أسامة بن زيد وهو شاب، وفي الجيش عدد كثير من كبار المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب، ولم يعترض أحد منهم على هذا التأمير لأسامة أو يقل: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فكيف يؤمر عليّ؟ وقد أبقى الخليفة أبو بكر رضي الله عنه إمرة أسامة على هذا الجيش، وأصرّ على تسييره إلى جهته، وكل ما فعله أبو بكر رضي الله عنه أن استأذن أسامة بن زيد، باعتباره قائد الجيش، أن يبقي له عمر بن الخطاب ليستعينَ به على أمور الدولة.

٤٩- رابعاً - لا فخر بالأصل والنسب:

ومما يستفاد للدعوة والدعاة، وعلى الجماعة المسلمة أن تعيه وتبلغه لأعضائها ولعموم المسلمين، بما يتعلق بإبليس، أنه لعنه الله إنما تكبر على آدم؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب، فكيف أسجد له، وكيف أتواضع له؟[٩٧]. فليحذر المسلم وليحذر الدعاة

---

(٩٧) تفسير الرازي ج٢١ ص١٣٦.

إلى الله أن يتسرب إلى نفوسهم شيء من الفخر بأصلهم ونسبهم؛ لأن الإسلام يقرر على لسان رسوله ﷺ «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، ولأن قيمة الإنسان وقدره بقدر إيمانه وعمله الصالح سواء كان من ذوي الأنساب والأصول العالية، أو كان من ذوي الأنساب والأصول الواطئة النازلة. وكل من ترفع على غيره وازدراه بسبب أصله فهو متبع لطريقة إبليس وعادات الجاهلية.

المطلب الثالث

ما يستفاد من طبيعة العلاقة بين آدم وإبليس

٥٠- إبليس هو العدو لآدم وزوجه وذريتهما:

إبليس هو العدو لآدم؛ لأنه بسبب امتناعه عن السجود له طرده الله من رحمته، ولعنه فصار عدوّاً لآدم، ثم سحب إبليس هذه العداوة إلى زوجة آدم وذريته؛ لوجود صلة بينهما وبينه وأعني بها صلة الزوجية بالنسبة إلى حواء، وصلة البُنوَّةِ بالنسبة لذريته. وقد أخبرنا الله تعالى بعداوته لآدم وزوجه وذريته في القرآن الكريم في آيات كثيرة نذكر منها ما يلي:-

أولاً - وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٩٨] وإبليس اسم للشيطان[٩٩]، وهو عدو لآدم وزوجه بصريح هذه الآية الكريمة.

ثانياً - وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا.. ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[١٠٠]، فالشيطان عدو لآدم وزوجه.

ثالثاً - ومن إخبارات الله تعالى لنا بعداوة الشيطان لذرية آدم قوله تعالى: ﴿ قَالَ

---

(٩٨) سورة طه، الآيتان ١١٦ و١١٧.

(٩٩) صفوة التفاسير ج١ ص٥٠ وسمي الشيطان شيطاناً لبعده عن الحق وتمرده: تفسير القرطبي ج١ ص٩٠.

(١٠٠) سورة الأعراف الآيات ٢٠-٢٢.

﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١٠١]، والمراد بـ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام[١٠٢]. فإبليس لعنه الله لعداوته لذرية آدم يسعى إلى إغوائهم، وتزيين الباطل لهم.

رابعاً - قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١٠٣]، أي لأُضلنَّ ذرية آدم إلا قليلا[١٠٤] وما إضلاله لذرية آدم إلا لعداوته لهم.

٥١- عزم إبليس على إضلال بني آدم:

وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني آدم وإغوائهم، وطلب من الله تعالى إمهاله وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم وصمم عليه، مما يدل على شدة عداوته لآدم وبنيه، ونذكرُ فيما يلي بعض هذه الآيات التي تكشف عن عزمه الآثم، وتصميمه الفاجر على إضلالِ وإغواء بني آدم.

أ-قال تعالى لإبليس وقد امتنع عن السجود لآدم: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[١٠٥].

ب- وقال تعالى حكاية عن قول إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[١٠٦].

---

(١٠١) سورة الحجر الآية ٤٣.

(١٠٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥١.

(١٠٣) سورة الإسراء، الآية ٦٢.

(١٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩.

(١٠٥) سورة الأعراف الآيات ١٣-١٧.

(١٠٦) سورة الحجر الآيات ٣٦-٤٠.

٥٢- عداوة الشيطان ثابتة لا تتغير:

مما ذكرناه يتبين بوضوح أن طبيعة علاقة الشيطان بالإنسان هي عداوته له، ولا يمكن تبديلُها ولا تغييرها، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما بإزالة هذه العدواة؛ لأن الشيطان لا هَم له ولا عمل ولا غرض في حياته سوى إضلال الإنسان، وحرفه عن الحق، ودفعه إلى معصية الله تعالى.

٥٣- عداوة الشيطان للإنسان حقيقية:

ومن أجل ذلك وصف الله تعالى الشيطان بأنه (عدو) للإنسان، والله جلّ جلاله عندما يصفه بهذا الوصف، فهو وصف دقيق وصادق ومنطبق على الشيطان بكل ما تعنيه كلمة (عدو)، وليس في إطلاقها على الشيطان أي معنى مجازي، أو معنى فيه مبالغة، وإنما هو وصف وإطلاق مطابق لواقع الشيطان، ولطبيعته العدوانية للإنسان، وبالتالي فالشيطان أحق المخلوقات بوصفه العدو للإنسان، وإطلاق هذا الاسم عليه. ومما يزيد في خطورة عداوة الشيطان للإنسان قدرته على الالتصاق بالإنسان، ونفث وسوسته في قلبه، جاء في الحديث النبوي الشريف «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما أنه يرانا هو وجنوده من حيث لا نراهم قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾(١٠٧). والعدو يكون أشد ضرراً وخطراً إذا كان يأتينا ويصوّبُ سهامه نحونا من حيث يرانا ولا نراه.

٥٤- الأمر باتخاذ الشيطان عدواً:

ولما كان الشيطان عدواً للإنسان، وقد يغفل عن عداوته أو لا يهتم بها فإن الله تعالى أمرنا أمراً تشريعياً تكليفياً باتخاذه عدواً لنا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(١٠٨)، أي فعادوه ولا تطيعوه(١٠٩). ومن لوازم كونِ الشيطان عدواً لنا أن لا نتولاه، أي لا ننصره بطاعته ولا ننتصرُ به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ

---

(١٠٧) سورة الأعراف من الآية ٢٧.

(١٠٨) سورة فاطر الآية ٦.

(١٠٩) تفسير القرطبي ج١٤ ص٣٢٣.

﴿مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[110].

٥٥- ضرورة الحذر من الشيطان:

ومن لوازم أو مقتضيات عداوة الشيطان الثابتة لنا أن نحذره؛ لأنَّ العدو يُحْذَرُ، ولا يُؤْمَنُ شرُه، ولا يُطمأنُّ له؛ لأنه يريد الإضرار والإيذاء بمن يعاديه، وهذا ما يريده الشيطان بعداوته للإنسان، والإضرار الذي يريده الشيطان بالإنسان هو إضلاله وحرفه عن الدين الحق - الإسلام -، وعن طاعة الله، ولا فعل أقبح ولا أضرَّ بالإنسان من الحيلولة بينه وبين طاعة الله[111].

هذا وإن عداوة الشيطان ظاهرة بينه، ولهذا وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. قال الإمام القرطبي في تفسيره هذه الآية: «أخبر تعالى بأن الشيطان عدو، وخبره تعالى حق وصدق، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أظهر وأبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله بالحذر منه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وهذا غاية في التحذير من هذا العدو المبين»[112].

والمقصود بالحذر من الشيطان الاحتراس، والاتقاء من شروره باليقظة الدائمة، والاحتراز عن الأسباب التي تحقق غرضه في الإضلال والإغواء.

والحذر، وهو وسيلة لاتقاء شرور الشيطان، واجب شرعي؛ لأنه من لوازم اتخاذ الشيطان عدواً، ولأنه وسيلة لمنع إضلاله، أو الوقاية من هذا الإضلال، ولبقاء المسلم على طاعة ربه، وهذه كلها تدخل في حيز الواجب؛ لأنها وسيلة لواجب البقاء على طاعة الله، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وكذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ..﴾[113] الآية تحذير واضح

---

(١١٠) سورة الكهف الآية ٥٠.

(١١١) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٤١.

(١١٢) تفسير القرطبي ج٢ ص٢٠٩.

(١١٣) سورة الأعراف الآية ٢٧.

من الوقوع في إغواء الشيطان، وهذا يتضمن الأمر بأخذ الحذر المطلوب؛ لئلا يحصل مراد الشيطان، وهذا يعني وجوب الحذر منه.

٥٦- وجوب الحذر على الدعاة:

والحذر من الشيطان واجب شرعي على المسلم كما بينا، وهذا الوجوب آكَدُ على الدعاة من غيرهم؛ لأن الشيطان في غيظ شديد منهم لما يقومون به من دعوة إلى الله تعالى، وهو ما يؤذي الشيطان ويزعجه، فيبذل كل جهده للإيقاع بهؤلاء الدعاة وصرفهم عن الدعوة بأي وسيلة يستطيعها. والثغرة التي يلج منها الشيطان إلى الدعاة لصرفهم عن الدعوة هي غفلتهم عنه، وعدم حذرهم منه إما لوثوقهم من أنفسهم ومن إيمانهم، وإما لقصور معرفتهم بمكايد الشيطان. وعلاج السبب الأول وهو وثوقهم من أنفسهم وإيمانهم -فيكفي أن نذكرهم بقصة آدم وكيف استطاع الشيطان أن يستزله ويوقعه وزوجه في الخطيئة، والدعاة ليسوا أكثر إيماناً من آدم عليه السلام، قال تعالى محذراً: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ .. ﴾[١١٤]. وأما قصورهم في معرفة مكايد الشيطان، فعلاجه تدبر القرآن فيما ذكره من أساليب الشيطان وأفعاله في إغواء الإنسان، والتي سنذكر بعضها فيما بعد إن شاء الله تعالى. والذي يوقعهم فيه غالباً هو الحسد، والعجب بالنفس، والغرور والكبر، وهذه من الكبائر المهلكات التي يجب على الدعاة الحذر منها.

٥٧ - على جماعة الدعاة الحذرمن الشيطان:

وكذلك يجب على جماعة الدعاة الحذر من الشيطان ومكايده، والذي يوقعها فيه غالباً هو الحسد، والعجب بالنفس والرياء. فمن العجب الذي وقعت فيه جماعة المؤمنين ما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[١١٥] أي فاعتمدتم على كثرتكم التي أعجبتكم حيث قلتم: لن نُغلَب اليوم من قلة فلم تغن عنكم شيئاً من أمر عدوكم مع

---

(١١٤) سورة الأعراف الآية ٢٧.

(١١٥) سورة التوبة الآية ٢٥.

قلتهم[١١٦]. حيث حلّتْ بكم الهزيمة في أول المعركة، ووليتم مدبرين، ثم رجعتم إلى المعركة فكان النصر والظفر للمسلمين ببركة سيدنا محمد ﷺ حيث ثبت في المعركة مع نفر قليل جداً من المسلمين، فكان ثباته ﷺ سبباً لرجوع الفارين إليه، وقتالهم للمشركين، ثم انتصارهم عليهم - فبين الله تعالى في هذه الآية أن الغلبة تكون بتأييد الله وليس بكثرة عدد المسلمين[١١٧].

٥٨- على جماعة الدعاةَ أن لا تعجب بنفسها:

وعلى جماعة الدعاة أن لا تقع في رذيلة «العجب بالنفس» لما ترى من كثرة أعضائها، ومنزلتها الرفيعة بين الناس، فتعتمد في بلوغ أهدافها على كثرة عدد أعضائها، ومكانتها عند الناس، ولا تتطلع إلى تأييد الله ونصره، فيتخلى الله عنها ويكلها إلى نفسها، ولا يمدها بتأييده فتهلِكُ. وهذا لا يعني أن جماعة الدعاة لا يجوز لها أن تحرص على تكثير عدد أعضائها، ولا على ترسيخ مكانتها في المجتمع، وإنما الذي أعنيه أن لا تعجب بنفسها عندما ترى تكاثر عدد أعضائها، وعلو منزلتها في المجتمع فيصيبها الغرور والعجب بالنفس فيكون اعتمادها في بلوغ أهدافها على كثرة أعضائها، وعلو منزلتها بين الناس، فتقع في الوهم والخطأ، لأن نصر المسلمين كان بطاعتهم لله، وتأييده لهم، وليس لكثرة عددهم، ولهذا فإن من عوامل فشل الجماعة إعجابها بنفسها، ومن عوامل نجاحها المهمة اعتمادها وتوكلها على الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب الشرعية للنصر.

٥٩- وقوع جماعة الدعاة في رذيلة الرياء:

من الرياء الذي قد تقع فيه الجماعة المسلمة - بتزيين الشيطان - ما حذرنا الله منه ونهانا عن الوقوع فيه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ .. ﴾[١١٨]. أي لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً أي فخراً بالشجاعة، ورئاء الناس أي طلباً للثناءِ بالسماحة والشجاعة. ومعنى الآية: لا يكن

---

(١١٦) تفسير القاسمي ج٨ ص١٥٣.

(١١٧) تفسير القرطبي ج٨ ص١٠٠.

(١١٨) سورة الأنفال، الآية ٤٧.

أمركم رياءً ولا سمعةً ولا التماس ما عند الناس. وعليكم بإخلاص النية لله في نصر دينكم»[119]. فعلى الجماعة المسلمة أن لا تنطلق في أعمالها من منطلق طلب السمعة والرياء، وأن لا تنزلق في متابعة أهواء الناس على حساب مخالفة الشرع طلباً لثناء الناس عليها، ومدحهم لها؛ لأنها إن فعلت ذلك فقدت الإخلاص لله في عملها، وتخلى الله عنها، ووقعت في مخالفة الشرع في طلبها رضا الناس وثنائهم عليها، فيصيبها ما جاء في الأثر «من طلب رضا الناس بسخط الله أسخط الله عليه الناس ولم يرض عليه الله تعالى»؛ لأن رضا الله على عبده بقيامه بما يرضيه لا بما يسخطه.

٦٠- على الجماعة المسلمة أن تعلم أنها جماعة مسلمة:

وعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إلى الله، أن تفقه جيداً بأنها جماعة مسلمة. ومعنى كونها «مسلمة» أنها تلتزم بأحكام الإسلام في جميع أعمالها وتصرفاتها وعلاقاتها مع الآخرين، وفي المواقف التي تقفها وتأخذها إزاء الأحداث المختلفة، وأن لا تلتفت إلى ما يهواه الناس، ويريدونه منها في هذه الأمور، إذا كان ما يهوونه ويريدونه مخالفاً للشرع. إن على الجماعة المسلمة أن تجعل ما قلناه قاعدة شرعية تثبت عليها، وتعمل بمقتضاها، ولا تحيدُ عنها أبداً.

المطلب الرابع
من مكايد الشيطان للإنسان

٦١- تمهيد:

إن غاية الشيطان ومقصده ومنتهى أمله ورغبته في الحياة أن يضل الإنسان بأن يوقعه في الكفر الصريح المخرج من الإسلام، أو إلى ما هو دون هذا الكفر من المعاصي إذا لم يستطع تكفيره. وعلى أساس هذا المطلب تدور جميع أعمال الشيطان، ووسائله التي يتوسل بها إلى تحقيق غرضه، وهو إضلال الإنسان بإبعاده عن دين الإسلام، أو بإخراجه منه إن كان قد دخل فيه، أو بدفعه إلى المعاصي والآثام إن لم يستطع إخراجه من الإسلام، أو تفويت العمل الفاضل عليه بتحسين العمل المقصود لديه.

---

(١١٩) تفسير القاسمي ج٨ ص٧٢-٧٣.

ومن أفعال الشيطان ووسائله التي هي مكايده للإنسان ما أخبرنا الله به في كتابه العزيز؛ لنحذر ذلك، ولا نقع فيه، ونذكر فيما يلي بعض مكايده في فروع متتالية.

الفرع الأول

التزيين: تزيين الشيطان

٦٢- المقصود بالتزيين:

المقصود (بالتزيين) الذي يسلكه الشيطان لإضلال الإنسان، تزيينه العمل الباطل في عين الإنسان، حتى يراه حسناً جميلاً مقبولاً عنده، وهو في الحقيقة قبيح وباطل ومخالف للشرع، فيدفعه الشيطان بهذا التزيين وهذا العمل الباطل إن كان متردداً في فعله، وإلى الثبات والاستمرار عليه إن كان متلبساً به وبفعله. وقد بيّن لنا القرآن الكريم هذا الأسلوب من الشيطان، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(١٢٠). أي زين وحسّن لهم الشيطان ما كانوا يعملونه من الشرك والمعاندة والمعاصي(١٢١).

ب- وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ.. ﴾(١٢٢). أي زين لهم الشيطان أعمالهم في معاداة الرسول ﷺ والمؤمنين بأن وسوس إليهم وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس. أي من النبي ﷺ وأصحابه ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير ومعين لكم. وقد ذكر أهل التفسير في هذا التزيين وجهين:

(أحدهما): أن الشيطان وسوس لهم ذلك من غير تمثيل في صورة إنسان.

(الثاني): أنه ظهر لكفار قريش في صورة إنسان، لأنهم لما أرادوا السير إلى بدر لقتال المسلمين إن لقوهم، خافوا من بني كنانة أن يأتوهم من ورائهم، فتمثل إبليس اللعين في صورة سراقة الكناني، وقال لكفار قريش: أنا جاركم من بني كنانة، فلا

---

(١٢٠) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

(١٢١) تفسير القاسمي ج٦ ص٥٢٧.

(١٢٢) سورة الأنفال، الآية ٤٨.

يصل إليكم مكروه منهم، فقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ على الحقيقة، ومعنى الجار هنا الدافع للضرر عن صاحبه[123].

جـ - وقال تعالى حكاية عما قاله الهدهد لسليمان بشأن ملكة سبأ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[124] أي وزين لهم الشيطان أعمالهم، أي حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي عن طريق التوحيد[125].

٦٣- الابتداع في الدين من تزيين الشيطان:

ومن هذا الباب وبهذا الأسلوب، أسلوب التزيين، يزين الشيطان البدع في الدين في أعين المبتدعين، فيعملون بها، ويدعون إليها ويثبتون عليها وفي هذا ضلال لهم، وخطر عظيم عليهم؛ لأنهم بهذا الابتداع يسدون على أنفسهم باب التوبة؛ لأن من مقدمات التوبة ولوازمها أن يعرف مريد التوبة أنه يعصي الله ويخالف الشرع في عمله، فيتوب من ذلك، والمبتدع يعتقد أنه على حق، ويعبد الله في بدعته، ولا يخالف الشرع فيها، فكيف يتوب؟ ولهذا قال من قال من أهل العلم: البدعة شر من المعصية. ويريد بقوله هذا أن العاصي يرجى له التوبة؛ لأنه يعرف من نفسه أنه يعصي الله، والمأمول من المسلم أن يقلع عن معصيته، ويتوب إلى الله. أما المبتدع فإنه لا يرى نفسه يعصي الله في بدعته، فلا يتوب منها. وأيضاً فإن المبتدعين ينالهم شيء من معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[126]. قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «وهي عامة في كل من عبد الله تعالى على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطىء وعمله مردود»[127]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية، وهم يحسبون

---

(١٢٣) تفسير القاسمي ج٨ ص٧٣-٧٤.

(١٢٤) سورة النمل، الآية ٢٤.

(١٢٥) تفسير القرطبي ج١٣ ص ١٨٥.

(١٢٦) سورة الكهف الآيتان ٧٦ و٧٧.

(١٢٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٧.

أنهم يحسنون صنعاً، أي يعتقدون أنهم مقبولون بعملهم هذا عند الله(١٢٨).

٦٤- التزيين للجماعة المسلمة والدعاة:

الغالب في تزيين الشيطان للجماعة المسلمة وللدعاة، أنه يأخذ الأنماط التالية:

٦٥ - أولاً - تزيين العمل المفضول ليقدموه على العمل الفاضل، أو الواجب، كالاعتكاف في المساجد على المرابطةِ في ثغور المسلمين وكالإنفاق على زخرفة المساجد على الإنفاق على المجاهدين ومتطلبات الجهاد.

٦٦ - ثانياً - التوسع فيما يبنى على المصالح المرسلة، أو سدّ الذرائع إلى حدّ الوقوع فيما لا يجوز في الشرع.

٦٧ - ثالثاً - تزيين الشيطان الخروج على ضوابط القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الغلو، أو التقصير فيه، فمن الغلو فيه إزالة منكر يترتب عليه حتماً أو غالباً منكر أعظم منه. ومن التقصير فيه ترك النهي عن المنكر، مع مجالسة ومؤاكلة أهل هذا المنكر بحجة التلطف معهم عسى أن يقلعوا عن منكرهم مع أن التلطف لا يستلزم مجالستهم ومؤاكلتهم كأنهم أخلاء للداعية، وقد ذم الله تعالى بني إسرائيل لما وقع فيهم من مداهنة لأهل المنكر، وعدم الإنكار عليهم قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(١٢٩).

روى الإمام أحمد في معنى الآية عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، أو في أسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا، والذي نفسي بيده حتىٰ تأطِروهم على الحق أطراً». أي تعطفوهم عليه. وأخرجه أبو داود عنه، فقال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٧.

(١٢٩) سورة المائدة الآيتان ٧٨ و٧٩.

«إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . إلى قوله يَفْعَلُونَ ﴾ ثم قال ﷺ: «كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنَّهُ على الحق أطراً أو تقصرنَّهُ على الحق قصراً»[١٣٠].

٦٨- رابعاً - كما أنَّ تزيين الشيطان للجماعة المسلمة أو الدعاة قد يتجه إلى المبالغة في إعطاء الحكم الشرعي لما هو مطلوب شرعاً فعله، أو تركه، فيجعلون ما حكمه الشرعي الندب واجباً، وما حكمه الشرعي الكراهة محرماً، ثم يروحون يطلبون من الناس على وجه الحتم والإلزام عمل ما اعتبروه واجباً، وهو في حقيقته مندوب، كما يطلبون من الناس علىٰ وجه الإلزام ترك ما اعتبروه محرماً، وهو في الحقيقة مكروه، ثم يعادون ويوادون على هذا الأساس، فمن يترك مندوباً، أو يفعل مكروهاً هجروه وقاطعوه وعادوه كأنه ترك واجباً، أو فعل محرماً، وفات هؤلاء أن وصف الفعل بالوجوب أو الترك بالتحريم هو من باب التشريع، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فالواجب ما أوجبَهُ الشرع، والمندوب ما رغبّ فيه الشرع واستحبه، ولم يلزم المكلفين به، والمحرم ما حرم الشرع فعله، والمكروه ما رغب الشرع في تركه، ولم يلزم المكلفين بتركه، فلا يحق لأي مسلم أن يجعل المندوب واجباً، والمكروه محرماً، ويطالب الناس بهما على هذا الأساس، أو يعادي ويصاحب على هذا الأساس. وبهذا التزيين من الشيطان تسبب هؤلاء بتوهين رابطة المسلمين، وتفريق كلمتهم مع أن وحدتهم والحرص عليها من فروض الإسلام، فلا يجوز التفريط بهذا الفرض من أجل فعل مندوب أو ترك مكروه.

٦٩- تزيين البدع:

تزيين البدع، وهذا أيضاً قد يوقعه الشيطان في الدعاة أو في الجماعة المسلمة،

---

(١٣٠) تفسير القاسمي ج٦ ص٣٢٧- ٣٢٨.

فيبتدعون طرائق ووسائل لجلب الناس إلى دعوتهم، والسماع منهم بلا دليل شرعي على مشروعية هذه الطرائق والوسائل. مع أن القاعدة في الشرع الإسلامي: ضرورة مشروعية الغايةِ والوسيلة.

٧٠- الوقاية من تزيين الشيطان:

أ- **الوقاية من تزيين الشيطان فيما يتعلق بتزيينه المعاصي**: تكون هذه الوقاية باستحضار رقابة الله عليه وأنه لا يجوز في الشرع ولا في العقل أن يطيع المسلم عدوه الشيطان ويعصيَ ربه الرحمن، وليتذكر المسلم، وكذلك الأخ الداعيةُ والجماعة المسلمة ما حلّ بآدم وزوجه نتيجة خداع الشيطان لهما، وطاعتهما له فيما زينه لهما من الأكل من الشجرة المحرمة.

ب- **أما تزيين الشيطان الإبتداع في الدين**: فالوقاية منه تكون بالالتزام بمضمون حديث رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌ- أي مردود» فلا فائدة من الابتداع على المبتدع؛ لأن الله تعالى لا يقبل العمل إلاّ إذا كان صحيحاً وخالصاً لوجهه تعالى. والصحيح هو العمل المشروع، وليس من المشروع العمل المبتدع.

وعلى هذا فعلى الجماعة المسلمة أن تعرض أي عمل تريد القيام به، أو أي موقف تريد الوقوف عنده إزاء حدث معين، أن تعرض ذلك على الشرع، فما يقره الشرع فهو المشروع وما يرفضه فهو المرفوض، فتعمل بالمشروع، ولا تعمل بالمرفوض.

جـ- **أما الوقاية من تزيين الشيطان الخروج على قواعد القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: فتكون الوقاية في هذه الحالة بالتمسك التام بهذه القواعد وعزل الهوى عنها، والاهتداء بما جاء في الشرع بشأن هذا الواجب- واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، وضوابط القيام به.

د- **أما الوقاية من تزيين الشيطان إعطاء الحكم الشرعي للفعل أو الترك حسب تهواه النفس**: فتكون هذه الوقاية باستحضار حق الله وحده بتشريع

الأحكام ومنها وصف الفعل أو الترك بالوجوب أو التحريم أو الندب أو الكراهية أو الإباحة، فلا يحق لكائن من كان أن يشارك الله في حقه في تشريع هذه الأحكام، وعلى المسلم أن يقف عند ما شرعه الله، فلا يعطى حكم الوجوب لما هو مندوب، ولا حكم التحريم لما هو مكروه. ويرجع إلى أهل العلم للتعرف على ما هو واجب أو مندوب وعلى ما هو محرم أو مكروه.

الفرع الثاني
تخويف المؤمنين بما يخاف منه

٧١-تمهيد:

من طبيعة الإنسان ومن غرائزه خوفه مما يؤذيه، أو مما يتوقع أن يضره ويؤذيه، ومن مقتضى هذا الخوف فرارُهُ منه، وإحجامه عن فعل ما يظنه مؤدياً إلى إيذائه، أو الإضرار به. والشيطان يستغل هذه الغريزة في المسلم، وينفذ منها إلى قلبه؛ ليصرفه عما يجب عليه فعله بإيهامه أن هذا الفعل يجلب له الأذى والضرر، فيطيعه الإنسان ويترك الفعل الذي فيه صلاحه ومنفعته. وقد بيّن لنا القرآن الكريم من أمثلة كيد الشيطان واستغلاله هذه الغريزة في الإنسان تخويفه المؤمنين من الفقر، وتخويفه لهم من أوليائه، ونتكلم فيما يلي على هذين النوعين من التخويف.

٧٢- أ- تخويف المؤمنين بالفقر:

من طبيعة الإنسان ومن غرائزه أنه كثير الحب للمال قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١٣١] وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ..﴾الخ[١٣٢] والشهوات ها هنا هي الأشياء المشتهيات، ومنها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والقنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع أصناف النوائب، و(المقنطرة) للتأكيد كقولهم ألف مؤلفة. وإنما كان الذهب والفضة محبوبين؛ لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء، وبهما يحصل

(١٣١) سورة الفجر، الآية ٢٠.

(١٣٢) سورة آل عمران، الآية ١٤.

الإنسان على ما يشتهي، وما يريده من هذه الأشياء، فالمالك لهما كالمالك لجميع الأشياء[١٣٣]. وبناء على حب الإنسان للمال، فإنه يحرص على حفظه وإبقائه في يده، وزيادته وعدم القناعة بالموجود عنده وإن كان كثيراً، جاء في الحديث النبوي الشريف «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغىٰ لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب» أو كما قال ﷺ. وبسبب هذه الغريزة، غريزة حب المال وما ترتب عليها من الحرص في إمساكه والاستزادة منه يقع الإنسان في رذيلة البخل. والذي يضعف هذه الغريزة ويمنع أثرها هو (الإيمان). فإذا ضعف الإيمان قويت هذه الغريزة في الإنسان، وانفتحت ثغرة في نفسه ينفذ منها الشيطان بوسوسته وإيحائِه له بأن الإنفاق ولو كان في مرضاة الله طريقٌ إلى استهلاك المال وضياعه وبالتالي إلى الفقر الذي يفقد معه القدرة على تحقيق رغباته وشهواته، وهكذا يقع الإنسان في شباك الشيطان وخداعه فلا ينفق من ماله حيث يجب عليه الإنفاق، فيكون طائعاً للشيطان عاصياً للرحمن، قال تعالى في تخويف الشيطان للمؤمنين بالفقر: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١٣٤] والمعنى أن الشيطان يخوفكم بالفقر؛ ليمنعكم من الإنفاق في مرضاة الله تعالى، وهو مع ذلك يأمركم بالمعاصي والإنفاق فيها. والله يعدكم مغفرة منه لذنوبكم، وفضلاً منه، أي خلفاً لما أنفقتم من أموالكم وثواباً في الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو تعالى واسع قدرةً وفضلاً، فيحقق ما وعدكم به من المغفرة ومن الرزق عوض ما أنفقتم وتنفقون، عليم بصدقاتكم وإنفاقكم فلا يضيع أجركم[١٣٥]. فالشيطان يخيل للمؤمنين بوسوسته أنَّ الإنفاق في سبيل الله يُذهب المال، ويفضي إلى سوء الحال فلا بد من إمساكه، والحرص عليه خوفاً من طروء الحاجات في المستقبل[١٣٦]. فعلى المؤمن أن يطرد هذه الوسوسة بأن يتذكر قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١٣٣) تفسير الرازي ج٧ ص١٩٥-١٩٧.

(١٣٤) سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

(١٣٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٢١، تفسير القرطبي ج٣ ص٣٢٨، تفسير القاسمي ج٣ ص٣٤٤.

(١٣٦) تفسير المنار ج٣ ص٧٤.

٧٣- ب- تخويف الشيطان المؤمنين بأوليائه:

أولياء الشيطان هم أنصاره وأتباعه وأحباؤه، وهؤلاء قد يكون بيدهم أو بيد أحدهم الإمرة والسلطان داخل المجتمع. وقد يكونون خارج المجتمع الإسلامي وخارج الدولة الإسلامية. والشيطان قد يُخوف المؤمنين بأوليائه هؤلاء بأن يُلقِي في قلوبهم الخوف منهم، فيمنعهم ويثبطهم عن القيام بواجب الشرع نحوهم، كواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يمنعهم من مواجهتهم ودفع اعتدائهم، فيقع المؤمنون في رذيلة الجبن والتقصير في حق الشرع، قال تعالى في هذا النوع من تخويف الشيطان للمؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١٣٧] أي: يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه[١٣٨]، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إذا أوهمكم الشيطان بقوة أوليائه فلا تخافوهم، وتوكلوا عليّ، والتجئوا إليّ، فإني كافيكم وناصركم عليهم، وخافوني في مخالفة أمري إن كنتم مؤمنين[١٣٩]. وقد تحقق ذلك في المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فقد قال تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[١٤٠]. وقد جاء في تفسير هذه الآيات وفي سبب نزولها ما خلاصته: أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين في معركة أحد، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، حدثتهم أنفسهم بالرجوع إلى المدينة، ومحاربة المسلمين، واستئصالهم، وعزموا على تنفيذ ذلك. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندّب المسلمين إلى الذهاب وراءهم وملاحقتهم؛ ليرعبهم ويُريهم أَنَّ لهم قوة وجلداً. ولم يأذن رسول الله ﷺ بالخروج معه لملاحقة المشركين إلا لمن اشترك في معركة أحد، ولم يستثنِ أحداً من هذا الشرط سوى جابر بن عبد الله أَذِنَ له بالخروج وإن لم يكن قد حضر معركة أحد، لعذر قبله رسول

---

(١٣٧) سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

(١٣٨) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٨٢.

(١٣٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٣١.

(١٤٠) سورة آل عمران، الآيتان ١٧٢، ١٧٣.

الله ﷺ، فخرج المسلمون على ما بهم من الجراح طاعة لله ولرسوله ﷺ. ولما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ أي لما قيل لهم: إن الأعداء - أبا سفيان وأصحابه وجنده - قد جمعوا لكم الجموع لقتالكم، فاخشوهم أي فكونوا خائفين منهم، لم يلتفوا إلى هذا التخويف، ولم يقيموا له وزناً بل زادهم هذا التخويف إيماناً، وأحدث في قلوبهم عزماً على محاربة الكفار، وعلى طاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمر به، وينهىٰ عنه بالرغم مما كان في بعضهم من الجراحات العظيمة التي أصابتهم في معركة أحد، ومع هذا العزم الأكيد على محاربة الكفار قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أي كافينا الله، ونعم الوكيل أي ونعم الكافي(١٤١).

٧٤- تخويف الشيطان للمؤمنين بقوة السلطان الجائر:

ومن تخويف الشيطان للمؤمنين بأوليائه: أن يخوفهم بقوة السلطان الجائر حتى يمنعهم من الإنكار عليه، بل وحتى النصح له. ومن هذا التخويف أيضاً تخويفه للمؤمنين بقطع أرزاقهم إذا استمروا بالإنكار على رؤسائهم، كما لو كانوا موظفين في الدولة ورؤساؤهم عصاة يتولون الشيطان، ويتولاهم الشيطان، فتخويفهم بقطع أرزاقهم أي بطردهم من وظائفهم، وبالتالي حرمانهم من مصدر رزقهم، وهذا النوع من التخويف يمكن اعتباره من التخويف بالفقر، ويفعله الشيطان لمنعهم من الإنكار الواجب على رؤسائهم، كما يمكن اعتباره من التخويف بأوليائه.

٧٥- تخويف الشيطان للدعاة وللجماعة المسلمة:

والشيطان يسلك مسلك التخويف مع الدعاة والجماعة المسلمة ويأخذ تخويفُهُ لهم المسالك التالية:

أولاً - يخوفهم بالفقر ليمنعهم ليس فقط من الإنفاق المستحب في مرضاة الله تعالى، وإنما ليمنعهم من الإنفاق الواجب عليهم شرعاً. وهذا مسلك للشيطان يسلكه مع جميع المؤمنين، وليس قاصراً على الدعاة والجماعة المسلمة، جماعة الدعاة.

ثانياً - يخوفهم بقطع سبل رزقهم إذا قاموا بواجب الإنكار على الحكام وذوي

---

(١٤١) تفسير الرازي ج٩ ص٩٧-١٠١، وتفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٧-٤٣٠.

السلطان، لما يسببه لهم هذا الإنكار من قطع سبل أرزاقهم بفصلهم من وظائفهم في الدولة، أو بتضييق سبل الكسب عليهم، أو بقطع المعونات المالية عن الجماعة المسلمة التي تستحقها من أوقاف المسلمين.

ثالثاً- يخوفهم بالأذى الذي ينتظرهم وبحلّ الجماعة المسلمة، ومنعهم من مزاولة عملهم في الدعوة إلى الله، إذا قاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نحو الحكام وذوي السلطان أو نحو عموم الناس.

٧٦- الوقاية من تخويف الشيطان بالفقر:

وتخويف الشيطان بالفقر لعموم المؤمنين، ومنهم الدعاة والجماعة المسلمة؛ لمنعهم من الإنفاق في مرضاة الله تعالى، سواء كان هذا الإنفاق واجباً أو مستحباً، بإيهام الشيطان لهم أن هذا الإنفاق يستهلك أموالهم، وبالتالي يوقعهم في الفقر، ومع الفقر الحاجة إلى الناس. والوقاية من هذه الوسوسة الشيطانية أن يتذكر الدعاة ما يأتي، ويذكّروا به عموم المسلمين في وعظهم وتعليمهم، ويجعلوا هذا التذكير من مواضيع الدعوة إلى الله تعالى.

٧٧- أ - المال مال الله:

إن المال بيد الإنسان هو مال الله في الحقيقة، وإنما صار بيد الإنسان بتقدير الله وشرعه، وصارت له حرية التصرف فيه، والانتفاع به بإذن المالك الحقيقي له وهو الله تعالى. فإذا أمر الله تعالى بالإنفاقِ من هذا المال في الأوجه التي عينها، فما على الإنسان إلا المبادرة إلى التنفيذ؛ لأن الله هو المالك الحقيقي لهذا المال وللمالك الحق في التصرف في ماله. وقد دلّ على ما قلناه من أنَّ المال هو في الحقيقة مال الله وملكه قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١٤٢). وقال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(١٤٣). أي آمنوا الإيمان اليقيني؛ ليظهر أثره عليكم فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذي موّلكم إياه، وجعلكم مستخلفين فيه بتمكينكم على التصرف فيه بحكم

---

(١٤٢) سورة النور من الآية ٣٣.

(١٤٣) سورة الحديد من الآية ٧.

الشرع، إذ الأموال كلها لله. وفي هذا البيان حث على الإنفاق وتهوين له[144].

٧٨- ب - الإنفاق قبل فوات الأوان:

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[145]. في هذه الآية حثٌّ على الإنفاق في طاعة الله تعالى، والتحذير من التفريط في هذا الإنفاق؛ لئلا يندم المفرط عند الاحتضار، ويسأل تأخير موته ولو شيئاً يسيراً؛ ليستدرك ما فاته من الإنفاق في مرضاة الله تعالى، ولكن هيهات هيهات، فلن يؤخر الله تعالى موت نفس إذا جاء أجلها[146]. ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ يذكّرهم الله تعالى بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم، فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق منه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، فيترك كل شيء وراءه لغيره، وينظر فلا يجد أنه قدّم شيئاً لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران. ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أُمهل؛ ليتصدق، وليكون من الصالحين ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[147].

٧٩- وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[148] أي ما أنفقتم من شيء في طاعة الله تعالى فهو يخلفه عليكم، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا، وإما في الآخرة[149]. فالمنفق رابح غير خسران في جميع الأحوال.

---

(١٤٤) تفسير القاسمي ج١٥ ص١٦.

(١٤٥) سورة المنافقون الآيتان ١٠، ١١.

(١٤٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٣.

(١٤٧) في ظلال القرآن مجلد ٦ ص٣٥٨٠.

(١٤٨) سورة سبأ، الآية ٣٩.

(١٤٩) تفسير القرطبي ج١٤ ص٣٠٧.

٨٠ - د - إن الله هو الرازق ذو القوة المتين:

وأما ما يوسوس به الشيطان، ويقذفه في قلب الداعية من تخويفه بقطع أسباب رزقه إذا هو أنكر على الحكام، وذوي السلطان، وذلك بفصله من وظيفته في الدولة، أو بتضييق سبل الكسب عليه، فهذه الوسوسة يمحقها الداعية بعون الله تعالى بأن يتذكر إخبارات الرب جل جلاله، ووعوده بإيصال الرزق لكل إنسان. ومن هذه الإخبارات ما يأتي:

١- قال تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[١٥٠]. فهذه الآية الكريمة تبين لنا أن الله تعالى تكفل بإيصال الرزق إلى كل دابة في الأرض، ويدخل الإنسان في هذا الوعد الصادق[١٥١]. وما تكفل الله بإيصاله لن يستطيع مخلوق أن يمنعه من مستحقه، فإذا فصلت الدولة الداعية من وظيفته، أو ضيقت عليه سبل الكسب، فهذا لا يعني أنها قطعت الرزق عنه؛ لأن رزقه غير محصور بوظيفته، فالله تعالى يهيىءُ للإنسان من سبل الرزق ما يحقق وعده فيه وإيصال رزقه إليه.

٢- وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾[١٥٢]. فكم من دابة لا تطيق جمع رزقها، ولا تحصيله، ولا تدخر شيئاً لغدٍ، ولكن الله تعالى يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فكذلك يرزقكم الله أيها الناس، فتوكلوا عليه في تحصيل رزقكم[١٥٣].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[١٥٤]. أي من يتق الله بالوقوف عند حدوده، وتنفيذ ما أمر به، وترك ما نهى عنه، فإن الله تعالى يجعل له من أمره وضيقه مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب،

---

(١٥٠) سورة هود، الآية ٦.

(١٥١) تفسير القرطبي ج٩ ص٦، تفسير القاسمي ج٩ ص٩٤.

(١٥٢) سورة العنكبوت الآية ٦٠.

(١٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٢٠، تفسير الرازي ج٢٥ ص٨٧.

(١٥٤) سورة الطلاق الآية ٣.

أي من جهة لا تخطر بباله[155].

٨١- من تخويف الشيطان للجماعة المسلمة:

من تخويف الشيطان للجماعة المسلمة بقطع المعونات المالية عنها من أوقاف المسلمين إذا خاصمت الحكام الموالين للشيطان، فهذا التخويف تدفعه الجماعة المسلمة باستحضارها أَنَّ اعتمادها فيما تحتاجه من مال على الله تعالى، ثم على ما يتبرع به أعضاؤها، فإذا منعهم الحكام من استحقاقها من غلة أوقاف المسلمين، فلا يثبطها هذا المنع من قيامها بواجب الدعوة نحوهم، ونحو عموم المسلمين.

٨٢- الوقاية من تخويف الشيطان المؤمنين بأوليائه.

وهذا التخويف من الشيطان للؤمنين بأَوليائه يتمثل بما يلقيهِ من وسوسة في قلوب الدعاة من وقوع الأذى بأبدانهم، أو بحريتهم، أو بأموالهم، أو بحلّ الجماعة المسلمة إذا استمروا في عملهم في الدعوة إلى الله تعالى.

والوقاية من هذا النوع من التخويف تكون باستحضار، واستيعاب، وتذكّرِ وفَهْمِ ما يأتي:

٨٣- أ- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

نحن معاشر الدعاة إلى الله يجب أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[156]. فنحن تحت مشيئة الله وقدره، ولن يصيبنا خيرٌ ولا شر، ولا شدّة ولا رخاء، ولا خوف ولا أمن إلا وهو مُقَدَّرٌ علينا مكتوب عند الله، ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ ﴾ أي سيدنا وملجؤنا. ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، فلا نتوكل إلا عليه، ولا نطمع إلا بفضله ورحمته، فنحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل[157].

وفي الحديث النبوي الشريف: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك

(١٥٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٩.

(١٥٦) سورة التوبة الآية ٥١.

(١٥٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢ وتفسير الرازي ج١٦ ص٨٥-٨٦.

بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. رفعت الأقلام وجفّتِ الصحف».

٨٤- ب- الدعوة إلى الله جهاد:

والدعوة إلى الله تعالى جهاد في سبيله، والجهاد مدافعة للباطل وأهله، ونصرة للحق وأهله، وهو أنواع، ومنه جهاد بالكلمة المسموعة والمقروءة. والجهاد بطبيعته ومن لوازمه لحوق الأذى والضرر بالمجاهدين في أبدانهم وحرياتهم وأموالهم، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا الأذى المحتمل الوقوع مانعاً من الدعوة إلى الله، ألا يُرَى أن أهل الباطل يدافعون عن باطلهم بأنفسهم وأموالهم، ويتحملون الأذى في سبيل باطلهم؟ ألسنا نحن معاشرَ المسلمين والدعاة منهم على وجه الخصوص أولى من أهل الباطل في تحمل الأذى في سبيل الدعوة، ونحن نرجو الثواب من الله تعالى وهم لا يرجونه؟ لقد نبّه القرآن إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١٥٨].

٨٥- سنة الله في الابتلاء:

لقد جرت سنة الله في الابتلاء أنه يصيب المؤمنين لا سيما الدعاة منهم؛ ليظهر الصادق منهم في إيمانه من غير الصادق. وهذه السنة الإلهية كما جرت في السابق تجري في الحاضر والمستقبل قال تعالى[١٥٩]:

١- في سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

٢- وفي سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

---

(١٥٨) سورة النساء الآية ١٠٤.

(١٥٩) من سورة العنكبوت، الآيتان ١و ٢، ومن سورة البقرة الآية ٢. ومن سورة محمد الآية ٣١ ومن سورة آل عمران الآية ١٨٦.

٣- وفي سورة محمد: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

٤- وفي سورة آل عمران: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

٨٦- د- الجهاد بالقول أيسر من الجهاد بالنفس:

وعلى الدعاة أن يعلموا ويتذكروا دائماً أنَّ جهادهم هو بالقول، والجهاد بالقول أيسر من الجهاد بالنفس «أي بالقتال»، وقد حثَّ الله تعالى المسلمين على الجهاد بالنفس، وعاتب المتقاعسين عنه، وهدد المستمرين على تباطئهم عن الجهاد بالنفس، هددهم بالعذاب والإتيانِ بغيرهم؛ لنصرة دينه، والجهاد بالنفس في سبيله سبحانه وتعالى. فالدعاة بالقول أولى بهذا العتاب والتهديد إذا تركوا الدعوة، وتأثروا بتخويف الشيطان لهم بأوليائه. قال تعالى في عتابه للمتباطئين عن الجهاد بالنفس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وهذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلالُ في شدة الحرّ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا؟ أَرِضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، كما قال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع»، وقوله: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي يأتي بغيركم ينصرون دينه. ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ ﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ونكولكم وتثاقلكم عن الجهاد. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم»[١٦٠].

فعلى الدعاة، وهم يدعون بالقول ويجاهدون به، الثبات على جهادهم هذا

---

(١٦٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٧-٣٥٨ والآيتان في سورة التوبة ورقمهما ٣٨و٣٩.

والاستمرار عليه، وعدم الالتفاتِ إلى تثبيط الشيطان لهم، وتخويفهم بالأذى الذي يلحقهم من أعوان الشيطان وأوليائه؛ لأن هذا الأذى مهما عظم فهو أقل من الأذى الذي يلحق المجاهدين بأنفسهم، ومع هذا عاتب هؤلاء المجاهدين بأنفسهم على تباطئهم عن هذا الجهاد.

٨٧- هـ- الجهاد للمسلم خير عظيم:

والجهاد على ما فيه من أذى هو خير للمسلم في ميزان الإسلام، وهذا في الجهاد ببذلِ المال والنفس، فأولى أن يبادر الداعية إلى جهاده بالقول. وفيه أيضاً أجر عظيم، ولا يلتفتَ إلى وسوسة الشيطان وتخويفه بما يصيبه من أذى بسبب الدعوة، قال تعالى في الحث على الجهاد بالنفس والمال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي انفروا إلى هذا الجهاد كهولاً وشباباً، في حال عسركم ويسركم، وغناكم وفقركم[١٦١]. فإذا كان هذا الأمر الرباني بالجهاد بالمال والنفس بهذه الصيغة من العموم التي شملت الجميع من الكهول والشباب، وفي حال الشدة والرخاء، فمن باب أولى أن يشمل هذا الأمر العام بالجهاد ما هو دون الجهاد بالنفس، وأعني به الجهاد بالقول، أي الدعوة إلى الله باللسان، وإن نتج عنه أو ترتب عليه شيء من الأذى، فهو أذىً أقل من أذى الجهاد بالنفس «أي القتال»، فلا يجوز للدعاة أن يتركوا الدعوة إلى الله تعالى بسبب ما قد يلقَوْنه من أذىً في سبيل الله.

٨٨- و- حلّ الجماعة المسلمة لا يعني ترك الدعوة:

وتخويف الشيطان الجماعة المسلمة بحلّها من قبل أوليائه أولي السلطان إذا استمرت بالدعوة إلى الله، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أقول: هذا التخويف من الشيطان للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، لا يجيز لها ترك العمل للدعوة إلى الله، بل عليها أن تمضي في طريقها حتى ولو تعرضت إلى الحلّ، وسحب الصفة القانونية عنها؛ لأن القيام بالدعوة إلى الله تعالى واجب شرعي على كل مسلم ومسلمة.

---

(١٦١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٩، والآية في سورة التوبة ورقمها ٤١.

٨٩- القيام بواجب الدعوة لا يتوقف على إذن من الدولة:

وهذا الواجب لا يتوقف القيام به على إذن من الدولة، ولا على ضرورة تكوين «جماعة» تعترف بها الدولة؛ لأنَّ الإذن قد حصل لها من رب العالمين عندما جعل القيام بالدعوة إليه من لوازم الإيمان، ومن لوازم اتّباع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نعم، إن قيام الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إلى الله، بإذن من الدولة أمر مفيد لها حتىٰ لا يتعرض لها أحد بالسوء، ولكن لو قُدِّر أنها لم تُمْنَح الإذنَ من الدولة، فهذا لا يمنع قيامها بواجب ا لشرع، واجب الدعوة إلى الله تعالى. وإذا ضاق عليها الأمر ولم تستطع القيام بتكوين الجماعة المسلمة، فالدعوة إلى الله ليست متوقفة على قيامها، لأنها كالصلاة، تؤدّىٰ جماعة، وهذا أمر مشروع وجيد ويأتي للمصلي بالثواب العظيم، ثواب صلاة الجماعة، فإذا تَعَسَّرَ أداء الصلاة جماعة، فعلى المسلم أن يصلي منفرداً ولا يجوز أن يتركها بحجة تعذر أو تعسر أدائها جماعة.

٩٠- الدعوة إلى الله تؤدّىٰ بطريقتين:

وكذلك الدعوة إلى الله تعالى تؤدى بصفة جماعية، وتؤدى بصفة فردية. وأداؤها بصفة جماعيّة هو أن يقوم بها المسلم من خلال انضمامه إلى جماعة الدعاة وصيرورته عضواً فيها، وقيامه بالدعوة بالكيفية التي تختارها الجماعة، جماعة الدعاة إلى الله، لأنَّ هذا العمل الجماعي هو من نوع التعاونِ على البرّ والتقوى، ومثل هذا التعاون جاء الأمر الشرعي به، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ . .﴾، فإذا تعذر مثل هذا العمل الدعويّ من خلال جماعة، لم يسقط واجب الدعوة إلى الله. وإنما على المسلم أن يقوم به بصفته الفردية، وبما يختاره هو من وسائل وأساليب الدعوة إلى الله. فعمل المسلم في الدعوة إلى الله، أي في كيفية أدائه لواجب الدعوة إلى الله، يكون بإحدى صفتين:

(الأولى): أداء هذا الواجب من خلال تعاونه مع جماعة الدعاة في الدعوة إلى الله وفق المنهج الذي تضعه هذه الجماعة.

و(الثانية): أداء هذا الواجب بصورة فردية، فيقوم المسلم بأداء هذا الواجب

باجتهاده واختياره مهتدياً في عمله بقواعد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بيَّنَها الفقهاء رحمهم الله تعالى.

٩١- الدعوة إلى الله لا تسقط عن المسلم:

الدعوة إلى الله لا تسقط عن المسلم بحال من الأحوال، وهي كما مثلتُ بالصلاة، فالصلاة واجبة على المسلم، وأداؤها مع الجماعة أكثر أجراً وأعظم ثواباً، فإذا تعذر القيام بها جماعة أداها المسلم منفرداً وناله الأجر. وربما أجر الصلاة في جماعة؛ لأنه معذور عن أدائها في جماعة، قياساً على القاعدين عنِ الجهاد لعذر شرعي، كما جاء في الحديث الصحيح الذي ذكره ابن كثير في تفسيره بشأن المتخلفين عن غزوة تبوك لعذر شرعي، فقد جاء في هذا الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر» رواه الإمام مسلم، وفيه قال ﷺ: «لقد خلفتم في المدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً، إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض»[١٦٢].

الفرع الثالث
إيحاء الشيطان للإنسان بالأماني الكاذبة

٩٢- تمهيد:

ومن أساليب الشيطان في كيده للإنسان إيحاؤه له بالوعود والأماني الكاذبة؛ ليصرفه عن الحق، ويوقعه في الغفلةِ عن الله وعصيانه، قال تعالى حكاية عن عزم إبليس في إضلال بني آدم، وقذف الأماني الباطلة في قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ..﴾[١٦٣]، ثم قال تعالى مخبراً عن واقع إبليس في سلوكه هذا مع بني آدم ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[١٦٤].

---

(١٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٢.
(١٦٣) سورة النساء من الآية ١١٩.
(١٦٤) سورة النساء الآية ١٢٠.

٩٣- المقصود بالأمانيّ:

الأمانيُّ جمع أمنية، يقال: تمنىٰ الشيء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه، كما يتمنى المقامر الثروة بالمقامرة، وهي ليست سبباً طبيعياً للغنى(١٦٥). وقوله تعالى: ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ أي لأُزيننَّ لهم الاستعجال باللذات الحاضرة، والتسويف بالتوبة، والعمل الصالح، وأَغرنَّهم من أنفسهم، وأمنّينَّهم بطول الأعمار، وبلوغ الآمال ونحو ذلك من الأماني الباطلة(١٦٦).

٩٤- اختلاف الأماني باختلاف الأشخاص والأحوال:

وأماني الشيطان التي يقذفها في قلب الإنسان ليست واحدة، وإنما تتنوع وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، قال الإمام القرطبي في قوله تعالى ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾: (وهذا لا ينحصر بواحدة من الأماني؛ لأن الشيطان يمنّي كل إنسان بنوع من الأماني، وبقدر رغبته فيما يهواه)(١٦٧). ومن الأمثلة على ذلك أنّ من يغريه الشيطان بالقمار يمنيه بالثروة والغنى، ومن غلبت عليه شهوته في الزنا يمنيه الشيطان بالتوبة مستقبلاً، وأَنْ لا بأس عليه في استمراره على الزنا؛ لأنه شاب وأمامه زمن طويل يستطيع فيه أن يتدارك ما ارتكبه من الزنا، وذلك بالتوبة وإن تأخرت وهكذا(١٦٨).

٩٥- أماني الشيطان ووعوده غرور:

قال تعالى إخباراً عن واقع الشيطان: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾(١٦٩)، أي يعدهم - يَعِدُ أوليإءه - ويمنيّهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وأنهم على خير كثير. وقد كذب عدو الله وافترى في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي باطلاً يفترون به، ولا يملكون منه ما

---

(١٦٥) تفسير المنار ج٥ ص٤٢٧.

(١٦٦) تفسير المنار ج٥ ص٤٢٧، تفسير ابن كثير ج١ ص٥٥٦، تفسير القاسمي ج٥ ص٢٧٨.

(١٦٧) تفسير القرطبي ج٥ ص٣٨٩.

(١٦٨) تفسير المنار ج٥ ص٤٣٠.

(١٦٩) سورة النساء الآية ١٢٠.

يحبون، وإيهامهم بنفع شيء ليس فيه إلا الضرر. فالشيطان عمدته في كيده للإنسان إنما هو في وعوده الباطلة له، وفي أمانيه الكاذبة يلقيها في قلبه، وتلك الوعود والأمانيُّ لا تفيد الإنسان إلا غروراً. والغرور هو ما يُرَى له من ظاهرٍ محبوب، ولكن فيه باطن مكروه، أو هو أن يَظنَّ الإنسانُ بالشيء أنه نافع ولذيذٌ، ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، فيعظُمُ تأذيه عند انكشاف الحال فيه(١٧٠).

٩٦- الجماعة المسلمة وما يمنيها به الشيطان:

ليست الجماعة المسلمة بنجوةٍ من إيحاء الشيطان ووسوسته لها بالأماني الكاذبة، فهو قد ينفث في صفوفها وفي قلوب أفرادها بأنَّ الجماعة وصلت إلى ما كانت تأمله وترجوه من القوة والمنعة وعلو المنزلة بين الناس، وبناء على ذلك، فعليها أن تتحول من مرتبة تغيير المنكر باللسان إلى مرتبة تغييره باليد.. فتدفع بأعضائها إلى مواجهة الباطل وأهله لقمعه وقمعهم بالقوة، مع أنها لم تبلغ مرتبة تغيير المنكر باليد، فتقع وتوقع أفرادها في الكارثة والضرر العظيم، فليحذر القائمون على جماعة الدعاةِ من هذا النفث الشيطاني في قلوبهم، لأنَّ تغيير المنكر يكون وفق القواعد والضوابط الشرعية، وليس جرياً وراء الأهواء النفسية وأماني الشيطان الكاذبة.

المطلب الخامس
وسائل الوقاية العامة من الشيطان

٩٧- تمهيد:

الشيطان عدو مبين للإنسان، كما أخبرنا الله تعالى عنه، وأمرنا بالحذر منه، وإن عداوته لبني آدم عداوة دائمة أعلن عنها اللعين منذ خَلَقَ الله آدم، وبيَّنَ - لعنه الله - أساليبه في إضلال الإنسان وإغوائه، وأنَّ هذا هو همّه وغاية مقصده في عداوته للإنسان، إلا أنَّ هذا العدوَّ لا ينال بغيته من الإنسان إلا إذا مكّنه الإنسان من نفسه بترك الوقاية منه، وفتح الثغرات له لينفذ منها إلى إغوائه، إن الشيطان كاللص الماهر

---

(١٧٠) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٥٦، تفسير الرازي ج١١ ص٤٨و تفسير القرطبي ج٥ ص٣٨٩ تفسير القاسمي ج٥ ص٤٨٤.

الذي يراقب البيت ليسرقه، فإذا وجد غفلة من صاحب البيت ، أو انشغالاً عن حراسته هجم عليه اللص، واقتحم البيت وسرق ما فيه.. وهكذا الشيطان يراقب الإنسان؛ ليجد منه غفلة، أو ثغرة؛ لينفث سمومه ووسوسته فيه؛ ليضله عن سبيل الله، فلا بد للمسلم من الأخذ بوسائل الوقاية الشرعية من هذا العدو الخبيث؛ لينجو من كيده وشره، فما هي هذه الوسائل العامة للوقاية من الشيطان الرجيم؟

هذا ما نبيِّنُهُ في الفروع على النحو التالي:

الفرع الأول - الإيمان بالله والتوكل عليه.
الفرع الثاني - ترك المعاصي.
الفرع الثالث - الزهد في الدنيا وعدم الاغترارِ بها.
الفرع الرابع - الاستعاذة بالله من الشيطان.
الفرع الخامس - الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن.
الفرع السادس - كشف خواطر الشيطان ووزنها بميزان الإسلام.
الفرع السابع - ضرورة وسائل الوقاية العامة للدعاة ولجماعتهم من مكايد الشيطان.

الفرع الأول

الإيمان بالله والتوكل عليه

٩٨- الإيمان وقاية للإنسان من الشيطان:

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[١٧١]. قال ابن عباس: هم المؤمنون. وهذا إخبارٌ من الله تعالى بتأييده تعالى لعباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً لهم[١٧٢].

---

(١٧١) سورة الإسراء، الآية ٦٥.

(١٧٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٩٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٠.

٩٩- لا لسلطان للشيطان على المؤمن المتوكل على الله:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١٧٣). فلا تأثير ولا قدرة للشيطان على إغواء الذين آمنوا بالله إيماناً عميقاً وجّه قلوبهم إلى الله تعالى، وحرّك جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشيطان على هؤلاء من سلطان، فهم يضادّون أمانيه الباطلة، ويهدمون ما يلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النور الكاشف عن مكره، والتوكلُ عليه يفيدهم التقوية بالله فيضعف الشيطان، وينخذل أمام قوة الإيمان بالله، والتوكل عليه.

الفرع الثاني

ترك المعاصي

١٠٠- معاصي الإنسان تضعفه أمام الشيطان:

من لوازم الإيمان العميق بالله رباً ومعبوداً حقاً ابتعاد المسلم عن عصيان الله تعالى، وبقدر ضعف إيمان المسلم، وغفلته عن ربه يقع في معصيته، فيقدر الشيطان على التسلل إليه بالإغواء والخداع، وجره إلى المعصية، فإذا وقع في المعصية سهل على الشيطان جره إلى معصية أخرى، وهكذا. فالبعد عن المعاصي قوة للمسلم ووقاية له من الشيطان.

١٠١- استزلال الشيطان للإنسان بمعاصيه:

ويدل على ما نقوله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١٧٤). وهذا خطاب للمؤمنين خاصة الذين انهزموا في معركة أُحُدِ. ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي حملهم على الزلة ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾، والمراد بقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ أحد وجهين:

(الأول): أنه كان قد صدرت عنهم معاصي، وبواسطة تلك المعاصي قدر

---

(١٧٣) سورة النحل الآية ٩٩.

(١٧٤) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

الشيطان على استزلالهم.

(الثاني): أنهم لما أذنبوا بسبب مفارقتهم ذلك المكان الذي أنزلهم فيه النبي ﷺ، وأمرهم أن لا يفارقوه استزلهم الشيطان بشؤم هذه المعصية، وأوقعهم في الهزيمة؛ لأن الذنب يجرّ إلى الذنب، كما أنَّ الطاعة تجر إلى الطاعة[١٧٥].

١٠٢- سلطان الشيطان على الذين يتولونه:

قال تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[١٧٦]. فالشيطان تسلطه على الذين يتولونه أي يطيعونه[١٧٧]. وقد حذرنا الله تعالى من اتّباع الشيطان وطاعته، قال تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٧٨]، وخطوات الشيطان طرائقه ومسالكه التي يأمركم بها، فإنما يأمركم بالسوء والفحشاء، والسوء هو كل ما يسوؤكَ وقوعه أو عاقبته، وأما الفحشاء فكل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي تقولوا: إنَّ الله تعالى أمر به، أو أخبر به من تلقاء أنفسكم بغير علم. فيدخل في مفهوم خطوات الشيطان التي نهينا عن اتباعها كلُّ معصية لله تعالى، سواء أكانت من أعمال الجوارح، أم أفعال القلوب[١٧٩].

فاتّباع الشيطان في خطواته يعني اتباعه فيما يأمر به من معصية الله تعالى، والمعصية تضعف مقاومة الإنسان للشيطان، وتجعل له سلطاناً على الإنسان.

---

(١٧٥) تفسير الرازي ج٩ ص٥١-٥٢.

(١٧٦) سورة النحل الآية ١٠٠.

(١٧٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨٦، وتفسير القرطبي ج٥ ص١٧٥-١٧٦.

(١٧٨) سورة البقرة الآيتان ١٦٨و١٦٩.

(١٧٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٠٤، تفسير المنار ج٢ ص٨٨-٨٩، تفسير القاسمي ج٣ ص٢٧-٢٩.

الفرع الثالث
الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها

١٠٣- تمهيد:

الدنيا واقع محسوس فيها من اللذات والمتع والمشتهيات ما يجذب إليها الإنسان على نحو يشغله عن متطلبات الآخرة، وعبادة الله تعالى. والشيطان يستغل هذا الانجذاب من الإنسان إلى الدنيا، فيزيده دفعاً إليها، وتشويقاً لها، والتصاقاً بها حتى تصبح الدنيا أكبر همه، وما فيها من لذائذ وشهوات يطلبها حثيثاً، ليظفر بها ولو بمعصية الله تعالى. من أجل ذلك حذرنا الله تعالى من الدنيا، ومن الاغترار بها، كما حذرنا من الشيطان؛ لئلا يغرَّنا بالدنيا. وبقدر استعلاء المسلم على الدنيا وزهده فيها تكون حصانته من الشيطان، وسلامته من خداعه وتغريره.. ونذكر فيما يلي بعض آيات القرآن الكريم في التحذير من الدنيا، والاغترار بها، ومن تغرير الشيطان للإنسان بالدنيا.

١٠٤- لا تغرنكم الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[١٨٠] أي إن البعث بعد الموت، والثواب والعقاب يوم القيامة حق؛ لأن الله تعالى وعد بها فلا بد أن تقع. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تخدعكم الدنيا بزينتها ومتاعها ولذاتها التي تهواها النفس، فتقبلوا عليها، وتنغسموا فيها، وتتركوا العمل للآخرة. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يصل به الحال إلى أن يقول بعد موته على سبيل الندم والتأسف: يا ليتني قدمت لحياتي، أي لحياته في الآخرة. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ والغرور هنا هو الشيطان، وهو غرور؛ لأنه يغرّ الخلق أي يخدعهم، ويلهيهم عن العمل للآخرة، ويوسوس لهم بالإقبال على شهوات الدنيا ولذاتها، ولو بمعصيته الله تعالى، ويمنّيهم بالتوبة بعد ذلك التي تمحو معاصيهم،

---

(١٨٠) سورة فاطر، الآية ٥.

فيجمعون بزعمه بين التلذذ بنعيم الدنيا، والظفر بنعيم الآخرة[١٨١].

١٠٥- وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور:

قال تعالى في وصف الحياة الدنيا وبيان حقيقتها: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[١٨٢]، المتاع: ما يُتَمتَّعُ به أي يُنتَفَعُ به، ثم يزول ولا يبقى للإنسان. والغرور: الخداع. وحاصل معنى الآية الكريمة أنَّ الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغرّ الإنسان، ويخدعه ويشغله عما ينفعه في الآخرة، فليحذر المسلم من الإسراف في الاشتغال بمتاعها، إذ ليس لمتاعها غاية ينتهي العامل إليها فتسكن نفسه ويطمئن قلبه، بل المزيد منها يغري بزيادة الإسراف في الطلب، ويُبعد الإنسان عن عمل ما ينفعه في الآخرة[١٨٣].

١٠٦- متاع الدنيا قليل وزائل:

متاع الدنيا مهما كثر فهو قليل في جنب ما في الآخرة من نعيم أعدَّه الله تعالى لعباده المتقين، قال تعالى: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[١٨٤]، أي ما متاع الدنيا بالنسبة لما في الآخرة من نعيم إلا شيء قليل[١٨٥].

ولما كان متاع الدنيا قليلاً، وعلى قلته فهو زائل، فما عند الله تعالى من نعيم كثير دائم أعدّه الله للمتقين هو خير من متاع الدنيا، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[١٨٦]. فكل ما يُتمتَع به في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى نعيم الآخرة الذي أعده الله تعالى للمتقين؛ لأنَّ متاع الدنيا محدود وزائل، قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[١٨٧]، ولأنَّ كل ما يؤتاه الإنسانُ من متاع الدنيا فلا بد أن يزول، أو يفارقه ويزول عنه بالموت، أمّا نعيم الآخرة فباقٍ دائم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم

---

(١٨١) تفسير القرطبي ج١٤ ص٨١، ٣٢٢، تفسير القاسمي ج١٣ ص٤١.

(١٨٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

(١٨٣) تفسير القرطبي ج١٤ ص٣٠٢، تفسير المنار ج١٤ ص٣٧٢-٣٧٣.

(١٨٤) سورة التوبة الآية ٣٨.

(١٨٥) تفسير المنار ج١٠ ص٤٩٥.

(١٨٦) سورة النساء، الآية ٧٧.

(١٨٧) سورة النحل الآية ٩٦.

مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[188]. أفلا نعقل أنَّ النعيم الباقيَ وهو ما عند الله خير من النعيم الفاني الذي يؤتاه الإنسانُ في الدنيا؟ وبالتالي فإن العاقل لا يرضى أن يكون نعيم الدنيا بدلاً من نعيم الآخرة، وإنما يُؤْثره عليه من لا يؤمن باليوم الآخر[189].

١٠٧- ضربُ الأمثال للدنيا ومتاعها في القرآن الكريم والسنة النبوية:

ومع هذه الإخبارات الإلهية للإنسان عن حقيقة الدنيا ومتاعها، وأنه قليل وزائل، وأن العاقل لا ينبغي أن يتعلق به، ويؤثره على نعيم الآخرة، أقول: مع هذه الإخبارات من رب العالمين، فإنَّ الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ ضربا الأمثال لمتاع الدنيا حتى تتضح حقيقته وصورته لنا، فلا ننخدعَ به، ولا نجعلَه أكبر همنا، ونذكر فيما يلي بعض هذه الأمثال.

١٠٨- أمثال القرآن للدنيا ومتاعها:

أ- المثل الأول:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[190]، ضرب الله تعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزله من السماء، فامتزج به أي: امتزج النبات بالمطر، أي شرب منه فتندى وحَسُنَ واخضر، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي أخذت الأرض حسنها وزينتها، والزخرف كمال حسن الشيء، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي بالحبوب والثمار والأزهار، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أي أيقن الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي على حصادها وجذاذها والانتفاع بها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها،

---

(١٨٨) سورة القصص الآية ٦٠.

(١٨٩) تفسير ابن كثير ج٣ص٣٥٦،تفسير القرطبي ج١٣ص٣٠٢، تفسير المنار ج٨ ص٤٩٥.

(١٩٠) سورة يونس، الآية ٢٤.

وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ كأن لم تكن عامرة. وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾: كأن لم تنعم. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، يعني كما يهلك هذا الزرعُ هكذا، كذلك الدنيا[١٩١].

ب - المثل الثاني:

وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾[١٩٢]؛ أي واضرب يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما فيها من الحب، فشبَّ ونما وحسن وعلاه الزهر والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ يابساً ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي تفرقه، وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ أي هو قادرٌ على الإنشاء والإفناء[١٩٣].

١٠٩-جـ- المثل الثالث:

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[١٩٤]. يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ﴾ أي تفريح نفس، ﴿وَلَهۡوٞ﴾ أي باطل، ﴿وَزِينَةٞ﴾ أي منظر حسن، ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي بالحسب والنسب ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ أي: مطر ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي يعجب الزرّاعَ نباتُ ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزرّاعَ ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفارَ، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي ثم يجف بعد خضرته ونضرته، فتراه مصفراً أي من اليبس، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾

---

(١٩١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١٣، وتفسير القرطبي ج٨ ص٣٢٧-٣٢٨.

(١٩٢) سورة الكهف الآية ٤٥.

(١٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٥، تفسير القاسمي ج١١ ص٤٩.

(١٩٤) سورة الحديد الآية ٢٠.

ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً أي هشيماً منكسراً، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات الذي وصفناه. ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها لا محالة وأنَّ الآخرة كائنة وآتية لا محالة حذرنا الله تعالى من أمرها، ورغّبنا فيما فيها من الخير، فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية إلا: إما هذا وإما هذا: أي إما عذابٌ شديد وإما مغفرةٌ من الله ورضوان. وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي هي متاع زائل يغرُّ ويخدع من يركن إليها وإلى متاعها، فيغترّ بها وتعجبه من يعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، مع أنها حقيرة قليلة المتاع بالنسبة إلى الدار الآخرة(١٩٥).

١١٠-أمثال وتشبيهات السنَّةِ النبوية للدنيا ومتاعها:

أ- عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء». رواه مسلم(١٩٦) فالدنيا شبهت من حيث المذاق بأنّها (حلوة)، وشبهت من حيث المنظر بأنها خضرة، وهذا مما يجعل النفوس تهواها فجاء التحذير منها بقوله ﷺ: «فاتقوا الدنيا» أي احذروها ولا تقعوا في غرورها، فتشغلكم عن أعمال الآخرة.

ب- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو على حصير قد أثّرَ في جنبه، فقال: يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا فقال: «ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها». رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي(١٩٧). ففي هذا الحديث مثال لقلة متاع الدنيا، وسرعة مفارقة الإنسان لهذا المتاع الزائل، وقال الحسن البصري في الدنيا وقد ذكرت عنده(١٩٨).

---

(١٩٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣١٢-٣١٣.

(١٩٦) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص١٦١.

(١٩٧) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص١٩٩.

(١٩٨) من تعليقات محمد مصطفى عمارة على الترغيب والترهيب للمنذري في ج٤ ص١٩٩ هامش رقم (١).

أحـلام نـومٍ أو كظـلٍ زائـل إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدعُ

جـ - وقال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع، وأشار بالسبابة» رواه الإمام مسلم[١٩٩]، فنسبة ما في الدنيا من متاع إلى ما في الآخرة من نعيم، كنسبة ما ترجع به الإصبع من ماء إذا غمستها في البحر ثم أخرجتها. وهذا تمثيل لتفاهة الدنيا ومتاعها في جنب نعيم الآخرةِ الدائم الذي أعدّه الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

١١١- لماذا يغفُلُ المسلم عن حقيقة الدنيا ومتاعها؟:

إن هذه الحقيقة التي أشرنا إليها، هي حقيقة الدنيا بكل متاعها وزينتها وما تشتهيه النفس منها، وإن كل ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيءٌ تافه وقليل وزائل، هذه الحقيقة ينساها المسلم ويفقدها وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ولو ذكرّتَهُ بها لصدّقَكَ، فلماذا لا يعمل بمقتضى هذه الحقيقة، فيؤثر الآخرة على الدنيا في سلوكه وتصرفاته وأعماله وتطلعاته وغاياته؟ والجواب أنه منغمس في الدنيا ومتاعها، قد شغفته حباً فهو يلهث وراءها، وكلما حصل على شيء من متاعها طلب المزيدَ، فهو لا يشبع ولا يقنع، ومن البديهي أن استحضار نعيم الآخرة في ذهنه، ومقارنة متاع الدنيا به، وبالتالي انفكاكه عن الالتصاق بالدنيا ومتاعها واتجاهه إلى الآخرة، هذا الاستحضار الذهني لما قلناه ولما يترتب عليه غائب عن عقل الإنسان وهو في زحام الدنيا وانغماسه في متاعها وشهواتها والتحديق فيها والجري وراءها. وحتى لو استحضر في ذهنه ما قلناه فإنه استحضار باهت لا أثر له في واقعه، ولا في قلبه ولا في جوارحه، فهو - أي هذا الاستحضار الباهت - ضعيف لا يقوى على فك التصاقه بالدنيا، وتوجيه قلبه إلى الله وإلى اليوم الآخر، وتحريك جوارحه إلى عمل ما ينفعه في اليوم الآخر. وقد يتذكر المسلم الغافل هذه الحقيقة، ويستحضرها في ذهنه عندما تحضره مقدمات الموت، فقد روى عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: (لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أُكَفّنُ فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: ما آخذ من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّى ظهره

---

(١٩٩) انظر الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص١٧٤.

فبكى وهو يقول: أفٍّ لكِ - أي للدنيا - من دارٍ، إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور[٢٠٠].

الفرع الرابع
الاستعاذة بالله من الشيطان

١١٢- تعريفها ومدلولها وحكمتها[٢٠١]:

الشيطان في اللغة مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، والاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه، يقال: عذت بفلانٍ واستعذت به أي لجأت إليه، وهو عياذي أي ملجئي، والاستعاذة بالله هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أُؤمله ... ومن أعوذ به ممن أحاذره
لا يجبرُ الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

١١٣- معنى الاستعاذة بالله:

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي: أستجير بالله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أُمِرتُ به، أو يحثني على فعل ما نُهيتُ عنه.

١١٤- مدلولات الاستعاذة بالله وحكمتها:

ومن مدلولات الاستعاذة بالله من الشيطان، اعتراف العبد لله تعالى بالقدرة، واعتراف العبد المستفيد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله القوي العزيز.

ومن مدلولات الاستعاذة أيضاً اعتراف المسلم المستعيذ وإيمانه بأنَّ الله تعالى

---

(٢٠٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٨.

(٢٠١) تفسير ابن كثير ج١ ص١٥-١٦، وتفسير القرطبي ج١ ص٨٩-٩٠.

يسمع استعاذته ويعلم بحاله، وأنه تعالى هو الربّ والإله الحق الذي يتوجه إليه بالدعاء، وأنه تعالى هو المرجو في الحفظ والكفاية مما يستّعاذ به منه.

ومن حكمة الاستعاذة أنَّ هناك فرقاً بين عداوة الإنسي وعداوة الشيطان، فالعدو الإنسي، يأمر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بمصانعتِهِ والصبر عليه والإحسان إليه؛ ليرده عنه طبعه إلى الموالاة والمصافاة، لما في طبعه من إمكان حصول هذه المصافاة بعد تلك العداوة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢٠٢)، وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾(٢٠٣) وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٢٠٤).

وأما بالنسبة للشيطان فإنَّ الله تعالى يأمر بالاستعاذة منه لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يبتغي غير هلاك بني آدم، لشدة العداوة بينَهُ وبين أبيهم آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾(٢٠٥)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٢٠٦)، وقد أقسم - لعنه الله - لأبينا آدم إنه له لمن الناصحين وكذب، فكيف تكون معاملته لنا وقد أعلن عداوته لنا من قبل أن نخلق، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢٠٧).

١١٥- عادة المتقين الاستعاذة بالله من الشيطان:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم

---

(٢٠٢) سورة الأعراف الآيتان ١٩٩-٢٠٠.

(٢٠٣) سورة المؤمنون الآيات ٩٦-٩٧-٩٨.

(٢٠٤) سورة فصلت الآيات ٢٤-٢٦.

(٢٠٥) سورة الأعراف الآية ٢٧.

(٢٠٦) سورة الأعراف الآية ٢٢.

(٢٠٧) سورة ص الآية ٨٢.

مُّبْصِرُونَ﴾[٢٠٨]، يخبر تعالى عن المتقين من عباده وهم الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أصابهم طائف من الشيطان أي وسوسة وخاطر منه؛ لإرتكاب الذنب ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ الاستعاذة بالله، وعقابه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، أي مبصرون مواقع الخطأ ومكايد الشيطان، فينتهون عنها، ولا يتبعونه فيها، بل يتوبون عنها، ويرجعون إلى الله تعالى من قريب. فهذه الآية تشير إلى أنَّ المتقين، هذه هي عادتهم في الاستعاذة بالله من الشيطان لطرد خواطره ووسوسته. فهم بخلاف الفجار من الإنس إخوانِ الشياطين فإن الشياطين تمدُّهم بالغي قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٢٠٩]، أي وإخوان الشياطين من الإنس، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم، فإن الشياطين يزيدونهم في الغيِّ، ويساعدونهم على المعاصي، ويسهلونها عليهم، ويحسنونها لهم، ولا يسأمون من فعل ذلك ولا يَفْتُرُون، كما أنَّ إخوانهم من الإنس لا يقصرون أي لا ينتهون عن ارتكاب المعاصي[٢١٠].

١١٦- الاستعاذة عند قراءة القرآن:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٢١١]. أي إذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان، فيصدك عن تدبُّرِه والعمل بما فيه، وليس المراد استعذ بعد القراءة[٢١٢].

وقال ابن كثير: والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلاَّ يلبس على القارىء قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر[٢١٣].

---

(٢٠٨) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

(٢٠٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٧٩، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢٧- ٢٢٨ والآية في سورة الأعراف ورقمها ٢٠٢.

(٢١٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧٩.

(٢١١) سورة النحل، الآية ٩٨.

(٢١٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص١٧٤-١٧٥.

(٢١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨٥-٥٨٦.

وقال الرازي: والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من إلقاء الوسوسة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة(٢١٤). والرجيم من أوصاف الشيطان الغالبة أي الملعون المرجوم باللعنة(٢١٥).

١١٧- الاستعاذة عند فعل الخير:

قراءة القرآن من أجَلِّ الأعمالِ، ولذلك يجهد الشيطان نفسه، لإفسادها على القارىء مما يلقيه في قلبه من الوسواس عند القراءة حتى يصرفه عن التدير والاتعاظ بما يقرأ من كتاب الله العزيز، وقد ذكرنا بعض أقوال المفسرين في الحكمة من الأمر بالاستعاذة من الشيطان عند القراءة، ونضيف لما قلناه قول الإمام القاسمي في هذه الحكمة: (لما كان القرآن هو الذكر الحكيم والحق المبين، وكان لكل حق محارب، وهو شيطان الجن أو الإنس، يثيرُ الشبهات بوساوسه، ويفسد القلوب بدسائسه، أمر الله رسوله ﷺ بأنْ يستعيذ بالله، ويلتجىء إليه عند تلاوة القرآن من وسوسته..)(٢١٦).
فقول القاسمي رحمه الله تعالى: (وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن والإنس) هذا القول يشمل كل فعل من أفعال الخير التي أمر الشرع بها، لأنَّ ما يأمر به الشرع هو الحق قطعاً. فيسعى الشيطان إلى صرف المسلم عن أي فعلٍ من أفعال الخير بما يلقيه من وساوسه، ومن وساوسه لصرفه عن الخير الذي هو عازم على فعله تخويفه من نتائج عمله في الدعوة إلى الله كما أشرنا من قبل، أو تخويفه من الفقر إذا همَّ بالصدقة، أو تخييله طريق الخير أنه يفعله رياءً، وأنَّ عليه أن يتركه حتى تصفو نيته وتخلص لله تعالى، فعلى المسلم أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند عزمه أو إرادته مباشرة أي فعل من أفعال الخير أو مباشرته أيَّ نوع من أنواع العبادة، وقد كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»(٢١٧).

---

(٢١٤) تفسير الرازي ج١٩ ص١١٤.
(٢١٥) تفسير القاسمي ج١٠ ص١٥٧.
(٢١٦) تفسير القاسمي ج١٠ ص١٥٧.
(٢١٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٠١.

الفرع الخامس

الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن

١١٨- حرص الإسلام على وحدة المسلمين وأُخوَّتِهِمْ:

من مقاصد الإسلام التي يحرص عليها ويدعو المسلمين إليها وحدتهم وأخوتُهم الإيمانية، ولهذا يحذّر من كل ما من شأنه إحداث الفرقة والعداوة فيما بينهم، كالتخاطب بالكلام الخشن المؤذي الذي قد يؤدي إلى الخصومة والعداوة، ويأمرهم بدلاً عن ذلك بالتخاطب بالكلام الحسن والكلمة الطيبة. ولا يكتفي الإسلام بذلك بل يأمر بالدفع بالتي هي أحسن عند حدوث ما قد يؤدي إلى الفرقة، فيأمر بالعفو عن المسيء والصفح عنه، ومقابلة إساءتِهِ بالإحسان إليه. و لحرص الإسلام على ما ذكرنا يحرص الشيطان على ضده، يحرص على إحداث الفرقة بين المسلمين، والعداوة بين المسلم وأخيه المسلم وبين المسلمين عموماً، ولهذا خصّ الله تعالى بالذكر مداراة المسلم إذا أساء، ومقابلته بالعفو والصفح، بل وبالإحسان إليه حتى يقلع عن إساءتِهِ وعداوته، ويرجع إلى المودة والأُخوة الإسلامية، وفي هذا التشريع الإسلامي والالتزام به تفويت لأغراض الشيطان الخبيثة، وإفشال لسعيه في إحداث الفرقة والعداوة بين المسلمين، ووقاية لهم من مكايده. ونذكر فيما يلي بعض الآيات الكريمة الدالة على ما ذكرناه.

١١٩-أ- العفو عن المسيء والإحسانُ إليه ومعاملة الناس بالرفق:

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢١٨)، العفو في اللغة: الفضل وما يأتي من الناس من غير كلفة. ويدخل في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ المساهلة والمسامحة في الحقوق الشخصية للإنسان، فلا ينبغي أن يتشدد صاحبها في استيفائها، ويدخل أيضاً في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ التخلق مع الناس بالخلق الطيب الحسن، وترك الغلظة والفظاظة معهم. ويدخل في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ دعوة الخلق إلى الدين الحق بالرفق

---

(٢١٨) سورة الأعراف، الآيتان ١٩٩، ٢٠٠.

واللطف[219]. ويدخل في مفهوم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أيضاً ما جاء في الحديث النبوي الشريف «وأن تعفوَ عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[220] وقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف ويدخل في ذلك جميع الطاعات ومنها معاملة الناس بالحسنى والرفق[221]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ لما كان الناصح لغيره كالمُعرَّض لعداوتهم، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء لهذا الناصِح الأمين، فعليه في هذه الحالة الإعراض عنهم، فلا يقابلهم بالمثل بل يحلم عنهم، ويعفو عنهم، ويصبر على أذاهم، فهذا الأسلوب من المعاملة هو الأسلوب النافع الذي يؤمل أن يَكُفَهم عما هم فيه من التمرد والإيذاء لناصحهم[222]، وهذه الآية في معاملة الأعداء من البشر، أمّا في معاملة الشيطان العدوِّ المبينِ فنستفيدها من قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ومعنى الآية: وإما يصيبنَّكَ من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهل الجاهلين وإساءتهم، وتحملك على خلاف ما أمرك به الشرعُ من العفو عنهم مع الاستمرار على أمرهم بالمعروف، ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي استجر به وادعه لدفع الشيطان عنك، إنه سميع لدعائك عليم باستعاذتك[223]. فهذه الآية في معاملة الشيطان الذي لا ينفع معه إحسانٌ ولا مداراة.

١٢٠- ب -التخاطب بين المسلمين بأحسن الكلام:

قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأمر المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، أي أفسد فيما بينهم، وهيّج الشر والمِراء؛ لتقع بينهم العداوة والمضادة ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ أي: شديد العداوة للإنسان ولذلك

---

(٢١٩) تفسر الرازي ج١٥ ص٩٥-٩٦.

(٢٢٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧٧.

(٢٢١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧٧.

(٢٢٢) تفسير الرازي ج١٥ ص٩٦، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢٥.

(٢٢٣) تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢٦-٢٢٧.

فهو لا يريد إلا الشر لهم، والعداوة فيما بينهم(٢٢٤).

١٢١ - الدفع بالتي هي أحسن:

قال تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾(٢٢٥). وقوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ ﴾ أي بالخلة التي هي أحسن الخلال، أي بالصفح ومكارم الأخلاق، ادفع إساءة من يسيءُ إليك، فبهذا تعود عداوته صداقة وبغْضُهُ محبة(٢٢٦). وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشرور والفساد والصد عن الحق، لأن الشياطينَ لا ينفع معهم شيء ولا ينقادون بالمعروف(٢٢٧). ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾ أي أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأن من شؤوني أو في شيء من أمري، ولهذا أمر الشرع بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان(٢٢٨).

١٢٢- وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(٢٢٩).

وقوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: (ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه).

---

(٢٢٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٥، تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٧٧ وآية قل لعبادي.. الخ في سورة الإسراء رقمها ٥٥.

(٢٢٥) سورة المؤمنون، الآيات ٩٦-٩٨.

(٢٢٦) تفسير ابن كثيرج٣ ص٢٥٤، تفسير القاسمي ج١٢ ص١٠٠.

(٢٢٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٥٤، تفسير القاسمي ج١٢ ص١٠٠.

(٢٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٥٤.

(٢٢٩) سورة فصلت الآيات ٣٤-٣٦.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ كأنه ولي أي صديق أو قريب ﴿ حَمِيمٌ ﴾ أي شديد الولاء. ومعنى ذلك أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتْهُ تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، أي وما يقبل هذه الوصية وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، وما يقبل هذه الوصية ﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة(٢٣٠).

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي وإما يلقينَّ الشيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء بالإساءة والانتقام منه، فاستجر بالله من وساوس هذا الشيطان ونزغه وشره، فإنّهُ يسمع استعاذتك ويعلم بحالك(٢٣١). فالشيطان لا تنفع معه مداراة ولا مقابلة إساءتِهِ بإحسان، لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله، ولا يقبل منك غير هذا أبداً، أما عدوُّ الإنس فقد ينفع معه إحسانك إليه، وعدم مقابلة إساءتِهِ بإساءةٍ مثلها، ولذلك حثنا الشرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه، أما بالنسبة لنزغ الشيطان وتحرشه بالإنسان فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلصك من شره.

الفرع السادس
كشف خواطر الشيطان ووزنها بميزان الإسلام

١٢٣ لكل إنسان شيطان:

لكل إنسان شيطان هو قرينه في الدنيا يلازمه بقصد إغوائه وإضلاله، ولا يفارقه إلا إذا مات. جاء في الحديث النبوي الشريف «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، قيل ولا أنت يا رسول الله، قال ولا أنا، إلا أن الله أعانني عليه

---

(٢٣٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٠٠-١٠١.

(٢٣١) تفسر القاسمي ج١٤ ص٢٧٦-٢٧٧.

فَأَسْلَمُ فلا يأمرني إلا بخير». روي «فأسلم» برفع الميم ونصبها، فالرفع على معنى فأَسْلَمُ من شره، والنصب على معنى فَأَسْلَمَ هو[٢٣٢]. ويوم القيامة يتبرأ الشيطان من إضلاله للإنسان، قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢٣٣] والمقصود بقرينه، الشيطان قرينُ الإنسان الذي مات كافراً، يقول هذا الشيطان يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي ما أضللته، ولكن كان في ضلال بعيد أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق[٢٣٤].

١٢٤ - الشيطان دائم الوسوسة للإنسان:

الشيطانُ قرين الإنسان، دائم الوسوسة للإنسان، يلقي في قلبه معاني الضلال لا يَفْتُرُ ولا يمل، ولا يكف عن وسوسته إلا بذكر الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، قال: هو الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس[٢٣٥] وقد ذكر الإمامُ القرطبي حديثاً عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس»[٢٣٦].

١٢٥ - الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم:

وللشيطان قدرة فائقة على الوسوسة، فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبرنا بذلك رسولنا الكريم ﷺ، فهو يهتبل الفرص، ويلقي في قلب الإنسان معاني الشر والكفر، جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة صفيَّةَ زوجةِ رسول الله ﷺ في زيارتها له وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً؛ ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال رسول الله ﷺ: «على رسلكما» إنها صفيةُ بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأنا خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو

---

(٢٣٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٦٨.

(٢٣٣) سورة ق الآية ٢٧.

(٢٣٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٢٦.

(٢٣٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٧٥.

(٢٣٦) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٦٢.

قال شراً﴾[٢٣٧].

١٢٦ - كشف خواطر الشيطان ووسوسته:

خواطر الشيطان هي ما يوسوس به إلى الإنسان، وهي شر وضلال، وأمر بالسوء والفحشاء، وهي ما يلقيه في قلب الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٣٨]. فهل من سبيل إلى كشف هذه الخواطر الشيطانية حتىٰ لا ينخدع بها المسلم، ولا يتابع فيها الشيطان؟ والجواب: نعم، هناك سبيل إلى كشف هذه الخواطر ويكون ذلك - بعون الله تعالى - بإزالة ورفع الغطاء عن كل خاطرة تُلقَى في قلب الإنسان ثم وزنِها بعد انكاشفها بميزان الإسلام. فعندنا، إذن، عملان: رفع الغطاء عن الخواطر لتكشف، ثم وزنها بميزان الإسلام.

١٢٧ - أولاً - رفع الغطاء عن خواطر الشيطان وبعض الأمثلة لها:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٢٣٩] أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المُـزخْرَف وهو القول المُزَوَّق المزين ظاهره، الباطل باطنه، والذي من شأنه أن يغترَّ به الجاهل. وشياطين الجن هم الذين يلقون القول المزخرفَ الباطل إلى شياطين الإنس وإلى الناس عموماً[٢٤٠]. فرفعُ الغطاء عن خواطر الشيطان يحقق كشفها وانكشافها، كما يُظهر تزيين الشيطان لها وتمويهَهُ لما يلقيه في قلب الإنسان، فيكشف قبح ما ألقاه الشيطان، لأنَّ ستر القبيح ولو كان بالستار المُزَخرف لا يغيِّرُ من حقيقته القبيحة وإن كان يخفيها، ألا ترى أن النجاسة تبقىٰ نجاسة وإنّ غطيتَها بالحرير والديباج والستار المُذهَّب.. فإذا رفع الغطاء والستار انكشفت الحقيقة القبيحة الباطلة لما ألقاه الشيطان والتي أراد الشيطان سترها بهذا التزيينِ والتزويق والتمويه.

---

(٢٣٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٧٥.

(٢٣٨) سورة البقرة الآيتان ١٦٨، ١٦٩.

(٢٣٩) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

(٢٤٠) تفسير القرطبي ج٧ ص٦٧، تفسير ابن كثير ج٢ ص١٦٧، تفسير القاسمي ج٧ ص٦٨٨، ٦٨٩.

ومن أمثلة خواطر الشيطان التي يلقيها مزينة ومزوقة؛ ليخدع بها الإنسانَ بالرغم من بطلانها أنه يزيّنُ له المعاصي، ويحسّنها في عينه، ويحسسه بلذاتها، ويرغّبه فيها، وإن كانت محرّمة وزائلة، ولكنها لا ينبغي ان تفوته مع إطماعه بأماني رحمة الله، وقبول توبته فيما بعد. ثم يمضي الشيطان في إغوائه وتزيينه وإلقائه القول المُزَخرفَ فيقول له: فلِمَ هذا الاستعجال بالكف عن المعصية من الآن، أو التوبة من الآن، وفي العمر سَعَةٌ فيمكنه أن يستدرك ما فاته بالتوبة مستقبلاً، والله يقبل التوبة عن عباده. وهذا القول المُزَخرف هو بعض ما ينفثه الشيطان في قلب الإنسان، فعلى المسلم اليقظ أن يزيل هذا الغطاء التمويهيَّ المزوقَ عن مثل هذه الخواطر حتى يتبين له قبحها ويمكنه وزنها بميزان الإسلام.

ومن أمثلة خواطر الشيطان تثبيط المسلم عن الدعوة إلى الله، وعن المشاركة مع الدعاة، وذلك بتزيين وتمويه الشيطان، وإلقائه القولَ المزخرفَ من أنَّ المشاركة في الدعوة إلى الله يُعرض صاحبها إلى الأذى والضرر، والضرر مرفوع، وبالتالي لا يجوز المشاركة في الدعوة إلى الله. ولا شك أن هذا مما يلقيه الشيطان من زخرف القول؛ ليضلَّ به الناس، أو يثبطهم عن العمل الصالح.

١٢٨-ثانياً- وزن الخواطر بميزان الإسلام:

وبعد رفع الغطاء التمويهي عن الخواطر التي يقذفها الشيطان، يجب وزن هذه الخواطر بميزان الإسلام، أي في ضوء معانيه وأحكامه. وقد دلنا على هذا الميزان والوزن به حديثُ رسول الله ﷺ، الذي رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم، وللملك لَمَّةً. فأما لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق. وأما لَمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فلْيعلم أنه من الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ من الشيطان. ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾»[٢٤١] فالعلامة، إذن، على

---

(٢٤١) تفسير القرطبي ج٣ ص٣٢٨-٣٢٩. و(اللَّمة) بفتح اللام الخطرة تقع في قلب الإنسان فإن كانت من خطرات الخير فهي من الملك، وإن كانت من خطرات الشرّ فهي من الشيطان. النهاية لابن الأثير نقلاً عن هامش (١) من تفسير القرطبي ج٣ ص٣٢٩.

أن هذه اللَّمة الخاطرة - هي من خواطر الشيطان كونها إيعاداً بالشر وتكذيباً بالحق. وإن العلامة على أنَّ هذه اللمَّة - الخاطرة - هي من خواطر المَلَك، وبالتالي هي من فضل الله - كونُها، إيعاداً بالخير وتصديقاً بالحق. ولكن كيف نعرف أنَّ هذه العلامة وهي كونها، إيعاداً بالخير أو بالشر، وتصديقاً بالحق أو تكذيباً به؟ والجواب نعرف ذلك بوزن هذه الخاطرة بما هو مقرر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من معاني (الخيرية والحق والتصديق به) ومن (معاني الشر والتكذيب بالحق)، فإذا وجدنا أنَّ هذه الخاطرة تدعو إلى فعل الخير، وتتضمن تصديق الحق، وهو كل ما جاء به الرسول ﷺ من ربه، فهذه الخاطرة من الملك. وأما إذا وجدنا الخاطرة تدعو إلى الشر والمعصية، وتتضمن تكذيب ما جاء به محمد ﷺ من ربه، فهذه الخاطرة من وحي الشيطان، وفي هذه الحالة يجب نبذُ هذه الخاطرة والاستعاذة بالله منها ومن الشيطان الرجيم.

١٢٩ - ومن أمثلة وزن خواطر الشيطان:

- الأمر بمعصية الله مع التطلع إلى رحمته ومغفرته.

كثيراً ما يلقي الشيطان في قلب المسلم خاطرة فعل المعصية مزيناً لها، ومرغباً فيها، وملقياً زخرف القول بشأنها، كأن يوسوس الشيطان للمسلم أنْ لا بأس بفعل هذه المعصية؛ لأن الله تعالى رحيم غفور، وأنَّ باب التوبة مفتوح، ولا يشترط لقبولها التعجيل بها، بل تقبل ولو بعد حين من فعل المعصية، ثم يوغل الشيطان في وسوسته فيقول للمسلم: بل الحزم أن تفعل المعصية، ثم يوغل الشيطان في وسوسته فيقول للمسلم: بل الحزم أن تفعل المعصية ولا تتردد؛ لتحصل على ما في هذه المعصية من لذة ومنفعة عاجلة في الدنيا، ثم تحصل أيضاً على مغفرة الله عن طريق التوبة. ومن وراء التوبة الظفر بنعيم الآخرة؛ لأنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وقد يلحّ الشيطان في وسوسته وفي زخرف قوله، إذا رأى من المسلم تمنعاً ورفضاً للمعصية، فينفث في قلبه أو يذكّره بقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢٤٢]

---

(٢٤٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.

يفعل الشيطان هذا، لأنه لا يترك المسلم ولا ييأس من إغوائه، ولا يقال كيف يذكّره بآيات من القرآن الكريم كالآية التي ذكرتها، وهو شيطان رجيم، والقرآن كله حق؟ والجواب: أن الشيطان يريد أن يقويه، ويدخله في الأماني حتىٰ يوقعه في المعصية والذنب، والذنبُ يجر إلى الذنب ، والمعصيةُ تجر إلى المعصية، وأما استعانة الشيطان بآي من القرآن الكريم، فهذا لأجل إغواء المسلم، ولأنه حصل في زمن النبي ﷺ، فقد قال الإمام القرطبي في تفسيره: «وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة وفيها: فقلت يا رسول الله: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله - لأنه جاء يسرقُ من المال الذي وُكِّلَ أبو هريرة في حفظه - قال أي النبي ﷺ: ما هي؟ قلْتُ - أي أبو هريرة - قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب» تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك شيطان[٢٤٣].

١٣٠ - وزن الخواطر الشيطانية بميزان الشرع فقط:

فعلى المسلم الذي ألقىٰ الشيطان في قلبه هذه الخاطرة - خاطرة فعل المعصية - بزخرف من القول أن يزنها بميزان الشرع فقط دون غيره، بأن يعرضها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنه إن فعل ذلك فسيجد بعد هذا العرض والوزن أَن هذه الخاطرة الزخرفة المزوقة مرفوضة في ميزان الشرع، لأنَّ التشبث برحمة الله ومغفرته يكون بالطريقة التي أرشد إليها الله تعالى، وليس بالطريقة التي يزينها الشيطان. فمن إرشاد الله لعباده في كيفية الظفر برحمته ومغفرته ما نذكره في الآتي:

١٣١ - طريقة تشبث المؤمنين برحمة الله:

وطريقهم في ذلك تعلموها

١- من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[٢٤٤]. جاء

---

(٢٤٣) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٦٩.

(٢٤٤) سورة المؤمنون الآية (٦٠).

في الحديث الذي أخرجه الترمذي أنَّ عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن معنى هذه الآية فقالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرِقُ ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزو جل؟ قال: «لا، يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنهُمُ الذين يصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبَّلَ منهم»(٢٤٥). هؤلاء يقومون بالفرائض، ومع هذا فهم يخافون أن لا تقبل أعمالهم فتفوتهم رحمة الله، لا أن يخالفوا أمر الله ويطيعوا الشيطان ويرجون رحمة الله.

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٤٦)، فهؤلاء عملوا الأعمال الصالحة من إيمان وهجرة وجهاد في سبيل الله ويرجون رحمة الله، وهذا هو الرجاء الصادق من الصادق في رجائه، لا رجاءُ من يبارز ربه بالمعصية وبطاعة الشيطان، ثم يرجو رحمة الله.

٣- وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢٤٧) فرحمتُهُ مرجوّة لمن يطيع الله ويطيع رسوله لا لمن يطيع الشيطان.

١٣٢- فيما يخص التشبث بالتوبة مع تأخيرها:

إن أكثر ما يوسوس به الشيطان، ويزخرف القول به في إغرائه للمسلم على فعل المعصية، أنه يمنّيه بالتوبة، وأنْ لا ضرر عليه في تأخيرها، بل أن مصلحته - كما يزعم الشيطان - فعل المعصية ليحصل على لذتها ومنفعتها، ثم بعد ذلك يتوب، فتسقط معصيته، ويزول أثرها، ويرجع إلى الله تعالى وهو نقي طاهر، فيحصل على نعيم الآخرة. هذا التلبيس الشيطاني يقع فيه المسلم، فيقع في المعصية تشبثاً بما قاله الشيطان في وسوسته. ولغرض بيان بطلان هذا التزيين الشيطاني، وعدم الاغترار به نقول:

لا شك أن باب التوبة مفتوح للمذنبين، ولا يشترط لقبولِ التوبة الفوريةُ أو

---

(٢٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٨.

(٢٤٦) سورة الجاثية الآية (٣٠).

(٢٤٧) سورة آل عمران، الآية (١٣٢).

التعجيلُ، وهذا من حيث المبدأ، ولكن يجب أن يفقه المسلم ما يأتي ليتبَّنَ خطورة تسويف التّوبة وتأخيرها:

١٣٣ - أ - الذنب يؤثر في القلب:

إن الذنب يؤثر في القلب فيسوِّدُهُ ويعميه ثم يميته، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢٤٨]، أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقلٍ قلبه، فإن زاد زادتْ حتى تعلو قلبه وذاك الرانُ الذي ذكر الله في القرآن ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». وقال الحسن البصري: هو الذنبُ على الذنب حتىٰ يعمى القلب فيموت، وكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم[٢٤٩]، فكيف تتأتى التوبةُ ممن يتعمد تأجيلها وتأخيرها، وقد اسود قلبه وعمي ومات بفعل تتابع الذنوب؟ والتوبة كما هو معلوم تقوم على ثلاثة أركان: ندم على ما ارتكبه المسلم من ذنوب، وإقلاع عن الذنب فوراً، وعزم على عدم العود إلى الذنب مستقبلاً، فكيف يتأتى هذا الندمُ من قلب ميت، أو إقلاع عن الذنب حالاً وفوراً، وقد ألف المسلم العاصي فعل المعصية واستمرأها، أو العزم على عدم العود إلى الذنب وهو لا يزال عاكفاً على المعصية مريداً لها مسروراً بها...؟

١٣٤ -ب - قد يموت العاصي قبل أن يتوب:

وحتى لو سلمنا بإمكان التوبة مع التأخير والتسويف فيها مع الاستمرار على فعل المعصية، فهناك خطر أكيد يتهدد الإنسانَ دون سابق إنذار له وهو حلول أجله ورحيله عن هذه الدنيا الفانية، والأجل إذا حان لا يخبر الإنسان بحلوله ولا بقرب هذا الحلول، ولا يستأذنه بالقدوم إليه، ولا يعطيه فرصة لترتيب أموره، وعند ذلك سيندم ولات حينَ مندم، ويقول: ربِّ ارجعوني لعلي أعمل صالحاً، ولكن هيهات هيهات، فلن يؤخر الله نفساً جاء أجلها، ولن يعيدَ أحداً إلى الدنيا ليعمل صالحاً، ولهذه الخطورة الهائلة من هجمة الموت المفاجئة والمعرض لها كل إنسان شاباً كان أو كهلاً أو شيخاً حذرنا الله تعالى من ذلك، فمن تحذيراتِهِ تعالى:

---

(٢٤٨) سورة المطففين، الآية ١٤.

(٢٤٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٨٥.

١٣٥ - التحذير من الموت قبل التوبة:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[٢٥٠]. يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، أو المفرِّطين في أمر الله من المسلمين العصاة، وسؤال الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً فيما تركه، فلا يجاب إلى طلبه، ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (أي لا بُدَّ أن يقولها لا محالة كل محتَضَرٍ ظالم). قال قتادة: (والله ما تمنى أن يرجع إلى أهلٍ ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل). وكان العلاء بن زياد يقول: (لِيُنزِلَنَّ أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وطلب الرجعة فأجابه الله إلى طلبه وأعاده إلى الدنيا، فليعمل بطاعة الله تعالى). ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلىٰ يوم القيامة[٢٥١].

١٣٦ - تحذيرٌ آخر من الموت قبل التوبة:

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢٥٢].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولادُ عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من تلهّى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين يوم القيامة. ثم حثهم على الإنفاق في طاعته، وحذرهم من التهاون في ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

---

(٢٥٠) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩-١٠٠.

(٢٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٥٥-٢٥٦، تفسير القرطبي ج١٢ ص١٤٩-١٥٠.

(٢٥٢) سورة المنافقون الآيات من ٩-١١.

فكل مفرط في جنب الله يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً؛ لتدارك ما فاته، ولكن هيهات، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يمهل أحداً إذا جاء أجله[٢٥٣].

١٣٧ - تحذير ثالث من الموت قبل التوبة:

وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢٥٤]. قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة. ثم قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ..﴾ الخ الآيات... في يوم القيامة يتحسّر المفرّط في حق الله وطاعته، وفي حق التوبة أنْ لم يبادر إليها، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل[٢٥٥].

١٣٨ - معنى آية غفران الذنوب جميعاً:

ويجب أن لا يُساء فهم قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢٥٦] فهذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، وإخبار من الله تعالى بأنه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وإن كانت كثيرة، ولا يصح حَمْلُ هذه الآية الكريمة على غير التوبة؛ لأن الشرك لا يغفره الله لمن لم يتب منه[٢٥٧] وقد بيّنّا ضرورة المبادرة إلى التوبة وعَدَمَ تأخيرها.

---

(٢٥٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٣.

(٢٥٤) سورة الزمر الآيات من ٥٤-٥٨.

(٢٥٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٦٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص٢٦٩-٢٧٢.

(٢٥٦) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٢٥٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٨، تفسير القرطبي ج١٥ ص٢٦٨-٢٦٩.

١٣٩-ج - قبح معصية الله بطاعة الشيطان:

لو قال ولد لأبيه بلسان المقال أو بلسان الحال: أنا يا والدي أعقك متعمداً، ولا أقوم بحقك عليّ، وأصُدُّ عنك ولا ألتفت إلى أوامرك لي، ولا إلى ما تحبه حتى أنا أحبه، ولا إلى ما تكرهه وتسخطه حتى أنا أكرهه وأسخطه، وأفعل ما نهيتني وتنهاني عنه، ثم بعد حين سأعترف لك بتقصيري في حقك، وفي عقوقي لك، وأطمع أن تقبل رجوعي إليك وتعفو عني. فهل في قبح فعل هذا الولد العاقِّ خلاف؟

وهل يُقبل منه هذا العذر في عقوقه لوالده؟ فإذا كان قبح فعل هذا الولد لا خلاف فيه، وكذا عذره في عقوقه لوالده المستمر الدائم وهو أنه سيعتذر منه، ويعترف له بعقوقه في يوم من الأيام، وإن هذا العذر هو من قبيل العذر أكبرُ من الذنب، أقول: إذا كان قبح عصيان هذا الولد لأبيه وعقوقه له قبحاً عظيماً، فإنَّ عصيان العبد لربه الذي خلقه وسواه، وطاعته لعدوه الشيطان أعظم قبحاً من قبح عقوق الولد ومعصيته لأبيه. فعلى الإنسان أن يعقل مدى قبح تمرده على ربه وكفره به، وأن يستقبح المسلمُ معصيته لربه أشد الاستقباح، لأنَّ الله أنعم عليه بنعمة الإيمان وهو يقابله بالعصيان، وبطاعة الشيطان في تزيينه ووسوسته له: بأن لا ضيرَ عليك في معصية الله، فعمرك مديد، وباب الرجوع إلى الله بالتوبة مفتوح غير مسدود.

إن على المسلم أن يعمل بوصية الله لا بما يزينه له الشيطان؛ لإضلاله وحرفه عن الحق، قال تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾(٢٥٨). قوله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ العهد هنا بمعنى الوصية، أي ألم أوصكم وأبلّغْكُمْ على ألسنة الرسل ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ أي لا تطيعوه في معصيتي(٢٥٩). ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال عزّوجل: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ

---

(٢٥٨) سورة يس الآيات ٦٠-٦٢.

(٢٥٩) تفسير القرطبي ج١٥ ص٤٧.

﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خلقاً كثيراً، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من طاعته وحده واتباع شرعه، وعُدُولِكُمْ إلى اتباع الشيطان(٢٦٠).

فعلى الدعاة تبصير الناس بما ذكرته من سبل إغواء الشيطان، ومن سبل الوقاية منه، وأن يجعلوا ذلك من مواضيع الدعوة التي يبيِّنونها للناس. كما عليهم تذكير أنفسهم بها؛ لأنهم بحاجة إلى هذا التذكير.

الفرع السابع
ضرورة وسائل الوقاية العامة للدعاة ولجماعتهم من مكايد الشيطان

١٤٠ - تمهيد:

قلنا: إن وسائل الوقاية العامة من الشيطان ومكايده هي الإيمان بالله والتوكل عليه، وترك المعاصي، وعدم الاغترار بالدنيا ومتاعها، والاستعاذة بالله من الشيطان، وكشف خواطر الشيطان، ووزنها بميزان الإسلام. وهذه الوسائل ضرورية للدعوة والدعاة وللجماعة المسلمة؛ للوقاية من ضرر الشيطان وكيده. بل إن الدعاة والجماعة المسلمة أكثر من غيرهم حاجةً لهذه الوسائل؛ لأنهم مستهدفون من الشيطان أكثر من غيرهم، لأن عملهم - وهو هداية الناس - يضادُّ عمل الشيطان في إغوائهم وإضلالهم. ونبيِّنُ فيما يلي وجه حاجة الدعاة وجماعتهم إلى هذه الوسائل الوقائية، ونضيف إليها ضرورة ظهورهم بمظهر الأسوة الحسنة لغيرهم.

١٤١ - أولاً - الإيمان والتوكل على الله:

الدعاة إلى الله بحاجة ملحة إلى رصيد إيماني عميق وواسع مع تعهد دائم له بالحفظ والزيادة؛ ليواجه الداعية المسلم متطلبات الدعوة من جهة استمرار العمل لها، وتحمل الأذى في سبيلها، لأن الإيمان هو القوة الدافعة للدعوة، والقوة المحركة للداعية؛ للاستمرار في دعوته، وتخطي العقبات، وتحمل الأذى في سبيلها. ومع هذا الإيمانِ العميق توكلٌ كاملٌ على الله رب العالمين مستشعراً كفاية

(٢٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٧٦.

الله له في الحفظ والرعاية، وإنجاح مساعيه في خدمة الدعوة وبلوغ أغراضها.

وبأكثر من هذا القدر من الإيمان والتوكل على الله يجب أن تكون عليه الجماعة المسلمة بأفرادها وقادتها حتى تمضي بعزيمة ثابتة في أعمالها لبلوغ أهدافها.

١٤٢ - ثانياً - ترك المعاصي

أ- المعاصي واستزلال الشيطان للعاصي:

المعاصي تفتح ثغراتٍ في العاصي والعصاة تسهل على الشيطان استزلالهم وإيقاعهم في الخطيئة، كما حصل لبعض المسلمين في معركة أحدٍ الذين فروا من المعركة، وكان فرارهم باستزلال الشيطان لهم، لمعصيتهم أمرَ الرسول ﷺ بالبقاء في المكان الذي عينه لهم في الجبل ولكنَّ أكثرهم خالف هذا الأمر، فتركوا مواقعهم في الجبل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[٢٦١]. فليحذر الدعاة ولتحذر الجماعة المسلمة من الوقوع في المعصية، فليسوا هم خيراً من الذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا وقد ذكرنا قصتهم.

١٤٣ - ب - ترك المعاصي، والأسوة الحسنة:

الدعاة يدعون الناس إلى الإسلام، أي إلى الالتزام بأحكامه، والانصباغ بصبغتِهِ على نحو يظهر أثرها في سلوكهم وأفعالهم وسائر تصرفاتهم. ومن طبائع الناس أنهم يتأثرون بأقوال الداعية، ويستجيبون لما يدعوهم إليه كلما كان هو ملتزماً بأحكام الإسلام لا تخالف أفعالُهُ أقوالَهُ، يفعل المطلوب شرعاً، ويترك المحظور شرعاً. وبالعكس إذا كان هو غيرَ ملتزم بأحكام الإسلام، على الوجه المرضي: يترك المأمورَ بفعله، ويفعل المنهيَّ عن فعله، فإنَّ الناس ينفرون منه ومن أقواله ومما يدعوهم إليه. هذه هي طبائع الناس. ومن أسباب ذلك أنَّ الداعية في مقام القدوة والأسوة للناس، فإمّا أن يكون أسوةً حسنة لهم بالتزامه بأحكام الإسلام ومطابقة أفعاله لأقواله، فيتأثرون بكلامه، ويستجيبون لما يدعوهم إليه، وإما أن يكون في مقام القدوة السيئة فيفرون منه ومن أقواله، ولا يستجيبون لما يدعوهم إليه، وإن

---

(٢٦١) سورة آل عمران، الآية ١٥٥.

كان ما يقوله حقاً في نفسه. ومن أجلّ ذلك قصّ الله علينا من أخبار شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[٢٦٢] أي ليس أنهاكم عن شيء وأرتكبه، كما لا أترك ما أمرتكم به[٢٦٣]. فعلى الداعية المسلم أن يتقي الله في دعوته، ولا يكون أداة تنفيرٍ عنها بسلوكة المخالف للإسلام وبمعصيته لله، فإن الناس لا يسمعون له ولا يستجيبون له، وينفرون منه ومما يدعوهم إليه، وفي هذا ضرر جسيم للدعوة يكون هو مسببه، ويكون الضرر أشد إذا كان الداعية محسوباً على الجماعة المسلمة، فإنَّ الناس عند ذلك ينفرون من الجماعة ذاتها، ولا يثقون بها، ويستغل الشيطان هذه الحالة، فيقبّح لهم الدعوة والدعاة والجماعة المسلمة التي تدعو إلى الله.

١٤٤ -ج - من التقوى ترك المعاصي:

ترك المعاصي أحد عنصري التقوى؛ لأن التقوى كما قال العلماء عبارةٌ عن ترك جميع الذنوب والمعاصي، وفعل ما يستطاع من الطاعات فترك المعاصي مهم جداً للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأنَّ هذا الترك يسهم في تحصيل التقوى، وبتحصيلها يمكنهم تحصيل ثمراتها، فما هي ثمرات التقوى؟

١٤٥ - ثمرات التقوى:

أ- الفرقان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢٦٤].

وقد فُسِّرَ (الفرقان) الذي يجعله الله للمتقين بـ(المخرج) في الدنيا والآخرة وبـ(النجاة) من الشدائد، و(بالنصر)، وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل، وهذا التفسير لكلمة ﴿فُرْقَانًا﴾ أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله كما يقول ابن كثير: فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفقه الله لمعرفة

---

(٢٦٢) سورة هود، الآية ٨٨.

(٢٦٣) تفسير المنار ج٩ ص٥٩٨، وتفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦.

(٢٦٤) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

الحق من الباطل، فكان ذلك سبَبَ نصره ونجاته، ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه، وهو محوها وغفرها، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل[٢٦٥]، وفي تفسير المنار في معنى هذه الآية: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتَّقى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سنته في نظام خلقه يجعل لكم مَلَكَة مَنَ العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل[٢٦٦].

١٤٦ - أهمية الفرقان للدعوة والدعاة:

للفرقان الذي يؤتاه المتقي من ربه أهمية عظيمة جداً للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأن هذا الفرقان كالنور الساطع الذي يكشف لصاحبه الخبايا والأمور الدقيقة، فهو كالمجهر يرينا ما لا نراه بالعين المجردة، فيبصر الداعية مواطن الخطأ فيتجنبها، ومواطن الصواب فيسلكها، وبهذا تمضي الدعوة في طريق مأمون سليم من الخطأ والعُثار، فتترسخ معانيها في الناس، ويعظم أثرها في المجتمع. وأهمية الفرقان للجماعة المسلمةِ أعظم بكثيرٍ من أهميتها للداعية الفرد؛ لأن الجماعة المسلمة تواجه دائماً لا سيما في وقتنا الحاضر تحديات كثيرة، ومواقف صعبة جداً ودقيقة جداً، وإنَّ عليها أن تختار موقفاً منها، وكلها بلا استثناء تختلط فيها المصالح والمفاسد، والمنافع والأضرار، ولا يتبين في أحدها وجه الرجحان في الإقدام عليه والأخذ به، وهنا يأتي عمل هذا (الفرقان) الذي يؤتيه الله لعباده المتقين ثمرة وجائزة لتقواهم، فبقدرِ (تقواهم) تكون قوة (فرقانهم)، وبقدر تقوى الجماعة المسلمة - بأفرادها ودعاتها وقادتها - يكون قوة (فرقان) هذه الجماعة، فتبصر الحق والصواب بتوفيق الله، فتختار في المواقف الصعبة التي تواجهها الموقف الأشبه بالصواب، والأسلم عاقبة، والأنفع للجماعة وللدعوة، والأرضىٰ لله تعالىٰ رب العالمين. فعلى الجماعة المسلمة أن تعمق معاني التقوى في نفوس أفرادها وقادتها ودعاتها بوضع مناهج التقوى من التزام شديد بأحكام الشرع، وبإقبال على الله ومناجاة له في صلاة الليل، وتلاوة كتابه إلى غير ذلك من وسائل التقوى وأسبابها وليس هنا محلَّ تفصيلها. فإذا وفوا بهذا الشرط ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جاءهم جواب الشرط ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

---

(٢٦٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠١-٣٠٢.

(٢٦٦) تفسير المنار ج٩ ص٥٩٦.

١٤٧ - ب- المخرج من كل ضيق مع الرزق الحسن:

ومن ثمرات التقوى المخرج من كل ضيق، مع الرزق الطيب الحسن دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٢٦٧). وهذا من ثمرات التقوى أن يجعل الله للمتقي مخرجاً، ويرزقه الله تعالى رزقاً حسناً من جهة لا تخطر بباله. و(المخرج) هو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، وعن بعض أهل العلم: يجعل له مخرجاً من كل شدة ومن كل شيءٍ ضاق على الناس(٢٦٨). وفي هذا بشارة عظمى للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأنَّ الله تعالى وَعَدَ المتقين أن يهيىءَ لهم مخرجاً من كل كربة وشدة، وما أكثر الكرب والشدائد التي يتسبب بها أعداء الدعوة للجماعة المسلمة وللدعاة، ولكن ذلك لا يقلقهم، ولا يخيفهم، ولا يضعف عزيمتهم؛ لأن الله تعالى وعدهم بالمخرج فلا بد أن يجدوه، وهناك حوادث وقصص كثيرة في المخارج التي لقيها الدعاة بعد أن أحاطت بهم الكُرَبُ والشدائد من كل مكان ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومع (المخرج) الذي يجعله الله للمتقي فإنه تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب، وفي هذا تسلية للداعية، وقوة له، وضمان وكفالة من الله تجعل الداعية لا يلتفت إلى تخويف الشيطان له بتعطيله عن عمله، أو وظيفته إذا استمر في دعوته. إن كل ما على الداعية والجماعة المسلمة هو تحقيق معاني التقوى فيهم من فعل المأمور وترك المحظور، وإخلاص العمل لله، والثقة به، والتوكل عليه، فإذا فعلوا ذلك قاموا بالشرط (تقوى الله) فيأتيهم جواب الشرط ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وهذا هو المأمول والمرجو من الدعاة وجماعتهم.

١٤٨-ج- تيسير الأمور:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾(٢٦٩). قال مقاتل: من يتق الله في

---

(٢٦٧) سورة الطلاق، الآيتان ٢، ٣.

(٢٦٨) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٥٩.

(٢٦٩) سورة الطلاق، الآية ٤.

اجتناب معاصيه يجعلْ له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة[270]. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في معنى هذه الآية: أي يسهل له أمره وييسرُهُ عليه، ويجعل له فَرَجاً قريباً، ومخرجاً عاجلاً[271]. وهذه بشارة أخرى للدعوة وللدعاة وللجماعة المسلمة، ذلك أنَّ الله تعالى يَعِدُ في هذه الآية كل من يتقيه بتيسير أمره بجعله سهلاً وفي متناول يده، وبالفرج والمخرج مما هو فيه وعندما يحتاج إلى هذا المخرج والفرج. ومن المعلوم أن أمور الدعاة والجماعة المسلمة هي أمور الدعوة أي أمر الإسلام، وليست هي أمورهم الدنيوية الشخصية، والآية الكريمة وإن كان فيها وعد الله بتيسير جميع أمور من يتقيه سواء أكانت أموراً خاصة به أو بغيره، فإنَّ أُمور الدعوة وهي أمور دينيةٌ أقرب وأولى بالتسهيل والتيسير واقترانها بالمخرج كلما ضاقت الأمور. فعلى الدعاة والجماعة المسلمةِ فقهُ ذلك، وشرحُه وتوضيحُه للدعاة حتى يزدادوا ثقة بربهم، وتوكلاً عليه في بلوغ أهدافهم، وحتى يزيدوا من جانبهم معاني التقوى في نفوسهم ويعمقوها.

١٤٩-د- تكفير السيئات وتحصيل الأجر:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[272] أي ومن يتق الله يمحُ الله سيئاته، ويجزل له الثواب علىٰ العمل اليسير[273]. وهذه أيضاً ثمرة طيبة من ثمرات التقوى وهي محو خطايا وذنوب المتقين، ويعظم أجورهم على أعمالهم. وهذه الآية تدل علىأن المسلمُ إن كان من المتقين إلا أنه يبقى غير معصوم، فيصدر عنه الذنب، فيحتاج إلى أن يغفر الله له ذنوبه ويمحو سيئاته، ولا يقدح هذا في منزلته وأنه من المتقين. إلا أنَّ المسلم المتقي إذا صدر منه ذنب سارع إلى التوبة فاستغفر ربه وأناب، والله تعالى يحب التوابين. جاء في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر

---

(٢٧٠) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٦٥.

(٢٧١) تفيسر ابن كثير ج٤ ص٣٨٢.

(٢٧٢) سورة الطلاق، الآية (٥).

(٢٧٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٨٢.

لهم»[٢٧٤] رواه مسلم.

١٥٠ - ثالثاً - الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها:

وهذا من سبل الوقاية العامة من الشيطان ومكايده التي لا يجوز إغفالها من قبل الدعاة وجماعتهم؛ لأن الدنيا تغرُّ الإنسان وتخدعه، لأنها واقع محسوسٌ مشهود، والإنسان بطبعه يتأثر بالواقع المحسوس، ويميل إليه إن كان فيه ما يشبع رغباته وشهواته، فيقبل على الدنيا إقبال الجائع إلى الطعام، والعطشان إلى الماء فينسى كونه في الدنيا غريباً أو عابر سبيل، وأن مستقره هناك في الدار الآخرة وليس هنا في هذه الدار الفانيةِ، فعليه الإعداد للرحيل إليها. والشيطان يستغل ميل الإنسان إلى الدنيا، فيدفعه إليها دفعاً، ويزيد من التصاقه بها، وقد ذكرنا فيما سبق شيئاً من ذلك وقلنا: إن من وسائل الوقاية من الشيطان ومكايده الزهدَ في الدنيا، وعدم الاغترار بالدنيا ومتاعها، وهذه الوسيلة ضرورية للدعاة وللجماعة المسلمة؛ لأنهم في مقام القدوة الحسنة، فلا بد أن يكون عندهم ترفع واضح عن الدنيا، وزهد في متاعها الزائل بحيث يدركه الناس فيهم من بعيد، فيأتون إليهم، ويسمعون منهم. وهكذا كان الدعاة الصادقون. وعلى هذا يجب على الدعاة وقادة الجماعة المسلمة وأعضائها أن يأخذوا أنفسهم بأحكامِ العزيمة لا بأحكام الرخصة، وأن يتركوا ما هو مباح في نفسه إن كان في هذا الترك قطع لألسنة أهل الباطل وإسكات لقالة السوء، وحتى لا يدعوا للشيطان منفذاً ينفذ منه بالوسوسة إلى الناس بأنَّ هؤلاء الدعاة والجماعة المسلمة عشاق دنيا وطلاب متاع فَيَنْفَضُّوا عنهم. وليس فيما أقوله تحريم للمباح على الدعاة، لأنّ المباح هو ما جاز فعله وتركه، ولكن إذا كان ترك المباح وسيلة لجذب الناس إلى الدعوة، وقطعاً لأقوال أهل الباطل ووسوسة الشيطان، ودفعاً للشبهة، فإنَّ هذا الترك يصير هو المطلوب شرعاً طلب إيجابٍ أو استحبابٍ كما هو مقرر في أصول الفقه. والحق أن مطالبة الدعاة بترك ما هو مباح في الحالات التي ذكرتها هو بعض ما يقدّمونه للدعوة من تضحيات، فلا يبخلوا بها على الدعوة. وهي على كل حال أيسر بكثير من التضحية بالنفس، وهم مطالبون بها في وقتها، فكيف لا يطالبون بترك المباح في وقته؟!.

---

(٢٧٤) الترغيب والترهيب للمنذري ج٤ ص٩٩.

ومما يسهل على الدعاة حمل أنفسهم على الزهد في الدنيا، وترك المباح لمصلحة الدعوة أن يتخذوا من رسول الله ﷺ وصحبه الكرام القدوة الحسنة في استعلائهم وترفعهم على الدنيا، والزهد في متاعها. وبهذا يثبتون للناس أنهم عشاق الآخرة، وطلاب مرضاة الله، فهم لا يتزاحمون على الدنيا، وإنما يتنافسون في أعمال الآخرة، والآخرة لا تضيق بالمتزاحمين عليها؛ لأن ساحة أعمالها تسعهم جميعاً بخلاف ساحة الدنيا، فإنها تضيق بالمتزاحمين عليها من أجل متاعها.

١٥١ - رابعاً الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن:

وهذه من وسائل الوقاية العامة من الشيطان ومكايده، وهي ضرورية للدعاة وللجماعة المسلمة. وقد تكلمت عن هذه الوسيلة فيما سبق وبينت أنها تهدف إلى صيانة وحدة الأمة الإسلامية، والأُخوة الإسلامية بين المسلمين، ومنع ما من شأنه إحداث الفرقة والعداوة بين المسلم والمسلم، وبين المسلمين عموماً، وبهذا نفوّت على الشيطان ما يبغيه من إحداث الفرقة والعداوة بين المسلمين. فعلى الدعاة والجماعة المسلمة أن يعلموا يقيناً أنَّ ساحة العمل للإسلام تسع جميع العاملين للإسلام أفراداً كانوا أو جماعات، فلا داعي ولا موجب للتقاطع فيما بينهم، ولا للخشونة في القول في مخاطباتهم، وأن يكون شعار الجميع: ادفع بالتي هي أحسن، وقابل السيئة بالحسنة. وأن لا يكون اختلافهم في مناهج العمل للإسلام داعياً للخصام، لأنَّ اختلافهم يشبه اختلاف المجتهدين في مسائل الفقه، واختلافهم لم يؤثر في علاقتهم فيما بينهم، ولا في أخوّتهم الإسلامية، ولا في مودتهم، فكذلك يجب أن يكون الدعاة إلى الإسلام أفراداً كانوا أو جماعات، وهذا لا يمنع أن يرى المسلم أن هذه الجماعة المسلمة أولى بالعمل معها من الجماعات الإسلامية الأخرى، فهذا أمر جائز شرعاً، كما يجوز للمسلم أن يأخذ بالمذهب الفلاني باعتباره أولى من غيره في الاتباع للوصول إلى حكم الشرع الذي جاء في الكتاب والسنة.

١٥٢ - نطاق الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن:

وما قلته هو فيما بين الدعاة والجماعات الإسلامية، وأما بينهم وبين عموم المسلمين الذين يدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام عملاً به وتركاً لغيره، فإن ما بيّنتُهُ

من وسيلة الوقاية من الشيطان في الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن يقال هنا، وعلى الدعاة والجماعة المسلمة أن تلتزم به وأن تتسع صدورهم لجهالة الجاهلين، وأنَ يتسع حلمهم لأذى السفهاء، وأن يقابلوهم بالإحسان كلما أساؤوا إليهم، فإن الداعية يكسب ثقة الناس، ويجذبهم إليه وإلى الدعوة بأخلاقه الحسنة وحلْمِهِ وصبره أكثر مما يجذبهم إليه بكلامه، وليكن رسول الله ﷺ قدوتهم الحسنة في هذا الباب.

١٥٣ - حاجة الدعاة للكلمة الطيبة والدفع فيما بينهم بالتي هي أحسن:

وكما أنَّ وسيلة الوقاية من الشيطان بالكلمة الطيبة، وبالدفع بالتي هي أحسن ضرورية للدعاة وللجماعات الإسلامية في علاقاتهم فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الناس، فإنَّ هذه الوسيلة ضرورية أيضاً داخل الجماعة المسلمة، وفي علاقات أفرادها فيما بينهم. فإن الشيطان قد ينزغ بينهم، ويهيّجُ بعضهم على بعض لكلمة نابيةٍ تنفلِتُ من فم أحدهم فيكبّرها الشيطان، أو لتصرف خاطىء، أو لعمل سيء آذى الآخرين، فعلى أفراد الجماعة وقادتها أن لا يسمحوا لهذه الأمور أن تقع، وأن يأخذوا أنفسهم جميعاً بالالتزام بالكلام اللطيف المهذب في جِدّهم وهزلهم، وأن يجدوا المعاذير لأخيهم إذا أخطأ أو أساء أو تكلم بما لا ينبغي أن يتكلم به، وأن يأخذوا أنفسهم (بالفضل لا بالعدل) في علاقاتهم فيما بينهم. فإذا وقع المحذور، وحصلت القطيعة بين أحدهم أو بعضهم وبين الجماعة المسلمة التي يعملون فيها، فيجبُ عليهم أن يتنبهوا لئلا يستزلهم الشيطان مستغلاً قطيعتهم واختلافهم مع الجماعة، فيجرهم إلى الفجور في خصومتهم، فيصيبهم بعض أوصاف المنافق: «وإذا خاصم فجر»، أو يجرهم إلى الكذب والافتراء على الجماعة، فيصيبهم بعض أوصاف المنافق «وإذا حدث كذب»، أو يجرهم الشيطان إلى إبعاد الناس عن الجماعة، فيقعون في مجال الصدّ عن سبيل الله. والخلاصة يجب عليهم أن يبقوا (مسلمين) في حال اختلافهم مع الجماعة، وابتعادهم عنها أو خروجهم منها، فلا يتصرفون اتجاهها إلا في حدود الشرع. وأنْ تبقى علاقتهم معها محكومة بأحكام الشرع.

١٥٤- خامساً - الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

ومن وسائل الوقاية العامة من الشيطان الرجيم الاستعاذة بالله منه، فعلى الداعية أن يأخذ بهذه الوسيلة على النحو الذي فصّلْتُهُ فيما سبق، فإذا أراد إلقاء موعظة على الناس، أو درس أو خطبة ونحو ذلك من أساليب الدعوة، فعليه أن يستعيذ بالله من الشيطان قبل أن يبدأ بعمله يستعيذ بالله من الشيطان بقلبه وبلسانه، بقلبه بأن يتوجه إلى الله أن يكلأه ويحفظه من شره، وبلسانه ليواطىء لسانه ما في قلبه. وعليه أن لا يغفل عن اللجوء الدائم المستمر إلى الله تعالى من شر الشيطان؛ لأن أكره ما يكرهه الشيطان الدعوة إلى الله، فهو يسعى جهده للتشويش على الدعاة، والشغب ضدهم، وإخافتهم بواسطة أوليائه؛ لصرفهم عن الدعوة والعمل لها. وبالاستعاذة بالله من شره يجد الداعي إن شاء الله تعالى عوناً محسوساً من الله رب العالمين.

١٥٥ - سادساً - كشف خواطر الشيطان:

ومن وسائل الوقاية العامة من الشيطان: كشف خواطره ووزنها بميزان الإسلام، وهذه الوسيلة مهمة وضرورية للدعاة وللجماعة المسلمة، لأنَّ الشيطان أبغض ما يبغضه الدعوة إلى الله ودينه الإسلام، ولذلك فأبغض ما يبغضه الدعاة والجماعة المسلمة، فهو وذريته وأعوانه يحومون حول هؤلاء الدعاة والعاملين في الجماعة المسلمة، ويقذفون في قلوبهم الوساوس والخواطر؛ لصرفهم عن الدعوة، أو لشغلهم بهذه الخواطر. فعلى الدعاة والجماعة المسلمة الكشف عن هذه الخواطر الشيطانية، ووزنها بميزان الإسلام على النحو الذي فصلته من قبل؛ ليسلم عملهم من الخطأ والمخالفة للشرع، أو من الوقوفِ عن العمل.

الفصل الثاني
قصة ابني آدم عليه السلام
هابيل وقابيل

١٥٦ - خلاصة القصة:

قصّ الله علينا خبر ابنيْ آدم وهما هابيل وقابيل على ما ذكره غير واحد من السلف والخلف. وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف أن الله تعالى شرع لآدم أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان آدم عليه السلام يزوج أنثى هذا البطنِ لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمّة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً، فمن تُقُبِّلَ منه فهي له، فتُقبِّلَ من هابيل ولم يتقبلْ من قابيل، فكان من أمرهما ما قصَّه الله في كتابه(٢٧٥).

١٥٧ - حسدَ أخاه فعزم على قتله:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢٧٦). القربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة(٢٧٧).

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ ابنيْ آدم قرّبا قرباناً، قال أهل التفسير في بيان هذا القربان: إنَّ ابنيْ آدم كان أحدهما صاحب زرع (قابيل). والآخر وهو (هابيل)

---

(٢٧٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١.

(٢٧٦) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٢٧٧) تفسير الرازي ج١١ ص٢٠٥، وفي معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص٤١٤-٤١٥: القربان ما يتقرب به إلى الله، وصار في التعارف اسماً للنسيكة التي هي الذبيحة وجمعه قرابين.

صاحب غنم، وإنهما أُمِرا أن يقربا قرباناً، وأنَّ هابيل قرَّبَ خير غنمه وأسمنها وأحسنها، طيبةً بها نفسه، وأنَّ قابيل قرّب شرَّ زرعه غير طيبة به نفسه، وأن الله تعالى تقبَّل قربان صاحب الغنم أي (هابيل) ولم يتقبل قربان صاحب الزرع أي (قابيل)[٢٧٨]. فقال قابيل لأخيه: تُقُبِّلَ قربانُك ولم يتقبّل مني، والله لأقتلنَّك. فهو إنما غضب عليه وحسدَه؛ لقبول قربانه. فقال له أخوه: ما ذنبي؟! إنما يتقبل الله من المتقين، أي ممّنِ اتقى الله في فعله. أي لا يقبل الله تعالى الصدقات وغيرها من الأعمال القبول المقترن بالرضا والإثابة إلا من المتصفين بالتقوى[٢٧٩].

١٥٨ - موقف هابيل من أخيه العازم على قتله:

لما سمع هابيل تهديد أخيه له بالقتل، وعزمه على قتله أجابه بما أخبرنا الله عنه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢٨٠]. أي لئن مددت إليَّ يدك لتقتلني ظلماً، فأنا لا أمدّ يديَ لأقتلك، فلست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله، فلا أقابل صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي أخافُ من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبرُ وأحتسبُ[٢٨١]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[٢٨٢].

١٥٩ - استمرار هابيل في وعظ أخيه:

ولما لم ينفع ما قاله هابيل لأخيه؛ لمنعه من الإجرام خوَّفَهُ بعذاب الآخرة، فقال

---

(٢٧٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢. والتقبل قبول الشيء على وجه يقتضي ثواباً. مفردات الراغب ص٤٠٦.

(٢٧٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣، تفسير المنار ج٦ ص٣٤٢.

(٢٨٠) سورة المائدة، الآية ٢٨.

(٢٨١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣، تفسير المنار ج٦ ص٣٤٣، تفسير القاسمي ج٦ ص١٥٩.

(٢٨٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ج٢ ص٤٣، والقاسمي في تفسيره ج٦ ص١٦٠ والقرطبي في تفسيره ج٦ ص١٣٧.

له: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢٨٣]. أي إني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك ﴿ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي تكون - بما حملته من الإثمين: إثم قتلي، وإثمك الخاص بك قبل أن تقتلني - من أهل النار في الآخرة؛ لأنك تكون ظالماً بقتلي، والنار جزاء كل ظالم[٢٨٤].

١٦٠ - تدرج هابيل في وعظ أخيه:

ويلاحظ في وعظ هابيل لأخيه تدرجُهُ في هذا الوعظ؛ ليصرفه عن عزمه على قتله، فقال له ابتداء: إني لم يصدر مني ذنب ولا إساءة إليك حتى تريد قتلي، وإن سبب عدم قبول قربانك يرجع إلى عدم تقواك؛ لأنَّ الله إنما يتقبل من المتقين. ثم بيّن لأخيه أنْ لانيّة عنده في قتله إذا أراد هو قتله؛ لأنه يخاف اللهَ ربَّ العالمين. ثم ذكّره بأنَّ المعتدي يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه، وإنه بهذين الإثمين يكون من أصحاب النار، وهذا جزاء كل ظالم[٢٨٥]. ومع هذا الوعظِ الخالص من هابيل لم يرجع عن عزمه، وأخبرنا الله بتنفيذ جريمته.

١٦١ - فطوّعتْ له نفسه قتل أخيه:

وبعد هذا الحوار بين هابيل وهو يعظ أخاه بهذه المواعظ البليغة التي تثير في النفس معاني الإيمان والخوف من الله ومن عقابه في الآخرة، وتثير عاطفة الأخوة النسبية، والشفقة على هذا الأخ الناصح النبيل الذي يرفض مقابلة السيئة بالسيئة ولو كانت إرادة قتله أقول: بعد هذا كله أخبرنا الله عما آل إليه الأمر فقال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[٢٨٦]. أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعتْهُ على قتل أخيه فقتله ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة[٢٨٧]. ويقول الشهيد سيد قطب في هذه الآية: (بعد هذا كله. بعد التذكيرِ

---

(٢٨٣) سورة المائدة، الآية ٢٩.

(٢٨٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢، وتفسير المنار ج٦ ص٣٤٤.

(٢٨٥) تفسير المنار ج٦ ص٣٤٤.

(٢٨٦) سورة المائدة الآية ٣٠.

(٢٨٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥.

والعظة والمسالمة والتحذير - أي من أخيه هابيل - بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة - أي نفس قابيل - فوقعت الجريمة، وقعتْ وقد ذللت له نفسه كل عقبة وطوّعت له كل مانع.. طوعت له نفسه القتل.. وقتل من؟ قتل أخيه.. وحق عليه النذير ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته فباء بإثمه الأولِ والأخير)[٢٨٨].

١٦٢ - غراب يعلم القاتل دفن أخيه:

ولما قتل قابيل أخاه هابيل تركه لا يدري ما يصنع به، ثم خاف عليه السباع فحمله على ظهره حتى بعث الله غراباً؛ ليريه كيف يدفن أخاه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾[٢٨٩]. وجاء في تفسيرها أنَّ الله تعالى بعث غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له حفرة، ثم حَثَى عليه التراب - وعن ابن عباس قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واراه، فلما رأى ذلك قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[٢٩٠]، أي لما رأى ما فعل الغراب في دفن الغراب الآخر الذي قتله أو وجده ميتاً، قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة، ولفظها لفظ النداء كأن الويلَ غير حاضرٍ له فناداه ليحضر، أي أيها الويل احضر فهذا أوان حضورك، ثم قام قابيل ودفن أخاه. وبعد هذا الذي وقع أصبح قابيل من النادمين على قتل أخيه؛ لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه بسببه أبواه وإخوته، فكان ندمه لأجل هذه الأسباب لا لكونه معصية، فلم يكن ندمه توبة، فلم ينفعه ندمه[٢٩١].

---

(٢٨٨) في ظلال القرآن مجلد٢ طبعة دار الشروق ص٨٧٦.

(٢٨٩) سورة المائدة من الآية ٣١.

(٢٩٠) سورة المائدة من الآية ٣١.

(٢٩١) تفسير الرازي ج١١ ص٢٠٩-٢١٠.

١٦٣ - الحسد داء قديم:

الحسد داء قديم في البشر، بل هو بعض ما يحمله الإنسان في أصل خلقته، وإنما يقمع أو يستأصل من النفس بالإيمان العميق وبالمعرفة الإسلامية. والدليل على قدم هذا الداء واحتمال حصوله عند أي إنسان حسدُ قابيل لأخيه هابيل، وحسد إخوةِ يوسُفَ لأخيهم يوسف كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

١٦٤ - تعريف الحسد:

الحسد كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه. والغبطة أن لا تحب زوال النعمة، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها[٢٩٢]، وفي مفردات الراغب: الحسد تمني زوال نعمةٍ من مستحقٍ لها وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها. وفي تفسير القرطبي: الحسد تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصرْ للمحسود مثلها[٢٩٣].

١٦٥ - تحذير الشرع من الحسد:

الحسد صفة ذميمة تؤذي صاحبها وتجره إلى صفات ذميمة كالكبر وردٌ الحق، ولذلك لما حسد إبليس آدمَ عليه السلام جره هذا الحسد إلى التكبر على أمر الله بالسجود لآدم فلم يسجد، فطرده الله تعالى، وجعل عليه اللعنة إلى يوم الدين. ثم الحسد من صفات أهل الكتاب اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢٩٤]. وقد حذرنا الشرع من الحسد، فقد قال تعالى آمراً لنا أن نستعيذ به من شر الحاسد قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[٢٩٥].

---

(٢٩٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج٣ ص١٧٤.

(٢٩٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص١١٦، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٥٩.

(٢٩٤) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٢٩٥) سورة الفلق.

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة في ذم الحسد والنهي عنه نذكر منها ما يأتي[٢٩٦].

(أ) - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» رواه أبو داود.

(ب) - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظنَّ. . . ولا تحاسدوا. . . الخ» رواه البخاري ومسلم.

(ج) - عن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة: أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» رواه البيهقي والبزار.

(د) - عن ضمرة بن ثعلبة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا» رواه الطبراني.

١٦٦ - ضرر الحسد بالحاسد:

الحسد يضر الحاسد ويضر المحسود، أما ضرره بالحاسد فمن وجوه كثيرة (منها): أنه يدخل الهمَّ والحزن إلى قلب الحاسد، ولذلك قيل في الحسد إنه مذموم وصاحبه مغموم. وغمه لا لمصيبة حلّتْ في نفسه أو في ماله أو في أهل بيته وإنما لنعمة أوتيها غيرُه فهو لا يشفى من غمه وحزنِه إلا بزوال نعمة المحسود، وهذا حزن لا مثيل له بين الأحزان، لأن المعهود فيها أنها تكون بسبب مكروه يحلّ في نفس الإنسان، أو في عزيز عليه من مال أو أهل أو قريب أو أخ في الإسلام، أما أن يحزنَ المسلم ويغتمَّ لنعمة يؤتاها مسلم من ربه فهذا لا نجده إلا في حزن الحاسد لنعمة المحسود.

(ومنها): أن الحسد يجر إلى معصية الله بمخالفة أمره أو بفعلِ ما نهىٰ عنه. وكان هو أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء، وأول ذنب عُصِيَ به في الأرض: حَسَدَ إبليسُ آدمَ عليه السلام فلم ينفذ أمر الله له بالسجود لآدم حسداً منه له، وحسدَ قابيلُ أخاه هابيل على تقبل الله قربانه فقتله.

---

(٢٩٦) الترغيب والترهيب للمنذري ص٥٤٤-٥٤٧.

(ومنها): أنَّ الحاسد يعصي الشرع في حسده؛ لأنه ينهى عنه، بل إنَّ معصية الحاسد معصية كبيرة وقبيحة، لأنها تقوم على كراهته للمحسود من دون ذنب ارتكبه نحوه ومن دون مضرة منه إليه، وإنما لمجرد نعمة أنعمها الله عليه.

(ومنها): أنَّ الحاسد في حسده كأنه يتسخط على قضاء الله ويعترض على ربه أنْ أعطى المحسود هذه النعمة التي لا يرضاها الحاسد، وهذا أمر كبير جداً قد يجر الحاسد إلى الردة عن الإسلام إذا فقه هذا المعنى الذي يتضمنه الحسد واستمر عليه ولم يرجع عنه.

(ومنها): أنَّ الحسدَ يجعل صاحبه يحزن إذا أصاب المسلمين خيرٌ ويفرح إذا أصابهم ما يسوءهم فيلحق به بعض ما وصف الله به المنافقين، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[٢٩٧].

(ومنها): أنَّ الحسد يسوّد قلب الحاسد ويشغله عن ذكر الله، وفي هذا خسران عظيم للحاسد.

١٦٧ - ضرر الحسد بالمحسود:

أمرنا الله تعالى بالاستعاذة به من شر الحاسد إذا حسد، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٢٩٨]. فهل الحسد لا يضر المحسود إلا إذا ظهر في الخارج بشكل عمل أو قول يؤذي المحسود...؟ وإنه إذا بقي في قلب الحاسد ولم يظهر أثره في الخارج فلا ضرر منه على المحسود...؟ والجواب: هكذا قالوا، ففي تفسير القرطبي (قال العلماء: الحاسدُ لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته، قال ﷺ: «إذا حسدت فلا تبغ»[٢٩٩]. ومثله قال الزمخشري، فقد جاء في تفسير القاسمي ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال الزمخشري: (أي إذا أظهر حسده وعمل

---

(٢٩٧) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

(٢٩٨) سورة الفلق.

(٢٩٩) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٥٩.

بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره)[٣٠٠] ولم يعقب القاسمي رحمه الله على قول الزمخشري فكأنه ارتضاه.

١٦٨ - الراجح أن نفس الحسد فيه ضرر للمحسود:

والراجح أن نفس الحسد فيه شر وأذى للمحسود، وإن لم يظهر الحاسد حسده بفعل أو قول يضر بالمحسود، ونسق الآية الكريمة يشير إلى هذا؛ لأن الأمر بالاستعاذة بالله من الحاسد ﴿ إِذَا حَسَدَ﴾ دون تعليق الاستعاذة بوقوع الحسد بالعمل بمقتضاه. ثم إنَّ أغوار النفس البشريةِ لا يمكن أن يحيطَ بها ويعرف دقائقها وخصائصها وقواها وتأثيراتها إلا الذي خلقها وهو الله جل جلاله، فلماذا نستعجل وننفي الضرر عن المحسود إذا حسده الحاسد، ونقول: لا ضرر عليه إلا إذا أظهر حسده في الخارج بفعل أو قول، ولا حجة عندنا ولا دليل على هذا الادعاء إلا جهلنا بحقيقة النفس وقواها؟ وقد أجاد الشهيد سيد قطب في تعليل ميله إلى أن الحسد بذاته قد يؤذي، فيستحق الاستعاذة بالله منه، فقد قال رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: (والحسد انفعال نفسي ازاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها. وسواء اتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حدّ الانفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال. . .) ثم قال رحمه الله: (فإذا حسد الحاسد ووجّه انفعالاً نفسياً معيّناً إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سرّ هذا الأثر وكيفيته، فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان. . .)[٣٠١].

١٦٩ - اعتراض وردّه:

ولا يقال هنا على وجه السؤال أو الاعتراض على ما رجحناه: إننا لا نلاحظ ضرراً يحدث بالمحسود بمجرد حسد الحاسد مما يدل على أن الحسد بذاته لا يضر

---

(٣٠٠) تفسير القاسمي ج١٧ ص٣٠٥.

(٣٠١) في ظلال القرآن مجلد ٦ ص٤٠٠٨.

إذا لم يظهر أثره في الخارج، لا يقال هذا لأن قولنا إن الحسد بذاته فيه أذى وضرر أي أنه سبب من الأسباب الضارة شأنه شأن أي سبب سواءً أكان من الأسباب المادية أم المعنوية، ومن المعلوم أن كل سبب لا يظهر أثره ولا يؤدي إلى مسُبَّبه إلا إذا توافرت شروطه، وانتفت عنه موانعه، وهكذا القول في (الحسد) فهو سبب يفضي إلى أثره في إيذاء وإضرار المحسود إذا ما توافرت شروط هذا السبب وانتفت موانعه، فمن هذه الشروط أن يكون هذا الحسد بقدر كاف من التأثير، وأن يكون المحسود بقدر كاف من التأثر به، وبقدر كاف من انعدام الوقاية والحصانة منه، ومن الوقاية منه الإيمانُ العميقُ ودوام ذكر الله والتوكل عليه والاستعاذة به من شر الشيطان وشر الحاسد. وكان ﷺ يقرأ بالمعوذتين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ . . . السورة و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ السورة وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسدِهِ[٣٠٢].

١٧٠ - موقف الدعاة والجماعة المسلمة من الحسد / تمهيد:

بينا فيما سبق أنَّ الحسد داء قديم، وأنّه من طبائع النفس البشرية، وأنه كما وقع بين الناس في الماضي فإنه يقع في الحاضر والمستقبل، فلا يجوز إغفاله وعدم الوقاية منه ومعالجته إذا وقع. . إنَّه داء خطير أشد خطورة من كثير من الأدواء المادية التي تصيب بدن الإنسان، وخطورته تأتي من خطورة وعظم آثاره ومن عدم الشعور به وبآثاره، فكثير من الناس يحملون جرثومة هذا الداء ويتصرفون بمقتضاه وهم لا يشعرون. وإذا كان الأمر كما وصفنا فما هو موقف الجماعة المسلمة والدعاة من هذا الداء الخطيرِ: الحسد؟ أي ماذا يجب عليهم أن يفعلوه إزاء هذا الداء الخطير؟ والجواب ما يأتي:

١٧١ - أولاً - اعتبار الحسد من مواضيع الدعوة:

على الجماعة المسلمة وسائر الدعاة اعتبار «الحسد» من مواضيع الدعوة التي يجب التأكيد عليها في الخطب والدروس والمواعظ والمقالات التي يقوم بها الدعاة أو التي تقوم بها الجماعة المسلمة. على أن يجري التأكيد في موضوع «الحسد» على

---

(٣٠٢) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ج٤ ص٥٧٢.

كونه حراماً كحرمة أكل الميتة، وأنه يتضمن الطعن في حكمة الله وفي عدالته في توزيع نعمه على عباده والتسخط على هذا التوزيع، وهذه المعاني كفر وارتداد عن الإسلام قد لا يتنبه إليها الحاسد، فيجب تحذيره منها ومن الحسد الذي يتضمن هذه المعانيَ، وضرورة الإقلاع عن الحسد فوراً، وأن يبين الدعاة في خطبهم وفي دروسهم العامة أو الخاصّةِ لأعضاء الجماعة المسلمة أنَّ الحسد يناقض معاني الأخوة الإسلاميّةِ التي تقوم على المحبة وإرادة الخير للمتآخين، بأخوة الإيمان. إلى غير ذلك مما له علاقة بموضوع الحسد.

١٧٢ - ثانياً - حذر الدعاة والجماعة المسلمة من الحسد:

إن احتمال وقوع الحسد بين الدعاة أنفسهم، أو بين أعضاء الجماعة المسلمة نفسها، أو بين هؤلاء الأعضاء وأولئك الدعاة، هذا الاحتمال لوقوع الحسد بين من ذكرناهم هو احتمال قريب جداً، وليس بالاحتمال البعيد كما قد يظن البعض. وهذا يقتضي المزيد من الحذر؛ لأنَّ اقتراب الخطر يستدعي المزيد من الحذر، ولكن ما هو التعليل لما قلناه من أن احتمال وقوع الحسد بين من ذكرناهم هو احتمال قريب جداً وليس بالبعيد؟ والجواب: إن جرثومة الحسد موجودة في النفس البشرية، وإنما يظهر أثرها بين المشتركين في (وصف معين) ويعرف بعضهم بعضاً، ويوجدون في مكان واحد ويعملون فيه. وأعني (بالوصف المعين) ما يمكن أن يشترك فيه الناس مثل: القرابة، المهنة، الوظيفة في الدولة، الدعوة إلى فكرة معينة أو إلى مبدأ معين، أو غير ذلك مما قد يشترك فيه الناس. ولذلك نجد الحسد بين الأقارب أكثر منه بين الأباعد، بل حتى بين الأقاربِ نجد الحسد أكثر بين من هم أكثر قرباً من غيرهم، كما في حسد إخوة يوسف له وهو أخوهم، حسدوه لاستئثاره بثمرة القرابة دونهم، وهي محبة أبيهم له أكثر من محبته لهم. وقابيل حسد أخاه هابيل؛ لاستئثاره دونه بقبول قربانه مع أن كليهما ولدا آدم عليه السلام أي مع اشتراكهما في البُنُوَّة لآدم.

وكذلك نلاحظ وقوع الحسد بين المشتركين في مهنة واحدة، كالحسد بين القصابين، أو بين النجارين، أو بين الحدادين، ولا نجد مثل هذا الحسد بين قصاب ونجار، أو بين حداد وبناء. وكذلك نجد الحسد بين الموظفين في دائرة واحدة، أو

بين الكتّاب أو بين الشعراء أو بين غيرهم من المشتركين في عمل واحد. إلا أنَّ هذا الحسد بين المشتركين في (وصف معين) مما ذكرنا أمثلة له، إنما يشترط لوقوعه أن يكون هؤلاء المشتركون في هذا الوصف، يعرف بعضهم بعضاً، ويوجدون ويعملون في مكان واحد كأنْ يوجدوا في بلد واحد، أو في مدينة واحدة، أو في محلة واحدة، وكلما ضاق مكان تواجدهم وعملهم فيه كانت الفرصة كبيرةً لوقوع الحسد بينهم، ولهذا لا يقع الحسد بين من لا يعرفُ بعضهم بعضاً كشخص في بلد وآخر في بلد آخر، ولا يعرف أحدهم الآخر أصلاً، أو يعرفه بالاسم فقط. والدعاة يشتركون في وصف (الدعوة إلى الله) ويعرف بعضهم بعضاً إذا كانوا من أعضاء الجماعة الإسلامية وهذا هو الغالب، ويتواجدون في مكان معين - كبلد واحد أو مدينة معينة - ويقومون بسعيهم وعملهم المشكور في هذا المكان المعين، ويترتب على ذلك توافر المناخ الملائم لبروز جرثومة الحسد، وظهور أثرها فيما بينهم. وكذلك القول بالنسبة لأعضاء الجماعة المسلمة يشتركون في وصف الانتماء إليها، ويعرف بعضهم بعضاً، ويوجدون في مكان واحد، وعملهم في نطاق الجماعة في مكان واحد مما يجعل وقوع الحسد محتملاً جداً لتوافر شروطه. ولكن كيف يكون الحذر من الحسد لمنع وقوعه، ورفعه إذا وقع؟

١٧٣ - كيف يكون الحذر من الحسد؟

قلنا: إن الحسد محتمل الوقوع بين الدعاة أنفسهم أو بين أعضاء الجماعة المسلمة، وإن هذا الاحتمال يقتضي الحذر بل والمزيد منه فكيف يكون الحذر المجدي النافع الذي يمنع وقوع الحسد، ويرفعه إذا وقع؟ والجواب يكون بالوقاية منه باتخاذِ أسباب الوقاية، وبمعالجتِهِ بأسباب العلاجِ الناجعة إذا وقع، فما هي وسائل الوقاية من الحسد، وما هي وسائل معالجته لرفعه إذا وقع؟

١٧٤ - وسائل الوقاية من الحسد:

يمكن رد وسائل الوقاية من الحسد إلى ثلاث وسائل: التذكير، والإيمان، والإخلاص. فلنتكلم عن كل واحدة من هذه الوسائل بالقدر الذي نراه كافياً في بحثنا.

١٧٥ - أولاً - التذكير:

ذكرنا فيما مضى أضرار الحسد بالحاسد، ويستحسن أن تقال في مقام التذكير مع ما نذكره هنا لأن الإنسان ينسى، ولا عجب ولا غرابة في أن ينسى، فقد نسي أبونا آدم من قبل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٣٠٣]. وبالتذكير نستدرك ما يفوّته علينا النسيان. وبالنسبة للحسد فإن المسلم قد لا يتنبه إليه؛ لأنه من أعمال القلوب، فعلى الدعاة أن يذكّروا أنفسهم، وأن يذكّروا غيرهم من أفراد الجماعة المسلمة بأضرار الحسد، ووجوب تزكية النفس من أكداره وأقذاره وضرب الأمثال، إلى غير ذلك مما له علاقة بالحسد، ويساعد على وقاية المسلم منه. ويمكن أن نجمل ما يقال في التذكير بما يأتي:

١٧٦ -أ- التذكير بتحريم الحسد:

ذكر فيما سبق تحريم الحسد، وأنه مما يجب ذكره والتأكيد عليه عند الكلام عن الحسد، وتكرار التذكير بتحريم الحسد ضروري؛ لأنه من المحرمات القلبية التي لا يتفطن إليها أكثر الناس. ومن المفيد تكرير النصوص من القرآن والسنة في تحريم الحسد حتىٰ يرسخ في نفس السامع هذا الحكم الشرعي، فمن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾[٣٠٤]، وظاهر الإثم ما تعلق بأعمال الجوارح، وباطنه ما تعلق بأعمال القلوب كالنيات الباطلة والكبر والحسد[٣٠٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٣٠٦] أي ما ظهر منها من أعمال الجوارح، وما بطن منها من أعمال القلوب[٣٠٧]. وقد ذكرنا أن من أعمال القلوب المحرمة الحسد.

---

(٣٠٣) سورة طه، الآية ١١٥.

(٣٠٤) سورة الأنعام، الآية ١٢٠.

(٣٠٥) تفسير المنار ج٨ ص٢١، وتفسير القاسمي ج٧ ص٦٥٧.

(٣٠٦) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

(٣٠٧) تفسير القاسمي ج٧ ص٦٩، تفسير المنار ج٨ ص٣٩٥.

١٧٧ - ب - الحسد من أخلاق اليهود:

والحسد من أخلاق اليهود الذميمة، والشأن بالمسلم أن لا يتخلق بأخلاقهم الذميمة، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... ﴾[٣٠٨]، فاليهود أحبوا ارتداد المسلمين عن دينهم بدافع حسد اليهود للمؤمنين[٣٠٩].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[٣١٠]. والمراد بهؤلاء الحاسدين هم اليهود[٣١١]. وهذه الآية في معرض الإنكار عليهم[٣١٢].

١٧٨ - ج - مدح الله الأنصار لتخليهم عن الحسد:

والشأن بالمسلم أن يقتدي بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾[٣١٣]، قال الرازي: فأثنى عليهم بعدم الحسد[٣١٤]، وقال ابن كثير: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أي لا يجدون - وهم الأنصار - حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة. وقال الحسن البصري ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعني الحسد[٣١٥]، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي يقدم الأنصارُ المحاويجَ على حاجة أنفسهم[٣١٦].

---

(٣٠٨) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٣٠٩) تفسير الرازي ج٣ ص٢٤٤.

(٣١٠) سورة النساء الآية ٥٤.

(٣١١) تفسير القرطبي ج٥ ص٢٥١.

(٣١٢) تفسر الرازي ج٣ ص٢٣٨.

(٣١٣) سورة الحشر الآية ٩.

(٣١٤) تفسير الرازي ج٣ ص٢٣٨.

(٣١٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٦.

(٣١٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.

١٧٩ -د- في الحسد منزلق إلى الردة:

قال الإمام القرطبي: (وإنما كان الحسد مذموماً؛ لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق)[٣١٧]. وقال الإمام الرازي: (إنك بالحسد كرهت حكم الله، ونازعته في قسمته التي قسمها لعباده، وعدله الذي أقامه في خلقه بخفي حكمته)[٣١٨] فعلى الداعية أن يفّهم الدعاة الآخرين، ويفّهم نفسه قبلهم، وعلى قادة الجماعة المسلمة أن يُفهموا أعضاءها، ما يتضمنه الحسد من معاني الكفر والردة والتي أشار إلى بعضها القرطبي والرازي، حتّىٰ يقلعوا فوراً عن الحسد، ويغسلوا قلوبهم من أقذاره بماء التوبة الطهور.

١٨٠- هـ- في الغبطة عِوَضٌ عن الحسد:

قلنا: إن الحسد أن تحب زوال النعمة التي أنعمها الله على أخيك، فإن اشتهيت لنفسك مثلها دون زوالها فهذا هو الغبطة، وهو جائز بخلاف الحسد إذ هو حرام. وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يأخذ بالغبطة لا بالحسد، فينجو من الحرام، ويقع في الحلال مع احتمال ظفره بما يحب من نعمة تشبه نعمة أخيه، لأنه إذا أحب أن تصيبه نعمة مثل التي أعجبته فإنه يدعو الله بذلك، وقد يستجيب الله دعوته ويحصل مقصوده. أما إذا أخذ بالحسد، فهذا لا يفيده قطعاً؛ لأنه إذا زالت نعمة المحسود أو بقيت فهو لا يستفيد شيئاً سوى الحزن الدائم والإثم ومعصية الله، وهذا ما لا يرتضيه مسلم ولا عاقل لنفسه.

١٨١- ثانياً- في الإيمان وقاية من الحسد:

ومن وسائل الوقاية من الحسد: الإيمان العميق الصحيح، لأنه يطرد الحسد؛ لأنه يضادُّه فهو كالماء الطهور إذا صببته على الشيء القذر أزال قذارته، ولذلك لا يجتمع إيمان صحيح في قلب مع الحسد، جاء في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيحُ جهنم، ولا يجتمع في جوف عبدٍ الإيمان

---

(٣١٧) تفسير القرطبي ج٢ ص٧١.

(٣١٨) تفسير الرازي ج٣ ص٢٤٣.

والحسد»[319] وبيان ذلك أن من معاني الإيمان الاعتراف والتصديق بربوبيّةِ الله تعالى لجميع المخلوقات، ومن جملتها بنو آدم، ومن معاني هذه الربوبية أنَّ الله تعالى هو المعطي والمانع، وأنه هم المنعم المتفضل، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه يربّي خلقه بما يشاء وكيف يشاء، وبحكمته التي لا نحيطُ بها علماً، وأنه لا اعتراض على حكمه وعطائه ومنعه، وأن الإنسانَ عبد لله، وليس من حق العبد الاعتراض على تصرف سيده، فكيف إذا كان السيد هو خالقه ومدبر أمره وهو الله جلّ جلاله؟ أيليق بهذا العبدِ أن يعقب على عدل الله في توزيع نعمه على خلقه؟ والجواب: لا. فكل اعتراض على مشيئة الله وتوزيع نعمه على خلقه اعتراض يناقض حقيقة الإيمان وإن جاء بلباس الحِسد، ولذلك لا يتصور وجود الإيمان الصحيح مع وجود الحسد في قلب المسلم، فتعميق الإيمان في قلب المسلمِ واستحضار معانيه ومستلزماته ومقتضياته من أهم وسائل الوقاية من الحسد. ثم إنَّ من آثار الإيمان ارتباط المسلم بأخيه المسلم برباط الأخوة الإيمانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[320] ومن مقتضيات هذه الأخوّةِ الإيمانية المحبة، وأن يحب المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه، وهو لا يحب زوال نعمته فلا يحبُّ زوال نعمة أخيه.

١٨٢- ثالثاً- الإخلاص والوقاية من الحسد:

المقصود بالإخلاص أنَّ المسلم يقصد بعمله مرضاة الله لا أي شيء آخر، ولا إشراك هذا الشيء الآخر مع مرضاة الله، فلا يقبل الله تعالى من العمل إلا ما كان خالصاً له. فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر- أي السمعة الحسنة- ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له» -أي من الأجر- ثم قال ﷺ: «إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابْتُغِيَ وجهه». رواه أبو داوود[321]. وكما يشترط الإخلاصُ في العمل ليقبله الله، يشترط في العمل أيضاً أن يكون صحيحاً أي مشروعاً، فإن لم يكن

---

(٣١٩) رواه ابن حبان في صحيحه كما جاء في الترغيب والترهيب ص٥٤٦.

(٣٢٠) سورة الحجرات الآية: ١٠.

(٣٢١) الترغيب والترهيب للمنذري ج١ ص٥٥.

مشروعاً لم يقبله الله تعالى، فصار الشرط لقبول العمل عند الله أن يكون مشروعاً وخالصاً لله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿. . . فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣٢٢]. أي فمن كان يرجو ثواب الله فليعمل عملاً صالحاً أي موافقاً لشرع الله، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، أي لا يقصد بعمله وعبادته سوى الله تعالى، ولا يشركْ في قصده هذا أحداً مع الله تعالى. وهذان هما ركنا العمل المقبول: أن يكون العمل مشروعاً، وأن يكون خالصاً لله تعالى[٣٢٣]. وإذا عرف هذا، فالمأمول من الداعية أنه ما جاء إلى الدعوة والعمل لها ودعوة الناس إليها إلا لطلب مرضاة الله تعالى، فيتوفر في عمله شرط القبول وهو مشروعية العمل والإخلاص فيه. وكذلك يقال بالنسبة لعضو الجماعة المسلمة: لم ينتسب إليها إلاّ للعمل فيها طلباً لمرضاة الله فيتحقق في عمله شرط القبول، ومشروعية العمل والإخلاص فيه.

١٨٣- لا حسد مع وجود الإخلاص عند الدعاة:

قلت: إن الإخلاص أن يقصد المسلم بعمله مرضاة الله ولا يشرك أحداً مع الله في هذا القصد. ومعنى ذلك انتفاء موجبات الحسد مثل طلب السمعةِ والصيتِ والمنزلة عند الناس والرئاسة على الآخرين، فهذه الأشياء تكدر الإخلاص وتجعل صاحبها يكره من ينازعُهُ فيها أو يجد فيه معوقاً لبلوغه هذه الأغراض، فيحسده إذا وجد فيه ما يؤخر بلوغه هذه الأغراض. وإذا انتفت موجبات الحسد انتفى الحسد، وترتب على ذلك أنَّ الداعية إذا وجد داعية آخر يؤثر في الناس، ويستجيبون له، ويتجمعون حوله لا يبتئس ولا يضيق صدره، بل يسره ذلك ويفرحه، وهذا هو مقتضى إخلاصه، وقد يُلْبِسُ عليه الشيطان هذا الأمرَ فيُوغِرُ صدره وينفخ في قلبه موسوساً له بأنه لا يريدُ هذا الداعية أن يحتل الصدارة والمنزلة بين الناس، وإنما يجب أن يريدها لنفسه؛ ليكون نفعه للناس أكثر وأشمل، وبالتالي يوسوس له الشيطان بأن يسعى لإبعاده عن الدعوة وتبليغها للناس؛ ليقوم هو بذلك فهذا كله من إيحاء الشيطانِ وإغوائه، لأنَّ المقبول عند الله تعالى -كما ذكرناه- هو العمل المشروع والخالص

---

(٣٢٢) سورة الكهف الآية: ١١٠.

(٣٢٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٨.

لله، وليس من المشروعية في العمل إبعاد داعية يدعو إلى الله على الوجه الشرعي الصحيح، إبعاده بتنفيرِ الناس منه، أو بمنعِهِ من مباشرة عمله في الدعوة إلى الله، وإنما يفعل ذلك من في قلبه موجبات الحسد مع ضعف الإخلاص أو كدورته وعدم نقائه. ولدفع هذه الوسوسة الشيطانية وتزكية إخلاصه وإبقائه نقياً نظيفاً يجب أن يتذكر ويستحضر في ذهنه ما أخبرنا الله به من طلب موسى عليه السلام من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، وأن يشركَهُ في مهمته معللاً ذلك أنه هو أفصح منه لساناً، وبالتالي هو أقدر منه على إنجاح مهمته في تبليغ رسالته إلى فرعون، وهذا شأن المخلص في دعوته، ولم يرَ موسى عليه السلامُ حرجاً في طلبه؛ لأن مقصده إنجاحُ دعوته ومهمته طلباً لمرضاة الله، وهكذا يجب أن يفعل الداعية المخلص. ولنذكر ما أخبرنا الله به من طلب موسى من ربه أن يرسل معه هارون، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[٣٢٤]. طلب موسى من ربه الإعانة؛ لتبليغ الرسالة بأن يجعل له معيناً من أهله وهو أخوه هارون، وأن يشركه معه في النبوة وتبليغ الرسالة[٣٢٥]. وقال تعالى مخبراً عما طلبه موسى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[٣٢٦] فعلى الداعية المخلص أن يستعين بمن هو أقدر منه في الدعوة أو في جانب منها، ولا يجد في ذلك غضاضة، وإذا رأىٰ داعية ناجحاً في دعوة الناس إلى الإسلام، فعليه أن يفرح لا أن يكيد له بالإبعاد وتنفير الناس منه بحجة أنه أولى به في مهمة الدعوة وتبليغها، فهذا من وساوس الشيطان كما قلت.

١٨٤- من دقيق الحسد بين الدعاة:

وكذلك يفعل عضو الجماعة المسلمة فلا يضيق صدره إذا أسندت الجماعة إلى غيره مسؤولية معينةً، أو إمرة معينةً بحجة أنه هو الأولى بما أسند إلى غيره، وأنه يطمعُ بها لينفع الدعوة فهذا من إغواء الشيطان، ويدل على كدورة إخلاصه، فعليه أن يسارع ويطرد وسوسة الشيطان، ويستعيذ بربه من شره، ويدفع عن نفسه الحسد،

---

(٣٢٤) سورة طه الآية ٢٩- ٣٢.

(٣٢٥) تفسير القرطبي ج١١ ص١٩٢-١٩٤.

(٣٢٦) سورة القصص الآيتان ٣٤-٣٥.

وأن يتذكر سابقتين من سوابق صحابة رسول الله ﷺ:

(الأولى): أنَّ رسول الله ﷺ قبيل وفاته أَمَّر أسامة بن زيد على جيش عزم على إرساله إلى أطراف الشام ،لإرهاب الروم، وكان في الجيش أكابر الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب، ولما توفي رسول الله ﷺ كان الجيش في أطراف المدينة، فلما سمع بوفاة رسول الله ﷺ توقف، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أبقى أسامةَ على قيادة الجيش، وأمر بتسييره إلى الجهة التي أراد رسول الله ﷺ إرساله إليها، ولم يعترض أحد على إمرة أُسامة على الجيش بالرغم من صغَرِ سنة بالنسبة إلى من كان في الجيش.

(الثانية): عندما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه خالد بن الوليد من قيادة جيش المسلمين في الشام لمحاربة الروم، وأسند القيادة إلى أبي عبيدة بن الجراح لم يحس خالد بضيق أو حسد لأبي عبيدة، ولم يقل أنا أولى منه بالقيادة، وإنما قال قولته المشهورة: أنا لا أحارب من أجل أبي بكر ولا من أجل عمر إنما أحارب في سبيل الله.

١٨٥- علاج الحسد:

قد لا يأخذ المسلم بوسائل الوقاية من الحسد، أو يأخذها بقدر غير كافٍ؛ فيقع في قلبه الحسد، وربما يجره إلى السعي إلى إيذاء المحسود، وإلحاق الضرر به فعلاً، فكيف يمكنه التخلص منه بعد ما وقع هذا الداء- الحسد- في قلبه، والجواب يكون ذلك، بعون الله تعالى، بما يأتي:

١٨٦- أولاً- الرجوع إلى وسائل الوقاية:

قلنا إنَّ من أسباب أو وسائل الوقاية التذكيرَ والإيمانَ والإخلاصَ، وإنَّ على من ابتُـلِيَ بالحسد أن يسعى إلى تحصيل هذه الأسباب بقدر أكبرَ مما حصل عليه منها. فبالنسبة إلى (التذكير) يعيد إلى ذاكرته ما قلناه من تحذير الشرع من الحسد[٣٢٧]، وما قلناه مما يجب أن يتذكّر به ويذكّره للغير[٣٢٨].

---

(٣٢٧) انظر الفقرة ١٦٥.

(٣٢٨) انظر الفقرة ١٦٦.

١٨٧- ما يزيده المبتلى بالحسد على وسيلة التذكير:

وعليه، أن يذكّر نفسه بما كان عليه سلفنا الصالح من الصحابة الكرام من الترفع عن الحسد والاستعلاء عليه، وعدم الاكتفاء بطهارة قلوبهم من الحسد، بل تجاوزوا ذلك ووصلوا إلى مستوى (الإيثار). قال تعالى في حق (الأنصار) من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . ﴾[٣٢٩]، قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾: يعني حاجة أي يقدمون المحاويجَ على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك[٣٣٠]. ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ومن هذا المقام- مقام الإيثار- تصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال رضي الله عنه: (أبقيت لهم الله ورسوله)[٣٣١]. وهكذا حالُ عكرمةَ رضي الله عنه وأصحابه يومَ اليرموك، وقد وقعوا جرحى في المعركة فجاء أحدهم (بالماء) ليسقيه عكرمةَ فسمع أنين جريح فأومأ إلى صاحب الماء أنِ اذهب بالماء إلى هذا الجريح، فلما وصل إليه ليناوله الماء سمع هذا الجريحُ أنينَ جريح آخرَ، فأومأ إلى صاحب الماء أنِ أذهبْ به إلى هذا الجريح، فلما وصل إليه صاحبُ الماء وجده قد مات، ولما رجع إلى الثاني وجده قد مات، ولما رجع إلى الأول وجده قد مات، وهكذا آثر كل واحد منهم صاحبه بالماء وهو أحوج ما يكونون إليه حتى ماتوا جميعاً ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم[٣٣٢].

إن على الحاسد وهو يمرر على سمعه قصص أولئك الأخيار في ترفعهم على الحسد، وبلوغهم مرتبةَ «الإيثار» أن يخجل من نفسه، ويستحي وهو متمرغ في أقذار الحسد، ويدعى أَنَّهُ من المؤمنين، هؤلاء المؤمنون قد بلغوا مرتبة الإيثار،

---

(٣٢٩) سورة الحشر، الآية ٧.

(٣٣٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.

(٣٣١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.

(٣٣٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨.

فهل يليق به أن يبقى في هذا المستوى الهابط، ومن سبقوه من أهل الإيمان قد وصلوا إلى مرتبة «الإيثار»؟

١٨٨- شيء آخر يزيده على تذكير نفسه:

ومما يزيده على (تذكير) نفسه لغرض علاجها مما ابتلِيت به من الحسد أن يعرف يقيناً بأنَّ خلوصه من (الحسد) يؤدي به إلى الجنة، وهذا ثمن يسير جداً يدفعه المسلم؛ ليظفر بنعيم الجنة، وأقول: إنه ثمن يسير جداً للظفر بالجنةِ، أقول هذا على سبيل التنزل والتحريض على التخلي عن الحسد، وإلا فإنَّ ترفع المسلم عن الحسد وتخلية قلبه منه، هو مثل تخلصِهِ من مرض وبيلٍ قاطع، وتخلصه منه لا يعُدَّ ثمناً يقدمه لشيء آخر، بل هو يحتاج إلى ثمن للتخلص منه. وما أخبرنا رسول الله ﷺ يدل على ما قلته، فقد روي عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع- أي يظهر- الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وَضوئهِ[٣٣٣]. قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغدّ- أي اليوم الثاني- قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ: مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول. فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو، وطلب منه أن يبيت عنده لينظر عمله فبات ثلاث ليال لم يرَ منه كبيرعمل، فقال عبد الله لذلك الرجل: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرّاتٍ، فأردت أن أبيت عندك فأنظرَ ما عملك؟ فأقتديَ بك، فلم أرك عملتَ كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟، قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما ولّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: هذه التي بلغت بك». رواه الإمام أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم، والنسائي[٣٣٤].

---

(٣٣٣) تنطف لحيته من وضَوئه، جاء في مختار الصحاح للرازي ص٢٧٧ نطفان الماء سيلانُهُ، والفعل ينطف. فمعنى العبارة: تقطر أو تسيل لحيته من الماء الذي توضأ به.

(٣٣٤) الترغيب والترهيب للمنذري ج٣ ص٥٤٨-٥٤٩.

١٨٩- وشيء آخر يزيده على تذكير نفسه:

ومما يزيده على تذكير نفسه أن يذكر في دعائه بعد صلاة الفجر يومياً ما جاء في أدعية «المأثورات» للإمام حسن البنا رحمه الله «اللهم ما أَصْبَحَتْ بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر».

١٩٠ - ومن علاج الحسد تعميق معاني الإيمان والإخلاص وما يزيد عليها:

وأما بالنسبة للإيمان والإخلاص والاستزادة منهما، فعلى المبتلىٰ بالحسد أن يسعى إلى تعميق معاني الإيمان في قلبه، وكذلك معاني الإخلاص، وذلك بالتأمل فيما ذكرتُهُ عن الإيمان والإخلاص، وأَنْ يزيد عليه باستحضار ما يعينه على ذلك، ومن ذلك أن يعلم أنَّ أعمالَ الدعوة والانتساب إلى الجماعة المسلمة هي من أعمال الدين التي يتقرب بها المسلم إلى الله، ويرجو من ورائها أحسن الجزاء من ربه تعالى، وإنَّ الشرط لذلك أن يكون مخلصاً في عمله، أي لا يريد من ورائه إلا مرضاة الله وثوابه، وأنَّ مما يكدر صفو إخلاصه (الحسد) الذي يسلِمُهُ إلى قبائح الأعمال، وبالتالي إلى محقِ إخلاصه وخسرانه الأجر من الله، وانكشافِ أمره في الدنيا فيخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

١٩١- من سبل علاج الحسد لدى الداعية:

إن على الداعية والمنتسب إلى الجماعة المسلمة، أن ينزّلا نفسيهما منزلة من يأتي إلى المسجد للصلاة، يأتيه ليحصل على أجر الصلاة في جماعة، وليس مقصده أن يصير إماماً، لأنّ أجر الصلاة في جماعة يحصل له سواء أصار إماماً أم مأموماً، بل حصوله على هذا الأجر وهو مأموم أقرب وأيسر من حصوله على هذا الأجر وهو إمام. وهكذا الداعية والمنتسب إلى الجماعة المسلمة يحصل له الأجر إن شاء الله تعالى باشتراكه في عمل الدعوة كداعية، أو قائمٍ بأيِّ عمل متعلق بها، فهو لا يتطلع إلى تولّي الإمْرة في الجماعة ولا إلى الاستئثار والانفراد في أعمال الدعوة كداعية، وبالتالي لا يجد حرجاً في نفسه إذا رأى غيره يتولى إمْرةً أو رئاسةً في الجماعة المسلمة، أو رأى غيره من الدعاة يبرز اسمه ويقبل الناس عليه.

١٩٢- القيام بالأعمال المضادة لمقتضيات الحسد:

ومن سبل العلاج المهمة للحسد أن يقوم المسلم بالأعمال المضادة لموجبات الحسد التي يزينها له الشيطان، فإذا فعل ذلك واستمر عليه شفي إن شاء الله تعالى من داء الحسد. فمن هذه الأعمال المضادة، أن يدعو للمحسود، فإن كان حسده له بسبب نعمة المال، دعا الله له بأن يزيد ماله، وأن يوفقه للقيام بشكره كأن يقول: اللهم وسعّ رزقه، وزد ماله، ووفقه للقيام بشكر ما أنعمت عليه من مال، وأن تجعله وما له كما جاء في الحديث النبوي الشريف «نعم المال الصالح للرجل الصالح». وإن كان حسده لعلمه فإنه يدعو له بزيادة العلم النافع، وبأن يوفقه إلى العمل بما علم، وينفع بعلمه المسلمين ويؤجره عليه. بل عليه أن لا يقف عند حدّ الدعاء، وإنما يقوم بالأعمال المضادة لموجبات الحسد، فإن حمله الحسد على ذمه وتحقيره وتنقيص قدره، كلفّ الحاسدُ لسانَهُ المدحَ له وإظهار مآثره وفضله، وإن حمله الحسدُ على التكبر عليه، كلَّفَ نفسه التواضع له، وإن حمله الحسد على قطع أسباب الخير والعون له كلف نفسه السعي في إيصال الخيراتِ إليه، فإذا عرف المحسود ذلك من الحاسد طاب قلبه وأحبّ الحاسدَ، وذلك يفضي آخر الأمر إلى زوال الحسد من وجهين:

(الأول): أنَّ المحسود إذا أحب الحاسد فعل ما يحبه الحاسد فحينئذ يصير الحاسد محباً للمحسود، ويزول الحسد حينئذ إن شاء الله.

(والثاني): أنَّ الحاسد إذا أتى بضد موجبات الحسد على وجه التكلف يصير ذلك فيما بعد طبعاً وسجيةً، فيزول الحسد عنه(٣٣٥).

---

(٣٣٥) تفسير الرازي ج٣ ص٢٤٤.

الفصل الثالث

قصة نوح عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وبيان ما ورد بشأنها في القرآن

١٩٣- خلاصة قصة نوح عليه السلام:

نوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام[(٣٣٦)]. أرسله الله تعالى إلى قومه؛ ليأمرهم بعبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه من أصنام ونحوها، وخوّفهم من عذاب الله إن خالفوه ولم يؤمنوا به، ولكنهم استمروا على كفرهم. وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً[(٣٣٧)]. وظل يدعوهم هذه المدة ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية، وجادلهم وجادلوه في دعوته، ومع هذا كله لم يؤمن من قومه إلا القليل.. وقد أخبره الله تعالى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وهم قلة كما قلنا.. وحينئذ دعا نوح على قومه فقال تعالى عن دعاء نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[(٣٣٨)]. قال الضحاك: (فدعا عليهم نوح لما أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن)، ذكر ذلك الإمام القرطبي في تفسيره عن الضحاك. وقال ابن كثير: وإنما دعا نوح على قومه بهذا الدعاء لخبرته بهم، أي لخبرته بقومه، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً[(٣٣٩)]. وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوته فأمره بصنع السفينة، فلما أتمَّ صنعها، وحان وقت هلاكهم

---

(٣٣٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣، ج٤ ص٧١.

(٣٣٧) قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: سورة العنكبوت الآية١٤.

(٣٣٨) سورة نوح، الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٣٣٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٧.

بالغرق أمره الله تعالى بأن يحمل فيها ما أخبرنا به، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٣٤٠]، وهكذا أهلكهم الله بالغرق بعد أن أمهلهم هذه المدة الطويلة؛ لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وهذا جزاء الظالمين الكافرين.

١٩٤- دعوة نوح هي دعوة جميع الرسل:

إن ما دعا إليه نوح قومه هو عبادة الله وحده، فهو المعبود الحق ولا معبود بحق لقومه ولا لغيرهم من البشر إلا الله تعالى، قال ربنا جل جلاله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٣٤١]. وعبادة الله وحده هي دعوة جميع رسل الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[٣٤٢]. وإذا كانت عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه هي موضوع دعوة نوح ودعوة جميع رسل الله، فما معنى عبادة الله وحده؟

١٩٥- معنى عبادة الله:

العبادة اسم جامع يجمع غاية الحبّ لله وغاية الذلّ له، فمن ذلّ لغيره مع بغضه له لم يكن عابداً له، ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابداً له، والله سبحانه وتعالى يستحق أن يُحَبَّ غاية المحبة، بل يكون هو المحبوب المطلق الذي لا يُحبُّ شيء إلا له، وأن يُعظَّم ويُذلَّ له غاية الذل، بل لا يُذلُّ لشيء إلا من أجله[٣٤٣].

١٩٦- أساليب نوح في الدعوة:

سلك نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى الله تعالى أساليب متعددة آملاً من وراء هذا التعدد أن يستجيب قومه لما يدعوهم إليه، ولكن مع ذلك لم يستجب له إلا القليل من قومه، وهذا يدل على أنَّ أحقية الدعوة، وصحة أسلوب تبليغها لا يكفيان لاستجابة المدعوين وقبولهم بها، بل لا بد من قابلية المدعوين إلى هذه الاستجابة. ومن أساليب نوح في الدعوة تلطفه في مخاطبة قومه وهو يدعوهم إلى الله تعالى،

---

(٣٤٠) سورة هود، الآية ٤٠.

(٣٤١) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٣٤٢) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٣٤٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٥ ص١٦٢.

وإظهار شفقته بهم وترغيبهم بما يرغبون فيه في الدنيا إن هم استجابوا لدعوته، وتحذيرهم من مغبة عنادهم وإصرارهم على رفض دعوته، ودعوته لهم في أحوال وظروف متعددة فهو يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية مع تكرارٍ لدعوتهم وصبر على جهلهم وعنادهم. ونتكلم فيما يأتي بإيجاز عن هذه الأساليب، وما يمكن أن يستفاد منها للدعوة والدعاة.

١٩٧- أولاً - التلطف في مخاطبة قومه:

خاطب نوح عليه السلام قومه وهو يدعوهم إلى الله تعالى بما عسى أن يثير مشاعرهم نحوه فيقبلونَ عليه، ويقبلون منه ما يدعوهم إليه، خاطبهم بقوله «يا قوم» قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ..﴾[٣٤٤]. فهو يشعرهم بهذه الكلمة بأنهم (قومه) فهو منهم، والأصل أن الشخص يريد الخير لقومه، فعلى قومه أن يستمعوا لما يدعوهم إليه ويتأملوا فيه. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣٤٥]. فكلمة (أخوهم) وهي تعني أخوّةَ النسب لا الدين، تثير فيهم عاطفة الأخوة النَّسبيَة وتوحي لهم بأنه يريد لهم الخير، فهو ليس بعيداً عنهم ولا غريباً منهم، إنه أخوهم.

١٩٨- ثانياً - إظهار شفقته عليهم ونصحه لهم:

ولم يكتف نوح عليه السلام بتلطفه في مخاطبة قومه وإنما أظهر لهم شفقته عليهم وحرصه على نصحهم وإرادة الخير لهم، ومن مظاهر شفقته عليهم، أنه أنذرهم من عذاب الله إن رفضوا دعوته، والشفيق يحذر من يشفق عليه مما يضره ومن أسباب هذا الضرر، قال تعالى مخبراً عن نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣٤٦]، يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام إنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا وقبلوا دعوة نوح رفع عنهم ما أنذرهم به[٣٤٧]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

---

(٣٤٤) سورة الأعراف الآية ٥٩.

(٣٤٥) سورة الشعراء، الآية ١٠٦.

(٣٤٦) سورة نوح الآيتان ١، ٢.

(٣٤٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٤.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[348]، أيّ أخاف عليكم من عذاب يوم القيامة إذا لقيتمُ الله وأنتم مشركون به[349]. ولما ردّ الملأ من قومه وهم السادة والكبراء والقادة على نوح عليه السلام بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[350] قال لهم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[351]، فقول نوح عليه السلام ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي أقصد صلاحكم بإخلاص[352]، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من الأمور الغيبية التي لا تُعلم إلا من طريق الوحي، أعلم أشياء لا علم لكم بها، وأعلم من قدرة الله وشدة بطشه على أعدائه وأنَّ بأسه لا يُردَ عن القوم المجرمين الكافرين مالا تعلمونه أنتم[353].

١٩٩- تعليق ابن كثير على ما قاله نوح لقومه:

قال ابن كثير: وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً مبيناً في تبليغه ناصحاً لقومه عالماً بالله لا يدركه أحدٌ من خلق الله في هذه الصفات[354].

٢٠٠- ثالثاً- الدعوة في الليل والنهار وبمختلف الكيفيات:

وكان نوح عليه السلام يغتنم كل فرصة ليدعو قومه إلى الله، سواء سنحت له هذه الفرصة في ليل أو نهار، كما أنه- عليه السلام- كان ينوع صيغ وكيفيات دعوته لهم، فكان يدعوهم جهاراً وسراً وعلانية على أمل أن تنجح معهم هذه الأساليبُ فيستجيبوا لدعوة نوح قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا . . .﴾ إلى قول تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[355] أي دعوتهم مرة

---

(٣٤٨) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٣٤٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٥٠) سورة الأعراف، الآية٦٠.

(٣٥١) سورة الأعراف الآيتان ٦١، ٦٢.

(٣٥٢) تفسير القاسمي ج٧ ص١٦٠.

(٣٥٣) تفسير القاسمي ج٧ ص١٦٠.

(٣٥٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٥٥) سورة نوح الآيات ٥، ٨، ٩.

بعد مرة ليلاً ونهاراً على وجوه متنوعة ما بين مجاهرة وإظهار بلا إخفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم في خفاء. وهذه المراتب والتنوع في أساليب الدعوة أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يفعلها لتكون أنجعَ فيهم(٣٥٦).

٢٠١- رابعاً- الترغيب:

رغّبَ نوح قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم به من مغفرة الله تعالى لذنوبهم ومن إطالة أعمارهم، وفي إطالتها فرصة طيبة لهم؛ ليزدادوا من فعل الخير، وبهذا وبمغفرة ذنوبهم منفعة مؤكدة لهم في الآخرة، قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣٥٧) أمرهم نوح عليه السلام بثلاثة أشياء: أن يعبدوا الله ويتقوه ويطيعوه فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، ورغّبَهم في هذه الأشياء الثلاثة بأنهم إن فعلوها غفر الله ذنوبهم، وأطال أعمارهم، وفي ذلك خير مؤكد ومنفعة لهم في الآخرة.

ثم وعدهم نوح عليه السلام أنهم إن استجابوا لدعوته، وعبدوا الله وحده، وتابوا إليه واستغفروه، فإنَّ الله تعالى سيسبغ عليهم نعمه في الدنيا، وييسر لهم ما يحبونه من منافعها، وهذا من نوح عليه السلام تشجيع لقومه على طاعته، وترغيب لهم في الاستجابة لدعوته بما وعدهم به من خيرات الدنيا ومتاعها. قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(٣٥٨)، أي إذا تبتُمْ إلى الله، واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأمدكم بأموال متنوعة وبنين، أي أعطاكم الأموال والأولاد وجعل لكم جنات، أي بساتين، فيها أنواع الثمار وخلّلَها بالأنهار الجارية بينها. وهذا أسلوب الدعوة بالترغيب(٣٥٩).

---

(٣٥٦) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٩٥.

(٣٥٧) سورة نوح الآيات ٢-٤.

(٣٥٨) سورة نوح الآيات ١٠-١٢.

(٣٥٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٥، تفسير الرازي ج٣٠ ص١٣٨.

٢٠٢- خامساً - الترهيب:

ولم يقتصر نوح عليه السلام على أسلوب الترغيب في تبليغ دعوته إلى قومه وحثهم على الاستجابة لها، وإنما أخذ أيضاً بأسلوب الترهيب أي تخويفهم من العذاب في الدنيا والآخرة إن هم عصوه ولم يستجيبوا لدعوته، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣٦٠]، قال مقاتل: يعني الغرق بالطوفان[٣٦١]، وهذا ترهيب لهم من عصيانه بعذاب الدنيا بالغرق. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[٣٦٢]، أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة إذا خالفتم أمري، ولقيتُم الله وأنتم مشركون به[٣٦٣]. وهذا ترهيب لهم بعذاب الله يوم القيامة إن خالفوه، ولم يستجيبوا لدعوته، وقال تعالى عما قاله نوح لقومه: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[٣٦٤] أي ما لكم لا ترون لله عظمة. وقال ابن عباس: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته أي لا تخافون من بأسه ونقمته[٣٦٥].

٢٠٣- التأكيد على العبودية لله في جميع أساليب الدعوة:

ويلاحظ أن التأكيد على أنَّ العبودية لله، ظاهر وبارز في جميع أساليب الدعوة، منها الآيات التي ذكرناها قبل قليل مثل قوله تعالى حكاية عن قول نوح: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . . . ﴾[٣٦٦] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . . ﴾[٣٦٧]. فنوح عليه السلام تلطف مع قومه في صيغ الخطاب، ولكن مع وضوح إخبارهم بأن الله هو المعبود الحق وأنَّ عليهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادته أحداً.

---

(٣٦٠) سورة نوح الآية ١.

(٣٦١) تفسير الرازي ج٣٠ ص١٣٤.

(٣٦٢) سورة الأعراف الآية ٥٩.

(٣٦٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٦٤) سورة نوح، الآية ١٣.

(٣٦٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٥.

(٣٦٨) سورة الأعراف من الآية ٥٩.

(٣٦٧) سورة نوح الآيتان ٢، ٣.

٢٠٤- جدال نوح مع قومه:

لقد أكثر نوح عليه السلام الجدال مع قومه، حتى قالوا ما أخبرنا الله عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا..﴾[٣٦٨]. وهذا يدل على أنه عليه السلام قد أكثر في الجدالِ معهم، وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة واليوم الآخر[٣٦٩]. والجدال في الدين محمود كجدال نوح والأنبياء أقوامَهم حتى يظهر الحق، فمن قبله أفلح، ومن رده خاب وخسر. وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صور الحق فمذموم وصاحبه في الدارين ملوم[٣٧٠].

٢٠٥- جدال قوم نوح معه:

وكان جدال قوم نوح يقوم على الباطل والافتراء والقول بلا علم ولا دليل ولا برهان، حتى إذا انقطعوا في الجدال وظهر باطلهم، وشدد نوح عليهم الخناق بالحجة والبرهان ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣٧١]. أي فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً في قولك وفيما تدعيه لنفسك من أنك رسول الله.

٢٠٦- نماذج من الجدال بين نوح وقومه:

أ- قولهم عن نوح أنه في ضلال:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣٧٢] والملأ هم السادة والقادة والكبراء في المجتمع، وهؤلاء هم الذين قالوا لنوح عليه السلام ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في دعوتك إيانا أن نترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا آباءنا يعبدونها.

فقال نوح عليه السلام في جوابه لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن

---

(٣٦٨) سورة هود، الآية ٣٢.

(٣٦٩) تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٨.

(٣٧٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٨.

(٣٧١) سورة هود الآية ٣٢.

(٣٧٢) سورة الأعراف الآية ٦٠.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣٧٣]. هكذا أجابهم نوح عليه السلام بجواب لطيف رقيق قوي الحجة، فنفى أن تكون به ضلالة؛ لأنه رسول من رب العالمين، والشأن في الرسول من رب العالمين أن يكون على الهدى والحق المبين، وليس على الضلال، وأنه جاء ليبلغهم رسالات ربه، وينصحَ لهم، وهذا هو شأن رسول الله: يكون مبلغاً عن ربه، صادقاً في تبليغه، ناصحاً لمن يبلغهم، عالماً بالله[٣٧٤].

ثم قال نوح في جوابه لهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣٧٥]. أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله تعالى إلى رجل منكم رحمة بكم، ولطفاً وإحساناً إليكم؛ لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به[٣٧٦].

٢٠٧- ب - ما أثاروه من الشبهات في جدالهم مع نوح:

قال تعالى عن قوم نوح وما أثاروه من الشبهات في جدالهم مع نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[٣٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[٣٧٨]. وقال تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣٧٩].

---

(٣٧٣) سورة الأعراف الآية ٦٠.

(٣٧٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٧٥) سورة الأعراف الآية ٦٣.

(٣٧٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣، تفسير المنار ج٨ ص٤٩٣.

(٣٧٧) سورة هود، الآية ٢٧.

(٣٧٨) سورة المؤمنون، الآيتان ٢٤،٢٥.

(٣٧٩) سورة الشعراء، الآيات من ١١١-١١٤.

٢٠٨- تعداد شبهاتهم في جدالهم مع نوح:

والمستفاد من الآيات التي ذكرناها أنهم أثاروا في جدالهم مع نوح جملة شبهات تبريراً لرفضهم دعوة نوح عليه السلام، وهذه الشبهات هي: (أولاً) كون نوح عليه السلام من البشر. (ثانياً) النبي يكون ملكاً. (ثالثاً) إنّ أتباع نوح من الأرذلين (رابعاً) أنهم لا يرون لنوح ولا للمؤمنين به من فضل عليهم. (خامساً) أنه بدعوته يريد أن يتفضل عليهم. (سادساً) أنه رجل مجنون.

٢٠٩- الشبهة الأولى: كونه من البشر:

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي أنت بشر مثلنا في الجنس لا مَزِيَّةَ لك علينا تكون بها نذيراً لنا، نطيعك ونتبعك مذعنين لنبوتك ورسالتك. فالمساواة في البشرية بينهم وبينه تنافي في زعمهم دعوى تفوق أحد المتساوين على الآخر بجعل أحدهما تابعاً طائعاً، والآخر متبوعاً مطاعاً[٣٨٠]. ثم إن نوحاً ليس بمَلَكٍ، ولكنه بشر فكيف يصح ويجوز - في زعمهم - أن يوحىٰ إليه من دونهم؟[٣٨١].

٢١٠- الرد على هذه الشبهة:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ . . . ﴾[٣٨٢]. ومعنى هذه الآية: أرأيتم إن كنت على يقين، وأمرٍ جلي، وحجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به، ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ وهي النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، فلم تستبينوا بها على ما تدل عليه من التفرقة بيني وبينكم، وإن كنت من البشر مثلكم؛ لأنَّ حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، وما تستلزمه هذه الصفة- صفة النبوة والرسالة- من وجوب متابعتكم وطاعتكم لي، لأني بهذه الصفة أبلغكم ما يوحيه

(٣٨٠) تفسير المنار ج١٢ ص٦١، ٦٢.

(٣٨١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٢.

(٣٨٢) سورة هود الآية ٢٨.

إليَّ ربي. فإذا أنتم جهلتم ما آتاني ربي من رحمة من عنده وهي النبوة، وعُمِّيَتْ عليكم فهل نلزمكم إياها بالجبر والإكراه؟ أي فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها والإيمان بها شئتم أو أبيتم، والحال أنكم كارهون لها إنكاراً وجحوداً واستكباراً؟ أي لا أقدر على ذلك ولا أحاول فعله بالإكراه؛ لأنَّ الإيمان يكون عن رضا واختيار لا عن جبر أو إكراه(٣٨٣).

٢١١- الشبهة الثانية: النبي يكون ملكاً:

قال قوم نوح في تبرير رفضهم دعوة نوح: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(٣٨٤) قولهم ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي لو شاء الله- بزعمهم- إرشاد البشر عن طريق إرسال أنبياء؛ لبعث لهذا الغرض ملائكة، فهم أقدر من البشر على تحقيق هذا الغرض؛ لعلو شأنهم وشدة سطوتهم، فالخلق ينقادونَ إليهم ولا يشكون في رسالتهم، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولاً البتة، وقالوا: ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الذي يدعي، وهو بشر، أنه رسول الله(٣٨٥).

٢١٢- الرد على هذه الشبهة:

إن نوحاً عليه السلام أرسله الله ليبلغ رسالته إلى قومه، قال تعالى حكاية عما قاله نوح: ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾(٣٨٦) ولا قيد ولا تقييد على إرادة الله فيمن يرسله رسولاً، فإن شاء أرسل رسولاً من البشر، ولا تعقيب على مشيئته. وقال تعالى حكاية عما قاله نوح لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٣٨٧) أي لا تعجبوا من هذا، فإنَّ هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم؛ لينذركم

---

(٣٨٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٣، تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٣، تفسير المنار ج١٢ ص٦٣-٦٤.

(٣٨٤) سورة المؤمنون الآية ٢٤.

(٣٨٥) تفسير الرازي ج٢٣ ص٩٢.

(٣٨٦) سورة الأعراف الآية ٦٠.

(٣٨٧) سورة الأعراف الآية ٦٣.

ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به[٣٨٨]. ووجه الرحمة بإرسال رجل من قوم نوح إليهم، أي بإرسال رسول إليهم من البشر وليس من الملائكة. أنَّ البشر لا يطيقون رؤية الملائكة في صورتهمُ الأصلية، لأنَّ البشر في حالتهم العادية غير مستعدين لرؤية الملائكة في حالتهم التي خلقوا عليها، ولهذا لو أرسل الله تعالى رسولاً من الملائكة لجعله رجلاً أي في صورة رجل حتى يمكن للبشر أن يروه ويسمعوا منه، وعند ذلك يعتقدون أنه بشر وليس ملكاً، فلا يتحقق ما يريدونه من أن يكون الرسول ملكاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو جعل الله تعالى الرسول المبعوث إلى البشر ملكاً لجعل الله تعالى هذا الملك متمثلاً في صورة بشر لتمكينهم من رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى، ولو جعله الله تعالى ملكاً في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللَّبْس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً، ولا ينفكون يقترحون جعل الرسول ملكاً، ولا يمكن أن يأتيهم الملك إلا في صورة بشر، فلا يعتقدون أنه ملك وهكذا يبقى الاشتباه عليهم، وكانوا في غنى عن ذلك لو آمنوا أنَّ إرسال الرسول من البشر هو من رحمة الله بهم وإحسانه إليهم حتى يمكنهم أن يسمعوا منه ويفهموه، وبهذا يحصل مقصود النبوة والرسالة[٣٨٩].

٢١٣- الشبهة الثالثة - الأرذلون هم أتباع نوح:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ..﴾[٣٩٠].

الملأ هم السادة والكبراء والرؤساء والأشراف من الكافرين من قوم نوح عليه السلام، فهؤلاء قالوا لنوح عليه السلام رداً لدعوته: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي أرداؤنا وأخساؤنا، ومن هم دون طبقة الأشراف والأكابر، والذين لا حسب لهم ولا مال ولا جاه، أي الفقراء أو

(٣٨٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣.

(٣٨٩) تفسير المنار ج٧ ص٣١٥ وآية ﴿ولو جعلناه ملكاً..﴾ في سورة الأنعام ورقمها ٩.

(٣٩٠) سورة هود، الآية ٢٧.

الضعفاء والخسيسو الصناعات، ولم يتبعْكَ الأشرافُ والرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن اتباعهم لك عن تروّ منهم، ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون وما احتاطوا في ذلك الرأي، وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافي، ولو أنهم أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك(٣٩١).

وقال تعالى في سورة الشعراء عن الملأ من قوم نوح وما قالوه له: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾(٣٩٢). أي أنصدق قولك وقد اتبعك الأرذلون أي أنؤمن لك نحنُ وأتباعك الأرذلون فنُعدَّ منهم(٣٩٣).

٢١٤- الرد على هذه الشبهة:

قال نوح عليه السلام في رد هذه الشبهة كما حكاه الله عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣٩٤).

والمعنى أنَّ نوحاً عليه السلام قال لقومه: أنا لا أطلب مالاً منكم على تبليغكم رسالة ربي حتى يتفاوت الحال عندي بسبب كون المستجيب للدعوة فقيراً أو غنياً، وإذا كان الأمر كذلك فسواء أكانوا فقراء أم أغنياء، فأنا أدعوهم، ومن يستجيب فهو من أتباعي وجلسائي فقيراً كان أو غنياً. وكأنَّ القوم سألوا نوحاً عليه السلام أن يطرد الذين آمنوا عن مجلسه فقال لهم: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من قربي وجواري، لاحتقاركم لهم ووصفكم إياهم بالأراذل جهلاً منكم بقدرهم

---

(٣٩١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٢، تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٢-٢١٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٣ وتفسير المنار ج٧ ص٦١.

(٣٩٢) سورة الشعراء الآية ١١١.

(٣٩٣) تفسير القرطبي ج١٣ ص١١٩-١٢٠.

(٣٩٤) سورة هود، الآيات ٢٩-٣١.

ومنزلتهم عند الله الذي سيلاقونه، فيكون نوح عليه السلام قد قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عز وجل، وبمنزلتهم العالية عنده تعالى، ويمكن أن يكون نوح عليه السلام قد قال هذا على وجه الاختصام، أي لو فعلت ذلك وطردتهم من قربي ومن مجلسي لخاصموني عند الله تعالى، فيجازيهم على إيمانهم بأحسن الجزاء، ويجازي من طردهم بما يستحقه من العقاب.

ثم أكدَّ نوح عليه السلام عزمه على عدم طرد الذين آمنوا فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي من ينصرني من عذاب الله إن طردتهم بعد أن آمنوا لي واتبعوني فيما أبلغهم عن الله تعالى، أفلا تتذكرون؟ أي أتصرون على جهلكم وطلبكم في طردهم ولا تتذكرون أن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم.

ثم أكد نوح عليه السلام هذا البيان بوجه آخر فقال: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي كما لا أسألكم مالاً فكذلك لا أدعي أني أملك مالاً، ولا لي غرض في المال لا أَخْذاً ولا دفعاً، ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي، ولأتباعي، ﴿ولا أقول إني ملك﴾ حتى أتعظم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتواضع، ومن كان هذا شأنه وطريقه فإنه لا يستنكف عن مخالطة المؤمنين الفقراءِ والمساكينِ.

ثم أكد نوح عليه السلام عزمه على عدم طرد الذين آمنوا بقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباع نوح مع الفقر والذلة إلى النفاق، فقال: إني لا أقول ذلك لأنه من باب الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، وعلى هذا فأنا لا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، فالله تعالى أعلم بما في نفوسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم من الله حسن الجزاء، ولو ادعى لهم أحد بشرٍ بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به[٣٩٥].

---

(٣٩٥) تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٤-٢١٦، ابن كثير ج٢ ص٤٤٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦-٢٧، تفسير المنار ج١٢ ص٦٥-٦٨.

٢١٥- مزيد من الرد على شبهتهم:

وقال تعالى عن قوم نوح وما قالوه تبريراً لرفضهم الاستجابة له: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾[٣٩٦]. أي أنهم قالوا لنوح عليه السلام: لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم، وقلة نصيبهم من الدنيا، أو لكونهم من أصحاب الصناعات الخسيسة، فإنَّ الشرف عندهم بالمال والحسب والنسب لا بالأخلاق الفاضلة التي تحمل على تعرُّفِ الحق والتوجه إليه، ثم اعتناقه والمحافظة عليه. وقوله ﴿ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي لم أُكَلَّفِ العلم بأعمالهم إنما كُلِّفْتُ أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالِحرفِ والصنائع، ولا بالغنى والفقر ولا بالحسب والنسب. فلا يختلف الحال من ذلك بسبب الفقر والغنى، ولا بشرف المكاسب ودناءتها، وكأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعاً في العزة والمال، فقال نوح: إني لم أقف على باطنهم، وإنما لي ظاهرهم، فعليَّ أن أقبل تصديقهم إيَّاي، فعلينا الظاهر والله يتولى السرائر، فحسابهم في أعمالهم وإيمانهم على ربي تعالى وليس عليَّ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ كأنهم سألوا نوحاً عليه السلام أن يبعدهم عنه، ويتابعوه ويؤمنوا له، فأبى عليهم ذلك، وأجابهم بالجواب القاطع ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ مبيناً لهم أنَّ الذي يمنعه من طردهم أنهم آمنوا، ثم بيّن أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ أي إنما بعثت نذيراً فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء أكان شريفاً أم وضيعاً، غنياً أم فقيراً[٣٩٧].

٢١٦ - الكفار هم الأراذل:

ويلاحظ على اعتراض قوم نوح عليه وعلى أتباعه أنه يدل على جهلهم وقلة

---

(٣٩٦) سورة الشعراء الآيات ١١١-١١٥.

(٣٩٧) ابن كثير ج٣ ص٣٤٠، تفسير القرطبي ج١٣ ص١١٩-١٢١، الرازي ج٢٤ ص١٥٥، القاسمي ج١٣ ص٣٠.

علمهم وعقلهم واختلال موازينهم، فإنه ليس بعيْبٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإنَّ الحق في نفسه صحيح، ويستوجب اتّباعه سواء أَتَّبَعَهُ الأشرافُ أم الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراءَ ضعفاءَ، وأنَّ الذين يرفضون الحق هم الأراذلُ ولو كانوا أغنياء. ثم إن الواقع غالباً هو أنَّ من يتبع الحق هم ضعفاء الناس وفقراؤهم، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفةُ الحق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٣٩٨]. ولما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟قالَ بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

٢١٧ - الشبهة الرابعة: لا فضل لنوح ولا للمؤمنين:

وقال تعالى حكاية عن قول قوم نوح لنوح ولأتباعه ﴿. . . وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[٣٩٩] أي وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أدنى فضل تمتازون به كالقوة والكثرة والعلم والرأي يحملنا على اتباعكم، والنزول عن جاهنا وامتيازنا عليكم بالجاه المال[٤٠٠]. وقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، أي: كاذبين في جملتكم: نوح في دعواه النبوة، وأتباعه في تصديقه[٤٠١].

٢١٨ - الرد على هذه الشبهة:

وشبهتهم هذه تدل على جهلهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله هي بالعلم والعمل، فكيف اطلعوا على قلوب الخلق وعرفوا ما فيها حتى نفوا هذه الفضيلة؟ إن سبب جهلهم ما لنوح وأتباعه من فضل هو عنادهم واستكبارهم وأهواؤهم، ولو تجردوا من ذلك لعلموا كم آتاهُمُ الله من فضله: فقد أعطى الله لنوح النبوة، ووفَّقَ أتباعه إلى تصديقه والإيمان بما جاء به من ربه. وقولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، هذا ظن لا

---

(٣٩٨) سورة الزخرف، الآية ٢٣.

(٣٩٩) سورة هود الآية ٢٧.

(٤٠٠) تفسير المنار ج١٢ ص٦١.

(٤٠١) تفسير المنار ج١٢ ص٦١.

أساس له من الصحة ولا دليل عليه، فإن ما يدعو إليه نوح هو حق في نفسه ويقبله العقل السليم.

٢١٩ - الشبهة الخامسة: أنه بدعوته يريد أن يتفضل عليهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[٤٠٢]. وقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يرتفع عليكم على سبيل التجبر والتكبر، ويسودكم ويشرف عليكم بأن يكون متبوعاً ونحن له تبع[٤٠٣] بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أُوحِيَ إليه من دونِ قومه[٤٠٤]. ما سمعنا بهذا أي ما سمعنا بمثل دعوته في آبائنا الأولين، أي في الأمم السابقة، فهو رجل به جِنّةٌ أي جنون يجعله لا يدري ما يقول[٤٠٥]. فهو مجنونٌ فيما يزعُمُهُ من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا موته واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه[٤٠٦].

٢٢٠ - رد هذه الشبهة:

زعمهم أنَّ نوحاً عليه السلام يريد التكبر عليهم بدعوىٰ النبوة، زعم باطل وإنما يريد هدايتهم، وتبليغ رسالة ربه إليهم، وهذا في مصلحتهم، وإرادة الخير لهم، فيجب الانقياد إليه. والحقيقةُ أنَّ سبب زعمهم هذا هو أنهم ينكرون نبوة نوح، وبإنكارهم نبوته يحملون دعوته على إرادةِ السيادة والتكبر عليهم. وقولهم: إنه به جِنَّةٌ، قول باطل وكذب، لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله، ولأنَّ الله تعالى لا يرسل مجنوناً.

---

(٤٠٢) سورة المؤمنون الآيات ٢٣-٢٥.

(٤٠٣) تفسير القرطبي ج١٢ ص١١٨.

(٤٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٤.

(٤٠٥) تفسير القرطبي ج١٢ ص١١٩.

(٤٠٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٤.

٢٢١ - انقطاع حجة قوم نوح:

ولما لم يبق لقوم نوحٍ ما يتحججّون به من حجج باطلة في مواجهة نوح عليه السلام، انقلبوا إلى التهديد، وإخافة نوح بالأذى، أو حتى بالقتل إذا استمر بدعوته، وذم ما هم عليه من كفر وشرك، قال تعالى في بيان الحالة التي وصل إليها أولئك الكفرة من قوم نوح: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[٤٠٧] أي لئن لم تنته يا نوح عن سبِّ آلهتنا وعيب ديننا لتكونن من المرجومين بالحجارة، وقال ابن عباس: من المقتولين[٤٠٨]. وفي تفسير ابن كثير في هذه الآية (أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى ذلك لتكونن من المرجومين أي لنرجمنك)[٤٠٩].

٢٢٢ - تحدي نوح لقومه:

وقال تعالى عن قوم نوح وما قاله لهم: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[٤١٠] أي يا قوم: إن كان كَبُرَ أي شقَّ وعَظُمَ عليكم قيامي أي: إذا ثقل عليكم لبثي فيكم وتذكيري إياكم وتخويفي لكم بعذاب الله، فأجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دونه الله تعالى، ثمَّ لا يكن أمركم عليكم غمة، أي ليكن أمركم ظاهراً تتمكنون فيه مما شئتم؛ لا كمن يخفي أمره فلا يقدر على ما يريد ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي توجهوا إلي ولا تأخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخافكم، لأنكم لستم على شيء، وأنا متوكل ومعتمد على الله[٤١١].

٢٢٣ - طلب قوم نوح نزول العذاب بهم:

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ

---

(٤٠٧) سورة الشعراء الآية ١١٦.

(٤٠٨) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٢١ وتفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤١.

(٤٠٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤١.

(٤١٠) سورة يونس الآية ٧١.

(٤١١) ابن كثير ج٢ ص٤٢٥، القرطبي ج١١ ص٤٥١-٤٦٢، تفسير القاسمي ج٢ ص٦٥.

جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٤١٢]. أي لقد حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ أي من النقمَة والعذاب، ادعُ علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به إن كنت من الصادقين في ادعائك النبوة، وأن الله يعاقبنا إن لم نؤمن لك[٤١٣]. فقال لهم نوح عليه السلام بما أخبرنا الله به: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[٤١٤]. أي إن هذا للهِ، وبيده، لا أملكه أنا، وإنما هو الذي يأتيكم به إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تقتضيه حكمته، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي وما أنتم بمانعين الله تعالى من إنزال العذاب بكم إذا شاءه، وإذا شاء أخّره لحكمة يعلمها، ولكن متى شاء وقوعه فلا بد أن يقع[٤١٥].

٢٢٤ - دعاء نوح على قومه:

كان في استعجال قوم نوح نزول العذاب، ومللهم من كثرة جدال نوح، دلالة واضحة على أنهم لا يزالون مستمرين على تكذيب نوح، واتهامه بكذب ما يعدهم من العذاب، وأنهم لم يتزحزحوا عن كفرهم وضلالهم مما أدخل الأسى إلى قلب نوح وجعل اليأس يتسلل إلى نفسه. وقد تأكد هذا اليأس من إيمان قومه بما أخبره الله به بقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[٤١٦]، أي لا تحزن ولاتغتم بما كانوا يفعلونه من تكذيبك، وإيذاءك وإيذاء من آمن لك، فأرِحْ نفسك بعد الآن من جِدالهم وإعراضهم عن دعوتك، فقد حان زمن الانتقام منهم[٤١٧]. فلما أخبره الله بذلك دعا نوح عليهم بما أخبرنا الله به

---

(٤١٢) سورة هود، الآية ٣٢.

(٤١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٣-٣٤٤، تفسير المنار ج١٢ ص٦٩.

(٤١٤) سورة هود، الآية ٣٣.

(٤١٥) تفسير المنار ج١٢ ص٦٩، تفسير الرازي ج١٧ ص٢١٨، تفسير ابن كثير ج٢، ص٣٤٤.

(٤١٦) سورة هود الآية ٣٦.

(٤١٧) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٠، تفسير الرازي ج١٧ ص٢٢١، تفسير المنار ج١٢، ص٧٢.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[418]، قال الإمام القرطبي في هذه الآية: (دعا عليهم حين يئس من اتباعهم إياه). وقال قتادة: (دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[419] وكذلك قال الضحاك مثل قول قتادة[420]، وهو الذي ذكره الرازي في تفسيره عن ابن عباس[421]، وقد أخبر الله تعالى نبيَّه نوحاً عليه السلام بأنَّ إهلاكهم سيكون بالغرق وأمره بصنع السفينة؛ ليركبها هو والمؤمنون للنجاة بها من الغرق، قال تعالى مخاطباً نبيه نوحاً ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[422]، أي ولا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم[423].

٢٢٥ - الركوب في سفينة النجاة:

ولما حان وقت نزول العذاب بقوم نوح، وظهرت علامته، أمر الله نوحاً بما أخبرنا الله به بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[424] أي لما فار التنور - تنور الخبز - أي فار الماء من التنور، فعند ذلك أمر الله نوحاً بأن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء: (الأول) قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى، والتقدير: كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين: واحد ذكر والآخر أنثى. (الثاني): ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والمراد ابنهُ وامرأةُ نوح فقد كانا كافرين حَكَمَ الله عليهما بالهلاك. و(الثالث): والنوع الثالث من تلك الأشياء قوله ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ

---

(٤١٨) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٤١٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣١٢.

(٤٢٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٩.

(٤٢١) تفسير الرازي ج١٧ ص٢٢٠-٢٢١.

(٤٢٢) سورة هود، الآية ٣٧.

(٤٢٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٠.

(٤٢٤) سورة هود، الآية ٤٠.

ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٤٢٥]، فلما حمل نوح في السفينة من أمره الله بحملهم فيها، قال كما أخبرنا الله: ﴿ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ. . . ﴾[٤٢٦].

٢٢٦ - نوح ينادي ابنه للركوب في السفينة:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾[٤٢٧] أي ونادى نوح ابنه وكان في معزل عن السفينة، ولم يكن يعلم نوح أنَّ ابنه كان كافراً، وإنه ظن أنه مؤمن ولذلك قال له ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. قال: سأرجع إلى جبل يمنعني من الماء فلا أغرق. قال نوح: لا مانع اليوم من الغرق، لكن من رحمه الله فهو يعصمه من الغرق. وحال بينهما الموج يعني بين نوح وابنه فكان من المغرقين[٤٢٨].

٢٢٧ - هلاك القوم بالغرق:

قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤٢٩] أي لما تم هلاك قوم نوح بالغرق بالماء الذي غطىٰ الأرض، ووصل إلى قمم الجبال، أمر الله الماء المنهمرمن السماء بالإمساك وأمر الله الأرض بابتلاع الماء، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أي نقص ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي أُحْكِمَ وفرغ منه يعني أُهلِك قوم نوح على تمام وإحكام، أي نفذ ذلك الأمر بإهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين تنفيذاً كاملاً تاماً ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ أي واستقرت السفينةراسية على الجبل المعروف بالجودي،وهو قرب الموصل كما ذكر القرطبي، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً وسحقاً لهم من رحمة الله تعالى[٤٣٠].

---

(٤٢٥) تفسير الرازي ج١٧ ص٢٢٦-٢٢٨.

(٤٢٦) سورة هود الآيتان ٤١-٤٢.

(٤٢٧) سورة هود الآيتان ٤٢-٤٣.

(٤٢٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٨-٣٠.

(٤٢٩) سورة هود الآية ٤٤.

(٤٣٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٠-٤١، تفسير المنار ج١٢ ص٨٠.

٢٢٨ - نداء نوح ربه بشأن ابنه:

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٤٣١).

ذهب الإمام ابن كثير في تفسيره إلى أنَّ هذا النداء من نوح لربه هو سؤال عن حال ولده الذي غرق مع أنه من أهله، قال ابن كثير: (هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي ليس من الذين وعدت بنجاتهم، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبيَّ الله نوحاً عليه السلام)(٤٣٢) وذهب غير ابن كثير من المفسرين إلى أن هذا النداء من نوح كان في أثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ أي فكان نداؤه أن قال: يارب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم في السفينة ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي لا خلف فيه وهذا منه ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ أي أحق من كل من يتصور منهم الحكم وأحسنهم وخيرهم حكماً. ومراد نوح عليه السلام بهذا أن ينجي ابنه الذي تخلف عن السفينة بعد أن دعاه إليها، فامتنع معللاً نفسه بأن يأوي إلى جبل يعتصم به من الغرق، ولم يقتنع بقوله له: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾. فالمعقول أنَّ الدعاء وقع بعد هذه المحاورة مع ابنه، وقبل أن يحول بينهما الموج ويغرق الابن(٤٣٣).

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ الذين أمرتك أن تسلكهم في السفينة لإنجائهم من الغرق، والسبب ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ كأنه لفساده واجتنابه للصلاح، والتزامه العمل

(٤٣١) سورة هود الآيات ٤٥-٤٧.

(٤٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٧-٤٤٨

(٤٣٣) تفسير المنار ج١٢ ص٨٣-٨٤.

غير الصالح، كأنه صار نفس العمل غير الصالح. ومن المعلوم أن الكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الأقربين، ويوجب براءة بعضهم من بعض(٤٣٤). فكأن ابن نوح لم يعد من أهله لكفره، قال الإمام الرازي: وهذه الآية ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ تدل على أنَّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإنَّ في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾(٤٣٥). وقد يقال كيف وقع هذا الدعاء من نوح؟ أي دعاؤُه ربه أن ينجي ابنه، وقد علم أنَّ الذين سبق عليهم القول هم الكافرون الذين قضى الله بهلاكهم، وكان ابنه منهم، ولا يعقل أن يخفى عليه أمره؟ والجواب يحتمل أن نوحاً حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ظن أنَّهُ جنح إلى الإيمان، وصار من أهله الذين وعد الله بنجاتهم. ويحتمل أن يكون قد فهم أنَّ ابنه غير داخل في عموم قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، لأنه تعالى جعل الناجين صنفين: أهله إلا من استثني، ومن آمن من قومه. فجاز في فهمه عليه السلام أن يؤمن من أهله من كان كافراً، لأنهم صنف قائم بذاته، وليسوا قسماً من الصنف الآخر، وهم المؤمنون من قومه، ووافق هذا الفهم وقواه رحمة الأبُوّةِ وشفقتها، فسأل الله تعالى ما سأله بشأن ابنه، فعاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي فلا تسألني في شيء من الأشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب(٤٣٦). ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك منه كراهية أن تكون من الجاهلين، أي الآثمين(٤٣٧). ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٤٣٨). والمعنى أنه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فكأنه قال عند ذلك: قبلت يارب هذا التكليف ولا أعود إليه، إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه، إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا قال: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى

---

(٤٣٤) تفسير المنار ج١٢ ص٨٤.

(٤٣٥) تفسر الرازي ج١٨ ص٢-٣.

(٤٣٦) تفسير المنار ج١٢ ص٨٤-٨٥.

(٤٣٧) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٨.

(٤٣٨) سورة هود الآية ٤٧.

بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، ثم أعلن توبته مما قاله، وذلك بقوله ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، لأنَّ التوبة تقوم بأمرين (الأول) في المستقبل وهو العزم على الترك وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، و(الثاني) في الماضي وهو الندم على ما صدر منه، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٤٣٩].

---

(٤٣٩) تفسير الرازي ج١٨ ص٥.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة نوح للدعوة والدعاة

٢٢٩- الاقتداء بالأنبياء في سيرتهم وأساليبهم في الدعوة إلى الله:

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾(٤٤٠)، أي أولئك الذين هدى الله من الأنبياء - ومنهم نوح - الذين تقدم ذكرهم هُمُ الهداةُ المهديون، فتأسَّ واقتدِ بسيرتهم وبطرقهم التي سلكوها في الدعوة إلى الدين وإقامته(٤٤١). وإذا كان هذا الاقتداء بالرسل السابقين، ومنهم نوح عليه السلام، أمراً لرسول الله ﷺ، فأمته تبعٌ له في هذا الاقتداء(٤٤٢). وقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ .. ﴾ أي كل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين. كل هذا مما نثبت به فؤادك أي قلبك يا محمد، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوةٌ(٤٤٣). وفي ضوء ما تقدم: أذكر فيما يلي ما يمكن أن يستفاد للدعوة والدعاة من قصة نوح عليه السلام، وما جرى له مع قومه، وما اتبعه من أساليبَ في تبليغ الدعوة، وكيفية جدالِهِ مع قومه، وما كان يؤكده في جداله معهم، وسيرته معهم كرسول يريد هدايتهم إلى غير ذلك مما له علاقة بقصة نوح عليه السلام لا سيما وأنه عليه السلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، ويجادلهم دون كلل ولا ملل.

---

(٤٤٠) سورة الأنعام الآية ٩٠.

(٤٤١) تفسير المنار ج٧ ص٥٩٦، وصفوة التفاسير ج١ ص٤٠٤.

(٤٤٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٥٥.

(٤٤٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٦٥، والآية في سورة هود ورقمها ١٢٠.

٢٣٠- أولاً - التلطف مع المدعوين:

على الداعي المسلم أن يتلطف في مخاطبة من يدعوهم، وذلك باستعمال الألفاظ الرقيقة التي تساعد على إقبال المدعو على الداعي وإصغائه لما يقول، كأن يقول له «يا أخي»، أو يناديه بكنيته كأن يقول له: «يا أبا فلان»، وإذا كان يخاطب جمعاً من الناس فمن المستحسن أن يقول لهم: «يا قومي» كما كان يقول نوح عليه السلام لقومه وهو يخاطبهم. أو يقول لهم: يا أبناء عشيرتي، أو يا أبناء محلّتي، مما يشعرهم بأنه - أي الداعي - واحد منهم ليس بعيداً عنهم. ويجوز للداعي أن يخاطب المدعوين بما يذكّرهم بطيب أصلهم، وحسن سيرة آبائهم وأجدادهم، وجهادهم في خدمة الإسلام، وأنهم - أي من يخاطبهم ويدعوهم - أهل لأن يكونوا مثل آبائهم وأجدادهم جهاداً في سبيل الله، وخدمةً لدينه، على أن يكون مدح الداعي لآباء المدعوين بحدود ما يعلمه عنهم، وبدون إسراف في المدح والثناء.

٢٣١- التلطف يكون مع المدعوين الكفار والعصاة:

والتلطف يكون مع الكفار ومع المسلمين العصاة، قال الإمام القرطبي وهو يفَسِّرُ آية ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وهذه الآيةُ نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، فالله جل جلاله يأمُرُ رسوله ﷺ أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنةٍ وتعنيف ولو مع كفار قريش، وهكذا ينبغي أن يكون الوعظ والإرشاد للمسلمين إلى يوم القيامة(٤٤٤).

٢٣٢- التلطف مع المدعوين لا يعني المداهنة ولا النفاق:

وليكن معلوماً أن تلطف الداعي مع المدعو في القول على النحو الذي ذكرناه لا يعني المداهنة ولا النفاق، ولا إخفاء الحق وتحسين الباطل أو الرضا بما عليه المدعو من المخالفة لشرع الله، وإنما هو من الخلق الحسن، ومن باب التشويق للمدعو لقبول الحق، والتشويقُ بقبول الحق أمر مشروع في الإسلام.

---

(٤٤٤) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٠٠. والآية من سورة النحل ورقمها ١٢٥.

٢٣٣- ثانياً - الشفقة على المدعو والنصح له:

وعلى الداعي أن يُشعر المدعوَّ بالشفقة عليه، والنصح له، وأن يبتعد عن روح الاستعلاء على المدعو، أو احتقاره، أو إظهار فضله عليه، وإنما عليه أن يكلمه بروح الناصح الشفيق المخلص في نصحه وشفقته.. يكلمه كمبلغ لمعاني الإسلام، لا أن يكلمه كمبلغ له فضله وعلمه.. إنه كالطبيب، يكلمه كطبيب ناصح يخبره بما يعرفه من أُمور الطب في ضوء ما ظهر له من مرض المريض، ولا يكلمه ليبلغه ويخبره بما يعرفه من علوم الطب، أو يعلمه بمهارته في الطب وامتيازه عليه بهذه المهارة. إن إشعار الداعي للمدعو بالشفقة والنصح يكون بنظرة الداعي إليه، وبانبساط أسارير وجهه. وبنبرة صوته، وبإخباره بالحقائق كما هي دون تهويل، وبتحذيره من مخالفة الشرع. وعلى الداعي المسلم أن يبقى على هذا النهج ولا يحيد عنه، ولو قابله المدعو بما لا يليق. إن المدعوَّ مريض الروح، والمريض يصدر منه ما لا يصدر من الصحيح المُعَافى، فقوم نوح عليه السلام قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فأجابهم نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٤٤٥]. فنوح عليه السلام لم يغضب لقولهم واتهامهم له بالضلال، وإنما نفى عن نفسه الضلال، وأخبرهم بأنه رسول من رب العالمين؛ ليبلغهم ما أُرسِلَ به إليهم، فكيف يكون الرسول ضالاً؟ وبمثل هذا الجواب الخالي من الغضب والانفعال والانتصار للنفس يقبل المدعو على الداعي، ويستجيب لما يدعوه إليه إن لم يكن في المرة الأولى ففي المرات القادمة.

٢٣٤- ثالثاً - التبليغ بالكلام المبين:

وعلى الداعي أن يعلم بأنَّ عليه أنْ يُبلغ ما يريد تبليغه للمدعو بوضوح تام لا إبهام فيه ولا غموض، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[٤٤٦]. وجعل الله تعالى وظيفة الرسل الكرامِ التبليغ المبين، أي الواضح،

---

(٤٤٥) سورة الأعراف، الآيات ٦٠-٦٢.

(٤٤٦) سورة إبراهيم الآية ٤.

لتقوم الحجة على المخاطبين، وهذا واجب الرسل قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٤٤٧]، ولهذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤٤٨]. ومقياس الوضوح في كلام الداعي للمدعو ليس نفس الداعي وفهمه، فقد يكون الكلام واضحاً بالنسبة له غير واضح بالنسبة للمدعو، وكذلك ليس مقياس الوضوح وضوح الكلام بذاته فقد يكون الكلام واضحاً بنفسه غير واضح بالنسبة للمدعو، فالمقياس إذن في وضوح كلام الداعي للمدعو هو أن يكون الكلام واضحاً بالنسبة للمدعو، وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فالبيان لهم أي للمدعوين وليس للداعي. وفي الحديث النبوي الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً) أي بيّناً ظاهراً يفهمه كل من يسمعه[٤٤٩].

٢٣٥- من لوازم الكلام المبين:

ومن لوازم (الكلام المبين) أن يتأنى الداعي في كلامه مع المدعو، فلا يسرع بل يتمهل حتى يستوعب السامع كلامه ويفهمه، جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاريُّ أنَّ النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه[٤٥٠].

ومن لوازم (الكلام المبين) أن يبتعد الداعي في كلامه مع المدعو عن التفاصح والتعاظم في الكلام والتكلف في نطقه، جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ أنه قال: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً»[٤٥١]. والتنطع في الكلام التفاصح فيه والتعمق فيه. وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»[٤٥٢].

---

(٤٤٧) سورة العنكبوت، الآية ١٨.

(٤٤٨) سورة نوح الآية ٢.

(٤٤٩) كتابنا أصول الدعوة ص٤٧١.

(٤٥٠) رياض الصالحين للنووي ص٢٩٦.

(٤٥١) تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول ﷺ لابن الديبع الشيباني ج٣ ص٣١٧.

(٤٥٢) رياض الصالحين ص٢٧٤، والثرثار هو كثير الكلام تكلفاً. والمتشدق هو المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه. والمتفيهق الذي يملأ =

٢٣٦- رابعاً - الدعوة إلى الله في كل وقت ملائم:

والدعوة إلى الله يقوم بها الداعي في أي وقت ملائم في الليل وفي النهار، وبكل صيغة ملائمة لحال المدعو. فعلى الداعي أن يراعي الظروف والأحوال الملائمة للقيام بالدعوة، فلا يدعو في حالة غير ملائمة ولا مناسبة للمدعو، كأن يكون مشغولاً، أو في حالة شديدة من الإرهاق والتعب. وكذلك على الداعي أن يتخير الوقت المناسب فلا يقصد المدعو في وقت القيلولة مثلاً، أو في ساعة متأخرة من الليل.

٢٣٧- على الداعي أن لا يثقل على المدعو:

على الداعي أن لا يثقل على المدعو أو على المدعوين في تكرار تذكيرهم وموعظتهم مخافة السّآمة، وهذا بالنسبة لشخص مُعَيّن أو جماعة معينة يدعوهم الداعي. أما بالنسبة لأصل قيام الداعي بالدعوة إلى الله فهذا يجب أن يستمر ولا ينقطع، ويتكرر، ودليلنا على ما قلناه أن رسول الله ﷺ كان يتخول أصحابه الموعظة في الأيام كراهة السآمة عليهم، فقد أخرج الإمام البخاريُّ رحمه الله تعالى عن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتخول بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا» قال الإمام الخطابي تعليقاً على هذا الخبر: (كان النبي ﷺ يراعي الأوقات في تذكيرهم، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا يملّوا). وقال ابن حجر العسقلاني: ويستفاد من هذا الحديث استحباب ترك المداومة في الجدّ في العمل خشية الملال، وإن كانت المواظبة مطلوبة[٤٥٣]. وقد التزم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بنهج رسول الله ﷺ وسننه في وعظ الناس وتذكيرهم بمعاني الإسلام، فكان يقوم بذلك في كل خميس ولم يستجب لمن طلب منه أن يعظ الناس كل يوم محتجاً بسنة رسول الله ﷺ في تخولهم بالموعظة، فقد أخرج الإمام البخاريُّ رحمه الله عن أبي وائل قال: (كان ابن مسعود يذكّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لَوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم. قال ابن مسعود: أما إنه يمنعني من ذلك أن أملكم وإني أتخولكم

= فمه بالكلام ويتوسع فيه ويغرب به تكبراً وإظهاراً للفضيلة على غيره.

(٤٥٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني ج١ ص١٦٢-١٦٣. ومعنى «يتخولهم» أي يتعهدهم.

بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا)[٤٥٤].

٢٣٨- تخير الصيغة المناسبة للدعوة:

وعلى الداعي أيضاً أن يختار الصيغة المناسبة للشخص المعين أو للجماعة المعينةِ من جهة دعوتهم سراً أو علناً، فقد يصلح لشخص أن تدعوه سراً لا علناً، وقد يصلح لآخر العكس، وكذا يقال بالنسبة لدعوة الجمع من الناس. والضابط في ذلك أن يلاحظ ظروف وأحوال من يريد أن يدعوه أو يدعوهم، وهل يصلح في دعوتهم ويحصل المقصود باستجابتهم دعوتهم سراً أو علناً، وفي ضوء ما يترجح عنده يأخذ بالدعوة سراً أو علناً.

٢٣٩- خامساً الترغيب والترهيب:

رأينا فيما سبق أنَّ سيدنا نوحاً عليه ا لسلام رغبَّ قومه في الاستجابة لدعوته بما وعدهم من مغفرة الله لذنوبهم وبما يسبغه عليهم ربهم من نِعمه في الدنيا. كما أنه عليه السلام خوّفهم من رفضهم دعوة الله بما يصيبهم من نقمة في الدنيا وعذاب في الآخرة. وهذا المسلك في الترغيب والترهيب في الدعوة، يجب أن يأخذ به الداعي، فيرغبّ المدعوين برضوان الله وجناته في الآخرة، وبالعيش الرضي في الدنيا إن هم أطاعوا الله، وأطاعوا رسوله، والتزموا بأحكام الشرع في جميع أمورهم. كما يرغبهم بخيرات الدنيا إن هم أطاعوا الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤٥٥] فهذه الآيات فيها ترغيب بمغفرة الله، ودخول جنته في الآخرة لمن يؤمن بالله ورسوله، ويجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، وترغيب لهم أيضاً بالنصر الذي يحبونه، والفتح القريب أي العاجل. فهذه الزيادة - النصر والفتح القريب - هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله بعد أن آمن ونصر دين الله بماله

---

(٤٥٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٦٣.

(٤٥٥) سورة الصف، الآيات ١٠-١٣.

ونفسه(٤٥٦)، ومن الترغيب بالحياة الطيبة في الدنيا وبالثواب الحسن في الآخرة قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٤٥٧).

ويكون الترهيب بعذاب الله في الآخرة، وبضنك العيش في الدنيا لمن يُعْرَضُ عن شرع الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾(٤٥٨). ومن الآيات التي جمعت الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(٤٥٩).

٢٤٠ - سادساً - التأكيد على عبادة الله وحده:

كان نوح يؤكد في دعوته على عبادة الله وحده ويقول لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾(٤٦٠) فعلى الداعي المسلم أن لا يغفل عن التأكيد على أنَّ الله هو المعبود الحق وأن لا إله إلاّ الله، والقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تأمر الناس بعبادة الله وحده وما يترتب عليها من ثواب، وما يترتب على تركها من عقاب.

٢٤١- سابعاً - جدال الداعي مع المخالفين:

يحتاج الداعي إلى الجدال مع المخالفين لدعوته، فعلى الداعي المسلم أن يجادلهم بالتي هي أحسنُ كما جادل نوح قومه، وكما أمرنا الله به صراحة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ

---

(٤٥٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٦١.

(٤٥٧) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٤٥٨) سورة طه الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٤٥٩) سورة النساء الآيتان ١٣، ١٤.

(٤٦٠) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٤٦١]. يأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى جدال فليكن بالوجه الذي هو أحسن وجوه الجدل، فتجادلهم برفق ولين وحسن خطاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد، فادعهم إلى الله تعالى ولا تذهب نفسك حسرات على من ضل منهم، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب[٤٦٢].

٢٤٢- غرض المخالف دحض الحق، وغرض الداعي هدايته:

غرض أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة ودحض الحق ورد الدعوة وصرف الناس عنها، كما كان هذا الغرضُ هو غرض قوم نوح في جدالهم معه، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٤٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل أي إيراد الشبهات يحسبونها حججاً لهم، ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليزيلوا به الحق الذي جاءت به رسلهم[٤٦٤]. فهذا هو غرض أهل الباطل من جدالهم مع رسلهم، وهذا هو غرض أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة في كل مكان وزمان إلا من رحم ربك. ومع هذا فإنَّ الدعاة يجادلونهم على أمل هدايتهم.

٢٤٣- أهل الباطل يفترون الكذب على الدعوة والدعاة:

ولما كان غرض أهل الباطل الكارهون دعوة الله، صدَّ الناس عنها، ورفضها وعدم قبولها، فإنهم يفترون الكذب، ويوردون الشبهات يحسبونها حججاً لهم في مواجهة الدعوة والدعاة. وقد ذكرنا أنَّ قوم نوح عليه السلام تشبثوا بكل ما ظنوه

---

(٤٦١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٤٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٩١.

(٤٦٣) سورة المؤمن، الآية ٥.

(٤٦٤) تفسير الرازي ج٢٧ ص٣١، تفسير ابن كثير ج٤ ص٧١، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٩٣.

يصلح أن يكون شبهة تصرف الناس عن دعوة نوح، فقالوا: إنه بشر مثلنا، فكيف يختصُّهُ الله من بيننا بالنبوة والرسالة؟ واتهموه بالضلالة، ورموه بالجنون، وبأنه يريد بادعائه النبوة الرياسة عليهم، وبأنه لم يتبعه إلا الأرذلون من الفقراء والضعفاء والمغمورين والجهال الذين يسارعون إلى موافقته واتباعِهِ من دون روية ولا تبصر، ولهذا لم يتبعه أشراف القوم وأكابرهم، وأصحاب الرأي السديد فيهم، إلى غير ذلك من الأكاذيب التي أثاروها؛ لصرف الناس عن نوح ودعوته، وهذا هو ديدنهم في مواجهة الدعوة والدعاة، فلا يعجبُ الدعاة من ذلك.

٢٤٤- حِلْمُ الداعي على المخالفين:

ومع هذا فعلى الداعي أن يحلم على المخالفين وهو يجادلهم بالحسنىٰ وهم يفترون الكذب ويلصقون به وبالدعوة التهم، وليأخذ عبرة من مواقف نوح في جداله مع قومه، فلا يستفزه ما يقوله المبطلون عنه وعن الدعوة، وإنما للداعي فقط أن ينفي ما يتهمونه به بالحجة والبرهان، ويحصر جداله معهم في موضوع الدعوة، فالداعي لا ينتصر لنفسه ولا يغضب لها بل يحلم عليهم، ويصبر على أذاهم بما يفترون عليه من أكاذيب.

٢٤٥- من مكر المخالفين في جدالهم:

ومن مكر المخالفين في جدالهم مع الداعي طعنهم في أتباعه المؤمنين بدعوته. وتحقيرهم والازدراء بهم، ثم طلبهم من الداعي إبعادهم عنه كشرط لاتبّاعهم هم له. وهذا مكر قديم من أهل الباطل مَكَروهُ مع نوح عليه السلام، إذ احتقروا أتباعه المؤمنين، وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[٤٦٥]. وطلبوا من نوح إبعادهم عنه حتى يمكن أن يتبعوه ويصدقوه، وهذا ما يوحي به قولهم الذي حكاه الله عنهم، ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٤٦٦]. وقد بينا فيما سبق أنَّ نوحاً عليه السلام رفض طلبهم هذا رفضاً قاطعاً باتاً.

---

(٤٦٥) سورة هود الآية ٢٧.

(٤٦٦) سورة الشعراء، الآية ١١١.

٢٤٦- على الداعي والجماعة المسلمة الحذر من هذا المكر:

فعلى الداعي المسلم والجماعة المسلمة الحذر من هذا المكر الخبيث من أهل الباطل المخالفين للدعوة الإسلامية، وإن على الدعاة والجماعة المسلمة إظهار اعتزازهم بأتباعهِمُ المؤمنين، وإن كانوا فقراء أو ضعفاء أو مغمورين أو أصحاب حرف بسيطة يستهين بها الناس، وإذا طلب أهل الباطل في جدالهم مع الدعاة أو مع الجماعة المسلمة إبعاد هؤلاء المؤمنين عنهم كشرط لاتباعهم لهم وللدعوة، فعلى الدعاة والجماعة المسلمة رفض هذا الطلب رفضاً قاطعاً وباتاً وحالاً، لأنه طلب غير قابل للمناقشة، وعلى الدعاة أن يتذكروا موقف نوح عليه السلام من هذا الطلب، وقد بيناه فيما سبق. وعلى الدعاة والجماعة المسلمة استحضارُ ما أوحاه الله إلى رسولنا ﷺ بشأن أتباعه المؤمنين عندما طلب كبار الكفار إبعادهم عن مجلسه ﷺ، استحضار ذلك في نفوسهم، ليزدادوا ثباتاً وإصراراً على رفضهم مثل هذا الطلب، فقد روى الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال: مرَّ الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤٦٧] ومعنى هذه الآية[٤٦٨]: ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي: أي في أول النهار وآخره، أو في عامة الأوقات، لأنه يُكَنىٰ بطرفي الشيء عن جملته ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يدعون ربهم بالغداة والعشي مريدين بهذا الدعاء وجهه سبحانه وتعالى، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات، فلا يشركون معه أحداً، ولا يرجون من غيره ثواباً. فهذا التعبير ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ يدل على الإخلاص لله تعالى في العمل، وابتغاء مرضاته به وحده، وعدم الرياء فيه، كما قال تعالى حكاية عن المطعمين الطعام: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ

---

(٤٦٧) سورة الأنعام الآية ٥٢.

(٤٦٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤، تفسير المنار ج٧ ص٤٣٣ وما بعدها.

جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٤٦٩]. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ أي ما عليك شيءٌ مَا مِنْ أمرِ حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، لا على دعائهم ولا على غيره من أعمالهم الدينية، كما أنه ليس عليهم شيءٌ مَا مِنْ أمرِ حسابك على أعمالك حتى يمكن أن يترتب على هذا أو ذاك طردك إياهم بإساءتهم في عملهم، أو في محاسبتك على عملك، فإنَّ الطرد جزاء وإنما يكون على عمل سيىءٍ يستوجبه ولا يثبت إلا بحساب، والمؤمنون ليسوا عبيداً للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم بل هي لله تعالى يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل، وحسابهم عليه تعالى لا عليهم، وإنما الرسل هداة معلمون. وقوله تعالى ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب للنهي عن الطرد، أي لا تطرد هؤلاء فتكون بطردك إياهم من جنس الظالمين ومعدوداً في زمرتهم[٤٧٠].

٢٤٧- قطع الجدال إذا انتفت فائدته:

إذا انتفت الفائدة من الجدل فعلى الداعي أن يقطعه ولا يستمر فيه، لأن الغرض من الجدل تبصير المخالف بالحق والسعي لهدايته، فإذا تبين للداعي انتفاء هذا الغرض لم يبق سبب مشروع ولا مبرر معقول للاستمرار في هذا الجدل العقيم. ويعرف الداعي أنَّ الجدل صار بهذه الكيفية أو وصل إلى هذه الحالة بما يصرح به المخالف، أو بما تدل عليه القرائن، فمن ذلك في قصة نوح عليه السلام أنَّ قومه قالوا له: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٤٧١]. وقولهم كما حكاه الله عنهم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[٤٧٢] أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لتكونن من المرجومين، أي لنرجمنك[٤٧٣].

وقال تعالى حكاية عما قاله قوم نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ

---

(٤٦٩) سورة الإنسان، الآية ٩.

(٤٧٠) تفسير المنار ج٧ ص٤٣٥-٤٣٨.

(٤٧١) سورة هود، الآية ٣٢.

(٤٧٢) سورة الشعراء، الآية ١١٦.

(٤٧٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤١.

حِينٍ﴾[٤٧٤] أي هو - بزعمهم - رجل مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدّة حياته حتى تستريحوا منه بعد ذلك[٤٧٥]. ومن الواضح أنَّ هذه الأقوال لا تدل على أنَّ أصحابها يريدون بجدالهم مع نوح الوصول إلى الحقيقة، ففي الآية الأولى: أظهروا مللهم من كثرة الجدال، وطلبوا من نوح أن يأتيهم بالعذاب الذي وعدهم به إن لم يؤمنوا. وفي الآية الثانية: هددوه برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته فلا يدعوَ أحداً لها. وهذا التهديد دليل قاطع على عدم الفائدة من الاستمرار بالجدال. وفي الآية الثالثة: رَمَوْهُ بالجنون فيما يدعيه أنه رسول الله، وطلبوا من قومهم انتظاره حتى يموت ويستريحوا منه، وهذا يدل على أنْ لا فائدة من التشبث بجدالهم لهدايتهم. ولهذا دعا نوح عليهم بالهلاك بعد أن سمع مقالتهم هذه، قال تعالى بعد أن ذكر قولهم إنَّ به جنة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ. .﴾[٤٧٦] الخ وقال تعالى حكاية عمّا دعا به ربه بعد أن هددوه بالرجم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٤٧٧] وكذلك يُعْرَفُ انتفاء الفائدة من الجدل مع المخالفين إذا تبين للداعي عدم جديتهم في الجدل، أو أظهروا السخرية بالداعي أو بالدعوة، وغير ذلك من القرائن.

٢٤٨- ثامناً - هلاك الأمم بالظلم:

ومما يستفاد من قصة نوح للدعوة والدعاة أن من أسباب هلاك الأمم الظلم، فقد أهلك الله قوم نوح بالغرق بسبب ظلمهم ولهذا قال تعالى بعد هلاكهم: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤٧٨] أي هلاكاً وسحقاً لهم وبعداً من رحمة الله تعالى بما كان من

---

(٤٧٤) سورة المؤمنون، الآية ٢٥.

(٤٧٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٤٤.

(٤٧٦) سورة المؤمنون، الآيات ٢٥-٢٧ وفي آخر الآية ٢٧: انهم مفكركون.

(٤٧٧) سورة الشعراء الآيات ١١٦-١٢٠.

(٤٧٨) سورة هود الآية ٤٤.

رسوخهم في الظلم واستمرارهم عليه[٤٧٩]. وقال تعالى مبيناً هلاك قوم نوح بالغرق وأنه بسبب ظلمهم: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[٤٨٠] والواقع أنَّ القرآن بيّن لنا في أكثرَ من آية أنَّ (الظلم) سبب مؤكد لهلاك الأمم، وأنَّ هذا الهلاك هو من مقتضيات ولوازم سنة الله في الظلم والظالمين. ومن هذه الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[٤٨١] أي أهلكناهم لما كفروا وأشركوا[٤٨٢].

٢٤٩- أعظم الظلم الكفر والشرك بالله:

هذا وإنَّ (ظلم) قوم نوح كان كفرهم وشركهم بالله، لأن (الظلم) يطلقُ عليهما، قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤٨٣]. وإنما كان الشرك ظلماً عظيماً، لأنَّ الظلم وَضْعُ الشيء في غير موضعه، وقوم نوح لم يؤمنوا لنوح عليه السلام، ولم يعبدوا الله بل جعلوا عبادتهم في غير موضعها، جعلوها لمعبوداتهم التي ذكر الله لنا أسماءها، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٤٨٤] وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله[٤٨٥]، وهذا منهم ظلم عظيم لأنَّ الله وحده المستحق للعبادة، وقوم نوح وضعوا عبادتهم في موضع - وهي الأصنام - لا يصلح أبداً للعبادة؛ لأنه لا يجوز ولا يتصور أن يكون غير الله معبوداً أصلاً لا على وجه الاستقلالِ، ولا على وجه الشركة مع الله[٤٨٦].

---

(٤٧٩) تفسير المنار ج١٢ ص٨٠.
(٤٨٠) سورة العنكبوت الآية ١٤.
(٤٨١) سورة يونس الآية ١٣.
(٤٨٢) تفسير القرطبي ج٨ ص٣١٧.
(٤٨٣) سورة لقمان الآية ١٣.
(٤٨٤) سورة نوح الآية ٢١.
(٤٨٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢٦.
(٤٨٦) تفسير الرازي ج٢٥ ص١٤٦.

٢٥٠- من الظلم تظالُمُ الناس فيما بينهم:

هذا وإنَّ (الظلم) يطلق على تظالم الناس فيما بينهم، كما هو معروف، وهذا الظلم يكون سبباً أيضاً لنزول العذاب، بل إنَّ الإمام القرطبي ذهب في تفسيره إلى أنَّ الكفر وحده لا يؤدي إلى الهلاك إلا إذا انضاف إليه التظالم بين الناس، وإحداث الفساد في الأرض، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ قال القرطبي في تفسير هذه الآية: وما كان ربك ليهلك القرى، أي أهل القرى، ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي بشرك وكفر ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقومَ لوط باللواط، وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[٤٨٧].

٢٥١- ما يؤدي إلى التظالم بين الناس:

والظاهر أنَّ الكفر بالله وتكذيب رسله، والاستكبار على شرعه يؤدي غالباً - إن لم يكن دائماً - إلى التظالم بين الناس، فيستحقون العذاب بكفرهم، وهو ظلم عظيم، وبتظالمهم فيما بينهم. وحتى إذا قُدِّر أنهم ظلوا يتعاطون الحقوق دون تظالم فيما بينهم، فهذا وإن كان سبباً لبقائهم كما قيل: إن الأمم تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم، إلا أنهم يبقون حاملين (عِلّة) نزول العذاب بهم، وهي (كفرهم) الذي هو ظلم عظيم، فلا يكون بقاؤهم على أساس قويم، ولا إلى أمد بعيد، بل يأتيهُم العذاب ولو بعد حين.

٢٥٢- ربُّنا يمهل ولا يهمل:

وعلى الدعاة أن يفقهوا من قصة نوح بأنَّ الله تعالى يمهل ولا يهمل، أي يمهل الكفرة والمعاندين لشرعه، عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم فإنْ أصروا على عنادهم وكفرهم وعصيانهم أخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر، وهذا ما لاحظناه في هلاك قوم

---

(٤٨٧) تفسير القرطبي ج٩ ص١١٤.

نوح، فقد أمهلهم الله تعالى مئات السنين، ثم بعد ذلك أهلكهم بالطوفان، وهذه هي سنته تعالى العامة في خلقه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾(٤٨٨). وقوله تعالى ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم. وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ وبين إهلاكه أربعون سنة.

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٤٨٩) وكذلك دلّ على أنَّ الله تعالى يمهل الظالم والظالمين ولا يهملهم ولا يتركهم، قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾(٤٩٠) أي أمهلتها ثم أخذتها بالعذاب وإليَّ المصير(٤٩١).

فهذا الإمهال للظالمين يتبعه هلاكهم في الوقت المعين الذي حدده الله لهلاكهم، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾(٤٩٢) وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص(٤٩٣). كما رأينا في هلاك قوم نوح حيث جعل بدء وقت هلاكهم فوران الماء في التنور، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(٤٩٤).

---

(٤٨٨) سورة الحج الآية ٤٤.

(٤٨٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٢٧، وآية ﴿وكذلك أخذ ربك﴾.. الخ، في سورة هود ورقمها ١٠٢.

(٤٩٠) سورة الحج، الآية ٤٨.

(٤٩١) تفسير القرطبي ج١٢ ص٧٨.

(٤٩٢) سورة الكهف الآية ٥٩.

(٤٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩١.

(٤٩٤) سورة هود، الآية ٤٠.

٢٥٣- تاسعاً - العمل الصالح وليس النسب هو وسيلة النجاة:

ذكرنا في قصة نوح عليه السلام أنه نادى ابنه أن يركب معه في السفينة، لينجو من الغرق، فرفض الابن ذلك، فدعا نوح ربه بشأنه، وأخبره الله تعالى بأنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم لكونه كافراً، وهذا يبين لنا أنَّ نسب الإنسان لا يغني عنه شيئاً إذا كان صاحبه عارياً من الإيمان والعمل الصالح، فابن نوح لا شك في رفعةِ نسبه فهو ابن نوح رسول الله، ولكن لم ينفعه شيئاً، لكونه كافراً فالله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم الصالحة، وليس بأنسابهم، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين، وإن كانوا من الأنبياء المرسلين[٤٩٥].

وما قلنا هو من أصول شريعتنا الإسلامية فقد أخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من ما لي ما شئتم»[٤٩٦].

وفي كتاب الله إخبارٌ عن (أبي لهب) وأن مصيره إلى النار؛ لكفره ولم يغنِ عنه كونه عمَّ رسول الله ﷺ، فاعتبروا يا أولي الألباب.

ونستدل بقصة هلاك ابن نوح على أن الإيمان والعمل الصالح لا علاقة لهما بالوراثة والأنساب، وإلاّ لكان ابن نوح مؤمناً، وإنما يكون الإيمان والعمل الصالح بكسب الإنسان وتزكية نفسه[٤٩٧].

٢٥٤-عاشراً- مصاحبة المؤمنين لا تفيد إذا لم يكن المصاحب مؤمناً:

إن امرأة نوح لم تكن من أهل نوح الذين وعد الله نوحاً بإنجائهم، وإنما كانت من الذين سبق عليهم حكم الله بالغرق لكفرهم، وعلمنا ذلك بإخبار الله لنا بأن امرأته كانت من الكافرين، ولذلك استحقت دخول النار، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

---

(٤٩٥) تفسير المنار ج١٢ ص٨٧.

(٤٩٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٩-٣٥٠.

(٤٩٧) تفسير المنار ج١٢ ص٨٦.

لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴾[٤٩٨]، وقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يغني عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله تعالى إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ أي نبيينِ رسولين كانتا عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ أي في الإيمان، لم توافقاهما على الإيمان، ولا صدقتاهما في الرسالة، فلم يُجْدِ ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لكفرهما (وقيل) أي للمرأتين: ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ في فاحشة بل في الدين، فإنَّ نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، أما خيانة امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون، وكانت على غير دينه، وتطلع على سره، فإذا آمن أحد برسالة نوح، وأنه رسول الله، أخبرت الجبابرة من قوم نوح بإيمانه[٤٩٩].

٢٥٥- أحد عشر - الداعي لا يطلب مالاً على دعوته:

والداعي لا يطلب من أحد مالاً على قيامه بالدعوة إلى الله تعالى، ولا يطلب أي شيء آخر مما يمكن أن يظنه الناس عوضاً عن قيامه بالدعوة، وهذا ما أخبر به نوح قومه، قال الله تعالى حكاية عما قاله نوح لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾، فنوح عليه السلام صرح لقومه بأنه لا يسألهم على ما يدعوهم إليه مالاً، فيكون متهماً فيه عندهم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي ما أجري على تبليغ ما أرسلت به إلا على الله الذي أرسلني به. وهذا أمر مهم على الداعي المسلم أن يلتفت إليه، ويحذر من أن يطلب من المدعوين أو من أحدٍ من الناس شيئاً لمنفعته، لئلا يُظَنَّ به أنه يتخذ الدعوة وسيلة لجرّ المنافع لنفسه. ولأهمية هذا الأمر صرّح رسل الله به، فكلهم قالوا لأقوامهم ما قاله نوح لقومه من أنهم لا يسألونهم أجراً على قيامهم

(٤٩٨) سورة التحريم، الآية ١٠.

(٤٩٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩٣.

بدعوتهم إلى الله تعالى. فهود عليه السلام، مثلاً، قال لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾(٥٠٠).

---

(٥٠٠) سورة هود الآية ٥١.



الفصل الرابع

قصة هود عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٢٥٦- هود رسول إلى قوم عاد وخلاصة قصته معهم:

عاد اسم رجل ثم استمر اسماً لقوم انتسبوا إليه، فقيل قوم عاد. سكن قوم عاد في الأحقاف فيما بين عُمَانَ وحضرموت في اليمن، وكانوا أصحاب أوثان وأصنام يعبدونها من دون الله، وكانوا من أشد الأقوام تكذيباً للحق، فأرسل الله إليهم أخاهم في النسب والقومية هوداً عليه السلام، الذي كان من أشرف قومه نسباً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، والكف عن ظلم الناس، فأبوا عليه ذلك، وكذبوه وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، فأهلكهم الله بالريح العقيم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. وتوفي هود ودفن في حضرموت(٥٠١).

٢٥٧- هود يدعو قومه إلى عبادة الله وحده:

قال تعالى مخبراً عما دعا إليه هود: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(٥٠٢). أي أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه؟ فالاستفهام هنا للإنكار(٥٠٣)، وقال لهم وهو يأمرهم بعبادة الله وحده: إنهم بعبادتهم لغير الله يفترون الكذب عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ

---

(٥٠١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٣-٢٢٥، تفسير القرطبي ج٩ ص٥٠-٥١، تفسير المنار ج٨ ص٤٩٥. والآية من سورة الحاقة ورقمها ٧.

(٥٠٢) سورة الأعراف الآية ٦٥.

(٥٠٣) تفسير المنار ج٨ ص٤٩٦.

هُودًا قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾[504] أي اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾، فإنَّ المعبود الحق هو الله لا معبود بحق غيره ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾ أي ما أنتم في عبادة غيره إلا مفترون كذباً عليه باتخاذكم الأنداد شركاء مع الله في عبادتكم[505].

٢٥٨- لا أسألكم عليه أجراً:

ثم إنَّ هوداً عليه السلام قال لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[506] أي إني فيما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده لا أطلب منكم أجراً عليه، فتتهموني بطلب المنفعةِ لنفسي، ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ ﴾ أي أجري على الله الذي خلقني، والذي أرسلني إليكم؛ لأبلغكم رسالته، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ما يقال لكم، فتميزوا بين الحق والباطل، والنافع والضار، وأن تعلموا بأني منكم، وأنا أخوكم في النسب، وإن الأخَ لا يغش إخوته، ولا يعرض نفسه لغضب قومه بدعوتهم إلى ما يضرهم ولا ينفعه[507].

٢٥٩- هود يرغّبهم بما يحبون:

ثم سلك هود عليه السلام مع قومه مسلك الترغيب بما يحبون من نزول المطر الذي ينبت لهم الزرع، ومن أنواع القوة التي يحبونها إن هم استجابوا لدعوته، فقال لهم: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾[508]. أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، وإن من يتصف بهذه الصفات، فإنَّ الله تعالى ييسر عليه رزقه، وأنهم إن فعلوا ذلك بأن يرجعوا إلى الله بالتوبة، وإفراده بالعبادة، فإنَّ الله تعالى سيرسل لهم المطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، ومثل هذا المطر كان ضرورياً لهم؛ لأن أرضهم رملية، وتحتاج إلى مطر كثير لسقي زروعهم وبساتينهم، ومع

---

(٥٠٤) سورة هود الآية ٥٠.

(٥٠٥) تفسير المنار ج١٢ ص١١٥.

(٥٠٦) سورة هود الآية ٥١.

(٥٠٧) تفسير المنار ج١٢ ص١١٥.

(٥٠٨) سورة هود الآية ٥٢.

إرسال السماء عليهم بالمطر المتتابع، فإنَّ الله تعالى يزيدهم قوة إلى قوتهم: أي شدّة إلى شدتهم، أو ولداً إلى ولدهم إن استجابوا لدعوة هود، ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر[509].

٢٦٠- جواب قومه على دعوته وترغيبه لهم بما يحبون:

دعاهم هود إلى عبادة الله وحده، ورغبّهم بما يحبون من وفرة المطر، والزيادة بالقوة، فبماذا أجابه قومه؟ أجابوه بما حكاه الله عنهم: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[510] أي قالوا: يا هود ما جئتنا بحجة وبرهان على أنَّ ما تدعيه هو من الله تعالى، وما نحن بتاركي آلهتنا بمجرد قولك لنا اتركوها فنتركها، وما نحن بمصدقين - وهذا إصرار منهم على الكفر - ولا نجدُ من قولٍ نقوله فيك إلاّ أن بعض آلهتنا أَصابك بجنونٍ وخبلٍ بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها[511].

٢٦١- جواب هود على جواب قومه:

أجابهم هود عليه السلام بما حكاه الله عنه ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[512]. أي إن هوداً عليه السلام قال: إني أشهد الله على نفسي، وأشهدكم لتعرفوا أني بريء مما تشركون، أي من أصنامكم التي تعبدونها، ومن عبادتكم لها. ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أي فاجمعوا أنتم وشركاؤكم وآلهتكم إن كانت حقاً، ما تستطيعون من الكيد للإيقاع بي، ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ ثم لا تمهلوني ولا تؤخروا الفتك بي إن استطعتم. ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي

---

(٥٠٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٥١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٩.

(٥١٠) سورة هود الآيتان ٥٣، ٥٤.

(٥١١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٩، تفسير الرازي ج١٨ ص١٢-١٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٥١، تفسير المنار ج١٢ ص١١٧.

(٥١٢) سورة هود الآيات ٥٤-٥٧.

﴿وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقول هود عليه السلام محتجاً على قومه على ما دلّ عليه ما قبله من عدم الخوف منهم ومن آلهتهم، إني وكلت أمر حفظي وخذلانكم إلى الله معتمداً عليه وحده إذْ هو ربي وربكم أي مالكُ أَمري وأموركم، المتُصَرفُ فيها وفي غيرها إذْ ما من دابة إلاّ وهي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، ولو أنه القاهر فوق عباده، فإنّه على صراط مستقيم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي فإن تتولوا مجرمين، ولم تنتهوا بنهيي لكم عن التولي ولم تطيعوا أمري لكم بعبادة الله وحده، وترك الإشراك به ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ أي فقد أبلغتكم رسالة ربي التي أرسلني بها إليكم، وليس عليَّ غير البلاغ المبين، ولزمتْكُمُ الحجة، وحقت عليكم كلمة العذاب ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ إذا هو أهلككم بإصراركم على كفركم وإجرامكم، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي لا تضرونه أيَّ ضرر بتوليكم وإعراضكم عن الإيمان، فإنه تعالى غني عنكم وعن إيمانكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ أي لكل شيء حافظ، أي قائم ورقيب عليه بالحفظ والبقاء على ما اقتضته سنته، وتعلقت به مشيئتُهُ، ومنها أنه ينصر رسله، ويخذل أعداءه وأعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم(٥١٣).

٢٦٢- هود يخوّف قومه بعذاب الله:

الترهيب من أساليب دعوة الرسل لأقوامهم، وهكذا فعل هود عليه السلام قال تعالى: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾(٥١٤) أي اذكر هوداً عليه السلام فهو أخوهم في النسب لا في الدين إذ أنذر قومه بالأحقاف وهي ديار قوم عاد، إني أخاف عليكم إن كذبتم وبقيتم مصرين أن يصيبكم عذاب الله(٥١٥).

٢٦٣- جواب قوم هود:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ

---

(٥١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٤٩، تفسير المنار ج١٢ ص١١٧-١١٨.

(٥١٤) سورة الأحقاف، الآية ٢١.

(٥١٥) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢١٣.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾(٥١٦) أي قال قوم هود: أجئتنا لتصدّنا عن آلهتنا ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقينَ تعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فشأني أَنْ أبلّغكم ما أُرسِلتُ به ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون(٥١٧).

٢٦٤- هود يذكّرهم بنعم الله عليهم ويخوفهم من عذابه:

قال هود لقومه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾(٥١٨) أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسوله، ثم شرع يذكّرهم نعم الله عليهم، فقال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب(٥١٩).

٢٦٥- من جدال هود مع قومه:

كان هود عليه السلام في جداله مع قومه يلتزم بآداب الجدال. ويظهر شفقته عليهم، وحرصه على إرداة الخير لهم. أمّا هم فكانوا يرمونه بالسفاهة والضلال، فمن هذا الجدل ما قصّه الله علينا في قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(٥٢٠). والمعنى: قال الملأ الذين كفروا من قومه وهم السادة والقادة منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى

---

(٥١٦) سورة الأحقاف الآيتان ٢٢،٢٣.

(٥١٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٦٠.

(٥١٨) سورة الشعراء الآيات من ١٣١-١٣٥.

(٥١٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٢.

(٥٢٠) سورة الأعراف الآيات ٦٥-٦٩.

ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، وإنا لنظنك كاذباً في دعوتك، فكان جواب هود عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ أي مُخْلِصٌ في نصحي لكم. وهذه هي الصفات التي يتصف بها رسل الله. البلاغ والنصح والأمانة. ثم قال لهم هود: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ ﴾ أي لا تعجبوا أن يبعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم؛ لينذركم، بل احمدوا الله على ذلك، واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لمّا خالفوه وكذبوه، ﴿ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ ﴾ أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم ﴿ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أي نعمه ومننه عليكم ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٥٢١].

٢٦٦- جواب قوم هود واستعجالهم العذاب:

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٥٢٢] أي أنكروا دعوة هود لهم لإفراد الله بالعبادة واستعجلوا العذاب.

٢٦٧- ردّ هود على جواب قومه:

﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾[٥٢٣].

قال هود قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب، أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، أي سخط وغضب. ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي أتحاجونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهةً، وهي لا تضر ولا تنفع، وما جعل الله لكم على عبادتها حجةً ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد من هود لقومه[٥٢٤].

---

(٥٢١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٤.

(٥٢٢) سورة الأعراف الآية ٧٠.

(٥٢٣) سورة الأعراف الآية ٧١.

(٥٢٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٥.

٢٦٨- كفر قوم عاد وغرورهم:

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[٥٢٥] أي أنَّ قوم هود بغوا وعتوا وعصوا واستكبروا في الأرض على عباد الله المؤمنين هود عليه السلام ومن آمن معه، ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ قالوا ذلك غروراً وعجباً بقوتهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بقوتهم من بأس الله حين تهددهم هود بالعذاب وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة وإنما يَقْدرُ العبد بإقدار الله له، فالله أَقْدرُ إذنْ ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي بمعجزاتنا يكفرون[٥٢٦].

٢٦٩- الوعظ وعدمه سواء عند قوم هود:

وبالرغم من تذكير هود عليه السلام ووعظه المستمر لقومه وجداله معهم، إلا أنَّ كل ذلك لم ينفع معهم، فصرحوا بذلك فقالوا كما أخبرنا الله عنهم ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[٥٢٧]. أي الوعظ وعدمه كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نقبل ما تقوله، ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي إنَّ دينهم الذي هم عليه هو دين الأولين، أي مذهبهم وما جرى عليه أمرهم، وما نحن بمُعَذبين على ما نفعل[٥٢٨].

٢٧٠- نزول العذاب بقوم هود:

ولمّا لم يبق أمل في استجابة قوم عاد لدعوة هود عليه السلام، وصرحوا بعدم فائدة أي وعظ من هود، وإصرارهم على الكفر والتكذيب، وطلبهم من هود أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين، أقول: بعد كل هذا حان وقت إنزال العذاب

---

(٥٢٥) سورة فصلت الآية ١٥.

(٥٢٦) تفسير القرطبي ج١٥ ص٣٤٧.

(٥٢٧) سورة الشعراء، الآيات ١٢٦-١٢٨.

(٥٢٨) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٢٥-١٢٦.

بهم، كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾[529] فأهلكهم الله تعالى بما أخبرنا به بقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[530] وقال تعالى في عذابهم وهلاكهم: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[531] أي فلما رأوا السحاب عارضاً سمي بذلك لأنه يبدو في عرض السماء، فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ استبشروا و﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ أي ممطر لنا. ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي قال لهم هود بل هو ما استعجلتم به من العذاب الذي كنتم تطالبون به على وجه التحدي وعدم التصديق به، ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي كانت تلك الريح تدمر كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالهم ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي: بإذن ربها، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾، لأن القوم قد هلكوا، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين[532].

٢٧١- نجاة هود ومن آمن به:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[533] أي لما جاء موعد هلاك قوم عاد نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾، لأن أحداً لا ينجو إلا برحمة الله، وإن كان له أعمال صالحة. وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ «لن يُنجي أحداً منكم عملُهُ» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه»[534].

---

(٥٢٩) سورة الشعراء الآية ١٢٩.

(٥٣٠) سورة فصلت الآية ١٦.

(٥٣١) سورة الأحقاف الآيتان ٢٤و٢٥.

(٥٣٢) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٠٥-٢٠٨.

(٥٣٣) سورة هود الآية ٥٨.

(٥٣٤) تفسير القرطبي ج٩ ص٥٤.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة هود عليه السلام

٢٧٢- أولاً - التأكيد على توحيد الألوهية:

إن أول ما دعا إليه هود هو عبادة الله وحده قائلاً لهم ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(٥٣٥) فعلى الداعي المسلم أن يؤكد على ذلك، ولا يقال إن هذا التأكيد هو بالنسبة لعبّاد الأصنام، أما بالنسبة للمسلمين فليسوا بحاجة إلى مثل هذه الدعوة، لا يقال هذا؛ لأن المسلمين بحاجة إلى أن يفهموا جيداً توحيد الألوهية أي معاني: «لا إله إلا الله» وكم من هذه المعاني يطبقونها ويحسون بها في حياتهم، أما عبّاد الأصنام فهم محتاجون بالتأكيد إلى فهم كلمة التوحيد، وضرورة نبذِ عبادة ما سوى الله سواء كان صنماً أو حجراً أو وثناً أو أيَّ شيء آخر.

٢٧٣- ثانياً - لا أسألكم أجراً:

جميع رسل الله، وليس هود فقط، أخبروا أقوامهم بما قاله هود لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٥٣٦). فعلى الداعي أن لا يطلب من المدعوين ومن الناس بصورة عامة أي شيء يظنه الناس أنه بدل أو عوض أو أجر عن قيام الداعي بالدعوة، سواء أكان هذا الطلب من الداعي بلسان المقال أو بلسان الحال؟ حتى يفهم الناس أنه لا مصلحة دنيوية له - أي للداعي - من قيامه بالدعوة، وإنما هو يطمع بثواب الله ورضاه.

٢٧٤- ثالثاً - الترغيب والترهيب في أسلوب الدعاة:

ويستحسن للدعاة أن يستعملوا الترغيب والترهيب في دعوتهم الناس إلى الله تعالى، ويرغبونهم بما عند الله من حسن الجزاء إذا التزموا بأحكام الإسلام وبالعيش

---

(٥٣٥) سورة الأعراف الآية ٦٥.

(٥٣٦) سورة هود، الآية ٥١.

الرضي في الدنيا مستشهدين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[537] ومن الترهيب بالهلاك بسبب الذنوب قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[538].

٢٧٥- رابعاً - البراءة من الشرك وأهله وعدم الخوف منهم:

وعلى الداعي المسلم أن يكون صريحاً في براءته من الشرك وأهله، وعدم الخوف منهم، كما كان هود عليه السلام مع قومه، قال تعالى حكاية عن هود: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[539] وهكذا يجب أن يكون الداعي المسلم صريحاً واضحاً في ولائه وبراءته، وقوياً بربه لا يخاف غيره ولا يعتمد إلا عليه.

٢٧٦- خامساً - الحِلْمُ على الجاهلين:

وعلى الداعي المسلم أن يحمل نفسه على الحلم على الجاهلين إذا نسبوه إلى ما لا يليق به، أو اتهموه بما هو بريء منه، وأن يبقىٰ في موقف الشفيق عليهم الرحيم بهم، فقد رأينا كيف خاطب قوم هود هوداً عليه السلام، وبماذا أجابهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، فأجابهم هود: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾. كما أنَّ على الداعي المسلم أن يحمل نفسه على الصبر، لأن الدعاة إلى الله قلّ ما ينجون من إيذاء الجاهلين.

٢٧٧- سادساً - وجادلهم بالتي هي أحسن:

وعلى الداعي المسلم أن يكون شعاره في جدال الخصوم ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وأن يستعمل في خطابه معهم الكلمات الرقيقة ويشعرهم بأنه ناصح لهم يريد الخير لهم، ويخاطبهم بـ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ وإن كان المُخَاطَبُ واحداً ناداه بـ«يا أخي»

---

(٥٣٧) سورة النحل الآية ٩٧.

(٥٣٨) سورة الأنعام الآية ٦.

(٥٣٩) سورة هود الآية ٥٤.

وأن يختار الداعي لجداله معهم الوقت المناسب والمكان المناسب والصيغة المناسبة من جهة دعوتهم بالسر أو بالعلن.

٢٧٨- الحذر من صفات الكافرين:

وعلى الداعي المسلم أن يحذّر المدعوين من الغرور والعجب بالنفس والاستكبار في الأرض، فهذه صفات تصدّ أصحابها عن الحق، فقد رأينا كيف أنَّ قوم هود استكبروا في الأرض وأعجبتهم أنفسُهم وغرّهم بالله الغرور، قال تعالى عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً .. ﴾.



الفصل الخامس

قصة صالح عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٢٧٩- خلاصة القصة:

ثمود من قبائل العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وسموّا باسم جدهم ثمود. كانت مساكنهم بالحجر فيما بين الحجاز والشام إلي وادي القرى وما حوله، وقد مرَّ رسولنا ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع للهجرة(٥٤٠).

وقد أرسل الله تعالى إلى ثمود رسولاً منهم هو صالح عليه السلام، فأمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي كانوا عليها، فلم يؤمن له منهم إلا القليل، ثم إنّهم قتلوا الناقة التي حذرّهم صالح من أن يمسوها بسوء فيأخُذَهُمْ عذاب أليم، فأهلكهم الله بذنوبهم ونجّى الله صالحاً ومن آمن معه.

٢٨٠- اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ . . . ﴾(٥٤١) أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً، وإنما سماه الله أخاهم باعتبار النسب، إذ هو من قبيلة ثمود فهو أخوهم نسباً لا ديناً. فكان - عليه السلام - أول ما دعاهم إليه عبادة الله وحده، وهكذا فعلت رسل الله جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٥٤٢).

---

(٥٤٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٢٧، تفسير المنار ج٨ ص٥٠١.

(٥٤١) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٤٢) سورة النحل الآية ٣٦.

٢٨١- قد جاءتكم بيِّـنَة من ربكم:

قال تعالى حكاية عما قاله صالح لقومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾(٥٤٣)، أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة عينوها ناقة، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهُمُ الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم، ليؤمنُنَّ به، وليتبعنَّهُ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا ربه أن يجيب القوم إلى ما طلبوه، فأجاب الله دعاءه، وانصدعتِ الصخرة وخرجت منها ناقة كما أرادوا واقترحوا، فقال لهم صالح: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٥٤٤). وإنما أُضِيفَتْ هذه الناقة إلى الله تعالى فقيل عنها: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ تعظيماً لشأنها، كما في إضافة الكعبة إلى الله، فقيل عنها «بيت الله»(٥٤٥)، وقد كان من أخبار تلك الناقة، أنها كانت تشرب من بئر معينة يوماً وللقوم يوم آخر، كما قال تعالى عن هذه القسمة في ماء البئر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾(٥٤٦) وفسره قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٥٤٧).

٢٨٢- صالح يذكّر قومه بآلاء الله عليهم:

قال تعالى حكاية عما قاله صالح لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٥٤٨)، أي تذكروا إذْ جعلكم الله تعالى خلفاء لقوم عاد في العمران والقوة والبأس ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومنازل لكم، تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا

---

(٥٤٣) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٤٤) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٤٥) تفسير القاسمي ج٧ ص١٧٩.

(٥٤٦) سورة القمر الآية ٢٨.

(٥٤٧) سورة الشعراء الآية ١٥٥.

(٥٤٨) سورة الأعراف، الآية ٧٤.

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ فاذكروا آلاء الله أي فتذكروا نعم الله عليكم، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، واستعمالِ هذه النعم التي أسبغها عليكم ربكم فيما فيه صلاحكم ومرضاة ربكم(٥٤٩). ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض، وتكرر المعنى تأكيداً لاختلاف اللفظ(٥٥٠).

٢٨٣- سؤال المستكبرين للمستضعفين:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾(٥٥١) أي قال الملأ من قومه وهم سادة القوم وكبراؤهم وقادتهم الذين استكبروا عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة، وكلمات صالح الناصحة، قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، فأجابهم المؤمنون بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي إنا بما أُرْسِلَ به دون ما يخالفه من الشرك والفساد، مُصدّقون بأنه جاء به من عند الله تعالى، ومُذعِنونَ له بالفعل. ويلاحظ هنا أنهم لم يجيبوا بكلمة (نعم)، أو نعلم أنّهُ مُرسَلٌ من ربه، أو إنا برسالتِهِ عالمون، ولكنهم أجابوا بما يستلزم هذا المعنى ويزيد عليه، وهو أنهم علموا بذلك يقينياً إذعانياً له السلطان على عقولهم وقلوبهم إذ آمنوا به إيماناً صادقاً كاملاً حتى صار صفة من صفاتِهمُ الراسخةِ التي تصدر عنها أعمالهم(٥٥٢).

٢٨٤- ردّ المستكبرين جواب المستضعفين:

قال تعالى عما أجابَ به المستكبرون رداً على جواب المستضعفين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٥٥٣) ويُلاحظ على جواب

---

(٥٤٩) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٣.

(٥٥٠) تفسير القرطبي ج١ ص٤٢١.

(٥٥١) سورة الأعراف الآية ٧٥.

(٥٥٢) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٤، تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٣.

(٥٥٣) سورة الأعراف، الآية ٧٦.

المستكبرين أنهم لم يقولوا: إنّا بما أرسِل به كافرون، لأنه يتضمن إثبات أصل الرسالة له، وهذا ما لا يريدونه، وإنما يريدون إظهار المخالفة لمن آمن والرد لمقالهم[٥٥٤].

٢٨٥- شبهاتهم في عدم إيمانهم:

وكانت شبهاتهم في إصرارهم على الكفر والتكذيب، وعدم إيمانهم بصالح وبرسالته من ربه، أنه بشر، وأنه واحد منا لا يفضل علينا بشيء، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[٥٥٥]. والمعنى: كذبت ثمود بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام، فقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ قالوا على وجه الإنكار: أنتبع بشراً مثلنا في الآدمية..!، وقولهم ﴿مِّنَّا﴾، لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة بينه وبينهم أقوى، وهذا بزعمهم، أدعى إلى ردّ ادعائه أنه نبي. وقولهم: ﴿وَٰحِدًا﴾ إنكار لأنْ تتبع الأمة رجلاً واحداً، أو أرادوا واحداً من عامتهم وليس بأشرفهم وأفضلهم. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إنا في جنون إذا اتبعناه وحاله كما وصفنا ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعنون النبوة، أي أخصَّهُ الله بالنبوة وفينا من هو أحق بها على زعمهم، ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي متكبر حمله كبره على استتباعنا له بقبول دعوته ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ سيعلمون غداً، أي عند نزول العذاب بهم، أو يومَ القيامة مَنْ الكذاب الأشر، أي المتكبر عن الحق البطِرُ له[٥٥٦].

٢٨٦- مجادلة صالح لقومه وحرصه على هدايتهم:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٥٥٧]، وهذا خطاب لين رقيق من أخيهم في النسب صالح، والشأن في الأخ أن يحرص على ما ينفع أخاه، وهو رسول من رب العالمين، أمين

---

(٥٥٤) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٥، تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٣.

(٥٥٥) سورة القمر، الآيات ٢٣-٢٦.

(٥٥٦) تفسير القاسمي ج١٥ ص٢٦٩.

(٥٥٧) سورة الشعراء الآية ١٤١-١٤٤.

على رسالته التي أُرسل بها إلى قومه بأن يتقوا الله فيعبدوهُ وحده، ثم بيّن لهم صالح أنه لا يبغي منفعة لنفسه، ولا أجراً منهم على دعوته، لأن أجره على الله رب العالمين، قال تعالى حكاية عما قاله صالح لقومه: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٥٥٨)، ثم قال لهم على وجه التذكير والنصح لهم: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(٥٥٩) أي أَتُتركونَ في الدنيا آمنين من الموت والعذاب، متنعمين بما أنبت الله لكم من الجنات، وفجر لكم من العيون الجاريات، فأخرج لكم من الزروع والثمرات، ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أي إذا أينع وبلَغ، فهو هضيم أو إذا رطب واسترخى، ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ يعني حاذقين متقنين لنحتها، تفعلون ذلك أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق(٥٦٠).

٢٨٧- جواب قوم صالح:

وبالرغم من تلطف صالح عليه السلام في وعظه وكلامه وجداله مع قومه، أجابوه بما أخبرنا الله عنه ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(٥٦١) أي أنت من الذين سحروا حتى غلبوا على عقولهم(٥٦٢) وأنت بشر مثلنا فكيف تكون نبينا؟

---

(٥٥٨) سورة الشعراء الآية ١٤٥.

(٥٥٩) سورة الشعراء الآيات من ١٤٦-١٥٢.

(٥٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٣، تفسير الرازي ٢٤ ص١٥٩، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٢٧-١٢٩.

(٥٦١) سورة الشعراء الآية ١٥٣،١٥٤.

(٥٦٢) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٥٩.

٢٨٨- يطلبون نزول العذاب:

وبعد كل هذا الجدال والوعظ والتذكير من صالح عليه السلام مع قومه ثمود لم يؤمن به إلا القليل، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي وعدهم به، ذلك أنَّ صالحاً قال لهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥٦٣] ولكنّ القوم لم يأخذوا هذا التحذير مأخذ الجدّ والتصديق لما يقوله صالح؛ ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٥٦٤] أي نحروها. وأسْند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثاله، وهو الحذر من مسّ الناقة بسوء وزادوا في الاستهزاء ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ اي من العذاب على عقر الناقة، والأمر للاستعجال لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا يحصل ذلك، لاعتقادهم أنَّ صالحاً غير صادق في ادعائه النبوة، ولذلك قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٥٦٥].

٢٨٩- نزول العذاب:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٥٦٦] بعد أن عقروا الناقة، قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة التي حصلت من الصيحة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي ساقطين على وجوههم هامدين لا يتحركون. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾. اي فأعرض صالح عنهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٥٦٧].

---

(٥٦٣) سورة الأعراف. الآية ٧٣.

(٥٦٤) سورة الأعراف الآية ٧٧.

(٥٦٥) تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٤.

(٥٦٦) سورة الأعراف الآيتان ٧٨، ٧٩.

(٥٦٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٠، تفسير القاسمي ج٧ ص١٨٥.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة صالح وقومه ثمود

٢٩٠- أولاً - الدعوة إلى عبادة الله وحده:

أول شيءٌ دعا إليه صالح توحيد الألوهية أي: إفراد الرب تعالى بالعبادة ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(٥٦٨) فهو عليه السلام بدأ بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده كما فَعَلَ مثل هذا من سبقه من رسل الله. فعلى الداعي المسلم أن يؤكد على عبادة الله وحده، وأن يبين معنى العبادة، ومدىٰ شمولها وأثرها في سلوك المسلم، وضرورة استحضارها في الذهن، ونحو ذلك مما له علاقة بمفهوم العبادة.

٢٩١- ثانياً المستضعفون هم أكثر أتباع رسل الله:

لاحظنا في قصة صالح عليه السلام أنَّ المستضعفين من الفقراء والمغمورين هم أتباع صالح الذين آمنوا به، أما كبراء القوم وسادته وقادته، وهم الملأ، فكانوا يجادلون صالحاً والذين آمنوا معه، من ذلك ما قصه علينا ربنا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾(٥٦٩). والواقع أنَّ سنَّةَ الله قضت بأنَّ المستضعفين من الفقراء والمغمورين من الناس يسبقون غيرهم من الأغنياء والسادة وكبراء القوم، يسبقونهم في الإجابة لدعوة الرسل، وإلى كل دعوة إصلاح حقيقية، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وهذا بخلاف أكابر القوم المتكبرين والأغنياء المترفين فإن هؤلاء لا يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تقيد من شهواتهم(٥٧٠). فعلى الدعاة أن يوسعوا دائرة دعوتهم بين المستضعفين وأن

---

(٥٦٨) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٥٦٩) سورة الأعراف الآية ٧٤.

(٥٧٠) تفسير المنار ج٨ ص٥٠٤.

يفسحوا مجالسهم لهم دون إغفالٍ عن دعوة كافة طبقات المجتمع الأخرى بما فيها طبقة السادة وكبراء المجتمع. وعلى الدعاة أن يثيروا في هؤلاء المستضعفين الذين يقبلون الدعوة إلى الله أن يثيروا فيهم معاني الإيمان وعزّةَ المؤمن، وإعلانَ ذلك في وجه السادة والكبراء، كما قال من آمن بصالح ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ أي صالح ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾[571].

٢٩٢- ثالثاً - من أساليب الدعوة التذكير بنعم الله:

من أساليب الدعوة التي لاحظناها في قصة صالح أنه كان يذكّر قومه بنعم الله عليهم من الزروع والثمار والجنات المختلفة والعيون الجارية والقوة والبأس والقدرة بمهارة على بناء البيوت في الجبال، ويقول لهم: هذا كله يدعوكم إلى شكر الله، والاستعانة بما أعطاكم على عبادة الله. وهذا أسلوب جيد ينبغي للدعاة المسلمين استعماله في دعوتهم الناس إلى عبادة الله، والتقيد بشرعِهِ واستعمال ما آتاهم الله من مال ونعمةٍ فيما يرضي الله تعالى لا فيما يسخطه.

(٥٧١) سورة الأعراف الآية ٧٤.

الفصل السادس
قصة إبراهيم عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة قصة إبراهيم وتفسير آياتها

٢٩٣- خلاصة القصة:

إبراهيم هو الاسم العلم لخليل الرحمن، أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح عليهما السلام. ولد سيدنا إبراهيم في أور الكلدانيين في العراق[٥٧٢]. وأما أبوه فهو «آزر» كما ورد في القرآن الكريم[٥٧٣] وكان قوم إبراهيم الذين ولد فيهم يعبدون الكواكب السيارة والأصنام[٥٧٤]، وقد دلت آثار أولئك القوم التي اكشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ من عبادتهم للأصنام الكثيرة، كما ورد في القرآن الكريم حتى كاد أن يكون لكل منهم صنمٌ خاص به سواءٌ الملوك والسوقة في ذلك، وكانوا يعبدون أيضاً الكواكب السيارة[٥٧٥]. وقد عاب إبراهيم على قومه في العراق شركهم بالله وعبادتهم للأصنام، وجادل أباه وقومه في ذلك، ثم أراد أن يلفت أنظارهم إلى باطل ما هم عليه من عبادة غير الله بما حاججهم به وبتكسيره الأصنام إلا كبيرها، ولكن لم يرجعوا عن كفرهم وضلالهم، وإنما قرروا قتله بإلقائه في النار، ففعلوا ذلك وأنجاه الله تعالى. ثم خرج إبراهيم عليه السلام ومعه ابن أخيه لوطٌ إلى أرض الشام إلى الأرض المقدسة منها[٥٧٦] وهي فلسطين، وكانت أرض

---

(٥٧٢) تفسير المنار ج٧ ص٥٣٤.

(٥٧٣) تفسير المنار ج٧ ص٥٣٥.

(٥٧٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥١، تفسير المنار ج٧ ص٥٥٤،٥٦٥.

(٥٧٥) تفسير المنار ج٧ ص٥٥٤.

(٥٧٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٤- ١٨٥.

الكنعانين وأقام في مدينة (شكيم) وهي مدينة (نابلس). ثم رحل إبراهيم إلى مصر ثم رجع إلى فلسطين[٥٧٧] فأقام فيها مدة، وقد ولدت له زوجته هَاجَرُ ابنه إسماعيل، وقد خرج بها وبابنها إسماعيل وهو رضيع إلى مكة، فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس «. . . ثم جاء بها- أي بهاجر أم إسماعيل- وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فوق في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم رجع إبراهيم فتبعتْه أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا»[٥٧٨] ثم عاد إبراهيم إلى مكة وقد كبر إسماعيل فأراد إبراهيم ذبحه لرؤيا رآها كما سنبيّنُهُ فيما بعد إن شاء الله تعالى. وقد اشترك إسماعيل مع أبيه إبراهيم في بناء البيت. وقد خصّ الله إبراهيم بفضيلة اتخاذه خليلاً، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ وإنما سمي إبراهيم خليل الله لشدة محبته لربه عزوجل لما قام به من الطاعة التي يحبها ويرضاها. والخلة التي انتهى إليها إبراهيم هي أرفع مقامات المحبة. ولم تثبت فضيلة (الخلة) إلا لإبراهيم لما ذكرناه من كتاب الله، ولنبينا محمد ﷺ لما ثبتَ في الصحيحين أنه ﷺ خطب في الناس، فقال فيما قاله: «أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله»[٥٧٩]. ثم مات إبراهيم الخليل عليه السلام ودفن في الموضع الذي قامت عليه مدينة الخليل في فلسطين.

٢٩٤- إنكار إبراهيم على أبيه وقومه:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى

(٥٧٧) قصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجار ص٨٣ وما بعدها.

(٥٧٨) تفسير ابن كثير ج١ ص٧٦.

(٥٧٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٦٠.

﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(٥٨٠) والمعنى: أنَّ إبراهيم عليه السلام أنكر على أبيه عبادة الأصنام ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ﴾ السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي تائهين لا يهتدون أين يسلكون، وضلالكم هذا واضح لا شبهة فيه، فإنَّ هذا الأصنام التي اتخذتموها آلهة لكم لم تكن آلهة في أنفسها بل بإتخاذكم إياها آلهة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عزوجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ أي نُريه ذلك ليكون عالماً موقناً. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أي غطّاه وستره ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ أي نجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي قال إبراهيم لقومه: هذا ربي على زعمكم، لأنهم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر. وكذلك قال إبراهيم لقومه عن القمر: إنه ربي على زعمكم، وللشمس: إنه ربي على زعمكم. قال ذلك إبراهيم على سبيل المناظرة والمحاججة لقومه. ثم قال لهم، وقد رأى أفولها، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي أنا بريءٌ من شرككم بالله تعالى ومن هذه المعبودات التي جعلتموها آلهة مع الله. ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عزوجل وحده ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ أي مائلاً إلى الحق وما أنا من المشركين بعبادة ربي(٥٨١).

٢٩٥- وحاجّه قومه:

وبعد أن سمع قوم إبراهيم مقالته وما توصل إليه من الحق بشأن معبوداتهم الباطلة، لم يقنعهم قول الحق الذي قاله إبراهيم، وإنما أخذوا يجادلونه فيما قاله، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن

---

(٥٨٠) سورة الأنعام، الآيات ٧٤- ٧٩.

(٥٨١) تفسير القرطبي ج٧ ص٢١- ٢٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص١٤٩- ١٥٢.

﴿ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٥٨٢]
يقول تعالى مخبراً عما قاله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وجادلوه بشُبَهٍ من القول أنه قال: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ أي أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصّرني وهداني إلى الحق، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه من أن هذه الآلهة التي تعبدونها أنها تؤثر، هو أني لا أخافها ولا أباليها ولا أقيم لها وزناً، فإن كان لها كيدٌ فكيدوني بها ولا تمهلوني، فالذي ينفع ويضر هو الله وحده أفلا تعتبرون وتتذكرون فيما بينتُهُ لكم لتعلموا أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أي حجة ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي فأي الطائفين أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة: من يعبد الله الذي بيده الضرر والنفع، أو من يعبد ما لا يضر ولا ينفع كهذه الأصنام التي صنعتموها من الحجارة بأيديكم؟ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا[٥٨٣].

٢٩٦- إبراهيم يتلطف مع أبيه في دعوته إلى التوحيد:

كان إبراهيم عليه السلام حريصاً جداً على هداية أبيه فكان يصارحه فيما هو عليه من كفر، وأنَّ هذا الكفر إن لم يقلع عنه سيذهب به إلى النار، ولذلك كان إبراهيم يكرر دعوته لأبيه بغاية التلطف واللين معه، مستعملاً في خطابة معه «يا أَبتِ» لُيشعره بأنه ابنه، والابن البار يكون حريصاً على ما ينفع أباه، قال الله تعالى عما قاله إبراهيم لأبيه وهو يدعوه إلى عبادة الله ونبذ عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ

---

(٥٨٢) سورة الأنعام الآيات ٨٠- ٨٢.

(٥٨٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٥٢.

﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[٥٨٤] سلك إبراهيم في دعوته لأبيه أحسن منهاج، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل، لئلاً تأخذه العزة بالإثم حيث طلب إبراهيم من أبيه علة عبادته لما لا ينفع ولا يضر ولا يستحق العبادة أصلاً ويترك عبادة الله الخالق الرازق النافع الضار المحي المميت، فكيف يستيسغ هذا عاقل؟[٥٨٥]. وقال إبراهيم في دعوته لأبيه إلى الحق مترفقاً به متطلفاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فلم يصف أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الحق والطريق السوي، فلا تستنكف يا أبتِ من قبول قولي ونصحي لك، وهب أنا وأنت في مسيرٍ وعندي معرفة بالطريق، فمصلحتك تقتضي أن تتبعني لتنجو من الضلال والتيه[٥٨٦]. ثم قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[٥٨٧] «أي إنَّ عبادتك لغير الله هي عبادة للشيطان، لأنه هو الآمر بها والمسوّل لها» ولا ينبغي أن تطيع الشيطان العاصي لربك الذي أنعم عليك ثم قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[٥٨٨] أي إني أخاف عليك إن عصيتَ الله وواليت عدوهَ أن يقطع رحمته عنك كما قطعها عن الشيطان، فتكون للشيطان ولياً أي مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه. وفي هذا الخطاب يخوّف إبراهيم أباه من سوء العاقبة ولم يَخْلُ هذا التخويف من حسن الأدب حيث لم يصرح بأنَّ العقاب لاحق له، وأن بأنَّ العذاب لاحق به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فذكر الخوف والمسّ ونكّر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر نتيجة لازمةٍ لطاعته، أي لطاعة الشيطان. ويلاحظ أنَّ إبراهيم صدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً[٥٨٩].

---

(٥٨٤) سورة مريم الآيات ٤١، ٤٢.

(٥٨٥) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٨- ١٢٩.

(٥٨٦) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٩.

(٥٨٧) سورة مريم الآية ٤٤.

(٥٨٨) سورة مريم الآية ٤٥.

(٥٨٩) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٠.

٢٩٧- جواب الأب لابنه إبراهيم:

وبالرغم من تلطف إبراهيم مع أبيه في الخطاب، والتزام أقصى حدود الأدب في هذا الخطاب، واستعطافه بأن يسمع منه ويقبل نصحه، ومخاطبته له بـ (يا أبتِ) ليثير فيه عاطفة الأبوة نحوه، بالرغم من ذلك أجابه بما أخبرنا الله به ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[٥٩٠] قال أبو إبراهيم مصراً على عناده وكفره: أمعرضٌ ومنصرفٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته عن الطعن في آلهتي وعن نصحك لي بترك عبادتها لأرجمنَّك بالحجارة واهجرني ملياً أي تباعد عني زمناً طويلاً[٥٩١].

٢٩٨- بماذا ردّ إبراهيم على جواب أبيه؟:

لم يعارض إبراهيم أباه بسوء الرد، ولم يستمر معه بالجدال، وإنما قال له: ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾[٥٩٢] وفي قول إبراهيم لأبيه ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أجيبك بمكروه بعد، ولكن سأدعو ربي أن يغفر لك إنه كان بي حفياً أي مبالغاً في اللطف بي[٥٩٣] وقال إبراهيم أيضاً: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[٥٩٤]. أي

---

(٥٩٠) سورة مريم، الآية ٤٦.

(٥٩١) تفسير القرطبي ج١١ ص١١١، تفسير القاسمي ج١١ ص١٢١.

(٥٩٢) سورة مريم الآية ٤٧.

(٥٩٣) تفسير القرطبي ج١١ ص١١١، ١١٣. هذا وإن استغفار إبراهيم كان لوعد من أبيه له بالإيمان وترك عبادة الأصنام فلما مات كافراً ترك إبراهيم الاستغفار له. قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إنَّ إبراهيم لأواه حليم﴾ سورة التوبة الآية ١١٤ وجاء في تفسير القرطبي في تفسيرها ج٨ ص٢٧٤: قال ابن عباس: كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد، فلما مات على الكفر علم إبراهيم أنه عدو لله فترك الدعاء له. فالكناية في قوله ﴿إياه﴾ ترجع إلى إبراهيم والواعد أبوه. وقيل الواعد إبراهيم أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له، فلما مات مشركاً تبرأ منه. ودلّ على هذا الوعد قول إبراهيم ﴿سأستغفر لك ربي﴾.

(٥٩٤) سورة مريم الآية ٤٨.

أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي ﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أي خائباً ضائع السعي. (وعسى) هذه هي في حق سيدنا إبراهيم بمعنى الشيء المحقق، لأنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ[٥٩٥]. وقال الزمخشري: وفيه تعريض بشقاوة قومه بعبادة آلهتهم مع التواضع لله بكلمة (عسى) وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على أنَّ الإجابة والإنابة بطريق التفضل منه تعالى[٥٩٦].

٢٩٩- جدال إبراهيم مع قومه قبل تكسير الأصنام:

قال تعالى ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[٥٩٧] أي آتينا إبراهيم النبوة أو آتيناه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا من قبل موسى وهارون عليهما السلام. وكنا عالمين بما لإبراهيم من صفات جعلته أهلاً لما آتيناه[٥٩٨]. ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[٥٩٩]. أي اذكر حين قال إبراهيم لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل - أي: الأصنام - التي أنتم مقيمون على عبادتها، ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾[٦٠٠] أي نعبدها تقليداً لأسلافنا، فحجتهم تقليد آبائهم الضُلّال، ولهذا ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٦٠١] أي فالكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، وفي عمل باطل ظاهر البطلان، وإنَّ الباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به[٦٠٢]، ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾[٦٠٣] أي أجئتنا

---

(٥٩٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٤.
(٥٩٦) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٢.
(٥٩٧) سورة الأنبياء الآية ٥١.
(٥٩٨) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٧٩- ١٨٠.
(٥٩٩) سورة الأنبياء الآية ٥٢.
(٦٠٠) سورة الأنبياء الآية ٥٣.
(٦٠١) سورة الأنبياء الآية ٥٤.
(٦٠٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٢، الرازي ج٢٢ ص١٨١.
(٦٠٣) سورة الأنبياء الآية ٥٥.

بالجدّ في دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال، أم أنت من اللاعبين أي لاعب مازح في كلامك هذا فإنا لم نسمع به قبلك[٦٠٤]. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٦٠٥] أي لست بلاعب، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض الذي فطرهن أي خلقهن وأبدعهن هو الذي يجب أن يعبد وليس هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأنا على ذلكم من الشاهدين أي المبرهنين عليه بالحجة، أي على أنَّ الله هو خالق السموات والأرض، فلستُ مثلكم تعجزون عن إثبات ما تدعونه من أحقية عبادتكم للأصنام إذ ليس عندكم من حجة سوى أنكم وجدتم آبائكم يعبدونها[٦٠٦].

٣٠٠- إبراهيم يكسّر الأصنام ليلفت إلى دعوته الأنظار:

وبعد هذا الجدال بين إبراهيم وقومه، عزم على تكسير أصنامهم، قال تعالى حكاية عمّا عزم عليه إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٦٠٧] أخبر إبراهيم بهذا القسم على ما هو عازم على فعله بأنه لم يكتف بالمحاجة والجدل باللسان بل عزم على تكسير أصنامهم، فعْلَ واثقٍ بالله موطّنٍ نَفْسَهُ على مقاساة المكروه في الذبّ عن الدين، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي بعد أن تخرجوا إلى عيدكم، وكان لهم عيد يخرجون إليه ويجتمعون فيه في كل سنة. وقد قال ذلك إبراهيم في سرّ من قومه ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذي أفشاه عليه. وقيل إنما قاله بعد خروج القوم إلى عيدهم ولم يبق منهم إلا الضعفاء منهم الذين سمعوه[٦٠٨] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[٦٠٩] أي جعل أصنامهم قطعاً مكسرة بعد أن ولّوا عنها. إلا أنه لم يكسّر الصنم الكبير، بل تركه وعلق الفأس التي

---

(٦٠٤) القرطبي ج١١ ص٢٩٦، القاسمي ج١١ ص٢٦٤.

(٦٠٥) سورة الأنبياء الآية ٥٦.

(٦٠٦) الرازي ج٢٢ ص١٨٢، القاسمي ج١١ ص٢٦٤.

(٦٠٧) سورة الأنبياء الآية ٥٧.

(٦٠٨) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٩٧.

(٦٠٩) سورة الأنبياء، الآية ٥٨.

كسّر بها الأصنام في عنقه، ليحتج به عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ودينه إذا قامت عليهم الحجة(٦١٠).

٣٠١- قالوا من فعل هذا بآلهتنا؟

ولما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حصل لآلهتهم قالوا على وجه البحث والإنكار ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٦١١). أي إنه ظالم لجرأته على إهانة آلهتنا بتكسيرها وهي الجديرةُ عندهم بالتعظيم(٦١٢) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(٦١٣) قال الذين سمعوا مقالة إبراهيم وقسمه على الكيد لهذه الأصنام، قال هؤلاء: سمعنا فتى أي شاباً يذكركم بمكروه منه يقال له إبراهيم. ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي على رؤوس الأشهاد في احتفالهم الأكبر بحضرة الناس كلهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعلهم يحضرون عقوبته، فلا يقدم أحد على مثل ما أقدم عليه، أو لعل قوماً يشهدون بأنهم رأوه يكسر الأصنام. وهذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام بأن يُؤتَى به أمام هذا الحشد الكبير من الناس، حتى يبيّنَ لهم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، ولو استطاعت ذلك لمنعت عن نفسها التكسير والتحطيم(٦١٤).

٣٠٢- إستنطاق إبراهيم أمام الناس:

فلما جيء بإبراهيم أمام الحشد الهائل من الناس ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾(٦١٥) وإنما أراد إبراهيم بهذا القول أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون وأن هذا لا

---

(٦١٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٩٧- ٢٩٨.

(٦١١) سورة الأنبياء الآية ٥٩.

(٦١٢) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٩٨ تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٥.

(٦١٣) سورة الأنبياء، الآية ٦٠.

(٦١٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٢.

(٦١٥) سورة الأنبياء الآيتان ٦٢، ٦٣.

يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد[٦١٦]. فقصد إبراهيم تقريعهم وتوبيخهم على عبادة هذه الأصنام، فكأنه قال لهم على وجه الاستهزاء بهم: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾ أي الصنم الكبير الذي لم يكسره فهو الذي كسر الأصنام، وواضح من هذا أنه يريد توبيخهم، والسخرية بهم لعبادتهمُ الأصنام. وتضمن جواب إبراهيم أيضاً: فإن ترددتم أن التكسير فعلي أو فعل الصنم الكبير فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وإلا ظهر عجزهم الكلي المانع من القول بألوهيتها. ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٦١٧] أي فراجعوا عقولهم، أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطِنِ لصحة حجة خصمه ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، أي أنتم الظالمون بعبادة من لا ينطقُ بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس[٦١٨]، ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي عادوا إلى جهلهم وعنادهم، ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾، فكيف تقول لنا اسألوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾[٦١٩] أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلِمَ تعبدونها من دون الله؟[٦٢٠] ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٦٢١] ﴿ أُفٍّ ﴾ صوت إذا صُوّتَ به عُلِمَ أن صاحبه متضجرٌ. قال الزمخشري: أضجرهُ ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل، فتأفَفَ، ولما عجزوا عن المحاجة، أخذوا في المضارة شأنَ المبطل إذا قُرِعَتْ شبهتُهُ بالحجة لم يكن أحدٌ أبغض إليه من المحق[٦٢٢].

---

(٦١٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٣.

(٦١٧) سورة الأنبياء الآية ٦٤.

(٦١٨) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٠٢.

(٦١٩) سورة الأنبياء الآية ٦٦.

(٦٢٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٠٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٣.

(٦٢١) سورة الأنبياء الآية ٦٧.

(٦٢٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٨.

٣٠٣- قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم:

لما دحضت حجتهم، وظهر عجزهم، وظهرا الحق، واندفع الباطل أخذتهم العزة بالإثم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[٦٢٣]، أي لأنه استحق أشد العقاب عندهم، والنار أهول ما يعاقب به، وانصروا آلهتكم أي بالانتقام لها إن كنتم فاعلين به شيئاً[٦٢٤].

٣٠٤- وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين:

ولما قرروا تحريقه بالنار أوقدوا ناراً عظيمة، فلما ألقوه فيها قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين أُلقِيَ في النار. قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٦٢٥] قال ابن عباس: لولا أنّ الله عزوجل قال ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لآذى إبراهيمَ بَرْدُها[٦٢٦]. ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[٦٢٧] أي أرادوا أن يكيدوه بالإضرار به بتحريقه بالنار، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين حيث أنجاه الله من النار، ونصره عليهم[٦٢٨]. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[٦٢٩]. وأتم الله نعمته على إبراهيم بأن أخرجه من بين قومه، ونجى معه ابن أخيه لوطاً بأن هاجر معه إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وهي أرض الشام، بورك فيها بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب العيش، وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين من أرض الشام، ونزل لوط

---

(٦٢٣) سورة الأنبياء الآية ٦٨.

(٦٢٤) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٩.

(٦٢٥) سورة الأنبياء الآية ٦٩.

(٦٢٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٤.

(٦٢٧) سورة الأنبياء الآية ٧٠.

(٦٢٨) تفسير الرازي ج٢٢ ص١٩٠.

(٦٢٩) سورة الأنبياء الآية ٧١.

عليه السلام ببلدة سدوم(٦٣٠)، وهي بلدة في دائرة الأردن(٦٣١). وفي سورة الصافات بشأن إنجاء الله إبراهيم عليه السلام، وإخراجه إلى بلاد الشام قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي الأذلين بإبطال كيدهم. ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي قال إبراهيم: إني ذاهب إلى بلد أعبد فيه ربي وأعصم فيه ديني(٦٣٢).

٣٠٥- إبراهيم يبني الكعبة ويعاونه إسماعيل:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٦٣٣) القواعد جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه، ورفع الأساس أي القواعد بالبناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع. ويجوز أن يكون المراد بها -أي القواعد- مسافات البناء، لأن كل مسافة قاعدة للذي يبني عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء، لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات(٦٣٤). وكان إسماعيل يعاون أباه إبراهيم في البناء حيث كان يناول أباه الحجارة، وإبراهيم يباشر البناء، فقد جاء في حديث مجيء إبراهيم لتفقد إسماعيل حيث تركه وأمه هاجر في مكة، جاء في هذا الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس، قول إبراهيم لابنه إسماعيل: «يا إسماعيل إنَّ الله أمرني بأمر، قال إسماعيل: فأصنع ما أمركَ ربُكَ. قال: وتعينني. قال: وأعينك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ

---

(٦٣٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٠٥، تفسير الرازي ج٢١ ص١٩٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٤.

(٦٣١) قصص الأنبياء ص١١٢.

(٦٣٢) تفسير القاسمي ج١٤ ص١١٧، والآيتان في سورة الصافات ٩٨و٩٩.

(٦٣٣) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

(٦٣٤) تفسير الرازي ج٤ ص٥٧.

﴿أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٦٣٥].

٣٠٦- أدعية إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة:

حكى الله تعالى عن إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يبنيان البيت أنهما ذكرا ثلاثة أنواع من الدعاء[٦٣٦]:

النوع الأول- قولهما ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقد ذكرنا ما جاء في صحيح البخاري في حديث ابن عباس بشأن بناء البيت «الكعبة» شرّفها الله، وفيه أن إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وهما يبنيان الكعبة. وعن بعض السلف أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك. قال ابن كثير بعد أن ذكر هذه الحكاية: وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات، وقلوبهم وجلة أي خائفة أن لا يتُقبَل منهم، كما جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ[٦٣٧].

النوع الثاني من الدعاء- ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[٦٣٨] أي واجعلنا مستسلمينْ لأمرك خاضعينْ لطاعتك مخلصيْن لك ثابتيْن علَى طاعتك والإخلاص لك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي علمنا شرائع حجنا إذ أمرتنا ببناء البيت، لنحجه وندعو الناس إلى حجه، فعلمّنا يا ربنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نفعله- والنسك في الأصل هو التعبُّدُ، يقال للعابد ناسك، ثم سمي الذبح نسكاً والذبيحةُ نسيكة، وسمّيتْ أعمال الحج مناسك، قال صلى الله ﷺ: «خذوا عني مناسككم، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» والمواضع

---

(٦٣٥) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٧.

(٦٣٦) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٥ وما بعدها، الرازي ج٤ ص٥٧ وما بعدها، القاسمي ج٢ ص٢٥٥ وما بعدها.

(٦٣٧) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٥.

(٦٣٨) سورة البقرة، وآية «ربنا واجعلنا مسلمين لك.. إلى التواب الرحيم» رقمها ١٢٨.

التي تقام فيها شرائع الحج تسمى: مناسك أيضاً.

النوع الثالث من الدعاء- ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٦٣٩). أي رسولاً من ذرية إبراهيم وهم العرب من ولد إسماعيل. وقد أجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة، فبعث في ذريته - من ولد إسماعيل - رسولاً منهم وهو محمد ﷺ، وقد أخبر ﷺ عن نفسه: أنه دعوة إبراهيم، ومراده هذه الدعوة التي دعا بها إبراهيم ربهً وإسماعيل. ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ أي الفرقان الذي أنزل على محمد ﷺ، لأنَّ الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك فوجب حمله عليه، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والمراد أنه يأمرهم تلاوة الكتاب، ويعلمهم معاني الكتاب وحقائقه، ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي ويعلمهم الحكمة، والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، ووضع كل شيء في موضعه، والمراد بالحكمة في هذه الآية سنة رسول الله ﷺ، وهذا هو المنقول عن الشافعي رحمه الله تعالى. ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي ما يفعله ﷺ سوى التلاوة وتعليم الكتاب والحكمة حتى يكون ذلك كالسبب لطهارتهم، مثل ما كان يفعله ﷺ من وعظهم وتذكيرهم بما يلزمهم وتكرير ذلك عليهم، حتى تخلص عبادتهم لله، ويتخلصوا من كل معاني الشرك.

٣٠٧- أولاد إبراهيم:

أولاً- إسماعيل:

إسماعيل من أولاد إبراهيم، وقد ذهب به إبراهيم وهو رضيع مع أمه هاجر إلى مكة ولم تكن مسكونة، وتركهما هناك كما ذكرنا ذلك من قبل(٦٤٠). وكان إبراهيم يتردد عليهما، يزورهما بين الحين والآخر ويرجع إلى فلسطين. وقد رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فعزم على ذبحه وأطاعه إسماعيل، ولكن الله تعالى فداه بذبح عظيم، كما سأبينُهُ في قصة إسماعيل إن شاء الله تعالى. وقد عاون إسماعيلُ أباه في بناء البيت «الكعبة» كما ذكرنا.

---

(٦٣٩) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

(٦٤٠) الفقرة ٢٩٣.

٣٠٨ -ثانياً- إسحاق:

ومن أولاد إبراهيم إسحاق، وقد أشار إليه القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي زيادة وفضلاً، ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾(٦٤١) فيعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم. وإسحاق هذا هو الذي وقعت به البشارة لأبيه وأمه، لأبيه بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٦٤٢) أي بشرنا إبراهيم بابنه إسحق. وبشارة إلى أمه وذلك عندما جاءت الملائكة إلى إبراهيم تخبره بأنهم جاؤوا لإهلاك قوم لوط، وقالوا له: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾(٦٤٣) أي لإهلاكهم ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾(٦٤٤).

---

(٦٤١) سورة الأنبياء الآية ٧٢، وتفسير القاسمي ج١١ ص٢٧٠.

(٦٤٢) سورة الصافات الآية ١١٢.

(٦٤٣) سورة هود الآية ٧٠.

(٦٤٤) سورة هود الآية ٧١.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة إبراهيم للدعوة والدعاة

٣٠٩- في قصة إبراهيم فوائد كثيرة:

قصة سيدنا إبراهيم مع قومه ومع غيرهم كأبيه وابنه، هذه القصة مملوءة بالعبر والفوائد للدعوة والدعاة فيجب التأمل فيها، والاتعاظ بمفرداتها، والتأسي بصاحبها سيدنا إبراهيم عليه السلام، لا سيما وأنَّ الله تعالى ندبنا إلى التأسي به، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[٦٤٥].

ونذكر فيما يلي بعض العبر والفوائد من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام للدعوة والدعاة.

٣١٠- أولاً- وضوح شخصية إبراهيم الإسلامية:

الإسلام في جوهره هو الاستسلام الكامل المطلق لله رب العالمين عن رضا واختيار، ومظهره الانقياد التام الكامل لشرع الله، وهذا هو الدين المرضي عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ وهو بهذا الاعتبار دين جميع الأنبياء ومنهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد قال تعالى عنه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٦٤٦]. أي أسلم لربك أي انقدْ له وأخلص نفسك له[٦٤٧]. وقال ابن كثير: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد له فأجاب إلى ذلك[٦٤٨]. وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ

---

(٦٤٥) سورة الممتحنة، الآية ٤.

(٦٤٦) سورة البقرة الآية ١٣١.

(٦٤٧) تفسير القاسمي ج٢ ص٢٦٣.

(٦٤٨) تفسير ابن كثير ج١ ص١٨٥.

فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦٤٩] والضمير في (بها) عائد لقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على تأويل الكلمة والجملة. فهم لحرصهم عليها، ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم[٦٥٠]. والواقع أنه بقدر انصباغ نفس المسلم بمعاني الإسلام يكون بروز وظهور شخصيّتِهِ الإسلامية، وهذا ما كانت عليه شخصية إبراهيم الإسلامية، فقد كانت بارزة وظاهرة يدركها ويراها المؤمن به والمخالف له، لانصباغ نفس إبراهيم بالإسلام ومعانيه، بل إن إبراهيم عليه السلام كان من حرصه على شخصيته الإسلامية وبقائها والاستزادة من معانيها ومظاهرها بزيادة الانصباغ بمعاني الإسلام، أقول: كان من حرصه على ما ذكرتُ أنه كان وابنه إسماعيل يدعوان الله تعالى بقولهما ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وهما يبنيان الكعبة شرفها الله.

٣١١- من مظاهر شخصية إبراهيم الإسلامية:

إن صاحب الشخصية الإسلامية لا يتأثر بالبيئة الفاسدة، ويسعى أن يؤثر فيها، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام، فهو لم يتأثر قط ببيئته الكافرة، فقد بصّره الله بالحق، وهداه إلى التوحيد الخالص، وهذا هو الذي أوتيه من ربه، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[٦٥١] وهو عليه السلام لم يكتف بصيانة نفسه من تلك البيئة الفاسدة، وإنما أراد أن ينقذ أهلها منها ويؤثر فيها بتطهيرها من الشرك. وكان عليه السلام في درجة من الرسوخ وبروز شخصيته الإسلامية بحيث كان يرى قومه المبطلين كصغارٍ يلعبون ويعبثون بما يضرهم ولا ينفعهم. وهذا المظهر لشخصيته الإسلامية تلمحه في جداله مع قومه ومصارحته لهم ببطلان ما هم عليه من عبادة غير الله، مع كونه وحيداً فريداً، حيث لم يؤمن له إلا لوط ابن أخيه وزوجته سارة[٦٥١]. ومن مظاهر شخصيته الإسلامية أنه لا ترهبه كثرة

---

(٦٤٩) سورة البقرة، الآية ١٣٢.

(٦٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٥، تفسير القاسمي ج٢ ص٢٦٣.

(٦٥١) سورة الأنبياء، الآية ٥، تفسير القاسمي ج١١ ص٢٦٢، في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب المجلد الرابع ص٢٣٨٥.

(٦٥٢) قصص الأنبياء ص٨٣.

المبطلين بل يبقى مستعلياً عليهم، لا يتسلل إلى قلبه أي معنى من معاني الإعجاب بهم أو الخوف منهم، لما يرى من كثرتهم وسطوتهم وسلطاتهم وعزمهم على إرادة الشر به. وقد بدا هذا المظهر من شخصية إبراهيم عندما كسّر أصنامهم فأرادوا استنطاقه ومحاكمته أمام الجمع الكبير من الناس قبل أن يُنْزلوا فيه العقاب، فلما جاؤوا به على أعين الناس وقد تجمعوا وصاروا حشداً هائلاً قاصدين التشهير به وإرهابه أمام هذا الجمع الهائل من الناس، نظر إليهم إبراهيم كصغار تافهين عابثين، أو كبار يحتاجون إلى التأديب والتوبيخ، وهذا ما فعله إبراهيم في هذا الموقف الذي حرص أن يوجد ويجادل فيه المبطلين في محضر من الناس، قال ابن كثير: (وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي على رؤوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟)[٦٥٣] فلما سألوه: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ؟﴾ فأجابهم على وجه السخرية منهم والهتكم بهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[٦٥٤].

٣١٢- شخصية الداعي الإسلامية:

فعلى الداعي المسلم أن يسعى جاهداً أن يجعل شخصيته الإسلامية مثل أو قريباً من شخصية إبراهيم الإسلامية، فلا يتأثر بالبيئة الفاسدة وأهلها إذا وجد نفسه فيها، بل يسعى إلى إزالة الفساد منها حتى يكون هو المؤثر فيها وليس هو المتأثر بها. كما عليه أن لا ترهبه جموع المبطلين ولو كان وحده، فقد كان إبراهيم وحده، لم يؤمن له إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط كما قلنا، وليستحضر في ذهنه موقف إبراهيم من قومه في جداله معهم، وفيما قاله لهم وقد جاؤوا به على أعين الناس.. وليعلم يقيناً أنَّ الباطل لا يصير حقاً بكثرة أتباعه، وأنَّ الحق يبقى حقاً ولو لم يجد من يحمله ويدعو له غير واحد فقط.

---

(٦٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٢.

(٦٥٤) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٢، ٦٣.

٣١٣- ثانياً- الأدب في التبليغ مع الصراحة في بيان الحق:

ذكرنا، كما جاء في القرآن الكريم، كم كان إبراهيم عليه السلام متمسكاً بالأدب الرفيع وبالكلام الطيب الرقيق وهو يدعو أباه إلى التوحيد ونبذ عبادةِ ما سوى الله، وهكذا قام إبراهيم بواجب البرّ نحو والده، وبواجب الصدق مع دعوته، فأمره بعبادة الله وحده، وبيّن ضلال ما هو عليه وضرره عليه. وهكذا يجب أن يفعل الداعيةُ المسلم، فإذا ابتلي بأب أو أم، أو قريب، غير مسلمين فعليه أن يرعى حقهم عليه من جهة مخاطبتهم بالحسنى، ولكن مع وضوح وصراحة ما يدعوهم إليه، ومن باب أولى أن يفعل الداعي المسلم ما قلناه إذا كان والداه أو أحدهما أو قريب له، من العصاة الباقين في دائرة الإسلام.

٣١٤- ثالثاً- تغيير المنكر باليد كوسيلة لتبليغ الدعوة:

لما لم ينفع جدال إبراهيم مع قومه ولم يؤثر فيهم قوله المدعوم بالحجة والبرهان والعقل السليم، تحول إلى وسيلة أخرى عملية تلفت إليه الأنظار وقد يتبعها رجوعهم عما هم عليه من شرك وضلال. وكانت تلك الوسيلة هي تكسير أصنامهم كما بينا. وهو باشر هذه الوسيلة مع علمه بما تسببه له هذه العملية من أذى وضرر، ولكن كل شيء في جنب الله يهون، وكل شيء في سبيل الدعوة إلى الله يهون. ويبدو لي- والله أعلم- أن إبراهيم عليه السلام قام بتكسير الأصنام، ليلفت إليه وإلى دعوته الأنظار، وليتجمع الناس إذا علموا ما حدث للأصنام، ليسمعوا ما يقوله من قام بالتكسير، ولا شك أنَّ في تجمعهم فرصة جيدة لأن يبين إبراهيم عليه السلام للناس بطلان وسخافة ما يقومون به من عبادة هذه الأصنام التي لم تستطع أن تمنع عن نفسها التحطيم والتكسير، وهذا ما حصل، وهذا ما أراده إبراهيم عليه السلامُ للناس، إذ تجمعوا وقالوا فأتوا به- أي ائتوا بإبراهيم على أعين الناس.

٣١٥- هل في تكسير الأصنام أسوة حسنة بإبراهيم؟:

وقد يقال هل في تكسير الأصنام من قبل إبراهيم أسوة حسنة به؟ بمعنى هل يجوز للداعي المسلم أن يقوم بعمل يشبه عمل إبراهيم في إغاظة المخالفين ولو أنَّ

هذا العمل يؤدي إلى قتل الداعي ، أو إيذائه إيذاءً شديداً في نفسه أو ماله؟ أم لا أسوةَ بإبراهيم في عمل يؤدي إلى قتل الداعي ، أو إيذائه إيذاءً شديداً في نفسه أو ماله، فيكون هذا العمل ممنوعاً كما في المنع من الاقتداء بإبراهيم بالاستغفار لأبيه؟

٣١٦- الجواب على هذا السؤال من وجوه عديدة:

الوجه الأول- أنَّ الله تعالى حكى لنا ما فعله إبراهيم من تكسير الأصنام، وتركه الصنم الكبير دون تكسير، حكى الله لنا دون إنكار بالرغم مما ترتب على ذلك من إلقاء إبراهيم في النار، فدَلَّ ذلك على مشروعية ما فعله إبراهيم، لأنَّ القاعدة أنَّ الله تعالى إذا حكى لنا أمراً دون إنكار دلَّ ذلك على مشروعية هذا الأمر، وهذا ما حصل بالنسبة لتكسير الأصنام وما ترتب عليه من إلقائه في النار، فيدخل ما فعله إبراهيم عليه السلام من تكسير الأصنام في دائرة القدوة الحسنة والاتّساء به.

٣١٧- الوجه الثاني:

إن الدعوة إلى الله جهاد في سبيله، والقائم بها مجاهد في سبيل الله، والمجاهد معرض للقتل أو الجرح أو أي أذى، فإذا قام الداعي المسلم بشيء في سبيل دعوته، وقد يترتب على فعله أذى له، فهذا من قبيل ما يصيب المجاهدَ في ساحة القتال، ويؤيد ما أقول ما جاء في الحديث النبوي الشريف «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله» أو كما قال ﷺ.

٣١٨- الوجه الثالث:

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى: ولا بأس أن يحمل الرجل وحده على المشركين وإن كان غالب رأيه أنه يقتل، إذا كان في غالب رأيه أنه ينكي فيهم بقتل أو جرح أو هزيمة، وإن كان غالب رأيه أنه لا ينكي فيهم أصلاً لا بقتْلٍ ولا بجرح ولا بهزيمة ويقتل هو، فإنه في هذه الحالة لا يباح له أن يحمل وحده على العدو(٦٥٥). ومؤدى هذا الكلام جواز قيام المسلم بعمل فيه مصلحة مؤكدة أو راجحةٌ حسب غالب ظنه، وإن كان في هذا العمل موته أو لحوقُ الأذى به.

---

(٦٥٥) الفتاوي الهندية في فقه الحنفية ج٥ ص٣٥٩.

٣١٩- الوجه الرابع:

على أن يكون تقدير المصلحة الشرعية المترتبة على الفعل الذي يقوم به الداعي المسلم المُهلك أو المؤذي له، أن يكون تقدير هذه المصلحة بالموازين الشرعية. ولا شك أنَّ هذا التقدير من الأمور الاجتهادية، ولكن مع تقوى الله وسعة فقه الداعي المسلم أو الجماعة المسلمة، والتأمل في الفعل المراد فعله، أقول مع هذه الأمور: يمكن أن يقال: إنّ إدراك الصواب يكون هو الأقرب.

٣٢٠- رابعاً- الهجرة من بلاد الكفر:

ومن العبر والفوائد من قصة إبراهيم الهجرةُ من بلاد الكفر، فإذا وجد الداعي المسلم نفسه عاجزاً أن يفعل شيئاً للإسلام والدعوة إليه، فيباح له أو يندبُ إليه أو يجب عليه، حسب الظروف والأحوال، أن يهاجر من هذه البلاد إلى حيث يمكنه أن يعبد الله ويدعوَ إليه. ودليلنا على ذلك أنَّ الله تعالى امتن على إخراج إبراهيم من ديار الكفر إلى الأرض التي باركها الله، قال تعالى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(٦٥٦)، وهي أرض الشام كما قلنا من قبل. وقال تعالى في خروج إبراهيم من ديار الكفر بعد أن أنجاه الله من النار ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(٦٥٧). قال الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ دلّت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجبُ مهاجرته، وذلك لأنَّ إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه مع أنَّ الله سبحانه خصه بِأعظم أنواع النصرة، لما أحسّ منهم بالعداوة الشديدةِ هاجر من تلك الديار، فَلأَنْ يجبَ ذلك على الغير كان أولى(٦٥٨). والظاهر لي أنَّ الداعي المسلم إذا وجد أَنَّ بقاءَه في دار الكفر أو في دار يغلب عليها سلطان جائر، ينظر: فإن رأى أَنَّ بقاءه أنفع للدعوة أو للمسلمين بقي

---

(٦٥٦) سورة الأنبياء الآيتان ٧٠، ٧١.

(٦٥٧) سورة الصافات الآيات ٩٧-٩٩.

(٦٥٨) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٥٠.

ولو تحمل ضيقاً أو لم يستطع أن يعمل كثيراً للدعوة. وإن رأى أنَّ خروجه من هذه الدار إلى دار أخرى يستطيع فيها أن يعمل ويدعوَ إلى الله ويحصل بذلك نفعٌ كبير للمسلمين فعليه أن يهاجر إذا كان ذلك ميسوراً له. وسيدنا إبراهيم لم يعد بقاؤه في دار الكفر مفيداً ولا ممكناً بعد أن أرادوا قتله بتحريقه بالنار. فخروج الداعي المسلم من دياره إلى ديار أخرى، مسألة تقديرية، وتختلف بإختلاف الدعاة والظروف والأحوال ومدى المصلحة الشرعية التي تحصل للدعوة وللمسلمين في حال البقاء أو الهجرة.

٣٢١- خامساً- التأكيد على وصية إبراهيم:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦٥٩]. قوله تعالى لإبراهيم ﴿أَسْلِمْ﴾ أي كن منقاداً لأوامر الله، وأخلص عبادتك لله، واجعلها سليمة من الشرك، وملاحظة الاغيار، واستقم على الإسلام، واثبت على التوحيد، فقال إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم إنَّ إبراهيم عليه السلام وصىّ بها أي بكلمة ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بنيه، وهذه الوصية لبنيه بضرورة الإسلام لله رب العالمين تدل على عظم اهتمام إبراهيم بمضمونها، وبيان ذلك من وجوه:

(الأول): أنه تعالى لم يقل: وأمر إبراهيم بنيه، بل قال: وصاهم، ولفظ الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية تكون عادة عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً منه كان القول إلى قبوله أقرب.

(الثاني): أنه عليه السلام خصّ بنيه بتلك الوصية، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم فلما خصّهم بذلك في آخر عمره دلّ ذلك على عظيم اهتمامه بمضمون هذه الوصية.

(الثالث): أنه عليه السلام أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين، ومكان

---

(٦٥٩) سورة البقرة الآيتان ١٣١، ١٣٢.

معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وهذا يدل أيضاً على شدة اهتمام إبراهيم بمضمون هذه الوصية[٦٦٠]، فعلى الداعي المسلم أن يؤكد في خطبه ودروسه ومواعظه للناس على مضمون «وصية إبراهيم لبنيه» أي على عقيدة التوحيد والالتزام بشرائع الإسلام وإخلاص العمل والعبادة لله رب العالمين.

٣٢٢- سؤال وجوابه:

وقد يقال: إن الداعي المسلم يخاطب مسلمين فما الحاجة إلى التأكيد على الإسلام وعقيدة التوحيد؟ والجواب: أَنَّ من وصاهم إبراهُيم عليه السلام بوصيته هذه وهم بنوه، كانوا مسلمين، ومع هذا وصاهم بهذه الوصية، وحذّرهم من الغفلة عنها، والموتِ على غير مضمونها. ثم إن معاني الإسلام كثيرة جداً، والانصباغ بها والالتزام بها ليس بالأمر السهل لكل المسلمين، وإذا تيسر فإن الثبات على هذه المعاني ليس بالأمر السهل، فكان في التذكير بها، والتأكيد عليها فائدةٌ مؤكدة للمسلمين. ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (إني لم أسلم بعدُ إسلاماً جيداً)، فعلى الداعي المسلم أن لا يغفل عما قلناه والله المستعان.

٣٢٣- سادساً- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما:

رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه ففهم من هذه الرؤيا أنها أمرٌ من الله تعالى بذبح ابنه إسماعيل، فقام يريد تنفيذ هذا الأمر، كما سنبينهُ في قصة إسماعيل. وإنما عزم إبراهيم على التنفيذ وأراده؛ لأن الله أَحبُّ إليه من ابنه، وبيان ذلك أنَّ الله إذ أمره بذبح إبنه دلَّ ذلك الأمر على أنه يحب من إبراهيم تنفيذه، فإذا قام إبراهيم يريد تنفيذ هذا الأمر دلّ ذلك منه على أنه جعل أمر الله أحبَ إليه من ابنه بإبقائه حياً. ومما يوضح الأمر أكثر أن إبراهيم يحب حياة إسماعيل لأنه ابنه، ولكن ما أمره الله به وهو ذبح ابنه يحبه الله، فقدم إبراهيم ما يحبه الله وهو ذبح ابنه على ما يحبه إبراهيم وهو إبقاء إسماعيل حياً. فعلى الداعي المسلم أن يبين هذه المعاني في دروسه وخطبه للناس ويذكر لهم قصة ذبح إسماعيل، وكيف أنَّ إبراهيم عزم عزماً أكيداً على ذبح

---

(٦٦٠) تفسير الرازي ج٤ ص٧٢-٧٣.

ابنه إسماعيل دون تردد، لأن الله أمره بذلك، وما أمره الله به أحبُ إليه من سواه، ولذلك قام يريد تنفيذه. وهذا هو شأن المسلمين الصادقين، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[٦٦١]، ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أنها لم ترتب المؤاخذة على أصل الحب لهذه الأشياء المذكورة فيها؛ لأنه حبٌ غريزيٌّ، وإنما رتبت المؤاخذة على تفضيل هذه المشتهيات في الحب على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله. وعلى هذا يجب أن يكون حب العبد لله ولرسوله ﷺ فوق حبّ هذه المشتهيات المذكورة في الآية، بل وفوق كل حب لما سوى الله ورسوله. ومظهر هذا الحب الراجح- حب الله ورسوله- هو طاعة الله ورسوله بتنفيذ ما يأمرانه به أو يَنْهيان عنه. وقد عطف على حب الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، وقد جاء الجهاد منكراً، ليفيد تنكيرُه وإبهامُه أنَّ كل نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله قل أو كثر، فإنَّ تاركه لأجل حب شيء من تلك الأصناف الثمانية المذكورة في الآية، وتفضيلها عليه يستحق الوعيد الذي في الآية وهو قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي انتظروا حتى يأتي الله بقضائه، وهو عذاب عاجل أو آجل. وإذا كان معنى الآية ما ذكرناه فلا ريب أنَّ من كان ما ذكر من الأصناف الثمانية كلها أو بعضها أحبَّ إليه من الله ورسوله، أي أحب إليه من طاعة الله ورسوله واتباع أمرهما، وجهادٍ في سبيله، فهو غير تام الإيمان أو غير صحيحه[٦٦٢].

٣٢٤- الميزان لمعرفة مدى حب المسلم لله ورسوله:

ولتسهيل الأمر على الداعي المسلم في تفهيمه للناس ضرورة تقديم المسلم ما يحبه الله ورسوله على ما سواهما، وبالتالي المبادرة إلى تنفيذ ما يحبه الله ورسوله،

---

(٦٦١) سورة التوبة الآية ٢٤.

(٦٦٢) تفسير المنار ج١٠ ص٢٧٠ وما بعدها، تفسير القرطبي ج٤ ص٦٠، تفسير القاسمي ج٨ ص١٥١.

أي تنفيذ ما يأمران به، لأن ما يأمران به يحبانه قطعاً، أقول: لتسهيل هذا الأمر على الداعي المسلم، عليه أن يبين للناس أنَّ السبيلِ لمعرفة المسلم مدى حبه لله ورسوله وهل يفضل هذا الحب على حب ما سواهما، هو أن ينظر إلى أمر الله ورسوله، وما يعيق تنفيذه من حب الأهل أو الولد أو الزوجة أو المال أو التجارة أو الراحة والسكن المريح، أو غير ذلك من حظوظ الدنيا ومشهياتها، فإذا لم يلتفت إلى هذه العوائق، ولم تمنعه أو تكسّله عن تنفيذ أمر الله ورسوله، فإنه يكون قد نجح في الامتحان بالنسبة لهذا الأمر، ويكون الله ورسوله أحب إليه في هذا الأمر من تلك العوائق المشتهاة. وعلى سبيل المثال، إذا سمع المسلم أذان المؤذن لصلاة الفجر في الليلة الباردة، وهو في فراشه الوثير الدافىء، فنهض من فراشه، وتوضأ وذهب إلى المسجد فصلى مع إخوانه، فهذا المسلم بالنسبة لما يحبه الله ورسوله منه بالنسبة لصلاة الفجر، وهو النهوض من فراشه، والتمهيد للصلاة بوضوئه، ولو بالماء البارد، يكون قد قدّم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه من البقاء في فراشه ودفئه، وإن كسل عن النهوض، وآثر البقاء في فراشه، ولم يقم لصلاة الفجر، فيكون في هذه الحالة قد جعل البقاء في الفراش أحبَّ إليه مما يحبه الله ورسوله، ومعنى هذا أنَّ في إيمانه نقصاً وخللاً. وكذلك إذا حان وقت الجهاد، أو وجب عليه، ومنعه منه محبة البقاء مع الأهل، أو التلذذ بالعيش المرضي المريح في بيته، أو مزاولة تجارته، فإن في هذه الحالة يكون قد جعل هذه الأشياء أحبَ إليه من الله ورسوله، أي جعلها أحب إليه مما يحبه الله ورسوله وهو الجهاد في سبيله.

وهكذا يقوم الداعي المسلم بضرب الأمثال والحالات التي تقع للمسلم، وفيها أمر الله ورسوله أو نهيما، فينفذها المسلم فعلاً للمأمور وتركاً للمنهيّ عنه دون التفات لما يحبه من عوائق التنفيذ، فيكون المسلم في هذه الحالة قد جعل الله ورسوله أحبَّ إليه من هذه العوائق. وإن استجابَ لمحبته لهذه العوائق، فلم ينفذ أمر الله ورسوله، فإنه يكون في هذه الحالة قد جعل هذه العوائق أحبَّ إليه من الله ورسوله، وهذا خلل أو نقص في إيمانه. قال الإمام الرازي وهو يفسر الآية التي نحن بصددها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ . . ﴾ الخ الآية: (وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع تعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا

وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا)[٦٦٣] لأن مصالح الدين هي التي يحبها الله ورسوله فيجب أن تكون هذه المصالح أحبَ عند المسلم من غيرها من جميع مهمات الدنيا.

٣٢٥- الدعوة إلى الله مما يحبُّه الله ورسوله:

الدعوة إلى الله مما يحبه الله ورسوله قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٦٦٤] فعلى المسلم أن يقوم بهذا المحبوب لله وهو الدعوة إليه. والأحب لله في موضوع الدعوة أن يقوم بها المسلم بالتعاون مع غيره، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ ومن أعظم التعاون على التقوى التعاون على نشر الدعوة وتبليغ الناس بمضمونها، أي بالقيام بالدعوة بصورة جماعية بأن ينضّم المسلم إلى الجماعة المسلمة؛ ليكون عمله في الدعوة من خلالها وبالتعاون مع أفرادها بصورة منظمة. وأن يكون انضمام المسلم إلى الجماعة المسلمة؛ لنشر الدعوة أحبَّ إليه من الجلوس غي بيته طلباً للراحة والسلامة من الأذى.

٣٢٦- سابعاً- أدعية إبراهيم فيها الأسوة الحسنة لمن يدعو الله:

كان إبراهيم عليه السلام دائم التوجه إلى الله والتوكل عليه والتعلق به، والثقة به،والذكر له بقلبه ولسانه، كثير الدعاء لربه، وكانت أدعيته (منها): لنفسه ومن ذلك ما حكاه الله عنه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٦٦٥]، ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٦٦٦] (ومنها): دعاؤه لنفسه ولابنه ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٦٦٧] (ومنها): دعاؤه لنفسه ولابنه ولذريتهما ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ

---

(٦٦٣) تفسير الرازي ج١٦ ص١٩.

(٦٦٤) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٦٦٥) سورة إبراهيم الآية ٤٠.

(٦٦٦) سورة الصافات الآية ١٠٠.

(٦٦٧) سورة البقرة الآية ١٢٧.

﴿أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٦٦٨] (ومنها): دعاؤه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٦٦٩] (ومنها): دعاؤه لذريته المسلمة بأن يبعث فيها رسولاً ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٦٧٠] (ومنها): الدعاء لذريته بخيرات الدنيا ليستعينوا بها على عبادة الله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٦٧١].

٣٢٧- أدعية الداعي المسلم:

ويستحب للداعي المسلم أن تكون أدعيته مشابهة لأدعية إبراهيم عليه السلام، يدعو لنفسه بالإيمان والتقوى والإسلام والثبات عليه ونحو ذلك مما ينفعه في الدنيا والآخرة. فقد رأينا أنَّ إبراهيم دعا الله لنفسه ولابنه بأن يجعلهما (مسلمين).. والداعي المسلم بحاجة إلى مثل هذه الأدعية؛ لأنَّ فيها قوةً وتذكيراً بأنه موصول بالله.

ويدعو الداعي المسلم لوالديه؛ لأنَّ هذا من البرّ لهما، ويدعو لذريته بالصلاح، وهذا من صلَةِ الرحم، ويدعو لعموم المسلمين، وهذا الدعاء يذكره بالرابطة الإيمانية التي تربطه بهم، وبحقوقهم عليه وباهتمامه بهم. ولا بأس أَنْ يدعوا الداعي لنفسه ولغيره بما هو مباح للمسلم من خيرات الدنيا ناوياً بذلك الاستعانة به في عبادة الله تعالى.

ويلاحظ في أدعية إبراهيم أنها كلها توسل بالله وطلب منه وذكر لأسمائه وصفاته، وتبدأ بنداءِ الله تعالى بـ «ربنا» أو «رَبِّ» وما يتضمنه هذا النداء من اعتراف الداعي بربوبيته الله لكل شيء، وبعبودية الداعي لله رب العالمين.

---

(٦٦٨) سورة البقرة الآية ١٢٨.

(٦٦٩) سورة إبراهيم الآية ٤١.

(٦٧٠) سورة البقرة الآية ١٢٩.

(٦٧١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

فينبغي للداعي المسلم أن يدعو ربه بمثل هذه الصيغ، ولا يدعو غير الله، لأنَّ ما عدا الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً. وعلى الداعي أن يبين في محاضراته ودروسه للناس أهمية الدعاء وما يتضمنه من إقرار بربوبية الله وبألوهيته وبعبودية الداعي لربه ولهذا جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ «الدعاء مخُ العبادة».

الفصل السابع
قصة إسماعيل عليه السلام

المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٣٢٨- خلاصة القصة:

إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأمّه هاجر، خرج به وبأُمه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى مكة، وكان إسماعيل رضيعاً وأسكنهما هناك على النحو الذي بيّناه من قبل[٦٧٢]. وكان إبراهيم يتردد عليهما في مكة، وقد عاون إسماعيل أباه إبراهيم في بناء الكعبة كما ذكرنا من قبل[٦٧٣]. وقد رأىٰ إبراهيم عليه السلام أنّهُ يذبح ابنه إسماعيل، وعزم فعلاً على تنفيذ هذه الرؤيا ولكنّ الله تعالى فداه بذبحٍ عظيم كما سنذكره بعد قليل إن شاء الله تعالى.

٣٢٩- إسماعيل هو دعوة أبيه إبراهيم:

قال تعالى حاكياً دعوة إبراهيم وما طلبه من ربّه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾[٦٧٤].

وكان هذا الدعاء من إبراهيم بعد إنجاءِ الله له من كيد الكافرين ببابل، فدعا اللهَ أن يرزقه ولداً صالحاً يعينه على الدعوة إلى الله فبشره الله تعالى بغلام حليم، وهذا الغلام هو إسماعيل، فإنه أول ولد بُشِّرُ به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من أخيه إسحاق باتفاق العلماء. ومن صفات هذا الغلام - إسماعيل - أنه حليم، أي متسع

---

(٦٧٢) الفقرة ٢٩٣.

(٦٧٣) الفقرة ٣٠٥.

(٦٧٤) سورة الصافات الآية ١٠٠-١٠١.

الصدر حسن الصبر[٦٧٥].

٣٣٠- رؤيا إبراهيم في ذبح ابنه إسماعيل وإخباره بها:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[٦٧٦]، أي فلما بلغ إسماعيل السن التي يقدر فيها على السعي والعمل، قال له أبوه إبراهيم: يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، أي فانظر هل تصبر على إمضائي أمر الرؤيا، لأنَّ رؤيا الأنبياء وحيٌ، وما رأيتُه يعتبر أمراً لي بذبحك، أو لا تصبر[٦٧٧].

٣٣١- أحسن جواب قاله إسماعيل:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[٦٧٨] وأنا، والله، لا أدري، بأيهما أكثر إعجاباً، بالوالد، إبراهيم الشيخ الجليل، الذي يكلفه ربه بأمر لا تكاد تطيقه النفس البشرية إلاَّ نفس إبراهيم، يكلفه ربه بأن يذبح بيده ابنه الوحيد الذي رزقه الله به وهو في كبر سنه وشيخوخته، أَمْ أنا أكثرُ إعجاباً بهذا الصبي أو الفتى النجيب إسماعيل الذي يقول له أبوه: إني مكلف بذبحك فانظر ماذا تقول وماذا ترى، هكذا بكل بساطة يطرح إبراهيم المسألة على ابنه، فانظر ماذا ترى؟ فيقول له ذلك الفتى العظيم منادياً أباه باسم الأبوة: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ هكذا ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ لم تتغير بعينه الصورة ولا العلاقة مع أبيه، إنه أبوه ولو أنه يستشيرهُ في ذبحه. ولم يكتف إسماعيل بالقبول ساكتاً، والسكوت في معرض الحاجة للبيانِ، ولم يُبدِ تذمراً، ولا اعتراضاً ولا سؤالاً في أمر خطير كهذا الأمر وهو ذبحه دون جنايةٍ اقترفها، ولا عقوق نحو والده ارتكبه، ولا عصيان لربه صدر منه، بل أكثر من ذلك: أراد ذلك المسلم العظيم الشابُّ إسماعيلُ أن يشجع أباه على المضي فيما هو قادم وعازم عليه وهو ذبحه.. أراد أن يشجع أباه على ذبحه بتذكيره بأنه ينفذ أمر الله،

---

(٦٧٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤، تفسير القاسمي ج١٤ ص١١٧.

(٦٧٦) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

(٦٧٧) تفسير القاسمي ج١٤ ص١١٧.

(٦٧٨) سورة الصافات الآية ١٠٢.

وأَمْرُ الله على العين والرأس، فقال له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ..﴾ ثم أراد إسماعيل أن يزيد والده تشجيعاً، ويُزيلَ ما قد يعتريه من قلق لما قد يظنه فيه من جزع وقلة صبر، وقال له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فكأنه يقول لأبيه: امضِ يا أبت لتنفيذ ما أُمرتَ به، فإني بمعونة الله سأكون صابراً.. إنه لم ينسب لنفسه القوة والصبر، وإنما علّق ذلك على مشيئة الخالق العظيم الذي يتطلع إلى عونه وتصبيره على هذا البلاء، حتى يتم أبوه ما كُلِّفَ به وليساعده هو على تنفيذ هذا التكليف، وقال له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

٣٣٢- البدء بالتنفيذ:

وبعد هذه المحاورة القصيرة الحاسمة بين أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن وبين ابنه البار المسلم العظيم إسماعيل، التي كشفت عن استسلام الوالد وولده، استسلاماً مطلقاً وانقياداً تاماً لله رب العالمين، لم يعد إبراهيم ينظر إلى ابنه نظرته الأولى له: ابناً حبيباً لأَنَّ إبراهيم كان ينظر في تلك اللحظات إلى الذي تخللت محبته شغاف قلبه فلم تزاحمها محبتُه لولده، إنه كان ينظر إلى من اتخذه خليلاً من دون العالمين.. إنه كان ينظر إلى ربه الودود الذي يأمره بذبح ولده بيده، وصدقُ المحبة يظهر عند تنفيذ ما يأمر به المحبوب، فصار إسماعيل ولده الوحيد في نظره كشاة يريد أن يذبحها قرباناً لله رب العالمين.. وبدأ التنفيذ الذي يصوره لنا القرآن العظيم بقول ربنا جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾[٦٧٩] أي صرعه على شقه فوقع جبينُه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة. ويقول ابن كثير: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهِدَ وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه[٦٨٠].

٣٣٣- إيقاف التنفيذ وتقديم الفداء:

فلما تم إضجاع الولد إسماعيل، وهوىٰ إبراهيم على ابنه والسكين بيده ليذبحه جاءه الأمر بإيقاف التنفيذ ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى

---

(٦٧٩) سورة الصافات الآية ١٠٣.

(٦٨٠) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٥٧، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٥.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[٦٨١]. جاءه النّداءُ من رب العالمين أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا أي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولَدَكَ للذبح، وعزمك على ذبحه وإمرارك السكين على رقبة ابنك، ولكن لم تَقطع شيئاً، وبهذا ظهر وانكشف انقيادك وانقياد ولدك لأمر الله، وكمال طاعتكما لله رب العالمين، فلا حاجة للاستمرار وتنفيذ الذبح ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: هكذا نصرف عمّن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[٦٨٢]، أي: إنَّ ما أُمِرَ به إبراهيم هو الاختبار البيّنُ الواضح الجلي حيث أُمِرَ بذبح ولده فسارع مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته، وهو اختبار أيضاً لابن إبراهيم إسماعيلَ أيصبر أم لا؟ وقد نجح الوالد وولده في هذا الامتحان الصعب الذي استحق به أن فداه الله ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي بكبش عظيم لعظمه وسمنه[٦٨٣].

٣٣٤- ثناء الله على إسماعيل:

ولما كبر إسماعيل أكرمه الله بالرسالة والنبوة، ومدحه لصدق الوعد وأَمْرِ أَهْلِهِ بالصلاة والزكاة، وبصبره وانقياده لأمر الله في قضية ذبحه، ومن أجل ذلك كله كان عند الله مرضياً، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[٦٨٤].

٣٣٥- التعريف بإسماعيل:

والمقصود بإسماعيل المذكور في الآية الكريمة التي ذكرناها، إسماعيلُ الذبيحُ ابنُ إبراهيم الخليل وهو أبو العرب أو كما يقول ابن كثير: والد عرب الحجاز كلهم[٦٨٥].

---

(٦٨١) سورة الصافات الآيتان ١٠٤، ١٠٥.

(٦٨٢) سورة الصافات الآيات ١٠٦، ١٠٧.

(٦٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٦، تفسير الرازي ج٢٦ ص١٥٨.

(٦٨٤) سورة مريم، الآيتان ٥٤، ٥٥.

(٦٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٥، تفسير القرطبي ج١١ ص١١٤.

٣٣٦- التعريف بفضائله - أولاً - صدق الوعد:

وقد أثنى الله تعالى على إسماعيل بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً، ولأنه المشهورُ من خصاله، فكان لا يَعِدُ أحداً بشيء إلاّ وفّى به. وقد وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾[٦٨٦].

٣٣٧- ثانياً - وكان رسولاً نبياً:

وفي قوله تعالى عن إسماعيل: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ دلالةٌ على تقدمه بالفضل على أخيه إسحاق بن إبراهيم، حيث وصفه الله بالنبوة فقط، وإسماعيل وصفه الله بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»[٦٨٧] وقيل إنَّ الله أرسله إلى قبيلة جُرْهُمَ في الحجاز[٦٨٨].

٣٣٨- ثالثاً - يأمر أهله بالصلاة والزكاة:

وكان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله، بالصلاة والزكاة، فكان يبدأُ أهله بالأمر بالصلاح والصلاة والزكاة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم، ولأنّهم أولى من سائر الناس بذلك، كما قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم محمداً ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾[٦٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٦٩٠]. وأيضاً فأهل الرجل أحق من يُتصدَّق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى من غيرهم، وهذا لا يمنع من أن تُدْعى الأمّةُ كلها إلى الصلاة والزكاة وعدم الإخلال بهما[٦٩١].

---

(٦٨٦) تفسير القرطبي ج١١ص١١٥، تفسير الرازي ج٢١ص٢٢٢، تفسير القاسمي ج١١ص١٢٤.
(٦٨٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٥.
(٦٨٨) تفسير القرطبي ج١١ ص١١٦.
(٦٨٩) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).
(٦٩٠) سورة طه، الآية ١٣٢.
(٦٩١) تفسير الرازي ج٢١ ص٢٢٢، تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٥.

٣٣٩- رابعاً - وكان عند الله مرضياً:

وهذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة، فهو في غاية المدح لأنَّ المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[٦٩٢].

(٦٩٢) تفسير الرازي ج٢١ ص٢٢٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٥.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة إسماعيل للدعوة والدعاة

٣٤٠- في قصة إسماعيل عبر وعظات:

في قصة إسماعيل عبر وعظات يجب على الدعاة استيعابها وجعلها من جملة مواضيع الدعوة التي يحرصون على تبيانها للناس لا سيما للشيوخ والشباب والآباء والأبناء، ونذكر فيما يلي بعض هذه العبر والعظات المستفادة من قصة إسماعيل عليه السلام.

٣٤١- أ- الانقياد لأمر الله:

الشأن بالمسلم انقياده لأمر الله ومبادرتُه إلى تنفيذه بكامل الرضا والقبول دون تردد ولا كسل ولا تعقيب، وهذا ما كان عليه إبراهيم عليه السلام وقد تلقى أمر ربه بذبح ابنه إسماعيل. فعلى الدعاة المسلمين تعميقُ هذا المعنى في قلوب المدعوّين، فما أحوج المسلمين اليوم لهذا الانقياد لأوامر الله.

٣٤٢- ب- في إسماعيل أسوة حسنة للشباب المسلم:

قصة إسماعيل، هي قصة شاب مسلم آمن بالله، امتُحِنَ امتحاناً شديداً بأن يموت ذبحاً على يد أبيه إبراهيم، ومع هذا لم يرتجف، ولم يهتز عندما أخبره أبوه بأنه رأى في المنام أنه يذبحه، بل راح يشجع أباه على المضيِّ في تنفيذ ما يأمره به الله، فعلى الدعاة المسلمين أن يُذكّروا الشباب المسلم بقصة إسماعيل، ويستشهدوا بها في أحاديثهم معهم ليكون للشباب المسلم أسوة حسنة في إسماعيل. إنَّ شبابنا المسلم الضائع لا بد لهم من مُثُل عليا تملأ عيونهم، وتثير فيهم معاني الإيمان، وتحملهم على طاعة الرحمن، والاستعلاء على الشهوات وإغواء الشيطان، ومن أعظم ما يثير فيهم هذه المعانيَ عرضُ النماذج الإيمانية العالية من المؤمنين السابقين ومن سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

٣٤٣ - جـ- تفريجُ الكرباتِ بإحسان الطاعة لله:

إنَّ الله تعالى يفرج عن المسلمين المنقادين لأمر الله ما هم فيه من شدائد وكربات ما داموا حاضرين ومستعدين وعازمين على تنفيذ أمر الله، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣٤٤- د - ابتلاء الله عباده المؤمنين:

وليعلم الدعاة المسلمون أنَّ الله تعالى يبتلي عباده المؤمنين على وجه الاختبار والامتحان؛ ليتبين مخبوء نفوسهم، ومدى طاعتهم في الشدائد، ومدى استمساكهم بمعاني الإسلام في أوقات الشدائد والصعاب، وعلى هذه السُنّةِ الإلهية امتحن الله خليله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل كما امتحن بهذا إسماعيل نفسه، أيعصي أباه أم يطيعه..؟، وليكن معلوماً أيضاً للدعاةِ أنَّ امتحان الله عباده المؤمنين من اختصاص وتفرد رب العالمين، فهو الذي يقرر امتحان المؤمن في الوقت الذي يريده وبالكيفية التي يريدها، ولا اعتراض ولا تعقيب على حكم أحكم الحاكمين. وهذا ما يجب على الدعاة توضيحُهُ للمدعوين لأنه يتعلق بالعقيدة، والعقيدة أهم مطالب الدين.

٣٤٥- هـ- لا بد من التحلي بأخلاق الإسلام:

مدح الله إسماعيل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وصِدْقُ الوعد من أخلاق الإسلام ومن صفات أهل الإيمان، كما أنَّ خُلْفَهُ من الصفات الذميمة، قال رسولنا ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان». ولما كانت هذه صفات المنافقين كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين. فعلى الدعاة المسلمين أن يجعلوا موضوع (أخلاق الإسلام) موضوعاً مهماً من مواضيع الدعوة، ويبينوا للناس أنَّ عدم التخلق بالأخلاق الإسلامية دليل على عدم صفاء الإيمان وتلوثه بالنفاق. والملاحظ أنَّ من أمراض المسلمين اليوم عدم الالتزام بالأخلاق الإسلامية، ولذا نجد الخُلْفَ بالوعد وعدم الالتزام بالمواعيد من الأمور الفاشية في المسلمين، وعلى الدعاة تذكيرهم بذلك.

٣٤٦- و - القيام بحق الأهل:

ومما مدح الله به عبده إسماعيل أنه: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ ﴾، ومعنى ذلك أنه كان يهتم بأمور دينهم، فهو كما قال الإمام الرازيُّ: «وكان نظره لهم في الدين يغلِبُ على شفقته عليهم بالدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس»[٦٩٣]، فعلى الدعاة تذكير المسلمين بواجبهم نحو بيوتهم وأهليهم، وذلك بأن يحملوهم على طاعة الله والالتزام بشرعه، وأن يكون اهتمامهم بهم في أمورهم الدينية أكْثَرَ من اهتمامهم بأمورهُم الدنيوية والمعيشية، وهذا مما أمر الله به المسلمين نحو أسرهم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ . . ﴾[٦٩٤] وإنما تكون وقايتهم من النار بحملهم على طاعة الله ومنعهم من عصيان شرع الله. فعلى الدعاة أن يذكّروا المسلمين بواجبهم نحو أهليهم بأنْ يراقبوهم ويعلّموهم أمور دينهم ويأمروهم بالالتزام بأوامر الشرع، وأن يربوا أولادهم على معاني الإسلام وأحكامه، وأن يدربوهم على ذلك، جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ بشأن الأولاد الصغار وتعليمهم الصلاةَ: «مروهم لسبعٍ واضربوهم لعشر»، أي مروهم بالصلاة إذا بلغوا من العمر سبع سنوات، فإن لم يصلّوا وقد بلغو من العمر عشر سنوات فيجب ضربهم على عدمِ قيامهم بالصلاة، والملاحَظُ أَنَّ كثيراً من المسلمين الصادقين بل ومن الدعاةِ أيضاً لا يهتمون بأسرهم وأولادهم، فلا يعلمونهم أمور دينهم ولا يهتمون بها، وهذا تقصير منهم لأَنَّ الأهل أولى بأنْ تدعوَهم إلى معاني الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

٣٤٧- ليس من حق الأهل معصية الله من أجلهم:

وليكن معلوماً أنه ليس من حق الأهل على رب الأسرة ارتكاب معصية الله من أجلهم، وقد حذرنا الله تعالى من ذلك فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ . . ﴾[٦٩٥] عن عطاء بن يسار قال نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ نزلت في

---

(٦٩٣) تفسير الرازي ج٢١ ص ٢٣٢.

(٦٩٤) سورة التحريم الآية ٦.

(٦٩٥) سورة التغابن الآية ١٤.

عوف بن مالِك الأشجعيّ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرقُّ قلبه عليهم، فيقيم ولا يخرج إلى الغزو - الجهاد - فنزلت هذه الآية. وقال أبو بكر بن العمري موضحاً وجه عداوة الأزواج والأولاد، فقال رحمه الله تعالى: (فإنَّ العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعلَ أقبح من الحيلولة بين العبد وطاعة ربه)[٦٩٦]. والقانون في هذه المسألة: لا يجوز للمسلم أن يترك أمر ربه وشرعه بصورة ما إيثاراً منه وتفضيلاً لرغبة أو لمنفعة ولده أو زوجه أو كائناً من كان من البشر. كما لا يجوز للمسلم أن يرتكب الحرام من أجل ولده، كأن يرتشي أو لا يعمل مع الدعاة أو لا ينضَمَّ إلى الجماعة المسلمة؛ لئلا يلحقه أذى أو نحو ذلك. ولْيَجْعَلِ الداعي المسلم شعاره: (تنفيذُ أمر الله مقدم على ما سواه)، فعلى الدعاة أن يفقهوا هذه المسألة جيداً وليعملوا بعيدين عن تأثرهم بالأهل والولد إذا كان من شأن هذا التأثر صرفهم عن الدعوة.

---

(٦٩٦) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٤٠-١٤١.

الفصل الثامن

قصة لوط عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٣٤٨- خلاصة القصة:

لوط هو ابن أخِ إبراهيم الخليل عليه السلام. ولد في (أورالكلدانيين) في منطقة بابل من أرض العراق. وكان لوط قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام. ثم أسكنه إبراهيم في شرق الأردن، وكان في ذلك المكان- المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت الذي سمي ببحر لوط أيضاً- القرى أو المدن الخمس: سدوم، وعمورة، وأدمة، وصويم، وبالع، فسكن لوط في عاصمتها سدوم، التي كانت تعمل الخبائث. وقد بعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزوجل وعبادته وحده، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من الفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم[٦٩٧]. وبالرغم من دعوة لوط، وإخباره لهم أنه رسول الله إليهم، وأنه يريد لهم الخير بدعوته لم يؤمن له قومه بل قالوا: أخرجوه ومن آمن معه من أهله بحجة أنهم أناس يتطهرون، ثم هددوه بالقتل رجماً بالحجارة إن لم يكف عن دعوته، عند ذلك دعا لوط ربه أن ينجيه وأهله مما يعملون، فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين فهلكت مع قومها الذينَ أهلكهم الله، بالصيحة، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

---

(٦٩٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٠، تفسير المنار ج٨ ص٥٩.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾[٦٩٨].

٣٤٩- لوط يدعو قومه إلى عبادة الله وطاعةِ رسوله:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٤﴾[٦٩٩]. دعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله وحده، ودعاهم أيضاً إلى أن يطيعوه لأنَّهُ رسول الله إليهم. وقال لهم: إنه لا يريد منهم عن دعوته أجراً، فأجره على الله رب العالمين[٧٠٠].

٣٥٠- لوط يدعو قومه إلى ترك الفاحشة:

ومع دعوة لوط عليه السلام لقومه إلى عبادة الله وحده، دعاهم أيضاً إلى ترك فاحشة إتيان الذكور، قال تعالى حكايةً عما قاله لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾[٧٠١]. أي أتأتون الفاحشة بالذكور وتتركون ما خلق لكم الله من أزواج، بل أنتم قوم تجاوزتم حدود الله[٧٠٢].

٣٥١- تهديد لوط بالإخراج:

لم يكتف قوم لوط بتكذيبه ورفض الاستجابة لدعوته، وإنما هددوه بالإخراج من قريتهم إذا لم يكف عن الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ۝١٦٨﴾[٧٠٣] أَيْ إني لعملكم من القالين أي من المُبغِضين لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريءٌ منكم[٧٠٤].

---

(٦٩٨) سورة الحجر، الآيتان ٧٣، ٧٤.

(٦٩٩) سورة الشعراء، الآيات ١٦٠-١٦٤.

(٧٠٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٤.

(٧٠١) سورة الشعراء الآيتان ١٦٥، ١٦٦.

(٧٠٢) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٣٢.

(٧٠٣) سورة الشعراء الآيتان ١٦٧و١٦٨.

(٧٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٥.

٣٥٢- يريدون إخراج آل لوط لأنهم يتطهرون:

ومن أسباب إخراج لوط ومن آمن معه من أهله، من قريتهم، أنهم أناس يتطهرون، أي عن إتيان الذكور، فكان هذا من لوط وأتباعه جريمة في نظر قومه، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[٧٠٥] قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني إتيان الذكور، ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زنى ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي لم يكن اللواط في أمة قبل قوم لوط. قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشةَ. وقولُهُ: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي قال قوم لوط: أخرجوا لوطاً وأتباعه إنهم أناس يتعففون عن إتيان الذكور ويتنزهون عن هذا الفعل[٧٠٦].

٣٥٣- مجيء الملائكة إلى لوط وما قال لهم:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾[٧٠٧]. والمعنى: لما جاءت الملائكة، الذين أرسلهم الله إلى لوط بهيئة بشر حسانِ الوجوه ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم لأنه خاف قومه عليهم، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم وكَرِهَهُ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي شديد في الشر. ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون إليه ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي ومن قبلِ مجيءِ الرسل كانوا يعملون السيئات أي كانت عادتهم إتيانَ الرجال. فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً وقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ أي نَدَبَهمْ في هذه الحالة إلى نكاح بناته، ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي أزوجكموهنَّ فهو أطهر لكم مما تريدون، والتطهر

(٧٠٥) سورة الأعراف الآيات ٨٠-٨١.

(٧٠٦) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٤٣-٢٤٦.

(٧٠٧) سورة هود الآيات ٧٧-٨٠.

التنزه عما لا يحل. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي لا تهينوني ولا تذلوني في ضيفي بالتعرض لهم وهم في داري وفي ضيافتي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أليس منكم رجل ذو رشد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا إلى بناتك تعلق ولا هنَّ قصدنا ولا لنا عادة نطلب ذلك ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ إشارة إلى الأضياف.

قوله تعالى عن لوط: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لما رأى لوط استمرارهم في غيِّهم ولم يقدر على دفعهم تمنى لو وجدَ عوناً على ردهم، فقال على جهة التفجع والاستكانة ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي أنصاراً وأعواناً لرددتُ أهل الفساد وحلْتُ بينهم وبين ما يريدون ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ألجأ إلى ركن شديد. ومراد لوط بالركن العشيرة والمنَعَة بالكثرة. قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يجادل قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يحاولون تسوُّرَ الجدار والدخول عليه، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصَبِ بسببهم، قالوا: يا لوط إنَّ ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود وإنّا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء فإنَّ في بيت لوط قوماً هم أسحر مَنْ على وجهِ الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى، يتوعدونه[٧٠٨].

٣٥٤- دعاء لوط وهلاك قومه:

ولما يئس لوط من استجابة قومه، دعا الله تعالى أن ينجيه وأهله ويهلكم، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[٧٠٩]، وفي سورة هود بيان لكيفية إهلاكهم وبما أُهلكوا قال تعالى مخبراً عن الملائكة الذين زاروا لوطاً وما قالوه له: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ

---

(٧٠٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٤ وما بعدها.

(٧٠٩) سورة الشعراء الآيات ١٦٧-١٧٢.

مَّوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾[٧١٠] قال ضيفُ لوط: إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك بمكروه فأسر بأهلك بعد مضي صدر من الليل ولا يلتفت منكم أحد، أي لا يتخلف منكم أحدٌ أو لا ينظرْ وراءه منكم أحد إلاّ امرأتك، أي فأسرِ بأهلك إلاّ امرأتك إنه مصيبها من العذاب ما أصابهم إن موعدهم الصبح وهو قريب، فخرج لوط بابنتيه ليس معه غيرهما. ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي من طين صلب ﴿مَّنضُودٖ﴾ أي متتابع ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي الحجارة مُعَلّمة ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾ يعني من قوم لوط، أي لم تكن الحجارة لتخطئهم[٧١١].

٣٥٥- ضرب المثل بامرأة لوط:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[٧١٢] أي ضرب الله مثلاً للذين كفروا في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أنَّ ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم. ثم ذكر المثل فقال تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويصاحبانهما ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمانِ ولا صدقاهما في الرسالة، فلم ينفعهما ذلك شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً بسبب كفرهما، وقيل للمرأتين: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وليس المراد بقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة بل في الدين، فإنَّ نساء الانبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء. أمَّا خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنّه مجنون، وإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأمَّا امرأة لوط فكانت على غير دين لوط، وكانت تخبر قومها بضيوف لوط[٧١٣].

---

(٧١٠) سورة هود الآيات ٨١-٨٣.

(٧١١) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٩ وما بعدها.

(٧١٢) سورة التحريم الآية ١٠.

(٧١٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٣.

المبحث الثاني

ما يستفاد من قصة لوط للدعوة والدعاة

٣٥٦- أولاً - للداعي المسلم أن ينكر على الكافر غير الكفر:

قد يتلبس الكافر بمعاصٍ زيادة على كفره الذي هو جريمته الكبرى، فيجوز للداعي المسلم أن ينكر عليه كفره ومعاصيه الأخرى. فقد رأينا أنَّ لوطاً عليه السلام أنكر على قومه الكفر وأنكر عليهم إتيانهم الذكور، وأمرهم بتقوى الله وطاعته كما أمرهم بترك عمل الفاحشة بإتيان الذكور. ولا يعلق الداعي المسلم إنكاره على معصية الكافر إلى حين إسلامه، أو يبقى الداعي المسلم يدعو الكافر إلى الإسلام ولا ينهاه عن أية معصية يرتكبها، ويبدو لي أنَّ هذا المسلك في الدعوة وهو الجمع بين الإنكار على كفر الكافر وبين معاصيه الأخرى، هذا المسلك إنما يُستَحَبُ ويترجح أو يجب إذا كانت معصية الكافر تلحق الضرر بالمجتمع، وتشيع الفساد في الأرض، وكأنها جريمة مستقلة عن جريمة الكفر كما في إتيان الذكور.

٣٥٧- ثانياً - التطلع إلى القوة المادية لا يقدح في الإيمان والتوكل على الله.

وجود قوة مادية تحفظ الحق وترد الاعتداء وتمنع الظلم أمرٌ جيد، ولذا أمر الله تعالى بإعداد القوة. وقد تمنى لوط أن تكون له قوةٌ مادية يردُّ بها اعتداء قومه على أضيافه، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ وهذا التمني صَدَرَ من لوط لشدة غيظه على قومه، وقبيح فعلهم معه بالنسبة لضيوفه، فقال هذا القول وهو غير قادح في إيمانه وتوكله على ربه وثقته به، ولكن كان الأولى أن لا يقول ذلك لأنَّهُ في مقام النبوة والرسالة، ولهذا روي أنَّ الملائكة وَجَدَتْ عليه حين قال هذه الكلمات وقالوا: إنَّ ركنك لشديدٌ، وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» وخرّجه الترمذي وزاد: ما

بعث الله بعده نبياً إلّا في ثروة من قومه. والثروة الكثرة والمنعة[٧١٤]. والخلاصة أَنَّ إعداد القوة واجب لحماية الحق ومنع الظلم، وتمني القوة المادية دون خدش لمعاني التوكل على الله لغرض ردّ الظلم، مجرد هذا التمني لا بأس به على أنْ لا يغيب عن المسلم توكله على الله.

٣٥٨- ثالثاً الصلة النسبية أو الزوجية بالمؤمن لا تنفع الكافر:

إذا كان للكافر صلة نسب أو زوجية أو قرابة من مؤمن أو صالح، فهذه الصلة لا تنفع الكافر كما رأينا في امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتا نبيين كريمين، ولكنَّ هذه الرابطة الزوجية لم تغنيا عنهما من الله شيئاً لكفرهما، وكذلك يقال بالنسبة للعاصي إذا كانت له صلة قرابة أو زوجية برجل صالح، وفي الحديث النبوي الشريف: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك ويوضحوه في مواعظهم للناس.

---

(٧١٤) تفسير القرطبي ج٩ ص٧٨.



الفصل التاسع

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٣٥٩- خلاصة القصة(٧١٥):

أرسل الله تعالى رسوله شعيباً إلى (مدين)، وهذه الكلمة تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾(٧١٦) وهم أصحاب الأيكة، فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده ونهاهم عن المفاسد التي فشت فيهم، والتي سنذكرها إن شاء الله تعالى، فكذبوه وجادلوه وجادلهم ونصحهم فلم ينفع معهم جداله ولا نصحه فأهلكهم الله تعالى بأن أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض فزهقت أرواحهم وخمدت أجسادهم فأصبحوا في دارهم جاثمين.

٣٦٠- شعيبٌ يدعو قومه إلى عبادة الله:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴾(٧١٧) خاطب شعيب قومه بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ تلطفاً بهم وتذكيراً لهم بأنهم قومُهُ وأنه أخوهم في النسب والقرابة، وأنَّ من كان هذا شأنه وصلته بمن يخاطبهم فلا شك أنه يريد لهم الخير، وأعظمُ الخير أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، لأنَّ الله تعالى هو المعبود الحق، فلا معبود بحقٍّ

---

(٧١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٣١-٢٣٢.

(٧١٦) سورة القصص، الآية ٢٣.

(٧١٧) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

لهم ولغيرهم إلاَّ الله تعالى، ولهذا قال لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ وقال لهم: ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، والبينةُ هي كل ما يبين الحقَّ، أي يكشفه ويظهره، فيشمل هذا اللفظ «البيّنةُ» الآيات والمعجزات التي يؤيد الله بها أنبياءه الذين يرسلهم؛ ليظهر صدقهم وتقوم الحجة بها على أقوامهم. ولم يبين القرآن الكريم نوع (البنية) التي أُوتيها شعيب وأيده الله بها، وإن كنا جازمين بأنَّ الله تعالى قد أيده بآية هي البيّنةُ التي دلت على أنه رسولٌ من رب العالمين وبها قامت الحجة على قومه، قال نبينا وسيدنا محمد ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٌ إلا قد أُعطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُ وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» قال صاحب تفسير المنار: روى هذا الحديث الشيخان وغيرُهما ثم قال: ومعناه أنَّ كل نبي مُرسَل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعواه ما شأنه أن يؤمن البشر بدلالة مثله[718]. وإنَّ الذي أوتيه نبينَا محمد ﷺ هو ما أوحاه الله إليه وهو هذا القرآن العظيم.

٣٦١- شعيب ينهى قومه عن المنكرات:

ولم تقف دعوة شعيب إلى قومه عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه، وإنما دعاهم إلى الإقلاع عن المفاسد والمنكرات التي فشت فيهم وانغمسوا فيها، قال تعالى مخبراً عما نهاهم عنه: ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ . .﴾[719] فشعيبٌ عليه السلام أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، وهذا يتضمن نهيهم عن التطفيف فيهما، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ونهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، وعن سعيهمُ الخبيثِ في تشويه دعوة شعيب. ونتكلم فيما يلي عن هذه الأمور التي نهاهم عنها شعيب.

---

(٧١٨) تفسير المنار ج٨ ص٥٢٤-٥٢٥ أخرجه مسلم في باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص١٨٦.

(٧١٩) سورة الأعراف، الآيتان ٨٥، ٨٦.

٣٦٢- أولاً - النهي عن التطفيف:

كان قوم شعيب من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أي ينقصونه، فنهاهم شعيب عليه السلام عن ذلك بأمره لهم بإيفاء الكيل والميزان وعدم إنقاصه إذا باعوا، وعدم الزيادة عليه إذا اشتروا.

٣٦٣- ثانياً - ولا تبخسوا الناس أشياءهم:

ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، والبخس نقص الشيءِ على سبيل الظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[٧٢٠] فيشمل البخس المنهيُّ عنه، بَخْسَ الناس حقوقهم المادية والمعنوية، قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ هو عام في كل حق ثابت لأحد لا يجوز هضمه[٧٢١]. وعلى هذا يعتبر مِن بَخْسِ الناس أشياءهم: خيانةُ الناسِ في أموالهم المادية بأخذها بغير وجه حق عن طريق نقص المكيال والميزان خَفية وتدليساً، أو نقص غيرها من المبيعات كالمواشي والمعدودات، كما يعتبر مِن بَخْسِ الناس أشياءهم هضمُ حقوقهم المعنوية كالعلوم والمعرفة والمهارة بالصنائع بعدمِ الاعتراف لهم بها، وعدم تنزيلهم المنزلة التي يستحقونها بموجبها[٧٢٢].

٣٦٤- ثالثاً - النهي عن الإفساد في الأرض:

ونهاهم شعيب عليه السلام عن الإفساد في الأرض بالكفر والظلم بعد إصلاحها أي بعد ما أَصْلَحَ أمرها وأهلَها الأنبياءُ وأتباعُهم الصالحون العاملون بشرائعهم ومنها: الوفاء بالكيل والوزن وإقامةُ العدل. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إنَّ ما آمركم، به وأنهاكم عنه هو خير لكم في دينكم

---

(٧٢٠) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ص٣٥.

(٧٢١) تفسير القاسمي ج١٣ ص٤٢.

(٧٢٢) تفسير المنار ج٨ ص٥٢٥-٥٢٦، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٧.

ودنياكم، لأنَّ ما آمركم به وأنهاكم عنه هو مما أمرني الله به، والله ربكم لا يأمركم إلاّ بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلاّ عما هو ضارٌّ بكم، وإنما تتحقق هذه الخيرية لكم بما أمرتكم به ونهيتكم عنه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان(٧٢٣).

٣٦٥- رابعاً - النهي عن قطع الطريق الحسي والمعنوي:

ونهاهم شعيبٌ عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، أما الطريق الحسي ففي قوله تعالى مخبراً عما قاله شعيب لقومه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا تجلسوا على كل طريق فيه ممر للناس تتوعدونهم بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، وتمنعون من يريد المجيء إلى شعيب لسماع دعوته.

وأمّا عن قطعهم الطريق المعنوي ففي قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي تُبعِدون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب بتهديدهم بما يؤذيهم ويضرهم إن ظلوا مؤمنين متبعين شعيباً ودعوته، وتريدون أن تجعلوا دعوة شعيب ذات عوج بما تلقونه من شبهات باطلة حولها، وبما تصفونها بما يشينها وينفرّ الناس عنها(٧٢٤).

٣٦٦- الترغيب والترهيب في دعوة شعيب:

واستعمل شعيب عليه السلام أسلوب الترغيب والترهيب في دعوته، من ذلك أنه ذكرّهم بنعم الله عليهم وما تقتضيه من الشكر لتبقى لهم وليزيدها الله عليهم، وشُكْرُها يكون بعبادة الله وحده وبطاعته فيما أمر به ونهى عنه، كما حذرهم إن ظلوا على كفرهم وضلالهم أن يصيبهم ما أصاب الكفرة قبلهم، فقال تعالى مخبراً عما رغبّهم فيه شعيب وعما حذّرهم منه: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

---

(٧٢٣) تفسير ابن عطية ج٥ ص٥٧٤، تفسير المنار ج٨ ص٥٢٧، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٧.

(٧٢٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣١-٢٣٢، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٤٩، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٨.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٧٢٥). أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد فكثركّم الله تعالى بما بارك في نسلكم، فاشكروا له ذلك بأن تعبدوه وحده وتتبعوا أوامره في الحق والعدل، وتقلعوا عن الإفساد في الأرض، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين من قبلكم، وكيف أهلكهم الله تعالى بكفرهم وظلمهم وفسادهم، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك(٧٢٦).

٣٦٧- مثال آخر من الترهيبِ والترغيب:

ومن الترهيب والترغيب من شعيب لقومه قوله لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾(٧٢٧) أي لا تحملنّكم عداوتكم وبغضكم لي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، وعلى عدم الإيمان بي والاستجابة لدعوتي، فيصيبكم ما أصاب الكفار قبلكم: قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط. واستغفروا ربكم من سالف الذنوب ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، إن ربي رحيم ودود لمن تاب، وهذا فضل من الله عظيم(٧٢٨).

٣٦٨- مثال آخر للترهيب:

ومن الترهيبِ في أسلوب شعيب في الدعوة قوله لقومه: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾(٧٢٩). أي إني أراكم بخير وسَعَةٍ في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف عليكم أن تُسْلبوا ما أنتم فيه بعصيانكم شرعَ الله، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط أي في الدار الآخرة(٧٣٠).

---

(٧٢٥) سورة الأعراف، الآية ٨٦.

(٧٢٦) تفسير المنار ج٨ ص٥٣٢.

(٧٢٧) سورة هود الآيتان ٨٩-٩٠.

(٧٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٧، تفسير القرطبي ج٩ ص٩٠.

(٧٢٩) سورة هود، الآية ٨٤.

(٧٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٥-٤٥٦.

٣٦٩- التلطف في تبليغ الدعوة وإزالةُ الشبهة عنها:

كان شعيب عليه السلام يتلطف في تبليغ الدعوة إلى قومه، ويمتنع عما يورث الشبهة بدعوته، ويذكّرهم بصفته ليحملهم على الاستجابة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾(٧٣١) والتلطف ظاهر في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فهو عرض رقيق ليّن، كما في قوله تعالى لنبيه موسى عندما أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾(٧٣٢) وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تذكير لهم بصفته وهو أنه رسول لهم من رب العالمين، وأنه أمين على رسالته يبلغها لهم كما أمره الله، وهذا من شأنه أن يقبلوا دعوته ويستجيبوا له، ثم أخبرهم بما يزيل الشبهة عن دعوته وعن الدافع لقيامه بتبليغها لهم وهو قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فهو عليه السلام يقول لهم: أنا لا أريد منكم أجرة ولا منفعة ولا مغنماً على ما أدعوكم إليه، لأنَّ أجري وثوابي على ما أقوم به على الله رب العالمين، ولأنَّ واجبي أن أبلغكم رسالة ربي وأنصحَ لكم وأحرصَ على استجابتكم لي لأني أريد الخير لكم.

٣٧٠- جدال شعيب مع قومه:

أكثر شعيبٌ عليه السلام الحوار والجدل مع قومه ليحملهم على الإيمان به وبما جاء به من ربِّه، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومَهُ، ولفصاحة عبارته وجزالة موعظته(٧٣٣). وكان عليه السلام في جداله مع قومه مترفقاً بهم، ولكن كان صريحاً معهم فيما ينكره عليهم، ويسمع جوابهم على ما يدعوهم إليه ويردُّ عليهم بما يكشف باطلهم ويحملهم على الاستجابة له لولا عنادهم وإصرارهم على الكفر تقليداً لأسلافهم. ونذكر فيما يلي نماذج من جداله معهم وردهم عليه ورده عليهم.

---

(٧٣١) سورة الشعراء الآيات ١٧٧-١٨٠.

(٧٣٢) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٤٦. وآية: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ في سورة النازعات ورقمها ١٨.

(٧٣٣) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥١، ابن كثير ج٢ ص٢٣١.

٣٧١- أولاً - الله هو الذي يحكم بين المؤمنين وبين الكافرين:

قال شعيب لقومه: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٧٣٤) أي وإن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين: مؤمنة وكافرة، فانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين، فإنه سيجعل العاقبة للمؤمنين والدمار على الكافرين، وهذا هو حكمه العادل(٧٣٥).

٣٧٢- ثانياً - قليل الحلال خير من كثير الحرام:

وقال شعيب لقومه: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾(٧٣٦) أي ما يفضل لكم من الربح القليل الحلال بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس عن طريق التطفيف في الكيل والوزن إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي وما أنا عليكم برقيب، فافعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس(٧٣٧).

٣٧٣- ثالثاً - إن أريدُ إلاّ الإصلاح ما استطعت:

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾(٧٣٨). أي أرأيتم يا قومي إن كنت على بينة من ربي أي على بصيرة فيما أدعو إليه، ورزقني منه رزقاً حسناً أي رزقاً حلالاً واسعاً وهدىً وتوفيقاً وعلماً ومعرفة أفلا أنهاكم عن الضلال؟ وإذا كنت على الوصف الذي ذكرتُ أأتّبعُ الضلال والضالين؟ وتأمرونني بالعصيان في البخس والتطفيف؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، أي لم أكن أنهاكم عن شيءٍ وأفعله ﴿ إِنْ أُرِيدُ

---

(٧٣٤) سورة الأعراف، الآية ٨٧.

(٧٣٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٢، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٨-٢٠٩.

(٧٣٦) سورة هود، الآية ٨٦.

(٧٣٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦.

(٧٣٨) سورة هود، الآية ٨٨.

﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي لست أبغي فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلاّ صلاحكم وإصلاحكم بقدر جهدي وطاقتي، بأن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله عليه توكلتُ في جميع أموري وإليه أنيب أي أرجع(٧٣٩).

٣٧٤- رابعاً - ينكشف الكاذب وينال جزاءه:

قال شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾﴾(٧٤٠).

لما يئس شعيب من استجابة قومه له قال لهم: اعملوا على مكانتكم أي على طريقتكم- وهذا تهديد شديد- إني عامل على طريقتي فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أي يهلكه ومن هو كاذب يستحق هذا الجزاء: أنا ومن اتبعني أو أنتم؟، فانتظروا إني معكم من المنتظرين، انتظروا العذاب وسخط الله فأني منتظرٌ النصر ورحمة ربي(٧٤١).

٣٧٥- خامساً- قوم شعيب يهددونه بالإخراج من قريتهم وردُّه عليهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الملأ من قوم شعيب: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾(٧٤٢) هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيَّه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالإخراج من قريتهم أو بالإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول شعيب والمرادُ أتباعُه الذين كانوا معه إذ كانوا قبل الإيمان به على ملة الكفار. قال شعيب

---

(٧٣٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٨٩-٩٠، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦.

(٧٤٠) سورة هود، الآية ٩٣.

(٧٤١) تفسير القرطبي ج٩ ص٩٢، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٨.

(٧٤٢) سورة الأعراف، الآيتان ٨٨، ٨٩.

في رده على تهديدهم: أو لو كنا كارهين؟ أي أتجبروننا على ذلك وإن كنا كارهين له؟ أي على الخروج من القرية أو العوْدِ في مِلّتكم؟ فإن فعلتم ذلك أتيتم شيئاً عظيماً، وإن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه افترينا على الله الكذب في موافقتكم على كفركم. فما يكون لنا وما ينبغي لنا أن نعود في ملتكم إلاَّ أن يشاء الله ذلك وسع ربُّنا كل شيءٍ علماً، أي علم ما كان وما سيكون، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم وأنت خير الفاتحين أي خير الحاكمين فأنت العادل الذي لا يجور أبداً(٧٤٣).

٣٧٦- سادساً - استهزاء القوم بشعيب:

قال قوم شعيب مستهزئين به: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾(٧٤٤) أي أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام أو أَنْ نفعل في أموالنا ما نشاء فنترك التطفيف كما تريد وهي أموالنا ومن حقنا أن نفعل فيها ما نشاء؟ إنك لأنت الحليم الرشيد فكيف تأمرنا بذلك؟(٧٤٥).

٣٧٧- سابعاً - لولا رهطك لرجمناك وردُّه عليهم:

وقال قوم شعيب ما أخبرنا الله به بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾(٧٤٦). أي قال قوم شعيب مخاطبين رسولهم شعيباً: ما نفهم كثيراً من قولك؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث بعد الموت، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله، وإنا لنراك فينا ضعيفاً أي: وحيداً ليس لك جندٌ ولا أعوان تقدر بهم على مخالفتنا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي لولا عشيرتك ومعزتهم علينا لقتلناك بالرجم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع وليس لك عندنا معزة. فردّ عليهم شعيب عليه السلام:

---

(٧٤٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٢، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥٠-٢٥١، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٠٩.

(٧٤٤) سورة هود الآية ٨٧.

(٧٤٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٦، تفسير القرطبي ج٩ ص٨٧.

(٧٤٦) سورة هود، الآية ٩١.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي أتتركونني لأجل عشيرتي ولا تتركونني ولا تؤذنني إعظاماً لجناب الله تبارك وتعالى الذي أرسلني إليكم لتبليغكم رسالته ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أي اتخذتم ما جئتكم به من أمر ربي ظهرياً أي جعلتموه وراء ظهوركم لا تطيعونه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي إنَّ ربي بما تعملون من الكفر والمعصية عليم[٧٤٧].

٣٧٨- ثامناً - قولهم لشعيب إنك مسحور ورده عليهم:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[٧٤٨] يخبر تعالى عن قوم شعيب بأنهم أجابوه بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها حيث قالوا له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي: من المسحورين فلا حقيقة لما تدعيه لنفسك من النبوة، ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وهي حجة داحضة، وشبهة قديمة قالها الكفرة لرسلهم، وهي استبعادهم أن يكون المُرسَل من الله بشراً، ورتبوا على شبهتهم هذه أن أتهموا شعيباً بالكذب، فقالوا: ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أي تتعمد الكذب فيما تقوله من أنك رسول الله ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أي فأسقط علينا قطعاً من السماء أو أنزل علينا عذاباً من السماء إن كنتَ صادقاً فيما تدعيه لنفسك من النبوة والرسالة. فردّ عليهم شعيبٌ عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٧٤٩] أي الله تعالى أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك -أي ما طلبوه من نزول العذاب بهم- جازاكم الله به وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم وحصل لهم ما طلبوه وسألوه جزاءً وِفاقاً[٧٥٠].

٣٧٩- هلاك قوم شعيب:

ولما أصروا على تكذيب شعيب عليه السلام، ووصل بهم العنادُ والإصرارُ على

---

(٧٤٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٧-٤٥٨، تفسير القرطبي ج٩ ص٩١-٩٢.

(٧٤٨) سورة الشعراء، الآيات ١٨٥-١٨٧.

(٧٤٩) سورة الشعراء الآية ١٨٨.

(٧٥٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٤٦.

الكفر أن قال الملأ الذين كفروا لقومهم: إن اتبعتم شعيباً وآمنتم به كنتم الخاسرين، أقول: لما وصل بهم الحال إلى هذا الحدّ أهلكهم الله تعالى بما أخبرنا به، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾(٧٥١) فاستحقوا بكفرهم وإصرارهم عليه الهلاك. وكان هلاكهم بأنواع العذاب: بالصيحة، وبالرجفة، وبعذاب يوم الظلة. ففي هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ وفي سورة هود أخبرنا الله تعالى بأخذهم بالصيحة، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾(٧٥٢) وفي سورة الشعراء قال تعالى مخبراً عن هلاكهم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(٧٥٣). وهكذا اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدةٌ من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وخمدت أجسامهم ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾ أي: كأنهم لما نزل بهم العذاب لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إخراج شعيب وصحبه المؤمنين منها. ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، فهؤلاءِ الكفرة الفجرة الذين كذبوا شعيباً هم الخاسرون حقاً وليس الذين آمنوا بشعيب كما ادعى أولئك الكفرة الأشرار.

٣٨٠- ما قاله شعيب بعد هلاك قومه:

قال تعالى مخبراً عما فعله نبيُهُ شعيبٌ عليه السلام بعد أن أهلك قومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾(٧٥٤). أي فتولى شعيب عليه السلام عن قومه بعد أنْ أهلكهم الله

---

(٧٥١) سورة الأعراف، الآيات ٩٠-٩٢.

(٧٥٢) سورة هود الآية ٩٤.

(٧٥٣) سورة الشعراء، الآية ١٨٩.

(٧٥٤) سورة الأعراف، الآية ٩٣.

تعالى، وقال مقرعاً وموبخاً لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلني الله به فلا آسَفُ عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به من ربكم، فلهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[755].

---

(755) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٣.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة شعيب للدعوة والدعاة

٣٨١- مجمل ما يستفاد من قصة شعيب:

وفي ضوء ما ذكرناه من أخبار شعيب عليه السلام مع قومه، يمكن تلخيص المستفاد من ذلك للدعوة والدعاة بجملة أمور هي: (أ) موقف الداعي من مفاسد المجتمع الكافر. (ب) موقف الملأ - أكابر المجتمع وسادته - من الدعوة والدعاة. (جـ) الإصلاح بقدر الاستطاعة. (د) ابتعاد الدعاة عن الشبهات.

ونذكر فيما يلي شيئاً موجزاً عن هذه الأمور:

٣٨٢- أولاً - موقف الداعي من مفاسد المجتمع الكافر:

إنَّ شيوع الكفر في المجتمع لا يمنع الداعي من الإنكار على مفاسد المجتمع الفاشية فيه مع استمراره في الإنكار على انحرافه عن العقيدة الإسلامية، وهذا ما لاحظناه في موقف شعيب عليه السلام من قومه حيث كانوا قوماً مشركين، وقد فشت فيهم مفاسد تؤذي الناس وتوقع فيهم الظلم كالتطفيف في الكيل والوزنِ، فدعاهم عليه السلام إلى التخلي عن هذه المفاسد والمنكرات، إلاّ أنه عليه السلام في إنكاره هذه المنكرات ربط هذا الإنكار بمعاني العقيدة الصحيحة والإيمان بالله كالتحذير من عقابه في الدنيا والآخرة. وعلى هذا فيجب على الدعاة المسلمين أن يلاحظوا ذلك ولا يغفلوا عن مفاسد المجتمع أو يتركوا الإنكار على هذه المفاسد، أو يعلقوا هذا الإنكار على قيام الدولة الإسلامية المنشودة أو تحقق صلاح العقيدة الإسلامية، وإنما عليهم أن يستمروا في الدعوة إلى إصلاح هذه العقيدة وتبيين معالمها ومعانيها، وما يناقضها أو يخدشها، وبنفس الوقت يدعون إلى إصلاح المجتمع وإزالة المنكرات التي فيه على أن يربطوا دعوتهم الإصلاحية هذه وإنكارهم على منكرات المجتمع بمعاني العقيدة الإسلامية. كما أَنَّ عليهم أَيضاً ملاحظة قواعد

الإنكار على المنكرات وكيفية تغييرها، ومراتب هذا التغيير وأولوياته في ضوء عملهم الجماعي في مجال الدعوة.

٣٨٣- ثانياً - موقف الملأ من الدعوة والدعاة:

كان الملأ الذين كفروا من قوم شعيب يصدون الناس عن دعوة شعيب، والملأ هم أكابر المجتمع الكافر والسادة فيه، وكانت أساليبهم في الصد عن سبيل الله ودعوته، تضليل الناس وافتراء الكذب على شعيب ودعوته لصرف الناس عنه، وتهديدَ الذين آمنوا بإيقاع الأذى والضرر بهم، وتهديد شعيب ومن معه من المؤمنين بالإخراج من قريتهم، وتهديد شعيب بالقتل رجماً، وأنهم لم يقتلوه لمكانة عشيرته عندهم. إنهم تحّولوا عن طريق أسلوب الحجة والبرهان إلى إسلوب البطش والإرهاب واستغلال سلطانهم في المجتمع. إنَّ على الدعاة اليوم أن يفهموا جيداً بأَنَّ ما فعله الملأ الذين كفروا من قوم شعيب ضد دعوته وضد المؤمنين به يتكرر في الوقت الحاضر ضد الدعوة والدعاة بصور وصيغ وأشكال متماثلة أو متشابهة أو مقاربة لما فعله أكابر قوم شعيب وغيرُهم من الأقوام الكافرة. والذين يتولون كبر هذا الصنيع ضد الدعوة والدعاة هم أكابرُ المجتمع الذي يعيش فيه الدعاة ويدعون الناس فيه، فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك ويفهموه جيداً، ويأخذوا الحذر المطلوب المشروع حتى لا يُؤَخذوا على حين غرة، وحتى لا يقعوا في مكايد أكابر القوم الفاسقين.

٣٨٤- ثالثاً - الإصلاح بقدر الاستطاعة:

قال تعالى مخبراً عما قاله شعيب لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ فعلى الداعي المسلم أن تكون له إرادة جازمة للإصلاح في ضوء معاني الإسلام ومناهجه في الإصلاح، وأن تكون إرادته للإصلاح كاملة وثابتة ودائمة، وأن يسعى لتحقيق هذه الإرادة في الواقع بتغيير المنكرات والمفاسد والإنحرافات التي يبصرها في المجتمع، وأن يكون سعيه هذا بقدر استطاعته، التي يجب أن يعرف مقدارها بميزان الشرع لتكون استطاعته حقيقية لا متوهمة، وعلى أساسها يكون مقدار ما يُكَلف به شرعاً من سعي وفعلٍ لتحقيق الإصلاح الإسلامي المنشود. وعلى الداعي أن يعرف جيداً أنَّ الاستطاعة على الإصلاح ليست شيئاً واحداً، وإنما هي أنواعٌ متعددة تختلف

باختلاف نوع الإصلاح المطلوب ونوع الجزيئةِ المطلوب منه إصلاحها في ظرف معين ومكان معين، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، إنَّ مسألة الإصلاح بقدر الاستطاعة، هذه المسألة يجب أن يفهمها الداعي في ضوء الضوابط التالية:

يزن مقدار استطاعته بالميزان الشرعي، وأن يعرف لأي نوع من الإصلاح تصلح استطاعته القيام به، وما هي الأولويات في سلّم ودرجات الإصلاح ومراحله التي يجب أن يُقدِّم لها قدرته واستطاعته ويستنفدها فيها قبل غيرها، وبعد هذا كله يتقدم بكل جدّ وبسعي منظم معتمداً على الله في بلوغ هدفه في الإصلاح وشعاره في ذلك: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

٣٨٥- رابعاً - الابتعاد عن الشبهات:

إنَّ من أساليب أعداء الدعوة إلى الله إثارة الشبهات حولها لتقبيحها وتشويه صورتها في أعين الناس؛ لصرفهم عنها وعن الدعاة إليها. وسبيلُهم في ذلك الدسُّ والافتراء والكذب دون تقيد بضابط ولا وازع من خُلُقٍ أو دين، ولهذا قال الملأ من قوم شعيب: إنه مسحور وإنه كاذب بعد مسلسل التضليل والافتراء ضد شعيب ودعوته؛ قالوا لقومهم بكل وقاحة وجرأة ما أخبرنا الله عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ قالوا هذا القول مستهينين بعقول القوم بعد أن روّضوها بالمزيد من الأكاذيب وإظهار الحرص على صيانة ملتهم وما كان عليه أسلافهم. وإزاء هذه الحرب النفسية والدعائية التي أثارها الملأ الذين كفروا من قوم شعيب، ظل شعيب عليه السلام ثابتاً ومستمراً في تبليغ دعوته مبيناً أنها هي الحق وأنَّ ما عليه الكفرة من قومه هو الباطل، دون أن يغفل عما قد يثيره الملأ من شبهات حوله وحول دعوته، فأسرع عليه السلام في إبلاغ قومه بأنه لا يريد منهم لقاء دعوته أي أجر، فأسقط هذا البلاغ منه ما كان الملأ يفكرون فيه لإثارة الشبهة حول شعيب وحول الدافع لدعوته، ثم أعلن لهم بأنه لا يفعل ما ينهاهم عنه، ولا يترك ما يأمرهم به، قال تعالى مخبراً عن قوله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ وبهذا قطع ما يمكن أن يتشبث به الملأ من قومه، ويجعلوه مثار الشبهة إذا رأوا من شعيب ما يمكن أن يكون مخالفاً لما يأمرهم به أو ينهاهم عنه.

٣٨٦- على الداعي أن يبتعد عن الشبهات:

وعلى ذلك، ينبغي للداعي المسلم أن ينأى بنفسه عن كل ما يمكن أن يجعله أعداءُ الدعوة شبهةً تحول دون إقبال الناس على الدعوة. إنَّ الشبهات كقنابل الدخان التي تمنع الرؤية إلى حين، وليس عند كل الناس من الصبر ما يحملهم على الانتظار إلى زوال الدخان حتى ينظروا في الدعوة ويقبلوا عليها، بل إنَّ أكثرهم ينصرف بمجرد ظهور علاماتِ الدخان من بعيد. . فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك ويبتعدوا حتى عن المباح إذا كان من شأنه أن يستغله أعداء الدعوة ويجعلوه شبهة حولهم. وعليهم في سبيل الابتعاد عن الشبهات، أن يوافق عملُهم ما يدعون إليه، وأن يلتزموا بذلك بكل صرامة وجدّيةٍ، وأن يأخذوا بالعزائم لا بالرُّخُصَ، لأنَّهم ليسوا كأحدٍ من الناس، إنّهم دعاة. . وأن يترفعوا عما في أيدي الناس، وعما يمكن أن يعتبر أجراً أو عوضاً عما يدعون إليه، لأنَّ أجرهم مضمون يقيناً، لأنه عند الله رب العالمين.

الفصل العاشر
قصة يوسف عليه السلام

المبحث الأول
وقائع القصة وتفسير آياتها

٣٨٧- رؤيا يوسف:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾[٧٥٦]. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وجاء في حديث البخاري أنّ رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم»[٧٥٧]، وإنما ناجىٰ يوسف أباه بهذه الرؤيا لاعتقاده بكمال علمه وشفقته عليه بحيث لو كانت رؤياه تسوؤه لأمكنه صرفها عنه[٧٥٨]. وروى البخاري عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنةُ من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحبُّ فلا يُحَدث به إلاّ من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدثْ بها أحداً فإنها لا تضره». قال العلماء في هذا الحديث: فجعل الله الاستعاذة من رؤياه التي فيها ما يكره، مما يدفع أذاها[٧٥٩].

٣٨٨- تحذير يوسف من إخباره إخوته برؤياه:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ

---

(٧٥٦) سورة يوسف، الآية ٤.

(٧٥٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٦٨.

(٧٥٨) تفسير القاسمي ج٩ ص١٨٧.

(٧٥٩) تفسير القرطبي ج٩ ص١٢٨.

﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٧٦٠]. فلما سمع يعقوب عليه السلام رؤيا يوسف حذره من تحديث إخوته بها، إذ قد يعرفون تأويلها فيحسدونه على ذلك، وقد يحملهم الحسد على إلحاق الضرر به، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ ومن هذا يُؤَخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإنَّ كل ذي نعمة محسود»[٧٦١]، كما يستفاد من نهي يعقوب لابنه يوسف عن الحديث لإخوته برؤياه، على جواز ترك إظهار النعمة لمن يُخْشَى منه حسد ومكروه، وأنّهُ يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة تحرزاً من المحسود[٧٦٢].

٣٨٩- حسد إخوة يوسف لمحبة أبيهم له ولأخيه أكثر منهم:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾[٧٦٣]. أي قالوا فيما بينهم: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين وكان شقيقه - أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة أي جماعة، فنحن أحق بأن يحبنا أبونا أكثر منهما، فكيف أحبَّهما أكثر منا ونحن جماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنَّ أبانا في ذهاب وابتعاد عن طريق الصواب في ذلك، لتفضيله المفضول بزعمهم على الفاضل[٧٦٤].

٣٩٠- تشاور إخوة يوسف في التخلص منه:

قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾[٧٦٥] وإنما قالوا هذا، لأَنَّ خبر رؤيا يوسف بلغهم، فتشاوروا في كيده فقال ذلك بعضهم: تخلصوا منه بالقتل أو بطرحه في أرض مجهولة لا يعرفها الأب،

---

(٧٦٠) سورة يوسف، الآية ٥.
(٧٦١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٦٩.
(٧٦٢) تفسير القاسمي ج٩ ص١٨٩.
(٧٦٣) سورة يوسف الآية ٨٠.
(٧٦٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧١.
(٧٦٥) سورة يوسف الآية ٩.

ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ لأنه إذا فقده أقبل عليكم بالمحبة ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي تكونوا من بعد الفراغ من قتله أو طرحه أرضاً قوماً صالحين، أي تائبين إلى الله عما أجرمتم، وتصيرون من القوم الصالحين[٧٦٦].

٣٩١- الرجوع عن قتل يوسف والاتفاق على إلقائه في الجبّ:

قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[٧٦٧] اقترح أحدهم إلقاء يوسف في غور الجُبِّ يلتقطه أي يأخذه بعض الأقوام الذين يسيرون في منطقة الجب، وبهذا تتخلصون من يوسف من غير ارتكاب جريمة قتل نفس بريئة، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي عازمين مصرين على أن تفرقوا بينه وبين أبيه. وقد وافق الجميع على هذا الاقتراح[٧٦٨].

٣٩٢- البدء بتنفيذ المؤامرة:

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾[٧٦٩] لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير، جاؤوا أباهم يعقوبَ عليه السلام، فقالوا له: لِمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه؟ أرسِلْهُ معنا أي ابعثه معنا غداً يرتع ويلعب، أي يسعى وينشط ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك[٧٧٠].

٣٩٣- جواب يعقوب لبنيه عما طلبوه منه:

قال تعالى حكاية عما قاله يعقوب لبنيه جواباً عما طلبوه منه من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ

---

(٧٦٦) تفسير الرازي ج١٨ ص٩٤، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٤١، تفسير القاسمي ج٩ ص١٩٨.

(٧٦٧) سورة يوسف الآية ١٠.

(٧٦٨) تفسير القاسمي ج٩ ص١٩٩-٢٠٠.

(٧٦٩) سورة يوسف الآية ١١.

(٧٧٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٠، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٠.

﴿يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾[771]. أي يشق عليَّ مفارقة يوسف مدة ذهابكم به إلى أن يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخَلْقَ والخُلُق ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون. فقالوا له: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنّا إذن لهالكون عاجزون[772].

٣٩٤- خروج إخوة يوسف به إلى الصحراء:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[773]. أي فلما ذهبوا بيوسف بعد مراجعة أبيهم في شأنِه وأجمعوا - أي عزموا واتفقوا - أن يجعلوه في غيابة الجب، وجعلوه فيها فعلاً، وأوحى الله تعالى إلى يوسف بأنَّكَ ستنجو مما أنت فيه وتحدثهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون بوحينا هذا إليك[774].

٣٩٥- وجاؤوا أباهم عشاء يبكون:

وبعد أن ارتكبوا جريمتهم البشعة بحق أخيهم يوسف، رجعوا إلى أبيهم، قال تعالى مخبراً عما قالوه لأبيهم: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾[775]. جاؤوا أباهم عشاءً لكونه وقت الظلمة المانعة من تفرسه من وجوههم الكَذِبَ، وأوهموا ببكائهم وتفجعهم عليه إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه، ثم نادوه باسم «الأب» المضاف إليهم ليرحمهم فيترك غضبه عليهم

---

(٧٧١) سورة يوسف الآية ١٣و١٤.

(٧٧٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٠.

(٧٧٣) سورة يوسف الآية ١٥.

(٧٧٤) تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٥٢-٤٥٣، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠١-٢٠٢.

(٧٧٥) سورة يوسف الآيتان ١٦، ١٧.

الداعي إلى تكذيبهم، ثم بينوا عذرهم وهو أنهم ذهبوا يستبقون في العدو والرمي بالنصل، وتركوا يوسف عند متاعهم من الثياب والأزواد وغيرها ليحفظه فأكله الذئب، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي ونحن نعلم أنك لا تصدقنا في هذه الحالة ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا؟[٧٧٦].

٣٩٦- وجاؤوا على قميصه بدم كذب:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[٧٧٧] وهذا بيان لما تآمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم جاؤوا على قميصه بدم مكذوب فيه، وذلك بتلطيخ قميص يوسف بدم سخلة ذبحوها موهمين أنَّ هذا هو قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه، ولكنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم نسوا أن يخرقوا قميص يوسف الذي لطخوه بالدم الكذب، فكان ذلك آية كذبهم المفضوح، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق، ولهذا لما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم وقال لهم - كما روي عن ابن عباس وغيره -: متى كان الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص! فلهذا قال لهم يعقوب عليه السلام معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من كذبهم عليه فيما يدعون ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمراً، أي صنيعاً قبيحاً ليوسف، فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه ونفذتموه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، والله المستعان على ما تصفون، أي على ما تذكرونه من الكذب[٧٧٨]. وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على مشروعية الأخذ بالقرائن والأمارات؛ لأنَّ يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بسلامة القميص من التخريق[٧٧٩].

---

(٧٧٦) تفسير الرازي ج١٨ ص١٠١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٢.

(٧٧٧) سورة يوسف الآية ١٨.

(٧٧٨) تفسير القرطبي ج٩ ص١٤٩-١٥١، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٥٩ تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٤.

(٧٧٩) تفسير القرطبي ج٩ ص١٥٠.

٣٩٧- ما جرى ليوسف بعد إلقائه في الجبّ:

قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٧٨٠].

والسيارة جمع سيّار، والمعنى: جاءت رفقة تسير للسفر فأرسلوا واردهم، والوارد: هو الذي يرد الماء ويأتي به ليسقي رفقته، فأدلى دلوه: أي أرسله في الجبّ ليملأها ماءً فتعلق بها يوسف للخروج، فلّما رآه قال: يا بشرى هذا غلام، وأسرّوه بضاعة: أي أخفوه وجعلوه متاعاً للتجارة، وباعوه لقافلة مرّتْ بهم سائرة إلى مصر بثمن قليل دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين: أي الراغبين عنه[٧٨١].

٣٩٨- يوسف يباع في مصر:

ولمَّا وصلت القافلة إلى مصر ومعها يوسف باعته، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها واسمه (قطفير) كما روي عن ابن عباس وكان هو وزيرَ الملك والقائم على خزائن مصر. وقد أوصى زوجته بيوسف وقال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي اجعلي مقامه عندنا مقاماً حسناً، عسى أن ينفعنا هذا الغلام إذا بلغ بالقيام ببعض مهامنا، أو نتخذه ولداً بالتبني. لأنه كان حصوراً لا يولد له ولد[٧٨٢] وقد دلّ على ما قلناه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا. . . ﴾[٧٨٣].

٣٩٩- التمكين ليوسف في الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ

---

(٧٨٠) سورة يوسف، الآيتان، ١٩-٢٠.

(٧٨١) تفسير الرازي ج١٠ ص١٠٥-١٠٦، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٦٠-٤٦١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٦-٢٠٧.

(٧٨٢) تفسير الرازي ج١٠ ص١٠٨-١٠٩، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٨.

(٧٨٣) سورة يوسف، الآية ٢١.

غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٧٨٤) أي كما أنعمنا على يوسف بالخلاص والسلامة من الجب مكَّنَّاه بأن عطفنا عليه قلب العزيز حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهي في أرض مصر، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك وتفضي بيوسف إلى المكانة التي سيؤول إليها أمره، بأن يكون المتصرّفَ في خزائن مصر ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي لا يُمنَع عما يشاء ولا يُنازعُ فيما يريد، وهو غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يتركه إلى غيره حتى لا يصل إليه كيد كائد، فقد أُريدَ به من الفتنة والشر ما أريد أكثرَ من مرّةٍ، فلم يكن ولم يحصل إلاّ ما أرد الله له من العاقبة الحميدة. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا لطفه بعباده، وأنَّ الأمر كله بيد الله(٧٨٥).

٤٠٠- من ألطاف الله بيوسف:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٧٨٦) ومعنى بلَغَ أشده، أي بلغ زمان اشتدادِ جسمه وقوته قبل أن يأخذ بالنقصان، وذلك ببلوغه الأربعين سنةً وقيل: ببلوغه ثلاثاً وثلاثين سنة، وهذا هو الذي رجحه ابن عطية في تفسيره(٧٨٧). وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ أَيْ سلطاناً في الدنيا وحكماً بين الناس بالحق وعلماً بأمور الدين وبتأويل الرؤيا ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيةٌ على أنّهُ كان محسناً في عمله متّقياً ربه، وأَنَّ الله تعالى آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه(٧٨٨). وهكذا مضت سُنَّةُ الله فيما يصنعه الله لعبادة المحسنين.

٤٠١- امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه:

قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ

---

(٧٨٤) سورة يوسف الآية ٢١.

(٧٨٥) تفسير الرازي ج١٨ ص١١٠، تفسير القرطبي ج٩ ص١٥٩-١٦١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٨-٢٠٩.

(٧٨٦) سورة يوسف الآية ٢٢.

(٧٨٧) تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٦٩.

(٧٨٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٦٢، تفسير ابن عطية ج٧ ص٤٧٠-٤٧١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٠٩.

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٧٨٩] والمراودة: المطالبة برفق أي طلبت منه أن يواقعها ويعمل الفاحشة معها. وقد غلّقت الأبواب التي كانت في بيتها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي هلّم وأَقبلْ وتعالَ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾: أي أعوذ بالله وأستجير به ممّا دعوتني وتدعيني إليه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه، وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق زوجها بألطف وجه. وقال الزّجاج: أي أنَّ الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرّمه[٧٩٠]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل آخر للامتناع عن فعل الفاحشة، إنّهُ لا يفلح، أي: لا يَظْفَرُ بالخير الظالمون، والمراد بـ(الظالمين) كل من ظلم كائناً من كان، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة والعصاةُ لأمر الله ومنهم: الزناة[٧٩١].

٤٠٢- كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾[٧٩٢]. ولقد همت به أي بمخالطته أي قصدتْ وعزمتْ عليها عزماً جازماً لا يلويها عنه صارف بعدما باشرت مقدماتها ومقتضياتها من المراودة وتغليق الأبواب ودعوتِهِ إلى الإسراع إليها بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ مما اضطره إلى الهرب منها. ومعنى قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أي لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها كما همت به، لتوفر الدواعي، ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء، فالآية حينئذٍ ناطقة بأنه لم يهمّ أصلاً[٧٩٣]. وهناك تفسير آخَرُ للهمّ الذي كان من يوسف، وهو أنَّ يوسف همَّ بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك الفعل القبيح الذي تريده منه، لأَنَّ الهمّ هو القصد فيجب أن يحمل في حق كلٍ منهما على القصد الذي يليق به، فاللائق بالمرأة القصدُ إلى مضاجعته، أي إلىٰ أن يطأها، واللائق بيوسُفَ القصد إلى زجرها ودفعها عن نفسه

---

(٧٨٩) سورة يوسف الآية ٢٣.

(٧٩٠) تفسير القرطبي ج٩ ص١٦٣-١٦٥.

(٧٩١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١١.

(٧٩٢) سورة يوسف الآية ٢٤.

(٧٩٣) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٢-٢١٣.

ولو بضربها، يقال: هممت بفلان أي بضربه ودفعه[٧٩٤]، والبرهان الذي رآه هو ما ألقاه الله في قلبه وأعلمه به أنَّ الامتناع من ضربها أولى، لأنه لو اشتغل يوسف بدفعها عن نفسه لأوهم أنه قصدها بالفاحشة فامتنعت فضربها، وربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام فيكون ذلك شبهة في أنه هو الذي قصدها، وأراد فعل الفاحشة بها، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى، فلا جَرَمَ أنْ لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولّى هارباً عنها[٧٩٥]. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وهذه حجة قاطعة على أنَّ يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجُّهٌ إليها قط، وإلا لقيل: لنصرفَهُ عن السوء والفحشاء. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي من الذين أخلصهم الله لطاعته بأَنْ عصمهم عن ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو المنكر والفجور والمكروه ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وهو ما تناهى فحشه[٧٩٦].

٤٠٣- وألفيا سيدها لدى الباب:

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[٧٩٧] والمعنى: ولقد همّتْ به، ورفض هو، واستبقا الباب، أي قصد كل واحد منهما سبْقَ الآخر إلى الباب؛ فيوسف عليه السلام ليخرج وهي لتمنعه من الخروج، وقدت قميصه من دبُرُ أي اجتذبته من خلفه فانشق قميصه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وجدا زوجها ثمَّةَ قادماً[٧٩٨] ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالت امرأة العزيز ذلك تبرئة لساحتها وافتراءً على يوسف، عندما وجدا العزيز، زَوْجَهَا، لدى الباب، وعُنِي بالسيّدِ زوجُها، والقِبْطُ يسمّون الزوج سيداً، فلما رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي زنى ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

---

(٧٩٤) تفسير الرازي ج١٨ ص١١٨.

(٧٩٥) تفسير الرازي ج١٨ ص١١٨، تفسير القرطبي ج٩ ص١٦٦.

(٧٩٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٥.

(٧٩٧) سورة يوسف الآية ٢٥.

(٧٩٨) تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٦.

﴿أَلِيمٌ﴾ إلاَّ أن يوضع في السجن أو يُعذَّبَ عذاباً إليماً[799].

٤٠٤- وشهد شاهدٌ من أهلها:

قال تعالى حكاية عما قاله يوسف: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[800] قال يوسف مدافعاً عن نفسه بإظهار حقيقة ما وقع: هي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها، وهو من أهل المرأة وقيل: إنه ابن عمها واتفق في ذلك الوقت أنه كان مع زوجها يريد أن يدخل إلى بيتها، فقال: قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلاّ أنَّا لا ندري أيكما كان قدام صاحبه، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب، وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة.

٤٠٥- براءة يوسف وإدانة المرأة:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾[801]. لما شهد الشاهد بما حكاه الله عنه من شق قميص يوسف ووجه الدلالة فيه على صدق أحدهما وكذب الآخر، فإنهم لما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه، قال الشاهد ابن عمها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي من مكركن وحيلكن، وإنما استعظم كيدهن لأنَّهُ ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس، ولعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن. ويحتمل أَنْ يكون قائل هذا القول هو زوجها وليس الشاهد ابن عمها، قال هذا القول عند قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾. ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى الله تعالى عنه أي عن الشاهد أنّه قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾. ومعناه: أعرض عن ذِكْرِ هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار بسببها. وكما أمر يوسفَ بكتمان هذه الواقعة

---

(٧٩٩) تفسير القرطبي ج٩ ص١٧١.

(٨٠٠) سورة يوسف الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٨٠١) سورة يوسف، الآيتان ٢٨، ٢٩.

أمر المرأة بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي اطلبي العفو والمغفرة من زوجك، إنك كنتِ من الناس الخاطئين. وقيل: إن القائل ليوسف: أعرضْ عن هذا، وللمرأة: استغفري هو زوجها وليس الشاهد[٨٠٢].

٤٠٦- إشاعة أمر المرأة وموقفها من هذه الإشاعة:

قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[٨٠٣]، إنَّ خبر امرأة العزيز مع يوسف شاع في المدينة، والذي تولى هذه الإشاعة نسوةٌ كانت امرأة العزيز قد أسرّت إليهن حبّها ليوسف، وطلبت منهنَّ كتمان هذا السرّ، فلما أظهرنَ هذا السرّ كان ذلك غدراً ومكراً، فلما سمعت بمكرهن أي سمعت قولهن أرسلت إليهن وأعدّتْ لكل واحدة منهن مجلساً معيناً، وآتت كل واحدة منهن سكّيناً لأجل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم، ثم إنّها أمرت يوسف بأن يخرج إليهن، فلما رأينه أكبرنَه وقطَّعنَ أيديهن، أي أعظمنه لجماله الفائق وحسنه الكامل، وجرحن أيديهن بالسكاكين التي كانت في أيديهن لاندهاشهنَّ بجمال يوسف وقلن: حاش لله أي تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجباً من قدرته على خلق هذا الجميل الفائق الجمال. وإنما نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له المَلَكية بناء على ما ركز في طباع البشر أَنْ لا أحسن من المَلَك، وأن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يُشبَه كل متناه في الحسنِ والقبح بهما[٨٠٤].

٤٠٧- عودة المرأة إلى المراودة مع التهديد:

وبعد الذي حصل من جرح النسوة أيديهن لمّا رأين يوسف لدهشتهن بجماله، قالت امرأة العزيز ما أخبرنا الله عن قولها: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

---

(٨٠٢) تفسير الرازي ج١٨ ص١٢٣-١٢٥، تفسير القرطبي ج٩ ص١٧٥، تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٧.

(٨٠٣) سورة يوسف الآيتان ٣٠، ٣١.

(٨٠٤) تفسير الرازي ج١٨ ص١٢٦-١٢٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢١٨-٢٢٠.

﴿نَفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾(٨٠٥) قالت امرأة العزيز للنسوة: فذلكنّ - أي يوسفُ - الذي لمتنّني في الافتتان به، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم أي امتنع طالباً للعصمة مستزيداً منها، ولئن لم يفعل وينفذ ما أريده منه ليعاقبَنَّ بالسجن، وليكونن من الصاغرين أي الأذلاء المهانين(٨٠٦).

٤٠٨- قال ربِّ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه:

ولما سمع يوسف تهديد امرأة العزيز له بالسجن إن لم يحقق لها رغبتها وينفذ لها ما تطلبه منه، كان جواب يوسف الرفض القاطع، وأنّ السجن والبقاء فيه خير له من البقاء في بيت هذه المرأة. قال تعالى حكاية عما قاله يوسف رداً على تهديد المرأة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾(٨٠٧) فالسجن أحب إلى يوسف مما تدعوه إليه امرأة العزيز والنسوة اللاتي أخذن يطلبن منه إجابة طلب امرأة العزيز، وإجابةَ طلبهنَّ أيضاً، ثم التجأ يوسف إلى الله متوسلاً إليه أَنْ يصرف عنه كيدهن أي ما أردنه منه، لأنه إذا لم يلطف به ويصرفْ عنه كيدهن يقعُ في الميل إليهن ويكونُ من الجاهلين، أي ممن يعمل عمل الجهال(٨٠٨).

٤٠٩- استجاب الله دعاء يوسف:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾(٨٠٩) فاستجاب الله دعاء يوسف ولطف به وعصمه من الوقوع في الزنا، فصرف عنه كيدهن لأنهن قد راودنه عن نفسه وألححن عليه بإجابة طلب سيدته امرأة العزيز منه، إنه تعالى هو السميع لدعاء المتضرعينَ إليه، العليمُ بما يصلحهم(٨١٠).

---

(٨٠٥) سورة يوسف الآية ٣٢.

(٨٠٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٠.

(٨٠٧) سورة يوسف الآية ٣٣.

(٨٠٨) تفسير القرطبي ج٩ ص١٨٤-١٨٥، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢١.

(٨٠٩) سورة يوسف، الآية ٣٤.

(٨١٠) تفسير القرطبي ج٩ ص١٨٥، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢١.

٤١٠- القرار بسجن يوسف:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[٨١١] أي ظهر للعزيز وأهله من بعدما رأوا الآيات، أي الشواهد على براءته ليسجنُنَّه حتى حين، أي إلى مدة يرون رأيهم فيه، ويقطعون بسجنه كلام الناس وأحاديثهم في شأن مراودة امرأة العزيز ليوسف، لأنَّ بهذا السجن يبدو للناس براءتها[٨١٢].

٤١١- يوسف في السجن ورؤيا السجينين:

وهكذا أدخل يوسف السجن بتحريض من زوجة العزيز التي يئست من يوسف وبأمر من زوجها، ودخل معه السجن فتيان، قصّ الله لنا خبرهما مع يوسف، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٨١٣]، رُوِيَ أنهما غلامان كانا لفرعون مِصرَ، أحدهما رئيس سُقاته والآخر رئيس طعامه، غضب عليهما فحبسهما، قال أحدهما: إني أراني أعصر خمراً أي عنباً تسمية للعنب بما يؤول إليه وهذا في المنام، وقال الآخر: وهو صاحب طعامه: إني رأيت في المنام أَحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، وطلبا من يوسف تأويلَ ما رأياه في المنام. فقال لهما: لا يأتيكما طعام ترزقانه في يومكما إلا أعلمتكما به وذكرتُ ما هو قبل أن يصلكما، وهذا مما علمني ربي لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر[٨١٤].

٤١٢- يوسف يدعو إلى توحيد الله وهو في السجن:

واغتنم يوسف عليه السلام سؤال السجينين له عن رؤيا رأياها، فطفق يتكلم معهم في أمور العقيدة، ويبين كيف أَنَّهُ ترك مِلّةَ قوم لا يؤمنون بالله واليوم

---

(٨١١) سورة يوسف الآية ٣٥.

(٨١٢) تفسير الرازي ج١٨ ص١٣٠-١٣١، تفسير القاسمي ج٧ ص٢٢١.

(٨١٣) سورة يوسف، الآيتان ٣٦،٣٧.

(٨١٤) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٢.

الآخر، وأنه اتبع ملة آبائه القائمةَ على التوحيد، ثم خاض معهم في حوار حول الشرك وبطلانه، وتوحيد الله وأحقيته، فقال تعالى حكاية عما قاله يوسف للسجينين اللذين سألاه عن تأويل رؤياهما: ﴿... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[815] يقول يوسف عليه السلام: إني هجرت ملة الكفرة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وملتهم تقوم على توحيد الله وعبادته وحده ونبذ عبادة ما سواه، وهذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له هو من فضل الله علينا، أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاةً لهم إلى ذلك التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم[816].

٤١٣- يوسف يغتنم سؤال الفتيين ليدعوهما إلى الله تعالى:

ثم قال لهما يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[817] أي أَنَّ يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الذي ذلَّ كلُّ شيءٍ لعزِّ جلاله وعَظَمَةِ سلطانه. ثم بيَّن لهما أَنَّ التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعلٌ منهم وتسميةٌ من تلقاءِ أَنفسهم تلقاها خَلَفُهُمْ عَنْ سَلَفِهم وليس لذلك مُسْتَنَدٌ من عند الله ولهذا قال: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي حجةٍ ولا برهانٍ. ثم أخبرهم يوسف عليه السلام أَنَّ الحكم والتصرف والمشيئة والمُلْكَ كُلَّهُ لله وقد أمر عباده قاطبة أَنْ لا يعبدوا إلاّ إياه ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص

---

(٨١٥) سورة يوسف الآيتان ٣٧، ٣٨.

(٨١٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٨.

(٨١٧) سورة يوسف الآيتان ٣٩، ٤٠.

العمل له هو الدين المستقيم الذين أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان، والذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين. وهكذا جعل يوسف عليه السلام سؤالَهما له عن رؤياهما وسيلةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام(٨١٨).

٤١٤- يوسف يَعْبُرُ للفتيين رؤياهما:

ولما فرغ يوسف من دعوتهما إلى التوحيد والإسلام شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤالهما فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾(٨١٩) أي أمّا أحدكما فسيعود إلى عمله السابق ساقياً للملك، وأمّا الآخَرُ فسيصلب، قُطِعَ ما تستفتيان فيه. ولكنَّ يوسف عليه السلام لم يعين الذي ينجو ولم يعيِّن الذي يصلب، لئلاّ يحزن ولهذا أبهمه، ولكنه أعلمهما بأنَّ هذا الأَمْرَ قد فرغ منه وهو واقع لا محالة(٨٢٠).

٤١٥- يوسف يطلب من الذي ظن أنّهُ ناجٍ أن يذكره عند الملك:

قال تعالى حكاية عما قاله يوسف لأحد الفتيين الذي ظنَّ يوسف أنَّهُ سيخرج من السجن ويعودُ إلى عمله ساقياً للملك: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾(٨٢١) ولمّا ظَنَّ يوسفُ عليه السلام أَنَّ الساقي ناج وأنَّه سَيُخرج من السجن، قال له يوسف خفية عن الآخر لئلا يشعر أنه المصلوب، قال له: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي اذكر قصتي عند ربك وهو الملك. فنسيَ أَنْ يذكر عند الملك ما أوصاه به يوسفُ عليه السلام، وكان هذا النسيانُ من مكايد الشيطان؛ لئلا يَخْرُجَ نبيُّ الله من السجن(٨٢٢).

---

(٨١٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٩.

(٨١٩) سورة يوسف الآية ٤١.

(٨٢٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٩.

(٨٢١) سورة يوسف، الآية ٤٢.

(٨٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٧٩.

٤١٦- تعبير يوسف لرؤيا الملك:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٨٢٣].

أي وقال الملك للملأ: إني أرى.. الخ ما رآه في منامه ثم طلب من أشراف قومه وهم الملأ أن يعبروا له رؤياه فقالوا له: أضغاث أحلام أي تخاليطها، والأحلام جمع حلم وهو ما يراه النائم فهو مرادف للرؤيا إلاّ أنها غلبت في رؤيا الخير والشيءِ الحسن، وغلب الحلم على خلافه، وفي الحديث الذي أخرجه البخاريُّ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان». وقال الملأ للملك: وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. وقال الذي نجا وخرج من السجن من الفتيين اللذينِ كانا في السجن مع يوسف، وتذكر بعد مدة: أنا أخبركم بتأويل رؤيا الملك بالتلقي عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسي، فابعثوني إلى يوسف. فلما جاءه سأله عن تأويل رؤيا الملك. فقال له: تزرعون سبع سنينِ دَأَباً أي دائبين مواظبين كل عام، فما من حصدتم من الزرع فذروه في سنبلة أي لا تدوسوه فإنه أبقى له إلاّ قليلاً مما تأكلون في تلك السنين يعني بقدر ما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك أي من بعد السبع المذكورات سبعُ سنينَ صعابٌ على الناس لقوة القحط يأكلن ما قدمتم لهن أي ما رفعتم لهنَّ من الحبوب المتروكة في سنابلها إلاّ قليلاً مما تحصنون أي تحرزون وتخبئون للزراعة. ثم يأتي من بعد ذلك أي من بعد السنين الموصوفة بالشدَّة عام فيه يغاث الناس أي يمطرون وفيه يعصرون أي ما كانوا يعصرونه على عادتهم من العنب والزيتون ونحوهما[٨٢٤].

---

(٨٢٣) سورة يوسف الآيات ٤٣-٤٩.

(٨٢٤) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٢ - ٢٢٣.

٤١٧- الملك يعجبه تعبير يوسف لرؤياه ويأمر بإخراجه من السجن:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾(٨٢٥) لقد أعجب الملكَ تعبيرُ يوسف لرؤياه فأمر بإخراجه من السجن وإحضاره إليه لما علم من علمه وفضله، فلما جاء الرسول إلى يوسف يستدعيه إلى الملك، قال يوسف له: ارجع إلى ربك أي إلى سيدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي ما شأنُهن وخبرهن؟ أمره أن يسأله ويستفهمه عن ذلك، ولم يكشف له عن القصة ولا أوضحها له، لأَنَّ السؤال مجملاً مما يهيجُ الملكَ على الكشف والبحث والاستعلام فتظهر براءته. كما أَنَّ يوسف عليه السلام تأنّىٰ ولم يستعجل في إجابة الملك بالخروج من السجن، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءته عما أُتِهِمَ به وسجن من أجله، وليسدّ مجال التقوُّلِ عليه من حساده وأعدائه بادعائهم أنه ما سجن إلاّ لأمر عظيم وجرم كبير مما يوهن منزلته عند الملك. وفيه دليل على أَنَّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها(٨٢٦).

٤١٨- الملك يسأل النسوة عما جرى لهنَّ مع يوسف:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾(٨٢٧). هذا إخبار عن الملك حين جمع النسّوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ومعهن هذه المرأة، فقال مخاطباً لهنَّ كلهنَّ وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاّتي قطعن أيديهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي ما شأنكنَّ وخبركنَّ إذ راودتن يوسف عن نفسه يوم الضيافة؟ قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء، أي قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، واللهِ ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الآن تبين الحق وظهر وبرز ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي إنه لمن الصادقين في قوله: هي راودتني عن

---

(٨٢٥) سورة يوسف، الآية ٥٠.

(٨٢٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٤.

(٨٢٧) تفسير سورة يوسف الآية ٥١.

نفسي[٨٢٨].

٤١٩- تعليل اعتراف امرأة العزيز:

قال تعالى حكاية عما قالته امرأة العزيز تعليلاً وتبريراً لاعترافها على نفسها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[٨٢٩]. تقول امرأة العزيز: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أَخُنْهُ بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة. أو اعترفت بهذا ليعلم يوسف أنّي لم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سُئلت عنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يرضاه ولا يسدده. ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾ تقول المرأة: ولست أبرىء نفسي ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾ فإنَّ النفس تتحدث وتتمنىٰ ولهذا راودته، أو تعني: إنّي ما أبّرئُ نفسي من الخيانة، فإني قد خنته عندما اتهمت يوسف بما اتهمته به وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها. بأنَّ كل نفس تأمر بالسوء إلاَّ نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، إنَّ ربي غفور رحيم[٨٣٠].

٤٢٠- قال اجعلني على خزائن الأرض:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[٨٣١] يقول تعالى إخباراً عن الملك حين ثبتت براءة يوسف مما نسب إليه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ﴾ أي اجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خُلُقٍ وكمالٍ، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۖ﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ

---

(٨٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨١.

(٨٢٩) سورة يوسف، الآيتان ٥٢، ٥٣.

(٨٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٢٧.

(٨٣١) سورة يوسف، الآيتان ٥٤، ٥٥.

﴿ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي ولّني خزائن أرضك يعني جميع الغّلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح، ثم بيّن يوسف عليه السلام اقتدارهُ في ذلك فقال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي أمين أحفظ ما أُؤتمن عليه عالم بوجوه التصرف فيه[832].

٤٢١- وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[833].

أي وكذلك مكنّا ليوسف في أرض مصر ينزل منها حيث يشاء ويتصرف فيها كيف يشاء، وذلك أنه عليه السلام لمّا ولاه الملك النَظَرَ على خزائن مصر تجول في قطرها وطافَ قراها، والأمر أمره والإشارة إشارته عنايةً منه تعالى ورحمة كما قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين أحسنوا عملاً، فما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل العاقبة الحميدة ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين، فما ادّخره تعالى لنبيّه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكمل وأكثر وأجلّ مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، وأنَّ ما يدخر الله للمؤمنين المتقين أعظم مما يخوّلونه به في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والملك[834].

٤٢٢- وجاء إخوة يوسف:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟

---

(٨٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٢، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٢.

(٨٣٣) سورة يوسف، الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٨٣٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٢، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٤-٢٤٥.

بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٨٣٥].

ولما عمّ القحط البلاد: مصر وما جاورها، جاء الناس يشترون الطعام من مصر، وكان يوسفُ عليه السلام يبيع الطعامَ للناس بثمنه، وهو الذي ادخره وحفظه مدة سنين الخصب، وكان من جملة من ورد إلى مصر للميرة إخوة يوسف، وجاؤوا معهم ببضاعة - فضة - يشترون بها طعاماً، فلما دخلوا على يوسف عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون، أي لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير وفعلوا فيه ما فعلوه، ولم يخطر ببالهم أنه يصير الآمرَ الناهيَ في توزيع الطعام على الناس في مصر. ثم شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم إلى بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: لعلكم جواسيس، قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم قالوا: جئنا من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله. قال يوسف: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر فهلك أصغرنا في البرية وكان أحبَّه إلى أبينا وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فقال لهم يوسف: ائتوني بهذا الأخ الذي تدّعون حتى أَعْلَمَ صدقكم وأطمئنَّ على أنكم لستم بجواسيس، وإذا لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي أي لاميرة لكم عندي إذا جئتم إلى مصر. قالوا: سنحرص على مجيئه معنا وسنطلب ذلك من أبينا. ولما جَهزّهم يوسف بجهَازهم أعطاهم استحقاقهم من الطعام إذ كان لا يعطي لكل شخص أكثر من حِمْلِ بعيرٍ في السنة، أمر يوسف غلمانه وخدمه بأن يضعوا بضاعتهم التي جاؤوا بها - وهي فضة - ليشتروا بها طعاماً، أمر غلمانه بأن يضعوا هذه البضاعة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون لعلهم يرجعون بها إذا رجعوا إلى أهلهم. فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل، أي أُنذرنا بعدم بيعنا أيَّ طعام إذا لم نأت بأخينا ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾، أي نرفع المانع من الكيل ونشترِ من الطعام ما نحتاج إليه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي من أن يناله مكروه[٨٣٦].

(٨٣٥) سورة يوسف الآيات ٥٨-٦٣.

(٨٣٦) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٧.

٤٢٣- حوار بين يعقوب وبنيه:

قلنا: إنَّ إخوة يوسف لما رجعوا إلى بلدهم أبلغوا أباهم بأنهم أُنذروا بعدم بيعهم أيَّ طعام إذا لم يأتوا بأخيهم وهو شقيق يوسف والذي يبقيه يعقوب عنده دائماً خوفاً عليه، وعلى هذا طلبوا من أبيهم أن يرسله معهم إلى مصر حتى يسهل عليهم شراء الطعام، وتعهدوا لأبيهم بحفظه. فلما سمع أبوهم مقالتهم هذه جرى حوار بينه وبينهم على النحو التالي:-

٤٢٤- أولاً- ما قاله لهم أبوهم:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[٨٣٧]. أي قال لهم يعقوب: هل أقدر أنْ آخذ عليكم العهد والميثاق أكثر مما أخذت عليكم في يوسف وقد قلتم بشأنه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ثم خنتم بضمانكم؟ فما يؤمنني من مثل ذلك؟ فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ أي منكم ومن كل أحد ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يرحمني بحفظه. وهذا يشعر بميل يعقوب إلى الموافقة على إرساله معهم لما بدا له من المصلحة فيه[٨٣٨].

٤٢٥- ثانياً- ما قالوه لأبيهم:

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[٨٣٩] أي لما فتح إخوةُ يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّتْ إليهم، وهي التي أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، وبضاعتهم هذه وهي الدراهم التي جاؤوا بها ليشتروا بها الطعام. فلما وجدوا بضاعتهم هذه في متاعهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي ماذا نريد ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي ماذا نريد وراء هذا، إنَّ بضاعتنا ردت إلينا وقد أُوفي لنا الكيل ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة أي نأتي بالطعام إلى

---

(٨٣٧) سورة يوسف الآية ٦٤.

(٨٣٨) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٨.

(٨٣٩) سورة يوسف، الآية ٦٥.

أهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي لا يصيبه شيءٌ مما تخافه ونزداد باستصحابه معنا حمل بعير؛ لأنَّ يوسف كان يعطي كل رجل حِمْلَ بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سهل على ذلك الوزير- يقصدون يوسف- المحسن لسخائه. أو المعنى: ذلك الذي يكال لنا دون أخينا شيء يسير قليل، فابعث أخانا معنا حتى نتسع ونتكثر بمكيله[840].

٤٢٦- ثالثاً- ما قاله لهم أبوهم:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾[841]. أي قال لهم أبوهم: لن أرسله معكم بهذه المقالة حتى تؤتوني موثقاً من الله لتأتنّني به، أي عهداً موثوقاً بالله بسبب القسم بالله عليه لتردنّه عليَّ ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلاّ أن تُغلبوا كلكم فلا تقدرون على تخليصه وردّه إليّ، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي الله على ما نقول شهيد، لأنَّ الشهيد وكيل أي موكول إليه هذا العهد، فإنْ وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات[842].

٤٢٧- رابعاً- ما قاله لهم أيضاً أبوهم:

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[843]. يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: إنه أمر بنيه لمّا جهزهم مع أخيهم (بنيامين) إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبوابٍ متفرقة؛ لئلاّ يستلفت دخولهم من باب واحد أنْظارَ من يقف عليه من الجند، ومن يتجسس للحاكم فيرتاب

(٨٤٠) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤.

(٨٤١) سورة يوسف الآية ٦٦.

(٨٤٢) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٢، فسير ابن عطية ج٨ ص٢١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٠.

(٨٤٣) سورة يوسف الآية ٦٧.

في أمرهم إذ ليس دخول الجماعة كدخول الفرد[٨٤٤]. والذي عليه جمهور المفسرين أنَّ يعقوب أوصى بنيه أن لا يدخلوا من باب واحد؛ لأنه خاف من العين عليهم، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإنَّ العين حق تستزل الفارس عن فرسه[٨٤٥]. وقد قال ﷺ: «إنَّ العين لتُدْخل الرجل القبر والجملَ القدر»[٨٤٦]. وفي تعوذه ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة»[٨٤٧]، وينبغي لمن أعجبه شيء أن يُبرِّك، جاء في تفسير القرطبي «واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرّك، فإنه إذا دعا بالبركة صُرِفَ المحذور لا محالة، ألا ترى قوله عليه السلام لعامر بن ربيعة- وقد أعجبه حسن سهل بن حنيف فأصابه بعينه- ألا برّكتَ، فدلَّ على أنَّ العينَ لا تضر إذا برّك العائن، وإنما تضر إذا لم يبرّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه»[٨٤٨]. ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ وقال لهم أيضاً أبوهم: إنَّ هذا الاحتراز بطلبي منكم الدخول من أبواب متفرقة لا من باب واحد لا يردُّ قدر الله وقضاءه، فإنَّ الله إذا أراد شيئاً لا يخُالَفُ ولا يمانَعُ، وإنَّ الحذر لا يمنع القدر ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي الأمر والقضاء لله، فلا يشاركهُ أحد ولا يمانعه شيء في أمره وقضائه، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي عليه اعتمدت وبه وثقتُ، وعليه فليعتمد المؤمنون والمتوكلون[٨٤٩].

---

(٨٤٤) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٠-٢٥١.

(٨٤٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤.

(٨٤٦) أخرجه ابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية: هامش (١) من صفحة ٢٠ من تفسير ابن عطية ج٨.

(٨٤٧) تفسير ابن عطية ج٨ ص٢١ وجاء في هامش (١) من هذه الصفحة: أخرجه البخاري في الأنبياء، وأبو داود في السنّة والترمذيُّ في الطب وكذلك ابن ماجه في الطب، والإمام أحمدُ في مسنده ولفظه فيه أنّ رسول الله ﷺ كان يعّوذ حسناً وحسيناً بهذه التعويذة.

(٨٤٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٢٧.

(٨٤٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٤، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥١.

٤٢٨- الأخذ بالأسباب ووقوع المقدور:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾[٨٥٠] قال المفسرون: لما قال يعقوب: وما أغني عنكم من الله من شيء، صدقه الله في ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، أي أنَّ دخولهم متفرقين ما كان يرد قضاء الله ولا أمراً قدرّه الله، قال الزجاج: لوقدر أن تصيبهم العين لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون، فالحذر لا يدفع القدر. أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ فإنه استثناء منقطع، والمعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب، يعني أنَّ الدخول على صفة التفرق قضاءُ حاجةٍ في نفس يعقوب قضاها، وهذه الحاجة: خوفه عليهم من إصابة العين. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي إنَّ يعقوب لذو علم بأمر دينه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أمر دينه[٨٥١].

٤٢٩- دخول إخوة يوسف عليه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾[٨٥٢] يخبر سبحانه وتعالى بأنَّ إخوة يوسُفَ لما قدموا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه، وأعلمه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس أي لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى فإنَّ الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا على الخير[٨٥٣].

٤٣٠- جعل السقاية في رحل أخيه:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ

---

(٨٥٠) سورة يوسف، الآية ٦٨.

(٨٥١) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٦، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٢٩.

(٨٥٢) سورة يوسف الآية ٦٩.

(٨٥٣) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٧، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٧.

لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾﴾[854]. أي لمّا جهزهم يوسف بجهازِهِمْ من الطعام جعل يوسف السقاية في رحل أخيه حيث لم يطلع عليه أحد. ثم أذنَّ مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون، أي نادى منادٍ وأَعْلَمَ: يا أصحاب العير إنكم لسارقون. قالوا، أي إخوة يوسف: ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صُواعَ الملك، أي صاعه الذي يكيل به ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم: أي كفيل وضامن. هذا وإنَّ السقاية هي الإناء الذي كان يشرب به الملك أو يوسف وبه كان يكيل الطعامَ للناس، والسقاية والصواعُ والمكيال شيء واحد[855].

٤٣١- إخوة يوسف ينكرون سرقة صواع الملك:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾[856] قال إخوة يوسف مقسمين بالله تعالى على أمرين: (الأول) أنهم ما جاؤوا للإفساد في الأرض، (والثاني) أنهم ما كانوا سارقين[857].

٤٣٢- حوار فتيان يوسف مع إخوته:

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[858] أي قال فتيان يوسف لإخوته: فما جزاؤه أي السارق إن كنتم كاذبين؟. قال إخوة يوسف: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله رقيقاً، أي فأخذُهُ جزاؤه لا غيره. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بالسرقة، أي استعباد السارق هو جزاء سرقته[859].

---

(٨٥٤) سورة يوسف، الآيات ٧٠-٧٢.

(٨٥٥) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٨-١٧٩، تفسير ابن عطية ج٨ ص٢٨، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٥.

(٨٥٦) سورة يوسف الآية ٧٣.

(٨٥٧) تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٠.

(٨٥٨) سورة يوسف الآيتان ٧٤، ٧٥.

(٨٥٩) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٩.

٤٣٣- يوسف يفتش أوعية إخوته قبل وعاء أخيه:

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[٨٦٠]. أي فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرج السقاية من رحل أخيه، كذلك دبرنا الأمر ليوسُفَ لتحصيل غرضه بإبقاء أخيه بنيامين معه، إذ ما كان يمكن ليوسف أن يأخذ أخاه بحجة سرقته في دين الملك أي بشرعه وقانونه، ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ يعني أنَّ ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره حتى جرى الأمر وفق المراد. ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أي بالعلم كما رفعنا يوسف عليه السلام بالعلم، وفوق كل ذي علم عليم[٨٦١].

٤٣٤- ما قاله إخوة يوسف بعد استخراج الصواع من رحل أخيه:

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ ﴾[٨٦٢]. أي لما أخرج الصواع من رحل أخي يوسف نكس إخوتُه رؤوسهم وقالوا ليوسف: إنَّ هذا الأمر ليس بغريب منه، فإنَّ أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً، وكان غرضهم من هذا الكلام أنَّا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة؛ لأنهما من أم أخرى. ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم[٨٦٣].

٤٣٥- خذْ أحدنا مكانه:

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ

---

(٨٦٠) سورة يوسف الآية ٧٦.

(٨٦١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٥٩.

(٨٦٢) سورة يوسف الآية ٧٧.

(٨٦٣) تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٣، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٦.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٨٦٤] لما تعين أخذُ بنيامين وإبقاؤه عند يوسف بمقتضى فتواهم، وهي أَنَّ مَنْ وُجِد المسروق في رحله فجزاؤه أن يُستَرقَّ طفِقوا يتوسلون إلى يوسف ليعطف عليهم ويقبل منهم اقتراحهم بأَنْ يأخذ واحداً منهم يسترقُّه عنده بدلاً وعوضاً عن بنيامين، لأنَّ له أَباً شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً لا يقوى على فراقه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي إلينا فأتمم إحسانك إلينا بأن تجيب طلبنا والتماسنا[٨٦٥].

٤٣٦- يوسف يرفض التماس إخوته:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾[٨٦٦] أي قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده، أي أعوذ بالله أن آخذ بريئاً بمذنب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي إنا إذن لظالمون إن أخذنا بريئاً بمذنب، أي لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنساناً بجرم غيره[٨٦٧].

٤٣٧- ما فعلوه بعد رفض التماسهم:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾[٨٦٨].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين لرفض يوسف أن يأخذ أحدهم مكانَه ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي أخوهم الأكبر في السن: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتردّنَّهُ إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من

(٨٦٤) سورة يوسف الآية ٧٨.

(٨٦٥) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٠-٢٦١.

(٨٦٦) سورة يوسف الآية ٧٩.

(٨٦٧) تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٦.

(٨٦٨) سورة يوسف الآيات ٨٠-٨٢.

إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ أي أو يحكم الله لي بالخروج من مصر أو بخلاص أخي بسببٍ ما، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلاّ بالحق والعدل. ثم أمرهم أخوهم الكبير بأن يخبروا أباهم بما جرى فقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي نسبَ إلى سرقة صواع الملك ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي ما شهدنا عليه بالسرقة إلاّ بما تيقناه من إخراج الصواع من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي مصر، أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عما وقع ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي واسأل القافلة التي جئنا معها، اسألها عن أمانتنا وصدقنا وحفظنا لأخينا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته(٨٦٩).

٤٣٨- جواب يعقوب على مقالة أولاده:

فلما سمع يعقوب مقالة أولاده بشأن أخيهم (بنيامين) واعتذارهم عمّا وقع وبراءتهم مما وقع لأخيهم، لم يصدّقهم يعقوب لسابقتهم مع أخيهم يوسف، فقال ما أخبرنا الله به: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ أي زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ففعلتموه، فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، أي يأتيني بيوسف وأخيه بنيامين وأخيهم الكبير الذي بقي في مصر(٨٧٠).

٤٣٩- حال يعقوب بعد هذه المصيبة:

قال تعالى عن يعقوب: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي وأعرض يعقوب عن بنيه كراهة لما جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي يا حزني الشديد على يوسف ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾

---

(٨٦٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٧، تفسير الرازي ج١٨ ص١٨٦-١٩١، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦١-٢٦٤.

(٨٧٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٤، تفسيرالقاسمي ج٩ ص٢٦٤، وآية ﴿قال بل سولت.﴾ في سورة يوسف ورقمها ٨٣.

أي ابيضت عيناه من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بمعنى كاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره. ووصف يعقوب عليه السلام بذلك؛ لأنه لم يشكُ إلى أحد وإنما كان يمسك همه وحزنه في صدره، وكان يكظمه أي يردّ حزنَه أو همّه إلى قلبه ولا يظهره بالشكوى والغضب والضجر[٨٧١].

٤٤٠- خوف أولاد يعقوب عليه من الهلاك:

قال تعالى حكاية عما قاله أولاد يعقوب له: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي قال أولاد يعقوب لأبيهم على سبيل الشفقة عليه: لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أي مشرفاً على الهلاك مرضاً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي بالموت. والمعنى إن استمر بك هذه الحال من تذكرك يوسف وحزنك عليه عرضت نفسك إلى الهلاك، أو أنك تهلك فعلاً بالموت وهذا ما نخشاه عليك[٨٧٢].

٤٤١- إنما أشكو بثي وحزني إلى الله:

قال تعالى عما قاله يعقوب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[٨٧٣] قال يعقوب عليه السلام رداً على ما قاله له أولاده تخوفاً عليه من الهلاك حزناً على يوسف ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أشكو همي وحزني وحالي وما أنا فيه إلى الله تعالى، لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربي داعياً له وملتجئاً إليه ليفرج همي وما أنا فيه. وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمته وحسن ظني به أن يأتيني بالفرج من حيث لا احتسب[٨٧٤]. وحقيقة الشكوى إظهار بث النفس، وبث النفس يعني ما

---

(٨٧١) تفسير ابن عطية ج٨ ص٥٠-٥١، تفسير الرازي ج١٨ ص١٩٦، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٦-٢٦٧، وآية ﴿وتولى عنهم..﴾ رقمها ٨٤ في سورة يوسف.

(٨٧٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٩٩، وتفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٨ والآية في سورة يوسف ورقمها ٨٥.

(٨٧٣) سورة يوسف الآية ٨٦.

(٨٧٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٩٩، وتفسير القاسمي ج٩ ص٢٨٨.

انطوت عليه من الغم أو السرّ[٨٧٥]. والشكوى إلى الله جائزة، ومشروعة ولهذا حكاها الله تعالى عن يعقوب عليه السلام دون إنكار، فدلّ على مشروعيتها. ولأنَّ الشكوى إلى الله تتضمن دعاء الشاكي ربه وطلبه منه أن يكشف عنه الغم الذي هو فيه، ودعاءُ العبد ربه وطلبهُ منه من الأمور المشروعة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[٨٧٦] أما الشكوى إلى غير الله فغير جائزة، لأنَّ الشاكي إن أراد بشكواه رفع الضر عنه، فالله وحده هو القادر على ذلك قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ وإن كان بشكواه يريد التفجع والتضجر أو التظلم مما ابتلاه الله به فهذا حرام وخطيئة كبيرة. جاء في تفسير الزمخشري دخل على يعقوب جاره فقال له: يا يعقوب قد تهشمت وفنيت. فقال يعقوب: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف. فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتُها فاغفر لي فغفر له[٨٧٧].

٤٤٢- ولا تيأسوا من روح الله:

قال تعالى حكاية عما قاله يعقوب لبنية: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[٨٧٨] لما شعر يعقوب عليه السلام بقرب وجدان يوسف ولقائه به بناء على رؤياه الصادقة وما تستلزمه من لقائه به وسجوده وسجود إخوته له، قال لبنيه: اذهبوا إلى الأرض التي جئتم منها وتركتم أخويكم فيها، فتحسسوا خبراً من أخبار يوسف، واستعلموا بعض أخباره وأخبار أخيه ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ أي من فرجه ورحمته المريحة من الشدة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي الكافرون بالله ورحمته وقدرته على إفاضة الرَّوْحِ بعد مضي المدة في الشدة، وسنته تعالى في إفاضة اليسر بعد

---

(٨٧٥) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٤، ٢٧٣.

(٨٧٦) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٨٧٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٩٩. وحكى الإمام ابن عطية عن الطبري شبيهاً بهذه القصة عن يعقوب انظر تفسير ابن عطية ج٨ ص٥٦.

(٨٧٨) سورة يوسف الآية ٨٧.

العسر لا سيما في حق من أحسن الظن به(٨٧٩).

٤٤٣- دخولهم على يوسف:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٨٨٠) أي فلما دخل إخوة يوسف عليه بعدما رجعوا إلى مصر، ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أي الشدة من الجدب والقحط ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ أي بدراهم قليلة في مقابلة ما نأخذه من الطعام ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أي أتممه ووفره بهذه الدراهم المزجاة كما توفره بالدراهم الجياد الكثيرة ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ أي بردّ أخينا أو بإيفاء الكيل أو بالمسامحة وقبول ما لا يُعَدُّ عوضاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي يثيبهم أحسن الثواب(٨٨١).

٤٤٤- يوسف يكشف شخصيته لإخوته:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾(٨٨٢) لما رأى يوسف إخوته قد تضرعوا إليه ووصفوا ما هم عليه من الشدة والضيق وطلبوا التصدق عليهم أدركته الرِّقةُ فصرح حينئذ بأنه يوسف. وقوله ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ﴾ استفهام يفيد تعظيم الواقعة، ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه، وهو كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت؟ ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ فهذا كالاعتذار عنهم، وهذا من تلطفه بهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم بقبحه(٨٨٣).

٤٤٥- عاقبة التقوى والصبر:

﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ

---

(٨٧٩) تفسير الرازي ج١٨ ص١٩٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٩٦.

(٨٨٠) سورة يوسف، الآية ٨٨.

(٨٨١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٦٩.

(٨٨٢) سورة يوسف الآية ٨٩.

(٨٨٣) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧١.

﴿وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾[٨٨٤].

قال إخوة يوسف لأنت يوسف؟ لأنَّ ما ذكّرهم بفعلهم بيوسف لا يعلمه إلا هم ويوسف، فقال لهم: أنا يوسف الذي فعلتم به ما فعلتم ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ أي شقيقي ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بالخلاص مما ابتلينا به وبالاجتماع بعد الفرقة، وبالعزة بعد الذلة، وبالأُنس بعد الوحشة. ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي يتقي ربه في جميع أحواله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ أي على الضراء وعن المعاصي، فإنَّ الله لا يضيع أجرهم لأنَّ المتقين الصابرين يوصفون بالإحسان[٨٨٥].

٤٤٦- اعتراف إخوة يوسف بذنبهم:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾[٨٨٦] قال إخوة يوسف حالفين له بالله، إنَّ الله فضّلك بما ذكرت من التقوى والصبر ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي وإنَّ شأننا وحالنا أنا كنا متعمدين ارتكاب الذنب والمعصية بحقك، فلم نتق الله ولم نصبر ففعلنا بك ما فعلنا، ولذلك فضّلكَ الله علينا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ والخاطىء هو المتعمد للخطأ، والمخطىء من أخطأ وهو الذي قصد الصواب فلم يُوَفَّقْ إليه[٨٨٧].

٤٤٧- كرم يوسف وعفوه عن إخوته:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾[٨٨٨] أي قال يوسف لإخوته: لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع ولا لوم عليكم اليوم، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا الله لهم بالمغفرة والرحمة[٨٨٩]. وهذا كرم عظيم وحِلْمٌ واسع من يوسف عليه السلام.

---

(٨٨٤) سورة يوسف الآية ٩٠.

(٨٨٥) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٢.

(٨٨٦) سورة يوسف الآية ٩١.

(٨٨٧) تفسير ابن عطية ج٨ ص٦٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٢، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٥٧.

(٨٨٨) سورة يوسف الآية ٩٢.

(٨٨٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٥٧.

٤٤٨- إرسال يوسف قميصَه إلى أبيه:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٨٩٠] أراد يوسف عليه السلام تبشير أبيه بحياته وإدخال السرور عليه بإرسال قميصه إليه وإلقائه على وجهه بمعنى المبالغة في تقريب القميص منه ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يصير بصيراً، ويقال: المراد يأتي إلي وهو بصير، وإنما أفرده بالذكر تعظيماً له وقال في الباقين ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بجميع بني يعقوب[٨٩١].

٤٤٩- إني لأجد ريح يوسف:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾[٨٩٢] أي ولما خرجت العير - وهي الجمال التي تحمل الميرة أي الطعام - من مصر، قال أبوهم أي يعقوب عليه السلام لمنْ حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي لأشم ريح يوسف ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الخرف أي إلى ضعف العقل من الهرم والكبر ولولا ذلك لصدقتموني[٨٩٣]، ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[٨٩٤] أي قالوا ليعقوب وهم حفدته ومن كان عنده: تالله إنك لفي خطأك القديم وحبك القديم ليوسف لا تنساه ولا تسلوه، وإنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أنَّ يوسف قد مات[٨٩٥].

---

(٨٩٠) سورة يوسف الآية ٩٣.

(٨٩١) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٦، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٩.

(٨٩٢) سورة يوسف، الآية ٩٤.

(٨٩٣) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٧-٢٠٨، معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٦٦.

(٨٩٤) سورة يوسف الآية ٩٥.

(٨٩٥) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٨.

٤٥٠- وجاء البشير:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٨٩٦] أي فلما جاء المخبر بما يَسُرُّهُ من أمر يوسف ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب فارتد بصيراً أي فعاد بصيراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أَنَّ يوسف حي بدلالة رؤياه وأعلم أنَّ الله تعالى سيرده إليَّ[٨٩٧].

٤٥١- إنَّا كنا خاطئين:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾[٨٩٨] أي فلما رجع إخوة يوسف من مصر ووصلوا إلى أبيهم، قالوا لأبيهم: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا، وإنما سألوه المغفرة؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلاّ بإحلاله[٨٩٩]. كذلك سألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى لما فرط منهم في حق يوسف وفي حقه[٩٠٠]، لأنَّ في هذا التفريط تفريطاً في حقِّ الله عليهم بأنْ لا يفعلوا ما فعلوه لما فيه من اعتداء وظلم وتجاوز لحدود الله، فقال لهم يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾[٩٠١]. أي سوف أدعوه لكم فإنه المتجاوز عن السيئات الرحيم لمن تاب. وقد روي أنه أخرَّ الاستغفار لهم إلى السحر ويقويّ هذا التأويلَ قولُ النبي ﷺ: «ينزل ربنا كُلَّ ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرني فأَغفرَ له..» ويقوى هذا التأويلَ أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وتخصيصُ الأوقات الفاضلةِ بالاستغفار والدعاء معروف في شِرْعَةَ الإسلام، ومنه

---

(٨٩٦) سورة يوسف الآية ٩٦.

(٨٩٧) تفسير الرازي ج١٨ ص٢٠٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٠.

(٨٩٨) سورة يوسف الآية ٩٧.

(٨٩٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٢.

(٩٠٠) تفسير ابن عطية ج٨ ص٧٧.

(٩٠١) سورة يوسف الآية ٩٨.

الاستغفار في السحر وعقب الصلاة وعند الأذان وبينه وبين الإقامة. . الخ[٩٠٢].

٤٥٢- وصول يعقوب وأهله إلى يوسف:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[٩٠٣]. أي فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمّهما واعتنقهما وأظهر الحفاوة بهما، وقال لهما ولمن جاء معهما من أهله: ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ أي تمكنوا واسكنوا واستقروا في مصر إن شاء الله آمنين، فالاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى دخول مصر، والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ومعنى (آمنين) يعني آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافون أحداً[٩٠٤].

٤٥٣- تحقق رؤيا يوسف:

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا . . ﴾[٩٠٥] أي أجلس يوسفُ أبويه معه على العرش أي على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، ﴿ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أَحد عشر رجلاً. ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ أي التي رآها يوسف من قبل وقصّها على أبيه، وكان هذا السجود سائغاً في شرائعهم، إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدَمَ عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم الله هذا النمط - أي السجود - من التحية في الشريعة الإسلامية، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب جلّ جلاله. وفي الحديث أنَّ معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفهم فلما رجع سجد للنبي ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أَنْ تسجد لزوجها

---

(٩٠٢) تفسير ابن عطية ج٨ ص٧٧-٧٨، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٨.

(٩٠٣) سورة يوسف الآية ٩٩.

(٩٠٤) تفسير الرازي ج١٨ ص٢١١، تفسير ابن عطية ج٨ ص٧٨-٧٩.

(٩٠٥) سورة يوسف الآية ١٠٠.

لعظم حقه عليها». والغرض أنَّ هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ أي هذا ما آل إليه أمر رؤياي، فإنَّ التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر[٩٠٦].

٤٥٤- يوسف يذكر إحسان الله إليه:

قال تعالى مخبراً عما قاله يوسف بعد أن رفع أبويه على العرش: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾[٩٠٧] ذكر يوسف نعم الله عليه وإحسانَهُ به، فذكر نعمة الله عليه وإحسانَهُ إليه بإخراجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجبّ استعمالاً للكرم مع إخوته، لئلا يذكّرهم بقبيح صنيعهم معه بعد عفوه عليهم بقوله لهم: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ وأيضاً فإنه خرج من الجبّ إلى الرق، ولما خرج من السجن آل أمره إلى السلطة والملك، فالنعمة بالإخراج من السجن أوضح وأقرب أن تكون إنعاماً كاملاً. ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ أي وجاء بكم من البادية وأسكنكم الحاضرة مع جمع الشمل والانتقال من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة[٩٠٨].

٤٥٥- إكرام يوسف لإخوته وذكره لطف الله به وبأهله:

قال تعالى مخبراً عما قاله يوسف لأبويه وإخوته وبعد أن ذكر إحسان الله إليه بإخراجه من السجن ومجيئهم من البادية ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٩٠٩]. قول يوسف: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ أي من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بالحسد، وأسنده إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإلقائه، وفي هذا الإسناد إلى الشيطان إكرامٌ من يوسف لإخوته بعدم تثريبهم ولومهم على ما فعلوه به[٩١٠]. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والمعنى أنَّ حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الإلفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال ونسيان الماضي وعدم الالتفات إلى ما

---

(٩٠٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩١.

(٩٠٧) سورة يوسف من الآية ١٠٠.

(٩٠٨) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٧، تفسير ابن عطية ج٨ ص٨٣.

(٩٠٩) سورة يوسف الآية ١٠٠.

(٩١٠) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٧.

حدث وما تسبب به إخوة يوسف، كل ذلك كان حصوله في غاية البعد في حساب العقول بل وما كان يخطر بالبال، وإذا قدر وروده بالبال وبالخاطر فإنه ما كان يُعرَف كيف يحصل، إلاّ أنّه سبحانه وتعالى لطيف فإذا أراد حصول شيءٍ سهلّ أسبابه فحصل، وإن كان في غاية البعد عن الحصول، وقال الخطابي: اللطيف هو البرّ بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي إنَّ كونهُ لطيفاً في أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة فيكون عالماً بالوجه الذي يسهل تحصيل ذلك المطلوب وإن كان صعباً. وحكيم أي حاكم في قضائه حكيم في أفعاله مُبَرَّأ عن العبث والباطل(٩١١).

٤٥٦- توفني مسلماً وألحقني بالصالحين:

دعا يوسف ربه بما أخبرنا به بقوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾(٩١٢) أي أعطيتني بعضاً عظيماً من ملك مصر وعلمتني تعبير الرؤيا، ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما، ﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ ﴾ أي أنت ناصري ومالك أموري ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ أي توفني إذا حان أجلي على الإسلام ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من النبيين والمرسلين. دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما آثره الله به من العلم والملك، فسأل ربَّه عز وجل، كما أتمَّ عليه نعمته في الدنيا أن يحفظها عليه باقي عمره حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام وألحقه بالصالحين، فليس في دعائه تمنٍّ للموت ولا طلب له حالاً وإنما فيه تمني موته على الإسلام إذا حان أجله(٩١٣).

---

(٩١١) تفسير الرازي ج١٨ ص٢١٦.

(٩١٢) سورة يوسف الآية ١٠١.

(٩١٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٢، تفسير ابن عطية ج٨ ص٨٦-٨٧، تفسير القاسمي ج٩ ص٢٨١.

٤٥٧- قصة يوسف مما أوحاه الله لنبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾(٩١٤) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ لما قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوءِ والهلاك، فهذا وأمثاله يا محمد من أنباء الغيوب السابقة نوحيه إليك ونعلمُكَ به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي حاضراً عندهم ولا مشاهِداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به إذ حثوه على الخروج معهم، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم أي فلم تشاهده ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك(٩١٥).

٤٥٨- وما تسألهم عليه من أجر:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ ﴾(٩١٦). أي وما أكثر الناس ولو حرصت أي جهدت كل الجهد على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك، بمؤمنين(٩١٧) وما تسألهم عليه من أجر أي وما تسألهم على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجرة ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو، يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عظة لهم، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة. يعني أنَّ هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة، وأنتَ لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً ولاجعلاً، فلو كانوا عقلاءَ لقبلوا ولم يتمردوا(٩١٨).

٤٥٩- لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب:

أي كان في قصص يوسف وإخوته أو في قصص الأنبياء وأممهمْ عبرة وعظة

---

(٩١٤) سورة يوسف، الآية ١٠٢.

(٩١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٣.

(٩١٦) سورة يوسف الآيتان ١٠٣ و١٠٤.

(٩١٧) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٨٦.

(٩١٨) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٨٦.

لأصحاب العقول. ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي ما كان القرآن حديثاً يُختَلقُ ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي لكن هو تصديقُ الذي بين يديه أي ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والشرع والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٩١٩].

(٩١٩) تفسير القرطبي ج٩ ص٢٧٧.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة يوسف
للدعوة والدعاة

٤٦٠- أولاً - الكتمان والتحذير من شخص بعينه:

يبدو أن يعقوب عليه السلام كان على علم بتأويل الرؤى، يدلُّ على ذلك أنه لما سمع رؤيا ابنه يوسف علم ما تدل عليه من مكانة رفيعة سيصل إليها يوسف ولهذا منعهُ من أن يقص رؤياه على إخوته معللاً ذلك بخوفه عليه من كيدهم له، أي من احتيالهم في إهلاكه إذا سمعوا الرؤيا وعلموا ما تدل عليه، وبأنَّ الشيطان لعداوته للإنسان يغريهم على الكيد ليوسف ولو أنه أخوهم. وعلى هذا فينبغي للدعاة وللجماعة المسلمة كتمان الوقائع والفضائل عمن يُخشَى ضرره ولو كان قريباً أو صديقاً أو عضواً في الجماعة، لأنَّ يعقوب أوصى ابنه يوسف بكتمان خبر رؤياه عن إخوته في النسب لما كان يخافه من ضررهم المتعمد بيوسف، وقد يكون الضرر المخوف يتأتى من الشخص من غير قصد منه للإضرار، وإنما يصدر عنه جهلاً وغفلة وسذاجة كالذي يثرثر بما علمه من أسرار الجماعة وأخبار دعاتها وفضائلهم وأثرهم في نشر الدعوة فيتلقف ذلك الأعداءُ فيكيدوا للجماعة وللدعاة، فينبغي للدعاة وللجماعة أن يحذروا ذلك ويكتموا ما يستحسن كتمانه عمّن يُخشى ضرره المتعمد وغير المتعمد، كما يجوز لهم أن يحذروا أعضاء الجماعة من شخص أو أشخاص معينين، ولا يدخل ذلك التحذير في مفهوم الغيبة المحرمة؛ لأنَّ يعقوب حذّر يوسف أن يقصَّ رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً.

٤٦١- ثانياً - الحسد يحمل على قطيعة الرحم:

الحسد من أمهات الكبائر يقع حتى بين الأقارب بل إنَّ وقوعه فيما بينهم أقرب من وقوعه بين الأباعد، وإنه ليحمل صاحبه على الكذب وقطيعة الرحم وعقوق الوالد، وهذا ما حصل لإخوة يوسف: حملهم الحسد على الكذب، وعلى التفكير جدياً في

إبعاد يوسف عن أبيه ولو بقتله أو بتغييبه عنه، وإن كان فعلهم من أقبح صور قطيعة الرحم وعقوق الوالد ومعصية الله. فلْيفقهِ الدعاة ذلك وليحذّروا الناس في وعظهم وإرشادهم من الحسد، ولتحذّر الجماعة المسلمة أعضاءَها من هذا الداء المهلك: الحسد، فإنَّهُ قد يقع فيما بينهم، ويحمل صاحبه على إيذاء الجماعة لغرض إيذاء المحسود، ويلبس فعلَه لبوس الحرص على مصلحة الدعوة.

٤٦٢ - ثالثاً - لا بُدَّ من الامتحان والعاقبة للصابرين.

وليعلم الدعاة ويعلّموه للناس بأَنْ لا بد من الامتحان، امتحان الله عباده، بما يشاء ومتى يشاء وكيف يشاء، فقد امتحن الله يعقوب بفقد يوسف ثم بفقد أخيه وبفقد بصره. وامتحن يوسُفَ بإلقائه في الجبّ ثم بيعه كعبد رقيق - وهو الحرُّ الأصيل - وامتُحِن عليه السلام بامرأة العزيز ثم بالسجن.. والدعاةُ إلى الله أكثر من غيرهم امتحاناً، لأنَّهم يفعلون ما يغيظ أهل الباطل وحزبَ الشيطان فيتعرضون لكيدهم وإيذائهم، ولكنَّ العاقبة دائماً للمتقين الصابرين، فقد جمع الله بين يعقوب وابنيه يوسف وأخيه، وردّ الله إليه بصره، ومن قبل هذا أخرج الله يوسف من الجب ثم عصمه من مراودة المرأة له، ثم أخرجه من السجن ثم جعله متصرفاً في أقوات مصر.. وكل ذلك كان بعضَ آثار الصبر الجميل القائم على تقوى الله من يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام. فما على الدعاة إلاَّ الصبر الجميل لما يلاقونه في سبيل الله موقنين بأنَّ العاقبة دائماً وأبداً للمتقين الصابرين.

٤٦٣- رابعاً - يوسف هو القدوة في العفّةِ:

على الدعاة أن يذكّروا الناس لا سيما الشبابَ منهم بموقفِ يوسف عليه السلام من امرأة العزيز إذ راودته عن نفسه، وكيف أنه استعصم وأبىٰ ورفض ما أرادته منه مع توافر الدواعي وقوتها الدافعةِ إلى إجابة طلبها، فمن هذه الدواعي التي تجاوزها يوسف عليه السلام واستعلى عليها أنه عليه السلام كان شاباً عزباً وفي بلاد غربة، وأنّهُ رقيق في بيت سيده، وأنَّ المرأة هي التي طلبته وراودته عن نفسه، والشأن في المرأة أن تكون هي المطلوبة لا الطالبة، وكانت ذاتَ منصبٍ وجمالٍ، وراودته في

بيتها وهي وحيدة ليس في الدار غيرها وغيره، واتخذت الوقاية فغلّقت الأبواب، وكان هو مملوكها فرفض طلبها، ثم استعانت عليه بالنساء الماكرات، ثم هددته بالسجن إن لم يطاوعها على فعل الفاحشة بها، ومع هذا كله رفض رفضاً قاطعاً ورفع شعاره الذي يجب أن يكون حاضراً في ذهن كل شاب ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾.

إن هذه الصورة المشرقة العالية جداً في العفة والاستعلاء على الرذيلة يجب أن تكون حاضرةً في الأذهان لا سيما أذهانِ الشبابِ وأَن يتذكروها ولا ينسوها ويستحضروها كلما أحسوا بتزيين الشيطان لهم فعلَ الفاحشة أو الاقتراب منها، وكلما انجذبوا نحو صورة جميلة في مجلةٍ أو على شاشة التلفاز أو مرّت من أمامهم فتاة أو وقعتْ في أيديهم مجلة خليعة من هذه المجلات التي فشت وانتشرت في البلاد الإسلامية.

٤٦٤- خامساً - شعار المسلم السجنُ أحب إليَّ مما يدعونني إليه:

قلت: إنَّ يوسف قال قولة عظيمة هي شعاره في تلك المحنة التي وقع فيها في بيت امرأة العزيز. وهي: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وذلك أنَّ امرأة العزيز هددته بالسجن إن لم يجب طلبها ويفعلْ معها الفاحشة، وأعانها على ذلك صواحبُها - وهنَّ النسوة اللائي جئن إليها بدعوة منها - والظاهر أنهنَّ أردن منه ما أرادته منه امرأة العزيز بدليل قول يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ فلم تنفرد امرأة العزيز بدعوتها الآثمة منه، وإنما اشتركن معها في هذه الدعوة الفاجرة، ومع هذا أصرّ يوسف على رفضه وأعلن بأنَّ السجن أحب إليه من دعوتهن له ومن إجابة هذه الدعوة.

وهكذا يجب أنْ يكون شعار الداعية وشعار كل مسلم إذا وجد نفسه أمام أحد خيارين: إما سعة العيش ومتعُ الدنيا ولكن عن طريق معصية الله تعالى، وإما رفض ذلك مع ما سيلقاه - نتيجة هذا الرفض - من خشونة العيش وضيق الدنيا وتحمُّلِ الأذى بجميع أنواعه، ومنه دخول السجن أو الإبعادُ في سبيل استمساكه بمقتضيات الدعوة ومتطلبات الإيمان، أقول: على الداعية إذا وُجِدَتْ نفسُه أمام هذا الاختيار الصعب أن لا يتردد في اختيار طاعة الله، والاستمساك بمقتضيات الدعوة ومتطلبات

الإيمان وأنْ يهتف بلسانه وقلبه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ فعلى الدعاة أن يفقهوا مدلولَ هذا الشعار ونظامه وما يذكّر الداعية به، كما أنَّ عليهم أن يفهموا الناس مدلول هذا الشعار، ويضربوا لهم الأمثال حتى يرسخ في نفوسهم فيقولوا لهم مثلاً إذا عرض أهل الباطل على أحدهم مالاً وفيراً - رشوةً له - ليقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، فليتذكر هذا الشعار فيرفض المعروض عليه من المال، ولو كان هو موظفاً محتاجاً، وإذا كان من ولاة الأمور، وعُرِض عليه الأموال الطائلة على أن يخون أمانة الحكم والبقاء في السلطة، فعليه أن لا يتردد في الرفض وليقل بلسان المقال ولسان الحال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وإن كان رفضه هذا سيؤدي به إلى الاتهام الباطل بما هو بريءٌ منه أو إلى إلقائه بالسجن أو نفيه خارج البلاد. فالشعار هذا لا يقتصر على رفض الفاحشة، وإنما يمتد ويشمل جميع معاصي الله إذا دعي إليها الداعية أو أيُّ مسلم وإلاّ هُدِّد بالأذى وبالسجن.

٤٦٥- سادساً - الداعي، يدعو إلى الله في جميع حالاته:

إن الدعوة إلى الله تعالى واجب شرعي، وهي من وظائف رسل الله، ولكن أراد الله تعالى تكريم وتشريف المسلم فكلفه بما كلف به رسله، وهو الدعوة إلى الله. وأداءُ هذا الواجب الشرعي ليس له وقت محدد كواجب الصلاة، وإنما يجب القيام به كلما أمكن ذلك، ولذلك لما دخل السجنَ مع يوسُفَ فتيان، وقد رأى كل منهما رؤيا وطلبا من يوسف تأويلهما، اغتنم يوسف هذه الفرصة ودعاهما إلى الله تعالى قبل أن يجيبهما إلى ما طلباه من تأويل رؤياهما، ولم يشغله السجن وضيقُهُ عن الدعوة إلى الله، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الله لا يشغلهم شيء عن الدعوة، حتى لو وقعوا في ضيق، فإنَّ ما يشغلهم هو الدعوة وليس الضيق الذي وقعوا فيه، وهكذا كان نبينا ﷺ لا يشغله إلاّ أمر الدعوة في جميع حالاته، فعندما هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[٩٢٠]. وهذا يدل على أنّهُ ﷺ لم يَغْفُلْ عن الدعوة حتى وهو في طريقة مهاجراً إلى المدينة والقوم يطلبونه، وهكذا يجب أن يكون الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر إلاّ بها،

---

(٩٢٠) إمتاع الأسماع للمقريزي ص١٨.

ولا يتحرك إلاَّ من أجلها، ولا يبخل عليها بشيءٍ من وقته وجهده، لا يشغله عنها شاغل حتى في أحرج الساعات، وأضيق الحالات، وأدق الظروف وأصعبها، وحتى عند ابتلائه بالمصائب والنكبات.

٤٦٦- سابعاً - العفو عند المقدرة:

لقد عفا يوسف عن إخوته وقد فعلوا فيه ما لا يفعله العدو بعدوه، ألقوه في غيابة الجب ولم يمنعهم من ذلك صِغَرُ يوسف وتعلقُ أَبيهم به وعدم صدور أي إساءةٍ منه لهم، عفا عنهم وهو في مقام السلطة والقدرة وهم في مقام الذلة والضعف، ولما اعترفوا بذنبهم بعد أن عرّفهم بنفسه بأَنْ ذكّرهم بما فعلوه بيوسف، قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع عليكم اليوم، ثم زادهم تكريماً بأَنْ دعا لهم بالمغفرة لما فرط منهم بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ تحقيق لحصول المغفرة لأنه عفا عنهم، فالله هو أولى بالعفو والرحمة لهم[٩٢١]. هذا وإنَّ تجاوَزَ يوسُفَ عن ذنب إخوته يعلّمنا أن نغفر لمن يسيء إلينا ونحسن إليه، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك وأن يعفو بعضُهم عن بعض إذا صدرت منه إساءة لأخيه في الإسلام وزميله في العمل في الجماعة المسلمة.

٤٦٧- ثامناً - تمني الموت:

في قول يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنَّ هذا الدعاءَ من يوسف عليه السلام يحتمل أنه قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول: «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً. ويحتمل أنَّ يوسُفَ بدعائه هذا سأل الوفاة على الإسلام واللّحاقَ بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره لا أنه سأل ربه الوفاة منجزاً. وعلى كلٍ فإنه لا يجوز للمسلم في شريعتنا أن يتمنى الموت حالاً لضُرٍ نزل به، وفراراً من الحياة، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك فلا يطلبوا الموت، لأذى يصيبهم أو ضر يلحق بهم بسبب الدعوة أو بسبب غيرها، وإنما لهم أن يسألوا الثبات على الإسلام

---

(٩٢١) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٧٢-٢٧٣

والموت عليه، جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنَيَنَّ أحدُكُمُ الموتَ لضرّ نزل به، فإن كان ولابدَّ متمنياً الموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، وأخرجه البخاريُّ ومسلم، وعندهما: «لا يتمنَيَنَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به، إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب، ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذ كانت الوفاة خيراً لي». ولكن إذا ما نزل بالمسلم فتنةٌ في الدين يخاف أن لا يتجاوزها، فيجوز له تمني الموت وحصولُه له حالاً كما فعل السحرةُ لمّا تهددهم فرعون بالقتل إن لم يرجعوا إلى دينهم ويتركوا إيمانهم بموسى ودينه، قال تعالى عما قالوه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾. فعنْدَ حلول الفتنة في الدين يجوز سؤالُ الموت، يدلُّ على ذلك أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت، والموت خير للمؤمن من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقلُّ للحساب»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلّا شدة فقال: (اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني). وفي حديث عن رسول الله ﷺ جاء فيه: «إنَّ الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانَكَ» لما يرى من الفتن والزلازل والأمور الهائلة التي يخشى فيها المؤمن على إيمانه فيتمنى الموت لينجو بإسلامه[٩٢٢].

٤٦٨- تاسعاً - الأخذ بالأسباب والتوكل على الله في بلوغ الغايات:

أمر يعقوب عليه السلام بنيه بأنْ لا يدخلوا مصر من بابٍ واحدٍ بل من أبواب متفرقة؛ لئلا يصيبهم مكروهٌ إمّا بإصابتهم بـ(العين) وهو قول جمهور المفسرين كما ذكرنا من قبل، وإمّا أن يُظَنَّ بهم أنهم جواسيس وجاؤوا يريدون شراً بمصر، فيخافهم مِلكُ مصر على ملكه فيحبسهم[٩٢٣]. وعلى أي التفسيرين حملنا وصية يعقوب لبنيه بالدخول من أبواب متفرقة فهو يدل على أخذ يعقوب عليه السلام

---

(٩٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٩٢-٤٩٣، تفسير القرطبي ج٩ ص٢٦٩.

(٩٢٣) تفسير الرازي ج١٨ ص١٧٢، ١٧٤.

بالأسباب إلاَّ أنه قال لهم بعد أن أمرهم بذلك: ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ ﴾ وهذا إشارة منه إلى عدم الالتفات إلى الأسباب، أو التعلق بها والاعتماد عليها، والاعتقاد بأنَّ مجرَّدَ الأخذ بها يوصل حتماً إلى تحصيل المقصود منها، ذلك أن الأمور مرجعُها إلى الله تعالى فلا يقع في الكون إلاَّ ما قدّره ويقدره الله تعالى، وما يقضي به، وإنَّ الأسباب لا تفضي إلى مسبباتها إلاَّ بإزالة الموانع عن إفضائها إلى هذه المسببات بقضاء الله ومشيئته، فالاعتماد ينبغي أن يكون على الله - وهو أمر قلبي - وليس على مباشرة الأسباب، ولهذا قال لهم يعقوب: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وعلى هذا يجب على الدعاة أن يبذلوا كل جهدهم في مباشرة الأسباب المشروعة في تحقيق أغراضهم في دعوتهم، ولكنَّ اعتمادهم في نجاحهم في دعوتهم وبلوغ غاياتهم فيها، يكون هذا الاعتماد على الله تعالى وحده وليس على الأسباب.

٤٦٩- عاشراً - مدح النفس وطلب الولاية:

الأصل أن لا يمدح المسلم نفسه، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[٩٢٤] ولا يطلب الولاية لنفسه، ولهذا من قواعد الفقه (طالب الولاية لا يُولَّى)، ويدل على هذه القاعدة حديثُ البخاريّ الذي أخرجَهُ في صحيحه عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أَمِّرْنا يا رسول الله، وقال الآخر مثلَه، فقال النبي ﷺ: «إنّا لا نولّي هذا مَنْ سَأَلَهُ ولا من حرص عليه»[٩٢٥]. وإذا كان الأصل ما ذكرناه فإنَّ الاستثناء جوازه أي جواز الأمرين: مَدْحُ الإنسان المسلم نفسه وطلب الولاية لنفسه، على أنْ يكون لهذا الاستثناء مبرر شرعي مثل تحقيق مصلحة للمسلمين أو دفع ضَرَر عنهم، أو إقامة العدلِ بين الناس ونحو ذلك، وقد نستأنس لذلك بمدح يوسف عليه السلام نَفْسَهُ بذكر بعض صفاته ومزاياه، وبطلبه ولاية توزيع الأقوات على الناس. قال تعالى مخبراً عما قاله يوسف عليه السلام للملك - ملك مصر - بعد أن أخرجه من السجن: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ أي ولّني

---

(٩٢٤) سورة النجم الآية ٣٢.

(٩٢٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٣ ص١٢٥.

خزائن أرضك يعني جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح. فيوسف عليه السلامُ مدح نفسه وطلب الولايةَ لنفسه - ولاية جمع الغلات وتوزيعها على الناس - وذكر عن نفسه أنَّهُ خازنٌ أمينٌ وعليم أي ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وإنما قال ذلك يوسف عليه السلام لعلمه بقدرته على ما يتولاه، ولما فيه من المصالح للناس، فيجوز للمسلم أن يفعل ذلك فيمدح نفسه بذكر صفاته وكفاءاتِهِ على العمل الذي يطلب الولاية عليه إذا وجد في ذلك مصلحةً شرعيةً. وفي تعليلِ طلب يوسف الولاية على خزائن الأرض ومَدْحِ نفسه ببيان قدرته على هذه الولاية، قال الزمخشري: (وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، ولعلمه أَنَّ أَحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحبّ المُلْك والدنيا)[٩٢٦] فهذه الآية أصلٌ في جواز مدح الإنسان نفسه، وفي طلب الولاية لنفسه لمصلحة شرعية إذا كان واثقاً من نفسه بالقدرة على القيام بحقوق هذه الولاية ومتطلباتها[٩٢٧].

٤٧٠- سؤال وجوابه:

وقد يقال: كيف جاز ليوسف أن يتولى عملاً من يد كافِر وهو ملكُ مصر، وكيف يكون تبعاً له بقبوله أو بطلبه هذه الولاية؟ والجواب: روي عن مجاهد أنَّ المَلِكَ كان قد أسلم، وقيل كان الملك يصدر عن رأي يوسُفَ ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان الملك هو في حكم التابع والمطيع ليوسف، وعن قتادة قال: ما فعله يوسف من طلبه الولاية من الملك الكافر دليل على أنَّهُ يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السّلَفُ يتولون القضاء من جهة البغاة. وعلى هذا إذا علم العالِمُ أَنَّهُ لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلاّ بتمكين من الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به ويستعين به[٩٢٨].

---

(٩٢٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٨٢.

(٩٢٧) تفسير القاسمي ج٩ ص٢٤٣.

(٩٢٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٨٢.

٤٧١- للداعي أن يبين كفاءته ويطلب ولاية في نظام كافر:

وبناء على ما تقدم يجوز للداعي أن يبين كفاءته وقدرته على عمل معين، ويبديَ رغبته أو استعداده لعمل معين في الجماعة المسلمة، ولا يَقْدَحُ ذلك في إخلاصه واستمساكه بمعاني الشرع. كما يجوز للداعي أن يتولى وظيفة معينة في ظل نظام كافر أو سلطان جائر إذا رأىٰ مصلحةً شرعية في تولي هذه الوظيفة كإحقاقِ حق أو إقامةِ عدل، أو دفع ضرر عن المسلمين.

٤٧٢- أَحَد عشر - حرمة اليأس من رَوْحِ الله:

إنَّ مصائب الدنيا وشدائدها كثيرة، والداعي يلاقي غالباً مصاعب ومصائب وأذى وشدائد، فعليه أن لا ييأس من رحمة الله وفرجه وكشف الضر عنه وتسهيل الشدائد عليه، وليعلم بأن لا سهل إلاّ ما سهلّه الله، وهو تعالى يجعل الصعب سهلاً، وهو الذي يكشف الضُرَّ عن عبده، ولهذا أمر يعقوب عليه السلام بنيه أَنْ لا ييأسوا من رحمة الله وفرجه، أمرهم بذلك عندما طلب منهم البحث عن يوسف وأخيه وتسقّط أخبارهما، فقال تعالى حكاية عما قاله يعقوب لبنيه: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٩٢٩] أي أَنَّ يعقوب عليه السلام أَمَرَهُمْ أن لا ييأسوا من رَوْحِ الله أي من رحمته وفرجه وفضله، وأنْ لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنّه لا يقطع الرجاءَ ولا ييأس من رحمة الله إلاّ القوم الكافرون[٩٣٠].

٤٧٣- اثنا عشر - ضرورة الصبر للدعاة:

إنَّ قصة يوسف ترينا حسن عاقبة الصبر الجميل، فقد صبر يوسف على ما أصابه من كيد إخوته، وما تبع ذلك من بيعه رقيقاً في مصر وهو الحر الأصيل، ثم امتحن بمراودة امرأة العزيز، ثم بإدخاله السجْنَ ولبثه فيه بضع سنين، وهو في كل هذه البلايا صابر، وصابر أيضاً على ما يحسه من ألم لما يعلمه من ألم أبيه على فراقه، وامتحن الله يعقوب بفقد ابنه الحبيبِ يوسف ثم بفقد أخيه وفقد بصره، وهو في ذلك

---

(٩٢٩) سورة يوسف الآية ٨٧.

(٩٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨٨، تفسير الرازي ج١٨ ص١٩٩.

صابر محتسبٌ يردد بلسانه وبقلبه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ ولا يشكو حزنه وما يحسّ به إلاَّ إلى الله ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم جاء الفرج بعد الشدة، حيث جمع الله يعقوب بابنه يوسف وبأخيه وببقية أبنائه، وردّ عليه بصره، وكلُّ ذلك عاقبة الصبر الجميل، كما قال يوسف لإخوته بعد أنْ عرفوه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي أجرهم، أَجْرَ المتقين والصابرين، الذين وصفهم بالمحسنين، فعلى الدعاة أن يتحلّوْا بالصبر الجميل الذي لا شكوى فيه، فإنَّ عاقبة الصبر الظفر بالمطلوب وإن طال انتظاره، فإنَّ زوال الشدة عن يُوسَف وأبيه لم يحصل إلاّ بعد عشرات السنين، فلا يجوز أن يستعجل الدعاة بلوغ الغاية والظفر بالمطلوب، فإنَّ الأمر بيد الله، وكل ما عليهم هو أن يثقوا تماماً بأنَّ العاقبة للصابرين، ولا يشترط في هذه العاقبة أنْ تكون عاجلةً كما رأينا في عاقبة يوسف وأبيه.



الفصل الحادي عشر

قصة موسى عليه السلام

المبحث الأول

نشأة موسى إلى بعثته

٤٧٤- موسى تلقيه أمه في البحر خوفاً من فرعون:

كان فرعون مصر يقتل الذكور من بني إسرائيل حين ولادتهم، فلما ولد موسى خافت عليه أمه من القتل، فألقى الله في قلبها أن ترضعه فإذا خافت عليه فعليها أن تلقيه في اليم، أي في البحر وهو نهر النيل، وهكذا فعلت إذ وضعته في تابوت وألقته في نهر النيل، فالتقطه بعض جواري فرعون، فاحتملنه وذهبن به إلى إمرأة فرعون، فلما فتحت التابوت رأت طفلاً من أحسن الخلق وأجمله، فأوقع الله محبتَهُ في قلبها، فكان عاقبة التقاطه ليكون لهم عدواً وحزنا، فأراد فرعون قتله فمنعته زوجته وجادلت عنه وقالت: قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا إذا كبر أو نتخذه ولداً؛ لأنَّهُ لم يولد لها من فرعون ولد، وهم لا يشعرون أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة(٩٣١)، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٩٣٢).

٤٧٥- فرددناه إلى أمه كي تقرعينها:

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ

---

(٩٣١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٠-٣٨١.

(٩٣٢) سورة القصص الآيات ٧-٩.

قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٩٣٣). والمعنى أنَّ فؤاد أم موسى أصبح فارغاً أي من كل شيء من أمور الدنيا إلاّ من موسى، إن كادت من شدة حزنها على ابنها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أنَّ الله ثبتها وصبرّها لتكون من المؤمنين، أي المصدّقين بوعد الله وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ وقالت لأخته: قصّيه، أي اتبعي أثره لتنالي خبره فَبَصُرَتْ به عن بُعدٍ وهم أي آل فرعون لا يشعرون أنها تعرف حاله. وحرّمنا عليه المراضع من قبل تتبع أثره من قبل أخته، فلم يأخذ ثدي أي مرضعة، فخرجوا به لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، فلما رأتهم حائرين فيمن ترضعه ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فذهبوا معها إلى منزل أم موسى فدخلوا به عليها، فقبل ثديها ففرحوا بذلك، وأخبروا امرأة فرعون بذلك، فاستدعت أمَّ موسى لترضعه عندها، فأبت إلاَّ أنْ ترضعه في بيتها، فقبلت امرأة فرعون بذلك وتركت موسى عند أمه لترضعه، وهكذا ردّ الله تعالى موسى إلى أمه؛ لتقر به عينها ولا تحزن عليه ولتعلم أنَّ وعد الله في رده إليها حق(٩٣٤).

٤٧٦- موسى يقتل قبطياً:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾(٩٣٥) والمعنى لما بلغ موسى شِدَّةَ البدن واستوى أي تكامل عقله وحَزْمُهُ وذلك ببلوغ الأربعين من عمره آتاه الله حكماً أي حكمة وعلماً أي معرفة بشرع

---

(٩٣٣) سورة القصص الآيات ١٠-١٣.

(٩٣٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨١-٣٨٢.

(٩٣٥) سورة القصص الآيتان ١٤، ١٥.

إبراهيم عليه السلام وهي مقدمات النبوة[٩٣٦].

ودخل موسى المدينة - مدينة من مدن مصر - في وقت القائلة وهو وقت الغفلة حيث أنَّ الغالب نوم الناس في هذا الوقت، فوجد في المدينة رجلين يتنازعان، أحدهما من شيعة موسى أي من بني إسرائيل، والآخر قبطي من قوم فرعون، فاستغاثه الذي من شيعته أي طلب منه العون والنصرة على خصمه لأنه كان مظلوماً ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضربه بِجمْعِ كفه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي فقتله، وما كان يريد قتله وإنما كان يريد دفع ظلمه، فقال موسى هذا أي قتل القبطي من عمل الشيطان أي من إغوائه[٩٣٧].

٤٧٧- موسى يستغفر ربه مما فعله:

ندم موسى على ما صدر منه واعتبر قتل القبطي الكافر من عمل الشيطان وبأنّه ظُلم لنفسه، فاستغفر ربه من ذلك فغفر له، قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[٩٣٨] وإنما اعتبر موسى قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه، لأنه قتله قبل أن يُؤذَن له في القتل، فكان ذنباً يُستَغفر منه، وإنْ كان غير مُتعمَد[٩٣٩]. لأَنَّ الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم، بل إن موسى عليه السلام لم يزل يعدد ذلك على نفسه مع علمه أنه قد غُفِرَ له، حتى إنه في يومِ القيامة يقول: (إني قتلت نفساً لم أُؤمر بقتلها) كما جاء في حديث الشفاعة[٩٤٠].

٤٧٨- موسى يعاهد ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين:

قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

---

(٩٣٦) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٣.

(٩٣٧) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٥٩-٢٦١.

(٩٣٨) سورة القصص الآية ١٦.

(٩٣٩) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٩٨.

(٩٤٠) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٦، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦١.

﴿لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾[941] قال الإمامُ ابن عطية في تفسيره لهذه الآية: (ثم قال موسى عليه السلام معاهداً لربه عز وجل: ربِّ بنعمتك عليَّ وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألّا أكون معيناً للمجزمين)[942] . وقد احتجَّ أهل الفضل والعلم بهذا الآية في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيءٍ من أمورهم، ورأوا أنَّ هذه الآية تتناول ذلك، وهذا ما ذهب إليه الفقيه التابعي عطاء بن أبي رباح فقد رويَ عنه قوله: (لا يحلُّ لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين)[943] .

٤٧٩- فرعون يريد قتل موسى لقتله القبطي:

قال تعالى عن موسى بعد أن قتل القبطي: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾[944] . أي أصبح موسى خائفاً من قتل القبطي أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي يتلفت من الخوف ينتظر الطلب وينتظر ما يتحدث به الناس، فإذا بصاحبه الإسرائيليِّ الذي خلصه بالأمس يخاصم قبطياً آخر ويستغيث بموسى لينصره على القبطي، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ أي ظاهر الغواية كثير الشرّ تخاصم من لا تستطيع دفع شره عنك. ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيليُّ لخوره وضعفه وذلّته أنَّ موسى إنما يريد البطش به لما سمعه يقول له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ فقال يدافع عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، فلما سمعها ذلك القبطي ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده، فعلم فرعون بأنَّ موسى هو الذي قتل القبطيَّ فاشتد غضبه عليه وأراد قتله، فبعث إليه من يحضره عنده للقتل[945] .

---

(٩٤١) سورة القصص الآية ١٧ .

(٩٤٢) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٦ .

(٩٤٣) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٣، تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٧ .

(٩٤٤) سورة القصص الآيتان ١٨و١٩ .

(٩٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٣، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٤-٢٦٥ .

٤٨٠- خروج موسى من مصر فراراً من فرعون:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾(٩٤٦) والمعنى: وجاء رجل، وهو عند أكثر المفسرين، مؤمنُ آل فرعون، لما علم بنيّةِ فرعون ومن معه من الملأ قتل موسى جاء مسرعاً إلى موسى وقال له: إنَّ الملأ يتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس، فاخرج إني لك من الناصحين، فخرج موسى من مصر خائفاً ينتظر الطلب، وأفلت من القوم فلم يجدوه، وخرج بحكم فزعه إلى الطريق إلى مدين، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام، وكان موسى عليه السلام لا يعرف الطريق ولم يصحب أحداً، واثقاً بالله متوكلاً عليه، ولم يكن معه زادٌ ولا راحلة. ولما رأىٰ حاله وعدم معرفته بالطريق أسند أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي فلا يلحقني فيه الطالبون(٩٤٧).

٤٨١- وصول موسى إلى ماء مدين وما جرى له عنده:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾(٩٤٨) والمعنى: لما وصَل موسى ماء مدين، وهو ماؤهم الذين يستقون منه، وكان بئراً فيما روي، وجد عليه جماعة كثيفة العدد من أناس مختلفين، ووجد من دونهمْ في مكانٍ أسفل من مكانهم امرأتين تذودان، أي تمنعان غنمهما عن الماء، فلما رآهما موسى عليه السلام رقَّ لهما ورحمهما ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما خبَرُكما وشأنكما لا تسقيان غنمكما مع هؤلاء؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ أي لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء -جمع راعٍ - عن الماء ويخلو منهم، أي لا يتيسر لنا سقي إلاّ بعد فراغ هؤلاء الناس من سقي أغنامهم وصرفها عن الماء، عجزاً

---

(٩٤٦) سورة القصص، الآيات ٢٠-٢٢.

(٩٤٧) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠١.

(٩٤٨) سورة القصص الآية ٢٣.

منا عن مدافعتهم وحذراً من مخالطتهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي فيعجزُ عن الخروج والسقي، أي ما لنا رجل يقوم بذلك إلا هو، وقد أضعفه الكبر أن يباشر أمر غنمه، فاضطرنا الحال إلى ما ترى من الانتظار حتى يفرغ الرعاء من سقي أغنامهم وينصرفوا وأغنامهم عن الماء، فنستطيع عند ذلك سقيَ أغنامنا بعدهم، فلا بد لنا من التأنيَ والانتظار ولو نتأخرو يطول انتظارنا(٩٤٩).

٤٨٢- موسى يساعد المرأتين على سقي غنمهما:

وبعد هذه المحاورة من موسى مع المرأتين اللتين وجدهما عند ماء مدين وهما تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء، قام موسى بما أخبرنا به الله تعالى بقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٩٥٠). أي فسقى موسى غنمهما لأجلهما من غير أجر ثم تحول إلى ظل شجرة صغيرة الورق كما روىٰ ابن مسعود رضي الله عنه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي محتاجٍ، وقد روى سائر المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله حيث لم يذق طعاماً منذ أيام، فالخير في هذه الآية بمعنى الطعام، ويأتي بمعنى المال كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾(٩٥١).

٤٨٣- سؤال وجوابه:

وقد يقال كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي غنمه؟ والجواب أنَّ هذا السقي في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه وأما المروءة ومكارم الأخلاق فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة(٩٥٢).

٤٨٤- شعيب يدعو موسى للمجيء إليه:

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ

---

(٩٤٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٣، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠١.

(٩٥٠) سورة القصص، الآية ٢٤.

(٩٥١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٨٧، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٩-٢٧٠.

(٩٥٢) تفسير الكشاف ج٣ ص٤٠١-٤٠٢، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٩.

﴿مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[953]. والمعنى، لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعله موسى عليه السلام من قيامة بالسقي لهما، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مستحيية شديدة الحياء قد سترت وجهها، بكمّ درعها كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ فأجاب موسى دعوة أبيها، وقال لها: امشِ خلفي وانعتي لي الطريق، فلما وصل إلى شعيب عليه السلام وقصَّ عليه قصته قال له: لا تخف نجوت من القوم الظالمين فلا سلطان لفرعون في أرضنا[954].

٤٨٥- سؤال وجوابه:

وقد يقال: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأخذ بقول امرأة وهو قولها: إنَّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا؟ وأيضاً كيف ساغ له أن يمشي معها وهي أجنبية منه؟ والجواب: أما أخذه وعمله بقول امرأة فهذا كما يأخذ ويعمل بقول الواحد في الأخبار حراً كان المخبر أو عبداً، ذكراً كان أو أنثى، وما كانت ابنة شعيب إلَّا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه أجر ما سقىٰ لهما. وأما مماشاته امرأة أجنبية فهذا لا بأس به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع من قبل المرأة ومن قبل موسى عليه السلام[955].

٤٨٦- إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين:

قال تعالى حكاية عن قول ابنة شعيب لأبيها: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[956]. أي لرعي هذه الغنم، إنَّ خير من أردت جعله أجيراً القوي على العمل المؤتمن فيه[957]. وهذا الكلام من ابنة شعيب كلام حكيم

---

(٩٥٣) سورة القصص، الآية ٢٥.

(٩٥٤) تفسير الكشاف للزمخشري ج٣ ص٤٠٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٤.

(٩٥٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٠٣.

(٩٥٦) سورة القصص الآية ٢٦.

(٩٥٧) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٢.

جامع لا يزاد عليه، لأنَّهُ إذا ضُمِنَتْ هاتان الخَصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك من القلق وتم مرادك في الاطمئنان على حقك، لأنَّ أمرك بيدٍ قوية أمينة(٩٥٨)، ولما وصفت ابنة شعيب موسى بالقوة والأمانة قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا منه؟فقالت: أما قوته ففي رفع الصخرة عن البئر ليسقي لنا غنمنا، وأما أمانته ففي طلبه مني أن أسير خلفه، فإذا اختلف عليه الطريق قال لي: فارم لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه(٩٥٩). وما أحسن ما أخذ عمر بن الخطَاب رضي الله عنه هذا المعنى فقال: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي، ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن ييسر له من يجمع الوصفين: القوةَ والأمانة ليستعين به في إدارة شؤون دولته(٩٦٠).

٤٨٧- شعيب يعرض ابنته على موسى ليتزوجها:

قال تعالى مخبراً عما قاله شعيب لموسى عليهما السلام: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾(٩٦١) ولما سمع شعيب قول ابنته في موسى من القوة والأمانة عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى غنمه ثماني سَنين، فإنْ تبرع بزيادة سنتين فهذا له، وإلاَّ ففي الثماني كفاية. فقال موسى: أيما المدتين قضيت فلا حرجَ عليّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي شاهد وحفيظ(٩٦٢).

٤٨٨- عرض الرجل ابنته على الرجل الصالح سنة قديمة وقائمة:

ويستفاد من قول الله تعالى حكاية عن شعيب: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ . . ﴾ جواز أن يعرض الرجل ابنته أو من هي تحت ولايته على الرجل

---

(٩٥٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٠٣.

(٩٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٥، تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٨٩.

(٩٦٠) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٣.

(٩٦١) سورة القصص الآيتان ٢٧،٢٨.

(٩٦٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٥، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٣.

الصالح ليتزوجها، ولا غضاضة في ذلك، فعله شعيب، وفعله الصالحون من أمّةِ محمد ﷺ، مما يدل على أنَّ هذا الأمر سُنَّةٌ قديمة وهو سنّة قائمة في الشريعة الإسلامية، فقد أخرج الإمام البخاريُّ في صحيحه أنَّ عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على عثمان بن عفان ولما لم يبدِ رغبة في نكاحها، قال عمر: فلقيت أبا بكر فقلت: إن شئتَ زوّجْتُكَ ابنتي حفصة فصمت أبو بكر فلم يُرْجِعْ إليّ شيئاً فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنحكتُها إياه.. الخ. وجاء في شرح هذا الحديث «وفيه عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه وأنه لا استحياء في ذلك»[٩٦٣].

٤٨٩- خروج موسى بأهله من مدين:

قال تعالى عن موسى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٩٦٤]. والمعنى: لما قضىٰ موسى الأجل المتفق عليه، وهو ثماني سنين أو عشر، وإنه اختار الأكمل منهما، سار بأهله خارجاً من مدين متوجهاً إلى مصر، فأبصر ناراً فقال لأهله: ابقوا هنا فأني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر عن الطريق من ضوئها أو ممن عندها، أو جذوةٍ من النار، أي قطعة منها لعلكم تصطلون أي تستدفئون بها[٩٦٥].

٤٩٠- تكليم الله لموسى:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ

---

(٩٦٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٩ ص١٧٥-١٧٨.

(٩٦٤) سورة القصص الآية ٢٩.

(٩٦٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٧.

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾(٩٦٦) والمعنى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَـٰهَا ﴾ يعني أتى موسى الشجرة، قدم ضميرها عليها، ﴿ نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ﴾ أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة ﴿ ٱلْأَيْمَنِ ﴾، أي عن يمين موسى. وقيلَ عن يمين الجبل ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ ﴾ وبركة البقعة هي ما خصت به من آيات الله تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أي من ناحية الشجرة، وهذا يقتضي أَنَّ موسى عليه السلام سمع ما سمع من كلام الله من جهة الشجرة، أي أنَّ الله تعالى كلّم موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من ناحية الشجرة على ما شاء الله تعالى(٩٦٧).

٤٩١- ما كلّم الله به موسى:

وجاء في كلام الله تعالى لموسى: ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو الله ربُّ العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا ربَّ سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله(٩٦٨).

وقال تعالى لموسى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾.

والمعنى أنَّ الله تعالى أمر موسى بإلقاء العصا فألقاها، فانقلبت حيّة عظيمة ولها اضطراب الجانّ ولها صفير الحيات، فجمعت هول الثعبان ونشاط وسرعة حركة الجانّ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أي أعرض موسى بوجهه عنها جاعلاً ظهره إليها وهو فزع خائف منها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع من توليه، فقال الله تبارك وتعالى له: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ وهذا من تأمين الله تعالى إياه، فرجع موسى ووقف في مقامه الأول. ثم قال الله تعالى له: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي

---

(٩٦٦) سورة القصص الآيات ٣٠-٣٢.

(٩٦٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٩٦، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٨١-٢٨٢.

(٩٦٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨.

أدخل يدك في جيبك وهو فتح الجبة من حيث يخرج رأس الإنسان، تخرج بيضاء من غير برص أو عيب، أي إذا أدخلتَ يدك في جيب درعك ثم أخرجْتَها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي من غير برص ونحوه من العيوب ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ والجناح اليد، والرهب الخوف، والمعنى: إذا هالك أي إذا أخافك أمر يدك وشعاعها فأدخلها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت. وقيل: أمره الله تعالى أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية، وقال ابن كثير: والظاهر أنَّ المراد أعم من هذا وهو أنَّ الله تعالى أمر موسى عليه السلام إذا خاف من شيءٍ أن يضم إليه جناحه أي يده فيضعه على صدره، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحدٌ ذلك على سبيل الاقتداء بموسى عليه السلام فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده من الخوف إن شاء الله تعالى، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما(٩٦٩).

قوله تعالى مخاطباً موسى: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ يعني إلقاءَ العصا وجعلها حية تسعى، وإدخالَه يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله تعالى الفاعل المختار وعلى صحة نبوة موسى، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أي وقومِهِ من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه(٩٧٠).

٤٩٢- ما قاله موسى لربه تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾(٩٧١) لما أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون وهو الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته قال موسى

(٩٦٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٨٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨، تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٩٧، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠٥.

(٩٧٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨.

(٩٧١) سورة القصص الآيتان ٣٣، ٣٤.

عليه السلام لربه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني ذلك القبطيَّ الذي كان يخاصم الإسرائيليَّ ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي إذا رأوني. ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أي فيكون أحسن مني بياناً، ولا يتحمل ذلك ما لم يُكَلف بمثل ما كُلفت به، ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً يصدقني فيما أقوله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف أن يتفقوا على تكذيبي المؤدي إلى إلحاق أنواع الأذى بي، وإنما طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون بأنْ يجعله رسولاً فيتفضّلَ عليه بالنبوة والرسالة إلى فرعون كما جاء في آية أخرى حكاية عما قاله وطلبه موسى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[٩٧٢] أي أشركه فيما أمرتني به من القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى فرعون، هذا الملك المتكبر الجبار العنيد[٩٧٣]. وفي تفسير الزمخشري: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ أي أجعله شريكي في الرسالة[٩٧٤].

٤٩٣- معنى: ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾

ومعنى قوله تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ قال ابن كثير: يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأنَّ خبر الاثنين أكثر تأثيراً في النفوس من خبر الواحد، وأقرب إلى القبول والتصديق ولهذا قال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وقال محمد بن إسحاق: ﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فإنه يُفْهِمُ عني مالا يفهَمون[٩٧٥]. وما قاله محمد بن اسحاق قاله الزمخشري في تفسيره فقد جاء فيه: فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت؟ أو يقول للناس صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحقَّ الذي جاء به موسى من ربه، ويبسط القول فيه ويجادلَ به الكفار كما يفعل الرجل المنطيقُ ذو العارضةِ، فذلك جارٍ مجرى التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَأَخِي

---

(٩٧٢) سورة طه الآيات ٢٩-٣٢.

(٩٧٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٩.

(٩٧٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٠.

(٩٧٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٩.

﴿هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وفضل الفصاحة إنما يُحتاج إليه لذلك، لا لقوله صدقت[٩٧٦].

٤٩٤- الراجح في معنى الآية:

والراجح عندي في معنى الآية: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ هو ما قاله ابن كثير ومحمد بن اسحاق والزمخشري، ذلك أنَّ بيان هارون يتضمن تصديق موسى فيما يخبر به عن ربه، فيتحقق فيه ما قاله ابن كثير: أنَّ خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، وأنَّ بيان هارون أو فصاحته في توضيح ما جاء به موسى من ربه يعني تصديقه به ويحمل السامعين على تصديقه لما في توضيحه من احتمال قبوله.

٤٩٥- أجاب الله طلب موسى:

قلنا: إنَّ موسى عليه السلام طلب من ربه أن يُرسِلَ معه أخاه هارون ويشركه في الرسالة إلى فرعون؛ لأنّهُ أفصح من موسى لساناً، وقد أجابهُ الله تعالى إلى طلبه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[٩٧٧] أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منه على أخيه من موسى على هارون فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه. وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي حجة باهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آياتِ الله ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ أي أَنَّ العاقبة لكما ولمن اتبعكما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[٩٧٨].

---

(٩٧٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٠٩-٤١٠.

(٩٧٧) سورة القصص الآية ٣٥.

(٩٧٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٩.

المبحث الثاني
استكبار فرعون وإفساده
وحال الناس معه

٤٩٦- استكبار فرعون وظلمه وإفساده:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٩٧٩] أي إنَّ فرعون تكبر وتجاوز الحدّ في الطغيان والظلم في أرض مصر، وجعل أهلها شيعاً أي فِرقاً وأصنافاً في خدمته وطاعته، يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إماتةً لرجالهم وتقليلاً لعددهم، إنه كان من المفسدين أي المتمكنين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر وقهر العباد[٩٨٠].

٤٩٧- كان فرعون ممتازاً في الظلم والإفساد والاستكبار:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[٩٨١]. قوله تعالى: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيب بني إسرائيل وإهانتهم[٩٨٢] ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً[٩٨٣]. وهذا كقوله تعالى فيه - أي في فرعون -

---

(٩٧٩) سورة القصص، الآية ٤.

(٩٨٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٩١، تفسير القرطبي ج١١ ص٢٤٨، تفسير القاسمي ج١٣ ص٩٥.

(٩٨١) سورة الدخان الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٩٨٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٧٨.

(٩٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤٣.

في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي إنه كان قاهراً في أرض مصر، وإنه لمن المسرفين المبالغين في الظلم والفساد والكبر والعتو والمتجاوزين الحدّ في الكفر، لأنُّه كان عبداً فادعى الربوبية[٩٨٤].

٤٩٨- جنود فرعون هم أدوات إفساده وظلمه:

قال تعالى بشأن الظالمين ومنهم فرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود الذي يشدون له أمره[٩٨٥]. فالجنود، وهم أعوان فرعون، هم أدوات ظلمه وبطشه وهكذا شأن كل متجبر ظالم حاكم في الأرض، لا يمكنه أن يظلم ويبطش بالناس إلاّ بجنوده، وهم أعوانه سواء كانوا عساكره أو غيرهم الذين يطيعونه وينفذون أوامره، ولهذا جمعهم الله بوصف الخطيئة قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[٩٨٦].

٤٩٩- حال قوم فرعون وملئه:

كان الملأ من قوم فرعون وأتباعُهم متلبسين بالفسق والظلم، قال تعالى: ﴿.. فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝﴾[٩٨٧] أي إلى فرعون وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفينَ لأوامر دينه[٩٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[٩٨٩] فقوم فرعون كانوا ظالمين، وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر، ومن جهة ظلمهم

---

(٩٨٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٣، تفسير القرطبي ج٨ ص٣٧.

(٩٨٥) سورة الفجر الآيات ٩-١٢ وتفسير ابن كثير ج٤ ص٥٠٨.

(٩٨٦) سورة القصص، الآية ٨.

(٩٨٧) سورة القصص الآية ٣٢.

(٩٨٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٨.

(٩٨٩) سورة الشعراء الآيتان ١٠و١١.

لبني إسرائيل باستعبادهم لهم[٩٩٠].

٥٠٠- استكبار أعوان فرعون:

إن فرعون ما كان يستطيع أن يطغى ويتجبر ويظلم الناس ويفسد في الأرض لولا أنه يجدُ العون من أعوانه وعلى رأسهم جنده وعساكره، وقد علم أعوان فرعون هذه الحقيقة وهي أنهم في الحقيقة حماةُ فِرعَونَ وبهم يحكم ويبطش ويظلم، فقاموا هم أيضاً بالاستكبار والظلم والإفساد في الأرض، قال تعالى عن فرعون وجنوده: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ. .﴾[٩٩١] أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد[٩٩٢]. وهذا شأن كل حاكم طاغية في الأرض لا يتكبر ويتجبر ويطغى ويظلم ويفسد في الأرض إلاّ بإسنادٍ وعون من جنده وسائر أعوانه، ثم لا يلبث هؤلاء الأعوان أن يطغوا ويظلموا الناس ويفسدوا في الأرض مثل سيدهم وحاكمهم لأنهم يعلمون بأنهم هم سند الحاكم الطاغية، وأنه لولاهم لما بقي في حكمه وطغيانه، فهم إذن، إذا ظلموا الناس وأفسدوا في الأرض فلا يعاقبهم هذا الحاكم الطاغيةُ، لأنهم هم سنده وهو نفسه ظالم طاغية، وهكذا يعم البلاءُ عموم الناس لأنّهم أصبحوا محكومين من طغاة وظلمة على رأسهم الحاكم الطاغية، وليسوا محكومين من هذا الحاكم الطاغية فقط، وهذا أمرٌ مُشَاهَدٌ في الماضي والحاضِرِ في كل أمة ابتِليتْ أو تُبتَلى بحاكم ظالم طاغية، فهو لا يطغى وحده ولا يظلم وحده وإنما يشاركه في ظلمه وطغيانه سائرُ جنده وأعوانه، وهكذا يكثر الفساد في الأرض ويعمُّ الظلم والبلاء عموم الناس، حتى إذا حان أجل الظالمين وآنَ أوانُ هلاكهم هلكوا جميعاً: الحاكم الطاغية وأعوانه الطغاة كما حصل لفرعون وأعوانه وكما سنبينه فيما بعد ونذكر آيات القرآن العظيم في هلاكهم جميعاً.

---

(٩٩٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٠١.

(٩٩١) سورة القصص، الآية ٣٩.

(٩٩٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٠.

المبحث الثالث

مجيء موسى إلى فرعون
وما جرى له في مصر

٥٠١- الأمر بالذهاب إلى فرعون:

قال تعالى مخاطباً موسى وأخاه هارون: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[٩٩٣]، أي اذهب أنت وأخوك بحججي وبراهيني ومعجزاتي، ولا تفترا في ذكر الله بل اذكرا الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لكما عليه وقوة وسلطاناً كاسراً له[٩٩٤].

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ وفي هذه الآية وهذا الأمر الرباني عبرة عظيمة وهي أنَّ فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمره الله تعالى ألّا يخاطب فرعون إلاَّ بالملاطفة واللين[٩٩٥]. كما أن في هذه الآية دليلاً على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنَّ ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة وضمنت له العصمة، ألا ترى أنّ الله تعالى أمر نبيّهُ موسى بهذا الأسلوب من تبليغ الدعوة مع قوله تعالى لهما: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ فكيف بنا، فنحن أولى بذلك بالأخذ بهذا الأسلوب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي في تبليغ الدعوة إلى الله[٩٩٦] وقال ابن مسعود: القول الليّنُ قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ والقول الجامع في القول الليّن أنّهُ هو القول الذي لا

---

(٩٩٣) سورة طه، الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٩٩٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٣.

(٩٩٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٣.

(٩٩٦) تفسير القرطبي ج١١ ص١٩٩.

خشونة فيه مع وضوح الحق فيه. وإذا كان موسى قد أمره اللهُ بأنْ يقول لفرعون قولاً ليناً فَمَنْ دونَهُ أَحرى أن يقتديَ بذلك في خطابه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في كلامه(٩٩٧). ولعلَّ بهذا القول الليِّنِ يتذكر فرعونُ أو يخشى، أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى أي يُوجد طاعة لربه من خشيته منه(٩٩٨).

٥٠٢- خوف موسى وهارون من فرعون وتطمين الله لهما:

قال تعالى مخبراً عما قاله موسى وهارون بعد أن سمعا أمر الله لهما بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٩٩٩). أي إننا نخاف أن يبادرنا بالعقوبة أو أن يطغى أي يزداد طغياناً بالعناد في دفع حججنا ثم يأمر بقتلنا، أو أن يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه(١٠٠٠). قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي أنا حافظكما وناصركما أسمع وأرى ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر وسامع ومبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرةُ وذهبت المبالاة بالعدو(١٠٠١).

٥٠٣- ما أمر الله به موسى وأخاه أن يقولاه لفرعون:

قال تعالى مخاطباً موسى وأخاه هارون بعد أن طمأنهما وأزال عنهما الخوف من فرعون، قال تعالى لهما: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾(١٠٠٢). أي فأتيا فرعون وقالا له: إنهما رسولا الله فخلِّ عن بني إسرائيل بإطلاقهم من الأسر والعبودية وتسريحهم معنا بالسماح لهم بالخروج من

---

(٩٩٧) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٠.
(٩٩٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٣.
(٩٩٩) سورة طه، الآيتان ٤٥، ٤٦.
(١٠٠٠) تفسير القاسمي ج١١ ص١٦٦.
(١٠٠١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٦.
(١٠٠٢) سورة طه الآيتان ٤٧، ٤٨.

مصر، ولا تعذبهُم بذبح أبنائهم واستخدام نسائهم وتكليفهم من الأعمال ما لا يطيقون، قد جئناك بآية أي ببرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة عن رب العالمين، والسلام على من اتبع الهدى، أي من اتبع هدى الله سلم من سخطه وعذابه، وفي هذا ترغيب في اتباعهما بألطف وجه، إنا قد أُوحِيَ إلينا من ربنا أَنَّ العذاب على من كذّب بآياته تعالى وتولى أي أعرض عنها، وفي هذا الأسلوب تلطيف في الوعيد حيث لم يُصرّحا بحلول العذاب به[١٠٠٣].

٥٠٤- حوار بين فرعون وموسى:

قال تعالى مخبراً عما قاله فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[١٠٠٤] قال موسى عليه السلام كما أخبرنا الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١٠٠٥] أي أعطى ربنا تعالى كل شيءٍ من الأنفس البشرية وغيرِها صورتَه وشكلَهُ الذي يطابق المنفعة المنوطة به فسوّاه بها وعدّله، فأعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان. كلٌّ واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غيرُ نابٍ عنه، فالله تعالى خصَّ كل مخلوق بهيئة وصورة تناسبه، كما خصّ كل جزء من كل مخلوقٍ بهيئة وصورة تناسب المنفعة المنوطة به. كما أنَّ من معنى هذه الآية ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أَنَّ الله تعالى أعطى كل شيء زوجه من جنسه ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي ثم إنَّ الله تعالى عرّف مخلوقه من الإنسان والحيوان كيف يرتفق بما أعطاه ووهبه ربه وكيف يتوصل إلى ما ينفعه ويحتاجه[١٠٠٦].

وخلاصة القول في معنى هذه الآية: إنَّ الله تعالى أعطى كل موجود من مخلوقاته خلقته وصورته وهيأته الخاصة به والمناسبة له، وأكمل الله تعالى ذلك له وأتقنه ثم

(١٠٠٣) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٣، تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٦-٦٧، تفسير القاسمي ج١١ ص١٦٧.

(١٠٠٤) سورة طه الآية ٤٩.

(١٠٠٥) سورة طه، الآية ٥٠.

(١٠٠٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٧، تفسير القرطبي ج١١ ص٢٠٤، تفسير القاسمي ج١١ ص١٦٧.

هدى، أي يسرَّ كل شيءٍ لما يتوصل به إلى منافعه ومرافقه[1007].

٥٠٥- سؤال فرعون وجواب موسى له:

قال تعالى مخبراً عما سأل عنه فرعونُ بعد أن سمع جواب موسى له: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1008] أي إنَّ فرعون لما أخبره موسى بأنَّ ربه الذي أرسله هو الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربّك بل عبدوا غيره؟ فأجابه موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1009] أي هم - وإن لم يعبدوا الله - فإنَّ عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم، فإنَّ أعمالهم محصيّة عليهم في كتاب الله فإنّهُ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يشذُّ عنه شيءٌ ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، فعلمه تعالى محيط بكل شيءٍ[1010]، ثم قال موسى لفرعون مبيناً له بعض ما وصف به ربَّه الذي سأل فرعون عنه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1011]. أي هو الذي جعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها، وجعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أصنافاً من مختلف النباتات من الزروع والثمار، وإنَّ في ذلك لدلالاتٍ وحججاً وبراهينَ لذوي العقول السليمة المستقيمة على أنْ لا إله إلاّ الله ولا ربَّ سواه، الذي خلقكم من الأرض، لأنَّ أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفي الأرض معادكم، أي إليها تصيرون بعد موتكم ومن الأرض تخرجون تارة أخرى[1012].

(١٠٠٧) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٣٦.

(١٠٠٨) سورة طه، الآية ٥١.

(١١٠٩) سورة طه، الآية ٥٢.

(١٠١٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٥.

(١٠١١) سورة طه، الآيات ٥٣-٥٥.

(١٠١٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦.

٥٠٦- فرعون يذكّر موسى بماضيه وبما فعله:

وكان من جملة محاورة فرعون لموسى أن ذكّره بنشأته في بيته وبقتله القبطيَّ من قومه قال تعالى حكاية عما قاله فرعون لموسى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[١٠١٣] أي قال فرعون لموسى أنت الذي ربيناه في بيتنا وأنعمنا عليه مُدّةً من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة التي فعلتها بأَنْ قتلت منا رجلاً وبهذا كنت من الكافرين أي الجاحدين لنعمتنا عليك[١٠١٤].

٥٠٧- جواب موسى لفرعون:

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[١٠١٥] أي قال موسى لفرعون: فعلتها حينئذ وأنا من الجاهلين بأنَّ وكزتي إياه تقضي عليه، ففررت منكم لما خفتكم أن تقتلوني على القتل الخطأ الذي وقع مني، فنجانيَ الله منكم وزادني إنعاماً فوهب لي حكماً أي حكمة أو نبوة وجعلني من المرسلين لإبطال دعواك الربوبيةَ ودعوتك وقومك إلى عبادة الله وحده[١٠١٦]. ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي وما أحسنت إليّ وربيتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك، فهل يفي إحسانُكَ إليَّ وأنا رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي ليس ما ذكرته من إحسانك لي شيئاً بالنسبة إلى ما فعلته بهم[١٠١٧].

٥٠٨- فرعون يدعي لنفسه الألوهية:

قال تعالى مخبراً عن ادعاءِ فرعون لنفسه الألوهية: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ

(١٠١٣) سورة الشعراء الآيتان ١٨، ١٩.

(١٠١٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٢.

(١٠١٥) سورة الشعراء الآيات ٢٠-٢٢.

(١٠١٦) تفسير ابن عطية ج١١ ص٩٩، تفسير القاسمي ج١٣ ص٩.

(١٠١٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٢.

﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(١٠١٨).

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الألوهيّةَ لنفسه وأنّهُ لا إله لهم غيره، وأنَّ ادعاء موسى بأنَّ له إلهاً غيره ادعاءٌ كاذب، وأنّهُ - لعنه الله - أمرَ وزيره ومدير رعيته ومشيره هامان أن يوقد له على الطين، أي يتخذ له آجُرّاً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي ليطلع بزعمه إلى إله موسى، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى وجود إله غير فرعون، ثم إنَّ فرعون واجه موسى عليه السلام بهذه الدعوى، دعوى الألوهيّة لنفسه وهدده بالسجن إن لم يصدقه بذلك ويطعْهُ ويسلِّمْ له بألوهيّته، فقال كما أخبرنا الله عنه: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾(١٠١٩).

٥٠٩- فرعون يدعي لنفسه الربوبية:

وكما ادعى فرعون لنفسه الألوهية كذباً وزوراً ادعى لنفسه الربوبية تجبراً وطغياناً قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(١٠٢٠).

والمعنى أنَّ الله تعالى أمر موسى بالذّهاب إلى فرعون الذي تمرد وتجبر وعتا، وأنْ يقول له: هل لك أَنْ تتطهر من الكفر والشرك وأُرشدَكَ إلى معرفة الله ولزوم عبادته فتخشى، لأنَّ الخشية لا تكون إلاّ بمعرفة الله معرفة تفضي إلى عبادته قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي العلماء بالله، وَذَكَر الخشية لأنَّها ملاك الأمر، فإنَّ من خشي الله أتى منه كل خير ومن أَمِنَ ولم يخشَ اللهَ اجترأ على كل شر. فأراه موسى الآية الكبرى وهي قلب العصا حيَّةً فكذّب فرعونُ بموسى وبالآية الكبرى ثم أدبر يسعى، أي تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته، فحشر: أي فجمع السحرة فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو قام في قومه فنادى قائلاً: ﴿أَنَا۠

(١٠١٨) سورة القصص الآية ٣٨.

(١٠١٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٠.

(١٠٢٠) سورة النازعات الآيات ١٥-٢٤.

رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ بأربعين سنة(١٠٢١).

٥١٠- استهزاء فرعون وملئه بموسى وآياته:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾(١٠٢٢) يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام: إنه أرسله إلى فرعون وملئِهِ من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القِبْطِ وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه تعالى بعث معه آياتٍ عظاماً كيدِهِ وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمّلِ والضفادع والدم وغيرها التي سنتكلم عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاء بها(١٠٢٣)، وخصّ الله تعالى الملأ بالذكر لأنهم يسدّون مسدّ جميع الناس(١٠٢٤) أي باعتبار أنَّ الناس تبعٌ لهم.

٥١١- منطق فرعون في تفضيل نفسه على موسى:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(١٠٢٥) ولما رأى فرعون تلك الآيات التي جاء بها موسى خاف ميل قومه إليها وإلى موسى، فجمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بمُلْكِ مصر وتصرفه فيها، وبجريان الأنهار من تحت قصره أو قصوره قاصداً بذلك أن يبيّن فضله على موسى عليه السلام، إذ هو مَلِكُ مصر وصاحب الأنهار والمتنفذ فيها، وموسى عليه السلام - بزعم فرعون - خامل متعطل ضعيف حقير لا سلطان له، وأنه لو أنَّ إله موسى يكون حقاً كما يزعم لما تركه

(١٠٢١) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٩٥-٦٩٦، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٦٨.

(١٠٢٢) سورة الزخرف، الآيتان ٤٦، ٤٧.

(١٠٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٨.

(١٠٢٤) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٢٣٢.

(١٠٢٥) سورة الزخرف الآيات ٥١-٥٣.

هكذا، ثم احتجَّ بمنطقة الهزيل على ما يقول بأنَّ موسى لا يكاد يبين، أي لا يكاد يوضح ما يريد بكلامه. ثم خلص فرعون بمنطقه هذا إلى القول لقومه بأنه هو خير من موسى. ثم أراد فرعون أن يزيد في حجته الساقطة فقال: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ وهي ما يُجْعَل في الأيدي من الحلي على عادة أهل ذلك الزمن وزي أهل الشرف، ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي مقترنين به يمشون معه ويعاونونه على من خالفه، والمعنى: هلا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعم - أي موسى - أنها عند ربه حتى يتكثر بهم ويستعين بهم على أمره ونهيه فيكون ذلك أهيب في القلوب؟[١٠٢٦].

٥١٢- اتهامُ فرعونَ موسى بالسحر:

قال تعالى حكاية عن حوار فرعون مع موسى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[١٠٢٧]. لما انقطع فرعون في باب الحجة والبرهان رجع إلى الاستعلاء والتغلب، وهذا أبين علاماتِ الانقطاع، فتوعَّدَ موسى عليه السلام حين أعياه خطابه وظهرت حجته، توعَّدَهُ بالسجن. فقال له موسى عليه السلام على جهة التلطف والطمع في إيمانه: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يتضح لك معه صدقي أفكنت تسجنني؟ فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة فقال له: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنَّ فرعون طلب من موسى أن يأتي بما عنده مما يدل على صدقه بأنه رسول رب العالمين، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين أي ظاهر الثعبانية، والثعبان ما يكون من الحيّاتِ. ونزع موسى عليه السلام يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة من الشمس، وكان بياضها النوريُّ مما يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن المألوف والمعتاد. فلما رأى فرعون ذلك هاله وأفزعه ولم

(١٠٢٦) تفسير القرطبي ج١٦ ص٩٨-١٠٠، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٩-١٣٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٥٧- ٢٥٨، تفسير ابن عطية ج٣ ص٢٣٥-٢٣٧.

(١٠٢٧) سورة الشعراء الآيات ٢٩-٣٤.

يكن عنده ما يدفعه به غيرَ رميه بالسحرِ، وطمع - لعنه الله - بما عند قومه من المعرفة بالسحر أن يكون له فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام فأوهم قومه وأتباعه بأنَّ موسى عليه السلام ساحر(١٠٢٨).

٥١٣- فرعون وملؤه يتهمون موسى بالسحر وبالرغبة في الملك:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾(١٠٢٩). أي بعثنا من بعد الرسل بموسى وهارون إلى فرعون وملئِهِ، والملأ يطلق على كبراء القوم وسادتهم، كما يطلق ويراد به عامّةُ القوم، وفي هذه الآية يراد بالملأ قومُ فرعون؛ لأَنَّ بعثة موسى وهارون كانت إلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف(١٠٣٠). فاستكبروا عن قبول آيات الله تعالى التي أيدَّ بها موسى وهارون، وكانوا قوماً مجرمين: أي كفاراً ذوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردها: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أي فلما عرفوا أنّهُ هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهارون قالوا - لحبهم الشهوات والرياسةَ - إنَّ هذا لسحرٌ مبين(١٠٣١).

ثم قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي لتصرفنا عن دين آبائنا وعبادتهم الأصنام(١٠٣٢)، ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم جاء فرعون وملؤه باتهام جديد لموسى وأخيه هارون وهو رغبتهما في العظمة والرياسة في أرض مصر(١٠٣٣)، وفي تفسير القرطبي ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تكون لكما

(١٠٢٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٣-١٠٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣١٠.

(١٠٢٩) سورة يونس، الآيات ٧٥-٧٨.

(١٠٣٠) تفسير ابن عطية ج٧ ص١٩٠-١٩١.

(١٠٣١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٢.

(١٠٣٢) تفسير ابن عطية ج٧ ص١٩٣، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٦ تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٣.

(١٠٣٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٦.

العظمة والملك والسلطان في أرض مصر. ويقال للمُلْكِ: الكبرياء لأنَّهُ أعظم ما يطلب في الدنيا(١٠٣٤).

٥١٤- فرعون يستشير الملأ فيما يفعله بموسى:

ولما رأى فرعون معجزة موسى: العصا واليد، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ قال فرعون - كما أخبرنا الله عنه -: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(١٠٣٥) استشار فرعون الملأ حوله وهم كبراء القوم وساداتهم وأعوان فرعون وخاصته، استشارهم في أمر موسى وماذا ينبغي أن يفعلَ به، وأغراهم به في قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ أي قال فرعون للملأ: إنَّ موسى يريد أن يستجلب قلوب الناس بسحره هذا، فيكثُرَ أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأْخُذَ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به(١٠٣٦)؟. والواقع أنَّ فرعون تحيّر لما رأى معجزتَيْ موسى: العصا واليد، وأصابه الخوف، حتى زال عنه ذِكْرُ ادعائه الألوهية، وذهب عنه كبرياؤه وادعاؤه الربوبية، وبلغت به الاستكانة والضعف للملأ الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم إلى مرتبة أصبح فيها يستشيرهم بأمر موسى، ويستأمرهم فيه أي يطلب أمرهم فيما يفعله مع موسى، وهكذا جعل فرعون العبيد آمرين، وربَّهم - وهو فرعون بزعمه - مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهشة والحيرة(١٠٣٧). وهكذا تظهر حقيقة الطغاة المتجبرين المستكبرين إذا قرعتهم حجج الحق وظهر زيفهم وباطلهم.

٥١٥- ما أشار به الملأ على فرعون بشأن موسى:

وقد أشار الملأ على فرعون ما أخبرنا الله به بقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾(١٠٣٨) أي قال الملأ لفرعون مشيرين

(١٠٣٤) تفسير القرطبي ج٨ ص٣٦٧.

(١٠٣٥) سورة الشعراء الآيتان ٣٤، ٣٥.

(١٠٣٦) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٣.

(١٠٣٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣١٠.

(١٠٣٨) سورة الشعراء الآيتان ٣٦، ٣٧.

عليه بتأخير أمر موسى وأخيه حتى يجْمَعَ السحرةَ لمقاومته، ولم يشيروا بقتله؛ لأَنَّ حجته ظاهرة، فخشوا الفتنة وطمِعوا أن تكون الغلبةُ للسحرة فتسقط حجةُ موسى. وهكذا فعل فرعون: جمع لموسى كلَّ سحّار عليم من مدائن مصر، ليقابلوا موسى ويأتوا بنظير ما جاء به، فتكون الغلبة والنصر له على موسى. وكانت مشورة الملأ لفرعون واستجابتهُ لهذه المشورة من تسخير الله وتدبيره، ليجتمع الناس في صعيد ليشهدوا هذه المقابلة والمغالبة بين موسى وسحرة فرعون، فتظهر آيات الله وحججه وبراهينه واضحةً جلية للناس(١٠٣٩).

٥١٦- مجيءُ السحرة إلى فرعون طامعين بمتاع الدنيا:

وهكذا أمر فرعون بتجميع السحرة من مختلف أنحاء مصر، فجاؤوه طامعين بمتاع الدنيا - الأجرة على مجيئهم - إن غلبوا موسى بما عندهم من السحر، فوعدهم فرعون ذلك وزاد عليه أَنْ وعدهم المنزلة الرفيعة عنده، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾(١٠٤٠) أي قال السحرة لفرعون على وجه الاستخبار: هل يجعل لهم أجراً إن غلبوا أولاً، فلم يوجبوا على فرعون ذلك وإنما كانوا طامعين بالأجر فاستخبروه عنه، فقال لهم: نعم، وإنكم لمن المقربين أي لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا، فزادهم فرعون على ما طلبوا، ليحثهم على بذل أقصى الجهد لإظهار سحرهم على ما عند موسى(١٠٤١). وهكذا أتباع الطغاة يخدمونهم على طغيانهم وفجورهم طمعاً بما عندهم من متاع الدنيا، والطغاةُ يعلمون ذلك ويعطونهم ما يريدون، ليبقوا في خدمتهم وتبعيتهم لهم.

٥١٧- تعيين يوم المنازلة بين السحرة وموسى:

قال تعالى حكاية عما قاله فرعون لموسى وردّ موسى عليه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ

(١٠٣٩) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٣.

(١٠٤٠) سورة الأعراف الآيتان ١١٣، ١١٤.

(١٠٤١) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥٨.

﴿وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[١٠٤٢]. يقول تعالى مخبراً عن فرعون إنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال فرعون لموسى: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم ولا يتم لك هذا فإنَّ عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنَّك ما أنت فيه، فاجعل بيننا وبينك يوماً نجتمع نحن وأنت فنعارضُ ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك قال لهم موسى: موعدكم يوم الزينة وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم، وأن يجمع الناس لمشاهدة المعارضة بين السحرة وموسى، في ضحوة من النهار ليكون الوقت أظهر وأجلى وأبين وأوضح للحق، وهكذا شأن الأنبياء، كلُّ أمرهم بيّنٌ واضحٌ ليس فيه خفاء، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى في مكان سُوى أي عدلاً منصفاً أي حالنا فيه مستوية، فكأنه قال: مكاناً قريباً منا قربَهُ منكم[١٠٤٣].

٥١٨- اجتماع الناس في يوم المعارضة بين موسى والسحرة:

قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[١٠٤٤] اليوم المعلوم: يوم الزينة وميقاته: وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقتّه لهم موسى من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ استبطاءَ لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالُهم واستحثاثُهم عليه، أي على الاجتماع والحضور في يوم ومكان المعارضة، وقولُ قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ليس معناه نتبعهم في السحر، وإنما أراد ما معناه: نتبعهم في نصرة ديننا وملتنا[١٠٤٥].

(١٠٤٢) سورة طه، الآيات ٥٧-٥٩.

(١٠٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦، تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٣-٤٤.

(١٠٤٤) سورة الشعراء، الآيات ٣٨-٤٠.

(١٠٤٥) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤.

٥١٩- ما قاله موسى للسحرة وما تناجوا به فيما بينهم قبل المنازلة:

اجتمع الناس في مكان المعارضة في ضحى يوم الزينة، يوم عيدهم، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته ووقف الناس يمنةً ويسرةً، وأقبل موسى عليه السلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقفَ السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغّبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم. قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وبأنها مخلوقة وليست بمخلوقةٍ فتكونوا قد كذبتم على الله، كما حذرهم موسى بهذه المقالة أنْ لا يعتبروا ما يرونه منه من الآيات سحراً، وأن يتبعوا الحق إذا ظهر لهم وسيظهر، وإن لم يفعلوا ذلك أهلكهم الله بعذاب من عنده، وقد خسر من افترى على الله الكذب. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾: أي تناجوا فيما بينهم في عرض آرائهم بجعلها سراً فيما بينهم، لأنَّ النجوى تعني السرّ والمسارة، وأنهم جعلوا عرض آرائهم سراً مخافة فرعونَ أن يتبين له أَنَّ فيهم ضعفاً وعدم تصميم على غلبة موسى. ثم قالوا: إنّ موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينتصران عليه، ويخرجاكم من أرضكم ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾، أي يذهبا بسيرتكم الفاضلة الحسنة وحالتكم الطيبة التي أنتم عليها، ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي ضمّوا سحركم بعضَهُ إلى بعض ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي مصطفين، وتداعَوْا إلى هذا لأنه أهيبُ وأظْهَرلُهمْ، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي ظفر ببغيته اليوم من طلب العلُوَّ في أمره وسعى سعيَه[١٠٤٦].

٥٢٠- بطلان سحر السحرة:

قال تعالى حكاية عما قاله موسى للسحرة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا

(١٠٤٦) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٥ وما بعدها، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٧.

﴿يَأْفِكُونَ﴾[1047] وعندما حضر السحرةُ وحضر موسى بدأت المعارضة، فقال السحرة لموسى كما جاء في سورة طه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[1048] وقد اختصر هذا هنا فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ...﴾، وقولهم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما القسم، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون، كما نقول بالله لا أفعل كذا وكذا فكان قسمهم بعزة فرعونَ غيرَ مبرور. والوجه الآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون- إذ كانوا يعبدونه- والتبرُّك بإسمه، كما تقول إذا ابتدأت بعمل: باسم الله، وعلى بركة الله، ونحوَ هذا[1049]. وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1050] وقال في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1051]، وقال تعالى ها هنا: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. وقال تعالى في سورة الأعراف عن نتيجة هذه المناظرة: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1052] أي فظهر الحق وبطل سحر السحرة[1053].

٥٢١- إيمان السحرة:

ولما رأى السحرة انقلاب عصا موسى التي ألقاها إلى ثعبان مبين ابتلع ما ألقاه السحرة من عصي وحبال، عرفوا أنَّ هذا ليس بسحر، وإنما هو معجزة وبرهان ساطع على أنَّ موسى رسول من رب العالمين، فخروا ساجدين لله معلنين إيمانهم بالله رباً وبموسى رسولا، قال تعالى عن إيمان السحرة: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾

(١٠٤٧) سورة الشعراء، الآيتان ٤٣، ٤٤.

(١٠٤٨) سورة طه، الآية ٦٥.

(١٠٤٩) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٧.

(١٠٥٠) سورة الأعراف، الآية ١١٦.

(١٠٥١) سورة طه، الآيات ٦٦-٦٩.

(١٠٥٢) سورة الأعراف الآية ١١٨.

(١٠٥٣) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٠.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1054] فكان إيمانهم أمراً عظيماً جداً وبرهاناً قاطعاً للعذرِ، وحجة دامغة على أنَّ موسى عليه السلام رسولٌ من رب العالمين، وذلك أنَّ الذين استنصر بهم فرعون وطلب منهم أن يغَلبوا غُلِبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعونُ غُلباً لم يشاهد العالمُ مثله، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم[1055].

٥٢٢- فرعون يتهدد السحرة بالقتل لإيمانهم:

قال تعالي حكاية عن تهديد وتوعد فرعون للسحرة لإيمانهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1056] لما رأى فرعون والملأ إيمان السحرة، وقامت الحجة بإيمان أهل علمهم ومظنة نصرتهم، وقع فرعون في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة موبخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه لهم بالإيمان، باعتباره أنه الحاكم المطاع[1057]. ثم احتج عليهم متهماً إياهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنَّهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرَهُمُ الذي علمّهم صناعة السحر؟. ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب[1058].

وفي سورة الأعراف قال تعالى حكاية عما اتهم به فرعون السحرة بعد إيمانهم: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1059]. يتهم فرعونُ السحرة بالمكر، أي يتهمهم بأنه جرت بينهم وبين موسى مواطأة في الذي

(١٠٥٤) سورة الشعراء الآيات ٤٥-٤٨.

(١٠٥٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤.

(١٠٥٦) سورة الشعراء، الآية ٤٩.

(١٠٥٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٠٩.

(١٠٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥.

(١٠٥٩) سورة الأعراف الآيتان ١٢٣-١٢٤.

جرى وهم في المدينة قبل أن يبرزوا إلى مكان المبارزة والمعارضة، وذلك لغرض الاستيلاء على مصر وطرد أهلها منها[١٠٦٠].

٥٢٣- جواب السحرة لفرعون:

تهددهم فرعون فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً، وذلك لأنه قد كُشِفَ عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أَنَّ هذ الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلاَّ أن يكون الله قد أيده وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما هددهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب، قالوا كما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٠٦١]. الضر والضير والضرر واحد، أرادوا: لا ضرر علينا فيما تهددنا به ولا نبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إنَّ مرجعنا إلى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا وسيجزينا على ذلك أَتمَّ الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط وسبقناهم إلى الإيمان بالله وبما جاء به موسى من ربه[١٠٦٢]، فما كان من فرعون وقد سمع جوابهم إلاَّ أن يُنَفِّذَ فيهم ما هددهم به، فقتلهم وصلبهم على النيل، قال ابن عباس رضي الله عنه: (أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء)[١٠٦٣].

وفي سورة الأعراف حكى الله عنهم بعد أَنْ هددهم فرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[١٠٦٤] قالوا لفرعون: وما تنكر منا وتعيبنا عليه إلاَّ أن آمنا بالله وهو الحق لما جاءتنا آياته وبيناتُه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي قالوا: ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا

(١٠٦٠) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٠.

(١٠٦١) سورة الشعراء، الآيتان ٥٠،٥١، وتفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٤.

(١٠٦٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥.

(١٠٦٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص١١٠.

(١٠٦٤) سورة الأعراف، الآية ١٢٦.

إفراغاً بتثبيتك إيانا على الإيمان، كما يفرغ الماء من القرب حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاءِ فيما سوى فضلك، وتوفّنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل[١٠٦٥].

وقال تعالى في سورة طه حكاية عما أجاب به السحرة فرعون على تهديده لهم بالقتل: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[١٠٦٦].

أي قال السحرة لفرعون لمّا توعدهم: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ أي لن نفضلك ونفضل السلامة منك على ما رأينا من حجة الله وآياته المبينات، ولن نختارك على ما حصل لنا من الهُدىٰ واليقين، وعلى الذي فطرنا، أي خلقنا وهو الله جلّ جلاله، الذي أنشأنا من العدم، المبتدىءُ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي فافعل يا فرعون ما شئت ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ أي إنما قضاؤك في هذه الحياة الدنيا وتسلطك في هذه الدار، وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار، التي لنا فيها النعيم ولك فيها العذاب المقيم. ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ أي ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارضَ به آية الله ومعجزة نبيه، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي خير لنا منك ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أي أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا به. وقال محمد بن كعب القُرظي: (والله خير لنا منك إن أطعناه وأبقى منك عذاباً إن عصيناه)[١٠٦٧]. ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ.. ﴾ الخ الظاهر من السياق أنَّ هذا من تمام ما وعظ به السحرةُ فرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبديّ

(١٠٦٥) تفسير المنار ج٩ ص٧٥-٧٦.

(١٠٦٦) سورة طه، الآيات: ٧٢-٧٦.

(١٠٦٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص٥٧-٥٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٩.

الدائم، وذلك بقولهم بعد أن بينوا جزاءَ من يأتي ربه مجرماً: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[1068].

٥٢٤- إضلال فرعون قومه ومتابعتهم له:

قال تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[1069] أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة[1070]، فهو قد أضلهم من أول أمره إلى أنْ أهلكه اللهُ وأهلكهم بالغرقِ، ثم أكد الله تعالى إضلاله بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ مقابلة لقول فرعون لقومه: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1071].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ ﴾[1072]. أي استخف عقولهم، أي وجدهم خفاف العقول، فدعاهم إلى الضلالة ومتابعته في دعواه الألوهيَّةَ والربوبيّة لنفسه، فاستجابوا له وأطاعوه فيما دعاهم إليه من الكفر؛ لفسقهم ولما كانوا بسبيله من الفساد[1073].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾[1074] يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون وملئِهِ ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي اتبعوا منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد[1075]. وفي الآية تجهيلٌ لمتبعيه حيث شايعوه على أمره

(١٠٦٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٩-١٦٠، والآيات في سورة طه ٧٤-٧٦.

(١٠٦٩) سورة طه، الآية ٧٩.

(١٠٧٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٢٩.

(١٠٧١) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٦٤ والآية من سورة غافر ورقمها ٢٩.

(١٠٧٢) سورة الزخرف الآية ٥٤.

(١٠٧٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٣٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص١٠١، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٢٣٨.

(١٠٧٤) سورة هود، الآيتان ٩٦، ٩٧.

(١٠٧٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٨.

وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى ملكةٍ من العقل، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[1076]. أي كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه، بئس الورد الذي يَرِدونَهُ النار[1077].

٥٢٥ إصرار قوم فرعون على كفرهم:

قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[1078]. هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون، وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ . .﴾ الخ أي: أيّةُ آيةٍ جئتنا بها أو دلالةٍ وحجّةٍ أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به[1079].

٥٢٦- الملأ يهيّجون فرعون على موسى وقومه:

قال تعالى مخبراً عما قاله الملأ من قوم فرعون تهييجاً له على موسى وقومه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[1080] أي قال الملأ من قوم فرعون وهم كبراء القوم وساداتهم وخاصة فرعون، قالوا له: أتدع موسى وقومه آمنين أحراراً لتكون عاقبتُهم أن يفسدوا قومك عليك في أرض مصر بإدخالهم في دينهم أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ويتركك مع آلهتك فيظهر لرعيتك عجزك وعجز آلهتك، وقد رأيتَ من أمر إيمان السحرة وما نتج عنه - إذ الظاهر من السياق أنَّ هذا القول كان بعد قصة السحرة - وجمهور المفسرين على أنَّ المراد بتركه وآلهته عدم عبادته وعبادتها، قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي قال مجيباً للملأ: سنقتّل أبناء قوم موسى تقتيلاً ما تناسلوا، ونستبقي نساءهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادة موسى حتى ينقرضوا ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي وإنا مستعلون عليهم بالغلبة

(١٠٧٦) سورة هود، الآية ٩٨.

(١٠٧٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٤.

(١٠٧٨) سورة الأعراف، الآية ١٣١.

(١٠٧٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٤٠.

(١٠٨٠) سورة الأعراف الآية ١٢٧.

والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يستطيعون إفساداً في أرضنا ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا[1081].

٥٢٧- فرعون يريد قتل موسى:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1082].

كان فرعونُ إذا همَّ بقتل موسى كفوه عنه ومنعوه منه بقولهم: إنَّ موسى ليس بالذي تخافُه وإذا قتلتَه أدخلتَ الشبهةَ على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضتِهِ بالحجة. ويبدو أنَّ قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾. كان تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هُمُ الذين يكفونه، وما كان يكفّه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع الذي أصابه من موسى لما ظهرت آياته وأدت إلى اضطرابٍ في معتقدات قومه، بدليل أنَّ قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فهذه العبارة ليست من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم. ودليلٌ آخر على ما نقول هو مقالة المؤمن من قوم فرعون وما صَدَعَ به وما كاشف به فرعونَ، وحُكْمُهُ بنبوّةِ موسى كما سنذكره بعد قليل. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي لا أبالي منه، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ويقصد فرعون بالفساد الذي يخافه على قومه التهارج الذي يذهب معه الأَمْنُ وتتعطل المكاسب والمزارع والمعايش، ويهلِكُ الناسُ قتلاً نتيجة التأييد والمعارضة لما جاء به موسى، كأنه قال: إني أَخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه أو أن يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه[1083].

(١٠٨١) تفسير المنار ج٩ ص٧٨.

(١٠٨٢) سورة غافر الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٠٨٣) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٢٩-٣٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٠-١٦١.

٥٢٨- مقالة موسى لما سمع بعزم فرعون على قتله:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[١٠٨٤]. لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال موسى لقومه: ﴿إِنِّى عُذْتُ﴾ بالله الذي هو ربي وربكم، وقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لتشمل استعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة. وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدلُّه على دناءة صاحبة ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه. وقوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء في اليوم الآخر، وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة ولا سيئة إلاَّ ارتكبها[١٠٨٥].

٥٢٩- مؤمن من آل فرعون يدافع عن موسى:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[١٠٨٦] المشهور أنَّ هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، وقال السدّي: كان ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه. وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأةِ فرعونَ والذي قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ..﴾ وكان هذا الرجل يكتم إيمانه كما قلت، ولم يظهره إلاّ في هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فأَخذت الرجلَ غضبةٌ لله عز وجل، وأفضلُ الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما جاء في الحديث النبوي الشريف، ولا أعظَم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ربي الله وقد

(١٠٨٤) سورة غافر الآية ٢٧.

(١٠٨٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦١.

(١٠٨٦) سورة المؤمن «غافر» الآية ٢٨.

جاءكم بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها وهي دليل صدقه أنه رسول الله[١٠٨٧].

٥٣٠ - مؤمن آل فرعون يجادل عن موسى:

ثم إنَّ مؤمن آل فرعون تنزّل معهم في المخاطبة فأخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم قطعاً للّجاج في الجدال، فقال لهم: لا يخلو موسى من أن يكون كاذباً أو صادقاً: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي يعود عليه ضرر كذبه وحده دون غيره، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي يصبْكم بعضُ ما يعدكم من العذاب إنْ تعرضتُمْ له بسوء، لأنه توعدهم إن كذّبوه أن يصيبَهُمْ العذاب في الدنيا والآخرة. فهذا الكلام من هذا الرجل المؤمن كلامُ منصفٍ في مقاله غير مشتط فيه، لأنه سلك معهم طريق الإنصاف في القول والمناصحة لهم، وجاءهم بما هو أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، وفي الحالتين: أي سواء كان صادقاً أو كان كاذباً كما يدعون، فينبغي أن لا يتعرضوا له أي لموسى عليه السلام بسوء، بل ينبغي تركُهُ وقومَهُ يدعوهم ويتبعونه إن شاؤوا[١٠٨٨].

٥٣١ - مؤمن آل فرعون يطلب ترك موسى وشأنه:

ويلاحظ هنا أنَّ ما طلبه مؤمن آل فرعون من قومه بضرورة ترك موسى وعدم قتله أو إيذائه هو ما طلبه موسى من فرعون من قبلُ، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾[١٠٨٩] أي إنَّ موسى عليه السلام قال لقوم فرعون: إني رسول مأمون على ما أبلغكم به، وإنَّ عليكم أن لا تستكبروا عن اتباع الحق والإيمان بالله، وإني آتيكم بالآيات البينات الدالة على صدقي. وإني أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليَّ

(١٠٨٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧.

(١٠٨٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢-١٦٣، تفسير الرازي ج٢٧ ص٥٨.

(١٠٨٩) سورة الدخان الآيات ١٧-٢١.

بسوءٍ من قول أو فعل أو تقتلوني بالرجم بالحجارة، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون، أي فلا تتعرضوا لي واتركوني ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضيَ الله بيننا[1090].

٥٣٢- مؤمن آل فرعون يحذر قومه وينصحهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الرجل المؤمن من آل فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[1091]. أي قال ذلك الرجل المؤمن لقومه: يا قوم قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والسلطان والكلمة النافذة في أرض مصر، فراعوا هذه النعمة بشكر الله وتصديق رسوله موسى عليه السلام، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله[1092]. وتذكيرهم بالمُلْكِ والسلطان أسلوب من الوعظ المفيد لما يثيره فيهم من شهوة الحرص عليهما والتعلق بما يبقيهما وهو الإيمان بالله ورسوله، وتحذيرهم مما يزيلهما وهو تكذيبهم برسوله[1093] ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يقول الرجل المؤمن بصيغة الجمع ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ و﴿إِن جَآءَنَا﴾ جاعلاً نفسه معهم، لأنه منهم في القرابة وليعلمهم بأنَّ الذي ينصحهم به أو يحذرهم منه هو مشارك لهم فيه، فكأنه يقول لهم: إنَّ جنودكم وعساكركم لا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أراد إنزال العذاب بنا بسبب كفركم وعنادكم[1094].

٥٣٣- رد فرعون على الرجل المؤمن:

قال تعالى حكاية عما قاله فرعون رداً على قول الرجل المؤمن: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي قال فرعون لقومه راداً على ما أشار به الرجل المؤمن من ترك موسى وشأنه: ما أقول لكم وأشير عليكم إلاَّ ما أراه لنفسي

(١٠٩٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧-٧٨.

(١٠٩١) سورة المؤمن من الآية ٢٩.

(١٠٩٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨.

(١٠٩٣) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٣٥.

(١٠٩٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٤، تفسير الرازي ج٢٧ ص٥٩.

ومن ذلك أنّي لا أرى إلاَّ قتل موسى ولا أَستصوب غير ذلك، كما أني لا أرى لكم إلّا ما أرى لنفسي من الثبات والاستمرار على تكذيب موسى والإيمان بي، وما أهديكم بهذا الرأي الذي أقوله لكم إلاَّ سبيل الرشاد أي سبيل الصواب والصلاح[١٠٩٥].

٥٣٤- عودة الرجل المؤمن إلى التحذير والنصيحة لقومه:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾[١٠٩٦] وهذا إخبارٌ من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمِنِ آل فرعون أنه حذّرَ قومه بأسَ الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة، وذكرّهم بما حلّ بالأمم المكذِّبة لرسلهم، وكيف حلّ بهم بأس الله وعذابُه، وما رده عنهم رادٌ ولا صدّه عنهم صادٌّ ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله، وإنَّ سننه تعالى في المكذبين واحدة، وإنه يخاف عليهم أن يصيبهم ما أصابهم. ثم قال لهم ذلك الرجل الصالح مؤمنُ آلِ فرعون: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾[١٠٩٧]، ويوم التنادِ هو يوم القيامة؛ لأنَّ فيه ينادي أَهْلُ الجنة أهلَ النار: ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾ ونداء أهل النار لهم: ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾[١٠٩٨] ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ ﴾ أي فارّين هاربين من الفزع، ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه[١٠٩٩].

٥٣٥ - استمرار الرجل المؤمن على تحذيره ونصحه لقومه:

ثم استمر الرجل المؤمن موبخاً ومحذراً قومه فقال: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ

(١٠٩٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٤، تفسير الرازي ج٢٧ ص٦٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص٣١٠، والآية في سورة غافر «المؤمن» ورقمها ٢٩.

(١٠٩٦) سورة المؤمن، الآيتان ٣٠و٣١.

(١٠٩٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٨-٧٩.

(١٠٩٨) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٣٨.

(١٠٩٩) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤١، تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٩.

رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1100]، وبخهم بأنَّ يوسف عليه السلام أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين حتى إذا توفي يوسف ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، وبعزم مسبق منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم السابق الباطل، وليس قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته[1101].

ثم قال الرجل المؤمن: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه. ثم قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل ولا حجة معهم، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته فإنَّ من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي عن اتّباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ أي الذي يقتل بغير حق[1102].

٥٣٦- الرجل المؤمن يستمر في وعظه:

قال تعالى حكاية عما قاله الرجل المؤمن - مؤمن آل فرعون - في وعظه لقومه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[1103].

أي قال مؤمن آل فرعون لقومه اقتدوا بي بالدين أهدكم سبيل الرشاد، أي طريق الهدى الموصل إلى الجنة. ثم زهّد في الدنيا وذمّها وصغّرَ شأنها لأنَّ الإخلاد إليها

(١١٠٠) سورة المؤمن، الآيات، الآيتان ٣٤ و٣٥.

(١١٠١) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٦.

(١١٠٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٩.

(١١٠٣) سورة غافر «المؤمن» الآية ٣٩.

هو أصل الشرّ، ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في الآخرة، فأخبرهم عن الحياة الدنيا بأنَّها شيءٌ يُتمتَّع به أياماً قليلة ثم تزول هذه الدنيا ومتاعها، ورغبّهم في الآخرة إذ هي دار الاستقرار التي لا زوال لها ولا انتقال منها إلى غيرها بل هي إمّا نعيم دائم وإما جحيم دائم، فليسلك العاقل ما يوصله إلى نعيمها لا ما يوصله إلى جحيمها، والنعيم الدائم خير من المتاع القليل الزائل، وقال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرةُ خيراً من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ، والآخرة ذهب باقٍ(١١٠٤).

٥٣٧- قانون المجازاة في وعظ الرجل المؤمن:

قال تعالى حكاية عما قاله الرجل المؤمن - مؤمن آل فرعون - في وعظه لقومه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١١٠٥).

وهذا الذي قاله ذلك الرجل المؤمن يعتبر سُنَّةً من سنن الله أي قانوناً عاماً في المجازاة لا يتخلف ولا يتبدل وهو: من عمل سيئةً - وأعظمها الشركُ والكفرُ بالله - فلا يُجزَىٰ من العذاب إلاّ بقدر ما تستحق سيئتُهُ من الجزاء، لأَنَّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة الذي تستحقه ظلم، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ وعلى رأس العمل الصالح: لا إله إلاّ الله، يقولها ويعمل بمقتضاها، وهو مؤمن بالله ورسله وبما يجب الإيمان به، فهذا يجزىٰ على عمله الصالح بغير حساب. فقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ يعني: إنَّ جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على استحقاقها من الجزاء، وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل بما شاء الله تعالى من الزيادة على ما يستحقه هذا العمل الصالح من الجزاء، لأَنَّ هذه الزيادةَ فضلٌ والله ذو الفضل العظيم(١١٠٦).

(١١٠٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٨٠، تفسير القرطبي ج١٥ ص٣١٦-٣١٧، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٥، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٨، تفسير الرازي ج٢٧ ص٦٨-٦٩.

(١١٠٥) سورة غافر «المؤمن» الآية ٤٠.

(١١٠٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٨، تفسير الرازي ج٢٧ ص٦٩-٧٠.

٥٣٨- سبب دخول النار والنجاة منها في وعظ الرجل المؤمن:

قال تعالى حكاية عما وعظ به مؤمن آل فرعون قومه: ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾(١١٠٧) كرر الرجل المؤمن نداء قومه لما في ذلك من تنبيه لهم وإيقاظ من غفلتهم، وتذكيرهم بأنّهم قومه وهو واحد منهم يريد لهم الخير والنصيحة الخالصة فهو يتطلف بهم بتكرير ندائهم بـ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ ﴾ وهذا يستدعي أن لا يتهموه فيما يقوله لهم وينصحهم به، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه بقوله: يا أبت(١١٠٨). ودعوتُه قومه إلى النجاة تعني دعوته لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله موسى عليه السلام لأنَّ هذه الدعوة إلى عبادة الله وتصديق رسوله هي وسيلة النجاة من النار. وكذلك دعاء قومه له إلى الكفر واتباع دينهم هو دعاءٌ إلى وسيلة وسبب دخول النار. ثم بينَّ لهم الفرق ما بين الدعوتين: دعوته لهم إلى عبادة الله وحده التي هي وسيلة النجاة من النار، ودعوتهمْ له إلى الكفر بالله والشركِ به وهي وسيلة الدخول إلى النار، فلا شك أنَّ الذي تدعونني إليه لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وليس له قَدْرٌ وحق يجب أن يُدَعى أحدٌ إليه ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي أنَّ مرجعنا جميعاً إلى الله أي في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، فأي عاقل يجوّز له عقله الاشتغال بعبادة غير الله ويعرض عن عبادة الله الذي لا بد أن يكون مرجعه إليه ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ ﴾ وأن جزّاء المشركين في اليوم الآخر هو دخول النار(١١٠٩).

٥٣٩- ما ختم به الرجل المؤمن وعظه لقومه وما آل إليه أمره:

قال تعالى حكاية عما قاله مؤمن آل فرعون خاتماً به كلامه مع قومه:

(١١٠٧) سورة غافر، الآيات ٤١-٤٣.

(١١٠٨) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٨-١٦٩.

(١١٠٩) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٨، تفسر ابن كثير ج٤ ص٨٠، تفسير الرازي ج٢٧ ص٧١.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾[١١١٠] وبعد أن أنهى مؤمن آل فرعون وعظه لقومه وتحذيره لهم مما هم فيه من كفر وشرك دون أن يأخذوا بقوله ووعظه، توعَّدَهُمْ بأنَّهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم وسيعلمون صدق ما أمرهم به ونهاهم عنه وسيندمون حيث لا ينفعهم الندم: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وهذا كلام من هُدِّدَ بأمر يخافه، فكأنهم خوّفوه بالقتل وهو أيضاً خوفهم بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ثم اعتمد في دفع ما خوفوه به على الله تعالى فقال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه السلام، وأمَّا في الآخرة فبالجنة، وهذا ما آل إليه أمر مؤمن آل فرعون: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ وهو الغرق في اليم ثم النّقلَةُ منه إلى الجحيم[١١١١].

٥٤٠- إصابة آل فرعون بالشدائد لعلهم يتذكرون:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١١١٢].

أي ابتلينا آل فرعون بالسنين أي بالجدبِ والقحط ، والسَّنَةُ في كلام العرب: القحط والجدب، يقالُ: أصابتهم سَنَةٌ أي جدبٌ، وسنين في الآية جمع سنة وهي كما قلنا تعني الجدْبَ والقحط[١١١٣]. وآل فرعون: قومه أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة، وهم الملأ من قومه، لأنهم هم المعاندون لموسى في الأصل وإنما وقوع العذاب والشدائد على غيرهم بالتبع لهم، لأَنَّهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم وكفرهم. والظاهر أَنَّ المراد بـ ﴿ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ في الآية: قومه وهم أهل مصر في عهده لأنَّ عامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الأخذ بالقحط والجدْبِ ونقص

(١١١٠) سورة غافر «المؤمن» الآيتان ٤٤ و٤٥.

(١١١١) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٨، ابن كثير ج٤ ص٨١، تفسير الرازي ج٢٧ ص٧١.

(١١١٢) سورة الأعراف، الآية ١٣٠.

(١١١٣) تفسير ابن عطية ج٦ ص٤٦، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٣-٢٦٤.

الثمرات ما لا ينالُ فرعونَ وأهل بيته وخاصةً ملأه. وقومُهُ نالهم العذاب لأنَّهُمْ مؤاخَذون بظلمه وطغيانه، لأنَّ قوته المالية والجندية منهم، وهذا فضلاً عن متابعتهم له في الكفر والشرك بالله، فكان حقاً عليهم أن لا يقبلوا استعباد فرعون لهم وجعلهم آلة لطغيانه ورضاهم باتّباعه في كفره، لا سيما بعد بعثة موسى عليه السلام ووصول دعوته إليهم، ورؤيتهم لما أيده الله به من المعجزات. وإنما أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون أي يتَّعظون بأنَّ ما أصابهم هو بسبب كفرهم وإسنادهم لظلم فرعون وطغيانه ومتابعتهم له، فيقلعوا عن ذلك ويؤمنوا بما جاء به موسى من ربه فيزول عنهم العذاب، عذابُ القحط والجدبِ ونقص الثمرات، ولأنَّ الناس في وقت الشدائد يضرعون إلى الله وترق قلوبهم، وربما يحملهم ذلك إلى الإيمان بالله وترك ما هم فيه من كفر وظلم وعصيان لله[١١١٤].

٥٤١ - جهل قوم فرعون بسنين الله.

قال تعالى في وصف حال قوم فرعون في عدم اتعاظهم بما يصيبهم من خير وشر مما يَدلُّ على شدة كفرهم وضلالهم وجهلهم لسنين الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١١١٥]. كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينيبوا إلى الله ويرجعوا إليه بالتوبة والإيمان به وبرسوله، فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي الخصب والسّعَةُ في الرزق ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي جدبٌ وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءموا به وبمن معه، أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ما قُدِّر لهم وعليهم فهو عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما أصابهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بسبب ذنوبهم وكفرهم وظلمهم وعصيانهم لا من عند موسى وقومه[١١١٦]. أي أنَّ الشؤم الذي نسبوه إلى موسى والشدائدَ التي حَلَّتْ بهم، ونسبوها إلى موسى وقومه

(١١١٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٤٤، تفسير المنار ج٩ ص٨٣-٨٤.

(١١١٥) سورة الأعراف الآية ١٣١.

(١١١٦) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٧، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٤-٢٦٧.

وجعلوها من آثار وجوده عليه السلام فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه، فهو تعالى قد جعل لكل شيءٍ قدراً من حسنة وسيئة بمعنى أنه تعالى وضع لنظام الحياة سنناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب، والنتائج بما يناسب مقدماتها، فبمقتضىٰ هذه السننِ والأقدار ينزل البلاء عليهمْ، لأَنَّ من سنن الله أنَّ الكفْرَ والعصيانَ من أسباب نزول العذاب والشدائد(١١١٧).

٥٤٢-إصرار فرعون على كفرهم وعدم اتعاظهم بآيات الله:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

إنَّ قوم فرعون، بتضليلٍ منه ومن ملئه، لم يتعظوا بما أخذهم الله من القحط والجدبِ ونقص من الثمرات، ولم يذعنوا لما أيدَّ الله به تعالى موسى من الآيات بل أصرّوا على كفرهم، حتى بعد إيمان كبار السحرة بعدما تبيّن لهم أنَّ ما جاء به موسى هو من عند الله وليس من السحر. وفي هذه الآية بيانٌ لإصرار قوم فرعون على كفرهم، فقالوا لموسى عليه السلام: مهما تأتنا به من معجزة أو آية تستدل بها على صدقك ودعوتك لأجل أن تسحرنا بها أي تصرفنا بها بدقة عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك بني إسرائيل فما نحن لك بمصدقين ولا لرسالتك بمتبعين(١١١٨).

٥٤٣- ابتلاء قوم فرعون بشدائد جديدة:

ابتلى الله تعالى قوم فرعون بالسنين وبنقص من الثمرات لعلهم يتذكرون، إلاَّ أنهم لم يتذكروا ولم يتعظوا وظلوا مصرين على كفرهم وعنادهم ورفضهم مقدماً لكل آية يستدل بها على صدقه ورسالته كما ذكرنا في الفقرة السابقة، وبناء على هذا الإصرار ابتلى الله تعالى قومَ فرعون بما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(١١١٩). أي فأنزلنا عليهم هذه النكبات والشدائد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أي المطر الشديد حتى عاموا فيه ودام

(١١١٧) تفسير المنار ج٩ ص٨٦-٨٧.

(١١١٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٩-٢٤٠، تفسير المنار ج٩ ص٨٧.

(١١١٩) سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

عليهم أياماً، فقالوا لموسى عليه السلام: ادع لنا ربك يكشفْ عنا فنؤمِنَ بك، فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا، فأنبتَ الله لهم في تلك السّنَةِ ما لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع، فقالوا: كان ذلك الماء نعمة؟ فبعث الله عليهم ﴿الجراد﴾ فأكل زروعهم وثمارهم، فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كشف عنهم الجراد، فدعا موسى ربه فكشف، وكان قد بقي من زروعهم شيء فقالوا: يكفينا ما بقي، ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم ﴿القمل﴾، فأكلت دوابّهم وزروعهم ولزمت جلودهم كأنها الجدري عليهم ومنعتهم النومَ والقرارَ، فتضرعوا فلما كُشِفَ عنهم لم يؤمنوا فأرسل الله عليهم ﴿الضفادع﴾ وهي المعروفة التي تكون في الماء، فشكوا إلى موسى وقالوا: نتوب فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم، فأرسل الله إليهم ﴿الدم﴾ فسال النيل عليهم دماً[١١٢٠] ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ومعنى: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم. أو فَصَلَ بين آية وآية بزمانٍ تمتحن فيه أحوالهم ويُنْظَرُ أيستقيمون على ما وعدوا به أنفسهم أم ينكثون إلزاماً للحجة عليهم[١١٢١]، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي توقفوا عن الإيمان بالله بالرغم من هذه الآيات الباهرات الدالة على صدق رسوله، وكانوا قوماً مجرمين، لهم اجترام على الله وعلى عباده[١١٢٢].

٥٤٤- تكرار نكث العهد من فرعون وقومه:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[١١٢٣] والمعنى: لما وقع على فرعون وقومِهِ ذلك العذابُ المذكورُ في الآية السابقة من الطوفان والجراد.. الخ، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز - أي العذاب - إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم فحصَدَ منهم خلقاً كثيراً، فقالوا عند نزول كل نوع من العذاب؟ أو عند نزول العذاب

(١١٢٠) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦٧-٢٧٠.

(١١٢١) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٤٨.

(١١٢٢) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٢، تفسير القرطبي ج٧ ص٢٧١.

(١١٢٣) سورة الأعراف الآيتان ١٣٤، ١٣٥.

الجديد - الطاعون - يا موسى ادع ربك بالذي عهد به إليك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء، أن يكشف عنا هذا الرجز ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة منها إذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون في قسمهم، فلا يؤمنون بموسى ولا يدعونه يخرج ببني إسرائيل[1124] وكان هذا النكث منهم والإصرارُ على كفرهم وتكذيبهم بآيات الله سبباً لإهلاكهم كما سنبينُه فيما بعد.

٥٤٥- إيمان امرأة فرعون:

ذكرنا فيما سبق وجود رجل مؤمن من آلِ فرعونَ كان يكتم إيمانه، ثم أعلنه مجادلاً قومه عما آمن به ومدافعاً عن موسى وعما جاء به، وواعظاً قومه على النحو الذي بيّناه من قبل. ونذكر فيما يلي ما جاء في كتاب الله العزيز بشأن إيمان امرأة فرعون بالرغم من عيشها في بيته وكونها زوجة له، لأَنَّ الإيمان إذا خالطت بشاشتُهُ القلب لم يبال صاحبه بكثافة الباطل وجبروت المبطلين. قال تعالى عن إيمان امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1125]، قال أهل التفسير في هذه الآية: إنه مثلٌ ضَرَبَهُ الله تعالى للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم بهذه المخالطة، فقد كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم وما ضرَّ امرأتَهُ كفرُ زوجها حين أطاعت ربها بإيمانها به وبرسوله موسى عليه السلام. ولما علم فرعون بإيمانها وأراد منها الرجوع إلى دينها والكفر بما آمنت به رفضت ذلك فأمر بتعذيبها فدعت ربها بأنْ يثبتها على الإيمان ويعوضها عن بيتها الذي تعيش فيه ببيت في الجنة، وأن ينجيها من فرعون ومن كفره ومما هو عليه من الضلال ومن ظلمه وتعذيبه، ومن قومه الظالمين المشاركين له في الكفر والظلم، فاستجاب لها ربها وتوفّاها ونجاها من فرعون وقومه. وفي دعائها دليل على أنَّ

(١١٢٤) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٢، تفسير المنار ج٩ ص٩٣.

(١١٢٥) سورة التحريم، الآية ١١.

الالتجاء إلى الله عند المحن والشدائد من سير الصالحين(١١٢٦).

٥٤٦- من آمن بموسى من قوم فرعون:

قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(١١٢٧) يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات إلَّا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخَوْفٍ منه ومن ملئه أن يردُّوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأنَّ فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيتُهُ منه خوفاً شديداً(١١٢٨). ومن الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون الرجل الذي كان يكتم إيمانه وهو من آل فرعون وقد مرّت قصته. وكذلك آمنتْ زوجة فرعون كما ذكرنا من قبل.

٥٤٧- الحوار بين موسى وقومه في مصر:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١١٢٩). يقول تعالى مخبراً عن موسى إنه قال لقومه بني إسرائيل، طالباً منهم التوكل على الله والاعتمادَ عليه إن كانوا مؤمنين بالله مطيعين له مستسلمين منقادين لأوامره. فقالوا: على الله توكلنا ولا نلتفت إلى غيره، ثم دعو الله تعالى قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولفظ ﴿فِتْنَةً﴾ هنا يحتمل معنىٰ الفاتن والمفتون، فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولىٰ عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنْهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، فيظنوا أنهم على الحق وأننا على الباطل. ومن الثابت بالتجارب أنَّ سوء حال المؤمنين وضعفهم وتسلط الكفار عليهم يجعلهم

(١١٢٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩٣-٣٩٤، تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٧٢-٥٧٣، تفسير ابن عطية ج١٤ ص٥٢٥، تفسير الرازي ج٣٠ ص٤٩.

(١١٢٧) سورة يونس الآية ٨٣.

(١١٢٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٧-٤٢٨.

(١١٢٩) سورة يونس الآيات ٨٤-٨٦.

موضعاً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم باعتقاد أنهم خيرٌ من المؤمنين، كما أنَّ تسلط الكفار على المؤمنين يصير فتنة للمؤمنين لما قد يتسلل إلى قلوبهم - بسبب تسلط الكفار عليهم - من شك في أنهم على الحق، وأنَّ أعداءهم الكفار على باطل ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي نجنا برحمتك وإحسانك من سلطان وتسلط وحكم الكافرين، لأَنَّ حكم الكافر لا يطاق(١١٣٠).

٥٤٨- موسى يأمر قومه بجعل بيوتهم مساجد:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١١٣١).

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اتخذوها مساجد، حيثُ إِنهم كانوا خائفين فأمروا أن يصلّوا في بيوتهم، وكأَنَّ هذا، والله أعلم، لمّا اشتد بهم البلاءُ من قِبَلِ فرعون وقومه وضيقوا عليهم، أُمِروا بالصلاة في بيوتهم في خِفْيَةٍ من الكَفَرَةِ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة(١١٣٢). ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بالثواب والنصر القريب(١١٣٣).

٥٤٩- موسى يأمر قومهُ بالصبر والاستعانة بالله:

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١١٣٤).

قال لهم ذلك موسى عليه السلام حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا، فأراد موسى عليه السلام أن يسكنّهم ويسليهم ويعدهم النصرة على أعدائهم: فرعون وقومِهِ، وتوريثهم أرضهم وديارهم، وأنَّ العاقبة دائماً وأبداً

(١١٣٠) تفسير المنار ج١١ ص٤٧٠-٤٧١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٨.
(١١٣١) سورة يونس، الآية ٨٧.
(١١٣٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٤، تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٨.
(١١٣٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٨-٤٢٩.
(١١٣٤) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

للمتقين في الدنيا والآخرة، فهم أصحاب العاقبة المحمودة لإيمانهم بالله واستعانتهم به وصبرهم على ما يصيبهم في سبيل الله(١١٣٥).

٥٥٠- جواب قوم موسى ورده عليهم:

قال قوم موسى له وقد سمعوا أمره لهم بالاستعانة بالله وبالصبر: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾(١١٣٦) يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله - إرسال موسى - لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئاً، فهو يؤذيهم ويظلمهم ويقتّل أبناءهم بعد إرساله كما كان يفعل من قبل إرساله وأشد. فقال لهم موسى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ أي قال موسى عليه السلام لقومه رداً على ما قالوا: إنَّ المرجوَ من فضل ربكم أن يُهْلِكَ عدوكم فرعونَ الذي سخركم لخدمته وآذاكم بظلمه، ويجعلكم خلفاءَ في الأرض التي وعدكم إياها والتي يمنعكم فرعونُ من الخروج إليها، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها: هل تشكرون النعمة أمْ تكفرون؟ وهل تصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون(١١٣٧).

٥٥١- دعاء موسى على فرعون وملئه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(١١٣٨). هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئِهِ لما أَبَوْا قبول الحق، واستمروا على كفرهم وضلالهم معاندين جاحدين، فقال موسّى في دعائه ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن

(١١٣٥) تفسر الزمخشري ج٢ ص١٤٣، تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٩.

(١١٣٦) سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

(١١٣٧) تفسير المنار ج٩ ص٨٠-٨١.

(١١٣٨) سورة يونس الآيتان ٨٨، ٨٩.

سَبِيلِكَ﴾ أي أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينةً من الحلي والحلل والآنية والأثاث وغيرها من متاع الدنيا، وأموالاً كثيرة الأنواع والمقادير ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي ليفتتنن بما أعطيتهم مَنْ شئت من خلقك ليظُنَّ من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهلكها، ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله تعالى ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنَّهُ لا خير فيهم، ولا يحصل منهم شيء ولا إيمان. قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ حيث إنَّ موسى كان يدعو وهارون يؤمِّنُ على دعائه، أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير فرعون وملئه ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري وعلى ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج بهم من مصر ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تسلكانِّ طريق الذين لا يعلمون سُنَّتي في خلقي وإنجازَ وعدي لرسلي، فتستعجلان الأمر قبل أوانه[١١٣٩].

٥٥٢- خروج موسى بقومه من مصر وهلاك فرعون وجنوده[١١٤٠].

لما طال مقام موسى عليه السلام بمصر، وأقام فيها حُجَجَ الله وبراهينَهُ على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون لم يبق لهم إلَّا العذاب بعد هذا الإمهال الطويل من رب العالمين. فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أنْ يخرج بقومه بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُؤمَر، ففعل موسى عليه السلامُ ما أمره به ربُّه عزوجل، وأعلمه بأنَّ فرعون سيتبعكم هو وجنوده، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[١١٤١]. وذلك أنَّ فرعون لما علم بخروج موسى بقومه غاظه ذلك، فأرسل سريعاً في أنحاء بلاده، حاشرين أي من

(١١٣٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٢٩، تفسير المنار ج١١ ص٤٧٢-٤٧٤ تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٠٤-٢٠٨، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٦.

(١١٤٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٣٥-٣٣٧، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٨-٢٠.

(١١٤١) سورة الشعراء، الآية ٥٢.

يحشر له الجند ويجمعهم من مختلف أنحاء بلاده قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾[1142] فلما تكامل جمعهم سار بهم فرعون يريد اللحاق بموسى وقومِهِ، قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾[1143] أي أتبعهم فرعون وجنوده وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1144] أي لما تقارب الجمعان: جَمْعُ موسى وقومِهِ، وجَمْعُ فرعون وجنده، بحيث صار كل فريق يرى الفريق الآخر، قال أصحاب موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي سيدركنا ويصل إلينا فرعون وجندُهُ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1145] أي قال موسى عليه السلام لقومه: كلا، أي لن يدرككم فرعون وجنده لأنَّ الله وعدكم بالخلاص منهم، وإن ربي سيهديني إلى طريق النجاة منهم ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[1146]. ولما وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر، ومن ورائهم فرعون وجنوده، أوحى الله تعالى إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر، أي فضربه فانفلق فكان كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط من بني إسرائيل طريق. وقد جعل الله تعالى هذه الطرق في قاع البحر يابسة يمكن السير عليها بسهولة ويسر، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في سورة طه ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[1147] أي لا تخاف دركاً من فرعون فلن يصل إليك، ولا تخاف من البحر أن تغرق أنت وقومك فيه. ولما حصل انفلاق البحر وسار في طرقه موسى ومن معه حصل ما أخبرنا الله به بقوله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾[1148] أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه فدخلوا فيه على آثر بني إسرائيل ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا

(١١٤٢) سورة الشعراء، الآية ٥٣.

(١١٤٣) سورة الشعراء، الآية ٦٠.

(١١٤٤) سورة الشعراء، الآية ٦١.

(١١٤٥) سورة الشعراء الآية ٦٢.

(١١٤٦) سورة الشعراء، الآية ٦٣.

(١١٤٧) سورة طه، الآية ٧٧.

(١١٤٨) سورة الشعراء الآية ٦٤.

ٱلْآخَرِينَ﴾[1149] أي أنجينا موسى ومن معه فلم يهلكْ منهم أحد، وأغرقنا الآخرين بإطباق البحر عليهم فهلكوا جميعاً بالغرق، والذين كانوا مع فرعون جنودُه الذين جمعهم، كما جاء في آية أُخرى ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾[1150] وكما جاء في قوله تعالى ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[1151].

٥٥٣- إيمان فرعون، وإلقاء جثته على الساحل:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[1152]. أي لما جاوز بنو إسرائيل البحر بمعونة الله تعالى وهم بصحبة موسى عليه السلام، فلما خرج آخرهم من البحر انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، فتبعهم فرعون وجنوده لأجل البغي والاعتداء عليهم، فلما صاروا جميعاً في طرق البحر التي سلكها موسى ومن معه أمر الله القديرُ البحر أَنْ يطُبِقَ عليهم، فأطبق عليهم فلم ينج منهم أحد، وتراكمت الأمواجُ فوق فرعون وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، لأنَّهُ إيمانٌ وقت مشاهدة العذاب، وهذه هي سنة الله في عدم قبول إيمان الكافر وقت نزول العذاب به قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1153] ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أي أهذا الوقت تقول ما تقول وقد عصيت الله قبل فيما بينك وبينه ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي في الأرض مع الذين أضلوا الناس ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

(١١٤٩) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٥٠) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٥١) سورة طه الآية ٧٨.

(١١٥٢) سورة يونس الآيات ٩٠-٩٢.

(١١٥٣) سورة غافر، الآيتان ٨٤-٨٥.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل حصل عندهم شك في موت فرعون، وأظهروا ذلك لموسى عليه السلام، فأمر الله تعالى البحر أن يلقي بجسد فرعون سوياً بلا روح على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي بجسدك بلا روح سوياً صحيحاً لم يتمزق، ليعرفوه ويتحققوا من موته ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأَنَّ الله هو القادر الذي ناصيةُ كلِّ دابة بيده. وقال بعض العلماء: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي لمن يأتي بعدك من القرون. والواقع أنَّ قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ يتسع للقولينِ أي لمن قال: المقصود بهذا هم بنو إسرائيل، ولمن قال: لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونِهِ ﴿ءَايَةً﴾ أي أن تظهر للناس عبوديةُ فرعون ومهانته، وأنَّ ما كان يدّعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عِظَم الشأنِ وكبرياء الملكِ آلَ أمْرُهُ إلى ما ترونه لعصيانه ربّهُ عزوجل، فما الظن بغيره؟ أو المعنى: لتكون عبرة تعتبر بها الأُمم بعدك فلا يجترؤوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله وما صنع الله بك جزاء طغيانك وكفرك[١١٥٤] ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها[١١٥٥].

٥٥٤- أسباب هلاك فرعون وجنوده:

المستفاد من آيات القرآن العظيم المتعلقة بهلاك فرعون وجنوده بإغراقهم في البحر أَنَّ أسباب هلاكهم هذا، هي: ادعاءُ فرعون الربوبية والألوهيةَ لنفسه، ومتابعةُ قومه ومنهم جنده له في هذه الدعوى الباطلة، وتكذيبهُم بآيات الله وغفلتُهم وإعراضُهم عنها، واستكبارُهم وظلمُهم وإنكارُهم بعثَهم بعد الموت لحسابهم، وإفراطهم في المعاصي على نحوٍ يستدعي إنزالَ العقاب بهم، وعدمَ إمهالهم أكثر مما أُمهلوا.

(١١٥٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣٠-٤٣١، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٩.

(١١٥٥) تفسير القرطبي ج٨ ص٣٨١.

٥٥٥- أولاً - ادعاء فرعون الربوبية والألوهية:

ادعى فرعونُ الربوبيةَ والألوهية لنفسه، وقد أخبرنا الله تعالى بذلك فقال تعالى حكاية عن فرعون في دعواه الباطلة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(١١٥٦). وهدّد موسى بالسجن إن اتخذ إلهاً غيره، فقال تعالى حكاية عما قاله فرعون لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(١١٥٧). وفي ادعاء فرعون الربوبية قال تعالى عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾(١١٥٨). وقد أطاعه قومُه ومنهم جنودُهُ واتبعوه في دعواه الباطِلَةِ هذه، وفيما أمرهم به من ضلال بناء على دعواه هذه، قال تعالى عنهم: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(١١٥٩). ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾(١١٦٠).

٥٥٦- ثانياً - التكذيب بآيات الله:

قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(١١٦١). يخبر تعالى عن فرعون وقومه ومنهم جنوده أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات واحدة بعد واحدة، انتقم الله منهم بإغراقه وإغراق جنوده معه في البحر الذي فرقه الله لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم جاء فرعون وجنوده على أثرهم، فلما صاروا فيه أطبقه الله عليهم، فغرقوا عن آخرهم بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم وتغافلهم عنها(١١٦٢).

(١١٥٦) سورة القصص الآية ٣٨.

(١١٥٧) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(١١٥٨) سورة النازعات، الآية ٢٣، ٢٤.

(١١٥٩) سورة الزخرف الآية ٥٤.

(١١٦٠) سورة هود، الآيتان ٩٦، ٩٧.

(١١٦١) سورة الأعراف الآية ١٣٦ وانظر الآيتين ٤١ و٤٢ من سورة القمر.

(١١٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٤٢.

٥٥٧- تكذيبهم كان جحوداً بما استيقنته أنفسهم:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[١١٦٣]. يخبرنا الله تعالى عن فرعون وقومه، لمّا جاءتهم آيات الله مبصرة، أي واضحة ظاهرة ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ أي جحدوا آيات الله التي أيدَّ الله بها موسى، جحدوها في ظاهر أمرهم ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي اعتقدوا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وأنكروها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي ظلماً من أنفسهم وعلواً أي استكباراً عن اتباع الحق. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة يوم واحد[١١٦٤].

٥٥٨- ثالثاً - الاستكبار والظلم:

قال تعالى مخبراً عن استكبار فرعون وجنوده وظلمهم: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١١٦٥]. أي إنَّ فرعون وجنودَه طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرضِ الفسادَ وظلمَ العباد[١١٦٦]. واستكبارهم واستكبار غيرهم لا يكون إلاَّ بغير الحق، لأنَّ الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده وهو المتكبر على الحقيقة أي المتبالغ في كبرياء الشأنِ[١١٦٧]، ومن أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ «الجبار المتكبر»، أي الذي لا يليق الجبروت إلا له ولا التكبر إلاَّ لعظمته كما جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه ﷺ عن ربه: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته»[١١٦٨] وقال تعالى عن ذاته المقدسة: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى

(١١٦٣) سورة النمل، الآيتان ١٣ و١٤.

(١١٦٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٧.

(١١٦٥) سورة القصص الآيتان ٣٩، ٤٠.

(١١٦٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٠.

(١١٦٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٥.

(١١٦٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٣.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1169] قال مجاهد: يعني له السلطان أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه[1170]، فكل مستكبر سوى الله تعالى فاستكباره بغير الحق. ومع استكبار فرعون وجنوده إنكارهم البعث بعد الموت وحسابَهم يوم القيامة، ولذلك أهلكهم الله تعالى، قال تعالى عن إهلاكهم وحلول العقاب بهم: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ﴾ أي أغرقناهم في صبيحة يوم واحد فلم يبق منهم أحد. وتعبير القرآن الكريم بـ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ﴾ من الكلام المفخم الذي يدل على عظمة الله تعالى وكبرياء سلطانه فقد شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم وإن كانوا كثيرين، شبههم بما يطرح، كحصيات أخذها آخذ في كفه فطرحهن في البحر[1171].

٥٥٩- رابعاً - الإفراط بالمعاصي:

قال تعالى عن فرعون وجنده: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1172]. أي فلما أسخطونا وأغضبونا بإفراطهم في المعاصي استوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نمهلهم أكثر مما أمهلناهم[1173].

٥٦٠- من جريمة جنود فرعون إعانتهم له:

هذا وإنَّ من جريمة جنود فرعون التي تضاف إلى أسباب هلاكهم واستحقاقهم العقاب الذي نزل بهم مِثْلَ فَرعونَ أَنهم كانوا أعوانَه وأنصارَه على البغي والظلم واستعباد العباد، جاء في مختار الصحاح «الجند: الأعوان والأنصار»[1174]، وجاء في مفردات الراغب: «ويقال للعسكر الجند»[1175]. فجنود فرعون إذَنْ هم أعوانه وأدواتُه في بغيه وظلمه ولولاهم لما استطاع بمفرده أنْ يفسد في الأرض ويظلمَ

(١١٦٩) سورة الجاثية الآية ٣٧.

(١١٧٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٥٣.

(١١٧١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٥.

(١١٧٢) سورة الزخرف الآية ٥٥.

(١١٧٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٥٩.

(١١٧٤) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص٤٨.

(١١٧٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ص٩٨.

العباد. وكان جنودُهُ من الكثرة بحيث مكنّوه من بغيه وإفساده وظلمه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[١١٧٦] وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ قيل له: ذو الأوتاد، لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد[١١٧٧]. ومن المعلوم أنَّ تعذيبه بالأوتاد إنما يكون بجنوده، يأمرهم بتعذيب من يريد بالأوتاد أو بغيرها فينفذون ما يأمرهم به.

(١١٧٦) سورة الفجر ٦-١٤.

(١١٧٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٤٨.

المبحث الرابع
ما يستفاد من قصة موسى عليه السلام مع فرعون للدعوة والدعاة

٥٦١- قد يكون الفرج بعد الشدة سريعاً:

على الدعاة أن يجعلوا من مواضيع الدعوة تذكيرَ المسلمين بأنَّ الفرج بعد الشدة قد يأتي سريعاً وقد يأتي بعد حين، وكل ذلك بمشيئة الله وحكمته فهو الذي يدفع الضر عن الإنسان ويأتيه بالفرج بعد الشدة. فعلى المسلم أن يتوجه إلى ربه لرفع ما حلّ ويحل به من شدة وضرر، ولكنْ لا يجوز له أبداً أن يوقّتَ لله تعالى وقتاً لاستجابة دعائه ورفع ما به من ضرّ، فالفرج قد يكون سريعاً كما قلت وقد يكون بعد أمد طويل. ومن أمثلة الفرج السريع ردُّ موسى وهو رضيع إلى أمه بعد أن ألقته في اليم قال تعالى عن هذا الردّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١١٧٨).

وبشأن هذا الردّ وزوال الشدة التي كانت فيها أمُّ موسى بسبب فراقها لابنها موسى وخوفها عليه حيث ألقته باليم، قال ابن كثير: ولم يكن بين الشدة والفرج إلاّ القليل: يوم وليلةٌ أو نحوه والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً(١١٧٩).

٥٦٢- وقد يكون الفرج بعد حين:

وكما قد يكون الفرج بعد الشدة سريعاً، قد يكون بعد طول أمد الشدة، ومن أمثلة ذلك مجيء الفرج ليعقوب عليه السلام بردّ يوسف، ابنه، إليه بعد طول أمد ما عاناه

(١١٧٨) سورة القصص، الآية ١٣.

(١١٧٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٨٤.

من فقد يوسف عشرات السنين كما مرّ بنا في قصة يوسف عليه السلام. ومن أمثلة هذا الفرج أيضاً ابتلاء أيوب عليه السلام بالمرض وملازمته له سنين طويلة، ولم يأته الفرج إلاّ بعد طول أمد معاناته به، قال تعالى: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[1180] والضرُّ هو الضرر في النفس من مرض وهزال، وقد ألطف عليه السلام في السؤال حين ذكَّر نفسَه بما يستعطف به نزول الرحمة عليه من ربه، وذكر ربّه بغاية الرحمة التي وسعت كل شيءٍ وطمع أن لا تضيق بحاله. وقد جاء في تفسير هذه الآية: إنَّ الله ابتلاه بهلاك ولده وماله وبالمرض في بدنه أكثر من عشر سنوات أو أقل منها بقليل، ثم جاءه الفرج بعد الشدة حيث عافاه الله وأزال ما به من مرض وعوّضه عما فقده من ولد ومال[1181].

٥٦٣- الفرج للجماعات المسلمة:

والفرج بعد الشدة غير مقصور على الأفراد بل يشمل الجماعات المسلمة أيضاً، فيرفع الله عنهم الشدائد وهي غالباً ظلم الطغاة وبطشهم بهم، ويأتيهم الفرج بإهلاك هؤلاء الطغاة، كما فعل الله تعالى بفرعون وجنودِه الذين آذوا قوم موسى بتقتيل أبنائهم وتسخيرهم في أشق الأعمال وأرذلها، وكان الفرج لهم بإغراق فرعون وجنوده في البحر وخروج موسى وقومه من مصر سالمين كما قال تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾[1182] أي فرعون وجنده كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1183] فكان في هلاكهم عبرةٌ للمعتبرين وبيان لسنة الله في الفرج بعد الشدّة للجماعات المؤمنة. قال تعالى في هلاك فرعون وجنده وسبب هذا الهلاك وما فيه من عبرة ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾[1184]. ووقت الفرج للجماعة المسلمة التي حلت بها الشدائد قد

(١١٨٠) سورة الأنبياء، الآية ٨٣.

(١١٨١) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣١، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٨.

(١١٨٢) سورة الشعراء الآيتان ٦٥، ٦٦.

(١١٨٣) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٨٤) سورة الزخرف، الآيتان ٥٥، ٥٦.

يكون عاجلاً وقد يكون آجلاً، وهو على كل حال راجع إلى مشيئة الله وحكمته ومرتبط بسنن الله في خلقه وبما تقومُ به الجماعة من أسباب رفع الشدائد عنها واستدعاء مقتضيات الفرج وعلى رأسها: الاستعانة بالله والصبر على طاعته وعن معصيته وعلى قضائه، كما قال موسى لقومه وقد اشتد عليهم ظلم فرعون وتوعدهم بما حكى الله عنه قوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ قال موسى لهم كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١١٨٥].

٥٦٤- نصرة المظلوم واجبة:

ذكرنا في قصة موسى أنه انتصر للذي استغاثه ضد ظالمه، لأَنَّ نصرة المظلوم واجبة، ولكنها ينبغي أن تكون بقدر ما يندفع به ظلم الظالم وبغيُهُ، ولهذا لما وكز موسى الرجُلَ المعتديَ فقضى عليه، قال عن فعله هذا إنه من عمل الشيطان لتجاوز موسى عليه السلام حدَّ الدفاع الشرعي عن المظلوم، وإن كان هذا التجاوز دون قصد ولا عمد من موسى عليه السلام، ولذلك قال عليه السلام كما يحكيه الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١١٨٦] وعلى هذا فينبغي للدعاة أنْ يؤكدوا في دروسهم ووعظهم للناس هذا المعنى وهو: وجوب نصرة المظلوم، وهو بعض حق المسلم على أخيه المسلم، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله» ومن الخذلان أنْ لا تدفع الظلم عنه وأنت قادر على ذلك. ولكن يجب التأكيدُ على أنَّ دفع الظلم عن المظلوم يكون بقدر ما يندفع به الظلم لا بأكثر من ذلك؛ لئلا يصير الظالمُ مظلوماً من قبل المنتصر للمظلوم، وهذا لا يجوز لأنَّ الظلم حرام بالنسبة لكل الناس، وبالنسبة للظالم نفسه أيضاً.

(١١٨٥) سورة الأعراف ١٢٨، ١٢٩.

(١١٨٦) سورة القصص الآية ١٦.

٥٦٥- من الحرام شرعاً معونة الظالم:

غفر الله لموسى قتله ذلك الظالم المعتدي دون قصد من موسى ولا تعمد في قتله، فقال موسى عند ذلك معاهداً ربه بعدم معاونة المجرمين، قال تعالى حكايةً عما قاله موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[(١١٨٧)]. قال الإمام ابن عطية وهو يفسر هذه الآية: (احتج أهل الفضل والعلم بها - أي بهذه الآية - في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيءٍ من أمرهم ورأوا أنَّ هذه الآية تتناول ذلك، نصَّ عليه عطاء بن أبي رباح)[(١١٨٨)]. ونصُّ كلام عطاء بن أبي رباح الذي يشير إليه ابن عطية هو - كما نقله الإمام القرطبي - (فلا يحل لأحدٍ أن يعين ظالماً، ولا يكتب له ولا يصحبه وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين)[(١١٨٩)].

٥٦٦- تحذير الأمة من معونة الحاكم الظالم:

واضح من كلام ابن عطية والمنقول عن عطاء بن أبي رباح وتأييد القرطبي لهما فيما ذكراه أنهم يريدون بالظالم المحظور عونه ومعونَتُهُ هو الحاكم الظالم، وحتى إذا لم يريدوا ذلك على وجه الخصوص فمن المؤكد أَنَّ أولى من يشمله التحذير من معونة الظالمين هو الحاكم الظالم. والواقع أنَّ المسلمين عموماً إلاَّ القليل منهم يغفلون عن حرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم، ومن هنا كان من واجبات الداعي المسلم، بل من أولويات واجباته في الدعوة: تبصير الأمة بحرمة وخطورة معونة الحاكم الظالم. ويؤكد هذا الواجبَ أمران: **(الأول)**: أنَّ الحاكم الظالم ما كان يمكنه الاستمرار في ظلمه وبغيه لولا معونة أعوانه و**(الثاني)**: أنَّ كثيراً من المسلمين لا يرون بأساً ولا تناقضاً بين معونة الحاكم الظالم وبين الالتزام المطلوب بأحكام الإسلام، ولهذا تراهم يصلّون ويصومون بل ويبني بعضهم المساجد وهم من أكثر الناس عوناً للحاكم الظالم وتنفيذاً لأوامره الجائرة في حق الإسلام ودعاتِهِ.

(١١٨٧) سورة القصص، الآية ١٧.

(١١٨٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٧٧.

(١١٨٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٦٣.

٥٦٧- كيف يقوم الداعي بالتحذير المطلوب للأمة:

نريد بالتحذير المطلوب للأمة من معونة الحاكم الظالم، ذلك التحذيرَ الذي يحملهم على الفرار من كل ما يمكن اعتباره معونة للحاكم الظالم كما يفرون من الاقتراب من النار المحرقة أو الأسد الهائج الجائع، فكيف يمكن ذلك للداعي المسلم؟ والجواب: عليه أن يقوم بما يأتي:

٥٦٨- أولاً - تبصير الأمة بما ورد في النهي عن معونَةِ الظالم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[١١٩٠]. وجاء في تفسيرها: الركون هو الميل اليسيرِ إلى الشيءِ، والنهيُ متناوِلٌ للانحطاط في هوى الذين ظلموا والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم والتزيي بزيهم، وذكرِهِمْ بما فيه تعظيم لهم[١١٩١]، فإذا كان هذا داخلاً في معنى الركون إلى الذين ظلموا المنهيِّ عنه والمترتب عليه دخولُ النار، فكيف بمن يعينهم فعلاً على ظلمهم وينفذ أوامرهم الظالمة؟.

٥٦٩- ثانياً-أعوان الظلمةِ ظلمة مثلهم:

من حدود الله، أي ما شرعه الله تعالى: عدم الركون إلى الظَّلَمَةِ، ومنه معونة الحاكم الظالم، فمن أعانه فقد تعدى حدودَ الله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١١٩٢]. فأعوان الظلمة ظلمة مثلهم، وقد دلّ على هذا أيضاً قوله تعالى عن فرعون وأعوانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾[١١٩٣] فقد وصفهم الله تعالى جميعاً بالخطيئة، ومن خطيئتهم: الظلم الذي كان يرتكبه فرعون بحق بني إسرائيل في مصر ويعاونه عليه هامان وجنوده وجنود فرعون.

(١١٩٠) سورة هود، الآية ١١٣.

(١١٩١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٣٣.

(١١٩٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(١١٩٣) سورة القصص، الآية ٨.

٥٧٠- ثالثاً- اشتراك الظالم وأعوانه بالعذاب:

وعذاب الدنيا الذي يصيب الحكامَ الظلمةَ يصيب أعوانَهم أيضاً لأنهم ظَلَمةٌ مثلهم. ولهذا لما نزل العذاب بفرعون نزل بأعوانه أيضاً، قال تعالى عن هلاك فرعون وجنوده بالغرق: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1194]. فجعلهم الله تعالى جميعاً ظالمين: فرعون لمباشرتِهِ الظلمَ إرادة له وأمراً به، وجنوده لمعاونتهم له بتنفيذ ظلمه وما يأمرهم به من أنواع بغيه وظلمه، فأهلكهم الله جميعاً بالغرق في البحر، وأمّا في الآخرة فإنّ نصيب أعوان الظلمة كنصيب الظلمة من العذاب، قال تعالى عما يصيب فرعون وأعوانه يوم القيامة من العذاب: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[1195] وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون وما حلّ بفرعون وجنود من سوء العذاب: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾[1196]. وسوء العذاب الذي حلّ بهم هو الغرق في البحر كما قال المفسرون[1197]. وما قالوه هو الصواب بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾[1198]. والذين غرقوا في البحر عقاباً لهم هم فرعون وجنوده لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1199]. ثُمَّ يوم القيامة يدخل فرعونُ وأعوانه الذين أهلكهم الله بالغرق في الدنيا، يدخلهم الله تعالى في أشد العذاب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1200].

(١١٩٤) سورة القصص الآية ٤٠.

(١١٩٥) سورة هود الآية ٩٨.

(١١٩٦) سورة غافر، الآية ٤٥.

(١١٩٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٨٠، تفسير الرازي ج٢٧ ص٧٣، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٩.

(١١٩٨) سورة الأنفال، الآية (٥٤).

(١١٩٩) سورة القصص، الآية ٤٠.

(١٢٠٠) سورة غافر، الآية ٤٦.

٥٧١- رابعاً - عدم الإنكار على الظالم سبب للعقاب العام:

ويبين الداعي المسلم لمن يدعوهم ويعظهم بما أخرجه الترمذي في جامِعِهِ عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقاب منه»[١٢٠١].

ومن الواضح أنَّ معونة الحاكم الظالم أدعى إلى نزول العقاب العام من مجرد عدم الإنكار عليه.

٥٧٢- خامساً - لا يُدعَى لظالم بالبقاء:

لا يجوز للمسلم أن يدعو لظالم بالبقاء أو بطول العمر، لأنَّ في هذا الدعاء رغبةً من الداعي في إبقاء الظالم وبالتالي تمكينهِ من الظلم، وقد جاء النهيُ عن هذا الدعاء في الحديث النبوي الشريف: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبَّ أن يُعصَى الله في أرضه»[١٢٠٢]. ومن الواضح الجليّ أنّ معونة المسلم للظالم أشدُّ عصياناً لله تعالى من مجرد الدعاء له بالبقاء، فإذا نُهِيَ المسلمُ عن مجرد الدعاء للظالم فنهيه عن معونته أولىٰ.

٥٧٣- سادساً - لا يسعى المسلم إلى دفع الهلاك عن الظالم:

سئل الإمام سفيانُ الثوريُّ عن ظالم أشرف على الهلاك في برّية، هل يسقى شربة ماء لتخليصه من الموت عطشاً؟ فقال: لا، فقيل له: نتركه يموت؟ فقال: دعه يموت[١٢٠٣]. وهذا الخبر عن سفيان الثوري - وهو إمامٌ جليل في الفقه - يرينا نظرة فقهائنا للظلمة، إلى درجة أنَّ هذا الإمام الورع الجليل لا يجيزُ للمسلم أن يسقي الظالم شربة ماء تدفع الهلاك عن نفسه، وأكبر الظن أنَّ الثوري يقصد بالظالم في هذه

(١٢٠١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج٨ ص٤٢٣.

(١٢٠٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٣٣، وقال مخرج أحاديث التفسير: رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(١٢٠٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٤٣٣.

المسألة الحاكم الظالم، فمن بابِ أولى أنه يغلِّظُ النهيَ عن معونة الحاكم الظالم؛ لأنَّ في معونته استمراراً لظلمه وأذاه للناس.

٥٧٤- سابعاً - ضرب الأمثال لإظهار قبح معونة الظالم:

وقد يكون من المفيد للداعي المسلم ضربُ الأمثالِ لإظهار قبح معونة الحاكم الظالم وأي ظالم غيره، بأنْ يقال لهذا الذي يعين الحاكمَ الظالم بالقول أو بالفعل: أترضىٰ وتقبل أن تزوج ابنتك لرجل نصراني مهما دفع من مهر لابنتك ومالٍ كثير لك؟ فإنه سيقول: لا. فقل له لماذا؟ فسيقول لك لأنه مسلم، والإسلام يحرم أن ينكح الكافر مسلمة. فقل له: وكذلك يحرم الإسلام على المسلم أن يعين ظالماً. وقل له أيضاً: أترضى وتقبل أن تعين أحداً على فعل الفاحشة بامراة، أو أن تكون خادماً تقدم الخمور لرواد نوادي الفحش والخمور بأجر كثير جداً؟ فإنه سيقول: لا، فقل له: لماذا لا تقبل ذلك والأجر كثير جداً؟ فسيقول لك: إنه فعلٌ حرام ومشينٌ ولا يليق بكرامة المسلم، فقل له: وكذلك خدمتك للحاكم الظالم فعلٌ حرام ومشينٌ ولا يليق بذي الكرامة والعزة.

٥٧٥- لا يجوز للجماعة المسلمة أن تعين ظالماً:

الجماعة المسلمة، هي جماعة الدعاة إلى الإسلام، فيلزمها ما يلزم الفرد المسلم شرعاً. ومن ذلك أَنْ لا تركن للذين ظلموا ولا تعين ظالماً، حاكماً كان هذا الظالم أو ذا نفوذ في المجتمع، لأنها إن فعلت ذلك وقعت في معصية الله، وفقدت ثقة الناس وفقدت ما هو أكبر من ثقة الناس وهو عون الله وتأييدُه وتخليه عنها، لأنها صارت جماعة ظالمة بإعانتها للظالمين، والله يقول: ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[(١٢٠٤)] ويقول تعالى: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[(١٢٠٥)] وعلى الجماعة المسلمة أنْ تعرف جيداً ما يدخل في مفهوم معونة الظالم وبالتالي لا يجوز، وما لا يدخل في هذا المفهوم وبالتالي يجوز، ولكن الفارق بينهما دقيق جداً، ولكن بتقوى الله وبالتزام الجماعة المسلمة بالنهجِ السديد في الدعوة إلى الله يكون لها بصرٌ حديدٌ

(١٢٠٤) سورة الشورى، الآية ٨.

(١٢٠٥) سورة البقرة الآية ٢٧٠.

يفرق بين الجائز والمحظور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[١٢٠٦]. وكلمة ﴿ فُرْقَانًا ﴾ في الآية الكريمة كلمة جامعة مطلقة مثل كلمة (تقوى)، فالتقوى إذا شبهناها بالشجرة المثمرة فالفرقان هو بَعْضُ ثمارها. ومعنى الآية: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتقَى بمقتضى دينه وشرعه وبمقتضى سننه في نظام خَلْقِهِ يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى وبسببها مَلَكَةً من العلم والهداية والنور في قلوبكم، تفرقون بهذا كله بين الحق والباطل، وبين ما يجوز وما لا يجوز من الأقوال والأفعال، كما تسلمكم هذه التقوى إلى نصر به يُفْرَقُ بين المحق والمبطل وبه يكون إعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين[١٢٠٧].

٥٧٦- خروج الداعي من بلده فراراً من عدوه:

ويجوز عند الضرورة خروج الداعي من بلده فراراً من عدوه، ولهذا قبل موسى نصيحة مؤمن آل فرعون بالخروج من مصر؛ لأنَّ الملأ من قوم فرعون يتشاورون في قتله، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[١٢٠٨]. والفرار المشروع من العدو عند الضرورة لا يشترط فيه أن يكون فراراً من القتل بل يكفي أن يكون مما يؤذي ويمنع الداعيَ من الدعوة، كحبسه مثلاً وإيذائه بدنياً بما هو دون القتل، كما لا يعتبر هذا الفرار جبناً من الداعي، لأنَّ الداعي في كر وفرّ مع أعداء الدعوة، أي هو معهم في حالة حرب، وفي الحرب كرٌّ وفرٌّ وتحولٌ من جهة إلى أخرى، واتباعُ خِطّةٍ دون أخرى، ومن خطط الحرب عدم مواجهة العدو، والاختفاء منه والذهاب بعيداً عنه وأخيراً بالفرار الموغل في البعد عن العدو إلى درجة الخروج من بلد الداعي. والداعي إذ يفعل ذلك لأنَّ حياته ليست ملكاً له بل هي ملك لله، والله تعالى يريد إبقاءها خدمة لدعوته فلا يجوز له أن يعرضها للهلاك بالبقاء في مواجهة العدو مع عدم التكافىء

(١٢٠٦) سورة الأنفال الآية ٢٩.

(١٢٠٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٤، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠٠، تفسير الألوسي ج٩ ص١٩٦، تفسير القرطبي ج٧ ص٣٩٦، تفسير الرازي ج١٥ ص١٥٣. وانظر كتابنا السنن الإلهية ص١٢٩-١٣٤.

(١٢٠٨) سورة القصص الآية ٢٠.

في القوة بينه وبين عدوه، ولهذا أَذِنَ ربنا تعالى لنبيه سيدنا محمد ﷺ بالهجرة إلى المدينة والخروج من مكة متخفياً من قريش. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١٢٠٩) أي فخرج موسى عليه السلام من مصر وهو خائف أن يتعرض له العدو في طريقه، ودعا ربه أن ينجيه من القوم الظالمين فخروج الداعي من بلده عند الضرورة من سبل الحذر المشروع الذي يدفع به الداعي الضرر الأشد بتحمل الضرر الأخف.

٥٧٧- التقدم لمساعدة المحتاج للمساعدة ولو لم يطلبها:

ومن المستحسن جداً أن يتقدم الداعي لمساعدة من يتوسم فيه الحاجة إلى المساعدة وإن لم يطلبْها منه، إذا رأى الداعي من أحواله ما يستدعي إلى السؤال منه عما به، تمهيداً لمساعدته إذا تبينت حاجته إلى المساعدة، وهذا ما فعله موسى، فإنّهُ لما توجه تلقاء مدين وصل إلى مائها حيث يستقي منها الناس هناك، جرى له ما قصه الله علينا، بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١٢١٠). أي وجد موسى على ماء مدين أمّةً كثيفة العدد يسقون أغنامهم، ووجد في مكان أسفلَ مِن مكانهم امرأتين تطردان وتدفعان عن الماء أو تمنعان مواشيهما عن الماء، فجلب هذا المنظر انتباه موسى، فتقدم إليهما وسألهما: ما شأنكما؟ فقالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيَهم عن الماء لعجزنا عن مزاحمتهم وحذراً من مخالطة الرجال، فسقى لهما موسى أي سقى غنمهما من غير أجر ثم رجع إلى الظل الذي كان جالساً فيه(١٢١١).

إنَّ قيام الداعي المسلم أو الجماعة المسلمة بمساعدة المحتاجين إلى المساعدة قبل أن يتقدم هؤلاء المحتاجون بطلب المساعدة، إنَّ هذا الصنيع من الدعاة والجماعة المسلمة شيء مؤثر جداً في الآخرين ويجذبهم إلى الدعوة. هذا وإنَّ

(١٢٠٩) سورة القصص الآية ٢١.

(١٢١٠) سورة القصص الآيتان ٢٣، ٢٤.

(١٢١١) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٠١-١٠٢.

المساعدة التي ندعو الدعاة والجماعة المسلمة إلى تقديمها للمحتاجين لا تقتصر على المساعدة المادية بل تشمل أية مساعدة يحتاجها المحتاجون ماديةً كانت أو معنوية بل قد تكون المعنوية أكبر أثراً من المادية، ومن هذه المساعدة المعنوية الدفاعُ أمام المحاكم والجهات المختصة عن الموقوفين والمعتقلين من قبل الدولة ظلماً وعدواناً.

٥٧٨- يجوز عند الضرورة اشتغال المرأة خارج بيتها:

في سؤال موسى المرأتين اللتين كانتا تذودان عن ماء مدين ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فقولهما ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ بيان للسبب الذي حملهما على القيام بمهمة سقي أغنام أبيهما عوضاً عنه، وهذا السبب هو أَنَّ أباهما شيخ كبير، أي فلكونه كبيراً فهو عاجز عن الخروج وسقي غنمه، وليس في بيتنا رجل يقوم بذلك إلاّ هو، وهو عاجز فاضطرنا الحال إلى أن نقوم نحن بسقي الغنم، فعلى الداعي المسلم عند كلامه عن حكم الشرع في عمل المرأة خارج بيتها أَنْ يبينَ أنَّ الأصل وإن كان هو القرار بالبيت بالنسبة للمرأة إلاَّ أنه يجوز عند الضرورة اشتغالها خارج البيت، كما فعلت ذلك ابنتا شعيب، وكما كانت أسماء امرأة الزبير تفعل ذلك فقد كانت تأتي بالنوىٰ تحمله على رأسها من مكان بعيد عن المدينة، لأنّ زوجها الزبيرَ رضي الله عنه كان مشغولاً بالجهاد، فكانت مضطرة إلى مثل هذا العمل خارج البيت[١٢١٢]. وقصة أسماء هذه وحمْلُها النوىٰ من أرضٍ بعيدة عن بيتها لحاجة زوجها لهذا العمل واطلاعُ النبي ﷺ على حالها وفعلها وسكوته ﷺ دليل واضحٌ على جواز عمل المرأة خارج البيت إذا كان هناك ضرورة لعملها، ووجه الضرورة في عمل أسماء أنَّ زوجها الزبير كان في حال انشغال بنصرة الإسلام والجهاد في سبيله، وعجزه عن استئجار من يقوم له بما كانت تقوم به زوجته أسماء رضي الله عنها[١٢١٣].

(١٢١٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٩ ص٣١٩-٣٢٠.

(١٢١٣) كتابنا أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية ج٤ ص٢٧٠-٢٧١.

٥٧٩- الخوف مما جرت العادة بأذاه لا يقدحُ بإيمان الخائف:

خوف الداعي المسلم مما جرت العادة بأذاه لا يقدحُ بإيمان الداعي المسلم الخائف، فقد خاف موسى عليه السلام من العصا عندما أمره الله بإلقائها وانقلابها إلى حية تسعى، قال تعالى مخاطباً موسى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾[١٢١٤]. فموسى عليه السلام خاف من انقلاب العصا حية، فكان سبيل الخلاص من أذاها الهرب، فناداه الرب جلّ جلاله بالرجوع وعدم الخوف فإنه آمنٌ من أذاها. فإذا خاف الداعي المسلم مما يُخاف منه عادة فلا حرج عليه من أخذ الحذر منه والخلاص من أذاه بالوسيلة الممكنة.

٥٨٠- للداعي أن يبين حاله ويقترح ما يعينه على الدعوة:

لا مانع من ذكر الداعي عذره وبيان حاله واقتراح ما يعينُهُ على الدعوة إذا أرسلته الجماعة المسلمة للقيام بعمل معين أو مهمة خاصة، ودليلنا على ذلك القياس على ما تقدم به موسى من بيانٍ لحاله وظروفه عندما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، قال تعالى حكاية عما قاله موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[١٢١٥]، وقد أجابه الله تعالى إلى طلبه بإرسال هارون معه باعتباره رسولاً معه إلى فرعون، كما أنَّ الله تعالى طمأن موسى مما خاف منه فقال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[١٢١٦].

٥٨١- الخوف من ذي السلطة لا يعيب الداعي:

والخوف من ذي السلطة لا يعيب الداعي، ولا ينقص من قدره، ولا يقدح في توكله على الله تعالى، وإنما يحمله على الحذر وبيان الواقع لمرجعه، وهذا يستفاد

(١٢١٤) سورة القصص الآية ٣١.

(١٢١٥) سورة القصص الآيتان ٣٣، ٣٤.

(١٢١٦) سورة القصص الآية ٣٥.

من قول موسى لربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ فدلّ ذلك على أنَّ الخوف من ذي السلطة والسلطان قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله ويقينهم بأنَّ الأمر كله بيد الله إذ قد يسلط الله من يشاء على من يشاء[1217]. إلاّ أنَّ خوف العارفين بالله يحملهم على أخذ الأسباب ومنها الحذر من المخوّفِ وعرضُ الأمر على مرجع الداعي، أو إلى إخوانه الدعاة ليتعاونوا على دفع ما يتوقعونه من هذا الذي يخافه الداعي.

٥٨٢- الحرص على إنجاح الدعوة ولو بإشراك الغير في عمل الداعي:

ومن علامات الداعي الصادق حرصه على إنجاح الدعوة وبلوغ أهدافها ولو بإشراك غيره في عمله، ويزداد حرص الداعي على إشراك غيره معه في أعمال الدعوة كلما خاف من نفسه تقصيراً في متطلبات الدعوة، وعدم قدرته على الانفراد والاستقلال في أعمالها ومتطلباتها. ونستفيد هذا المعنى من طلب موسى من ربه تعالى أن يرسل معه أخاه هارون، مبيناً سبب هذا الطلب بأنه أفصح منه لساناً، وليكون معه معيناً في تبليغ دعوته، وقد ذكرنا قول الله تعالى في طلب موسى ونعيده هنا: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[1218].

وقال تعالى في هذا الطلب من موسى، في آية أخرى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾[1219] فالداعي المسلم الصادق المخلص في دعوته لا يتردد أبداً في الاستعانة بغيره من الدعاة أعضاء الجماعة المسلمة، والطلب من مسؤولي هذه الجماعة بإشراك الكفؤ معه في أعمال الدعوة، أو بإسنادها إليه عوضاً عنه إذا رأى المصلحة في ذلك، وإذا أحس الداعي بضيق في صدره من عمل المسلم الكفءِ في الدعوة وفي إقبال الناس عليه، فليعلم أنَّ إخلاصه مشوب بحب السمعة والرياء فليُسرع إلى تنقية إخلاصه من هذه الشوائب، وليفسح المجال لغيره من الدعاة

(١٢١٧) تفسير القرطبي ج١٣ ص٩٢.

(١٢١٨) سورة القصص الآية ٣٣.

(١٢١٩) سورة طه، الآيات ٢٩-٣٥.

الأكفاء في جهاد الدعوة إلى الله تعالى.

وليعلم الدعاة إلى الله تعالى أنَّ شرّ ما تبتلىٰ به جماعتهم: الفرقة والتحاسد الخفي فيما بينهم. ومظهر هذا التحاسد التطلع إلى تولي مسؤوليات العمل الجماعي في جماعتهم المسلمة إشباعاً لرغباتهم الخفية في حبِّ الظهور والإمارة، وقد يُلْبِسون رغباتهم هذه لباس الحرص على مصلحة الدعوة.

٥٨٣- العاقبة للمتقين:

كان من جملة ما ذكَّر به موسى قومَهُ قولُه لهُم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٢٢٠].

وقوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ سُنَّةٌ إلَهية لا تتخلف مطلقاً وهي أنَّ العاقبة الحسنة هي للمتقين في الدنيا والآخرة، فليست هي مقصورةً على الآخرة بدخول الجنان وإنما تشمل عاقبتهم الحسنة المرضية في الدنيا، وهذه العاقبة الحسنة تشمل انتصارهم على أعدائهم وإزاحة الظلم عنهم، واستردادَ حقوقهم وعزتهم وكرامتهم وعلوَّ مكانتهم، وكلَّ ما يدخل في مفهوم العاقبة الحسنة التي تخلفُ وتعقُب حالتهم السيئة من ذل وهوانٍ وضياعِ حقوقهم وثَلْمٍ في كرامتهم وعزتهم وتبعية ذليلةٍ لغيرهم من الكفرة والمنافقين. وهذه العاقبة الحسنةُ هي ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم القائمون بمقتضيات ولوازم ومعاني التقوى. والتقوى كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه)[١٢٢١]، ومن جملة ما أمر الله به الصبر والاستعانة به، ويدخل في مفهوم التقوى: تقوى الله بمراعاة سننه تعالى في الخلق وفي أسبابِ الإرث في الأرض، والنصر على الأعداء، كالاعتصام بالحق والعدل والصبر على المكاره، والاستعانة بالله في جميع الأحوال والاتحاد، وجمع الكلمة وإقامة شرع الله في شؤون الحياة وعلاقات الأفراد، وإعداد القوة اللازمة للغلبة والانتصار[١٢٢٢]، فالقائمون بمعاني التقوى ومستلزماتها ومقتضياتها هم

(١٢٢٠) سورة الأعراف الآية ١٢٨.

(١٢٢١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٨ ص٥٢٦.

(١٢٢٢) تفسير المنار ج٩ ص٧٩.

الموصوفون حقاً بالتقوى ويستحقون نعتهم باسم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وبالتالي هم الذين تكون لهم العاقبةُ الحسنةُ في الدنيا والآخرة.

إنَّ على الدعاة إلى الله تعالىٰ توضيحَ هذه السُنَّةِ الإلهية للمسلمين وتذكيرَهم بها دائماً، لرفع اليأس من نفوسهم، وإشاعة الأمل في قلوبهم، وحثهم على تحقيق الشرط - شرط التقوى - لينالوا الجزاء الذي جاء في هذه السنة الإلهية: وهي العاقبة الحسنة. إنَّ على الدعاة أن لا يملوا من تكرار الكلام عن هذه السنّة الإلهية وتوضيحها للمسلمين وضرب الأمثال لها، لأنَّ المسلمين أصابهم إحباطٌ شديدٌ وخيبة أمل مريرة من شدة ما عانوه من تضليل أهل الدجل والضلال، وعجز وخيانة ولاة الأمور، وضياع الديار والحقوق، حتى غدوا في حالة يخشى معها على إيمانهم.

٥٨٤- اختلاف الناس في الاستجابة للحق:

ومما ينبغي للداعي معرفته جيداً حتى لا يضجر من عدم استجابة الناس لدعوته أنَّ الناس بطبيعتهم يختلفون في مدى استعدادهم للاستجابة لصوت الحق، وفي سرعة هذه الاستجابة. ونستدل على ذلك بإيمان السحرة، فقد جاؤوا عازمين على إبطال معجزة موسى عليه السلام، معتقدين أنها من جنس سحرهم، فلما تبيَّنَ لهم الحق، وأنَّ ما جاء به موسى ليس بسحر بل هو برهان صدقه ونبوته آمنوا حالاً، ولم يهتموا بتهديد فرعون لهم، وهذا شأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب. ومن الأمثلة على سرعة الاستجابة، إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلَّا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلّا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ماعكم - أي ما تلبث - حين ذكرتُه لهُ وما تردد فيه»[١٢٢٣]. وبين السريع جداً في الاستجابة للدعوة وصوت الحق والبطيءِ جداً في الاستجابة درجات كثيرة جداً تستعصي على العدّ والإحصاء، فمن الناس من يقبل الحق الذي تنادي به الدعوة إلى الله بدون تردد حتى كأنه كان ينتظر سماع الدعوة ليؤمن، ومن الناس مَنْ لا يقبل الدعوة إلى الله ويظل يقاومها ويحاربها ثم

(١٢٢٣) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٦٨.

يقبلها بعد ذلك كما حصل لإيمان أبي سفيان. فعلى الداعي أن يفقه ذلك ولا يتعجب منه ولا يضجر منه، ولا ييأس من الاستجابة له حتى من أعتى الناس وأشدهم مقاومة للدعوة.

٥٨٥- إظهار الإيمان حيث يحسن الإظهار:

ويحسن من المؤمن إظهار إيمانه حيث يحسن الإظهار، كما لو كان في هذا الإظهار مصلحة للدعوة إلى الله، أو كان فيه تشجيع للآخرين على الإيمان بالدعوة، وهكذا فعل السحرة، فإنهم آمنوا لمّا تبيّنَ صدقُ دعوة موسى، ولم يكتموا إيمانهم، لأنَّ إظهار إيمانهم كان هو المطلوبَ وليس كتمانه، لما في هذا الإظهار من إعلاء صوت الحق، ودعوة صامتةٍ للناس للإيمان بما آمنوا به، وهذا كان، فقد جاء في تفسير القرطبي: (إنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف)[١٢٢٤] وهذا العدد وإن لم يدعمه القرطبي بدليل، إلاَّ أنه مما لا شك فيه أَنَّ من أسلم وآمن في ذلك اليوم عدد كبير سواء أظهروا إيمانهم أو كتموه، لأنَّ الناس خرجوا لمشاهدة ما سيحدث في مقابلة السحرة لموسى، وكانوا قد علموا بمكان وموعد هذه المقابلة كما ذكرنا من قبل. وعلى هذا فعلى الداعي إلى الله أَنْ يظهر صفته وهي أنه من الدعاة إلى الله، كلما كان هذا الإظهار مفيداً للدعوة ومستحباً في شرع الإسلام. وكذلك على المستجيب للدعوة إلى الله أَنْ يظهر استجابته كلما كان هذا الإظهار مفيداً للدعوة ومأذوناً فيه شرعاً.

٥٨٦- من الإظهار المستحب للإيمان:

ومن الإظهار المستحب للإيمان، إظهار مؤمن آل فرعون إيمانه بعد أن كان يكتم إيمانه، لأنَّ الكتمان كان هو المستحب، ولكن لما علم بتآمر القوم: فرعون والملأ معه، على قتل موسى، أظهر هذا الرجل المؤمن إيمانه الذي كان يكتمه ليدافع عن موسى بالحجة والبرهان، ويبيّن لهم سوء ما عزموا عليه، إذ لا مبرر لقتله إلاَّ أَنْ يقول ربيَ الله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ

(١٢٢٤) تفسير القرطبي ج٧ ص٢٦١.

﴿رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلاّ أنَّ حب جدال هذا الرجل المؤمن مع فرعون وملئه دفاعاً عن موسى ودعوته، هذا الجدال منه كشف عن شخصيته المؤمنة وأظهر إيمانه بموسى وبدعوته[1225]. قال ابن كثير رحمه الله: وكان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهره إلاّ في هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجلَ غضبةٌ لله عزوجل، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1226].

٥٨٧- استغلال الصلة بالسلطان لمصلحة الدعوة والدعاة:

وللداعي أن يستغل صلته بذي السلطة لمصلحة الدعوة والدعاة، كما استغل مؤمن آل فرعون صلته بفرعون إذ كان ابن عم له[1227]. فانطلق يتكلم بكل صراحة أمام فرعون وملئه مبيناً لهم أحقيّة دعوة موسى، وأنه لا ينبغي لهم أن يعاقبوه أو يمنعوه من الدعوة متنزلاً معهم في الحوار وفي الجدال على نحوٍ يظهر نصحه لهم، وأنه لا ينبغي لهم معاداته لأنّه لَيس من مصلحتهم هذه المعاداة. وقد استمع القوم لكلامه ونصحه وتوبيخه لهم على عنادهم وكفرهم وإن جاء ذلك التوبيخ بأسلوب ناعم رقيق[1228].

وهكذا ينبغي للداعي أن يستغل علاقته بذي الصلة، سواء كانت علاقة قرابة أو صداقة فيستغلها لمصلحة الدعوة والدعاة، بما يُبَيِّنُهُ لذي السلطة من ضرورة الكف عن معاداةِ الدعوة والدعاة وإلحاق الأذى بهم، لأَنَّ هذه الصلة بين الداعي وذي السلطة تسمح لذي السلطة أن يسمع للداعي ويصغي لما يقول، وقد يستجيب له في بعض ما يقول ويريده منه بشأن الدعوة والكف عن إلحاق الأذى بها وبالدعاة.

٥٨٨- التلطف في الحجاج والجدال:

وعلى الداعي- وهو يستغل صلته بالسلطان- أن يتلطف بالجدال مع السلطان،

(١٢٢٥) انظر الآيات من ٢٨-٤٥ من سورة المؤمن.

(١٢٢٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧.

(١٢٢٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢.

(١٢٢٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٧ وما بعدها، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢ وما بعدها.

ومن هذا التلطف ما سلكه مؤمنُ آلِ فرعونَ مع فرعونَ وملئه، فقد أخذهم بالجدال والحوار على طريقة التقسيم فقال لهم: لا يخلو موسى من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي يعود عليه كذبه وضرر هذا الكذب، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يكن ذلك من هذا الرجل المؤمن لشكٍ منه في رسالةِ موسى وصدقه، ولكن تلطفاً في استجلاب كف أذاهم عن موسى، وإظهاراً للنصح لهم فخاطبهم بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأَدْخَلُ في تصديقهم له وقبولهم منه، وإنما قال لهم: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل كل الذي يعدكم، لأنَّ كلمة البعض قد تستعمل في موضع الكل تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام[١٢٢٩].

وهكذا ينبغي للداعي أن يتلطف في الكلام مع من له صلة به من ذوي السلطة والسلطان، ولكن مع وضوح القول وبيان الحق الذي تدعو إليه دعوة الداعي.

٥٨٩- الحاجة إلى الجو الهادىء ومسالمة الأعداء:

والدعوة في أول نشأتها وقبل استكمال قوتها تحتاج هي وأصحابها من الدعاة إلى جو هادىء خالٍ من المجابهة والمخاصمة مع ذوي السلطة والقوة في المجتمع، ليتمكن الداعي من نشر دعوته بالكلمة الطيبة، والجدال الهادىء، وبالتي هي أحسن. ونستدل لما نقوله بقول موسى لفرعون وقومه: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾[١٢٣٠]. قال ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين: قال موسى أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوءٍ من قول أو فعل ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أنْ يقضي الله بيننا[١٢٣١].

ويفهم من هذا أنَّ الدعوة في أَوّلِ نشأتها وقلة أنصارها تحتاج إلى جو هادىء ومسالَمَةٍ مع الأعداء، ليتمكن الداعي من تبليغ دعوته، وعلى هذا لا يجوز للدعاة

(١٢٢٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٦٢-١٦٣، تفسير القرطبي ج٥ ص٣٠٧.

(١٢٣٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤١.

(١٢٣١) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٤١.

تعمد مخاصمة الحكام مع إمكانهم نشرَ الدعوة بالكلمة الطيبة، وإذا أحسوا من الحكام المضايقة فعليهم المطالبة بالمسالمة والتمكين من حرية الكلمة. وكذلك، في ضوء ما قلناه، على الدعاةِ أن يبتعدوا عما يبعدهم عن جو المسالمة ما داموا غير مضطرين إلى الاقتراب من جو المجابهة والمخاصمة.

٥٩٠- دعوى الإصلاح والفساد في منطق الطغاة:

الطغاة يعتبرون أَنفسهم هم المصلحون وهم الغيارى والقوّام على مصلحة الشعب، ويعتبرون الدعاةَ إلى الله مفسّدين يجب إخماد أنفاسهم، وهذا من الطغاة منهج قديم ومنطق معروف، يتجدد كل حين، فلا يعجبْ منه الدعاة، وإنما عليهم تذكير الناس به وتحذيرهم منه، وفي هذا المنهج والمنطق للطغاة وعلى رأسهم فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾(١٢٣٢).

٥٩١- أعوان الطاغية يزينون له ما يهواه:

وأعوان الطاغية يزينون له ما يحبه ويهواه ليزدادوا عنده حظوة ومكانة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾(١٢٣٣).

وهذا أيضاً أسلوب قديم وعادة متبعة من قبل أعوان الطاغية، يتحسسون ما يهواه الطاغية وما يراه فيشُيرون عليه بما يوافق هواه. وهذا الأُسلوب من أعوان الطاغية يتكرر في كل وقت، فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك ويعرّفوه للناس.

٥٩٢- سياسة الطغاة مع الدعاة لا تتبدل ولا تتغير:

والسياسة التي اتبعها فرعون وسائر الطغاة مع الدعاة في الماضي يتبعها الطغاة معهم في الحاضر، فهي سياسة لا تتبدل ولا تتغير وتقوم على البطش والتنكيل بالحبس والقتل، قال تعالى عن فرعون وما قاله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ

(١٢٣٢) سورة غافر، الآية ٢٦.

(١٢٣٣) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(١٢٣٤) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾(١٢٣٥) فالطغاة لا يقابلون الدعاةَ إلى الله بالحجة والبرهان، وإنما يقابلونهم بالحديد والنار، مستغلين سلطانهم وتبعية الناس لهم، ومسارعتهم في معاونتهم في ظلمهم وبغيهم. فعلى الدعاةِ أن يفقهوا ذلك وأن يكونوا على حذر شديد منهم مثل حذر الجند لأعدائهم في ساحة الحرب.

٥٩٣- العبرة بما حلّ بفرعون وجنوده:

قال تعالى في إهلاك فرعون بالغرقِ جزاءَ كفره وعصيانه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(١٢٣٦)، ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه، ونلقيك على نجوة من الأرضِ، وهو المكان المرتفع ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرقُ ولم يصلهم خبر غرقه وهلاكه، وللأمم اللاحقة الكافرة، لتكون لهؤلاء جميعاً ﴿آيَةً﴾ أي عبرةً من الطغيان والتمرد على أوامر الله تعالى، وليظهر للناس جلياً أَنَّ ما كان يدعيه فرعون من الربوبية هو باطل محال، وأَنَّ مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك وسعة الطغيان وكثرة الأعوان آل أمره إلى ما قصّه الله علينا وشاهده بنو إسرائيل، فما الظن بغيره من الفراعنة الصغار، طواغيت الأرض في الوقت الحاضر؟ ألا يكون ذلك عبرة لهم فلا يجترؤوا على ما اجترأ عليه فرعون إذا علموا بما آل إليه أمره؟ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، فهم مُعْرِضون عنها وعن التأمل والتفكر فيها(١٢٣٧).

(١٢٣٤) سورة الشعراء الآية ٢٩.

(١٢٣٥) سورة غافر الآية ٢٦.

(١٢٣٦) سورة يونس الآية ٩٢.

(١٢٣٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣١، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٦٩، تفسير القرطبي ج٨ ص٣١١، تفسير القاسمي ج٩ ص٧٥.

٥٩٤- تذكير الناس بمصير الطغاة:

فعلى الدعاة تذكيرُ الناس بما حلَّ بفرعون وجنوده حتى لا ييأسوا من هلاك الطغاة وأعوانهم، وحتى لا يكبروا في عيونهم إذا رأوا نفاذ حكمهم ودوام بغيهم وبطشهم وطغيانهم، فهم فراعنة صغار، وقد قصَّ الله علينا ما حلَّ بفرعونهم الأكبرِ في الماضي وما سيحلّ بأمثاله في الحاضر والمستقبل، وهذه هي سَنَّةُ الله في الطغاة الظالمين ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

المبحث الخامس

قصة موسى مع الخضر[1238]

٥٩٥- سبب هذه القصة:

قال الإمام ابن كثير وهو يفسر الآيات المتعلقة بقصة موسى مع الخضر: إنه ذُكِرَ لموسى (أنَّ عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه)، ثم ذكر الإمام ابن كثير حديثاً أخرجه البخاري عن ابن عباس، عن أبيِّ بن كعب عن النبي ﷺ: وفيه أنَّ موسى سئل: «أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك» والظاهر أن المقصود بعبارة «هو أعلم منك»، أي أعلم منك فيما اختصَّ به الخضر، ولم يحط به موسى علماً كما جاء في قول ابن كثير الذي ذكرناه. ويؤيد هذا الذي أقوله أنه جاء في هذا الحديث أنَّ موسى عندما لقي الخضر وطلب مصاحبته ليتعلم منه قال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبراً، وعلل ذلك بقوله: (يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه). وأعود إلى حديث ابن عباس حيث جاء فيه: «قال موسى: يارب وكيف لي به؟- أي كيف الوصول إلى عبدك بمجمع البحرين الذي هو أعلم مني؟- قال: تأخذ معك حوتاً فتحمله في مكتلٍ- وهو زنبيل يصنع من الخوص- فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ- أي هو هناك في المحل الذي فقدت فيه الحوت- فأخذ موسى حوتاً- سمكة- فجعله بمكتلٍ ثم انطلق، وانطلق معه يوشع بن نون، فقال له موسى: لا أكلِّفك إلاَّ أن تخبرني حيث يفارقك الحوت. حتى إذا أتيا الصخرة عند مجمع البحرين نام موسى عليه السلام، فاضطرب الحوت في المكتل،

(١٢٣٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩١ وما بعدها، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٠ وما بعدها، تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٤٦ وما بعدها، تفسير القرطبي ج١١ ص٨ وما بعدها، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٠ وما بعدها.

فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جريان الماء فصار عليه مثل الطاق، ولم يوقظ يوشع بن نون موسىٰ من نومه، فلما استيقظ موسى نسي يوشع أن يخبره بما حدث للحوت. . .» إلى آخر ما جاء في حديث ابن عباس وأشارت إليه الآيات التي أذكرها في الفقرة التالية.

٥٩٦- موسى يسير إلى الخضر:

عزم موسى عليه السلام على الرحلة إلى الخضر، وسار متوجهاً إلى المكان الذي أُخبر أنه فيه، مصطحباً معه يوشُع بن نون، وحدث له ما أخبرنا الله به في هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[١٢٣٩]. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ أي لخادمه وهو يوشع. والفتى في لغة العرب: الشاب، ولما كان الخدم أكثر ما يكونون فتياناً قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب وإن كان كبير السن، وقد ندبت الشريعةُ إلى ذلك في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمامُ مسلمٌ وجاء فيه: «ولا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي»[١٢٤٠].

وقوله: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال سائراً، وقد قال موسى هذه المقالة وهو سائر إظهاراً لعزيمته على الاستمرار في سيره حتى يصل إلى مطلوبه، وهو لقاء الخضر عليه السلام عند مجمع البحرين، ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة في أقصى بلاد المغرب. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان أي زماناً طويلاً. وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، والنسيان إنما كان من يوشع وإنْ نُسِبَ إليهما كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من المالح

(١٢٣٩) سورة الكهف، الآيات من ٦٠-٦٥.

(١٢٤٠) شرح صديق حسن خان على ملخص صحيح مسلم للمنذري ج٨ ص١٩٠.

على أحد القولين. ووجه النسيان من يوشع أنه نسي أَنْ يخبر موسى بعد استيقاظه من نومه بما رآه من حال الحوت ودخوله البحر. وقوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ والسَّبيل: المسلك. والسربُ: المسلك في جوف الأرض، فشُبِّه به مسلك الحوت في الماءِ حين لم ينطبق الماء بعده وإنما صار كالطاق، وهذا قول جمهور المفسرين: إنَّ موضع سلوك الحوت في البحر بقي ماءً جامداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل صار موضع سلوكه حجراً صلداً. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي لما جاوزا مجمع البحرين وهو المكان الذي نسيا الحوت فيه وما حدث له في هذا المكان، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً أي تعباً ومشقة.

وقوله تعالى حكاية عما قاله يوشع لموسى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي نسيتُ أَنْ أُخبرك بخبر الحوت وكيف أنه دخل البحر واتخذ سبيله في البحر سبيلاً عجباً أي عجيباً، حيث أَنَّ الماء وقف جريانه وصار عليه كالطاق، وصار موضع مسلكه ماءً جامداً أو حجراً صلداً كما قلنا. ويحتمل أن يكون يوشع قد قال ﴿عَجَبًا﴾ في آخر كلامه عن الحوت، تعجباً من حاله في رؤيته تلك العجيبة من الحوت ونسيانه لها دون أن يخبر موسى بها، مع أنَّها هي العلامة لمكان الخضر الذي يقصده موسى. فقال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المكان الذي اتخذ فيه الحوت سبيله إلى البحر ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي المكان الذي نطلب فيه الخضر عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي رجعا ماشيين على آثار أَقدامهما يتبعانها ﴿قَصَصًا﴾ أي اتباعاً لهذه الآثار لئلا يخطئا طريقهما فيفوتهما مكان الخضر مرةً أخرى. وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا﴾ أي فأتيا المكان المنسيَّ فيه الحوت وما جرى له فيه: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهذا العبد هو الخضر عليه السلام في قول جمهور العلماء، وعليه نصّت الأحاديث الصحيحة، وتنكير (العبد) للتفحيم والإضافة فيه في قوله تعالى ﴿مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ للتشريف.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ والرحمة هنا النبوة، وعلمناه من لدنا علماً أي علماً جليلاً آثرناه به، وهو علم لدّنيٌّ يكون بتأييد رباني.

قال الإمام ابن عطية عن هذا العلم الذي أوتيه الخضر: (كان علم الخضر معرفة بواطنَ قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها. وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم)[١٢٤١].

٥٩٧- هل كان الخضر نبياً أم ولياً؟:

قال الأكثرون إنه نبي، وقيل إنه ولي ولم يكن نبياً، والقول بأنه نبي هو الصحيح وتشهد له الآية الكريمة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ لأنَّ الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله أي بوحي مباشر له يختص به النبي[١٢٤٢].

٥٩٨- هل الخضر حي أم ميت؟:

الجمهور على أن الخضر مات؛ لأنه لو كان حياً لزمه المجيءُ إلى النبي ﷺ. وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ اتباعي». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ينقل عنه القاسمي في تفسيره: (الخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات. ولو كان حياً على عهد رسول الله ﷺ لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهدَ معه، فإنَّ الله فرض على كل نبي أدرك محمداً ﷺ أن يؤمن به ويجاهد معه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١٢٤٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يبعث الله نبياً إلاّ أخذ عليه الميثاق على أمته لئن بُعِث محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرنَّهُ، ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ، فإنَّ الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً من أن يُلّبس الشيطان عليهم، ولكن لبّس على كثير من بعدهم، فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول له: أنا الخضر وإنما هو شيطان[١٢٤٤]. فالقول بموت الخضر عليه السلام هو الصحيح الذي

(١٢٤١) تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٥٧.

(١٢٤٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٧٦.

(١٢٤٣) سورة آل عمران الآية ٨١.

(١٢٤٤) تفسير القاسمي ج١١ ص٧٦-٧٨ وتفسير ابن كثير ج٣ ص٩٩-١٠٠ وتفسير ابن عطية ج٩ ص٣٨٦.

يجب المصير إليه ولا يعول على ما سواه.

٥٩٩- موسى يطلب العلم من الخضر:

ولما لقي موسى عليه السلام الخضر قال له ما أخبرنا الله به: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[١٢٤٥]. يخبر الله عن قول موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر عليه السلام، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال الملاطف المبالغ في حسن الأدب، والمعنى هل يتفق ويخف عليك؟ وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي أصحبك وأرافقك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي تعلمني مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح.

٦٠٠- جواب الخضر على طلب موسى:

فلما سمع الخضر طلب موسى منه قال له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[١٢٤٦]. أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، فلهذا فأنت لا تقدر على صحبتي. ثم إن الخضر ذكر العذر لموسى في عدم استطاعته على صحبته والصبر عليها فقال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي فأنا أعرف أنك ستنكر عليّ ما أنت معذور فيه، لأنك ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك[١٢٤٧].

٦٠١- جواب موسى على جواب الخضر:

قال تعالى حكاية عن جواب موسى على جواب الخضر: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي قال موسى للخضر ستجدني صابراً على ما أرى من أمورك وأفعالك،

(١٢٤٥) سورة الكهف الآيتان ٦٧، ٦٨.

(١٢٤٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦، تفسير القرطبي ج١١ ص١٧.

(١٢٤٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦.

وعلق صبره على مشيئة الله تعالى، وكان ذلك من موسى لأنه كان حريصاً على تحصيل العلم وازدياده، ورجا أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة أمره وما قد يصدر منه من أفعال لا يعرف موسى وجه الحكمة فيها، فوعده موسى بالصبر معلقاً بمشيئة الله علماً منه بشدة الأمر وصعوبته. ﴿ وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾ ومع وعد موسى للخضر بالصبر وعده أيضاً بأن لا يخالفه في شيء[1248].

٦٠٢- ما اشترطه الخضر على موسى لمصاحبته:

قال تعالى حكاية على ما اشترطه الخضر على موسى ليقبل مصاحبته له: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾[1249]. يعني: فمن شرط اتباعك لي أن لا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرتَه مني ولم تعلم وجه صحته وحكمته حتى أبدأك أنا ببيانه ووجه الحكمة فيه[1250].

٦٠٣- إنكار موسى على الخضر لخرقه السفينة:

قال تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾[1251] يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر: إنهما انطلقا لما توافقا، واشترط الخضر على موسى أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، ولما سارت بهما السفينة وصارت في لجة البحر قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فقال موسى منكراً عليه فعله: ﴿ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا ﴾ وهذه اللام في ﴿ لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا ﴾ هي لام العاقبة وليس لام التعليل، ﴿ لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾ أي قال موسى للخضر: لقد جئت بخرقك السفينة شيئاً منكرا[1252].

(١٢٤٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٤.

(١٢٤٩) سورة الكهف الآية ٧٠.

(١٢٥٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٦.

(١٢٥١) سورة الكهف الآية: ٧١.

(١٢٥٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧.

٦٠٤- الخضر يذكّر موسى بشرطه وموسى يعتذر له:

قال تعالى عما قاله الخضر لموسى مذكراً إياه بما قاله له من قبل، وما اشترطه عليه، وما اعتذر به موسى عن مخالفتِهِ الشرط، فقال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[١٢٥٣] ذكّره الخضر بما تقدم من الشرط. يعني أنَّ هذا الصنيع - وهو خرق السفينة - فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليَّ فيها لأنَّك لم تحط بها خبراً، إذ لها سرٌّ لا تعلمه أنت[١٢٥٤]. فقال موسى معتذراً: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[١٢٥٥] أي قال موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ من الشرط فإنَّ المؤاخذة تفضي إلى العسر. والمراد التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع وهو النسيان، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي لا تحمل عليّ من أمري، في تحصيل العلم منك عسراً، لئلا يلجئني إلى تركه، أي لا تعسر عليّ متابعتك بل يسرها عليّ بالإغضاء وترك المؤاخذة[١٢٥٦].

٦٠٥- الخضر يقتل غلاماً وموسى ينكر عليه:

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[١٢٥٧]. أي انطلقا بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله الخضر، فلما شاهد موسى عليه السلام ذلك أنكره أشد من إنكاره الأولِ على خرق السفينة، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي نفساً طاهرة لم ترتكب ما يوجب قتلها ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أي ظاهر النكارة، وأنكر من الأول وهو خرق السفينة، لأن خرقها يمكن تداركه، وقتل الغلام لا يمكن تداركه[١٢٥٨].

(١٢٥٣) سورة الكهف الآية ٧٢.

(١٢٥٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٤.

(١٢٥٥) سورة الكهف، الآية ٧٣.

(١٢٥٦) تفسير القاسمي ج١١ ص٦٤-٦٥.

(١٢٥٧) سورة الكهف الآية ٧٤.

(١٢٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٥.

٦٠٦- الخضر يكرر تذكير موسى بالشرط:

قال تعالى حكاية عما قاله الخضر لموسى تأكيداً لتذكيره بالشرط: ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[1259]. تأكيد بالتذكار بالشرط الأول. ويلاحظ ورود كلمة ﴿ لَّكَ ﴾ في قول الخضر وتذكاره بالشرط، بينما لم ترد كلمة (لك) في قول الخضر الأول عندما اعترض موسى عليه عند خرقه السفينة، إذ قال له: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ بدون كلمة (لك)، قال الزمخشري في تعليل ذلك: فإنْ قلت ما معنى زيادة ﴿ لَّكَ ﴾؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية - الإنكارُ على فعل الخضر أو السؤال عنه قبل أن يبينه له الخَضْرُ - والوسمُ بقلة الصبر عند الكرَّة الثانية[1260].

٦٠٧- موسى يعد الخضر بالالتزام بشرطه:

قال تعالى حكاية عما قاله موسى للخضر: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾[1261].

أي قال موسى: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾، أي فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، أي لا تقبل صحبتي لك ولا تجعلني صَاحبَك[1262]: ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي قد أعذرت إليّ مرة بعد مرة، وبهذا قد وجدتَ من جهتي عذراً لعدم مصاحبتي[1263].

٦٠٨- الاعتراض الأخير من موسى:

قال تعالى مخبراً عن موسى والخضر عليهما السلام: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ

(١٢٥٩) سورة الكهف الآية ٧٥.

(١٢٦٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٧.

(١٢٦١) سورة الكهف الآية ٧٦.

(١٢٦٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٣٦.

(١٢٦٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٦.

﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1264]. يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأوليين حتى إذا أتيا إلى أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، أي امتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذي هو حق ضيافتهما عليهم. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أي يوشك أن ينهدم ويسقط ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، أي فردّه إلى حالة الاستقامة. وجاء في الأثر أنه ردّه بيده ودعمه حتى ردّ ميله، وهذا شيء خارق جرى على يد الخضر. فعند ذلك قال موسى للخضر: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي لأجل أنهم لم يضيفونا فكان ينبغي أنْ لا تعمل لهم مجاناً مع حاجتنا لأخذ الأجرة لنشتري طعاماً[1265].

٦٠٩- الفراق بين موسى والخضر:

وكان في اعتراض موسى عليه السلام على الخضر في إقامة الجدار مجاناً مبررٌ للفراق بين موسى والخضر، لأنَّ قول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وإن لم يكن سؤالاً، ولكن في ضمنه الإنكارُ على فعله وتصويب أخذ الأجرة على فعله، وفي ذلك تخطئةُ ترك الأجرة عن إقامة الجدار[1266]. وهذا أعظم من السؤال عن سبب فعله الذي وعد موسى الخضر أن لا يسأله عن شيءٍ حتى يبين الخضر سببه.

وبعد اعتراض موسى على الخضر فيما فعله من إقامة الجدار مجاناً، قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ لأنك شرطت على نفسك بعد حادثة قتل الغلام: أنك إن سألتني عن شيءٍ بعده فإني لا أصاحبك وأكون في حلّ من فراقك. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي قال الخضر لموسى قبل أن يفارقه: سأخبرك عن حكمة وأسباب ما فعلته أنا وأنكرته أَنت عليَّ ولم تصبر حتى أخبرك عن سبب وحكمة ما فعلته.

(١٢٦٤) سورة الكهف الآية ٧٧.

(١٢٦٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٨، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٦.

(١٢٦٦) تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٧٥-٣٧٦.

٦١٠- الخضر يبين سبب خرقه السفينة:

قال تعالى حكاية عما قاله الخضر بشأن السفينة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾(١٢٦٧). قال الخضر عليه السلام مبيناً سبب ما فعله بشأن السفينة التي خرقها: أنها كانت لمساكين، أي لفقراء يعملون في البحر، أي يحترفون بالعمل في البحر لنقل الناس من ساحل إلى آخر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، أي إنما خرقتها لأعيبها لأنهم أي الفقراء أصحاب السفينة يمرون بها على ملك ظالم يأخذ كل سفينة سليمة جيدة غصباً، فأردت أن أعيبها لأردّهُ عنها فلا يأخذها لعيبها(١٢٦٨).

٦١١- الخضر يبين سبب قتله الغلام:

قالى تعالى حكاية عن بيان الخضر لسبب قتله الغلام: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾(١٢٦٩) والمعنى أنَّ الغلام الذي قتله الخضر كان أبواه مؤمنين، وخشينا أن يحملهما حبّهُ على متابعته على الكفر الذي طُبِع هو عليه، قال قتادة: فقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض المؤمن بقضاء الله، وقد صحّ في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له». وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه. وقال قتادة أبرُّ بوالديه(١٢٧٠).

٦١٢- الخضر يبيّن سبب إقامته الجدار مجاناً:

قال تعالى حكاية عما قاله الخضر لموسى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا

(١٢٦٧) سورة الكهف، الآية ٧٩.

(١٢٦٨) تفسير القاسمي ج١١ ص٦٧.

(١٢٦٩) سورة الكهف الآيتان ٨٠، ٨١.

(١٢٧٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٨.

كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[1271] . ومعنى الآية أنَّ هذا الجدار المائل إنما أصلحته لأَنَّهُ كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ فيه دليل على أنَّ الرجل الصالح يُحفَظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا، وفي الآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم في الجنة لتقر عينه بهم. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حُفِظا بصلاح أبيهما ولم يُذكَر لهما صلاح.

وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ أي أقام الخضر الجدار ليحفظ الكنز لهما، حتى يكبرا ويستخرجا الكنز ويتصرفا فيه.

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدَيْ الغلام، وولديْ الرجل الصالح، وما فعلت ذلك باجتهاد ورأي مني، وإنما فعلته بأمر من الله تعالى. وفي هذه دلالة واضحة على نبوّةِ الخضر عليه السلام.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي هذا الذي أخبرتك به الآن هو تفسير وتوضيح ما ضقت به ذرعاً ولم تصبرْ حتى أخبرك به ابتداء[1272].

(١٢٧١) سورة الكهف، الآية ٨٢.

(١٢٧٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٩.

المبحث السادس
ما يستفاد من قصة موسى مع الخضر
للدعوة والدعاة

٦١٣- الاستزادة من العلم:

علمنا مما تقدم أنَّ موسى عليه السلام رغب في لقاء الخضر عليه السلام ليتعلم منه ما لا يعرفه موسى عليه السلام، ولم يمنعه من ذلك كونهُ رسول الله وكليمه، وأنزل عليه التوراة فيها من العلم والهدى الشيءُ الكثير. ولصدق رغبة موسى عليه السلام في لقاء الخضر والتلقي منه ما عنده من علم، طَلَبَ من الله تعالى أن يدُلَّه على طريق الوصول إليه، ودلّه الله تعالى فعلاً على هذا الطريق على النحو الذي فصلناه. وفي هذا أكبر الدلالة على حرص موسى عليه السلام على الاستزادة من العلم. فعلى الدعاةِ أن يتطلعوا دائماً إلى المزيد من العلم بتعلم ما يجهلونه، لأنَّ الإنسان مهما أوتي من العلم فهو قليل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٢٧٣]. ولهذا أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ أن يطلب من ربه المزيد من العلم. قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١٢٧٤]. أي زدني منك علماً، وما أمر الله رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم[١٢٧٥].

٦١٤- المراد بالعلم المطلوب الاستزادةُ منه:

قال الإمام العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: قوله: (وقوله عز وجل: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ المراد بالعلمِ العلمُ الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب

(١٢٧٣) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(١٢٧٤) سورة طه الآية ١١٤.

(١٢٧٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٩٠، العسقلاني في شرحه صحيح البخاري ج١ ص٤١.

على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص..)[١٢٧٦]. ويبدو لي أنَّ العلم المطلوب الاستزادَةُ منه، منه ما يكون طلبه وتحصيله والاستزادة منه فَرْضَ عين وهو العلْمُ الشرعي بأنواعه التي ذكرها الإمام العسقلاني، ومنه ما يكون طلبه وتحصيله والاستزادة منه فرضَ كفاية يجب وجوده في الأمة، وهو كل ما تحتاج الأمة الإسلامية ويعطيها قوة ومكنة على استعمال هذا العلم فيما ينفع المسلمين والناس عموماً، لأنَّ العلم النافع يدخل في العلم المرغوب فيه شرعاً، ولهذا جاء في دعاء رسول الله ﷺ الذي أخرجه ابن ماجه وذكره الإمام ابن كثير في تفسيره: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً»[١٢٧٧]. ومن العلوم التي يعتبر تحصيلها من فروض الكفاية جميع العلوم الحديثة في مختلف مجالات الحياة وشؤونها، والتي تستفيد الأمة منها قوة كالعلوم المتعلقة بالصناعات المختلفة ومنها صناعة الأسلحةِ بأنواعها، ومنها العلوم المتعلقة بالطب والكيمياء والفيزياء والفلك والزراعة والكشف عن سنن الله في خلقه، وعرض هذه العلوم على نحو يبين أنها أدلة يقينيةٌ على أنَّ الله هو الخالق لهذا الكون، وأنه هو رب العالمين، وبالتالي فهو وحده دون غيره المعبود الحق فلا إله إلا الله.. وهذا فضلاً عما في تحصيل هذه العلوم من قوة للأمة الإسلامية، فيتهيأ لها إن شاء الله تعالى القوة المعنوية بالإيمان. والقوة المادية بهذه العلوم التي تتعلمها.

٦١٥ - جماعة الدعاة والاستزادة من العلم:

وعلى الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة إلى الله - أن تحث وتحرّض منتسبيها على تحصيل العلم الشرعي الذي يحتاجونه، كما تحرضهم على تعلم العلم النافع من هذه العلوم المادية، وأن تُعينَ الأكفاء والموهوبين ذكاءً متميزاً على تحصيل هذه العلوم - بعد تحصيلهم العلم الشرعي الذي يحتاجونه - ومن هذه العلوم العلوم الحديثةُ في شتى مجالات الحياة ومنها: علوم الفيزياء والذرة وما يستلزمه صنع الأسلحة من علوم.

(١٢٧٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج١ ص١٤١.

(١٢٧٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٦٧.

٦١٦ - الرحلة في طلب العلم:

وإذا كان طلب العلم والاستزادة منه من الأمور المرغوبة فيها شرعاً، فإنَّ الرحلة لتحصيل ذلك مرغوبةٌ فيها شرعاً أيضاً، وقد ذكرنا من قبل رحلة موسى عليه السلام لملاقاة الخضر بعد أن طلب من الله تعالى أن يرشده إلى طريق الوصول إليه وقد أرشده ربّه إلى ما أراد، ورحل فعلاً ولقي الخضر وصحبه ليتعلم منه كما بينا ذلك.

٦١٧- الجماعة المسلمة والرحلة في طلب العلم:

من نهج سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين السفر لطلب العلم، حتى إنَّ أحدهم كان يسافر من المدينة إلى الشام أو إلى مصر ليسمع حديثاً من رجل بلغَهُ أنه سمعه من رسول الله ﷺ. ولهذا النهج الثابت في الرحلة في طلب العلم عند سلفنا الصالح جَعَلَ الإمامُ البخاريُّ باباً خاصاً بذلك فقال: باب الخروج - أي السفر - في طلب العلم. وقال في هذا الباب: (ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيس في حديث واحد)[١٢٧٨]. وأضاف الإمام العسقلاني وهو يعلق على الباب الذي ذكره البخاري، جملة آثار عن سلفنا الصالح في الرحلة في طلب العلم، فكان مما قاله: إنَّ عبد الله بن مسعود كان يقول: لو أعلم أحداً أعْلَمَ بكتاب الله مني لرحلت إليه. وإنَّ مما روي عن الإمام مالك عن سعيد بن المسيب قوله: إنْ كنتُ لأرحَلُ الأيامَ واللياليَ في طلب الحديث الواحد. وقيل للإمام أحمد: رجلٌ يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار فيشافِهُ الناس ويتعلم منهم[١٢٧٩].

٦١٨-على الجماعة المسلمة أن تحث منتسبيها على الرحلة لطلب العلم:

وعلى هذا ينبغي للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تحث منتسبيها القادرين على تعلم العلوم المادية النافعة، على الرحلة إلى حيث يتعلمون هذه العلوم، وأن تعينهم على ذلك، وإن كان ذلك يسلتزم السفر إلى بلاد الكفرة وتعلم هذه العلوم على أيديهم لأنَّ العلم ليس بكافر. . ولكن لا يجوز السفر إلى بلاد

(١٢٧٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٧٣.

(١٢٧٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٧٥.

الكفرة لتعلم الشريعة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي أو نحو ذلك، في معاهدهم أو على أيدي الكفرة من معلميهم، كما يفعل بعض المسلمين حيث يسافرون إلى هناك لتعلم الشريعة أو تاريخ الإسلام.

٦١٩- تحمل المشقة في طلب العلم:

الغالب أن تحصيل العلم لا يتم إلاّ باحتمال المشقة والصبر على هذا الاحتمال.. والعلم في الحقيقة يستحق هذا الاحتمال والصبر عليه لتحصيله على الوجه المقبول.. فعلى الداعي أن يفقه ذلك إذا قُدِّرَ له التوجه إلى طلب علم معين، وليتذكر ما لقيه موسى عليه السلام، وهو رسول كريم، من مشقة السفر إلى الخضر لملاقاته والتلقي عنه بعض ما عنده من علم وقد ذكرنا ذلك.. ومما يهوّنُ على الداعي مشقة طلب العلم إخلاصُهُ لله، وأنه يريد بطلب العلم نفع المسلمين ابتغاء مرضاة الله.

٦٢٠- التواضع في طلب العلم:

قد يحتاج الداعي إلى أن يتعلم من غيره بعضَ ما يحتاجه في دعوته، فلا يجوز له أن يترفع عليه فلا يتعلم منه ما يحتاجه تكبراً منه عليه، إن التواضع ضروري لتحصيل العلم؛ لأنه يحمل صاحبه على الإقبال على العالِم والتلقي منه، والاستماع إليه، والطلب منه صراحة أن يعلمه، وقد رأينا تواضع موسى عليه السلام في طلبه العلم من الخضر، ورغبتَه في مصاحبته وإظهار عزمه على عدم عصيانه فيما يوجهه إليه ويأمره به. فليفقه الداعي ذلك وليطرد عن نفسه الكبْرَ الذي يمنعه من تلقي العلم من غيره.. وليكن متواضعاً يظهر تواضعه في إقباله على من يعلمه. وليعلم يقيناً أنَّ من فَقَدَ التواضع وتلبَّس بالكبر فاتهُ من العلم الشيء الكثير، إن لم نقل فاته أن يتعلم أيَّ شيءٍ يجهله وهو يحتاجه، قال الإمام مجاهد: (لا يتعلم العلمَ مستحي ولا متكبر)[١٢٨٠]. والمستحي هو الذي يمنعه حياؤه من أن يسأل عما ينفعه أو يتعلمَ ما يحتاجه، وهذا الحياءُ مذمومٌ لأنه يؤدي إلى ترك أمر مشروع وهو التعلم. أما الحياءُ الممدوح فهو الذي لا يمنع صاحبه من أن يسأل عما يجهله، ولهذا قالت عائشة

(١٢٨٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٢٨.

رضي الله عنها: «نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصار لم يمنعْهُنَّ الحياءُ أن يتفقهن في الدين»[1281]. وكما لا يتعلم العلمَ المستحي، كذلك لا يتعلم العلم متكبرٌ، لأَنَّ تكبره يمنعه من أن يسأل غيره عما يجهله أو يطلب منه أن يعلمه، لئلا يظهر بأنه أقل منزلة ممن يسأله أو يعلمه، وفي هذا - حسب تقديره - منقصة في حقه فيظل على جهله ولا يتعلم ما ينفعه ويحتاج إليه.

٦٢١- المكاشفة والمشارطة والمبايعة بين الجماعة المسلمة وبين منتسبيها:

قد يكون من منتسبي الجماعة الإسلامية من يرغب أن يكون من الدعاة العاملين فيها الملتزمين بمنهاجها ونظامها. وفي هذه الحالة على الجماعة المسلمة أن تكاشف هذا الراغبَ بما تراه فيه من قدرة أو عجز عن الوفاء بمتطلبات ما يرغب فيه، فإذا رأت منه إصراراً على تحقيق رغبته فلها أن تشترط عليه شروطاً معينة يتعهد بالوفاء بها، والالتزام الصارم بها، ومبايعة الجماعة عليها، ونستأنس لهذا الذي نقوله بما فعله الخضر مع موسى عليهما السلام. فقد ذكرنا أنَّ موسى عليه السلام عرض على الخضر رغبته في مصاحبته ومتابعته على أن يعلمه مما علمه الله من الهدى والرشاد، فكان جواب الخضر له أَنْ كاشفه وصارحه بما يراه فيه، وهو عدم صبره على ما يرى من أفعال الخضر؛ لأنَّهُ لا يعرف حكمة ودوافع ما يفعله الخضر. فأجابه موسى عليه السلام بإعلان تعهده على الصبر وعدم الاعتراض على ما يراه من أفعال الخضر، وأكَّدَ موسى تعهده بأنْ قال للخضر: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ وعند ذلك اشترط الخضر على موسى شرطاً قبلَهُ موسى وهو: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ وبعد هذه المكاشفة والمشارطة والمبايعة بين الخضر وموسى عليهما السلام انطلقا..

٦٢٢- إذا تعارضت مفسدتان ارتكبت أخفهما لدفع أشدهما:

وفي خرق السفينة من قبل الخضر دليل على العمل بالمصلحة الراجحة، وإن استلزمت مفسدة مرجوحة، وأنه إذا تعارضت مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما لدفع

(١٢٨١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٢٨.

أشدهما، وهذا مقرر في شريعتنا والأمثلة عليه كثيرةٌ، ومنها إتلاف مال الغير أو تعييبه لوقايته من الغصب، كما في خرق السفينة لتخليصها من الاستيلاء عليها غصباً من قبل ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة جيدةٍ غصباً، فإذا رآها معيبة لخرقها تركها. وعن الإمام أبي يوسف: لوليّ اليتيم أن يعطيَ من مال اليتيم شيئاً ليدفع عن اليتيم مصادرة ماله كله[١٢٨٢].

فهذه الفقه المستفاد من خرق السفينة يمكن للداعي أن يجعله موضوعاً لدرسه أو خطبته أو موعظةً وتعليماً لغيره. كما ينبغي للداعي أن يستفيد مما قلناه في مواجهة أحوال شاذّة وظروف صعبة، كأن يوقف عمله الدعوي في مكان معين أو في زمان معين أو لمدة معينة، أو يتركَ الكلام في دروسه وخطبه عن مواضيعَ أو معانٍ معينة في الشريعة الإسلامية يثيرُ الكلامُ عنها غضب الحكام الظالمين فيحملهم ذلك على منعه عن الكلام بالكلية. إن معاني الإسلام كثيرة جداً، والناس بحاجة إليها ويمكنه الكلام عنها دون معارضة كأمور العقيدة الإسلامية ونحوها فليفقه الداعي ذلك.

٦٢٣- صلاح الآباء ينفع الأولاد:

ذكرنا من قبل أنَّ الخضر عليه السلام أقام الجدار ولم يأخذ عليه أجراً. ثم بيَّن لموسى السبب فيما فعله والحكمة فيه فقال له ما أخبرنا الله به: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ...﴾[١٢٨٣].

قال الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾: (فيه ما يدل على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه)[١٢٨٤] ومثله عن الإمام السيوطي في هذه الآية: وإنَّ الولد يُحفَظ بصلاح أبيه[١٢٨٥].

(١٢٨٢) تفسير القرطبي ج١١ ص١٩، تفسير القاسمي ج١١ ص٦٩.
(١٢٨٣) سورة الكهف، الآية ٨٢.
(١٢٨٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٨-٣٩.
(١٢٨٥) تفسير القاسمي ج١١ ص٦٩.

٦٢٤- الولد يحفظ بصلاح أبيه:

فعلى الداعي أن يجعل هذا المعنى- الولد يُحفظَ بصلاح أبيه - موضوعاً لدرسه أو خطبته، ويبين للناس بأنَّ حفظ الأولاد بصلاح الآباء هو من سنن الله في خلقه، وفي ربط المسببات بأسبابها التي جعلها الله أسباباً، يقول لهم هذا ليثير فيهم الرغبةَ والعزيمة على فعل الصالحات، لينتفع أولادهم بصلاحهم، لأنَّ من غريزة الإنسان حبَّه لأولاده وحرصَهُ على نفعهم في الحاضر والمستقبل، والمسلم يؤمن بكتاب الله العزيز فيؤمن بما دلّتْ عليه الآية، فينشَطُ ويندفع إلى فعل الصالحات لنفع أولاده، والتسبب في حفظ الله لهم، فيكون كلام الداعي في دلالة هذه الآية من سبل الترغيب في العمل الصالح.

٦٢٥- الدعاة والضيافة:

قد يخرج الدعاة إلى القرى والمدن والبوادي لتبليغ الناس دعوتَهم، دعوةَ الله، فهل يجوز لهم أن يطلبوا من أهل هذه الأماكن أن يضيفوهم أو لا يجوز لهم ذلك؟ وهل جائزٌ لهم قبولُ ضيافتهم إذا عرضوها ابتداء قبل أن يطلبوها منهم؟ أو لا يجوز لهم لا هذا ولا ذاك؛ لأنهم خرجوا إلى الدعوة فلا يريدون أن يثقلوا على الناس بقبول ضيافتهم أو طلبها منهم؟.

والجواب على ذلك: يجوز لهم أن يقبلوا ضيافتهم إذا عرضوا عليهم ولم يكن مانع من قبولها، كما لهم أن يطلبوا الضيافة إذا كانوا محتاجين إليها، ولهم أيضاً أن لا يطلبوا الضيافة ويعتذروا عن قبولها إذا عرضت عليهم، لأنَّ الضيافة حق لهم ولا يلزم صاحبَ الحقِّ استعمالُ حقه إذا لم يكن في ذلك ضرر فاحش عليه. والدليل على ما نقول ما جاء في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وما جاء في شريعتنا بصدد الضيافة، وبصدد الخضر وموسى قال تعالى عنهما: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اَسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾[1286]. والاستطعام يعني سؤال الطعام من الغير، والمراد به في هذه الآية الكريمة سؤالُ الضيافة بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ويظهر من ذلك أَنَّ الضيافة كانت واجبة على أهل تلك القرية، وأَنَّ

(١٢٨٦) سورة الكهف الآية ٧٧.

الخضر وموسى عليهما السلام إنما سألا ما وجب لهما من الضيافةِ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء والأولياء[1287].

٦٢٦- ما جاء في شريعتنا بشأن الضيافة:

ومما جاء في شريعتنا، ما رواه الإمام البخاريُّ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فننزلُ بقومٍ فلا يقروننا فما ترى فيه؟ قال لنا رسول الله ﷺ: «إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيفِ فأقبلوا، فإنْ لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»[1288]. قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لهذا الحديث: يدُلُّ على أنَّ قرى الضيف - أي ما يقدم للضيف عادة من طعام ونحوه - واجبٌ، وأنَّ المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أُخِذَتْ منه قهراً وبهذا قال الليث مطلقاً، وهو مذهب الظاهرية، وخصّهُ الإمام أحمد بن حنبل بأهل البوادي دون القُرى. وقال الجمهور: الضيافة سنّةٌ مؤكدة وأجابوا عن هذا الحديث بأجوبة: **(أحدها)** حمله على المضطرين. وهذا ما رجحه ابن حجر العسقلاني[1289]. والراجح وجوب الضيافة على أهل البوادي كما ذهب إلى ذلك الإمام أحمد، لحاجة المسافر في البوادي أن يجد حاجته من الطعام، إذ لا يوجد عادة بيع وشراء للطعام كما في القرى والمدن، كما يصعب على المسافر أن يحمل كل حاجته من الطعام، وكذلك تجب الضيافة للمحتاجين في ا لبوادي وغيرها.

٦٢٧ - على الدعاة أن يتخيروا ما هو الملائم بشأن الضيافة إذا خرجوا للدعوة إلى الله:

وفي ضوء ما قدمنا يتخيّرُ الدعاة ما هو الأليق والأنسب والأوفق لهم باعتبارهم دعاةً خرجوا للدعوة إلى الله تعالى، وعلى هذا إذا رأوْا أَنَّ أهل المكان الذي قصدوه يرغبون صادقين في ضيافتهم وأنَّ رفضها يحزنهم وربما يغضبهم، ففي هذه الحالة

(١٢٨٧) تفسير القرطبي ج١١ ص٢٥.

(١٢٨٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص٥٣٢.

(١٢٨٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٥ ص١٠٨-١٠٩، المحلى لابن جزم ج٩ ص١٧٤.

عليهم أن يقبلوا الضيافة لأنّها في هذه الحالة تكون وسيلة مسهلة لتبليغ الدعوة. وإذا رأوا أنَّ أهل هذا المكان لا يرغبون في ضيافتهم أو يحبون لو لم يضيفوهم، وعرفوا ذلك من القرائن ومن أحوالهم وكلامهم ففي هذه الحالة على الدعاة أن يعتذروا بلطف وأدب عن قبول ضيافتهم إذا عرضوها عليهم، وأن لا يطلبوها إذا لم يعرضوها ليكون ذلك أدعى إلى تسهيل مهمتهم في تبليغ الدعوة. ولهذا يكون من المرغوب فيه أن يحمل الدعاة معهم دائماً شيئاً من الطعام الذي يحتاجونه في سفرهم لمواجهة مثل هذه الحالة، سواءٌ كان سفرهم في البوادي أو في القرى والمدن.

الفصل الثاني عشر
قصة داود عليه السلام
وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

٦٢٨- تمهيد ومنهج البحث:

لقد رأيت من المفيد في عرض قصة داود عليه السلام وذكر ما يستفاد منها للدعوة والدعاة، أن أذكر ما ورد بشأنها في كتاب الله العزيز، وأن أتبع كل جزئية من هذا الوارد بشأنها في كتاب الله العزيز بما يستفاد منها للدعوة والدعاة، حتى يكون هذا المستفاد قريباً أو تالياً للآية الكريمة التي تتعلق بقصة داود عليه السلام، فيكون استحضار هذا المستفاد في أذهان الدعاة أيسر - على ما أظن - مما لو أخرت جميع المستفاد من القصة في مبحث على حدة، كما هو نهجي في هذا الكتاب، لأنَّ في قصة داود - كما يبدو لي - مداخلات يحسن فيها ذكر المستفاد من كل آية تتعلق بها عند أو بعد ذكر الآية وتفسيرها مباشرة.

٦٢٩- من أخبار داود قبل النبوة:

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾(١٢٩٠) داود هو من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومن أخبار داود قبل النبوة أنه قتل الطاغية جالوت قائد عسكر الكفر. وتفصيل ذلك أو بيانه ما يأتي:

لما برز طالوت وجنوده المؤمنون لجالوت وجنوده الكافرين، خرج هذا الطاغية - جالوت - يطلب مبارزاً له فجبن الناس وخافوا ولم يَجْرُؤْ أحد من جند طالوت على مبارزته لما عُرِفَ عن جالوت من شدة بأسه في القتال، حتى قال طالوت قائد جيش المؤمنين: من يبرز إلى جالوت ويقتله فأنا أزوجه ابنتي وأحكّمه في مالي. فبرز داود، وكان غلاماً، فقال: أنا أبرز له وأقتله. ولم يقبل أن يلبس درعاً ولا أن

(١٢٩٠) سورة البقرة، من الآية ٢٥١.

يحمل سلاحاً، بل حمل مقلاعه وحجارته فسخر منه جالوت حين رآه لصغر سنه، فرماه داود بحجارة من مقلاعه فأصاب رأسه فقتله وحزَّ رأسه وجاء به إلى طالوت قائد جيش المؤمنين[١٢٩١].

٦٣٠- الطغاة قد يهلكهم ضعاف الناس:

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ عبرة يجب أن يستحضرها الدعاةُ في أذهانهم ويذكّروا الناس بها، وهي أنَّ الطغاة الذين يرهبون الناس هم في الحقيقة ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم[١٢٩٢]. لأنَّ هؤلاء الطغاة يقومون على باطل ويقاومون الحق وأهله ويفسدون في الأرض، وإنما يحتملهم حِلْمُ الله إلى حين، وليبتلي الله بهم المؤمنين، ليتبين من يجاهدهم ومن يركن إليهم فيصيبهم ما يصيب الظالمين.

٦٣١- وضع الجوائز لمن يقوم بالعمل العظيم:

قال الإمام القرطبي: وفي قول طالوت: (من يبرز له - أي لجالوت - ويقتله فإنّي أزوجه ابنتي وأحكّمه في مالي) معناه ثابت في شرعنا وهو أن يقول الإمام: من جاء برأس - أي برأس كافر في الحرب - أو أسيرٍ فله كذا[١٢٩٣]. وعلى هذا يجوز لولاة الأمور وضعُ الجوائز المادية والمعنوية لمن يقوم بأعمال مشروعةٍ عظيمة تنفع المسلمين، سواء كان ذلك في حالة السلّم أو الحرب. كما أنَّ للجماعة المسلمة أن تضع جوائز رمزيةً ومعنوية لأعضائها الذين يقومون بأعمال عظيمة في مجال الدعوة مثل إهدائهم بعض الكتب الإسلامية المفيدة لهم، أو إعلان الجماعة شكرها وتقديرها لهم ونحو ذلك، تشجيعاً وتحريضاً لهم على بذل المزيد من العمل النافع في مجال الدعوة.

(١٢٩١) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٧-٢٥٨، تفسير المنار ج٢ ص٤٨٨، والمقلاع هو الذي يُرمَى به الحجر.

(١٢٩٢) تفسير سيد قطب ج١ ص٢٧٠.

(١٢٩٣) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٨.

٦٣٢- فضل الله ونعمه على داود:

قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[١٢٩٤].

والمراد بـ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ هو الملك أي الحكم الذي كان بيد طالوت، فقد أُوتِيه داود على بني إسرائيل بعد موت ملكهم طالوت، فدلّ ذلك على أنَّ الحكم - أي تولي الإمرة على الناس من نعم الله على من يتولى هذه الإمرة. وإنما تكون هذه الإمرة على الناس - من نعم الله على الأمير أو على الحاكم إذا قام بالحكم الصالح. وإنما يقوم بالحكم الصالح الرجل الصالح، وهكذا كان حكم داود فقد حكم بين الناس وساس رعيته بالعدل فكان هو الحاكم العادل الصالح.

وأما ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: فهي النبوة على ما قاله المفسرون. ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي مما شاء الله تعالى، وهذا الذي شاء الله تعليمه لداود عليه السلام هو صنعة الدروع وتعليمه كلامَ الطيرِ وما يتعلق بمصالح الدنيا وضبطِ الملك، وهذا فضلاً عما أوحى به إليه من معاني النبوة[١٢٩٥]. وفي هذا التعليم دلالة على أنَّ العبد قط لا ينتهي إلى حالة يستغني فيها عن التعلم سواء كان نبياً أو لم يكن، ولهذا السبب قال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[١٢٩٦].

٦٣٣- الجماعة المسلمة تتطلع إلى الحكم:

ولا ضير على الجماعة المسلمة أن تتطلع إلى الحكم وتسعى إليه، لأنَّ تولي الحكم أو الإمرة على الناس لغرض تنفيذ شرع الله هي من نعم الله تعالى، ولا ضير على الجماعة المسلمة أن تسعى إلى الحصول على هذه النعمة: نعمة الحكم وتولي الإمرة على الناس لغرض تنفيذ شرع الله، كما لا ضير على المسلم أن يسعى إلى الحصول على المال الحلال لأداء فريضة الحج، ولهذا امتنَّ الله على داود عليه

(١٩٢٤) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

(١٢٩٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٠٣، تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٩، تفسير الكشاف ج١ ص٢٩٦، تفسير الرازي ج٦ ص١٨٩.

(١٢٩٦) تفسير الرازي ج٦ ص١٨٩، وآية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ في سورة طه: ١١٤.

السلام بأَنْ آتاه الملك أي الحكم، لأنَّهُ عليه السلام حقق به الحكم الصالح ونفذ به شرع الله.

٦٣٤- تعليم داود كيفية صنع الدروع:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾(١٢٩٧). أي أنَّ الله تعالى علّم نبيه داود عليه السلام صنعةَ الدروع الملبوسة، وكانت الدروع قبل داود صفائحَ فحلّقها وسردّها أي جعلها حلقاً وأدخلَ بعضها في بعض كما قال تعالى عن داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾(١٢٩٨). أي جعلنا الحديد في يد داود ليناً كالطين أو العجين أو الشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. ومعنى ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الدروع الواسعة الضافية. وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتقصم الحلق. والسرد: نسجُ الدروع(١٢٩٩). وهذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع(١٣٠٠). وقوله تعالى عن الدروع التي علَّم الله تعالى نبيه داود صنعها ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، أي لتحفظكم هذه الدروع من جراحات قتالكم ومن آلات حربكم كالسيف والسهم والرمح التي تسبب لكم الجراحات أو القتل(١٣٠١). وفي هذه الآية دلالة - كما يقول الإمام الرازي - على أنَّ أول من عمل الدروع ثم تعلم الناس منه صنعتها هو داود عليه السلام، حيث توارث الناس عنه ذلك، فعمّتِ النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على هذه النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي اشكروا الله على مايسرّه الله عليكم من هذه الصنعة(١٣٠٢).

(١٢٩٧) سورة الأنبياء، الآية ٨٠.

(١٢٩٨) سورة سبأ، الآيتان ١٠و١١، تفسير القاسمي ج١٤ ص٢٧٩.

(١٢٩٩) تفسير الكشاف ج٣ ص٥٧١.

(١٣٠٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٢٧.

(١٣٠١) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٠.

(١٣٠٢) تفسير الرازي ج٢٢ ص٢٠١.

٦٣٥- ضرورة تعلم الصنائع ومستلزمات الحرب:

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .. ﴾ الخ الآية قال الإمام القرطبي يرحمه الله: (هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأنَّ ذلك إنما شُرِّع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه، فمن طَعَنَ في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ونسب مَنْ ذَكَرْنا - أي داود عليه السلام - إلى الضعف وعدم المنعة)[١٣٠٣].

وخلاصة قول القرطبي رحمه الله تعالى أنَّ اتخاذ الصنائع والحرف وتعلمها وكذا أخذ أدوات الحفظ والوقاية في الحروب وغيرها كل ذلك أمر مشروع وتدل عليه هذه الآية الكريمة، آية تعليم داود صنعه الدروع، التي فيها حفظ المقاتل في الحروب من الجراحات ونحوها. وما قاله القرطبي واستدل به حق واضح، فعلى ولاة الأمور إيجاد الصنائع والحرف وسائر وسائل ومستلزمات الحرب والوقاية من العدو. وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وهي من مقتضيات الحرب ومستلزمات الوقاية من العدو عند القتال، ليدلّ بذلك على أهمية وضرورة اتخاد كل أدوات القتال ومستلزماته، وما به الوقاية والتحرز من العدو، وهذه الأدوات تتغير بتغير الزمان والمكان وما يتعلمه الإنسان. وعلى هذا فأدوات الحرب والقتال والتحرز من العدو في زماننا قد أصبحت متنوعة جداً وتحتاج إلى معرفة فنون وعلوم كثيرة وإيجاد مصانع لها، مما يلزم المسلمين تعلم هذه العلوم وإيجاد المصانع لعمل هذه الأدوات.

٦٣٦- يجب تعلم الحرف التي تحتاجها الأمة:

وكما يجب تعلم صنعة أدوات الحرب والقتال وما به تحصل الوقاية من العدو والغلبة عليه، كذلك يجب تعلم الحرف التي تحتاجها الأمة؛ لأنَّ وجود هذه الحرف والقائمين عليها من فروض الكفاية، ولهذا كان أنبياء الله والصالحون يتعاطون الحرف التي يحتاجها الناس، ليكون ذلك منهم دلالة على مشروعية هذه الحرف وتعلمها وتعاطيها، فقد ذكر الإمامُ القرطبي في تفسيره أنَّ آدم عليه السلام كان

(١٣٠٣) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢١.

حراثاً، ونوحاً كان نجاراً ولقمانَ كان خياطاً وطالوتَ كان دباغاً[(١٣٠٤)]. ومن الواضح أنَّ الحرف والصنائع التي يحتاجها الناس تتغير بتغير المكان والزمان وتقدم الإنسان في المعرفة، فيجب أن توجد هذه الحرف والصنائع الجديدة، وعدم الاكتفاء بالصنائع القديمة التي لم تعد تفي بحاجات الناس.

٦٣٧- تعلم أعضاء الجماعة المسلمة الصنائع وما يلزمها:

وفي ضوء ما تقدم يجب على الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، توجيه أعضائها ومؤيديها وأنصارها إلى تعلم الصنائع الجديدة والعلوم اللازمة لها التي تحتاجها الأمة الإسلامية، لأنَّ تعلم هذه العلوم والصنائع لا تمنع متعلميها ومتعاطيها من الدعوة إلى الله تعالى، كما لا تمنعهم من القيام بالصلاة والصيام وسائر الفروض الشرعية، على أن يكون توجيه أعضاء الجماعة المسلمة إلى تعلم هذه الصنائع والعلوم اللازمة لها، أو المتصلة بها على أساس مواهبهم وقدراتهم ورغباتهم في هذا التعلم، وفي نوع الصناعة التي يرغبون فيها، والعلم المتصل بها، لا سيما الشباب منهم، والذين هم في أول مراحل هذه الصنائع وعلومها. وكذلك توجيههم للعمل في مختلف مؤسسات الدولة ذات الاختصاصات المختلفة، لما في ذلك من مران لهم عليها ونفع للمسلمين.

٦٣٨- وجوب الحكم بالحق:

قال تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[(١٣٠٥)]. والمعنى: إنا-أي الله جلّ جلاله-ملكناك، أي آتيناك الملك والحكم، لتقوم بالدعوة إلى الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتسوس الناس بالعدل، وتحكم بينهم بالحق، فتخلف بسيرتك هذه من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين[(١٣٠٦)].

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تتبع ولا تقتدِ بهوى نفسك من الميل

(١٣٠٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢١.

(١٣٠٥) سورة ص الآية ٢٦.

(١٣٠٦) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٩٩، تفسير القرطبي ج١٥ ص١١٨.

إلى مال أو جاه أو قريب أو صاحب، إذا كان في هذا الميل مخالفة لشرع الله، لأنَّ متابعة الهوى، هوى النفس، المخالف لشرع الله، توجب الضلال عن سبيل الله، أي توجب الحيدة والانحراف عن طريق الله القويم الموصل إلى مرضاتِهِ وجزيل ثوابه، وهذا الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب يوم الحساب أي يومَ القيامة، فينتج عن ذلك أنَّ متابعة الهوى توجب سوء العذاب في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(١٣٠٧).

٦٣٩- على ولاة الأمور أن يحكموا بالحق:

وقد دلّت الآية الكريمة التي ذكرناها على إلزام وإلتزامِ ولاة أمور المسلمين أن يحكموا بالحق بين الناس. والحكم بالحق هو الحكم بما أنزل الله تعالى في كتابه العزيز وبسنة نبيه محمد ﷺ، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلوا عن سبيل الله. وليعلم ولاة الأمور أنَّ الله تعالى حذر نبيه داود عليه السلام من الحيدة عن الحكم بالحق وعن اتباع الهوى، هوى النفس، في حكمه بين الناس وفي سياسته لهم، وتوعده إن فعل ذلك، فهم - أي ولاة الأمور - أولى بهذا التحذير من داود عليه السلام(١٣٠٨).

٦٤٠- الحاكم الجائر والحاكم العادل:

ومن أعظم ما تبتلى به الأُمة أن يتولى حكمها حكام جائرون، وعن الحق ناكبون، ولأهوائهم متبعون، لأنَّ بحكم هؤلاء يعظم ضررهم وإضرارهم بالناس، ويفضي ذلك إلى خراب البلاد وإشاعة الفساد، ثم هلاك الأمّة.

ومن أعظم ما تسعد به الأمة أن يتولى حكمها الحكام الصالحون، الذين يحكمون بالعدل وبالحق. قال الإمام الرازي: (إنَّ مصالح الخلق لا تنتظم إلاّ بسلطان قاهر سائس، ثم إنَّ ذلك السلطان إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه، ولا تهمه مصلحتهم ويتوسل بهم

(١٣٠٧) تفسير الرازي ج٢٦ ص١٩٩، تفسير القرطبي ج١٥ ص١٨٩، تفسير القاسمي ج١٤ ص١٦٣.

(١٣٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣.

إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى خراب العالم ووقع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي أخيراً إلى هلاك ذلك الملك، أي الحاكم. أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإِلهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه(١٣٠٩).

٦٤١- النهي عن اتباع الهوى لا عن وجوده:

ويلاحظ في قوله تعالى لنبيه داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ملاحظتان:

الملاحظة الأولى - أنَّ النهيَ انصب على اتباع الهوى وليس على وجوده في النفس، وهذا يشعر بأن المطلوب من المسلم مخالفة هوى النفس وليس المطلوب منه محو الهوى، وإزالته من النفس، فإنَّ هذا قد يكون من قبيل تكليف ما لا يطاق، وتكليفُ ما لا يطاق ممنوع وغير وارد في الشرع.

الملاحظة الثانية - أنَّ النهي عن اتباع الهوى جاء مطلقاً عن تقييد الهوى بكونه مخالفاً للشرع، وهذا يعني أنَّ الغالب في هوى النفس مخالفته للشرع، فيكون إطلاق الهوى والنهي عن اتباعه يعني النهي عن هوى النفس المخالفِ للشرع.

والدليل على الملاحظتين المذكورتين أنَّ آيات الكتاب العزيز المتعلقة بالهوى أنها جاءت تنهى عن اتباعه وليس عن وجوده. كما أنها نهت عن الهوى مطلقاً دون تقييده بكونه مخالفاً للشرع، وذلك لغلبة مخالفتِهِ للشرع وبالتالي ذمِّه وحرمَة اتباعه، فإطلاقُهُ يعني أنَّ المراد به هو الهوى المخالف للشرع وهو المطلوب عدم اتباعه. ومن هذه الآيات التي تنهى عن اتباع الهوى لا عن وجوده ودون تقييده بالمخالفة للشرع، وذمِّ من يتبع هوى نفسه أو هوى غيره، ونذكر فيما يلي بعض هذه الآيات:

أ- ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾(١٣١٠).

(١٣٠٩) تفسير الرازي ج٢٦ ص٢٠٠.

(١٣١٠) سورة النساء، الآية ١٣٥.

ب- ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(١٣١١).

جـ- ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾(١٣١٢).

د- ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾(١٣١٣).

هـ- ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(١٣١٤).

و- ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾(١٣١٥).

٦٤٢- التزام الجماعة المسلمة بالحكم بالحق والعدل:

وكما يلزم الخليفةَ وسائرَ ولاة المسلمين الحكمُ بالحق أي بالشريعة الإسلامية، يلزم ذلك أَيْضاً كل من ولي أمورَ غيره، سواء كان هذا الغير فرداً أو جماعة، وعلى هذا فأيُّ خلاف بين أفراد الجماعة المسلمة، أو بينهم وبين قادة هذه الجماعة يجب على ولاة أمور الجماعة حسمه والحكم فيه بموجب الشريعة الإسلامية، دون اتباع هوى أحد، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١٣١٦). قال الرازي في تفسير هذه الآية: (القوّام مبالغة من قائم، والقسط هو العدل، فهذا أمرٌ منه تعالى لجميع المكلفين بأنْ يكونوا مبالغين في اختيار العدل والاحتراز عن الجور والميل)(١٣١٧). وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾(١٣١٨). قال الرازي في تفسيرها: (أجمعوا على أنَّ من كان حاكماً وجب عليه

(١٣١١) سورة النازعات الآية ٤٠.

(١٣١٢) سورة الكهف الآية ٢٨.

(١٣١٣) سورة المائدة الآية ٧٧.

(١٣١٤) سورة البقرة الآية ١٢٠.

(١٣١٥) سورة المائدة الآية ٤٩.

(١٣١٦) سورة النساء الآية ١٣٥.

(١٣١٧) الرازي ج١١ ص٧٣.

(١٣١٨) سورة النساء الآية ٥٨.

أن يحكم بالعدل)[١٣١٩]. ومن الواضح أنَّ الأمر بالحكم بالعدل يشمل الجماعة إذا آل إليها الحكم في الخلاف بين أعضائها أو بينهم وبينها.

٦٤٣- قصة الخصمين مع داود:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾[١٣٢٠]. الخصم يطلق على المفرد والمثنى والجمع، والمراد به في هذه الآية ملكان جاءا بصورة آدميين، وقد تسوّروا المحراب، أي أتوا داود من أعلى سور المحراب. أي عَلَوْا سوره ونزلوا على داود من فوق المحراب، والمحراب هو الموضع الأرفع من الدار أو المسجد وهو موضع التعبد. ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي خاف منهم، وإنما كان ذلك لأنّهُ عليه السلام كان في محرابه، ودخلوا عليه من غير استئذان ومن غير باب الدخول، وكان دخولهم عليه ليلاً، فإن قيل لِمَ لم يأمر داود عليه السلام بإخراجهم وكان دخولهم بالكيفية التي ذكرناها؟ والجواب - كما يبدو - اعتذارُهُمْ بأنَّ الموكلين على قصر داود أو على بابه لم يأذنوا لهم بالدخول، فاضطروا إلى الدخول عليه عن طريق التسور، لئلا يتفاقم الخصام بينهما، فقبل داود اعتذارهما. وقالو له: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ فما جئنا للفتك بك ولا للاعتداء عليك وإنما نحن ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك بسبب أنَّ أحدنا بغىٰ على الآخر بتعديه على حقوقه وخروجه على واجبه نحوه، ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بما يطابق شرع الله ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أي لا تبعد عن الحق ولا تتجاوزه ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ أي وسطه، وهذا مَثَلٌ ضُرِبَ لعين الحق وعدم الميل عنه[١٣٢١].

(١٣١٩) تفسير الرازي ج١٠ ص١٤١.

(١٣٢٠) سورة ص الآية ٢١.

(١٣٢١) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٣٦، تفسير القرطبي ج١١ ص١٦٥ وما بعدها، تفسير ابن كثير ج٤ ص٣١.

٦٤٤- موضوع دعوى الخصم:

وبعد أن طمأن الخصمان داود عليه السلام، وبيّنا له أنهما ما جاءا للاعتداء عليه وإنما جاءا للتحاكم إليه، بدأ أحدهما بعرض دعواه أو شكواه فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾[١٣٢٢] أي إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أي أنثى من الضأن، ولي نعجةٌ واحدةٌ أي فلم ينظرْ إلى غناه عنها ولا إلى افتقاري إليها، بل أراد التغلُّب عليّ: ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي: ملِّكْنيها بأنْ تجعلني كافلها كما أكْفُلُ ما تحت يدي، أو بمعنى اجعلها كفلي أي نصيبي: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أي وقهرني وغلبني في المكالمة، وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل[١٣٢٣].

٦٤٥- اعتراض ودفعه:

قلنا: إنَّ المراد بالخصم فيما نتحدث عنه، ملكانِ جاءا إلى داود بصورة آدميين، فكيف جازلهما نسبة البغي إلى أحدهما على الآخر، والادعاء بوجود الخصومة بينهما، وقولُ أحدهما ليَ تسع وتسعون نعجةً، وقول الآخر لي نعجةٌ واحدةٌ، ولا حقيقة لشيء مما ادعياه؟ أليس هذا من الكذب الذي لا يجوز نسبته إلى الملائكة وهما منهم؟ والجواب: ما قاله الملكان اللذانِ جاءا بصورة آدميين، هو تصوير للمسألة وفَرْضٌ لها، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الآدميين، كما نقول في تصوير المسائل: زيدٌ له أربعون شاةً وعمرو له أربعون شاة، وأنت تشير إليهما، فخلطاها وحال عليها الحول، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمرو لا قليل ولا كثير من الشياه[١٣٢٤].

٦٤٦- داود يصدر حكمه في الدعوى:

قال تعالى مخبراً عمّا حكم به داود في فرضيةِ الخصم: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا

(١٣٢٢) سورة ص الآية ٢٣.

(١٣٢٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٣، تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٤-١٥٥.

(١٣٢٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٥.

هُمۡۗ ..﴾[1325]. أي قال داود عليه السلام: لقد ظلمك بطلب نعجتك الوحيدة ليضمها إلى نعاجه مع حاجتك الشديدة لها، وغناه هو عنها، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء أو الإخوان والأصدقاء المتخالطين في شؤونهم ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ بغيَ الأعداء، مع أنَّ من واجب خلطتهم وأخوّتهم النصفة والعدل فيما بينهم، وعدم تعدي بعضهم على حقوق بعض، وهذا في الأقل من حقوقِ بعضهم على بعض إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي فإنهم لا يبغون ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾ أي وهم قليل[1326].

٦٤٧- إصدار الحكم قبل سماع دفع المدعىٰ عليه:

أخبرنا الله تعالى عن داود عليه السلام أنه سمع قول المتظلم من الخصمين وهو المدعي، ولم يخبرنا الله تعالى عن داود أنه سأل المدعىٰ عليه - المتظلم منه - عما يقوله المدعي، وهل يقرّ بما قاله وادعاه أم لا؟ وهل عنده ما يدفع به دعوى المدعي وتظلمه. فكان ظاهر ذلك أنَّ داود عليه السلام رأىٰ في المدعي - المتظلم - مخائل الضعف والهضيمة فجعل أمره على أنه مظلوم، ودعاه ذلك أنْ لا يسأل الخصم الآخر المتظلم منه، فقال داود مستعجلاً للمتظلم: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأل المتظلَّم منه لنفى ذلك ولم يعترف به[1327].

٦٤٨- امتحان داود بالدعوى المرفوعة إليه:

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ﴾[1328]. ﴿وَظَنَّ﴾ معناه: شعر وعلم، والعرب تعبر بهذه الكلمة عن العلم الذي يقارب اليقين، ولكن ليس لهذه الكلمة معنى اليقين التام البتة، فبينها وبين اليقين درجة[1329]. وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي علم داود أنَّ الله تعالى ابتلاه أي امتحنه بتلك الحكومة، أي بتلك الدعوى.

(١٣٢٥) سورة ص الآية ٢٤.

(١٣٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٧، تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٥.

(١٣٢٧) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٧٥.

(١٣٢٨) سورة ص الآيتان ٢٤، ٢٥.

(١٣٢٩) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٤٧-٤٤٨.

٦٤٩- داود يستغفر ربّه من تعجله بالحكم:

قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ واختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه داودُ عليه السلام على أقوال، أرجّحُ منها قولَ من قال: إنّهُ عليه السلام حكم لأحد الخصمين في الدعوى التي دفعها إليه الخصمان قبل أن يستمع إلى حجة الخصم الآخر وإنما اكتفىٰ باستماع ادعاء المتظلِّم المدعي فقط[١٣٣٠].

وقال الإمام أبو جعفر النحاس في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ فيقال: إنَّ هذه كانت خطيئة داود عليه السلام لأنه قال: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ من غير تثبُّتٍ ببينة ولا إقرار من الخصم، هل كان هذا كذا أو لم يكن. وقد قال الإمام القرطبي عن هذا القول الذي ذكره النحاس: وهو حسن إن شاءَ الله تعالى[١٣٣١].

وقال الإمام البرهان البقاعي في تفسيره على ما يرويه عنه القاسمي في تفسيره، في قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ أي وقوع داود عليه السلام في إسناد الظلم إلى أحد الخصمين بدون سماعٍ لكلامه ودفعه لما أسند إليه أو إقراره به. ثم قال البقاعي رحمة الله عليه: (وهذه الدعوى - دعوى الخصمين أمام داود - تدريب لداود عليه السلام في الأحكام، وذكْرُها للنبي ﷺ تدريبٌ له في الأناة بجميع أموره على الدوام)[١٣٣٢]. وأيد البقاعيُّ ما ذهب إليه بقوله: (ولما ذكر ربنا سبحانه وتعالى هذا، ربما أوهم شيئاً في مقام داود عليه السلام فدفعه تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ فقصة الخصمين مع داود عليه السلام وردت للتدريب في الحكم لا لشيء آخر)[١٣٣٣]. وقال الشهيد سيد قطب في بيان وجه الفتنة التي امتحن الله بها نبيه داود عليه السلام: (إنَّ شخصين تسورا على داود المحراب ففزع منهم، فبادرا يطمئنانه وقالوا: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض وجئنا للتقاضي أمامك. والقضيةُ كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا تحتمل

(١٣٣٠) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٨٠.

(١٣٣١) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٧٥.

(١٣٣٢) تفسير القاسمي ج١٥ ص١٥٨.

(١٣٣٣) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٨-١٥٩.

التأويل، ولهذا اندفع داود عليه السلام يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يسأله عما يقول رداً على ادعاء خصمه، وهكذا أصدر حكمه قائلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ..﴾ ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان - فقد كانا ملكين جاءا للامتحان، امتحان النبيِّ الملكِ الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل وليتبين الحقَّ قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكنَّ القاضي عليه ألا يُستثار وعليه ألا يتعجل، وعليه ألاّ يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة الإدلاء بقوله وحجته فقد يتغير وجه المسألة كلها أو بعضُه وينكشف أنَّ ذلك الظاهر كان غير صحيح، عند هذا تنبّهَ داود إلى أنه الابتلاء: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وهنا أدركته طبيعته.. إنه أواب... ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[1334]. ومعنى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي خرّ ساجداً وقد يعبر عن السجود بالركوع ﴿وَأَنَابَ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله[1335]. وخطيئته هي استعجاله في إصدار الحكم قبل أن يسمع حجة الخصم الآخر، وذكرنا أقوالَ من ذهب إلى ذلك وهو ما رجحناه. وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي غفرنا له ما استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي لقرباً ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي مرجعاً حسناً وكرامة في الآخرة[1336].

٦٥٠- ما يستفاد من قصة الخصمين مع داود:

ويستفاد من قصة الخصمين مع داود، أنَّ على الدعاة أن يعرضوا ما يريدون عرضه من أمور الدعوة على الناس، بشكل مشوق إلى استماعه، كما يستفاد من هذه القصة أنَّ على الجماعة المسلمة أن لا تتعجل في إصدار حكمها فيما يُعرض عليها من أمورٍ قبل أن تتبين وجه المسألة، وأذكر فيما يلي هذا المستفاد من هذه القصة ووجه استفادته.

(١٣٣٤) تفسير سيد قطب ج٥ ص٣٠١٨.

(١٣٣٥) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٨٢.

(١٣٣٦) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٦.

٦٥١- أولاً - يعرض الداعي الموضوع بشكل مشوق:

وهذا يستفاد من عرض قصة الخصمين مع داود بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ . . ﴾ الخ قال الإمام الزمخشري بصدد هذه الآية: (ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه)[١٣٣٧]. فعلى الداعي عند عرضه موضوعاً ما في خطبته أو في درسه على الناس أن يبدأه بما يشد السامعين إليه ويجلب انتباههم ويشوقهم إلى سماع تفاصيل هذا الموضوع. وقد يكون التشويقُ بذكر مَثَلٍ أو قصَّةٍ صغيرة قبل الخوض في الموضوع، أو يكون التشويق بطرح سؤال جوابُهُ معروف وطرحُهُ يثير اهتمام السامعين عما عسى أن يكون الجواب غير الذي يعرفونه، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمامُ مسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعَطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقَضى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١٣٣٨].

٦٥٢- على الجماعة المسلمة التأنّي في إصدار حكمها:

وعلى الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - أن لا تتعجل في إصدار حكمها في القضايا التي ترفع إليها من الدعاة للبت فيها، وإنما عليها الوقوف على جميع جوانب القضية واستماعُ أقوال من له علاقة بها، وإذا آل الأمر في نظر قضية ما إلى تحديد المسؤولية لمحاسبة الشخص المسؤول عن هذه القضية فعلى الجماعة أو من يمثلها أن تسمع حجته ودفاعه عن نفسه، فإنَّ من قواعد الإسلام: «البيّنةُ على من ادعى واليمين على من أنكر». وكذلك تفعلُ الجماعة المسلمة في حالة حصول خصومة بين الدعاة، فعليها أن تسمع كلام الخصمين ولا تكتفيَ أبداً بسماع كلام طرفٍ واحدٍ

(١٣٧٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٢.

(١٣٣٨) المنتقى من الترغيب والترهيب للمنذري ج٢ ص٨٤٤.

أو خصم واحدٍ دون سماع كلام الطرف أو الخصم الآخر، وأَنْ لا تتأثر بما يشاع ويقال فتكتفيَ بالشائع، ولا تسألَ من يتعلق به الأمر، فكم من باطل مشهورٍ ومذكور وهو عين الزور كما قال الإمامُ البقاعيُّ في تفسيره[١٣٣٩].

(١٣٣٩) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٥٩.

الفصل الثالث عشر

قصة سليمان عليه السلام

وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

٦٥٣- تمهيد ومنهج البحث:

سأذكر إن شاء الله تعالى، ما يستفاد من قصة سليمان عليه السلام للدعوة وللدعاة، في أثناء ذكر ما ورد في القرآن الكريم من جزئياتٍ وأحداث ووقائع هذه القصة، كما فعلت في كلامي على قصة داود عليه السلام، ولذات الأسباب التي ذكرتها عندعرض قصة داود وما يستفاد منها للدعوة والدعاة.

٦٥٤- العلم من نعم الله على سليمان وأبيه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٣٤٠]. وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله على غيرهم، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم، وأن من يؤتاه فقد أُوتي فضلاً كبيراً على كثير من عباد الله، والكثير المُفضَّل عليه: مَن لم يُؤتَ علماً أو من لم يُؤتَ مثل علمهما. وفي الآية أيضاً: أنهما فُضّلا على كثير، وفضل عليهما كثير من العباد. وفي الآية أيضاً دلالة على أنَّ من يوتى نعمة العلم يلزمه أن يحمد الله ويشكره على هذه النعمة، وأن يتذكر بأنه وإن فُضِّل بنعمة العلم علىكثير من العباد فقد فُضِّل عليه كثير من العباد أيضاً، وهذا يحمله على التواضع،وأن يطلب دائماً المزيد من العلم. وفي الآية إشارة إلىأن العلم كله هبة من الله تعالى، وأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف أن مصدره هو الله تعالى، وأن يحمده على نعمة العلم كما قلنا، وأن يستعمله فيما يُرضي اللهَ تعالى.

ومجيء (العلم) في الآية بصيغة التنكير ﴿عِلْمًا ۖ﴾ لتعظيم نعمة العلم الذي أُوتياه؛

(١٣٤٠) سورة النمل الآية ١٥.

لأنه جاء في سياق الامتنان عليهما، فكأنه قال: علماً وأيَّ علم، وهو كذلك؛ فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب، ومنه علم منطق الطير[١٣٤١].

٦٥٥- على الدعاة أن يعرفوا نعمة العلم ويستزيدوا منها:

إنّ حاجة الدعاة إلى العلم أكثر من حاجة غيرهم إليه؛ لأنهم يدعون الناس إلى الله، أي: إلى دينه، فيجب أن تكون دعوتهم عن علم وبصيرة بمعاني الإسلام والتفقه فيها. ولْيعلموا أنَّ تفقههم بالدين ومعانيه وتيسُّره لهم نعمةٌ عظيمة؛ لأنه قرينة على إرادة الله لهم الخير، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وأن يشكروا الله على ما يتعلمونه، وأن يطلبوا المزيد من العلم. والعلم المطلوب: هو كل علم نافع، وعلى رأسه علم معاني الإسلام، ومعرفة الداعي غايتَه في الحياة ومركزَه فيها. ومع علم الدين يتعلم ما استطاع مما يخدم دعوته، ويفيد المسلمين من مختلف العلوم الدنيوية، وأن ينوي بتعلمه هذه العلوم خدمة الإسلام والمسلمين.

٦٥٦- على الجماعة المسلمة توجيه أعضائها إلى العلم النافع:

ومن المرغوب فيه جداً أن تقوم الجماعة المسلمة بتوجيه الدعاة وسائر أعضائها إلى طلب العلم الذي يستطيعونه من العلوم الدنيوية المختلفة، زيادة على تعلمهم أمورَ الدين التي يحتاجونها في دعوتهم، والاستزادةِ منها حسب قدرتهم، وأن يكون جميعهم على قدر كاف من المعرفة بالعلوم المختلفة، ليستدلوا بها على تعميق الإيمان بربوبية الله وعظيم قدرته وتفرده بالعبادة له، مثل تعلم شيء من علوم الفلك وعجائب قدرة الله في خلقه، وفي خلق الإنسان على الخصوص. وقد يكون من المفيد تزويد الجماعة أعضاءها بالنشرات العلمية المبسطة في مختلف العلوم.

٦٥٧- الاعتراف بفضل الله والتحديث بنعمه:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ

(١٣٤١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٥٢-٣٥٣ وتعليق أحمد عليه، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٣.

﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[(١٣٤٢)] أي: وورث سليمانُ عليه السلام مُلْكَ داود ومنزلته من النبوة، بمعنى: صار ذلك إليه بعد موت أبيه، ويسمى ذلك ميراثاً تجوُّزاً، وهذا نحو قولهم: «العلماء ورثة الأنبياء»، فليس المراد في الآية وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يُخصَّ سليمان وحده من بين سائر أولاد داود؛ ولكن المراد بذلك وراثة الملك ومنزلة النبوة، والأنبياء لا تورث أموالهم؛ لأن نبينا ﷺ قال: «إنّا معاشَر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة».

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعترافاً بنعمة الله وتحديثاً بها، واعترافاً بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير. والمنطق: كل ما يُصوَّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد، والمراد بعلم سليمان منطق الطير: فهمه من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أُوتينا ما يصلح لنا ونتمناه وهو شيء كثير، كما تقول: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء، تريد: كثرة قصّاده وغزارة علمه، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾: قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة والتحديث بنعمة الله، كما قال نبينا ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أي: أقول هذا القول شكراً لله، وتحديثاً وإظهاراً لفضله ونعمته، ولا أقوله فخراً.

فإن قيل: كيف قال سليمان عليه السلام بصيغة الجمع: ﴿عُلِّمْنَا﴾، ﴿وَأُوتِينَا﴾ وهو من كلام المتكبرين، يتكلم أحدهم بصيغة الجمع وهو واحد؟ والجواب من وجهين: (الأول): أن سليمان عليه السلام أراد بكلامه هذا نفسه وأباه، فجاء كلامه بصيغة الجمع. (والثاني): أن هذه (النون) ليست نون الجمع وإنما يقال لها. نون الواحد المطاع، وكان سليمان عليه السلام مَلِكاً مطاعاً، فكلَّمَ رعيته على صفته وحاله التي هو عليها، وقد يتعلق بهذه الصيغة من الكلام وما تدلُّ عليه من تعظيم قائلها مصالحُ عامة، فيصير ذلك التعظيم الذي يدل عليه التعبير (بنون الجمع) واجباً[(١٣٤٣)].

(١٣٤٢) سورة النمل، الآية: ١٦.

(١٣٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٨، تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٥٤.

٦٥٨- تحديث الدعاة بفضل الله عليهم:

ويجوز للدعاة أن يتحدثوا بفضل الله عليهم: بما يسَّره لهم من سبل الخير وعلى رأسها الدعوة إلى الله، وبما أعانهم عليه من القيام بمتطلباتها، وبإقبال الناس عليهم، وبتعريفهم وتبصيرهم بوسائل الدعوة الصحيحة وبما يأخذون ويتركون، يعلنون ذلك ويصرحون به إظهاراً لفضل الله عليهم، واعترافاً بنعمائه عليهم، شاكرين اللهَ على هذا الفضل العظيم، الذي حباهم به من دون غرور أو استعلاء أو تكبر على الناس أو منّة على أحد.

٦٥٩- النظام والتنظيم في جنود سليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[١٣٤٤] أي: جُمع لسليمان جنوده المذكورون، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد منهم عن منزلته إلى منزلة غيره، وقال مجاهد رحمه الله: جَعل -أي سليمان- على كل صنف من جنوده (وزعة) يردون أُولاها على أُخراها؛ لئلا يتقدموا في السير على غيرهم كما يفعله الملوك اليوم[١٣٤٥]. والوازع في الحرب هو الموكل بصفوف الجنود، يزع من تقدم منهم، أي يكف ويمنع من يتقدم منهم على غيره خلافاً لما يقضي به النظام والتنظيم[١٣٤٦] وقال الإمام الرازي في قوله تعالى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: معناه يُحبسون، وهذا لا يكون إلا إذا كان في كل قبيل -صنف- منها وازع، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه، وقد جاء في الخبر: أنهم كانوا يمنعون من يتقدم، خلافاً لمقتضيات النظام؛ ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب ونظام[١٣٤٧].

وإنما كان لكل صنف من جنود سليمان (وزعة) يقومون بما ذكره مجاهد والرازي؛ حتى لا يتفرقوا وتشيع في صفوفهم الفوضى، فهم يمثلون حشداً عسكرياً

(١٣٤٤) سورة النمل الآية ١٧.

(١٣٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٨.

(١٣٤٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٦٨.

(١٣٤٧) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٨٧.

منظماً، يطلق عليه اصطلاح: الجنود، إشارة إلى الحشد والتنظيم[١٣٤٨]. والظاهر أن هذا الحشد الذي سخره الله تعالى لسليمان عليه السلام كان يشمل طائفة من الجن وطائفة من الطير، كما سخّر له طائفة من الإنس، وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان؛ فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له[١٣٤٩].

٦٦٠- ما تدل عليه الآية:

وفي الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام (وزعة) يكفون الناس ويمنعونهم من تجاوز بعضهم على حقوق بعض، إذ لا يمكن أن يقوم الحكام بذلك بأنفسهم، وقال الحسن البصري وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس: والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ إلا وَزَعَةٌ. وقال أيضاً: لا بد للناس من وازع، أي من سلطان يكفهم[١٣٥٠].

٦٦١- لا بد للجماعة المسلمة من تنظيم وأمير مطاع:

واستئناساً بما كان عليه جنود سليمان من نظام وتنظيم، واقتداءً بهم وبسياسة سليمان معهم، نقول: على الجماعة المسلمة جماعة الدعاة إلى اللهِ أن تلتزم بالنظام والتنظيم على نحو جدي يلتزم به جميع أعضائها، ويَعرف به كل داعية موقعَه في صفوف الجماعة، ويعرف منزلته فيها ونوع العمل المنوط به، وأن يكون للجماعة (وزعة) يمنعون الأعضاء من تجاوز حدودهم ومراتبهم في صفوف الجماعة. وأن يكون لهذه الجماعة بجميع أعضائها أمير مطاع، يشرف على أعضاء الجماعة وعلى «الوزعة» المكلَّفين بالإشراف على النظام والتنظيم ومستلزماته في الجماعة، حتى يمكنها أن تحقق هذه الجماعة المباركة- أهدافها في الدعوة وخدمة الإسلام والمسلمين.

وقد يكون من المرغوب فيه للجماعة المسلمة أن يكون لكل صنف من أعضائها (وازع) يكون مسؤولاً عن صنفه من جهة نظامه وتنظيمه، فيكون لصنف العمّالِ

(١٣٤٨) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٦.

(١٣٤٩) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٥.

(١٣٥٠) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٦٨.

وازع، وآخر لصنفِ الطلاب وهكذا، قياساً على ما كان يفعله سليمان عليه السلام في جنوده، مِن جعلِه (وزعة) لصنوفهم، أي: لكل صنف وازع أو أكثر-كما قال مجاهد والرازي.

٦٦٢- نعم الله على سليمان لم تزده إلا تواضعاً وشكراً لله:

قال تعالى عن سليمان وجنوده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١٣٥١]. والمعنى: حتى إذا مرَّ سليمانُ عليه السلام بمن معه من الجنود على وادي النمل قالت نملة ما قالته. وقولها: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ التفافة مؤمن، أي: من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنهم لا يقتلون نملة فما فوقها بغير وجه حق، إلا إذا وقع منهم ذلك بدون علم ولا قصد.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ أي: تبسم سليمان شارعاً في الضحك، بمعنى: أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وإنما ضحك عليه السلام لأمرين: (الأول): إعجابه بما دلّ عليه قولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ على ظهور رحمته ورحمة جنوده وفضله وفضلهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، (والثاني): سروره بما آتاه الله مما لم يؤتِ أحداً، من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه[١٣٥٢].

وقوله تعالى حكاية عن قول سليمان: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليَّ: من تعليمي منطق الطير والحيوان، وما مننتَ به على والديَّ بالإسلام لك وبالإيمان بك، وأن تُعينني على أن أعمل صالحاً تحبه وترضاه، ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، وبالرفيق الأعلى من أوليائك[١٣٥٣].

ويلاحظ على دعاء سليمان عليه السلام: أنه دعا ربه أن يلهمه شكر نعمته التي

(١٣٥١) سورة النمل، الآيات ١٨، ١٩.

(١٣٥٢) تفسيرابن كثير ج٣ ص٣٥٩، تفسير الرازي ج٢٤ ص١٨٨.

(١٣٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٥٩.

أنعمها عليه وعلى والديه؛ لأن الإنعام على الآباء إنعام على الأبناء؛ لأن انتساب الابن إلى أب صالح نعمة من الله تعالى على الابن يستحق الشكر.

وقوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ يدل على أن دخول الجنة يكون برحمة الله وفضله، لا باستحقاقٍ من جانب العبد[١٣٥٤].

٦٦٣- الدعاة يشكرون الله دائماً:

والدعاة إلى الله تعالى يشكرون الله دائماً على ما أنعم عليهم من توفيقه لهم إلى الدعوة إلى دينه، لما في هذا التوفيق إلى الدعوة من جزيل الثواب، ولهذا فهم لا يمنون على أحد بما يقومون به من جهد مشكور في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ولا يريدون من أحد أجراً على عملهم.

٦٦٤- ما يتعلمه الدعاة من قول النملة:

وفي قول النملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشعارٌ باهتمامها بأمور جماعتها، باعتبارها واحدة من هذه الجماعة وليست أميرة عليها، وكان يسعها أن تنجوَ بنفسها من سليمان وجنوده، بأن تختفيَ في مكان أمين، وتدع بني جنسها من النمل وشأنَهم، ولكنها لم تفعل ذلك، بل قامت بتحذيرهم مع بيان وجه هذا التحذير، مما يدل على شعورها بالمسؤولية نحوهم، وأن من الواجب عليها أن تحرص على نجاتهم، ودفعِ الشر عنهم؛ كما تحرص على نجاة نفسها ودفع الشرِّ عنها.

فعلى الدعاة - وهم أعضاء في الجماعة المسلمة -: أن يشعروا بما شعرت به «نملة» نحو بني جنسها من ضرورة الإهتمام بهم، وأمرهم بما يدفع الشر عنهم، فيقوم هؤلاء الدعاة، بتحذير الجماعة وعموم المسلمين من أي خطر وضرر يتهددهم، وأن لا يهتموا فقط بنجاة أنفسهم من هذا الضرر أو الخطر؛ لأن قصر اهتمام المسلم بنفسه فقط من مظاهر الأنانية المقيتة، وفي الحديث النبوي الشريف: «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، والدعاة أحق الناس بالإهتمام بأمر المسلمين، وأمرِهم بما يجلب الخير والمصلحة لهم ويدفع الشر والضرر عنهم.

(١٣٥٤) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٨٨.

٦٦٥- سليمان يتفقد الطير:

قال تعالى حكاية عن تفقد سليمان الطير: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[١٣٥٥] التفقّد: تَطَلُّبُ ما غاب عنك من شيء، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها، وكانت تصحبه في سفره وتُظله بأجنحتها. واختلف أهل التفسير في معنى تفقده الطير، والدافعِ لهذا التفقد: فقالت فرقة منهم: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور المُلك وشؤون الدولة والوقوف على أحوال الرعية، وهذا هو ظاهر الآية؛ وقالت فرقة أخرى: إنما تفقد الطير ليأمر الهدهد بأن يدلّه على موقع الماء، حتى يأمر سليمان من يحفر له المكان لاستخراج الماء؛ لأن الهدهد كان يرى الماء في أعماق الأرض[١٣٥٦].

والظاهر: أنه افتقد الهدهد وهو ينظر ويفتش في الطير، وأن الهدهد الذي افتقده ولم يره كان هدهداً خاصاً، وليس هدهداً ما من تلك الألوف من الهداهد[١٣٥٧]. ويؤيد هذا القول ما جاء في تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق بشأن هذا الهدهد: أنه كان يأتي إلى سليمان ويكون من جنده كل يوم طائر، فنظر سليمان عليه السلام فرأى من أصناف الطير كلها من حضر إلا الهدهد[١٣٥٨].

٦٦٦- دلالة الآية على واجب الأمير نحو رعيته:

وتَفَقُّدُ سليمان للطير كما ورد في الآية الكريمة دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، وأن هذا من واجبه نحوهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخفَ على سليمان حاله والسؤالُ عنه وعن سبب عدم حضوره، فكيف بعظائم الأمور!.

ويرحم الله عمر بن الخطاب فإنه كان على سيرته الحميدة، وعدله الشامل يقول: لو أن سخلة على شاطىء الفرات أخذها الذئب يُسْألُ عنها عمر. فما ظنك بحاكم تذهب على يديه البلدان ويستولي عليها الكفار، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان!، ألا

(١٣٥٥) سورة النمل الآيتان ٢٠،٢١.

(١٣٥٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٧٧.

(١٣٥٧) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠.

يقتدي هؤلاء الحكام بعمر بن الخطاب الذي كان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه وولاته بنفسه؟![1359].

٦٦٧- أخذ سليمان الأمور بالحزم مع العدل:

قال تعالى عن تفقد سليمان الطير وإعلانه عما سيفعله بالهدهد الغائب: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[1360]. أي: هل أخطأه بصري فلم أره مع حضوره لساتر ستره عني، أم غاب فلم يحضر؟[1361] وحيث قد تبين لجنود سليمان من صيغة سؤال سليمان عن الهدهد أنه غائب بغير إذن من سليمان؛ فقد تعين أن يُؤخَذ الهدهد بكل حزم، وأن يعاقَب على تغيّبه بدون إذن سليمان، ليكون عبرة لغيره، وليمتنع غيره من التصرف بدون إذن القائد، وبهذا يتحقق الضبط والإنضباط والتنظيم والنظام. وهكذا كان، إذ هدّد سليمان بإنزال العذاب بالهدهد فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾؛ ولكن استدرك سليمان عليه السلام فقال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إن الهدهد لا يُرفع عنه العذاب والمسؤولية عن تغيبه بدون إذني؛ إلا إذا جاء بعذر واضح مقبول عن تغيبه، إذ قد تكون للهدهد حجة وعذر، فلا يجوز لسليمان وهو نبي قبل أن يكون ملكاً -أن يُصدرَ حكماً نهائياً على الهدهد قبل أن يستمعَ إلى حجته وعذره، إن كان له عذر أو حجة[1362].

٦٦٨- استماع سليمان لعذر الهدهد عن غيابه:

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1363] أي: إن الهدهد غاب زمناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: علمتُ ما لم تعلمه من الأمر، فكان في هذا الجواب تنبيه لسليمان على أنَّ في أدنى خلق الله مَنْ أحاط علماً بما لم يحط به، فيكون ذلك لطفاً في ترك

(١٣٥٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٧٨.

(١٣٦٠) سورة النمل الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٣٦١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠ وتفسير الزمخشري ج٣ ص٣٥٨.

(١٣٦٢) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٦٣) سورة النمل الآية ٢٢.

الإعجاب بالنفس، الذي هو فتنة العلماء. وفي جواب الهدهد دليل على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب(١٣٦٤). كما أن في هذا الجواب براعةً في الدفاع عن النفس، وعرض العذر وضمان إصغاء الحاكم لحجة المتهم، فالهدهد بدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء سليمان له، إذ قال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فأي حاكم لا يستمع وأحدُ رعيته يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؟! فإذا ضمن الهدهد إصغاء سليمان بعد هذه المفاجأة؛ أخذ الهدهد في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من مملكة سبأ(١٣٦٥).

٦٦٩- النبأ اليقين الذي جاء به الهدهد عن سبأ:

قال تعالى حكاية عما قاله الهدهد لسليمان بشأن مملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(١٣٦٦) أي: قال الهدهد: إني وجدت امرأة تملك أهل سبأ، وأوتيتْ من كل شيء، أي: من أسباب الدنيا التي تحتاجها في إدارة مملكتها، واللائقة بها كملكة متمكنة في حكمها. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير تجلس عليه، عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر، وكان هذا السرير في قصر عظيم رفيع البناء(١٣٦٧)؛ وكانت تلك المرأة هي بلقيس بنت شراحيل على ماقاله بعض أهل العلم، وقد أكثر بعض الناس في قصتها، وما كانت عليه في ملكها وحكمها، والاكتفاء بما جاء عنها في القرآن الكريم هو النهج السديد. والذي يُفهم مما ورد في القرآن بشأنها: أنها كانت ملكة على سبأ في اليمن وكان لها ملك عظيم، وتتمع بطاعة الناس وكبرائهم، وأنها كان كافرة من قوم كفار(١٣٦٨).

٦٧٠- الهدهد يصف حال أهل سبأ وملكتهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الهدهد في وصفه لحال سبأ وملكتهم: ﴿وَجَدتُّهَا

(١٣٦٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠، تفسير الرازي ج٢٤، ص١٩٠، القرطبي ج١٣ ص١٨١.

(١٣٦٥) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.

(١٣٦٦) سورة النمل الآية ٢٣.

(١٣٦٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٠-٣٦١.

(١٣٦٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٩٣.

وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[1369] أي: يقول الهدهد: وجدتُ الملكة وقومَها يعبدون غير الله، فهم يسجدون للشمس من دون الله، وعللّ كفرهم وضلالهم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم فجعلها في أعينهم حسنة، وصدهم هذا الشيطان عن طريق التوحيد، طريق الحق، فهم لا يهتدون إلى الله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، ومنها السجود له وحده[1370].

٦٧١- الهدهد يعقب على حال سبأ وملكتهم:

قال تعالى حكاية عما قاله الهدهد تعقيباً على ما رآه من كفر قوم سبأ وملكتهم، قال الهدهد: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾[1371] أي: هلاّ يسجدون لله الذي يخرج الخبء، أي: يظهر ما هو مخبوء، وسمّي المخبوء بالمصدر «الخبء» وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه الله من غيوبه، وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: وهي مقابلة للخبء في السموات والأرض بالخبء في أطواء النفس، ما ظهر منه وما بطن، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ أي: هو المدعو (الله)، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه[1372].

فإن قلت: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟ فالجواب: بين الوصفين فرق عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلىعروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض[1373].

(١٣٦٩) سورة النمل، الآية ٢٤.
(١٣٧٠) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٨٤، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٨.
(١٣٧١) سورة النمل الآيتان ٢٥، ٢٦.
(١٣٧٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦١، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٩، تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٢.
(١٣٧٣) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٢.

٦٧٢- جواب سليمان على اعتذار الهدهد وما ادعاه:

قال تعالى عما قاله سليمان بعد سماعه أقوال الهدهد عن ملكة سبأ، وما عرفه من كفرهم، وأن هذا كان سبب غيابه: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٣٧٤). أي: إن سليمان عليه السلام لما سمع مقالة الهدهد وما تضمنته من اعتذار عن غيابه؛ قال عليه السلام: ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ وهو من النظر الذي هو التأمل والصفح. وأراد بقوله: أصدقت أم كذبت، إلا أن سليمان عليه السلام قال: ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾؛ لأن هذه العبارة أبلغ من قوله: «أم كذبت»؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين؛ كان كاذباً لا محالة، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به، فلم يوثق به(١٣٧٥).

ويلاحظ هنا أن سليمان لم يشرع في تصديقه ولا تكذيبه، ولم يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به، إنما أخذ في تجربة الهدهد ليتأكد من صحة ما قاله، فقال له سليمان عليه السلام: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: ألقه إلى بلقيس ملكة سبأ وقومها، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي: تنّح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه، ليكون ما يقولونه بمسمع منك، ﴿ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: ماذا يجيبون، وماذا يردون من القول(١٣٧٦).

٦٧٣- الإمام يقبل عذر رعيته:

وفي الآية دليل على أن على الإمام أن يقبل عذر رعيته إذا جاء بعذر سائغ، ولكن للإمام أن يتأكد من صحة ما اعتذر به المعتذر، وهذا ما فعله سليمان عليه السلام، فإنه لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه عن سبب غيابه عن الحضور مع جنده، وهو أنه كان في غيبة قد اطلع على قوم كافرين يستحقون الجهاد، وكان سليمان يحب الجهاد، فكان صدقُ الهدهد عذراً مقبولاً، ولكن سليمان لم يتعجل تصديقه، كما لم يتعجل عقابه، وإنما أراد التأكد من صحة ما قال. وهكذا ينبغي أن يكون الإمام العادل، يقبل عذر من اعتذر من رعيته، لا سيما الصادق في عذره، وفي الحديث

(١٣٧٤) سورة النمل الآيتان ٢٧، ٢٨.

(١٣٧٥) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٦٣.

(١٣٧٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٣، تفسيرالقرطبي ج١٣ ص١٩١.

الصحيح عن رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»[١٣٧٧].

٦٧٤- خلاصة سياسة سليمان في رعيته:

سليمان عليه السلام كان ملكاً مع كونه نبياً رسولاً، وكانت رعيته من الإنس والجن والطير، وكانت سياسته فيهم تقوم على العدل والحزم والسهر الدائم على شؤونهم، وقد رأيناه يتفقد الطير ولم يفته غياب الهدهد، وكيف أنه أعلن عن عزمه على عقاب الهدهد لغيابه دون إذنه، ولكن علّق هذا العقاب على عدم العذر المقبول، ثم إن سليمان اتسع حلمه لسماع دفاع الهدهد عن نفسه، والتصريح بأنه علم من الأمور ما لم يعلمه سليمان، وأن تحصيله هذا العلم والإحاطة بمضمونه هو سبب غيابه، فقبل سليمان عذر الهدهد وحجته قبولاً معلَّقاً على ظهور صدقه فيما يجربه فيه، وهو إرساله برسالته إلى قوم سبأ وملكتهم، وإعادته بالجواب منهم.

٦٧٥- ما تستفيده الجماعة المسلمة من سياسة سليمان في رعيته:

على أمير الجماعة المسلمة أن يتفقد شؤون جماعته ويتفقد أحوال أعضائها، ويسوس أُمور الجماعة بالحزم والعدل، دون رخاوة وتسيب وإهمال وعدم مبالاة، فإذا استدعى بعض مسؤولي الجماعة أو قادتها أو جميع أعضائها، فعليه أن يتأكد من حضور جميع المطلوب حضورهم، وأن يسأل عن الغائب منهم، وحيث أن غيبة الغائب قد تكون مشهورة ومعروفة فعلى أمير الجماعة أن يعلن عزمه على محاسبة الغائب على غيابه ومعاقبتهِ إن لم يكن له عذر، حتى يعلم الجميع أن الأمر جد لا هزل، وأن الالتزام بالنظام ومقتضيات الضبط من الأمور المطلوبة التي يُحاسب المقَصِّر فيها.

كما أن على أمير الجماعة أن يسمع حجة المقصر لعدم حضوره، أو لعدم القيام بالمطلوب منه، وأن لا يتعجل في إصدار حكم الإدانة والعقاب قبل أن يسمع حجة المتعلِّق به هذا الحكم.

ولأمير الجماعة الحق في التأكد من مواقف أعضاء الجماعة، عن طريق النظر

(١٣٧٧) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٨٩.

والتأمل فيما يفعلونه أو يعتذرون به أو فيما يُكلَّفون به.

إن أخذ الأمير أعضاء جماعته بالحزم والجدية والمحاسبة يقوم على الحرص على مصلحة الجماعة، وعلى مصلحة أعضائها، ولا يقوم أبداً على أي معنى من معاني الهوى والتعسّف في استعمال السلطة.

إن أعضاء الجماعة في نظر أميرها كأولاده، فكما أن محبته لأولاده تحمله على رعاية شؤونهم بالحزم والجدية، ولا يقدح ذلك في أُبوته لهم وحنانه عليهم ورحمته بهم؛ فكذلك يجب أن يُنظَر إلى حزم الأمير في سياسته لأعضاء جماعته.

٦٧٦- ما يتعلمه أعضاء الجماعة من كلام الهدهد:

وكما أن على رئيس الجماعة سياسة جماعته بالعدل والحزم وعدم التسرع في مؤاخذة أعضاء جماعته، فإن من حق العضو في الجماعة -وهو داعية إلى الله- أن يُبيِّن حجته وعذره في أي مؤاخذة توجه إليه، وأن يكون صريحاً في بيان حجته لأميره، ثم يترك الأمر له ليزن أقواله، وليتصرف نحوه في ضوء ما سمعه منه. وأن لا يضيق الداعية -وهو عضو في الجماعة- بما يمتحنه به أميره؛ ليتبين له ما يريد تبينه من أمره.

ولعضو الجماعة أن يقول لأميره: علمت ما لم تعلمه، إذا كان ما علمه العضو واقعاً حقاً، كما قال الهدهد لسليمان.

وعلى الداعية - وهو عضو في الجماعة المسلمة - أن ينقل إلى أميرها ما يعلمه من أمور يعلم أنها من اهتمامات الجماعة وأميرها، وإن لم يُكلَّف هو بها، فالهدهد نقل إلى سليمان ما رآه من أمر ملكة سبأ وقومها وضلالهم، وإن لم يُكلَّف الهدهد بالتحري عنهم؛ لأنه يعلم أنَّ هذه أمور منكرة يهتم سليمان بمعرفتها لإزالتها. ومعنى ذلك: أن على عضو الجماعة المسلمة أن يستحضر في نفسه اهتمامات الجماعة، وأن يكون اهتمامه هو نفس اهتمام الجماعة وأميرها، فينقل إليه كل ما يرى ضرورة نقله إليه، فلا يكون كموظف في دائرة من دوائر الدولة: لا يهتم إلا بواجبات وظيفته دون الاهتمام بدائرته فضلاً عن الاهتمام بوزارته ودولته.

٦٧٧- عود إلى هدهد سليمان وكتابه:

أخذ الهدهد كتاب سليمان عليه السلام وألقاه إلى ملكة سبأ كما أمره سليمان، فقالت كما أخبرنا الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[١٣٧٨].

والمعنى: فذهب الهدهد فألقاه إلى ملكة سبأ، فسمعها وهي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟..﴾ الخ والملأ: هم أشراف الناس الذين ينوبون مناب الجميع.

ووصفت الكتابَ بالكرم؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل[١٣٧٩]. ويجوز أن يكون وصفها لكتاب سليمان بالكرم؛ لأنه من سليمان، وتصديره ببسم الله، وسليمان عليه السلام لم يقدم اسمه على قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإنما ذكرت بلقيس -ملكة سبأ- أن هذا الكتاب من سليمان، ثم حكت ما في الكتاب، والله تعالى حكى ذلك، فالتقديم -تقديم اسم سليمان على بسم الله- واقع في حكاية قول بلقيس[١٣٨٠].

٦٧٨- مضمون كتاب سليمان:

وتضمن كتاب سليمان طلباً صريحاً، عبّر عنه كما حكى الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فمضمون الكتاب في غاية البساطة والقوة، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم، ومطلوب فيه أمر واحد هو: أن لا يستكبروا -الملكة وقومها- على مرسله، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه[١٣٨١].

٦٧٩- الدعوة إلى الله وظيفة رسل الله:

إن وظيفة رسل الله جميعاً دعوة الخلق إلى الله، أي: إلى الإيمان به رباً ومعبوداً، وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟

(١٣٧٨) سورة النمل الآيتان ٢٩-٣١.

(١٣٧٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٢.

(١٣٨٠) تفسير الرازي ج٢٤ ص١٩٤.

(١٣٨١) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٤٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٣.

ٱلطَّٰغُوتَ ﴾، ومن أجل هذا طلب سليمان عليه السلام من ملكة سبأ وقومها أن يستسلموا إلى الله تعالى وينقادوا إليه، وما يتضمن ذلك من إفراده بالعبادة، وأن ينقادوا إليه -سليمان- ويطيعوه؛ لأنه رسول الله.

٦٨٠- رسولنا وأتباعه يدعون إلى الله:

و ما دامت الدعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعاً، فقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعلن للناس بأن سبيله هو الدعوة إلى الله، وكذا سبيل أتباعه المؤمنين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

٦٨١- من لوازم الإيمان: القيام بالدعوة إلى الله:

وفي الآية التي ذكرتها في الفقرة السابقة دليل واضح على أن من لوازم الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً القيام بالدعوة إلى الله؛ لأن سبيل النبي ﷺ والمؤمنين هوالدعوة إلى الله.

٦٨٢- الدعوة إلى الله بكل وسيلة مشروعة:

وواجب الدعوة إلى الله يُؤَدَّى بكل وسيلة مشروعة: بالمشافهة وبالكتابة وبإرسال الرسل إلى من يُراد تبليغهم بالدعوة إلى الله. وسليمان عليه السلام أخذ بوسيلة الكتابة في دعوته لملكة سبأ وقومها بضرورة الإيمان بالله والإنقياد له باعتباره رسول الله. وقد أخذ رسولنا محمد ﷺ بوسيلة الكتابة لتبليغ دعوته، فأرسل كتباً إلى كسرى وقيصر وغيرهما يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ، والانقياد لشرع الإسلام. وهكذا ينبغي للدعاة أن يفعلوا، فيرسلوا الكتب لمن يدعونهم إلى الإسلام إذا تعذر الذهاب إليهم ومشافهتهم بالدعوة. كما يجوز للدعاة ولجماعتهم إرسال من ينوب عنهم لتبليغ الدعوة. ولهم أيضاً عقد الاجتماعات العامة، أو المؤتمرات العامة؛ ليقوم الدعاة بتوضيح معاني الدعوة للحاضرين، وإزالة الشبهات عنها، وضرورة الاستجابة لها؛ لأنها دعوة الإسلام.

٦٨٣- بلقيس تشاور الملأ بشأن كتاب سليمان:

قال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا

﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾[١٣٨٢]، والمعنى: أن ملكة سبأ قرأت الكتاب وعرفت مضمونه وما فيه، فجمعت «الملأ» من قومها، لتشاوروهم بشأن هذا الكتاب الذي ألقى إليها، كتابِ سليمان وما طلبه فيه.

والملأ هم أشراف قومها الذين ينوبون مناب الجميع، فقالت لهم: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، والظاهر أنها أبلغتهم بمضون الكتاب، أو قرأته عليهم، والظاهر أيضاً أنها أخذت ما في كتاب سليمان مأخذ الجدّ، لما فيه من الحزم والاستعلاء، والظاهر أنها رأت في نفسها أن المقاومة أو الخصومة مع سليمان لا تفيد، وأنها أرادت أن تُشعر الملأ بذلك، فمهدت لما تريد بوصفها الكتاب بأنه ﴿كَرِيمٌ﴾ ثم طلبت منهم المشورة بقولها: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ والفتوى: طلب الجواب في الحادثة من المُفتي الذي يُستفتَى فيها. والمراد بالفتوى التي طلبتها الملكة من الملأ: الإشارة عليها بما عندهم من الرأي والتدبير بشأن هذا الكتاب -كتابِ سليمان عليه السلام وما طلبه فيه. والظاهر أن الملكة أرادت بالرجوع إلى مشاورتهم واستطلاع آرائهم: تطيب نفوسهم، ولتختبر مدى عزمهم على مقاومة سليمان إذا آل الأمر إلى مقاومته ومخاصمته. وقد ذكّرتهم بأن مشاورتهم والرجوع إلى معرفة آرائهم من الأمور المعتادة والمطَّردة عندها في تدبير شؤون المملكة، وفيما يعرض لها من الأمور المهمة، فقالت لهم: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أي: تظهرون وتُستشَارون وتشيرون، فكيف في هذه النازلة العظيمة التي نزلت بها وبهم- وهي ما طلبه سليمان في كتابه من الخضوع إليه، والمجيء إليه مستسلمين!![١٣٨٣].

٦٨٤- جواب الملأ إلى بلقيس:

قال تعالى حكاية عن جواب الملأ إلى بلقيس -ملكتِهم- : ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾[١٣٨٤]. أرادوا بقوتهم: قوتهم بالأبدان وبآلات

(١٣٨٢) سورة النمل، الآية ٣٢.

(١٣٨٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٢، تفسير الكشاف ج٣ ص٢٦٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٤، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٩-٢٦٤٠.

(١٣٨٤) سورة النمل، الآية ٣٣.

الحرب وبعددهم. والبأس الشديد الذي نسبوه إلى أنفسهم: النجدة وشدة البلاء في الحرب. ثم فوضوا الأمر إليها، وتركوا اتخاذ القرار النهائي لها، معلنين طاعتهم لها فيما تأمرهم به من الحرب أو السلم[١٣٨٥].

٦٨٥- بلقيس تمهد لرأيها قبل أن تعلنه:

اطمأنت بلقيس إلى استعداد «الملأ» لطاعتها فيما تأمر به من حرب أو سلم، ولكنها أحست منهم الميل إلى المحاربة، لِما أظهروه من قوتهم وشدة بأسهم، فرأت أن من حسن الرأي الميلَ إلى المسالمة والمداراة في أول الأمر، وأن لا تتعجل في رفض أو قبول طلب سليمان كما جاء في كتابه، ليكون لها فسحة من الوقت للنظر فيه، حرصاً على ملكها وعلى قومها، بدفع الهلاك عنهم وتحقيق المصلحة لهم، ولأن القتال إنما يُؤثَر ويُقَدَّم على المسالمة إذا غلب على الظن الانتصار على العدو، أما إذا لم يحصل هذا الظن، أو حصل الشك فيه، أو غلب على الظن انتصار العدو؛ فإن الراجح يكون الميل إلى المسالمة والمهادنة ولو إلى حين؛ لأن القتال في هذه الحالة- أي: مع غلبة الظن بانتصار العدو -يعتبر مجازفة ويعرِّضُ البلاد وأهلها إلى الهلاك والهوان، وهذا ما رأته بلقيس، ومهدت له بقولها كما حكى الله تعالى عنها: ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: إنَّ الملوك إذا تغلبوا خربوا القرى، قال ابن عباس: أي: إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أي: خربوه، ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ ﴾ أي: وقصدوا من فيها من الأشراف والقادة والجنود فأذلوهم وأهانوهم، إما بالقتل أو بالأسر أو بالمعاملة المهينة التي لا يرضاها أي عزيز يحس بكرامته، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: قالت بلقيس: وهذه عادة الملوك المستمرة الثابتة التي لا تتغير، وقيل: هذا تصديق لها من الله تعالى فيما قالته بشأن الملوك إذا انتصروا ودخلوا بلداً عنوة. وواضح من قولها هذا أنها كانت شديدة الحرص على مصلحة قومها، ودفع الأذى والضرر عنهم، مع إشارة إلى استعظام أمر سليمان[١٣٨٦].

(١٣٨٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٤، تفسير الرازي ج٢٣، ص١٩٥.

(١٣٨٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٩٥، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢، تفسير الكشاف ج٣ ص٣٦٥. والآية في سورة النمل ورقمها ٣٤.

٦٨٦- بلقيس تعلن رأيها:

وبعد أن مهدت بلقيس لرأيها ببيان ما يحلّ بها وبقومها في حالة دخولهم الحرب مع سليمان وانتصاره عليهم؛ قالت معلنةً رأيها كما حكى الله تعالى عنها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[١٣٨٧]. فهذا القول من بلقيس إعلان لرأيها، وهو عدولها عن الحرب إلى المهادنة والمسالمة والمداراة إلى حين، حتى يتبين لها أمر سليمان، وذلك بإرسال هدية له تليق به لتنظر ماذا يكون جوابه، فتعمل وتتصرف معه على حسب ذلك، فلعله يقبل هديتها ويكف عنها، أو يفرض عليها خراجاً تحمله إليه كل عام ويترك قتالها ومحاربتها.

قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس.

٦٨٧- توضيح رأي بلقيس ومبرراته:

كان رأي بلقيس عدم الاستعجال برفض أو قبول طلب سليمان كما جاء في كتابه، ورأت التأني في الجواب حتى تستكشف حال سليمان وحقيقته: أهو مَلِك من الملوك، لا يريد إلا الغلبة على الآخرين والاستئثار بالملك والسلطان ومتع الحياة، وليس له وراء ذلك غاية؛ أم هو نبي ورسول من الله، يعمل لتبليغ رسالة الله.

وكان مسلك بلقيس لاستكشاف حال سليمان إرسالَ هدية تليق به، فإن قبلها كان ذلك قرينة على أنه ملك كالملوك، غايته حطام الدنيا ومتاعها، وأمكن عند ذلك النظر الجدي في قتاله إن لم يقنع بالهدية، بل ويترجح قتاله، وإن رفض الهدية وأصرّ على طلبه في الإذعان له ولدعوته، دلَّ ذلك على أنه نبي ورسول من الله، وعليها في هذه الحالة إجابة طلبه، إذ لا قوة لها على محاربته، ولا معنى لهذه المحاربة وقد تبين أنه رسول الله، قال ابن عباس رضي الله عنه وغير واحد: قالت بلقيس لقومها: إن قَبِلَ الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه[١٣٨٨].

(١٣٨٧) سورة النمل الآية ٣٥.

(١٣٨٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٢.

وقد يقال: كيف وقع في نفس بلقيس احتمال أن يكون سليمان عليه السلام نبياً مرسلاً من الله تعالى؟ والجواب من وجهين:

(الأول): أن صيت سليمان كان ذائعاً في هذه الرقعة أي: في البلاد المجاورة لسليمان والقريبة منه[١٣٨٩]، وأغلب الظن أنه عرف في هذه البلاد بالنبوة والملك العظيم.

(الثاني): أن إلقاء الكتاب إليها من قبل الهدهد -وهو طائر-، وما حواه هذا الكتاب من ذكر اسم الله والدعوة إليه؛ يوحي إليها أنه نبي ورسول من الله تعالى، وليس ملكاً فقط، إذ لا يَقْدِرُ أي مَلِكٍ أن يكون رسوله في إيصال كتابه إليها طائراً. جاء في تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى حكاية عما قالته بلقيس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾: «تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره، كون طائرٍ ذهب به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمرٌ لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام»[١٣٩٠].

ولا يقال: إذا وقع في نفسها أن سليمان نبي فلماذا لم تسارع إلى إجابة طلبه وتسلم لله رب العالمين؟ والجواب: أنها كانت تعبد غير الله، وأرادت التأكد والاطمئنان إلى أنه نبي ورسول من الله، فأرسلت إليه الهدية لتستدل بقبولها أو رفضها على حقيقة حاله، -كما قال ابن عباس-، ثم تتصرف معه في ضوء ذلك.

وفي تفسير ابن عطية ما يؤيد ما ذكرناه، فقد جاء فيه: «روي: أن بلقيس قالت لقومها: إني أجرب هذا الرجل -تعني سليمان عليه السلام- بهدية أعطيه فيها نفائس الأموال، فإن كان ملكاً دنيوياً، أرضاه المال، فعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال، ولا زَمَنَا في أمر الدين، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه»[١٣٩١].

(١٣٨٩) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٣٩.
(١٣٩٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦١.
(١٣٩١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٣.

٦٨٨- سليمان يرفض هدية بلقيس:

قلنا: إن رأي بلقيس الذي أعلنته للملأ: هو أن ترسل هدية إلى سليمان تليق به، لتنظر ماذا يكون وقعها في نفسه، وقد أرسلت الهدية فعلاً، وفيها نفائس الأموال، فلما وصلته؛ قال سليمان لمن جاء بها ما أخبرنا الله تعالى به حكاية عن قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[١٣٩٢].

عبرَّ عن المرسَلين الذين جاؤوا بالهدية بـ﴿جَآءَ﴾، لما أراد به الرسول الذي يقع على الجمع والإفراد، والتأنيث والتذكير[١٣٩٣].

وفي قول سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾: عدم اكتراثه بذلك المال على كثرته والمعنى: أتصانعونني وتستميلونني بمال لأترككم على كفركم وشرككم وملككم وأترك دعوتكم إلى الإسلام؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله تعالى من الإسلام والنبوة والملك والمال خير مما آتاكم، ﴿بَلْ أَنتُم﴾ قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فلذلك ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بما تُزادون من مال، وبما يُهدَي إليكم؛ لأن ذلك منتهى غايتكم ومبلغ علمكم، ولذلك لا تعرفون سبباً لرضا الغير وفرحه إلا بما يُهدَى إليه من متاع الدنيا، هذا هو حالكم. أما حالي فهو خلاف حالكم: فلا أرضى منكم بشيء، ولا أفرح به إلا بأن تُسلموا، فالإسلام وحده هو الذي أقبله منكم، ولا أقبل شيئاً سواه[١٣٩٤].

٦٨٩- سليمان يهدد بالحرب إن لم تسلم بلقيس وقومها:

قال تعالى حكايةً عن تهديد سليمانَ لبلقيس وقومها إن لم يسلموا: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[١٣٩٥] والمعنى: أن سليمان عليه السلام قال لمن جاؤوا بالهدية موجهاً تهديده إلى رئيسهم: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ارجع بهديتهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم

(١٣٩٢) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٤.

(١٣٩٣) سورة النمل الآية ٣٦.

(١٣٩٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٣، تفسيرالرازي ج١٣ ص١٩٦.

(١٣٩٥) سورة النمل الآية ٣٧.

﴿مِّنۡهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: ولنخرجنّهم -أي بلقيس وقومها- من بلدتهم أو من أرضهم أذلة، ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهانون مدحورون. وهذا الذي سيصيبهم إذا لم يسلموا، وظلوا مقمين على كفرهم(١٣٩٦).

وفي قوله تعالى حكاية عما قاله سليمان عليه السلام: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةً وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، قال الإمام ابن عطية في تفسير هذه الآية: (ووعيد سليمان عليه السلام لهم مقترن بدوامهم على الكفر)(١٣٩٧) وقال الإمام ابن عطية أيضاً: (ثم توعدهم -أي سليمان- بالجنود والغلبة والإخراج إذا لم يُسلموا)(١٣٩٨) وقال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «فلنأتيهم بجنود لا قِبلَ لهم بها: أي: لا طاقة لهم بها، ولنخرجهم منها: أي من أرضهم وهم أذلة صاغرون أي: مهانون أذلاء إن لم يُسلموا(١٣٩٩).

ويُفهم من هذا: أن سليمان أظهر عزمه على قتال بلقيس وقومها، وإزالة حكمهم بالقوة، إذا لم يسلموا ويتركوا كفرهم وشركهم. ومعنى ذلك -على ما يبدو لنا-: أن ما عزم عليه سليمان عليه السلام هو من باب إزالة المنكر، ونظراً لوجود القوة اللازمة لإزالته؛ تحرك سليمان عليه السلام إلى اليمن طالباً من بلقيس التنحي عن السلطة والحكم؛ إذا لم تسلم وقومها، وإذا رفضت ذلك، فإنه سيحاربها ويزيل حكمها بالقوة؛ لأن بقاءه منكر عظيم تجب إزالته. ومعنى ذلك كله: أن من شريعة سليمان إزالة الحكم الطاغوتي من الأرض كلماكان ذلك ممكناً، وقد أمكنه بالنسبة لمملكة سبأ في اليمن، فقد كتب إلى بلقيس كتابه قبل أن يخطو الخطوة الثانية، وهي إخضاعهم بالقوة، وإزالة حكمهم الكافر.

٦٩٠- ما يستفاد من تهديد سليمان بلقيس بالحرب:

قلنا: إن تهديد سليمان بلقيس بالحرب -إن لم تسلم وقومها- يدخل في باب إزالة المنكر بالقوة إذا تيسرت القوة لذلك. كما يمكن أن نقول: إنه كان من شرعة

(١٣٩٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٦-٣٦٧.

(١٣٩٧) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٤.

(١٣٩٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٥.

(١٣٩٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٠١-٢٠٢.

سليمان عليه السلام قتال الكفرة، وإزالة حكمهم بالقوة إذا لم يسلموا، وإن لم يتعرضوا لسليمان ولم يبدؤوه بقتال، ومعنى ذلك: أن القتال في شرعة سليمان عليه السلام، أو الجهاد في شرعته- هو قتال هجومي، وجهاد هجومي وليس دفاعياً فقط يقتصر على رد هجوم الكفرة عن ديار الإسلام. وهذا واضح؛ لأن مملكة سبأ كانت بعيدة عن سليمان ودولته، ولم تتعرض له بهجوم ونحوه، مما يدل دلالة قاطعة على ما قلناه، وهو أن القتال في شريعة سليمان عليه السلام كان هجومياً وغير مقصور على القتال الدفاعي.

وهذا هو نفس المقرر في شريعتنا الإسلامية، فالقتال في الإسلام هو نوع من الجهاد؛ لأنه جهاد بالنفس، فإذا كان للمسلمين قوة كافية لإزالة حكم الطواغيت في الأرض، وجب على المسلمين عرض الإسلام عليهم، فإن أسلموا فبها ونعمت، وصاروا من جملة الأمة الإسلامية، وحكموا بالإسلام، فإن رفضوا الإسلام،وجب عليهم التخلي عن الحكم؛ لأن حكم الكفرة منكر عظيم تجب إزالته، فيصيرون من أهل الذمة إن رغبوا في ذلك، وإن أبوا التخلي عن الحكم، وصيرورتهم من أهل الذمة وجب قتالهم؛ حتى يزول حكمهم الطاغوتي وهو منكر عظيم. فإذا زال حكمهم بالقوة؛ كان الخيار لأهل تلك البلاد: الإسلام أو دخولهم في الذمة مع بقائهم على دينهم. هذا هو الحق في مفهوم الجهاد وما يتضمنه في الإسلام[١٤٠٠].

٦٩١- بلقيس تستجيب لدعوة سليمان فلا تقع الحرب:

ولما رجع رسل بلقيس بهديتها وأخبروها بما قال سليمان وما هددهم وتوعدهم به؛ عزمت على الاستجابة لدعوته، وأعلمته بالقدوم عليه مع رؤساء قومها للتعرف على دينه، والدخول فيه. قال ابن كثير في تفسيره: (فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان؛ سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام). وقال ابن كثير: (قال محمد بن إسحاق عن زيد بن رومان قال: فلما رجعتْ إليها الرسل بما قال سليمان، قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئاً، وبعثت إليه أني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرُكَ وما تدعو

(١٤٠٠) انظر نظام الجهاد في كتابنا أصول الدعوة.

إليه من ذلك)[١٤٠١].

٦٩٢- أيكم يأتيني بعرشها:

ولما علم سليمان عليه السلام بتوجه ومسيرة بلقيس ومن معها إليه، سرّه ذلك، وقال عليه السلام للملأ من حوله من الجنّ والإنس ما أخبرنا اللهُ به: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[١٤٠٢] أي: قبل أن يأتوني مستسلمين، أو قبل أن يأتوني وقد أسلموا[١٤٠٣].

٦٩٣- تعليل الإتيان بعرشها:

وقد يسأل سائل: لماذا أراد سليمان عليه السلام الإتيان بعرشها -عرش بلقيس-؟، والجواب: للعلماء أقوال:

(القول الأول): لما وُصِفَ عرش بلقيس وما امتاز به من دقة صنعه وفخامته، أراد سليمان أن يأخذه قبل أن تُسلم بلقيس، فيحرم عليه مالها؛ لأن الإنسان إذا أسلم عصم ماله ودمه.

(القول الثاني): أراد سليمان عليه السلام أن يختبر عقلها في معرفتها به إذا رأته عند سليمان.

(القول الثالث): أراد سليمان بإتيان عرشها أن يريها ما أيده اللهُ به من معجزات على نبوته ورسالته، ومن هذه المعجزات تسخير الله له الجن ومن يقومون له بخوارق الأعمال التي يعجز عنها البشر، ومنها: جلب عرشها قبل أن تصل إليه، وبالرغم من حراسته، وفي هذا دليل ملموس على صدقه، وأنه رسول الله تعالى[١٤٠٤].

٦٩٤- القول الراجح:

(القول الأول): ضعيف، يرد عليه: أن سليمان عليه السلام آتاه الله سبحانه

(١٤٠١) تفسيرابن كثير ج٣ ص٣٦٣.

(١٤٠٢) سورة النمل الآية ٣٨.

(١٤٠٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٣-٢٠٤.

(١٤٠٤) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج٣ ص١٤٦٢.

وتعالى من الملك ومن متاع الدنيا والأموال ما لا مزيد عليه ولا مطمع فيما يكون عند غيره. وأيضاً فإن الغنيمة -وهي أموال الكفار- لم تُحلّ لأحد قبل نبينا محمد ﷺ، فقد جاء في حديث أخرجه الإمام مسلم قوله ﷺ: «... فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا»[١٤٠٥]، وجاء في شرح هذه العبارة: (وفي هذا الحديث إباحة الغنائم لهذه الأُمّة، وأنها مختصة بذلك)[١٤٠٦].

و(القول الثاني): ضعيف، يُرد عليه: أنه ليس مما يدخل في اهتمامات ومقاصد سليمان عليه السلام -وهو رسول كريم- اختبار رجاحة عقل بلقيس، وإنما يدخل في اهتماماته ومقاصده الرغبةُ في هدايتها وإسلامها، وقد علم بعزمها على الإسلام ورغبتها فيه، وهذا يكفي دليلاً لرجاحة عقلها- إن كان معرفة ذلك من مقاصد سليمان.

و(القول الثالث): هوالقول الراجح؛ لأنه هواللائق بحال سليمان -وهو رسول كريم وداع إلى الله تعالى-، ولا شك أنَّ إتيانه بعرشها يعطيها الدليل الملموس على نبوة سليمان ودينه الحقِّ، وأنَّ ما يدعو إليه هو الحق، وكل هذا يحملها على الإيمان بالله، وبنبوة سليمان، وهذا ما يحرص عليه سليمان ويحبه ويرغب فيه.

٦٩٥- الإتيان بعرشها في غمضة عين:

لما قال سليمان للملأ حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أجابه مَنْ أخبرنا الله بجوابه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[١٤٠٧] والعفريت من الجن: هو القوي المارد[١٤٠٨]. فهذا العفريت قدّم نفسه لسليمان مخبراً إياه بأنه يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مجلسه، وأنه قوي على حمله، أمين على ما فيه[١٤٠٩] ولكنَّ سليمان عليه السلام استبطأ ذلك، فتقدم

(١٤٠٥) السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج تأليف صديق حسن خان ج٦ ص٦٤٠.

(١٤٠٦) المرجع السابق ص٦٤٣.

(١٤٠٧) سورة النمل الآية ٣٩.

(١٤٠٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٧.

(١٤٠٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٣-٣٦٤، تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٠٤.

غيره، وهو مَنْ أخبرنا الله بقوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[1410]. أي: قبل أن تفتح عينيك وتغمضهما[1411]، ولم يذكر القرآن الكريم من هو الذي عنده علم من الكتاب، ولا اسمه، ولا ماهية هذا الكتاب، ولا ماهية هذا العلم الذي أُوتيه. وعلى هذا، فكل ما يمكن أن نقوله: إنه جني أوإنسي آتاه اللهُ علماً استعان به على الإتيان بالعرش بتمكين من الله تعالى، وعلى وجهٍ خارق للمعتاد، وفيه دلالة على نبوة سليمان وتسخير الله له ما لم يسخره لغيره.

٦٩٦- ما قاله سليمان لما رأى العرش مستقراً عنده:

ولما جيء له بالعرش -عرش بلقيس- ووضع أمامه؛ قال ما أخبرنا الله حكايةعن قول سليمان: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[1412]. أي: فلما عاين سليمان وَمَلؤُهُ عرش بلقيس مستقراً وقائماً عنده؛ قال عليه السلام: «هذا الذي حصل -وهو الإتيان بعرشها في هذا الوقت القصير- إنما هو من فضل الله عليَّ، ليتخبرني أأشكر نعمته عليَّ بأن أقوم بحقها، أم أكفرها فلا أقوم بحقها، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، أي: لا يرجع نفع ذلك إلاّ إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها؛ لأن الشكر على النعمة إبقاءٌ للنعمة الموجودة، وبه تُنال النعمة المفقودة، ومن كفر فلم يقم بشكرنعمة الله عليه؛ فإن الله تعالى غني عن شكره، فهو تعالى كريم في نفسه، وإن لم يعبده أو لم يقم أحد بشكره وشكر نعمه عليه، وهو تعالى كريم أيضاً بالإنعام على من يكفر نعمته[1413].

٦٩٧- سليمان يختبر رجاحة عقل بلقيس:

وكان اختبار سليمان لعقل بلقيس ورجاحته بما أخبرنا اللهُ به، قال تعالى حكاية عما فعله سليمان لاختبار بلقيس: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا

(١٤١٠) سورة النمل الآية ٤٠.

(١٤١١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٢٠٨.

(١٤١٢) سورة النمل الآية ٤٠.

(١٤١٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٤، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٨. تفسير القرطبي ج٣ ص٢٠٦.

﴿يَهْتَدُونَ﴾[1414]. ومعنى هذه الآية الكريمة: أنه لما جيء بعرشها -أي عرش بلقيس قبل قدومها- أراد سليمان عليه السلام اختبار عقلها وذكائها، فأمر أن يُنكرَّعرشها، بأن يجعلوه مُتنكِّراً متغيراً عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه، وإنما فعل ذلك سليمان -كما قلنا- ليعرف مدى ذكائها وفراستها إذا سئلت عن هذا العرش الذي تراه: أهو عرشها، بعد هذا التغيير الذي حصل فيه، أم هو غيره؟.

٦٩٨- بلقيس تنجح في الاختبار:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1415] والمعنى: أنها لما جاءت بلقيس، ووصلت إلى سليمان؛ عرض عليها عرشهاوقد غُيّر ونكّر، وزيد فيه ونقص منه، وقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾؟ فلم تقل: إنه هو؛ لعلمها أنها تركته في بلدها، وهو بعيد عن سليمان، وتركت عليه حراسها، فكيف جيء به!! ومن جاء به على بُعد المسافة وشدة الحراسة عليه؟!، ولم تقل: إنه غيره؛ لِما رأت من صفاته وعلاماته، وإن غُيّر ونُكّر، فهداها عقلها إلى جواب ذكي أريب فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾، فلم تنفِ ولم تثبت، فدّل ذلك على فراستها وذكائها، وبديهةٍ في مواجهة تلك المفاجأة العجيبة: مفاجأة أن ترى عرشها أمامها قبل قدومها، فعلم سليمان كمال عقلها. وهكذا نجحت بلقيس في اختبار عقلها، ومدى ذكائها[1416].

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس، أي: أُوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل معجزة الإتيان بالعرش، وكنا مسلمين: أي منقادين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان عليه ا لسلام: أي أُوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة، وكنا مسلمين لله تعالى[1417].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[1418] أي:

(١٤١٤) سورة النمل الآية ٤١.
(١٤١٥) سورة النمل، الآية ٤٢.
(١٤١٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٤-٣٦٥، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٤٢.
(١٤١٧) تفسير القرطبي ج١٣ ص٢٠٨.
(١٤١٨) سورة النمل الآية ٤٣.

مَنَعها من أن تعبد الله وحده ما كانت تعبد من الشمس والقمر، ونشوؤها بين ظهراني الكفرة: وهم قومها الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر من دون الله تعالى[1419].

٦٩٩- إسلام بلقيس:

قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1420] وجاء في تفسير هذه الآية: أن سليمان عليه السلام أمر ببناء قصر عظيم من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره -أي: لا يعرف أن القصر بُني من زجاج- يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. ووضع سليمان سريره في صدره وجلس عليه.

وإنما بنى سليمان عليه السلام القصر بهذه الكيفية، وأجرى الماء تحته، ليُريها ما خصّه الله به من العجائب والخوارق، ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته وثباتاً على الدين[1421].

فلما رأته بلقيس حسبته لجّةً، أي: ماءً عظيماً، وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه، فقال لها سليمان: إنه صرح مُملّس من زجاج، فلما وقفت على سليمان عليه السلام دعاها إلى عبادة الله وحده، وعاتبها على عبادتها الشمس من دون الله، فأسلمت وقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بكفرها السابق، وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهكذا أقرّت بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غير الله، وأعلنت إسلامها مع سليمان، لا لسليمان ولكن لله رب العالمين، فهي تتابعه في دينه وفي عبادته لله وحده لا شريك له، وهذا مظهر إسلامها لله رب العالمين، فهوإسلام لله، وليس استسلاماً لأحد من خلقه[1422].

(١٤١٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٦٩.

(١٤٢٠) سورة النمل الآية ٤٤.

(١٤٢١) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٣٧٠.

(١٤٢٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٦٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٣٧٠، تفسير القاسمي ج١٣ ص٧٠، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٦٤٣.

٧٠٠- ما نستفيده من فعل سليمان:

لقد سخر الله تعالى لنبيه سليمان من القُوى ومن الجن والإنس والطير ما يجعل ما أُوتيه معجزة له، وبرهاناً على نبوته، وقد استعان سليمان عليه السلام بذلك في مجال الدعوة إلى الله، فأتى بعرش بلقيس[١٤٢٣] قبل أن تقدم إليه، فرأته مستقراً وقائماً عند سليمان قبل أن تصل هي إليه، وبنى لها قصراً من قوارير يجري من تحته الماء مما جعلها تتيقن أن هذا الذي تراه لا يفعله مَلِك من ملوك الدنيا، وإنما هو معجزة وبرهان ودليل على نبوة سليمان، وهذا ما أراد سليمان أن تعرفه وتصل إليه، وقد عرفته فعلاً، فأعلنت إسلامها لله رب العالمين، وإيمانها بنبوة سليمان عليه السلام.

ووجه العبرة بما فعله سليمان، وما نستفيده من فعله هذا: أن على الدعاة أن يتوسلوا بكل الوسائل الممكنة لهم، والتي من شأنها أن تحمل الآخرين أو تساعدهم على الإيمان بما يدعوهم إليه الدعاة. وحيث أن الدعاة لا يملكون معجزات الأنبياء؛ فإن الممكن لهم أن يجعلوا سلوكهم الحسن، وخلقهم الرفيع، وثباتهم على الدعوة ومقتضاياتها من الوسائل الجيدة التي يستدل بها المدعوون على صدق الدعاة، وأحقية ما يدعون إليه.

٧٠١- ما نستفيده من أقوال بلقيس في حضرة سليمان:

لما عرض عرش بلقيس عليها وسئلت: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم تجزم بنفيٍ ولا إثبات؛ لتردد الأمر بينهما، فقالت في جوابها قولاً دقيقاً يعصمها من الكذب، ومن القول الجزاف بغير علم، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وهكذا ينبغي للدعاة: أن يكونوا في أجوبتهم وأقوالهم دقيقين، لا يتكلمون بغير علم ولا يقين، وإذا اشتبه عليهم الأمر لاختلاف القرائن والعلامات؛ قالوا: قولاً يلاحظون فيه مختلف هذه القرائن والعلامات، ليكون لقولهم قيمة واعتبار عند السامعين.

وبلقيس لما رأت آية العرش، وآية الصرح الممرّد والذي يجري تحته الماء، واقتنعت بأن هذا الذي تراه ليس من قدرة إنسان عادي، وإنما هو من معجزات نبي،

(١٤٢٣) انظر الفقرة ٦٩٥.

أعلنت إسلامها وإيمانها بكل صدق، وهكذا ينبغي للدعاة أن يُعلِّموا الناس: يعلِّمونهم الشجاعة على إعلان ما آمنوا ويؤمنون به، والاعتراف بسوء وبطلان ما كانوا عليه؛ لأن من كانت معصيته علانية فلا بدّ لصدق توبته من إعلانها، وإعلان البراءة من سالف معصيته، حتى يعلم الناس بتوبته ورجوعه عما سلف منه: من ظلم لنفسه بانحرافه عن مقتضيات عبوديته لله رب العالمين.

ويشتد لزوم الإعلان عن التوبة والاعتراف بالذنب السابق؛ إذا كان التائب متبوعاً في قومه فيما كان متلبساً به من معصية، أو داعياً إلى فكرة باطلة، أو عبادةٍ لغير الله.

الفصل الرابع عشر

قصة أيوب عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٠٢- أيوب النبي المبتلي:

أيوب هو نبي من بني إسرائيل، من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو النبي المبتلى بجسده وماله وأهله[١٤٢٤] فقد ابتلاه الله بذهاب ولده وماله، وبالمرض في جسده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً.

وكان من شدة ما ابتلى به في بدنه: أن تخلى عنه القريب والبعيد، سوى زوجته الوفية التي حفظت ودَّه لإيمانها بالله وبرسوله، فلازمته ولم تفارقه، وقامت على خدمته بلا ضجر ولا ملل مدة مرضه، التي امتدت إلى ثماني عشرة سنة[١٤٢٥].

٧٠٣- سبب ابتلاء أيوب:

لم يذكر الله تعالى في كتابه العزيز سبب ابتلائه، ومع هذا ذكر المفسرون أسباباً لابتلائه، فالزمخشري يقول بصيغة التصنيف: إنه ذُكِرَ في سبب بلائه: أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشي أيوب في ناحية حاكم كافر، فداهنه أيوب ولم يغزه. وقيل: أُعجِب أيوب بكثرة ماله[١٤٢٦].

والإمام ابن عطية يقول في تفسيره: رُوِيَ أنَّ السبب الذي امتحنه الله تعالى من أجله: أنه دخل على بعض الملوك، فرأى منكراً فلم يغيره. وروي: أن السبب: أنه

(١٤٢٤) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٦٤.

(١٤٢٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩.

(١٤٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٧.

ذبح شاة وطبخها وأُكِلتْ عنده وجاره جائعٌ لم يعطه منها شيئاً[1427].

وروي أنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه في أمر فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع له، فامتحنه الله بذهاب أهله وماله وبالضر في جسمه[1428].

٧٠٤- سبب الابتلاء مجهول:

والحق: أنه لا وثوق بشيء مما ذكره المفسرون أسباباً لابتلاء أيوب، لعدم ورودها في كتاب الله العزيز، وعدم ثبوتها عن النبي ﷺ. والغالب فيها أنها من الإسرائيليات، أو من مخترعات القصّاصين.

والظاهر أن المفسرين الذين ذكروها لم يصدقوها ؛ لأنهم ذكروها بصيغة التضعيف، فقالوا في ذكرها: ذُكِرَ، قيل، رُوي. وإذا كان الأمر كما ذكرتُ فلِمَ ذكرها المفسرون؟ والجواب -على ما يبدو لي-: أنهم لم يروا بأساً بذكرها، لأنها لا تتعلق بالحلال وبالحرام؛ ولأنها تحتمل الصدق والكذب. ومع هذا فالصواب عدم ذكر شيء منها على أساس أنها أسباب لابتلاء أيوب، ولو كان في ذكرها مصلحة أو يتوقف عليها معرفةُ وفهم ما أُريد من حكاية قصة أيوب؛ لأخبرنا اللهُ بأسباب ابتلائه.

٧٠٥- ابتلاء الله لعبده:

ويجب أَنْ يُعرفَ بوضوح بأن ابتلاء الله تعالى لعبده قد يكون لسبب من العبد، وقد يكون بسبب من غيره، وقد يكون امتحاناً من الله لعبده لزيادة ثوابه، أو لإظهاره مدى إيمانه، أو لحكمة نجهلها، فإن الله جلّ جلاله ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، ولكن لا يفعل إلا لحكمة، ولا يمكن أن نُحيط بحكمته علماً، ولا يظلم ربك أحداً.

٧٠٦- أشد الناس بلاءً الأنبياء:

ويجب أن يُعرفَ جيداً بأن مؤاخذة الله لعبده تزداد شدة ودقة كلما ازدادت منزلته من ربه قرباً ورفقة، ولهذا قد يؤاخذ على ما لا يؤاخذ عليه غيره، فيكون ابتلاؤه أشد من غيره.

(١٤٢٧) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٦٥.

(١٤٢٨) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٣.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»، وفي حديث آخر: «يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه».

وقد كان أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك(١٤٢٩). فإذا ابتلاه الله بما ابتلاه به فذلك لعلو منزلته، وقربه من الله، وصلابته في دينه، فابتلاه الله على قدر دينه ليزيد من حسناته وقربه منه.

وإن كان صدر منه ما يستوجب المؤاخذة، فهي مؤاخذة تتناسب مع قدره ومنزلته، وقد قلت: إن مؤاخذة الله لعبده على أفعاله تتناسب مع منزلته، فكلما كانت منزلته عالية، كانت مؤاخذته شديدة ودقيقة، فيكون ابتلاؤه شديداً.

٧٠٧- أيوب يدعو ربه:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾(١٤٣٠). أي: واذكر أيوب إذ نادى ربَّه: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ أي: نالني في بدني ضُرٌّ، وفي مالي وأهلي(١٤٣١).

٧٠٨- أدب أيوب في الدعاء:

وبعد طول أمد البلاء، وصبرِ أيوب عليه توجه إلى ربه، فألطف في دعائه فقال: ربي «إني مسني الضر»، فذكر حاله بما يستدعي الرحمة به، وذكر ربه بغاية الرحمة، طامعاً أن تصيبه وتناله، فقال: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، ولم يصرح أيوب عليه السلام بمطلوبه، وهو كشف الضرّ عنه(١٤٣٢).

٧٠٩- الضرّ الذي طلب أيوب رفعه:

قال الإمام القرطبي: «وقد اختلف في الضرّ الذي دعا أيوب ربَّه أن يكشفه عنه على خمسة عشر قولاً...» والظاهر لي أن لا داعي لهذا الاختلاف، فالظاهر: أنَّ

(١٤٢٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٨٨.
(١٤٣٠) سورة الأنبياء، الآية ٨٣.
(١٤٣١) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٣.
(١٤٣٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣٠.

الضرَّ الذي دعا أيوب ربه أن يزيله عنه هو ما أصاب بدنه من مرض هجره الناس من أجله، قال فيه ابن كثير: «. . .ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسان يذكر به الله عز وجل حتى عافه الجليس، وأُفرِدَ في ناحية من البلد، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته»[١٤٣٣].

٧١٠- ما يدخل في الضر الذي طلب رفعه:

ومع هذا يمكن القول بأن هناك ضراً آخر أصاب أيوب عليه السلام من جراء مرضه في بدنه، فدعا ربه أن يكشف عنه الضر الذي أصابه في بدنه، ليزول معه الضرُّ الذي تولّد عنه، وهذا الضر هو -على ما قاله البعض-:

كان لأيوب صاحبان، فأتياه ووقفا على بُعدٍ منه لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء. فلم يسمع أيوب شيئاً أشد عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[١٤٣٤] وإنما كان ما سمعه شديداً أو أشدَّ ما سمعه؛ لأنه خاف على قومه أن يقع في نفوسهم هذا القول الذي سمعه، وهذا ما أشار إليه الزمخشري حيث قال: «على أن أيوب كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس إليه: أنه لو كان نبياً لما ابتُلي بمثل ما ابتلى به»[١٤٣٥].

٧١١- كشف الضرّ عن أيوب:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[١٤٣٦]. واستجابةً لدعاء أيوب قال له ربه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[١٤٣٧] أي: اضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت عين ماء، فقيل له: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهرك. وقيل: نبعت له عينان، فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى،

(١٤٣٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.

(١٤٣٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٤.

(١٤٣٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٨.

(١٤٣٦) سورة الأنبياء، الآية ٨٤.

(١٤٣٧) سورة ص الآية ٤٢.

فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله تعالى[١٤٣٨].

٧١٢- الإنعام على أيوب:

ومع كشف الضر عن أيوب بشفائه من مرضه، أنعم الله عليه بما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ وعن ابن عباس: كان بنوه قد ماتوا فأحياهم الله له، ووُلد له مثلهم معهم، وكذلك قال عبدالله بن مسعود.

وعن مجاهد وعكرمة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بأن ولدت له زوجته أولاداً بعدد من ماتوا[١٤٣٩].

٧١٣- ما فعله الله بأيوب رحمةً به وذكرى لغيره:

بيَّن الله تعالى أنَّ ما فعله بأيوب من كشف الضر عنه، وردِّ أهله له، وإيتائه مثلهم معهم؛ إنما فعل ذلك: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ بأيوب ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: تذكيراً لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، وليتأسوا به في الصبر، حتى يثابوا كما أُثيبَ في الدنيا والآخرة، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه، وطول محنته فيه، وهو أفضل زمانه؛ وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، فينالوا ثواب الله كما ناله أيوب عليه السلام[١٤٤٠].

وقال تعالى في سورة (ص) في تعليل ما فعله بأيوب: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أنَّ ما فعله الله بأيوب هو رحمة منه به لصبره: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: موعظة وتذكرة يعتبر بها أصحاب العقول، ويتأسون بصبره في الشدائد، ولا ييأسون من رحمة الله. وأيضاً فإن أصحاب العقول إذا علموا بما أنعم الله على أيوب لصبره؛ رغّبهم ذلك في الصبر على البلاء، ورغّبهم في عاقبة الصابرين، وما يفعله الله بهم من خير وإنعام[١٤٤١].

(١٤٣٨) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٧، تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٩، ابن عطية ج١٢ ص١٦٨.

(١٤٣٩) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٦.

(١٤٤٠) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٧.

(١٤٤١) تفسير ابن عطية ج١ ص٤٦٨، تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٨.

٧١٤- الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر:

أثنى اللهُ تعالى على عبده أيوب ومدحه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾(١٤٤٢). والأواب: هو التواب الرجّاع إلى الله المنيب إليه.

ولا يقال: كيف يكون صابراً وقد شكا إلى الله تعالى ما به من ضرّ، لا يقال هذا؛ لأن الشكوى إلى الله تعالى لا تُعتبر جزعاً، ولا تُخرج صاحبها من صفة الصبر، ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١٤٤٣) على أن قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ دعاء لا شكوى؛ لأن الله تعالى استجاب له، والإجابة تعقب الدعاء لا الشكاية(١٤٤٤).

(١٤٤٢) تفسير سورة (ص) الآية ٤٤.

(١٤٤٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩٨.

(١٤٤٤) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٦.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة أيوب للدعوة والدعاة

٧١٥- إجمال ما يستفاد من قصة أيوب:

يستفاد من قصة أيوب وما ابتلاه الله به: أن الابتلاء بالمؤذيات والشدائد لا يعني هَوَانَ المُبتلَى على الله. وأَنَّ الله تعالى يبتلي عباده بما يشاء. وأَنَّ المصائب تُقابَل بالصبر. وأنَّ الابتلاء فتنة للمُبتلَى ولغيره، وأنَّ الشكوى إلى الله مشروعة، والشكوى إلى غيره ممنوعة. ونتكلم فيما يلي بإيجاز عن هذه الأمور المستفادة من قصة أيوب للدعوة والدعاة.

٧١٦- أولاً- الابتلاء لا يعني هَوَانَ المُبتلَى على ربه:

على الدعاة أن يفقهوا جيداً بأن الابتلاء بالضراء والشدائد لا يعني هَوَانَ المُبتلَى على ربه. فهذا أيوب عليه السلام نبي كريم وقد ابتلاه الله تعالى بماله وولده وبالمرض ببدنه، لأن الله سبحانه وتعالى يمتحن عباده بالضراء كما يمتحنهم بالسراء. قال تعالى: ﴿.. وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا والشدائد والمصائب، كما نختبركم بما يجب فيه الشكر من النعم -كالصحة والغنى والرخاء-، وإلينا تُرجَعون فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر(١٤٤٥).

ومن حكمة البلاء: نوال الحسنات وتكفير السيئات، فقد جاء في حديث أخرجه الإمام البخاري: «.. ما من مسلم يصيبه أذى حتى شوكة فما فوقها إلا كفرّ الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»(١٤٤٦). فعلى الدعاة أن يفهِّموا الناس ما ذكرناه؛ لأنه بعض معاني الإسلام الذي هو موضوع دعوتهم، وأن يفقهوا هم أنفسهم: أن ما

(١٤٤٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص١١٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٨، تفسير القرطبي ج١١ ص٣٨٧، تفسير الألوسي ج١٧ ص٤٧.

(١٤٤٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص١١١.

يصيبهم من مصائب أو أذى في سبيل الدعوة إلى الله لا يعني هَوَانَهم على الله تعالى، وإنما هو ضريبة يدفعها الدعاة في كل زمان. وقد يكون ما يصيبهم من مصائب سبباً لنيل الحسنات ومحو السيئات. وقد يكون ما يصيبهم -أي الدعاة- من مصائب تحذيراً لهم عن تقصيرهم في مراعاة سنن الله في التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل. وقد يكون سبب ما يصيبهم ما يصدر عنهم من أفعال لا يقيمون لها وزناً، وهي في ميزان الشرع من المعاصي، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[1447].

٧١٧- ثانياً -الله يبتلي عباده بما يشاء:

وعلى الدعاة أن يفهموا ويفقهوا ويفقّهوا غيرهم بأنَّ الله تعالى وحده هو الذي يبتلي عباده، أي: يمتحنهم بما يشاء، وكيف يشاء، ومتى يشاء. ولا يحق للعبد أن يعترض على الله بشأن ما يمتحنه به، وبشأن ما يتعلق بهذا الامتحان؛ لأنَّ هذا الاعتراض يندرج في معاني الردة عن الإسلام، نعوذ بالله من الخذلان. وإنما للمسلم وللدعاة أنْ يسألوا الله اللطف والتخفيف في الامتحان ومفرداته.

٧١٨- ثالثاً -مقابلة المصائب بالصبر مع مُدافعة لها:

قد يصيب الناس -والدعاة معهم- شيء من المصائب، فعلى الدعاة تذكير أنفسهم وعموم الناس بلزوم الصبر، متأسين بأيوب عليه السلام في صبره، على ما حلّ فيه من مصيبة المرض، وأن يتذكر الدعاة ويذكِّروا الناس بقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[1448] والمعنى: لنصيبنّكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم: هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة، وتسلِّمون لأمر الله وحكمه أم لا؟[1449] والمقصود بنقص الأنفس: إصابتها بالأمراض، على ما قاله الإمام الشافعي. فالبشارة بهذه الآية لمن يصبر في هذه الشدائد، ومنها الإصابة

(١٤٤٧) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(١٤٤٨) سورة البقرة الآيات ١٥٥-١٥٧.

(١٤٤٩) تفسير الزمخشري ج١ ص٢٠٧.

بالأمراض. وهؤلاء الصابرون من شأنهم أنهم إذا أصابتهم مصيبة استرجعوا أي: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

والمصيبة: هي النكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت، أو هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه، فقد روى عكرمةُ أن مصباح رسول الله ﷺ انطفأ ذات ليلة، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: «نعم كل ما آذى المسسلم فهو مصيبة»[١٤٥٠].

٧١٩- ما يصيب الدعاة من المصائب:

وقد يصيب الدعاة دون غيرهم مصائب في أنفسهم أو أموالهم، أو في ذويهم، بسبب قيامهم بالدعوة. ويكون ذلك إذا قام أعداء الدعوة -وهو الغالب فيهم- بالكيد للدعاة، كأن يحبسوهم بتلفيق التهم عليهم، ومع الحبس التعذيب الذي يترك فيهم العاهات والعلل المزمنة، أو يسعون إلى مصادرة أموالهم، أو يسعون لقتل ذويهم مبالغةً في إيذاء الدعاة، أو حملهم على الاعترافات الكاذبة. فعلى الدعاة: أن يقابلوا هذه المصائب بالصبر الجميل، وأن يتذكروا بشارة الله للصابرين، ويتذكروا ما آل إليه صبر أيوب من الفرج، وردِّ الأهل، وثناءِ الله عليه مع الثواب العظيم.

٧٢٠- مُدافعة المصائب:

ومع الصبر على المصائب يجوز للمصاب من الدعاة وغيرهم العمل على رفع هذه المصائب، أو تقليل ضررها وأثرها، ولا يناقض ذلك الصبر الجميل المطلوب من المسلم المصاب.

فالمرض يدُفَع بالوقاية منه، وبعلاجه بعد وقوعه، والشرع لا يمنع من ذلك، فقد روى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «... وفرَّ من المجذوم فرارَك من الأسد»[١٤٥١] وهذا صريح في مشروعية الحمية من المرض.

وأما مشروعية العلاج فدليله قوله تعالى عن العسل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، قال الإمام القرطبي: (في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾

(١٤٥٠) تفسير القرطبي ج٢ ص١٥٧-١٧٦.

(١٤٥١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص١٥٨.

دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك)[1452] وفي صحيح مسلم: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»[1453]. وفي سنن أبي داود: أن بعض الأعراب قالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال ﷺ: «تداووا فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، غير داء واحد: الهرم»[1454].

ومن الأدوية: الرقى، وهي: ما يُقرأ من الدعاء لطلب الشفاء للمريض من مرضه[1455]، فالرقى أدعية، والدعاء مشروع لدفع المرض أو رفعه. وقد دعا أيوب عليه السلام ربَّه بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وروت عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ كان يُعوِّذُ بعضَ أهله: يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللهم ربَّ الناس، أذهب البأس، واشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً»[1456].

وكما يجوز دفع المرض ورفعه بعد وقوعه، يجوز دفع المؤذيات قبل وقوعها باتخاذ الوسائل المشروعة لمنع وقوعها، أو لرفعها بعد وقوعها.

فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك: يصبرون عند المصائب، ومع صبرهم اتخاذ الوسائل المشروعة لرفع هذه المصائب، سواء كانت مصائب المرض أو غيره، كما عليهم أن يأخذوا بالوسائل المشروعة لمنع وقوع المصائب -مصائب المرض أو غيره.

٧٢١- رابعاً - الشكوى إلى الله مشروعة ولغيره ممنوعة:

الشكوى إلى الله مشروعة لما تتضمنه من دعاء العبد ربه أن يكشفَ ضره، أو يستجيبَ دعاءه، أو يقضيَ حاجته، ولهذا حكى الله عن يعقوب أنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أما الشكوى لغير الله فممنوعة -كما بيّنا هذا من

(١٤٥٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص١٣٨.

(١٤٥٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٤ ص١٩١.

(١٤٥٤) عون المعبود، شرح سنن أبي داود ج١٠ ص٣٣٤-٣٣٥.

(١٤٥٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص١٩٥.

(١٤٥٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٠ ص٢٠٦.

قبل-[1457]. ولهذا دعا أيوب عليه السلام ربه أن يكشف عنه ضره، وكان دعاؤه عليه السلام بأدب جمّ إذ اكتفى ببيان ما به من ضرّ، وإعلان إيمانه بربه الله جلّ جلاله بأنه هو أرحم الراحمين، وما يُشعر إعلانه هذا من رجائه وطمعه بأن تصيبه رحمته تعالى فينكشف عنه ضرّه.

فعلى الدعاة أن يلتجئوا دائماً إلى الله تعالى لرفع ما يحلّ بهم من ضرر بأبدانهم أو بأموالهم أو بأهليهم. وأن لا يشكو لأي مخلوق ما يصيبهم من محن وضرر، وإذا سُئِلوا عن حالهم قالوا: نحن بخير عميم، وفضل كبير من الله تعالى، فالنفع والضر بيد الله وحده، فهو الذي يكشف الضر عن عبده، لا ربّ سواه، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1458].

(١٤٥٧) انظر الفقرة ٤٤١.

(١٤٥٨) سورة الأنعام، الآية ١٧.

الفصل الخامس عشر

قصة يونس عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٢٢- التعريف بيونس وبمن أُرسِلَ إليهم:

هو يونس بن متَّى عليه السلام، وهو من رسل الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١٤٥٩) وقد بعثه الله تعالى إلى أهل قرية، قال المفسرون: إنها قرية نينوى من أرض الموصل، وإِنَّ يونس عليه السلام دعا أهل هذه القرية إلى عبادة الله وحده، وتركِ عبادة ما سواه، فأبوا عليه وظلوا على كفرهم(١٤٦٠) وكان من خبرهم وخبر يونس ما نذكره في الفقرات التالية.

٧٢٣- إيمان قوم يونس قبل معاينتهم العذاب:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١٤٦١). أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها لكفرها وعدم إيمانها برسولها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخِّر إيمانها إلى حين معاينته، كما فعل فرعون ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن يقبله الله منها، ويكشف عنها بسببه العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: لكن قوم يونس لمّا آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى آجالهم(١٤٦٢).

(١٤٥٩) سورة الصافات، الآية ١٣٩.

(١٤٦٠) تفسيرابن كثير ج٣ ص١٩١.

(١٤٦١) سورة يونس الآية ٩٨.

(١٤٦٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧١، تفسير القاسمي ج٩ ص٨٢.

ومعاينة العذاب التي لا تنفع التوبة معها هي تلبّس العذاب أو الموتِ بخص الإنسان، كما حدث لفرعون، وأما قوم يونس فلم يصلوا إلى هذا الحدّ[١٤٦٣] أي: أنهم آمنوا قبل وقوع العذاب بهم فعلاً، أو قبل معاينته. وروي: أنهم رأوا علاماته، ورؤية علاماته لا تعني معاينة العذاب أو وقوعه بهم فعلاً. إلا أن قوم يونس علموا بقرب وقوع العذاب بهم من خروج نبيهم من بينهم، الذي أنذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا[١٤٦٤].

٧٢٤- يونس يخرج مغاضباً لقومه قبل إيمانهم:

قال تعالى عن يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١٤٦٥] أي: اذكر ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، وهو لقب ليونس عليه السلام لابتلاع النون إياه، والنون: الحوت، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي: خرج يونس مغاضباً لقومه من أجل ربه، بعد أن أنذرهم أن العذاب سينزل بهم في مدة حددها لهم لبقائهم على الكفر، فيونس عليه السلام غضب على قومه لكفرهم بربه، فكان ذنبه: خروجه من بينهم من غير إذن ربه، إذ كان عليه أن يُصابر، ويبقى بين قومه، وينتظر الإذن من الله تعالى بالخروج والمهاجرة عنهم.

ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لهم، لخوفهم حلول العذاب بهم عند مغادرته[١٤٦٦].

٧٢٥- معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾:

قلنا: إن يونس عليه السلام خرج مغاضباً لقومه من غير إذن من ربه، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى عن يونس: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: فذهب

(١٤٦٣) تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٢٣.

(١٤٦٤) تفسير المنار ج١١ ص٤١٢.

(١٤٦٥) سورة الأنبياء الآية ٨٧.

(١٤٦٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣١، تفسير القرطبي ج١١ ص٣٢٩، ابن كثير ج٣ ص١٩٠.

جمهورهم إلى أن المراد بهذا القول: فظّن يونس أن لن يضيّق الله عليه في مغاضبته لقومه، وخروجه من بينهم قبل أن يأذن الله له بالخروج. وذهب آخرون إلى أن المراد هو: فظن يونس أن لا يقضي الله عليه بعقوبة، من جراء خروجه من بين قومه بدون إذن من ربه(١٤٦٧).

٧٢٦- يونس يُلقَى في البحر فيلتقمه الحوت:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾(١٤٦٨) ولما خرج يونس من قومه مغاضباً لهم، بعد أن أنذرهم نزول العذاب بهم. وقد سمى اللهُ تعالى خروجه وتباعده عن قومه من غير إذن ربه «أباقاً» على طريقة المجاز.

فذهب وركب في الفلك المشحون، أي: في السفينة المملوءةوقد أحسّ ركابها بثقلها، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم، يتخففّون منه، فوقعت القرعة على يونس. قال تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ أي: فقارع فكان من المُدحَضين، أي: من المغلوبين، حيث وقعت القرعة عليه. فتجرّد يونس من ثيابه، ثم ألقى بنفسه في البحر ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي: أرسل الله إليه حوتاً التقمه، وهو -أي: يونس- قد أتى بما يلام عليه(١٤٦٩).

٧٢٧- يونس يدعو ربه وهو في بطن الحوت:

قال تعالى عن يونس: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١٤٧٠). بعد أن وقعت القرعة على يونس وألقى بنفسه في البحر والتقمه الحوت، وأخذ يسير به، وهو في بطنه يذكر الله ويسبحه دعا ربه وهو في ثلاث ظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل(١٤٧١).

(١٤٦٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٣٢، تفسير القرطبي ج١١ ص٣٣١.
(١٤٦٨) سورة الصافات الآيات ١٣٩-١٤٢.
(١٤٦٩) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٢٣، تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٩ و ج٤ ص٢٠.
(١٤٧٠) سورة الأنبياء الآية ٨٧.
(١٤٧١) تفسير القرطبي ج١١ ص٣٣٣، تفسير ابن كثير ج٣ ص٩٢.

وكان دعاؤه عليه السلام بتقديم إقراره واعترافه وإيمانه أن لا إله إلا الله، ثم أعقب ذلك بتسبيح الله تعالى، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ ثم أقرَّ بأن ما فعله -وهو خروجه من بين قومه قبل أن يأذن الله له بالخروج -هذا الفعل منه- اعتبره ظلماً.

ويبين الإمام ابن حزم: الوجه في اعتبار يونس نفسه من الظالمين بقوله: «إن الأنبياء عليهم السلام يؤاخَذون في الدنيا على ما فعلوه، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل، إذا لم يوافق ما فعلوه مراد الله، وعلى هذا الوجه أقرَّ يونس على نفسه بأنه كان من الظالمين؛ لأن الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فلما كان يونس وضع المغاضبة لقومه في غير موضعها، وما تضمنته هذه المغاضبة من خروجه من بينهم قبل أن يأذن الله له بالخروج، اعترف عليه السلام بأن ما فعله ظلم، لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم، فدعا ربه أن يغفر له ذلك»(١٤٧٢).

٧٢٨- استجابة الله لدعاء يونس:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ...﴾(١٤٧٣) أي: فاستجبنا له دعاءه ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات، بأن قذفه الحوت إلى الساحل(١٤٧٤).

وقال بعضهم في مضمون استجابة دعاء يونس وما تلاها: بأنه لما خرج يونس من بين قومه مغاضباً لهم، من غير أمر ولا إذن من الله تعالى، كان ذلك ذنباً كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فما أومأ إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه. فالاستجابة عبارة عن قبول توبة يونس، وعدم مؤاخذته، وما حصل ليونس بعد هذه الاستجابة من إلقاء الحوت له بالساحل، وما أعقب هذا الإلقاء؛ هذا كله زيادة إحسان من الله على مطلوبه عليه السلام(١٤٧٥).

(١٤٧٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٨٦.
(١٤٧٣) سورة الأنبياء الآية ٨٨.
(١٤٧٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٩٢.
(١٤٧٥) تفسير القاسمي ج١١ ص٢٨٨.

٧٢٩- وكذلك ننجي المؤمنين:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١٤٧٦)] وهذه الآية تبين لنا سنة من سنن الله تعالى، وهي أنه تعالى كما نجّى يونس عليه السلام من الغم الذي كان فيه، فإنه تعالى ينجي المؤمنين، بما يشاء وكيف يشاء: ينجيهم من الكرب والهم والغم والضيق والشدائد التي تحل بهم؛ ما داموا متصفين بصفات المؤمنين، ومتحققة فيهم معاني الإيمان، التي بها يستحقون اسم المؤمنين. فشرط تولي الله نجاتهم من كل غم وكرب: أن يكونوا مؤمنين.

فإذا تحقق فيهم شرط الإيمان؛ تحقق لهم ما وعد الله به المؤمنين، وهو نجاتهم من الشدائد.

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَوْنا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء. فقد جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له»، ورواه أيضاً الترمذي والنسائي[(١٤٧٧)].

٧٣٠- العمل الصالح من دواعي تفريج الكربات:

قال تعالى عن يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[(١٤٧٨)] قيل: لولا ما تقدم له من العمل الصالح في الرخاء ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وقيل: المراد بـ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ وهو قول يونس عليه السلام في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال بعض أهل العلم: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلِّين، وعن قتادة: كان يونس

(١٤٧٦) سورة الأنبياء الآية ٨٨.

(١٤٧٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٩٢-١٩٣.

(١٤٧٨) سورة الصافات الآيتان ١٤٢، ١٤٣.

عليه السلام كثيرالصلاة في الرخاء، قال: وكان يقال: العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صُرِعَ وجد متكئاً[١٤٧٩].

وهذا كله ترغيب من الله في إكثار المؤمن من ذكره تعالى بما هو أهله، وإقباله على عبادته وعلى كل عمل صالح، وهوما يحبه الله ويرضاه، لينفعه في الشدائد والضيق.

٧٣١- الحوت يقذف بيونس إلى الساحل:

قال تعالى عن يونس: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[١٤٨٠] أي: حملنا الحوت على طرح يونس بالعراء، وهو الأرض الفيحاء التي ليس فيها نبت ولا بناء. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البنية، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدِّيُّ: كهيئة الصبي حين يولد، ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ واليقطين: كل ما لا يقوم على ساق من عود، كالبقول والقرع والبطيخ ونحوه مما يموت عامَهُ. وعن ابن عباس: اليقطين: القرع خاصة. ومشهور اللغة أن اليقطين هو القرع. وقد أنبتها الله فوقه مظلّة له، وتمنع من وصول الذباب إليه؛ لأن الذباب لا يقربها[١٤٨١].

٧٣٢- بعثته إلى مئة ألف أو يزيدون:

وبعد أن شفي يونس وعادت إليه عافيته بما أنبت الله عليه من شجرة من يقطين، أرسله الله تعالى إلى قوم يبلغ عددهم مئة ألف أو يزيدون. قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١٤٨٢]. أي: أرسله الله تعالى إلى القوم الذين أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. وقال بعضهم أرسله الله إلى أُمة أخرى.

قال ابن كثير: (ولا مانع أن يكون الذين أُرسل إليهم أولاً أمره الله بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه وآمنوا به. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ

(١٤٧٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢١، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦١-٦٢.

(١٤٨٠) سورة الصافات الآيتان ١٤٥، ١٤٦.

(١٤٨١) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٠٠، تفسير ابن كثير ج٤ ص٢١-٢٢، والزمخشري ج٤ ص٦٢.

(١٤٨٢) سورة الصافات الآيتان: ١٤٧، ١٤٨.

﴿يَزِيدُونَ﴾ أي: في مرأى الناظر، أي إذا رآها الرائي قال: هي مئة ألف أو أكثر. فالغرض هو الوصف بالكثرة. ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أُرسِلَ إليهم يونس جميعهم، فمتعناهم إلى حين، أي: إلى وقتِ آجالهم)[١٤٨٣].

(١٤٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٢، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٢، تفسير القاسمي ج٤ ص١٢٠.

المبحث الثاني

المستفاد من قصة يونس للدعوة والدعاة

٧٣٣- في قصة يونس فوائد كثيرة:

في قصة يونس عليه السلام عبر ودروس ومواعظ كثيرة للدعوة والدعاة، يمكن إجمالها -أو ذكر أهمها حسبما يبدو لي- بالأمور التالية، ثم أشرحها بإيجاز:

أولاً- ضرورة الصبر للدعاة بأنواعه المتعلقة بالدعوة.

ثانياً- عمل الدعاة محكوم بشرع الله.

ثالثاً- العمل الصالح رصيد نافع للدعاة.

رابعاً- من سنن الله أنه ينجي المؤمنين والدعاة منهم «نجاة الدعاة من الشدائد».

خامساً- المؤاخذة على قدر منزلة الداعي.

سادساً- على الداعي أن يسارع إلى التوبة إذا وقع في الخطيئة.

سابعاً- على الدعاة تفيهم المدعوّين بقبول توبة التائبين.

٧٣٤- أولاً: -ضرورة الصبر للدعاة المتعلق بالدعوة:

قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم سيدنا محمداً ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(١٤٨٤). ومضمون هذا الخطاب يشمل أتباعه ﷺ المسلمين الدعاة إلى الله، لسببين:

(الأول): الأصل في خطابات الله لرسوله ﷺ أنها تشمل أمته ﷺ إلا ما استثني، ولا استثناء هنا.

(الثاني): قوله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا

(١٤٨٤) سورة (ن) الآية ٤٨.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1485] وأتباع النبي ﷺ هم المسلمون الدعاة، وهم مثل نبيهم يدعون إلى الله على بصيرة. ومن الدعوة على بصيرة أن تكون بالصبر الذي أمر الله به.

وبعد هذا نرجع إلى تفسير الآية: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ...﴾. قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهال قومك، وتأخير انتصارك عليهم، فلا يثنيك عن تبليغ ما أمرك الله به أذاهم وتكذيبهم، بل امض صابراً عليه[1486]

وقال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: «أي، فاصبر يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله يحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك»[1487].

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يعني: يونس عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ وهو في بطن الحوت، ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ أي: وهو مغموم[1488]. والمعنى: لا يوجدْ منك يا محمد ما وُجد من يونس من الضجر والمغاضبة لقومه، فتبتلى ببلائه[1489].

وفي «تفسير القرطبي» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي: لا تكن مثل يونس في الغضب والضجر والعجلة. وقال قتادة: يأمر نبيه محمداً ﷺ بالصبر، وأن لا يعجل كما عجل صاحب الحوت يونس عليه السلام. وقال قتادة أيضاً: أي لا تعجل ولا تغاضب، فلا بد من نصرك[1490].

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يفقهوا: أنَّ من تكاليف الدعوة: أن يتحمل الدعاة إلى الله ما يلقونه من تكذيب وأذى، وأن لا يحملهم ذلك على الجزع والضجر وترك الدعوة والانصراف عن المدعوين، فما يلقونه هو بعض ضريبة الدعوة، يجب أن

(١٤٨٥) سورة يوسف الآية ١٠٠.

(١٤٨٦) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦٨.

(١٤٨٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٨.

(١٤٨٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٨.

(١٤٨٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٩٦.

(١٤٩٠) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٥٣.

يتحملها الدعاة، فليسوا هم بأكثر إخلاصاً وقرباً وتأييداً من الله من رسله الكرام، ورسله كُذّبوا وأوذوا وصبروا على ذلك، واستمروا على تبليغ دعوتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١٤٩١) وقال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾(١٤٩٢). أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة(١٤٩٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي: ولا يحملنّك على الخفة والقلق والجزع ما يقولون ويفعلون، فإنهم قوم ضالون لا يُستبعد ذلك منهم(١٤٩٤)، فاثبت على ما بعثك الله به، فادع إليه، فإنه الحق الذي لا مِرْية فيه، ولا تعدلْ عنه، فليس فيما سواه هدى يتبّع، بل الحق كله منحصر فيه(١٤٩٥).

٧٣٥- من الصبر المطلوب من الدعاة:

ومن الصبر المطلوب من الدعاة: صبرهم على المدعوين انتظاراً لاستجابتهم للدعوة، مع الاستمرار على دعوتهم وتكريرها عليهم بلا كلل ولا ملل ولا ضجر ولا يأس من استجابتهم، وإن رأوا منهم إصراراً على التكذيب للدعوة والعداوة والإيذاء للدعاة... وأن لا يحملهم غضبهم على المعاندين على نفاد صبرهم عليهم، وتركهم وشأنهم، فإن هذا مما يُلام الدعاة عليه ويؤاخذون عليه.

ومما يُعين الدعاة على تفهم هذا الأمر ويقوي صبرهم عليه: أن يعلموا أن الناس ليسوا سواءً في الاستجابة للحق وقبول الدعوة، فمنهم السريع جداً في الاستجابة، حتى كأنه على موعد مع الدعوة يريد سماعها ليؤمن بها، ومن أمثلة هذا النوع من الناس: سحرة فرعون، جاؤوا ليبطلوا دعوة موسى، ولكن ما إن رأوا معجزته حتى

(١٤٩١) سورة الأنعام الآية ٣٤.

(١٤٩٢) سورة الروم الآية ٦٠.

(١٤٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٠.

(١٤٩٤) تفسيرالزمخشري ج٣ ص٤٨٨.

(١٤٩٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٠.

علموا أنَّ ما جاء به هو الحق، فأعلنوا إيمانهم به وهم في ساحة النزال، وبحضور فرعون وجنده، ولم يرعبهم تهديده بالقتل والصلب، وقوله لهم: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١٤٩٦).

ومن هذا الصنف من الناس أيضاً: أبو بكر رضي الله عنه، فإنه لما سمع رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ويدعوه إلى الإسلام، آمن حالاً بلا تردد، ولذلك قال ﷺ: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم -أي ما تلبث- حين ذكرته له، وما تردد فيه»(١٤٩٧).

ومن الأمثلة على الاستجابة البطيئة: ما قصَّه الله علينا من أخبار قوم نوح، فإنه لبث فيهم يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع هذا لم يؤمن له إلا القليل كما جاء في القرآن الكريم. وخالد بن الوليد رضي اللهعنه تأخر إسلامه، بل حارب الدعوة والمسلمين قبل أن يسلم، وأبو سفيان ومن معه لم يُسلموا إلا قبيل فتح مكة، بعد عدواة شديدة، ومحاربة مستمرة للإسلام والمسلمين، دامت ما يقرب من عشرين سنة. فعلى الدعاة أن يصبروا على المدعوين، ولا ييأسوا من إسلامهم، وأن يظلوا يدعونهم.

٧٣٦- ثانياً- عمل الدعاة محكوم بالشرع:

ذكرنا فيما سبق أن يونس عليه السلام خرج مغاضباً لقومه قبل أن يأذن الله له بالخروج، وكان هذا سبباً لِلَوْمه ومؤاخذته وقذفه في البحر وابتلاع الحوت له. فعلى الدعاة أن يخضعوا في أعمالهم جميعها وبلا استثناء لحكم الشرع وإذنه، وإذنُ الشرع يعرفونه من حكمه فيما يأخذون ويتركون، فلا يجوز لهم أن يتصرفوا في شؤون الدعوة وما يتعلق بها وفق ما يشتهون بدون إذن من الشرع، وإن كان تصرفهم بدافع الغضب لله، وبدافع الغضب على المخالفين لأمر الله.

(١٤٩٦) سورة الشعراء الآية ٤٩-٥٠.

(١٤٩٧) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٦٨.

٧٣٧- ثالثاً - العمل الصالح رصيد نافع للدعاة:

ذكرنا أقوال المفسرين في قوله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١٤٩٨]. ومن أقوالهم في المراد بهذه الآية؛ قولهم: لولا ما تقدم له من العمل الصالح في الرخاء، للبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون. ومن العمل الصالح: ذكرُ الله تعالى تسبيحاً وتقديساً له -جلّ جلاله-، ومن العمل الصالح أيضاً، الصلاة[١٤٩٩].

وعلى هذا فعلى الدعاة الإكثار من العمل الصالح لله تعالى، مغتنمين أوقات الرخاء والفراغ والصحة والأمان، فهذه أوقات تساعدهم على القيام بالأعمال الصالحة، ومنها: ذكره تعالى الدائم ودعاؤه، وعبادته بالقيام بالفرائض ونوافل الصلاة والصيام وغيرها، وبكل عمل مشروع يحبه الله تعالى، فإن هذه الأعمال رصيدٌ نافع للدعاة، يفيدهم في أوقات الشدائد والكروب، فيكشف الله عنهم ما يحلُّ بهم من شدة وضيق.

٧٣٨- رابعاً- نجاة الدعاة من الشدائد:

الدعاة إلى الله من المؤمنين، ومن سنة الله أنه ينجي المؤمنين من الشدائد بالأسباب التي ييسرها لنجاتهم، قال تعالى في نجاة يونس من بطن الحوت بإلقائه على الساحل: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١٥٠٠].

فعلى الدعاة أن يعمقوا فيهم معاني الإيمان. ومن هذه المعاني: بذل أقصى الجهد في عمل الدعوة إلى الله، وبقدر ما تتحقق فيهم معاني الإيمان، ييسر الله لهم سبل النجاة من الشدائد التي يقعون فيها. فهذه هي سنة الله في نجاة المؤمنين -والدعاة منهم-، فليستحضروها في أذهانهم ليزدادوا نشاطاً واندفاعاً في عمل الدعوة، واثقين بوعد الله بتخليصهم من الشدائد التي يقعون فيها.

٧٣٩- خامساً- المؤاخذة على قدر منزلة الداعي:

إن مؤاخذة الله لعباده أو حسابه لهم على أعمالهم تتناسب مع أقدارهم ومنازلهم

(١٤٩٨) سورة الصافات الآيتان ١٤٢، ١٤٣.

(١٤٩٩) انظر الفقرة ٧٣٠.

(١٥٠٠) سورة الأنبياء الآية ٨٨.

عند الله تعالى، ولهذا كانت مؤاخذة الله لأنبيائه ورسله أشدَّ من مؤاخذته لغيرهم، ومؤاخذته تعالى للعلماء أشدَّ من مؤاخذته لغيرهم، وعلى هذه القاعدة عوقب يونس عليه السلام بالتقام الحوت له، بعد إلقائه في البحر بسبب خروجه من قومه مغاضباً لهم بغير إذن ربه.

والداعي في منزلة عالية وقريبة من ربه، وفي مقام القدوة للناس، فليحترس من الوقوع فيما يُؤاخَذ ويلام عليه. والذي يقيه من ذلك، التزامُه الصارم الدائم بأحكام الشرع في كل ما يأخذ ويترك، وفي كل ما يقدم عليه ويحجم عنه من أعمال الدعوة وما يتعلق بها.

٧٤٠- سادساً- إسراع الداعي بالتوبة من المعصية:

الداعي غير معصوم من المعصية والوقوع في الخطيئة، جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ : «كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون» أو كما قال ﷺ، ولكن على الداعي إذا وقع في الخطيئة أن يتوب إلى الله تعالى منها حالاً؛ لأن المعصية قذر، وحق القذر أن يزال حالاً. وقد رأينا كيف بادر يونس إلى التوبة، ودعا الله بالعفو عنه، فاستجاب له ربه؛ لأن الله عفوٌّ كريم يحب العفوَ، وكلما كانت التوبة من الذنب أسرع، كان رجاء الاستجابة أقرب، وأثر الذنب في القلب أضعف.

٧٤١- سابعاً- تفيهم الناس قبول توبة التائبين:

من معاني الإسلام -وهو موضوع الدعوة-: أن الله تعالى يقبل توبة التائبين، ويمحو ذنوبهم حسب وعده الكريم، فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك للناس، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٥٠١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[١٥٠٢].

وإنما يبيِّن الداعي ذلك للناس حتى لا ييأس العصاة من صلاحهم، ومن رحمة الله بهم وتوبته عليهم. ولكن عليهم أن يحذروا من التسويف والتأخير؛ لأن الإنسان

(١٥٠١) سورة الأعراف الآية ١٥٣.

(١٥٠٢) سورة الزمر الآية ٥٣.

لا يدري متى يموت، وقد يدركه الموت قبل أن يتوب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١٥٠٣]. ويستحسن للدعاة أن يذكروا للناس توبة قوم يونس، وإيمانهم وكشف الله عنهم العذاب بسبب توبتهم.

(١٥٠٣) سورة النساء الآيتان ١٧، ١٨.

الفصل السادس عشر

قصة عيسى عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٤٢- تمهيد:

إن الكلام عن عيسى عليه السلام يستلزم الكلام عن أُمّه مريم بنت عمران وكيفية حملها به وولادتها له، وما جرى عليها قبل الولادة وبعدها، ومحاجتها لقومها وقد جاءت إليهم تحمل طفلها عيسى. ثم نتكلم بعد ذلك -إن شاء الله تعالى- عن عيسى ورسالته وما دعا إليه، وعن معجزاته وأتباعه، ومحاولة اليهود قتله، ورفع الله له إلى السماء حياً، وبيانِ القول الحق والاعتقاد الحق بعيسى عليه السلام.

٧٤٣- امرأة عمران ونذرها:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(١٥٠٤). محرَّراً: أي مخلصاً للعبادة، أو خادماً يخدم في متعبداتك ما عاش. ومعنى الآية: نذرتُ لك ما في بطني إذا ولدته وَقْفاً على طاعتك، لا أشغله بشيء من أُموري، ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(١٥٠٥). أي تقبل مني قرباني وما جعلته لك خالصاً. والتقبل: أخذ الشيء على وجه الرضا.

٧٤٤- امرأة عمران تلد أُنثى:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾(١٥٠٦). قوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾، الضمير لـ ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ وإنما أُنِّث على

(١٥٠٤) سورة آل عمران الآية ٣٥.

(١٥٠٥) تفسير القاسمي ج٢ ص٨٨.

(١٥٠٦) سورة آل عمران الآية ٣٦.

المعنى، لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ قالت ذلك على وجه التحسّر والحُزن والاعتذار، وذلك أنها كانت ترجو أن يكون ما في بطنها ذكراً، لينقطع إلى خدمة بيت الله والعبادة فيه، والأنثى لا تصلح لذلك عادة، لا سيما في أيام الحيض.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: بمكانة الأُنثى التي وضعتها، وأنها خير من كثير من الذكور. ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسّة المولودة وانحطاطها عن مرتبته، وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي طلبته امرأة عمران أو تمنته كالأنثى التي وضعت، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر[١٥٠٧].

٧٤٥- وإني سميتها مريم:

وقالت امرأة عمران عن الأنثى التي وضعتها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، ودعت الله تعالى بأن يعيذها وذريتها من الشيطان، فقالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: أُجيرها بحفظك وذريتها من الشيطان الرجيم، أي: المطرود، فلا تجعل له عليها وعلى ذريتها سلطاناً[١٥٠٨].

٧٤٦- كفالة زكريا لمريم:

قال تعالى عن مريم وكفالة زكريا لها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا...﴾[١٥٠٩]. أي: تقبل الله تعالى مريم من أُمها، ورضي بها في النذر مكان الذكر، لتنقطع لعبادته وخدمة بيته، ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: رباها ونماها تربية حسنة، وجعل زكريا كافلاً لها[١٥١٠]. وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها، لتتعلم منه علماً نافعاً وعملاً صالحاً، ولأنه كان زوج خالتها، وقيل: زوج أختها[١٥١١].

(١٥٠٨) تفسيرالقاسمي ج٤ ص٩١.
(١٥٠٩) سورة آل عمران الآية ٣٧.
(١٥١٠) تفسيرالمنار ج٣ ص٢٩٢.
(١٥١١) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٠.

٧٤٧- كرامات لمريم:

قال تعالى عن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١٥١٢) يعني: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وفيه دلالة على كرامات الأولياء. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لك هذا؟، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(١٥١٣).

والمحراب: الغرفة والموضع العالي. وقال أبو عبيدة: المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها، وكذلك هو من المساجد(١٥١٤).

٧٤٨- فضائل مريم وتفضليها على نساء زمانها:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(١٥١٥). أي: إن الله اصطفاك بالتقريب منه والمحبة، وطهّرك من الرذائل، واصطفاك بالتفضيل -على نساء زمانها-(١٥١٦).

٧٤٩- أمرُ الله لمريم بالصلاة:

قال تعالى: ﴿يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(١٥١٧) أُمرتْ مريم بالصلاة بذكر القنوت والسجود، لكونهما من هيآت وأركان الصلاة، ثم قيل لها: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بمعنى: لتكن صلاتك مع المصلين(١٥١٨).

٧٥٠- بشارة الله لمريم بعيسى:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ

(١٥١٢) سورة آل عمران الآية ٣٧.
(١٥١٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٠.
(١٥١٤) تفسيرالقاسمي ج٤ ص٩٢.
(١٥١٥) سورة آل عمران الآية ٤٢.
(١٥١٦) تفسيرالقاسمي ج٤ ص٩٦-٩٧.
(١٥١٧) سورة آل عمران، الآية ٤٣.
(١٥١٨) تفسير الزمخشري ج١ ص٣٦٢.

مَرْيَمَ . .﴾[١٥١٩]. ومعنى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: بمولود تلدينه، يكون وجوده بكلمة من الله، وهي: أن يقول له: كن، فيكون، ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لقبه: المسيح، واسمه: عيسى. وسمي المسيح لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين، لا أخمصَ لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله. وقوله: ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة إلى أُمه، حيث لا أب له[١٥٢٠].

٧٥١- سؤال من مريم وجوابه:

ولما سمعت مريم بشارة الملائكة لها عن الله بمولودها عيسى ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١٥٢١]. تقول مريم: كيف يكون هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغيّاً؟!، فقال لها المَلَك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: هكذا أمر الله: عظيم لا يعجزه شيء، وأكَّد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فلا يتأخر، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[١٥٢٢] أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر[١٥٢٣].

٧٥٢- جبريل يتمثل لمريم بشراً سوياً:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[١٥٢٤].

(١٥١٩) سورة آل عمران الآية ٤٥.
(١٥٢٠) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٤.
(١٥٢١) سورة آل عمران الآية ٤٧.
(١٥٢٢) سورة القمر، الآية ٥٠.
(١٥٢٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٤.
(١٥٢٤) سورة مريم الآيات ١٦-١٨.

﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾ أي: تنَّحت وتباعدت ﴿ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾ أي: ممن كان معها، لتتفرغ لعبادة الله، وذلك: أن مريم كانت وقفاً على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فاعتزلت الناس لذلك، ودخلت المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه، لتخلو للعبادة، فقوله: ﴿ مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾ أي: مكاناً من جانب الشرق. ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا ﴾ أي: استترت منهم وتوارت، ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾ أي: جبريل عليه السلام، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ أي: تمثل لها جبريل على صورة إنسان كامل. ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ أي: لمّا ظهر لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب؛ خافته وظنته أنه يريدها على نفسها، فقالت له: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ أي: إن كنت تخاف الله، تذكيراً له بالله تعالى [١٥٢٥].

٧٥٣- حوار بين مريم وجبريل:

لما سمع جبريل استعاذة مريم بربها منه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾[١٥٢٦] أي: فقال لها الملك -جبريل عليه السلام- مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لستُ ممّنْ تظنين، ولكني رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، أي: طاهراً من الذنوب، ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ أي: فقالت متعجبة من قول المَلَك: كيف يكون لي غلام ولستُ بذات زوج، ولا زانية؟![١٥٢٧]، فلما سمع جبريل عليه السلام جوابها هذا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾[١٥٢٨] أي: فقال مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك زوج ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة الله خالقهم، الذي نوّع في خلقهم،

(١٥٢٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٤-١١٥، تفسير القرطبي ج٧ ص٩٠-٩١.
(١٥٢٦) سورة مريم الآية ١٩.
(١٥٢٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥، تفسير القاسمي ج١١ ص١١٥، والآية في سورة مريم ورقمها (٢٠).
(١٥٢٨) سورة مريم ٢١.

فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق ذرية آدم من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. وقد دلَّ بهذا التنوع في الخلق على كمال قدرته وعظيم سلطانه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام -عيسى- رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: إن الله عزم على هذا، فليس منه بدّ، أي: لا بد أن يكون[١٥٢٩].

٧٥٤- بدء حمل مريم بعيسى:

وقد روي عن السلف: أن جبريل لما قال لمريم عن الله تعالى ما قال مما تقدم؛ استسلمت لقضاء الله تعالى، فاطمأنت إلى قوله، فدنا منها جبريل، فنفخ في جيب درعها، فَسَرَت النفخة حتى ولجت في فرجها، فكان منها الحمل بعيسى عليه السلام بإذن الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا..﴾ أي: بواسطة الملك جبريل، حيث أمره الله أن يقوم بالنفخ في جيب درعها كما قلنا[١٥٣٠].

٧٥٥- ابتعاد مريم عن قومها بسبب حملها:

قال تعالى عن مريم: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحت بالحمل إلى مكان بعيد عن قومها، فراراً من تعييرهم إياها بالحمل والولادة وهي من غير زوج؛ لأنها تعلم أنهم لا يصدقونها فيما تخبرهم به، فرأت الابتعاد عنهم هو الحلُّ الأمثل[١٥٣١].

٧٥٦- ألجأها المخاض إلى جذع النخلة:

قال تعالى عن مريم: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا

(١٥٢٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥.

(١٥٣٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥-١١٦، وتفسير القاسمي ج١١ ص١١٧، والآية في سورة التحريم ورقمها ١٢.

(١٥٣١) تفسير القرطبي ج١١ ص٩٢، والآية في سورة مريم ورقمها ٢٢.

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[1532] أي: فاضطرها وألجأها المخاض -وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها- إلى جذع النخلة، في المكان الذي تنحت إليه مبتعدة من قومها، فاشتد بها الأمر هنالك، واحتضنت الجذع لشدة الوجع، فولدت عيسى عليه السلام، وقالت عند ولادته: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أي: يا ليتني مت قبل الحمل، وكنتُ نسياً، أي شيئاً تافهاً، شأنه أن يُنسى ولا يُعتدّ به، منسياً لا يخطر على بال أحد.

وإنما قالت ذلك لمّا عرفت أنها ستُبتَلى وتُمتحَن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقها قومها في خبرها عنه[1533].

٧٥٧- نداء لمريم وتوصية لها[1534]:

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1535]. واختلف المفسرون في المنادي لمريم من هو؟: فقالت طائفة: إنه جبريل، وكان في مكان أسفل من مكانها، وقالت طائفة أخرى: إنه عيسى الذي ولدته. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسير للنداء أي: ناداها قائلاً: لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسري: هو النهر الصغير أو جدول الماء. وقال لها المنادى أيضاً: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[1536] وأمرها المنادي بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع. ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ أي حضر أوان اجتنائه لم يجف ولم ييبس. وقال بعض أهل العلم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم. وقال لها المنادى أيضاً: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ

(١٥٣٢) سورة مريم الآية ٢٣.

(١٥٣٣) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٤٦، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٧، تفسير القاسمي ج١١ ص١١٨.

(١٥٣٤) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٥٠ وما بعدها، تفسير القرطبي ج١١ ص٩٠ وما بعدها، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٧ وما بعدها، تفسير الزمخشري ج٣ ص١٢ وما بعدها.

(١٥٣٥) سورة مريم الآية ٢٤.

(١٥٣٦) سورة مريم الآية ٢٥.

إنسِيًّا﴾[١٥٣٧]. أي فكلي من الرطب الجني، واشربي من السري، وقَري عيناً: أي طيبي نفساً برؤية الولد النبي. وقال بعضهم: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ معناه نامي: حضها على الأكل والشرب والنوم. وقال لها المنادى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فسألك عن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً، ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى أمرها على لسان من ناداها: جبريل أو عيسى، بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك، ليرتفع عنها خجلها، وتتبين المعجزة، فيقوم عذرها وبراءتها فيما يتهمونها به.

وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية وهو قول الجمهور، وأن نطقها بهذه الألفاظ لا ينقض نذرها بالصمت عن الكلام. وقالت فرقة: معنى ﴿فَقُولِيٓ﴾ أي: بالإشارة لا بالكلام. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي أكلم الملائكة دون الإنس. وإنما أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم - أي الصمت - لئلا تشرع بالكلام مع المتهمين لها لسببين:

(الأول): كما أشرنا أن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرىء ساحتها.

(والثاني): كراهة مجادلة السفهاء. وفيه أن السكوت عن السفهاء مطلوب شرعاً. وقد قيل: من أذل الناس سفيهٌ لم يَجِدْ مُسافهاً.

٧٥٨- فأتت به قومها تحمله:

قال تعالى عن مريم بعد أن ولدت عيسى وجاءت به إلى قومها وهي تحمله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[١٥٣٨]. روي أن مريم لما اطمأنت بمارأت من الآيات: تساقط الرطب بهز جذع النخلة، وبالنهر الذي أخذ يجري من تحتها، وبنداء جبريل أو عيسى لها، وعلمت بدلالة هذه الآيات أن الله تعالى سيبين عذرها وبراءتها مما يجدون من ولادتها هذا المولود، وهي ليست ذات زوج، أتت بولدها عيسى تحمله من المكان القصي الذي انتبذت فيه وولدت فيه. وروي أن قومها خرجوا في طلبها فلقوها وهي مقبلة، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً وقالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: منكراً

(١٥٣٧) سورة مريم الآية ٢٦.

(١٥٣٨) سورة مريم الآية ٢٧.

عظيماً شنيعاً[1539].

٧٥٩- التعيير والتوبيخ لمريم وهي الطاهرة العفيفة:

قال تعالى حكاية عما قاله قوم مريم لها من التعيير والتوبيخ: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[1540]. ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة. وقيل: يا أخت هارون الذي هو أخو موسى وكانت من نسله، وهذا كما يقال للتميمي: يا أخا تميم وللمضري: يا أخا مضر. وقيل نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة. والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة، فأبوك رجل صالح، وما كانت بغياً أي: تبغي الزنا، أي: تطلبه. فكيف صدر منك هذا الفعل الشنيع؟[1541].

٧٦٠- جواب مريم: فأشارت إليه:

قال تعالى عما أجابت به قومها بعد أن سمعت توبيخهم لها: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾[1542]. أي: أنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا فعلتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفاحشة، ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾، أي: فأحالت الكلام عليه، أي: على ولدها عيسى، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه. فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم على ما جاءت به من الداهية، تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً. إن استخفافها بنا إلى هذا الحدّ أشد علينا من زناها. ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره يتكلم؟

(١٥٣٩) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٥٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.

(١٥٤٠) سورة مريم الآية ٢٩.

(١٥٤١) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٥٩-٤٦١، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.

(١٥٤٢) سورة مريم الآية ٢٩.

٧٦١- عيسى يتكلم في مهده، ويعلل عبوديته لله:

قال تعالى حكاية عما قاله عيسى لقوم مريم: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[١٥٤٣]. أول شيء نطق به عيسى عليه السلام إقرار بالعبودية لله تعالى وإعلان هذا الإقرار. وبهذا نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد. كما برأ السيدة مريم من الظنون الباطلة فيها. وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيل، ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يوحي إليّ ما يشاء[١٥٤٤].

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[١٥٤٥]. ﴿ مُبَارَكًا﴾ أي: كثير الخير أينما وجدت ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له[١٥٤٦].

والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة «آتاني الكتاب، جعلني نبياً، وجعلني مباركاً» إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، أو جعل الآتي، لا محالة، كأنه وجد.

﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي[١٥٤٧]. ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[١٥٤٨]. أي: وأوصاني ربي ببر والدتي. وقوله: ﴿ بِوَٰلِدَتِي﴾ بيان؛ لأنه لا والد له، وبهذا القول برأها قومها. ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: لم يجعلني مستكبراً عن طاعته وأمره وعبادته وبرّ والدتي فأشقى بذلك. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[١٥٤٩].

(١٥٤٣) سورة مريم الآية ٣٠.
(١٥٤٤) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٢، تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٩.
(١٥٤٥) سورة مريم الآية ٣١.
(١٥٤٦) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٣.
(١٥٤٧) تفسير القاسمي ج١١ ص١٢٠.
(١٥٤٨) سورة مريم الآية ٣٢.
(١٥٤٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾[1550] أي: السلامة عليَّ من الله تعالى ﴿ يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾ يعني في الدنيا، ﴿ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ أي: فأقبر، ﴿ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ يعني في الآخرة، لأن له أحوالاً ثلاثة: في الدنيا حياً، وفي القبر ميتاً، وفي الآخرة مبعوثاً، فسلم في أحواله كلها[1551].

وقال ابن كثير في هذه الآية: «إثبات من؛ عيسى لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله، يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد[1552].

٧٦٢- القول الحق في عيسى:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾[1553] أي: يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ أي يشكون، أو يختلفون. وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1554]. ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي: ما ينبغي له ولا يجوز أن يتخذ ولداً، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ ﴾ أن يكون له ولد، ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾[1555].

٧٦٣- عيسى يأمر بعبادة الله وحده:

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾[1556] أي: ومما أمر به عيسى قومه، وهو في مهده أن أخبرهم أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال:

(١٥٥٠) سورة مريم الآية ٣٣.
(١٥٥١) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٤-١٠٥.
(١٥٥٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.
(١٥٥٣) سورة مريم الآية ٣٤.
(١٥٥٤) سورة مريم الآية ٣٥.
(١٥٥٥) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٧، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.
(١٥٥٦) سورة مريم الآية ٣٦.

﴿فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي: قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضلَّ وغوى[١٥٥٧].

٧٦٤- اختلاف أهل الكتاب في عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١٥٥٨].

أي: اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فذهب جمهور اليهود عليهم لعائن الله إلى أنه ولد زنا، وقالوا: كلامه سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: إنه ابن الله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة. وقال آخرون: هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة، فهو تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أنَّ له ولداً، ولكن أمهلهم الله تعالى إلى يوم القيامة، وأجلَّهُمْ حلماً منه عليهم وثقة بقدرته عليهم، فإنه تعالى لا يعجل على من عصاه، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[١٥٥٩].

٧٦٥- تحريم الغلو في الدين:

قال تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ . . .﴾[١٥٦٠]. الغلو: تجاوز الحدّ والمعنى كما ذكره المفسرون: غلا اليهود في عيسى عليه السلام حتى قذفوا أمه مريم بالزنا، وغلا النصارى فيه - أي في عيسى - حتى جعلوه إلهاً ورباً. فالإفراط والتفريط كله كفر. وفي صحيح البخاري، عن النبي ﷺ « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، وقولوا: عبد الله ورسوله». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾ أي: لا تفتروا على الله، وتجعلوا له شريكاً أوصاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك

(١٥٥٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.
(١٥٥٨) سورة مريم الآية ٣٧.
(١٥٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢١.
(١٥٦٠) سورة النساء من الآية ١٧١.

علواً كبيراً[1561].

٧٦٦- حال عيسى وحقيقته:

قال تعالى: ﴿. . . إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1562]. دلَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ على نفي الألوهية عنه؛ لأن من كان منسوباً إلى والدته كيف يكون إلهاً، وحق الإله أن يكون قديماً لا محدثاً[1563]؛ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: عيسى رسول الله إلى بني إسرائيل، أمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه. . . إلى آخر ما جاء به من ربه[1564].

٧٦٧- معنى: وكلمته ألقاها إلى مريم:

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ لأن عيسى وجد بكلمة الله «كن» وأمره لا غير، من غير واسطة أب ولا نطفة[1565]. والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه، ولما كان عيسى خلق بكلمة (كن) الصادرة عن الله؛ جاز تسميته بأنه كلمة الله[1566]. ومعنى ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: الكلمة التي خلق الله بها عيسى وهي (كن)، أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام[1567]، أي: أوجد الله هذا الحادث - خلق عيسى - في مريم وجعله فيها [1568]. وقيل المراد بـ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ بشارته تعالى التي بعث الله بها جبريل إلى مريم، وهي ولادتها عيسى، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ

(١٥٦١) تفسير القرطبي ج٦ ص٢١.

(١٥٦٢) سورة النساء الآية ١٧١.

(١٥٦٣) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٠.

(١٥٦٤) تفسير المنار ج٦ ص٨١-٨٢.

(١٥٦٥) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٩٣.

(١٥٦٦) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٢.

(١٥٦٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٩٣، تفسير القاسمي ج٥ ص٦٧٥.

(١٥٦٨) تفسير ابن عطية ج٤ ص٣٠١.

﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1569].

٧٦٨- معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: قيلت في معنى قوله تعالى في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ جملة أقوال كلها تدحض قول النصارى الباطل من أن عيسى جزء من الله تعالى، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فمن أقوال المفسرين في بيان المراد من قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ما يأتي:

أ- إنه -أي عيسى- خلق بنفخ من روح الله جبريل عليه السلام، ويوضحه قوله تعالى في أمه مريم: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾. وقال بعضهم: إن المراد بالروح هنا النفخ أي: نفخ الملك جبريل بأمر الله في مريم.

ب- معناه: إن عيسى مؤيد بروح منه تعالى، وهذا الروح المؤيد به عيسى هو جبريل الملقب بـ «روح القدس»، يوضحه قوله تعالى في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

ج- وقال صاحب المنار بعد أن ذكر القولين اللّذيْنِ ذكرتهما آنفاً، قال: «ويجوز أن يراد بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ الأمران معاً، أي: أن عيسى خلق بنفخ الملك المعبر عنه بالروح وبروح القدس في أمه نفخاً كان كالتلقيح الذي يحصل بين الرجل وزوجته، وكان عيسى مؤيداً بهذا الروح -جبريل- مدة حياته، ولذلك غلبت عليه الروحانية وظهرت آيات الله فيه زمن الطفولية وزمن الرجولية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فلما كان كذلك أطلق عليه أنه «روح» كأنه هو عين ذلك الملك الذي جعل الله نفخه سبب ولادته، وأيده به مدة حياته، كما يقال: رجل عدل على سبيل المبالغة والمراد ذو عدل»[1570].

د- قال أُبي بن كعب: خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق ثم ردها إلى صلب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح

(١٥٦٩) تفسير ابن عطية ج٤ ص٣٠١، تفسير القرطبي ج٦ ص٢٢. سورة آل عمران ٤٥.
(١٥٧٠) تفسير المنار ج٦ ص٨٢-٨٣.

إلى مريم فكان منه عيسى عليه السلام؛ فلهذا قال: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[1571].

هـ - ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾: أي: بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي: من خلقه، وإنما أضافه لنفسه على سبيل التكريم والتشريف، كما في قوله تعالى: ﴿ناقة الله﴾[1572].

و- ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي: رحمة منه، فكان عيسى عليه السلام رحمة من الله لمن اتبعه، وبمعنى الرحمة جاءت كلمة (روح) في قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أي: برحمة منه[1573].

ز- ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾؛ لأنه ذو روح وُجِدَ من غير جزء من ذي روح كالنطفة من الأب الحي، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله تعالى وقدرته[1574].

٧٦٩- مثل عيسى كمثل آدم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1575]. أي: إن مثل عيسى عند الله في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم، وإنما خلقه من تراب، فالذي خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى من غير أب بطريق الأولى والأحرى. وإن جاز إدعاء البنوة في عيسى -كما تقول النصارى- لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواهم في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً. ولكن الرب جلّ جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر -من ضلع آدم- بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى[1576].

(١٥٧١) تفسير ابن عطية ج٤ ص٣٠١، تفسير القرطبي ج٦ ص٩٢.

(١٥٧٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩٠، تفسير القرطبي ج٦ ص٩٢، ابن عطية ج٤ ص٣٠١.

(١٥٧٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩٣، أحكام القرآن لابن العربي ج١ ص٥١٧.

(١٥٧٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٩٣.

(١٥٧٥) سورة آل عمران الآية ٥٩.

(١٥٧٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٧.

٧٧٠- عيسى عبد مخلوق لله :

ومن آيات القرآن الكريم المبينة لحال عيسى وأنه عبد مخلوق لله، ليس له شيء من ألوهية الله وربوبيته، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وأنه دعا بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، الآيات التالية :

أ- قال تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾[١٥٧٧] أي : ما هو -أي عيسى- إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، وإن خلقه الله من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ ﴾ أي : وما أمه أيضاً إلا صدّيقة كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم. ثم صرح ببعد عيسى وأمه عما نسب إليهما من الألوهية في قوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾ ومن يأكل الطعام كيف يصح أن يكون رباً أو إلهاً[١٥٧٨]؟ .

ب- وقال تعالى عن عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١٥٧٩] أي : وما عيسى إلا عبد كسائر العبيد، ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه وكرمناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل[١٥٨٠] .

ج- إن أول ما نطق به عيسى وهو في المهد إقراره بعبوديته لله تعالى. قال ربنا جلّ جلاله حكاية عما نطق به عيسى وهو في المهد : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ . . . ﴾[١٥٨١] ولم يقل ما ادعاه النصارى فيه من أنه ابن الله؛ لأن قولهم هذا فيه قول باطل، وعيسى لم ينطق إلا بما أنطقه الله به من الحق.

د- المسيح لا يستنكف أن يكون عبداً لله، قال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

(١٥٧٧) سورة المائدة الآية ٧٥.

(١٥٧٨) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٦٤-٦٦٥.

(١٥٧٩) سورة الزخرف الآية ٥٩.

(١٥٨٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٦١.

(١٥٨١) سورة مريم الآية ٣٠.

﴿إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[1582] أي لن يأنف عيسى ولن يستكبر أن يكون عبداً لله، كما لا يأنف ولا يستكبر الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم -أي فيجمعهم- إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل[1583].

٧٧١- كفر النصارى بغلوهم في عيسى:

لقد كفر النصارى بغلوهم في عيسى حيث جعلوه ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[1584]، ومنهم من جعله هو الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾[1585]، وهذا قول اليعقوبية من النصارى، كما قال الإمام القرطبي في تفسيره[1586]. ومنهم من قال: إن الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾[1587]. وهذا قول الفرق الناطقة بالتثليث من النصارى، وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية[1588]. وقال السدي وغيره: نزلت هذه الآية في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾[1589] الآية.

قال الإمام ابن كثير في قول السدي: وهذا القول هو الأظهر والله أعلم[1590] وقال ابن كثير أيضاً في أقوال النصارى في عيسى: وهي على اختلافها كفر وضلال، قال رحمه الله تعالى: (والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدّ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده

(١٥٨٢) سورة النساء الآية ١٧٢.
(١٥٨٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩١.
(١٥٨٤) سورة التوبة الآية ٣٠.
(١٥٨٥) سورة المائدة ٧٢.
(١٥٨٦) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٤٩.
(١٥٨٧) سورة المائدة الآية ٧٣.
(١٥٨٨) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٤٩، ابن كثير ج٢ ص٨١.
(١٥٨٩) سورة المائدة الآية ١١٦.
(١٥٩٠) تفسير ابن كثير ج٢، ص٨١.

شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة)[١٥٩١].

٧٧٢- عيسى يأمر بني إسرائيل بعبادة الله وحده:

إن دعوة عيسى عليه السلام تقوم على توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وأن كل ما سوى الله مخلوق ومربوب وعبد لله تعالى، وهذا ما نطق به عيسى عليه السلام وهو في المهد، وظل يدعو بني إسرائيل إلى توحيد الله وعبادته وحده، قال تعالى حكاية عما قاله عيسى وهو في المهد: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ . . ﴾[١٥٩٢]. وقال تعالى حكاية عما أمر به عيسى بني إسرائيل: ﴿ . . وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[١٥٩٣] فعيسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بعبادة الله وحده الذي هو ربه وربهم، فلم يفرق عيسى عليه السلام بينه وبينهم في أنه عبدٌ مربوب لله تعالى كمثلهم، وأن من واجب عبدالله أن يعبد الله[١٥٩٤]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ . . . ﴾[١٥٩٥] فعيسى عليه السلام بلّغ بني إسرائيل ما أمره الله بتبليغه لهم وهو عبادة الله ربه وربهم.

٧٧٣- نِعمُ الله على عيسى ومعجزاته:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ

(١٥٩١) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٩١.

(١٥٩٢) سورة مريم الآية ٣٠.

(١٥٩٣) سورة المائدة الآية ٧٢.

(١٥٩٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٦٣.

(١٥٩٥) سورة المائدة الآية ١١٦.

جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[١٥٩٦]. إنما ذكّر الله تعالى عيسى بنعمته عليه وعلى والدته، وإن كان لهما ذاكراً، لأمرين:

(أَوَّلُهُما): ليبين للناس ما خصهما الله به من الكرامة، وما ميزهما به من علو المنزلة.

(ثانيهما): ليؤكد بما أنعم الله عليه حجته ويرد به جاحده[١٥٩٧]. ثم أخذ سبحانه وتعالى في تعديد نعمه عليه[١٥٩٨]:-

﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلي إياك آية، ودلالة قاطعة على قدرتي على الأشياء. ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبه الظالمون إليها من الفاحشة، ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدتَ ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية، وأخبرتَ عن رسالتي إياك ودعوتَ إلى عبادتي، ولهذا قال تعالى: ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، فتكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة، الذي هو كمال العقل وبلوغ الرشد؛ لأن كلامك في الحالتين دعوة إلى الله، ودعوة إلى إفراده بالعبادة: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: الخط والفهم، ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أي وعلمتك التوراة وهي ما أنزله الله على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو ما أنزله الله على عيسى. ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.. ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ والأكمه: من وُلِدَ أعمى ويطلق على من

(١٥٩٦) سورة المائدة، الآيتان ١١٠، ١١١.

(١٥٩٧) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٦٢.

(١٥٩٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص١١٥.

عمي بعد الولادة أيضاً، والبرص: بياض يعتري الجلد[1599]. ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته ومشيئته ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: واذكر نعمتي عليك في كفي بني إسرائيل عنك حين جئتهم بالبينات، أي: بالبراهين والدلائل والمعجزات والحجج القاطعة على نبوتك وعلى رسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم وكفيتك شرهم. ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ وهذا أيضاً من نعم الله على عيسى، ومن الامتنان عليه بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً. وهذا الوحي إلى الحواريين وحي إلهام، كما قال تعالى في وحيه لأم موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وهو حي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . . ﴾ وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ . . ﴾ الخ أي: أُلْهِموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا، فقالوا: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾. ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ . . . ﴾ الخ أي وإذا أوحيت إليهم بواسطتك، فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾. والحواريون: جمع حواري وهو من خلص لك وأخلص سراً وجهراً في مودتك[1600]. وهم أصحاب عيسى عليه السلام، وسموا بذلك لبياض ثيابهم كما روي هذا عن ابن عباس[1601]. وقال الزمخشري: الحواريون هم أصفياؤه -أي أصفياء عيسى- وهم أول من آمن به، وكانوا اثنى عشر رجلاً، وحواري الرجل: صفيه وخلصانه أي خاصته[1602]. وقد أعلنوا نصرتهم لله أي: لدينه قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾[1603].

(١٥٩٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٩٤، تفسير المنار ج٧ ص٢٤٦.

(١٦٠٠) تفسير المنار ج٧ ص٩٧.

(١٦٠١) تفسير القرطبي ج٤ ص٩٧.

(١٦٠٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٢٨.

(١٦٠٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٢٨ والآية في سورة الصف ورقمها ١٤.

٧٧٤- بشارة عيسى بمحمد صلى الله عليهما وسلم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(١٦٠٤). إنما قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: يا قومي كما قال موسى، لأنه لا أب له فيهم فيكونوا قومه(١٦٠٥). والمعنى: يقول عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، والتوارة قد بشرّتْ بي وأنا مصداق ما أخَبَرتُ عنه، وأنا مبشرٌ بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكنى أحمد(١٦٠٦). و «أحمد» اسم نبينا ﷺ، وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى «أحمد» أي: أحمدُ الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمداً. وأما محمد -اسم نبينا ﷺ- فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى محمود ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمَّد هو الذي حُمِد مرة بعد مرة(١٦٠٧). فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام فيهم مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب»(١٦٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قيل: الذي جاءهم هو عيسى، وقيل: هو محمد ﷺ(١٦٠٩). وقال ابن كثير: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أحمد أي المُبشَر به في الأعصار المتقدمة المنوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات أي بالدلائل الدالة على صدقه وأنه رسول الله، قال (الكفرة):

(١٦٠٤) سورة الصف الآية ٦.

(١٦٠٥) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٢٩.

(١٦٠٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥٩.

(١٦٠٧) تفسير القرطبي ج١٨ ص٨٣.

(١٦٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥٩-٣٦٠.

(١٦٠٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٨٢.

﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1610]. فكأن الإمام ابن كثير يرجح أن المقصود بـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ هو محمد ﷺ.

٧٧٥- ادعاء اليهود قتل عيسى عليه السلام:

قال تعالى معدداً جرائم اليهود مع كفرهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[1611]. قوله تعالى: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي وبسبب قولهم هذا فإنه يؤذن بمنتهى الجرأة على الباطل وارتكاب أفظع الجرائم، فهم ما وصفوه بأنه ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ إلا على سبيل التهكم والاستهزاء به[1612]، كقول المشركين لنبينا محمد ﷺ كما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[1613].

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ أي والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحاً بالجريمة، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس، ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي وقع لهم الشبهة أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وإنما صلبوا غيره[1614]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾: أي وما قتلوا عيسى ابن مريم متيقنين أنه هو عيسى بعينه[1615]. أو يجعل ﴿ يَقِينًۢا ﴾ تأكيداً لقوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ فيكون المعنى ما قتلوه حقاً، تأكيداً لانتفاء قتله[1616]. وقد روي في سعي اليهود لقتله، أن اليهود لم يؤمنوا بعيسى بالرغم من المعجزات التي

(١٦١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٦٠-٣٦١.

(١٦١١) سورة النساء الآيات ١٥٥-١٥٩.

(١٦١٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٧٣-٥٧٤، تفسير الزمخشري ج٢ ص٥٧١، تفسير المنار ج٦ ص١٨٦.

(١٦١٣) سورة الحجر الآية ٦.

(١٦١٤) تفسير المنار ج٦ ص٢٣، ٢٤.

(١٦١٥) تفسير المنار ج٦ ص٢١، تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٧-٥٨٨.

(١٦١٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٨.

أجراها الله على يده، حتى جعل عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه في الأرض يدعو إلى الله ولم يقنع اليهود ذلك فأرادوا قتله، وسعوا سعياً حثيثاً لتحقيق ما أرادوا. وروي أن رجلاً من اليهود جُعِل له جعلٌ ليدلهم على مكان عيسى فما زال يتعقبه حتى عرف مكانه فدلّ عليه، وروي أن الشبه ألقي على اليهودي الذي دلّ عليه فصلب(١٦١٧).

٧٧٦- رفع عيسى إلى السماء:

قال تعالى مخبراً عن حفظه لعبده عيسى من القتل، ورفعه إلى السماء: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ... بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١٦١٨) يعني: رفعه الله إلى سمائه وكرامته. وعيسى عليه السلام هو حيّ في السماء الثانية على ما تضمنه حديث المعراج الذي أخرجه البخاري، وفيه أن النبي ﷺ رأى عيسى عليه السلام في السماء الثانية، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله إلى الأرض ويقتل الدجال، كما جاءت بذلك الأخبار(١٦١٩). وكما أخبر الله تعالى بهذه الآية عن رفع عيسى إلى السماء، أخبرنا بذلك بآية أخرى. هي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾(١٦٢٠) قال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ على التقديم والتأخير، لأن الواو لا توجب الترتيب.. والمعنى: إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ والتقدير: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، وقال الحسن وابن جريج: معنى متوفيك: قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت. وقال ابن زيد: متوفيك: قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعد. وقال الربيع بن أنس: هي وفاة نوم، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم، لأن النوم أخو الموت. قال القرطبي: والصحيح أن

(١٦١٧) تفسير الزمخشري، ج١ ص٥٨٧.

(١٦١٨) سورة النساء، الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

(١٦١٩) تفسير ابن عطية ج٤ ص٢٨٧.

(١٦٢٠) سورة آل عمران، الآية ٥٥.

الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك[1621].

٧٧٧- نزول عيسى إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1622] والمعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله،يعني إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه، لانقطاع وقت التكليف. وقيل إن الضمير في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾أي: قبل موت عيسى، بمعنى: وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله.

روي أنه ينزل من السماء إلى الأرض في آخر الزمان. فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه الدجال[1623].

وقد وردت أحاديث في نزول عيسى من السماء إلى الأرض، منها حديث البخاري: قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»[1624].

(١٦٢١) تفسير القرطبي ج٤ ص٩٩-١٠٠.

(١٦٢٢) سورة النساء الآية ١٥٨.

(١٦٢٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٧٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٩.

(١٦٢٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٥٧٨.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة عيسى للدعوة والدعاة

٧٧٨- أشياء كثيرة تستفاد من قصة عيسى:

يستفاد من قصة عيسى عليه السلام وأمه مريم أشياء كثيرة تتعلق بالدعوة وموضوعها الإسلام، وبالدعاة وهم يدعون إليه. وهذا المستفاد: (منه) ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، مثل ثبوت الكرامات للأولياء، وتمثل الملائكة بهيئة البشر. (ومنه) ما يتعلق بالأسباب، وأن الأخذ بها لا يقدح بالتوكل على الله، (ومنه) تحريم الغلو في الدين. (ومنه) ترك محاججة السفهاء، (ومنه) الخوارق والمعجزات لا تخرج صاحبها عن عبوديته لله، (ومنه) الشرك بالله بأي شكل كان كفر بالله، (ومنه) تعداد نعم الله وتذكرها، (ومنه) تيسر الأعوان على الدعوة إلى الله من نعم الله. (ومنه) من حكمة الله أنه يُري عباده عظيم قدرته وشمولها، (ومنه) رفع عيسى إلى السماء ونزوله منها من أمور العقيدة.

ما ذكرناه بعض ما يستفاد من قصة عيسى وأمه مريم عليهما السلام للدعوة وللدعاة. ونذكر فيما يلي شيئاً موجزاً عن هذه الأمور المستفادة.

٧٧٩- أولاً- المستفاد فيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية:

من معاني العقيدة الإسلامية الإيمان بثبوت المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء، والخوارق التي يشاء الله إحداثها. وقد ذكرنا ما قصه الله علينا من المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكلامه وهو في المهد.

كما ذكرنا ما قصه الله علينا من الكرامات لمريم، مثل الرزق الذي كان يأتيها وهي في محرابها، ومثل تساقط الرطب الجني بهزها جذع النخلة الميت.

ومن الخوارق التي أجراها الله تعالى رفعه لعيسى إلى السماء بروحه وجسده. فعلى الدعاة، إذا تطرقوا إلى شرح معاني العقيدة الإسلامية، أو سئلوا

عنها، أن يجيبوا عنها مثبتين لها -أي للخوارق -بكل صراحة ووضوح، ولا يجوز لهم صرفها عن معناها الحق أو تأويلها بما يخرجها عن حدود المعجزة والكرامة الخاصة بالولي أو بالخارق للعادة.

٧٨٠- جواز تمثل الملك بهيئة إنسان:

ومن معاني العقيدة الإسلامية الإيمان بجواز تمثل الملائكة بهيئة البشر. فقد ذكرنا في قصة مريم أن جبريل عليه السلام وهو من الملائكة المقربين تمثل لمريم بشراً سوياً. وقد ثبت في السنة النبوية أن جبريل عليه السلام تمثل بهيئة إنسان، وجاء إلى رسول الله ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة وعلاماتها ثم انصرف، فقال ﷺ: «أتعرفون من هوالسائل؟» فقال: الحاضرون من أصحاب رسول الله: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم».

فعلى الدعاة إذا شرحوا هذا الحديث النبوي أن يبينوا إمكان تمثل الملائكة بهيئة البشر، وأن هذا يكون بإذن الله ومشيئته. وقد أخبرنا الله بأنه أرسل ملائكة إلى لوط وقد مروا بإبراهيم وهم بهيئة بشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۞ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[١٦٢٥]، ولما وصلوا إلى لوط عليه السلام ونزلوا في بيته ورأوا قلقه عليهم من خبث قومه: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ...﴾[١٦٢٦].

ومما يتعلق بالعقيدة الإسلامية وجوب توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتحريم الشرك.

٧٨١- ثانياً- عدم مجادلة السفهاء:

قال تعالى: حكاية عما قال المنادي -عيسى أو جبريل- لمريم: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

(١٦٢٥) سورة هود الآيات ٦٩، ٧٠.

(١٦٢٦) سورة هود الآية ٢٦.

ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[١٦٢٧]. وقد قال أهل التفسير إن من أسباب أمر مريم بنذر الصوم أي: الصمت عن الكلام، هو كراهة مجادلة السفهاء، مما يستدل بذلك على أن السكوت عن السفهاء مطلوب شرعاً[١٦٢٨]. والواقع أن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة معهم بالسفة والجدال أمر مستحب[١٦٢٩]. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[١٦٣٠].

فعلى الدعاة أن يترفعوا عن مجادلة السفهاء، ولا يقابلوهم بالسفه، بل يعرضوا عنهم، لأن هذا أصون لعرضهم، وأكرم لنفوسهم، ولأنه بهذا الأسلوب العملي يظهر خلق الدعاة وتمايزهم عن السفهاء والجهلاء.

٧٨٢- ثالثاً- الأخذ بالأسباب:

إن الأخذ بالأسباب لا يقدح في إيمان المسلم، ولا يناقض التوكل على الله تعالى، وقد رأينا أن الله أمر مريم على لسان من ناداها أن تهز جذع النخلة حتى تساقط عليها رطباً جنياً، قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[١٦٣١]، وهز جذع النخلة سبب لتساقط الرطب. فعلى الدعاة أن يأخذوا بالأسباب المشروعة لإنجاح الدعوة، على أن يبقى اعتمادهم وتوكلهم على الله تعالى لا على ما باشروه من أسباب، كالفلاح الذي يحرث الأرض، ويبذر البذر، وينتظر الغيث من السماء، وصيانة الله لزرعه من الآفات، فتوكله واعتماده على الله في إنبات ما بذر، وسلامته إذا طلع. هذا وعلى الدعاة أن يعلموا أنَّ الأسباب المشروعة منها المادية ومنها المعنوية، ومن المادية إعداد القوة وأخذ الحذر، ومن الحذر الاختفاء عن أعين الأعداء، كما اختفى النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر في الغار، وبقيا فيه ثلاثة أيام في بدء هجرتهم إلى المدينة. ومن الأسباب المعنوية الإعداد

(١٦٢٧) سورة مريم الآية ٢٦.

(١٦٢٨) انظر الفقرة ٧٥٧.

(١٦٢٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩١.

(١٦٣٠) سورة الفرقان الآية ٦٣.

(١٦٣١) سورة مريم الآية ٢٥.

الروحي وتقوية معاني الإيمان في نفوس الدعاة وفي نفوس المنتسبين لجماعتهم.

٧٨٣- رابعاً- الابتعاد عن الغلو في الدين:

الغلو في الدين: تجاوز الحدود الشرعية، وقد نهى الله أهل الكتاب عن الغلو في الدين، فقال لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾(١٦٣٢)، لأن الغلو يوقع صاحبه في مخالفة الشرع ويحسب أنه يحسن صنعاً. ولأن الغلو في الدين ابتداع فيه، والابتداع في الدين مرفوض وحرام، وفي الحديث النبوي الشريف «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وقد يوقع الغلو صاحبه في الكفر كما حصل لليهود والنصارى في عيسى عليه السلام. اليهود تجاوزوا الحدود الشرعية في عيسى عليه السلام وأمه، فأنزلوهما دون منزلتهما التي أنزلهما الله فيها، فكذبوا عيسى واتهموا أمه بالفاحشة، وأنه ليس بولد شرعي. والنصارى تجاوزوا الحدود الشرعية غلواً منهم بعيسى فجعلوه وأمه إلهين مع الله، فعلى الدعاة أن يقفوا في دعوتهم عند الحدود الشرعية، سواء كان هذا الوقوف من جهة وسائلهم في الدعوة، أو مناهجهم فيها، أو مواضيع الدعوة، وحتى في عبادتهم أو فيما يطالبون الناس به من أمور الدين. لا يغالوا في شيء من ذلك، وإنما يقفون عند حدود الشرع أي فيما أباحه أو استحبه أو أوجبه، ولا يقعون في مخالفته بارتكاب المحرم أو المكروه في الأسلوب أو المضمون أو الكيفية. وليعلموا أن المقبول من الأعمال عند الله هو ما كان صحيحاً خالصاً لوجه الله، والصحيح ما كان موافقاً للشرع في كيفيته وفي مضمونه. وليتذكر الدعاة مقالة أولئك النفر من الصحابة الذين تذاكروا في عباداتهم، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أصلي ولا أرقد، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء. فلما بلغ النبيَّ ﷺ ما قالوه، قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني» أو كما قال ﷺ.

٧٨٤- خامساً- تذكر نِعَم الله تعالى:

ذكرنا فيما سبق قوله تعالى لعيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى والدته، قال تعالى:

(١٦٣٢) سورة النساء الآية ١٧١.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ . . . ﴾[١٦٣٣] وقد ذكرنا هذه النعم عليه وعلى والدته، وبينا الحكمة في أمر الله لعيسى بأن يذكر نعمته عليه وعلى والدته[١٦٣٤]، فعلى الدعاة أن يذكروا دائماً نِعمَ الله عليهم، وأعظمُ نعمه عليهم أن جعلهم مسلمين دعاة لدينه، وإذا رأوا نجاحاً في عملهم الدعويّ فليقولوا هذا من فضل الله ولْيقدموا الشكرَ على نعمه بزيادة الأعمال التي يحبها، وعلى رأسها بذل المزيد من الجهد في الدعوة إلى الله تعالى. ولا مانع من ذكر نعم الله على الدعاة للناس، قاصدين بهذا الذكر للناس تشجيعهم وحثهم على الاستجابة للدعوة، والانتماء إلى جماعة الدعاة، والاقتداء بالدعاة وعملهم، لأنهم مسلمون مطالبون بالدعوة إلى الله كما أن الدعاة مطالبون بذلك، فالتحديث بنعمة الله وذكرها والتصريح بها للناس أمر ممدوح إذا كان القصد حمل الناس على الاقتداء بهم وزيادة ثقتهم بالدعوة ودعاتها. ونستأنس لما نقول بقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[١٦٣٥]. وعن عبدالله بن غالب، أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيراً، قرأت كذا أو صليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اقتداء الغير به وأمن على نفسه من فتنة الرياء[١٦٣٦].

٧٨٥- سادساً- من نعم الله الأعوان على الدعوة:

وليعلم الدعاة أن من نعم الله عليهم أن يهيىء لهم أعواناً على الدعوة، بأن يستجيبوا لدعوتهم ويقبلوا عليها ويعملوا معهم في سبيلها، ونستأنس لما نقول، إن الله تعالى جعل الحواريين الذين ألهمهم الاستجابة لدعوة عيسى والعمل معه لدينه، أقول جعل ذلك من نعمه تعالى على عيسى، قال تعالى في تعداده نعمه عليه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[١٦٣٧].

(١٦٣٣) سورة المائدة، الآيتان ١١٠، ١١١.

(١٦٣٤) انظر الفقرة ٧٧٣.

(١٦٣٥) سورة الضحى الآية ١١.

(١٦٣٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٦٩.

(١٦٣٧) سورة المائدة الآية ١١١.

وهؤلاء الحواريون صاروا أعواناً لعيسى على نشر الدعوة إلى الله تعالى ونصرة دينه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾(١٦٣٨) وعلى هذا فإذا هيأ الله تعالى للدعاة ولجماعتهم من استجابوا للدعوة، وانضموا للجماعة، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يشكروا الله على ذلك، وأن يحرصوا على هؤلاء المستجبين لدعوتهم المنضمين إلى جماعتهم، وحرصهم عليهم يظهر في إشعارهم بالإخوة الإيمانية التي تربط فيما بينهم، وما يترتب على هذه الرابطة الإيمانية والأُخُوَّة الإيمانية من تعاون ومحبة وتآلف بين قلوبهم، وأن يذكر الدعاة نعمة الله عليهم بهذا التآلف والترابط الإيماني والتعاون على نصرة دين الله والدعوة إليه، بعد أن كان هؤلاء المستجيبون للدعوة معارضين أو معرضين عنها ولكن الله هداهم إلى دعوته وألَّف بينهم وبين الدعاة، وهذا من نعم الله تعالى، قال تعالى: ﴿ . . . وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾(١٦٣٩)، وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ممتناً عليه بتأييده بالمؤمنين وتأليف قلوبهم: ﴿ . . . فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾(١٦٤٠).

(١٦٣٨) سورة الصف الآية ١٤ .

(١٦٣٩) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(١٦٤٠) سورة الأنفال الآيتان ٦٢، ٦٣ .

الفصل السابع عشر

قصة لقمان عليه السلام

المبحث الأول

خلاصة قصته وتفسير آيات وصيته لابنه

٧٨٦- هل كان لقمان نبياً؟

قال بنبوته عكرمة والشعبي. وقال بصلاحه فقط دون نبوته مجاهد وغيره، وعلى هذا جمهور أهل التأويل، قالوا: إنه كان ولياً ولم يكن نبياً. وقال الإمام القرطبي في تفسيره: والصواب أنه كان حكيماً بحكمة الله تعالى، أي كان ولياً موصوفاً بالحكمة(١٦٤١).

٧٨٧- إيتاء الله لقمان الحكمة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(١٦٤٢) وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصّه به دون سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾(١٦٤٣) أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه سبحانه وتعالى هوالغني عما سواه(١٦٤٤).

(١٦٤١) تفسير ابن عطية ج١١ ص٤٨٩، تفسير ابن كثير ج٣ص٤٤٣، تفسير القرطبي ج١٤ص٥٩.

(١٦٤٢) سورة لقمان الآية ١٢.

(١٦٤٣) تفسير ابن عطية ج١١ ص٤٨٩.

(١٦٤٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٤.

٧٨٨- لقمان يعظ ابنه ويحذره من الشرك:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[١٦٤٥] ذكر الله تعالى لقمان بالذكر الحسن وآتاه الحكمة، وأخبرنا تعالى بموعظته لابنه الذي هو أشفق الناس عليه، وأحبهم إليه، فهو حقيق أنه يمنحه أفضل ما يعرف، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً، ولهذا أوصاه أولاً: بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ثم قال محذراً له: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أي هو أعظم الظلم، لأن التسوية -بين من لا نعمة إلا هي منه وهو الله جلّ جلاله، وبين من لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه وهو ما سوى الله تعالى- ظلم لا يُكْتَنَهُ عِظَمُهُ[١٦٤٦].

٧٨٩- الوصية بالوالدين:

وبعد أن أوصى لقمان ابنه بعبادة الله وحده وحذره من الشرك، ذكرّه وأوصاه بالوالدين اللذين أوصى الله بهما، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١٦٤٧]. فلقمان قرن بوصيته لولده بعبادة الله وحده وعدم الشرك، قرن بهذا وصيته له ببر الوالدين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين عبادته وحده وبين برّ الوالدين كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾: أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف، أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً[١٦٤٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[١٦٤٩]. وإنما يذكر الله تعالى ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب

(١٦٤٥) سورة لقمان الآية ١٣.

(١٦٤٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٤، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٢٨٨.

(١٦٤٧) سورة لقمان الآية ١٤.

(١٦٤٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٩٤.

(١٦٤٩) سورة البقرة الآية ٢٣٣.

في حمله وفصاله وتربيته؛ ليذكَّرَ الولد بإحسانها المتقدم إليه، وإيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً، ومن ثمَّ قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبرّ؟ قال: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك»[1650]. وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء في الآخرة. وإنما قدم الأمر بشكر الله تعالى؛ لأنه هو المنعم الأول بالخلق والإيجاد، وشكر الوالدين المنعمين التاليين، وهذا يشعر بترتيب الواجبات والحقوق فيجيء شكر الله أولاً ويتلوه شكر الوالدين[1651].

٧٩٠- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

قال تعالى في موضوع برّ الوالدين وحدود الطاعة لهما: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1652]. وبقية الوصية للولد في علاقته بوالديه، أن لا طاعة لهما على ولدهما في معصية الخالق. إن طاعة الوالدين من أظهر مظاهر برّهما، ولكن تسقط هذه الطاعة وتَحْرُمُ إذا كانت في معصية الخالق الله جلّ جلاله، لأن طاعته فيما يأمر به وينهى عنه مقدم على طاعة ما سواه، إذا تعارضت الطاعتان. ولكن سقوط طاعة الوالدين في هذه الحالة مقصور عليها لا يعني سقوط حقوق الوالدين الأخرى في غير مجال معصية الخالق، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ أي: إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلاتقبل منهما ذلك، ولايمنعْك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً لهما، قائماً بما يحتاجانه منك في أمور حياتهما ومعاشهما[1653]، والآية دليل صلة على الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وبخدمتهما وإلانة القول لهما وبدعائهما إلى الإسلام برفق[1654]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ أي:

(١٦٥٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٩٥.

(١٦٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٧٨٨.

(١٦٥٢) سورة لقمان الآية ١٥.

(١٦٥٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥.

(١٦٥٤) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٩٦، تفسير القرطبي ج١٤ ص٦٥.

اتبع سبيل من رجع إلى الله، أي رجع إلى الله بالتوحيد والإخلاص في الطاعات وعمل الصالحات وهم المؤمنون، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾: كناية عن الجزاء على الأعمال في الآخرة(١٦٥٥).

٧٩١- لا يخفى على الله شيء ويحاسب عليه:

قال لقمان في وعظه ووصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾(١٦٥٦) أي أن السيئة أو الحسنة التي تصدر عن الإنسان مهما كانت صغيرة، حتى لوكانت في الصغر كحبة الخردل، ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر، في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ أي: يحضرها ويحاسب عليها يوم القيامة. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي: ينفذ علمه وقدرته في كل شيء، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي: يعلم كنه الأشياء فلا يعسر عليه إحضار شيء والمحاسبة عليه، كقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(١٦٥٧).

٧٩٢- الأمر بالصلاة وبأمور أخرى:

وقال لقمان في وصيته لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(١٦٥٨)، ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: بحدودها وأركانها وأوقاتها، ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أي: بقدر طاقتك وجهدك، ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بدّ أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر. وقوله: ﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس من معزومات الأمور ومفروضاتها التي فرضها الله(١٦٥٩).

(١٦٥٥) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٩٩-٢٠٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٥.
(١٦٥٦) سورة لقمان الآية ١٦.
(١٦٥٧) تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٠٠.
(١٦٥٨) سورة لقمان الآية ١٧.
(١٦٥٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٤٦، تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٩٦-٤٩٧.

٧٩٣- النهي عن الكبر:

وقال لقمان في وصيته لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾(١٦٦٠).

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تعرض بوجهك عنهم إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه الترمذي «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق...». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: خيلاء متكبراً. ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: توسط بين الدبيب والإسراع. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقص من رفعه فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس، فإن أنكر الأصوات أي: أوحشها لصوت الحمير(١٦٦١).

(١٦٦٠) سورة لقمان، الآيتان ١٨، ١٩.

(١٦٦١) تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٠١-٢٠٢.

المبحث الثاني
المستفاد من وصية لقمان لابنه

٧٩٤- فوائد كثيرة في وصية لقمان لابنه:

يستفاد من قصة لقمان ووصيته له، أنه لم يترك ولده بلا عناية ولا توجيه، وإنما وعظه وعلمه مما يحتاجه وينتفع به، فتربية الآباء لأولادهم من الواجبات الشرعية عليهم. كما أن وصية لقمان لابنه شملت أمور العقيدة والعبادات والأخلاق وأمور المعاملات. كما أن وصية لقمان أشارت إلى وجوب أداء الحقوق إلى أهلها مرتبة حسب أولويتها. ويستفاد أيضاً منها حدود الطاعة الواجبة أو المحرمة للغير. ونتكلم عن هذه الأمور كما يلي:

٧٩٥- أولاً- عناية الآباء بأولادهم:

إن مما يجب على الدعاة ملاحظته والعناية به ضرورة عنايتهم بأولادهم؛ لأن أولادهم أولى الناس وأحقهم بعناية آبائهم: بتعليمهم ما يحتاجونه من أمور الدين وأحكامه، فليس من المقبول أن يعظ الدعاة الناس ويتركوا وعظ أولادهم وإرشادهم. وهذا التقصير من الدعاة نحو أولادهم ونحو أهليهم بصورة عامة أمرٌ مُشاهَد في كثير من الدعاة، مع أن الله تعالى أمر المسلمين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾، ووقايتهم من النار تكون بتعليمهم ما يحتاجون معرفته من أمور الدين ومراقبتهم في تطبيق ما تعلموه. كما أن على الدعاة تذكير الناس في خطبهم ودروسهم واجبات الآباء نحو أولادهم من جهة تربيتهم التربية الإسلامية. وياحبذا لو جعل الآباء في منهجهم في تربية أولادهم وتعليمهم مفردات وصية لقمان لابنه.

٧٩٦- ثانياً- ما يشمله تعليم الآباء للأبناء:

وتعليم الآباء لأولادهم، ذكوراً كانوا أو إناثاً، يشمل أمور العقيدة الإسلامية، والعبادات التي أمر بها الإسلام، وكذلك الأخلاق التي أمر بالتحلي بها، ونبذ

الأخلاق الرديئة التي أمر بالتخلي عنها.

فمن أمور العقيدة توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتعليمهم أن الله مطلع على أعمالهم لا يخفى عليه شيء، وأنه تعالى يحاسبهم عليها وإن كان عملهم بالغ الصغر كحبة الخردل، كذلك يجب على الآباء أن يربوا أولادهم على الشعور بمسؤولية المسلم عن صلاح وإصلاح المجتمع الذي يعيشون فيه، ويتم هذا بتعليمهم ما أوجبه الله على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلٌ حسب قدرته واستطاعته، وأن يحثوهم على الصبر على ما ينالهم من أذى وهم يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن هذا الأذى محتمل الوقوع، ولذلك أمر لقمان ابنه بالصبر على ما يصيبه من أذى الغير إذا قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يعني أن الإسلام لا يكتفي بصلاح الفرد بنفسه ولكن يريده أيضاً مصلحاً لغيره. وأن يعلموهم أن من مستلزمات قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقلعوا عن كل خلق ذميم ويتحلوا بكل خلق شرعي، لأن الغير ينظرون إلى الإسلام من خلال المسلمين وسلوكهم وأخلاقهم. فعلى الدعاة أن يبينوا هذه المعاني للناس ويعملوا بها نحو أولادهم ولا يغفلوا عنها.

٧٩٧- ثالثاً- ترتيب الحقوق والواجبات:

ومما يستفيده الدعاة مما جاء في قصة لقمان أو يتعلق بها ترتيب الحقوق والواجبات من حيث أولوياتها عند التطبيق والتنفيذ، ونستفيد هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فالشكر أولاً لله؛ لأنه هو المنعم الأول، ثم للوالدين وهما المنعمان التاليان، ثم حق الأم مقدم عند التزاحم على حق الأب. فعلى الدعاة ملاحظة الترتيب في الحقوق والواجبات، فليس السابق في الدعوة كالجديد فيها، وليس المُمتَحن بالدعوة المُجرَّب في السراء والضراء مثل الذي لم يمتحن بمتطلبات الدعوة. وإذا لم يتساووا فيما ذكرنا، فلا يتساوون في حقوقهم وواجباتهم عند الجماعة المسلمة جماعة الدعاة، فيجب عليها تنزيل أتباعها منازلَهم من حيث الحقوقُ والواجباتُ.

٧٩٨- رابعاً- حدود الطاعة الواجبة والمحرمة:

ويستفاد مما جاء في الوصية بالوالدين ضمن وصية لقمان لابنه، أن للوالدين حق

الطاعة على ولدهما إلا إذا كانت الطاعة في معصية الخالق، وهذا مفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا . . . ﴾، فإذا أمر الوالدان ولدهما بما هو محظور شرعاً كالشرك بالله حرم على الولد طاعتهما، أما إذا أمر الوالدان بما هو مباح وجبت طاعتهما. وقياساً على ذلك فإن للجماعة المسلمة -جماعة الدعاة- حق الطاعة على منتسبيها في حدود المعروف شرعاً، ولا طاعة لها إذا أمرت بما ليس بمشروع.

الفصل الثامن عشر
قصة ذي القرنين
المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٧٩٩- من هو ذو القرنين:

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا..﴾[١٦٦٢] ولكن النص لم يذكر لنا من هم الذين سألوا هذا السؤال؟ هل هم اليهود أم هم بعض مشركي قريش؟ كما جاء في بعض الروايات، أم غيرهم؟، لا ندري على وجه التحقيق من الذي سأل هذا السؤال، ولكن المعرفة به لا تزيد شيئاً في دلالة القصة - ثم إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه. وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان[١٦٦٣]. ولم يذكر لنا القرآن سبب تسميته بذي القرنين، ولكن جاء في بعض الروايات أنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما[١٦٦٤].

٨٠٠- هل كان ذو القرنين نبياً؟

قال البعض: كان عبداً صالحاً ملكاً أعطاه الله العلم والحكمة والتمكين في الأرض ولم يكن نبياً. وقال البعض الآخر: كان نبياً[١٦٦٥]. والحقيقة لا يوجد في

(١٦٦٢) سورة الكهف، الآية ٨٣.

(١٦٦٣) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٨٩.

(١٦٦٤) تفسير ابن عطية ج٩، ص٣٨٥.

(١٦٦٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٤٣.

القرآن تصريح بنبوته، ولكن يوجد تصريح بصلاحه وبإيمانه بالله وباليوم الآخر كما سيأتي بيانه فيما بعد.

٨٠١- التمكين لذي القرنين في الأرض:

قال تعالى عن تمكينه لذي القرنين في الأرض: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[١٦٦٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالقوة والرأي والتدبير والسعة في المال والاستظهار بالعدد، وأعطاه الله ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب، ويسرّ له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران والسلطان، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه. والسبب ما يُتوصَل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة[١٦٦٧].

٨٠٢- وصوله إلى مغرب الشمس:

أراد ذو القرنين بلوغ مغرب الشمس ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[١٦٦٨] يوصله إليه فبلغه[١٦٦٩]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[١٦٧٠] ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق وهو يختلف بالنسبة للمواضع، فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل، وفي بعض المواضع يرى الرائي أنها تغرب في الماء كما في المحيطات. والظاهر أن ذا القرنين غربَّ حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي - وكان يسمى بحر الظلمات- فرأى الشمس تغرب فيه. والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ. وتوجد البرك وكأنها عيون الماء فرأى الشمس تغرب هناك و ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[١٦٧١].

(١٦٦٦) سورة الكهف، الآية ٨٤.
(١٦٦٧) تفسير القاسمي ج١١ ص٨٣.
(١٦٦٨) سورة الكهف الآية ٨٥.
(١٦٦٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٤٣.
(١٦٧٠) سورة الكهف الآية ٨٦.
(١٦٧١) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٩١.

٨٠٣- ماذا وجد ذو القرنين عند مغرب الشمس؟

قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾[١٦٧٢] أي: ووجد عند العين الحمئة التي رأى ذو القرنين الشمس تغرب فيها، قوماً أي: أمة من الأمم الكافرة. وقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكنّهُ وحكمّه فيهم، وخيرّه إن شاء قتل وسبى وإن شاءَ منَّ أو فدى. وقال الطبري خيرّه فيهم إذا ظلوا على كفرهم بين قتلهم أو أسرهم[١٦٧٣].

٨٠٤- حكم ذي القرنين فيمن وجدهم عند مغرب الشمس:

قلنا: إن الله تعالى خيرَّ ذاَ القرنين فيما يفعله في الأمة الكافرة التي وجدها عند مغرب الشمس، أما الحكم الذي اختاره ذو القرنين فهو ما جاء في قوله الله حكاية عن قول ذي القرنين: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾[١٦٧٤]. ومعنى ذلك أنَّ ﴿ مَن ظَلَمَ ﴾ أي: استمر على كفره وشركه ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ أي: بالقتل ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً لم يعهد مثله[١٦٧٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾[١٦٧٦] أي: من آمن بأن تابعنا على ما ندعو إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي: معروفاً[١٦٧٧].

٨٠٥- ذو القرنين يصل إلى مطلع الشمس:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾[١٦٧٨]. يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها،

(١٦٧٢) سورة الكهف الآية ٨٦.

(١٦٧٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٢، تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٩٧.

(١٦٧٤) سورة الكهف الآية ٨٧.

(١٦٧٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٢.

(١٦٧٦) سورة الكهف الآية ٨٨.

(١٦٧٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٢.

(١٦٧٨) سورة الكهف الآيتان ٨٩، ٩٠.

ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حرّ الشمس(١٦٧٩).

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾(١٦٨٠). قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ﴾أي: أمرُ ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك. أو كذلك أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من الحكم المتقدم، ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي: علماً، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منه شيء(١٦٨١).

٨٠٦- ذو القرنين يصل إلى بين السدين:

قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾(١٦٨٢). قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب. قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾وهما جبلان بينهما فجوة أو ثغرة أو ممر. قوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، أي: وجد ذو القرنين من وراء السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً؛ لاختلاف لغتهم عن لغات غيرهم لكنهم فهموا بالترجمة أو بالإشارة أو بوسيلة أخرى(١٦٨٣).

٨٠٧- إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾(١٦٨٤) أي: قال أولئك القوم الذين وجدهم ذو القرنين وراء الجبلين، قال أولئك القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في أرضهم ويهلكون الحرث والنسل، وعرضوا عليه خرجاً أي: أجراً عظيماً، أي: مالاً كثيراً يجمعونه من أموالهم ويقدمونه له حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، أي: حاجزاً يمنع خروجهم إليهم.

(١٦٧٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٣.
(١٦٨٠) سورة الكهف الآية ٩١.
(١٦٨١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٣.
(١٦٨٢) سورة الكهف الآيتان ٩٢، ٩٣.
(١٦٨٣) تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٠١، تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٣.
(١٦٨٤) سورة الكهف الآيتان ٩٤، ٩٥.

فقال ذو القرنين رداً على ما عرضوه عليه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والمال والتمكين خير لي من المال الذي تريدون جمعه لي، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وبآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: حاجزاً حصيناً[1685].

٨٠٨- ذو القرنين يبني السدّ لمنع فساد يأجوج ومأجوج:

وبعد تلك المحاورة بين ذي القرنين وبين أولئك المتضررين من يأجوج ومأجوج، قال لهم ذو القرنين: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[1686]. ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ﴾ أي: قطعه، وكوّمها في الفتحة بين الجبلين فأصبحا كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم من قطع الحديد بينهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، وأصبح الركام من قطع الحديد بمساواة قمتي الجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: قال ذو القرنين: انفخوا على النار لتسخين الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار بالإحماء لشدة توهجه وإحمراره، ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: نحاساً مذاباً يتخلل الحديد ويختلط به فيزيده صلابة فيتدعم به البناء ويشتد[1687].

٨٠٩- عجز يأجوج ومأجوج عن اقتحام السدّ:

قال تعالى عن يأجوج ومأجوج وعجزهم عن اقتحام السدّ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[1688] وبذلك الذي فعله ذو القرنين التحم الحاجزان -الجبلان- وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه بالصعود؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾؛ لثخنه وصلابته[1689].

٨١٠- ما قاله ذو القرنين بعد بناء السدّ:

قال تعالى حكاية عما قاله ذو القرنين بعد فراغه من بناء السد: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي

(١٦٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٤، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٦.

(١٦٨٦) سورة الكهف الآية ٩٦.

(١٦٨٧) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٩٢-٢٢٩٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٦-٨٧.

(١٦٨٨) سورة الكهف الآية ٩٧.

(١٦٨٩) تفسير سيد قطب ج٤ ص٢٢٩٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٧.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّٗا﴾[1690] أي لما فرغ ذو القرنين من بناء السدّ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث والفساد في الأرض، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخراب السدّ ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أي ساواه بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ أي كائناً لا محالة[1691].

وهكذا لم يأخذ ذا القرنين البطرُ والغرورُ وهو ينظر إلى السدّ العظيم الذي بناه، وإنما ذكر ربّه وقال: إن هذا الذي تمَّ من بناء السد هو محض رحمة من الله بالناس، وما هو إلا سبب بإيجاده، وفوض إليه الأمر وأعلن ما يؤمن به من أنَّ الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً[1692].

إن تذكر المسلم فضل الله عليه عند قيامه بعمل عظيم، أو عند ظفره بنجاح كبير، هذا التذكر ينفي عنه الغرور، والعجب بالنفس، والتكبر على الناس، وكل هذه الأوصاف رذائل تفسد العمل وتمحق بركته. وسأتكلم عن هذه المسألة عند الكلام على ما يستفاد من قصة ذي القرنين للدعوة والدعاة إن شاء الله تعالى.

(١٦٩٠) سورة الكهف الآية ٩٨.

(١٦٩١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٠٥، تفسير القاسمي ج١١ ص٨٧.

(١٦٩٢) تفسير سيد قطب ج٤، ص٢٢٩٣.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة ذي القرنين للدعوة والدعاة

٨١١- في قصة ذي القرنين فوائد كثيرة:

في قصة ذي القرنين فوائد وعبر كثيرة للدعوة والدعاة منها:

أولاً- التمكين في الأرض من نعم الله على عبده.
ثانياً - الخروج لقمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض.
ثالثاً - التفريق بين المسيء والمحسن في المنزلة والجزاء.
رابعاً - مساعدة المظلومين.
خامساً - دفع الشر بأيسر ما يندفع به.
سادساً - تذكر فضل الله عند القيام بالعمل الصالح.

ونتكلم فيما يلي بإيجاز عن هذه الفوائد والعبر المستفادة من قصة ذي القرنين.

٨١٢- أولاً- التمكين في الأرض من نعم الله على عبده:

امتن الله على عبده ذي القرنين بالتمكين في الأرض وبإيتاء الله له من كل شيء سبباً. وقد ذكرنا أقوال المفسرين بالمقصود بالتمكين، وأن من معانيه القوة وتولي الحكم و السلطة والغلبة على الأعداء. كما بينا المقصود بإيتاء الله له من كل شيء سبباً، وهو إعطاء الله ما يتوصل به ذو القرنين من علم وغيره إلى مقصوده. فلا يضير الجماعة المسلمة أن تتطلع إلى الحكم والسلطة لتنفذ حكم الشرع وتعلي كلمة الله في الأرض كما فعل ذو القرنين؛ لأن الحكم وتوليه نعمة، والتطلع إلى نوال نعمة الله أمر مشروع. ولكن يجب على الدعاة وجماعتهم أن يحققوا لأنفسهم وفيمن حولهم أسباب التمكين لتحصيل العلم وتكثير عددهم ومؤيديهم والمنتسبين إلى جماعتهم. كما أن على الدعاة أن يبينوا للمسلمين في وعظهم وإرشادهم وإلقاء الدروس والمحاضرات لهم، أنَّ عليهم أن يسعوا إلى تحصيل معاني التمكين وأسبابه من قوة وعلم ووعي ديني واعتصام بحبل الله المتين، وبا،لوحدة فيما بينهم، وبتكثير سواد

العاملين للإسلام وهم الدعاة وذلك بالإنتماء إلى جمعيتهم. وعلى الدعاة أيضاً أن يوجهوا نصحهم إلى ولاة المسلمين وحكامهم، بأن يعملوا ما يؤهلهم إلى الظفر بنعمة الله بالتمكين في الأرض، وعلى رأس هذا العمل المطلوب منهم الالتزام بشرع الله إيماناً به وتطبيقاً له، مع الأخذ بوسائل القوة المادية المختلفة.

٨١٣- ثانياً- الخروج لقمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض:

الحاكم الصالح يسعى إلى قمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض، فلا يكتفي بالبقاء في بلده ما دام يستطيع الخروج إلى خارجه، كما فعل ذو القرنين حيث سار غرباً وشرقاً للقضاء على الفساد في الأرض وإعلاء كلمة الله فيها. وعلى هذا فإن الحاكم المسلم إذا أوتي قوة كافية فعليه الخروج والزحف إلى الدول الكافرة وإخضاعها إلى حكمه، إن هي رفضت الإسلام، فما ينبغي للكفر والكافرين أن يحكموا ويتحكموا في رقاب العباد، ولأن حكم الطواغيت في الأرض منكر عظيم، ومن واجب الحاكم المسلم ودولته المسلمة إزالة هذا المنكر، وإزالته من مظاهر الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته في الأرض، فعلى الدعاة تبيين هذه الحقيقة للناس وللحكام، لأنها من معاني الإسلام الذي يدعون إليه.

ويستفاد أيضاً من خروج ذي القرنين من بلده وتنقله في الأرض لنشر العدل والحق، وقمع الكفر وأهله، أن على الدعاة المسلمين أن يخرجوا إلى كل مكان يمكنهم الوصول إليه لتبليغ الناس معاني الدعوة الإسلامية. وما ينبغي للدعاة البقاء في أماكنهم ينتظرون مجيء الناس إليهم ليبلغوهم الدعوة، فإن من حق المدعوين أن يأتيهم الدعاة كما كان يفعل ﷺ حتى إنه انتقل إلى الطائف يبلغ أهلها دعوة الإسلام.

وعلى حكام المسلمين أن يمكّنوا الدعاة من التنقل في أرجاء بلدهم ليقوموا بنشر الدعوة بين المسلمين؛ لأن منعهم يدخل في مفهوم الصد عن سبيل الله. وعلى الدعاة تذكيرهم بواجبهم في نشر الدعوة، وإذا لم يستطيعوا -أي الحكام وولاة الأمر- ذلك بأنفسهم، فليرسلوا الدعاة إلى كل مكان في بلادهم وفي خارج بلادهم، وهذا بعض ما يجب على ولاة أمر المسلمين، وإذا قصروا في هذا الواجب فعلى الدعاة أن يطلبوا من عموم المسلمين القيام بهذا الواجب بالعمل على إيجاد

القادرين على نشر الدعوة، وتعليم الناس أحكام الإسلام بإيجاد المعاهد الإسلامية التي يتخرج فيها العلماء والدعاة.

٨١٤- ثالثاً - التفريق بين المسيء والمحسن في المنزلة والجزاء:

ومن السياسة الرشيدة للحاكم الصالح التي يستفيدها الدعاة من قصة ذي القرنين ويشيعونها بين الناس ويذكّرون حكام المسلمين بها هي: التفريق بين المسيء والمحسن، وبين الظالم والعادل، فالظالم ينبغي أن ينال ما يستحق من ردع وزجر وعقاب، والمحسن ينبغي أن ينال ما يستحق من تكريم وجزاء حسن، وهذه السياسة هي التي أعلنها ذو القرنين وأخبرنا الله بها، ولم ينكرها، فدلّ على رضاه تعالى عليها، قال تعالى مخبراً عنها: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾(١٦٩٣).

والحقيقة أنَّ ما فعله ذو القرنين وأعلنه من سياسته الرشيدة في الحكم، هو بعض ما أَمَرَتْ به الشريعة الإسلامية، وأخبرتنا به باعتباره من سنة الله التي لا تتبدل، قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾(١٦٩٤)، وقد دلت هذه الآية على أن الله تعالى قد نفى المساواة بين المؤمنين والكفار، وبين المتقين والفجار، فلا تساوي بينهم في الجزاء في الآخرة، ولا مساواة بينهم أيضاً في الدنيا(١٦٩٥).

ومن أثر هذه السياسة الرشيدة في الحكم، أن الصالحين المحسنين يجدون التكريم والكرامة من الحكام، ومن مظاهر تكريمهم إنزالهم المنزلة التي يستحقونها، ومن هذه المنزلة تقريبهم إليهم والاستماع إلى نصحهم ومشورتهم. أما الظالمون المعتدون فلا يلقون من الجزاء إلا ما يستحقون، ومن هذا الجزاء العقاب، ومن عقابهم أيضاً إبعادهم عن منازل المسؤولية وعدم إناطة وظائف الدولة بهم وعَدَمَ تقريبهم من ذوي الحكم والسلطان. وبهذه السياسة تستقيم الأمور وتنصلح الأحوال، ويروج سوق العدل والإحسان، ويكسد سوق الظلم

(١٦٩٣) سورة الكهف الآيتان ٨٧، ٨٨.

(١٦٩٤) سورة ص الآية ٢٨.

(١٦٩٥) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج٤ ص١٦٣٤.

والطغيان. فعلى الدعاة أن يذكّروا الحكام بهذه المعاني، وهي بعض ما تشتمل عليه السياسة الرشيدة في الحكم في المنظور الإسلامي. كما أن على الجماعة المسلمة -جماعة الدعاة- أن تنزّلَ منتسبيها منازلهم التي يستحقونها، وأن تؤاخذ المنحرف من منتسبيها بما يستحقه من نصح وإرشاد وتقويم، ثم إنذار ثم توبيخ ثم إبعاد، إن لم تفد معه وسائل الإصلاح؛ لأنه ليس من حق الجماعة أن تتستر على من يعتبر من منتسبيها، تتستر على اعوجاجه وانحرافه؛ لأن هذا يسيء إلى سمعتها وثقة الناس بها وبالتالي يؤدي إلى العزوف عنها، وهذا لا يجوز في شرع الله، فلا يجوز سببه وهو إغضاء الطرف عن المنحرف من منتسبيها. وكما أن الجماعة تعامل المسيء من منتسبيها بما يستحقه من المعاملة، فإنها تعامل المحسنين من أعضائها بما يناسب إحسانهم من تكريم وزيادة ثقة بهم وإناطة أعمال بهم.

٨١٥- رابعاً- مساعدة المظلومين:

ومما يستفاد من قصة ذي القرنين: وجوب مساعدة المظلومين من قبل القادرين بلا أجر على هذه المساعدة، إكتفاء بما أنعم الله به على القادرين من مال ونحوه مما يُحتاج إليه في إعانة المظلومين. فقد رأينا أن ذا القرنين استجاب للقوم في طلبهم منه بناء السدّ، لتخليصهم من اعتداءات وهجمات يأجوج ومأجوج عليهم، وأنهم عرضوا على ذي القرنين أن يقدموا له عوضاً عن بناء السد مالاً كثيراً، فرفضه ذو القرنين وقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . . .﴾. ولكن لا مانع من أن يطلب منهم أن يعينوه بما يستطيعونه لإنجاز ما طلبوه منه، مما يدفع عنهم ظلم الظالمين، ولذلك طلب منهم ذو القرنين أن يعينوه بقوتهم البدنية وبما يقدمونه من لوازم بناء السدّ، قال تعالى مخبراً عما طلبه منهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . . .﴾[١٦٩٦]، فعلى الدعاة أن يمدوا يدّ العون إلى المظلومين والمعتدى عليهم، لدفع الظلم والاعتداء عنهم بكل وسيلة ممكنة لديهم، إما باستعمال جاههم ومنزلتهم، وإما بنصح الظالمين وتحذيرهم من غضب الله وتذكيرهم بسوء عاقبة الظالمين، أو باستعداء السلطة الحاكمة على هؤلاء الظالمين، أو بعمل مادي يزيل الظلم عن

(١٦٩٦) سورة الكهف الآيتان ٩٥، ٩٦.

المظلومين كما في العمل المادي لذي القرنين حيث بنى لهم السدّ. ولا مانع أن يطلب منهم ما يقدرون على فعله وتقديمه لإنجاز ما يندفع به عنهم الظلم والاعتداء. ولكن لا يجوز للدعاة أن يأخذوا أجراً لأنفسهم على عملهم ما داموا مستغنين عنه.

٨١٦- خامساً- دفع الشر بأيسر ما يندفع به:

ويلاحظ في بناء السدّ لدفع شر يأجوج ومأجوج، أن ذا القرنين سلك هذا المسلك، وهو بناء السدّ، لأنه يحقق دفع الشر والضر المتأتي من يأجوج ومأجوج عن أولئك القوم المستضعفين، ولم يسلك ذو القرنين وسيلة قتال يأجوج ومأجوج. وهذا قد يكون مرده أن قتالهم لا يستأصل قدرتهم على العدوان، أو أن مفاسده أكثر من مصالحه، أو لأن بناء السدّ يكفي لتحقيق مقصود المستضعفين وهو منع هجمات يأجوج ومأجوج عليهم، وهذا هو المطلوب وهو مقصودهم. ويستفاد من ذلك أن على الدعاة أن يدفعوا الشر والضر والأذى والمعوقات عنهم وعن الدعوة بأيسر الوسائل وأهونها، وبما لا يشغلهم عن الدعوة. وعلى الدعاة أيضاً أن لا يبخلوا على المظلومين في مساعدتهم لهم، بل عليهم أن يبادروا إلى هذه المساعدة، تنفيذاً لأمر الشرع بذلك وليكون الله في عونهم، ففي الحديث الشريف «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» أو كما قال ﷺ. وأيضاً فإن إعانة الدعاة للمظلومين وسيلة عملية لتقريبهم من الدعوة وجرهم إليها. وتجد هذه الوسيلةُ سندَها بالإضافة إلى ما قلناه- بدفع الزكاة للمؤلفة قلوبهم.

٨١٧- سادساً - تذكر فضل الله عند القيام بالعمل الصالح:

عندما أنجز ذو القرنين عمله العظيم وهو بناء السدّ، لم يأخذه البطرُ والغرورُ وإضافة هذا الإنجاز العظيم إلى نفسه وعلمه، وإنما ذكر ربه واستحضر فضله العظيم عليه وأن ما حصل على يده هو محض فضل من الله، ورحمة منه لأولئك المستضعفين، لحمايتهم من الاعتداءات، ورحمة بالمعتدين بمنعهم من الاعتداء. فعلى الدعاة أن لا يأخذهم البطر والغرور والعجب بالنفس إذا قاموا بعمل جيد، أو تيسر لهم نجاح في عملهم، أو إذا رأوا إقبال الناس عليهم، وإنما عليهم أن يذكروا فضل الله، وأنه لولا فضلُهُ وتوفيقُهُ لما تيسر لهم أي عمل أو أي نجاح. ليتذكروا

موقف رسولنا الكريم ﷺ وقد يسرَّ الله له فتح مكة، لقد دخلها ﷺ منكساً رأسه تواضعاً منه لله رب العالمين، واعترافاً بفضله. إن على الدعاة أن يتذكروا ذلك. وإياهم ثم إياهم أن يأخذهم العُجْبُ بالنفس ونسيان فضل الله عليهم وتوفيقه لهم فيما أنجزوه من أعمال، أو تَيَسَّرَ لهم من نجاح في دعوتهم.

الفصل التاسع عشر
قصة قارون

المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨١٨- قارون، وبغيه وكثرة أمواله:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ. . . ﴾[١٦٩٧].

قارون من قوم موسى عليه السلام، واختلف الناس في قرابته لموسى، فقيل هو عمه، وقيل هو ابن عمه وقيل ابن خالته، فهو باجماع رجل من بني إسرائيل. وكان ممن آمن بموسى وحفظ التوراة، وكان عند موسى عليه السلام من عبّاد المؤمنين، ثم لحقه الزهو والإعجاب. فبغى على قومه بأنوع البغي، فمن ذلك كفره بموسى، واستخفافه به وبقومه لكثرة ماله وولده، وبظلمه لهم[١٦٩٨]. وبتكبره والاستطالة عليهم[١٦٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ أي: وآتاه الله تعالى من الكنوز أي :من الأموال ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ وهو جمع «مِفتح» وهو ما يفتح به، ﴿ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أي: لَتُنِيء العصبة أي: تميلها بثقلها أو تجعلها تنهض متثاقلة بها. والعصبة هي الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض، وفي عددها أقوال، فقيل: هي من الثلاثة إلى العشرة وقيل: هي أكثر من ذلك[١٧٠٠].

(١٦٩٧) سورة القصص، الآية ٧٦.

(١٦٩٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص٣٢٩، تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٠.

(١٦٩٩) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٥.

(١٧٠٠) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٠-٣١١.

٨١٩- نصيحة المؤمنين لقارون:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[١٧٠١]. ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل، قاله السدّي[١٧٠٢].

أولاً- لا تفرح..

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالحُ قومه فقالوا له على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا يصبْكَ البطر بما أنت فيه من المال[١٧٠٣]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أي: هذا الفرح الذي أنت فيه، فرح البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، ولما في هذا الفرح من دلالة على إيثارك الدنيا على الآخرة والإخلاد إليها[١٧٠٤].

ثانياً- وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب الجزيل في الآخرة. ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح[١٧٠٥]، أي: فلك أن تأخذ من هذه المباحات ما يصلحك ويرفهك[١٧٠٦]. وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم... المنهج الذي يعلق قلب صاحب المال الوفير بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من متاع الدنيا المباح، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفاً[١٧٠٧]، كي

(١٧٠١) سورة القصص الآيتان ٧٦، ٧٧.

(١٧٠٢) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٣.

(١٧٠٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.

(١٧٠٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩، تفسير القاسمي ج١٣ ص٢١٦.

(١٧٠٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.

(١٧٠٦) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٦.

(١٧٠٧) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٧١٠.

لا يزهد الزهد الذي لا معنى فيه إلا الزهد فيما أحلّه الله لعباده من الطيبات، وليس هذا بالزهد المطلوب المشروع.

ثالثاً- وأحسن كما أحسن الله إليك:

وقال تعالى حكاية عن نصيحة المؤمنين لقارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك[١٧٠٨]. أو أطعه واعبده كما أنعم عليك[١٧٠٩].

رابعاً- ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١٧١٠]:

أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله[١٧١١].

٨٢٠- جواب قارون على نصيحة المؤمنين:

قال الله تعالى حكاية عما قاله قارون جواباً على نصيحة المؤمنين من قومه له: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ . . .﴾[١٧١٢] أي هذا الذي أُوتيته من المال إنما حصلت عليه على علم عندي بوجوه التجارة والمكاسب، ولعلمه تعالى باستحقاقي لما حصلتِ عليه من مال، لعلمه تعالى بما عندي من فضل على سائر الناس[١٧١٣].

٨٢١- الرد على جواب قارون:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[١٧١٤] أي كان عليه -أي قارون- أن يعلم بأن الله تعالى قد أهلك من قبله أجيالاً لكفرهم، وكانت أشد منه قوة وأكثر

(١٧٠٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.
(١٧٠٩) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٤.
(١٧١٠) سورة القصص الآية ٧٧.
(١٧١١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣١٩.
(١٧١٢) سورة القصص الآية ٧٨.
(١٧١٣) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٣ وتفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٥.
(١٧١٤) مكرر سورة القصص الآية ٧٨.

مالاً، فهذا هو العلم النافع له المنجي. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يتوقف إهلاك الله لمن استحق الهلاك على سؤالهم ليعتذروا عنها، بل متى حق عليهم الهلاك لكفرهم وإجرامهم أهلكهم الله بغتة بلا معاتبة وطلب عذر(١٧١٥).

٨٢٢- قول أهل الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون:

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(١٧١٦). يقول تعالى مخبراً عن قارون، إنه خرج ذات يوم على قومه في زينةٍ عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس فاخرة عليه وعلى خدمه وحشمه، مغتراً ومعتزاً بهذا الذي عنده، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل ما أوتيه قارون وقالوا: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الدنيا(١٧١٧) وكان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنّوْهُ على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء، كما هو عادة البشر وجرياً على سنن الجبلة البشرية(١٧١٨). والظاهر أنَّ تمنيهم هذا ما كان ينبغي أن يصدر عنهم، بدليل أن الذين أوتوا العلم ردوا عليهم تمنيهم كما نذكره في الفقرة التالية.

٨٢٣- ردّ أهل العلم على المتمنين مكانة قارون:

فلما سمع أهل العلم النافع مقالة أهل الدنيا قالوا: لهم - كما حكى الله تعالى لنا قولهم- :﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾(١٧١٩). وكلمة ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصلها الدعاءُ بالهلاك، ثم استعملت في الزجر والردع والحث على ترك ما لا ينبغي. ومعنى الآية: إن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خيرٌ مما ترون عند قارون. وفي الحديث النبوي الصحيح «يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن

(١٧١٥) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٧١٢، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٧.
(١٧١٦) سورة القصص الآية ٧٩.
(١٧١٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠٠.
(١٧١٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٣٢، تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٧.
(١٧١٩) سورة القصص الآية ٨٠.

سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1720]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ أي: لا يُلقَّى الجنة إلا الصابرون[1721]. أولا يُلقَّى هذه الكلمة التي قالها الذين أوتوا العلم إلا الصابرون. أولا يُلقَّى السيرة أو الطريقة المحمودة وهي الإيمان والعمل الصالح إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي والشهوات[1722].

٨٢٤- التعجيل بعقاب قارون في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[1723]. لما ذكر الله تعالى اختيال قارون في زينته، وفخرَه على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه تعالى خسف به وبداره الأرض: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولا حشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره[1724].

٨٢٥- قول من تمنوا مكانه بعد أن رأوا ما حلّ به:

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1725] أي: أصبح الذين تمنوا منزلة قارون في الدنيا بالأمس، أي: قبل وقوع الخسف بقارون وبداره، أصبحوا أي: صاروا يتندمون على ذلك التمني و ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ وكلمة (وي): حرف تندم، والمتندم من العرب يقول خلال تندمه: وي. وقال الجوهري: وي كلمة تعجب[1726]. وقال الزمخشري: (وي) مفصولة عن كأنَّ وهي

(١٧٢٠) سورة السجدة الآية ١٧.

(١٧٢١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠٠.

(١٧٢٢) تفسير القاسمي ج١٣ ص١٢٧.

(١٧٢٣) سورة القصص الآية ٨١.

(١٧٢٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠٠، ٤٠١.

(١٧٢٥) سورة القصص الآية ٨٢.

(١٧٢٦) تفسير القرطبي ج١٣ ص٣١٨.

كلمة تنبه على الخطأ وتندم: ومعناه أنَّ القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وفي قولهم ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾ وتندموا على ذلك(١٧٢٧). وقال قتادة: معنى ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ أي: ألم تر أنّ(١٧٢٨).

وقوله تعالى: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، فليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه في حال بسطه عليه، ولا بدالٍّ على سخطه في حال تضييقه عليه. فإن الله يعطي ويمنع. ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة. قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به، لأنا وددنا ورغبنا أن نكون مثله، ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يعنون أنه -أي قارون- كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة(١٧٢٩).

(١٧٢٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤٣٤.

(١٧٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠١.

(١٧٢٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٠١.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة قارون للدعوة والدعاة

٨٢٦- في قصة قارون فوائد كثيرة هي:

(أولاً)- الغنى والفقر لا يعنيان رضا الله أو سخطه على عبده.
(ثانياً)- كثرة المال قد توقع صاحبه في البغي والبطر.
(ثالثاً)- المؤمن ناصح أمين.
(رابعاً)- النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم محظور.
(خامساً)- نظر أهل العلم إلى زينة الدنيا وأهلها.
(سادساً)- قد يعجل العقاب على مستحقه في الدنيا.
(سابعاً)- كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

ونتكلم فيما يلي عن هذه الفوائد المستفادة من قصة قارون للدعوة والدعاة:

٨٢٧- أولاً- الغنى والفقر لا يعنيان رضا الله أو سخطه على عبده:

لقد أعطى الله تعالى قارون مالاً كثيراً، كما بينا، ولم يكن ذلك العطاء دليلاً على رضا الله عنه، وقد تجلت هذه الحقيقة لأولئك الذين تمنوا منزلة قارون، عندما خسف الله به وبداره الأرض. فعلى الداعي أن يبين هذه الحقيقة للناس، لأنها من حقائق الإسلام، كما عليه أن يبين للناس أنَّ تضييق الرزق على عبد ما أو فقره لا يعني سخط الله على هذا العبد. إنَّ هذا البيان مهم جداً، فعلى الدعاة أن يوضحوه للناس في محاضراتهم ودروسهم، حتى لا يقعوا في الخطأ، والظنِّ الباطلِ في حكمة الله، وقد يسلمهم هذا إلى الكفر والعياذ بالله. وأرى لتوضيح ما ذكرته أن يبين الدعاة للناس ما يأتي:-

أ- أن الله رب العالمين، وعلى هذا يعطي الله تعالى المال للمؤمن والكافر، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[١٧٣٠]. فالله

(١٧٣٠) سورة الإسراء الآية ٢٠.

يرزق المؤمن والكافر، فالله يمدّ الفريقين: المؤمنين والكافرين ويزيدهم من عطائه، وما كان عطاء الله وفضله ممنوعاً، فلا يمنعه عن عاص لعصيانه[١٧٣١]. وقال الإمام الرازي في هذه الآية: إنه تعالى يمدّ الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد وغيرهما من متاع الدنيا، لأن عطاء الله لا يُمنَعُ عن أحد ولا يُضيَّق على أحد مؤمناً كان أو كافراً، لأن الكل مخلوقون لله[١٧٣٢].

ب- الأموال بذاتها لا تقرب صاحبها من الله تعالى:

قد يرزق الإنسان من الأموال الشيء الكثير والكثير جداً، حسب سنة الله في كسب المال، التي يخضع لها المؤمن والكافر، ويستفيد منها المطيع والعاصي، وعلى هذا فكون الإنسان كثير الأموال لا تجعله هذه الأموال لذاتها قريباً من الله مرضياً عنده، وإنما الذي يقربه من الله ويجعله مرضياً عنده إيمانه وعمله الصالح، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[١٧٣٣].

ج- بسط الرزق وتضييقه وما يدلان عليه:

توسعة الرزق وما يتبع ذلك من كثرة الأموال وصيرورة الإنسان غنياً بالمال، وتضييق الرزق وما يتبع ذلك من قلة المال، وصيرورة الإنسان معدماً فقيراً، لا يدلان أبداً على رضا الله أو محبته للمُوسَّع عليه الرزق، الكثير الأموال، لمجرد كونه على ما وصفنا، كما لا يدلان على سخط الله وبغضه للمضيق عليه الرزق، القليل الأموال، لمجرد كونه على ما وصفنا؛ لأن إيتاء المال الكثير للإنسان أو إيتائِه الشيء القليل منه يحصلان وفق سنة ثابتة في الرزق، أو وفق سنته تعالى في الاستدراج، أو في الابتلاء، أو نحو ذلك من السنن الإلهية التي يخضع لها الإنسان في سائر تصرفاته وما يناله أو يصيبه في الدنيا. ولا يجوز شرعاً للمسلم أن يعتقد أو يظن مجرد ظن أن الغنى والفقر لذاتهما دليلان على رضا الله أو سخطه على عبده، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ

(١٧٣١) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٣٦، تفسير الزمخشري ج٢ ص٦٥٦.

(١٧٣٢) تفسير الرازي ج٢٠ ص١٨١.

(١٧٣٣) سورة سبأ، الآية ٣٧.

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ . . .﴾ إلى آخر الآية[١٧٣٤] فالله تعالى في هذه الآيات ينكر على الإنسان اعتقاده أن توسعة الرزق على الإنسان دليل على إكرام الله، أو اعتقاده أنّ تضييق الرزق على الإنسان دليل على إهانة الله له، فليس الأمر كما زعم أو اعتقد هذا الإنسان، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ،ويمنعه أو يقلله على من يحب ومن لا يحب، والمراد من ذلك طاعة الله في الحالتين: إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر، فبهذا الصبر وذاك الشكر تكون منزلة العبد عند الله وقربه منه[١٧٣٥].

٨٢٨- ثانياً- كثرة المال قد توقع صاحبه في البغي والبطر:

المال وسيلة يتوصل بها إلى تحقيق معظم رغبات الإنسان، فإذا كثر عند الإنسان كثرت عنده وسائل تحقيق رغباته وشهواته ، وقد يؤدي هذا به إلى التكبر على الخلق والاستطالة عليهم بماله، وقد يؤدي به أيضاً إلى الإعجاب بنفسه، وعدم القيام بشكر نعمة المال الذي أوتيه ، وهذا ما حصل لقارون وصار إليه حاله، فقد بغى على قومه بمالِه، وقد أبطره كثرة ما أوتيه من مال فلم يرَ لله فيه عليه من فضل، ومن ثم ادعى أنّه حصل عليه بعلمه فهو صاحب الاستحقاق فيه، وبالتالي لم يقم بشكر الله على نعمة ما آتاه من مال، وهكذا وقع في سوءة البغي والطغيان،وبطر النعمة لتجاوزه قدر نفسه وتجاوزه ما حدّه الشرع. إن المال فتنة، لأن الله يختبر به عباده وكلما زاد المال زادت فتنته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١٧٣٦] ووجه الفتنة في المال أنه يوقع صاحبه في الشح والبخل وعدم القيام بشكره بإخراج حق الله فيه، كما أن كثرة المال تسهل عليه سبل الترف والطغيان وبطر النعمة، فيصير من المترفين الطاغين البطرين، فعلى الدعاة أن يحذروا المسلمين من فتنة المال، ليخرجوا من امتحانه ناجحين إن شاء الله تعالى، وعلى الدعاة وهم يحذرون المسلمين من فتنة المال عليهم أن يذكروهم بقصة قارون، وما حلّ به نتيجة طغيانه وبغيه بماله، فكانت عاقبته كما أخبرنا الله ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. وأن

(١٧٣٤) سورة الفجر، الآيات ١٦-١٨.

(١٧٣٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٠٩.

(١٧٣٦) سورة التغابن الآية ١٥.

يبينوا ويوضحوا للناس في دروسهم بأن المال الذي يصير في أيديهم هو في الحقيقة مال الله، وأنه من رزق الله لهم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1737]. وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾[1738]. وعلى الدعاة أيضاً أن يتلوا على الناس ما خاطب الله به بني إسرائيل وحذرهم منه ونهاهم عنه، ليتعظوا ويعتبروا ويبتعدوا عما نهى الله عنه بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[1739]. وطغيانهم فيما أنعم الله عليهم من رزق أن يتعدوا حدود الله في نعمة الرزق، بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وإنفاقهم المال في المعاصي، وعدم إخراج حقوق الفقراء في هذا المال[1740].

٨٢٩- ثالثاً- المؤمن ناصح أمين:

ذكرنا فيما سبق نصيحة المؤمنين لقارون وهم من قومه، قال تعالى حكاية عن نصيحتهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1741]. فالمؤمنون الصالحون من قوم قارون نصحوه وأمروه ونهوه بما جاء في هاتين الآيتين، فقاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فعلى الدعاة المسلمين أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل صراحة ووضوح، وأن يقوموا بذلك كدعوة عامة بمضمون هاتين الآيتين في دروسهم ومحاضراتهم العامة، وأن يقوموا بهذا الواجب بصورة خاصة لمن يرونه متلبساً بصفات قارون أو ببعضها؛ لأن مضمون هاتين الآيتين من جملة ما جاءت به شريعتنا الإسلامية، فيكون هذا المضمون من جملة موضوع الدعوة التي يقوم الدعاة بتبليغ موضوعها.

(١٧٣٧) سورة النور الآية ٣٣.

(١٧٣٨) سورة المنافقون من الآية ١٠.

(١٧٣٩) سورة طه الآية ٢٢.

(١٧٤٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٧٩.

(١٧٤١) سورة القصص الآيتان ٧٦، ٧٧.

٨٣٠- رابعاً- النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم محظور:

ذكرنا أن أهل الدنيا من قوم قارون تمنوا أن يكون لهم مثل ما أُوتي قارون، فخطّأهم أهل العلم في هذا التمني قائلين لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ...﴾ الآية، ووجه العبرة مما قاله المتمنون وما قاله المعترضون عليهم، أن يعلم دعاة الإسلام أن النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم على وجه الإعجاب بهم والمحبة لهم أمر محظور، لما يؤدي إليه هذا النظر من تأثير في أنفس الدعاة قد ينسيهم ثواب الآخرة ويجعلهم يستصغرون ما عندهم من إيمان، وما ينتظرهم من ثواب عند الله، ويكبرون ويستعظمون ما عند أهل الدنيا، بل وقد يكبرون أهل الدنيا أنفسهم. وقد حذرنا الله تعالى من هذا النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم في خطابه لرسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١٧٤٢] والمقصود بزهرة الحياة الدنيا: زينة الحياة الدنيا. والمعنى: لا تنظر إلى ما عند هؤلاء المترفين من نعم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة[١٧٤٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تمدنَّ نظر عينيك، ومدّ النظر: تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له مثله، كما فعل أولئك الذين نظروا إلى قارون وزينته حين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. ولما كان النظر إلى زخارف الدنيا ومتاعها وزينتها كالمركوز في الطباع، وأن من أبصر منها شيئاً أحبَّ أن يمدّ إليه نظره أي: يطيل النظر إليه ويملأ منه عينيه قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له، ولقد شدد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة والمترفين وعُددهم وألبستهم ومراكبهم ونحو ذلك من متاع الدنيا، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها كأنه يحقق ما يريده هؤلاء الظلمة المترفون عُبَّاد الدنيا[١٧٤٤]، ومن أجل هذه المحاذير في النظر إلى أهل الدنيا وزينتهم جاء النهي

(١٧٤٢) سورة طه الآية ١٣١ .

(١٧٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧١ .

(١٧٤٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٩٧-٩٨ .

عنه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهي عنه»[1745].

٨٣١- خامساً- نظر أهل العلم إلى زينة الدنيا وأهلها:

إن أهل العلم النافع لا ينظرون إلى زينة الحياة الدنيا وأهلها إلا مقروناً بنعيم الآخرة وأصحابِ هذا النعيم، فيصغر في أعينهم ما عليه المترفون وأهل الدنيا من زينتها ومتاعها فلا يتأثرون بها أبداً، كالذي ينظر إلى الحصاة الملونة فيقرنها بالجوهرة النقية فتصغر بعينه الحصاة ولا يغتر بها وبصاحبها. فعلى الدعاة أن يكون نظرهم إلى أهل الدنيا وزينتها نظر أهل العلم الذين قالوا للمتمنين مثل ما أوتي قارون حيث قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنهم استحضروا ثواب الله، ونظروا إليه وهم ينظرون إلى زينة قارون، فاحتقروه واستصغروه ولم يتأثروا به، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة ونظرهم إلى متاع الدنيا وزينتها وأهلها.

٨٣٢- سادساً- قد يعجل العقاب على مستحقه في الدنيا:

الأصل في العقاب لمستحقه أنه يكون في الآخرة، ولكن قد يعجله الله لمستحقه في الدنيا مع ما ينتظره من عقاب الآخرة، كما عجل الله عقاب قارون في الدنيا حيث خسف به وبداره الأرض. وهذا التعجيل إنذار وتحذير قد ينتفع به بعض العصاة فينزجروا عن معصيتهم، وينتفع به ضعاف الإيمان حيث يتقوى إيمانهم، ويتعمق إيمان المؤمنين بما يرونه من عقاب بالمجرمين. ولكن لا يعني هذا أنَّ كل عاصٍ أو كافر ينال بعض العقاب في الدنيا، وإنما يعني أن من سنة الله أنه قد يعاقب بعض المجرمين أو الكافرين متى يشاء وكيف يشاء لحكمة ذكرنا بعض وجوهها. فعلى الدعاة فهم ما قلناه وتوضيحه للناس، حتى لا يلتبس عليهم الأمر، أو يقعوا في الخطأ أو الوهم إذا هم ظنوا أنَّ كل ظالم أو باغ أو كافر أو عاص أو مجرم لا بد أن يصيبه العقاب في الدنيا، فليس في سنة الله في هؤلاء أَنْ ينزّل عليهم العقاب حتماً وعلى جميعهم في الدنيا، وإنما قد يقع على أفراد منهم متى يشاء الله للعبرة

(١٧٤٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٥ ص٣٤٢-٣٤٣.

وللموعظة كما ذكرت.

٨٣٣- سابعاً- كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون:

ذكرنا تمني من تمنى من قوم قارون عندما رأوه وقد خرج عليهم في زينته، وقالوا عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وكان هذا خطأ منهم نبههم عليه أهل العلم النافع. وقد تأكد تنبيه أهل العلم لهم، وتأكد لأولئك المتمنين أنهم كانوا على خطأ في تمنيهم، وأن أهل الإيمان على حق في تنبيههم لهم، وفي تخطئتهم لهم، فأعلنوا ندمَهم، والندمُ توبةٌ، فقالوا وقد رأوا هلاك قارون بخسف الله به وبداره الأرض: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فعلى الدعاة تأكيد هذه المعاني وتكريرها حتى ترسخ في أذهان الناس، وأن يعتصموا بمفاهيم الإسلام، وإذا خرجوا عنها عليهم التوبة والإسراع إليها والالتزام بها.



الفصل العشرون
قصة أصحاب القرية

المبحث الأول

خلاصة قصتهم وتفسير آياتها

٨٣٤- ثلاثة رسل إلى أصحاب القرية:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[١٧٤٦]. الآية خطاب للنبي محمد ﷺ، أمره ربه تعالى أن يضرب لقومه مثلاً بأصحاب القرية[١٧٤٧]. ولم يذكر لنا القرآن الكريم من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية، وعدم إفصاح القرآن الكريم عنها دليل على أنَّ تحديد اسمها ومكانها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة، و في العبرة المقصودة من ضرب المثل بها، ومن ثم فقد أغفل القرآن الكريم ذكر اسمها ومكانها[١٧٤٨]. ومع هذا الإغفال فقد ذهب جمع من المفسرين إلى أنها «أنطاكية» كما ذكر الإمام القرطبي في تفسيره، ولكن ابن كثير شكك في ذلك ورجح أن تكون أنطاكية غير القرية المذكورة في القرآن[١٧٤٩]. ومهما يكن من أمر اسمها ومكانها فالثابت من أمرها أنها قرية بعث الله إليه رسولين -كما بعث الله موسى وهارون رسولين إلى فرعون وقومه - فدعوا أهل تلك القرية إلى عبادة الله وحده، فكذبوهما فشدَّ الله أزرهما وأَمَرَّهما برسول ثالث، وتقدمَ ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من

(١٧٤٦) سورة يس الآيتان ١٣، ١٤.

(١٧٤٧) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٤.

(١٧٤٨) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٩٦١.

(١٧٤٩) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٤، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٩-٥٧٠.

جديد إلى أهل تلك القرية: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾[١٧٥٠]. أي: مرسلون من ربكم يأمركم بعبادته وحده[١٧٥١].

٨٣٥- جواب أهل القرية للمرسلين:

قال تعالى حكاية عما قاله أهل القرية جواباً للمرسلين على دعوتهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾[١٧٥٢]. أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلِمَ لم يوح إلينا مثلكم؟. وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾[١٧٥٣]، ولهذا قال هؤلاء -أصحاب القرية-: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾، رموهم بالتكذيب بحجة أنهم بشر مثلهم[١٧٥٤]. والظاهر أنَّ أهل تلك القرية أنكروا النبوات جملة واحدة بدلالة قولهم كما يحكيه الله عنهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾[١٧٥٥].

٨٣٦- ردّ المرسلين على جواب أهل القرية:

قال تعالى حكاية عما ردَّ به المرسلون على جواب أهل القرية: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[١٧٥٦] أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبَةً عليه، لانتقم منا أشد الانتقام ولكن سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن عاقبة الدار ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: إنما علينا أن نبلغكم ما أُرسلنا به، وهذه هي مهمتنا وهذا هو واجبنا، فإذا أطعتمونا كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة أمركم وعدم استجابتكم لنا[١٧٥٧].

(١٧٥٠) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٨٢، تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٩٦١.
(١٧٥١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.
(١٧٥٢) سورة يس الآية ١٥.
(١٧٥٣) سورة التغابن الآية ٦.
(١٧٥٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.
(١٧٥٥) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٨٣.
(١٧٥٦) سورة يس الآيتان ١٦، ١٧.
(١٧٥٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.

٨٣٧- تَطَيُّرُ أهل القرية بالمرسلين وتهديدُهم بالقتل:

ولم يكتف أهل القرية بتكذيب الرسل، وإنما أعلنوا تطيرهم بهم مع تهديدهم بالرجم حتى الموت، إن لم يكفوا عن دعوتهم، قال تعالى عما قالوه للرسل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(١٧٥٨). ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دعوة الرسل، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن قوم فرعون: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾(١٧٥٩)، وعن مشركي مكة ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾(١٧٦٠). ثم هددوا الرسل بالرجم، أي: بالقتل أو بالرجم بالحجارة، أو بالتعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب(١٧٦١).

٨٣٨- ردّ الرسل على تطير القوم بهم:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾(١٧٦٢). أي قال الرسل لأهل القرية على تطيرهم بالرسل: إن سبب شؤمكم معكم وهو كفركم. أو أسباب شؤمكم معكم وهي كفركم ومعاصيكم. ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ أي: من أجل أنّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتهددتمونا، ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ في العصيان، ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله ولا مِن قِبَلِ تذكيرهم(١٧٦٣).

٨٣٩- مؤمن يدعو قومه إلى اتباع المرسلين:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ

(١٧٥٨) سورة يس، الآية ١٨.

(١٧٥٩) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(١٧٦٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩. والآية من سورة النساء ورقمها ٧٨.

(١٧٦١) تفسير القرطبي ج١٥ ص١٦.

(١٧٦٢) سورة يس الآية ١٩.

(١٧٦٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٧.

مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1764]. وكان من خبر القرية التي جاءها المرسلون والتي نتكلم عنها أن آمن رجل منهم بالمرسلين، فحمله إيمانه على أن يأتي من أقصى المدينة حيث كان مسكنه هناك، ليدعو قومه إلى الإيمان بما آمن به: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنهم على الحق وما جاءوا به هو الهدى والحق، ثم احتج عليهم بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: اتبعوهم فهم لا يسألونكم مالاً على إبلاغكم ما أرسلوا به، فلا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، بل تربحون تدينكم بالدين الحق، فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له[1765].

٨٤٠- أسلوب لطيف في الدعوة:

قال ذلك الرجل المؤمن: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1766]. وبعد أن دعا ذلك الرجل المؤمن قومه إلى الإيمان واتباع المرسلين، تلطف معهم في الدعوة وتحريضهم على الاستجابة، فأبرز كلامه معهم في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ليقبلوا منه، فوضع قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، يدل على ذلك قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، ثم ساق كلامه ذلك المساق تلطفاً منه بهم في الدعوة إلى أن قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾[1767] كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

٨٤١- آلهة المشركين لا تدفع الضرّ عن عبّادها:

وقال ذلك الرجل المؤمن في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1768]. أي إنَّ هذه الآلهة التي تُعبَد من دون الله لا تملك من

(١٧٦٤) سورة يس الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٧٦٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨، تفسير الزمخشري ج٤ ص١٠.

(١٧٦٦) سورة يس الآية ٢٢.

(١٧٦٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٠.

(١٧٦٨) سورة يس الآيتان ٢٣، ٢٤.

الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو، فهل أتخذها آلهة أعبدها من دون الله وهذا حالها من الضعف والعجز؟ إني إذن إذا فعلت ذلك لفي ضلال مبين[(١٧٦٩)].

٨٤٢- إني آمنت بربكم فاسمعون:

ثم قال ذلك الرجل المؤمن لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾[(١٧٧٠)]. أي: فاسمعوا قولي وأطيعوني فيما أمرتكم ونصحتكم به. وقيل لما سمع قومه قوله أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾، أي: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي: إني آمنت بربكم واتبعتكم. ولم يكن له أحدٌ يمنع عنه القتل. وقال قتادة: كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. فلم يزالوا به يرجمونه وهو يقول ذلك حتى مات رجماً بحجارتهم[(١٧٧١)].

٨٤٣- يُبشرَ بالجنة ويتمنى هداية قومه:

قال تعالى مخبراً عن مصيرِ ذلك الرجل المؤمن الذي مات شهيداً برجم قومه له بالحجارة: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾[(١٧٧٢)]. أي لما قُتِلَ قيل له ادخلْ الجنة. وعن قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يُرزَق، لأنه مات شهيداً، والله يقول في الشهداء: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[(١٧٧٣)]. وقيل معناه: البشرى له بدخول الجنة، فلما تحصل له ذلك ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾. تمنى ذلك الرجل المؤمن أن يعلم قومه بذلك، ليكون علمهم بحاله وما آل إليه أمره حافزاً لهم للإيمان بما آمن به، لينالوا ما ناله هو من ثواب الله ودخول الجنة أو البشارة بدخولها. وقال ابن عباس رضي الله عنه: نصح قومه في حياته

(١٧٦٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨.

(١٧٧٠) سورة يس الآية ٢٥.

(١٧٧١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨، تفسير الزمخشري ج٣ ص٧.

(١٧٧٢) سورة يس الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٧٧٣) سورة آل عمران الآية ١٦٩.

بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . .﴾، ونصح قومه بعد مماته بقوله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فرحمه الله ورضي عنه، فقد كان حريصاً على هداية قومه. وفي قول هذا الرجل المؤمن أي في تمنيه أن يعلم قومه بما حصل له من كرامة الله تنبيه شديد على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل والشر والبغي، والسعي لتخليصهم عما هم فيه، ألا يُرَى كيف تمنى ذلك الرجل المؤمن الخير لقتلته والباغين عليه وهم كفرة عبدة أصنام(1774).

٨٤٤- إهلاك أصحاب القرية -قوم الرجل المؤمن:

قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾(1775). يخبر تعالى أنه انتقم من أصحاب القرية -قوم الرجل المؤمن- بعد قتلهم إياه غضباً منه تعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليّه. ويذكر ربنا تبارك وتعالى أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل كان الأمر أيسر من ذلك، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناها بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم(1776). وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة، قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾(1777).

(١٧٧٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧، تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨، تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٨٨.

(١٧٧٥) سورة يس الآيتان ٢٨، ٢٩.

(١٧٧٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٩.

(١٧٧٨) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٢.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة أصحاب القرية للدعوة والدعاة

٨٤٥- يستفاد من قصة أصحاب القرية أشياء كثيرة:

ويستفاد من قصة أصحاب القرية للدعوة والدعاة أشياء كثيرة: (منها): تقوية الداعي بإرسال دعاة آخرين معه، (ومنها): أن تكذيب أهل الحق أسلوب قديم لدفع الدعوة والدعاة، (ومنها): تهديد الدعاة بالقتل أسلوب قديم للظالمين والطغاة، (ومنها): الإيمان يدفع صاحبه إلى الدعوة إلى الله، (ومنها): التلطف في تبليغ الدعوة أسلوب مشروع، (ومنها): حرص الداعي على هداية قومه بالرغم من إيذائهم له، (ومنها): الدعاة لا يأخذون أجرة على دعوتهم، (منها): المعاصي سبب المصائب والنكبات، (ومنها): الهلاك هو عاقبة الرافضين دعوة الحق.

ونتكلم فيما يلي بإيجاز عن هذه الفوائد المستفادة من قصة أصحاب القرية للدعوة والدعاة.

٨٤٦- أولاً- تقوية الداعي بإرسال دعاة آخرين معه:

ذكرنا قوله تعالى عن أصحاب القرية: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[١٧٧٨]. وقوله ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي: فقوينا. والمعنى أن الله تعالى أرسل في أول الأمر رسولين إلى أصحاب القرية، فلما كذبوهما أرسل رسولاً ثالثاً، تقوية للرسولين. فعلم بذلك أن القيام بالدعوة من قبل أكثرَ من واحد مجتمعين تقوية لهم ولموقفهم إزاء المدعوين. ويؤيد ما نقول أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يقويه ويعينه بأخيه هارون، بأن يرسله معه إلى فرعون، فاستجاب الله دعاءه ولم ينكر عليه طلبه ولا تعليل طلبه، بل أقر تعليل طلبه، قال تعالى حكاية عن قول موسى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن

(١٧٧٨) سورة يس الآية ١٤.

يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . .﴾[1779]. ومعنى ﴿ رِدْءًا﴾ أي: معيناً. وقوله تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ تعني: إجابة الله تعالى طلب موسى وإقراره تعالى تعليل موسى لطلبه وهو إعانته بأخيه هارون؛ لأن معنى ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك ونعينك به[1780]. وفي آية أخرى وفيها سؤال موسى ربه أن يعينه بأخيه هارون حيث قال موسى عليه السلام: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾[1781]. والمعنى واجعل لي معاوناً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري أي: ظهري، والمعنى تقوي به نفسي. وعلى هذا فمن المرغوب فيه للجماعة المسلمة أن ترسل أكثر من داعية: اثنين أو ثلاثة، إلى المنطقة أو المناطق التي تريد نشر الدعوة فيها؛ لأن قيامهم بالدعوة مجتمعين تقوية لهم، والمراد بقيامهم بالدعوة مجتمعين حضورهم سوية عند كلام أحدهم بأمور الدعوة، أو يتكلم أحدهم ويكمل الآخر الكلام وهكذا.

٨٤٧- ثانياً- التكذيب لدفع الدعوة والدعاة:

لقد دفع أصحاب القرية دعوة الرسل إليهم بتكذيبهم فيما يدعون إليه، فقد كذبوا الرسولين اللذين أرسلهما الله إليهم، فأرسل تعالى إليهم رسولاً آخر تعزيزاً للرسولين، فكذبوا الجميع، قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[1782]. إن تكذيب الرسل أسلوب قديم أخذت به الأمم الكافرة، لدفع دعوة رسلهم، وبهذا نطق القرآن الكريم في آيات كثيرة (منها) قوله تعالى: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[1783]. (ومنها) قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[1784]. (ومنها): ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

(١٧٧٩) سورة القصص الآيتان ٣٤، ٣٥.

(١٧٨٠) تفسير الزمخشري ج٣ ص٤١٠.

(١٧٨١) سورة طه الآيات ٢٩، ٣١.

(١٧٨٢) سورة يس الآيتان ١٤، ١٥.

(١٧٨٣) سورة ص، ١٤.

(١٧٨٤) سورة فاطر الآية ٢٥.

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ . . ﴾[1785] . وإذا كان التكذيب أسلوباً قديماً لدفع دعوة الرسل، فليس من المستغرب دفع دعوة الدعاة المسلمين من قبل أعدائها، ويظهر تكذيب هؤلاء للدعاة المسلمين تكذيبهم في إخلاصهم للإسلام، وتكذيبهم فيما يدعون من فهم لمعاني الإسلام كإدعائهم بأن الإسلام دين ودولة. . فعلى الدعاة المسلمين أن لا يعجبوا من هذا التكذيب، ولا يحملهم هذا التكذيب على الغضب على المدعوين، لأن الدعاة ليسوا أحسن حالاً من رسل الله ولا أكثر إخلاصاً منهم، ولا أكثر تأييداً من الله، فهم مع هذا كله اتهمتهم أقوامهم بالكذب وواجهوهم بالتكذيب. ثم إن الدعاة بفقههم هذه الحقيقة يدركون مدى ما يبلغ الضلالُ بالإنسان بحيث يجعله يخاصم الدعاة المسلمين ويرميهم بالكذب، وأخيراً فإن فقه هذه الحقيقة لازمة لكل مسلم بلا استثناء، حتى لا يتأثر بتكذيب المكذبين للدعاة المسلمين ودعوتهم بحيث يصدقهم في هذا التكذيب، أو يحمله تكذيبهم على الشك في صدق الدعاة والدعوة، فعلى الدعاة تحذير الناس من ذلك، وكشف زيف وكذب المكذبين في تكذيبهم للدعوة والدعاة.

٨٤٨- ثالثاً- تهديد الدعاة بالقتل أسلوب قديم للطغاة:

من الأساليب القديمة للطغاة التي واجهوا بها الدعاة إلى الله وعلى رأسهم رسل الله إليهم، تهديدهم للدعاة بالقتل وبما دونه من أنواع الأذى كالسجن والتعذيب الجسدي، ومن هذا التهديد، تهديد أصحاب القرية لرسلهم، قال تعالى حكاية عن هــذا التهــديــد: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1786] . وقد بينا معنى هذه الآية وما ينطوي عليه تهديدهم[1787] . فعلى الدعاة المسلمين أن لا يتعجبوا من تهديد الظلمة والطغاة لهم بالقتل أو بالحبس أو بالتعذيب الجسدي أو بمصادرة الأموال، فكل هذا من أساليب الطغاة في القديم والحديث، وإذا كان الأمر كما ذكرنا فعلى الدعاة أن يأخذوا ذلك في حسابهم، ويأخذوا الحذر المشروع من أعداء الدعوة لا سيما الحكام الطغاة. وأقول يأخذوا

(١٧٨٥) سورة الحج الآيتان ٤٢-٤٤.

(١٧٨٦) سورة يس الآية ١٨.

(١٧٨٧) انظر الفقرة ٨٣٧.

بالحذر المشروع، حتى لا يقعوا بالحذر غير المشروع الذي يقعد بهم عن الدعوة بحجة الحذر، ولا أن يتركوا الحذر المشروع بحجة أن هذا من الخوف والجبن، إن على الدعاة أن يصغوا دائماً إلى حكم الشرع فيما يوجبه عليهم أو يندبه إليهم من الأخذ بالحذر المشروع؛ لأن حياتهم هي لله، فلا يجوز أن يعرضوها للتلف أو الأذى، أو تفويت منفعتها للمسلمين في الوقت الذي يسعهم أن يمنعوا ذلك عنها إذا أخذوا بالحذر المشروع.

٨٤٩- رابعاً- الإيمان يدفع صاحبه إلى الدعوة إلى الله:

ذكرنا قوله تعالى عن مؤمن أصحاب القرية: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ . . .﴾[١٧٨٨] الخ الآيتان وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه يدفع صاحبه إلى ما يقتضيه إيمانه أو يستلزمه من دعوة إلى الله وجهاد في سبيله. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويعمقوا معاني الإيمان فيمن يدعونهم، وفيمن ينتسبون وينتمون إلى جماعتهم، جماعة الدعاة، حتى يصيّروهم دعاة إلى الله مثلهم، ولا يكتفوا منهم أن يكونوا صالحين في أنفسهم، بل أن يسعوا إلى جعلهم مصلحين لغيرهم بتعميق معاني الإيمان في نفوسهم.

٨٥٠- خامساً- التلطف في تبليغ الدعوة أسلوب مشروع:

ذكرنا أسلوب الرجل المؤمن في دعوته لقومه حيث أبرز كلامه معهم في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم، ليتلطف بهم ويداريهم ليقبلوا منه، فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وهو يريد بكلامه قومه كأنه يقول لهم: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. والدليل على أن هذا هو مقصده قوله مخاطباً قومه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد بكلامه ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع[١٧٨٩]. فعلى الدعاة ملاحظة ذلك، والأخذ بهذا الأسلوب النافع المشروع: أسلوب التلطف في قيامهم بتبليغ الدعوة إلى الناس.

(١٧٨٨) سورة يس الآيتان ٢٠، ٢١.

(١٧٨٩) انظر الفقرة ٨٤٠.

٨٥١- ما يدخل في مفهوم التلطف:

ويدخل في مفهوم التلطف ومعانيه، أو ما يؤدي إلى التلطف ومعانيه ما يأتي:

أ- لين القول: وهذا ما أمر الله به موسى وأخاه هارون عندما أرسلهما إلى فرعون فقال تعالى مخاطباً موسى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[١٧٩٠]. والقول اللين مثل قوله تعالى الذي أمر به موسى أن يقوله لفرعون، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[١٧٩١]. بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه بالكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله بالمداراة عن تكبره[١٧٩٢].

٨٥٢- ب- مخاطبة الداعي للمدعوين بما يذكرهم برابطته معهم:

فيخاطب الداعي مدعويه بما يثير فيهم الرغبة في الإصغاء إليه، ويلين قلوبهم ويفتحها لسماع قول الداعي، كأن يناديهم برابطة الأبوة فيقول له: «يا أبت» أو يناديه أو يناديهم برابطة أخوة النسب، قال تعالى عن إبراهيم في مخاطبته لأبيه وهو يدعوه إلى الإيمان ونبذ عبادة غير الله: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[١٧٩٣]. ووجه الدلالة بهذه الآيات أن إبراهيم عليه السلام حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه ويدعوه إلى الإيمان بالله وعبادته وحده، تلطف معه بالقول مع المجادلة معه برفق ولين وأدب، ودعوته إلى الحق مترفقاً به، متلطفاً معه، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق،

(١٧٩٠) سورة طه الآيات ٤٢-٤٤.

(١٧٩١) سورة النازعات، الآيات ١٥-١٩.

(١٧٩٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٦٩٥.

(١٧٩٣) سورة مريم الآيات من ٤١-٤٥.

ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي الموصل إلى الله تعالى ورضوانه وثوابه، فاتبعني ولا تستنكف من متابعتي ففيها الخير والنجاة لك.[1794] كما أن إبراهيم عليه السلام كان يخاطبه بكلمة «يا أبت» وظل يكرر هذه الكلمة في كل عبارة يوجهها إليه، زيادة في التلطف مع أبيه وزيادة في لين القول معه. وكذلك كان رسل الله يخاطبون أقوامهم بعبارة «يا قومي» وإبراز علاقته بهم بأنه «أخوهم»، قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1795]أي وأرسلنا إلى عاد ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أي أخاهم في النسب؛ لأنه منهم في قول النسابين، وقيل: الناس كلهم إخوة في النسب، لأنهم ولد آدم وحواء[1796]. ثم في مخاطبة هود لهم بكلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ نوع من التلطف واللين بالقول، لأن هذا النداء أدعى إلى استجابتهم وإلى تحسيسهم بأن الذي يخاطبهم هو واحد منهم في النسب. وأنه لذلك يريد الخير لهم.

٨٥٣- ج- مقابلة القول القبيح بالقول الحسن:

ومما يدخل في مفهوم التلطف بالقول مع المدعوين أن الدعاة لا يقابلونهم بمثل ما يقابلون الدعاة من كذب وافتراء واتهام لهم بالباطل، واستهزاء بهم وبكثير من قلة الأدب في الخطاب، وبالكثير من سيء القول. وإنما يقابل الدعاة المدعوين بالقول الحسن وبأدب جم، وكلام عال رفيع، وبنصح لهم، وشفقة عليهم، يحس به كل متأمل في كلامهم. وهذا ما كان يقابل به رسلُ الله الكرامُ سفاهات أقوامهم، من ذلك قوله تعالى في عاد ورسولهم هود: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً

(١٧٩٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٩.

(١٧٩٥) سورة الأعراف الآية ٦٥.

(١٧٩٦) تفسير القاسمي ج٧ ص١٦٧.

﴿فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1797]. وواضح من هذه الآيات الكريمة كيف أجاب هود على سفاهات قومه وتجاوزهم عليه بالقول البذيء والاتهام الباطل، أجابهم عليه السلام بغاية الأدب والقول الحسن مع إظهار إشفاقه عليهم ونصحه لهم. قال الإمام الزمخشري بصدد هذه الآيات: (وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام- من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنَّ خصومهم أضل الناس وأسفههم- في إجابة الأنبياء هذه أدب حسن وخلق عظيم. وحكاية الله عز وجل ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم)[1798]. إن على الداعي أن يلتزم بهذا الأسلوب في الرد على جهالة الجاهلين من المدعوين، وأن لا تستفزه أكاذيبهم واتهامهم له بالباطل، إنهم مرضى القلوب وجهالتهم نحوه بعض أمراض قلوبهم، فلا تحملْهُ تَصرفاتهم معه أو افتراءاتهم الكاذبة عليه على الغضب والنطق بما لا يجوز أو بما لا يليق بالدعاة، فيكون كلامه معهم من باب الانتصار لنفسه والغضب لها، وليس من باب الانتصار للدعوة أو للغضب لها. إننا نعلم أنَّ هذا شيء ثقيل على نفس الداعي، ولكنه لا بد منه ولا سبيل غيره، وإن مما يسهل عليه سلوك هذا السبيل كمال تجرده لله بالإخلاص الكامل له، واحتساب ما يلقاه من أذى عند الله، إن مهمة الداعي في بث دعوته بين الناس، وترغيبهم فيها، وتخليصهم من الضلال الذي هم فيه، مهمةُ الطبيب الناصح الشفيق، لا تستفزه صيحات المرضى وكرههم رؤية الطبيب، بل ولا يمنعه شتمهم له وطعنهم فيه من الاستمرار على معالجتهم، لأنه يعلم أن هذه الأفعال منهم هي بعض أعراض أمراضهم، والطبيب إنما يريد معالجتهم لا الانتقامَ منهم.

٨٥٤- د- التواضع في التبليغ:

ومما يدخل في مفهوم أو نطاق التلطف في تبليغ الدعوة، التواضع في هذا التبليغ. إن من طبيعة الناس التي جُبِلوا عليها أنهم لا يقبلون قول من يستطيل

(١٧٩٧) سورة الأعراف، الآيات ٦٥-٦٩.

(١٧٩٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص١١٩.

عليهم، ويستصغرهم، ويتكبر عليهم، وإن كان ما يقوله حقاً وصدقاً، إنهم ينفرون من المتكبر الفظ الغليظ، ويغلقون قلوبهم دون كلامه ووعظه وإرشاده، فلا يصل إليها من قوله شيء مؤثر فيهم، بل قد يكون ذلك سبباً إلى كرههم الحق منه ومن غيره. فعلى الداعي أن يفقه ذلك جيداً وليتق ربه ولا يكن سبباً لنفرة الناس من الدعوة. ونزيد هنا شيئاً آخر له علاقة بالموضوع وله أهميته البالغة، ذلك أن من طبائع الناس أنهم لا يحبون من يكثر الحديث عن نفسه، أو يكثر الثناء عليها، أو يكثر من قول: أنا، أنا، ولهذا فعلى الداعي أن يحذر، وأن يكلم المدعوين والناس جميعاً كمبلغ لهم معاني دعوته: معاني الإسلام، لا أن يكلمهم كمبلغ لهم فضله وعلمه. وعلى الداعي أن لا يدعي شيئاً لنفسه يدل على تعاليه واحتقاره لغيره. إن على الداعي أن يعرف يقيناً أنَّ كل ما عنده هو محض فضل الله عليه، فليتحدث إلى الناس وهو بهذا اليقين، يتحدث إليهم بفضل الله لا بفضل نفسه، فإذا عرف الناس منه ذلك فتحوا له قلوبهم أو على الأقل لم يغلقوها دون كلامه، فيقع من معانيه الطيبة النافعة ما يشاء الله تعالى وقوعه.

٨٥٥- سادساً- حرص الداعي على هداية قومه والناس جميعاً:

ذكرنا أن مؤمن أصحاب القرية جاء مسرعاً من أقصى المدينة حيث سكناه هناك، جاء ليدعو قومه إلى الإيمان متلطفاً بدعوته إياهم على النحو الذي فصلناه. إنه مؤمن داعية وحيد، ومع هذا جاء يدعو قومه غلاظ القلوب، فلم ينفع معهم نصحه ولطفه وحرصه على هدايتهم، بل قابلوه بالإنكار وبرميه بالحجارة، قال قتادة: «جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزالوا به وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله»[١٧٩٩]. وحتى بعد قتله تمنى أن يعلم قومه بما أنعم الله عليه من المغفرة والكرامة والجنة، تمنى أن يعلم قومه بذلك ليكون علمهم بما آل إليه أمره سبباً لإيمانهم وعملهم الصالح، لينالوا ما ناله من ثواب الله ودخول الجنة. قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ونصح قومه بعد مماته بقوله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

(١٧٩٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٦٨.

ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[1800]. فعلى الداعي أن يكون حريصاً كل الحرص على هداية قومه أو غيرهم الذين يدعوهم حرصه على هداية أهله. وهذا الحرص يتأتى للداعي من معرفته لربه ومن رحمته بخلقه، فالله تعالى يحب عباده المهتدين وعباده الراجعين إليه بالتوبة النصوح، والداعي يحب ما يحبه الله. وأما رحمة الداعي بالخلق، فإن الرحمة تعني إرادة الخير والنفع والسعيَ لإيصال ذلك إلى من تريد رحمته، وأعظم الرحمة ما كانت أنفع شيء للمرحوم، ولا شك أن أعظم ما ينفع الإنسانَ هدايتُهُ إلى الإسلام وعبادة الله تعالى وحبه واتباع هديه، ففي هذا خلاصه من النار، وظفره برضوان الله ومحبته. فعلى الداعي أن يعمر قلبه بمحبة ما يحبه الله، ويملأ قلبه بالرحمة بخلق الله، وليعلم أيضاً بأن في حرصه على هداية الناس ثواباً كبيراً له، فقد جاء في الحديث الشريف: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها» أو كما قال ﷺ.

٨٥٦- سابعاً- الدعاة لا يأخذون أجراً على دعوتهم:

من شأن رسل الله جميعاً أنهم لا يأخذون أجراً على تبليغهم الناس رسالة ربهم، ويخبرون أقوامهم بذلك، فنوح عليه السلام قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ..﴾[1801]، وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1802]. والحكمة في إعلان رسل الله لأقوامهم أنهم لا يسألونهم أجراً على تبليغهم الدعوة - رسالة الله إليهم - أقول: الحكمة في ذلك الابتعاد عما قد يتشبث به أهل الباطل في إثارتهم الشبهات في وجه الرسل ودعوتهم من أنهم طلاب مال، يريدون بدعوتهم جباية الأموال من الناس، فإذا أعلن رسل الله رفضهم لأي أجر على دعوتهم، انقطع المبطلون عن التقول على الرسل من أنهم طلاب مال. كما أن رسل الله ما كان لهم أن يأخذوا أجراً على تبليغ رسالة ربهم؛ لأن أجرهم على الله الذي أرسلهم. ومن أجل إعلان رسل الله أنهم لا يريدون أجراً، قال مؤمن أصحاب القرية لقومه: اتبعوا هؤلاء الرسل فهم

(١٨٠٠) انظر الفقرة ٨٤٣.

(١٨٠١) سورة هود الآية ٢٩.

(١٨٠٢) سورة سبأ الآية ٤٧.

لا يسألونكم شيئاً من أموالكم كأجر لهم، قال تعالى حكاية عما قاله ذلك الرجل المؤمن لقومه: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، فهم لا يسألونكم مالاً على إبلاغكم ما أرسلوا به. فعلى الدعاة أن يبتعدوا عما يثير الشبهات حول الدعوة، وعما يتشبث به المبطلون، لصرف الناس عن الدعوة، ومن ذلك طلبهم من الناس ما يُعتَبر كأجر لهم، أو فائدة مادية أو معنوية لهم، لأن الشأن في الدعاة تجردهم الكامل عن كل ما يخدش إخلاصهم لله في قيامهم بالدعوة، بل قد يكون من المفيد أو من الضروري للدعاة الترفع عن المباحات كالبيع والشراء وامتهان المهن المشروعة دفعاً لتقول أهل الباطل: إنهم يريدون بدعوتهم محاباة الناس لهم في بيوعهم أو بأشريتهم أو بامتهانهم هذه المهن التي يزاحمون فيها الآخرين أصحاب هذه المهن، حيث يقبل الناس عليهم، ويتركون غيرهم. وما نقوله أمور يقدرها الداعي حسب الظروف والأحوال، فيترك من المباحات كل ما يراه معوقاً للدعوة ولاستجابة الناس إليها.

٨٥٧- ثامناً- المعاصي سبب المصائب والنكبات:

عندما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي ما يصيبنا من بلاء فبشؤمكم وبسبب دعوتكم ووجودكم فيما بيننا، ولكن الرسل ردوا عليهم: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾[(١٨٠٣)]. أي إن رسل الله ردوا على تطيرهم بأن قالوا لهم: إن سبب شؤمكم معكم وهو كفركم ومعاصيكم[(١٨٠٤)]. فعلى الدعاة أن يبينوا للناس هذه السنة الإلهية في المصائب والنكبات التي تصيب الناس، وعلاقَتَها بالذنوب والمعاصي.

وخلاصة القول فيها: إن المعاصي، أي مخالفة شرع الله بارتكاب ما نهى عنه وترك ما أمر به سبب أكيد من أسباب حلول المصائب والنكبات في الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[(١٨٠٥)]. أي ما أصابكم أيها الناس أي من مصيبة من مصائب الدنيا ونكباتها كالقحط والغرق

(١٨٠٣) سورة يس الآية ١٩.

(١٨٠٤) انظر الفقرة ٨٣٨.

(١٨٠٥) سورة الشورى الآية ٣٠.

وتسلط الكفرة والظالمين عليكم وغير ذلك ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب معاصيكم التي فعلتموها ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ أي: ويعفو عن كثير من ذنوبكم ومعاصيكم فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل وآجلاً[1806]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا، وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾)[1807].

٨٥٨- تاسعاً- الهلاك عاقبة الرافضين دعوة الحق:

ذكرنا أن الله أهلك أصحاب القرية، لكفرهم وعنادهم ورفضهم دعوةَ الحق، دعوةَ الرسل، وقتلهم ذلك الرجلَ المؤمنَ لإيمانه، فأهلكهم الله بالصيحة غضباً منه تعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه، الرجلَ المؤمنَ[1808]. فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك للناس، وأن الإعراض عن شريعة الله عاقبته هلاك المعرضين، وأن هلاك الرافضين لشرع الله سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وإن كنا لا نعلم متى يحلّ الهلاك بهم، وما نوع هلاكهم من جهة ما يهلكون به. وقد أشار الله تعالى إلى سنته هذه بآيات كثيرة، على الدعاة أن يتلوها للناس ويبينوا ما قاله المفسرون فيها، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[1809]. أي هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد، أَوَلَمْ يسيروا وينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبيائهم، وما حلّ بهم من العذاب، مع أنهم كانوا أشدّ من هؤلاء قوة وآثاراً في الأرض، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلهم وإعراضهم عن

(١٨٠٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص١١٦، تفسير الرازي ج٢٧ ص١٧٢، تفسير الآلوسي ج٢٥ ص٤٠.

(١٨٠٧) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣١.

(١٨٠٨) انظر الفقرة ٨٤٢.

(١٨٠٩) سورة غافر ٢١.

شريعة ربهم التي أرسل رسله بها، وما كان لهم من الله من واق أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد[1810].

(١٨١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٧٦.

الفصل الحادي والعشرون

قصة أصحاب الكهف

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨٥٩- قصة أصحاب الكهف آية عجيبة:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[١٨١١]. أي: إنهم من بين آياتنا آية عجيبة. و ﴿ٱلْكَهْفِ﴾: الغار الواسع في الجبل و﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: اسم كلبهم. وقيل: لوح فيه أخبارهم وجعل على باب الكهف. وقيل: اسم للجبل. وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف[١٨١٢].

٨٦٠- إجمال قصتهم قبل تفصيلها:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم، لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا منهم، فلجؤوا إلى غار في جبل، ليختفوا عن قومهم فقالوا حين دخلوا سائلين الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً»[١٨١٣]. أو هيء لنا من أمرنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رشداً، حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشداً كله[١٨١٤].

(١٨١١) سورة الكهف الآية ٩.

(١٨١٢) تفسير القاسمي ج١١ ص٩.

(١٨١٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٣.

(١٨١٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٥.

٨٦١- أنمناهم في الكهف سنين عدداً:

قال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ ﴾(١٨١٥) أي: ضربنا على آذانهم حجاباً يمنعها من السمع. يعني أنمناهم نومة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، كما ترى المستثقل في نومه يُصَاح به فلا يسمع ولا يستنبه، ﴿ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: ذوات عدد، أي: كثيرة أو معدودة(١٨١٦).

٨٦٢- إيقاظهم بعد نومهم الطويل:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾(١٨١٧). أي ثم أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى من قبورهم؛ ﴿ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي: أيقظناهم لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع. وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم في الكهف، أشد إحصاءً، أي: أشد إحاطة وضبطا لغاية مدة لبثهم في الكهف فيعلموا المدة التي حفظهم الله فيها بلا طعام ولا شراب، وأَمَّنَهم من عدوهم، فيتم لهم رشدهم في شكره، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته(١٨١٨).

٨٦٣- البدء بتفصيل قصة أصحاب الكهف:

قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾(١٨١٩) هذه الآية شروع في بسط القصة وشرحها. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالأمر المطابق للواقع، يذكر تعالى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ وهم الشباب، ﴿ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي: اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أن لا إله إلا هو، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ بالتوفيق والتثبيت(١٨٢٠).

(١٨١٥) سورة الكهف الآية ١١.

(١٨١٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٥، تفسير القاسمي ج١١ ص١٠.

(١٦٨١٧) سورة الكهف الآية ١٢.

(١٨١٨) تفسير القاسمي ج١١ ص١٠٢.

(١٨١٩) سورة الكهف الآية ١٣.

(١٨٢٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٧.

٨٦٤- وربطنا على قلوبهم:

قال تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[١٨٢١]. قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم والفرار بالدين، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحق والدعوة إلى الله عند مليكهم الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ أي: قاموا بين يديه غير مبالين به وصدعوا بالحق أمامه عندما بلغه خبرهم واستحضرهم أمامه، وسألهم عن أمر دينهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ أي لا نعبد من دونه إلهاً، ولا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً[١٨٢٢].

٨٦٥- إنكارهم على قومهم عبادة غير الله:

قال تعالى حكاية عن إنكار الفتية المؤمنين على قومهم عبادة غير الله: ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[١٨٢٣]. أي: هؤلاء قومنا عملوا لهم آلهة عبدوها من دون الله، ﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي: هلا يأتون على عبادتهم وآلهتم ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي: بحجة بيّنة وبرهان ظاهر، وهو تبكيت لهم، لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال. ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: لا مساوي له في الظلم والكفر، إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان على ما يفعلونه من عبادة غير الله، فهم إذن ظالمون في حق الله؛ لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها[١٨٢٤].

(١٨٢١) سورة الكهف الآية ١٤.

(١٨٢٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٧، تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

(١٨٢٣) سورة الكهف الآية ١٥.

(١٨٢٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٧، تفسير القاسمي ج١١ ص١٣.

٨٦٦- عزلة المؤمن وفراره بدينه من الفتن:

قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾(١٨٢٥). أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ﴿ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مِّرۡفَقٗا ﴾ أي: أمراً ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هرباً من قومهم إلى الكهف فأووا إليه(١٨٢٦).

٨٦٧- رعاية الله للفتية وهم في الكهف:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾(١٨٢٧). أي: إذا ارتفعت الشمس عند طلوعها تزاور، أي: تميل عن كهفهم، أي: عن بابه ذات اليمين، أي: يمين الكهف، وإذا غربت الشمس، أي: هبطت للغروب، تعترضهم ذات الشمال، أي: لا تقربهم وإنما تتجاوزهم شيئاً، ﴿ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ﴾ أي: وهم في متسع من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس. ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ ﴾ أي: أنَّ شأنهم وإرشاد الله لهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، وما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعةً وغاربة، كل ذلك يعتبر آية من آيات الله الدالة على عنايته تعالى بهم، وتوفيقه لعباده المؤمنين. ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ ﴾ أي: من يهده الله إلى الحق بالتوفيق له فهو المهتدِ. وفي هذا ثناء على أولئك الفتية المؤمنين الذين جاهدوا في الله، وأسلموا له وجوههم فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة، وإن كل من سلك طريق المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح. ﴿ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ أي ومن يضله الله فلن تجد له ناصراً يتولى أمره، فيحفظه من الضلال ولا مرشداً يهديه إلى

(١٨٢٥) سورة الكهف الآية ١٦.

(١٨٢٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٥.

(١٨٢٧) سورة الكهف الآية ١٧.

طريق الحق والفلاح[1828].

٨٦٨- عناية الله بالفتية وهم في الكهف:

قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[1829]. ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ خطاب لكل أحد، أي: تظنهم ﴿أَيْقَاظًا﴾؛ لانفتاح عيونهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ مستغرقون في النوم بحيث لا ينبههم الصوت. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ أي: في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾؛ لئلا تتلف الأرض أجسادهم، ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: بفناء الكهف أو بابه. وقد شملت بركتهم كلبهم فأصابه ما أصابهم من النوم علىتلك الحال. قال ابن كثير: وهذا فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقوله تعالى: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: لو اطلعت عليهم فنظرت إليهم مع غاية قوتك في مكافحة الهروب لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً أي: خوفاً يملأ صدرك لما أُلبسوا من الهيبة، فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم وتولى وابتعد عنهم فاراً مما يرى، وذلك كما قال ابن كثير: لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء الله تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة[1830].

٨٦٩- بعثهم بعد نومهم الطويل:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[1831]. أي كما أنمناهم تلك النومة الطويلة، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً تذكيراً بقدرته تعالى

(١٨٢٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٠٨، تفسير القاسمي ج١١ ص١٥.

(١٨٢٩) سورة الكهف الآية ١٨.

(١٨٣٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٦، تفسير القاسمي ج١١ ص١٦.

(١٨٣١) سورة الكهف الآية ١٩.

على الإنامة والموت والبعث. قال ابن كثير وكان ذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، وقوله تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيعتبروا ويستدلوا بذلك على عظيم قدرة الله تعالى، فيزدادوا يقيناً ويشكروا الله على ما أنعم به عليهم. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم رقدتم، ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول النهار واستيقاظهم كان في آخره، ولهذا استدركوا فقالوا أو بعض يوم. ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فوقع في أنفسهم بإلهام من الله أو بقرائن شاهدوها من أحوالهم أن مدة نومهم متطاولة، وأن مقدارها مبهم فأحالوا تعينيها على ربهم، فقالوا: ربكم أعلم بما لبثتم. ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: ﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فلهذا قالوا: ﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: إلى مدينتكم التي خرجتم منها ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعاماً، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، أي: وليتخف في أمره كله بكل ما يقدر عليه، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يعني ولا يفعلنَّ ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بنا أي: العلم بنا. فسمى ذلك إشعاراً منه بهم، لأنه سبب فيه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أهل المدينة ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يعرفوا أو يطلعوا على مكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يقتلوكم برجمكم بالحجارة، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ أي: يدخلوكم ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي في دينهم بالإكراه العنيف ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: إذا صرتم إلى ملتهم لن تفلحوا أبداً(١٨٣٢).

٨٧٠- انكشاف أمر الفتية:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ

(١٨٣٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١٠-٧١١، تفسير القاسمي ج١١ ص١٨.

لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1833]. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيئاتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي: ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أن وعد الله بالبعث بعد الموت حق؛ لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: الموعود فيها بالبعث أي يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي: لا شك فيها. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: أعثرنا عليهم أهل تلك المدينة في ذلك الزمان، حين كانوا يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على بعث الله الموتى بأجسادهم وأرواحهم. ﴿فَقَالُواْ﴾ أي: الناس بعد أن رأوا أصحاب الكهف وكلموهم ثم ماتوا ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: على باب كهفهم أي سدوا عليهم باب كهفهم واتركوهم على حالهم. ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حكاية عن قول المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم، وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم في الكهف، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك، قالوا: ربهم أعلم بهم.. أو هو من كلام الله عز وجل ردٌّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي: قال الذين غلبوا من المتنازعين وهم أصحاب الغلبة ونفوذ الكلمة لنتخذن عليهم مسجداً، أي نصلي فيه تبركاً بهم وبمكانهم[1834]. وهم غير محمودين في بناء المسجد، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يحذِّرُ ما فعلوا، فلا يجوز بناء المساجد على القبور للنهي الصريح الوارد بشأنها[1835].

٨٧١- كم كان عدد أهل الكهف؟

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ

(١٨٣٣) سورة الكهف، الآية ٢١.

(١٨٣٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١١.

(١٨٣٥) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٧٩، تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٨، تفسير القاسمي ج١١ ص٢١.

﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[١٨٣٦] يقول الله تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال فدلّ على أنه لا قائل بقول رابع، ولما ضعَّفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: قولاً بلا علم ثم حكى القول الثالث وسكت عليه فدلّ على صحته لرده إذ لو كان باطلاً لردّهُ كما ردّ القولين الأوليين. ثم أرشد تعالى إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذاَ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إذ الأحسن في مثل هذا المقام ردّ العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا. وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما يعلم عدتهم إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله على عدتهم. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ أي: ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده، ولا سؤال مسترشد، لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم وما يتعلق بعدتهم وشأنهم، وفي هذا كفاية لمن أراد الوقوف على أمرهم والاعتبار والاتعاظ بقصتهم[١٨٣٧].

(١٨٣٦) سورة الكهف الآية ٢٢.

(١٨٣٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٨، تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١٣-٧١٤، تفسير القاسمي ج١١ ص٢٣-٢٤.

البحث الثاني
ما يستفاد من قصة أصحاب الكهف

٨٧٢- في هذه القصة فوائد للدعوة والدعاة:

فيما قصه الله علينا من أخبار أصحاب الكهف عبر وعظات يستفيد منها الداعي، بل ويحتاجها في موضوع دعوته وفي أساليب ووسائل دعوته: الدعوة إلى الله أي الدعوة إلى الإسلام. ونذكر فيما يلي هذا المستفاد من قصة أصحاب الكهف.

٨٧٣- أولاً- الشباب أسرع من غيرهم في الاستجابة للدعوة:

قال تعالى مخبراً عن أصحاب الكهف: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾(١٨٣٨). قال الإمام ابن كثير في هذه الآية: فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر الله تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً(١٨٣٩). فعلى الدعاة أن يكثروا من سعيهم المشكور مع الشباب في إيصال الدعوة إليهم، وبذل الجهد المستمر معهم لجلبهم إلى جماعة الدعاة، فعندهم من القوة والحماس وصفاء النفس، ما تحتاجه الدعوة، ولأنهم رجال المستقبل فإذا هدوا إلى الدعوة ولقنوا مفاهيمها ومعانيها، ورُبوا عليها كان في ذلك خير كثير جداً. ومن أساليب الدعوة مع الشباب إسماعهم قصص الطيبين المؤمنين من الشباب وكيف كانوا يهوون الجهاد في سبيل الله، الجهاد بالنفس، وقصصهم في القتال، وكذلك قصص المترفعين المستعلين على الفاحشة المؤثرين السجن عليها. وعلى رأس هذه القصص قصة يوسف مع التي راودته عن نفسه، وهددته بالسجن إن لم يفعل ما

(١٨٣٨) سورة الكهف الآية ١٣.

(١٨٣٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٣-٧٤.

تريد، فقال: رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه. وكذلك قصص المطعين لآبائهم المعينين لهم على طاعة، الله ولو كان ذلك على حساب حياتهم، وعلى رأس هذه القصص قصة الذبيح إسماعيل.

٨٧٤- ثانياً- الإيمان يزيد وينقص:

قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾. قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك[١٨٤٠]، وزيادة الإيمان تكون بطاعة الله، والإكثار من الأعمال الصالحة، وأفضلها بعد الإيمان بالله الجهاد في سبيله، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله ... الخ»[١٨٤١]. ومن الجهاد في سبيل الله الدعوة إلى الإسلام بالقول وبالكتابة وبكل ما يكون ويعتبر تبليغاً للإسلام ودعوة إليه. فعلى الدعاة تبيين هذا المعنى للناس، لأنه من معاني الإسلام، والإسلام هو موضوع الدعوة إلى الله تعالى. وإعلامهم بأن المسلم بحاجة دائمة إلى زيادة إيمانه بزيادة أعماله الصالحة، وأفضلها بعد الإيمان الجهاد في سبيل الله ومنه الدعوة إلى دينه الإسلام.

٨٧٥- ثالثاً- تعارف المؤمنين وتجمعهم:

من أخبار الفتية أصحاب الكهف كما ذكره غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أن أولئك الفتية كانوا من أبناء سادة قومهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة. يجتمعون فيه في ظاهر البلد، ويعبدون الأصنام المنصوبة هناك، ويذبحون لها الذبائح، وكان لهم ملك كافر ظالم يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء

(١٨٤٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

(١٨٤١) شرح صديق بن حسن خان على مختصر صحيح مسلم للمنذري ج١ ص١١٩.

الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويجلس بعيداً عنهم. وكان أول من جلس منهم وحده أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وجعل كل واحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم وهو لا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم أمره، فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وأن الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر: كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة هي كلمة التوحيد، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدقٍ فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه...[١٨٤٢]. فالأول انحاز عن قومه واختار مكاناً بعيداً عنهم. والآخر كان عنده ما عند الأول من كراهية لقومه وما يفعلونه ورغبة في الابتعاد عنهم وعدم مشاركتهم في باطلهم، ولو بمجرد حضوره معهم، فرأى شاباً جالساً تحت شجرة بعيداً عن الناس وما يفعلونه، فشجعه مقام ذلك الشاب فجاء وجلس إليه تحت الشجرة دون أن يكلمه، وهكذا جاء الآخرون، وجلسوا متقاربين، جمعهم كرههم لباطل قومهم ورغبتهم في الابتعاد عنهم، ثم تكاشفوا وتعارفوا وتآخوا وظلوا على جمعيتهم، وتعاونوا على اتخاذ مكان لعبادتهم. ويستفاد من ذلك: أن على الدعاة أن يتعرفوا على المشاركين لهم في كره الباطل، وعبث الناس ومعصيتهم لله رب العالمين. ويجد الدعاة المشاركين لهم فيما ذكرناه، في المساجد، فعلى الدعاة أن يتعرفوا عليهم، ويوثقوا صلتهم بهم حتى يرتفعوا إلى درجة الأخوة الإسلامية فيما بينهم، ثم

(١٨٤٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

التعاون على البرّ والبقاء على ارتباطهم، ثم ضمهم إلى جماعتهم جماعة الدعاة إلى الله بعد الاطمئنان منهم ومكاشفتهم في أمرهم ودعوتهم. إن الفتية بعد تلاقيهم وتعارفهم وتآخيهم ظلوا على ارتباطهم، مكونين جماعة واحدة على أساس الإيمان بالله والدعوة إليه، ولم يتفرقوا ويذهب كل واحد إلى حاله، وهذا من توفيق الله لهم. وعلى هذا فلا ينبغي للدعاة أن يدعو الناس دعوة عامة ويتركونهم، بل لا بد من دعوتهم والتعرف عليهم، والسعي إلى ربطهم بجماعة الدعاة؛ ليشدوا أزر هذه الجماعة، ويصيروا دعاة فيها كما صار من سبقهم دعاة فيها. إن تجمع المؤمنين الدعاة يقويهم جميعاً كما يقوي كل فرد منهم.

٨٧٦- رابعاً- الصدع بالحق أمام الطاغية:

قلنا إن الفتية بعد أن تعارفوا وتكاشفوا وتبين أن عقيدتهم واحدة وغايتهم واحدة ودعوتهم واحدة اتخذوا لهم مكاناً خاصاً يعبدون الله فيه ويجتمعون فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى مليكهم الكافر، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه. فأبى عليهم، ورفض دعوتهم، وتهددهم وتوعدهم إن لم يرجعوا عن دينهم الجديد ودعوتهم التي يدعون إليها، وأعطاهم مهلة وضرب لهم أجلاً؛ لينظر في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الجديد[١٨٤٣]. وكان صدعهم بالحق وإعلان إيمانهم بالله ودعوتهم إليه، وهم بين يدي ذلك الحاكم الطاغية، أقول كان ذلك بتأييد من الله وتقوية منه لقلوبهم التي خالطتها بشاشة الإيمان[١٨٤٤]. ويستفاد من ذلك أن على الدعاة أن يصدعوا بالحق، ويعلنوا موضوع دعوتهم أمام الحكام المتكبرين المجرمين؛ ليوهنوا عزائمهم، ويقووا عزائم المؤمنين، ويجرئوهم على الوقوف في وجوه الظلمة من الحكام. وإنما يكون موقف الدعاة كما ذكرنا إذا رأوا ببصيرتهم وبقرائن الحال أَنَّ جهرَهم بالحق ومواجهة الحكام الظلمة بأحقية دعوتهم، خيرٌ للدعوة من سكوتهم أمامه أو من أخذهم بالرخصة. إن المؤمن ينظر بنور الله، وبقدر إيمانه وعمقه في نفسه وإخلاصه لربه تكون قوة نوره الكاشف

(١٨٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤.

(١٨٤٤) انظر الفقرة ٨٦٤.

للموقف الصحيح الذي ينبغي أن يقفه، ولو أدى موقفه ذلك إلى قتله واستشهاده، لأن الداعية مجاهد، والجهاد فيه بذل النفس في سبيل الله، ولا يعتبر ذلك من إلقاء النفس في التهلكة، ما دام المؤمن الداعية يرجو من فعله تحقيق مصلحة شرعية للدعوة وللمسلمين. ونستأنس لما نقوله بحديث رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله»، أو كما قال ﷺ. ويبدو أن أولئك الفتية لاحظوا المصلحة الشرعية فيما قالوه أمام ذلك الحاكم الكافر وصدعوا بالحق، ودعوه إليه ولم ترهبهم قوته.

٨٧٧- خامساً- عزلة المسلم وهجرته من بلده:

ذكرنا في الفقرة السابقة أن ذلك الحاكم الكافر أمهل الفتية مدة، لينظروا في أمرهم ويرجعوا عن دينهم الجديد. قال ابن كثير تعليقاً وتعقيباً على هذا الإمهال للفتية: وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة -المهلة- توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث النبوي الشريف «يوشك أن يكون خيرمال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن». ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع[١٨٤٥]. والواقع أن ما قاله الإمام ابن كثير يخص حالة معينة هي عزلة المسلم عن الناس واعتزاله لهم، وعدم مخالطتهم، إذا كان في هذا كفاية لسلامة دينه من الفتن. ولكن قد لا يفيد ذلك بل لا بد من الهجرة من بلده الذي لم يعد بلداً آمناً له، ولا يمكن للمسلم أن يقيم دينه فيه، ففي هذه الحالة يجوز للمسلم الهجرة من بلده، فما هي مبررات هجرة المسلم من بلده؟

٨٧٨- مبررات هجرة المسلم من بلده:

المستفاد من اعتزال الفتية قومهم والخروج من محيطهم والتخفي عنهم بلجوئهم إلى الكهف بعيدين عن قومهم، تخلصاً من تهديد ملكهم الظالم الذي يحاربهم لإيمانهم، وعجزهم عن مقاومته ومقاومة قومهم، وعجزهم أيضاً عن بقائهم على دينهم الحق في ظل تلك الأوضاع القاسية، أنه يجب على الداعية المسلم

(١٨٤٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٤-٧٥.

إذا وجد نفسه عاجزاً عن إقامة دين الله في نفسه وأصبح مهدداً بالافتتان في دينه وعاجزاً عن القيام بالدعوة إلى الله، ففي هذه الحالة تجب عليه الهجرة من بلده إن كانت الهجرة ممكنة، كما تجب عليه الهجرة إذا أصبح يُؤذَى بما لا يطاق، لكونه مسلماً أو لكونه يدعو إلى الإسلام.

٨٧٩- الأدلة على ما قلناه في الهجرة:

والأدلة على ما قلناه من وجوب الهجرة على الداعية المسلم إذا صار في الحالة التي ذكرناها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . .﴾(١٨٤٦).
قال الزمخشري وهو يفسر هذه الآية: «وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه -أي دين الإسلام- كما يجب لبعض الأسباب، والعوائقُ عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة حقت عليه المهاجرة»(١٨٤٧).

وقال الإمام ابن العربي المالكي في مبررات هجرة المسلم من بلده: «الفرار من الأذية في البلدان وذلك فضل من الله أرخص فيه، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور. وأول من فعله إبراهيم عليه السلام، فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ كما حكى الله عنه ذلك. وقال تعالى مخبراً عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾(١٨٤٨).

وفي تفسير المنار قال الشيخ محمد عبده كما ينقل عنه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا: «ولا معنى عندي للخلاف في وجوب الهجرة من الأرض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه أو يؤذى فيه إيذاءً لا يقدر على احتماله»(١٨٤٩). وقال محمد رشيد رضا معقباً على قول شيخه ومؤكداً له: فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن

(١٨٤٦) سورة النساء الآيتان ٩٧، ٩٨.

(١٨٤٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٥٥.

(١٨٤٨) تفسير القرطبي ج٥ ص٣٥٠.

(١٨٤٩) تفسير المنار ج٥ ص٣٥٧.

دينه، أو يكون ممنوعاً من إقامته فيه كما يعتقد، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حراً في تصرفه وإقامة دينه[١٨٥٠].

٨٨٠- ترك العزلة أو الهجرة لمصلحة راجحة:

وإذا وجد الداعي نفسه قادراً على البقاء في بلده وتحمل الأذى الذي يصيبه بسبب دينه أو بسبب قيامة بالدعوة إلى الله، فهذا يستحب له البقاء، لأن في بقائه تثبيتاً لإخوانه المسلمين وتقوية لهم، وفي هذا مصلحة راجحة على هجرته من بلده. ونستأنس لما نقول بأن المسلمين في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، هاجر بعضهم إلى الحبشة فراراً بدينهم ولكن بقي بعضهم في مكة وما ذاك إلا لقدرتهم على البقاء بالرغم من مضايقات كفار قريش لهم، ولأن في بقائهم- وهم في هذه الحالة من القدرة على البقاء وتحمل الأذى- مصلحة راجحة للإسلام والمسلمين. وعلى هذا أرى أن يلاحظ الدعاة إمكان تحقق هذه المصلحة الراجحة في بقاء بعضهم في ديارهم في الوقت الحاضر تثبيتاً للمسلمين، وتقوية لهم، وحتى لا تفرغ البلاد الإسلامية من الدعاة بسبب هجرتهم منها. وعليهم أن يُبقوا المستورين منهم ما داموا يمكنهم العمل للإسلام، ولو بقدر قليل وبأسلوب هادىء عن طريق التأكيد على معاني العقيدة الإسلامية والأخلاق دون تعرض للحكام بصورة مباشرة.

٨٨١- سادساً- ضرورة الأخذ بالأسباب المشروعة:

وعلى الدعاة أن يستفيدوا ويتعلموا من قصة أصحاب الكهف ضرورة الأخذ بالأسباب المشروعة، وأن يعلموا بأن مباشرة الأسباب لا تقدح في إيمان المسلم ولا تناقض توكله على الله تعالى، وأن يشيعوا هذه الاستفادة والمعرفة بين المسلمين وبين المنتسبين إلى جماعة الدعاة. ومن الدلائل على ما أقول من قصة أصحاب الكهف ما يلي:

أ- اختفاء الفتية في الغار واتخاذه مأوى وملجأ لهم وستراً من قومهم من دون إنكار عليهم من الله تعالى فيما فعلوه أو فيما عزموا عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ

(١٨٥٠) تفسير المنار ج٥ ص٣٦١.

﴿أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[1851]. قال الإمام ابن عطية: ومُضَّمن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله تعالى، فإنه يبسط لنا رحمته وينشرها علينا ويهيء لنا من أمرنا مرفقاً»[1852] فهم باشروا من الأسباب التي يمكنهم مباشرتها للتخلص من قومهم الكفار واثقين متكلين على الله في أن يهيء لهم ما يرتفقون به، ويبسط عليهم رحمته، وذهبوا إلى الكهف فعلاً واختفوا فيه، ولم ينكر عليهم ربهم ما عزموا عليه من الاختفاء في الغار وقيامهم به فعلاً.

ب- قال تعالى عنهم وهم في الكهف: ﴿... ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[1853]. وقال تعالى عنهم أيضاً وهم في الكهف: ﴿... وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ...﴾[1854]. وجاء في تفسير الآية الأولى، آية تزاور الشمس «فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم»[1855] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لومستهم الشمس لأحرقتهم[1856]. وفي تفسير الآية الثانية ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الأرض لحومهم[1857]. وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس: «ولولا التقلب لأكلتهم الأرض»[1858]. ووجه الدلالة بالآيتين: أن الله جعل تزاور الشمس عنهم وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال من أسباب بقائهم دون أن تحرقهم الشمس ودون أن تأكل الأرض أجسادهم، ولو شاء الله لحفظهم من ذلك مع مسّ الشمس لهم ودون تقليبهم، ولكن فيما فعله الله بهم لفت لأنظارنا وتعليم لنا بأن الأخذ بالأسباب لا

(١٨٥١) سورة الكهف، الآية ١٦.
(١٨٥٢) تفسير ابن عطية ج٩ ص٥٧.
(١٨٥٣) سورة الكهف الآية ١٧.
(١٨٥٤) سورة الكهف الآية ١٨.
(١٨٥٥) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٦٩.
(١٨٥٦) تفسير ابن عطية ج٩ ص٢٧١.
(١٨٥٧) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٧٠.
(١٨٥٨) تفسير ابن عطية ج٩ ص٢٧١.

ينافي مقتضيات الإيمان، وأن أمور الدنيا جعلها الله تجري على سنته في ربط الأسباب بالمسببات، وهذه هي سنته العامة، إلا إذا شاء خرقها وجعل جريان بعض الوقائع في الدنيا على خلاف هذه السنة العامة كما في بقائهم أحياءً في الكهف مدة طويلة بلا أكل ولا شرب، لأن مشيئة الله لا يقيدها شيء، ولأن السنن العامة التي وضعها الله للأحداث ليعرفها الخلق ويراعوها، لا لتقييد إرادة الله تعالى.

ج- استصحاب الدراهم معهم ليستعينوا بها ويتزودوا بها، فدخلوا الغار وهي معهم، وقد استفادوا منها فعلاً إذ أرسلوا أحدهم ببعض ما عندهم من الدراهم ليشتري لهم بها طعاماً من المدينة، وهذا هو الذي دلّنا وعرفنا على أنهم صحبوا معهم شيءٌ من الدراهم. قال تعالى عنهم: ﴿... فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ...﴾[1859].

٨٨٢- الخلاصة في الأخذ بالأسباب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات»[1860]. وقال الإمام ابن قيم الجوزية: والقرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي بباء السببية تارة كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾، ويأتي باللام تارة كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، ويأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم تارة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. فالله اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها[1861]، فعلى الدعاة أن يفقهوا جيداً سنة الله في الأسباب والمسببات، ويأخذوا بالأسباب المعنوية وعلى رأسها الإيمان ومعانيه ومقتضياته، ويأخذوا بالأسباب المادية كإعداد القوة المادية بأنواعها ومنها تكثير أعدادهم وتراصّهم وتلاحمهم وتجمعهم واجتماعهم.

(١٨٥٩) سورة الكهف ١٩، ومعنى «بورقكم»، أي بدراهمكم من الفضة.

(١٨٦٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٧ ص٧٠.

(١٨٦١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٣ ص٤٧٨، ص٤٩٨، ص٤٩٩.

٨٨٣- سابعاً- الأخذ بالحذر:

عندما استيقظ الفتية من نومهم قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[١٨٦٢]. قال ابن كثير في: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وليخفِ كل شيء يقدر عليه[١٨٦٣]. وقال الزمخشري في معنى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: وليتكلف اللطفة والإتقان في أمر التخفي حتى لا يعرف[١٨٦٤]. وما ذكرناه من الآية ومعنى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أن الفتية، أخذوا «بالحذر» فأرسلوا واحداً منهم لا أكثر لشراء الطعام لهم، وأوصوه بالحذر بأن يتخفى ما وسعه التخفي حتى لا يُعرف فيكون سبباً إلى معرفة القوم بمكانهم فينالهم منهم القتل رجماً أو الإعادة إلى ملتهم قهراً ولن يفلحوا إذاً أبداً.

فعلى الدعاة أن يأخذوا بالحذر في جميع تصرفاتهم وأفعالهم، لا سيما والأخذ بالحذر مما أمرت به شريعتنا الإسلامية قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً . . .﴾[١٨٦٥]. وهذه الآية الكريمة تدل على وجوب أخذ الحذر، بل وتبين للمسلمين كيفية الحذر وهم يؤدون صلاة الخوف، مما يدل على أهمية الأخذ بالحذر، فالأمر بأخذ الأسلحة والأمر بأن يكون بعض المسلمين وراء المصلين يحمونهم من العدو، وتقسيم المصلين إلى طائفتين: طائفة تصلي وطائفة تحرس، والأمر بأخذ الحذر، وإعلام المسلمين بأن الكفار يودون لو تغفلون عن أسلحتكم، وأَخذُها وحملُها من مظاهر الحذر، حتى يميلوا عليكم ميلة واحدة، كل ذلك دليل على وجوب الحيطة والتحرز والأخذ بأسباب الحذر من المكروه المتوقع، وقال الإمام القرطبي في هذه الآية: ﴿وَلْيَأْخُذُوا

(١٨٦٢) سورة الكهف الآية ١٩.

(١٨٦٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٧.

(١٨٦٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧١٠.

(١٨٦٥) سورة النساء الآية ١٠٢.

أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ هذه وصية بالحذر وأخذ السلاح؛ لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته... وقال: وفي هذه الآية أدل دليل على تعاطي الأسباب، واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة ويبلغ دار الكرامة... وقال رحمه الله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أي: كونوا متيقظين، وضعتم السلاح أو لم تضعوه، وهذا يدل على تأكيد التأهب والحذر من العدو في كل الأحوال وترك الاستسلام، إن الجيش ما جاءه مصاب قط إلا من تفريط في حذر[١٨٦٦]. ويمكن أن نقول: إن الجماعة المسلمة ما جاءها مصاب قط إلا من تفريط في حذر.

٨٨٤- تحذير الدعاة من ترك الحذر:

فليحذر الدعاة وجماعتهم ترك الحذر، إن الحذر من صفات أهل الإيمان الفاهمين سنن الله في خلقه، لا من صفات أهل الطيش والجهالة وقصر النظر، فهؤلاء لا يعرفون الحذر، ولا تتسع له عقولهم، لأنهم لا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، ولا يحسون بالخطر المتوقع الحصول إلا إذا وقع فعلاً، أما قبل وقوعه فهم عنه لاهون ساهون غافلون، ومن ثم يُفاجَؤون به إذا وقع فيدهشهم ويبهرهم ولا يعرفون ماذا يفعلون. إن الفرق دائماً بين العاقل والجاهل أن الأول يعرف الخطر قبل وقوعه فيحتاط له، ويتخذ العدة لدفعه وملاقاته، أما الثاني وهو الجاهل فلا يحس به أصلاً إلا إذا وقع ومن ثم لم يتخذ من الأسباب ما يدفعه إذا وقع، لأنه لم يكن حذراً منه. ولهذا الفرق بين العالم بسنن الله والجاهل بسنن الله، يحسب الجاهل ما يفعله المسلم الحذر نوعاً من الخوف الذي لا مبرر له، ونوعاً من الجبن الذي لا يتفق مع الإيمان، وكثيراً ما يتأثر الداعية المؤمن بأقوال الجهال فيترك ما يستلزمه الحذر، فيتجاهل الخطر حتى ولو ظهرت مقدماته وعلاماته. فعلى الداعي المسلم أن لا يتأثر بأقوال هؤلاء الجهال، فيندفع إلى ضد وعكس ما يقتضيه الحذر فيكشف نفسه للأعداء وكأنه يقول لهم: أنا هنا تعالوا فخذوني... إنه وقع في الرياء، لأنه سمع قول الجهال فأراد مجاراتهم ليقولوا ما أشجعه.. إن مثل الداعية الحذر مثل قائد السفينة، يسير في البحر في ضوء ما تشير به حالة الجو، حسب قواعد علم الفلك والأنواء الجوية، فيأخذ الحذر المطلوب من التقلبات الجوية، وحتى إذا لم يحدث المتوقع فلا ضرر عليه فيما أخذ

(١٨٦٦) تفسير القرطبي ج٥ ص٣٧١-٣٧٣.

ويأخذ من الحيطة والحذر. ومثل الجاهل الأحمق مثل الذي يسير في البحر المحيط بمركب صغير، ولا يلتفت إلى ما تشير إليه الأخبار العلمية عن حالة الجو المتوقعة، بل يبلغ به الجهل والحماقة إلى مخالفة ذلك، وسرعان ما يعطب مركبه، وتتكسر ألواحه، فيغرق بما فيه وبمن فيه... وإذا كان الحذر مطلوباً من أي مسلم فهو أشد طلباً من الداعية، وأكثر ضرورة للجماعة المسلمة وآكد وأوجب عليها من غيرها.

٨٨٥- ثامناً- الاشتغال بالمهم دون غيره:

عندما استيقظ الفتية من نومهم الطويل في الكهف تساءلوا بينهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أي: كم أمضيتم من المدة في نومكم؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر النهار، ولهذا استدركوا فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم. ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ...﴾الخ[١٨٦٧]. فالفتية تساءلوا عن مدة نومهم فلما لم يكن عندهم يقين في مدة نومهم قطعوا التساؤل عنها وتحولوا إلى الأمر المهم وهو احتياجم إلى الطعام. فعلى الدعاة أن يستفيدوا من موقف الفتية من جهة قطعهم النقاش حول مدة نومهم وتحولهم إلى ما يهمهم وهو الحصول على الطعام؛ ووجه استفادة الدعاة من هذا الموقف من الفتية، أن الدعاة قد ينجرون إلى جدل عقيم لا فائدة فيه، فعليهم أن ينهوا الجدل حالاً ويتحولوا إلى الحديث عن الدعوة والدعاة وما يفيد.

٨٨٦ - تاسعاً- على الداعية أن لا يكشف أسرار إخوانه:

لما أرسل الفتية أحدهم إلى المدينة التي خرجوا منها ليشتري شيئاً من الطعام، أوصوه بقولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ وقد ذكرنا معنى هذه الآية ومن معناها: أن يتخف حتى لا ينكشف أمره[١٨٦٨] وقد جاء في تفسير القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يُخبِرَن. وقيل: إن ظُهِر عليه فلا يوقعن

(١٨٦٧) تفسيرابن كثيرج٣ ص٧٦.

(١٨٦٨) انظر الفقرة ٨٦٩.

إخوانه فيما وقع فيه[1869]. فعلى الداعي إذا وقع في أيدي أعداء الدعوة، وانكشف أمره عندهم، وكان من سياستهم الخبيثة إيذاء الدعاة واستحلال دمائهم، فلا يجوز للداعي المقبوض عليه من قبلهم أن يخبر عن إخوانه، وعن أماكنهم، ولا يفشي أسرار جماعته التي ينتمي إليها حتى ولو أكرهوه على ذلك وهددوه بالقتل إن لم يفعل ما يطلبونه منه، لأنه لا يجوز للمسلم أن يدفع الهلاك عن نفسه بإهلاك غيره، فكيف إذا كان الغير إخوانه وأحباءه والدعاة في سبيل الله؟

٨٨٧- عاشراً- لا حرج في تخير أطيب الطعام:

قال الفتية بعد أن أيقظهم الله: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[1870]. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾أي: أطيب طعاماً[1871]. وفي تفسير القاسمي في تفسير هذه الآية: إنها دلت على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن لصيغة التفضيل. فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يُتعبه ولا يكدره، ولذلك يجب طبّاً الاعتناء بجودته وتزكيته كما فُصّل في قوانين الصحة[1872]. والواقع أن المستلذات من المآكل والمشارب هي من نعم الله على عباده، وقد أباحها لهم فلا يجوز تحريمها وحرمان البدن منها، فليس من مناهج الإسلام بلوغ الكمال عن طريق تحريم الطيبات من الرزق التي أحلها الله، ولا عن طريق تعذيب البدن، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1873]. والمقصود بـ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ المستلذات من المآكل والمشارب. ومعنى الاستفهام في (من) إنكار تحريم هذه الأشياء[1874].

وعلى هذا يجب على الدعاة تفهيم الناس من عموم المسلمين وخاصتهم أن الحلال ما

(١٨٦٩) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٧٥.
(١٨٧٠) سورة الكهف الآية ١٩.
(١٨٧١) انظر الفقرة ٨٦٩.
(١٨٧٢) تفسير القاسمي ج١١ ص١٩.
(١٨٧٣) سورة الأعراف الآية ٣٢.
(١٨٧٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٠١.

أحله الله ويجوز تناوله وإن كان طيباً، وأن الحرام ما حرمه الله ولا يجوز تناوله وإن كان مستخبثاً. ولا يجوز للمسلم أن يحرم شيئاً على نفسه وقد أحلّه الله، لكون هذا الشيء من الطيبات، لأن حرمان النفس من الطيبات الحلال ليس من مناهج الإسلام في تزكية النفس، كما أن تناول الأطعمة التي يوحي الأطباء بفائدتها للجسم يستحب تناولها شرعاً، لأن البدن مركب الروح وليس من الحكمة إهمال المركب وعدم العناية به وعدم تقويته، وفي الحديث النبوي الشريف «وإن لبدنك عليك حقاً».

الفصل الثاني والعشرون

قصة أصحاب الأخدود

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨٨٨- ذكر هذه القصة في القرآن العزيز:

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١٨٧٥] والمعنى: لُعِنَ أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد، وهي الحفر في الأرض. وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم على الرجوع عن دينهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها. ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي: إذ هم -أي الكفرة- على حافات الأخدود قعود، أي: قاعدون يتشفون من المؤمنين. ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي: حضور يشاهدون ما يُفعل بالمؤمنين من إلقائهم في الأخدود، ويشاهدون احتراق أجسامهم وما تفعل بها النيران، ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي: وما كان لهم عند هؤلاء الكفرة ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يُضَام من لاذ بجنابه، الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدّرَ على عباده المؤمنين هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس. ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ فهو المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: لا يغيب عنه

(١٨٧٥) سورة البروج، الآيات من ٤-٩.

شيء في جميع السموات والأرض ولا يخفى عليه خافية[١٨٧٦].

٨٨٩- خلاصة قصة أصحاب الأخدود:

ذكر الإمام القرطبي في تفسير حديث الإمام مسلم في صحيحه بشأن قصة أصحاب الأخدود، عن صهيب قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم، آلساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني فقد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتَلى، فإن أُبتليتَ فلا تدلَّ عليَّ، وكان الغلام يبرىء الأكمهَ والأبرصَ ويداوي الناسَ من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربِّ. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني: أَقَدْ بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ قال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب. فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شِقاه. ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا

(١٨٧٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٩٢-٤٩٣، تفسير القاسمي ج١٧ ص١١٠.

بلغتم ذِروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقُور -سفينة صغيرة- فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جِذعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رَب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا بربّ الغلام، آمنا بربّ الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتِيَ الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حَذَرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها -أو قيل له اقتحم- ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمةً اصبري فإنك على الحق. وفي رواية: وجيء بامرأة مرضع، فقيل لها ارجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدكِ، فأشفقت وهمت بالرجوع فقال لها الصبي المُرضَع: يا أمي، اثبتي على ما أنت عليه فإنما هي غميضة فألقوها وابنها في النار[١٨٧٧].

٨٩٠- قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[١٨٧٨]. أي نالوهم بالأذى وحرقوهم بالنار لثباتهم على إيمانهم ورفضهم العودة إلى ما كانوا عليه من الكفر، ثم لم يتب أولئك الكفرة عما فعلوه بالمؤمنين والمؤمنات فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق في نار جهنم. والمراد بهم إما

(١٨٧٧) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٨٧-٢٨٨.

(١٨٧٨) سورة البروج الآية ١٠.

أصحاب الأخدود خاصة، وبالمفتونين هم المؤمنون المطرحون في الأخدود، وإما الذين بلوا المؤمنين والمؤمنات بالأذية والتعذيب على الإطلاق دون اختصاص بأصحاب الأخدود وهم داخلون في جملتهم دخولاً أولياً[١٨٧٩]. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو -الله جل جلاله- يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[١٨٨٠].

(١٨٧٩) تفسر القاسمي ج١٧ ص١١٢.

(١٨٨٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٩٦.

المبحث الثاني

المستفاد من هذه القصة للدعوة والدعاة

٨٩١- أولاً- تأسي الدعاة بمن سبقهم في تحمل الشدائد

إن الذين أُلقوا في الأخدود المؤجج بالنار ما كان لهم من ذنب عند ذلك الملك الكافر الطاغية وأعوانه الكفرة إلا أنهم آمنوا بالله وحده كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. وهذا يعني أن الإيمان والمؤمنين يلقون دائماً العنت والأذى من الكفرة لا سيما من الحكام الكفرة، وفي الغالب أن هؤلاء الكفرة لا يكتفون بمضايقة المؤمنين وكرههم، بل يتجاوزون ذلك إلى تعذيب المؤمنين إلى حدّ قتلهم والاستمتاع بمشاهدة قتلهم. وحوادث التاريخ تؤكد هذه الحقيقة التي هي من السنن الإلهية الثابتة. وإذا كان الأمر ما ذكرناه وهو تعرض المؤمنين لأذى الكفار، فإن الدعاة إلى الله لهم النصيب الأكبر من أذى الكفار، لأنهم لا يقفون عند حدّ إيمانهم الشخصي وإنما يسعون إلى نشر هذا الإيمان ودعوة الناس إليه، وهذا مما يغيظ الكفار ويزيد من بغيهم وإيذائهم للدعاة. وعلى هذا فليس أمام الدعاة إلا الصبر، والتأسي بمن سبقهم من المؤمنين في تحمل الشدائد والعذاب في سبيل ثباتهم على إيمانهم. وليتذكروا بأن ما قصّه الله علينا من أخبار أصحاب الأخدود ينبغي أن يقوى عزائم الدعاة على المزيد من الصبر على ما يلقونه من أذى في سبيل الدعوة، جاء في تفسير القرطبي بصدد تفسير آيات أصحاب الأخدود: «قال علماؤنا: أَعْلَمَ الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآيات ما كان يلقاه من وحَّد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك ويذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق، وتمسكه وبذل نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى

ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم»[1881].

٨٩٢- ثانياً- التعذيب قد يحمل على إفشاء الأسرار:

رأينا في تفصيل القصة أن الراهب قال للغلام: «إنك ستُبتَلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ»، ومع هذا فإن الغلام المؤمن دلّ عليه تحت وطأة التعذيب، فَقُتِلَ الراهب لإصراره على الإيمان وثباته عليه ورفضه الرجوع عن دينه. إن الحكم الشرعي هو عدم الجواز للمُكرَه أن يدفع عن نفسه القتل بقتل غيره، والغلام بدلالته على الراهب تسبب بقتله، وهو قد فعل مُكرَها، لأن العذاب كان فوق طاقة تحمله. فعلى الجماعة المسلمة وهي جماعة الدعاة أن لا تكشف أسماء قادتها وموجهيها، لا سيما إذا كانت في حالة ضعف، ولا تستطيع دفع الأذى عنهم، كما هو الحال بالنسبة للغلام والراهب وجليس الملك، فإن هؤلاء كانوا ضعفاء لا يستطيعون تخليص أنفسهم من بطش الملك الكافر، وقياساً على ذلك فإن الجماعة المسلمة، ودعاتها، إذا كانوا في مكان لا يستطيعون فيه دفع الأذى عن أنفسهم، فعليهم الأخذ بالكتمان والسرية وعدم البوح بقادتهم ما وسعهم هذا الكتمان، وعلى الدعاة أن لا يتطلعوا ويحرصوا على معرفة قادة جماعتهم. أما إذا كانت الجماعة المسلمة في حال أو وضع يمكنها أن تدفع الأذى عن دعاتها أو عن قادتها فلا بأس من انكشافهم ليعرفهم الناس ويزداد إقبالهم إلى جماعتهم.

٨٩٣- ثالثاً- رعاية الشباب والاعتناء بهم:

في تفاصيل قصة أصحاب الأخدود، رأينا قصة الغلام الذي أراد الملك الكافر أن يعلمه السحر على يد الساحر العجوز، فأرسله إليه لهذا الغرض، ثم حدث وهو يذهب إلى مكان الساحر أن لقي راهباً فجلس إليه وأنس بكلامه، وأعجب به، وآمن بما عنده، ثم آل أمره إلى ما ذكرناه. فعلى الدعاة أن يدعوا الشباب ويعتنوا بهم، ويربوهم على معاني الإسلام، ويلقنوهم هذه المعانيَ ويبينوا لهم غايتهم في الحياة، وما ينتظرهم في المستقبل من أمور جسام لخدمة الإسلام. إن الشباب هم رجال المستقبل، وقلوبهم طاهرة، ويتأثرون بقول الحق، لأنهم لا يزالون قريبي عهد نسبي

(١٨٨١) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٩٣.

إلى الطفولة البريئة، فتقبلهم للدعوة وإقبالهم عليها أكثر من تقبل وقبول المشايخ، وقد ذكرنا ذلك من قبل[١٨٨٢]. كما ذكرنا قصة أصحاب الكهف وهم (فتية) أي: شباب وكيف امتلأت قلوبهم بالإيمان، وواجهوا الطاغية الكافر بكلمة الحق وبدعوة الحق[١٨٨٣]. وقد يكون من المفيد أن يضع الدعاة أو جماعتهم المسلمة منهجاً خاصاً للشباب المسلم، لتربيتهم التربية الإسلامية التي تعصمهم من موبقات العصر ومزالقه ومغرياته، ولتشدهم إلى غاية عليا وهدف أسمى، حتى لا تكون لهم غاية إلا الله ومرضاته ونصرة دينه وإعلاء كلمته، ويكونوا قدوة حسنة لغيرهم من الشباب.

٨٩٤- رابعاً- هل يقاس على الغلام فيما فعله؟

جاء في تفاصيل قصة أصحاب الأخدود قصة الغلام، وفيها أنه قال للملك الكافر: «إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. . .» ولما فعل الملك ذلك وقتل الغلام صاح الناس قائلين: «آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام». إذن فالغلام فعل ما فعل وقدّم نفسه للقتل حتى يُرى الناس أن ما عليه من دين هو الحق، وأن الله تعالى وليس هذا الملك هو رب العالمين، وحصل ما أراده ذلك الغلام وإن كان ذلك عن طريق استشهاده، فهل يجوز للداعية أو المسلم بصورة عامة أن يعرض نفسه للقتل؟ وهل يعتبر ذلك منه قتلاً لنفسه أي انتحاراً، أم يعتبر ذلك استشهاداً في سبيل الله؟ والجواب أن نعرف المبرر لما فعله الغلام، وهل يصلح مبرراً شرعياً للمسلم لمثل فعله؟ والجواب أن المبرر لفعله واضح، وهو قصده إظهار كذب الملك الكافر في إدعائه الربوبية، وصده الناس عن عبادة الله وحده. والغلام لم تكن عنده وسيلة أخرى غير ما أقدم عليه، فهو مؤمن وحيد لا ناصر له ولا معين من أولئك القوم، فقام بعمله جهاداً في سبيل الله، ويجوز في الجهاد في سبيل الله أن يعرض المسلم نفسه للقتل إذا كان في

(١٨٨٢) انظر الفقرة، ٨٧٣.

(١٨٨٣) انظر الفقرة، ٨٧٦.

ذلك نصرة لدين الله، وتقوية لعزائم المؤمنين، وتوهينٌ لطبقات الكافرين، ألا يُرَى أنه جاء في الحديث النبوي الشريف «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله» أو كما قال ﷺ. لأن في قومة هذا الرجل المؤمن إلى السلطان الجائر نوعاً من الجهاد، لأن فيه تجريئاً على هذا السلطان الجائر وتوهيناً لأمره، والغلام فعل ما فعل لغلبة ظنه في إيمان الناس، إذا رأى الناس ما وقع وسمعوا قول الملك (بسم الله رب الغلام). وعلى هذا فيجوز للمسلم أن يعرض نفسه للموت، إذا غلب على ظنه أن في فعله مصلحة للمسلمين بتقويتهم وتوهين عزيمة أعدائهم وتَجْرِىءُ المسلمين عليهم، وفي الحديث الذي ذكرناه دلالة واضحة على ما نقول، فالظاهر أن الرجل الذي قام إلى السلطان الجائر، كان يعلم أو يغلب على ظنه أنه سيقتله ولا يتحمل أمره ونهيه. ويؤيد ما ذهبت إليه قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «. . . كالذي يحمل على الصف -أي صف جند الكفرة- وحده حملاً فيه منفعة للمسلمين وقد اعتقد أنه يُقتَل فهذا حسن».

وفي مثله أنزل الله قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومثلما كان بعض الصحابة ينغمس في العدو بحضرة النبي ﷺ. وروى الخلال بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً حمل على العدو وحده، فقال الناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال عمر: لا، ولكنه ممن قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[١٨٨٤].

٨٩٥- خامساً- نقمة الكفار من المؤمنين لإيمانهم:

الكفار ينقمون من المؤمنين لإيمانهم وقد ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وهكذا الكفرة في كل زمان لا سيما أصحاب السلطة والنفوذ في مجتمعهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، والمترفون: هم أولو القوة والحشمة والرياسة والثروة والترف وقادة الناس في الشرع، فهؤلاء قابلوا رسل الله بإعلان الكفر بهم وعدم متابعتهم لهم[١٨٨٥]. وكفروا الكفرة بدعوة الرسل يسلمهم إلى معاداتهم واستعمال سلطتهم في

(١٨٨٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٢٥ ص٢٧٩.

(١٨٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٤٠، والآية في سورة سبأ ورقمها ٣٤.

رد الدعوة وإيذاء دعاتها، كما فعل فرعون وأتباع فرعون في كل مكان وزمان.

فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويعدوا له عدته، فهم ليسوا بأحسن حالاً وأقوى حجة من رسول الله ﷺ وأصحابه وقد قصّ الله علينا ما لقيه من كفار قريش وما لقيه أصحابه منهم، فلا يعجبوا ولا يستغربوا ولا يندهشوا من نقمة أهل الباطل من أهل الحق. وليعلموا أنَّه بقدر تمكن الضلال في النفوس مع وجود القوة عند الضالين بقدر ذلك تكون معاداتهم لأهل الحق واللجاجة في معاداتهم وتصفيتهم جسدياً، كما فعل أصحاب الأخدود في إحراق المؤمنين بالنار. وإنما يقف الكفار أصحاب السلطان هذا الموقف اللئيم المعادي للمؤمنين لا سيما الدعاة منهم لخوفهم على سلطانهم وانفضاض الناس من حولهم إذا آمنوا بمعاني الدعوة ومقتضياتها ومستلزماتها، ولذلك فهم يستعملون كل وسيلة لدفع الدعوة وقمع الدعاة. قال تعالى عن الكفرة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1886]. وهذا إخبار من الله تعالى عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم. وكلمة (حتى) في الآية للتعليل أي يقاتلوكم كي يردوكم[1887]. ثم إن الكفرة وأهل الباطل إذا تعذر عليهم قتال المؤمنين أو قتلهم، لأي سبب كان، فإنهم يستعملون وسائل أخرى لصد الناس عن دعوة الحق وعن الدعاة، ومن هذه الوسائل إنفاق المال لشراء الذمم، واستئجار أهل الباطل من ذوي القدرة على تزييف الحقائق بزخرف القول كتابةً وخطابةً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[1888].

هذا وإن معاداة الكفرة للمؤمنين وللدعاة لا يقتصر عليهم، بل ينسحب إلى الطغاة والمتسلطين الظلمة ممن يُسمّوْنَ بالمسلمين، وقد يكون عندهم أصل الإيمان ولكنهم منغمسون في الظلم وكراهة الدعاة. وقد يجتمع الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية ومعاداة المؤمنين. وبقدر هزال إيمان المتسلطين الظلمة تكون معاداتهم للمؤمنين الدعاة، بل وقد يفعل هؤلاء الظلمة المتسلطون من المسلمين أكثر مما

(١٨٨٦) سورة البقرة الآية ٢١٧.

(١٨٨٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٢٥٩.

(١٨٨٨) سورة الأنفال الآية ٣٦.

يفعله الكفرة الخُلَّصُ الذين لا يدينون بالإسلام أصلاً. فليفقه الدعاة ذلك، وليعلموا أنه من المستحيل أن يسالمهم هؤلاء الكفرة والظلمة المتسلطون من المسلمين وإنما قد يتركونهم إلى حين لإعداد العدة لاستئصالهم في أول فرصة تسنح لهم.

الفصل الثالث والعشرون

قصة أصحاب الجنة الأرضية

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٨٩٦- خلاصة القصة:

كان لرجل جنة - أي بستان مثمر- وكان هذا الرجل يؤدي حق الله تعالى منها، فلما مات صارت هذه الجنة إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها. فأهلكها الله تعالى من حيث لم يمكنهم دفع ما حلَّ فيها، فاعترفوا بذنبهم ولكن بعد هلاك جنتهم[١٨٨٩]. قال تعالى بشأن هذه القصة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾[١٨٩٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: بلونا أهل مكة، والابتلاء: الاختبار. والمعنى إنا أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا ليبطروا، وأرسلنا إليهم رسولنا محمداً ﷺ وهو أعظم نعمة ورحمة لهم وللناس جميعاً، ليؤمنوا به لا ليكذبوه، فلما بطروا وعاندوا وعادوا رسول الله ﷺ، ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم. والجنة بستان مشتمل على أنواع الثمار والفواكه. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليقطعن ثمرها وقت الصبح، أي داخلين في الصبح مبكرين، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشيء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يستثنون حق المساكين من ثمر بستانهم. أو دون أن يقولوا: إن شاء الله[١٨٩١].

(١٨٨٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٣٩.

(١٨٩٠) سورة «ن» الآيتان ١٧، ١٨.

(١٨٩١) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٠٦، تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٩٠.

وقوله تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾[1892] أي: فطرق جنة هؤلاء القوم طارقٌ من أمر الله فأهلكها، وهم نائمون مستغرقون في سباتهم، غافلون عما يمكر بهم، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي: كالبستان الذي قطع ثمره بحيث لم يبق منه شيء، أو كالليل الأسود لاحتراقها[1893].

قوله تعالى: ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾[1894] أي: فنادى بعضهم بعضاً وقت الصبح ولم يشعروا بما جرى على بستانهم بالليل: ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ ﴾ أي اخرجوا غدوة ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ أي: زرعكم، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ أي قاصدين قطع ثمارها ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي: يكتمون ذهابهم ويتسارون فيما بينهم ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي: لا تمكنوه من الدخول إلى جنتكم حتّى يدخل، ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أي: غدوا إلى جنتهم على نشاط وسرعة وجدّ وقصد وقدرة في أنفسهم، ويظنون أنهم تمكنوا من تحقيق مرادهم[1895].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾[1896]. أي: فلما وصلوا إليها ورأوها محترقاً ثمرها ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لقد ضللنا الطريق إلى جنتنا، ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حرمنا جنتنا بما صنعنا[1897].

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[1898]. قال ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي: قال أعدلهم وخيرهم رأياً: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي: تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم وسوء قصدكم، بحرمان المساكين حقهم من ثمرة جنتنا وتخشون انتقام ربكم من المجرمين. وكان أوسطهم حذرهم وأنذرهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة فَعَصَوْهُ، فعيرهم، والدليل على هذا قولهم: ﴿ قَالُوا۟

(١٨٩٢) سورة «ن» الآيتان ١٩، ٢٠.

(١٨٩٣) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٥٧-٢٥٨.

(١٨٩٤) سورة «ن» الآيات من ٢١-٢٥.

(١٨٩٥) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٤٢، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٥٨.

(١٨٩٦) سورة «ن» الآيتان ٢٦، ٢٧.

(١٨٩٧) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٤.

(١٨٩٨) سورة «ن» الآيتان ٢٨، ٢٩.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فتكلموا بما كان يدعوهم إليه إثر إظهار عزمهم الخبيث على ما عزموا عليه. وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: في عدم استثناء حق المساكين في ثمر بستانهم[1899].

قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾[1900] أي: أخذ يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع حق المساكين من ثمر جنتهم عند قطعه، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ أي: كنا متجاوزين حدود الله في تفريطنا وعزمنا السيء، حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: عسى أن يبدلنا ربنا خيراً من جنتنا التي فقدنا ثمرها وشجرها بتوبتنا إليه وندمنا على خطأ فعلنا، وعزمنا على عدم العود إلى مثل ما عزمنا عليه، من منع حق المساكين فيما يكون لنا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: في العفو عما فرط منا والتعويض عما فاتنا[1901]. وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم الله جنة خيراً من جنتهم التي أمر الله بإحراقها[1902].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[1903] أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدلّ نعمة الله كفراً ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشد وأكبر، ولو كانوا يعلمون لارتدعوا وتابوا وأنابوا[1904]. وقيل إن هذا وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله تعالى لمَّا ابتلاهم الله بالجدب، أي: كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا[1905].

(١٨٩٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٩١، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦١.
(١٩٠٠) سورة «ن» الآيات ٣٠-٣٢.
(١٩٠١) تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦١.
(١٩٠٢) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٥.
(١٩٠٣) سورة «ن» الآية ٣٣.
(١٩٠٤) تفسيرابن كثير ج٤ ص٤٠٧، تفسير القاسمي ج١٦ ص٢٦١.
(١٩٠٥) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٥.

المبحث الثاني
المستفاد من هذه القصة للدعوة والدعاة

٨٩٧- مجمل الفوائد من هذه القصة:

يستفاد من قصة أصحاب الجنة التي ذكرنا ما جاء عنها في القرآن الكريم وما قاله المفسرون بشأنها، أقول يستفاد منها للدعوة والدعاة أمور: (منها) أن المعاصي من أسباب العقاب الدنيوي، (ومنها) أن البخل يوقع صاحبه في المعصية والنفاق (ومنها) أن علىالمحق أن يثبت على الحق وإن كثر المخالفون له، (ومنها) الاعتراف بالذنب والتعجيل بالتوبة مما ينفع المذنب، (ومنها) أن البخل من صفات الإنسان أو من غرائزه.

٨٩٨- أولاً- المعصية من أسباب العقاب الدنيوي:

الأصل في الجزاء الإلهي أنه في الآخرة حيث ينتهي أجل الإنسان في الدنيا، وتكمل أعماله، فيكون الحساب على جملة أعماله كلها بجميع تفاصيلها. ولكن مع هذا الأصل في الجزاء -سواء كان عقاباً أو ثواباً- فقد مضت سنة الله أن المعاصي من أسباب حلول المصائب والنكبات التي يمكن اعتبارها من أنواع العقاب في الدنيا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أنَّ المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1906]. وقال المفسرون في هذه الآية التي استدل بها ابن تيمية: «أي وما أصابكم أيها الناس أي مصيبة من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات والأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق وأشباهها ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، ﴿وَيَعْفُواْ

(١٩٠٦) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص٣١.

عَن كَثِيرٍ ﴾ أي: ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل وآجلاً»[١٩٠٧]. وعلى هذا فعلى الدعاة أن يحرصوا كل الحرص أن لا يقعوا في المعاصي، وإذا وقعوا فليسرعوا بالتوبة، وأن يبينوا للناس ذلك، لأنه من معاني الإسلام الذي هو موضوع الدعوة. وفي قصة أصحاب الجنة الأرضية مثل واضح وواقعة ظاهرة، بأن ما أصاب أصحاب الجنة هو بسبب ذنبهم المتمثل في منعهم حق المساكين في ثمر جنتهم.

٨٩٩- المؤاخذة على ما يعزم عليه الإنسان:

العزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر، فإذا عزم الإنسان على فعل الشر أو على منع الغير حقه أو نحو ذلك من المعاصي القلبية فإنه يؤاخذ عليها -وفي ما حلّ بأصحاب الجنة من عقاب، بتلف جنتهم وهلاك ثمرها، هو عقاب على ما عزموا عليه من منع المساكين حقهم، في ثمر بستانهم، عن طريق جذاذ هذا الثمر في وقت لا يتفطن إليه المساكين فلا يحضرونه، فيفوت حقهم بفعلٍ من أصحاب الجنة تنفيذاً لقصدهم الخبيث. قال الإمام القرطبي في آيات أصحاب الجنة وما حلّ بهم: «في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم»[١٩٠٨] ويؤيد ما ذهب إليه الإمام القرطبي ما جاء في صحيح البخاري «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال ﷺ: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فعلق الوعيد بدخول النار على الحرص على قتل صاحبه، وهو العزم على قتل صاحبه. وفي جامع الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه مرفوعاً إلى النبي ﷺ «إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل أعطاه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل. ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو لا يتقي فيه ربه، ولا يصل به رحمه،

(١٩٠٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١١٦، تفسير الرازي ج٢٧ ص٢٧، تفسير الألوسي ج٥، ص٤٠.
(١٩٠٨) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤١.

ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء». ولا حجة لدفع ما قلناه من احتج بقوله عليه الصلاة والسلام: «من همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت سيئة واحدة» لأن معنى «فلم يعملها» أي: فلم يعزم على عملها بدليل حديث البخاري وحديث الترمذي اللذين ذكرناهما. ومعنى «فإن عملها» أي: أظهرها أو عزم عليها، لما قلناه في معنى «فلم يعملها»[1909]. فعلى الدعاة أن يلتزموا بذلك فلا يعزموا إلا على فعل الخير، وأن يبينوا ذلك للناس في خطبهم ومواعظهم حتى تصبح عزائمهم مقصورة على النوايا المشروعة والمقصود الصالح.

٩٠٠- ثانياً- البخل يوقع صاحبه في المعصية والنفاق:

رأينا في قصة أصحاب الجنة أنهم بخلوا بما أنعم الله عليهم فعزموا على عدم إعطاء المساكين حقهم في ثمر جنتهم، فقرروا قطع ثمار جنتهم في الصباح الباكر، حيث لا يتوقع المساكين قطع الثمار في هذا الوقت، فلا يحضرونه، وحتى إذا حضروا فقد قرروا عدم تمكينهم من الدخول. وهكذا أوصلهم بخلهم إلى هضم حقوق المساكين ومعصية ربهم ومخالفة أمره، وكان نتيجة ذلك ما بيناه. فعلى الدعاة أن يحذّروا الناس من رذيلة البخل، لأنها توقعهم في المعصية بعدم إخراج ما أوجبه الله عليهم في أموالهم. وعلى الدعاة، وهم يحذرون الناس من رذيلة البخل، وأنه يوقع صاحبه في المعصية والنفاق، أن يؤكدوا ويبينوا ما يأتي:

٩٠١- أ- الفلاح بالوقاية من البخل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1910] الشح والبخل سواء، وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل، والمراد بالآية: الشح بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوي الأرحام والضيافة وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه. ومن وسعَّ على نفسه ولم ينفق فيما

(١٩٠٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢١٥، ج١٨ ص٢٤١.

(١٩١٠) سورة التغابن، الآية ١٦.

ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يوق شح نفسه[1911]. وقد حذرنا رسول الله ﷺ من البخل، فقال ﷺ: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» أخرجه الإمام مسلم، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود قال ﷺ: «. . .وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور، ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[1912]. هذا ويجب أن يُعْرَفَ أن المذموم من المسلم بخله بإخراج ما هو واجب عليه في ماله كالزكاة والنفقة الواجبة عليه لزوجته أو لذوي أرحامه ونحو ذلك. ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير وذكره في تفسيره عن أنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: «برىء من الشح من أدّى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة»[1913].

٩٠٢- ب- البخل يوقع صاحبه في إخلاف العهد والنفاق:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1914]. يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال، ولا صدق فيما أدعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم القيامة، يوم يلقون ربهم[1915]. والآية نزلت في طائفة من المنافقين كما قال ابن كثير، وهو قول الضحاك، قال: الآية نزلت في رجال من المنافقين، وقال الإمام القرطبي بعد أن ذكر قول الضحاك: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم، إلا أن قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا ﴾ يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات

(١٩١١) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٩.
(١٩١٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٨-٣٣٩.
(١٩١٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٩.
(١٩١٤) سورة التوبة الآيتان ٧٥-٧٧.
(١٩١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٧٣.

وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾[1916].

فعلى الدعاة أن يعلموا أن المنافقين صاروا منافقين، لأوصاف علقت بهم واتصفوا بها في قلوبهم وأعمالهم، فإن كان نفاقهم في القلب يقوم على تكذيب رسول الله وما جاء به من ربه، فذاك هو الكفر المخرج من الملة، وإن كان نفاقهم في أعمال لا تتفق مع مقتضيات الإيمان فذاك نفاق الأعمال وقد يؤدي هذا النفاق إلى نفاق القلب[1917]. فعلى الداعي أن يحذّر نفسه وغيره من المسلمين من النفاق بنوعيه. ومن صفات المنافقين، كما جاء في الحديث النبوي الشريف «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: «إذا أوتمن خان وإذا حلف كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1918].

٩٠٣- العهد والبيعة على الدعوة:

من صفات المنافقين (إذا عاهد غدر) كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، فنقض العهد مذموم وحرام في شرع الله، إذا كان ما عاهد عليه المسلم ربه أمراً مطلوباً شرعاً، كعهده مع ربه إخراج الزكاة من ماله إذا آتاه الله مالاً تجب فيه الزكاة. وهكذا في سائر العهود والالتزامات التي يلتزم بها المسلم، وموضوعها من الواجبات الشرعية عليه قبل أن يلتزم بها بعهده، أي قبل أن يعاهد الله عليها، وإنما بعهده والتزامه يزداد الوجوب عليه تأكيداً وتوثيقاً، ويكون إخلافه في وعده وغدره في عهده مستحقاً للعقوبة: عقوبة إخلافه وغدره في عهده، وعقوبة لعدم قيامه بما عاهد عليه وهو في الأصل واجب عليه، وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية إذ قال رحمه الله: (إن ما وجب بالشرع إذا نذره العبد، أو عاهد الله عليه، أو بايع عليه الرسول ﷺ، أو الإمام، أو تحالف عليه مع جماعة، فإن هذه العهود والمواثيق تقتضي لها وجوباً ثانياً غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول، فتكون واجبة من وجهين بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهود والمواثيق، وما

(١٩١٦) تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٠.

(١٩١٧) تفسير القرطبي ص٢١٢، ٢١٣.

(١٩١٨) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، انتقاء القرضاوي ج٢ ص٩٠٢.

يستحقه عاصي الله ورسوله. هذا هو التحقيق)[1919] وعلى هذا إذا عاهد المسلم الجماعة المسلمة على العمل للدعوة في صفوف الجماعة ومع الدعاة فيها، وجب عليه القيام بما عاهد عليه هذه الجماعة، لأن الدعوة إلى الله مطلوب شرعي، لا ينفك عنه المسلم، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ ومتابعة الرسول ﷺ واجب شرعي، ومن لوازم هذه المتابعة وصفات المتابعين الدعوة إلى الله تعالى. ثم إن الدعوة إلى الله تُؤدى بصيغة جماعية، أي ضمن جماعة تدعو إلى الله ويكون المسلم واحداً منها، وهذا العمل الدعوى الجماعي أي من خلال الجماعة ومعها مطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ . . . ﴾ وأيضاً فإن التعاون على البر والتقوى مطلوب شرعي، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ ومن أعظم البّر التعاون على القيام بمتطلبات وأعمال الدعوة إلى الله، والتعاون عليها يقتضي العمل الجماعي. وعلى هذا، فعلى المسلم الذي بايع أو يبايع الجماعة المسلمة التي تدعو إلى الله، إذا بايعها على العمل معها على الدعوة إلى الله، وجب عليه الوفاء بما عاهد هذه الجماعة عليه، وعدم نقض عهده معها. لأن القيام بالدعوة إلى الله من المطلوبات الشرعية، وبيعته مع الجماعة ممثلة برئيسها أو أميرها تعتبر معاهدة معها، والتزام منه معها يجب عليه الوفاء، ولا يسعه التحلل منه. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك، ويوضحوا لأولئك الذين وفقهم الله إلى الانتساب إلى الجماعة المسلمة، ثم أعطوا العهد لها بالعمل معها على نشر الدعوة، والقيام بمتطلباتها، وما يستلزمه العمل الدعويُّ معها من طاعة لها بالمعروف.

٩٠٤- ثالثاً- الثبات على الحق وإن كثر المخالفون:

ذكرنا أن أحد أصحاب الجنة أنكر عليهم قصدهم السيّء، ونيتهم الخبيثة، على حرمان المساكين حقهم في ثمر جنتهم عن طريق جذاذها في الصباح الباكر، حيث لم تجر العادة على الجذاذ أي قطع الثمر في هذا الوقت، وبالتالي لا يحضر جذاذهم المساكينُ فيفوتهم نصيبهم من الثمر. فلم يقبل الباقون من أصحاب الجنة نصيحة أخيهم، ولم يلتفتوا إلى تحذيره وإنكاره عليهم. والظاهر أن ذلك الناصح وهو

(١٩١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٣٥ ص٣٤٥-٣٤٦.

-أوسطهم- أي أعدلهم، صحبهم في سيرهم إلى الجنة ولم يعتزلهم ويرفض الخروج معهم بالرغم من رفضهم نصيحته وبالرغم من إنكاره عليهم. وقد علمنا ذلك من قوله لهم عندما رأوا جنتهم المحروقة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ومعنى ذلك أنه لم يقم بما يقتضيه إنكاره عليهم من اعتزالهم وعدم مشاركتهم في الذهاب إلى البستان، وهذا منه خطأ، إذ كان عليه أن يثبت على موقفه ويرفض الذهاب معهم. ووجه العبرة التي يجب أن يستفيدها الدعاة أنَّ على المحق أن يثبت على حقه ولو كان وحده في هذا الحق والمخالفون له كثيرون. وإن على المحق أن يحقق ثباته بالقول والعمل: بالقول أن يصرح بالحق وينكر على المخالف. وبالعمل أن لا يشارك المخالفين له في أعمالهم، حتى لا يظهر وكأنه موافق لهم في الباعث على عملهم، بل عليه أن يعتزلهم بجسمه كما اعتزلهم بعقله وروحه، وحتى لا يكثّر سوادهم ويجلب الشبهة على نفسه. وكذلك على الدعاة أن يسعوا إلى تشتيت وتفريق أصحاب الآراء المخالفة للشرع أو المخالفة لرأي الجماعة، ما دام رأيها اجتهادياً وسائغاً، لأن تجمع المخالفين لرأي الجماعة الاجتهادي لا يجوز، فلا بد من العمل على عدم تجمعهم على أساس رأيهم المخالف، لأن تجمعهم قد يؤثر في ثبات العضو الملتزم بطاعة الجماعة، لأن الكثرة لها تأثيرها كما رأينا في موقف الذي أنكر على إخوته من أصحاب الجنة، ومع إنكاره وَاقَعَهُمْ في السير معهم وإن كان منكراً بقلبه لفعلهم.

٩٠٥- رابعاً- الاعتراف بالذنب وتعجيل التوبة:

عندما وصل أصحاب الجنة إليها ورأوها محروقة لا ثمر فيها ولا شجر، وتأكدوا أنها هي جنتهم ذكّرهم أوسطهم قائلاً لهم: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم وسوء عملكم القادمين عليه؟ فعند ذلك اعترفوا بذنبهم و ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بخطيئتهم وذنبهم وأكدوا ذلك بقولهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ ثم توجهوا إلى ربهم تائبين منيبين إليه قائلين: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾. فعلى الدعاة أن يروّضوا أنفسهم على الاعتراف بالخطأ أو الخطيئة، إذا وقعوا فيه أو فيها دون لجاجة وجدل واحتجاج، لإخفاء الخطأ أو الخطيئة، وليعلموا مستحضرين ذلك في أذهانهم قول رسول الله

ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وأكثر ما يكون خطأ الداعية أو خطيئتُهُ في علاقته بجماعته المسلمة، جماعة الدعاة، وفي منهجها في العمل وسياستها فيه ونحو ذلك. ومن لوازم العمل الجماعي طاعة الجماعة بالمعروف أي في غير معصية الله، والمعصية ما عليها دليل واضح، أما الأمور الاجتهادية فهي واجبة الطاعة على الداعية إذا أمرت بها الجماعة، ومن ثم تكون مخالفتها مخالفةً للشرع، فعلى الداعي الرجوع عن هذه المخالفة والتوبة إلى الله منها ومن سائر المعاصي التي قد يقع فيها.

٩٠٦- خامساً- البخل من صفات الإنسان:

من صفات الإنسان كإنسان البخل، قال ربنا تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾[١٩٢٠] قال ابن عباس وقتادة أي بخيلاً منوعاً. قال ابن كثير: والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إنسان إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[١٩٢١]. والهلع سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. وعلى هذا فالهلوع هو الذي إذا ناله شرٌ، أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس، والمعنى: أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع، وتمكنهما منه، ورسوخهما فيه، كأنه مجبول عليهما مطبوع، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري[١٩٢٢]. ويقول الإمام ابن كثير في تفسير ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا...﴾ يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسره تعالى بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي: إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها[١٩٢٣]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الإنسان من حيث هو إنسان متصف

(١٩٢٠) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

(١٩٢١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٦٦ والآيات في سورة المعارج ورقمها من ١٩-٢٢.

(١٩٢٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦١٢.

(١٩٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٢١.

بصفات الذم، إلا من عصمه الله، ووفقه وهداه إلى الخير، ويسرَّ له أسبابه، وهم المصلون ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[١٩٢٤] أي: يحافظون على أوقاتها وواجباتها ويؤدونها بخشوع وطمأنينة[١٩٢٥]، وحيث إن من غرائز الإنسان البخل، وإن هذا الوصف يرسخ فيه إذا ترك وشأنه، ولم يقمع بالإيمان العميق والعبادة الدائمة، فإنه -أي- البخل يحمل صاحبه إلى منع الغير حقهم، كما فعل أصحاب الجنة. وعلى هذا يجب على الدعاة أن يفقهوا ما جُبِل عليه الإنسان من صفات وميول، وأن يعملوا على تخليص الناس منها وذلك بتبصيرهم ما فيهم من طباع الشر، ومنها البخل، وإن هذه الطباع ومنها البخل يمكن إزالتها أو قهرها بتزكية النفس، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[١٩٢٦]. قال ابن كثير: يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أي: بطاعة الله، كما قال قتادة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل[١٩٢٧]. فتطهير النفس من الرذائل ومنها البخل ممكن، وإلا لما علق الله الفلاح بتزكيتها، وأمره بهذه التزكية، لأن من قواعد الشرع: لا تكليف بمستحيل. وأعظم ما يزكي النفس من الرذائل ومنها البخل، عبادة الله والدوام على هذه العبادة، ولذلك استثنى الله المصلين من الموصوفين بالهلع والجزع والبخل أي منع الخير عن الناس. وقال تعالى مبيناً أثر العبادة في تزكية النفس: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالصلاة تقمع ميل الإنسان إلى الفحشاء والمنكر ومنه رذيلة البخل وغيره.

(١٩٢٤) سورة المعارج الآية ٢٣.

(١٩٢٥) تفسيرابن كثير ج٤ ص٤٢١.

(١٩٢٦) سورة الإسراء الآية ١٠٠.

(١٩٢٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥١٦.

الفصل الرابع والعشرون

قصة صاحب الجنتين

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٠٧- خلاصة القصة:

القصة تدور حول رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل، المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع. وكلٌ من الأشجار والزروع مثمر في غاية الجودة، والأنهار متفرقة فيهما ها هنا وها هنا. ودخل جنته مغروراً ومعجباً بها، فقال: ما أظن أن تهلك هذه الجنة، وما أظن الساعة -أي: يوم القيامة- كائنة، ولئن كان هناك حياة بعد الموت ورجوع إلى الله، ليكوننَّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي. فقال له صاحبه -وكان رجلاً مؤمناً، وهو ينكر عليه إنكاره يوم البعث-: لقد كفرت بالذي خلقك، وأنا الآن فقير، ولكن أرجو الله أن يعطيني في الآخرة خيراً من جنتك، ويرسل على جنتك ما يهلك شجرها وثمرها، أو يجعل ماء أنهارها غائراً في الأرض. وقد وقع الهلاك بثمر جنته، وأحسَّ بأن الذي وقع بجنته هو نتيجة كفره وغروره، فقال: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً[١٩٢٨]. ونذكر فيما يلي تفاصيل القصة كما وردت في القرآن الكريم.

٩٠٨- القصة ذكرت مثلاً للكافرين والمؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾[١٩٢٩]. هذا مثل ضربه الله للطائفتين: طائفة المشركين التي أرادت من النبي ﷺ أن يطرد طائفة فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، ولهذه

(١٩٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣-٨٤.

(١٩٢٩) سورة الكهف الآية ٣٢.

الطائفة أيضاً، فالمثل مضروب لهاتين الطائفتين. وظاهر هذا المثل أنه لأمر وقع وكان موجوداً، وإن كان يصح ضربه مثلاً بمن هذه صفته المذكورة في الآية وإن لم يقع ذلك في وجود قط(١٩٣٠). وقوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: بساتين من كروم، ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا بينهما أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، أو جعلنا حول الأعناب النخل ووسط الأعناب الزرع(١٩٣١).

٩٠٩- كلتا الجنين آتت أكلها:

قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ...﴾(١٩٣٢). قوله: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهراً يسقي الزروع والأشجار، ويزيد في بهجة مرآهما متمماً لحسنهما. ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي: أنواع من المال من ثمر ما له إذا كثر(١٩٣٣).

٩١٠- أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً:

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾(١٩٣٤). كان لصاحب الجنتين صاحب فقير، صاحب فقير الحال ولكنه مؤمن عزيز النفس، فقال له صاحب الجنتين وهو يحاوره، أي: وهو يراجعه تعييراً له بالفقر وفخراً عليه بالمال والجاه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر منك مالاً وأكثر خدماً وحشماً وأنصاراً وولداً. قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر(١٩٣٥).

(١٩٣٠) تفسير ابن عطية ج٩ ص٣٠٤-٣٠٩.

(١٩٣١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢١، تفسير القرطبي ج٩ ص٤٠١.

(١٩٣٢) سورة الكهف الآيات ٣٣، ٣٤.

(١٩٣٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٤٠٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٤١.

(١٩٣٤) سورة الكهف الآية ٣٤.

(١٩٣٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣.

٩١١- صاحب الجنتين يعلن كفره:

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[١٩٣٦]. قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ أي: ومعه صاحبه المؤمن يطوف به في جنته، ويفاخره بها، ويعجّبه منها، كما يدل عليه السياق ومحاورته له. وإفراد الجنة هنا مع أنَّ له جنتين كما مرَّ إما لعدم تعلق الغرض بذكر تعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد. ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي: ما أظن أن تهلك وتفنى ﴿ هَٰذِهِۦٓ ﴾ أي: جنته ﴿ أَبَدًا ﴾ لاعتقاده أبدية الدهر. ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي: كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي ولئن كان هناك معاد وبعث بعد الموت، ورجعة ومردٌّ إلى الله ليكوننَّ لي هنالك أحسن مما عندي الآن، لأنه لولا منزلتي العالية عند الله وكرامتي عليه ما أعطاني هذا في الدنيا أي الجنتين[١٩٣٧].

٩١٢- ردّ المؤمن على كفر صاحبه:

قال تعالى عما ردّ به المؤمن على كفر صاحبه، صاحب الجنتين: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[١٩٣٨]. يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله وعما هو فيه من الاغترار: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهذا إنكار عظيم لما وقع فيه صاحبه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم عليه السلام فقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أي: خلق أصلك وهو آدم، لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له. ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ أي: عدّلك وكمّلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. والمؤمن جعل صاحبه كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث بعد الموت، كما يكون المكذب

(١٩٣٦) سورة الكهف الآية ٣٥، ٣٦.

(١٩٣٧) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣، تفسير القاسمي ج١٢ ص٤٢.

(١٩٣٨) سورة الكهف الآية ٣٧.

بالرسول ﷺ كافراً[1939] والحقيقة أن جحود الإنسان ربه بعدم الإيمان به رباً ومعبوداً، هذا الجحود منه كفر صريح وجرم عظيم، لأنه يناقض الدليل الظاهر المحسوس الذي يعرفه كل إنسان، ولذلك قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1940] أي أتكفرون بالله ومعكم ما يصرفكم عن الكفر ويدعو إلى الإيمان، فكأنه قيل: ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم[1941]. وقال ابن كثير في هذه الآية: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ...﴾ أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء[1942]. ولهذا قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالواحدانية والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له فلا أعبد سواه ولا أعبد معه غيره[1943].

٩١٣- ردُّ المؤمن على غرور صاحبه وإعجابه بما عنده:

وبعد أن ردّ المؤمن على كفر صاحبه وضلاله، ردّ عليه غروره وافتخاره عليه بماله وتعييره بفقره، قال تعالى حكاية عما قاله المؤمن لصاحبه الكافر: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾[1944]. والمعنى: هلا إذا دخلتَ جنتكَ ونظرتَ إلى ما رزقك الله منها، وأعجبك ما فيها ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: الأمر ما شاء الله، وهذه الجنة هي ما شاء الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، اعترافاً بأنها وكل خير

(١٩٣٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٢.

(١٩٤٠) سورة البقرة الآية ٢٨.

(١٩٤١) تفسير الزمخشري ج١ ص١٢١، ١٢٢.

(١٩٤٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣.

(١٩٤٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٣.

(١٩٤٤) سورة الكهف الآيات ٣٩-٤١.

فيها إنما هو حصل بمشيئة الله وفضله، وإن أمر جنتك بيده: إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها. وقلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إقراراً منك بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته تعالى، وتأييده، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله تعالى(١٩٤٥). ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله(١٩٤٦). وقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أشار المؤمن لصاحبه بأن تعييره إياه بالفقر وقلة الولد والنصير لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾(١٩٤٧) والمعنى: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويسلبك لكفرك نعمته عليك، ويخرب بستانك بأن يرسل عليها حسباناً من السماء أي: مقداراً قدّره الله وحسبه، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات سماوية ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: تراباً أملس لا تثبت عليها قدم لملاستها فيزلق عليها الماشي زلقاً، أو يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن ﴿يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: وسيلة تدركه بها بالحفر أو بغيره(١٩٤٨).

٩١٤- هلاك الثمر وندم صاحبه:

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾(١٩٤٩). وقوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أُهلك ثمره. وهذه العبارة (أحيط به) تستعمل في كل إهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾. قوله ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: يصفق كفيه أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً، لأن هذا يصدر من النادم، وتأسفاً على الأموال التي أنفقها على

(١٩٤٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٣، تفسير القرطبي ج١٠ ص٤٠٦.

(١٩٤٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٤.

(١٩٤٧) سورة الكهف الآيات ٤٠، ٤١.

(١٩٤٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٣، تفسير القاسمي ج١١ ص٤٥، ٤٦.

(١٩٤٩) سورة الكهف الآيات ٤٢-٤٤.

عمارة جنته ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي: ساقطة على عروشها. والعروش جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شيء فإذا سقط، سقط ما عليه، يعني أنَّ أعنابها المعروشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الأعناب بحيث قاربت أن تصير صعيداً زلقاً. ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ وذلك أنه تذكرَّ موعظة صاحبه المؤمن فعلم أن هلاك ثمر بستانه سببه شركه وكفره بربه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى تسلم له بستانه ولا يهلكها الله. وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أي: لم تكن له مَنَعةٌ ولا قومٌ ينصرونه من دون الله، أي يقدرون على نصرته من دون الله كما افتخر بهم، واستعزَّ بهم على صاحبه المؤمن ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أي: ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله(١٩٥٠). وقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي: في ذلك المقام وتلك الحال التي وقع فيها الإهلاك، الولاية أي: النصرة لله وحده، لا يقدر عليها أحد غيره، فالجملة مقررة ومؤكدة لقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ ﴾، لأنها بمعناها. ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، يعني: أنه نصرَ فيما فعل بالكافر صاحبَه المؤمن وصدّق قوله وتمنيه ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ويعضده قوله: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي: لأوليائه(١٩٥١). وقوله تعالى: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي: الله تعالى خيرٌ ثواباً في الدنيا والآخرة، لمن آمن به أي هو خير من يُرجَى منه ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي: هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به(١٩٥٢).

(١٩٥٠) تفسير القاسمي ج١١ ص٤١.

(١٩٥١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧٢٤.

(١٩٥٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص٤١١.

المبحث الثاني
ما يستفاد من قصة صاحب الجنتين

٩١٥- تعداد هذه الفوائد:

يستفاد من قصة صاحب الجنتين: (أ) أن كثرة مال الإنسان أو قلته لا تدلان على إكرام أو إهانة من الله. (ب) وأن كثرة المال قد تُطْغي صاحبه. (ج) وأن إيمان المؤمن لا يتأثر بالفقر والغنى. (د) قد يصاحب المؤمنُ الكافرَ ولكن لا يترك الإنكار عليه.

٩١٦- أ- لا دلالة بكثرة مال الإنسان أو قلته على إكرامه أو إهانته:

ليعلم الداعي ويعلّمه الناس أَنْ لا دلالة بكثرة مال الإنسان أو قلته على إكرام الله له أو إهانته، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١٩٥٣]. وجاء في تفسير هذه الآيات أن الله تعالى ينكر على الإنسان اعتقاده بأن كثرة المال التي يرزقها الله إياه هي دليل على إكرام الله له، وكذلك ينكر عليه اعتقاده أن قلة مال الإنسان دليل على إهانة الله له، لأن الله تعالى يعطي المال الكثير للمؤمن والكافر، وقد لا يعطي من المال إلا القليل للمؤمن أو للكافر، وكل ذلك للإبتلاء ولا علاقة ولا دلالة في هذا العطاء القليل أو الكثير على الإهانة أو الإكرام[١٩٥٤]. فصاحب الجنتين أُوتي هاتين الجنّتينِ وما جاءه منهما من مال كثير، فَغَرَّهُ هذا المال وحسبه دليلاً على إكرام الله له فراح يفتخر به، ويتعالى به على صاحبه، ويعيره بقلة ماله ويفاخره بكثرة ماله. أما صاحبه المؤمن فهو يدرك ببصيرته وبنوره وإيمانه أَنَّ فقره وغنى صاحبه الكافر هو للابتلاء، ليظهر مدى شكر العبد في حال غناه ومدى صبره في حال فقره، وهذا ما لم يفقهه الكافر صاحب الجنتين. فعلى الدعاة

(١٩٥٣) سورة الفجر الآيات ١٦-١٨.

(١٩٥٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٠٩.

تبيين هذه الحقيقة للناس، وتكريرها على أسماعهم، وضرب الأمثال لهم حتى ترسخ هذه الحقيقة في نفوسهم.

٩١٧ -ب- كثرة المال قد يُطْغِي صاحبه:

المال وسيلة لنيل الملذات واتباع الشهوات والتسلط على الناس، وفيه قابلية جرِّ صاحبه إلى الطغيان، وتجاوز قدر نفسه، وإدعاء ما ليس له، والظنِّ بأنَّ ما أُوتيه هو على جهة الاستحقاق، فيحمله هذا الظن على العجب بنفسه وإزدراء غيره والتكبر عليه. وقد مرت بنا قصة قارون وكيف أخرجه ماله الواسع الكثير عن قدر وحدّ نفسه. ثم يحمله ذلك إلى بطر النعمة وعدم شكر ما آتاه الله من مال. ولا يُنجّي الإنسان من طغيان المال إلا الإيمانُ العميق، وهذا ما ندعو الدعاة إلى تأكيده للناس، وتحذيرهم من فتنة المال وطغيانه، وضرب المثل بصاحب الجنتين، فقد كان عديمَ الإيمان، كما يدلّ عليه ما قاله من إنكار البعث بعد الموت وما ردّ عليه صاحبه المؤمن إذ صرح له بكفره، فلا عاصم للإنسان من طغيان المال إلا الإيمان العميق، وهذا ما يجب أن يؤكد عليه الدعاة، ويحذّروا المسلمين من الوقوع في أسر المال وطغيانه، لئلا يحلّ بهم ما حلّ بأمثالهم من هلاك المال، أو هلاكهم أيضاً مع هلاك المال.

٩١٨ -ج- إيمان المؤمن لا يتأثر بفقر أو غنى:

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يتأثر صاحبه بفقر أو غنى يصيبه، ولا بفقر أو غنى يصيب الكافر، لأن الغنى والفقر مما يمتحن الله به عباده، ولا يجوز للعبد أن يعترض على نوع الامتحان الذي يمتحن الله به عباده، فقد يمتحن الله الكافر بالغنى وسعة المال، ويمتحن المؤمن بقلة المال. كما يعلم المؤمن أن ما أنعم الله عليه من نعمة الإيمان، لا تساويها أبداً أي نعمة يؤتاها الإنسان كنعمة المال والأولاد وما إلى ذلك. ولهذا فهو لا يتزلزل إيمانه أبداً إذا افتقر هو أو اغتنى الكافر، فمتاع الدنيا قليل وزائل، ولا يستحق أن تستشرف له نفس المؤمن، ولا أن يكون هو مقصدها وهمّها، ولا أن يحزن على فوته أو فقده، لأن مقصد المؤمن الآخرة ومرضاة الله، ولأنه يعلم مدى حقارة الدنيا عند الله تعالى، يدل على ما قلناه أن الله تعالى بعد أن ذكر التفاوت بين عباده في الرزق قال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن

يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1955] والمعنى: لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال لإنسان دليل على محبتنا له فيجتمعوا على الكفر لأجل المال: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يصعدون ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: جميع ذلك يكون من فضة «وزخرفاً» أي: ذهباً. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: كل ذلك من متاع الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى. ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحدٌ غيرهم[1956]. فالمؤمن لا يأسف ولا يتزلزل إيمانه إذا كان فقيراً مضيقاً عليه بالرزق، والكافرغنياً مُوسعاً عليه بالرزق، لأنَّ حرص المؤمن على مرضاة الله، وما ينعم الله به على المؤمنين في الآخرة، وليس حرصه على متاع الدنيا الزائل ولا على النعم فيها. إنه يعرف قدر الدنيا ويعلم لو أنها تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً كما جاء في حديث الترمذي عن رسول الله ﷺ كما ذكره ابن كثير في تفسيره[1957]. فعلى الدعاة أن يفقهوا ما قلناه ويعلّموه الناس، ويستدلوا بالمؤمن صاحب الكافر ذي الجنتين عندما قال له صاحبه ذو الجنتين: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ثم نطق بالكفر وقد دخل جنته ومعه صاحبه المؤمن: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . . .﴾ الآية فقال له صاحبه المؤمن: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ . . .﴾ الآية، ثم أعلن المؤمن ثباته على إيمانه فقال: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، وهكذا يجب أن يكون المؤمن ثابتاً على إيمانه، لا يتزعزع إيمانه ولا يضعف، ولا يتأثر إذا وجد الكافرَ في سعة من العيش وكثرة من المال، وهو في ضيق وقلة مال مع أنه مؤمن.

(١٩٥٥) سورة الزخرف الآيات ٣٣-٣٥.

(١٩٥٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٧.

(١٩٥٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢٧.

٩١٩- مصاحبة المؤمن للكافر:

رأينا في قصة صاحب الجنتين وهو كافر، أن له صاحباً وهو مؤمن، ويستفاد من ذلك جواز صحبة المؤمن للكافر ولكن بشرط أن لا يتأثر المؤمن بهذه الصحبة وأن يبقى ثابتاً على إيمانه، وأن ينكر على صاحبه الكافر إذا نطق بما يستوجب الإنكار، وأن يكون قصده في هذه الصحبة العمل على إصلاحه وهدايته. وهذا -على ما يبدو- كان حال المؤمن صاحب ذي الجنتين. أما إذا كان المؤمن لا يقوى على صحبة الكافر مع الحفاظ على ثباته على الإيمان، وخاف على إيمانه من الاضطراب، وعدم الثبات بسبب هذه الصحبة وبسبب ما يراه من مال كثير عند الكافر، وفقر مدقع هو فيه، ففي هذه الحالة لايجوز للمؤمن أن يستمر في هذه الصحبة للكافر. والظاهر أن الصاحب لذي الجنتين كان مؤمناً واثقاً من إيمانه ومنكراً على صاحبه ما كان يصدر منه من قول أو فعل يستوجب الردّ والإنكار. فعلى الدعاة أن يلاحظوا ذلك وتكون صحبتهم في الأصل للمؤمنين حيث يتقوى بهم ويتقوّوْنَ به. أما الكفرة فلا يصاحبهم إلا بقصد هدايتهم وعلمه بعدم تأثره بهم، وإنكاره عليهم إذا صدر منهم ما يدعو إلى الإنكار.

الفصل الخامس والعشرون

قصة أصحاب الفيل

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٢٠- خلاصة القصة:

أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قِبَلِ ملك الحبشة الذي أرسل جيشاً كثيفاً إلى اليمن، كان أبرهة أحد الأميرين في هذا الجيش. ولما صفا الحكم لأبرهة الأشرم بنى كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها، سمتها العرب «القليس» لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة. ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها -أي تغوط فيها- وكرَّ راجعاً من حيث أتى، فلما علم أبرهة بذلك، وقيل له إن الذي فعله بعض قريش، أَقسمَ ليذهبن إلى بيت مكة «الكعبة» وليخربنَّه حجراً حجراً. وسار بالفعل بجيش كثيف يتقدمهم فيل عظيم لم يُرَ مثله. وقاتله في طريقه إلى مكة القبائل العربية ولكنه تغلب عليها حتى وصل إلى الطائف فخرج إليه مسعود بن مُعتِّب في رجال من ثقيف، فقالوا لأبرهة ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريده يعنون اللات -وهو بيت لهم يعظمونه ففيه صنمهم اللات- إنما تريد أنت البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم، وبعثوا معهم أبا رِغال فأنزلهم بالمغمِّس، وهو موضع قرب مكة، في طريق الطائف، فلما أنزلهم في هذا المكان مات أبو رغال هناك فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجمه الناس بالمغمسِّ، وفيه يقول الشاعر:

وأرجمُ قبرَه في كل عام ... كرجم الناس قبَر أبي رغال

ثم أرسل أبرهة بعض جنده، ودخلوا مكة واستولوا فيما استولوا عليه على مائتي بعير لعبدالمطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان معهم في الحرم بقتال أبرهة، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، لجيشه الكثيف الذي جاء به، فتركوا قتاله. وبعث أبرهة أحد أعوانه إلى أهل مكة ليأتيه بسيدهم ليكلمه بشأن مجيئه، وأنه ما جاء لقتالهم وإنما لهدم الكعبة، فدلوه على عبدالمطلب فجاء به إلى أبرهة فلما دخل عليه هابه وأجلّه ونزل عن سريره وجلس على البساط بجنب عبدالمطلب، وقال لترجمانه قل له: ما حاجتك وماذا تريد؟ فقال عبدالمطلب إن حاجتي أن يردَّ عليّ أبرهة مائتي بعير استولى عليها أعوانه. فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مئتي بعير استولينا عليها، ولا تكلمني في بيت هو دينك ودين آبائك، جئت لأهدمه، فقال عبدالمطلب: إني أنا رب الإبل وإنَّ للبيت رباً سيحميه وسيمنعه منك. قال ما كان ليمتنع مني. قال عبدالمطلب: أنت وذاك. وردّ أبرهة على عبدالمطلب إبلَه ورجع عبدالمطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من بطش الجيش بهم. ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، ثم خرج هو وقريش إلى الجبال كما أمرهم عبدالمطلب. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله الكبير وجيشه لدخول مكة. فلما وجهوا الفيل نحو مكة برك الفيل فضربوه ليقوم وينهض فأبى عليهم ذلك. ولما وجهوه إلى اليمن قام يهرول ووجهوه إلى الشام فَفَعَلَ مثل ذلك ولما وجهوه إلى مكة برك(١٩٥٨). وأتبع ذلك أن أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة، فأهلكتهم كما سنبيّن ذلك في تفسيرنا لسورة الفيل التي أخبرنا الله فيها بكيفية هلاكهم.

٩٢١- قصة أصحاب الفيل في القرآن الكريم:

قال تعالى مخبراً عن هلاك أصحاب الفيل الذي جاءوا يريدون هدم الكعبة، ومخبراً عن كيفية هذا الهلاك، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ

(١٩٥٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٤٩-٥٥٠، تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٨٧-١٨٩.

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1959].

٩٢٢- تفسير سورة الفيل:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ يعني الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة، ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم. والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لرسوله ﷺ. والهمزة في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لتقرير رؤيته ﷺ، وهي رؤية علمية وليس بصرية، والمعنى: ألم تعلم علماً كالمشاهدة والعيان باستماع الأخبار المتواترة، ومعاينة الآثار الظاهرة بما فعله ربك بأصحاب الفيل، حيث أنه تعالى أهلكهم بكيفية هائلة وعجيبة دالاً على عظمة قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته[1960].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ بيان إجمالي لما فعل الله تعالى بهم. أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة في تضييع وإبطال لما حاولوا ذلك، وتدميرهم أشد تدمير. وقال الرازي، كما ينقل عنه الإمام القاسمي: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، فإن قيل لِمَ سماه كيداً وأمره كان ظاهراً، فإن أبرهة الأشرم كان يصرح أنه يريد هدم البيت؟ فالجواب: نعم كان يصرح بذلك لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهره، لأنه كان يضمر الحسد للعرب وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم، إلى نفسه وإلى اليمن التي يحكمها[1961].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: أرسل الله تعالى على أبرهة وجيشه ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ والأبابيل: الجماعات تجيء شيئاً بعد شيء. وقال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه. وهذا هو الصحيح[1962]. والتنكير في ﴿طَيْرًا﴾ إما للتحقير، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر. أو جاء التنكير في ﴿طَيْرًا﴾ للتفخيم كأنه يقول: طيراً وأي طير بحجارة صغيرة فلا تخطىء المقتل بل تصيبه بدقة

(١٩٥٩) سورة الفيل الآيات من ١-٥.

(١٩٦٠) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٥.

(١٩٦١) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٥-٢٥٦.

(١٩٦٢) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥٧٢.

عجيبة[١٩٦٣]. وقوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي: من طين متحجر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين مطبوخ كما يُطْبَخ الآجر. وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة[١٩٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ والعصف ورق الحنطة وتبنه. والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحنطة أكلته الدواب وراثته، أي أخرجته روثاً[١٩٦٥] شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء أبدانهم بتفرق أجزاء الروث الذي حدث عن أكل الزرع وعصفه[١٩٦٦].

٩٢٣- دلالة قصة أصحاب الفيل:

إن في قصة أصحاب الفيل وهلاكهم عبراً كثيرة أشار إليها المفسرون، وحِكماً أشار إليها بعضهم. فمن أقوال المفسرين فيما أفادته هذه القصة من عبر وعظات وحِكَم، ما يأتي:

أولاً: قال الإمام ابن عطية وهو يفسر هذه السورة ويشير إلى هلاك أبرهة وجيشه: «فنزلت هذه السورة منبهة على الاعتبار بهذه القصة- قصة هلاك أصحاب الفيل- ليعلم الكل أن الأمر كله لله تعالى، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته حين لم تغن الأصنام شيئاً[١٩٦٧].

ثانياً: جاء في تفسير القرطبي، وهو يفسر سورة الفيل، «وقال ابن إسحاق: لما ردَّ الله الحبشة عن مكة عظّمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم[١٩٦٨]. كما ازدادت هيبة الحرم وتعظيمه وحرمته في أعين العرب ونفوسهم لما رأوا صيانة الله لبيته وإهلاك

(١٩٦٣) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٦.

(١٩٦٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٨٠٠، تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٩٨، تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٦.

(١٩٦٥) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥٧٢-٥٧٣.

(١٩٦٦) تفسير القرطبي ج٢٠ ص١٩٩، تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٥٦.

(١٩٦٧) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥٧١.

(١٩٦٨) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٠٠.

من أراد تخريبه[١٩٦٩].

ثالثاً- وجاء في تفسير ابن كثير في هلاك أبرهة وجيشه «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله... وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلِد على أشهر الأقوال. ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليه ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم النبيين[١٩٧٠].

(١٩٦٩) تفسير القاسمي ج١٧ ص٢٦٣.

(١٩٧٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٤٨-٥٤٩.

المبحث الثاني

ما يستفاد من القصة للدعوة والدعاة

٩٢٤- أولاً- قد يدفَعُ العذاب عن قوم من أجل غيرهم:

دفع الله تعالى العذاب عن قريش بإهلاك أبرهة صيانة لبيته (الكعبة المشرفة)، لا لخيرتهم على جيش أبرهة كما أشار ابن كثير. وهذا يعلمنا أن من سنة الله تعالى دفع العذاب الدنيوي عن قوم لأجل غيرهم، وقد يكون هذا الغير حرمة الكعبة وصيانتها من التخريب، وقد يكون الغير الضعفاء في الأمة كالأطفال والشيوخ، كما جاء في الأثر «إنما تُنصَرون بضعفائكم» أي يُردُّ عنكم الأذى، ويُردُّ عنكم اعتداء العدو لا بقوتكم، ولكن رحمة بالضعفاء منكم، بأن لا يمسهم أذى من العدو إذا استولى على البلاد فيردهم عنكم لهذا السبب. وهذا تنبيه للناس بالعناية بالضعفاء وعدم إهمالهم. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك ويجعلوه من ضمن ما يعلّمونه للناس. ويؤيد ما قلناه من أن من سنة الله دفع الأذى والعذاب عن قوم من أجل غيرهم قوله تعالى بصدد صلح الحديبية، وعدم دخول النبي ﷺ مكة بالقوة، فقال تعالى مبيناً العلة في عدم الدخول إلى مكة بالقوة: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1971] أي: لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون بمكة مع الكفار، لم تعلموهم بصفة الإيمان وهم بمكة، حبسهم المشركون بها عنكم فلا يستطعيون من أجل ذلك الخروج إليكم. ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي: تقتلوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح، فتح مكة بالقوة، بدل الصلح معهم، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: إثم وغرامة. فجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين موجودين مع المشركين لا تعلمونهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كفّ أيديكم عنهم، ولأذن لكم في دخول مكة فاتحين

(١٩٧١) سورة الفتح الآية ٢٥.

بالقوة[1972]. هذا ويجب أن يعرف أن سنة الله التي ذكرناها، وهي دفع العذاب عن قوم لأجل غيرهم، هذه السنة تتحقق إما بإهلاك المعتدين الذين يريدون الاعتداء على ما يستحق الصيانة والحرمة، كما في إهلاك جيش أبرهة الذي جاء ليعتدي على حرمة البيت بتخريبه، حيث نتج عن هذا الإهلاك نجاة قريش من جيش أبرهة وبغيه واعتدائه على قريش. وأما أن تتحقق هذه السنة الإلهية بدفع العذاب الذي يستحقونه، لئلا يصيب الأبرياء، كما في عدم الإذن للنبي ﷺ بفتح مكة بالقوة وبقتال المشركين؛ لئلا يصيب المؤمنين الذين لا يعرفهم المسلمون القتلُ والأذى الذي يصيب المشركين. إن معرفة الدعاة هذه السنة الإلهية تفيدهم في معرفة بعض وجوه حكمة الله فيما يقع من أحداث، حتى لا يخطئوا في تأويلها فيسلم لهم إيمانهم وعقيدتهم الإسلامية. وعليهم أن يوضحوا هذه السنة الإلهية في دروسهم للناس أو في خطبهم فيهم.

٩٢٥- ثانياً - عقاب المعتدين عند عجز المؤمنين:

الأصل في ردّ المعتدين ودفع اعتدائهم، الذين يقصدون الاعتداء ويصرون عليه، أقول: الأصل في ردهم في هذه الحالة هو دفعهم بالقوة اللازمة لدفعهم ولو بقتلهم وقتالهم، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ...﴾[1973] فعذاب الله يصيب مستحقيه على أيدي المؤمنين ما داموا قادرين على ذلك، وهذا هو الأصل في عقاب المعتدين والمتجبرين والطغاة والظالمين، إذ يجب على المسلمين قمع هؤلاء وتأديبهم ورد اعتدائهم، ما داموا قادرين على ذلك، وهذا هو المعنى الظاهر من الآية، وهو المعنى المستفاد من قواعد الشريعة بخصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزام والتزام المسلمين بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا عجز المسلمون عن رد اعتداء المعتدين وقتالهم، وكان عجزهم حقيقياً لم يكن نتيجة تقصيرهم، فإنَّ من سنة الله تعالى دفع الاعتداء عنهم، وإذا كان من سنة الله قمع المعتدين الذين يريدون هتك حرمة الكعبة، مع ما يترتب على قمعهم من نجاة

(١٩٧٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٣، تفسير القاسمي ج٤ ص٩٠-٩١.

(١٩٧٣) سورة التوبة، الآيتان ١٤، ١٥.

قريش وهم قوم مشركون، فمن باب أولى أن يكون من مقتضيات هذه السنة الإلهية التي نتكلم عنها، أن يقمع الله تعالى المعتدين وشرهم، دفعاً لأضرارهم واعتدائهم على المسلمين الذين يعجزون عن ردهم وقتالهم -وعجزهم ليس بتقصير منهم. وهذا ما تدل عليه آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1974]. قال الزمخشري في تفسيرها: إن الله تعالى يغلّبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله تعالى فالعاقبة لهم[1975]. وقال الآلوسي في تفسيرها: إننا ننصر رسلنا وأتباعهم في الحياة الدنيا بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفرة من صورة الغلبة امتحاناً لهم، إذ العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمور[1976]. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، إنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقرّ أعينهم ممن آذاهم. وقال السدّي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال السدّي: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلَون في الدنيا، وهم منصورون فيها[1977]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1978]. وجاء في تفسيرها: فيها مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام لأجلهم. وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا وأنه عام لجميع المؤمنين، فيشمل المؤمنين من بعد الرسل من الأمة[1979]. والمؤمنون العاجزون عن رد اعتداء الكفرة وعن قتالهم، وعجزهم ليس بتقصير منهم كأن يكونوا قلة والكفرة كثرة، فإنهم يبقون مؤمنين، وتشملهم هذه الآية الكريمة

(١٩٧٤) سورة غافر الآية ٥١.

(١٩٧٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٧٢.

(١٩٧٦) تفسير الألوسي ج٢٤ ص٧٦.

(١٩٧٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٨٣-٨٤.

(١٩٧٨) سورة الروم الآية ٤٧.

(١٩٧٩) تفسير الألوسي ج٢١ ص٥٢.

فينصرهم الله على أعدائهم ويدفع شرهم عنهم بما شاء وكيف يشاء، لأنَّ وعد الله لا يتخلف.

٩٢٦- ثالثاً - الأمر كله بيد الله:

ومما يستفيده الدعاة أن يعلموا يقيناً بأن الأمر بيد الله، وأن الفرج بعد الشدة، وأنَّ الغلبة على العدو المعتدي بمشيئة الله، وأن المسلم لا يجوز أن ييأس أبداً، وأن يؤمن بكفاية الله لعباده المؤمنين، وأَنَّ عليهم أن يدعو الله ويستنصروه ويستغيثوا به، فهو القادر على نصرهم ورد كيد أعدائهم، وقد فقه هذا المعنى عبدالمطلب فقد ذهب هو ونفر من قريش، فأخذ عبدالمطلب بحلقة باب الكعبة وأخذ ومن كان معه يدعون الله ويستنصروه على أبرهة وجيشه، ثم صعدوا وأهل مكة إلى رؤوس الجبال. فعلى الدعاة أن يفقّهوا الناس بهذا الجانب الإيماني، وهو ثقتهم بالله وتوكلهم عليه وأملهم التام برعاية الله لهم، مهما كانت قوة أعدائهم، فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما على المسلمين إلا أن يحققوا في أنفسهم معاني الإيمان، ويعدّوا من القوة المادية ما يستطيعون كما أمرهم الله، ويدعوا الله أن ينصرهم على أعدائهم.



الفصل السادس والعشرون

قصة المنسلخ من آيات الله

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٢٧- ما نزل من القرآن بشأن هذه القصة:

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٩٨٠].

٩٢٨- من هو صاحب هذه القصة:

لم يذكر لنا القرآن من هو صاحب هذه القصة الذي انسلخ من آيات الله، فلم يذكر لنا اسمه ولا جنسه ولا وطنه، وكذلك لم يرد في تعريفه بذكر اسمه ومكانه حديث صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ. ومع هذا ذكر المفسرون روايات عن بعض الصحابة بشأن اسمه وجنسه، فمن ذلك ما جاء في تفسير القرطبي عن ابن مسعود وابن عباس: أنه رجل من بني إسرائيل اسمه بلعام بن باعوراه، عاش في زمن موسى عليه السلام[١٩٨١]. وأنه كان من خبره أنَّ موسى عليه السلام بعثه إلى ملك مدين داعياً إياه إلى الله تعالى، فلما وصل إليه رشاه الملك وأعطاه على أن يترك دين موسى عليه السلام، ويتابع الملك على دينه، ففعل وفَتَنَ الملِكُ به الناسَ وأضلَّهم[١٩٨٢].

(١٩٨٠) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥، ١٧٦.

(١٩٨١) تفسير القرطبي ج٧ ص٣١٩.

(١٩٨٢) تفسير ابن عطية ج٦ ص١٤١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٤.

٩٢٩- تفسير الآيات:

ذكرنا ما أنزله الله تعالى بشأن قصة المنسلخ من آيات الله، ونذكر فيما يلي أقوال المفسرين في هذا النازل بشأنه:

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: قصّ واسرد عليهم، أي: على الناس المخاطبين بالدعوة الحاضرين في زمن النبي ﷺ وقت نزول هذه الآية، وأولهم كفار مكة وغيرهم[١٩٨٣]. ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ النبأ هو الخبر الذي له شأن، نبأ الذي أوتي علم بعض كتب الله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ والانسلاخ: الخروج، يقال: انسلخت الحية من جلدها أي: خرجت منه، فانسلاخه تجرده وانسلاله منها، وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لإهتداءٍ ولا اعتبارٍ ولا عملٍ، فكان ذلك منه كفراً بآيات الله التي أوتيها وعلمها، ونبذاً منه لها. ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: لحق به وصار قريناً له، واستحوذ عليه وعلى أمره، فمهما أمره امتثل له وأطاعه، لأنه لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة بعد أن نزع منه، ما يحول دون استحواذ الشيطان عليه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ أي: صار من الغاوين أي: الفاسدين المفسدين[١٩٨٤].
وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: ولو شئنا لأمتناهُ قبل أن يكفر، فرفعناه إلى الجنة بها أي بالعمل بالآيات التي أوتيها[١٩٨٥]. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا هو السبب الذي من أجله لم يرفعه الله بما أوتيه من آيات وعلم، ﴿أَخۡلَدَ﴾ أي: ركن إلى الأرض أي: سكن إليها أي: سكن إلى لذاتها، وأصل الإخلاد اللزوم فكان المعنى: لزم لذات الأرض، فعبّر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض، فهو قد مال إلى الدنيا ورغب فيها، وآثرها على الآخرة وعلى مرضاة الله، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: اتبع ما زين له الشيطان من قبيح الأعمال التي تهواه نفسه[١٩٨٦]. ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ أي: فصفته التي هي مثل في

(١٩٨٣) تفسير ابن عطية ج٦ ص١٤١.

(١٩٨٤) تفسير المنار ج٩ ص٣٧٥-٣٧٦، تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص١٧٨.

(١٩٨٥) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢١.

(١٩٨٦) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٢.

الخسة والضعة، كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها، وهي حال داوم اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه - أي شُدّ عليه وهيج فطرد - أو ترك بدون تعرض له بالحمل عليه، وقد يقال كان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته. والجواب وُضِع قوله ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ موضع حططناه أبلغ حط. وقيل إن قوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾. معناه: إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث[1987]. ولهث الكلب إذا أخرج لسانه من العطش أو التعب[1988]. قوله تعالى: ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي: هذا هو مثل جميع الكفار[1989]. ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بصاحب هذه القصة، وما جرى له في إضلال الله له، وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه وإيتائه آيات الله في غير طاعة الله، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وجعل بين أيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به[1990].

(١٩٨٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٧٨.

(١٩٨٨) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٢.

(١٩٨٩) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٤.

(١٩٩٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦٦.

المبحث الثاني
المستفاد من القصة للدعوة والدعاة

٩٣٠- أولاً- تحذير العالم من ترك العمل بما علم:

المثل الذي ضربه الله جلّ جلاله للمنسلخ من آيات الله التي أوتيها، في قوله تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ هذا المثل يشمل كل من أُوتي علماً فلم يعمل به، وغرّته الدنيا فأخلد إلى الأرض، قال الإمام القرطبي في المثل المضروب لذلك الذي آتاه الله من آياته فانسلخ منها، قال رحمه الله: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كل من أُوتي القرآن فلم يعمل به أو من يقرأ الكتاب ولا يعمل به»(١٩٩١). وعلى هذا فليحذر الدعاة من عدم عملهم بما علموه من دين الله وشرعه، وأن يحذّروا المسلمين من ذلك، وأن يكونوا على حذر من الانزلاق إلى الإخلاد إلى الأرض أي: إلى الميل إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، والإقبال على لذاتها إيثاراً لها على متطلبات الآخرة، ومستلزمات الظفر برضوان الله، وبالنعيم الذي أعدّه الله للمتقين والدعاة المخلصين.

٩٣١- ثانياً - عدم الغرور بعلم أو بعمل:

قال الإمام القرطبي في تفسيره آيات قصة المنسلخ من آيات الله: «دلت الآية لمن تدبرها على أن لا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه، إذ لا يدري بم يُختَم له»(١٩٩٢). الدعاة من أكثر الناس عرضة للاغترار بعملهم، لأنهم يمارسونه علانية، ويظهرون بمظهر المرشدين والقادة للناس، وقد يحملهم هذا على العُجْبِ بالنفس، وعلى اغترارهم بعملهم، والمنّ به على الناس ثم على الله. فليحذر الدعاة من هذا، وليخاطبوا الناس مستشعرين فضل الله عليهم، لا فضل أنفسهم على الناس. كما أن عليهم أن يكونوا على وجل من سوء الخاتمة، فإن الأعمال بخواتيمها، ولا يدري المسلم بم

(١٩٩١) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٣.

(١٩٩٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٢٣.

يختم له ولا على ماذا يموت. فإذا استشعر الدعاة ذلك واستحضروه في أذهانهم لم يمنّوا بعملهم على أحد، ولم يتسلل إلى نفوسهم الإعجاب بالنفس والاغترار بالعمل ولا استعظام ما يقدمونه للدعوة. وإذا لاحظ الدعاة ما ذكرته بارك الله في أعمالهم وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم إن شاء الله تعالى.

٩٣٢- ثالثاً - الخوف على العالم من فتنة الدنيا:

تحذيرات الشرع من الدنيا الواردة في القرآن الكريم خوطب بها الصحابة قبل غيرهم، والصحابة هم أفضل المسلمين وأعمق إيماناً وأغزر علماً، وأكثر معرفة بمقاصد الدين ممن جاء بعدهم. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك وأن لا يستشعروا الأمن والأمان والاطمئنان من فتنة الدنيا: فتنة المال والجاه والمنزلة عند السلطان. وليعلموا أنَّ الشيطان يحوم حولهم ويحرص ويسعى إلى جرهم إلى المعصية، وانسلاخهم من مقتضيات علمهم ودعوتهم، وله أساليب شتى منها تزييف حقائق الدين، وممالأة السلطان الظالم والركون إليه على حساب الدعوة، متحججين بمصلحة الدعوة... وقد قصَّ الله علينا قصة المنسلخ من آياته لنعتبر بها، لأن الإنسان تبقى فيه قابلية قبول إغواء الشيطان مهما أوتي من العلم...

٩٣٣- رابعاً - الانسلاخ الكلي أو الجزئي من آيات الله:

قال الإمام ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ انسلخ منها: عبارة عن البراءة منها، والإنفصال والبعد، كالسلخ من الثياب والجلد[١٩٩٣]. ومعنى ذلك أن الانسلاخ من آيات الله، ومما يعلمه الشخص من دين الله، قد يكون انسلاخاً كلياً كانسلاخ الحية من كل جلدها أو ثوبها، فيقع هذا المنسلخ في البراءة الكاملة من الدين، وهذا هو الكفر. وقد يكون الانسلاخ جزئياً من بعض آيات الله، أو من بعض ما يعلمه الشخص من معاني الدين، بأن يخالف هذا القدر من معانيه فيقع في المعاصي، التي لا تخرجه من الدين بالكلية، ولكن تبعده عن بعض مقتضيات الإيمان، فيكون له نصيب من المثل المضروب للمنسلخ من آيات الله انسلاخاً كلياً، كما يكون له نصيب من الوقوع في

(١٩٩٣) تفسير ابن عطية ج٦ ص١٤٤.

إغواء الشيطان. فعلى الدعاة أن يلحظوا ذلك، ويحرصوا على أن يكون ما أُوتوه من العلم بالدين - وهو محض فضل الله عليهم - كالصبغة الثابتة لهم، وليس كالثياب التي يمكن أن تُنزَع عنهم، أو يمكن أن ينزعوها بأنفسهم. . . إنهم بحاجة إلى تعميق معاني الدين في نفوسهم، حتى تستعصي على الانسلاخ الكلي، ويصعب على الشيطان إيقاعها في الانسلاخ الجزئي. إن الدعاة بحاجة إلى ما أقوله لهم وأحذرهم منه، لأن الشيطان أكثر ما يغيظه عمل الدعاة إلى الله، لأنهم يناقضونه ويعارضونه في سعيه الخبيث وهو الصدّ عن سبيل الله، ولهذا فهو لا يكف عن ملاحقتهم لإبعادهم عن دعوتهم بالترغيب والترهيب والتزيين. والله المستعان.

المُستفاد

مِن قصصِ القرآن

للدّعوة والدُّعاة

تأليف

الدكتور عبد الكريم زيدان

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة
ناشرون



المُستَفاد

مِن قصصِ القرآن

للدعوة والدعاة

٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣
ص.ب. :١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت - لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

الباب الثاني

قصص القرآن عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام وعن المنافقين



٩٣٤- تمهيد:

في كتاب الله العزيز إخبارات وقصص عن سيدنا محمد ﷺ وجهاده المتواصل منذ بدء الوحي له بالنبوة والرسالة إلى حين وفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى. وفي هذه الإخبارات والقصص دروس وعبر ومواعظ وتعليمات وإرشادات وتطبيقٌ لمعاني القرآن والإسلام يحتاجها الدعاة؛ لأنها من معاني الدين وأساليبه، ومناهجه في تبليغ الدعوة إلى الله، وليكون للدعاة أسوة حسنة في رسول الله.

وفي القرآن العزيز أيضاً إخبارات وقصص عن أصحاب رسول الله ﷺ وما قاموا به من جهاد في سبيل الله في صحبة رسول الله ﷺ، وما ترتب على ذلك من رضا الله عنهم وإخبارنا به في كتابه العزيز، مما جعلهم أهلاً لمكان القدوة الحسنة للدعاة في تبليغ الدعوة إلى الله.

وفي القرآن العزيز إخبارات وقصص عن المنافقين الذين كانوا في المجتمع الإسلامي في زمن النبي ﷺ، وفي هذه القصص والإخبارات كشف لأحوال أولئك المنافقين وفضح لسرائرهم وكيدهم وصفاتهم، وبيان لموقفهم من رسول الله وموقف رسول الله ﷺ منهم، وفي هذا البيان والكشف لأحوال المنافقين فوائد عظيمةٌ للدعاة من جهة تمكينهم من التعرف على المنافقين المندسين في صفوف جماعة الدعاة؛ من خلال معرفتهم بصفات المنافقين وعلاماتهم التي عرفوا بها في زمن النبي ﷺ؛ لأن المنافقين يشبه بعضهم بعضاً سواء كانوا من القدامى أو من المحدثين، وكذلك، يعرف الدعاة كيف يتعاملون مع المنافقين في ضوء ما يعرفون من كيفية تعاملِ النبي ﷺ مع منافقي زمانه.

٩٣٥- منهج البحث وتقسيم موضوعاته:

وفي ضوء ما تقدم سأذكر في هذا الباب - وهو الباب الثاني - إن شاء الله تعالى ما قصّه الله تعالى في كتابه العزيز فيما له علاقة بسيدنا محمد ﷺ وبجهاده المبرور منذ بدء الوحي؛ وبنبوته ورسالته إلى حين وفاته ﷺ، وذلك في فصول متتابعة، وأذكر

أيضاً إن شاء الله تعالى في أثناء ذلك - ما قصه الله علينا أو أخبرنا به عن صحابة رسول الله ﷺ وجهادهم المبرور معه، كما أذكر أيضاً إن شاء الله تعالى ما قصه الله تعالى وأخبرنا به عن المنافقين وأحوالهم وتصرفاتهم، وهم الذين كانوا في المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ، وكيف عاملهم النبي ﷺ في ظل التوجيهات القرآنية؛ وسأذكر بعون الله تعالى ما يستفاد من ذلك كله للدعوة والدعاة. وعليه فقد رأيت تقسيم هذا الباب إلى الفصول التالية:

الفصل الأول	قصة بدء الوحي «بدء نبوة محمد ﷺ».
الفصل الثاني	قصة بدء الوحي بالرسالة.
الفصل الثالث	مرحلة الدعوة السرية في مكة.
الفصل الرابع	مرحلةالدعوة الجهرية.
الفصل الخامس	الهجرة من مكة إلى المدينة وعمل الرسول ﷺ فيها بعد وصوله إليها.
الفصل السادس	قصة غزوة بدر الكبرى.
الفصل السابع	قصة غزوة أحد.
الفصل الثامن	غزوة حمراء الأسد.
الفصل التاسع	قصة غزوة الخندق «الأحزاب».
الفصل العاشر	موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة.
الفصل الحادي عشر	غزوة بني المصطلق «غزوة المريسيع».
الفصل الثاني عشر	قصة حديث الأفك.
الفصل الثالث عشر	قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش.
الفصل الرابع عشر	قصة غزوة الحديبية «صلح الحديبية».
الفصل الخامس عشر	قصة غزوة خيبر.
الفصل السادس عشر	قصة معركة مؤتة.
الفصل السابع عشر	قصة غزوة فتح مكة.
الفصل الثامن عشر	قصة غزوة حنين.
الفصل التاسع عشر	غزوة الطائف.



الفصل الأول

قصة بدء الوحي

(بدء نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٣٦- قصة بدء الوحي بالنبوة:

قال تعالى في بدء الوحي لسيدنا محمد ﷺ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[١٩٩٤].

جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي غار حراء فيتحنَّثُ فيه - أي يتعبد فيه - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة - زوجته - فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارىء. قال ﷺ: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد - أي ضمني وعصرني عصراً شديداً - ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . . . ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال: فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني. زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروعُ وأخبر خديجة بالخبر وقال: «قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. . »[١٩٩٥].

(١٩٩٤) سورة العلق، الآيات من ١-٥.

(١٩٩٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٢، مختصر صحيح مسلم للمنذري =

٩٣٧- تفسير آيات بدء الوحي:

قال ابن كثير: أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ... ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وإن من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة. والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون بالكتابة بالبنان[١٩٩٦].

وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق، لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض وخلقته من أعظم الدلائل على قدرة الله تعالى. والعلق جمع علقة، وهي القطعة اليسيرة من الدم، وإنما قال: ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ على الجمع، وإنما خلق من علقة لأن (الإنسان) في الآية في معنى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾[١٩٩٧].

= بشرح صديق حسن خان ج١ ص٢٧٨-٢٧٩.

(١٩٩٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٢٨.

(١٩٩٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٧٥، تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥١٠.

المبحث الثاني

المستفاد من قصة بدء الوحي:

٩٣٨-أ- ما يدل عليه حسن خُلُقِ الإنسان:

إن خديجة رضي الله عنها استدلت بحسن أخلاق سيدنا محمد ﷺ عندما أخبرها بما حصل له وقوله لها: «قد خشيت على نفسي»، قالت له مستدلةً بحسن خُلُقِه: «كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. . . الخ»، فاستدلت بحسن خُلُقِه على أن ما رآه هو من الخير له وليس من الشرّ به، وهذا استدلال سليم يجب على الدعاة اعتباره والأخذ به في حق المنتسبين إلى الجماعة أخلاقاً حسنة وصفات حميدة، فهذا دليل ظاهر أو قرينة معتبرة على جودة سرائرهم وصفاء نياتهم، وإذا رأوا العكس من ذلك استدلوا به على عدم الاطمئنان بهم فكانوا على حذر وحيطة منهم حتى ينكشف لهم حالهم.

٩٣٩- من نعم الله على الإنسان تعليمه الكتابة وما لا يعلم:

كما يستفاد من آيات بدء الوحي على مكانة العلم في الإسلام وعلى نعمة الله على الإنسان بتعليمه الكتابة وسائر العلوم التي شاء الله أن يتعلمها ويسرَّ له سبل تعلمها، فإنّ هذا التعليم للإنسان يستوجب شكر الله عليه بتسخير ما يتعلمه فيما يُرضِي الله تعالى. فعلى الدعاة حث المسلمين على طلب العلم النافع، وأن يُسهم الدعاة أنفسهم في تعليم الكتابة لمن يجهلها، وذلك بالمشاركة في فتح مراكز محو الأمية بتعليم الناس القراءة والكتابة لمن يجهلها منهم، وأن يباشر الدعاة أنفسهم بشيء من هذا التعليم ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم في هذا المجال، وفي هذا نوع من أنواع تقريب الناس إلى الدعوة إلى الله تعالى.



الفصل الثاني
قصة بدء الوحي بالرسالة
المبحث الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٤٠- يا أيها المدثر، قم فأنذر:

بعد أن نزل جبريل عليه السلام بآيات ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ... ﴾ الخ، فتر الوحي برهة من الزمن، ثم عاد جبريل فجاء بآيات ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ الخ، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء، والأرض فرُعِبْتُ منه، فرجعت - أي إلى بيتي - فقلت: زملوني: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ... ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ فحمي الوحي وتتابع»(١٩٩٨). قال ابن كثير: وبهذا حصل لسيدنا محمد ﷺ الإرسال كما حصل بالأول النبوة(١٩٩٩). ويقصد ابن كثير بالأول: آيات ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ الخ فأول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي هي الآيات الأولى من سورة «المدثر»، وهذا القول هو الصحيح(٢٠٠٠).

٩٤١ - تفسير آيات بدء الرسالة:

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾(٢٠٠١).

(١٩٩٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٧.
(١٩٩٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤٠.
(٢٠٠٠) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور أبي شهبة ج١ ص٢٨٢.
(٢٠٠١) سورة المدثر، الآيات من ١-٧.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء، من الدثار وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار، والشعار هو الثوب الذي يلي الجسد.

وقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي قم من مضجعك ودثارك. أو قم قيام عزم وجدّ، ﴿فَأَنذِرْ﴾ أي فحذّر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا(٢٠٠٢).

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظّم، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه. وقال مجاهد: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي نفسك فطهر. وفي رواية عنه: أي عملك فأصلح. قال ابن كثير: وقد تشتمل هذه الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه(٢٠٠٣). ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي الأصنام والأوثان فاهجر أي فاترك(٢٠٠٤) أو هو - أي الرجز - كناية عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق، وقيل المراد بالرجز العذاب، وهجره كناية عن هجر ما يؤدي إليه من الشرك والمعاصي(٢٠٠٥). وأمره بذلك، وهو بريء منه: إما أمرٌ لغيره تعريضاً، أو المراد الدوام على هجره(٢٠٠٦) وعلى كل تقدير فلا يفهم من أمره ﷺ بذلك تلبسه بشيء منه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾(٢٠٠٧). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط العطية تلتمس بها أكثر منها، أي لا تعط شيئاً لتُعطَى أكثر منه. وعن الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، واختاره ابن جرير. وبمثله قال الحسن بن أبي الحسن مع زيادة: ويقع لك بهذا الاستكثار - أي استكثار عملك إعجاب(٢٠٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى المشركين جاعلاً صبرك هذا لوجه الله سبحانه وتعالى(٢٠٠٩).

(٢٠٠٢) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٣٠.
(٢٠٠٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٥) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٣٢.
(٢٠٠٦) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٣٢.
(٢٠٠٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٦، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.

المبحث الثاني
المستفاد من آيات بدء الرسالة

٩٤٢- الترهيب من وسائل الدعوة:

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أي: خوفّ قومك وحذّرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا[٢٠١٠]، وفي هذا دليل واضح على أن الترهيب من أساليب الدعوة فلا يجوزُ إغفالها من قبل الدعاة، والأصل في الترهيب أن يكون من عذاب الله وسخطه بسبب عدم الانقياد إلى شرعه، أو بسبب معصيته مع بقاء أصل الإيمان. وكذلك يكون الترهيب بما يصيب الرافضين شرع الله، من عذاب وذلّ حسب سنة الله تعالى في العصاة والمتمردين على الله تعالى.

٩٤٣- الدعاة لا يمنون بعملهم على أحد:

ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾، وقول الحسن البصري في معنى هذه الآية وهو «لا تمنن بعملك على ربك تستكثره»، وعلى هذا لا يجوز للدعاة أن يمنوا على الله أو على أحد من الناس بما يقومون به من نشر الدعوة إلى الله، أو يستكثروا جهادهم في الدعوة. فمهما يقدموا فهو في جنب الله قليل، فعليهم أن يجعلوا شعارهم: كل بذل في سبيل الله ودعوته قليل قليل، ويدعوا الله أن يوفقهم إلى المزيد من البذل والجهاد.

٩٤٤- ضرورة الصبر للدعاة:

قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي اصبر على أذى المشركين بسبب دعوتك إياهم، واجعل صبرك هذا لوجه الله تعالى. وفي هذا إشارة إلى أن الغالب في الدعاة ابتلاؤهم بأذى المدعوين من الكفار والمنافقين وعصاة المسلمين، فعليهم أن يقابلوا ذلك بالصبر الجميل، ويحتسبوا أجرهم عند الله تعالى.

(٢٠١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٥.

المبحث الثالث

نزول سورة المزمل

٩٤٥- نزولها بعد نزول آيات بدء الرسالة:

قلنا: إن بدء الرسالة لنبينا محمد ﷺ كان بنزول الآيات من صدر سورة المدثر. ثم نزلت بعدها سورة المزمل[٢٠١١]. وهي سورة مكية كما قال ابن كثير في تفسيره[٢٠١٢]. ونذكر فيما يلي تفسيراً موجزاً لبعض آياتها التي نرى أن لها علاقة بموضوع الدعوة والدعاة.

٩٤٦- تفسير سورة المزمل:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[٢٠١٣]. الخطاب في هذه الآيات لرسول الله ﷺ، و﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ أي المتزمل الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها[٢٠١٤]. ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي قم فيه للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا ما تقتضيه الضرورة للاستراحة ومصالح البدن التي لا يمكن بقاؤه بدونها[٢٠١٥]. ثم بيّن الله تعالى قدر القيام مخيِّراً له بقوله: ﴿نِصْفَهُ﴾ أي نصف الليل: ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي أو انقص من النصف قليلاً أو بزيادة قليلة على النصف، لا حرج عليك في ذلك. ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على تفهم القرآن وتدبره[٢٠١٦].

(٢٠١١) تفسير روح المعاني للألوسي ج٢٩ ص١١٥.

(٢٠١٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٩.

(٢٠١٣) سورة المزمل، الآيات من ١-٤.

(٢٠١٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٣٤.

(٢٠١٥) تفسير القاسمي. ج١٦ ص٣١٨.

(٢٠١٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٤.

٩٤٧- القول الثقيل:

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢٠١٧]. القول الثقيل هو القرآن واختلف العلماء لم سماه ثقيلاً. فقال جماعة من المفسرين: لما كان يحلُّ في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم عند تلقيه الوحي حتى إنه إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذه ﷺ ترضُّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه عندما أوحي إليه ﷺ وكانت فخذه على فخذ زيد. وقال أبو العالية والقرظي: بل سماه ثقيلاً لثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك. وقال بعض آخر من العلماء الحذاق: سماه ثقيلاً لكونه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية ومزاولة الأعمال الصالحة دائماً. قال الحسن: إن الهذَّ خفيف ولكن العمل ثقيل[٢٠١٨]، ومعنى الهذّ: سرعة القراءة. وقال ابن كثير: قال الحسن وقتادة: ثقيل أي العمل به. وقيل ثقيل وقت نزوله من عظمته[٢٠١٩]. وفي الكشاف للزمخشري: ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين[٢٠٢٠]. وفي تفسير القاسمي: سمي القرآن ثقيلاً أي رصيناً لرزانة لفظه ومتانة معناه ورجحانه فيهما على ما عداه. ولما كان الراجح من شأن القرآن الملقى والموحى به إلى رسوله هو ما ذكرناه سمي بالثقيل تجوزاً. أو سمي ثقيلاً على المتأمل به لافتقاره إلى مزيد من تصفية النفس وتجريد للنظر فيه لتفهم معانيه، أو ثقيلاً لتلقيه؛ لقول عائشة رضي الله عنها: رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[٢٠٢١].

٩٤٨- ناشئة الليل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[٢٠٢٢]. ناشئة الليل هي ساعاته

(٢٠١٧) سورة المزمل، الآية ٥.

(٢٠١٨) تفسير ابن عطية ج١٥ ص١٥٧.

(٢٠١٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٥.

(٢٠٢٠) الكشاف للزمخشري ج٤ ص٦٣٧-٦٣٨.

(٢٠٢١) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣١٩.

(٢٠٢٢) سورة المزمل، الآية ٦.

وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة. والمقصود بهذه الآية أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي أجمع للخاطر لأداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أشد مقالاً وأصوب[٢٠٢٣].

٩٤٩- النهار لطلب المعاش:

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي تقلباً في مهماتك واشتغالاً بها فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فيه، فعليك بها في الليل ولهذا أُمِرتَ بقيام الليل[٢٠٢٤].

٩٥٠- ذكر الله والانقطاع إليه:

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي دمْ على ذكره تعالى في ليلك ونهارك واحرص عليه. وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيحٌ وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره[٢٠٢٥]. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي انقطع إليه. قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو الذي يجب لتوحيده بالربوبية أن توكل إليه الأمور كلها فإنه سيكفيكها[٢٠٢٦].

٩٥١- الصبر مع الهجر الجميل:

وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله مَنْ كذّبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عتاب فيه كما يقول ابن كثير، أو هو أن يجافيهم بقلبه ويخالفهم، مع حسن المخالفة والمداراة والإغضاء وترك المجازاة على سوء

(٢٠٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٥، تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٠.

(٢٠٢٤) تفسير الألوسي ج٢٩ ص١٠٥، وتفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٠، والآية في سورة المزمل ورقمها ٧.

(٢٠٢٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٨٥.

(٢٠٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٠.

أقوالهم وأفعالهم معه كما يقول الزمخشري[٢٠٢٧].

٩٥٢- التخفيف من قيام الليل:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[٢٠٢٨]. قوله: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ ﴾ أي تتهجد فيه تارة هكذا وتارة هكذا، وطائفة من الذين معك، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا. ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي لن تطيقوا قيامه، أي قيام الفرض الذي أوجبهُ عليكم من قيام الليل، ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما يتيسر. وعبرَّ عن الصلاة بقراءة القرآن لأنها بعض أركانها، كما عبَّر عنها بالركوع والسجود، يريد: فصلّوا ما تيسّر عليكم من قيام الليل. وقوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ . . . ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأُمة أصحاب أعذار في ترك قيام الليل من مرضىٰ لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من القتال في سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وقال ابن عباس وغيره: إنَّ هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال

(٢٠٢٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٧، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٠و والآية في سورة المزمل ورقمها ١٠.

(٢٠٢٨) سورة المزمل الآية ٢٠.

لذلك الرجل فيما فرضه الله عليه: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال ذلك الرجل: هل عليّ غيرها؟ فقال ﷺ: «لا، إلاّ أن تطوع»[٢٠٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني به بذلَ المال في سبيل الخيرات على أحسن وجه كأن يكون من أطيب المال وإعطاءه للمستحق من غير تأخير، واتقاء المن والأذى ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي في الدنيا من صدقة أو نفقة في وجوه الخير أو عمل بطاعة الله أو غير ذلك من أعمال البِرّ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي ثواباً من عندكم من متاع الدنيا ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ أي سلوه غفران ذنوبكم، فإن الله ذو مغفرة لمن تاب إليه[٢٠٣٠].

(٢٠٢٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٨-٤٣٩، تفسير الكشاف ج٤ ص٦٤٣.

(٢٠٣٠) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٧.

المبحث الرابع
المستفاد من سورة المزمل
للدعوة والدعاة

٩٥٣- أولاً- حاجة الدعاة إلى قيام الليل:

قيام الليل بالصلاة والقراءة فيه وإن صار من التطوعات بعد أن كان من الواجبات إلا أن الدعاة بحاجة إليه لأنهم يقومون بأعباء الدعوة إلى الله، وهي بطبيعتها تحتاج إلى قوة روحية عظيمة مع إيمان عميق واتصال دائم بالله تعالى، وقيام الليل يسهم في تحقق ذلك لأنه ييسر للدعاة خلوة بأنفسهم يناجون فيها ربهم وهم في حالة جيدة من فراغ البال من شواغل النهار ومن أعمال الدعوة ومقتضياتها من اتصال بالناس وحديث معهم ودعوة لهم ونقلة إلى أماكنهم إلى غير ذلك من الأمور التي تحتاجها الدعوة. ولذلك فإن الليل أعون لهم على الإقبال على ربهم سبحانه وتعالى ومناجاته بالقراءة والصلاة والذكر؛ ولهذا قال تعالى عن ساعات الليل بأنها ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها وإقامة الصلاة بخشوع من ساعات النهار، وهي عادة وقت انتشار الناس ولغط الأصوات. هذا وإن في الأمر بالتهجد وإن صار للاستحباب والتطوع إشارة واضحة إلى الحاجة إلى إعداد النفس لمزيد من العبادة وقراءة القرآن والصلاة للقيام بالأمور العظام التي يكلف بها المسلم لا سيما الداعي إلى الله تعالى. فعلى الدعاة الإكثار من العبادة ومن قيام الليل.

٩٥٤- ثانياً- الدوام على ذكر الله:

ومما يحقق للدعاة اتصالهم الدائم بالله دوام ذكرهم له، لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي دمْ واستمر على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان هذا الذكر من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة فقه ونحو ذلك. فهذا الذكر الدائم المتواصل من الدعاة يزودهم بقوة هائلة من الإيمان تعينهم على تحمل أعباء الدعوة وتكاليفها.

٩٥٥- ثالثاً- التوكل على الله في جميع الأمور:

وعلى الدعاة أن يستحضروا في نفوسهم ضرورة التوكل على الله، واعتمادهم عليه في أمورهم كلها، وعلى رأسها أمور الدعوة ونجاحهم فيها. وقد أمر الله رسوله ﷺ بالتوكل عليه؛ لينبه أمته على ذلك، فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ لأنه هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب، لا إله إلا هو، فكما أنه تعالى هو المستحق بإفراد العبادة له وحده فهو أيضاً المستحق للتوكل عليه كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، ثم إن من يتوكل عليه العبد ينبغي أن يكون أهلاً لهذا التوكل بأن يكون قادراً على كفاية من توكل عليه، وهل هناك أقدر من الله على كفاية عبده؟ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وعلى الدعاة أن يعلموا بأن درجة توكلهم على الله تكون بدرجة حرصهم واهتمامهم بأمور الدعوة التي يتوكلون على الله في إنجاحها، ألا ترى أن الطالب لحرصه على نجاحه في الامتحان يحس بقوة وعمق توكله على الله في تحقيق نجاحه؟ ألا ترى أن التاجر لحرصه على سلامة تجارته وربحها فيها يحس بقوة وعمق توكله على الله في تحقيق ما يصبوا إليه من ربح في تجارته. وهكذا يكون الحال في توكلهم على الله في أمور الدعوة.

٩٥٦- رابعاً- ضرورة الصبر للدعاة:

وفي قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى ضرورة الصبر للدعاة على ما يقوله أعداء الدعوة من فاجر القول وكذبه، كالتهم الباطلة يلصقونها بالدعاة. وليكن صبر الدعاة على أذاهم بالله ولله كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي استعن بالله ليصبرّك على ما ينبغي الصبر عليه. وأن يكون هذا الصبر لله تعالى أي طاعة له وفي سبيله وطلباً لمرضاته.

٩٥٧- خامساً- ومع الصبر الهجر الجميل:

ومع ضرورة الصبر للدعاة، هجر جميل من الدعاة لأولئك الجاهلين أعداء الدعوة، فلا يقابلون إساءتهم بالمثل بل يعرضون عنهم، ويتغافلون عن أذاهم، ويمضون في دعوتهم، ولا ينشغلون في الشجار معهم، فإن في سكوت الدعاة عنهم بياناً لحسن خلق الدعاة وترفعهم عن الجاهلين، وعدم إضاعة الوقت معهم. إن

السائر الذي يريد بلوغ هدفه والمكان المتوجه إليه لا يجوز له أن يقف يرمي الكلاب النابحة بالحجارة ليسكتهم؛ فإنهم قد لا يسكتون ولكن إذا استمر السائر في سيره وإذا أسرع فيه كان ذلك أدعى إلى سكوت نباح الكلاب.

٩٥٨- سادساً- الداعي واشتغاله بالتجارة:

الدعاة منهم المتفرغ للدعوة ومنهم غير المتفرغ لها، ولا شك أن المتفرغ للدعوة أعلى درجة من غير المتفرغ وأكثر نفعاً من غيره. ولعدم التفرغ للدعوة أسبابٌ من أكثرها وقوعاً حاجة الداعية إلى كسب رزقه ورزق عائلته، وعدم قدرة الجماعة - جماعة الدعاة - التي ينتسب إليها على تفريغه لعمل الدعوة وسدّ حاجته المعيشية، وفي هذه الحالة لا مانع من اشتغال الداعية بما يوفر له الرزق له ولعائلته، كأن يشغل وظيفة مباحة من وظائف الدولة، أو يقوم بعمل حرّ من أعمال الكسب والتجارة، ولا يقدح ذلك في عمله الدعوي. وقد دلّ على ما قلناه ما ذكره الله تعالى من أسباب التخفيف من قيام الليل بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ . . .﴾ أي علم الله أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضىٰ لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من القتال في سبيل الله. وفي قرن المسافرين لغرض المكاسب والمتاجر مع المقاتلين في سبيل الله دلالة على فضيلة الاكتساب بالتجارة وغيرها، إذ جعلها الله من الأعذار المشروعة للتخفيف عنهم من قيام الليل، إذ جعله تطوعاً لا فرضاً عليهم كما قال المفسرون.
إلا أن على الداعية غير المتفرغ أن يجعل اشتغاله بالاكتساب وسيلة لتعريف الناس بأخلاق الإسلام. فيكون صادقاً في قوله أمنياً في عمله وفياً لوعده، مما يجذب الناس إليه فيقبلوا عليه ويسمعوا منه، فيغتنم ذلك الداعية فيحدثهم ببعض معاني الدعوة. كما أن على الداعية غير المتفرغ أن يجعل أوقاته الأخرى بعد فراغه من أعماله الخاصة. يجعلها لأعمال الدعوة. وهذا يقتضيه أن ينظم أوقاته تنظيماً دقيقاً حتى لا تذهب هدراً وحتى لا يصرف منها لأعماله الخاصة لاكتساب رزقه إلا بقدر ما هو محتاج إليه من هذه الأوقات فعلاً فيخصص الباقي من أوقاته لأعمال الدعوة

الخاصة بها بعد اقتطاع جزء منها لما يوجبه عليه الإسلام نحو أسرته.

٩٥٩- سابعاً- الخيرية في ميزان الإسلام:

الخيرية في ميزان الإسلام هي أعمال البرّ المرضية عند الله تعالى، فهي التي تثمر له رضوان الله والظفر بنعيم الآخرة. فعلى الدعاة توضيح هذا المعنى للناس لتصح مفاهيمهم وتعتدل موازينهم، وحتى يكون عندهم على وجه اليقين أن الخيرية في الأعمال هي ما كانت عند الله مرضية. وهذا الذي نقوله والذي نريد من الدعاة تذكير المسلمين به هو المستفاد من آيات القرآن ومنها الآية الواردة في سورة المزمل، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي في الدنيا من صدقة أو نفقة في وجوه البرّ، أو عمل بطاعة الله، أو غير ذلك من أعمال البرّ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي أعظم ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا[٢٠٣١].

٩٦٠- ثامناً- الاستغفار بعد الأعمال الصالحة:

وعلى الدعاة أن يذكروا الله في أعقاب أعمالهم الصالحة، وفي أعقاب أعمالهم الدعوية، فيستغفروه على كل تقصير صدر منهم في هذه الأعمال، وليُذهبْ ذلك عنهم الإعجاب بالنفس. وهذا الذي أقوله مستفاد من قوله تعالى في آخر سورة «المزمل» وهو قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن الإنسان قلما يخلو مما يُعَدّ تفريطاً بالنسبة إليه، ومن ذلك رؤية المسلم العابد عبادته وما يتبعها من إعجاب بالنفس، ولهذا المعنى أمر الله تعالى بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحسن[٢٠٣٢].

(٢٠٣١) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٧.

(٢٠٣٢) تفسير الألوسي ج٢١ ص١١٤.

الفصل الثالث
مرحلة الدّعوة السّريّة

المبحث الأول
بدء الدعوة السرية ومدتها

٩٦١- قم فأنذر:

ذكرنا من قبل قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، وذكرنا قول الإمام ابن كثير في هذه الآية: «وبهذا حصل الإرسال - أي لسيدنا محمد ﷺ - كما حصل بالأول - أي بآيات ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ - النبوة لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام»، وحيث إنَّ الله تعالى شرّف محمداً ﷺ وكرّمه بالرسالة بأن جعله رسولاً فقد أمره بتبليغ هذه الرسالة، وأمره بإنذار قومه وتحذيرهم من العذاب إذا لم يؤمنوا به كما بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾. وقد قام ﷺ بالدعوة إلى الإسلام الذي أرسله الله به، أي إلى الإيمان بالله رباً ومعبوداً وحيداً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً. وقد بدأ ﷺ دعوته المباركة بصورة سرّية وفردية واستمرت الدعوة بهذه الصيغة الفردية السرية في مكة، حيث كان يقيم ﷺ مدة ثلاث سنوات كما حددها ابن إسحاق، وحددها البلاذري بأربع سنوات(٢٠٣٣).

وتسمى هذه المرحلة من الدعوة بالمرحلة المكية كما تسمى بالمرحلة السرية. والحقيقة أن اطلاق اسم «المرحلة المكية» يشمل الدعوة مدة بقائه ﷺ في مكة، ودعوتُه في مكة كان منها دعوة سرية، وهي التي قيل عنها إنها ثلاث أو أربع سنوات من ابتداء رسالته، والباقي منها كانت دعوة جهرية.

(٢٠٣٣) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج١ ص١٣٢.

٩٦٢- كيفية تبليغ الدعوة في المرحلة السرية:

اتسمت الدعوة في مرحلتها الأولى في مكة أي من وقت تكريم الله لرسوله محمد ﷺ بالرسالة، اتسمت الدعوة من هذا الوقت بالسرية والفردية واستمرت ثلاث سنوات أو أربعاً كما قلنا، فكان ﷺ خلال هذه المدة يدعو إلى الإسلام بصورة سرية أقرب الناس إليه من جهة الثقة به والرجاء في إسلامه، سواء كان من يدعوه من عشيرته أو من غير عشيرته؛ لسبب بسيط هو أن الإسلام دعوة إلهية عامة لجميع البشر وليست خاصة لقوم دون قوم، فلا يُعقَل أنَّ رسول الله ﷺ لاحظ في تبليغه دعوة الإسلام أي معنى عشائري أو قبلي، أو أنه لاحظ التوازن بين بطون قريش وفروعها في تبليغه الدعوة الإسلامية، وإنما كل ما لاحظه الرسول ﷺ في تبليغ دعوته في مرحلتها السرية الفردية هو: ثقته بمن يدعوه، ورجاؤه وأمله في إسلام من يدعوه. وعلى هذا فليس صحيحاً قول من قال: «وكان المتوقعُ أن ينتشر الإسلام في العشيرة التي ينتسب إليها الرسول ﷺ ثم في قريش التي ينتمي إليها أخيراً»[(٢٠٣٤)]. فهذا المُتَّوقع الذي يقول به صاحب هذا القول لم يكن هو المُتَّوقع مطلقاً؛ لأن الإسلام يرفضه؛ لأنه بطبيعته دعوة عالمية ليس فيها ذرة من العصبية القبلية التي قال عنها رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنةٌ»[(٢٠٣٥)]. ومما يدل على ما قلناه أن عشيرة النبي ﷺ - كسائر عشائر قريش - لم تقبل الدعوة الإسلامية بالرغم من أنَّ محمداً ﷺ من أفرادها، فهذا أبو لهب عم رسول الله ﷺ كان من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ ومن أشد الناس محاربة له، حتى إن الله تعالى أنزل قرآناً في ذمه والإخبار عن مصيره في النار. وأبو طالب عم رسول الله ﷺ بالرغم من مناصرته له والدفاع عنه لم يؤمن به ولم يقبل دعوته. ومن آمن من عشيرة محمد ﷺ بالإسلام آمن لانشراح صدره للإسلام وليس لأَنَّ محمداً ﷺ من عشيرته، ثم إن قريشاً نفسها ما كانت تتوقع أن ينتشر الإسلام أولاً في عشيرة النبي ﷺ؛ لأن عقيدة الشرك كانت تجمع جميع

(٢٠٣٤) السيرة النبوية الصحيحة للأستاذ الدكتور أكرم العمري ج١ ص١٣٢.

(٢٠٣٥) من حديث لرسول الله ﷺ ذكره الطبري في تفسيره ج٢٨ ص٧٨. وهناك حديث آخر في ذم العصبية هو «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية» انظر الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص٤٠.

عشائر قريش وبطونها وفروعها بما فيهم عشيرة النبي ﷺ. فإذنْ ما كان المتوقع أن ينتشر الإسلام أولاً في عشيرة النبي ﷺ لسبب ذكره صاحب القول الأول، وهذا السبب هو «ولكن يلاحظ أن انتشار الإسلام لم يرتبط بالعصبة القبيلية»[٢٠٣٦]. ولعالمية الدعوة الإسلامية ورفض الإسلام للعصبية القبلية لم تتجه الدعوة الإسلامية إلى قريش على أساس ملاحظة التوازن بين فروع قريش من جهة عدد من يسلم أو عدد من يُدَعى إلى الإسلام. وعلى هذا فغير صحيح قول القائل «ولعلّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية»[٢٠٣٧]. والصحيح من القول أن النبي ﷺ دعا كل من أمكنه دعوته ممن يثق به أو يرجو إسلامه دون ملاحظة نسبه العشائري. ودون ملاحظة «التوازن» بين من دخلوا في الإسلام وقبلوا دعوته من مختلف العشائر والفروع.

٩٦٣- المسلمون الأولون في المرحلة السرية:

أسلمت زوجة النبي ﷺ خديجة بنت خويلد، وأسلم ابن عمه علي بن أبي طالب، وكان يعيش في بيت النبي ﷺ، وكان عمره يوم إسلامه عشر سنوات[٢٠٣٨]. وأسلم زيد بن ثابت بن شرحبيل الكلبي وكان قد أُسِرَ وصَار رقيقاً فملكته السيدة خديجة ووهبته لرسول الله ﷺ فتبناه حسب العرف آنذاك، وكان لذلك يقال له: زيد بن محمد حتى جاء الإسلام فأبطل التبني[٢٠٣٩]. كما أسلم أيضاً أبو بكر، وكان شخصاً محبوباً وموثوقاً به عند قومه، فأخذ يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه فأسلم بدعائه: عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي وعبد الرحمن بن عوف الزهري وسعد بن أبي وقاص الزهري. وطلحة بن عبد الله التيمي. ومن أوائل من أسلم أيضاً بلال بن رباح الحبشي وأبو عبيدة عامر بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف

(٢٠٣٦) السنة النبوية، للدكتور العمري ج١ ص١٣٢.

(٢٠٣٧) المرجع السابق ج١ ص١٣٣.

(٢٠٣٨) المرجع السابق ج١ ص١٣٤.

(٢٠٣٩) الرحيق المختوم تأليف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ص٧٣.

وسعيد بن زيد العدويّ. وخبّاب بن الأرتّ وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم، وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً. وأسلم من النساء عدا خديجة بناته ﷺ وأسماء بنت أبي بكر الصديق، كما أسلمت زوجات من أسلموا، مثل أسماء بنت سلامة امرأة عياش بن ربيعة، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب، وفاطمة بنت المجلل امرأة حاطب بن الحارث وزمعة بنت أبي عوف امرأة المطلب بن أزهر، وأمينة بنت خلف امرأة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية(٢٠٤٠). ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث الناس به(٢٠٤١) ويلاحظ هنا أن إسلام من ذكرنا كان سراً، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويعلمهم عقيدة الإسلام متخفياً في بيت الأرقم بن أبي الأرقم؛ لأن الدعوة كانت فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل سورة المدثر(٢٠٤٢).

(٢٠٤٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٢٨٤-٢٨٨.

(٢٠٤١) الرحيق المختوم، ص٧٤.

(٢٠٤٢) الرحيق المختوم، ص٧٤.

المبحث الثاني
المستفاد من بدء الدعوة السرية ومدتها
للدعوة والدعاة

٩٦٤- أولاً- لا بد للدعوة الناشئة من السرية:

الدعوة الناشئة لا سيما التي يبدأ بها صاحبها تحتاج إلى جو هادىء بعيد عن تجمع الأعداء ضد هذه الدعوة وصاحبها، كما تحتاج إلى فسحة من الوقت يتخير فيها صاحبها العناصر السليمة التي يمكن مكاشفتها وعرض الدعوة عليها واحتمال إجابتها حتى يكونوا أعواناً للدعوة وقائدها وقاعدة لها. وهذه الأغراض يحققها أسلوب الفردية والسرية في المرحلة الأولى للدعوة، وهو ما سارت عليه الدعوة الإسلامية في مرحلتها الأولى في مكة بقيادة سيدنا محمد ﷺ. فعلى الدعاة ملاحظة ذلك والأخذ بأسلوب الفردية والسرية في بدء الدعوة، كما لو بدؤوها في بلد ليس للدعوة فيه مكان، أو في منطقة يكثر فيها أعداء الإسلام وليس للدعوة فيها صوت، فالأخذ بالسرية والفردية أسلوباً وصيغةً للعمل الدعوي في مثل هذه الأحوال أمْرٌ لازم لا يجوز الحيدة عنه.

٩٦٥- ثانياً- ليس للدعوة السرية مدة محدودة:

ومما يجب أن يُعَرف ولا يُنسَى أَنْ ليس للدعوة السرية حيث يجب الأخذ بها مدةٌ محدودة، إذ ليست مدة الثلاث السنوات أو الأربع التي قيلت لمدة الدعوة الإسلامية السرية في مكة مدة لازمة لا يجوز تجاوزها أو لا يجوز تقليلها؛ لأن الذي يحدد السرية من جهة مدتها بقاء أو زوال الأسباب التي دعت واستوجبت الأخذ بها، فإذا بقيت هذه الأسباب امتدت مدة السرية، وإن تجاوزت المدةَ التي قضتها الدعوةُ الإسلامية في مكة في مرحلتها السرية؛ وإن زالت الأسباب الداعية للسرية قبل مضي مدة السرية في مكة تحولت إلى العلانية وإن لم تنته بعد مدة الثلاث أو الأربع

السنوات التي قيل إنها مدة السرية للدعوة في مكة.

٩٦٦- الضابط لوجوب السرية للدعوة الإسلامية ومدتها:

والضابط لوجوب السرية للدعوة الإسلامية وجود ضرر محقق أو محتمل الوقوع احتمالاً راجحاً يلحق بالدعوة ذاتها أو بالدعاة أنفسهم؛ وتقدير هذا الضرر الذي يستدعي السرية أمرٌ اجتهادي يرجع إلى قائد الدعوة إذا كان منفرداً؛ أَوْ إليه وإلى من يشاوره إذا كان معه من يعاونه في أمور الدعوة. وتقدير الضرر من حيث جسامته ومن حيث احتمال وقوعه يرجع إلى ملاحظة جملة اعتبارات:

(منها): شدة بطش وعتو أعداء الدعوة من حكام ومتنفذين في المجتمع إذا عرفوا بوجود الدعوة وعرفوا قادتها، بحيث إنهم يبادرون إلى البطش بهم بالقتل أو بما هو دونه من تعذيبٍ القتل أهون منه. ويمنعون الناس من الاستجابة لهذه الدعوة.

و(منها): قلة المستجيبين للدعوة بحيث يؤدي انكشافهم إلى تصفيتهم جسدياً وإلى القضاء على الدعوة أو إلى شلٍّ حركتها.

و(منها): تعريض الدعوة ودعاتها إلى الخصام مما يعرقل عمل الدعاة ويشغلهم عن عملهم المبرور؛ لأن الدعوة كما قلت أكثر من مرة تحتاج إلى جو هادىء سليم خالٍ من الخصام.

٩٦٧- من معالم السرية للدعوة:

ومن معالم السرية التي نقلت لنا عن النبي ﷺ وأصحابه الكرام في مرحلة السرية للدعوة، أن النبي ﷺ كان يجتمع سراً بمن أسلم ليعلمهم أمور الدين[٢٠٤٣]. وقد روي أنه ﷺ كان يجتمع بهم سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم. وكان أصحاب رسول الله الذين أسلموا في مكة في هذه المرحلة السرية إذا أرادوا الصلاة ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم[٢٠٤٤].

ومن معالم السرية للدعوة عدم معرفة بعض أتباعها بالبعض الآخر؛ فقد كان

(٢٠٤٣) الرحيق المختوم، المرجع السابق، ص٧٤.

(٢٠٤٤) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٧٥.

عمرو بن عَبْسة السلمي يرى أنه رابعُ أربعة هم أول المسلمين، ولهذا قال: فلقد رأيتُني إذ ذاك ربع الإسلام، مع أنه كان هناك مسلمون أكثر من ذلك، ومما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين في أمر إسلامهم أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان يرى نفسه رابع من أسلم أيضاً. وقد علل بعض الرواة تعارض كلام أبي ذر مع كلام عمرو بن عبسة فقال: «كلاهما لا يدري متىٰ أسلم الآخر»[٢٠٤٥].

٩٦٨- الضابط في معالم السرية للدعوة:

والضابط في معالم السرية للدعوة، أن لا يحرص المستجيبون لها على معرفة من استجاب لها، ولا على معرفة قادتها. كما أن قادة الدعوة لا يخبرون المستجيبين لها بأسماء من استجاب قبلهم. وهذا العلم للسرية يجب الالتزام به بكل جدية ولا يجوز الحيدة عنه، إلا إذا اقتضت الضرورة تكليف أكثر من واحد من المستجيبين للدعوة للقيام بعمل دعوي جماعي يحتاج إلى جهودهم ونحو ذلك من حالات الضرورة. كذلك من معاني الضابط في معالم السرية للدعاة أن لا يحرصوا على العلانية، وأن يبتعدوا عن مظاهر الانكشاف، وإذ ما انكشف شيء منهم من غير قصد منهم فعليهم ستره حالاً وصرف الأنظار عنه، وإن عليهم أن يصبروا ولا يستعجلوا في قطع مرحلة السرية في الدعوة، وأن يكون شعارهم: عمل السرّ لا عمل العلانية ما دامت المرحلة مرحلة السرية للدعوة.

٩٦٩- ثالثاً- عمل الدعاة في المرحلة السرية:

أ- دعوة من يثقون به إلى الإسلام وإلى الدعوة:

ومما يستفاد من عمل النبي ﷺ ومن آمن به في هذه المرحلة السرية للدعوة، أنَّ على الدعاة في هذه المرحلة القيام بالدعوة الفردية السرية بأن يتصل كل واحد منهم بمن يثق به ويرجو إسلامه، ويشرحَ له مضمون الدعوة وأهدافها.

٩٧٠- ب- تفهيم المستجيبين ما يجب عليهم:

وعلى الدعاة أن يفهموا المستجيبين للدعوة أن عليهم أن يكونوا دعاة لغيرهم إلى

(٢٠٤٥) السيرة النبوية الصحيحة، المرجع السابق، ص١٣٨-١٤٠.

ما آمنوا به، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، إذ قام - بعد إسلامه - بدعوة من وثق به، دعاه إلى الإسلام، وقد استجاب له عدد من الرعيل الأول من المسلمين منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وغيرهم.

٩٧١ -ج- السرية لا تعني إيقاف العمل الدعوي:

وعلى الدعاة والمستجيبين لهم أن يفهموا جيداً بأن السرية لا تعني إيقاف العمل الدعوي؛ أي تبليغ الدعوة، وإنما تعني فقط الأخذ بصيغة معينة من صيغ العمل الدعوي وهي صيغة الفردية والسرية في تبليغ الدعوة، ومن المعلومِ أنَّ صيغ الدعوة؛ أي صيغَ تبليغها؛ منها السرية ومنها العلنية ومنها غير ذلك، ومعنى ذلك أن تبليغ الدعوة هو دائماً أوسع من أن نحصره في صيغة معينة، وليست أية صيغة أوسع من الدعوة وتبليغها. إن تبليغ الدعوة لا يتوقف أبداً؛ ولكن يمكن أن تتوقف صيغة معينة من صيغ تبليغ الدعوة لتحل محلها صيغة أخرى، لأن تبليغ الدعوة واجب شرعي يُؤَدى بصيغ مختلفة، فاذا تعذر أداؤه بصيغة معينة لم يسقط أصل الواجب واجب تبليغ الدعوة، ومثاله مثال الصلاة المفروضة، فهي تؤدي جماعة وعلانية، والعلانيةُ أكمل وأفضل، ولكن إذا تعذر أداؤها بهذه الصفة لم يسقط وجوب الصلاة المفروضة ويبقى هذا الواجب فتؤدى منفردة مثلاً. وكذا الدعوة إلى الله يبقى تبليغها قائماً؛ لأنه واجب، ولكن صيغ التبليغ تتغير.

٩٧٢- د- دعوة النساء إلى العمل الدعوي:

وعلى الدعاة في المرحلة السرية أن لا يقصروا دعوتهم وتبليغها إلىٰ الرجال فقط، بل عليهم أن يدعو النساء أيضاً لأنهن مخاطبات بالإسلام ومكلفات بواجباته، ومن واجباته الدعوة إليه. فعلى الدعاة أن يبدؤوا بأزواجهم ونساء أسرهم وأقاربهم فيدعوهن إلى الإسلام والعمل له والدعوة إليه.. وقد ذكرنا إسلام نساء من أسلموا من الرجال، وأكبر الظن أن إسلامهن كان بدعوة أزواجهن لهن بعد أن أسلموا. إن النساء المسلمات الداعيات يمكن أن يقمن بأعمال جليلة في مجال الدعوة في المرحلة السرية مما لا يقدر عليه الرجال فلا يجوز إغفالهن.

٩٧٣- تحذير وتنبيه للدعاة:

ومن ملاحظة واقع الدعاة نجد أن أكثرهم يغفلون عن دعوة أزواجهم ونساء أقاربهم أوْ لا يبذلون الجهد المطلوب لجعلهن مسلمات داعيات إلى الإسلام، فليحذرِ الدعاة هذا الإهمال والتقصير، وليتذكروا قول الله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ والنساء يدخلن في مضمون هذه الآية ولهذا ذكر النبي ﷺ ابنته فاطمة وعمته صفية في إنذاره وهو ينذر أقاربه الرجال من أبناء عشيرته الأقربين.



الفصل الرابع
مرحلة الدعوة الجهرية

٩٧٤- تمهيد وتقسيم:

في هذه المرحلة الجهرية للدعوة الإسلامية والتي امتدت إلى تاريخ هجرته ﷺ. واجه رسول الله عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه، واجهوا المشركين وأسمعوهم صوت الدعوة، وكان للمشركين مواقف من رسول الله ﷺ ومن دعوته. كما كان لرسول الله ﷺ مواقف من المشركين ومن مواقفهم منه ومن دعوته. فحصل من ذلك أشياء كثيرة يحسن معرفتها والاستفادة منها للدعوة والدعاة. كما أنه وقعت بعض الحوادث في هذه المرحلة والتي أشار إليها القرآن الكريم وهي قصته ﷺ مع الأعمى، وحادثة الإسراء وما تبعها من المعراج. ولتسهيل عرض محتويات هذا الفصل والإحاطة بها نقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول - من معالم الدعوة الجهرية وما يستفاد منها.

المبحث الثاني - موقف المشركين من الدعوة ومن رسول الله ﷺ وما يستفاد منه.

المبحث الثالث - موقف الرسول ﷺ من المشركين وما يستفاد منه.

المبحث الرابع - قصة النبي ﷺ مع الأعمى وما يستفاد منها.

المبحث الخامس - قصة الإسراء والمعراج وما يستفاد منها.

المبحث الأول
من معالم الدعوة الجهرية وما يستفاد منها
المطلب الأول
من معالم الدعوة الجهرية

٩٧٥- فاصدع بما تؤمر:

جاء في تفسير ابن كثير «وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتىٰ نزل ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرج ﷺ هو وأصحابه»[٢٠٤٦]. ولكنَّ المشهور أن الدعوة الجهرية بدأت بنزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[٢٠٤٧].

٩٧٦- وأنذر عشيرتك الأقربين:

وإنما أمره الله تعالى بنذارة عشيرته الأقربين على وجه التخصيص لهم؛ لأن العشيرة - كما يقول الإمام ابن عطية في تفسيره - مظنة المقاربة والطواعية، إذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم بما لا يحتمله غيرهم. أو كما يقول الإمام القرطبي: «وإنما خصَّ عشيرته الأقربين بالإنذار لتحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك»[٢٠٤٨]. وهذا لا يعني اختصاص قومه ﷺ بالدعوة إلى الإسلام، وإنما هو كما قال الإمام ابن عطية: «وكان هذا التخصيص - تخصيص عشيرته بالإنذار - مع الأمر العام بنذارة العالم»[٢٠٤٩] وهذا أمر بدهي وواضح، فالإسلام دين عام لجميع البشر ومحمد ﷺ بعثه الله رسولاً لجميع البشر قال تعالى:

(٢٠٤٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥٩.
(٢٠٤٧) سورة الشعراء الآية ٢١٤.
(٢٠٤٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٥٥، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٣.
(٢٠٤٩) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٥٥.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢٠٥٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[٢٠٥١]. وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[٢٠٥٢]. ثم إن عموم رسالته لا تعارضها دعوة عشيرته الأقربين والبدء بهم قبل غيرهم؛ لأنهم من جملة العالمين الذين من حقهم أن يُدعَوا إلى الإسلام، وأن تصلهم الدعوة إلى الإسلام ويُبلَّغوا بها. وما دام من السهل الميسور تبليغهم الدعوةَ قبل غيرهم من البعيدين فمن الطبعي والبدهيّ والمطلوب شرعاً البدء بدعوتهم قبل غيرهم. وعلى هذا فقول البعض: «ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أنَّ مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته[٢٠٥٣]. هذا القول غير دقيق بل وغير صحيح، والصحيح في تعليل بدء دعوته لعشيرته الأقربين هو أمر الله له بالبدء بهم. وتعليل هذا الأمر هو ما قاله الإمام ابن عطية والإمام القرطبي وما قلته. ثم إنَّ الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ والمقاومة الشديدة له ولدعوته شاركت فيه عشيرته الأقربون، وبقيت على شركها إلا القليل ممن آمن.

٩٧٧- النبي ﷺ يدعو عشيرته الأقربين:

قلنا: إن الدعوة الجهرية بدأت على رأي بعضهم بنزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾. والمقصود بعشيرته الأقربين قريش بجميع بطونها[٢٠٥٤]. وقد قام ﷺ بتنفيذ هذا الأمر الرباني، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أُنْزِلتْ هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ. فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مُرَّةَ بن كعب: أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدِ شمسٍ: أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عَبْدِ مَناف: أنقذوا أنفسكم من النار.

(٢٠٥٠) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٢٠٥١) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٢٠٥٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٢٠٥٣) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج١ ص١٤٣.

(٢٠٥٤) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٣.

يا بني هاشم: أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة: أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أنَّ لكم رَحِماً سأَبُلّها ببلالها»[٢٠٥٥]. والمعنى: لا تتكلموا على قرابتي فإني لا أقدر على دفع مكروه يريده الله تعالى بكم «غير أن لكم رَحِماً سأبُلُّها ببلالها» والبِلال: الماء، والمعنى: سأصلها[٢٠٥٦]. وهذا الإنذار لقريش عموماً ولقرابته الأدنين خصوصاً إنما هو تحذير لهم من البقاء على الشرك ورفضهم الإيمان به. وفي حديث آخر رواه الإمام مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»[٢٠٥٧].

٩٧٨- الأذى الشديد من الأقربين[٢٠٥٨]:

ويلاحظ هنا أن من الأذى الشديد للنبي ﷺ والإيغال في عداوته والصدّ عن دعوته جاء بعض ذلك من بعض أقاربه ﷺ الأقربين له، فقد جاء من عمه أبي لهب وشاركت فيه زوجته أم جميل. ومن أخبار هذا الأذى من أبي لهب وصدّه الناس عن الدعوة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا وجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون من قريش حتى اجتمعوا إليه فجاء أبو لهب ومن سمع نداءه من بطون قريش فقال لهم: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقيَّ؟» وفي رواية أخرى: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله في الرد عليه سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ. . .﴾ وأبو لهب هذا كان

(٢٠٥٥) مختصر صحيح مسلم للمنذري بشرح صديق حسن خان ج١ ص٤٠٤.

(٢٠٥٦) المرجع السابق ج١ ص٤٠٥، ٤٠٦.

(٢٠٥٧) المرجع السابق ج١ ص٤٠٥.

(٢٠٥٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٦٣-٥٦٤، السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج١ ص٢٩٤ وما بعدها.

كثير الأذية لرسوله الله ﷺ والإزدراء له، والتنقيص له ولدينه، والسعي لصد الناس عن دعوته، فكان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى مجامع القوم وإلى القبائل الوافدة إلى مكة يدعوهم للإسلام، كان أبو لهب يخرج خلف رسول الله ﷺ يصدّ الناس عن دعوته، ويفتري الكذب على رسول الله ﷺ، فقد أخرج الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت النبي ﷺ في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه أبو لهب وهو يقول للناس: إنه صابىء كاذب. وأخرج أيضاً الإمام أحمد بن حنبل عن ربيعة ابن عباد أيضاً: كان النبي، يتبع القبائل يدعوها إلى الإسلام، ووراءه أبو لهب، فكان ﷺ يقف على القبيلة ويقول: «يا بني فلان: إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقوني وتمنعوني - تحموني - حتى أبلغ عن الله ما بعثني به»، وإذا فرغ ﷺ من مقالته، قال أبو لهب الذي كان يتبعه: يا بني فلان: هذا - أي النبي ﷺ - يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. وكانت أم جميل زوجة أبي لهب مثل زوجها شديدة العداوة لرسول الله ﷺ تضع الشوك في طريقه والقذر على بابه، وجاءت مرة إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة وفي يدها حجر تريد رميه على رسول الله ﷺ، ولكن الله تعالى صرف بصرها فلم تبصر رسول الله ﷺ، ولعداوتها هذه لرسول الله ﷺ أشركها الله تعالى فيما توعد به زوجها في سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ. . .﴾.

٩٧٩- فاصدع بما تؤمر:

ومما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ في مرحلة الدعوة الجهرية قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٢٠٥٩] أي فاجهر بما تؤمر به من الشرائع وأظهره وبلغ به جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك[٢٠٦٠]. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برّأك الله عما يقولون[٢٠٦١]. ﴿إِنَّا

(٢٠٥٩) سورة الحجر، الآيات من ٩٤-٩٦.

(٢٠٦٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٥٩٠، تفسير القرطبي ج١٠ ص٦٢.

(٢٠٦١) تفسير القرطبي ج١٠ ص٦٤.

﴿كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أي حفظناك من شرهم فلا ينالك منهم ما تحذره. وهذا ضمان من الله تعالى لنبيه ﷺ لينهض بالدعوة نهضة من لا يهاب ولا يخشى، كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[٢٠٦٢]. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ﴾ وصف من الله تعالى للمستهزئين برسول الله ﷺ بأنهم مشركون تسلية له عليه الصلاة والسلام وتهويناً للخطب عليه بأنهم أصحاب تلك الجريمة الكبرى جريمة اتخاذهم مع الله إلهاً آخر، وهي أكبر الكبائر التي سيُخذَلون بسببها ويُعَذبون كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة أمرهم[٢٠٦٣].

المطلب الثاني

المستفاد من الدعوة الجهرية

٩٨٠- أولاً - استكمال متطلبات الدعوة الجهرية قبل البدء بها:

قلنا: إن الدعوة السرية استمرت ثلاث أو أربع سنوات قبل التحول إلى الجهر بها، فما سبب ذلك؟ أي ما سبب بقاء الدعوة سرية هذه المدة قبل الجهر بها؟ من الواضح الجلي أن استمرارها سرية إنما كان لاستكمال متطلبات الانتقال إلى المرحلة الجهرية للدعوة. ومتطلباتها هي إيجاد القاعدة للدعوة المتكونة من العناصر المؤمنة بالقدر الكافي، حتى إذا ما حصل الجهر بالدعوة وحصلت مقاومة المشركين والمعارضين للدعوة ولدعاتها قابلها وواجهها أولئك المؤمنون بالصبر وتحمل الأذى والثبات على الدعوة مهما كان الأذى الذي يصيبهم. وحتى إذا أمكن لأعداء الدعوة قتل بعض الدعاة أو حبسهم، فإن الدعوة تبقى ويبقى من الدعاة من يبقون على عهدهم وثباتهم عليها ودعوة الناس إليها. فعلى الدعاة أن يفقهوا هذا فيبدؤوا بالدعوة بصورة سرية كما قلنا، ولا يتحولوا عنها إلى المرحلة الجهرية قبل استكمال متطلباتها، وعلى رأس هذه المتطلبات العدد الكافي من المستجيبين لها

(٢٠٦٢) تفسير القاسمي ج١٠ ص٧١، وآية: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ...﴾ الخ في سورة المائدة ورقمها ٦٧.

(٢٠٦٣) تفسير القاسمي ج١٠ ص٧٢.

المؤمنين حقاً بها، والمرجو ثباتهم عليها مهما كانت العقبات والصعاب والأذى الذي يصيبهم من أعداء الدعوة. إن تقدير العدد المطلوب من المستجيبين للدعوة كمُتطَّلبٍ للانتقال إلى المرحلة الجهرية، هذا التقدير متروك إلى اجتهاد القائم أو القائمين على الدعوة، آخذين بنظر الاعتبار قوة وشراسة أعداء الدعوة، والظروف المحيطة بهم - أي بالدعاة - من جهة المكان والزمان والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها، والحماية التي يمكن أن يحصلوا عليها بسبب أُسرِهم أو بسبب قراباتهم بأَصحاب السلطة المعارضين للدعوة. كما أنَّ عليهم في تقدير عدد المستجيبين للدعوة تقديرَ مدى صلاتهم وثباتهم على الدعوة إذا مسّهم شيء من الأذى من أعداء الدعوة. إن التأكد من عمق إيمان المستجيبين للدعوة وثباتهم عليها أمر جوهري، وأقل ما يكفي فيه ترجيحُ المسؤول عن الدعوة وجودَ هذا الإيمان عند المستجيبين للدعوة وثباتَهم عليها. إن هذا الإيمان العميق كان موجوداً في الرعيلِ الأول من المسلمين الذين آمنوا بمحمد ﷺ في مرحلة الدعوة السرية، ولذلك تحملوا أذى المشركين وتعذيبهم بالصبر الجميل كما سنذكر ذلك فيما بعد. وعلى الدعاة أن لا يتأثروا برغبات المستجيبين للدعوة في إعلانها والجهر بها قبل أن تُستكمل متطلبات الجهر بالدعوة.

٩٨١- ثانياً - ضمان القائمين بالدعوة الجهرية:

ذكرنا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ وقولَ من قال من المفسرين في هذه الآية: «وهذا ضمان من الله تعالى لنبيه ﷺ لينهض بالدعوة نهضة من لا يهاب ولا يخشى»[٢٠٦٤]. ونذكر هنا قول ابن كثير في هذه الآية: «أي بلّغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذي يريدون أن يَصدوك عن آيات الله»[٢٠٦٥].

وقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال القرطبي رحمه الله: «والمعنى اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله فإن الله كافيك مَن آذاك كما كفاك المستهزئين»[٢٠٦٦]. ولا شك أن وعد الله

(٢٠٦٤) الفقرة ٩٧٩.

(٢٠٦٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥٩.

(٢٠٦٦) تفسير القرطبي ج١٠ ص٦٢.

لرسوله ﷺ بالحفظ والصيانة من شرور أعدائه والمستهزئين به سيشد أزره ﷺ ويزيده قوة وثباتاً على تبليغ رسالة ربه كما قال تعالى في خطابه له في آية أخرى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾(٢٠٦٧).

ويمكننا أن نستنبط من ذلك أَنَّ الدعاة بحاجة إلى ما يشدّ أزرهم ويقويهم في تبليغ الدعوة دون خوف يمنعهم من هذا التبليغ، ومما يقويهم على متطلبات الدعوة والقيام بتبليغها - بعد الاعتماد على الله - قيام الجماعة المسلمة، جماعةِ الدعاة، بإخبار الدعاةِ المنتسبين إليها بأن جماعتهم هي سندهم بعد الله: تدافع عنهم بكل ما تستطيع من قوة، وتقوم بكفالتهم وكفالة أسرهم وسدّ حاجاتهم إذا أصابهم مكروه أو أذى، أو فصل من وظائفهم، أو حبسهم، أو قتلهم. إن مثل هذا التعهد والالتزام من قبل الجماعة، جماعة الدعاة، سيقويهم - إن شاء الله تعالى - ويزيدهم ثباتاً على تبليغ الدعوة؛ لأن الإنسان قد يكون قلقه وخوفه على مصير عائلته وليس على مصيره هو، وحتى إذا كان قلقه يشمل نفسه وعائلته فإن تعهد الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، سيزيل أو يخفف هذا القلق إلى حد بعيد بحيث يجعل الداعية ثابتاً على الدعوة، قائماً بمتطلباتها دون تردد ولا وجل، وقد نستأنس بما نقول بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول للمجاهدين: أنا أبو العيال في غيبتكم. وعلى هذا الأساس يمكن أن تنشيء صندوقاً تسميه صندوق ضمان الدعاة، تغذيه من تبرعات المنتسبين للجماعة بالدرجة الأولى، ويجوز قبول الهبات من المسلمين المحسنين، حتى يكون للجماعة ما تقوم به لكفالة منتسبيها من الدعاة عند الحاجة.

(٢٠٦٧) سورة المائدة الآية ٦٧.

المبحث الثاني
موقف المشركين من الدعوة الجهرية
وما يستفاد منه للدعوة والدعاة

المطلب الأول

موقف المشركين من الدعوة الجهرية

٩٨٢- يكذبونه وهو الصادق الأمين:

لما بلغ قريشاً خبر الدعوة الإسلامية، وجهر النبي ﷺ بها، لم تقابلها قريش بالنظر فيها وسؤال النبي ﷺ عنها، وعما يريده في دعوته وفي تحذيره لهم من التكذيب بها، وهم قد عرفوا أمانته وصدقه من قبل، وقد لبِثَ فيهم عمراً طويلاً لم يعرفوا منه إلا الأمانة والصدق والعفة وحسن الخلق، أقول: لم تقابله بما ذكرتُ، وإنما قابلته بالتكذيب لدعوته ونبوته، وراحوا يفكرون في وسائل مقاومته والصدّ عن دعوته والدفاع عن معتقداتهم الباطلة من الشرك بالله وإنكار البعث بعد الموت وإنكار النبوات ونبوته على وجه الخصوص، وكان من وسائلهم في مقاومة الدعوة والصدّ عنها وعن المُرسَل بها سيدنا محمد ﷺ الطعن بشخصه الكريم باتهامه بالكذب والسحر والافتراء، وبادعائهم أن هذا القرآن ليس من عند الله وإنما علّمه إياه شخص آخر، إلى آخر ما قالوه من الأباطيل والتهم الساقطة وهم يحسبونها حججاً وبراهين ساطعة. ونذكر فيما يلي بعض افتراءاتهم وما قابلوا به الدعوة الإسلامية، حتى يتبين لنا موقفهم منها.

٩٨٣- أولاً- تكذيبهم للدعوة وللرسول واتهامه بالسحر:

قال تعالى مخبراً عن حال قريش وموقفهم من الدعوة ومن رسول الله ﷺ:
﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا

لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[٢٠٦٨] تعجبوا من ترك الشرك ودعوته لهم بأن يعبدوا الله وحده، تعجبوا من دعوته إياهم لتوحيد الله وهو الحق الذي لا يصح غيره، ولم يتعجبوا من شركهم وهو الباطل الذي لا يصح[٢٠٦٩].

٩٨٤- ثانياً- تواصيهم على الثبات على شركهم:

قال تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[٢٠٧٠] جاء في سبب نزول هذه الآية والآيات التي قبلها أن وفداً من رؤساء قريش جاء إلى أبي طالب عم رسول الله ﷺ وقال له: «ياأبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه». فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوني أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعونك وإلهك. فقال ﷺ: «أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم». قال أبو طالب وإلامَ تدعوهم؟ قال ﷺ: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينّكها وعشرَ أمثالها، قال ﷺ: «تقولون لا إله إلا الله» فنفروا وقالوا: سلنا غيرها. قال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا من عنده غضاباً[٢٠٧١]. وقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادة قريش قائلين ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أي استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي اثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه[٢٠٧٢].

(٢٠٦٨) سورة ص، الآيتان ٤، ٥.

(٢٠٦٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧، تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٢.

(٢٠٧٠) سورة ص الآية ٦.

(٢٠٧١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧.

(٢٠٧٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧.

٩٨٥- ثالثاً - دفاعهم عن شركهم واستبعادهم اختصاص محمد بالرسالة:

قال تعالى حكاية عما قاله رؤساء قريش في دفاعهم عن شركهم واستبعادهم اختصاص محمد ﷺ بالرسالة: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[٢٠٧٣]. والمعنى: أنهم قالوا ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد في الملة الآخرة، أي في دين قريش الذي أدركنا عليه آباءنا، أو في ملة النصارى؛ لأنهم لا يدينون بالتوحيد. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي ما هذا التوحيد الذي نُدعى إليه إلا فرية محضة[٢٠٧٤]. ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه ﷺ مع أنَّ فيهم من هو أكثر ثراءً ومنزلة منه، كما قال تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. ولهذا لما قالوا هذا القول الذي دلّ على جهلهم وقلة عقولهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي إنما يقولون هذا القول لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله تعالى، وسيعلمون عاقبة قولهم وما كذبوا به يوم يُدّعون إلى نار جهنم دعاً[٢٠٧٥].

٩٨٦- رابعاً- استهزاؤهم بالرسول ﷺ:

ومن أساليب كفرة قريش سخريتهم بالرسول ﷺ واستهزاؤهم به لصرف الناس عنه بزعمهم، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٢٠٧٦]. واتخذه هزواً: بمعنىٰ استهزأ به ﴿أَهَٰذَا﴾ استصغار منهم بالرسول ﷺ ﴿الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وهذا منهم سخرية واستهزاءٌ، ولو لم يستهزؤوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوثٌ من عند الله رسولاً. وقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وبذله

(٢٠٧٣) سورة ص الآيتان ٧، ٨.

(٢٠٧٤) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٤٦.

(٢٠٧٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٨.

(٢٠٧٦) الفرقان، الآية ٤٢.

قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم، ويتحولوا إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم، واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ودلالةٌ على أنهم لا يفلتون من عذاب الله وإن طالت مدة إمهالهم. وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي وسيعلمون من أضل سبيلاً: هم أم الرسول ﷺ الذي زعموا أنه كاد أن يضلهم(٢٠٧٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾(٢٠٧٨) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي يستهزؤون بك وينتقصونك ويقولون: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يعنون أهذا الذي يسبّ آلهتكم ويسفه أحلامكم؟ قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزؤون برسول الله ﷺ(٢٠٧٩).

٩٨٧- خامساً- من عادة الكفار استهزاؤهم برسول الله:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٢٠٨٠). هذه تسلية من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ من استهزاء الكفار به بأن له في الأنبياء السابقين أسوة حسنة، وأن ما يفعله الكفار به من سخرية واستهزاء سوف يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوه(٢٠٨١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٢٠٨٢). الإملاء يعني الإمهال، والمعنى: ولقد سُخِرَ برسل من قبلك فأمهلتهم مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم، فلما حقَّ القضاء أخذتهم

(٢٠٧٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٨١-٢٨٢.

(٢٠٧٨) سورة الأنبياء الآية ٣٦.

(٢٠٧٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٨.

(٢٠٨٠) سورة الأنبياء الآية ٤١.

(٢٠٨١) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٧٨.

(٢٠٨٢) سورة الرعد الآية ٣٢.

بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك[٢٠٨٣].

٩٨٨- سادساً - لو كان خيراً ما سبقونا إليه:

قال تعالى مخبراً عن منطق كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[٢٠٨٤]. أي قال كفار قريش عن المؤمنين بالقرآن، لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أنَّ لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كتاب قديم أي مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٢٠٨٥].

٩٨٩- سابعاً - تكذيبهم بيوم القيامة وبالبعث بعد الموت:

قال تعالى مخبراً عن الكفرة في تكذيبهم بيوم القيامة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[٢٠٨٦]. والمقصود بالساعة يوم القيامة. وقال تعالى مخبراً عن إنكارهم البعث بعد الموت: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢٠٨٧]. أي وإن تعجب يا محمد في إنكارهم البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يُتعَجب منه: لأن من قدر على إنشاء السموات وغيرها ولم يعي بخلقهن وخلق الإنسان، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب، هذا الإنكار الذي حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أإذا كنا تراباً بعد أن نموت فهل نُخلَقْ مرة

(٢٠٨٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٢٢.

(٢٠٨٤) سورة الأحقاف الآية ١١.

(٢٠٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦.

(٢٠٨٦) سورة الفرقان الآية ١١.

(٢٠٨٧) سورة الرعد الآية ٥.

أخرى[٢٠٨٨]. وقال تعالى مخبراً عن إنكارهم البعث، والقسم بالله على وقوعه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[٢٠٨٩]

الزعم: ادعاء العلم. وعن شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب: «زعموا». والذين كفروا في هذه الآية هم أهل مكة، وكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ تعني إثباتاً لما بعد ﴿لن﴾ وهو البعث[٢٠٩٠].

٩٩٠- ما ادَّعَوْهُ في القرآن الكريم:

كفار قريش كذبوا بالقرآن، وأنكروا أن يكون كلام الله، وأن الله أنزله على محمد ﷺ، وادّعَوْا أن هناك من أعان محمداً ﷺ على إنشائه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[٢٠٩١]. يقول تعالى رداً على قولهم ومخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ أي كذب ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي ادعوا أنه عليه الصلاة والسلام استعان على جمعه بقوم آخرين. فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه. ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ يعنون كتب الأولين أي استنسخها ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي تقرأ عليه ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي في أول النهار وآخره[٢٠٩٢].

٩٩١- طلبات الكفار واقتراحاتهم:

وإيغالاً من الكفار - كفار مكة - في كفرهم وإصرارهم عليه، أخذوا يتقدمون إلى الرسول ﷺ بطلبات يريدون بها تبرير كفرهم وإصرارهم عليه، فمن هذه الطلبات والاقتراحات.

(٢٠٨٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٥١٣.

(٢٠٨٩) سورة التغابن الآية ٧.

(٢٠٩٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٤٨.

(٢٠٩١) سورة الفرقان الآيتان ٤، ٥.

(٢٠٩٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٠٩.

٩٩٢- (أ) أن يكون ملكاً أو معه ملك:

قال تعالى حكاية عما اقترحه وطلبه كفار مكة من رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[٢٠٩٣]. أي يقول كفار مكة: إن صح أن محمداً ﷺ رسولُ الله فما باله حاله مثلُ حالنا ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد. يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيُّش، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً[٢٠٩٤]، إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف. ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مُعَاناً بملك فليكن مُعَاناً بكنز يُلقَى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن اقترحوا أن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم الذين قالوا ما جاء في الآية وذكرناه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سُحِرَ فغُلِبَ على عقله[٢٠٩٥].

٩٩٣- (ب) اقتراحهم إنزال الملائكة أوْ رؤية الله:

قال تعالى مخبراً عما طلبه الكفرة أو اقترحوه: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[٢٠٩٦]. أي إن الكفرة الذين لا يؤمنون بلقاء الله في الآخرة وهم بالتالي لا يخافون الله في هذا اللقاء، هؤلاء الكفرة اقترحوا من الآيات أن يُنزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن

(٢٠٩٣) سورة الفرقان الآيتان ٧،٨.

(٢٠٩٤) اقترحوا أن يكون الرسول ملكاً كما أخبرنا الله تعالى بذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾. سورة الإسراء الآية ٩٤، أي ما منعهم من الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي إنكارهم أن يرسل الله بشراً، وأنه كان - في زعمهم - أن يكون الرسول ملكاً. والهمزة في «أبعث» للإنكار: تفسير الزمخشري ج٢ ص٦٩٤.

(٢٠٩٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٦٥-٢٦٦.

(٢٠٩٦) سورة الفرقان الآية ٢١.

محمداً ﷺ صادق حتى يصدقوه. أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه. وهم أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم. ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه ﴿وَعَتَوْ﴾ أي تجاوزوا الحدّ في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي أفرطوا في عتوهم وبلغوا أقصى العتو(٢٠٩٧).

٩٩٤- (جـ)- اقتراحات وطلبات إضافية:

قال تعالى مخبراً عن تعنت كفار مكة واقتراحاتهم وطلباتهم ليبقوا على كفرهم وعنادهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٢٠٩٨). أي قال كفار مكة لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك ونصدقك ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي تشقق لنا من أرض مكة عيوناً أو عيناً غزيرة المياه ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي بستان منهما ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي تفجر الأنهار وسطها تفجيراً. ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي قطعاً بالعذاب ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي كفيلاً بما تقول شاهداً بصحته ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي أو تصعد في السماء ولن نؤمن لأجل رقيك وحده ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أي حتى تنزل علينا كتاباً من السماء فيه تصديقك ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ أي تنزيهاً له. والمراد به التعجب من اقتراحاتهم ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي هل كنت إلا بشراً كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات حسبما يلائم حال قومهم، ولم يمكن أمر الآيات إليهم، وليس لهم أن يتحكموا على الله بشيء منها، فما بالكم تقترحونها علي(٢٠٩٩).

(٢٠٩٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٧٢.

(٢٠٩٨) سورة الإسراء، الآيات من ٩٠-٩٣.

(٢٠٩٩) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٣٠-٣٣١، تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٩٣-٦٩٤، تفسير القاسمي ج١ ص٢٩٧-٢٩٨.

٩٩٥-(د)- اقتراحهم نزول الخارق:

قال تعالى عن المشركين، مشركي مكة، وما اقترحوه على رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2100]. يقول تعالى مخبراً عن المشركين إنهم كانوا يقولون لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ويتمنون ويقترحون. وإنما كانوا يقولون ذلك ويقترحونه مع تكاثر ما أُنزِلَ من الآيات على رسول الله ﷺ؛ لتركهم الاعتداد بما أُنزِلَ عليه كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات؛ عناداً منهم ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ أي هو قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة[2101].

٩٩٦- (هـ)- طلبهم تعجيل العقاب:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كان استعجال العذاب استهزاءً منهم وتكذيباً ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[2102] أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

(٢١٠٠) سورة الأنعام الآية ٣٧.

(٢١٠١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٠، تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣١.

(٢١٠٢) تفسير ابن كثير، والآيتان في سورة العنكبوت: ٥٣، ٥٤.

المطلب الثاني

المستفاد من موقف المشركين من الدعوة الإسلامية الجهرية

٩٩٧- أولاً- رد الدعوة والطعن في دعاتها:

لقد ردّ المشركون في مكة دعوة الإسلام، وقابلوها بالتكذيب والطعن في الرسول ﷺ واتهامه بالكذب والسحر والنعوت القبيحة، وهو ﷺ بريء منها، بل ويعلمون هم أنه بريء منها لأنهم ما عرفوا منه إلا الأمانة والصدق، ولكن استمساكهم بكفرهم ومعاداتهم للدعوة حملهم على ردها والطعن في شخص الرسول ﷺ.

فعلى الدعاة أن لا يأخذهم العجب والبهر والانزعاج إذا ما رأوا الناس أو بعضهم يردون دعوتهم ويعادونها ويتهمونهم بالتهم الباطلة، فليسوا هم- أي الدعاة- بأحسن حالاً ولا أقوى حجة ولا أكثر تأييداً من الله ولا أنصع بياناً من رسول الله ﷺ، ومع ذلك اتهمه أهل الباطل بما اتهموه به، وردوا دعوته وهي دعوة الحق. فإذا فقه الدعاة ذلك لم يلتفتوا إلى تكذيب المكذبين وطعنهم بأشخاصهم، ومضوا في دعوتهم بإصرار ويقينٍ بنصر الله لهم.

٩٩٨- ثانياً- الاستهزاء بالدعاة والسخرية منهم:

ذكرنا من قبل أن مشركي مكة كانوا مع رفضهم الإسلام يستهزؤون برسول الله ﷺ ويسخرون منه، وهذا الصنيع منهم نهجٌ قديم سلكه الكفرةُ مع رسلهم السابقين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فلا عجب أن يسخر في الوقت الحاضر أعداء الدعوة من ملاحدة وكفرة بالدعاةِ إلى الله، فعلى الدعاةِ أن لا يأبهوا باستهزاء وسخرية هؤلاء، فسيحيق بهم ما حاق بأسلافهم الساخرين برسل الله إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الله تعالى. وأن يكون موقف الدعاةِ من سخريتهم الصبرَ والإناةَ والاستمرارَ في الدعوة، فإنّ من المبطلينَ من لا يستجيب إلى دعوة الحق إلا بعد عناد شديدٍ وأمد بعيد.

٩٩٩- ثالثاً- الدعاة أولى بالثبات على دعوتهم من أعدائها:

ذكرنا فيما سبق أن الملأ من مشركي مكة أي ساداتهم، تواصَوْا فيما بينهم، واتفقوا على مقاومة الدعوة الإسلامية، والتمسك بعقيدتهم أو بعقائدهم الباطلة. إن هذا الشيء أو قريب منه قد يحدث للدعاة اليوم، فيتفق كبراء القوم الذين يرفضون الدعوة، يتفقُ هؤلاء فيما بينهم، وبالرغم من الاختلافات فيما بينهم، يتفقون على محاربة الدعاة ودعوتهم الإسلامية، كما نلاحظ في بعض البلاد، حيثُ يتفق الحكام ورؤساء الأحزاب العلمانية ومن يسير في ركابهم، يتفقون على محاربة الدعوة الإسلامية وتضييق الخناقِ عليها، واتهام أصحابها الدعاة إلى الله، بالتهمِ الكاذبة الباطلة، مع إصرار على مسلكهم الذميم هذا. فما على الدعاة إلا مقابلة إصرارهم المشين على الكفر، بالإصرار الدائم على التمسك بالدعوة، ولهم في رسول الله أسوة حسنة. وعليهم أن لا يلينوا أمام إصرار أعداء الدعوة على محاربتها، وليتذكروا قول رسول الله ﷺ للملأ من قوم مكة لما قال لهم: قولوا: «لا إله إلا الله» فرفضوها وقالوا: سلنا غيرها، فقال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»[٢١٠٣]. وبقدر ثبات الدعاة على دعوتهم وصبرهم على المضي في تبليغها، بقدر ذلك يضعف إصرار الملأ من أعداء الدعوة. كما أن على الدعاة أن تتحرك الغيرة في نفوسهم عندما يرون أعداء الدعوة يصرون على باطلهم وعلى محاربة الدعوة والدعاة، فليحملهم ذلك على مقابلة إصرارهم على الباطل على إصرارهم على الحق، أي على المضي في دعوتهم، وأن يتواصى الدعاة فيما بينهم على الثبات على دعوتهم والاستمرار في تبليغها، فهم على الحق المبين وأولى في هذا الثبات من غيرهم.

١٠٠٠- رابعاً- إعجاب أعداء الدعوة بأنفسهم:

ومما يتوارثه أهل الباطل، أعداء الحق، إعجابهم بأنفسهم واستبعادهم أن يأتي بالحق والصواب غيرهم. وعلى أساس هذا المنطق المرذول الذي هو بعض نتائج الإعجاب بالنفس، قال المشركون متعجبين أن يُختص رسول الله ﷺ بالحق والهدى

(٢١٠٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧.

وَتَنَزُّلِ الوحي عليه مع أنهم - في زعمهم - أولى بذلك لو كان حقاً، فهم أهل الرياسة والثراء في المجتمع، قال تعالى حكاية عما قالوه: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ أي إنهم يستبعدون اختصاص محمد ﷺ بتنزل الوحي عليه مع أن فيهم من هو أكثر ثراء ومنزلة منه، وبالتالي يكون هو الأحقَّ بتنزل الوحي عليه، وإذا لم يقع ذلك فقد رتبوا عليه تكذيبهم بالرسالة وبالرسول. فعلى الدعاة أن يعرفوا هذا المنطق من أعداء الدعوة في تقدير الأمور ووزنها وما يعرفون بِهِ الحق والصواب. ولا يتعجبوا - أي الدعاة - من منطقهم هذا، فقد واجهوا به خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ المؤيد بالله وبما آتاه من المعجزات، فلا عجب إذا سلكوا المسلك نفسه في مواجهة الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر. وعلى الدعاة كشف زيف هذا المنطق وما بنوه عليه من نتائج باطلة في كيفية معرفة الحق والباطل، فما زال في الناس بقية من نظر وعقل سليم، وليؤكد الدعاة في ردهم لمنطق أعداء الدعوة الذي توارثوه عن أسلافهم، أن الحق هو ما كان حقاً بذاته سواء جاء به أو دعا إليه رجل مغمور، أو غير مغمور، وأن الحق والعلم به والدعوة إليه لا يشترط في ذلك ثراء ولا منزلة العالم به الداعي إليه. وإن الداعي يعرف صدقه وأحقية ما يدعو إليه بالنظر في مضمون دعوته ولا علاقة لذلك بكونه فقيراً وغيره غني، ونحو ذلك مما قد يختلف فيه الناس ولا علاقة له بما يدعو إليه.

١٠٠١- خامساً- استعظام المبطل نفسه واستصغاره شأن المسلم:

أهل الباطل يرون أنفسهم دائماً فوق غيرهم، وأن غيرَهم أسفل منهم، وعلى أساس هذا المنطق يردونَ دعوة الحق ويستصغرون شأن الدعاة إليها، ويستدلون بمنطقهم المرذول أن الدعوة لو كانت حقاً لما سبقهم بالاستجابة إليها هؤلاء الصعاليك من عامة الناس الذين سارعوا إلى قبولها. وهذا هو ما قاله أسلافهم في ردهم دعوة الإسلام، يوم نادى بها سيدنا محمد ﷺ، فردوها بحجة أن من آمن بها صعاليك لا وزن لهم في المجتمع، أمثال بلال وعمار من المستضعفين في مكة، قال تعالى حكاية عن منطق أولئك الكفرة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ وهذا المنطق المنكوس المرذول لا يزال هو السائد عند أعداء الدعوة أو المتكبرين عليها. فعلى الدعاة أن لا يأخذهم العجب والبهر من منطق أعداء

الدعوة، الذين يردونها، ويعادونها ويعادون الدعاة، بحجة أن لو كان في هذه الدعوة خير لكانوا هم أولى الناس وأحقهم في معرفتها والإيمان بها، فلا عبرة لهؤلاء المغمورين الذين آمنوا بهذه الدعوة وصاروا من أتباعها والمؤيدين لها. وعلى الدعاة أن لايتأثروا بباطل هؤلاء، وليعلموا أن العظيم ما كان عظيماً عند الله لتقواه وصلاحه، وإن كان مغموراً عند الناس.

١٠٠٢- سادساً- لا حدّ لضلال الإنسان:

على الدعاة أن لا يستغربوا وتصيبهم الدهشة إذا رأوا أعداء الدعوة إلى الله، الرافضين لها يعلنون تكذيبهم بها وصدَّ الناس عنها، فكفار قريش ردوا دعوة رسول الله ﷺ المؤيد بعناية الله، وقد عاش معهم رسول الله ﷺ فما عرفوا منه إلا الصدق، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك جيداً وأن يعلموا أن لا حدّ لضلال الإنسان، فقد يصل به هذا الضلال أن يرفض دعوة رسول الله ﷺ وهو يبلغها لهم بنفسه، فإذا فقه الدعاة ذلك لم يؤثر فيهم رفض الرافضين لدعوتهم؛ ولم يحملهم على الفتور في الدعوة أو الشك في صلاحها وأحقيتها. بل إن ضلال الإنسان لا يقف عند حدّ ضلال نفسه بل يسعى لبقاء الغير في ضلالهم يصدهم عن رؤية الحق والإيمان به واتباعه. فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك فيزيدوا من نشاطهم في مجال عملهم الدعوي.

١٠٠٣- سابعاً- التظاهر بالحجة والبرهان في رفض الدعوة:

وقد يتظاهر المبطلون بما يحسبونه حجّةً لهم في رد الدعوة، متشبثين بأن هذه الدعوة ابتداع وانحراف عن منهج الأسلاف، وأنها تفرق بين الناس فلا تستحق إلا الصد عنها، والإعراض عن دعاتها. فعلى الدعاة أن لا تضيق صدورهم بمثل هذا الكلام، فقد قيل هذا الكلام أو مثلُهُ لمن هو خير منهم، لسيدنا محمد ﷺ كما حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[٢١٠٤].

(٢١٠٤) انظر الفقرة ٩٨٥.

المبحث الثالث

موقف الرسول ﷺ من المشركين

وما يستفاد منه للدعوة والدعاة

المطلب الأول

موقف الرسول من المشركين

١٠٠٤- تمهيد:

ذكرنا بعض مواقف المشركين في مكة من الدعوة الإسلامية ومن رسول الله ﷺ، وما انطوت عليه تلك المواقف من ردّ للدعوة، ورفض لها مع إصرار على هذا الرفض؛ واستهزاء بها وبرسول الله ﷺ؛ وتكذيب له ولكتاب الله العزيز، وتقديم اقتراحات وطلبات كان المشركون يتقدمون بها إلى رسول الله ﷺ تبريراً لعنادهم وكفرهم، أو سخرية واستهزاءً برسول الله ﷺ. وكانت تلك المواقف للمشركين في مكة قبل الهجرة وبدأت عندما جهر النبي ﷺ بالدعوة. ونذكر فيما يلي مواقف أو موقف رسول الله ﷺ من المشركين ومن مواقفهم نحوه ونحو الدعوة الإسلامية؛ ثم نبين ما يستفاد من موقف رسول الله ﷺ من المشركين وما زعموه وما طلبوه.

١٠٠٥- أولاً- من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها:

قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾(٢١٠٥) أي قل يا محمد لأولئك الكفرة من مشركي مكة وغيرهم، قد جاءكم الحق وهو القرآن من ربكم فمن اهتدى به بأن آمن به فإن منفعة اهتدائه لنفسه خاصة، ومن ضل بأن آثر الضلال فكفر بالقرآن فماضَرَّ إلا نفسه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ موكول

(٢١٠٥) سورة يونس الآية ١٠٨.

إليّ أمركم وحملكم على ما أريد ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، أُبشِّرُ من آمن بي برضوان الله وأنذر من أبى بعذاب الله[٢١٠٦].

١٠٠٦- ثانياً- الدعوة إلى عبادة الله وحده:

يقول الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ ليقول للمشركين: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢١٠٧]. أي قل يا محمد: يا أهل مكة إن كنتم في شك من صحة ديني وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم؛ وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك؛ وهو: أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون الله، ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم كما أنّهُ هو الذي أَحياكم؛ ثم إليه مرجعكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن الله أمرني بذلك بما أوحى إليَّ في كتابه[٢١٠٨].

١٠٠٧- ثالثاً- ما على الرسول إلا البلاغ المبين:

وهذا مبدأ عظيم وقاعدة أصيلة؛ وهي أن المُكّلف به رسول الله هو قيامه بالتبليغ، أي تبليغ من أُرْسِلَ إليهم بما أوحاه الله إليه وكلفه بتبليغه. وعلى هذا لا يُسأَل الرسول عن كفرهم ولا عن إصرارهم عليه. وقد جاءت الآيات تبين وتؤكد هذا المبدأ العظيم؛ (منها) قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فإنْ تولى كفار مكة وأمثالهم من الكفرة فلم يستجيبوا لدعوتك فليس عليك شيء من توليهم وإنما عليك البلاغ المبين وقد أديته[٢١٠٩]. ومثله، قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢١١٠] أي فإن أعرضتم عما يدعوكم إليه رسولنا

(٢١٠٦)تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٥، تفسير القاسمي ج٥ ص٨٩.

(٢١٠٧) سورة يونس الآية ١٠٤.

(٢١٠٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٣-٣٧٤.

(٢١٠٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨٠ والآية في سورة النحل ورقمها ٨٢.

(٢١١٠) سورة المائدة الآية ٩٢.

محمد ﷺ فاعلموا أنكم تضرون أنفسكم وليس على رسولنا شيء من إعراضكم[2111].

(ومنها) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2112]. أي إن عليكم طاعة الله وطاعة رسوله - والخطاب لكفار مكة وأمثالهم - فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمّله الله وكلفه به من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم به من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلالة وأحرزتم الهدى. والبلاغ الذي على رسولنا هو التبليغ الواضح لمن أُرْسِلَ إليهم[2113].

١٠٠٨- رابعاً- ليس عليك هداهم:

والرسول ﷺ غير مسؤول عن تحقق الهدى فيمن يدعوهم إليه قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2114]. أي ليس واجباً عليك أن تجعلهم مهديين فعلاً إلى ما أُمِرُوا به وإلى ما تدعوهم إليه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بِخَلْقِ الهداية في قلبه عقيب بيانك لما أُرسِلتَ به لجريان سنته تعالى بخلق الأشياء عقيب أسبابها[2115].

فالهدى الذي ليس على محمد ﷺ هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء إليه وبيانه للمدعوين فهو عليه ﷺ[2116]، ويدل عليه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2117]. مع قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ

(٢١١١) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٧٦.
(٢١١٢) سورة النور الآية ٥٤.
(٢١١٣) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٥٠.
(٢١١٤) سورة البقرة الآية ٢٧٢.
(٢١١٥) تفسير القاسمي ج٣ ص٢٤٨.
(٢١١٦) تفسير ابن عطية ج٢ ص٤٦٦-٤٦٧.
(٢١١٧) سورة القصص الآية ٥٦.

لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٢١١٨] فالهداية المنفية عن الرسول ﷺ هي الهداية في القلب، أي قبول الهداية والإيمان فهذه لله وحده. والهداية المثبتة للرسول ﷺ والواجبة عليه هي بيان الهدى ودعوة المدعوين إليها.

١٠٠٩- خامساً- لست عليهم بحفيظ:

قال تعالى عن المشركين وإعراضهم عما أنزله الله وعدم مسؤولية الرسول عن إعراضهم: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾[٢١١٩] أي ما أرسلناك يا محمد عليهم حافظاً لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا. أي ليس لك إكراههم على الإيمان[٢١٢٠]. ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة الله إليهم، فهذا هو ما كلفناك به[٢١٢١].

١٠١٠- سادساً- فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل:

ومن مظاهر موقفه ﷺ من مشركي مكة صبره ﷺ على عنادهم وتكذيبهم له وإصرارهم على شركهم، ودوامه ﷺ على دعوته لهم دون كلل ولا ملل، وصبره أيضاً ﷺ على ما يلقاه منهم من أذى وصدٍّ عن دعوته. وقد كان في صبره عليه الصلاة والسلام مستجيباً لأمر الله بالصبر قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٢١٢٢] أولوا العزم أي أولوا الجدّ والثبات والصبر. وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي اصبر يا محمد كما صبر أولوا العزم من الرسل على تكذيب أقوامهم لهم. وأولوا العزم، على أشهر الأقوال، نوح وإبراهيم وموسى وخاتم النبيين محمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ للبيان، فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم. ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل﴾ لكفار قريش بالعذاب، أي لا تدعُ لهم بتعجيله

(٢١١٨) سورة الشورى الآية ٥٢.

(٢١١٩) سورة الشورى الآية ٤٨.

(٢١٢٠) تفسير القرطبي ج١٦ ص٤٧.

(٢١٢١) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢١.

(٢١٢٢) سورة الأحقاف الآية ٣٧.

فإنهُ نازل بهم لا محالة وإن تأخر، وإنهم مستقصرون حينئذ؛ أي حين ينزل بهم العذاب مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي وعظت به كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول(٢١٢٣).

١٠١١- سابعاً- التمسك بما أنزل الله والصبر على المخالف:

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(٢١٢٤). أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي يفتح بينك وبينهم بالنصر والغلبة عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمه(٢١٢٥).

١٠١٢- ثامناً- لزوم الصبر حتى يأتي النصر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢١٢٦). هذه تسلية للنبي محمد ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمرٌ من الله تعالى له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ووعدٌ له بالنصر كما نُصِروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعدما نالهم من التكذيب من قومهم مع الأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لرسله ولعباده المؤمنين كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وقوله تعالى في الآية التي نحنُ بصدد تفسيرها: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي من خبرهم كيف نُصِروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم فلك فيهم أسوة وبهم قدوة(٢١٢٧).

(٢١٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٧٢، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣١٥-٣١٦.

(٢١٢٤) سورة يونس الآية ١٠٩.

(٢١٢٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٥.

(٢١٢٦) سورة الأنعام الآية ٣٤.

(٢١٢٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٠.

١٠١٣- تاسعاً- حرصه ﷺ على إيمان قومه:

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٢١٢٨].

كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فقال تعالى له: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ فافعل. يعني أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه ﷺ على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم[٢١٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة[٢١٣٠]. ثم قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٢١٣١].

١٠١٤-عاشراً- ما عندي ما تستعجلون به:

كان كفار مكة يستعجلون نزول العذاب بهم استهزاءً وسخريةً لعدم إيمانهم بما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ ولعدم إيمانهم بإنذاره لهم، فكان ردّه ﷺ على هذا الاستعجال ما أخبرنا الله به في أكثر من آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

(٢١٢٨) سورة الأنعام الآية ٣٥.

(٢١٢٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٩.

(٢١٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٠.

(٢١٣١) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٠، وآية ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ... ﴾ الخ في سورة الأنعام ورقمها ٣٦.

﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢١٣٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ أي إني من معرفة ربي وأنه لا معبود بحق سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ أي وأنتم كذبتم به حيث أشركتم به غيره. يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذ كان ثابتاً عندك بدليل. وقوله تعالى حكاية عما قاله لهم رسول الله ﷺ رداً على هذا الاستعجال منهم: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾(٢١٣٣). وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي في تأخير عذابكم ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ أي يتبع الحقَّ والحكمةَ فيما يحكم به ويقدره من تأخير عذابكم وتعجيله وهو خير الفاصلين أي القاضين. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لو أن في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لقضي الأمر بيني وبينكم أي لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وامتعاضاً من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريعاً والله أعلم بالظالمين وبما يجب في حكمته من كنه عقابهم ونوعه ووقته(٢١٣٤).

١٠١٥- أحد عشر- ماذا يستعجل منه المجرمون:

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ

(٢١٣٢) سورة الأنعام الآيتان ٥٧، ٥٨.

(٢١٣٣) سورة الأنفال الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي قال كفار مكة: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بحجارة من السماء - السجيل - كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، ومرادهم نفي كون القرآن حقاً، وإذا انتفىٰ كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً في زعمهم وقولهم: ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ تهكم وسخرية بمن يقول إنه هو الحق. تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٦-٢١٧.

(٢١٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠.

﴿إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[٢١٣٥]. والمعنى قل لهم يا محمد، أي قل للمشركين الذين يستعجلون نزول العذاب به: أرأيتم لو أتاكم عذاب الله وقت بياتٍ فبيَّتكم وأنتم نائمون كما يبيت العدو عدوه. والبيات بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. أو أتاكم عذاب الله نهاراً أي في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي إن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون أي وقد كنتم به تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار[٢١٣٦].

١٠١٦- اثنا عشر- البراءة من الشرك والمشركين:

(أ) قال تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[٢١٣٧]. قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ أي من أعظم الأشياء شهادة. ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي وهو نذير لكل من بلغه هذا القرآن. أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الناس كافة فهو نذير لكل من بلغه. وعن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ؛ ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ أي لا أشهد بما تشهدون به من الشرك. ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: بل أشهد أن لا إله إلا هو لا يشاركه أحد في ألوهيته ولا في صفات كماله[٢١٣٨]. ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعلن براءته من

(٢١٣٥) سورة يونس ٥٠، ٥١.

(٢١٣٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٥٠-٣٥١.

(٢١٣٧) سورة الأنعام الآية ١٩.

(٢١٣٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٢٦، تفسير القاسمي ج٦ ص٤٨٠-٤٨١.

إشراكهم وشهادتهم وأن يعلن توحيد الله[٢١٣٩].

(ب) وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٢١٤٠] يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن كذّبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم[٢١٤١].

(جـ) وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم: من الشرك بالله وغيره[٢١٤٢].

(د) وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون وآمرة بإخلاص العبادة لله وحده، فقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكنِ المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني من الأصنام والأوثان. ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له. فـ«ما» هنا بمعنى (من) ثم قال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها؛ وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت كلمة

(١٢٣٩) تفسير ابن عطية ج٥ ص١٥٣.

(٢١٤٠) سورة يونس الآية ٤١.

(٢١٤١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١٨.

(٢١٤٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٤١ والآية في سورة الشعراء ورقمها: ٢١٦.

الإسلام: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، أي لا معبود بحق إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم رسول الله ﷺ كما أمره الله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وقال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام(٢١٤٣).

١٠١٧- ثلاثةَ عشر- الرد على ما اقترحوه في الرسول:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٢١٤٤) أي لو أنزلنا ملكاً على رسولنا محمد ﷺ ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لقضي الأمر بإهلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين، إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون فلا يكون بدّ من إهلاكهم، وإما لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته تزهق أرواحهم من هول ما يشاهدون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا، لأنهم كانوا يقولون: لولا أُنزل على محمد ملك وتارة يقولون: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ فلو جعل الله الرسول ملكاً ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لأرسلناه في صورة رجل؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك(٢١٤٥).

١٠١٨- أربعة عشر- الرد على جملة اقتراحات المشركين:

طلب المشركون من رسول الله محمد ﷺ جملة مطالب، واقترحوا جملة اقتراحات، حتى يؤمنوا به إن نفذها لهم؛ منها: تفجير الأنهار في أرض مكة، أو إسقاط السماء عليهم كسفاً، أو يأتيَ بالله والملائكة قبيلاً، أو يكونَ له بيت من زخرف، أو يصعدَ في السماء وينزلَ عليهم كتاباً يقرؤونه، فردّ عليهم ﷺ بأنه بشر

(٢١٤٣) ابن كثير ج٤ ص٥٦٠.

(٢١٤٤) سورة الأنعام ٨، ٩.

(٢١٤٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧-٨.

رسول لا يأتيهم إلا بما يظهره الله عليه، كما ذكرنا من قبل[٢١٤٦].

وكذلك اقترحوا على رسول الله إنزال الآيات الخارقة فردّ عليهم بأن الأمر بيد الله وما تقتضيه حكمته[٢١٤٧].

١٠١٩- خمسة عشر- الرسول يتبع ما يوحى إليه ولا يدعي ما ليس له أو ما ليس عنده:

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢١٤٨]. أي قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات، وأخرى غير ذلك: لا أدعي أن خزائن رزق الله مفوضة إليَّ فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً وغير ذلك. ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ أي الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت قيام الساعة أي يوم القيامة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما من المغيبات. ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أي حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر من الرقي في السماء ونحوه. والمعنى: إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة، حتى تقترحوا عليَّ ما هو من آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالةِ التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً. ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أي: ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يُوحَىٰ إليَّ من جهته سبحانه وتعالى، شرفني بذلك وأنعم به عليَّ. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ مثل للضال والمهتدي على الاطلاق، والاستفهام إنكاري والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها، ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تتفكرون فتهتدوا ولا تكونوا ضالين أشباه العميان[٢١٤٩].

(٢١٤٦) انظر الفقرة ٩٩٤.

(٢١٤٧) انظر الفقرة ٩٩٥.

(٢١٤٨) سورة الأنعام، الآية ٥٠.

(٢١٤٩) تفسير القاسمي ج٦ ص٥٣٤-٥٣٥.

١٠٢٠- ستة عشر- الإعراض عن الخائضين في آيات الله:

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴾(٢١٥٠). أي إذا رأيت الذين يخوضون في آيات الله في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتها تفعل ذلك ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ. ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي عن مجالستهم ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴾ أي إن ينسكَ الشيطان فتجلسُ معهم فلا تُؤاخذُ به، لكن إذا ذكرت النهي فلا تقعد معهم؛ لأنهم ظالمون بالطعن في آيات الله. وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ لأن في حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه مشاركةً لصاحبه(٢١٥١). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٢١٥٢). أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برؤوا من إثمهم(٢١٥٣).

١٠٢١- سبعة عشر- مجالسة المؤمنين للضعفاء:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴾(٢١٥٤) أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، وقوله: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿ بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ قال مجاهد: المراد به الصلاة المكتوبة. وقال البعض: المراد بذكر الغداة والعشي: الدوام، وقيل معناه يصلون صلاة الصبح والعصر. ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي يريدون بذلك العمل وجه الله

(٢١٥٠) سورة الأنعام الآية ٦٨.

(٢١٥١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٤-٣٥، تفسير القاسمي ج٦ ص٥٧٥-٥٧٦.

(٢١٥٢) سورة الأنعام، الآية ٦٩.

(٢١٥٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٤٤.

(٢١٥٤) سورة الأنعام الآية: ٥٢.

الكريم وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل وليس عليَّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، أي فلا تهمّ بطردهم عنك فتضع الشيء في غير موضعه(٢١٥٥).

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية(٢١٥٦) ما رواه الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال له المشركون: اطرد هؤلاء يجترؤون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ . . ﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل عليه القرآن ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ ورواه ابن جرير عن ابن مسعود أيضاً، قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضُعَفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، ونحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم؛ فلعلك إن طردتهم نتبعك؛ فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ . . ﴾ الآية.

١٠٢٢- آية أخرى بنفس المعنى:

قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾(٢١٥٧). أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه

(٢١٥٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤، تفسير القاسمي ج٦ ص٥٤٠-٥٤١، الزمخشري ج٢ ص٢٧.

(٢١٥٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤-١٣٥، تفسير القاسمي ج٦ ص٥٤٠-٥٤١.

(٢١٥٧) سورة الكهف الآية ٢٨.

ويكبرونه ويسألونه بُكْرةً وعشياً من عباد الله؛ سواء أكانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. ويقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود؛ وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ...﴾ الآية. وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية(٢١٥٨).

١٠٢٣- ثمانية عشر- الجدال مع كفار مكة:

ذكر القرآن الكريم أنواعاً من جدال رسول الله ﷺ مع كفار قريش، ولكن مع وضوح الحق في هذا الجدال فقد أصرّ كفار مكة على كفرهم وراحوا يرمون رسول الله ﷺ بالنعوت الباطلة إيغالاً منهم في الكفر وإصرارهم عليه. ونذكر فيما يلي بعض أنواع جدال رسول الله ﷺ معهم.

١٠٢٤- تسعة عشر- (أ) قل هاتوا برهانكم:

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢١٥٩) يقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ أي القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه، فكل كتاب أُنْزِل على كل من أُرْسِل ناطقٌ بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، فهاتوا برهانكم: إما من جهة العقل وإمّا من جهة الوحي إن كنتم صادقين، ولكنكم أيها المشركون لا برهان لكم ولا حجة إلا العناد والإصرار على كفركم(٢١٦٠).

١٠٢٥ -عشرون-(ب)عليَّ اتباع الوحي وإن لم أعلم العواقب في الدنيا:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ

(٢١٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٠.

(٢١٥٩) سورة الأنبياء الآية ٢٤.

(٢١٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٦، تفسير الزمخشري ج٣ ص١١١.

وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2161]. قوله: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما أنا بأول رسول. ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا أأُخْرَجُ كما أُخرِجت الأنبياء من قبلي؟ أم أُقتَل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيُخسف بكم وترمون بالحجارة؟ ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ لم يدر ما يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش في الدنيا، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون. ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي، ومنه أن أنذركم وأحذركم من عذاب الله إن لم تؤمنوا بي[2162].

١٠٢٦- واحد وعشرون- الثبات على الدعوة ومن المحال الرجوع عنها:

قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2163] أي قل يا محمد للناس - أهل مكة -: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم الحق وخالقكم وهو الله جلّ جلاله ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ أي يميتكم ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني أنَ الله أمرني بذلك. وقيل معنى الآية: إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه - أأثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فهذا محال فلا تحدثوا أنفسكم به، ولا تشكوا في أمري، واقطعوا عني أطماعكم، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى[2164].

١٠٢٧-اثنان وعشرون-(جـ)قيام الحجة على الخصم مع إنصافه بالجدال:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي

(٢١٦١) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(٢١٦٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٥٤-١٥٥، تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٩٨.

(٢١٦٣) سورة يونس الآية ١٠٤.

(٢١٦٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٣-٣٧٤.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[2165]. أي قل يا محمد لمشركي قومك ادعو الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة فإنهم لا يملكون مثقال ذرة من خير أو شر أو نفع أو ضر في السموات ولا في الأرض، وماله تعالى فيهم من ظهير، أي وماله منهم من معين يعينه على تدبير خلقه، يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أَحوالِ وصفات الربوبية. فكيف يصح أن يُعْبَدوا ويُدْعَوا كما يُعَبَد الله ويُدعَى؟[2166].

١٠٢٨- ثلاثةٌ وعشرون- (د)- أسلوب في الجدال المنصف:

قال تعالى آمراً نبيه ﷺ بأن يقول لهم: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2167]. أمره أَن يقررهم بقوله ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي الله هو الذي يرزقكم، وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لئلا تقوم عليهم الحجة، بأن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟. ثم أمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإن أَحد الفريقين من الذين يعبدون الله الرازق من السموات والأرض؛ ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال. فهذا الكلام في الجدال في غاية الإنصاف مع ما فيه من دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين[2168].

١٠٢٩- أربعةٌ وعشرون- هـ- الاحتجاج على المشركين بمعجزة القرآن الكريم:

وكان من جداله ﷺ مع مشركي مكة أن احتج عليهم بمعجزة القرآن، وتحداهم به

(٢١٦٥) سورة سبأ، الآية ٢٢.

(٢١٦٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٥٢٩.

(٢١٦٧) سورة سبأ الآية ٢٤.

(٢١٦٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٨١.

بما أخبره الله عنه، بأن الإنس والجن لو أرادوا الإتيان بمثل هذا القرآن لعجزوا عن ذلك، وفي هذا أكبر دليل على أنه من عند الله، ولا تنفعهم المكابرة والتكذيب، فهذا القرآن يسمعونه، فإن كانوا صادقين في قولهم الباطل بأنه ليس من عند الله وأنَّ محمداً ليس رسول الله، فليأتوا بمثله، قال تعالى مخاطباً وآمراً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢١٦٩]. فسكت المشركون سكوت عجز. ثم أمر الله تعالى رسوله بأن يقول لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢١٧٠]. فلما عجز المشركون عن الإتيان بمثل القرآن الذي ادعوا أنه ليس من عند الله، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا صادقين في ادعائهم أن هذا القرآن ليس من عند الله، ومعنى الآية: إن المشركين لما زعموا بأن القرآن افتراه الرسول ﷺ واختلقه، فكأنه قال لهم: افرضوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إليَّ وأنَّ الأمر كما زعمتم، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، ولو بمقدار عشر سور مثله، فأنتم عرب فصُحاءُ مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام[٢١٧١]. وبالرغم من هذا الاحتجاج المنصف، فإنهم سكتوا سكوت الجدار، ولم يستطيعوا كسّر هذا التحدي الجديد بالإتيان بعشر سور مثله.

ثم تحداهم القرآن الكريم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل سوره، إن كانوا صادقين فيما يقولون ويفترون، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[٢١٧٢].

(٢١٦٩) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢١٧٠) سورة هود الآية ١٣.

(٢١٧١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٨٣.

(٢١٧٢) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤.

المطلب الثاني
المستفاد من موقف الرسول من المشركين
للدعوة والدعاة

١٠٣٠- أولاً- تحديد وظيفة الدعاة:

إن وظيفة الدعاة إلى الله هي وظيفة رسل الله: تبليغ الدعوة التي أرسلهم الله بها إلى الناس وليس إجبارهم عليها، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤ والعنكبوت: ١٨] وقال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(٢١٧٣). فمن يقبل الدعوة إلى الله فقد اهتدى، وكان نفع قبوله إلى نفسه. ومن رفضها كان ضرر ذلك على نفسه، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨] أي ما أنا عليكم بحفيظ موكول إليَّ أمركم وحملكم على ما أريد، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [الشورى: ٤٨] أي ليس لك إكراههم على الإيمان(٢١٧٤). وعلى هذا فإن المطلوب من الدعاة القيام بواجب تبليغ دعوتهم إلى الناس على أحسن ما يكون التبليغ، وليس عليهم مسؤولية رفض الناس دعوتهم كما ليس عليهم إجبارهم على قبولها.

١٠٣١- ثانياً- الوضوح في تبليغ الدعوة:

وعلى الدعاة الوضوح والصراحة في تبليغ دعوتهم إلى الناس، وابتعادهم عن الغموض والإبهام. ومن مظاهر الوضوح في التبليغ إعلام المخالفين والناس أجمعين إصرارهم على معاني الدعوة، واستحالة انحرافهم عنها، متذكرين قول الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢١٧٥). ومن مظاهر

(٢١٧٣) سورة النحل، الآية ٨٢.

(٢١٧٤) تفسير القرطبي ج١٦ ص٤٧.

(٢١٧٥) انظر الفقرة ١٠٢٦، والآية في سورة يونس ورقمها ١٠٤.

الوضوح في التبليغ، تبليغهم معاني الإسلام - وهو موضوع الدعوة - وأنه بهذه المعاني يختلف مع سائر الأنظمة والأفكار التي يحملها الآخرون، ويتميز عنها ولا يمكن الذوبان فيها أو التبعية لها.

١٠٣٢- ثالثاً- ضرورة الصبر للدعاة:

الصبر ضروري لكل إنسان يريد أن يبلغ مقصوده ومبتغاه، وإذا كان الصبر ضرورياً لكل إنسان، فهو أشد ضرورة للمسلم حتى يحمل نفسه ويحبسها على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله. والدعاة أكثر من غيرهم من عامة المسلمين حاجة إلى الصبر، فهو لهم أشد ضرورة من غيرهم لأنهم يواجهون الناس بدعوتهم التي تخالف أهواءهم وانحرافاتهم، وغالباً ما يقابلونها بالرفض والإنكار وإيذاء الدعاة، فإن لم يتخلقِ الدعاة بخلق الصبر الجميل أصابهم الجزع والهلعُ، والقعود عن الدعوة، ولهذا أمر الله رسوله الكريم بالصبر على أذى المشركين وهو يدعوهم إلى الله، وفي هذا الأمر بالصبر أمر للدعاة المسلمين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] وصبر الدعاة يجب أن يستمر ويشتد حتى يأتي نصر الله؛ لأنه بدوام صبرهم على تبليغ الدعوة وتحملهم الأذى في سبيلها، يقرب موعود الله بنصرهم، وهذه هي سنة الله في الدعوة والدعاة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢١٧٦).

١٠٣٣- رابعاً- على الدعاة أن لا يدّعوا ما ليس فيهم ولا عندهم:

وعلى الدعاة أن لا يدّعوا لأنفسهم ما ليس عندهم مما يقترحه عليهم الناس أو يعتبرونه شرطاً لقبول الدعوة. وعلى هذا لا يدعي الدعاة لأنفسهم القدرة على إنزال العذاب بالمخالفين ولا تنزل النصر على الأعداء، ولا الإتيان بخوارق الأشياء، إنهم ببساطة دعاةٌ يذكّرون الناس بما جاءهم من الهدى من ربهم، فإن استجابوا وقبلوا الدعوة، رجونا لهم أن ينالهم ما وعد الله به عباده المستجيبين لدعوته من النصر على

(٢١٧٦) سورة الأنعام الآية ٣٤.

الأعداء والتمكين في الأرض، دون تحديد وقت معين بتنزيل هذا النصر. وقد دلّ على ما قلناه آيات القرآن العزيز وما فيها من خطابات للرسول ﷺ ليقولها للمشركين، من ذلك قوله تعالى للرد على المشركين في استعجالهم نزول العذاب بهم لعدم إيمانهم، وعدم إيمانهم بنزول العذاب بهم لشركهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ. قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧-٥٨] وقال تعالى آمراً نبيه ﷺ للردّ على ما اقترحوه: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

١٠٣٤- خامساً- الابتعاد عن مجالس السوء عند العجز عن الإنكار:

لا يجوز للداعي أن يجلس في مجلس يُستهزءُ فيه بآيات الله ولا يقدر على إنكار منكرهم، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] فعلى الدعاة أن لا يحضروا مجلساً يستهزء فيه بالإسلام وآياته وقيمه، وهذا الإعراض عن هذه المجالس على وجه الوجوب لأن في القعود فيها إظهار عدم الكراهة، وإنما يجب الإعراض وترك الجلوس معهم إذا لم يستطع الإنكار عليهم ولم يطمع في تحويلهم عن منكرهم. كما يجب قيامه عن هذه المجالس إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض في آيات الله؛ لأنهم يفعلون ذلك مغايظة له. ويستفاد من الآية جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض لأنا أُمرنا بالإعراض مع الخوض ولقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. وقال بعض أهل العلم: والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة إذا أظهروا المنكرات[٢١٧٧] فعلى الدعاة ملاحظة ما ذكرناه والتقيد به.

١٠٣٥- سادساً- مجالسة الفقراء:

وعلى الدعاة أن لا يستنكفوا عن مجالسة الفقراء المؤمنين فإنهم مؤمنون،

(٢١٧٧) تفسير القاسمي ج٦ ص٥٧٧.

والمؤمنون إخوة ولا يجوز أن يتعالى الأخ على أخيه، ولأن من صفات أحباب الله أنهم أذلة على المؤمنين كما قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] فما بين المؤمنين أُخوَّةُ الإيمان، وهذه الأخوة تقوم على الإيمان لا على معنى آخر من الغنى والجاه ونحو ذلك. فالمؤمن أخوك وإن كان فقيراً، فلا يجوز أن تتكبر عليه فلا تجالسه. وقد أراد المشركون من رسول الله ﷺ أن يطرد المؤمنين الفقراء الضعفاء من مجلسه ليجالسوه وحدهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] إن ميزان التفاضل في الإسلام يقوم على أساس الإيمان والتقوى لا على أساس الغنى والمنزلة الاجتماعية، فعلى الدعاة تفهيم الناس ذلك ليصححوا مفاهيمهم وليقوموا موازينهم، ومن مظاهر تصحيح المفاهيم عدم الاستنكاف من مجالسة الضعفاء والفقراء من المسلمين، وعلى الدعاة تطبيق ذلك بأنفسهم.

١٠٣٦- سابعاً- الولاء والبراء عند الدعاة:

الولاء في الإسلام للإسلام وأهله، والبراء من الشرك وأهله، وهكذا يكون الولاء والبراء عند الدعاة إلى الله، فولاؤهم للإسلام ومعانيه ولمن يؤمن به ويدعو إليه، والبراء من كل شيء يخالف الإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً وأشخاصاً يحملون هذه المخالفات، ومن آيات البراءة قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿. . . أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾[الأنعام: ١٩] و من آيات الولاء ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] فعلى الدعاة أن يلتزموا بمعاني الولاء والبراء، ويعلموها للناس، ويطبقوها على أنفسهم وفي علاقاتهم مع الآخرين بوضوح، وبدون لبس أو إبهام أو مداهنة.

١٠٣٧- ثامناً- الجدال مع المخالفين:

على الدعاة أن يسلكوا في جدالهم مع المخالفين والمعرضين عن الدعوة والصادين عنها المسلك الذي سلكه رسول الله ﷺ في جداله مع المشركين، وقد ذكرنا ذلك المسلك الحميد. ومنه مطالبة المخالف بالبرهان والدليل على ما يدعيه

وما يقوم به ضد الدعوة الإسلامية، وليكن شعار الدعاة ما قاله الله لرسوله ﷺ ليقوله للمشركين: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١ والنمل: ٦٤] ومن المسلك السديد في الجدال تقرير المقدمات التي يسلم بها المخالف وتقديمها في الجدال حتى تظهر النتيجة الصحيحة وهي ضرورة اتباع الإسلام ونبذ ما يخالفه. فمن هذه التقريرات والمقدمات في الجدال ما ذكرناه بصدد قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾(٢١٧٨) [سبأ: ٢٢] وما ذكرناه بصدد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢١٧٩). [سبأ: ٢٤].

١٠٣٨- تاسعاً- توضيح معجزة القرآن وبيان دلالتها:

إن معجزة القرآن أكبر المعجزات الدالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ وعموم رسالته من ربه إلى الناس أجمعين، وعلى أن هذا القرآن من عند الله وليس من كلام البشر. ولا تزال هذه المعجزة قائمة حتى الآن تتحدى كل من يكذب أو يشك بنبوة محمد ﷺ وعموم رسالته. إن معجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء حياتهم ولم يبق منها إلا أخبارها، أما معجزة نبينا محمد ﷺ وهي معجزة القرآن الكريم فإنها باقية تتحدى كل مكذب أو معاند للإسلام. فعلى الدعاة توضيح معجزة القرآن وبيان دلالتها للناس لا سيما للمكذبين لدعوة الإسلام. وخلاصة هذه المعجزة أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يتحدى مشركي مكة بالقرآن بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين في ادعائهم بأن القرآن ليس من عند الله، وأن محمداً ليس رسول الله فعجزوا وسكتوا، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزا وسكتوا. ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأعلن عجزهم عن ذلك مسبقاً فعجزوا وسكتوا. وقد ذكرنا الآيات التي ورد فيها التحدي بالقرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله فلا نعيدها هنا. فعلى ماذا يدل هذا التحدي وما نتيجته؟ والجواب: إن التحدي إذا نجح بأَنْ عجز المُتحدَّوْنَ من كسر هذا التحدي، فإن ذلك يدل على صدق ما ادعاه المتحدي

(٢١٧٨) انظر الفقرة ١٠٢٧.

(٢١٧٩) انظر الفقرة ١٠٢٨.

لنفسه، وكذب وبطلان معارضة المُتحدَّين لدعوى المتحدي. ولكن هذه النتيجة إنما تثبت إذا توافرت شروط صحة التحدي، فما هي هذه الشروط؟.

١٠٣٩- شروط التحدي:

إن شروط التحدي هي: (أولاً) أن يدعي المتحدي لنفسه أمراً ينكره عليه الآخرون، (ثانياً) أن يكون موضوع التحدي داخلاً في اختصاص المتحدّيْنَ وما هم مختصون ومبرزون فيه، و(ثالثاً) أن يكون المُتحدَّوْنَ راغبين كل الرغبة في كسر تحدي المتحدي لإبطال دعوته وما ينسبه إلى نفسه، و(رابعاً) أن لا يوجد مانع من الخوف أو غيره يمنع المُتحدَّيْنَ من إجابة المتحدي وكسر تحدّيه.

١٠٤٠- تحقق شروط التحدي:

إن شروط التحدي التي ذكرناها متحققة في تحدي القرآن للمشركين، ونوضح ذلك بإيجاز على النحو التالي.

١٠٤١- أولاً- بالنسبة للشرط الأول:

الشرط الأول: هو أن يدعي المتحدي أمراً ينكره عليه الآخرون، فهذا الشرط ثابت يقيناً، فقد أعلن رسول الله ﷺ ما أمره به ربه بأن يقول: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨].

١٠٤٢- ثانياً - بالنسبة للشرط الثاني:

والشرط الثاني، كما قلنا، هو أن يكون موضوع التحدي داخلاً في اختصاص المُتحدَّيْنَ وماهم مبرزون فيه. وهذا الشرط متحقق في المشركين، مشركي قريش في مكة وفي غيرهم من سائر العرب، فمن المعروف أن قريشاً وسائر العرب اشتُهِروا بالبلاغة والفصاحة وحسن البيان في الشعر والنثرِ في اللغة العربية، وبرزوا في ذلك كله خطابة وشعراً ونثراً وذوقاً، حتى إنهم كانوا يعقدون المواسم الأدبية لاختيار أحسن ما يقال من الشعر وتعليقه على أستار الكعبة. ومن المعلوم أن القرآن الكريم أنزله الله بلسان العرب ولغتهم، فإذا تحداهم به وقال لهم: إن كنتم في شك من أن هذا القرآن هو من عند الله وكلامه المُنزَّل على رسوله محمد ﷺ فأتوا بمثله، أو بعشر

سور من مثله، أو بسورة من مثله، فإنما يتحداهم بشيء داخل في اختصاصهم وداخل فيما هم مبرزون فيه وبارعون، فيكون هذا الشرط متحققاً في تحدي القرآن للمخالفين من مشركي مكة وغيرهم من العرب، فإذا عجزوا عن كسر هذا التحدي فغيرهم من غير العرب أعجز.

١٠٤٣- ثالثاً- فيما يخص الشرط الثالث:

وهذا الشرط، كما قلنا، يعني وجود الرغبة الكاملة عند المخالفين المُوَّجه إليهم التحدي في كسر التحدي لإبطال ما يدعيه المتحدي لنفسه، وهذا الشرط متحقق أيضاً في تحدي القرآن لمشركي مكة، فمن المعلوم ومما يعرفه صغار المتعلمين المطلعين على التاريخ الإسلامي أن قريشاً وسائر مشركي مكة وغيرهم قابلوا دعوة النبي ﷺ بالرفض والإنكار، واتهامه بالسحر والجنون، وغير ذلك من النعوت الباطلة لصرف الناس عن دعوته، وسلكوا معه سبيل الترغيب والترهيب والإيذاء والمقاطعة الاقتصادية له ولمن اتبعه، وقد بلغ الأذى به وبالمسلمين أن عذبت قريش بعض المسلمين تعذيباً بدنياً مات بعضهم فيه، وهذا كله يدل دلالة قاطعة على رغبتهم الكاملة وحرصهم الأكيد على إبطال الدعوة الإسلامية، وبالتالي تحقق رغبتهم الكاملة في إبطال تحديه لإبطال دعوته.

١٠٤٤- رابعاً- بالنسبة للشرط الرابع:

وهذا الشرط، كما قلنا، يعني عدم وجود مانع من الإجابة وكسر التحدي، وهذا الشرط متحقق فيمن وُجِّهَ إليهم التحدي، فمن المعلوم عند صغار المتعلمين والمطلعين على أخبار التاريخ الإسلامي أن السلطان والقوة والنفوذ كل ذلك بيد المشركين في مكة، أما رسول الله ﷺ والمسلمون معه فما كان لهم من ذلك شيء، فقد كانوا ضعفاء لا حول لهم ولا سلطان، حتى إن بعضهم هاجرَ إلى الحبشة فراراً بدينهم، وحتى إن المسلمين هاجروا إلى المدينة في آخر الأمر كما هاجر رسول الله ﷺ. وكل ذلك يدل على أنه لم يكن هناك مانع يمنع قريشاً من الإجابة على التحدي وكسره لإثبات ما يزعمونه من أن القرآن ليس كلام الله وأن محمداً ليس رسول الله.

١٠٤٥- نتيجة التحدي ودلالته:

وكانت نتيجة التحدي - تحدي القرآن للمشركين - عجزهم وسكوتهم. وإذا ثبت عجزهم بعد أن توافرت شروط التحدي، ثبت أَنَّ القرآن من عند الله وأن محمداً ﷺ هو رسول الله، وإذا ثبت ذلك وجب على الخلق الإيمان به نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً، ولزمهم الانقياد إلى الشرع الذي جاء به من ربه والإيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذا هو المطلوب.

١٠٤٦- استمرار التحدي ودلالته وما على الدعاة فعله:

وتحدي القرآن للمخالفين ظل قائماً ومُوَجهاً إلى كل مرتاب في نبوة محمد ﷺ أو مرتاب في أن القرآن كلام الله المُنزَّلُ على رسوله. ولا يزال هذا التحدي قائماً حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودلالة ذلك واضحة وهي ثبوت نبوة محمد ﷺ بالدليل القاطع والبرهان الساطع والحجة القاطعة التي لا يستطيع أي مكابر أن ينكرها أو يغالط فيها، وإذا عرفنا أن هذا الدليل - دليل التحدي - ظلَّ قائماً منذ عهد النبي ﷺ وحتى الآن، وأن الإسلام واجه الخصوم والمعاندين والكفار، وأنهم بذلوا كل جهد مستطاع للطعن في الإسلام والتشكيك فيه والدسّ عليه وتلويث أفكاره وعقائده، ومع هذا لم يجرؤوا على إجابة تحديه وكسره. فإذا عرفنا ذلك عرفنا قوة هذا الدليل - دليل إعجاز القرآن - على إثبات نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته. فعلى الدعاة أن يوضحوا ذلك في خطبهم ومناقشاتهم مع المخالفين.

١٠٤٧- إنكار نبوة محمد تنقيص بعقل الإنسان:

ومع وجود دليل إعجاز القرآن وتحديه فإننا نعتبرُ إنكار نبوة محمد ﷺ تنقيصاً بعقل الإنسان وبخساً له. كما أن من ينكر نبوة محمد ﷺ لا سبيل له للإيمان بأي نبي من الأنبياء، لأن من ينكر الشمس وهي ساطعة وهو يراها كيف يمكن له أن يؤمن بوجود نجم لا يراه، وإذا آمن بهذا النجم مع إنكاره الشمس كان ذلك منه تناقضاً يأباه العقل السليم، فعلى الدعاة التأكيد على هذا المعنى في جدالهم مع المخالفين.

١٠٤٨- الاستفادة ممن لم يستجب للدعوة:

كان أبو طالب يدفع الأذى عن ابن عمه سيدنا محمد ﷺ جهد ما يستطيع، مستغلاً

مكانته في قريش واحترامهم له، وهذا بالرغم من أنه لم يسلم ولم يؤمن، فكان يدافع عن محمد ﷺ لمحبته له على أساس من القرابةِ والرحم. وقد كان هذا الموقف من أبي طالب مفيداً للدعوة، ومقللاً من أذى قريش لرسول الله ﷺ؛ لمكانة أبي طالب في قريش، لا سيما وأنه بقي على دينهم ولم يعتنق الإسلام. بل إن أبا طالب قام في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ماهو عليه من الدفاع عن رسول الله ﷺ والقيام دونه. ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى قال ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[٢١٨٠]. وسمى رسول الله ﷺ العام الذي ماتت فيه خديجة رضي الله عنها وأبو طالب عام الحزن[٢١٨١] وقياساً على ما تقدم فقد يكون للداعية قريب له وجاهته ومركزه الاجتماعي والوظيفي؛ وهو وإن لم يستجِبْ للدعوة إلا أنه لا يقف ضد الدعوة، ويحب الداعي لقرابته منه، وقد يكون للداعي مثل هذا القريب من جهة محبته للداعي لصداقة قديمة بينهما أو لجوار منه، وبناء على هذه العلاقة يدافع صاحب هذا النفوذ والمكانة في المجتمع، يدافع عن الدعوة وعن هذا الداعية، ويكف الأذى عنه وعنها، فعلى الدعاة أن يستفيدوا من ذلك ولا يترددوا في قبول هذا العون والدفاع والحماية من هذا القريب أو الصديق أو المجاور.

١٠٤٩- العقيدة الباطلة قد تعلو على صلة الرحم:

قلنا إن على الداعي أن لا يتردد في قبول حماية أو دفاع القريب أو الصديق أو المجاور عنه وعن الدعوة وإنْ كان لم يستجب لها، ودليلنا فيما قلناه موقف أبي طالب من رسول الله ﷺ ورضاه عليه الصلاة والسلام بهذا الموقف. ولكن على الداعي أن يعلم أن القرابة لا تجعل دائماً من لم يستجب للدعوة مدافعاً عن الداعي والدعوة؛ لأن العقيدة الباطلة، أو الكراهة الشديدة للدعوة قد تكون هي الغالبة لرسوخها في قلب صاحبها فتستولي عليه وتعلو على رابطة القرابة وصلة الرحم، إلى درجة أنها تدفع صاحبها إلى إظهار العداوة للداعي ودعوته، وتحريض الناس ضده وضد دعوته. فأبو لهب وهو عم رسول الله ﷺ كان في موقفه من رسول الله ﷺ

(٢١٨٠) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٢٦.

(٢١٨١) إمتاع الأسماع للمقريزي ص٢٧.

على الضد من موقف أبي طالب، فهو - أبو لهب - لم يكتف بعدم استجابته لدعوة الإسلام، وإنما اندفع بحماس في عداوته لرسول الله ﷺ، ولم تمنعه من ذلك العصبيَّةُ القبلية التي كانت تغشىٰ نفوس الناس. بل إنه راح يدعو الناس ويحرضهم ضد دعوة الإسلام، ويتهم رسول الله ﷺ بالكذب، وهو يعلم أن ابن أخيه لم يكذب قط لا في جاهلية ولا في إسلام. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك. فإذا رأوا من قريب لهم عداوة للدعوة وصدّاً للناس عنها فلا يستغربوا من ذلك ولا يتوقعوا أن يكون قريبهم هذا مدافعاً عنهم، وعليهم أن يحذروه. كما أن على الدعاة أن يعلموا أن العقيدة وإن كانت باطلة فهي إذا تغلغلت في النفوس فإنها تحمل صاحبها على تجاوز كثير من الروابط والاعتبارات، وقد تحمله على أن يقاتل الدعاة ويعرض نفسه للموت كما حصل لكفار قريش في محاربتهم لرسول الله ﷺ بعد هجرته إلى مكة، كما سنذكُرُه فيما بعد إن شاء الله.

المبحث الرابع
قصة الرسول ﷺ مع الأعمى
وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

المطلب الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

١٠٥٠- خلاصة هذه القصة:

لا خلاف بين أهل التفسير بأن الأعمى الذي حصلت قصته مع رسول الله ﷺ، ونزلت الآيات بشأنها هو عبد الله بن أم مكتوم[٢١٨٢]. وخلاصة هذه القصة أن رجلاً من عظماء المشركين كان عند رسول الله ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام يكلمه طمعاً بإسلامه، فأقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويقول له - كما جاء في بعض الروايات - يا رسول الله علمني مما علمك الله، وفي رواية أخرى: جعل ابن أم مكتوم يستقرأ النبي ﷺ آية من القرآن، أي يريد تعليمه آية من القرآن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه، وأقبل على المشرك يكلمه، ويتمم كلامه معه طمعاً في إسلامه، فأنزل الله تعالى آيات عبس وتولى[٢١٨٣]. . .

١٠٥١- ما نزل من القرآن بشأن هذه القصة:

وقد نزل بشأن هذه القصة قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ

(٢١٨٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٠، تفسير ابن العربي ج٤ ص١٩٠٥، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢١١.

(٢١٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٠، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢١١، تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٢.

يَزَّكَّىٰ ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ، أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ، فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ، وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ، وَهُوَ يَخْشَىٰ ، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ، كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ، فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ، بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ، كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[2184].

١٠٥٢- تفسير هذه الآيات[2185]:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ المراد بالأعمى ابن أم مكتوم كما قلنا، وكان قد حضر عند رسول الله ﷺ أحد كبراء قريش، وأخذ رسول الله ﷺ يحدثُهُ ويدعوه إلى الإسلام، وكان حريصاً على إسلامه لما كان يُرْجَىٰ من إسلام أتباعه إذا أسلم. وفي هذه الأثناء جاء ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فقال يا رسول الله: علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أن رسول الله ﷺ منشغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه مع ذلك المشرك، فأعرض ﷺ عن ابن أم مكتوم وعبس في وجهه، وأقبل على ذلك المشرك يكلمه ويدعوه إلى الإسلام. وإنما ذكر ابن أم مكتوم بوصفه وهو كونه «أعمى» إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه ﷺ مع ذلك المشرك وانشغاله معه، وإما لزيادة الإنكار، كأنه قيل: تولى عنه لكونه أعمى، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفاً وترفقاً وتقريباً. وفي التعبير عنه ﷺ بضمير الغيبة إجلالٌ له ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟ فلعله يتزكى أي يتطهر بما تُعَلِّمُهُ من أمور الدين وتُقْرِئُهُ من آيات القرآن العزيز.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي أو يتعظ بما تقول فتنفعه العظة.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي استغنى بماله وقوته عن سماع القرآن والهدى والموعظة وهو ذلك المشرك الذي كان يكلمه رسول الله ﷺ ويدعوه إلى الإسلام ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي تتعرض له بالإقبال عليه والكلام معه رجاء أن يهتدي ويسلم.

(٢١٨٤) سورة عبس، الآيات من ١-١٦.

(٢١٨٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٠-٤٧١، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢١١-٢١٥، تفسير ابن عطية ج١٥ ص٣١٨، تفسير ابن العربي ج٤ ص١٩٠٥، تفسير الألوسي ج٢٩ ص٣٩-٤١ تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٢-٥٦.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وليس عليك بأس من أن لا يتزكى بالإسلام؛ لأن عليك البلاغ وليس عليك أن يقبل دعوتك المُدعَوْنَ. أو إن المعنى: لا يبلغن بك الحرص على إسلام هذا المشرك وأمثاله لما قد يترتب على إسلامه إسلام أتباعه، لا يبلغنَّ بك هذا الحرص إلى أن تعرض عمن أسلم واتقى، وتنشغل عنه بدعوة ذلك المشرك إلى الإسلام.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي يسرع في طلب الخير وسماع ما تُقرئُهُ من القرآن وتُعَلِّمُهُ من أمور الدين ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخاف الله ويتقيه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تعرض عنه وتتشاغل بغيره.

﴿كَلَّآ﴾: أي ردع من المُعَاتب عليه وعن معاودة مثله. أي لا تفعل مثل ما فعلته: من إقبالك على الغني من أكابر القوم ولو بقصد هدايته، وإعراضك عن المؤمن الفقير الذي جاءك يسألك. ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن المعاتبة المذكورة على ما حصل منك هي موعظةٌ يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء حفظ تلك التذكرة واتعظ بها. وإنما ذُكِّرَ الضمير في قوله تعالى ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ يعني إن هذه التذكرة، وهي الموعظة، مُثَبَّتة في صحفٍ منتسخة من اللوح المحفوظ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله، ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ مرفوعة القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي منزهة من أيدي الشياطين، ومنزهة من التغيير والنقص والضلالة.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ أي إنَّ هذه الصحف المطهرة بأيدي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾: أي إن هؤلاء الملائكة كرام عند الله، ﴿بَرَرَةٍ﴾ لم يتدنسوا بمعصية، فأفعالهم وأخلاقهم بارّة طاهرة كاملة.

١٠٥٣- تأويل ما صدر عن النبي ﷺ مع «الأعمى»:

ما صدر عن النبي ﷺ من إعراضٍ عن ابن أم مكتوم وإقبالٍ على الرجل المشرك، تأويله كما قال الإمام ابن حزم: إن رسول الله ﷺ قد جلس إليه مشرك هو من عظماء وكبراء مشركي قريش، وقد أقبل النبي ﷺ على ذلك المشرك يكلمه ويدعوه إلى الإسلام رجاء إسلامه، ولعلمه عليه الصلاة والسلام أن هذا المشرك لو أسلم لأسلم

بإسلامه ناس كثير. أما ابن أم مكتوم الذي جاء يسأل عن أشياء من أمور دينه، فإنه لا يفوتُهُ العلم بها؛ لأنه حاضر معه، أما المشرك فقد تفوته هذه الفرصة، فرصة تحديث النبي ﷺ له ودعوته إلى الإسلام، فاشتغل النبي عليه السلام عن ابن أم مكتوم بما خاف فوته من عظيم الخير بإسلام ذلك المشرك، عما لا يخاف فوته وهو تعليم هذا الأعمى - ابن أم مكتوم - ما جاء يسأل عنه من أمور الدين، وهذا المسلك من رسول الله ﷺ يندرج في معاني النظر للدين والاجتهاد في نصرته، ولكن الله عز وجل عاتبه على ذلك، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل عليه الصلاة والسلام على ذلك الأعمى المؤمن البرّ التقي، ولا ينشغل عنه بغيره، وإن كان الانشغال بهذا الغير بقصد هدايته[٢١٨٦] وقال ابن العربي المالكي في تفسيره[٢١٨٧]: إنما قصد ﷺ بإعراضه عن الأعمى وبإقباله على المشرك تألفه، وثقةً منه ﷺ بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأعطي الرجلَ، وغيرُه أحب إليَّ منه مخافَةَ أن يكبّه الله في النار على وجهه».

المطلب الثاني

المستفاد من هذه القصة

١٠٥٤- أولاً- الإقبال على المؤمنين الفقراء:

في هذه الآيات حثٌ على العناية بالمؤمنين، وإن كانوا فقراء ضعفاء، والإقبالِ عليهم وإجابتهم عما يسألون عنه، وعدمِ إيثار الأغنياء وأصحاب المنازل في المجتمع عليهم، وتقديمِهم في المجالس بما يناسب إيمانهم وتقواهم وسابقتهم في الدعوة. فعلى الدعاة أن لا يغفلوا عن ذلك ولو حضر مجلسهم كبراء القوم، حتى يعلم هؤلاء أن ميزان تقويم الأشخاص هو الإيمان والتقوى، وحتى لا تنكسر قلوب المؤمنين الضعفاء الفقراء إذا رأوا الدعاةَ يقدِّمونَ غيرهم عليهم حتى ولو كان ذلك فيما يتصورون أنه في مصلحة الدعوة؛ لأن من أهم مصالح الدعوة تفهيم القوم نوع ميزان التقويم الذي يحملونه وهو ميزان الإيمان والتقوى.

(٢١٨٦) تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٥.

(٢١٨٧) تفسير ابن العربي ج٤ ص١٩٠٥.

١٠٥٥- ثانياً- على الدعاة البلاغ وليس عليهم هداية الناس:

وما يجب أن يفقهه الدعاة جيداً أن الواجب عليهم هو قيامهم بتبليغ الدعوة إلى الله، وتعليم من يريد تعلم معاني هذه الدعوة، وليس عليهم إدخال الهداية إلى قلوب الناس، كما ليس عليهم تأخيرُ من يريد الهداية بالانشغال مع غيره ممن لا يريد الهداية، فإذا جاء إلى الدعاة من يريد الهداية وتعلُّمَ أمورِ الدين فعلى الدعاة الإقبال عليه وتعليمه ولا يؤثِرُ عليه غيره ممن يُحرص على هدايته.

١٠٥٦- ثالثاً- في قصة الأعمى دليل على نبوة محمد ﷺ:

وعلى الدعاة أن يفقهوا ما في قصة رسول الله ﷺ مع الأعمى ابن أم مكتوم رضي الله عنه من الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ ورسالته من ربه، ووجه هذه الدلالة، أن سيدنا محمد ﷺ لو لم يكن رسول الله لكتم هذه الحادثة، ولم يخبر الناس بها لما فيها من عتاب له ﷺ، فكان هذا البيان من أكبر الأدلة على أنه رسول الله وأنه يبلغ ما يُوحَى إليه من الله، وإن كان في هذا الوحي عتاب له. ولذلك قال كثير من العلماء، وابن زيد وعائشة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش[٢١٨٨]. فعلى الدعاة الاستدلال بهذه القصة لما فيها من دلالة علىٰ نبوة محمد ﷺ على النحو الذي ذكرته.

١٠٥٧- رابعاً- على الدعاة تقديم أهل الإيمان والخير:

وعلى الدعاة تقديم أهل الإيمان والخير والعلم على غيرهم ممن لا يملكون هذه الصفات، أو يملكون منها النذر القليل، حتى يكون الدعاة في عملهم هذا وفي مسلكهم قدوة لغيرهم في تنزيل الناس منازلهم على أساس من الإيمان والعلم وفعل الخير، قال الإمام ابن عطية وهو يفسر هذه الآيات من سورة عبس: «فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير بمثل ما خوطب النبي ﷺ في هذه السورة»[٢١٨٩].

(٢١٨٨) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٣١٦، تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٤.

(٢١٨٩) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٣١٩.

المبحث الخامس
قصة الإسراء والمعراج وما يستفاد منها

١٠٥٨- خلاصة القصة:

وخلاصة هذه القصة: إن الله سبحانه وتعالى أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ومن هناك عرج به إلى السماء السابعة وإلى حيث شاء الله تعالى. وقد كان هذا الإسراء والمعراج في مكة قبل الهجرة بسنة، وصرح القرآن بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وأشار إلى المعراج. وأكدت السنة النبوية خبر الإسراء والمعراج.

١٠٥٩- ما جاء في القرآن من خبر الإسراء:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٢١٩٠).

١٠٦٠- تفسير آية الإسراء(٢١٩١):

﴿سُبْحَٰنَ﴾ يمجد الله تعالى نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحدٌ سواه فلا إله غيره ولا ربّ سواه.

﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي سيّره منه ليلاً. والإسراء: سير الليل كله، فقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير: تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل والمراد ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي من مسجد مكة وهو المسجد

(٢١٩٠) سورة الاسراء الآية ١.

(٢١٩١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢، تفسير الكشاف ج٢ ص٦٤٦-٦٤٧، تفسير القاسمي ج١٠ ص١٨٣-١٨٥.

الحرام بعينه وهو الظاهر. وقيل إنه أُسرِيَ به من دار أم هانىء بنت أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم، لإحاطته بالمسجد. وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو مسجِدُ بيت المقدس و﴿ٱلْأَقْصَا﴾ بمعنى الأبعد، سمي بذلك لبعده عن مكة أو لأنه لم يكن وراءه مسجد.

﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي باركنا جوانبه ببركات الدين والدنيا، لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم، وهو منمى الزروع والأشجار المثمرة فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ إشارة إلى حكمة الإسراء، أي لِكيْ نُرِي محمداً ﷺ من آياتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده وأفعالهم، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

١٠٦١- الإسراء كان بالروح والجسد:

وكان إسراء سيدنا محمد ﷺ بالروح والجسد يقظة إلى بيت المقدس وعلى هذا جماهير السلف والخلف. ولا يُعوَّل على من قال بأن الإسراء كان بروحه، وأنه رؤيا منام، إذ لو كان الإسراء مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار ولا كذبوه، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، ثم إن في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ والمقصود بعبده سيدنا محمد ﷺ، وكلمةُ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ تشمل روحه وجسده[٢١٩٢].

١٠٦٢- قصة المعراج:

ويراد بالمعراج، معراجه ﷺ - من المسجد الأقصى في بيت المقدس في الليلة التي أسري فيها إليه، - إلى السماء السابعة، وإلى حيث شاء الله، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري ومسلم، ولخص ما جاء فيها الإمام ابن

(٢١٩٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٣، تفسير القاسمي ج١٠ ص١٨٩.

كثير في تفسيره فقال في جملة ما قال: (والحق أنه عليه السلام أُسرِيَ به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أُتيَ بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها؛ وسلّم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صرير الأقلام أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، ورأى هناك جبريل على صورته ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمةً منه ولطفاً بعباده. ثم هبط إلى بيت المقدس وصلى بالأنبياء هناك ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس[٢١٩٣].

١٠٦٣- المستفاد من قصة الإسراء والمعراج:

أولاً - الإسراء والمعراج من المعجزات الحسية:

الإسراء والمعراج من المعجزات لنبينا محمد ﷺ الثابتة، فالإسراء ثابت بنص القرآن، والمعراج ثابت بالسنة الصحيحة التي رواها إماما المحدثين البخاري ومسلم، ولا يسع المسلم إلا التصديق بما روياه، فعلى الدعاة أن يبينوا للناس أن لا داعي لتأويل ما جاء بشأن الإسراء والمعراج، بل الصواب أن نؤمن بهما كما جاءتا في القرآن والسنة النبوية المطهرة، وأن يبين الدعاة للناس أنَّ نبينا محمداً ﷺ أوتِيَ المعجزات الحسية، ومنها الإسراء والمعراج، وأُوتِيَ المعجزات العقلية، وأُوتِيَ معجزة القرآن، ولا يجوز تأويل معجزاته الحسية بما يخرجها عن ظاهرها؛ لأن كونها معجزة يعني أنها خارقة لما نعرفه من قوانين الكون، فإذا أوّلناها لتطابق القوانين الكونية التي نعرفها لم تَعُدْ معجزة. ثم إن الأنبياء السابقين أوتوا معجزات حسية ثابتة بالقرآن الكريم فلا عجب إذا أوتي نبينا محمد ﷺ بعض المعجزات

(٢١٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٢-٢٣.

الحسية مع المعجزة الخالدة الباقية معجزة القرآن.

١٠٦٤- ثانياً- إظهار عظيم منزلة نبينا محمد ﷺ:

وفي قصة الإسراء والمعراج إظهار لمنزلة نبينا محمد ﷺ، وهي منزلة عظيمة لا تدانيها منزلة أي رسول قبله، ولا عجب في ذلك، فالله فَضّل بعض رسله على بعض كما نطق القرآن، قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال سيدنا محمد ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». فعلى الدعاة أن يبينوا للناس ما اختص به نبينا محمد ﷺ ليزدادوا حباً له واتباعاً لهديه.

١٠٦٥- ثالثاً- بيان أهمية الصلاة وعظيم منزلتها:

وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ إلى السموات، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها»[٢١٩٤]. فعلى الدعاة أن يؤكدوا على أهمية الصلاة والمحافظة عليها وأن يذكروا فيما يذكرون من أهميتها ومنزلتها كونَها فُرِضَتْ في ليلة المعراج وأنها من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ قبل موته.

(٢١٩٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٣.

الفصل الخامس

الهجرة إلى المدينة وعمل الرسول ﷺ فيها وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

١٠٦٦- تمهيد وتقسيم:

نتناول في هذا الفصل الكلام على الهجرة، هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وأسبابها المباشرة، ثم نبين ما عمله النبي ﷺ بعد أن وصل إلى يثرب، وهي اسم المدينة قبل تسميتها باسم «المدينة»، ثم نبين ما يستفاد من الهجرة وأحداثها للدعوة والدعاة، وعليه نقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول - هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثاني - عمل الرسول في المدينة بعد وصوله إليها.

المبحث الثالث - ما يستفاد من وقائع الهجرة وعمل الرسول في المدينة.

المبحث الأول

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

١٠٦٧- قريش تعزم على قتل محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٢١٩٥]. في هذه الآية تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه في مكة، وذكّره بمكر قريش حين كان بمكة ليشكر نعمة الله عز وجل على نجاته من مكرهم، ممّا اتاح الله له من حسن العاقبة. والمكر هو التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى المُمْكَرِ به من حيث لا يحتسب، ووقاية المُمْكَر له من المكروه. والمكر: منه الحسن ومنه السيء، ومنه ما يكون للخير، ومنه ما يكون للشر، فمكرُه تعالى: تدبيره الخفي لنصرة الحق وإعزاز أهله وخذل للباطل وإذلال أهله، وردٌ كيدهم وإحباط خططهم وما يدبرونه لأهل الحق. ومعنى الآية: واذكر يا محمد إذ يمكرون بك، وذلك أن قريشاً خشيت من تفاقم أمر النبي ﷺ واتساعه، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يجب أن يفعلوه برسول الله ﷺ، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق. وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضٌ آخر: أخرجوه من مكة. فقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ المراد بالإثبات الشدُّ بالوثاقِ والإرهاقُ بالقيد والحبسُ المانعُ من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فمكرهم بالقتل هو ما أشار به عليهم أبو جهل، فقد قال لهم: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن من بطون قريش غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل أي الدية عقلناه واسترحنا.

(٢١٩٥) سورة الأنفال الآية ٣٠.

١٠٦٨- جبريل يخبر النبي بمكرهم ويأذن الله له بالهجرة:

أخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بما عزم عليه المشركون، وأخبره بأنَّ الله أذن له بالهجرة إلى المدينة، وأوصاه أن لا يبيت في فراشه. فأمر ﷺ علياً بأن ينام في فراشه ويتغطى ببردٍ له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وأخذ قبضة من تراب فجعل ينثرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ ﴿يسٓ، وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩] وبات المشركون على الباب، يراقبون علياً رضي الله عنه، وهم يحسبونَ أنه هو النبي ﷺ. فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه فرأوا علياً نائماً في فراش النبي ﷺ، فقالوا له: أين صاحبك؟ فقال: لا أدري. فخرجوا يتبعون أثره[٢١٩٦].

١٠٦٩- النبي عليه الصلاة والسلام يخبر أبا بكر بالهجرة:

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه كان يتردد على بيت أبي بكر كل يوم صباحاً ومساءً، قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوساً في بيت أبي بكر في نحْرِ الظهيرة قال قائل من أهل البيت لأبي بكر: هذا رسول الله مقبل علينا متقنعاً - أي مغطياً رأسه - في ساعة لم يأتنا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فاستأخر أبو بكر عن السرير حتى جلس عليه، فقال لأبي بكر: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هم أهلك بأبي أَنت وأمي يا رسول الله. قال النبي ﷺ: «فإني قد أُذِنَ لي في الخروج» أي في الخروج من مكة - فقال أبو بكر وهو يبكي من الفرح: الصحبة - أي أريد صحبتك - يا رسول الله، فقال ﷺ: «نعم»[٢١٩٧].

١٠٧٠- الإعداد للهجرة:

ثم قال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبي الله خذْ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتيَّ هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن» أي آخذها منك بثمنها، وإنما أراد

(٢١٩٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠٢-٣٠٣، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٥، تفسير المنار ج٩ ص٥٩٩-٦٠٠، تفسير القاسمي ج٨ ص٤٢.

(٢١٩٧) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور أبي شهبة ج١ ص٤٧٣-٤٧٤.

رسول الله ﷺ أخذ إحدى الراحلتين من أبي بكر بالثمن لأنه أحبَّ أن لا تكون هجرته إلا من ماله الخاص. ثم إن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا عبد الله بن أُريقط من بني الديلِ بن بكر، وكان مشركاً ليدلهما على الطريق إلى المدينة، ودفعا إليه الراحلتين، فكانتا عنده يرعاهما على أن يأتي بهما إليهما عند غار ثور بعد ثلاث ليالٍ - وأعدّتْ عائشة وأسماء ابنتا أبي بكر السفرة التي سيأخذانها في سفرهما ووضعتاها في جراب - وعاء من جلد - فلما أرادتا ربط فم الجراب لم تجدا شيئاً تشدانه به، فشقت أسماء نطاقها - وهو ما تشد به المرأة وسطها - شقين فربطت فم الجراب بنصفه وانتطقت بالآخر، فلذلك سميت ذات النطاقين أو ذات النطاق[٢١٩٨].

١٠٧١- الخروج إلى غار ثور:

خرج رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليلاً من خوخة - باب صغير في ظهر البيت - بيت أبي بكر حتى لا يراهما أحد، وسلكا طريقاً غير معهودة، وما زالا يسيران في ظلمة الليل بين الرمال والصخور حتى وصلا غار ثور فدخلاه، وكان قد دخله أبو بكر أولاً ليتأكد من خلوه من الهوام والمؤذيات كالحيات. وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار قريش وما يسمعه منهم بشأنهما، كما كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتيهما بلبن من غنمه[٢١٩٩].

١٠٧٢- المشركون يفتشون عن رسول الله ويصلون إلى الغار:

ولما علم المشركون أن النبي ﷺ قد أفلت منهم بالرغم من محاصرتهم لنبيه، كما ذكرنا، أصابهم الذهول والغضب وراحوا يفتشون عنه في كل مكان، وجعلوا لمن يأتي به حياً أو ميتاً مائة ناقة. وبعثوا القافة - جمعُ قائف وهو الذي يتبع آثار الأقدام في الأرض حتى يعلم أين ذهب صاحبها - فصاروا يتبعون الأثر حتى وصلوا إلى جبل ثور، ثم صعدوا الجبل حتى وقفوا على فم الغار، فوجدوا شجرة نابتة على فم الغار، أنبتها الله سبحانه وتعالى وقاية لرسوله ﷺ وقد انتشرت أغصانها على بابه، وألهم الله تعالى العنكبوت فنسجت على أغصان الشجرة، وألهم حمامتين وحشيتين

(٢١٩٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٧٤-٤٧٥.

(٢١٩٩) المرجع السابق ج١ ص٤٧٧، الرحيق المختوم ص١٤٩.

فعششتا وباضتا بين أغصان الشجرة، وقد كان لهذه الآيات الثلاث أثرها في تضليل المشركين وصدهم عن اقتحام الغار ودخوله، ذلك أنهم لما وصلوا إلى الغار ووقفوا على مدخله حتى إنَّ أحدهم لو نظر إلى موضع قدميه لرأى رسول الله وأبا بكر، وقفوا متحيرين أيدخلون الغار أم لا؟ ولكنهم انصرفوا عنه قائلين إذا كان محمد ﷺ قد دخل الغار فكيف لم يتقطع نسيج العنكبوت ولم يتكسر بيض الحمام[٢٢٠٠].

١٠٧٣- قلق أبي بكر وخوفه على رسول الله وهما في الغار:

كان أبو بكر الصديق شديد الخوف والقلق على رسول الله ﷺ؛ لأن المشركين وقفوا على فم الغار يتحدثون بمسمع من رسول الله ﷺ، حتى إنَّ أبا بكر قال: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «لا تحزن، ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[٢٢٠١].

١٠٧٤- لا تحزن إن الله معنا:

وبشأن الغار وما قاله رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر يطمئنه ويُذهب عنه القلق والخوف، أنزل الله تعالى قوله العزيز: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٢٠٢].

١٠٧٥- تفسير آية الغار[٢٢٠٣]:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي إلاّ تنصروه فسينصره مَنْ نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد، أي إنكم إن تركتم نصره - أي نصر رسول الله ﷺ

(٢٢٠٠) السيرة النبوية لأبي شبهة ج١ ص٤٧٩، ٤٨١.

(٢٢٠١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٨١-٤٨٢.

(٢٢٠٢) سورة التوبة، الآية ٤٠.

(٢٢٠٣) تفسير الكشاف ج٢ ص٢٧٤، تفسير ابن عطية ج٦ ص٤٩٦-٤٩٧، تفسير المنار ج١٠ ص٤٩٦-٤٩٧، تفسير القاسمي ج٨ ص٢١٦-٢١٧، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٨.

- فالله متكفل به، إذ قد نصره في موضع القلة حيث لم يكن معه إلا صاحبه مع كثرة العدو، فنصره تعالى إياه اليوم أحرى منه حينئذ، فدلّ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أنه تعالى ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أسند الإخراج إلى الكفار؛ لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه. ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من إذ أخرجه، والمقصود بالغار الغار في جبل ثور على مقربة من مكة على مسيرة ساعة منها. وقد مكث فيه النبي ﷺ وأبو بكر ثلاثة أيام. ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما فيصيب النبي ﷺ منهم أذى، من أجل ذلك أصاب أبا بكر رضي الله عنه القلقُ والحزنُ على رسول الله ﷺ فطمأنه الرسول ﷺ وقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والحفظ. فقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

وهذه المعية الربانية المستفادةُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أعلى من معيته تعالى للمتقين والمحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، لأن المعية هنا هي لذات الرسول وذات صاحبه، غير مقيدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التقوى والإحسان بل هي خاصة برسوله وصاحبه من حيث هو صاحبه مكفولة هذه المعية بالتأييد بالآيات وخوارق العادات.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الله على رسوله ﷺ أَمنته التي تسكن عندها القلوب، وتأييده ونصره، وأعلمه بأنهم لن يصلوا إليه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار أو ليعينوه يوم بدر والأحزاب وحُنَين. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ أي كلمة الشرك أو دعوة الكفر هي المغلوبة المقهورة ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي دعوة التوحيد، أو دعوة الإسلام هي العليا، أي لا تزال عالية إلى يوم القيامة. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على ما أراد، ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وتدبيره.

١٠٧٦- خروج النبي وصاحبه من الغار:

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي ﷺ في الغار خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله. وقد قلنا إن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركاً وقد أَمِناهُ فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش(٢٢٠٤).

١٠٧٧- قصة أم معبد مع رسول الله ﷺ:

وفي الطريق إلى المدينة مرَّ النبي ﷺ بأم معبد، فقد روى البيهقي. وغيره عن أخي أم معبد حُبيشٍ صاحبِ رسول الله ﷺ قال: لما خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر يخدمها ويعينهما ومعهم دليلهم عبد الله بن أريقط، مروا بخيمة أم معبد وسألوها إن كان عندها ما يشترونه منها من لبن أو لحم فقالت: لوكان عندها شيء ما أعوزكم القرى. أي الضيافة - فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة هزيلة، فأستأذن رسول الله ﷺ أم معبد لحلبها فأذنت، فدعا ﷺ فدرّت، ودعا بإناء فحلب فيه حلباً كثيراً سقى القوم منه حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم ترك حليباً كثيراً عند أم معبد وقال لها: هذا لأبي معبد إذا جاءك، ثم ركبوا وذهبوا. فلما جاء أبو معبد وسألها عما وجد عندها فأخبرته بما رأته من النبي ﷺ، فقال: هذا والله صاحب قريش لو رأَيته لأتبعته ولأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. وجاء في أخبار أم معبد أنها هاجرت هي وزوجها وأسلما وأسلم أخوها حبيش(٢٢٠٥).

١٠٧٨- إخفاء شخصية الرسول في طريق الهجرة:

وكان أبو بكر إذا سأله من يعرفه وهو بصحبه رسول الله في طريقهما إلى المدينة، عن رسول الله، يقول: هذا رجل يهديني السبيل، فيظن السامع أنه يعني الطريق

(٢٢٠٤) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٨٤.

(٢٢٠٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٨٦ وما بعدها.

المحسوس، وإنما يعني أبو بكر طريق الخير والهداية، وهذا من المعاريض المباحة عند الحاجة، وقد كان ما فعله أبو بكر بتوجيه من رسول الله ﷺ، فقد روى ابن سعد في طبقاته: أنّ النبي ﷺ قال لأبي بكر: «أَلْهِ الناس عني» أي: اصرفهم عن حقيقة أمري - وكان الصديق يأخذ أيضاً بهذا التحوُّط، فكان إذا سألَهُ من لا يعرفه من أنت؟ قال: أنا باغي حاجة، فإذا قيل له من هذا معك قال: هادٍ يهديني الطريق(٢٢٠٦).

١٠٧٩- قصة سراقة مع رسول الله ﷺ:

وكان من خبر سراقة أنه عزم على اللحاق برسول الله ﷺ لإرجاعه إلى قريش وأَخذ الجائزة التي جعلوها لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فلما قرب منهما قال أبو بكر: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ إلى ناحية سراقة ودعا عليه قائلاً: «اللهم اكفناه بما شئت، اللهم اصرعه»، قال سراقة: فساخت يدا فرسي حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها وصرعتني، ثم زجرتها فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة ناديتهم بالأمان قائلاً: أنا سراقة بن مالك بن جُعْشُم، انظروني أكلّمكم، لا يأتيكم مني شرٌ تكرهونه، ادعُ الله لي ولا أضرُّك، فدعا له. فلما وصل إليهم سراقة، قال لرسول الله ﷺ: إن قومك قد جعلوا فيك الجائزة لمن يأتي بك إليهم، وعرضت عليه وعلى أبي بكر الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً، فقلت: يا رسول الله مرْني بما شئت فقال: «قف مكانك ولا تترك أحداً يلحق بنا وأَخفِ عنا» قال سراقة: فسألته أن يكتب لي كتاباً آمن به فأمر عامر بن فهيرة فكتب في قطعة من أدم - جلد - ثم ألقاه إليَّ فأخذته واحتفظت به. ولما همَّ سراقة بالرجوع التفت إليه النبي ﷺ وقال: «كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرى». فقال سراقة متعجباً: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم». وقد أسلم سراقة بعد فتح مكة وبعد معركة حنين. وفي زمن عمر بن الخطاب وفتح بلاد فارس وجلب الغنائم من الفرس وكان فيها سوارا كسرى، قال عمر لسراقة: قل الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن جُعْشُم أعرابياً من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته، ثم أركب سراقة وطيف به المدينة، والناس حوله وهو يقول بصوتٍ عالٍ ما أمره أن

(٢٢٠٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٩٠-٤٩١.

يقوله عمر: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسها سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج[٢٢٠٧].

١٠٨٠- أهل المدينة يخرجون لاستقبال رسول الله:

ولما علم المسلمون في المدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة ومعه أبو بكر متوجهين إلى المدينة، أخذوا يخرجون كل صباح إلى خارج المدينة منتظرين وصول رسول الله حتى يردهم حرّ الظهيرة، فعلوا ذلك مراراً حتى ظفروا باستقباله ﷺ وملاقاته بظهر الحرّةِ، فعدل بهم ﷺ حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وكانت منازلهم في قباء، فأقام عندهم أربع عشرة ليلة وخرج بعدها قاصداً (يثرب) والتي سميت من يوم وصول النبي ﷺ إليها مدينة رسول الله، وتسمى اختصاراً المدينة.

(٢٢٠٧) السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج١ ص٤٩١-٤٩٤.

المبحث الثاني
ما عمله النبي ﷺ بعد وصوله المدينة

١٠٨١- بناء مسجد قُباء:

قلنا: إنه ﷺ نزل في بني عمرو بن عوف وكانت منازلهم في قُباء. وقُباء على مقربة من المدينة. وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ لما وصل قُباء أن أسس مسجد قُباء، كي يكون للمسلمين مكان يصلون فيه ويجتمعون فيه، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، وهو أول مسجد بني في الإسلام، وهذا المسجدُ هو المراد بقوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[٢٢٠٨].

١٠٨٢- قدوم النبي وأبي بكر إلى المدينة:

ثم خرج النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر من قُباء قاصدين «يثرب»، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها ومن معه، وهي أول صلاة جمعة صلاها رسول الله ﷺ، ثم واصل سيره ودخل يثرب، ومن ذلك اليوم سميت «المدينة» أي مدينة رسول الله ﷺ كما قلنا. فجاءه الأنصار يريدون نزوله عندهم وقد أمسكوا بزمام ناقته القصواء، فقال لهم ﷺ: «خلُّوها فإنها مأمورة» ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها حتى وصلت الناقة إلى موضع مسجده الشريف فبركت عنده ثم قامت وسارت غير بعيدٍ ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه وألقت بجرانها - مقدم عنقها - فنزل منها رسول الله ﷺ، ونزل في بيت أبي أيوب الأنصاري. وكان يوم قدوم النبي ﷺ إلى المدينة يوماً عظيماً مشهوداً خرج فيه الناس في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول رسول الله[٢٢٠٩].

(٢٢٠٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٩٥-٤٩٦، والآية في سورة التوبة ورقمها ١٠٨.

(٢٢٠٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢١ وما بعدها.

١٠٨٣- بناء المسجد في المدينة[٢٢١٠]:

وفي المدة التي أقامها رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب بُني المسجد النبوي، فقد أمر ﷺ ببنائه في المكان الذي بركت فيه الناقة، وكان ذلك المكان في أرض لغلامين يتيمين من بني النجار، وقد اشتراها رسول الله ﷺ وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها، وشرع المسلمون ببنائها ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة   فانصر الأنصار والمهاجرة

وكان بعضهم يقول:

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ   ذاك إذاً للعملُ المضلّلُ

وكان المسجد النبوي في عهده ﷺ مبنياً باللبن، وكانت عمده من جذوع النخل، وسقفه من الجذوع والجريد. وبقي المسجد النبوي على هذه الحال في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفي زمن عمر بن الخطاب، أمر بتوسعته ولكنه أبقاه على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ من بنيانه باللبن وسقفه بالجريد إلا أنه جعل عمده من الخشب بدل جذوع النخل. وفي زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصلت زيادات في المسجد وبنى جدرانه بالحجارة والجص وجعل عمده من الحجارة وسقفه من خشب الساج.

١٠٨٤- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[٢٢١١]:

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم الآخر من الأنصار، آخى بينهم على المواساة والتعاون والتآصر، وكان ذلك بعد الهجرة بقليل، وكانت المؤاخاة بين مهاجري وأنصاري، وقال ابن سعد: آخى بين مائة: خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار، وهذا كان أول من آخاهم، ثم زاد عدد المؤاخيْنَ بحسب من

(٢٢١٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٣-٣٢، السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج١ ص٢٢٢.

(٢٢١١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٩ وما بعدها، السيرة للعمري ج١ ص٢٤٣ وما بعدها، الرحيق المختوم ص١٦٧ وما بعدها.

يأتي إلى المدينة مهاجراً. وقد شرعت هذه المؤاخاة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، وكانوا يتوارثون بهذه الأخوة دون القرابة إلى حين وقعة بدر. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[٢٢١٢]. صار التوارث بالقرابة والرحم وليس بعقد المؤاخاة واستقر الأمر على هذا. وقد قام الأنصار بحق هذه المؤاخاة خير قيام، فقد واسوا المهاجرين بأموالهم طيبة نفوسهم بذلك، وقد روى البخاري بعضاً من مآثر الأنصار في مجال المؤاخاة، فقد جاء في صحيحه: «لما قدموا - أي المهاجرون - المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلّقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك...» وروى البخاري أيضاً: «أن الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ: اقسم بيننا وبينهم - أي المهاجرين - النخل فقال ﷺ: لا. فقال الأنصار لإخوانهم المهاجرين: تكفوننا المؤونة - السقي والعمل - وتشركوننا في التمر. فقالوا: سمعنا وأطعنا»[٢٢١٣].

(٢٢١٢) سورة الأحزاب الآية ٦.

(٢٢١٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص١١٢-١١٣.

المبحث الثالث
المستفاد من أحداث الهجرة
وما عمله النبي في المدينة

١٠٨٥ -أولاً- أعداء الدعوة يستبيحون قتل الدعاة:

إن كفار قريش لم يكفهم بقاؤهم على كفرهم، ولم يكفهم صدهمُ الناس عن الدعوة، ولم يكفهم افتراؤهم الكذب على رسول الله ﷺ، ولم يكفهم تعذيب من أسلم حتى اضطرَّهم إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين، ولم يكفهم مقاطعة النبي ﷺ ومن اتبعّه ومن له صلة به مقاطعة اقتصادية. أقول: لم يكفهم كل هذا وغيره من قبائح أعمالهم فتآمروا واتفقوا على قتل النبي ﷺ، وقد ذكرنا كيف أن كيدهم هداهم إلى أن يختاروا شباناً أشداء من مختلف بطون قريش لتنفيذ هذه المؤامرة الخسيسة: قتلِ رسول الله ﷺ، ولكن الله سلّم وردّ كيدهم كما بينا. ووجه العبرة المستفادة من صنيع كفار قريش، أن على الدعاة اليوم أن لا يستبعدوا من أعداء الدعوة تآمرهم على الدعوة والدعاة، وعلى الفتك بهم بالقتل غيلة أو بتلفيق التهم الباطلة ضدهم للحكم عليهم بالموت. يفعل هذا أعداء الدعوة من حكام أو متنفذين في المجتمع. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك، وأن يعلموا أَنْ لا تعايش سلمياً بين أهل الباطل وأهل الحق، لا سيما إذا كان لأهل الباطل القوة والسلطان والنفوذ في المجتمع.

١٠٨٦- ثانياً الأخذ بالأسباب:

وعلى الدعاة أن يأخذوا بالأسباب المشروعة لإحباط كيد أعداء الدعوة، وأن لا يقعوا في الغفلة عما يبيته لهم أعداء الدعوة، وما يلزمهم من الأخذ بالأسباب المشروعة للوقاية من شرورهم، وقد رأينا كيف أنَّ رسول الله ﷺ أمر علياً أن ينام في فراشه، وكيف أنه ﷺ خرج من بيته، وكيف اختفى وصاحبه أبو بكر في الغار، وبقيا فيه أياماً للخلاص من تعقب المشركين لهم. فعلى الدعاة أن يأخذوا بكل وسيلة مشروعة تخفيهم عن أعدائهم وتبعد الخطر عنهم، كالخروج من بيوتهم ومسكنهم

والالتجاء إلى بيوت إخوانهم، أو بالبقاء في محلاتهم وعدم الخروج منها، أو بتفرقهم وعدم تجمعهم وغير ذلك من الوسائل المشروعة التي تبعد عنهم شرور أعدائهم.

١٠٨٧- ثالثاً- لا بد من الحيطة والحذر:

وعلى الدعاة أن يأخذوا بالحيطة والحذر، ومن ذلك عدم إطلاع الغير على ما ينوون عمله للدعوة، وكتمان ذلك حتى على أهليهم إذا كان في إطلاعهم على ما عند الدعاة ضرر، وقد رأينا كيف أن رسول الله ﷺ لما جاء إلى بيت أبي بكر قال له: «أخرج من عندك»، وكيف أن رسول الله ﷺ جاء إلى بيت أبي بكر متقنعاً أي مغطياً رأسه، وأنه جاء في وقت الظهيرة، وأنه خرج من الباب الخلفيِّ لبيت أبي بكر، فكل هذه الأفعال تدل على لزوم الأخذ بالحيطة والحذر من الأعداء، فعلى الدعاة أن يفعلوا ذلك وأن لا يعتبروا أخذ الحيطة والحذر من الجبن الممقوت مع أنه من التدبير الحسن المشروع.

١٠٨٨- رابعاً- إخفاء أسماء الدعاة وأشخاصهم:

وعلى الدعاة إذا رأوا ضرورة أو حاجة لإخفاء أسمائهم أو أسماء بعضهم أو إخفاء أشخاصهم فعليهم أن يخفوا ذلك، فقد فعله أبو بكر بإيحاء من رسول الله ﷺ وهما في طريقهما إلى دارِ الهجرة، فعلى الدعاة أن لا يغفلوا عن ذلك.

١٠٨٩- خامساً- الإيمان بالمعجزات الحسية:

وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله ﷺ، من ذلك - على ما روي - نسيج العنكبوت، وإنبات الشجرة، وتعشيش الحمامتين على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى. فعلى الدعاة أن لا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية، على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوتِهِ ورسالته عليه السلام.

١٠٩٠- سادساً- جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمِنُ بدعوتهم ما داموا يثقون به ويأتمنونه على

ما يستعينون به معه، فقد رأينا أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا مشركاً ليدلهم على طريق الهجرة ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي ﷺ وأبا بكر وثقا به وأمناه، مما يدل على أنّ الكافر أو العاصي أو غير المنتسب إلى جماعة الدعاة قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم،كأن تربطهم رابطة القرابة أو المعرفة القديمة أو الجوار أو عمل معروف كان قد قدمه الداعية لهم. أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية من مثل الأمانة وحب عمل الخير إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية يُترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص.

١٠٩١- سابعاً- إظهار منزلة أبي بكر:

وعلى الدعاة وهم يتكلمون عن أحداث الهجرة يجب أن يذكروا للناس عظيم منزلة أبي بكر عند رسول الله وفي ميزان الإسلام. ومن دلالة ذلك إطلاعه عليه الصلاة والسلام له على الإذن له بالهجرة واصطحابه معه، وموقف أبي بكر من رسول الله وهو في الغار، وقلقه الشديد على رسول الله خوفاً أن يصيبه أذى أو مكروه؛ لأنه يحب رسول الله ﷺ أكثر من نفسه. فعلى الدعاة أن يذكّروا الناس بمناقب الصديق، ويتخذوه وإخوانه من الصحابة قدوة لهم في حب رسول الله واتّباعه.

١٠٩٢- ثامناً- الاهتمام ببناء المساجد:

وعلى الدعاة أن يشجعوا الناس على بناء المساجد فيحرصوا على بناء مسجد في كل قرية وفي كل مجمّع سكني، ليكون باعثاً على تذكير الناس بالصلاة وبعبادة الله تعالى، وباجتماعهم فيه لمدارسة كتاب الله وسنة رسوله وغير ذلك، وقد رأينا كيف أن رسول الله ﷺ عند وصوله إلى قباء بنى مسجداً ليصلي فيه المسلمون. وعلى الدعاة أن يلاحظوا البساطة في بناء المساجد، لا سيما في القرى، حتى يسهل بناؤها ويسهل ترميمها، لأن عمارة المساجد تكون بالصلاة فيها وبكثرة المصلين فيها. وليكن اجتماع الدعاة وإلقاء مواعظهم وخطبهم العامة في المساجد، وأن يتولوا هم خطب الجمعة إذا أمكنهم، لتكون خطبهم هادفة وذات غرض شرعي.

١٠٩٣- تاسعاً - اشتراك الدعاة في أعمال البر:

وإذا حرض الدعاة الناس على عمل خير وبرّ، كبناء مسجد أو مدرسة أو تعديل طريق أو ردم مستنقع أو غرس أشجار ونحو ذلك، فعلى الدعاة أن يشتركوا مع الناس في هذه الأعمال ليكونوا قدوة حسنة للناس، فقد رأينا أن النبي ﷺ يعمل مع الصحابة في بناء مسجده في المدينة. وكذلك إذا حرضوا الناس على التبرع فعلى الدعاة أن يتبرعوا بقدر ما يستطيعون وإن كان ما يقدرون عليه ليس بالكثير.

١٠٩٤- عاشراً- إنشادُ الشعر للتشجيع ورفع الهمم:

ذكرنا أن الصحابة كانوا ينشدون أبياتاً من الشعر وهم يقومون ببناء المسجد النبوي في المدينة، تشجيعاً للعاملين ورفعاً للهمم، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ، فدلّ على جوازه. وعلى هذا فيجوز للدعاة إنشادُ الشعر تشجيعاً وتحريضاً على فعل الخير أو إنجازه أو للإكثار منه. كما يجوز لهم أن يتوسلوا بكل شيء مباح للتشجيع والتحريض على فعل الخير، ومن ذلك وضعهم الجوائز لمن يحفظ القرآن الكريم. سواء كانت جوائز نقدية أو عينية.

الفصل السادس
غزوة بدر الكبرى

١٠٩٥- تمهيد وتقسيم:

معركة بدر، أو كما يسميها كتّاب السيرة «غزوة بدر» أو «غزوة بدر الكبرى» هي أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، خاضها المسلمون بعد الهجرة بقيادة رسول الله ﷺ ضد مشركي مكة، وهي أول معركة انتصر فيها المسلمون على المشركين. وكان لها أثر كبير جداً في الأحداث اللاحقة لها. وتظهر أهميتها من وجوه كثيرة (منها): أنها أظهرت وميزت الحق من الباطل، وأصحاب كل منهما على صعيد الواقع المحسوس؛ ولذلك سماها القرآن «يوم الفرقان». وحيث إن في هذه الغزوة وما سبقها من وقائع وما وقع أثناءها وبعدها من أحداث، أقول: لما في ذلك كله من فوائد عظام وكثيرة للدعوة وللدعاة، فقد رأيت من المفيد جداً تقسيم هذا الفصل إلى مباحث، تسهيلاً للإحاطة بما ذكرته على نحو خال من الاختلاط والتشويش، ولتكون صورة هذه الغزوة وما اتصل بها من وقائع قبلها وخلالها وبعدها صورة واضحة جلية، وبالتالي يسهل معرفة ما يستفاد منها للدعوة وللدعاة، وعلى هذا رأيت تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول - الخروج لملاقاة عير قريش.
المبحث الثاني - العزم على ملاقاة المشركين ببدر.
المبحث الثالث - المسير إلى لقاء العدو ببدر.
المبحث الرابع - النبي ﷺ في ساحة المعركة ببدر.
المبحث الخامس - نشوب القتال وانتصار المسلمين.
المبحث السادس - انتصار المسلمين ببدر يوجب شكر الله.
المبحث السابع - أحداث بعد معركة بدر مباشرة.
المبحث الثامن - المستفاد من غزوة بدر ومما حدث قبلها وأثناءها وبعدها.

المبحث الأول
الخروج لملاقاة عير قريش

١٠٩٦- خروج النبي ﷺ لعير قريش[٢٢١٤]:

بلغ رسولَ الله ﷺ أن عيراً لقريش - أي قافلة - بقيادة أبي سفيان ستقدم من الشام متوجهة إلى مكة، وهي محملة بأموال جسيمة لقريش، فأرسل ﷺ من يستطلع أخبارها وموعد خروجها من الشام إن لم تكن قد خرجت فعلاً. فلما أخبر بذلك ندب ﷺ للخروج والتصدي لها، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلكموها». فخف بعضهم واستجاب للخروج، وثقل بعضهم ولم ينهض للخروج، وذلك أَنَّ النبي ﷺ لم يعزم عليهم بالخروج، كما أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ سيلقى حرباً مع قريش. وقوّىٰ فيهم هذا الظن أن النبي ﷺ قال: «من كان ظهره - دابته - حاضراً فليركب معنا» ولم ينتظر من لم يكن ظهره حاضراً، ولم ينكر ﷺ على أحد تخلفه أو تثاقله عن الخروج. وكان عدد من خرج معه (٣١٣) رجلاً ومعهم (٧٠) بعيراً يتناوبون ركوبه.

١٠٩٧- أبو سفيان يستنفر أَهل مكة ثم يرجع عن استنفاره:

ولما علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ والمسلمون معه، وخاف أن تقع القافلة بيد المسلمين، استأجر رجلاً هو ضمضم بن عمرو الغفاري، وأرسله إلى مكة يستنفر أهلها للخروج دفاعاً عن قافلتهم وحماية لها؛ لأنه فيها أموالهم. وقد فعلوا ذلك، فقد جمعوا جيشاً قوامه ألف رجل. ولما علم أبو سفيان بتوجه المسلمين إلى ناحية بدر، وهي طريق القوافل المعتاد إلى مكة، حول طريق سيره، وهكذا نجا من ملاقاة المسلمين واستيلائهم على قافلته. فأرسل أبو سفيان من يخبر قريشاً بنجاة عيرهم، وأَنْ لا حاجة لقدومهم، وقد نجت عيرهم، ولكنهم أبوا إلا الخروج متأثرين بدعاية

(٢٢١٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٨٨، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٣ وما بعدها.

وتحريض أبي جهل وإصراره على الخروج. وهكذا خرجوا بجيشهم بحالة من الزهو والغرور والبطر. وقد أشار القرآن الكريم إلى خروجهم هذا، فقال تعالى محذراً المسلمين أن يكون خروجهم مثل خروج أهل مكة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧] والذين خرجوا من ديارهم هم أهل مكة حين خرجوا لحماية عيرهم، فلما أتاهم رسول أبي سفيان أنْ لا حاجة في قدومكم فقد سلمت عيركم، أبىٰ أبو جهل الرجوع عما عزم عليه وقال لقومه: «والله لا نرجع حتى نأتي بدراً فنقيم عليها ثلاثاً، ننحرُ الجذور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا». وقوله تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي دفعاً منهم للحق، ومفاخرة وتكبراً على الناس، وإطعامهم الطعام على وجه الرياء وطلب السمعة[٢٢١٥].

١٠٩٨- مسير النبي ﷺ إلى بدر:

سار النبي ﷺ وأَصحابه سالكاً الطريق المؤدي إلى بدر، وهو الطريق المعتاد لمسير القوافل التي تريد مكة، على أمل أن تمر عير أبي سفيان من هذا الطريق فيلتقي بها في بدر، ولم يكن ﷺ عالماً بما فعله أبو سفيان من تحوله عن هذا الطريق ليبتعد عن تعرض المسلمين لقافلته، كما لم يعلم عليه الصلاة والسلام بما قامت به قريش من تجميع الجموع والتوجه بها إلى بدر. وواصل عليه الصلاة والسلام مسيره حتى وصل وادياً يقال له «ذَفِران» وهناك أتاه الخبر عن قريش ومسيرهم في جيش كبير إلى بدر، وبإفلات عير قريش[٢٢١٦].

١٠٩٩- حوادث في أثناء مسير النبي ﷺ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النبي ﷺ وأصحابه، نذكرها لما فيها من العبرة والموعظة.

(٢٢١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣١٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٧، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٥، ١٢٨، وآية ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟...﴾ الخ في سورة الأنفال ورقمها ٤٧.

(٢٢١٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٨-١٢٩.

١١٠٠- أولاً- إرجاع البراء وابن عمر لصغرهما:

وبعد خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى «بيوت السقيا» خارج المدينة، فعسكر فيها النبي ﷺ واستعرض ﷺ من خرج معه فردّ من ليس له قدرة على المضي مع جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فردّ على هذا الأساس البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد[٢٢١٧].

١١٠١- ثانياً- ارجع، فلن أستعين بمشرك:

وفي أثناء سير النبي ﷺ وصحبه، التحق أحد المشركين راغباً بالقتالِ مع المسلمين فردّه النبي ﷺ وقال له: «ارجع فلن أستعين بمشرك». فأعاد المشرك طلبه فرفض النبي ﷺ طلبه حتى أسلم المشرك والتحق مع المسلمين[٢٢١٨].

١١٠٢- ثالثاً- الرسول ﷺ يشارك صحبه المشاق:

وجاء في أخبار خروج النبي ﷺ وصحبه لملاقاة عير قريش، أن النبي ﷺ كان يشارك صحبه مشاق السير، فقد كان مع المسلمين سبعون بعيراً يتعاقبون على ركوبها: كل ثلاثة أو أربعة يتناوبون بعيراً. وكان الرسول ﷺ وأبو لبابةَ وعلي بن أبي طالب يتعاقبون على بعير واحد، فأرادا أن يؤثراه بالركوب عندما جاءت نوبته بالمشي، فقالا له: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[٢٢١٩].

(٢٢١٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٤.

(٢٢١٨) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٥٥.

(٢٢١٩) المرجع السابق للعمري ج٢ ص٣٥٥، والمرجع السابق لأبي شهبة ج٢ ص١٢٤.

المبحث الثاني
العزم على ملاقاة المشركين ببدر

١١٠٣- أخبار عن العير والنفير:

قلنا: إن النبي ﷺ واصل سيره ومن معه حتى وصل وادي «ذفران» فجاءته أخبار نفير قريش أي خروج جيشهم لحماية عيرهم - قافلتهم - بقيادة أبي سفيان. كما بلغ النبي ﷺ تحول العير عن المسار المعتاد لسير القوافل المتوجهة إلى مكة، وهكذا أفلتت من قبضة المسلمين. من أجل ذلك تغير وجه المسألة، إذ لم يعد الأمر مقصوراً على ملاقاة العير والاستيلاء عليها، وإنما ملاقاة جيش قريش الذي توجهت به لا لنجاة قافلتها فقد نجت كما أخبرها أبو سفيان، وإنما لإرهاب المسلمين، وكأن قريشاً لم يعد يهمها أمر القافلة، وإنما صار همها وهدفها إخافة المسلمين وإرهابهم وحتى قتالهم؛ لِتسلمَ لهم طرق تجارتهم من تعرض المسلمين لها. وهكذا ترجحتْ للنبي ﷺ كفة القتال، قتال جيش مشركي مكة، إذ لم يعدْ من الحكمة والمصلحة تجنب لقائهم، والرجوع إلى المدينة، وترك جيش المشركين يجوس خلال تلك المنطقة؛ لأنَّ من شأن ذلك تقوية المشركين، وتدعيماً لمكانة قريش، وامتداداً لسلطانها السياسي خارج مكة، مما يضعف مكانة المسلمين ويجرّىءُ أعداءهم عليهم، مع احتمال مواصلة المشركين سيرهم نحو المدينة ونقل المعركة إلى عقر دار المسلمين، وكل ذلك يستدعي التهيُّؤَ والعزم لملاقاة المشركين وقتالهم(٢٢٢٠).

١١٠٤- النبي ﷺ يستشير أصحابه:

ونظراً للحالة التي وصفناها من إفلات عير قريش ومن نفيرها، جمع رسول الله ﷺ كبراء جيشه وقادتهم من المهاجرين والأنصار، وأخبرهم بالأمر، واستشارهم بشأن قتال المشركين، وكان فيما قاله: «أيها الناس إن الله وعدني إحدى الطائفتين

(٢٢٢٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٨-١٢٩، الرحيق المختوم ص١٨٨.

أنها لكم: إما العير، وإما النفير بالغلبة عليهم». وقد تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أَنَّ منهم من يريد العير؛ لأنه كسب بلا قتال ولا يريد لقاء جيش المشركين، مع أن المصلحة في قتال المشركين. قال تعالى عن ذلك: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ، لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢٢٢١]. أي وتحبون أن الطائفة - قافلة أبي سفيان - التي لا حدّ ولا منعة، ولا قوة لها تكون لكم، وهي العير، ولا تحبون ملاقاة الطائفة الأخرى وهي جيش المشركين ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي والله يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها شوكة وهي جيش المشركين، والقتال معها؛ ليظفركم بها وينصركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله ظاهراً وغالباً على الأديان كلها، وهو تعالى أعلم بالعواقب، عواقب الأمور، وهو الذي يدبركم ويحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[٢٢٢٢] ومعنى قوله تعالى: ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يثبته ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بآياته المنزلة في محاربة المشركين - الطائفة ذات الشوكة - وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم[٢٢٢٣].

١١٠٥- ما قاله قادة المهاجرين في قتال المشركين:

ولما سمع المسلمون ما قاله رسول الله ﷺ قام أبو بكر رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك والله لا نقولُ لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لجالدنا

(٢٢٢١) سورة الأنفال، الآيتان ٧،٨.

(٢٢٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٨٨.

(٢٢٢٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٠١.

معك من دونه حتى تبلغه» فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له[٢٢٢٤].

١١٠٦- رسول الله ﷺ يريد رأي الأنصار:

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنما يريد ﷺ بقوله هذا الأنصار؛ لأنهم لما بايعوه ببيعة العقبة قبل الهجرة بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ما دام بين أظهرهم، ولم تكن المبايعةُ على قتال خارجَ المدينة. وقد فطن لهذا السيد الجليل سعد بن معاذ قائد الأنصار وحامل لوائهم فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. فقال سعد: لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ لِما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صُدْقٌ عند اللقاء، لعلَّ الله يريك ما تَقَرُّ به عينك، فسرْ على بركة الله. فسرَّ رسول الله ﷺ ما قاله سعد، وأشرق وجهه[٢٢٢٥].

١١٠٧- ما قاله وفعله رسول الله بعد المشاروة:

ولما سمع رسول الله ﷺ قول سعد وقول من سبقه، قال ﷺ: سيروا وأبشروا فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أَنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل رسول الله ﷺ من (ذفران) ثم نزل قريباً من بدر[٢٢٢٦].

(٢٢٢٤) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٥٨.

(٢٢٢٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٣٠.

(٢٢٢٦) الرحيق المختوم ص١٨٩.

المبحث الثالث

المسير إلى لقاء العدو ببدر

١١٠٨- النبي ﷺ يستكشف أحوال العدو:

قلنا: إن رسول الله ﷺ ارتحل ومن معه من وادي (ذَفِران) متوجهاً إلى بدر. وهناك في المكان الذي نزله رسول الله ﷺ قريباً من بدر، قام ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين. وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم. فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: نعم. فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً- ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. ثم انصرف النبي ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟[٢٢٢٧].

١١٠٩- الأخذ بالقرائن:

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل عليه الصلاة والسلام عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: أخبراني عن جيش قريش، فقالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير. قال ما عدتهم؟ قالا: لا ندري. قال الرسول ﷺ: كم ينحرون

(٢٢٢٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ص١٣١.

كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف» فقال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[٢٢٢٨].

١١١٠- الأخذ برأي الحباب بن المنذر:

ثم سار النبي ﷺ مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم - أي جيش المشركين - فننزله ونُغَوِّر - نخرب - ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشربُ ولا يشربون. فأخذ النبي ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار[٢٢٢٩].

(٢٢٢٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ص١٣٢.

(٢٢٢٩) الرحيق المختوم ١٩١.

المبحث الرابع
النبي ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة ببدر

١١١١- بناء عريش لرسول الله ﷺ:

وبعد نزول النبي والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين كما قلنا، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقراً لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: «يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك» فأثنى النبي ﷺ عليه خيراً ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ(٢٢٣٠).

١١١٢- من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾(٢٢٣١). النعاس هو النوم الخفيف وهذه الآية تتضمن بيان ما أنعم الله به على المسلمين قبل قتالهم للمشركين في بدرٍ. ووجه الامتنان عليهم بالنعاس أنه حال الآمن الذي لا يخاف، وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال في غدها، فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم فناموا، فكان في نومهم استراحة وبالتالي قوة لهم على القتال مع زوال الرعب من قلوبهم.

(٢٢٣٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ص١٣٤.

(٢٢٣١) سورة الأنفال الآية ١١.

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ وهذا المطر كان بعد النعاس ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ أي ليرفع عنكم به الأحداث والجنابة، ﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي وسوسته وما ألقاه ويلقيه في قلوبكم من الخواطر التي منها الخوف من الأعداء وفشلكم في قتالهم، ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ فيثبتها فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن القتال، ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ أي تثبيتها في مواطن القتال حتى يتم النصر، كما ثبتها ويثبتها بما أنزله من السماء من ماء تلبدت به الأرض السبخة فسهلَ على المسلمين السير عليها[٢٢٣٢].

١١١٣- وصايا القرآن للمسلمين لاستجلاب النصر على الكفار:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٢٢٣٣]. اللقاء: اسم يطلق على القتال غالباً. والفئة: الجماعة، وغلب استعمالها في جماعة المقاتلين.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا حاربتم جماعة من الكفار - ولم يبين وصفها للعلم بوصفها من قرينة الحال وهي أن المؤمنين لا يقاتلون إلا الكفار أو البغاة - فاثبتوا في قتالكم ولا تفروا من أمام أعدائكم ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره تعالى مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، لعلكم تظفرون بمرادكم من النصر والمثوبةِ، أي كونوا على رجاء الفلاح والنصر على الأعداء والثواب من الله تعالى. وفي هذه الآية الكريمة إشعار وتعليم بأن على المسلم أن لا يفتر عن ذكر ربه في جميع الأحوال والظروف، وأن تكون نفسه مجتمعة على ذكر ربه، بذكره في قلبه: بتذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبعهم، وبتذكر نهيه تعالى عن اليأس مهما اشتد البأس، وبأن النصر بيده تعالى ومن عنده، ينصر من يشاء وهو القوي العزيز. فمن ذكر هذا لا تهوله قوة عدوه واستعداده لإيمانه بأن الله

(٢٢٣٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٧٢-٣٧٣، تفسير فتح البيان ج٥ ص١٤٠-١٤٢.

(٢٢٣٣) سورة الأنفال الآيات ٤٥-٤٧.

أقوى منه. وليذكر المسلم والمسلمون في الحرب بألسنتهم ما انطوت عليه قلوبهم من معاني الذكر والتذكر. وبالتكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كل ما سواه، مع الدعاء والتضرع إليه عز وجل، ومع اليقين بأنه لا يعجزه شيء. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أطيعوا الله فما يوصيكم ويأمركم به، مما يرشدكم إلى أسباب النصر والفلاح في القتال وفي غيره، وأطيعوا رسوله فيما يأمر به وينهى عنه في شؤون القتال وغيرها من شؤون الحياة. وفيما يخص القتال وولاية قيادته العامة ﷺ فيه وفي الحرب، فإنَّهُ تلزم طاعته؛ لأن طاعة القائد العام ضرورية للنصر والغلبة على الأعداء، فكيف إذا كان القائد العام هو رسول الله ﷺ المؤيد بالله. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ وهذا نهي عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي الذي يتسبب عنه الفشل وهو الجبن في الحرب، ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي قوتكم ودولتكم ويفوتكم النصر على أعدائكم. وكلمة «الريح» تطلق ويراد بها القوة والغلبة والنصرة والدولة، وكل هذه المعاني تفوت بسبب التنازع والاختلاف المقيت المذموم ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي اصبروا على شدائد الحرب وما تلاقونه من بأس العدو وكثرة عدده وعُدده، فإن الله أخبرنا ووعَدنا بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل أمر ينبغي الصبر فيه، ومن كان الله معه فلا يغلبه شيء، فالله غالب على أمره وهو القوي العزيز. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ البطر نوع من إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة. ورئاء الناس أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ويثنوا عليه ويعجبوا به. ومعنى الآية: لا تكونوا في خروجكم مثل أهل مكة في خروجهم حيث خرجوا بطرين بما أُوتوا من قوة ونعم لم يستحقوها أو كفروا بها، مرائين للناس بها ليعجبوا بهم ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة والمنعة، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي والحال أنهم - أي مشركوا مكة - يصدون بخروجهم عن سبيل الله، وهو الإسلام، بحمل الناس على عداوة رسول الله ﷺ، والإعراض عن دعوته، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ علماً وسلطاناً فهو يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة[٢٢٣٤].

(٢٢٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٦-٢٢٧، فتح البيان ج٥ ص١٨٧-١٩٠، تفسير المنار ج١٠ ص٢٤-٣٠.

١١١٤- الرسول ﷺ ينظم جيشه:

وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة - يوم معركة بدر الكبرى - نظم رسول الله ﷺ جنوده للقتال، فجعلهم صفوفاً متراصة كما يشير إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٢٢٣٥).

١١١٥- الرسول ﷺ يصدرُ أوامره لجيشه:

ولما تم تنظيمُ جيش المسلمين كما ذكرنا أصدر ﷺ أوامره إلى جنده، ومن هذه الأوامر ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال لهم: «إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم»، وجاء في شرحه: إذا قربوا منكم فأمكنوكم من أنفسهم فارموهم. «واستبْقوا نبلكم» أي استبقوه ولا ترموه وهم بعيدون عنكم على نحو لا تصيبهم نبالكم غالباً لبعدهم، بل استبقوا نبلكم حتى يقربوا منكم، بحيث إذا رميتموهم أصبتموهم غالباً لقربهم منكم. ثم ذكر ابن حجر العسقلاني وهو يشرح هذا الحديث، قال: وذكر ابن إسحاق في سيرته: أن رسول الله ﷺ أمرهم - أي أمر جيشه - أن لا يحملوا على المشركين حتى يأمرهم، وقال لهم: إذا أكثبوكم فانضحوهم عنكم بالنبل أي إذا قربوا منكم(٢٢٣٦).

١١١٦- التحريض على القتال:

ولما اقترب المشركون من جيش المسلمين، قال رسول الله ﷺ مخاطباً جنده يحرضهم على القتال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، وقال أيضاً مخاطباً جنده المسلمين: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». فلما سمع عُمَيْر بن الحُمَام الأنصاري ذلك، قال يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم. قال عمير: بخ بخ، فقال ﷺ: ما يحملك على قول بخ بخ؟ فقال عمير: رجاء أن أكون من أهلها. فقال له الرسول ﷺ: أنت من أهلها، وكان معه تمرات في يده يأكل منها، فقال:

(٢٢٣٥) سورة الصف، الآية ٤.

(٢٢٣٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٠٦.

لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بها ثم قاتل وهو يقول:

ركضـــا إلـــى الله بغيـــر زاد إلا التقـــى وعمـــل الـــرشـــاد
والصبـر فـي الله علـى الجهـاد وكـــل زاد عـــرضـــةُ النفـــاد
غيـر التقـى والبـرّ والـرشـاد

وقاتل رضي الله عنه حتى قتل شهيداً[2237].

١١١٧- الرسول ﷺ يشارك في القتال:

ولم يكتف رسول الله ﷺ بالتحريض على القتال بل شارك فيه، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»[2238].

١١١٨- الرسول ﷺ يدعو ربه:

ولما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم، وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه. واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبَدُ بعد في الأرض أبداً» وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذهُ أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجزٌ لك ما وعدك[2239].

١١١٩- رؤيا الرسول ﷺ:

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان رأى المشركين، عددهم قليل، وقد قصّ رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيراً، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى

(٢٢٣٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٤٠.

(٢٢٣٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٤٣.

(٢٢٣٩) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٦٢.

ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2240]. المعنى أن النبي ﷺ رآهم - أي رأى المشركين - في منامه قليلاً فقصَّ ذلك على أصحابه فكان ذلك سبباً لثباتهم، قاله مجاهد ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الإراءةِ في المنام. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ[2241].

١١٢٠- وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى:

وبعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به، خرج من العريش، فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»، ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] أي هو الذي أوصل ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت، وعن محمد بن قيس ومحمد القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2242] فالآية أثبتت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه ونفاها عنه لأن أثرها وهو وصولها إلى أعينهم هو فعل الله فكأن الله هو الفاعل.

(٢٢٤٠) سورة الأنفال، الآية ٤٣.

(٢٢٤١) فتح البيان ج٥ ص١٨٦.

(٢٢٤٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٩٥.

المبحث الخامس
نشوب القتال وانتصار المسلمين

١١٢١- ابتداء القتال بالمبارزات الفردية:

ابتدأ القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ولكن الرسول ﷺ أرجعهم لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك قال ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، وبارز حمزة شيبة فقتله وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة، فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلوه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله ﷺ ولكن ما لبث أن توفي متأثراً من جراحته، وقد قال عنه ﷺ: «أشهد أنك شهيد»[٢٢٤٣].

١١٢٢- الهجوم العام والهجوم المضاد:

ولما رأى المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضباً وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي ﷺ وكان شعار المسلمين: أحد أحد. ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد محرضاً لهم على القتال وقائلا لهم: «شدّوا» وواعداً من يُقتَل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنة. وممّا زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي ﷺ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] وعلمهم وإحساسهم بإمداد الله لهم بالملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين[٢٢٤٤].

(٢٢٤٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٣٨.

(٢٢٤٤) الرحيق المختوم ص١١٦-١١٨.

١١٢٣- تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين وبالعكس:

ذكرنا قبل قليل رؤيا النبي ﷺ في النوم عدد المشركين قليلاً، وأنه قصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقيناً ويجدّوا في قتالهم ويثبتوا. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين إنما هم أكلةُ جزور. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبتهم ونشطهم وجرأهم على قتال المشركين، ونزعَ الخوف - من قلوب المسلمين - من أعدائهم. ووجه الحكمة في قليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجدّ واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلاً تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم(٢٢٤٥).

١١٢٤- إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

لا خلاف في أن الله تعالى أمدّ المسلمين بالملائكة في معركة بدر فقد ثبت ذلك بالقرآن والسنة النبوية المطهرة، ولا يسع أحداً إنكاره؛ لأنه تكذيب لصريح القرآن. ونذكر فيما يلي ما ورد في كتاب الله العزيز بشأن هذا الإمداد، ثم نتبعه بما ورد بشأنه في السنة النبوية المطهرة.

(٢٢٤٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٥، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣١٥، وآية: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ...﴾ الخ في سورة الأنفال ورقمها ٤٤.

١١٢٥- أولاً- ما ورد في القرآن بشأن إمداد المسلمين بالملائكة:

١٢٢٥-مكرر- أ- من سورة الأنفال:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الاستغاثة طلب الغوث، وهو العون والتخليص من الشدة، وظاهر الآية الكريمة أن المستغيثين هُم المؤمنون؛ لأنهم لما علموا أنه لا بد من قتال المشركين باعتبارهم الطائفة ذات الشوكة، أخذوا يقولون: يا رب انصرنا على عدوك، وأغثنا يا غياث المستغيثين. وقال الزهري: إن المستغيث هو رسول الله ﷺ والمسلمون معه. وظاهر بعض الأخبار يدل على أنه الرسول ﷺ، فقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ونظر إلى المشركين فإذا هم ألفٌ وزيادة، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه وجعل يهتف بربه قائلاً: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك؛ فنزلت: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ الآية في ذلك. وعلى هذا القول وهو أن المستغيث هو الرسول ﷺ فيكون ورود الاستغاثة بصيغة الجمع للتعظيم(٢٢٤٦). ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ أي أني ممدكم بوعدي إياكم بالإمداد، وذلك لأنه وقت الإجابة لم يحصل الإمداد بالفعل؛ لأن الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال. ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين. وعنه قال: وراء كل ملك ملك. ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشرى، أي بشارة لكم بنصره، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا من عند غيره، فليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليس غيره كائناً من

(٢٢٤٦) تفسير الآلوسي ج٩ ص١٧٢-١٧٣، والآيتان في سورة الأنفال ورقمهما ٩، ١٠.

كان أو ما كان ذلك الغير[٢٢٤٧].

١١٢٦- ب- من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢٢٤٨].

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أي يوم بدر وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين للهجرة. وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمي به. وهو يوم الفرقان الذي أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك وأخزى حزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ونقص فيما يحتاجون إليه، فقد كان عددهم ٣١٣ رجلاً فيهم فارسان وسبعون بعيراً والباقون مشاة، وكان العدو يومئذ ما يقرب من الألف مع العدة الكاملة والخيول المسومة، ولهذا قال تعالى ممتناً على عبادة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ وهذا الوعد يتعلق بيوم بدر، على أحد القولين للعلماء، فإن قيل فكيف الجمع بين مضمون هذه الآية وعدد الملائكة الوارد فيها وبين آية الأنفال ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ . . . ﴾ فالجواب: أنَّ التنصيص على الألف في آية الأنفال لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله تعالى ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ يعني يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوفٌ أُخَرُ مثلُهُمْ. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر. وقال سعيد بن أبي عروبة أو قتادة: أمدّ الله المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة[٢٢٤٩].

(٢٢٤٧) فتح البيان ج٥ ص١٣٨-١٣٩.

(٢٢٤٨) سورة آل عمران الآيات ١٢٣-١٢٦.

(٢٢٤٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠١.

١١٢٧- ثانياً- ما ورد في السنة النبوية بشأن الإمداد بالملائكة[٢٢٥٠]:

روى البخاري في صحيحه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل المسلمين. قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة.

وفي البداية والنهاية لابن كثير: خفق النبي ﷺ خفقة في عريشه ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النَّقْع، أتاك نصر الله وعدته.

وفي مسند أحمد في أسر العباس بن عبد المطلب، وأن الذي أسره مَلَكٌ كما أخبر النبي ﷺ، وفي حديث ذكره القرطبي في تفسيره أن رجلاً من المسلمين كان يشتد وراء رجل من المشركين إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، فنظَرَ إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً قد خطم أنفه وشق وجهه. وقال عنه النبي: إنه من مدد السماء.

١١٢٨- عمل الملائكة في معركة بدر:

أولاً- القول الأول - اشتركوا في القتال:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٢٢٥١] أي اذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة الذين أمدَّ بهم المسلمين ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصر والمعونة ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بشروهم بالنصر والظفر، أو ثبتوهم على القتال بحضوركم معهم وتكثير سوادهم، أو قووا قلوبهم، وذلك بأشياء تلقونها في قلوبهم فتصح بها عزائمهم ونياتهم، ويشتد نشاطهم في القتال، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ كأنه قيل: أني معكم في إعانتهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم. والرعب هو الخوف وانزعاج النفس بتوقع المكروه. ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ خطاب للملائكة، أي اضربوا الرؤوس وكونها فوق الأعناق ظاهر أو واضربوا على الأعناق، ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين والواحدة بنانة، وخصّها بعضهم باليد. وقيل

(٢٢٥٠) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٣، السيرة النبوية للدكتور العمري ج٢ ص٣٦٥-٣٦٦.

(٢٢٥١) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

المراد بها هنا مطلق الأطراف لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتل، والمراد اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها، وفي الآية دليل لمن قال باشتراك الملائكة في القتال اشتراكاً فعلياً، فقد روي أن رجلاً من المسلمين كان يتبع رجلاً من المشركين يوم بدر قال: فأهويت بسيفي إليه فوقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه[٢٢٥٢]. وقال ابن عباس ومجاهد لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر وعن سهل بن حُنَيفَ رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه[٢٢٥٣].

١١٢٩- القول الثاني- لم تشترك الملائكة في القتال:

وذهب بعضهم إلى أن الملائكة لم تشترك في القتال، وإنما نزلت لتكثير سواد المسلمين وتثبيتهم على القتال ببشارتهم لهم بالنصر. واستدلوا بقوله تعالى - بعد أن ذكر إمدادهم بالملائكة - ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وجاء في فتح البيان بصدد هذه الآية: وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل إن الله أمدّ المسلمين بهم للبشرى؛ ولتثبت وتطمئن قلوبهم بنزول الملائكة[٢٢٥٤]. وقالوا في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قالوا في المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الخطاب في ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ للؤمنين صادر من الملائكة حكاه الله تعالى لنا، وجوز أن يكون ذلك الكلام من جملة المُلقَّن - أي ما لقنه الله للملائكة لتقوله للمؤمنين[٢٢٥٥].

١١٣٠- القول الراجح في عمل الملائكة:

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وإن الحكمة

(٢٢٥٢) فتح البيان ج٥ ص١٤٢-١٤٣، تفسير الألوسي ج٩ ص١٧٧-١٧٩.

(٢٢٥٣) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٤.

(٢٢٥٤) فتح البيان ج٥ ص١٣٩ والآية في سورة الأنفال ورقمها ١٠.

(٢٢٥٥) نفسير الألوسي ج٩ ص١٧٨، والآية في الأنفال ورقمها ١٢.

من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم مُعَانَون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال. ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآية، وصرحت به الأحاديث النبوية، ولا داعي لمخالفة ظاهر نصوص القرآن في هذا الموضوع، ولا لمخالفة ما ورد صريحاً في الأحاديث النبوية مع احتمال وقوع جميع ما قاله أصحاب القولين.

١١٣١- سؤالٌ وجوابه:

وقد يسأل سائل: مالحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة، وأنهم وحدهم أو بعضهم وليس الألوف منهم لقادرون على إبادة الكفار، وقد حصل الإمداد ولم تحصل إبادة الكفار لا سيما إذا قلنا بأن الملائكة اشتركت في القتال كما رجحناه؟

والجواب: لقد مضت سنة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأنَّ الغلبة تكون وفقاً لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل. ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع يجريان وفقاً لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع، فالجهة الأقوى بكل معاني القول اللازمة للغلبة هي التي تغلب. فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصابة المؤمنة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يَستلزمُ الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدمه أولئك المؤمنون من قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه. . الخ ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال

المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار. وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿١٥﴾﴾[٢٢٥٦].

١١٣٢- انتصار المسلمين:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأُسِر منهم سبعون[٢٢٥٧] وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، ستة منهم من المهاجرين، وثمانية من الأنصار[٢٢٥٨]. ولما تم الفتح وانهزم المشركون، أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة؛ ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين[٢٢٥٩].

١١٣٣- قسمة غنائم الحرب:

وقع تساؤل بين المسلمين الذين اشتركوا في معركة بدر بشأن غنائم معركة بدر، وفي قسمتها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢٢٦٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أنَّ حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد. فقسَّمها ﷺ بين المسلمين على السواء أي بالتساوي فيما بينهم[٢٢٦١]. والأنفال: هي الغنائم جمع «نَفَل» وهي كل ما يناله ويحصل عليه المسلمون من أموال أهل الحرب. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: سميت بذلك لأنها

(٢٢٥٦) سورة التوبة الآيتان ١٤، ١٥.

(٢٢٥٧) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص٨٦.

(٢٢٥٨) الرحيق المختوم ص٢٠٣.

(٢٢٥٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٥٠.

(٢٢٦٠) سورة الأنفال الآية ١.

(٢٢٦١) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٩٣-١٩٤، تفسير القاسمي ج٨ ص٥.

زيادة في أموال المسلمين؛ لأن النفل يطلق على الزيادة، ومنه «النافلة» لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة[٢٢٦٢]. وهي ليست في مقابلة الجهاد لأن الجهاد مقابله الأجر والثواب في الآخرة، وهذه الغنائم زائدة عليه خرجت من ملك المشركين بحكم الله، وصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله، والرسول يعطيها من يشاء على ما أراه الله، فقسّمها ﷺ بينهم بالسوية[٢٢٦٣].

١١٣٤- أسرى المشركين وأخذ الفداء منهم:

ذكرنا فيما سبق أن المسلمين أسروا من المشركين في معركة بدر سبعين رجلاً أكثرهم من قادة المشركين وزعمائهم. ولم يكن قد نزل بحكمهم وحيٌ، فاستشار النبي ﷺ المسلمين بشأنهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة؛ أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: لا، والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنّا فنضربَ أعناقهم، فتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنّي من فلان «نسيباً لعمر بن الخطاب» فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. فهَوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قاله عمر[٢٢٦٤]. وهكذا أُخِذ الفداء من الأسرى اجتهاداً من رسول الله ﷺ بعد مشاورة أصحابه. وكان الفداء مقداراً من المال يتناسب وما عند الأسير من مال. ومن لم يكن له مال من الأسرى جُعِل فداؤه أن يعلِّم عدداً من أولاد الأنصار الكتابةَ. وقد فدت زينبُ بنت رسول الله ﷺ زوجها أبا العاص بن الربيع بقلادة فأطلق الصحابة أسيرها وردوا عليها الذي لها إكراماً لرسول الله ﷺ[٢٢٦٥].

(٢٢٦٢) تفسير القاسمي ج٨ ص٦.

(٢٢٦٣) تفسير القاسمي ج٨ ص٦.

(٢٢٦٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص٨٦.

(٢٢٦٥) السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج٢ ص١٦٢، ١٦٤، والسيرة النبوية للعمري ج٢ ص٣٦٨.

١١٣٥- ما روي عن العباس وفدائه:

أخرج البخاري عن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا العباس فداءه. فقال: «والله لا تذرون منه درهماً»[٢٢٦٦]. أي لا تتركوا للعباس من الفداء شيئاً. وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: يا عباس افدِ نفسك وابن أخويك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك ذو مال. فقال العباس: إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني على الخروج معهم، قال ﷺ: الله أعلم بما تقول، إن كنت ما تقول حقاً فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا[٢٢٦٧].

١١٣٦- ما نزل من القرآن بشأن الفداء بعد أخذه:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾[٢٢٦٨]. والإثخانُ كثرة القتل والمبالغة فيه. والمعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك حتى يذل الكفر وأهله، ويعز الإسلام وأهله، بالاستيلاء والقهر على أعدائهم ثم الأسر بعد ذلك، وإنما عُبرَّ بـ«النبي» تلطفاً به ﷺ حتى لا يُواجَه بالعتاب. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي متاعها الزائل بأخذكم فداء أُسارى بدر، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل الجنة في الآخرة من الطاعة بإعزاز دينه وقمع أعدائه والإثخان في القتل. ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أنه لا يؤاخذ على خطأ في الاجتهاد لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم. ووجه الخطأ في اجتهادهم أنهم نظروا في أنَّ استبقاء الأسرى ربما يكون سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفلَّ لشوكتهم. وقيل: المقصود بـ﴿كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كتابه أنه تعالى

(٢٢٦٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٢١.

(٢٢٦٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٢٣.

(٢٢٦٨) سورة الأنفال، الآيات من ٦٧-٦٩.

سيحل لهم الفدية التي أخذوها من الأسرى، أو أن أهل بدر مغفور لهم ما يصدر عنهم من ذنب أو تقصير، أو أن الله تعالى لا يعذب قوماً إلا بعد قيام الحجة عليهم وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن أخذ الفداء، ولا يُبعَد أن يكون المانع من مساس العذاب كل ما قيل في معنى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾؛ لأن تعدد موانع شيء واحد أمرٌ جائز، وبهذا يجمع بين الروايات المختلفة عن ابن عباس وغيره في المقصود بـ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾[2269]. وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2270]. روي أنه لما نزلت الآية الأولى التي قبل هذه الآية كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت هذه الآية. فالمراد بـ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ إما الفدية وإما مطلق الغنائم والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية[2271].

(٢٢٦٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٢٥-٣٢٦، تفسير الكشاف ج٢ ص٢٣٥-٢٣٧، تفسير الآلوسي ج١٠ ص٣٢-٣٥، تفسير فتح البيان ج٥ ص٢١٣، ٢١٦، تفسير القاسمي ج٨ ص٩٧-٩٨.

(٢٢٧٠) سورة الأنفال الآية ٦٩.

(٢٢٧١) تفسير الألوسي ج١ ص٣٦.

المبحث السادس
نصر المسلمين يوجب شكر الله

١١٣٧- معركة بدر وقعت من غير تخطيط مسبق، ولكن بتدبير من الله:

قال تعالى: ﴿ . . . يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢٢٧٢].

لقد وقعت معركة بدر من غير تخطيط مسبق لها، لا من جانب المسلمين ولا من جانب المشركين، أما من جانب المسلمين فإن النبي ﷺ خرج للتعرض إلى عير قريش القادمة من الشام في طريقها إلى مكة، وهي محملة بأموال قريش كما ذكرنا من قبل[٢٢٧٣]. فلم يكن من نية رسول الله ﷺ الدخول في معركة مع المشركين. قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يُعاتَب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[٢٢٧٤]. وقوله: إنما خرج النبي ﷺ يريد عير قريش أي ولم يرد القتال، وقوله حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد أي: ولا أراد قتالاً[٢٢٧٥]. هذا من جانب المسلمين، أما من جانب المشركين، فإن أبا سفيان أخبر قريشاً بنجاة قافلته من تعرض المسلمين لها فلا حاجة لقدومهم، ولكنهم أصروا على الخروج للمباهاة والفخر والرياء فما كان

(٢٢٧٢) سورة الأنفال الآيتان ٤١، ٤٢.

(٢٢٧٣) الفقرة ١٠٩٦.

(٢٢٧٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٢٨٥.

(٢٢٧٥) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٨٦.

خروجهم إلا لطلب السمعة ولكن الله جمع بين الفريقين ولله الحكمة البالغة.

١١٣٨- كان نصر المسلمين بتأييد من الله(٢٢٧٦):

قوله تعالى: ﴿. . . يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المراد بيوم الفرقان: يوم بدر، والجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين. ﴿إِذْ أَنتُم﴾ أيها المسلمون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بشفير الوادي الأدنى من المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي جيش المشركين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي البعدى عن المدينة مما يلي مكة ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي العير التي يقودها أبو سفيان بما فيها من أموال أسفل من موقع المسلمين إلى ساحل البحر إلى ثلاثة أميال من بدر، والفائدة من ذكر كيفية تلاقيهم. وتعيين مواقع الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم، هي -أي فائدة ما ذكر- الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته وحصانة موقعه، وتوافر أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين، واختلاط أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحالة ليست إلاّ صنعاً من الله سبحانه، ودليلاً على أن ذلك أمرٌ لم يتيسر إلا بتأييد من الله، وإلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوى التي نزل فيها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا التي نزل فيها المسلمون كما أنها كانت رخوة تسوخُ فيها الأرجل ولا يمشي فيها الإنسان إلاّ بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتزيد من ثباتهم في القتال، وفي هذا كله تصوير ما دبرّه سبحانه وتعالى من أمر وقعة بدر، وما هيأه الله تعالى من جمع الفريقين: المسلمين والمشركين ليظهر إعزاز دينه وغلبة أوليائه، وإذلال وقهر أعدائه المشركين، وهكذا التقى الجمعان على غير ميعاد لتقع أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وانتصار المسلمين، وهزيمة المشركين. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي: تواعدتم أنتم أيها المسلمون مع المشركين، مشركي مكة، وتواضعتم واتفقتمْ بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالفَ بعضكم بعضاً فثبطتكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالمجيء في الموعد المحدد، ولثبطهم عن الوفاء بالموعد ما كان في

(٢٢٧٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٣-٢٢٤.

قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين، فلم يكن يتفق لكم من التلاقي ما يسرّه الله بقدرته من أسباب هذا اللقاء، ليقضيَ الله تعالى بهذا اللقاء وما ترتب عليه من قتال أمراً وهو نصر أوليائه المسلمين وقهر أعدائه المشركين. ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح وبيِّنةٍ لا تبقى حجة معها لمن كفر، وليصدرَ إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه هو الدين الحق الذي يجب الإيمان به والانقياد له، وذلك أن ما حصل في موقعة بدر من الآيات الباهرة الدالة على أن الإسلام هو الدين الحق تجعل من كفر بعدها مكابراً معانداً للحق بعد وضوحه.

١١٣٩- انتصار المسلمين ببدر يوجب شكر الله:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢٢٧٧). أي اذكروا أيها المسلمون وقت كونكم أذلة مستضعفين في أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش، تخافون أن يتخطفكم الناس، لأن الناس كانوا جميعاً لهم أعداء، فآواكم الله تعالى إلى المدينة. وأيدكم بنصره في بدر، بما هيّأ لكم من أسباب النصر، ومنها تقليلهم في أعينكم وتقليلكم في أعينهم، وبإمدادكم بالملائكة، ورزقكم من الطيبات أي من الغنائم؛ لعلكم تشكرونَ هذه النعم، أي إرداة أن تشكروا هذه النعم(٢٢٧٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢٢٧٩).

والخطاب في هذه الآية للمسلمين تذكيرٌ لهم بنصر الله في معركة بدر. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي نصركم في حالة ذلة كنتم فيها على قلتكم كما يفيده لفظ أذلة، إذ هو جمع قلة ليدلَّ على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً. وذلتهم هي قلتهم وما كان بهم من ضعف الحال، وقلة السلاح والمال والمركوب، فكان يعتقب النفرُ منهم على البعير الواحد. إلا أنهم ما كانوا في أنفسهم إلا أعزة، أما عدوهم، وهم المشركون، الذين

(٢٢٧٧) سورة الأنفال الآية ٢٦.

(٢٢٧٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٣.

(٢٢٧٩) سورة آل عمران الآية ١٢٣.

خرجوا لحماية عيرهم فإذا هم يلاقون جمع المسلمين من غير ميعاد سابق، أقول هؤلاء المشركون فقد كانوا في حال كثرة من جهة العدّةِ والعدد. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن التقوى هي التي تعدّكم للقيام بواجب الشكر لله تعالى على النعم التي يسديكم إياها، فمن لم يروض نفسه بالتقوى، ويحملْها على معاني التقوى ويقيمها على مقتضياتها ولوازمها فإن اتباع الهوى سيكون هو الغالبَ على سلوكه الظاهر والباطن، وبالتالي لا يرجى له أن يكون شاكراً لله مستعملاً نعمه تعالى إلى ما وهُبِتْ لأجله من حكم ومنافع[٢٢٨٠].

(٢٢٨٠) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٠، تفسير المنار ج٤ ص١٠٩ -١١٠، تفسير الزمخشري ج١ ص٤١١.

المبحث السابع
أحداث بعد معركة بدر مباشرة

١١٤٠- أولاً- اتفاق على قتل النبي ﷺ[٢٢٨١]:

أراد صفوان بن أمية الانتقام من المسلمين والثأر لقتلى قريش بقتل النبي ﷺ، واتفق مع عمير بن وهب الجمحي على أن يقوم الأخير بالذهاب إلى المدينة لاغتيال النبي ﷺ لقاء مكافأة يقدمها له صفوان. وفعلاً ذهب عمير إلى المدينة متوشحاً سيفه الذي حدّه وسَمَّهُ. فلما وصل المدينة لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأوجس من خيفةً، ووقع في نفسه أنه جاء بشرّ، فأخبر النبي ﷺ بخبره، فأمره أن يدخله عليه، فلما دخل قال: انعموا صباحاً. فقال ﷺ قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة. ثم قال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فذكر سبباً. فأخبره ﷺ بالغرض الذي جاء من أجله والاتفاقِ مع صفوان على تنفيذه لقاء مكافأة وعده إياها. فلما سمع ذلك عمير قال: أشهد أنك رسول الله، فهذا هو الذي حصل بيني وبين صفوان ولم يطلع عليه أحد غيرنا. ثم أعلن إسلامه ونطق بالشهادتين. فقال ﷺ لمن كان معه: فقهوا أخاكم في دينه واقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره وهو ابنه. ثم رجع عمير إلى مكة وأقام فيها ، وأخذ يدعو إلى الإسلام فأسلم على يده كثير من الناس.

١١٤١- ثانياً- إجلاء يهود بني قَيْنُقاع من المدينة:

وهؤلاء طائفة من اليهود كانت تسكن في أطراف المدينة، وقد عقد معها النبي ﷺ معاهدة أمن وسلام فنقضتْها فحاصرها النبي ﷺ وأجلاهم. وسنفصل القول فيما بعد إن شاء الله تعالى، عند كلامنا عن موقف الرسول

(٢٢٨١) الرحيق المختوم ص٢١٢-٢١٣.

ﷺ من يهود المدينة، ومن جملتهم بنو قَيْنُقاع[٢٢٨٢].

(٢٢٨٢) سيأتي بيانُ موقفِ الرسولِ من يهودِ المدينةِ بعد غزوة بني المصطلق في الفصل العاشر الفقرة: ١٣١٩.

المبحث الثامن
المستفاد من غزوة بدر ومما حدث قبلها وأثناءها وبعدها

١١٤٢- تربية الأولاد على الجهاد:

ذكرنا إرجاع النبي ﷺ البراء بن عازب وعبد الله بن عمر لصغر سنهما. ومعنى ذلك أنهما خرجا مع من خرج من المسلمين عندما ندب النبي ﷺ المسلمين إلى الخروج، مما يدل على رغبتهما في المشاركة في أعمال الجهاد التي يقوم بها الرجال المسلمون. ومعنى ذلك أنهما لقيا تربية إسلامية حببت إليهما الجهاد بحيث إنهما صارا يتطلعان إليه، فعلى الدعاة أن يولوا الكثير من عنايتهم وما يرشدون إليه الناس في تربية الأولاد، أولاد المسلمين عامة وأولاد الدعاة خاصة، تربية إسلامية تحبِّبُ إليهم أعمال الجهاد بجميع صوره وأنواعه.

١١٤٣- الرغبة في الجهاد لا تكفي وحدها بل لا بُدَّ من القدرة عليه:

وفي إرجاع النبي ﷺ للبراء بن عازب وعبد الله بن عمر لصغر سنهما مع رغبتهما في الجهاد ومشاركة المسلمين في أعماله، دليل على أن الرغبة وحدها في الجهاد، وفي أي عمل من أعمال البرّ، ومنها ما يتعلق بالدعوة، أقول: إن الرغبة وحدها في هذه الأمور لا تكفي لأن يستجيب أمير جماعة الدعاة إلى طلبات الراغبين في المشاركة في أعمال الدعوة، أو في نوع معين منها، بل لا بد من تحقق القدرة أي قدرتهم على عمل ما يرغبون فيه، والقدرة على العمل المرغوب فيه لا تقف عند حدّ القدرة البدنية التي لم توجد في البراء وفي ابن عمر، ولذلك ردّهما النبي ﷺ، وإنما تشمل القدرة على كل ما هو لازم وضروري لإنجاز العمل المرغوب فيه. فعلى الدعاة وعلى جماعتهم ملاحظة ذلك جيداً، فلا يجوز لجماعة الدعاة أن تضع خططها على أساس رغبات اتباعها فقط دون التأكد من قدرتهم على تنفيذ ما يرغبون فيه، سواء أكانت القدرة المطلوبة قدرةً ماديةً كالقدرة البدنية، أو معنويةً وأعلاها

القدرة الإيمانية التي تهوّن على صاحبها الصعاب التي يلقاها، وما يتطلبه تنفيذ العمل المرغوب فيه من أعمال الدعوة، ويترتب على ما قلناه أن على الدعاة وقادة جماعتهم أن لا يستعجلوا في إناطة أعمال الدعوة ومتطلباتها إلى من لا تتحقق فيهم القدرة الحقيقية على القيام بهذه الأعمال. وهذه القدرة ترتكز في الأساس على الإيمان الصافي العميق، وعلى القدرة الخاصة بالعمل المرغوب فيه والمراد تكليف الراغب فيه به.

١١٤٤- القاعدة والاستثناء في الاستعانة بغير المسلم:

ذكرنا في الأحداث التي سبقت معركة بدر أن مشركاً لحق بجيش المسلمين وطلب من النبي ﷺ الموافقة على قبوله معهم والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه، فقال ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»، فهذا المنطِقُ النبوي الكريم يعطينا القاعدة في مسألة الاستعانة بغير المسلم، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يعرفوها، ويعملوا بموجبها، وهي أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ومنها شؤون الدعوة. ولكن لهذه القاعدة أو الأصل استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معينة وهي: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذهِ الاستعانة، وأن لا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها. وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به. وأن يكون تابعاً لجماعة الدعاة لا متبوعاً، ومقوداً فيها لا قائداً لها. وأن لا يترتب عليها أي ضرر بالجماعة، وأن لا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد الجماعة أو لغيرهم، وأن تكون هناك حاجة حقيقية بهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش، إذ لا حاجة به أصلاً. وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالمشرك - عبد الله بن أريقط - الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ليدلهما على الطريق إليها، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه أن يأتي إلى الغار الذي اختفيا فيه بعد ثلاث ليال. وكذلك على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار

من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم. فعلى الدعاة ملاحظة ما ذكرناه من القاعدة والاستثناء عند الاستعانة بغير المسلم.

١١٤٥- الاستعانة بعصاة المسلمين:

ما قلناه بشأن الاستعانة بغير المسلم، والقاعدة والاستثناء في هذه الاستعانة نقوله هنا أيضاً بالنسبة إلى الاستعانة بعصاة المسلمين، فالأصل عدم الاستعانة بهم في أمور الدعوة، والاستثناء الجواز إذا توافرت شروطه، لأنه إذا أجاز تطبيق الاستثناء بشروطه بحق غير المسلم فتطبيقه بحق المسلم العاصي أولى. وتكون هذه الاستعانة في الغالب في دفع الأذى والشر عن الدعاة وجماعتهم.

١١٤٦- المقصود بعصاة المسلمين:

والمقصود بعصاة المسلمين الذينَ نطبق عليهم القاعدة والاستثناء اللذيْنِ ذكرتهما بشأن الاستعانة بغير المسلم، العصاة المتجاهرون بعصيانهم من مثل تركهم بعض فرائض الإسلام على نحو يُعرَف منهم، أو ارتكابهم بعض محظورات الإسلام الظاهرة مثل معاونتهم للحكام الظلمة.

١١٤٧- ما كل جائز يجوز الأخذ به:

ويجب أن يعلم الدعاة وتعلم جماعتهم أن ليس كل جائز يجوز الأخذ به. أي ليس كل جائز بذاته يجوز الأخذ به، فهذا الجواز مشروط به أن لا يؤديَ إلى ضرر بالجماعة أو بالدعوة ذاتها، فيكون في هذه الحالة تركه وعدم الأخذ به هو الأولى، أو هو المطلوب فعله من قبل الدعاة وجماعتهم. ومن الأمثلة على ما أقول، إذ رأت الجماعة أن الأخذ بالاستثناء يؤدي إلى سوء الظن بقيادة جماعة الدعاة من قبل أفراد الجماعة، أو من قبل عموم الناس، فعدم الأخذ بالاستثناء هو الواجب في هذه الحالة.

١١٤٨ - متطلبات الأخذ بالاستثناء:

والأخذ بالاستثناء الذي ذكرناه وهو الاستعانة بغير المسلم أو بالمسلم العاصي، هذا الأخذ قد يتطلب من أمير الجماعة أو من أحد الدعاة لقاءات مع من يراد الاستعانة به، أو يتطلب زيارة هؤلاء في بيوتهم، أو دعوتهم إلى بيوت ومقرات

الجماعة. فهذه الأمور قد تكون من متطلبات الاستعانة الاستثنائية، فعلى جماعة الدعاة تفهيم أفرادها بذلك حتى لا يقع في نفوسهم سوء الظن بقيادة الجماعة أو بأميرها. ولكن على قيادة الجماعة أن لا تسرف في القيام بهذه المتطلبات من زيارات لهؤلاء أو قبول دعواتهم أو دعوتهم إلى بيوت الجماعة ومقراتها؛ لأن هذه المتطلبات للضرورة وما كان للضرورة يقدربقدرها.

١١٤٩- الأمير يشارك أتباعه متاعبهم:

ذكرنا في خروج النبي ﷺ ومن معه من المسلمين للتصدي إلى عير قريش، وكان عند المسلمين (٧٠) بعيراً مما اضطرهم على أن يتعاقب على ركوب البعير كل ثلاثة أو أربعة. وقد سرى هذا الترتيب على رسول الله ﷺ فلم يختص ببعير لنفسه بل كان ثالث ثلاثة يتعاقبون على بعير واحد، ولما عرض عليه اللذانِ كانا معه أن يبقى راكباً ويكفياهُ مؤنة المشي رفض ذلك، فعلى أمير جماعة الدعاة، أَو أي أمير على جمع من الدعاة، أن يشارك أتباعه في أتعابهم؛ لأنه بهذه المشاركة يزداد تعلقهم بأميرهم ويزداد نشاطهم في أعمال الدعوة. وقديماً شارك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام المجاعَةِ ما حلّ بالمسلمين من ضيق وقلة طعام، ولم يخص نفسه وعائلته بطعام يمتاز به عن رعيته، وإنما شاركهم في محنتهم وأكل مما يأكلون كأي واحد منهم. إن هذه المشاركة من أمير الجماعة تقوّي صلتها به؛ لأنها تجد فيه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، والتطبيقَ العمليَّ لمعاني الدعوة. كما أن من المرغوب فيه جداً أن يشارك الدعاة متاعب الناس، ويسعوا إلى تخفيفها جهد المستطاع، فإن هذا الصنيع من الدعاة دعوة صامتةٌ ولكنها مؤثرة في الناس، وكم من صامت أبلغ من متكلم أو خطيب.

١١٥٠- أعداء الدعوة يحاربونها ويصدون الناس عنها:

ذكرنا من قبل أن أبا سفيان استنفر قريشاً لتخليص عيرها من المسلمين، وأنه بعد هذا الطلب طلب أبو سفيان من قريش أن ترجع ولا تقدم؛ لأن قافلتهم نجت من تعرُّضِ المسلمين لها، ولكنَّ قريشاً وعلى رأسها أبو جهل رفضوا هذا الطلب، ورأَوْا في تحركهم وخروجهم بحجة تخليص قافلتهم فرصة جيدة لإظهار قوتهم وإرهاب المسلمين وصد الناس عن دعوة المسلمين.. ؛ لأن أعداء دعوة الإسلام لا يقرّ لهم

قرار ولا يهدأ لهم بال إلا إذا قضوا على دعوة الإسلام وعلى دعاتها. فعلى الدعاة وجماعتهم أن يفقهوا هذه الحقيقة الواضحة البسيطة، وأن يعرفوا يقيناً أن ما يسمى بـ«التعايش السلمي» بين الدعوة ودعاتها من جهة وبين الباطل وأهله من جهة أخرى، هذا التعايش السلمي المزعوم هو من قبيل الوهم والتوهم، فلا يجوز أن ينخدع به الدعاة إلى الإسلام حتى لا يقعوا في مخططات أعدائهم.

١١٥١- لا بد من المواجهة والصدام مع أعداء الدعوة إذا اضطر الدعاة إليها:

ذكرنا فيما سبق أن لقاء المسلمين لجيش المشركين الذي خرج بطراً ورئاء الناس جعل المقابلة العنيفة القتالية أمراً لا بد منه، اضطر عليه المسلمون؛ لأن انسحابهم من هذا اللقاء القتالي سيؤدي إلى ضعفهم وانهزامهم أمام المشركين، وزيادة غرورهم وعنجهيتهم، وإيغالهم في الصد عن سبيل الله، إلى غير ذلك مما ذكرنا من قبل[٢٢٨٣]، وقد يجِدُ الدعاة أو جماعتهم أنفسهم أمام خيارين: إما التراجع والتقهقر أمام أعداء الدعوة وما حشدوه ضد الدعوة والدعاة إلى الله، وإما مقابلتهم بقوة وحزم وثبات، وإحباطُ كيدهم وكشفُ باطلهم وإن ترتب على ذلك أذى قد يصيبهم. والذي نطلبه هو أن تكون مقابلة جماعة الدعاة لأعدائهم في هذه الحالة مقابلة قوليةً تقوم على كشف مكائد أعدائهم، وأن تبتعد جماعة الدعاة عن أعمال العنف، وإن بدأها أعداؤهم. إن على جماعة الدعاة أن تكشف حقيقة ومضمون دعوتهم وأن هذا المضمون هو مضمون الإسلام الذي يدين به المسلمون وأن الواجب الشرعي يقضي بأن يتحمل المسلمون مسؤوليتهم الدينية، وينصروا الدعوة ودعاتها ضد من يريد الكيد لهم ولها، وأن يثير الدعاة وجماعتهم معاني الإيمان في نفوس المسلمين ضد أعدائهم الذين هم في الحقيقة أعداء الإسلام؛ لأن الدعاة إلى الله لا يعملون لمنافعهم الشخصية وإنما يعملون لخدمة الإسلام الذي هو دين المسلمين، فعلى المسلمين أن يدافعوا عن دينهم بالوقوف إلى جانب الدعاة لا بجانب أعدائهم.

(٢٢٨٣) انظر الفقرتين ١١٠٣، ١١٠٤.

١١٥٢- مشاورة الأمير لأتباعه:

ذكرنا من قبل أن رسول الله ﷺ شاور المسلمين الذين كانوا معه في مسألة قتال المشركين بعدما تبين له خلاص قافلة أبي سفيان ومجيء قريش بجموعها. ويستفاد من ذلك أن على أمير جماعة الدعاة أن يشاورهم فيما هو مقدِمٌ عليه، أو فيما يحتمل قدومه عليه، أو فيما يضطر على القدوم إليه من أمور صعبة جسيمة من مثل مقابلة العدو، أو مواجهته وجهاً لوجه، وما يترتب على ذلك من نتائج. وليحذرْ أمير الجماعة من ترك المشاورة وانفراده بالرأي. فإن هذا الترك يفوّت عليه خيراً كثيراً مع مخالفته لأمر الشرع وإيحاش قلوب أتباعه، وعليه وهو يشاور أتباعه أن لا يضيق صدره بآرائهم، وإن عليه أن يشجعهم بأن يقولوا كل ما يرونه هو الصواب فيما يُستشارون فيه من أمور. وعليه أن يأخذ بالرأي الصواب إذا ظهر، بل أنْ يأخذ به حتى لو تقدم به صاحبه دون سبق مشاورة من الأمير له، كما رأينا في أخذ النبي ﷺ برأي الحباب بن المنذر بشأن المكان المختار لجيش المسلمين.

١١٥٣- لا بد من استكشاف أحوال أعداء الدعوة:

الدعوة الإسلامية لها خصومها وأعداؤها في كل مكان وزمان، فعلى جماعة الدعاة استكشاف أحوال هؤلاء الخصوم والأعداء لأخذ الوقاية من شرورهم. وقد رأينا كيف أن النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه قاما باستكشاف أحوال المشركين. ويقوم بهذا الاستكشاف جميع أفراد الجماعة بمن فيهم أميرها بالأسلوب الشرعي الحذر. كما أن على أي فرد إذا بلغه أي شيء من أقوالِ وأفعالِ أَعداء الدعوة متعلقٍ بالدعوة والدعاة أن يوصلها إلى أمير الجماعة وقادتها، كما كان يفعل عبد الله بن أبي بكر، حيث كان ينقل إلى رسول الله ﷺ وصاحبه وهما في الغار ما كان يسمعه من أقوال قريش وما يريدون فعله، مما له علاقة بالنبي ﷺ. والغرض من ذلك إحباطُ خطط أعداء الدعوة وإفشالُ مؤامرتهم ضدها وضد الدعاة. ويجوز -لغرض الوقوف على أحوال أعداء الدعوة وما يبيتونه لها - استعمال التورية في الكلام والجواب حتى لا ينكشف أمر الداعية، وقد ذكرنا جوابَ النبي ﷺ لمن سأله: من أين أنت أو من أين أنتما؟ فقال نحن من ماء. وجواب أبي بكر لمن سأله عن النبي ﷺ وهما في طريق الهجرة إلى المدينة: هذا هادٍ يهديني السبيل.

١١٥٤- الحفاظ على أمير جماعة الدعاة:

ذكرنا فيما سبق أن المسلمين بنوْا للرسول ﷺ عريشاً في ساحة معركة بدر حفاظاً على سلامته ﷺ مع إمكان إشرافه على جيشه وسير المعركة المنتظرة، معركة بدر. ويستفاد من هذا الصنيع أن على جماعة الدعاة أن تحرص على سلامة أميرها. لأنه هو العقل المدبر لسيرهم وحسن عملهم، وإن الجند مهما كثر عددهم لا يستغنون عن أمير راشد يقودهم حسب مناهج الإسلام وأحكامه في الدعوة إلى الله تعالى، وتكون له كلمة الفصل في أمور الدعوة. والحفاظ على سلامة أمير الجماعة، جماعة الدعاة، يتحقق في حمايته من كل ما يعرضه للخطر والضرر، فلا يشترك مع الدعاة في الجهاد باليد إذا وجب مثل هذا النوع من الجهاد، ولا يشاركهم بالقول الصريح باسمه الصريح إذا كان من شأن هذه المصارحةأن تضرَّهُ ولا تنفعُ الدعوةَ أو لا تحتاجُها الدعوة. وبكلمة موجزة: إذا لم تكن هناك ضرورة لهذه المشاركة من قبله باليد أو بالقول الصريح باسمه فإنه لا يشارِك بها، لقد أراد عمر بن الخطاب أن يخرج بنفسه في قتال المسلمين لفارس فأشارَ عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن لا يفعل ذلك، وليبق في المدينة يوجه ويسيِّرُ الجنود ويعطي التعليمات. إن قائد الجيش يحتاج فيما يحتاج إليه، إلى وضع الخطط النافعة للمعركة في ضوء المعلومات التي ترد إليه عن أحوال العدو وأحوال جنده؛ ولذلك فهو يحتاج إلى محل آمن. وراحة بال، وصفاء فكر، وهدوء، وطول تأمل، واستشارة من هم عنده من أهل الشورى، ولا يمكنه ذلك إذا زجَّ نفسه في المعركة وشارك جنوده مشاركة فعلية ودائمة في جهادهم القتالي. وكذلك الحال بالنسبة إلى أمير جماعة الدعاة؛ فيجبُ أن يكون بعيداً عن المباشرات الفعلية التي يقوم بها الدعاة المنتسبونَ إلى هذه الجماعة والتي ليس من ضرورة أدائها والقيام بها قيام الأمير بها بنفسه أو مشاركةُ غيره فيها. إن عليه أن يضع ضوابط العمل الدعويِّ للدعاة؛ وإعطاءَ التوجيهات اللازمة لهم فيما يلاقونه من صعاب وعقبات في عملهم، ولا يباشرَ نفسَ أعمالهم إلا بقدر ما تقضي به الضرورة، ولا يتعارض مع واجباته الأصلية الدعوية، وهي كثيرة عادة.

١١٥٥- قد يشارك القائد جنوده في جهادهم القتالي:

قلنا في الفقرة السابقة: إن الحفاظ على سلامة القائد أمر مشروع ومطلوب،

ولتحقيق ذلك قلنا يجب أن يكون في مأمن مما قد يتعرض له جنوده، وبنينا قولنا على أساس بناء عريش لرسول الله ﷺ في معركة بدر، وقسنا على ذلك ضرورة الحفاظ على سلامة أمير جماعة الدعاة، ولغرض تأمين الحماية له والسلامة من المخاطر. قلنا يجوز إعفاؤه من مباشرة الأعمال بنفسه إذا لم تكن هناك ضرورة، فإذا وجدت الضرورة أو المصلحة الراجحة في مشاركة القائد جنوده في جهادهم وقتالهم في الحرب جازت هذه المشاركة، وكذا القول في مشاركة أمير الجماعة؛ جماعة الدعاة، إخوانه الدعاة في أعمال معينة من أعمال الدعوة، للمصلحة الراجحة، فتجوز المشاركة أو تترجح أو تجب حسب الظروف والأحوال. وعلى هذا الأساس نفهم وجه مشاركة رسول الله ﷺ لجنوده في أعمال القتال في معارك بدر وأحد وحنين، وفي خروجه معهم في غزوة تبوك كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى. فإذا جازت هذه المشاركة في القتال. كما حصلت من سيدنا محمد ﷺ للمصلحة في هذه المشاركة، فجوازها لأمير جماعة الدعاة فيما دون القتال أولى. ولكن يجب أن يكون مفهوماً ومعلوماً أن تقدير المصلحة الداعية إلى مشاركة الأمير في بعض أعمال الدعوة، يرجع - أي تقدير هذه المصلحة - لأمير الجماعة بعد مشاورة أهل الشورى في جماعته.

١١٥٦- الأخذ بالقرائن:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ سأل الغلامين اللذين جيء بهما إلى رسول الله وكانا يستقيان لجيش قريش، سألهما عن عددهم فقالا: لا نعلم، فسألهما: كم ينحرون كل يوم، فقالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. فاستدل بذلك على أن عددهم بين التسعمائة والألف، وكان الأمر كما قال ﷺ. فعلى الدعاة وجماعتهم الاستدلال بالقرائن على ما يريدون معرفته من الأمور، وأن لا يتحرجوا من الأخذ بها بحجة أن القرائن لا تعطينا يقيناً وإنما ظناً، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، لأن غلبة الظن تنزل في المعاملات منزلة اليقين، والقرائن تعطينا غلبة الظن وهذا يكفي. ثم إن الأخذ بالقرائن في مجال الدعوة وأعمالها محمولٌ على الأخذ بالاحتياط وبالحذر وهما من الأمور المشروعة وليس فيهما شيء ممنوع شرعاً. ومن موجبات أو من دواعي الأخذ بالقرائن وبالتالي الأخذ بالاحتياط والحذر أنه قد يندس في صفوف

جماعة الدعاة من ليس منهم، ليتجسّسَ عليهم أو ليكيد لهم، وقد تظهر قرائن على سوء نية هذا المندس وخبث قصده، ومن هذه القرائن أقواله المريبة وأفعاله وحركاته التي يمكن الاستدلال بها على باطنه، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن المنافقين يمكن معرفتهم في لحن القول، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[٢٢٨٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ أي في لحنه وأسلوبه. وقيل اللحن: أن تلحن بكلامك أي تميلُهُ إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية[٢٢٨٥]. وفي تفسير ابن عطية: لحن القول معناه مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا كما يقول لك إنسان قولاً معتقداً له وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول. أو ما يفهمه عنك صاحبك ويخفى على غيرك[٢٢٨٦]. فلا حرج على الداعية أو الدعاة أو جماعتهم أن يأخذوا بالقرائن التي تثير الشكوك والريب في بعض المندسين في صفوف الجماعة فيحتاطوا للأمر فلا يظهروهم على أعمال الجماعة، ولا يكلفوهم بأعمال الدعوة، ويراقبوهم عن بعد حتى ينكشف أمرهم ولا يُؤخَذوا من قبلهم.

١١٥٧- النظام والتنظيم في العمل الجماعي:

ذكرنا أن النبي ﷺ نظم جيشه في صفوف وذلك في صبيحة يوم ١٧ رمضان وهو يوم معركة بدر، مما يشير إلى أن التنظيم لا بد منه في كل عمل جماعي كالقتال وما دونه، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يضبطوا أعمالهم الدعوية بنظام وتنظيم، لا أن تصدر أعمالهم الدعوية عفوية من غير منهج ولا هدف ولا نظام ولا تنظيم، إن العمل المنظم الصادر بموجب منهج محدد يؤتي من الفوائد والثمار وإن كان قليلاً ما لا يؤتيه العمل المنفلت غير المنظم وإن كان كثيراً.

(٢٢٨٤) سورة محمد الآية ٢٩-٣٠.

(٢٢٨٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٢٧.

(٢٢٨٦) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤١٥، ٤١٧. وفي تفسير القاسمي ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾: أي أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به: تفسير القاسمي ج١٥ ص٥٨.

١١٥٨- التحريض والتشجيع على أعمال الدعوة:

لقد ذكرنا تحريض رسول الله ﷺ على القتال، وأنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم وهم في ساحة قتال معركة بدر محرضاً لهم ومشجعاً على القتال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، فعلى أمير جماعة الدعاة أن يحرض إخوانه أفراد جماعته ويشجعهم على أعمال الدعوة؛ مذكراً إياهم بأن لهم الجنة إن شاء الله تعالى. إن النفوس والهمم قد تفتر وتكسل عن العمل الدعوي فتحتاج إلى شحنة إيمانية تعيد لها حرارة الإيمان؛ وذلك بتذكيرهم بجزاء العاملين في الدعوة إلى الله، وبأن من سبقهم جاهدوا وجادوا بأنفسهم؛ وأنهم اليوم يجاهدون بالكلمة الطيبة وهي على كل حال أيسر من الجهاد بالنفس، وأن أجرهم على جهادهم مضمون ومدخّر عند رب العالمين؛ وسيُعطَوْنَهُ أحوج ما يكونون إليه، يعطونَهُ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

١١٥٩- عوامل نصر الدعوة والدعاة:

وعلى الدعاة وأمير جماعتهم أن يتذكروا ما بيَّنَهُ الله تعالى من عوامل نصر المؤمنين، وذلك في الآيات التي وردت في سياق ما نزل بشأن معركة بدر، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ، وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، فعوامل النصر على الكفار ثبات في مواجهتم، ودوام الاتصال بالله بدوام ذكره، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع والاختلاف؛ والصبرُ بالله ولله، وإخلاص العمل لله، وهذه هي عوامل نصر المسلمين على الكفار وهي نفسها عوامل نصر الدعوة والدعاة إلى الله.

١١٦٠- أولاً- الثبات:

الآية التي ذكرناها تخاطب المؤمنين، وتأمرهم بالثبات أمام الكفار في مواجهتهم لهم بالقتال، وعدم الفرار من أمامهم؛ لأنهم على الحق ويدافعون عن

الحق، وخصومهم على الباطل ويدافعون عن الباطل، فهم أولى بالثبات منهم، وإذا كان هذا الثبات مطلوباً من المسلمين في القتال، فهو مطلوب من الدعاة من باب أولى؛ لأن جهادهم بالكلمة أيسر من الجهاد بالقتال. فلا يجوز للدعاة وجماعتهم أن يفروا من أمام خصومهم ويتركوا جهادهم القولي. نعم؛ قد يضطرون إلى ترك العلانية وغيرها من صيغ تبليغ الدعوة، والاستعاضة عنها بصيغ أخرى، ولكن لا يجوز لهم مطلقاً ترك جهادهم القولي، أي تبليغ الدعوة ما دام هناك سعة للتبليغ بصيغة تناسب الظروف والأحوال. إن على جماعة الدعاة أن تذكّر أفرادها بأن مما يشين الداعية ولا يليق به أن يترك الساحة لأهل الباطل يعبثون بها ويملؤون الدنيا بضجيج باطلهم، وهو ساكت يبخل عن الدعوة بكلمة حق يقولها فراراً منه أمام أهل الباطل.

١١٦١- ثانياً- دوام الاتصال بالله بدوام ذكره:

الآية الكريمة تخاطب المؤمنين وهم في ساحة القتال أن يذكروا الله كثيراً، بقلوبهم وبألسنتهم؛ وبما يستحضرونه في آذانهم من وعد الله للمؤمنين بالنصر والتأييد، وإن من كان الله معه فهو المُؤَيَّدُ المنصورُ.. فهذا الذكر الدائم هو الذي يجعل المسلم باتصال دائم بربه القوي العزيز، وبهذا الاتصال الدائم يحس الداعية بمعية الله له، وبرجاء يملأ قلبه بأن الله ناصره وناصر دعوته على الباطل وأهله.

١١٦٢- ثالثاً- طاعة الله ورسوله:

وطاعتهما تكون باتباع ما أمر الله به في كتابه العزيز، وما أمر به رسوله ﷺ في سنته المطهرة. ومن هذا الأوامر ما يتعلق بالدعوة وتبليغها وما تقتضيه وتستلزمه من وسائل وأساليب التبليغ الفردي أو عن طريق الجماعة، وما يقتضيه العمل الجماعي من طاعة لأمير الجماعة بالمعروف؛ لأن طاعته بالمعروف طاعة لله ولرسوله ﷺ، وبهذه الطاعة الرشيدة الشرعية تنجو الجماعة من الفرقةِ والاختلاف، وتتحقق الأخوة الإيمانية ووحدة القلوب، فينالها من عون الله وتأييده الشيء الكثير إن شاء الله تعالى؛ لأن يد الله مع الجماعة.

١١٦٣- رابعاً- عدم التنازع والاختلاف:

لا أضرَّ على الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، من التنازع أو الاختلاف؛ ولهذا حذرنا الله منه، وقدَّم الأمر بطاعة الله ورسوله على النهي عنه، مما يُشعِر بأن العاصم من التنازع والاختلاف المقيتِ هو الالتزام بطاعة الله ورسوله، هذه الطاعة التي تستلزم طاعة أمير جماعة الدعاة فيما يأمر به من معروف أي في غير معصية الله تعالى، وطاعته في هذه الحالة في حقيقتها وجوهرها طاعة لله ولرسوله، فلا يجوز لأفراد جماعة الدعاة أن يمتنعوا من طاعة أميرهم في المعروف؛ لأنها كما قلت هي في جوهرها طاعة لله ولرسوله، وعليهم أن يعتبروها كطاعة المأموم في صلاة الجماعة لإمام الجماعة في متابعته له. وليفرق أفراد الجماعة بين إبداء الرأي وبين الرأي الواجب الأخذ به. فإبداء الرأي مشروع غير ممنوع، وهو حق لأفراد الجماعة، ولكن الرأي المطاع هو رأي أمير الجماعة لا رأيُ غيره ما دام في حدود المشروع.

١١٦٤- خامساً- الصبر:

والصبر ضروري لكل عامل يريد الوصول إلى هدفه وغايته، والدعاة أحوج من غيرهم إلى الصبر ومصابرة خصومهم حتى يصلوا إلى هدفهم وغايتهم؛ لأنهم بهذا الصبر والمصابرة يكونون أكثر ثباتاً، وأقرب إلى الفوز من خصومهم. وعلى الدعاة أن يجعلوا صبرهم بالله ولله، يجعلوه بالله أي يستعينوا بالله ليصبّرهم، ويجعلوه لله أي في سبيل مرضاة الله. وبدون هذا الصبر ربما يصيب الدعاة فتور وكسل ثم قعود عن العمل للدعوة، لما يلاقونه من أذى في سبيل دعوتهم، وعقبات في طريقهم، ولذلك يقرن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر؛ لحاجة القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر إلى الصبر.

١١٦٥- سادساً- إخلاص العمل لله:

إن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صحيحاً وخالصاً لوجه الله تعالى. ويكون صحيحاً إذا كان وفق الشرع، ويكون خالصاً لله إذا لم يشرك العاملُ غيرَ الله في عمله، أي أن يكون خالياً من الرياء، فعلى الدعاة أن يحرصوا على جعل أي

عمل يقومون به من أعمال الدعوة خالصاً لوجه الله وطلباً لمرضاته، وطاعة له، حتى يبارك الله في أعمالهم ويسدد خطاهم ويمدهم بعون من عنده.

١١٦٦- وما النصر إلا من عند الله:

على الدعاة أن يفقهوا هذه الحقيقة الواضحة وهي: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦، الأنفال:١٠] مهما باشر المسلمون من أسباب فهذه الحقيقة باقية، وهي ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إن على الدعاة أن يأخذوا بأسباب نجاح دعوتهم وهذا شيء حسن ومطلوب شرعاً، ولكنَّ اعتمادهم في بلوغ الهدف على الله وليس على ما يباشرونه من أسباب. وقد أرشدتنا إلى هذه الحقيقة مواقف رسول الله ﷺ في معركة بدر، فبعد أن نظم رسول الله ﷺ جيشه وأعطاهم تعليماته، ذهب إلى عريشه وهناك دعا ربه مع إلحاح في الدعاء واستغاثة به. ومع أن الله استجاب لدعوة رسوله ﷺ فأمدّ المسلمين بالملائكة، ومع هذا الإمداد الذي أخبر المؤمنين به بقيت الحقيقة الخالدة الواضحة وهي: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بل وأعلمهم الله بها مع إخباره لهم بإمدادهم بالملائكة فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾(٢٢٨٧). إن على الدعاة أن يستحضروا هذه الحقيقة في نفوسهم ويفقهوها جيداً مع أخذهم بالأسباب، مما يجعلهم بعيدين جداً عن معاني الغرور والعجب والفخر والتلفت إلى ما عندهم. إن عليهم أن يعرفوا بأن كل ما ينالونه من نصر على خصومهم ونجاح في عملهم الدعوي هو محض فضل الله عليهم؛ وأن ما يأخذون من أسباب هي نفسها من فضل الله عليهم إذ أرشدهم إليها وهداهم إلى الأخذ بها ويسرّ لهم حصولها. والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى بوضوح؛ فينفي عن المسلمين في بدر أنهم قتلوا المشركين بقوتهم، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ لأنه هو الذي أنزل الملائكة لتعينكم وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر لكم، وقوّى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع(٢٢٨٨). فعلى الدعاة أن يستحضروا في

(٢٢٨٧) سورة الأنفال، الآيتان ٩-١٠.

(٢٢٨٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٩٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٠٧.

نفوسهم فضل الله عليهم في جميع أعمالهم، وأن لا يفتخروا بشيء منها؛ لأنها من فضل الله لا بفضلهم. وليعلموا على وجه اليقين أن كل نصر ينالونه هو محض فضل الله عليهم على وجه الحقيقة لا المجاز. وبهذا العلم والإحساس بمضمونه تزكو نفوسهم وتزكو أعمالهم، ويتطهرون من أقذار العجب بالنفس، والفخر والتعالي على الناس والغرور، فيقبلون على الناس بدعوتهم، وهم بهذا القدر من الطهارة، فيكلمونهم بتواضع ورفق ونصح، لا بفخر واستعلاء عليهم، فيكون احتمال إجابتهم كبيراً.

١١٦٧- نعم الله على الدعاة تستوجب شكره:

على الدعاة أن يتذكروا نعمة الله عليهم أن وفقهم إلى الإسلام، وجعلهم دعاة إليه، وهذا يستوجب شكره تعالى. وعليهم أن يشكروه تعالى على أي نجاح في تبليغهم الدعوة، لأن الله يثيبهم عليه، وثواب الله من أعظم نعمه على الإنسان. والذي يعينهم على شكر الله الشكر المرضي عنده هو تقواهم؛ لأن التقوى هي التي تبصّر المسلم بعظم نعِم الله عليه وبواجب الشكر لله على هذه النعم التي لا تُعَد، ولهذا ذكرّ الله تعالى المسلمين بنعمة النصر عليهم في معركة بدر، وأمرهم بتقوى الله حتى يمكنهم شكر الله كما يجب، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢٢٨٩).

١١٦٨- من كثَّر سواد أعداء الدعوة عومل مثلهم:

وعلى الدعاة وجماعتهم أن يكونوا حازمين فلا يسمحوا لأحد أن يكثّر سواد أعداء الدعوة، فيكون معهم مكثراً عددهم مدعياً أنه ليس منهم، فهذا التكثير والادعاء غير مقبول منه، ولا يجوز أن تتساهل فيه جماعة الدعاة، أو تقبله أو تغضّ الطرف عنه؛ لأنه يخلط الأمور، ويمنع التمايز بين المسلمين الدعاة إلى الله وبين القاعدين والمخذلين والكارهين للدعوة أو الأعداء لها. ثم إن في السماح للشخص بأن يكون مع خصوم الدعوة، يغشىٰ مجالسهم وأنديتهم وتجمعهم، ويشاركهم بحضوره في أعمالهم ضد الدعوة، يدفع الآخرين إلى أن يفعلوا نفس هذا الفعل.

(٢٢٨٩) سورة آل عمران، الآية ١٢٣.

فعلى جماعة الدعاة أن تعامل هؤلاء الأشخاص معاملتهم لخصوم الدعوة. ودليلنا على ذلك ما ذكرناه من قبل في قصة أسرى بدر، فقد جاء في أخبارها أن النبي ﷺ قال لعمه العباس وقد كان من أسرى بدر: «يا عباس افدِ نفسكَ». فقال: «إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني» أي إن قريشاً أكرهتني على الخروج معهم لقتالكم- فقال ﷺ: الله أعلم بما تقول، إن كنت تقول حقاً فإن الله يجزيك، ولكنَّ ظاهر أمرك أنك كنت علينا[٢٢٩٠]. فعامله النبي ﷺ معاملة أسرى المشركين فأخذ منه الفدية.

١١٦٩- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم:

قد يحب المسلم شيئاً ويؤثره على غيره، وقد يكره شيئاً ويؤثر غيره عليه، ويكون الخير فيما يكرهه لا فيما يحبه. وهذا ما وقع في الأحداث التي سبقت معركة بدر، فقد خرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين للتصدي لعير قريش «قافلتهم»، وقال لهم رسول الله ﷺ: عسى الله أن ينفلكموها بالاستيلاء عليها، ولكن العيرَ أفلتت، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن الله وعدني إحدى الطائفتين: العير، أو النفير- جموع قريش- فكان ميل المسلمين أن تكون لهم العير لا النفير لسهولة الإستيلاء عليها، ولم يتبين لهم آنذاك الخير العظيمُ الذي سيتحقق لهم في مواجهتهم لنفير قريش والتغلب عليهم، وكسر شوكتهم، وإعلاء كلمة الحق، وتقوية نفوس المسلمين، وإرهاب أعداء الإسلام؛ إلى غير ذلك من النتائج الحميدة، التي ما كان يمكن أن تحصل لو كان نصيب المسلمين الاستيلاء على عير قريش، وقد أشار القرآن إلى ما قلناه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢٢٩١]. فعلى الدعاة وجماعتهم أن يؤثروا دائماً ما فيه الخير وما هو الأصلح والأنفع للدعوة وإن كان فيه شيء من الصعوبة والمشقة؛ لأن الأصلح والأنفع للدعوة هو ما يحبه الله. والشأن في السملم أن يؤثر ما يحبه الله على ما تحبه نفسه وإن كان ما تحبه نفسه مباحاً.

(٢٢٩٠) انظر الفقرة ١١٣٥.

(٢٢٩١) سورة الأنفال، الآية ٧.

١١٧٠- كيف نعرف أن الخير فيما نكرهه لا فيما نحبه:

وقد يقول قائل: كيف لنا أنَّ نعرف أن الخير فيما نكرهه والشر فيما نحبه، وهل كل ما نكرهه يكون فيه الخير وكل ما نحبه يكون فيه الشر؟ والجواب: لا شك أن معرفة ذلك قد تصعب؛ لأن ما هو الأصلح للدعوة والذي فيه الخير لها قد يدقُّ جداً ولا يظهر ظهوراً بيناً، وقد يلتبس بغيره، ولكن مع هذا لا تستحيل معرفته. وسبيل معرفته أن يعرض الدعاة ما يحبونه ويؤثرونه على غيره مع هذا الغير الذي يكرهونه ونتائج فعل كل منهما، أن يعرضوا ذلك كله على معاني الإسلام ومقاصد الدعوة إلى الله، يعرضوا ذلك بتجرد وموضوعية متجردين من أهواء النفس؛ ملاحظين فقط ما ينفع الدعوة ويحقق مقاصدها، ومتضرعين إلى الله أن يلهمهم الصواب، ويقولون في تضرعهم ودعائهم ما كان يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية في دعائه وتضرعه إلى الله: «يا معلم إبراهيم علمني» فإذا فعلوا ذلك، فالغالب إن شاء الله تعالى أن يوفقوا إلى الصواب ويختاروا ما فيه الخير وما هو الأصلح والأنفع للدعوة.

١١٧١- الأخذ بالاجتهاد المرجوح في تقدير مصلحة الدعوة:

وقد تدقُّ المصلحة الحقيقة للدعوة أو يدق ما هو الأصلح لها إلى حدّ الأخذ بالاجتهاد المرجوح في تقدير مصلحة الدعوة، أو تقدير ما هو الأصلح لها، ومن أمثلة ذلك أخذ الفداء من أسرى المشركين فقد تبين مما أنزله الله تعالى أن أخذ الفداء كان من قبيل الاجتهاد المرجوح بدليل وقوع العتاب عليه، إذ كان الراجح عدم أخذ الفداء منهم[٢٢٩٢]. ولم يؤاخذهم الله عليه، لأنه لم يكن قد نزل وحيّ بحكم الأسرى، فكان ما فعلوه في هذه الحالة من قبيل الاجتهاد السائغ وإن لم يوفقوا فيه إلى الراجح أو إلى الصواب.

١١٧٢- ما تفعله جماعة الدعاة فيما لا نصّ فيه:

وبناء على ما ذكرته في الفقرة السابقة، فإذا واجهت الدعاةَ أو جماعتَهم أحداثٌ لا يوجد لها حكم شرعي صريح، جاز لهم الاجتهاد لمعرفة الحكم الشرعي في ضوء اجتهادهم، وفق ضوابط الاجتهاد السائغ المقبول. فإذا أخذت جماعة الدعاةِ برأي

(٢٢٩٢) انظر الفقرة ١١٣٦.

ما في مسائل الاجتهاد، فعلى أفراد الجماعة أن يعملوا بهذا الرأي الذي توصلت إليه باجتهادها، وينفذوه كأنه رأيهم، ولا يسوغ لأفراد الجماعة أن يخالفوا هذا الرأي الاجتهادي للجماعة، ولا أن يشيعوا بين أفراد الجماعة أن هذا الرأي خطأ، وأننا ننفذه مكرهين، فهذا القول محظور شرعاً؛ لأن فيه إضعافاً لوحدة الجماعة وبالتالي مدخلاً للشيطان؛ لإحداث الفرقة والانشقاق، فليحذر الدعاة ذلك وليتذكروا أن عليهم واجب الطاعة لجماعتهم وأميرها بالمعروف، ومن الطاعة بالمعروف الطاعة في الأمور الاجتهادية، ولأن رأيهم ليس بأولى وأحق بالاتباع من رأي الجماعة وأميرها.

١١٧٣- التصفية الجسدية للدعاة:

ذكرنا اتفاق صفوان وعمير على قيام الأخير باغتيال رسول الله ﷺ، لقاء مكافأة يقدمها صفوان له، وهذا يدلنا على أن أعداء الإسلام لا يكتفون برفض الإسلام أو الدعوة إليه بل يريدون قتل حملته ودعاته، ولا يسلم من إرادتهم الشريرة هذه حتى رسول الله ﷺ، فقد أرادوا قتله وهو بمكة، وأرادوا قتله بعد هجرته إلى المدينة. فعلى الدعاة أن يضعوا في حسابهم أن أعداء الدعوة قد يبلغ بهم الحقد، وبغض الدعوة والدعاة إلى حدّ العمل الحثيث، والسعي الخبيث إلى تصفيتهم جسدياً، بحبك المؤامرات لاغتيالهم. فعلى الدعاة أن يحذروهم، لأن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة إليها أنفسهم، وتدبير المؤامرات لقتلهم. وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ غرضهم الخسيس هذا: قتل الدعاة. وقد يكون أعداء الدعوة من أصحاب السلطة والنفوذ في الدولة فيستغلون سلطانهم ومراكزهم فيلفقون التهم الباطلة التي تكون عقوبتها الإعدام بموجب قوانينهم الباطلة. وما نقوله ليس من قبيل الخيال والمبالغات وإنما هو من الواقع المتكرر هنا وهناك، فعلى الدعاة أن يكونوا حذرين جهد الإمكان والاستطاعة، ويعتمدوا على الله في حفظهم ورد كيد الأعداء عنهم، فالله هو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وليكرروا دائماً قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

١١٧٤- من أجل العقيدة يقاتل الأخ أخاه:

من أجل العقيدة قاتل المسلم أخاه المشرك في بدر؛ لأن العقيدة تعلو على ما سواها، ولأن رابطتها تعلو على رابطة النسب، فيكون الولاء لها ولمعتنقيها، والبراء ممن يرفضها ولو كان ذا رحم محرم؛ فليعرف الدعاة ذلك وليبينوه للناس، حتى لا يقعوا في العصبيّةِ الجاهلية التي يقدمونها على رابطة العقيدة الإسلامية.

١١٧٥- يُسَامَحُ أهل بدر على ما لا يُسامح عليه غيرهم، ودلالة ذلك:

أهل بدر، المسلمون الذين قاتلوا في معركتها، لهم منزلة عالية جداً في الإسلام، وعلى أساسها سومحوا بما لم يسامح غيرهم عليه، فلم يحُاسَب من صدر منهم تقصير يستوجب الحساب والعقاب، لما قدموه من تضحيات جسام في أول معركة وقعت بين المسلمين والمشركين، فاستحقوا العفو والصفح عما قد يقع منهم من زلات وسيئات، فقد عفا ﷺ عن حاطب بن بلتعة على ما صدر منه من عمل يُؤاخَذ عليه حتى قال عنه عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضربْ عنقه، لما تبيّن أنه كتب إلى قريش كتاباً يخبرهم فيه عن نية توجُّهِ النبي ﷺ والمسلمين معه إلى فتح مكة. ولكنَّ رسول الله ﷺ لم يسمح لعمر تنفيذ ما قاله، وإنما قال عليه الصلاة والسلام لعمر: لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت الجنة - أو قال: قد غفرت لكم. فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم[٢٢٩٣]. فعلى الدعاة وجماعتهم وأميرهم أن يعرفوا منازل إخوانهم وسوابقهم في الدعوة وجهادهم فيها. فيعفوا ويصفحوا عن هفواتهم وتقصيرهم في بعض الأحيان؛ وأن يغضُّوا الطرف عن هفواتهم التي قد تصدر منهم، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وحسنات الدعاة القدامى كثيرة جداً يستحقون بها العفو والصفح عما قد يصدر منهم من هفوات، وليتذكروا قصة حاطب وعفوَ الرسول ﷺ؛ فلا يستوي المجاهدون المضحُّونَ من الدعاة في أوقات الشدائد وفي بدء الدعوة مع المجاهدين الذين جاؤوا من بعدهم ولم يُمتَحنوا امتحانهم، وكلاً، يصيبه وعد الله

(٢٢٩٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٠٥.

للمجاهدين بالحسنى إن شاء الله، ولكن هي العدالة وما تستلزمه من إعطاء كل ذي حق حقه، وإنزال كل مسلم منزلته التي يستحقها في ضوء جهاده في مجال الدعوة.



الفصل السابع
غـــزوة أُحُـــد

١١٧٦ - تمهيد وتقسيم:

غزوة أحد أو معركة أحد وقعت بعد غزوة بدر، وفيها من العبر والعظات ما يجب على الدعاة وجماعتهم معرفته وعدم إغفاله، وقد رأيت تقسيم هذا الفصل إلى مباحث حتى يسهل الوقوف بحوادث ووقائع هذه الغزوة وما سبقها وما لحقها. ثم أبين المستفاد من ذلك كله للدعوة والدعاة. وعلى هذا جاءت مباحث هذا الفصل على النحو التالي:

المبحث الأول - أسباب هذه الغزوة والإعداد لها.
المبحث الثاني - خروج النبي ﷺ لملاقاة العدو.
المبحث الثالث - النبي ﷺ وأصحابه في ساحة المعركة.
المبحث الرابع - نشوب القتال وما جرى فيه.
المبحث الخامس - ما نزل من القرآن بشأنِ معركةِ أحدٍ.
المبحث السادس - المستفاد من غزوة أحد للدعوة والدعاة.

البحث الأول

أسباب غزوة أحد والإعداد لها

١١٧٧ - أسباب غزوة أحد وإعداد قريش لها:

سميت غزوة أحد، أو معركة أحد، لأنها وقعت بقرب جبل أحد، وهو يبعد عن المدينة بما يقرب من فرسخ، وقد وقعت هذه المعركة في السنة الثالثة للهجرة، وكان من أهم أسبابها ما أصاب قريشاً من هزيمة منكرة وقتلٍ لآكابرها في معركة بدر، فأرادوا الانتقام من المسلمين في معركة يعدون لها ما استطاعوا من القوة. وكان رئيس المحرضين لقتالِ المسلمين أبو سفيان، فراح يحرض الناس على الانتقام من المسلمين، وطلب هو وغيره من أهل مكة التبرع بما لهم من أموال في قافلته التي أفلتت من المسلمين، وكانت هي سبب القتال في معركة بدر، فقبلوا بالتبرع للمشاركة في إعداد الحملة لقتال المسلمين، كما تبرع أبو سفيان وغيره بأموالهم سواء التي لهم في القافلة التي أفلتت من المسلمين أو من غيرها، وذلك لغرض الإنفاقِ على إعداد الجيش لقتال المسلمين[٢٢٩٤]. وفي هؤلاء المنفقين أموالهم لإعداد الجيش لقتال المسلمين نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ، لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٢٢٩٥]. وقد جاء في سبب نزولها: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع أبو سفيان بعيره - بقافلته - كلّم بعضهم أبا سفيان ومن كانت له أموال في تلك القافلة؛ بالتبرع بهذه الأموال لمحاربة المسلمين وصد الناس عن اتّباع سبيل محمد ﷺ وهو سبيل الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية أو الآيتين، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن

(٢٢٩٤) الرحيق المختوم ص٢٢٤.

(٢٢٩٥) سورة الأنفال الآيتان ٣٦،٣٧.

عينية وقتادة والسدي أنها نزلت في أبي سفيان وإنفاقه الأموال لقتال المسلمين. وقال ابن كثير: هي عامة وإن كان سبب نزولها خاصاً[٢٢٩٦].

١١٧٨- قريش تستعين بالشعراء:

وكان من شدة حقد قريش على المسلمين وعزمها على محاربتهم أن صفوان بن أمية أغرى الشاعر أبا عزة على القيام بتحريض القبائل ضد المسلمين، ووعده بمكافأة مجزية إن فعل ذلك. علماً بأن أبا عزّة كان أسيراً مع أسرى بدر وأطلق النبي ﷺ سراحه بغير فداء، وأخذ منه عهداً بأن لا يقوم بشيء ضد المسلمين. فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تثير الحماس فيهم على مساعدة قريش فيما تعده لمحاربة المسلمين، وكذلك اختارت قريش شاعراً لنفس الغرض هو مسافع بن عبد مناف الجمحي[٢٢٩٧].

١١٧٩- إكمال إعداد جيش قريش:

وبعد سنة من التحريض على قتال المسلمين استطاعت قريش أن تجمّع جيشاً من رجالها وحلفائها بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل مع ثلثمائة بعير ومائتي فرس. وقد رأوا إخراج النساء معهم ليكون ذلك أبلغ في استماته الجند على القتال. ثم تحرك الجيش نحو المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، بقيادة أبي سفيان، وقد جعل خالد بن الوليد على قيادة الفرسان[٢٢٩٨].

١١٨٠- العباس يخبر الرسول ﷺ بتحرك جيش قريش:

وكان العباس في مكة وهو يراقب ما تفعله قريش، فلما أتمّت إعداد الجيش وأمرته بالتوجه إلى المدينة أرسل العباس رسولاً على عجل ليبلغ رسول الله ﷺ بذلك. وقد وصل رسول العباس إلى المدينة وسلّم الرسالة إلى النبي ﷺ فقرأها عليه أبيّ بن كعب وأمره بكتمانها[٢٢٩٩].

(٢٢٩٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠٧.

(٢٢٩٧) الرحيق المختوم ص٢٢٤.

(٢٢٩٨) الرحيق المختوم ص٢٢٥.

(٢٢٩٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٧.

١١٨١- وصول جيش المشركين إلى أحد:

وصل جيش المشركين، جيش قريش، الذي جمعته، وصل إلى جبل أحد قريباً من المدينة، وكان ذلك في ٦ شوال من السنة الثالثة للهجرة. وكانت أخبار هذا الجيش وتحركاته تصل إلى النبي ﷺ عن طريق من يرسلهم لاستكشاف أخباره، فجاءت أخبار هؤلاء المُرسَلين تؤكد ما أخبره به العباس، وتفيد بأن جيش المشركين قد اقترب من المدينة، ونزل فعلاً بالقرب من جبل أحد، مما جعل المسلمين في المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارقهم سلاحهم حتى وهم في الصلاة. وقامت جماعة من المسلمين في المبيت في المسجد وعلى باب بيت رسول الله ﷺ ومعهم سلاحهم لحراسة رسول الله ﷺ. كما قامت جماعات من المسلمين على مداخل المدينة ترصد العدو لئلا يتسلل إلى المدينة ويأخذ أهلها على حين غرة وغفلة منهم[٢٣٠٠].

١١٨٢- النبي ﷺ يشاور أصحابه[٢٣٠١]:

ولما تبيّن للنبي ﷺ أن جيش المشركين صار قريباً من المدينة، وأن القتال أصبح لا مفرَّ منه، شاور ﷺ أصحابه في الأمر، فكان ذلك في يوم الجمعة، وكان ﷺ قد رأى رؤيا ليلة الجمعة قصّها على أصحابه فقال لهم: «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تُذَبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة». وتأول ﷺ البقر بنفر من أصحابه يُقتَلون. وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيتِهِ. وتأول الدرع بالمدينة، فمن ثَمَّ كان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة والتحصن فيها، فإن دخل عليهم العدو قاتلوه. ورأى هذا الرأي شيوخُ المهاجرين والأنصار، وكان هذا أيضاً رأيَ عبد الله بن أبي بن سلول باعتباره من زعماء الخزرج، ولكن الكثيرين ولا سيما الشباب منهم ممن لم يشهد بدراً أو شهدها وأمتعهم الله بالنصر، قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ولا يرون أنّا قد جبنّا عنهم. ثم دخل بيته عليه الصلاة والسلام فلبس لأمته - عدة الحرب كالدرع ونحوها

(٢٣٠٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٧-١٨٨.

(٢٣٠١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٠، صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٤٦، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٨، الرحيق المختوم ص٢٢٦-٢٢٧.

- ثم خرج عليهم، فلما رآه الذين أشاروا بالخروج ندموا، وقالوا: يا رسول الله لقد ألححنا بالخروج ولم يكن لنا ذلك، يا رسول الله إن شئت أن نمكث في المدينة، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له» وفي رواية: «ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

المبحث الثاني

خروج النبي وأصحابه لملاقاة العدو

١١٨٣- الإعلام بخروج النبي ﷺ:

ثم أذَّنَ مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج، فخرج ﷺ بألف من الصحابة، وقد جعلهم ثلاث كتائب: كتيبة المهاجرين وأعطى لواءها إلى مصعب بن عمير، وكتيبة الأوس من الأنصار وأعطى لواءها أسيد بن حضير، وكتيبة الخزرج من الأنصار وأعطى لواءها الحبّاب بن المنذر[٢٣٠٢].

١١٨٤- إنا لا نستعين بكافر على مشرك:

وفي طريق سيره ﷺ رأى عليه الصلاة والسلام كتيبة كثيرة العدد وافرة السلاح منفردة عن جيش المسلمين، فسأل عنها فقيل له: إنهم من اليهود حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول، يرغبون في المساهمة مع المسلمين في قتال المشركين، فقال ﷺ: هل أسلموا؟ فقالوا: لا، يا رسول الله. فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم، إنا لا نستعين بكافر على مشرك»[٢٣٠٣].

١١٨٥- إرجاع النبي الصغار في جيشه[٢٣٠٤]:

ولما وصل النبي ﷺ وجيشه إلى مكان يسمى «الشيخان» استعرض عليه الصلاة والسلام جيشه، فأخرج منه من رآه صغيراً لا يطيق القتال وكان قد لحق بالجيش وانضم إليه وخرج معه، وكان من هؤلاء الصغار عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت بن أرقم وغيرهم. وأجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج وأبقاه في الجيش؛ لأنه كان ماهراً في رماية النبل بالرغم من صغر سنه، وقد كان في

(٢٣٠٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٩، الرحيق المختوم ص٢٢٨.

(٢٣٠٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٩، الرحيق المختوم ص٢٢٨.

(٢٣٠٤) الرحيق المختوم ص٢٢٨-٢٢٩.

الجيش فتى هو سمرة بن جندب، احتج على عدم قبوله في الجيش مع قبول رافعٍ مع أنه أقوى منه وأنه يستطيع أن يصرعه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعاهما وأمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا فصرع سمرة رافعاً، فأجاز النبي ﷺ سمرة وأبقاه في الجيش.

١١٨٦- انسحاب عبد الله بن أبي وأصحابه من جيش المسلمين:

فلما وصل النبي ﷺ وجيشه إلى (الشوط) وهو مكان بين المدينة وأحد، أظهر عبد الله بن أبي بن سلول تمرده وعصيانه وخرج وأصحابه من الجيش، وعددهم (٣٠٠) مقاتل وهو يقول: علام نقتل أنفسنا أيها الناس؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه بالبقاء في المدينة وأخذ برأي غيره. والواقع أن تمرد المنافق وأصحابه المنافقين كان مكيدة منه، وبقصد إحداث البلبلة والارتباك في صفوف المسلمين، وتقويةً لجيش الكافرين الذين كانوا على مقربة شديدة من المسلمين[٢٣٠٥].

١١٨٧- تزلزل طائفتين من المسلمين:

وقد همت طائفتان من جيش المسلمين هما بنو سلمة وبنو حارثة، همت هاتان الطائفتان أن ترجعا؛ وتخرجا من جيش المسلمين ولا تشتركا في القتال؛ لولا أن ثبتهما الله تعالى وعصمهما من الوقوع في هذه الخطيئة، قال تعالى فيهما: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢٣٠٦] والهمُّ من الطائفتينِ كان بعد خروج المنافق عبد الله بن أبي بن سلول؛ فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا فذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم[٢٣٠٧]. والظاهر أنَّ همهما كان حديث نفس كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطئها على احتمال المكروه، ولو كان الهم عزيمة لما ثبتت لهما معها الولاية والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

(٢٣٠٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٩، الرحيق المختوم ص٢٢٩.

(٢٣٠٦) سورة آل عمران، الآية ١٢٢.

(٢٣٠٧) تفسير القرطبي ج٤ ص١٨٦.

ويجوز أن يكون المراد بالآية: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فمالهما تفشلان أي تجبنانِ ولا تتوكلان على الله تعالى[٢٣٠٨].

١١٨٨- اذهبوا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم:

ولما رجع المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه المنافقون، تبعهم الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن حرام ليردهم إلى جيش المسلمين فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا رسول الله، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ونحو هذا القول. فقال له ابن سلول: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكنَّا معكم. فلما يئس منهم عبد الله قال لهم: اذهبوا أعداء الله، فسيغني الله رسوله عنكم، ومضى مع النبي ﷺ واستشهد رحمه الله[٢٣٠٩]. وفي هؤلاء المنافقين: ابن سلول وأصحابه، نزل قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[٢٣١٠]. وجاء في تفسير هاتين الآيتين: قوله تعالى: ﴿ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ الإشارة بهذا القول إلى عبد الله بن أُبي بن سلول وأصحابه المنافقين الذين خرجوا من جيش المسلمين ورجعوا إلى المدينة. ﴿ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ﴾ أي ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المسلمين وإن لم تقاتلوا معهم المشركين؛ لأن كثرة السواد - أي تكثير عدد المسلمين - مما يروّع العدو ويضعف عزيمته. قوله تعالى حكاية عن قولهم: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً ﴿ لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ يعني أن هؤلاء المنافقين الذين رجعوا عن القتال كانوا قبل ذلك اليوم يتظاهرون بالإيمان؛ فلما انسحبوا من جيش المسلمين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر[٢٣١١].

(٢٣٠٨) تفسير الكشاف ج١ ص٤٠٩-٤١٠.

(٢٣٠٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦.

(٢٣١٠) سورة آل عمران الآيتان ١٦٦، ١٦٧.

(٢٣١١) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٣٧.

المبحث الثالث
النبي ﷺ وأصحابه في ساحة المعركة

١١٨٩- تعبئة النبي جيشه:

ومضى رسول الله ﷺ وجيشه بعد رجوع المنافق ابن سلول وأصحابه، حتى وصل عليه الصلاة والسلام الشعب من أحد فجعل ظهره وجيشه إلى أحد؛ أي إلى جبل أحد. ثم بدأ بتنظيم جيشه فجعلهم صفوفاً للقتال، وعرَّفَ كلاً منهم موقعه، وقال لهم ﷺ: «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتى نأمره بالقتال». واختار ﷺ خمسين رجلاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وأقامهم فوق جبل يمنْيَنَ المقابل لجبل أحد لحماية المسلمين من خطر التفاف المشركين عليهم[٢٣١٢]. وفي هذا التنظيم نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو غدوه عليه الصلاة والسلام إلى موقع أحد[٢٣١٣].

١١٩٠- وصية رسول الله ﷺ للرماة بأن لا يتركوا أماكنهم:

أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب قال: «لقينا المشركين يومئذ - أي يوم أحد - وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا...»[٢٣١٤]. وجاءت روايات أخرى في تحذير النبي ﷺ الرماة من ترك أماكنهم مهما كان حال المسلمين، ونهاهم صراحة عن ترك مواقعهم، فمن تلك الروايات ما ذكره ابن حجر العسقلاني: أن النبي ﷺ قال للرماة: «لا تبرحوا حتى أرسل إليكم». «انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا» «لا تبرحوا وإن رأيتمونا تخطفنا الطير». «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا

(٢٣١٢) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٣٨٣.

(٢٣١٣) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٠٨، والآية في سورة آل عمران ورقمها ١٢١.

(٢٣١٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٤٩.

قد غنمنا فلا تشركونا»[٢٣١٥].

١١٩١- النبي يحرض المسلمين على القتال:

وبعد أن نظم النبي ﷺ جيشه، واختار الرماة، وأوصاهم بما أوصاهم به، حضهم على القتال ومصابرة العدو. وكان من سُبُلِ تشجيعه المسلمين على القتال أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيده سيفاً وقال من يأخذه، أي من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام أبو دجانة سِماك بن خرشة فقال: ما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، وكان من عادتِهِ أنه يختال في مشيته عند مقابلة الأعداء في الحرب؛ وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها عُرِف أنه سيقاتل، فأخرجها واعتصب بها ثم مشى متبختراً بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[٢٣١٦].

١١٩٢- محاولات العدو لإيقاع الفرقة بين المسلمين:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش أن توقع الفرقة بين المسلمين وتحدث البلبلة في صفوفهم، ومن ذلك أنَّ أبا سفيان أرسل إلى الأنصار يقول لهم: «خلّوا بيننا وبين ابن عمنا - يريد محمداً ﷺ - فننصرف عنكم فلا حاجة لنا إلى قتالكم» فردَّ عليه الأنصار بما يكره، ومحاولة أخرى من قريش لتفريق المسلمين وإحداث النزاعِ فيما بينهم فقد جاءهم كافر من المدينة يسمى أبا عامر الراهب؛ ولكن النبي ﷺ سماه (أبا عامر الفاسق)؛ لكفره وعداوته لرسول الله ﷺ؛ حتى إن عداوته بلغت به إلى حدّ أنه ذهب إلى مكة يحرض قريشاً على محاربة رسول الله، فلما جمّعتْ قريش الجموع وكونّت جيشها كان هو أول القادمين مع هذا الجيش، فلما اقترب جيش المشركين من جيش المسلمين خرج أبو عامر الفاسق وأخذ ينادي بأعلى صوته يا معشر الأوس - وكان هو منه نسباً - أنا أبو عامر، فقالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا

(٢٣١٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٩١.

(٢٣١٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٩١.

فاسق، فلما سمع ردّهم قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌ، ثم قاتلهم قتالاً شديداً ورماهم بالحجارة(٢٣١٧).

(٢٣١٧) الرحيق المختوم ص٢٣٣.

المبحث الرابع
نشوب القتال وما جرى فيه

١١٩٣- انتصار المسلمين وهزيمة المشركين في أول القتال:

وبعد الذي ذكرناه من مواجهة الجيشين، نشب القتال بين الفريقين؛ وثبت المسلمون فأنزل الله نصره عليهم وفرّ من أمامهم المشركون. روى الإمام البخاري عن البراء بن عازب أنه قال: «فلما لقينا المشركين، هربوا حتى رأيت النساء -النساء المشركات- يشتدون في الجبل؛ رفعن عن سوقهن؛ قد بدت خلاخيلهنَّ. .»[٢٣١٨].

١١٩٤- استشهاد ثلة من المسلمين:

وقد استشهد في هذا القتال، حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، قتله وحشي إذ كَمَنَ له وراء صخرة فلما دنا منه رماه بحربته فقتله غيلة. واستشهد مصعب بن عمير حامل الراية، وهو الذي كان قد أرسله النبي ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة إليها ليفقه أهلها ويعلمهم الإسلام. قال خباب: «هاجرنا إلى المدينة مع النبي ﷺ. . إلى أن قال: كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا كساءً كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلا وإذا غطي بها رجلاه خرج رأسه فقال لنا النبي ﷺ: «غطوا بها رأسه، واجعلوا الإذخر على رجليْهِ»؛ واستشهد آخرون[٢٣١٩].

١١٩٥- مخالفة الرماة لوصايا رسول الله ﷺ:

ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ اختار خمسين رجلاً، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وأجلسهم على الجبل؛ وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم مهما كانت الظروف حتى يأذن لهم. ولكن الذي حصل أن أكثر الرماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ بالرغم من تحذير أميرهم لهم، وتذكيرهم بأوامر رسول الله ﷺ، جاء في صحيح البخاري في حديث

(٢٣١٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٤٩.

(٢٣١٩) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٣٨٤.

البراء بن عازب وهو يتحدث عما جرى بعد هزيمة المشركين: «فأخذوا - أي الرماة - يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير أميرهم: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرِفَ وجوههم فأصيب سبعون قتيلا...»[٢٣٢٠] وجاء في شرح العسقلاني لهذا الحديث: وفي رواية: «فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة- أي يوم الغنيمة- ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟» وزاد: فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينَّ الناس فلنصيبَنَّ من الغنيمة»[٢٣٢١].

١١٩٦- وقوع الهزيمة بالمسلمين:

وترتب على عصيان الرماة أوامرَ رسول الله ﷺ بترك أكثرهم مواقعهم في الجبل طلباً للغنيمة، أقول: ترتب على ذلك أن خلا موضعهم من المدافعين؛ لأن ما بقي منهم لا يتجاوز العشرة مع أميرهم وهو عدد لا يكفي لحماية ظهور المسلمين من الالتفاف عليهم. وقد انتهز هذه الفرصة خالد بن الوليد وكان يومذاك مشركاً وهجم على عبد الله بن جبير ومن بقي معه من الرماة وقتلهم جميعاً، ثم اندفع خالد ومن معه على المسلمين من خلفهم وأخذوا يصيحون ليعلموا المشركين بموقعهم وبما فعلوه بالمسلمين؛ فرجع المشركون من هزيمتهم وصار المسلمون بين المشركين: من الأمام برجوع المشركين، ومن الخلف بمهاجمة خالد بن الوليد ومن معه من فرسان المشركين[٢٣٢٢].

١١٩٧- الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين[٢٣٢٣]:

لما وقع المسلمون في تطويق العدو، خالد وفرسانه من ورائهم، والمشركون الذي رجعوا من أمامهم حصل في صفوف المسلمين اضطراب وعمتهم الفوضى، وألقى كل واحد ما في يده من الغنيمة وأخذ سلاحه يدافع به عن نفسه. وإزاء هذه

(٢٣٢٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٤٩.

(٢٣٢١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٥٠.

(٢٣٢٢) الرحيق المختوم ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢٣٢٣) الرحيق المختوم ص٢٤٠-٢٤١.

الحالة صار المسلمون طوائف: طائفة فرت من المعركة وتوجهت إلى جهة المدينة حتى إن بعضها وصل إليها. وطائفة انطلقت في فرارها إلى ناحية الجبل صعوداً إلى قمته. وطائفة رجعت إلى العدو تريد قتاله ولكنها اختلطت به والتبس عليها الأمر، ولم يعد أفرادها يميزون إخوانهم من المشركين لشدة الهلع والفوضى التي عمتهم، حتى إن بعض المسلمين قتل «اليمان» أبا حذيفة بالرغم من صياحه: يا عباد الله إنه أبي، إنه أبي. ولكنَّ القوم في فورة اضطرابهم كأنهم لم يسمعوا صياحه حتى قتلوه. ومما زاد في الطين بلّة وزاد في ارتباك هذه الطائفة التي لم تفرَّ وظلت تقاتل مختلطة بالمشركين سماعها قائلاً يقول: إن محمداً قد قُتِلَ فأصابها الهلع والجزع حتى إن كثيراً منهم توقف عن القتال وألقى سلاحه.

١١٩٨- ثبات بعض المسلمين(٢٣٢٤)

ولكن من المسلمين من لم تضعفه هذه الحالة وظل متماسكاً مسيطراً على إرادته، منهم أنس بن النضر، وقد مرَّ بنفرٍ ألقوا سلاحهم فقال لهم: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ. قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني المشركين- ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرفته إلا أخته بعد انتهاء المعركة وكان فيه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم. ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال: يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم فإن الله مظهركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار فقاتلوا حتى قتلوا.

١١٩٩- الدفاع عن رسول الله ﷺ(٢٣٢٥).

لما بدأ المشركون عمل تطويق المسلمين لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر فلما نادى: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، وفي رواية: هلمَّ إليّ أنا رسول الله، سمع صوته ونداءه المشركون وعرفوه فرجعوا إليه يريدون قتله، فاستبسل في الدفاع عنه

(٢٣٢٤) الرحيق المختوم ص٢٤١.

(٢٣٢٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٩٨ وما بعدها.

النفر الذين كانوا معه فاستشهد منهم كما جاء في صحيح مسلم سبعة من الأنصار الذين كانوا معه، وبقي معه الرجلان وهما من قريش[٢٣٢٦]. وهما سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وأما سعد بن أبي وقاص فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال له: ارم فداك أبي وأمي. وأما طلحة بن عبيد الله فقد شُلَّتْ يداه إذ أصابها سهم وهو يقي بها رسول الله ﷺ. وكان من الذين دافعوا عن رسول الله ﷺ وفدوه بأنفسهم أبوطلحة؛ فقد كان يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويرفع صدره ليقيه من سهام العدو؛ ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. ومن المدافعين عن رسول الله ﷺ أبو دجانة فقد ترّسَ بنفسه على رسول الله فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح. ومنهم أيضاً السيدة نسيبة بنت كعب الأنصارية انحازت إلى النبي ﷺ لما انهزم المسلمون؛ وأخذت تباشر القتال وتذب عن النبي ﷺ بالسيف، وهي التي اعترضت مع مصعب بن عمير وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله اعترضوا ابن قمئة الذي جاء يريد قتل رسول الله ﷺ فضربها وترك بضربته جرحاً فيها؛ فضربته ضربات ولكن كان عليه درعان فلم يصبه أذى بضربها. وقد غشي عليها من جراحها فلما أفاقت قالت: أين رسول الله وما صنع المشركون معه؟ فقالوا لها: بخير وروى الواقديُّ بسنده عن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما التفت يوم أحد يميناً وشمالاً إلا وأراها- أي نسيبة بنت كعب- تقاتل دوني».

١٢٠٠- ما أصاب النبي ﷺ في معركة أحد:

«أخرج البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد، قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله وعلي يسكب الماء بالمجنِّ؛ فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرةً أخذت فاطمة قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم. وكسرت رباعيتُهُ يومئذ- أي يوم أحد- وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه». وأخرج البخاري أيضاً عن ابن عباس: «اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دمّوا وجه نبيِّ الله ﷺ». وقال ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: ومجموع ما ذكر في الأخبار عمّا أصاب النبي ﷺ في

(٢٣٢٦) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٤٧.

معركة أحد من جراحات: أنه شُجَّ وجهه؛ وكسرت رباعيته؛ وجرحت وجنته؛ وشفته السفلى من باطنها؛ وجحشت ركبته. وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قال: «اشتد غضب الله على قوم دمّوا وجه رسوله». ثم سكت ﷺ ساعة ثم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وعن ابن مسعود كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢٣٢٧].

١٢٠١- سعد بن أبي وقاص يحرص على قتل أخيه لِما فعله برسول الله:

وقال ابن حجر العسقلاني، وهو يشرح ما رواه البخاري فيما أصاب النبي ﷺ يوم أحد، قال ابن حجر: وذكر ابن هشام في حديث أبي سعيد الخدري: أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته السفلى، وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال: «فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة بن أبي وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد»[٢٣٢٨].

١٢٠٢- عدد من استشهد في أحد وكيفية دفنهم:

وبلغ عدد من استشهد في معركة أحد سبعين شهيداً؛ منهم ستة من المهاجرين وأربعةٌ وستون من الأنصار؛ «وأمر ﷺ بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ولم يغسلوا»[٢٣٢٩].

(٢٣٢٧) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٧٢- ٣٧٣ والمنتقىٰ من الترغيب والترهيب للمنذري ج٢ ص٨٠٠.

(٢٣٢٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٦٦.

(٢٣٢٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٧٤.

المبحث الخامس

ما نزل من القرآن بشأن معركة أحد

١٢٠٣- أولاً-:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢٣٣٠] وقد ذكرنا تفسير هاتين الآيتين من قبل[٢٣٣١].

١٢٠٤- ثانياً- ليس لك من الأمر شيء:

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[٢٣٣٢] جاء في تفسير القرطبي أن النبي ﷺ كسرت رباعيته في أحد وشج في رأسه فجعل يَسْلِتُ الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٢٣٣٣] وفي تفسير الزمخشري: أي أنَّ الله مالك أمرهم، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبدٌ مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم[٢٣٣٤].

١٢٠٥- ثالثاً- إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله:

قال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ

(٢٣٣٠) سورة آل عمران، والآيتان ١٢١، ١٢٢.

(٢٣٣١) الفقرة ١١٨٩.

(٢٣٣٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٨.

(٢٣٣٣) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٩.

(٢٣٣٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٣.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢٣٣٥]. والمعنى: إن نال منكم المشركون يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ. ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أوقات الظفر والغلبة نصرفها بين الناس، يكون الظفر لهؤلاء تارةً وتارةً لهؤلاء ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف، أو فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم مَنْ الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت؛ وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والتمحيص: التطهير والتصفية ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يهلكهم. يعني إن كانت الغلبة والدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم. وإن كانت الغلبة والدولة على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم[٢٣٣٦].

١٢٠٦- رابعاً- تمني القتال:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾[٢٣٣٧] أي لقد كنتم تمنون أسباب الموت من قبل أن تلقوها. وذلك أن كثيراً من المسلمين ممن لم يحضروا معركة بدر كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزم كثير منهم، وكان منهم من ثبت حتى استشهد، ومن هؤلاء أنس بن النضر. فالآية عتاب في حق من انهزم من المسلمين في معركة أحد لا سيما وكان منهم من ألحّ على رسول الله ﷺ بالخروج إلى قتال المشركين. هذا وإن تمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد؛ لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى

(٢٣٣٥) سورة آل عمران الآيتان ١٤٠،١٤١.

(٢٣٣٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٩-٤٢٠.

(٢٣٣٧) سورة آل عمران الآية ١٤٣.

إلى القتل[٢٣٣٨].

١٢٠٧- خامساً- لا بد من الثبات وإن قُتِلَ القائد:

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢٣٣٩].

لما انهزم المسلمون يوم أحد وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه وقتل مصعب بن عمير وهو يحسب أنه قتل محمداً، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فحصل فيهم ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه، وهذا ما كان يستحضره بعض المجاهدين. فقد روى ابن أبي نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: «إن كان محمد قد قتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم»، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي رجعتم القهقرىٰ، أي أدبرتم عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وإنما يضر نفسه؛ وإن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع وهو الغني عن عباده، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهم الذين لم ينقلبوا على أعقابهم بل صمدوا وثبتوا في القتال كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم شاكرين؛ لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا من صمود وثبات وصبر وقتال ومدافعة للعدو[٢٣٤٠].

١٢٠٨- سادساً- الآجال مفروغ منها:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ

(٢٣٣٨) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٢٠-٢٢١.

(٢٣٣٩) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٢٣٤٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٢-٤٢٣، تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٩-٤١٠.

﴿الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[2341]. أي لا يموت أحدٌ إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ولهذا قال: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾. وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال؛ فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض بالذين شغلتهم المغانم يوم أحد، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الجزاء المبهم الذينَ شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد[2342].

١٢٠٩- سابعاً- ثبات المسلمين في جميع الأحوال:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2343]. والمعنى: إن كثيراً من النبيين الذين خلوا أي الذين مضوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم المنتسبين إلى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وأعمالهم؛ المعتقدين أن المرسلين هداة ومعلمون لا أرباب معبودون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضَهم من الجرح، وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النبي نفسه؛ لأنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته؛ لأن حظهم من نبيّهم تبليغ رسالة الله إليهم. وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجافِ بقتل رسول الله ﷺ، وكما أنهم لم يصبْهُمُ الوهن لما أصابهم، كذلك لم يضعفوا عن الجهاد ولا استكانوا لعدوّهم، ولا ولّوا الأدبار، بل ثبتوا بعد قتل نبيهم، كما ثبتوا معه في حياته؛ لأن علة الثبات في الحالتين واحدة وهي كون الجهاد في سبيل الله. ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا . . .﴾ الخ قالوا: هذا القول وفيه إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضماً لنفوسهم واتهامها بالتقصير في جنب الله، والدعاء بالاستغفار مقدم على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب،

(٢٣٤١) سورة آل عمران الآية ١٤٥.

(٢٣٤٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٠، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٣-٤٢٤.

(٢٣٤٣) سورة آل عمران الآيات ١٤٦-١٤٨.

ليكون طلبهم التثبت والنصر على الأعداء عن زكاة وطهارة وخضوع لربهم والتجاء إليه. ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصرة والغنيمة والعزّ وطيب الذكر. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وخصّ ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المُعتَدُّ به عنده(٢٣٤٤).

١٢١٠- ثامناً- موالاة الله وطاعته؛ لا موالاة الكفرة وطاعتهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ. سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾(٢٣٤٥). ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال علي رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة في معركة أحد: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن السدّي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتطلبو منهمُ الأمان ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ إلى دينهم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي ناصركم لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته. ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة، وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا(٢٣٤٦).

١٢١١- تاسعاً- منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

(٢٣٤٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤، تفسير المنار ج٤ ص١٧١-١٧٢.

(٢٣٤٥) سورة آل عمران الآيات ١٤٩-١٥١.

(٢٣٤٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٥.

عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2347].

قال محمد بن كعب القرظيُّ: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد وقد أصيبوا، قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ إياكم بالنصر، حيث كان الظفر ابتداءً للمسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة؛ وترك بعض الرماة أيضاً مراكزهم طلباً للغنيمة؛ فكان ذلك سبب الهزيمة[2348]. ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ أي المشركين أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ أي بعنايته تعالى وتأييده لكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ أي جبنتم وضعفتم، ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أي اختلفتم، يعني الرماة حين قال بعضهم: ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون فلنترك مكاننا ونلحق الغنائم، وقال الآخرون: بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه. ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ رسولكم وقائدكم بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ يعني من النصر والظفر والغلبة التي كانت للمسلمين يوم أحد أول أمرهم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ كالرماة الذين تركوا مكانهم، وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ كالذين ثبتوا من الرماة في مكانهم مع أميرهم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة، وكان الرماة خمسين رجلاً، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ وهم ثلاثون رجلاً. ومعنى ما تقدم: إن الله صدقكم وعده بالنصر فقد كان النصر لكم ابتداءً على قلتكم وكثرة المشركين واستمر هذا النصر إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم، فعندما وصلتم إلى هذه الغاية لم تعودوا مستحقين لهذه العناية الربانية[2349]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ أي بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصالٍ صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم فانهزمتم؛ وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك؛ أي ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر، أو لأجل أن يكون ذلك ابتلاءً واختباراً لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين. ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ أي لم

(٢٣٤٧) سورة آل عمران الآية ١٥٢.

(٢٣٤٨) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٤.

(٢٣٤٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٥-٢٣٧، تفسير المنار ج٤ ص١٨٢-١٨٣.

يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة. والخطاب في الآية الكريمة قيل هو للجميع، وقيل هو: للرماة الذين خالفوا ما أمروا به، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة(٢٣٥٠).

١٢١٢- عاشراً- لكيلا تحزنوا على ما فاتكم:

قال تعالى: ﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٢٣٥١) قوله: ﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ أي ذهبتم وأبعدتم في الأرض وفي الجبل منهزمين، ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي لا تعرّجون ولا تقيمون أي: لا يلتفتُ بعضكم إلى بعض ولا إلىٰ من وراءكم لشدة الدهشة التي عرتكم والذعر الذي فاجأكم. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم إليه وأنتم مدبرون، وهو ثابت في مكانه في نفر يسير من أصحابه. وروي أنه كان يقول ﷺ: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة». ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي فجازاكم الله غماً بسبب الغم الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم، أو جازاكم غماً متصلاً بغم، يعني غم الهزيمة وغمَّ القتل والجرح وغمَّ صرخةِ الشيطانِ فيهم بأن محمداً قد قتل؛ وغم فوات النصر والغنيمة. والغم هو الألم أو الضيق في الصدر يكون من الأمر الذي يسوؤك وإن لم تتبين حقيقته أو سببه. ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي لأجل أن لا تحزنوا بعد هذا التأديب، والغم الذي أصابكم بعد الغم، لا تأسوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، ولا تحزنوا على ما أصابكم من الهزيمة والجراح، فإن التربية إنما تكون بالمران على تجرع الغموم وتحمل الصعاب(٢٣٥٢).

(٢٣٥٠) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٧، تفسير المنار ج٤ ص١٨٣.

(٢٣٥١) سورة آل عمران، الآية ١٥٣.

(٢٣٥٢) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٩-٢٤٠، تفسير المنار ج٤ ص١٨٤، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٥٥-٢٥٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٧، تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٤.

١٢١٣- أحد عشر- الأمر كله لله:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢٣٥٣). ﴿أَمَنَةً﴾ أي أمناً، ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهذه الطائفة هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلباً للأجر. ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهذه هي الطائفة الثانية وهم معتب بن قشير وأصحابه وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة وجعلوا يتأسفون على الحضور. ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي حملتهم على الهمّ، وأهمني الأمر أي أقلقني، وقيل إن المعنى: صارت أنفسهم همهم لا همَّ لهم غيرها، فلا رغبة لهم إلا نجاتها دون النبي ﷺ وأصحابه. وفي إلقاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظمة؛ لأن النعاس كان سبب أمن المؤمنين، وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم. ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي يجب أن يُظَن به، وهو ظنهم أن أمر النبي ﷺ باطل وأنه لا ينصر ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من غير الحق وهو الظن المختصُّ بملة الجاهلية، أي ظن أهل الجاهلية وأهل الشرك. ﴿يَقُولُونَ﴾ لرسول الله ﷺ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وهذا الاستفهام معناه الجحد، أي ما لنا شيء من الأمر وهو النصر والغلبة على العدو، وقيل هو الخروج أي: إنما خرجنا مكرهين فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وليس لكم ولا لغيركم منه شيء فالنصر بيد الله والظفر منه. ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يضمرون في أنفسهم ويقولون فيما بينهم بطريق الخفية، ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ من الكفر والشرك والشك في وعد الله. وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ﴾ قاعدين ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ بالمدينة كما تقولون، ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لم يكن بدٌّ من خروج من

(٢٣٥٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

كتب عليه القتل في اللوح المحفوظ إلى هذه المصارع التي صُرِعوا فيها، فإنَّ قضاء الله لا يُردُّ وحكمه لا يُعقَّب. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ﴾ أي يمتحن ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي قلوبكم من الإخلاص والنفاق، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي يخلصه وينقيه ويهذبه؛ فإن القلوب يخالطها بغلبة الطبائع وميل النفوس ما يضاد ما صار فيها من معاني الإيمان والإسلام، فلو تُرِكتْ في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يقضى لها من المحن والبلاء ما يكون كالدواء المكروه لمن عرض له داء، فكانتْ نعمته سبحانه وتعالى عليهم بهذه الهزيمة، وقتلُ من قُتِل منهم، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم(٢٣٥٤).

١٢١٤- اثنا عشر- إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(٢٣٥٥). أي إن الذين تولوا عن القتال يوم التقى جمع المسلمين وجمعُ الكفار في معركة أحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي حملهم الشيطان على الزلل - أي على هذا التولي عن القتال - بشؤم ما اكتسبوه من الذنوب كما قال بعض السلف: إن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي عما كان منهم من الفرار، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شكٍّ في وعد الله لهم بالنصر؛ ولأنهم ندموا على ما صدر منهم، وتابوا إلى الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم(٢٣٥٦).

١٢١٥- ثلاثة عشر- الذنوب سبب المصائب:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢٣٥٧). وقوله تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾

(٢٣٥٤) تفسير فتح البيان ج٢ ص٢٥٧-٣٥٩، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٦٨.

(٢٣٥٥) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

(٢٣٥٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٨، فتح البيان ج٢ ص٣٦٠، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٦٩.

(٢٣٥٧) سورة آل عمران الآية ١٦٥.

وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل سبعين منهم - أي من المسلمين - ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يعني يوم بدر فإن المسلمين قد قتلوا من المشركين سبعين رجلاً وأسروا سبعين أسيراً، ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي من أين جرى علينا هذا، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي قل يا محمد جواباً لسؤالهم: إن هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل حال. قال ابن القيم: وذكر سبحانه هذا المعنى بعينه فيما هو أعم من ذلك في السورة المكية ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾(٢٣٥٨).

١٢١٦- أربعة عشر- حكمة ما أصاب المسلمين يوم أحد:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾(٢٣٥٩). أي وما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة فبعلم الله وقضائه وقدره؛ ليميّز المؤمنين من المنافقين؛ أو ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم في القتال، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشماتة بالمؤمنين؛ أو ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية، يتميز في أحد الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً. والإشارة بقوله تعالى: ﴿ نَافَقُوا، وَقِيلَ لَهُمْ﴾ هي إلى عبد الله بن أبي رأس المنافقين وأصحابه الذين انصرفوا معه عن نصرة النبي ﷺ وكانوا ثلثمائة، فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما يخيف العدو ويكسر من حدته وقوته. ووجه آخر في تفسير قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يعنون أنَّ ما أنتم فيه - أيها المسلمون المجاهدون - لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال؛ إنما هو إلقاء بالأنفس إلى

(٢٣٥٨) تفسير القاسمي ج٤ ص٢٨٥، والآية التي ذكرها ابن القيم في سورة الشورى ورقمها ٣٠.

(٢٣٥٩) سورة آل عمران الآيتان ١٦٦، ١٦٧.

التهلكة، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يعني أن هؤلاء المنافقين قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أَمارة تعلم المؤمنين بكفرهم، فلما انسحبوا من صفوف المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانسحاب منهم تقوية للمشركين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً. وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأنَّ إيمانهم موجود في أفواههم، معدوم في قلوبهم، خلاف صفةِ المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم، وتخطئة رأيهم، والشماتة بهم، وغير ذلك؛ لأنكم أيها المؤمنون تعلمون بعض ذلك منهم علماً مجملاً بأمارات وأنا أعلمُهُ كُلَّه عِلْمَ إحاطة بتفاصيله(٢٣٦٠).

١٢١٧- خمسة عشر- لا بد من التمايز بين المؤمنين والمنافقين:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢٣٦١). كان من بعض الحكم والغايات المحمودة التي حصلت في وقعة أحد تمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وبيان ذلك: أن المسلمين لما أظهرهم الله تعالى على أعدائهم في معركة بدر، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبَّب لعباده المؤمنين محنة ميزت بين المؤمن والكافر، وكانت تلك المحنة ما أصاب المسلمين في معركة أحد، فأطلع المنافقون رؤوسهم وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وعاد تلويحهم تصريحاً، وهكذا انقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم وهو معهم لا يفارقهم فاستعدّوا له وتحرزوا منه، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ما كان الله

(٢٣٦٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٣٧-٤٣٨، تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٥-٢٦٦، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢٣٦١) سورة آل عمران، الآية ١٧٩.

ليترك المؤمنين على الحال التي أنتم عليها من اختلاط المؤمنين الخلص بالمنافقين. ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي ما كان ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب الذي يميز به ما في قلوب الخلق من الإيمان والكفر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بإطلاعه على الغيب كما أوحى إلى النبي ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويخلصكم من سوء جوارهم[٢٣٦٢].

(٢٣٦٢) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٤٥، تفسير القاسمي ج٤ ص٣٠١.

المبحث السادس
المستفاد من غزوة أحد للدعوة والدعاة

١٢١٨- المسلمون أولى بالإنفاق لدعوتهم من الكفار لباطلهم:

ذكرنا أن كفار مكة تبرعوا بأموالهم التي لهم في تجارتهم التي جاء بها أبو سفيان من الشام، تبرعوا لإعداد جيش يقاتلون به المسلمين انتقاماً لما أصابهم ببدر، وصداً عن سبيل الله بمحاربة النبي ﷺ والمسلمين، وفي إنفاقهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ . . . ﴾. فعلى الدعاة تذكير المسلمين بهذا الأسلوب القديم والحديث في محاربة الإسلام والدعاة إليه، وهو أسلوب إنفاقهم أموالهم للصد عن دعوة الإسلام، ومحاربة الدعاة إليه. عن طريق إنفاق أموالهم في طرق شتى، وأساليب مختلفة، وعلى جهات ومؤسسات متنوعة؛ لغرض صدّ الناس عن دعوة الإسلام ومحاربة الدعاة إليه. وهذا الأسلوب الذي تبعه كفار قريش، إنفاق أموالهم، لمحاربة الإسلام ودعاته عن طريق قتالهم، يفعله اليوم أعداء الإسلام ودعاتهم، يقول محمد رشيد رضا رحمه الله، وهو يفسر هذه الآية التي ذكرناها في إنفاق أموالهم للصد عن سبيل الله. قال: (ومن العبرة في هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين؛ ومن حيث أفرادهم الفوز بإحدى الحسنيين. . . والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصدّ عن الإسلام. .)[٢٣٦٣] فالكفار يبذلون أموالهم للصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب الدعاة إليه في كل أرض وفي كل حين. إن أعداء الإسلام لم يتركوا ولن يتركوا

(٢٣٦٣) تفسير المنار ج٩ ص٦١٠ وآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ . . . ﴾ الخ في سورة الأنفال ورقمها ٩.

الدعاة إليه في راحة وأمن[٢٣٦٤]. فعلى المسلمين أن يقاتلوهم بإنفاق أكثر وجهد أكبر لإفشال خططهم في محاربة الإسلام ودعاته.

١٢١٩- يجب توظيف جميع المواهب والقدرات لدعوة الإسلام:

لقد ذكرنا أن المشركين من شدة حقدهم على المسلمين وعزمهم على محاربتهم والإعداد لهذه الحرب، استعانوا بالشعراء لتحريض القبائل على قتال المسلمين ومعاونة قريش على هذا القتال[٢٣٦٥]. وعلى هذا فيجب على الدعاة حث جميع ذوي المواهب والقدرات من الأدباء والشعراء المسلمين على استعمال مواهبهم وقدراتهم الأدبية والشعرية في سبيل نصرة الإسلام والدعوة إليه. إن الإسلام ودعاته يتعرضون اليوم لحملة شرسة من أعداء الإسلام لم يشهد مثلها التاريخ من قبل، فعلى الدعاة تبصير ذوي القدرات والمواهب من المسلمين بهذا الواقع المرعب، فلا يجوز في دين الله أن يعيش الأدباء والشعراء في ترف عقلي وفي خيالات الشعراء وفي نظم القصيد في الحب والغزل ورصد الجمال وإنشاء القصص الخيالية التي تدغدغ أحاسيس الشباب والمراهقين.. حرام عليهم أن يفعلوا ذلك ولا يستعملوا شعرهم وأدبهم في الدفاع عن دينهم والدعوة إليه. فقد صار دينهم هيناً على كل من يريد أن يهاجمه بالباطل وبالافتراءات بحجة حرية الرأي.. على الدعاة أن يُبَصِّروا الأدباء والشعراء بذلك ويثيروا فيهم الغيرة على دينهم، حتى لا يكونوا أقل غيرة وحمية على دينهم من غيرة الكفار على باطلهم.

١٢٢٠- لا بد للأمير من مشاورة أتباعه:

ذكرنا أن النبي ﷺ شاور أصحابه قبل أن يخرج إلى ملاقاة العدو في أحد، شاورهم: أيخرج بهم إليهم، أم يبقون في المدينة يقاتلون المشركين إذا دخلوها؟[٢٣٦٦].

فعلى أمير جماعة الدعاة إلى الله أن يتأسى برسول الله ﷺ ويقتدي به في

(٢٣٦٤) تفسير سيد قطب ج٣ ص١٥٠٦-١٥٠٧.

(٢٣٦٥) الفقرة ١١٧٨.

(٢٣٦٦) الفقرة ١١٨٢.

مشاورته لأصحابه.. فقد كان ﷺ يشاور أصحابه وهو رسول الله وتنفيذاً لأمر الله؛ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فهل يجوز أن يهمل أي رئيس جماعة مسلمة مشاورة أفرادها؟ إن مشاورة أي أمير جماعة مسلمة لأفرادها مطلوبة شرعاً، فلا يجوز أن يهملها ولا ألَّا يأخذ بها، فكيف يجوز لجماعة الدعاة وهي تدعو إلى الله وحسب مناهج الإسلام أن يترك أميرها مشاورة أفرادها من الدعاة فيما يخصُّ أمور الدعوة ومناهجها في التبليغ، وسياستها في معالجة الأمور التي تتعلق بها؟ إن ترك المشاورة معصية ومخالفة لشرع الله، والشأن في أمير الجماعة المسلمة؛ جماعة الدعاة؛ أن لا يتعمد المعصية والمخالفة لشرع الله، ومنها ترك المشاورة، ولا يصرَّ على هذه المخالفة.

١٢٢١- الشورى واجبة ولكنها مُعْلِمة وليست مُلزِمة:

ويجب أن يعلم الدعاة بأنَّ مشاورة أميرهم لهم في شؤون الدولة وإن كانت واجبة عليه بحكم الشرع، ولكنها معلمة غير ملزمة، بمعنى أن واجب الأمير أن يشاور وليس واجباً عليه أن يأخذ برأي الأكثرية، فإذا شاور فقد خرج من عُهْدَة هذا الواجب؛ واجب المشاورة. أما بأي رأي يأخذ، فهذا متروك له؛ غير مقيّدٍ برأي الأكثرية. ولا يُحتَج علينا بأن النبي ﷺ كان رأيه عدم الخروج للقاء العدو في أحد والبقاء في المدينةِ، ولكنه أخذ برأي الأكثرية القاضي بالخروج وعدم البقاء في المدينة، لا يحتج علينا بهذا القول بأن الشورى ملزمة، أي على الأمير أن يأخذ برأي الأكثرية، لا يحتج علينا بهذا؛ لأن النبي ﷺ هو رأى أن يأخذ برأي الأكثرية وليس لأن رأي الأكثرية ملزمٌ للأمير، وكلامنا في مدى التزام الأمير برأي الأكثرية وإلزامه بهذا الرأي وليس كلامنا بجواز الأخذ برأي الأكثرية إذا رأى الأمير ذلك. وقد فصلنا القول في هذه المسألة في كتابنا أصول الدعوة.

١٢٢٢- لا تردد في العزم على التنفيذ بعد المشاورة:

ذكرنا أن الذين رغبوا في الخروج إلى لقاء العدو وعدم البقاء في المدينة، وكانوا هم الأكثرية، ندموا على ما أشاروا به، وألحوا فيه، وقالوا: لقد رأينا غير ما رأى رسول الله ﷺ، فلما خرج ﷺ من بيته - بيت عائشة رضي الله عنها - وقد لبس لأمته، قالوا: يا رسول الله إن شئت بقينا في المدينة ولم نخرج، فقال لهم ما ذكرناه

وهو قوله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له»[٢٣٦٧].
وبهذا ألقى النبي ﷺ على أصحابه درساً بليغاً عالياً، فللشورى وقتها حتى إذا انتهت جاء وقت العزم على التنفيذ والمضي فيه مع التوكل على الله. ولم يعد هناك مجال للتردد ولا لإعادة الشورى أو التأرجح بين الآراء، وإنما يجب أن يأخذ العزم طريقه في التنفيذ ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء[٢٣٦٨]. فعلى الدعاة وأميرهم أن يفقهوا ذلك.
إن من واجب الأمير أن يشاور، ومن حق أتباعه من الدعاة أن يعلنوا آراءهم وإلى هنا ينتهي أداء الواجب واستيفاء الحق، وبعد ذلك يختار الأمير الذي يراه ويعزم على تنفيذه، ويمضي هو ومن شاورهم بجدّ في التنفيذ، كما لو كان رأي الأمير الذي اختاره هو رأي كل واحد من الدعاة؛ لا فرق بين مؤيد له أو معارض له وقت المشاورة. ولا يجوز أن يتردد الأمير في التنفيذ بعد أن عزم على الرأي الذي اختاره، كما لا يجوز للدعاة أن يخالفوا ما اختاره أميرهم، ولا أن يشيعوا بين أفراد الجماعة، أن رأيهم كان خلاف رأي الأمير، وأن رأي الأمير خطأ، ونحن ننفذه ونلتزم به مُكرَهين، لا يجوز مثل هذا الكلام؛ لأنه يفتح باباً للشيطان قد يليه انتقادات من بعض الدعاة ثم تمرد على التنفيذ، وهذا ما يريده الشيطان؛ لأنه يطمع أن يتبعه الانشقاق والفرقة بين أفراد الجماعة وجماعتهم. فليحذر الدعاة ذلك.

١٢٢٣- إظهار القدرة على الجهاد:

قلنا إن النبي ﷺ أرجع من جيشه من رآه صغير السن، وأبقى رافع بن خديج بالرغم من صغر سنه لمهارته في النبل، فاحتج سمرة بن جندب على إرجاعه لصغر سنه بحجة أنّهُ أقوى من رافع ويستطيع أن يصرعه، وأن النبي ﷺ بلغه ما قاله سمرة فأذن له بالمصارعة مع رافع فصرعه؛ فأبقاه النبي ﷺ[٢٣٦٩]. فيجوز لمن يأنس من نفسه القدرة على عمل من أعمال الدعوة أن يعلن ذلك، ويجوز لأمير الجماعة أن يمتحنه ليعرفَ مدى قدرته على العمل الدعويّ. وعلى الدعاة أن يولوا الشباب والفتيان ما يستحقونه من عناية ورعاية؛ وأن يربوهم على أعمال الجهاد، ومنها

(٢٣٦٧) الفقرة ١١٨٢.
(٢٣٦٨) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦٠.
(٢٣٦٩) الفقرة ١١٨٥.

أعمال الدعوة التي تناسبهم، وأن يشدوهم إلى معاني الجهاد حتى يكون شوقهم إلى الجهاد أكثر من شوقهم إلى ما يهواه الصبيان عادة.

١٢٢٤- الحذر من تثبيط المنافقين:

ذكرنا فيما سبق انسحاب المنافق عبد الله بن أبي بن سلول من جيش المسلمين وهم في ساحة المعركة، مدعين بأنهم لا يعتقدون حصول قتال بين المسلمين والمشركين.. إلى آخر ما قالوه واحتجوا به[٢٣٧٠]. حتى إن طائفتينِ من جيش المسلمين أوشكتا أن تنسحبا كما فعل عبد الله بن أبيٍّ بن سلول متأثراً بادعائه بأنّهُ لا يعتقد أن قتالاً سيحدث بين المسلمين والكفار. فعلى الدعاة أن لا يتأثروا بأفعال وأقوال الآخرين فيقعدوا عن العمل الدعوي المحمود؛ وأن يكونوا على حذر شديد منهم ومن تصرفاتهم حتى لا يتأثروا بها، ولا يرددوا أقوالهم التي فيها تثبيط عن أعمال الدعوة أو تشكيك في فائدتها وغير ذلك مما فيه إضعاف للدعاة، وإضعاف لجماعتهم.

١٢٢٥- لا يجوز تكثير سواد العدو:

في حادثة انسحاب المنافق ابن سلول وجماعته، لحق بهم الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو والد جابر بن عبد الله ليردهم عن خروجهم من الجيش؛ وكان مما قاله لهم: «إذا لم تقاتلوا مع المسلمين فكونوا معهم مكثرين سوادهم، لأن كثرة سواد المجاهدين مما يرعب العدو ويقوي عزائم المسلمين المجاهدين» فرفض ابن سلول ومن معه ما قاله عبد الله بن عمرو[٢٣٧١]. فعلى الدعاة أن يبصّروا المسلمين بأن تكثير سواد الكفار لا يجوز. ومن مظاهر تكثير سوادهم الاستجابة لدعوتهم لحضور اجتماعاتهم أو مشاركتهم في أعيادهم واحتفالاتهم. وكما أن على الدعاة أن يبصروا المسلمين بأن تكثير عدد المسلمين الدعاة إلى الإسلام؛ بإجابة دعوة جماعة الدعاة أو أميرها إلى حضور اجتماعاتهم أمرٌ واجبٌ.

وعلى الدعاة في دروسهم وخطبهم أن يذكروا ما ذكره الإمام القرطبي في تفسيره

(٢٣٧٠) الفقرة ١١٨٦.

(٢٣٧١) الفقرة ١١٨٨.

ممّا رواه أنس بن مالك قال: رأيت يوم القادسية - عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك فقال: بلى، أنزل الله عذري. ولكني أريد أن أكثّر سواد المسلمين بنفسي(٢٣٧٢). إن المسلمين اليوم بحاجة إلى مثل هذه القصة.

١٢٢٦ - الاعتصام بمعاني الإيمان يحبط مكائد الأعداء:

ذكرنا فيما سبق محاولة أبي سفيان في إيقاع الفرقة بين المسلمين بإرساله من يخبر الأنصار بأنْ لا خلاف بينهم وبين قريش، ويطلب منهم التخلية بينهم وبين محمد ﷺ؛ فردوا عليه بما يكره؛ لأن إيمانهم عصمهم من الوقوع فيما أراده أبو سفيان منهم. ومحاولة أخرى من أبي عامر الفاسق الذي ظهر في مواجهة جيش المسلمين وأخذ يناديهم: يا معشر الأوس - لأنه منهم نسباً - أنا أبو عامر، يريد منهم متابعته والانصراف عن محمد ﷺ، ولكن إيمانهم عصمهم من ذلك فقالوا له: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق(١٣٧٣). فعلى الدعاة أن يحذروا من مكائد العدو وسعيه الحثيث في إيقاع الفرقة بينهم بما يثيرونهم فيهم من معاني العصبية القبلية أو غيرها من العصبياتِ الأخرى، ولْيعلوا بإيمانهم على كل ما يناقضه مما يتشبث به العدو.

١٢٢٧ - مخالفة القائد تسبب الفشل لجنوده:

ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ أوقف خمسين رجلاً بإمرة عبد الله بن جبير على الجبل؛ لحماية ظهور المسلمين من أن يأتيهم العدو من خلفهم، وأمرهم أن لا يتركوا أماكنهم مهما كانت الظروف والأحوال، ولكنهم خالفوا هذا الأمر إلا قليلاً منهم، فهجم العدو على من بقي من الرماة وقتلهم، ثم هجم على جيش المسلمين من الخلف، ورجع المشركون المنهزمون يقاتلون المسلمين الذين وقعوا في حصار المشركين من الأمام ومن الخلف، وهكذا حلّت بالمسلمين الهزيمة بعد أن كان النصر لهم في أول القتال، وكل ذلك كان بشؤم مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ

(٢٣٧٢) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦.

(٢٣٧٣) الفقرة ١١٩٢.

بالبقاء في أماكنهم[٢٣٧٤].

فعلى الدعاة الاعتصام بطاعة أميرهم ما دامت هذه الطاعة في غير معصية، ولا يسوغ لهم مخالفة أوامره ما دامت في الأمور الاجتهادية؛ ولا تقع في دائرة معصية الله. إن التزامهم بهذه الطاعة أمر ضروري لنجاحهم في دعوتهم وقبول الناس منهم ما يدعون إليه. وليعلموا أن طاعتهم لأميرهم طاعة لشرع الله؛ لأنه أمر بطاعة الأمير في غير معصية الله. وإذا لم يلتزموا بهذه الطاعة وقعوا في الفوضى والفرقة وتشتت الآراء؛ وكل هذه الأمور معوقات للنصر.

١٢٢٨- إيثارُ الدنيا على الآخرة يوقع في الخطيئة:

ذكرنا من قبل أن الرماة الذين أوقفهم النبي ﷺ على الجبل لحماية ظهور المسلمين من التفاف العدو عليهم، هؤلاء الرماة اختلفوا فيما بينهم، فأكثرهم أراد النزول واللحاق بالمسلمين طلباً للغنيمة؛ لما ظنوه من انهزام المشركين أمام المسلمين، وقلة من الرماة رفضوا ترك أماكنهم تمسكاً بأمر رسول الله ﷺ، ثم كان ما كان من التفاف المشركين وضربهم المسلمين من ورائهم. إنَّ في هذا الذي حدثَ لعبرةً عظيمة للدعاة وتعليماً لهم بأن حبّ الدنيا قد يتسلل إلى قلوب المؤمنين ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر رسول الله ﷺ الصريحة بتأويل ساقط، يرفعه هوى النفس وحب الدنيا، فيخالفون الشرع وينسون المُحكَم من أوامره. كل هذا يحدث، ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية؛ وعلى رأسها حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها؛ حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها. عن عبد الله بن مسعود، كما يذكر ابن كثير في تفسيره، قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[٢٣٧٥]. وحب الدنيا لا

(٢٣٧٤) الفقرتان ١١٩٥، ١١٩٦.

(٢٣٧٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٣.

يقف عند حب متاعها المادي، وإنما يشمل متاعها المعنوي، وعلى رأس هذا المتاع حب السلطة والرياسة، فليحذر الدعاة من ذلك لئلا يقعوا في مخالفة أوامر جماعتهم المسلمة بحجة إرادة الخير والنصح لها ومصلحة الدعوة، والحقيقة أنهم يتحركون بدافع هوى النفس وحب الدنيا. والمقياس لمعرفة دوافعهم فيما يقولون ويفعلون، وهل هي دوافع الهوى وحب الدنيا؟ هذا المقياس هو: هل يسّرهم أن يتولى الرياسة- أية رياسة- غيرهم ويكتفوا بأن يكونوا جنوداً مغمورين قانعين بعلم الله بهم وبالأجر والثواب من عنده؟ أم لا يقنعون بذلك؛ بل يريدون الظهور والرياسة؟ وهل يحزنهم إعطاء الرياسة في مجال الدعوة وأعمالها لغيرهم أم يسرهم ذلك لتخلصهم من المسؤولية؟ وهل يستمرون في جهادهم واندفاعهم فيه إذا أعطيت الرياسة لغيرهم؛ ولو رياسة أسرة أو حلقة من أسر وحلقات الدعاة؟ وأذكّرهم بشيئين قد يفيدهم في اختبارهم لأنفسهم ومدى تعلقهم بالدنيا؛ (الشيء الأول): إن الحريص على أجر صلاة الجماعة لا يهمه من يكون الإمام في الصلاة ما دام هو يصلي مع الجماعة ويظفر بأجر الصلاة فيها. (الشيء الثاني) إن خالد بن الوليد وهو في أوج انتصاراته وجهاده في سبيل الإسلام يأتيه أمر عزله من قيادة الجيش من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فلم يؤثّر ذلك العزل في جهاده واندفاعه فيه، بل قال قولته المشهورة: «أنا لا أقاتل في سبيل أبي بكر ولا في سبيل عمر وإنما أقاتِلُ في سبيل الله»؛ ورضي أن يصير جندياً لا قائداً.

١٢٢٩- الأماني غير الأفعال:

وعلى الدعاة؛ وجماعتهم المسلمة؛ أن يعلموا أنَّ الأماني الطيبة، والرغبات الحميدة التي يفصح عنها أعضاء الجماعة، لا تعني أن أفعالهم بقدر أمانيهم ورغباتهم، فكثيراً ما تقل الأماني وتضعف الرغبات عند محك الواقع ومواجهة الأحداث؛ فلا يقّدمون إلا القليل من الأفعال المطلوبة؛ وربما لا يقدمون شيئاً ويفرون من المعركة. إن هذه المعاني التي أذكرها وأذكّر الدعاة والجماعة المسلمة بها هي بعض ما نستفيده من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[٢٣٧٦]. فلا يجوز للقيادة الرشيدة للجماعة المسلمة أن تضع

(٢٣٧٦) الفقرة ١٢٠٦.

خططها على أساس ما تسمعه من الرغبات والأماني من أعضائها الدعاة أو الأنصار والمؤيدين، فالرغبة في الشيء شيء والقيام به وبمتطلباته شيء آخر. إن الفرق بينهما كالفرق بين كلمة (أقاتل) تقولها وبين (تقاتل) فعلاً. إن الكلمة التي يقولها قائلها مبيناً بها رغبته في عمل ما؛ لا تصدق في الواقع ويتحقق مضمونها إلا بشيئين؛ (الأول): رصيد وراء هذه الكلمة (والثاني): إرادة جازمة لتنفيذ مضمونها بناء على هذا الرصيد، فكلمة (أبذل كذا من المال) لا يمكن تحقيقُها إلا بوجود رصيد مالي عند القائل وإرادة جازمة لتنفيذ مضمون ما قاله. فعلى الدعاة وأنصار الإسلام وأعوان الجماعة المسلمة أن يتأكدوا مما عندهم من رصيد إيماني؛ يمكّنهم من تحقيق ما تجيش به نفوسهم الطيبة من رغبات طيبة حتى إذا رأوْا أنَّ ما عندهم من رصيد إيماني لا يمكّنهم من تنفيذ رغباتهم انكفؤوا إلى نفوسهم يحثونها بمعاني الإسلام والإيمان حتى تصير حاضرة وجاهزة لتنفيذ أمانيهم ورغباتهم..

١٢٣٠- الدفاع عن القائد مطلوب:

الدفاع عن قائد الجماعة المسلمة أمرٌ مطلوب شرعاً، لأنه يقوم بجماعته بحماية الدين ونصرته، فهو كربّان السفينة، حمايته حماية للسفينة ولركابها. وقد ذكرنا دفاع المسلمين عن نبيهم وقائدهم ﷺ في معركة أحد؛ مما يشير إلى ضرورة حماية قائد الجماعة، لأن بحمايته حماية لجماعته ولاستمرارها في عملها المبرور في نصرة الإسلام. وقد يكون من المفيد للدعاة ذكر بعض مظاهر دفاع الصحابة الكرام عن نبيهم وقائدهم ﷺ لما في ذكر هذه الوقائع من أمثلة لمحبّتهم لنبيهم ﷺ؛ ومن إشارة إلى وجوب حماية إمامِ المسلمين ومَنْ دونه ممن يتولَّوْنَ إمرة جماعةٍ تَنصرُ الإسلام وتدعو إليه، فمن وقائع دفاع المسلمين عن النبي ﷺ ما ذكرناه من قبل فليُرجَعْ إليه[٢٣٧٧].

١٢٣١- القائد لا يوقف الجهاد والدعوة إلى الله:

وقد تبتلى الجماعة المسلمة بموت قائدها أو بقتله، وهو ابتلاء شديد، ولكن

(٢٣٧٧) انظر الفقرة ١١٩٩.

على شدته لا يجوز أن يوقَفَ جهاد الجماعة المسلمة، وعليها أن تقابل هذا الابتلاء بالصبر الجميل وبالثبات على المعاني التي جاهد من أجلها أميرهم وقائدهم؛ فإنهم إذا فقدوا قائدهم وغيّب الثرى جسده الطاهرَ عنهم فإن دعوته باقية لا تموت. إن جماعة المصلين في مسجد المحلة لا تُوقِفُ الصلاة ولا صلاة الجماعة إنْ مات إمام المسجد، وهكذا يجب أن يفعل الدعاة والجماعة المسلمة إذا فقدوا أميرهم فلا يوقفوا جهادهم. وقد حذر الشرع الصحابة الكرام من إيقاف الجهاد في سبيل الله لموت رسول الله ﷺ، أو قتله فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢٣٧٨]. وجاء في تفسيرها: إن الرسل ليست باقية في أقوامها أبداً فكل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أُرسِلَ به وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف لموت النبي ﷺ أو قتله، فقال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي رجعتم القهقرى وقعدتم عن الجهاد، والانقلابُ على الأعقاب يعني الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حياً أو ميتاً[٢٣٧٩].

١٢٣٢- تأسي الدعاة بمن لم يدهشهم موت النبي أو قتله:

وإذا ابتليت جماعة الدعاة بموت أو قتل أميرهم فأصاب بعضهم الذهول واعترتهم الدهشة؛ وأفقدتهم توازنهم، فلتكن قدوتُهم بمن ثبت بالرغم من سماعه خبر قتل النبي، فقد ثبت بعض المسلمين في معركة أحد عندما نادى المنادي من المشركين بأن محمداً قد قتل، وأثّر هذا النداء في بعض المسلمين أو في كثير منهم، وفرّ من فرَّ من المسلمين وثبت بعضهم، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك فقال: يا قوم؛ إن كان قُتِل محمد فإن ربّ محمد حي لا يموت، وما تصنعونَ

(٢٣٧٨) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

(٢٣٧٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٢٣، تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٩، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٣.

بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم شدّ بسيفه على الكفار فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين: أنه مرَّ بأنصاري وقد علاه دمُ جراحه، فقال يا فلان أَشعرتَ أن محمداً قد قُتِلَ؟ فقال: إن كان قُتِلَ فقد بلَّغ الرسالة؛ قاتلوا على دينكم. وعندما مات رسول الله ﷺ وأصاب المسلمين الذهول حضر أبو بكر رضي الله عنه والناس في هرج وهلع فلم يكلم أحداً ودخل إلى بيت عائشة رضي الله عنها وكشف عن وجه رسول الله ﷺ وقبلّه من وجهه الشريف وبكى وعلم أنه قد مات فخرجَ إلى الناس في المسجد وخطب فيهم وقال فيما قاله: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ... ﴾ فكان ذلك من أبي بكر موقفاً وثباتاً عظيماً ثبَّت الله به المسلمين[٢٣٨٠]. فعلى الدعاة أن يستحضروا في أنفسهم سيرة الصحابة الكرام الذين ثبتوا عند سماعهم خبر قتل محمد ﷺ وهم في المعركة، وَعَمَلَ أبي بكر عندما تيقن موت النبي ﷺ وليعلموا أو يستحضروا هذا المعلومَ في أنفسهم وهو أن البشر إلى فناء، وأن العقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ... إن الدعوة أقدم من الداعية، وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية، فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على الأجيال والقرون ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول وهو الله الحي القيوم الذي لا يموت[٢٣٨١].

١٢٣٣- تذكير العاملين للإسلام بما يثبتهم عليه:

وعلى جماعة الدعاة أن تذِّكرَهُمْ وتذكرَ سائر العاملين للإسلام؛ تذكرهم بما يثبتهم على الإسلام وعلى الدعوة إليه؛ وعلى متطلبات الدعوة والصمود أمام أعدائها. وقد ذكرنا كيف أن النبي ﷺ أخذ ينادي الفارين المنهزمين من المسلمين بقوله ﷺ: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، إني رسول الله، هلّم إليَّ»، فكان لهذا النداء أثره في الفارين المنهزمين، جعلهم يرجعون إلى رسول الله ﷺ. ومما يثبت الدعاة

(٢٣٨٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٣، تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٩.

(٢٣٨١) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٥.

وعموم العاملين للإسلام؛ بل ويثبت عموم المسلمين أمام الأعداء وهجمتهم الشرسة على الإسلام وأهله ودعاته أن يقوم الدعاة بتذكيرهم بقوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ . . . ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فإذا كان الكفار يتحملون الأذى والقتل في سبيل باطلهم فأنتم أيها المسلمون أولى منهم في تحمل الأذى في سبيل دعوتكم، وهي الحق. ثم أنتم أيها المسلمون ترجون من الله في جهادكم ثواب الله ورضوانه، وهم لا يرجون ذلك، فأنتم أولى منهم بالجهادِ والثبات على دعوتكم. ومن العار أن يغلبكم أهل الباطل في ثباتهم على باطلهم، إذا أنتم جبنتم عن الوفاء بحق دينكم عليكم. إن تذكير الدعاة والمسلمين بهذه المعاني وضربَ الأمثال والقصص مما يثير حميَّةَ المسلمين؛ ويدفعهم إلى الاستمساك بدينهم وبالعمل له والجهاد في سبيله.

١٢٣٤- الآجال مفروغ منها:

ومما ينفع لتثبيت الدعاة والعاملين للإسلام وللمسلمين عموماً تذكيرهم بأن الآجال قد فرغ منها فلا يزيد في عمر الإنسان جبنٌ ولا فرار من مواجهة الأعداء، ولا ينقص من عمر الإنسان إقدامه ومجاهدته للأعداء، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٢٣٨٢] وفي هذه الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه[٢٣٨٣]. وبذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في حسابها وهي تفكر في أداء التكاليف والالتزامات الإيمانية؛ ومنها الجهاد في سبيل الله والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله، فلا يقعد بها عن ذلك خوف ولا فزع، وبذلك تستقيم على الطريق، طريق الدعوة إلى الله، بكل تكاليفه والتزاماته في صبر وطمأنينةٍ وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده. وإذا كان الأمر كما ذكرنا من تحديد الأجل فلينظر المسلم ماذا يريد؟ هلْ يريد أن يقعد عن تكاليف الإيمان ويحصر همه في الدنيا أو لينال شيئاً من متاعها

(٢٣٨٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

(٢٣٨٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١١.

- وفي هذا تعريض بالذين شغلتهمُ الغنائم يوم أحد -، أو يريد المسلم ما هو أعلى وأجل وأبقى من متاع الدنيا وهو ثواب الآخرة، وشتان بين المرادين، ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ الجزاء المبهم الذي تتطلَّعُ إليه نفوس المؤمنين الذين شكروا نعمة الله عليهم، نعمة الإسلام، فلم يشغلهم غيره عن الجهاد في سبيله[٢٣٨٤].

١٢٣٥- ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

ومما ينفع في تذكير الدعاة والعاملين للإسلام؛ لحملهم على الثبات عليه وعلى الدعوة إليه، ضرب المثل بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعات كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[٢٣٨٥] وفي هذا تعريض بالمسلمين الذي أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ؛ وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٢٣٨٦] وهذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربانيين هضمٌ لها واعترافٌ منهم بالتقصير. ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو؛ ليكون طلبهم إلى ربهم النصرَ عن زكاة وطهارة وخضوع[٢٣٨٧]. وهكذا يجب على الدعاة أن يفعلوا، يتوجهون إلى ربهم تعالى متضرعين مستغفرين تائبين، قبل أن يطلبوا منه الثبات والنصر على الأعداء. ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى

(٢٣٨٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤، تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٧-٤٨٨.

(٢٣٨٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

(٢٣٨٦) سورة آل عمران الآية ١٤٧.

(٢٣٨٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤.

الله، وإحسانهم في موقف الجهاد وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخصّ الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده[٢٣٨٨].

١٢٣٦ - النظر إلى الماضي للعبرة والاتعاظ لا للحزن والبكاء:

وعلى الدعاة أن لا يستبد بهم الهم والغم والحزن على ما فاتهم من فرص كان من الممكن فيها تحصيل خير للدعوة، وإنما عليهم النظر إلى الماضي للعبرة والاتعاظ فقط؛ لا للحزن والبكاء، والنظر إلى المستقبل ليعرفوا ما ينبغي لهم فعله في ضوء ما وقع في الماضي؛ وما هم عليه في الحاضر، وإن الماضي مضى بما فيه، وما وقع فيه لا يمكن تعديله وإنما يمكن أخذ العبرة منه؛ فلا وجه للحزن عليه؛ لأن الحزن لا يرد مفقوداً ولا يعيد معدوماً. قال تعالى عما أصاب المسلمين في أحد ﴿... فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾[٢٣٨٩]. كما يجب على الدعاة أن لا يقولوا: لو فعلنا كذا لكان كذا على وجه التفجع والحزن ورد المُقَّدر، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، وإنما عليهم كما قلت التأملُ فيما صدر منهم من خطأ أو غفلة أو تقصير؛ كانت من أسباب ما وقع ليتقوا ذلك في المستقبل، فإن وقائع الحياة والتجارب تعلّم الإنسان ما لا يعلّمه الكتاب، وإن كان ثمن هذا التعليم باهظاً..

١٢٧٣ - تحميل النفس وليس الغير سوء ما وقع ويقع:

على الدعاة أن يعلموا ويستحضروا هذا العلم في أنفسهم، ويعلموه غيرهم وهو أَنَّ ما أصابهم ويصيبهم هو بسبب من أنفسهم؛ فليحمّلوها المسؤولية ولا يحمّلوا غيرهم المسؤولية؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ...﴾[٢٣٩٠] والمصيبة التي أصابتهم هي قتل سبعين منهم، وقد أصاب المسلمون مثليها يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين،

(٢٣٨٨) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤-٤٢٥، تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٨.

(٢٣٨٩) سورة آل عمران الآية ١٥٣.

(٢٣٩٠) سورة آل عمران الآية ١٦٥.

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾. أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمر الرماة أن لا يبرحوا مكانهم الذي أنزلهم فيه رسول الله ﷺ، فعصوا أمره وترك أكثرهم مكانه[٢٣٩١]. قلنا: إن سبب المصائب يرجع إلى فعل الإنسان وهو يتحمل مسؤولية ذلك، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك. وما يحل بالإنسان يرجع إلى أحد شيئين، (الأول): معاصيه، (والثاني): مخالفته لسنة الله أو سننه التي وضعها الله لتجري عليها أمور الحياة. ومخالفة المسلم لسنن الله في الحياة نوع من مخالفته لشرع الله؛ لأن الله تعالى أمر بأن نلاحظ سننه فيما نأخذ ونترك؛ ولن تُخرَق هذه السنن للمسلم لكونه مسلماً؛ وقد قصّر في مراعاتها وخالفَ الشرع في أمره بهذه المراعاة. فالمعاصي لشرع الله هي سبب ما يحل بالإنسان، وهي سبب ما حلّ بالمسلمين وما يحلّ بهم، وما يحلّ بالدعاة وبجماعتهم المسلمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فمن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا؛ وبما شهد في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[٢٣٩٢] وقال المفسرون في هذه الآية: أي وما أصابكم أيها الناس؛ أي مصيبة من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات والأحوال المكروهة كالآلام والأسقام والقحط وأشباهها ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾؛ أي ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل: وآجلاً[٢٣٩٣]. فعلى الدعاة أن يبينوا هذا للناس في خطبهم ومواعظهم، لأنَّ مما ابُتلي به المسلمون أفراداً وجماعاتٍ أنهم يلقون المسؤولية واللوم على غيرهم وينسون أنفسهم، فنراهم إذا وقعت عليهم مصيبة أو نكبة، راحوا يفتشون على من يحملوّنه مسؤولية ما وقع عليهم من نكبات ومصائب؛ مثل فقد ديارهم واستيلاء العدو عليهم، وهزائمهم في الحروب، وينسون أنفسهم فلا يحملونها شيئاً. وكذلك الحال في الجماعات المسلمة التي تقع في مخالفات الشرع، ومخالفات سنن الله، وفي العمل الجماعي ومتطلباته فتقع عليها النكبات

(٢٣٩١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٤-٤٢٥.

(٢٣٩٢) كتابنا السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص٢١٢.

(٢٣٩٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١١٦، تفسير الرازي ج٢٧ ص١٧٢، تفسير الألوسي ج٢٥، ص٤٠.

والمصائب، فترمي المسؤولية على الغير فيما حلّ بها من مصائب. إن القرآن الكريم حدّد الجهة التي تلام وتقع عليها المسؤولية بالدرجة الأولى بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾؛ فالله تعالى حددّ الجهة التي تلام عند حلول النكبة والمصيبة وهي أنفسنا؛ فلا يجوز شرعاً أن نبرىء أنفسنا مما يقع علينا من النكبات والمصائب ونلقيَ اللوم والمسؤولية على غيرها.

١٢٣٨- فائدة لوم النفس وتحميلها المسؤولية:

وفائدة لوم النفس وتحميلها المسؤولية حثُّ المسلم على السعي الجاد لإزالة ما قام في النفس أو ما صدر عنها من أسبابٍ أدت إلى وقوع هذه النكبات والمصائب؛ والسعي لإزالة هذه الأسباب بالعمل الجاد والسريع لعدم وقوعها في المستقبل. وهذا ما يخشاه أعداء الإسلام والمسلمونَ؛ فإنهم لا يخشون شتم المسلمين لهم وصراخهم بأنَّ ما حلّ بهم هو من تدبير الكافر المستعمر ما داموا لا يحمّلون أنفسهم مسؤولية ما حلّ بهم، ويظلونَ جاهلين أنهم هم السبب لتقصيرهم وعدم قيامهم بمتطلبات دينهم، وعدم مراعاتهم لسنن الله في الأمم والجماعات والأفراد، فعلى الدعاة تبصير المسلمين بذلك وعدم إغفاله.

١٢٣٩- من آثار الإيمان في ميدان القتال:

الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة جهاد باللسان، فهو نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله، والجهاد من آثار الإيمان، وأعلى أنواع الجهاد الجهاد بالسنان؛ لأن فيه بذل الأرواح في سبيل الله؛ والدعاة وهم يجاهدون بالقول، يحتاجون إلى ما يُبقِي اندفاعهم في الدعوة، ويُبقِي حماسهم ونشاطهم فيها، ومن سُبل ذلك استحضار صور الجهاد التي حفظها لنا التاريخ عن أولئك المجاهدين من السلف الصالح. وعلى رأسهم صحابة رسول الله ﷺ. فإنَّ في استحضار بطولاتهم وجهادهم في سبيل الله ما ينعش نفوس الدعاة إلى الله، ويمدهم بطاقة هائلة من الإيمان والاندفاع في الدعوة؛ لأنهم مهما يقدموا من جهدٍ في سبيلها فلن يبلغوا ما قدمه أولئك المجاهدون من أصحاب رسول الله ﷺ؛ وبالتالي فلن يستكثروا ما يقدمونه من جهد في دعوتهم. ومن جهاد الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ في معركة أحد. أن خيثمة - وكان ابنه قد استشهد يوم بدر - قال لرسول الله ﷺ: قد رأيت البارحة ابني

في النوم في أحسن صورة؛ يسرح في ثمار الجنة وأنهارها يقول: الحقْ بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقد - والله يا رسول الله - أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنّي ورقّ عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد، ابني، في الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك، فقتل في معركة أحد شهيداً. وقصة أخرى من قصص المجاهدين بشأن عمرو بن الجموح، فقد كان أعرج شديد العرج؛ وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا. فلما توجه ﷺ إلى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدتَ ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أُستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه؟ لعلّ الله عز وجل أن يرزقه الشهادة؟ فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً[٢٣٩٤]. وبقي هذا الحماس والاندفاع إلى الجهاد يغشى المؤمنين الذين وضع الله عنهم الجهاد بالقتال، فقد جاء في أخبار معركة القادسية في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قول أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى - صاحب رسول الله ﷺ - وعليه درع يجرّ أطرافها وبيده راية سوداء، فقلت له أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى ولكني أكثّر سواد المسلمين بنفسي[٢٣٩٥].

١٢٤٠ - الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله:

وجاء في أخبار معركة أحد: أن النبي ﷺ ظاهر بين درعين، وعبأ جيشه فأعطى اللواء مصعب بن عمير، وجعل على إحدى المجنبتين من الجيش الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو، واختار خمسين من الرماة وأجلسهم خلف الجيش على الجبل، وأمرهم أن لا يفارقوا مكانهم ولو رأو الطير تتخطف العسكر وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم[٢٣٩٦]. وكل هذه الأمور

(٢٣٩٤) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦٥.

(٢٣٩٥) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦.

(٢٣٩٦) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦١.

تدل على أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب: بالأسباب المادية مثل اتخاذه درعين، أو بالأسباب التنظيمية مثل تعبئته للجيش ووضع الرماة لحراسة الجيش من ورائهم. وكذلك جاء في أخبار معركة أحد أنه لما حلّت الهزيمة بالمسلمين وثبت رسول الله ﷺ؛ وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قتل، توجه رسول الله ﷺ إلى جهة المسلمين؛ وكان أول من عرفه كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار عليه الصلاة والسلام بيده: أن اسكتْ(٢٣٩٧). وإشارته ﷺ لكعب بالسكوت لئلا يعرف المشركون مكانه فيصيبوه بمكروه، فكان من الحذر المحمود أن يسكت كعب، والأخذ بالحذر أخذٌ بالأسباب. فعلى الدعاة أن لا يغفلوا عن الأسباب التي يرونها ضرورية لنجاح دعوتهم؛ أو ضرورية لدفع الشر عنها وعنهم، أو ضرورية لصرف عيون الأعداء عن نشاطهم وجهادهم(٢٣٩٨).

١٢٤١- من جزاء السيئة السيئةُ بعدها:

وعلى الدعاة أن يحذروا من المعاصي وقوعاً فيها أو اقتراباً منها؛ لأن المعصية تجر صاحبها إلى المعصية؛ ولذلك قال بعض السلف: إن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، فإذا وقع الدعاة في معصية فعليهم الإسراع إلى الاستغفار والتوبة منها؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٢٣٩٩). أي إن الذين تولوا عن القتال في معركة أحد ففروا وانهزموا، إنما استزلهم الشيطان، أي حملهم على الزلل بالتولي عن القتال بسبب ما اكتسبوه من الذنوب، والتي منها مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ بالبقاء في أماكنهم، فلما خالفوا وتركوا أماكنهم ونزلوا في ساحة المعركة للغنيمة، ورجع المشركون يقاتلون المسلمين فروا مع الفارّين. فالذنوب بالنسبة إلى مرتكبيها

(٢٣٩٧) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦٤.

(٢٣٩٨) كتابنا: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد- فصل الأسباب والمسببات.

(٢٣٩٩) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

كالأمراض بالنسبة للمصاب بها؛ تضعف مقاومته وتفتح ثغرة في بدنه تتسلل منها الجراثيم؛ أو تقوّي فيه الموجود منها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي عما كان منهم من الفرار لندمهم عما فرط منهم؛ ولتوبتهم النصوح. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم[٢٤٠٠].

١٢٤٢- التمييز بين المؤمنين والمنافقين:

قد يندس في تجمع المؤمنين من ليس منهم، فقد يندس فيه المنافق، والراغب في الحصول على مغنم دنيوي، كما قد يلحق بهذا التجمع ضعيف الإيمان. وقد جرت سنة الله أن يُحدث في هذا المجتمع ما يميَّزُ به المؤمن الصادق في إيمانه، من المنافق المبطن لنفاقه، ومن المؤمن الضعيف الإيمان، ومن جاء لهذا التجمع الإيماني لمغانم دنيوية، والغالب في أداة الفرز والتمييز بين أفراد هذا التجمع هي أداة المحن والشدائد. وهكذا حصل التمييز والفرز في تجمع المؤمنين في زمن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ. . .﴾[٢٤٠١] وقد بينا دلالة هذه الآية الكريمة على ما نقوله[٢٤٠٢]. فعلى جماعة الدعاة أن يفقهوا ذلك؛ وليعلموا أن جماعتهم قد يكون فيها من ليس منهم، أو من جاء لينال مغنماً دنيوياً عن طريقهم وبواسطتهم، أو هو مسلمٌ ضعيف الإيمان لا يثبت في شدة فيخرج من الصف عند أول محنة فيحدث فيه خللاً واضطراباً ولهذا فقد كان من فضل الله على تجمع المؤمنين أن يجري فيهم سنته فيحدث لهم بعض المحن والشدائد ممّا يحصل به التمييز والفرز، إذ ليس من شأن الله تعالى ولا من سنته في خلقه أن يدع الصف المسلم؛ صف المؤمنين الدعاة إلى الله، غير مُميَّز، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان؛ ومظهر الإسلام؛ بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان. . وكل هذا يقتضي أن يُصهَر الصف ليخرج منه الخبث، وأن يُضغَط لتتهاوى اللبنات الضعيفة؛ وأن تسلط عليه الأضواء لتنكشف الدخائل والضمائر؛

(٢٤٠٠) تفسير الرازي ج٩ ص٥١، تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٨، فتح البيان ج٢ ص٣٦٠، تفسير المنار ج٤ ص١٩٢.

(٢٤٠١) سورة آل عمران الآية ١٧٩.

(٢٤٠٢) الفقرة ١٢١٧.

ومن ثم كان من شأنه تعالى أن يميز الخبيث من الطيب(٢٤٠٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ﴾(٢٤٠٤) فما أصاب المؤمنين في معركة أحد من جرح وقتل فبعلم الله وقضائه وقدره، وبموجب سنته في الأسباب والمسببات، وله الحكمة في ذلك كله، ومن هذه الحكمة يتميز المؤمنون ويُعرَفون، ويتميز المنافقون ويُعرَفون. فيحصل الفرز والتمييز بين الفريقين، فلا ينخدع المؤمنون بالمنافقين الذين كشفتهم أحداث معركة أحد. وما حصل للمؤمنين من تمييز فيما بينهم وبين المندسين فيهم من المنافقين؛ يحصل أيضاً بين جماعة الدعاة إلى الله تعالى بما تحدث لهم من محن وشدائد لا يثبت فيها إلا المؤمنون الصادقون، وتنكشف فيها حقيقة المنافقين بما يتقولونه على جماعة الدعاة، وبما يظهرونه من شماتةٍ بهم؛ وفرح بما أصابهم من ضرر وأذى، وبما يدعونه من أن قيادة الجماعة بسياستها وتصرفاتها أوقعت الجماعة بهذا الضرر والأذى. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك؛ وأن يحمدوا الله على ما هيأه لهم من محنٍ وإن كانت شديدة فقد عرفتهم بالمنافقين المندسين في صفوفهم.

١٢٤٣- التمحيص بعد التميز:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢٤٠٥). والمراد بالأيام وتداولها بين الناس: أوقات الظفر والغلبة، وصرفها بين الناس مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء. والقرح: الجرح والقتل، والتمحيص: التطهير والتصفية(٢٤٠٦) والآية تبين أن ما أصاب المسلمين في أحد من قتل وجرح أصاب المشركين مثله من قتل وجرح؛ وهكذا تكون الغلبة والنصر فيما بينهم.

(٢٤٠٣) تفسير سيد قطب ج١ ص٥٢٥.

(٢٤٠٤) سورة آل عمران الآية ١٦٦.

(٢٤٠٥) سورة آل عمران الآيتان ١٤٠، ١٤١.

(٢٤٠٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٨-٤١٩.

وتبين الآية أيضاً أن من حكمة ما أصاب المسلمين في أحد إظهار التمايز بين المؤمنين والمنافقين؛ لأن مداولة الأيام وتعاقب الشدة والرخاء محك لا يخطىء؛ وبه تنكشف أحوال أهل الإيمان وأحوال أهل النفاق، والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين، ولكن الأحداث، ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوءَ وتجعله واقعا بين الناس، وتُحَوِّل الإيمان إلىٰ عمل ظاهر يُعرَف به أهل الإيمان وتُحَوِّل النفاق إلى عمل ظاهر يُعَرف به أهل النفاق[2407]. فعلى الدعاة وجماعتهم أن يعرفوا ذلك ويعرفوا أنَّ مِنْ حكمة الله أن يُحدث للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، من المحن والشدائد، وما يتخلل ذلك من أوقات السعة والرخاء، ما تنكشف به حقائق أهل النفاق فيستطيع المؤمنون الدعاة وجماعتهم التحرز من هؤلاء المنافقين، وكما يحصل بهذه المحن والشدائد تمييز المؤمنين من المنافقين، يحصل بها أيضاً تمحيص المؤمنين. والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. يكون بها تطهير النفس وتصفيتها من الشوائب، وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله سبحانه بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء؛ وبين السراء والضراء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمحن والشدائد والمواقف العملية الصعبة. وقد يظن المسلم في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والإخلاص، والخلاص من الشح والحرصَ والانقياد للحق، ثم إذا هو يكشف على ضوء التجربة العملية، وفي مواجهة الأحداث الواقعية، أنَّ في نفسه كدورات وشوائب لم تُمحَّص، ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليقوم بعملية التمحيص لنفسه وبنفسه[2408]. وفي ضوء ما ذكرناه: على الدعاة أن يتفحصوا نفوسهم في ضوء الأحداث والوقائع والصعاب والشدائد التي تواجههم ليتبين لهم مدى ما فيها من قوة وضعف وتماسك وتخلخل، وثبات على مقتضيات الدعوة، كما أن على قيادة جماعة الدعاة أن تراقبهم في مختلف الأحداث؛ لتعرف مدى ثباتهم وقوة إيمانهم وجوانب الضعف فيهم، فتعالج ذلك وتضع خططها على أساس سليم من الواقع المحسوس ولا مانع أن تجري لهم اختبارات عملية لتعرف ما تريد معرفته

(٢٤٠٧) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨١.

(٢٤٠٨) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٢-٤٨٣.

منهم من قوة أو ضعف في الإيمان، ومن شجاعة أو خور، ومن تحمل للشدائد، وغير ذلك مما يجب أن تعرفه الجماعة؛ حتى لا تخطىء في إسناد المسؤوليات والأعمال الدعوية إلى منتسبيها من الدعاة.

١٢٤٤- إحساس المؤمن بأنه هو الأعلى:

من توجيهات الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بعد أن حصل لهم ما حصل في معركة أحد نهيه لهم أن يحسوا بهوان نفوسهم وانحطاطها عن المستوى الذي يريده الله لها، وأنَّ عليهم الإحساس الغامر لكيانهم بأنهم هم الأعلون على غيرهم بسبب ما يحملونه من الإيمان، فبإيمانهم يكونون هم الأعلون على كل الفاقدين هذا الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢٤٠٩] وجاء في تفسيرها، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم في معركة أحد، أي لا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي لا يورثنكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا بما أصابكم، ولا تحزنوا على من قتل منكم أو جرح، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب، لأنكم أصبتم منهم في بدر أكثر مما أصابوا منكم في أحد، وأنتم أعلى شأناً منهم؛ لأنكم على الحق؛ وتدعون إلى الحق وتقاتلون لله لإعلاء كلمة الحق؛ وهم يقاتلون للشيطان؛ ولإعلاء كلمة الكفر، ومن أجل هذا فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، وأيضاً فأنتم الأعلون في العاقبة؛ لأنكم جند الله، والله يقول عن جنده: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بمعنى ولا تهنوا إن صح إيمانكم. على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بتأييد الله ونصره، وقلة المبالاة بأعدائه[٢٤١٠]. فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة أن يحسوا بمعاني هذه الآية، فلا تضعف عزائمهم مهما كانت الظروف والأحوال وأن يحسوا الإحساس الكامل بأنهم الأعلون على غيرهم مهما بلغت قوة أعدائهم المادية؛ ومهما بلغ عليهم التضييق والحبس؛ فإن الأسد يبقى أسداً في شكله ومظهره وإحساسه وإن كان مقيداً حبيساً...

(٢٤٠٩) سورة آل عمران الآية ١٣٩.

(٢٤١٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٨.

١٢٤٥- الدعاة يصيبهم الأذى:

وليكن معلوماً لدى الدعاة إلى الله أنه لا يلزم من كونهم على الحق ويدعون إلى الحق أن لا يصيبهم أذى من أعداء الله، ويكفي للدلالة على ذلك أن رسول الله ﷺ - وهو حامل الحق ومبلغه للخلق- أصابه من الأذى من المشركين في مكة قبل الهجرة وبعدها في معركة أحد التي نتكلم عليها الآن، حيث قد شج وجهه الشريف وكسرت رباعيته وجرحت وجنته وشفتُهُ السفلى من باطنها ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[٢٤١١]. كما أصاب أصحابه الكرام من أذى المشركين في مكة قبل الهجرة وبعدها في معركة أحد التي نتكلم عليها الآن، فقتِل من قُتِل منهم؛ وجرح من جرح؛ وهم خير خلق الله بعد رسله تعالى. فلا عجب ولا غرابة أن يلقى الدعاة في وقتنا الحاضر أنواع الأذى من أعداء الدعوة، سواء كان هذا الأذى بدنياً من القتل إلى ما دونه أو كان هذا الأذى معنوياً من إلصاق التهم بهم وتشويه سمعتهم إلى غير ذلك، فعلى الدعاة أن لا تضعف عزائمهم في جهادهم وقيامهم بما تتطلبُهُ الدعوة، بل ينبغي أن يحملهم ذلك على مضاعفة جهودهم في الدعوة إلى الله، وأن يعتبروا ما يلقونه من أذى من أعداء الدعوة علامة على إيمانهم؛ لحديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه الترمذي في جامعه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. . .»[٢٤١٢]. وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»[٢٤١٣].

١٢٤٦- القائد يشارك جنوده في مواجهة العدو:

ذكرنا أن الرسول ﷺ شارك أصحابه في معركة أحد، حتى إنه ﷺ أصابته الجراح في وجهه الشريف؛ وكسرت رباعيته، وكان ﷺ ثابتاً عندما حلّت الهزيمة بجيش المسلمين، وكان لثباته أكبر الأثر في رجوع الفارين والعوْدِ إلى مقاتلة المشركين. فيفهم من ذلك أن على أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يشارك أفراد

(٢٤١١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري.

(٢٤١٢) جامع الترمذي ج٧ ص٧٨-٧٩.

(٢٤١٣) سنن الدارمي ج٢ ص٣٢٠، ورواه الطبراني في معجمه الكبير كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.

جماعته من الدعاة وأنصارهم في مواجهتهم لخصوم الدعوة كلما كانت هذه المشاركة ضرورية، ولكن تقدير ذلك يرجع إلى أمير الجماعة وأهل الشورى في الجماعة، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ لم يشارك في جميع الغزوات التي خاضها وقام بها المسلمون، إلا أنه ﷺ شارك في معظمها وفي كل الغزوات المهمة والخطيرة[٢٤١٤]. فعلى الجماعة المسلمة ملاحظة ذلك واتخاذ القرار المناسب في مسألة مشاركة أميرها لأعضائها في مواجهة أعداء الدعوة بصورة مباشرة وظاهرة؛ في ضوء المصالح والمفاسِدِ التي يمكن أن تترتب على هذه المشاركة. ومعنى ذلك أنْ ليس من الضروري دائماً أن يشارك أمير جماعة الدعاة أعضاءها في مواجهاتهم لأعداء الدعوة، وإنما يشاركهم كلما رأى ضرورة أو مصلحة ظاهرة في هذه المشاركة. ويدل أيضاً على ما نقول إضافة إلى ما قلناه، أن أبا بكر ومن بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لم يشاركا المسلمين في مواجهاتهم للكفار في حروب الردة وفي فتوحات العراق والشام.

١٢٤٧- الولاء والبراء ولمن يكونان في حكم الإسلام:

إن الذين تقاتلوا في أحد وقبل أحد في بدر كانوا كلهم من العرب تجمعهم رابطة النسب القريب أو البعيد، ولم يكن بينهم أعاجم أو غيرهم من الأجناس والقوميات الأخرى؛ وهذا يعني بكل بساطة ولكن بجلاء ووضوح أن الذي فرّق بينهم إلى حدّ القتال فيما بينهم هو اختلافهم في العقيدة وما يؤمن به كل فريق. هذا الإيمان هو الذي جعلهم فريقين متمايزين؛ فريق المسلمين وفريقِ المشركين، ولم يكن هذا التمايز فيما بينهم تمازياً ظاهرياً لا أثر له في الواقع، أو لا أثر له في نوع العلاقات فيما بينهم، أو لا أثر له في طبيعة الولاء أو البراء الذي يحمله كل فريق - فالواقع أن التمايز الذي ذكرناه والذي قام على أساس إيمان كل فريق بما يؤمن به كان له أكبر الأثر؛ إلى درجة أن جعل ولاء كل منهما وكذا براؤه يعلو على رابطة النسب والعصبية الجاهلية، فصار ولاء المسلمين للإسلام ولمن يؤمن به، وبراء المسلمين ممّنْ يكفر بالإسلام ولا يؤمن به؛ وإن كان هذا الكافر قريباً للمسلم من حيث النسب، وكذلك الحال بالنسبة للكافرين صار ولاؤهم لمن يشاركهم في عقيدتهم

(٢٤١٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٨٠-٢٨١.

وإن اختلفوا في النسب إذ آل الأمر إلى مواجهة المسلمين وإن كانوا مشتركين معهم في النسب. وهذا الولاء والبراء وما قام عليه كل منهما أدى إلى القتال بين المسلمين والكافرين في بدر وأحد؛ وما تلا هاتين المعركتين من معارك بين الفريقين. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك فقهاً عميقاً يتغلغل في كيانهم؛ فيكون ولاؤهم لله ورسوله وللمؤمنين وإن كانوا أجانب منهم من حيث النسب القريب والبعيد، ويكون براؤهم من الكفر وأهله وإن كانوا أقرباءهم الأقربين من الآباء والأبناء والأخوة. لأن رابطة الإيمان أقوى من أي اختلاف في الروابط الأخرى كرابطة النسب، وإن رابطة النسب ونحوها أضعف من أن تعلو على رابطة العقيدة. ويكون مُحصّل القول في الولاء والبراء إنهما يقومان على أساس العقيدة وما يؤمن به كل شخص وليس على أي أساس آخر يراد الاستعاضة به عن أساس العقيدة، كرابطة القومية أو الوطنية أو الحرفة أو المهنة أو اللغة أو غيرها من الروابط.

١٢٤٨- ما يترتب على الولاء والبراء في حكم الإسلام:

ويترتب على الولاء والبراء في حكم الإسلام وقد ترتب عليهما فعلاً أن ولاء المؤمن صار للمؤمنين، وولاء الكافر صار للكافرين. وبراء المؤمن صار من كل كافر وإن كان قريباً له، وبراء الكافر صار من المسلم ومن كل من لا يدين بكفره وإن كان قريباً له. ومن مظاهر هذا الولاء والبراء الجديدين وما قام عليه كل منهم؛ أن تَقَاتَلَ العرب فيما بينهم في بدر وأحد بالرغم من رابطة النسب لاختلافهم في الولاء والبراء إلى حد أن كلاً من الفريقين كان حريصاً على قتل الآخر من الفريق الآخر ولو كان قريباً له من النسب، ومن ذلك أن أبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح قتل أباه في معركة بدر ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير في معركة أحد. وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام في معركة بدر، وعلي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة ابنيْ ربيعة والوليد بن عتبة في معركة بدر على وجه المبارزة الفردية[٢٤١٥]. وفي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال: «فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة بن أبي وقاص لما صنع

(٢٤١٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٤٩٧، تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٢٩، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٣٨-١٣٩.

برسول الله ﷺ في معركة أحد»[٢٤١٦] فعلى الدعاة الالتزام بمعاني الولاء والبراء في الإسلام وعدم الخروج عليهما.

١٢٤٩- ما نزل في القرآن في الولاء والبراء:

وقد يكون من المفيد جداً للدعاة أن أذكر ما نزل في القرآن من آيات الولاء والبراء ليعرفوا أهميتهما وضرورتهما في حياة المسلم وفي علاقته بغيره وحتى يفهموا الناس ما فهموه من معاني الولاء والبراء في الإسلام.

١٢٥٠- الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾[٢٤١٧]. «الأولياء» جمع ولي بمعنى الموالي من الوَلْي وهو القرب. فكلمة «أولياء» تعني أنصاراً وأعواناً وأحباباً. والولي ضد العدو. والموالاة ضد المعاداة. وفي الآية نهي للمؤمنين عن موالاة الكافرين بسببٍ من أسباب المصادقة والمعاشرة كقرابة أو صداقة، ونهي عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية[٢٤١٨]. وحمل الموالاة المنهي عنها على ما يعم الاستعانة بهم في الغزو ونحوه هو ما ذهب إليه بعض أهل العلم. وقال بعضهم تجوز الاستعانة بهم بشرط الحاجة والوثوق بهم أما بدونها فلا تجوز. على أن بعض المحققين ذكر أن الاستعانة المنهي عنها إنما هي استعانة الذليل بالعزيز؛ أما إذا كانت من باب استعانة العزيز بالذليل فقد أذن بها الشرع؛ ومن ذلك أن يتخذ المسلمون الكفار عبيداً أو خدماً[٢٤١٩]. وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن لكم أيها المؤمنون في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين؛ فلا تؤثروهم على المسلمين ولا تتجاوزوهم

(٢٤١٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٦٦.

(٢٤١٧) سورة آل عمران الآية ٢٨.

(٢٤١٨) فتح البيان ج٢ ص٢١٤، تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٠، تفسير الزمخشري ج١ ص٣٥١.

(٢٤١٩) تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٠.

إلى الكافرين فتوالوهم استقلالاً أو اشتراكاً مع المؤمنين(٢٤٢٠).

١٢٥١- الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾(٢٤٢١). وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ دلت على وجوب اختصاص الموالاة بالمذكورين. وإنما قيل: ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ ولم يقل: «أولياؤكم» لأن أصل الكلام ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ فجُعِلتْ الولاية له تعالى عن طريق الأصالة؛ ثم نظم في سلك إثباتها له تعالى إثباتها لرسوله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع لولاية الله، ولو قيل «إنما أولياؤكم» لم يكن في الكلام أصل ولا تبع(٢٤٢٢).

١٢٥٢- الآية الثالثة:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٢٤٢٣) والمعنى: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصاقونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علّل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ أي إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله(٢٤٢٤). وفي تفسير الألوسي ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم، وهو مخرج مخرجَ التشديد والمبالغة في الزجر؛ لأنه لو كان المتولي منهم حقيقة لكان كافراً وليس بمقصود وقيل: المراد ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ كافر مثلهم حقيقة، وحُكِي عن ابن عباس رضي الله عنهما(٢٤٢٥).

(٢٤٢٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٣٥١، فتح البيان ج٢ ص٩٤، تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٠.

(٢٤٢١) سورة المائدة الآية ٥٥.

(٢٤٢٢) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٤٨.

(٢٤٢٣) سورة المائدة الآية ٥١.

(٢٤٢٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٤٢.

(٢٤٢٥) تفسير الألوسي ج٦ ص١٥٧.

وفي تفسير القاسمي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لاخلافَ في أنه صار عاصياً لله كما عصوه. ولكن أين تبلغ معصيتُهُ؟ وقد اختلف في ذلك فقيل: معنى قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي حكمه حكمهم في الكفر، وهذا حيث يقرهم على دينهم فكأنه قد رضيه. وقيل: من تولاهم على تكذيب رسول الله ﷺ. وقيل: المراد أنه منهم في وجوب عداوته والبراء منه، وقال الحاكم ودلالة الآية مجملةً فهي لا تدل على أنه كافر إلا أن يحمل على الموافقة في الدين(٢٤٢٦).

والذي أرجحه في دلالة الآية أن من يتولاهم على معنى موافقته لهم في الدين ورضاه عليهم وإن خالفوا الإسلام فهو كافر مثلهم؛ لأن الراضي بالكفر كافر، وأما إذا لم تصل موالاته لهم إلى حدّ الرضا بكفرهم فهو منهم في وجوب عداوته والبراءة منه.

١٢٥٣- الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢٤٢٧). والمعنى: إن الشأن في المؤمنين أنهم لا يوادون المحادين لله ورسوله ولو كانوا من الأقربين، وإن أولئك المؤمنين المتصفين بهذه الصفةوهي عدم موادتهم لمن حاد الله ورسوله، كتب في قلوبهم الإيمان أي جعل في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه أي قواهم. وفي قوله تعالى: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ سرّ بديع وهو أنه لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم؛ والفوز العظيم؛ والفضل العميم. وهؤلاء المؤمنون هم حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته، وهم لهذا هم المفلحون في الدنيا والآخرة(٢٤٢٨). وفي تفسير ابن

(٢٤٢٦) تفسير القاسمي ج٦ ص٢٤٦.

(٢٤٢٧) سورة المجادلة الآية ٢٢.

(٢٤٢٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٢٩.

عطية بشأن هذه الآية: نفت هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شُعبَه على الكمال يواد كافراً أو منافقاً. ومعنى «يواد» يكون بينهما من اللطف بحيث يود كل واحد منهما صاحبه، وتحتمل هذه الآية أن يراد بها: لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يوادُّ من حادّ الله من حيث هو محادٌّ؛ لأنه حينئذ يود المحادّة وذلك يوجب ألّا يكون مؤمناً[٢٤٢٩] وفي تفسير الألوسي: المراد بموادَّةِ المحادّين: موالاتهم ومظاهرتهم. وقيل في معنى الآية: لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وبين موادة أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ. وقيل: لا تجد قوماً كاملي الإيمان على هذه الحال وهي موادّة من حادَّ الله ورسوله[٢٤٣٠].

١٢٥٤- الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[٢٤٣١]. هذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الفتح وعلم بذلك حاطب فكتب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ، وأرسل كتابه مع امرأة، وأخبر الله رسوله بذلك فأرسل ﷺ علياً والزبير ورجلاً آخر ليأتوا بالكتاب من المرأة التي توجهت به إلى مكة؛ فأتوها واستحصلوا الكتاب منها وأتوا به إلى رسول الله ﷺ؛ فأرسل إلى حاطب وقال له: من كتب هذا؟ فقال: أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل عليَّ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه؛ ولكني كنت امرأً حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يدٌ يرعونني بها في قرابتي. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، إنه من أهل بدر، وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيراً»، فنزلت

(٢٤٢٩) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٦.

(٢٤٣٠) تفسير الألوسي ج٢٨ ص٣٥.

(٢٤٣١) سورة الممتحنة، الآية ١.

الآية لهذا السبب. وروي أن حاطباً كتب في كتابه لقريش: «إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم وأقسِمُ بالله لو غزاكم وحده لنُصِرَ عليكم فكيف وهو في جمّ غفير»[٢٤٣٢].

هذه الآية وما في معناها أصل في النهي عن موالاة الكفار، وقوله: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ أي في الظاهر، وإلقاء المودة مجاز عن إظهارها بإرسال أخبار النبي ﷺ إلى كفار مكة. وقال الزجاج: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم[٢٤٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ معناه: أي منفعة وأي طائل لكم في إسراركم؛ أي في إيصال أخبار النبي ﷺ إلى كفار مكة سراً؛ وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما[٢٤٣٤]. وفي بيان حال الكفار الذي أوصل حاطب إليهم أخبار النبي ﷺ، تلك الحال التي تستدعي معاداتهم لا موالتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي من الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ولم يكفهم ذلك حتى آذوا المسلمين وألجأوا الرسول ﷺ والمسلمين بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة لا لسبب سوى إيمانكم بالله ورسوله، فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي[٢٤٣٥]. وقال ابن كثير: وفي هذه الآية تهيج للمسلمين وحث لهم على عداوة المشركين وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولهذا قال تعالى: ﴿ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين وبرسوله الأمين ﷺ[٢٤٣٦].

١٢٥٥ - الآية السادسة:

قال تعالى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(٢٤٣٢) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٩٧-٣٩٨.

(٢٤٣٣) تفسير القرطبي ج١٨ ص٥٢، تفسير الألوسي ج١٤ ص٦٦.

(٢٤٣٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٢.

(٢٤٣٥) تفسير القاسمي ج١٦ ص١١٨.

(٢٤٣٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٧.

بَصِيرٌ﴾[٢٤٣٧]. لما اعتذر حاطب بن أبي بلتعة لرسول الله ﷺ عما فعله بأنَّ له أولاداً وأرحاماً بين المشركين في مكة، وأراد بإرسال أخبار النبي ﷺ إليهم أن يمنع عن أولاده وأهله أذى المشركين بيَّن الله تعالى أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إن عصىٰ المسلم ربه من أجلهم[٢٤٣٨]. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل بينكم وبين أقاربكم وأولادكم، أي لا نفع لمن اخترتم موالاة العدو الحقيقي لأجله؛ لأن القيامة مفرقة وهذا معنى قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[٢٤٣٩] وقال ابن كثير بصدد هذه الآية: أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضِّيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء[٢٤٤٠].

١٢٥٦- الآية السابعة:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢٤٤١]. أي كان فيهم مذهب حسن مرضي بأن يؤتى أي يُقتدَى به ويتبع أثره وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا حيث كاشفوهم بالعداوة وأظهروا لهم البغضاء والمقت، وصرحوا لهم بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائماً كانت العداوة قائمة، فإذا زال السبب بأن آمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة والبغضاء محبة. ومعنى ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبما تعبدون من دون الله: أنا لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم، وما أنتم عندنا على شيء[٢٤٤٢]. أو ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾

(٢٤٣٧) سورة الممتحنة الآية ٣.

(٢٤٣٨) تفسير القرطبي ج١٨ ص٥٥.

(٢٤٣٩) تفسير القاسمي ج١٦ ص١٢٠.

(٢٤٤٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٧.

(٢٤٤١) سورة الممتحنة الآية ٤.

(٢٤٤٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٤.

أي: كذبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيء منها[٢٢٤٣]. وفي تفسير فتح البيان في قوله ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ أي من دينكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي مما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم أي لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم[٢٤٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ قال ابن جرير: أي قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك؛ لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله تبرؤا من أعدائه المشركين به ولا تتخذوا منهم أولياء، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرّؤوا عن عبادة ما سواه[٢٤٤٥].

١٢٥٧- الآية الثامنة:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٢٤٤٦]. في الآية تكرير لوجوب التأسي بإبراهيم وأصحابه لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين، فإن محبتهم أو موالاتهم توهين لقوى المؤمنين وتشكيك لضعاف القلوب، مما يفسد عمل المصلحين ويفتن أعداءهم بهم؛ لذلك كان البغض في الله من شعب الإيمان؛ لأن الحق لا يقوى إلا باجتماع أهله على كلمته ومعاداة أعدائه. وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ دلالة على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي من يتولَّ عما أُمِرَ به. ويوالي أعداء الله فإنه لا يضر إلا نفسه والله هو الغني عنه[٢٤٤٧].

(٢٤٤٣) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٣.

(٢٤٤٤) فتح البيان في مقاصد القرآن ج١٤ ص٧٨.

(٢٤٤٥) تفسير القاسمي ج١٦ ص١٢٥-١٢٦.

(٢٤٤٦) سورة الممتحنة الآية ٦.

(٢٤٤٧) تفسير القاسمي ج١٦ ص١٢٧.

١٢٥٨- الآية التاسعة:

قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾[٢٤٤٨] بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بمعاداة الكافرين، وظهر منهم الجدّ كل الجدّ في تنفيذ ما أمرهم الله به من عداوة أقربائهم الكفرة، أنزل الله تعالى هذه الآية، وفيها وعدٌ منه تعالى مستفاد بكلمة ﴿عَسَى﴾ بأن يجعل بين المؤمنين وبين الذين عادوهم مودة بأن يسلموا فيصيروا من المسلمين؛ فتزول عداوة المؤمنين لهم لزوال سببها وهو كفرهم. وقد حصل ووقع هذا الوعد فأسلم قوم كثيرون بعد فتح مكة وحسن إسلامهم ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله[٢٤٤٩].

١٢٥٩- الآية العاشرة:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢٤٥٠] هذه الآية رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ: هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم، وكان قدوم أم أسماء عليها في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش. ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم الله عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم، أي تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا. وقال ابن العربي المالكي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل. ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ...﴾ الخ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم

(٢٤٤٨) سورة الممتحنة الآية ٧.

(٢٤٤٩) فتح البيان ج١٤ ص٨٠.

(٢٤٥٠) سورة الممتحنة الآيتان ٨،٩.

ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكدَّ الوعيد على موالاتهم فقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢٤٥١).

١٢٦٠- الاستثناء من موالاة الكفار:

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢٤٥٢) والآية صريحة في النهي عن موالاة الكافرين، واستثنت من ذلك الحالة التي يُرخَّص فيها بالتقية فما المقصود بها وما مدى هذا الاستثناء وشروطه وما يتعلق به، ذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى آية ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا منهم خوفاً وهذا هو معنى التقية، واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأيَّ شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقيةُ فكل قادر غالب يخشى شره وضره، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا، وحكام الجور والظلم، ونحوهم، وأما بأي شيء تكون التقية ويترتب حكمها؟ فذلك بخوف القتل وبالخوف على الجوارح وبالضرب بالسوط وبسائر التعذيب فإذا فُعِل بالإنسان شيء من هذا أو خافه خوفاً متمكناً، فهو مُكرَه وله حكم التقية. والسجن والتقيد والتهديد والوعيد وعداوة أصحاب السلطة والنفوذ كل هذه الأشياء تدخل في نطاق التقية وما تبيحه. إلا أنها بحسب حال الذي يتعرض إلى هذه الأشياء وبحسب الذي يكره عليه أو يخاف وقوعه عليه. فكم من الناس السجن لا يرهبه ويستطيع تحمله فلا يسرى عليه حكم التقية. وأما أي شيء يبيحُ التقيّة؟ فقد اتفق العلماء على إباحاتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه ممّا يريده الكفار من المسلم فيقوله لينجوا من شرهم، ويدخل في ذلك المدارة والمصانعة، وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلاّ كنت متكلماً به، وأما ما تبيحه التقيّة من الأفعال فقال جماعة من أهل العلم: تبيحُ كل ما حرمَ الله فعله وينجي نفسه بذلك، كما لو أكره على شرب الخمر وهدد بالقتل إن لم يفعل. وقال جمع كثير من العلماء: التقية إنما هي مبيحةٌ

(٢٤٥١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥، تفسير القرطبي ج١٨ ص٥٩، أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج٤ ص١٧٨٥.

(٢٤٥٢) سورة آل عمران الآية ٢٨.

للأقوال؛ فأما الأفعال فلا[٢٤٥٣]. وقال الإمام ابن كثير في تفسير الآية والاستثناء الذي فيها: نهى الله عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، وعن ابن عباس التقية باللسان[٢٤٥٤].

وفي تفسير الألوسي: وعدَّ قوم من باب التقيّة مداراة الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم والانبساط معهم، وإعطاءهم لكف أذاهم وقطع لسانهم وصيانة الأعراض منهم، ولا يُعَّد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها[٢٤٥٥].

ويلاحظ هنا أن النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين إنما هو فيما يظهره المرء، فأما أن يتخذه بقلبه مودةّ لهم ورضا بهم فهذا لا يفعله مؤمن. فالنهي هنا إنما هو عبارة عن إظهار اللطف للكفار والميل لهم[٢٤٥٦]. وهذا القدر الظاهري هو الذي يمكن أن يأتيه المؤمن على سبيل التقية إذا تعين ذلك وسيلة لدفع الشر والضر عنه. وفي تفسير القاسمي في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه[٢٤٥٧]. وفي تفسير سيد قطب يرحمه الله تعالى: ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات.. ولكنها تقية اللسان لاولاء القلب ولاولاء العمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان» فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر ولا أن يعاون المؤمن الكافر؛ بالعمل في صورة من الصور باسم التقية[٢٤٥٨]. وقال الفقيه ابن العربي المالكي:

(٢٤٥٣) تفسير ابن عطية ج٣ ص٧٤-٧٦.

(٢٤٥٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٥٧.

(٢٤٥٥) تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٢.

(٢٤٥٦) تفسير ابن عطية ج٣ ص٧١.

(٢٤٥٧) تفسير القاسمي ج٤ ص٧٩.

(٢٤٥٨) تفسير سيد قطب ج١ ص٣٨٦.

﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ إلا أن تخافوا منهم، فإن خفتم منهم فساعدوهم ووالوهم وقولوا ما يصرف عنكم من شرهم وأذاهم بظاهرٍ منكم لا بإعتقاد يبين ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[٢٤٥٩].

١٢٦١- الخلاصة في هذا الاستثناء:

والخلاصة في المراد بالاستثناء من موالاة المسلمين للكافرين أن المسلم إذا رأى أن لا سبيل لوقاية نفسه من أذى وضرر الكفار ونحوهم إلا بأن يظهر لهم بعض مظاهر الولاء لهم بلسانه فله أن يفعل ذلك على وجه الرخصة، وكذلك في الإتيان ببعض الأفعال المحرمة كشرب الخمر. ولا تجوز التقية إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم. ولكن لا يجوز للمسلم المودّة بقلبه للكافر ولا الرضا بكفره ولا أي معنى من معاني الولاء القلبية، لأن الأخذ بالتقية للضرورة ولا ضرورة لعقد الولاء القلبي للكافر.

١٢٦٢- الدعاة والأخذ بالتقية:

الأصل في عمل الدعاة الصراحة والوضوح وعقد الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وعقدُ البراء من الكفار والفسقة وحكام الجور ومن أعمال هؤلاء: الكفر والفسق والجور. ولكن يجوز لهم على وجه الرخصة أن يأخذوا بالتقية في نطاق ضيق جداً، لأن التقية استثناء والاستثناء لا يتوسع به؛ ولأن التقية حالة ضرورة، والضرورات تقدر بقدرها؛ ولأن الأخذ بالتقية يلاحظ فيه المصالح الشرعية والمفاسد الشرعية؛ لأن الظاهر من أعمال التقية إظهار بعض معاني الولاء والموافقة لمن يريد الشرع البراءَ منه، وليس كل الناس يفقه أن عمل الدعاة الموافق لأعداء الإسلام أو لأعداء الدعوة إنما هو عمل صدر على وجه التقية، فيكون أخذ الدعاة بالتقية منفراً للناس منهم ويجعلهم يظنون ظن السوء بالدعاة، وهذا ضرر جسيم بالدعوة وبجماعة الدعاة. ولهذا أرى أن يأخذ الدعاة بالسكوت عمن يستحقون البراء منهم وعدم مهاجمتهم بالقول إذا كان نقدهم ومهاجمتهم بالقول يلحق ضرراً بهم وبجماعتهم.

(٢٤٥٩) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج١ ص٢٦.

١٢٦٣- إشراك المؤمنات بالدعوة إلى الله:

ويجب على الدعاة أو على جماعتهم أن يحرصوا على إعداد المؤمنات للقيام بأعمال الدعوة إلى الله في أوساط النساء، فهن أقدر من الرجال في الدعوة في مجال النساء، كما يمكن أن يقمن ببعض متطلبات الدعوة وتبليغها، ومن شأن هذه المتطلبات السرية وعدم الظهور والانكشاف. ودليلنا على ما نقول أن النساء المؤمنات كن يشاركن في غزوات النبي ﷺ؛ فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثابت عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُلَيم ونسوةٍ من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى[٢٤٦٠]. وفي معركة أحد التي نتكلم عنها وعما يستفاد منها، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك وهو يتحدث عن معركة أحد «. . . ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرّتان تنقلان القرَب على متونهما ثم تُفرغانه في أفواههم؛ ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم»[٢٤٦١]. وشاركت أم سُلَيط من نساء الأنصار في معركة أحد، وقد آثرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمرط جيد، مفضلاً إياها في هذا العطاء على زوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب؛ مجيباً من ذكرّه بأم كلثوم زوجته، بقولِهِ رضي الله عنه: أم سُلَيط أحق به- أي بالمرط- فإنها كانت تُزفِر لنا القرب يوم أحد[٢٤٦٢]. وعلى الدعاة أن يحاولوا أن يجعلوا نساءهم- كزوجاتهم أو أمهاتهم أو أخواتهم أو قريباتهم- داعيات معهم ليسهل على الدعاة ذوي العلاقة بهن تكليفهُن بأعمال الدعوة التي تناسبهن؛ ويكونوا- أي الدعاة- على اتصال سهل ميسور معهن. وإنما نطلب من الدعاة أن يعُدّوا المؤمنات ليكن داعيات؛ لأنه إذا جاز واستحبّ للنساء المسلمات أن يشاركن في حرب المسلمين مع الكفار؛ ويقمن بما يحتاجه المقاتلون ويناسب قدرات النساء، فمن باب أولى أن يكون من المرغوب فيه شرعاً أن يساهمن في الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة في أوساط النساء، وأن يقمن بالأعمال الأخرى من أعمال الدعوة التي هنّ أقدر

(٢٤٦٠) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٨٨.

(٢٤٦١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٨٩.

(٢٤٦٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٦٦- ٣٦٧.

عليها من الرجال كتبليغ خبر أو إيصال معونة إلى عوائل الشهداء من الدعاة ونحو ذلك.

١٢٦٤- على الدعاة تشجيع الداعيات:

وعلى الدعاة وهم يعدون المسلمات ليكنّ داعيات، أن يذكروا المسلمات بأن الدعوة إلى الله تعالى من وجائب الإسلام عليهن، كما أنها من وجائب الإسلام على الرجال المسلمين؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢٤٦٣]. كما أن على الدعاة أن يذكّروا المسلمات والداعيات منهنّ بمواقف المسلمات السابقات في عصر النبي ﷺ من الفواجع التي تصيب أهلهن في سبيل الله، ومن تعلقهن برسول الله ﷺ وبالحرص على سلامته؛ لتكون هذه القصص عنهن مشجعات للداعيات على أعمال الدعوة والاندفاع فيها. فمن هذه القصص أن حمنة بنت جحش لما أخبرت باستشهاد أخيها عبد الله بن جحش وخالها حمزة بن عبد المطلب في معركة أحد؛ استرجعت واستغفرت. ولما مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ في معركة أحد، فلما نعوا لها ذلك- أي أخبرت بقتلهم- قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيهِ حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل- تعني صغيرة[٢٤٦٤].

(٢٤٦٣) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

(٢٤٦٤) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٩٥.

الفصل الثامن

غزوة حمراء الأسد

المبحث الأول

ملخص الغزوة وأحداثها

١٢٦٥- أسباب هذه الغزوة:

وقعت معركة أحد يوم السبت الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة؛ وقد أصيب فيها النبي ﷺ وأصحابه كما أشرنا من قبل. ورجع النبي ﷺ وأصحابه متعبين إلى المدينة، وتوجه المشركون راجعين إلى مكة، وفي الطريق تلاوموا فيما بينهم؛ فقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً؛ قتلتم من قتلتم من المسلمين ولكن لم تقضوا عليهم فارجعوا إليهم حتى تقضوا عليهم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، وفي صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام خاف أن يرجعوا[٢٤٦٥]. ولا مانع أن يكون ما بلغه من رغبة المشركين في الرجوع إلى المسلمين هو نفس ما كان يتخوفه منهم. وعلى ذلك رأى ﷺ أن يخرج إليهم إرهاباً لهم وإعلاماً بأن ما أصابه وأصاب المسلمين لم يضعفهم عن الخروج إليهم لقتالهم.

١٢٦٦- لا يخرج معنا إلا من شهد قتال أحد:

وفي صباح اليوم التالي لمعركة أحد وبعد أن صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أمر بلالاً أن ينادي في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم بالخروج لطلب العدو وأنه لا يخرجْ معنا إلا من شهد القتال أمس. أي قتال أحد. فخرج سعد بن معاذ إلى داره يأمر قومه بالمسير وكلهم جريح فقال لهم: إن رسول الله يأمركم أن تطلبوا عدوكم، فقال أسيد بن حضير - وبه سبع جراحات يريد أن يداويها - سمعاً وطاعة لله ولرسوله، وأخذ سلاحه وترك الدواء ولحق برسول الله ﷺ، وخرج من بني سلمة

(٢٤٦٥) صحيح البخاري ج٧ ص٣٧٣.

أربعون جريحاً، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً، وبالحارث بن الصمة عشر جراحات، حتى قدموا على رسول الله ﷺ فلما رآهم قال: اللهم ارحم بني سلمة[٢٤٦٦].

وذكر ابن كثير في تفسيره عن محمد ابن إسحاق قال: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال: شهدنا أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي ورجعنا جريحين؛ فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي - أو قال لي - أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها؛ وما منا إلا جريح ثقيل؛ فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحاً منه، فكان إذا غلب حملته[٢٤٦٧].

١٢٦٧ - القرآن ينزل في مدح المستجيبين لرسول الله ﷺ:

وفي صحابة رسول الله ﷺ الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ بالخروج لطلب العدو أنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢٤٦٨] أي أن أصحاب رسول الله ﷺ الذين استجابوا لنداءه بالخروج لملاقاة العدو من بعد ما أصابتهم الجراح في معركة أحد، ودون أن تمنعهم جراحهم من الخروج طاعة لله ولرسوله، لهؤلاء أجر عظيم من الله سبحانه وتعالى وكلمة (من) في ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للتبيين وليس للتبعيض، ومثلها في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم[٢٤٦٩].

١٢٦٨ - الرسول ومن معه يصلون حمراء الأسد:

وخرج النبي ﷺ ومن معه من المسلمين متعقبين أبا سفيان قائد جيش المشركين،

(٢٤٦٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٨-٤٢٩، تفسير المنار ج٤ ص١٠٦، إمتاع الأسماع للمقريزي ص١٦٧.

(٢٤٦٧) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٨-٤٢٩.

(٢٤٦٨) سورة آل عمران الآية ١٧٢.

(٢٤٦٩) تفسير الزمخشري. ج١ ص٤٤٠-٤٤١.

حتى وصلوا (حمراء الأسد) وهو موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة. وأقبل معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم؛ وأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله[٢٤٧٠]. وفي تفسير ابن كثير: إن معبد الخزاعي كان يومئذ مشركاً[٢٤٧١] ويضيف ابن كثير على قوله في معبد بأنه كان مشركاً: وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح - أي موضع سره - لرسول الله ﷺ بتهامة لا يخفون عنه شيئاً كان بها[٢٤٧٢].

١٢٦٩ - معبد الخزاعي يخذّل أبا سفيان:

لحق معبد الخزاعي بأبي سفيان قائد جيش المشركين بالروحاء - موضع على طريق مكة يبعد عن المدينة أربعين ميلاً - فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابُهُ قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم. فقال أبو سفيان: ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة[٢٤٧٣].

١٢٧٠ - أبو سفيان يريد إرهاب المسلمين:

وفي طريقه إلى مكة لقي أبو سفيان بعض المشركين ممّنْ يريد المدينة؛ فقال أبو سفيان: هل لك أن تبلغ محمداً رسالة، وأوقر لك راحلتك زبيباً إذا أتيت مكة؟ قال: نعم. قال أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه. ولما بلغ النبيَّ ﷺ والمؤمنين قولُهُ وهم في حمراء الأسد قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل[٢٤٧٤]. فأنزل الله عز وجل فيهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

(٢٤٧٠) تفسير المنار ج٤ ص١٠٦.

(٢٤٧١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٩.

(٢٤٧٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٩.

(٢٤٧٣) تفسير المنار ج٢ ص١٠٦-١٠٧.

(٢٤٧٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٣٠، تفسير الألوسي ج١٤ ص١٢٥.

﴿وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[٢٤٧٥]. وقوله ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للمحسنين المذكورين في الآية قبلها ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ . . .﴾ وهذا القول هو الذي قاله أبو سفيان وحمّله بعض المشركين المتوجهين إلى المدينة ليبلغوه إلى النبي ﷺ. فكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الأولى الواردة في الآية هم هؤلاء المبلغون رسالة أبي سفيان إلى رسول الله ﷺ. وكلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثانية تعني أبا سفيان وجيش المشركين ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي ثبوتاً واستعداداً، والمراد أنهم لم يلتفتوا إلى تهديد أبي سفيان من أنه وجيشه عازمون على الرجوع إلى المدينة لاستئصالهم، هذا القول الذي أرسله أبو سفيان لتبليغه إلى النبي ﷺ لم يرهب النبي ﷺ ولا أصحابه؛ بل ثبت به يقينهم بالله ورعايته لهم، وازدادوا طمأنينة وثقة بربهم. وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. وهذا ظاهر إذا جعلنا الأعمال تدخل في مسمى الإيمان، وإذا أريد بالإيمان نفس التصديق والاعتقاد فإنه يزداد بكثرة التأمل وتعدد وكثرة الحجج والأدلة والبراهين. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي الله كافينا، ونعم الوكيل أي نعم الموكول إليه وهو الله تعالى. ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فخرجوا إليهم ورجعوا بنعمة عظيمة من الله تعالى. والمراد بها السلامة والظهور في اتباع العدو، أو الثبات على الإيمان وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ أو إذلالهم أعداء الله تعالى وإرهابهم على بعدٍ. أو المراد ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مجموع هذه الأمور ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي انقلبوا بفضل من الله تعالى وهو الأجر الذي حازوه والفخر الذي تجللوه كما قال ابن عطية في تفسيره، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي لم يصبهم قتل ولم يؤذهم أحد. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ فيما يأتون ويتركون وأطاعوا الله ورسوله، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة، والله ذو فضل عظيم حيث تفضل عليهم بما تفضل[٢٤٧٦].

(٢٤٧٥) سورة آل عمران، الآيتان ١٧٣، ١٧٤.

(٢٤٧٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٣٠-٤٣١، تفسير ابن عطية ج٣ ص٤٢٤-٤٢٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٤٢، تفسير الألوسي ج١٤ص١٤٥-١٤٩، فتح البيان ج٢ص٣٨٠.

المبحث الثاني
المستفاد من غزوة حمراء الأسد

١٢٧١- العدو لا يفهم غير لغة القوة:

عندما بلغ النبيّ ﷺ خبرُ عزم أبي سفيان على الرجوع بجيشِهِ إلى المدينة، أو أنَّ النبي ﷺ قدَّرَ في نفسه الشريفةِ هذا الرجوع، نهض بكل جدٍّ وحماس، وأمر مناديه باستدعاء أولئك الذين شاركوا في قتال العدو في معركة أحد، دعا منادي رسول الله هؤلاء للخروج لتتبع العدو، ولإظهار قوة المسلمين؛ وإعلام المشركين بأنَّ ما أصاب المسلمين يوم أحد لم يضعفهم، ولم يوهن عزيمتهم، وأن لرسول الله من القوة ما يمكّنه من ملاحقتهم. إن الأعداء؛ أعداء الإسلام وأعداء الدعوة إليه وأعداء دعاته لا يفهمون غير لغة القوة؛ لأن الضلال بلغ بهم مبلغاً حملهم على عداوة المسلمين لعقيدتهم لا لشيء آخر، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فلا ينفع معهم إلا القوة، وإظهار القوة وإرهابهم بالقوة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ. وعلى هذا فيجب على الدعاة وجماعتهم المسلمة أن يبذلوا كل ما يستطيعون لإعداد القوة بأنواعها: قوة الإيمان في نفوس منتسبيها وفي نفوس المسلمين عموماً، وقوة العلم، وقوة العدد من الدعاة والأنصار، وقوة النظام والتنظيم، وقوة العزيمة، وقوة الصبر على المكاره، وكل هذه القوة بأنواعها يراد بها مواجهة أعداء الدعوة لكشف شرهم.

١٢٧٢- الأعمال الصعبة تناط بالقادرين عليها:

لم يأذن رسول الله ﷺ بالخروج لملاحقة العدو إلا لمن اشترك في معركة أحد؛ لأن هؤلاء المشتركين فيها قد جُرِّبوا وامتحِنوا وتلقوا درساً قاسياً وعبرة وموعظة مما وقع لهم في تلك المعركة. فهم، إذن، وحدهم لا غيرهم المأهَّلون للقيام بهذه المهمة الخطيرة، مهمة ملاحقة العدو، فلا يخرج لها إلا المؤمنون الثابتون الذين يعلونَ بإيمانهم على جراحاتهم. فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة أن يعتبروا بذلك؛

ولا يتجاوزوا الذين جُرِّبوا وامتُحِنوا أو ثبتوا في مختلف الظروف والأحوال، وأن تناط أعمال الجماعة المهمة بهذا النوع من الدعاة لا بغيرهم، وأن لا يُقدَّم عليهم غيرهم ممن لم يُمتَحنوا بعد.

١٢٧٣- حرب الدعايات:

رأينا كيف حمَّل أبو سفيان بعض المشركين المتوجهين إلى المدينة رسالة لإبلاغها إلى رسول الله ﷺ خلاصتها أنه وجيشه عازمون على الرجوع إلى المدينة لإبادة المسلمين جميعاً. وأراد أبو سفيان برسالته تلك إرهاب المسلمين وإحداث الخلاف فيما بينهم فيما يجب أن يفعلوه. وقد فطن النبي ﷺ لهذا الغرض؛ غرض أبي سفيان، فقال وقال معه أصحابه الكرام: حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة قالها إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أُلقِيَ في النار فكفته. وقالها محمد ﷺ وأصحابُهُ فكفتهم، ثم نهض عليه الصلاة والسلام لملاحقة أبي سفيان وجنده. وهكذا جمع بين الأمرين: توكل كامل على الله، وأخذ بالأسباب بملاحقة العدو، فعلى جميع الدعاة وجماعتهم المسلمة أن لا تخيفهم دعايات العدو؛ ولا تزلزل أقدامهم ولا توهن عزائمهم، وإنما عليهم أن يتذكروا عناية الله بهم وكفايته لهم فهو خير من تُوكَل إليه الأمور، وبالتالي فليقولوا بألسنتهم وبقلوبهم: حسبنا الله ونعم الوكيل.. مع أخذ بالأسباب المادية. إن أهل الحق، أهل الدعوة إلى الله، لا يمكن أن تحوّلهم عن دعوتهم ومسيرتهم فيها دعايات أعداء الدعوة، ولا قوتهم؛ لأن قوة الله أكبر من قوتهم، ولأنهم يقومون بما يفرضه الله عليهم من واجب الدعوة إليه. أما النتائج، أما ما قد عسى أن يحدث أو ما يصيبهم، فهذا كله موكول إلى الله يحكم فيه وهو خير الحاكمين.

١٢٧٤- تخذيل العدو:

ولا بأس بالأخذ بأسلوب تخذيل العدو لحمله على عدم المضي في شره وفي تنفيذ ما هو عازم عليه، وأن تستعين جماعة الدعاة وأميرهم بالقادرين على مهمة تخذيل العدو، كالذي قام بتخذيل أبي سفيان وحمله على عدم الرجوع إلى المدينة، بعلم ورضا من رسول الله ﷺ. ويستحسن لهذه المهمة اختيار المخلصين للدعوة؛ غير المعروفين لدى المؤمنين مع اطمئنان العدو بهم وبما يشيرونه عليهم، وهذا ما

كان متحققاً في معبد الخزاعي الذي أسلم ولم يعلم بإسلامه المسلمون ولا أبو سفيان؛ وأذن له النبي عليه السلام بتخذيل أبي سفيان؛ وحمله على عدم الرجوع إلى المدينة.



الفصل التاسع

غزوة الخندق (الأحزاب)

المبحث الأول

أسبابها وأحداثها

١٢٧٥- تاريخ حدوثها وسبب تسميتها:

وقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة للهجرة[٢٤٧٧]. وسميت بغزوة «الخندق» لأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ. وأما تسميتها بغزوة «الأحزاب» فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين. وهم قريش وغظفان وآخرون من قبائل العرب واليهود ومن تبعهم[٢٤٧٨].

١٢٧٦- اليهود يحرضون قريشاً على قتال المسلمين:

قريش كانت في حرب مع المسلمين، حاربتهم في بدر وأحد، وظلت تتحين الفرص لقتال المسلمين واستئصالهم، ولذلك لما جاءها وفد من اليهود يحرضهم على قتال المسلمين وغزوهم في عقر دارهم، لقي تحريضهم هوى من نفوس قريش، لا سيما وأن هذا الوفد وعد قريشاً بنصرتهم وقتال المسلمين معهم. ومن أخبار هذا الوفد أنهم لما قدموا على قريش سألهم بعض رؤساء قريش: أديننا - أي دين قريش - خير أم دين محمد؟ فقالوا: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتّبعه فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾[٢٤٧٩].

(٢٤٧٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٢٩٣، السنة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٤١٨.

(٢٤٧٨) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢٤٧٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٥١٣، والآية في سورة النساء ورقمها ٥١.

وفي تفسير الزمخشري بصدد هذه الآية: إن حييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ. فقالوا لليهود: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا. فهذا إيمانهم ﴿ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾؛ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب بن الأشرف: أنتم أهدى سبيلاً. فأنزل الله هذه الآية[٢٤٨٠].

١٢٧٧- اليهود يحرضون القبائل على قتال المسلمين:

ثم خرج الوفد اليهودي من مكة إلى نجد يحرض القبائل على قتال المسلمين، فحالف قبيلة غطفان الكبيرة على حرب المسلمين، ثم طاف هذا الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ما دعا إليه قريشاً وغطفان فاستجاب له من استجاب، وبعد إجراء هذه التحالفات اتفق الجميع على تجمعهم في مرّ الظهران التي تبعد عن مكة أربعين كيلو متر، ومن هناك توجه الأحزاب جميعاً: قريش وحلفاؤها، وغطفان وحلفاؤها، وبقية من استجاب لتحريض اليهود، توجهوا جميعاً نحو المدينة المنورة يريدون غزوها واقتحامها ومقاتلة المسلمين فيها[٢٤٨١].

١٢٧٨- النبي ﷺ يشاور أصحابه:

ولما بلغت النبيّ ﷺ أخبار قريش وحلفائها وتوجههم نحو المدينة استشار النبي ﷺ أصحابه في هذا الأمر وفيما يجب عمله. فأشار كل من عنده رأي برأيه، وكان رأي الصحابي الجليل سلمان الفارسي أن يحفر المسلمون خندقاً حول المدينة ويقاتلون خلفه، فقد قال سلمان وهو يبدي رأيه: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا» فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه قبل أن يأتي المشركون ويحاصروهم[٢٤٨٢]. وقد

(٢٤٨٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٢١.

(٢٤٨١) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٤١٩-٤٢٠، الرحيق المختوم ص٢٧٥.

(٢٤٨٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٢،٣٩٣، تفسير الألوسي ج٢١ =

أعطى كل أربعين ذراعاً لعشرة يحفرونه.

١٢٧٩- الرسول ﷺ يشارك أصحابه في حفر الخندق:

أخرج البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخندَقَ رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدةَ بطنه - وكان كثير الشعر - يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزل سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادو فتنة أبينا

قال البراء ثم يمدّ ﷺ صوته بآخرها[٢٤٨٣].

١٢٨٠- الرسول ﷺ يشجع أصحابه على الحفر ويدعو لهم:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة.

فقالوا - أي أصحابه الكرام - مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً[٢٤٨٤]

١٢٨١- أحداث وقعت في أثناء حفر الخندق:

أولاً- الإذن لابن عمر بالقتال:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ عرَضه يوم أحد وهو ابن أربع عشر سنة فلم يُجْزهُ، وعرضه يوم الخندق

= ص١٥٥.

(٢٤٨٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٩-٤٠٠.

(٢٤٨٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٢.

وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه»[٢٤٨٥]. وقوله «فأجازه» أي أمضاه وأذن له في القتال وفي حديث أبي واقد الليثي: «رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق فأجاز من أجاز ورد من ردَّ إلى الذراري»[٢٤٨٦]. وقوله «عرضه يوم أحد» عرض الجيش اختبار أحوالهم قبل مباشرة القتال للنظر في هيئتهم وترتيب منازلهم ومن يصلح للقتال ومن لا يصلح وغير ذلك[٢٤٨٧].

١٢٨٢- ثانياً- النبي ﷺ يثير أصحابه وهو يحفر الخندق:

أخرج البخاري في صحيحه عن جابر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فعرضت كُدْية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْية عرضت في الخندق. فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيباً أهيل، أو أهيم»[٢٤٨٨]. قوله فعرضت كُدْيه هي القطعة الشديد الصلبة في الأرض. وكان بطنه ﷺ معصوب بحجر من الجوع، وقوله «ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً» هي جملة معترضة أوردها لبيان السبب في ربطه ﷺ الحجر على بطنه. فأخذ المعول أي المسحاة فضرب في الكدية فعاد كثيباً أي رملاً، أهيل أي يسيل ولا يتماسك. ووقع في رواية أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض» ثم ضرب الثالثة وقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر» أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر

(٢٤٨٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٢.

(٢٤٨٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٤.

(٢٤٨٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٣.

(٢٤٨٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٥.

أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة». ففرح المسلمون واستبشروا[٢٤٨٩].

١٢٨٣- ثالثاً- تكثير الطعام:

في حديث جابر رضي الله عنه الذي أخرجه الإمام البخاري في حفر الخندق «.. فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبيِّ ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت عندي شعير وعَناق - وهي أنثى المعز - فذبحتُ العناق وطحنَتِ الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبُرمَة. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافيِّ قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيّهم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له. فقال: كثير طيب. قال ﷺ: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال ﷺ: ادخلوا ولا تضاغطوا: فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبر ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية؟. قال: كلي هذا وأهدي، فإنَّ الناس أصابتهم مجاعة»[٢٤٩٠].

قولها «عندي شعير» جاء في رواية أنه صاع. «وعناق» هي الأنثى من المعز. قوله «فذبحتُ، وطحنَتِ» فالذي ذبح هو جابر وامرأته هي التي طحنت «والعجين قد انكسر» أي لان ورطب وتمكن منه الخمير. «والبرمة بين الأثافيِّ» أي الحجارة التي توضع عليها القدر وهي ثلاثة، وفي رواية لهذه القصة جاء فيها «فلما دخل - أي جابر - على امرأته قال: ويحكِ جاء رسول الله ﷺ بالمهاجرين والأنصار، قالت: «هل سألك أي النبي ﷺ؟ قال: نعم..» وفي رواية أخرى: «فدخلتُ - أي جابر - على امرأتي أقول: افتضحت: جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين. فقالت، هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، قال جابر: فكشفت عني غماً شديداً. وفي محاورتها لزوجها جابر ما يدل على وفور عقلها وكمال فضلها؛ لأنها فهمت أن النبي ﷺ لم يحضر معه المهاجرون

(٢٤٨٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٦-٣٩٧.

(٢٤٩٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٥.

والأنصار مع إخباره بقلة طعامهم إلا أن يكون وراء ذلك سرّ أو خارق للعادة. قوله: «ولا تضاغطوا» أي لا تزدحموا وقوله: «ويخمر البرمة» أي يغطيها. وقوله: «ثم ينزع» أي يأخذ اللحم من البرمة. وفي رواية لهذه القصة: قال ﷺ: «ادع خابزة فلتخبز معكم أي تساعدكم» وفي رواية أبي الزبير عن جابر «وأقعدَهم عشرة عشرة فأكلوا» فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعون، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا. قوله: «كلي هذا وأهدي» أي أن النبي ﷺ أمر امرأة جابر أن تأكل وتهدي لجيرانها وللمحتاجين، ثم بيَّن ﷺ سبب قوله لها ذلك، بقوله: «فإن الناس أصابتهم مجاعة». قالت امرأة جابر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع وفي رواية أخرى: فأكلنا نحن وأهدينا لجيراننا»[٢٤٩١].

١٢٨٤- الاستئذان ثم إذن النبي ﷺ لمن يشاء:

كان المؤمنون في حفر الخندق لا يخرجون لقضاء حوائجهم الملحة إلا بعد أن يستأذنوا رسول الله ﷺ، فإذا أذن لمن استأذن خرج ثم عاد سريعاً إلى عمله في حفر الخندق، وإن لم يأذن له النبي ﷺ لم يخرج وبقي في الخندق. أما المنافقون فكانوا يخرجون بدون استئذان، فأنزل الله تعالى في بيان هذه الحالة قول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢-٦٣] والمعنى: إنما الكاملون في الإيمان هم الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه، أي الأمر الذي يُجمَع له الناس نحو مقاتلة عدو أو إرهابه أو تشاور في حدث مهم أو تجمع لإرهاب منافق أو تهيؤ لحرب أو جهاد أو أمر يعم الناس نفعه أو ضرره وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع لغرض من الأغراض المشروعة ﴿لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي لم يذهبوا عنه ﷺ وجمعه حتى يستأذنوه في الذهاب فيأذن لهم به فيذهبون. وهذا الاستئذان علامة

(٢٤٩١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٧-٣٩٨.

على إيمان المستأذن وللميز للمؤمن عن المنافق فإن عادته التسلل للفرار. ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض أمرهم المهم ومساس الحاجة إليه، ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وهذا تفويض للأمر إليه ﷺ. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾ وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأحسن والأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه. وقال الحسن: وغير الرسول ﷺ من الأئمة مثله في ذلك لما فيه من أدب الدين وأدب النفس. وقال الزمخشري: وقال العلماء كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مفوض للإمام إن شاء أذن وإن شاء أبى على حسب ما اقتضاه رأيه. وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي إذ احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر من الأمور فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجتمع بغير إذن الداعي. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ هذا وعيد لمن هو بضد أولئك المؤمنين الذين لم يذهبوا حتى يستأذنوه عليه الصلاة والسلام، أي قد يعلم - وقد للتحقيق هنا - الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً على التدريج والخفية.﴿لِوَاذًا﴾ أي ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج. واللواذ من الملاوذة وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك. ولواذاً من الآية مصدر في موضع الحال أي متلاوذين أي يلوذ بعضهم ببعض كما قلنا، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يخالفون أمره ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء ومحنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يصيبهم عذاب أليم في الآخرة(٢٤٩٢).

١٢٨٥- وصول المشركين ومقابلتهم لجيش المسلمين:

وصلت جموع المشركين إلى المدينة وإذا بالخندق يفاجئهم، إذ لم يكن لهم به عهد كأسلوب في الدفاع والحماية في الحروب. وكان جيش المشركين عشرة آلاف مقاتل كما ذكرنا من قبل. وكان جيش المسلمين الذي قابل جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، وقد جعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق

(٢٤٩٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٥٩-٢٦٠، تفسير القرطبي ج١٢ ص٣٢٠-٣٢١، تفسير الألوسي ج١٨ ص٢٢٣-٢٢٦.

بينهم وبين جيش المشركين. ولم يحدث التحام مباشر بين الجيشين، وإنما اقتصر القتال بين الفريقين على المراماة بالنبل والمناضلة والمبارزة، ومنها مبارزة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو بن ود العامري حيث اقتحم الخندق من ناحية ضيقة فيه حتى صار بالسبخة فبارزة علي رضي الله عنه فقتله[٢٤٩٣].

١٢٨٦- أحداث وقعت أثناء حصار المشركين للمدينة:

أولاً- إرسال حذيفة بن اليمان للتعرف على أحوال العدو:

وقد حدث هذا الإرسال بعد مضي أيام كثيرة من الحصار وقبيل أن يرحل المشركون، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أنه قال: «لقد رأيتَنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب - أي في حصار المشركين للمدينة - وأخذتنا ريح شديدة وقرٌّ فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا ولم يجبه منا أحد، فقال ﷺ: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَذعْرهم عليَّ. فلما وليت من عنده جعلتُ كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يَصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرمَيه فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم عليَّ، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُرِرتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان»[٢٤٩٤]. وجاء في شرحه: قوله: «وأخذتنا ريح شديدة وقرّ» القرّ هو البرد. وقوله بعد هذا: «قُرِرتُ» أي بردت. وقوله: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَذعْرهم عليَّ» معناه لا تفزعهم عليّ، والمراد: لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً عليَّ لأنك رسولي وصاحبي، وقوله: «كأني أمشي في حمام حتى أتيتهم» يعني أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس ولا من تلك

(٢٤٩٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٠٠.

(٢٤٩٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٤٥-١٤٦.

الريح الشديدة شيئاً بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ. فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذا من معجزات رسول الله ﷺ. ولفظة الحمام عربية وهو مذكر مشتق من الحميم وهو الماء الحار. قوله: «فرأيت أبا سفيان يَصْلي ظهره» أي يدفّئه ويُدنيه من النار. قوله: «كبد القوس» هو مقبضها. وكبد كل شيء وسطه. وقوله: «قم يا نَوْمَان» وهو كثير النوم. وقوله: «أصبحت» أي طلع الفجر. وفي هذا الحديث أنه ينبغي للإمام وأمير الجيش أن يرسل من يكشف له أحوال العدو[٢٤٩٥]. وأن يلتزم بأوامر ووصايا أميره.

١٢٨٧- ثانياً - بنو قريظة تنقض العهد مع رسول الله ﷺ:

بنو قريظة طائفة من اليهود جرى عهد بينها وبين رسول الله ﷺ على المهادنة وعدم إعانة العدو عليه، ولكنها نقضت العهد بتحريض من حيي بن أخطب اليهودي، كما سيأتي بيانه فيما بعد. فلما بلغ النبي ﷺ ذلك بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوَّات بن جبير، وقال انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم - أي بني قريظة - فتنظروا أحقٌّ ما بلغنا عنهم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه - يعني بأسلوب التعريض والتلويح لا التصريح - ولا تفتّوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوا بني قريظة فوجدوا أن الخبر صحيح، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد له عندنا. فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: عَضَلٌ والقارة، أي غدرٌ من بني قريظة كغدر عَضَل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم ليعلموهم الإسلام والقرآن فقتلوهم، فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين، أبشروا بفتح الله ونصره»[٢٤٩٦].

١٢٨٨- ثالثاً - صفية تقتل يهودياً من بني قريظة:

كان ﷺ قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم؛

(٢٤٩٥) شرح النووي لصحيح مسلم ج١٢ ص١٤٥-١٤٦.

(٢٤٩٦) السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج٢ ص٢٨١-٢٨٢ تفسير القرطبي ج١٤ ص١٣٣.

لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيش المشركين، فلما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ وأعلمت بذلك الوفد الذي أرسله النبي ﷺ ليستجلي خبر نقضهم، أخذوا يعلنون موقفهم العدائي من رسول الله ﷺ والمسلمين، فأخذوا يمدون جيش المشركين بالمؤن حتى إن المسلمين أخذوا من مؤنهم عشرين جملاً. كما أرسلوا يهودياً ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم، فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ فأخذت عموداً ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته. وكان هذا الفعل من صفية رادعاً لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال[٢٤٩٧].

١٢٨٩- رابعاً- مشاورة النبي ﷺ السعدين:

وشاور ﷺ السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة بشأن مصالحة عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا من جيش المشركين ويكفوا عن تحالفهما مع قريش في هذا الحصار للمدينة، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه؟ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة واجتمعوا عليكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرىً - ما يقدم للضيف - أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهكذا لم يحصل هذا الصلح[٢٤٩٨].

(٢٤٩٧) الرحيق المختوم ص٢٨٣-٢٨٤.

(٢٤٩٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٨٤.

١٢٩٠- حال المؤمنين والمنافقين في أثناء الحصار:

كانت حال المؤمنين في حصار المشركين للمدينة شديدة، وزاد من شدتها نقض بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ وإعلانهم الحرب عليه، وإرجاف المنافقين، وقد نزل القرآن بوصف تلك الحالة وما كان عليه حال المؤمنين والمنافقين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا . إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ . هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾[٢٤٩٩] تبدأ الآية الأولى بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم يوم الأحزاب أي معركة الخندق، فتذكر بدء المعركة وختامها بصورة مجملة مع ذكر العناصر الحاسمة فيها وهي: مجيء جنود المشركين، وإرسال الله الريح عليهم، وإنزال الملائكة التي لم يرها المؤمنون، ثم نصر الله المرتبط بعلم الله بهم وبصره بعملهم[٢٥٠٠]. ثم تفصل الآية ما أجملته في صدرها فتقول: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ وهم الأحزاب: قريش ومن حالفها أو وافقها على محاربة المسلمين وغزو مدينتهم مثل غطفان وغيرها، وكذلك يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، وأعلنوا الحرب عليه، وانضموا إلى جيش المشركين في قتالهم للمسلمين. ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ أي أرسل الله على المشركين ريحاً آذتهم وأقلقتهم وقلعت خيامهم، ولم تؤذ المسلمين بشيء مع أنهم قريبون من المشركين لم يفصل بينهم سوى الخندق ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ أي وأنزل الله ملائكة زلزلت المشركين، وألقت في قلوبهم الرعب والخوف. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من حفر الخندق وترتيب أمور الحرب والاستعداد لها. إعلاءً لكلمة الله ونصرة لدينه ﴿بَصِيرًا﴾ ولذلك فعل تعالى ما فعل لنصركم عليهم. وتبدأ الآية الثانية بتفصيل لما كان عليه حال المسلمين من شدة وهلع بعد أن أحكم المشركون حصارهم للمدينة، فقال تعالى في هذه الآية: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي من أعلى الوادي وأسفله بقصد الإحاطة بالمدينة وإحكام الحصار عليها وعلى مداخلها. ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي مالت عن

(٢٤٩٩) سورة الأحزاب الآيات من ٩-١١.

(٢٥٠٠) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٨٣٦.

سننها ومستوى نظرها حيرة ودهشة فلم تعد تلتفت إلا إلى عدوها دهشاً من فرط الهول. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي خافت خوفاً شديداً أو فزعت فزعاً عظيماً حتى كأن القلوب لشدة اضطرابها لما انتابها من خوف بلغت الحناجر، وهذا مثل يضرب لشدة الخوف الذي يصيب الخائف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة، فيظن المؤمنون المخلصون منكم أن الله تعالى سينجز وعده في إعلاء دينه ونصرة نبيه ﷺ، أو أن يمتحنهم فيخافون أن تزل أقدامهم فلا يتحملون ما نزل بهم. ويظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن المشركين سيستأصلون المسلمين ويتغلبون عليهم، وقال بعض السلف في معنى الآية ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظنون مختلفة، ظنَّ المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأَصلون. وأيقن المؤمنون أنَّ ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهر على الدين كله، وتحتمل الآية القول بأن الخطاب فيها للمؤمنين ظاهراً وباطناً، واختلاف ظنونهم بسبب أنهم يظنون تارة أن الله سبحانه سينصرهم على الكفار من غير أن يكون لهم استيلاء عليهم أولاً، ويظنون تارة أنه عز وجل سيدع الكفار ينتصرون على المسلمين فيستولون على المدينة ثم ينصرهم عليهم بعد. أو أنّ بعضهم يظن هذا وبعضهم يظن ذاك. أو يقال: إن ظنون المؤمنين المختلفة هي ظن النصر بدون أن ينال العدو منهم شيئاً، أو ظن النصر بعد أن ينال العدو منهم شيئاً ليمتحن صبرهم وثباتهم. ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف مكان ويستعمل للزمان، أي في ذلك الوقت الهائل الشديد الذي كان فيه المسلمون: من حصار لمدينتهم، ومن كثرة عدوهم، ومن إرجاف المنافقين، ومن غدر بني قريظة ودخولهم الحرب مع المشركين ضد المسلمين، ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي اختبرهم الله تعالى أي اختبر إيمانهم وثباتهم، أي عاملهم معاملة المختبر ليظهر المخلص في إيمانه من المنافق، والراسخ في إيمانه من الضعيف فيه. واختبارهم بالجوع وبشدة الحصار وبالصبر على مقتضيات الإيمان. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي اضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الفزع وكثرة الأعداء. في تلك الحالة الشديدة ظهر أهل النفاق بأقوالهم التي كشفت عن نفاقهم والتي أخبرنا الله عنها[٢٥٠١].

(٢٥٠١) تفسير الألوسي ج٢١ ص١٥٥-١٥٨، تفسير القاسمي ج٣ ص٢٣٢.

١٢٩١- بعض أقوال المنافقين والمرضى القلوب:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢٥٠٢] يذكر الله تعالى في هذه الآية قول المنافقين والمرضى القلوب على جهة الذم لهم، يعني مُعَتِّب بن قُشير قال: يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة، ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط، ما يعدنا إلا غروراً أي أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، وقال غيره نحو هذا فنزلت الآية فيهم، وقولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قالوا ذلك على جهة الهُزْء كأنهم يقولون: على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول، ويدل على هذا أنَّ من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور[٢٥٠٣]. ومعنى ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرضهم هو الشك والريبة أي أهل الشك والاضطراب، قيل هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم، فيرددون ما يقوله المنافقون[٢٥٠٤]. وقيل هم قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام[٢٥٠٥].

١٢٩٢- قول آخر لطائفة من المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا. .﴾[٢٥٠٦] الطائفة تقع على الجماعة والواحد ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي يا أهل المدينة، ويثرب هي المدينة، وسماها رسول الله ﷺ طيبة وطابة. ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي ها هنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ومدافعة العدو، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم[٢٥٠٧] وكان ذلك منهم على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ[٢٥٠٨].

(٢٥٠٢) سورة الأحزاب، الآية ١٢.

(٢٥٠٣) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٤-٢٥.

(٢٥٠٤) تفسير فتح البيان ج١١ ص٥٧.

(٢٥٠٥) تفسير الألوسي ج٢١ ص١٥٨.

(٢٥٠٦) سورة الأحزاب الآية ١٣.

(٢٥٠٧) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٤٨.

(٢٥٠٨) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٦.

١٢٩٣- فرار المنافقين من القتال بأعذار واهية:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[٢٥٠٩]. أي ويستأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ في الرجوع إلى المدينة ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي سائبة ضائعة ليست بحصينة وهي مما يلي العدو. وقيل: يسهل سرقتها لخلوها من الرجال. وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة. فاستأذنوا النبي ﷺ ليحصنوا بيوتهم ثم يرجعوا إليه، ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ فأكذبهم الله تعالى فيما ادعوه، وبيّن حقيقة ما يريدون وهو ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي لا يريدون بعذرهم الكاذب إلا الفرار من القتال ومدافعة العدو[٢٥١٠].

١٢٩٤- بعض أوصاف المنافقين الفارين:

قال تعالى عن أولئك المنافقين: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾[٢٥١١]. أي لو دُخِلت المدينة، وقيل: بيوتهم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفاً منها، لو دخلت هذه العساكر مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها وانصبوا على أهاليهم، أولادهم ناهبين وسابين ثم سئلوا عند ذلك الفزع الذي انتابهم ﴿ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين لأتوها أي لجاؤها وفعلوها ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ ﴾ أي ما تأخروا في إعطاء الفتنة التي طلبها منهم المشركون ﴿ إِلَّا يَسِيرًا﴾ إلا وقتاً يسيراً ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف، أو وما لبثوا بالمدنية بعد ارتدادهم إلا يسيراً فإن الله يهلكهم[٢٥١٢].

١٢٩٥- المنافقون المعوقون:

قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا

(٢٥٠٩) سورة الأحزاب، الآية ١٣.

(٢٥١٠) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٤٨-١٤٩.

(٢٥١١) سورة الأحزاب الآية ١٤.

(٢٥١٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٢٨.

قَلِيلًا﴾[٢٥١٣]. يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، المثبطين عن نصرة رسول الله ﷺ والقتال معه وهم المنافقون، والقائلين لإخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي أقبلوا إلينا أو قربوا أنفسكم إلينا أي إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار. و(هَلُمَّ) في لغة أهل الحجاز تستعمل للواحد والجماعة وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً خوفاً من الموت، فهم يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم خرجوا معهم للقتال ولكن في الواقع لا يبارزون ولا يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه[٢٥١٤].

١٢٩٦- المنافقون أَشحة على المؤمنين:

قال تعالى عن المنافقين المعوقين المثبطين عن رسول الله ﷺ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢٥١٥]. قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم أي بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله والقتال معكم. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ أي من العدو ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي أبصرتهم ينظرون إليك في تلك الحالة خوفاً من القتال. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً من شدة خوفهم وجزعهم حتى لا يستقر منهم النظر إلى جهة، وقيل تدور أعينهم لشدة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه. ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كدوران عين الذي قرب من الموت وغشيته أسبابه، فيصيبه الذهول، ويذهب عقله، ويشخص بصره فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف.﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك. وآذوكم بالكلام

(٢٥١٣) سورة الأحزاب الآية ١٨.

(٢٥١٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٢٩-٥٣٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤، تفسير القرطبي ج١٤ ص١٥١-١٥٢.

(٢٥١٥) سورة الأحزاب الآية ١٩.

الشديد. والسلق: الأذى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة. وقال قتادة: المعنى بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنائم يقولون: أعطونا فإنا قد شهدنا معكم القتال، فعند الغنيمة هم أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي أشحة على فعل الخير، فهم قليلو فعل الخير بأنواعه سواء بإنفاق المال في سبيل الله، أو في غيره من أنواع الخير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ إيماناً خالصاً، بل هم منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها، بمعنى أظهر بطلانها؛ لأنها لم تكن صحيحة تقتضي الثواب حتى يبطلها الله وتحبط. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك الإحباط لأعمالهم على الله تعالى هيناً[٢٥١٦].

١٢٩٧- المنافقون لا يصدقون بهزيمة الكفار:

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٥١٧] أي إن أولئك المنافقين من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف، ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي لم ينهزموا بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود وأن لهم عودة إليهم يحسبون هذا الحساب ويظنون هذا الظن لخورهم واضطرابهم. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي مرة أخرى ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ أي القادمين ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي عما جرى لكم مع عدوكم، ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة لو أتى الأحزاب بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ عند حدوث واقعة ثانية ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو كانوا بينكم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم، وحتى هذا القتال القليل

(٢٥١٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤، تفسير القرطبي ج١٤ ص١٥٢-١٥٣، وتفسير فتح البيان ج١١ ص٦٣-٦٤.

(٢٥١٧) سورة الأحزاب الآية ٢٠.

لا يفعلونه إلا رياء وخوفاً من التعيير بالقعود عن القتال(٢٥١٨).

١٢٩٨- للمؤمنين الأسوة الحسنة في رسول الله:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢٥١٩). هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج والنصر من ربه سبحانه وتعالى صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. ولهذا قال تعالى للذين قلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب -معركة الخندق-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ فصبرتم، ولم تقلقوا ولم تضجروا ولم تتزلزلوا وأنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢٥٢٠) أي لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال. أو لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم الآخر، وذكر الله كثيراً خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه(٢٥٢١).

١٢٩٩- قول المؤمنين لما رأوا الأحزاب:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢٥٢٢) اختلف المفسرون: ماذا أراد المؤمنون بوعد الله ورسوله؟ فقال بعضهم: أرادوا ما أعلمهم به رسول الله ﷺ حين أمرهم بحفر الخندق، فإنه أعلمهم بأنهم سيُحصَرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وبأنهم ينتصرون بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب وحصارهم للمدنية قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله فسلموا الأمر وانتظروا أجره. وقال البعض الآخر وهو المروي عن ابن عباس وقتادة أرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

(٢٥١٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤، تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٣٦.

(٢٥١٩) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢٥٢٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤.

(٢٥٢١) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٥٦.

(٢٥٢٢) سورة الأحزاب الآية ٢٢.

﴿تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٢٥٢٣]. أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[٢٥٢٤]. وقال الإمام ابن عطية في تفسيره: ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية - آية البقرة - وفي قول رسول الله ﷺ عند أمرهم بحفر الخندق، وأشاروا بالوعد - أي بقولهم ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ - إلى جميع ذلك وهما مقالتان. إحداهما من الله تعالى، والأخرى من رسوله ﷺ[٢٥٢٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيماناً بالله وتسليماً أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ. وفي هذه الآية دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة: الإيمان يزيد وينقص[٢٥٢٦].

١٣٠٠- نشوب الخلاف بين بني قريظة وبين المشركين:

وكان من لطف قضاء الله وتقديره ولطف تدبيره للمسلمين، أن أسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، فأتى إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامه فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئنا، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذّلتَ عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعه». فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: فلستَ عندما بمُتَّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نهزة - فرصة - أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل - يريد محمداً ﷺ - ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا

(٢٥٢٣) سورة البقرة الآية ٢١٤.

(٢٥٢٤) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٣٨، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤-٤٧٥.

(٢٥٢٥) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٣٩.

(٢٥٢٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٥.

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لهم: قد عرفتم وِدّي لكم معشر قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحق أنْ أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عليّ. قالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمداً، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضربَ أعناقهم ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غطفان فقال مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عِكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم: إنا لسنا بدار مُقَام فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمداً. فأجابتهم بنو قريظة: إن اليوم يوم السبت لا نقاتل فيه، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن، فلما أخبرت قريش بذلك، قالت: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً. فاخرجوا معنا حتى نقاتل محمداً وإلا فلا عهد بيننا وبينكم. فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان[٢٥٢٧]، وكان ذلك من أسباب استعجال قريش بالرحيل وتوقف بني قريظة من الاستمرار في معاونة قريش في حصارها المدينة وحربها مع المسلمين.

١٣٠١- عزم قريش ومن معها على الرحيل والرجوع إلى مكة:

ومع اختلاف بني قريظة مع قريش وحلفائها الذي أضعفهم، بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً في ليالٍ شديدة البرد، فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم وتطفىء نارهم وألقت الملائكة في قلوبهم الرعب، حتى قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقَام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ونقضت العهد معنا، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أُطلق عقاله إلا وهو قائم. قال حذيفة - وكان قد أرسله النبي ﷺ يستجلي أخبار قريش وما بلغه من اختلافٍ بينهم وبين بني قريظة - قال حذيفة وقد سمع مقالة أبي سفيان هذه:

(٢٥٢٧) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٣٥-١٣٧.

ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا تُحِدثَ شيئاً حتى تأتيني لقتلته بسهم. وفي هذه الرواية في إرسال حذيفة إلى المشركين للوقوف على أخبارهم وما عندهم، قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجند الله تفعل بهم ما تفعل، قام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش: لينظر كل امرىءٍ من جليسه، قال حذيفة رضي الله عنه: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا فلان بن فلان[٢٥٢٨]. وإنما قال أبو سفيان ذلك خوفاً من أن يكون بينهم أحدٌ من المسلمين فطلب من كل واحد أن يتأكد من هوية جليسه فبادر حذيفة بسؤال جليسه، وكان ذلك منه مبادرة جيدة دلّت على حسن بديهة وحسن تخلصه.

١٣٠٢- تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم بنصرهم على المشركين:

وبرحيل وفرار المشركين من حصار المدينة زال ما كان يتهددها ويتهدد المسلمين من خطر المشركين، وكان ذلك من نعمة الله عليهم التي يجب أن تُذكَر ولا تُنسَى، وقد ذكَّر الله بها المسلمين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٢٥٢٩].

كما ذكّرهم بنعمته تعالى بكف شر المشركين عنهم فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا. وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا. وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾[٢٥٣٠]. أي ردّ المشركين الذين حاصروا المدينة مغيظين خائبين خاسرين لم ينالوا خيراً لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في محاربتهم لرسول الله ﷺ والمسلمين. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعزّ جنده، ولهذا كان ﷺ يقول: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده» وفي قوله تعالى:

(٢٥٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧١.

(٢٥٢٩) سورة الأحزاب، الآية ٩.

(٢٥٣٠) سورة الأحزاب الآيات ٢٥-٢٧.

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم، ولهذا لما رجع المشركون عن حصارهم وولوا إلى ديارهم مخذولين، ورجع المسلمون إلى المدينة قال ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم». ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ والمقصود بهؤلاء يهود بني قريظة بإجماع المفسرين، وذلك لغدرهم ونقضهم العهد مع رسول الله ﷺ ومعاونتهم لقريش في حصارها للمسلمين. ﴿ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أي حصونهم. وقذف الله في قلوبهم الخوف، لأنهم مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ ولم يرعوا عهدهم معه، وهكذا أصاب هؤلاء اليهود عكس ما أرادوا: أرادوا العزّ فذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستئصلوا، وأرادوا الغلبة على المسلمين فغُلبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والذين أسروا هم الصغار والنساء. ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ إشعار بأنه انتقل إليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين ﴿ وَدِيَٰرَهُمْ ﴾ أي حصونهم ﴿ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم التي اشتملت عليها أرضهم وديارهم. وروي أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين، دون الأنصار فقالت الأنصار في ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: إنكم في منازلكم، فقالوا: رضينا بما صنع الله تعالى ورسوله. ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ قيل هي خيبر، وقيل مكة، وقيل فارس والروم. قال ابن جرير يجوز أن يكون الجميع مراداً. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ فهو سبحانه وتعالى قادر على أن يملككم ما يشاء[٢٥٣١].

١٣٠٣ - تاريخ غزوة الخندق ومدتها:

وقعت غزوة الخندق، الأحزاب، في السنة الخامسة للهجرة، كما أشرنا من قبل ودام حصار المشركين للمدينة عشرين ليلة وفي رواية أربعاً وعشرين. وقال قتادة دام الحصار شهراً[٢٥٣٢].

(٢٥٣١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٦-٤٧٨، تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٦-٤٩، تفسير الآلوسي ج٢٢ ص١٧٩-١٨٠.

(٢٥٣٢) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٢٨.

المبحث الثاني
المستفاد من غزوة الخندق (الأحزاب) للدعوة والدعاة

١٣٠٤- الأخذ بالأسلوب النافع وإن كان الكفار يستعملونه:

ذكرنا أن النبي ﷺ استشار أصحابه عما ينبغي فعله لمواجهة زحف المشركين على المدينة، وكان رأي سلمان الفارسي أن يحفروا حول المدينة خندقاً، معللاً ذلك بقوله: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا» فاستحسن النبي ﷺ رأيه وأخذ به وأمر بحفر الخندق، وإن كان هذا الأسلوب من الحرب ومدافعة العدو كان من أساليب فارس. ومعنى ذلك أن النافع من الأمور الدنيوية قد يعرفه الكفار عن طريق التجربة وأن لا مانع من فعله من قبل المسلمين، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يستفيدوا من وسائل وأساليب الكفرة فيما يتعلق بنشر الدعوة أو في خططهم في مواجهة أعدائهم ونحو ذلك. وهكذا فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عندما وضع الدواوين وهو ما كان يفعله الفرس في بلادهم.

١٣٠٥- على قادة جماعة الدعاة مشاركة أفرادها في أعمال الدعوة:

ذكرنا أن النبي ﷺ شارك أصحابه في حفر الخندق وحمل التراب بنفسه الشريفة وكان يشجعهم على عملهم ويذكرهم بالأجر والثواب الحسن من الله، وأن العيش الطيب الرغيد هو عيش الآخرة، فعلى قاعدة الجماعة المسلمة، قادة جماعة الدعاة، أن يشاركوا أعضاءها من الدعاة والأنصار فيما يقومون به من أعمال الدعوة مثل بناء دار لاجتماعاتهم، أو بناء مسجد خاص بهم أو عام لجميع المسلمين ونحو ذلك. وكذلك يشاركونهم وسائر أعضاء الجماعة في أعمال البرّ العامة كبناء مدرسة ونحو ذلك؛ لأن هذه المشاركة من أساليب الدعوة.

١٣٠٦- أمير الجماعة يعفي من العمل من لا يستطيعه وإن رغب فيه:

فقد ذكرنا أن النبي ﷺ ردّ ابن عمر ولم يقبله في معركة أحد، ولكنه قبله في معركة الخندق لبلوغه سن الخامسة عشر من عمره. وهكذا ينبغي للجماعة المسلمة أن تعفي من العمل من لا يطيقه، وتعهد إليه بما يقدر عليه؛ لأن أعمال الدعوة كثيرة جداً، وقد يستطيع من لم يبلغ الحلم بعد القيام ببعض الأفعال.

١٣٠٧- على جماعة الدعاة أن تبشر أنصارها بالنصر:

ذكرنا أن النبي ﷺ بشرَ أصحابه بالنصر وبفتح بلاد الشام وفارس وهم يحفرون الخندق استعداداً للدفاع عن المدينة أمام زحف المشركين إليها. ولا شك أن من المندوب إليه أن يفعل قادة الجماعة المسلمة ذلك بأن تذكّر أعضاءها من الدعاة والأنصار بوعد الله بنصر المؤمنين، وبأن العاقبة لهم وإن كانوا الآن في ضيق وحرج وعسرة؛ لأن المصاعب والشدائد قد تنسي المسلم ما وعد الله به المؤمنين من نصر وعون ويسر بعد عسر فيحتاج المسلم إلى تذكره أو تذكيرٍ بذلك.

١٣٠٨- المعجزات حق:

ومعجزات رسولنا ﷺ المادية حق نؤمن بها سواء ما أشار إليه القرآن كحادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج إلى السموات العلى، أو ما ورد في السنة النبوية ومن هذه المعجزات المادية مثل تكثير الطعام وكفاية القليل منه مئات الجياع كما في دعوة جابر للنبي ﷺ مع رجل أو رجلين معه، فدعا النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، كانوا يعدون بالمئات فكفاهم ما كان جابر قد هيأه من لحم عَنَاق وصاع من شعير كما ذكرنا، فعلى الدعاة إذا جاء ذكر المعجزات المادية في القرآن أو في السنة أن يبنوا للناس ضرورة الإيمان بها وعدم تأويلها بما يجعلها حدثاً عادياً مع أنها خارق ومن أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ. وإن كان أعظم معجزاته على الاطلاق القرآن الكريم. ولكن معجزة القرآن لا تنفي معجزاته الأخرى صلوات الله وسلامه عليه.

١٣٠٩- التعرف على أحوال العدو:

ذكرنا إرسال النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى جيش المشركين للوقوف على

أحوالهم وما هم عازمون عليه وأمره أن لا يحدث شيئاً حتى يرجع، وأنه لم يقتل أبا سفيان وقد أمكنه ذلك تنفيذاً لوصية رسول الله إليه بأن لا يحدث شيئاً حتى يرجع، وأن حذيفة كان سريع البديهة يوم قال أبو سفيان لجيشه: فليسأل كل جليسه عن هويته خوفاً من اندساس الغرباء في جيشه فبادر حذيفة بسؤال جليسه قائلاً له: من أنت؟ فأجابه أنا فلان. وهكذا تخلص حذيفة من أن يبدأه جليسه بهذا السؤال. فعلى أمير الجماعة المسلمة، أن يختار الكفؤ للعمل الخطير القادر عليه، وأن يكون ذا مقدرة عالية لحسن التخلص من الأمور المحرجة، وأن يلتزم التزاماً كاملاً بما تأمره به الجماعة، أو يأمره أميرها عند إناطة العمل به بحيث لا يسوغ له مخالفته وإن بدا له أن هذه المخالفة نافعة، كما حصل من حذيفة، فقد قال: سنحت لي الفرصة لقتل أبي سفيان ولكني لم أفعل لأمر رسول الله ﷺ أن لا أحدث أي شيء حتى أرجع لأن مهمته كانت رصد ما عند العدو ومعرفة أحواله وما يتكلمون به، وهذا ما حصل عليه حذيفة ولم يتصرف أكثر مما أُمر به. وهكذا ينبغي أن يروض الدعاة وغيرهم من أعضاء الجماعة المسلمة أنفسهم إذا كُلِّفَ أحدهم بعمل معين كاستكشاف أحوال خصوم الدعوة أو غير ذلك من الأمور، أن يلتزموا بأوامر جماعتهم.

١٣١٠- توزيع الأعمال على الدعاة:

ويستحسن للجماعة المسلمة أن توزع أعمال الدعوة على الدعاة. وتجعل لكل واحد منهم أو جماعة منهم عملاً معيناً يقوم به سواء كان تعيين العمل من حيث نوعيته أو مكانه أو زمانه، فقد قسَّم رسول الله ﷺ حفر الخندق بين أصحابه فأعطى حفر كل أربعين ذراعاً لعشرة من أصحابه[٢٥٣٣]. وكان من فرغ من المسلمين من حصته في الحفر عاون غيره في الحفر. فحفر الخندق كان مقسوماً على المسلمين فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ منه[٢٥٣٤] فعلى قادة الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - أن يوزعوا أعمال الدعوة على الدعاة بحيث يكون كل واحد مسؤولاً عما يناط به من عمل، وأن يعان عليه إذ قصّر فيه. وتوزيع الأعمال أسلوب جيد للوفاء بمتطلبات النجاح في هذه الأعمال وإيقاعها على الوجه المطلوب، ومعرفة المقصر

(٢٥٣٣) تفسير الألوسي ج٢١ ص١٥٥.

(٢٥٣٤) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٢٩-١٣٠.

فيها ووجه هذا التقصير كما يعين على سير الجماعة بصورة منتظمة بعيد عن الفوضى وانعدام المسؤولية أو ضياعها.

١٣١١- للمرأة أن تدافع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها:

ذكرنا في الأحداث التي وقعت أثناء حصار المدينة من قبل المشركين، حادثة قيام صفية بنت عبد المطلب بقتل اليهودي من بني قريظة الذي كان يدور حول الحصن الذي وضعت فيه النساء والذراري وليس له من رجال يحمونه، لأنهم ذهبوا إلى القتال، فاضطرت صفية أن تُرِي اليهود أن في الحصن قوة تحميه لا كما قد يظنون أنه خلو ممن يدافع عنه، فبدأته بضربه بعمود نزلت به من الحصن فقتلته، فكان ذلك رادعاً لليهود من التحرش بهذا الحصن لظنهم إن فيه قوة كافية تحميه. ووجه الدلالة بهذا الحادث أن على الدعاة تفهيم نساء المسلمين أن عليهن واجب الدفاع عن أنفسهن ولو بالقتال إذا عدمن المدافع عنهن من الرجال. وأنه لا يجوز لهن الاستسلام أبداً وقد ذكرنا أيضاً أن نسوة مؤمنات كن يخرجن للجهاد مع المسلمين في غزواتهم. ومنها في غزوة أحد وكيف أنهن قاتلن فعلاً ضد العدو بالسيف والرمح عندما اضطررن إلى ذلك. وعلى هذا فلا مانع من تدريب النساء المسلمات على استعمال بعض الأسلحة الضرورية للدفاع عن النفس كالبندقية والرشاشة، ورمي القنبلة على المهاجم ونحو ذلك، وأن يكون اشتراكهن في الحرب في الخطوط الخلفية ويقمن بما يقدرن عليه عادة ويحتاجه الجنود من طبخ ونحوه مع حملهن السلاح الحقيقي الذي تدربن عليه للدفاع به عن أنفسهن عند الحاجة. فعلى الدعاة تبيين هذه الحقائق للناس حتى يكونوا على علم بها. وتعرف النساء حدود الشرع في حمل المرأة السلاح واشتراكها مع الرجل في الحرب.

١٣١٢- رجوع الأمير عن رأيه إذا ظهر الصواب في غيره:

ذكرنا ميل النبي ﷺ إلى التعاقد مع غطفان على إعطائهم جزءاً من ثمار المدينة على أن يرحلوا ويخرجو من تحالفهم مع قريش في حصارهم للمدينة. وتقول بعض الروايات إن النبي ﷺ كلمهم في ذلك ولكن لم يبرم العقد معهم، فاستشار السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة على ما بدا له ﷺ من ميل إلى مصالحة غطفان فأجاباه بما ذكرناه من قبل وخلاصته أنهما قالا إن كان هناك أمر من الله أو

هوى من نفسك نحو مصالحتهم فنحن على السمع والطاعة وإن كان ذلك تصنعه لمصلحتنا فنحن لا نرى إعطاءهم ذلك فأخذ برأيهما ولم يبرم الصفقة والمصالحة مع غطفان.فعلى قادة الجماعة المسلمة جماعة الدعاة أن لا يترددوا في الرجوع عن رأيهم إذا ظهر عدم صوابه وعدم رغبة من يتعلق بهم هذا الرأي الذي رؤي لمصلحتهم.

١٣١٣- الخوف قد يصيب المؤمن، ولكن إيمانه من الاستسلام:

قلنا إن المؤمنين أصابهم الخوف والفزع وزلزلوا وفقدوا الثبات في أثناء الحصار، وهذا شيء طبيعي؛ لأنهم بشر لم يخرجوا عن بشريتهم وقد أشار القرآن الكريم إلى حالتهم فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾(٢٥٣٥) لقد كانوا أناساً من البشر، وللبشر طاقة لا يكلفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم بفتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق على الرغم من هذا كله فإن الهول الذي كان حاضراً يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرّب أنفسهم. ولكن كان إلى جانب الزلزلة وزوغان الأبصار وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سبباً في انتظار النصر مستحضرين في أذهانهم قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ومن ثم قالوا لما رأوا الأحزاب: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٢٥٣٦) . فعلى جماعة الدعاة أن لا يستغربوا من الهزة التي تصيب الدعاة إذا فاجأتهم صعاب وشدائد وتجمع للأعداء مما يبعث الخوف والفزع في نفوسهم، فهذا شيء ممكن الحدوث ولا يدل على زوال الإيمان من نفوسهم أو الشك في دعوتهم وإنما هو الشعور الذي ينتاب الإنسان باعتباره إنساناً ولكن سرعان ما يعود المؤمن بفضل إيمانه إلى حالته المستقرة واستحضاره ما وعد الله المؤمنين.

(٢٥٣٥) سورة الأحزاب الآيتان: ١٠، ١١.

(٢٥٣٦) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٨٤٣-٢٨٤٤.

فعلى قيادة الجماعة المسلمة أن لا تدهشها هذه الهزة والزلزلة التي تصيب أفرادها عند الشدائد الشديدة ولكن لا يجوز لها أن تستسلم أو تيأس لما تراه وإنما عليها أن تذكّرهم بوعد الله وتكون هي القدوة الملموسة في الثبات حتى يثبتوا معها.

١٣١٤- الحذر من المنافقين:

على جماعة الدعاة أن تعلم يقيناً إمكان تسلل بعض المنافقين في صفوف الجماعة. فليسوا هم بأفضل من جماعة المسلمين الأوَل وقد تسلل بعض المنافقين في صفوفها مع وجود النبي ﷺ وتنزل الوحي عليه بفضحهم وبيان خبايا نفوسهم. وإذا كان هذا حدث في عصر النبي ﷺ وبين صفوف المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ، فحدوثه الآن وبين صفوف الجماعة المسلمة أقرب احتمالاً وأيسر وقوعاً. فعلى قيادة جماعة الدعاة، وعلى الدعاة أنفسهم، أن يرصدوا المتصفين بصفات المنافقين التي ذكرها القرآن، ومنها ما ذكره عنهم بصدد معركة الأحزاب حتى يحذرهم المؤمنون ولا يتأثروا بإرجافهم ودعاياتهم وتخذيلهم المؤمنين، فمن صفاتهم استبعادهم النصر لدعوة الإسلام ولدعاته، وإشاعة اليأس في النفوس، وأن لا جدوى من الدعوى ومن العمل للإسلام، وأنهم في وقت الشدائد يفرون، وفي وقت الرخاء يدعّون لأنفسهم الدعاوى الباطلة من الشجاعة والإقدام والحرص على الدعوة ومصلحتها. فعلى الجماعة المسلمة أن ترصد المنافقين من خلال ما يبدو منهم من صفات وأقوال، وأن تحذّر المؤمنين والدعاة من أعضائها حتى لا يتأثروا بإرجافهم وأقوالهم. وقد ذكرنا الآيات التي نزلت في معركة الخندق والمتعلقة بالمنافقين وبيان موقفهم من تلك المعركة، وما كانوا يقولونه ويحرضون غيرهم عليه، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يرجعوا إلى ما قلناه بشأن تلك الآيات التي فضحت المنافقين وبينت خبايا نفوسهم. فالوحي قد انقطع ولا سبيل لمعرفة المنافقين اليوم ثم الحذر منهم إلا من خلال ما يظهر من أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم التي بينها القرآن ومن ذلك آيات سورة الأحزاب والتي ذكرناها. وليحذر الدعاة أسلوبهم في تنقيص الدعاة واختلاق العيوب لهم أو تكبيرها وإشاعة سوء الظن فيهم.

١٣١٥- إخفاء بعض الدعاة:

وقد يكون من المفيد للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، عدم إظهار بعضهم

وإخفاء صلتهم بالجماعة، حتى يمكن الإفادة منهم في بعض الأوقات، كما استفاد المسلمون من نعيم بن مسعود حيث إنه أسلم ولم يعلم به قومه، وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بإسلامه وعدم علم قومه بذلك، فقال له النبي ﷺ: «إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلّت عنا إن استطعت كان أحبَّ إلينا من بقائك عندنا، فاخرج فإن الحرب خدعة» فعلى الجماعة المسلمة أن تضع في منهاجها عدم إظهار بعض دعاتها للناس، وعدم إظهار صلتهم بها، حتى يمكن أن يقوم بمثل ما قام به نعيم بن مسعود عند الحاجة إلى ذلك، فإن الدعاة إلى الله الآن في حالة حرب في أكثر البلاد حيث يستبيح الحاكمون في هذه البلاد إيذاءهم بل وقتلهم، فعليهم أن يأخذوا الحذر وما يدفع عنهم الشر، ومن ذلك إخفاء بعض دعاتها للغرض الذي ذكرناه، ولغرض آخر وهو أن يكون الصف الثاني للدعاة إذا سقط الصف الأول أو أزيح أو أبعد أو لم يستطع العمل كان في الثاني عوض وبدل عنهم.

١٣١٦- الأخذ بالأسباب ولكن التوكل على الله:

وفي حفر الخندق دليل واضح على الأخذ بالأسباب الدافعة للشر والعدوان، ولكن الثقة تكون بالله والاعتماد يكون على الله لا على الأسباب التي يباشرها أهل الإيمان، فعلى الجماعة المسلمة أن تأخذ بكل وسيلة مشروعة من شأنها أو يظن أنها يمكن أن تكون سبباً لدفع الأذى عنها. وإفشال خطط أعدائها في سعيهم الخبيث لإيذاء الجماعة. ولكن اعتمادها على الله لا على ما تباشره من أسباب. والأسباب كما تكون مادية يمكن أن تكون غيرمادية. ونستدل على هذا بما فعله نعيم بن مسعود في تخذيله للمشركين وما فعله للوقيعة بين بني قريظة وبين جيش قريش وحلفائها، والأسباب التي تأخذ بها الجماعة تتناسب وما تريد الوصول إليه أو ما تريد حماية الجماعة منه وهذا يختلف باختلاف الظروف والأحوال. وليكن معلوماً لدى الدعاة أن ما يتعلق بالجماعة وحمايتها وما يقرّبها من أهدافها وبالتالي تعيين الأسباب المؤدية إلى ذلك، كل هذا متروك تقديره إلى أمير الجماعة أو قيادتها ولا يجوز لأفرادها أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على الجماعة فيعقبون على ما يقرره أميرها من اتخاذ أسباب معينة لتحقيق أغراض معينة.

١٣١٧- لا ينبغي لجماعة الدعاة تمني لقاء العدو:

لقد ذكرنا تذكير الله عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم ورجوعهم إلى ديارهم خائبين قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ . . . ﴾ فهذه الآية تشعر بتذكير الله تعالى عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم. ذلك أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ . . . ﴾ أي فلم يحوجهم إلى مبارزة أعدائهم ومنازلتهم وقتالهم ليجلوهم عن المدينة، بل تولى الله وحده كفاية ذلك. وعلى هذا فلا ينبغي لجماعة الدعاة تعمد مواجهة أعداء الدعوة وتعريض أعضائها الدعاة إلى بطش أعدائهم؛ لأن المطلوب القيام بالدعوة إلى الله وليس المطلوب مصادمة أعداء الدعوة الأقوياء فإن هذا الصنيع يؤذن بوقوع الجماعة بالرياء وطلب السمعة عند الناس، ليقولوا إن جماعة الدعاة أُوذِيت في سبيل الله. وفي وصية رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد وقد أمَّرَه على جيش المسلمين الذي أرسله لإرهاب الروم، قال ﷺ له: «ولا تمنوا لقاء العدوا فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفناهم واكفف بأسهم عنا». ولكن لا يعني ما أقول أن على الدعاة وجماعتهم القعود وعدم القيام بالدعوة إلى الله، وإنما الذي أعنيه بكل تأكيد عدم تعمدهم لقاء الخصوم والدخول معهم في حرب ولهم مندوحة من ذلك، أي يمكنهم أن يدعوا إلى الله، وأن يتجنبوا المخاصمة مع أعداء الدعوة، لا سيما إذا كانت الدولة هي - لسوء فهمها مقاصد الدعوة - خصم الدعاة وجماعتهم، ففي هذه الحالة ينبغي لجماعة الدعاة عدم تصعيد الخصام مع الدولة، مع المضي في متطلبات الدعوة بهدوء مع تحمل شيء من شطط الدولة وبغيها. أما هذا الكلام قد لا ينفع المتحمسين من أعضاء الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيندفعون إلى مخاصمة الدولة دون ضرورة ولا حاجة إلى هذه المخاصمة فيقعون ويُوقِعون جماعتهم في أذى شديد لا طاقة لهم به ولا ضرورة تدعو إليه، فلتحذر الجماعة وأعضاؤها والمنتسبون إليها من الدعاة والأنصار ما قلناه وليدعوا الله أن ينجيهم من كيد أعدائهم ولا يحملوا أنفسهم على مواجهتهم، ولكن إذا واجههم عدوهم فليصبروا وليثبتوا ولا يستسلموا، بل عليهم أن يصدقوا الله في جهادهم ولا يضعفوا أمام عدوهم.

١٣١٨- طاعة الدعاة لأمير جماعتهم:

ذكرنا فيما سبق أن المؤمنين في حفر الخندق ما كان أحدهم يخرج وينصرف لقضاء حاجته إلا بعد أن يستأذن الرسول ﷺ ويأذن له، فإن لم يأذن له بقي ولم ينصرف، فمدحهم الله على ذلك، وجعل استئذانهم من علامة صدقهم في إيمانهم بالله وبرسوله، وأن المنافقين كانوا يخرجون متخفين من غير استئذان الرسول فذمهم الله تعالى على صنيعهم هذا وتوعدهم عليه. وعلى هذا فينبغي للدعاة أن يلتزموا بهذا الأدب الإسلامي الرفيع، فإذا دعاهم أمير جماعتهم لأمر مهم يقتضي اجتماعهم ويتعلق بالدعوة وأعمالها فعليهم أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويحضروا حالاً ولا يخرجوا من هذا الاجتماع إلا بعد انفضاضه، وإن طرأت لأحدهم حاجة تقتضي خروجه من الاجتماع فلا يخرج حتى يستأذن الأمير للخروج، فإن أذن خرج وقضى حاجته وعاد، وإن لم يأذن بقي ولم يخرج. ونستأنس لقولنا هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره وهو يفسر آية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد قال الزمخشري وهو يفسرها: «وقالوا - أي العلماء - كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام، إن شاء أذن وإن شاء أبى على حسب ما اقتضاه رأيه»[٢٥٣٧]. وأمير جماعة الدعاة يعتبر من مقدميهم في الدين والعلم، فينبغي أن يكون له حق الطاعة على أتباعه الدعاة، وأن لا يخرجوا من الاجتماع الذي دعا إليه إلا بعد انفضاضه، أما في أثنائه فلا بد من الاستئذان وحصول الإذن للخروج كما قلنا.

(٢٥٣٧) انظر الفقرة ١٢٨٤ والآية في سورة النور ورقمها ٦٢.

الفصل العاشر

موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة

وما يستفاد منه للدعوة والدعاة

١٣١٩- تمهيد وتقييم:

كان يسكن في المدينة وضواحيها وفي أطرافها يهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة. وهذه المجموعات اليهودية هي أشهر قبائل اليهود في المدينة. وقد وادعهم النبي ﷺ بعد قدومه إلى المدينة، وكان من بنود معاهدته أو موادعته معهم أن لا يعينوا عليه أحداً، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه، وأن يكون بينهم سلام لا عداء، ولكن اليهود نقضوا معاهدتهم مع رسول الله ﷺ، وقاموا بأعمال عدائية ضد المسلمين وتحرشات بهم لا تتفق وبنود المعاهدة معهم، فكان ذلك سبباً لغزوهم في حصونهم وإخراجهم من المدينة وقتل بعضهم[٢٥٣٨]. ونذكر فيما يلي ما جرى بين النبي ﷺ وبين هؤلاء اليهود وذلك في ثلاثة أبحاث متتالية ثم نختم هذا الفصل بمبحث رابع لبيان المستفاد من ذلك للدعوة والدعاة.

(٢٥٣٨) السيرة النبوية للدكتور العمري ج١ ص٢٢٨، ٢٧٧، ٣٠٠.

المبحث الأول
غزوة يهود بني قَيْنُقَاع

١٣٢٠- تاريخ وقوعها وسببها:

وقعت في شوال من السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر. وكان سببها ما أظهروه من عداء سافر للمسلمين لا سيما بعد معركة بدر، وتحرشهم بالمسلمين مما لا يتفق مع بنود المعاهدة ومقتضياتها المعقودة بينهم وبين النبي ﷺ، ولهذا قام النبي ﷺ بجمعهم في سوق بني قينقاع ودعاهم إلى الرشد والهدى والكف عن مواقفهم وأعمالهم العدائية ضد المسلمين. ولكن يهود بني قينقاع لم يقبلوا هذا التحذير، ولم يكفوا عن التحرش بالمسلمين وإنما أظهروا للنبي ﷺ عدم مبالاتهم بالمعاهدة، وأظهروا له بأنهم أقوياء ومستعدون للقتال وأنهم ليسوا مثل قريش التي غلبها محمد ﷺ[٢٥٣٩] فأنزل الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله. في فئتين أي في طائفتين التقتا للقتال إحداهما مسلمة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة وهي مشركو مكةالذين جاؤوا لقتال رسول الله ﷺ فنصر الله رسوله عليهم[٢٥٤٠].

١٣٢١- استمرار بني قينقاع على موقفهم العدائي من المسلمين:

واستمر يهود بني قينقاع على موقفهم العدائي من النبي ﷺ والمسلمين، فقد روى ابن هشام في سيرته أن امرأة مسلمة جلست إلى صائغ لتشتري منه، فجاء يهود إليها

(٢٥٣٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٠.

(٢٥٤٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٠، شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٣٢ والآيتان في سورة آل عمران ورقمهما ١٢، ١٣.

يريدون كشف وجهها فأبت ذلك، فعمد الصائغ أو غيره إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غافلة، فلما قامت انكشفت فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ اليهودي، فشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع[٢٥٤١].

١٣٢٢- حصار النبي والمسلمين لبني قينقاع:

وقد ظهر جلياً من مجمل فعال بني قينقاع وتصرفاتهم مع المسلمين أنهم لا يلتزمون بمعاهدة السلام والموادعة التي عقدوها مع النبي ﷺ وإنما يريدون نقضها بل ونقضوها فعلاً بتصرفاتهم وعداوتهم المكشوفة منهم للمسلمين. قال محمد بن إسحاق - صاحب السيرة -: «كانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع»[٢٥٤٢]. وبناء على ذلك فقد سار ﷺ وجنوده إلى بني قينقاع، فلما رأوه قادماً مع جيشه إليهم تحصنوا في حصونهم فحاصرهم خمس عشرة ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فاستسلموا ونزلوا على حكمه ﷺ.

١٣٢٣- ما فعله ﷺ ببني قينقاع:

أمر ﷺ بفرز أموالهم التي صارت غنيمة للمسلمين حيث خمسها النبي ﷺ ووزع الباقي على المقاتلين - أما الرجال فقد طلب عبد الله بن أبي بن سلول من رسول الله ﷺ أن يمّن عليهم؛ لأنهم حلفاؤه، فأجابه النبي ﷺ إلى طلبه وأمر بإجلائهم من المدينة والذي تولى إجلاءهم عبادة بن الصامت فلحقوا بأذرعات الشام[٢٥٤٣]. وكان عبادة بن الصامت حليفاً لبني قينقاع فلما صدر منهم ما صدر تبرأ من حلفهم وقال لرسول الله ﷺ: إنَّ لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. وقال عبد الله بن أبي بن سلول: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي. ولهذا طلب من رسول الله ﷺ العفو عن بني قينقاع فأجابه إلى طلبه. وبسبب موقف عبد الله بن سلول من تمسكه بحلف بني قينقاع نزل

(٢٥٤١) الرحيق المختوم ص٢١٦.

(٢٥٤٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٩.

(٢٥٤٣) السيرة النبوية للعمري ج١ ص٣٠١-٣٠٢، الرحيق المختوم ص٢١٧.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾(٢٥٤٤).

(٢٥٤٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٨-٦٩، تفسير الكشاف للزمخشري ج١ ص٦٤٣ شرح البخاري للعسقلاني ج٧ ص٣٣٢.

المبحث الثاني

غزوة بني النضير

١٣٢٤- خلاصة قصة بني النضير(٢٥٤٥):

بنو النضير من يهود المدينة الذين وادعهم النبي ﷺ وعاهدوه على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه كما أشرنا من قبل، وهم على كفرهم، آمنون على أموالهم ودمائهم. ولكنهم لم يفوا بعهدهم، فبدأ بنو قينقاع بنقض العهد فحاصرهم النبي ﷺ ثم أمر بإجلائهم عن المدينة كما بينا من قبل. ثم تبعهم بنو النضير فنقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ إذ تآمروا على قتله. وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، وجلس ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم فتآمروا على قتله بأن يعلو رجل فيلقي صخرة عليه، فانتدبوا لذلك عمرو ابن جِحَاش بن كعب أحدهم، وصعد إلى السطح ليلقي عليه صخرة، ولكن نزل الوحي على الرسول ﷺ بما أراد القوم فعله. فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة وأمر بالتهيؤ لحربهم. ثم سار ﷺ بجنوده من صحابته الكرام حتى نزل بساحتهم فحاصرهم ست ليال فتحضوا منه في الحصون، وكان خروجه ﷺ إليهم ومن معه في ربيع الأول أول السنة الرابعة للهجرة كما ذكر الإمام القرطبي، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم وتحريقهم ثم قذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة -وهي جميع السلاح- ففعل ﷺ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا أموالهم لرسول الله ﷺ فكانت له خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا اثنين من الأنصار هما سهل بن حُنَيف وأبو دُجانة لفقرهما، ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان:

(٢٥٤٥) تفسير القاسمي، نقلاً لكلام ابن القيم، ج١٦ ص٩٦-٩٧ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٧.

يامين بن عمير بن كعب، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها. ونزل في بني النضير وما جرى لهم سورة الحشر كلها. ونذكر فيما يلي سورة الحشر وما تضمنته وما يستفاد منها.

١٣٢٥- فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾(٢٥٤٦).

والمعني: هو الله تعالى أخرج الذين كفروا وهم بنو النضير من مساكنهم ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾. والحشر هو الجمع والتوجيه إلى ناحية ما، والمقصود بـ ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ في الآية الكريمة هو الجلاء والإخراج، أي جلاء وإخراج بني النضير من المدينة، وهذا أول حشرهم إلى الشام، أي أول ما حشروا وأخرجوا، وكانوا من سبط من أسباط اليهود لم يصبهم جلاء قط، وهم أول على أنهم أول محشورين - أي مخرجين -، من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو هذا أول حشرهم، وأما آخر حشرهم أي إخراجهم فهو إجلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام. وعلى هذا التفسير الأخير تكون الآية قد أخبرت بشيء غيبي هو إجلاؤهم الأخير في زمن عمر بن الخطاب، لقول النبي ﷺ: «لا يبقينَّ دينان في جزيرة العرب»(٢٥٤٧). ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ أي لشدة بأسهم وتحصنهم في حصونهم، وكثرة عددهم وعدتهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من بأسه. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمره وعذابه ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ أي لم يظنوا ولم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره تعالى وإنزال بأسه بهم من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ والرعب هو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه، وقذفه يعني إثباته فيه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر».

(٢٥٤٦) سورة الحشر، الآية ٢.

(٢٥٤٧) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٦٦، تفسير الزمخشري ج٤ ص٤٩٩، تفسير الألوسي ج٢٨ ص٣٩.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء والغلبة عليهم، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون يخربونها من خارج. ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي اتعظوا وتدبروا يا أصحاب العقول والألباب، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها. ويقال السعيد من اعتبر بغيره؛ لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه إن فعل فعله، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره. وفي الآية دليل على إتقاء مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي، لئلا يصيب المفرط في هذا الاتقاء ما أصابهم[2548].

١٣٢٦- من يشاق الله فإن الله شديد العقاب:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2549].

أي لولا أن كتب الله عليهم الجلاء أي الخروج من ديارهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي بالقتل والسبي. ولهم في الآخرة عذاب النار. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجلاء والعذاب ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خالفوا ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي فيما نهاهم عنه من الفساد ونقض الميثاق ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي له في الدنيا والآخرة[2550].

١٣٢٧- يجوز إتلاف الشجر لضرورة الحرب:

قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[2551]. و(اللِّينَةُ) هي النخلة مطلقاً، والخطاب للمؤمنين المحاصرين لبني النضير، أي ما قطعتم من نخلة من نخيل بني النضير ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي أبقيتموها كما كانت ولم تتعرضوا لها بشيء ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي فذلك أي

(٢٥٤٨) تفسير فتح البيان ج١٤ ص٣٩-٤٠، تفسير القرطبي ج١٨ ص٣-٥، تفسير الألوسي ج٢٧ ص٤١.

(٢٥٤٩) سورة الحشر الآيتان ٣، ٤.

(٢٥٥٠) تفسير القاسمي ج١٦ ص٩٥.

(٢٥٥١) سورة الحشر، الآية ٥.

قطعها أو تركها بأمر الله الواصل إليكم بواسطة رسوله ﷺ أو بإرادته ومشيئته عز وجل. ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ليذلهم، وأذنَ الله للمؤمنين في القطع وتركه. وإخزاؤهم بقطع اللينة لحسرتهم على ذهابها بأيدي المسلمين، وبتركها دون قطع لحسرتهم على بقائها في أيدي المسلمين[٢٥٥٢]. هذا وإن القطع، قطع أشجار العدو، يجوز لمقتضيات الحرب: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «قطعوا منها - أي من النخيل - ما كان موضعاً للقتال»[٢٥٥٣]. وقد يكون جواز القطع لإرهاب العدو، قاله ابن كثير، فقد جاء في تفسيره «أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم»[٢٥٥٤]. أو جواز القطع لإغاظتهم ومضاعفة الحسرة لهم، قال الزمخشري: «إن الله أذن لهم في قطعها ليزيدكم - والخطاب لليهود - غيظاً ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتم المسلمين يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا»[٢٥٥٥]. ومن الواضح أن تعليل جواز قطع النخل بإرهاب أو إذلال أو إغاظة العدو كل ذلك يدخل في ضمن مقتضيات الحرب؛ لأن هذه الأغراض المعنوية توهن العدو وتضعف عزيمته في القتال وتشغله. يتحسر ويحزن على ما حلّ به فيشغله عن النشاط المطلوب في القتال. فمقتضيات الحرب غير مقصورة على الأشياء المادية كموضع القتال كما قال ابن مسعود. وبناء على جواز قطع أشجار العدو «اتفق العلماء إن حصون الكفار وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق، وكذلك الثمار لا بأس بقطعها مثمرة كانت أو غير مثمرة»[٢٥٥٦] ومن المعلوم أن ذلك كله يجوز للمصلحة. فإن كانت المصلحة بعدم القطع كان هو الأولى أو المتعين، قال الألوسي في تفسيره بشأن قطع أشجار العدو وحرق زروعهم وهدم بيوتهم: «وحاصل ما ذكره الفقهاء في المسألة أنه إن علم بقاء ذلك في أيدي الكفرة فالتخريب والقطع والتحريق أولى وإلا فالبقاء أولى»[٢٥٥٧].

(٢٥٥٢) تفسيرا لألوسي ج٢٧ ص٤٣.

(٢٥٥٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٣.

(٢٥٥٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٣.

(٢٥٥٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠١.

(٢٥٥٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠١.

(٢٥٥٧) تفسير الألوسي ج٢٨ ص٤٤.

١٣٢٨- مآل أموال بني النضير:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ . مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ...﴾[٢٥٥٨]. والمراد بما أفاء سبحانه على رسوله ﷺ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي من أموالهم أي أموال بني نضير التي بقيت بعد جلائهم، والمراد بإعادة أموالهم هذه إلى الرسول ﷺ أي تحويلها إليه. وإذا كان الفيء يعني الإعادة والرد والتحويل وهذا يقتضي سبق حصول هذه الأموال له ﷺ فيكون فيما ذكر مجازاً، أي ذكر ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾ على وجه المجاز ولكن فيه إشعار بأنها- أي أموال بني النضير وأموال غيرهم من الكفرة- بأنها كانت حرية بأن تكون له ﷺ، وإنما وقعت في أيديهم بغير حق فأرجعها الله تعالى إلى مستحقها، وكذا شأن جميع أموال الكفرة التي تكون فيئاً للمؤمنين؛ لأن الله عزوجل خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين، ولذا قيل للغنيمة التي لا تلحق فيها مشقة: فيء، مع أنه من فاء الظل إذا رجع[٢٥٥٩]. والإيجاف من الوجيف وهو السير السريع، ومعنى ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلاً ولا ركاباً، والركاب ما يركب من الإبل خاصة، والمعنى إنكم لم تركبوا لتحصيله من أموالكم خيلاً ولا إبلاً. ولا تعبتم في القتال عليه وإنما مشيتم إليه على أرجلكم. والمعنى: إن ما خوّلَ الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم. فالأمر فيه مُفوضٌ إليه يضعه حيث يشاء، يعني: إنه لا يُقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً، وذلك أن المسلمين طلبوا قسمتها كما تقسم الغنائم، فنزلت هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذه الآية بيان للتي قبلها ولذلك لم يدخل العاطف عليها فهي منها غير أجنبية عنها. بُيِّنَ فيها ما يصنع بما أفاء الله عليه، وأمره أن يضعه حيث

(٢٥٥٨) سورة الحشر، الآيتان ٦، ٧.

(٢٥٥٩) تفسير الألوسي ج٢١ ص٤٤.

يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة، سهم لرسوله، وسهم لكلٍ من ذوي القربى- وهم بنو هاشم وبنو المطلب - واليتامى والمساكين وابن السبيل وهو الغريب المنقطع عن أهله ودياره[٢٥٦٠]. ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾. أي كي لا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم فلا يصيب الفقراء منه شيء. والدولة اسم لشيء يتداوله القوم بينهم: يكون لهذا مرة ولهذا مرة. قال مقاتل: المعنى أنه يغلب الأغنياءُ الفقراء فيقسمونه بينهم. أو كي لا يكون الفيء بين الأغنياء منكم خاصة يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بين الأغنياء، ومعنى الدولة الجاهلية: إن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ولا يعطون شيئاً منها للفقراء؛ لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة، فالمعنى كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية[٢٥٦١].

١٣٢٩- وجوب طاعة الرسول في أمره ونهيه:

قال تعالى: ﴿ . . . وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢٥٦٢] والمعنى: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر. وأمره هو أمر الله، ونهيه هو نهي الله، وعن ابن مسعود جاءته امرأة فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بل شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ. قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول. قال: فما وجدت فيه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ قالت: بلى. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة. قالت: فلعله في بعض أهلك. تعني أنَّ أهلك يفعلونه. قال: فادخلي فانظري. فدخلت- أي إلى بيت ابن مسعود- ثم خرجت، وقالت: ما رأيت بأساً. فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾. وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ

(٢٥٦٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٢.

(٢٥٦١) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٢- ٥٠٣ تفسير الألوسي ج٢١ ص٤٩، فتح البيان ج١٤ ص٤٧.

(٢٥٦٢) سورة الحشر الآية ٧.

قال: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره ونواهيه فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ما عنه زجره ونهاه(٢٥٦٣).

١٣٣٠- شهادة الله للمهاجرين من أصحاب رسول الله بصدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٢٥٦٤). أي الفيء والغنائم للفقراء المهاجرين؛ لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أُخرِجوا من ديارهم فهم أحق الناس به. ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ أي ابتغاء مرضاة الله ورضوانه(٢٥٦٥). والفضل والرضوان يراد به الآخرة والجنة(٢٥٦٦). ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ونصر الله هو نصر شرعه ونبيه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة هم الصادقون أي الكاملون في الصدق في دعواهم الإيمان حيث فعلوا ما يدل أقوى دلالة عليه مع إخراجهم من ديارهم وأموالهم لأجله(٢٥٦٧). وهذه شهادة من الله تعالى لأولئك الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ.

١٣٣١- شهادة الله للأنصار من أصحاب رسول الله بالإيمان والفلاح:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(٢٥٦٨). التَّبَوُّؤ: النزول في المكان ونسبته إلى الدار ظاهر والمراد بالدار دار الهجرة أي المدينة المنورة، وأما نسبة التَّبَوُّؤ إلى الإيمان فباعتبار جعله مستقراً ومتوطناً على سبيل الاستعارة. وقال بعضهم تبوّؤوا الدار أي المدينة

(٢٥٦٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٦.

(٢٥٦٤) سورة الحشر الآية ٨.

(٢٥٦٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٦، وتفسير القرطبي ج١٨ ص١٩.

(٢٥٦٦) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٧٦.

(٢٥٦٧) تفسير الألوسي ج٢٧ ص٥١.

(٢٥٦٨) سورة الحشر الآية ٩.

دار الهجرة وأخلصوا الإيمان. وهم الأنصار من أصحاب النبي ﷺ، فهم قد تبوؤوا الدار قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ حاجة أي حسداً ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني مما أُعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره. أو ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره. والمحتاج إليه يسمى حاجة، يعني أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من الطيبات، ولو كان بهم خصاصة أي حاجة إلى ما يؤثرون به غيرهم على أنفسهم. فهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤن بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. والإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، وذلك ينشأ عن قوة الإيمان ووكيد المحبة والصبر على المشقة. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والشح اللؤم وأن تكون نفس الرجل حريصة على المنع، وقد أضيف إلى النفس؛ لأنه غريزة فيها. وأما البخل فهو المنع نفسه ومعنى الآية ومن يوق بتوفيق ومعونة شح نفسه حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه. والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم الشح بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك كما تفيده إضافة الشح إلى النفس[٢٥٦٩].

١٣٣٢ - قصص في الإيثار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله تعالى». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما عندي

(٢٥٦٩) ابن عطية ج١٤ ص٣٧٧-٣٨١، ابن كثير ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨، الزمخشري ج٤ ص٥٠٤-٥٠٥، الألوسي ج٢٧ ص٥١-٥٣.

إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت. وفي رواية: فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنَّا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال: «قد عجب الله عز وجل من صنيعكما لضيفكما»(٢٥٧٠).

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم. فإذا أنا برجل يقول: آه آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك! فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه؛ آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. ورجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات(٢٥٧١).

وفي موطأ مالك، كما جاء في تفسير القرطبي، «إنه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ إن مسكيناً سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه. فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟. فقالت: أعطيه إياه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدِى لنا: شاة وكفَنَها - أي إنها كانت ملفوفة بالخبز - فدعتني عائشة، فقالت: كلي من هذا فهو خير من قرصك(٢٥٧٢).

وقال شاب من بلخ لأبي يزيد البسطامي: يا أبا يزيد ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إن وجدنا أكلنا وإن فقدنا صبرنا. فقال: هكذا كلاب بلخ عندنا. فقلت: وما حدُّ الزهد عندكم؟ قال: إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثرنا(٢٥٧٣).

(٢٥٧٠) رواه البخاري وغيره كما ذكر ابن كثير في تفسيره ج٤ ص٣٣٨، والقرطبي في تفسيره ج١٨ ص٢٥.

(٢٥٧١) ابن كثير ج٤ ص٣٣٨، القرطبي ج١٨ ص٢٨.

(٢٥٧٢) القرطبي ج١٨ ص٢٦.

(٢٥٧٣) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٨-٢٩.

١٣٣٣ - المؤمنون لا يبغضون المهاجرين والأنصار:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٥٧٤] وهؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان. كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم بالسر والعلن[٢٥٧٥] فالآية تشمل لمن جاء بعد السابقين من المهاجرين والأنصار من الصحابة الكرام، المتأخر إسلامهم في عصر النبوة ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار[٢٥٧٦]. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين، أمرهم الله تعالى أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي غشاً وحقداً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة. وأمر تعالى بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله تعالى أن ينزع من قلوبهم الغلَّ للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة الكرام دخولاً أولياً لكونهم أشرف المؤمنين ولكون سياق الآية فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغ الشيطان وحلَّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يستغفر ويتوب إلى الله، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع في غضب الله وسخطه[٢٥٧٧].

(٢٥٧٤) سورة الحشر الآية ١٠.

(٢٥٧٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٩.

(٢٥٧٦) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣١، فتح البيان ج١٤ ص٥٤-٥٥.

(٢٥٧٧) فتح البيان ج١٤ ص٥٥-٥٦.

١٣٣٤ - ما روي عن أهل البيت فيمن سبّ الصحابة:

عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جده علي بن الحسين رضي الله عنه أنه جاءه رجل فقال له: يا ابن بنت رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ...﴾ الآية. قال: لا. قال: أنت من قوم قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ...﴾ الآية. قال: لا. قال فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنَّ من الإسلام وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ...﴾ الآية[٢٥٧٨].

وعن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، روى عن أبيه: أن نفراً من أهل العراق جاؤوا إليه فسبوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ثم عثمان رضي الله عنه، فأكثروا، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا. قال: أفمن الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين. أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٥٧٩].

١٣٣٥ - وجوب محبة الصحابة، وأن لاحق لمبغضهم في الفيء:

قال الإمام القرطبي في تفسيره: «هذه الآية - أي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية. دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم وأن من سبهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شراً أنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غلّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية[٢٥٨٠]. وقال الإمام ابن كثير وهو يفسر هذه الآية: «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في

(٢٥٧٨) تفسر القرطبي ج١٨ ص٣١.

(٢٥٧٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣١، تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٨٢.

(٢٥٨٠) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣٢.

مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ. . .﴾ الآية[٢٥٨١].

١٣٣٦ - ما وعد المنافقون به بني النضير وتكذيب الله لهم:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٢٥٨٢]. يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم[٢٥٨٣].

وقوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ أي الذين بينهم وبينهم إخوة الكفر وهم يهود بني النضير، وجعلهم إخواناً له لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من ديارنا في صحبتكم، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي في شأنكم ومن أجلكم ﴿أَحَدًا﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان. ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنصرة لهم فقالوا: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ أي وإن قاتلكم المسلمون ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي على المسلمين الذين يقاتلونكم. ثم كذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصر لهم[٢٥٨٤].

١٣٣٧- تفصيل تكذيب الله للمنافقين:

ثم لما أجمل سبحانه وتعالى كذب المنافقين فيما وعدوا به بني النضير، فصلّ ما كذبوا فيه، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[٢٥٨٥]. وفي هذه الآية والتي قبلها دليل على نبوة محمد ﷺ؛ لأن فيها إخبار بالغيوب، وقد وقع ما أخبر الله به من الغيب فالمنافقون

(٢٥٨١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٩.

(٢٥٨٢) سورة الحشر الآية ١١.

(٢٥٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٠.

(٢٥٨٤) فتح البيان ج١٤ ص٥٧-٥٨.

(٢٥٨٥) سورة الحشر، الآية ١٢.

لم ينصروا يهود بني النضير لما حاصرهم النبي ﷺ والمسلمون، ولم يخرجوا معهم لما أخرجهم النبي ﷺ. فإن قيل كيف نوجه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ أي بعد إخبار الله تعالى بأن المنافقين لا ينصرون يهود بني النضير، والجواب: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ولأن الله تعالى يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: لو نصر المنافقون يهود بني النضير - وهذه الآيات نزلت فيهم - لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون - أي اليهود - بعد ذلك. أو لينهزمن اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين(٢٥٨٦).

١٣٣٨- لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله:

اليهود والمنافقون يخافون من المسلمين أكثر من خوفهم من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾(٢٥٨٧). أي لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور اليهود والمنافقين من الله تعالى، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى، وهذه الحال منهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته(٢٥٨٨).

١٣٣٩- جبن اليهود:

قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾(٢٥٨٩). ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متساندين، يعني اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ دون أن يخرجوا إليكم، فهم لجبنهم وخوفهم، يتسترون وراء تحصيناتهم ولا يخرجون لمبارزتكم، لِقَذْفِ الله الرعبَ في قلوبهم. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾

(٢٥٨٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٦، فتح البيان ج١٤ ص٥٨-٥٩.

(٢٥٨٧) سورة الحشر الآية ١٣.

(٢٥٨٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٧، فتح البيان ج١٤ ص٥٩.

(٢٥٨٩) سورة الحشر الآية ١٤.

يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة؛ لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله والمؤمنين. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوي إلفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة لا ألفة بينها، يعني أن بينهم إحناً وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد. وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم(٢٥٩٠).

١٣٤٠- المثل المضروب لليهود والمنافقين:

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ. فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢٥٩١). قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع وكذا قال قتادة. قال ابن كثير وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا. وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصرة من المنافقين، وقول المنافقين لهم: لئن قوتلتم لننصّرنكم، ثم لما حقت الحقائق ووقع عليهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للتهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذا سوّلَ للإنسان - والعياذ بالله - الكفر فإذا دخل فيما سوّلَهُ له تبرأ منه وتنصل وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تبرأ الشيطان من الذي أغواه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة الآمر بالكفر، وهو الشيطان، والفاعل له، وهو المستجيب للشيطان، أنهما في النار خالدين فيها أبد الآبدين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي جزاء كل ظالم(٢٥٩٢).

(٢٥٩٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٧.

(٢٥٩١) سورة الحشر، الآيات من ١٥-١٧.

(٢٥٩٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٠-٣٤١، تفسير الألوسي ج٢٨ ص٥٩.

المبحث الثالث

غزوة بني قريظة

١٣٤١- أسباب هذه الغزوة:

كان بين بني قريظة وبين النبي ﷺ معاهدة سلم وموادعة، فلما جاءت الأحزاب: قريش وغطفان وحلفاؤهم من القبائل لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين، ومن أجل ذلك حاصروا المدينة، في ذلك الوقت نقضت بنو قريظة معاهدتها مع رسول الله ﷺ، وظاهرت الأحزاب في حصارهم المدينة. ومحاربتهم لرسول الله ﷺ.

١٣٤٢- الخروج إلى بني قريظة:

فلما هزم الله الأحزاب ورجع النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يدعوه إلى غزو بني قريظة، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق- معركة الخندق- ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام وقال: وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال ها هنا وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم»[٢٥٩٣].

١٣٤٣- لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة:

وقال ﷺ لأصحابه الخارجين معه إلى بني قريظة: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم وقال بعضهم: بل نصلي، ولم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم[٢٥٩٤].

(٢٥٩٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٠٧.

(٢٥٩٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٠٧- ٤٠٨.

١٣٤٤- الفقه في هذا الحديث:

في هذا الحديث من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النصّ معنى يخصه. وفيه أيضاً إن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطىء منهم بدليل أن له أجراً واحداً وللمصيب منهم أجران. وحاصل ما وقع في هذه القصة أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت- وقت الصلاة- توجيهاً لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها[٢٥٩٥].

١٣٤٥- رئيس بني قريظة ينصحهم:

وعن محمد بن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب، قال: «حاصرهم- أي حاصر النبي ﷺ بني قريظة- خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا، أو يقتلوا نساءهم وأبناءهم ويخرجْوا مستقتلين، أو يبيتوا المسلمين ليلة السبت. فقالوا لا نؤمن، ولا نستحل ليلة السبت، وأي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا[٢٥٩٦]؟.

١٣٤٦- بنو قريظة يستشيرون أبا لبابة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر وكانوا حلفاءه فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقه- يعني الذبح- ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه[٢٥٩٧]. وقد ظل مرتبطاً بالجذع في المسجد ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع حتى نزلت توبته على رسول الله ﷺ، فأراد الناس أن يطلقوه فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح أطلقه[٢٥٩٨].

(٢٥٩٥) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١٠.

(٢٥٩٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١١.

(٢٥٩٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧٧ ص٤١١.

(٢٥٩٨) الرحيق المختوم ص٢٩٢، شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١٤.

١٣٤٧- استسلامهم ونزولهم على حكم رسول الله:

ولما طال عليهم الحصار استسلموا ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في موالي الخزرج أي بني قينقاع، ما علمتَ أي أنهم أرادوا أن يعفو عنهم كما عفا ﷺ عن بني قينقاع. فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذلك إلى سعد بن معاذ[٢٥٩٩].

١٣٤٨- حكم سعد في بني قريظة:

وكان سعد بن معاذ قد أصيب في معركة الخندق بجرح، فجعله ﷺ في خيمة رفيدة عند مسجده، وكانت إمرأة تداوي الجرحى، فقال: اجعلوه في خيمتها لأزوره من قريب. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وحاصرهم واختير سعد ليحكم في بني قريظة، أرسل إليه ﷺ فحملوه على حمار وجيء به إلى رسول الله ﷺ فلما وصل قال عليه الصلاة والسلام للأنصار: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه. فقال سيدنا محمد ﷺ: هؤلاء- أي بنو قريظة نزلوا على حكمك. وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: احكم فيهم يا سعد. قال: الله ورسوله أحق بالحكم. قال: قد أمرك الله أن تحكم فيهم، فقال سعد: تُقْتَلُ مقاتلتهم، وتُسبىَ ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم. فقال ﷺ: قضيت بحكم الله. وفي رواية ابن إسحاق من مرسل علقمة بن وقاص: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». وفي رواية من فوق سبع سموات[٢٦٠٠]. ونفذ هذا الحكم - حكم سعد فيهم.

(٢٥٩٩) شرح البخاري للعسقلاني ج٧ ص٤١٤.

(٢٦٠٠) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١١-٤١٤.

المبحث الرابع
المستفاد من قصص
ما جرى ليهود المدينة

١٣٤٩- تعميق معاني الولاء والبراء في نفوس الدعاة:

في غزوة بني قينقاع التي انتهت باستسلامهم للنبي ﷺ، ألحّ المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول في طلبه من رسول الله ﷺ بالعفو عن بني قريظة محتجاً بأنهم حلفاؤه، ومصرحاً بأنه لا يبرأ من توليهم. أما المسلم عبادة بن الصامت، فقد أعلن براءته من حلفه مع بني قينقاع بعد أن ظهر نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وإخلاص ولائه كاملاً لله ورسوله، فقال قولته المشهورة لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله. وهكذا يجب على الدعاة أن يعمقوا معاني الولاء، فيجعلونها خالصة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يجعلون في هذا الولاء نصيباً لأعداء الدعوة، وإن كان لهم معهم نسب أو علاقة دنيوية، وأن يجعلوا براءهم من كل من وما يعادي الدعوى التي يحملوها، وأن يستشعروا ويستحضروا في نفوسهم مدى ولاء صحابة رسول الله لله ورسوله وللمؤمنين، ومدى برائهم من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، كما عليهم أن لا ينسوا براءة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل من أبيه، لما تبين له أنه عدو لله. فإذا فعل الدعاة ذلك، واستقرت معاني الولاء والبراء في أنفسهم حتى صارت جزءاً من كيانهم يتصرفون ويتحركون في ضوئها وبناء عليها، عليهم أن يشيعوها ويعمقوا معانيها في نفوس أنصارهم ومؤيديهم، ثم يفعلوا ذلك في المسلمين عموماً عن طريق دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم الهادفة التي يجب أن يريدوا من ورائها تبيين معاني إسلامية معينة وتأكيدها، ومن جملتها معاني الولاء والبراء عند المسلم.

١٣٥٠- الاعتبار والاتعاظ بالماضين:

في قصة غزوة بني النضير التي أنزل الله فيها معظم آيات سورة الحشر، قال تعالى

بعد أن ذكر ما حلّ بهم: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، ومعنى ذلك واضح وهو: أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيرة بنور الإيمان اتعظوا بما حلَّ ببني النضير بسبب عصيانهم وتمردهم على الله. ورفضهم الإيمان بما يجب عليهم الإيمان به. ونقضهم العهود، اتعظوا بما حلّ بهم من نكال وعقاب وإذلال وخروج من ديارهم، اتعظوا بذلك واعتبروا به بأن لا تفعلوا ما فعلوه لا كله ولا بعضه، لئلا يصيبكم من العذاب ما تستحقونه بقدر ما تقومون به من أسباب ودواعي العقاب. إن هذا المعنى الواضح والذي يدعونا الله إليه أصبح غائباً عن أذهان المسلمين، أو حاضراً ولكنه مشوشاً غير واضح؛ لأن المسلمين يغفلون عن العبرة فيما قصّه الله علينا من قصص الماضين، وما حلّ بهم من جراء أفعالهم، ويحسبون أن ذلك لا يعنيهم ولا يتعلق بهم، وهذا خطأ يجب على الدعاة تصحيحه في أذهان المسلمين، وأن يبصروهم بأن سنة الله واحدة في مؤاخذته للعاصين، والمخالفين لأمر الله في اتباع شرعه وملاحظة سننه في الحياة. وأن يؤكد الدعاة هذا المعنى في دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم، ويستشهدوا بآيات القرآن وما وقع للصحابة الكرام. ويذكروهم أيضاً بقوله تعالى في تعليل ما أصاب بني النضير من نكال وعقاب، بأنهم شاقوا الله ورسوله بعصيانهم لما أمروا به من الإيمان بالله ورسوله، ثم قال تعالى مبيناً سنة من سننه في خلقه وهي: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذه الآية تبين لنا قاعدة من قواعد سنن الله في الحياة، فمن يتمرد على الله وشرعه ولا يلتزم بما جاء به محمد ﷺ، فالعقاب ينتظره سواء في الدنيا أو الآخرة، إن مهمة الدعاة في تبصير المسلمين هذه المعاني مهمة صعبة ولكنها ضرورية لتصحيح المفاهيم التي يجب مباشرتها أولاً حتى يمكن مطالبة المسلمين بالأعمال.

١٣٥١- مراعاة مقتضيات الحرب:

موضوع الدعوة هو الإسلام بجميع معانيه، والدعاة يدعون إلى الإسلام، أي إلى معانيه كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما استنبطه منهما أهل العلم. ومن جملة معاني الإسلام ما يتعلق منها بحالة الحرب التي قد تكون فيها الدولة الإسلامية. وللحرب مقتضياتها التي يجب مراعاتها، أو يجوز الأخذ بها تحقيقاً لمصلحة شرعية راجحة أو دفعاً لمفسدة، وإن كان المأخوذ في الأحوال العادية لا يجوز الأخذ به. ومن

ذلك ما ورد في غزوة بني النضير، وما صدر عن المسلمين من قطع بعض نخيل بني النضير مراعاة لمقتضيات الحرب على النحو الذي بنياه. فعلى الدعاة تبيين هذا المعنى لأولي الأمر في البلاد الإسلامية، ولأن القتل وإزهاق النفوس يجوز في الحرب، فما دون ذلك من إتلاف مال العدو جوازه أولى. وإذا كان إتلاف مال يجوز لمقتضيات الحرب ومقتضيات عدائه، فجواز ما دون إتلاف ماله أولى، مثل مقاطعة العدو اقتصادياً إذا أمكن، وعدم ترويج سلعه وبضاعته، واستخدام أفراده وأتباعه. على أن يكون ذلك كله موزوناً بميزان الشرع ومحققاً للمصالح الشرعية، ويمكن أيضاً للجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - حماية لنفسها من أذى أعدائها وأعداء الإسلام، أن تمتنع عما فيه عون لهم اقتصادياً أو معنوياً، فيمتنع أفراد الجماعة المسلمة من شراء بضائع خصوم الدعوة أو مساعدتهم، وترك أنصار الدعوة وأنصار الجماعة المسلمة دون معاونة ومساندة. فعلى الدعاة تبصير أنفسهم وأعوانهم وعموم المسلمين بهذا المعنى البسيط، وهو الابتعاد عن معاونة ومساندة خصوم الدعوة، ولكن لا يجوز إتلاف مال العدو وتحريقه قياساً على ما يجوز للدولة الإسلامية فعله مع أعدائها في حالة الحرب، لأن هذا قياس مع الفارق، ولأن الجماعة الإسلامية إن فعلت ذلك خرجت عن صفتها المميزة وهي جماعة دعاة إسلامية.

١٣٥٢- ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا:

على الدعاة وجماعتهم المسلمة رفع هذا الشعار وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ سواء كان هذا الإيتاء والنهي يتعلقان بنفس المسلم وشؤونه الخاصة أو ما يتعلق بعلاقاته مع غيره، وسواء كان ذلك ما تعلق بالدعاة وبجماعتهم أو ما تعلق بغيرهم.

١٣٥٣- إيثار بعض الدعاة بالعطاء:

ويجوز لجماعة الدعاة أن تؤثر أحد دعاتها أو بعضهم على البعض الآخر في العطاء، أي في الأشياء المادية التي تملكها والمرصدة لأعضائها والدعاة فيها، على أن يكون هذا الإيثار بمبرر شرعي، كما حصل في قسمة أموال بني النضير التي غنمها النبي ﷺ فأعطاها للمهاجرين دون الأنصار إلا اثنين أو ثلاثة منهم لفقرهم، وإنما آثر

النبي ﷺ المهاجرين بأموال بني النضير وقسمتها عليهم لحاجتهم وفقرهم. فعلى الدعاة وأنصار الجماعة المسلمة أن لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً أو سخطاً على الجماعة إذا آثرت بعضهم في العطاء لمبرر شرعي هي تقدره، وعليهم أن يحملوا تصرفها على محمل حسن، ووجود المبرر الشرعي لفعلها، مثل حاجة من آثروه بهذا العطاء، أو أن متطلبات عمله في الدعوة يستلزم هذا العطاء ونحو ذلك.

١٣٥٤- المقام السامي للصحابة الكرام:

ذكرنا ثناء الله تعالى ومدحه لصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في سورة الحشر بمناسبة ذكر المستحقين لأموال بني النضير، وهي أموال الفيء التي أفاء الله بها على رسوله والمشار إليها في سورة الحشر. كما ذكرنا حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، ولم يتأثر بحلف قديم بين قومه «الأوس» وبين يهود بني قريظة، مفضلاً بل وعاملاً بمقتضى ولائه لله ولرسوله وللمؤمنين، ومتبرئاً من موالاة غيرهم والانحياز إلى هذا الغير. فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة تعريف المسلمين بالمقام السامي للصحابة الكرام، والمنزلة العالية التي نالوها في خدمة الإسلام، وتفهيم المسلمين وجوب محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وحرمة بغضهم أو الحقد عليهم أو سبهم أو تنقيصهم، وتفهيم المسلمين بأن الله مدحهم في كتابه العزيز، وشهد لهم بالصدق والإيمان وبرضوانه عليهم، وأن متبعيهم بإحسان يصيبهم رضوان الله، وأن مبغضهم والحاقد عليهم ومن سبهم أو انتقصهم مستحق لسخط الله. فعلى الدعاة أن يوضحوا ذلك للناس لا سيما في الأماكن التي يعلن بعض الجهلة والمبتدعة سبَّ صحابة رسول الله ﷺ علانية وجهاراً. فعلى الدعاة أن يستشهدوا بما نزل من كلام الله من عقاب سيحل بهؤلاء، كما أن عليهم أن يذكّروهم بما ورد من أحاديث في مدحهم والثناء عليهم، فمن ذلك ما أخرجه البخاري في مدح الصحابة والثناء عليهم، فمن ذلك ما يأتي - كما رواه البخاري[٢٦٠١].

أ- عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم» ويدخل الصحابة في قرنه ﷺ دخولاً أولياً.

(٢٦٠١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣، ١٢، ٢١، ٤٠، ٥٢، ٧٠، ١١٣، ١٢٠.

ب- وفي فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر».

جـ- وفي النهي عن سب أصحاب النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه».

د- ومن مناقب أو فضل عمر، قوله ﷺ: «بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ بجانب القصر، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرتك فوليت مدبراً» فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟

هـ- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: إن النبي ﷺ قال: «أُرِيتُ في المنام أني أَنْزِعُ بدلوٍ بكرةٍ على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالتْ غَرْباً فلم أرَ عبقرياً يفري فَرِيه حتى رَوِيَ الناس وضربوا بعَطَن».

«بدلو بكرةٍ» المراد نسبة الدلو إلىٰ الأنثى من الأبل وهي الشابة أي الدلو التي يُسقى بها. «عبقري» العبقري: النافذ الماضي الذي لا شيء يفوته. وقال أبو عمر: عبقري القوم: سيدهم وقَيِّمهم وكبيرهم. و«غَرْباً» والغرب: الدلو العظيمة. و«يفري فريه» الفري: القطع، و«عَطَن»: مبارك الإبل عند الماء، ومرابض الغنم أيضاً، الجمع أعطان واحدها عَطَن[٢٦٠٢].

و- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فضربه برجله وقال: «اثبت أحد، فما عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيدان».

هـ- ومن منافب عثمان بن عفان رضي الله، قول النبي ﷺ: «من يحفر بئر رُومة فله الجنة»، فحفرها عثمان. وقال ﷺ: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»

(٢٦٠٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٦، مختار الصحاح ص١٨٥، ١٩٧، ٢١٠.

فجهزه عثمان.

ز- ومن مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قوله ﷺ في غزوة خيبر: «لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجلاً يحبه الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله عليه، فإذا نحن بعلي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه. وفي رواية أخرى للبخاري وفيها: أن علياً كان أرمد، فبصق ﷺ في عينه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

حـ- وفي فضل الأنصار من صحابة رسول الله قال ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ط- وفي حفر الخندق قال ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة».

د- وقال ﷺ في وصيته بالأنصار: «أوصيكم بالأنصار اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

وهناك أحاديث في مناقب تخص أشخاصاً بأعيانهم من الأنصار، وإنما ذكرت مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، لأن أكثر سبّ المبتدعة يتعلق بهم.

١٣٥٥- تحقيق معاني الأخوة والإيثار بين الدعاة:

وعلى الدعاة أن يحرصوا على تحقيق معاني الأخوة الإسلامية ومقتضياتها، ويرتقوا إلى مستوى الإيثار الذي وصل إليه الأنصار في علاقتهم مع المهاجرين، وأن يدعوا المسلمين إلى معاني الأخوة الإسلامية، وتذكيرهم بما كان عليه الصحابة الكرام من هذه المعاني ومن معاني الإيثار، ويرووا لهم القصص في الإيثار التي ذكرتها عن الصحابة الكرام. وعلى هذا فمن غير المقبول من الدعاة أو من أعضاء الجماعة المسلمة، ونحن ندعوهم إلى إقامة هذا المجتمع الإسلامي المتميز فيما بينهم، أقول من غير المقبول أن يقع بينهم حسد أو حقد أو بغض وإذا وقع شيء من هذه القاذورات في قلوبهم، فعليهم أن يبادروا إلى تطهير قلوبهم منها كما يسارعون إلى تطهير أبدانهم من النجاسة إذا وقعت أو حصلت فيها.

١٣٥٦- المسلم يقع في الإثم ولكنه يسرع إلى التوبة:

المسلم قد يقع في الإثم وفي الخطيئة، لأنه غير معصوم، ولكن عليه أن يسرع إلى التوبة «فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» كما جاء في حديث رسول الله ﷺ. وقد رأينا كيف أن أبا لبابة عندما استشاره بنو قريظة في مسألة نزولهم على حكم رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقة - يريد الذبح -، وأنه سرعان ما تنبه إلى فعله الآثم، فندم وتاب وربط نفسه على جذع في المسجد حتى أنزل الله توبته على رسوله ﷺ، وأبى أن يحله من رباطه أحد غير النبي ﷺ. وعلى هذا فالوقوع بالإثم محتمل من قبل أي مسلم مهما علت منزلته وعمّر ونوّر الإيمان قلبه، لأنه غير معصوم. فعلى الدعاة أن يعلموا ذلك، وأن يستحضروه في أذهانهم ولا ينسوه، والمطلوب منهم إذا وقع أحدهم في الإثم أن ينهض حالاً ويتوب إلى الله تعالى وأن يعينه إخوانه على التوبة، وأن لا يشهروا به، أو يتعجبوا منه على وجه يحملهم على مقاطعته، فهذا ونحوه لا يجوز، لأن التوبة تمحو الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وإن كانت معصية الأخ في حق غيره من إخوته فعلى هذا الغير أن يسامحه ويعفو عنه ويستغفر له الله تعالى، فهذا هو شأن الإخوة في مجتمعهم الإسلامي الصغير: مجتمع الدعاة في جماعتهم المسلمة.

الفصل الحادي عشر

غزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع)

المبحث الأول

خلاصة هذه الغزوة

١٣٥٧- تاريخ وقوعها وأسبابها:

وقعت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة على ما رجحه واستظهره ابن حجر العسقلاني. فتكون قد وقعت قبل الخندق، لأن معركة الخندق كانت في شوال من سنة خمس أيضاً. وبنو المصطلق بطن من خزاعة. (والمريسيع)ماء لبني خزاعة[٢٦٠٣].

أما أسبابها فقد ذكر ابن إسحاق عن مشايخه عاصم بن عمر بن قتادة وغيره: أنه ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له لقتاله، وأن قائدهم الحارث بن أبي ضرار. فخرج إليهم النبي ﷺ مع جيشه من أصحابه حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المُرَيسيع قريباً من الساحل. فالتحم الفريقان: المسلمون والمشركون واقتتلوا فهزمهم الله، وانتصر المسلمون عليهم وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم وأبناءهم. ولكن الذي ورد في الصحيح من حديث ابن عمر يدل على أنه ﷺ والمسلمون أغاروا على بني المصطلق على حين غفلة منهم فأوقع بهم. ولفظ الحديث الصحيح الذي ورد في هذه الغزوة هو: أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون -أي غافلون- وأنعامهم تستقي على الماء فقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم.. الخ. وأراد ابن حجر التوفيق بين الروايتين، فقال: فيحتمل أن يكون حين الإيقاع ببني المصطلق ثبتوا قليلاً فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكونوا لما دهمهم المسلمون وهم على الماء ثبتوا وتصافوا، ووقع القتال بين الطائفتين ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم[٢٦٠٤].

(٢٦٠٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٣٠.

(٢٦٠٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٣٠-٤٣١.

١٣٥٨- انتصار المسلمين ووفرة ما غنموه:

أشرنا إلى غلبة المسلمين على بني المصطلق، وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة من بني المصطلق غنائم كثيرة: ألفي بعير وخمسمائة شاة، هذا عدا السبايا من النساء والأسارى من الرجال[٢٦٠٥].

١٣٥٩- جويرية بنت الحارث:

كان من جملة السبي جورية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها - أي اتفق معها على أداء مبلغ من المال ليعتقها - فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا الزواج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ[٢٦٠٦]. وفي رواية لابن هشام أن النبي ﷺ لم يجعلها في سهم أحد تكرمة لها، ثم قدم أبوها بعدُ في فدائها بإبلٍ. وقد أسلم وأسلم ابنان له وناس من قومه، فدفع الإبل وسلمت إليه ابنته، فأسلمت فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، فمَنَّ الصحابة على من بأيديهم من قومها؛ لمصاهرة رسول الله منهم[٢٦٠٧].

١٣٦٠- من دسائس المنافقين:

لما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى الإيقاع بين المهاجرين والأنصار، بإثارة العصبية فيما بينهم، وخلاصة هذا السعي الحثيث من المنافقين وما آل إليه. ما رواه البخاري عن زيد بن أرقم أنه سمع عبد الله بن أبي يقول - أي لأصحابه ومن حوله -، لا تنفقوا على من عند رسول الله من الفقراء المهاجرين حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل. وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فأنزل الله تعالى سورة ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ وفيها ذكر ما قاله ابن أبي. وفي حديث آخر رواه البخاري عن جابر، قال: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال

(٢٦٠٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٥٣.

(٢٦٠٦) الرحيق المختوم ص٢٩٩.

(٢٦٠٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٥٣.

الأنصاري ياللأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوة الجاهلية؟ قالوا يا رسول: كسع - أي ضرب برجله - رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال ﷺ: «دعوها فإنها منتة». فسمع بذلك المنافق عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٢٦٠٨). ثم إن النبي ﷺ أراد أن يشغل جيشه عما أثاره ابن أبي وما قاله، فأمر الجيش بالرحيل فسار به طيلة اليوم حتى أمسى، وليلهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس وقد أتعبهم السير المتواصل فوقعوا نياماً(٢٦٠٩).

١٣٦١- يستأذن رسول الله في قتل أبيه:

ولما بلغ عبد الله بن المنافق ابن سلول ما قاله أبوه، استأذن رسول الله ﷺ في قتله، فنهاه، وقال له: «لا، ولكن برّ أباك وأحسن صحبته» ولكنه منع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها، مع شدة برّه لأبيه، وفعلاً لم يسمح عبد الله لأبيه بالدخول حتى أذن له رسول الله بذلك وحتى قال أبوه: النبي هو العزيز وأنا الذليل. وقد علل رسول الله ﷺ منعه لعبد الله من قتل أبيه بقوله: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٢٦١٠).

١٣٦٢- نزول سورة «المنافقون»:

وقد نزلت سورة «المنافقون» في غزوة بني المصطلق، بسبب أن عبد الله بن أبي ابن سلول كان منه في تلك الغزوة أقوال، وكان له أتباع يقولون قوله، فنزلت السورة كلها بسبب ذلك، وقد ذكر الله فيها ما تقدم من المنافقين من حلفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأنهم كذبة فيما يقولون، لعدم إيمانهم وتصديقهم بما يقولون ويشهدون. كما ذكر الله تعالى في هذه السورة ما تأخر منهم - أي من المنافقين - من

(٢٦٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٠، وتفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٢.

(٢٦٠٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٢.

(٢٦١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٢.

أقوال ووقع في تلك الغزوة - غزوة بني المصطلق-[٢٦١١].

١٣٦٣- القرآن يخبر عما قاله المنافقون:

قلنا إن سورة «المنافقون» نزلت كلها بسبب ما قاله المنافقون: ابن أبي بن سلول وأصحابه في غزوة بني المصطلق، وقد أخبر القرآن في هذه السورة ما قالوه، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٢٦١٢]. قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى المنافق عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن قال بقوله: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي لأجل أن يتفرقوا عن النبي ﷺ: بأن يذهب كل واحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك، يعنون بذلك فقراء المهاجرين. ثم سفَّه الله تعالى أحلامهم في ظنهم أن إنفاقهم هو سبب رزق هؤلاء الفقراء المهاجرين، ونسوا أن حرمان الرزق بيد الله تعالى إذا شاءه، وأنه إذا انسدَّ باب انفتح غيره، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن الله تعالى هو الرزاق لهؤلاء الفقراء والمهاجرين وغيرهم، لأن خزائن الرزق له، فيعطي من شاء ما يشاء ويمنع من شاء ما يشاء، لا بأيديهم، وهذا ردٌّ وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله ﷺ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعلمون ذلك، أن الأرزاق بيد الله وأنه هو الباسط القابض، المعطي المانع[٢٦١٣].

١٣٦٤- العزيز هو رسول الله والذليل هو المنافق ابن أبي:

وأخبر الله تعالى أيضاً ما قاله ابن أبي ورضيه أصحابه المنافقون ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٦١٤] القائل هو المنافق ابن أبي، وعنى بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل من أعزه الله عز وجل وهو الرسول ﷺ، أو هو عليه الصلاة والسلام

(٢٦١١) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٥٢.

(٢٦١٢) سورة المنافقون الآية ٧.

(٢٦١٣) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٦٤، تفسير فتح البيان ج١٤ ص١٥٠-١٥١.

(٢٦١٤) سورة المنافقون الآية ٨.

والمؤمنون. وإسناد القول المذكور لجميعهم مع كون القائل هو ابن أبيّ، لكونه رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضوان بما يقوله سامعون له ومطيعون. وردّ الله عليهم مقالتهم هذه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا ما قالوه، والحال أن كل من له بصيرة يعلم أن القوة والغلبة لله وحده، ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده، وعزة الله قهره وغلبته لأعدائه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم، هذا وإن ثبوت العزة لله ذاتي أي من مستلزمات ذاته تعالى، وثبوتها لرسوله ﷺ بواسطة الرسالة، أي بواسطة اصطفائه تعالى له رسولاً، وثبوتها للمؤمنين بواسطة الإيمان، أي لإيمانهم بما أوجب الله الإيمان به، أي لإيمانهم بالله رباً وإلهاً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وباتباع شرعه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لفرط جهلهم وغرُورهم لا يعلمون أن العزة ليست لهم وإنما هي لله ولرسوله وللمؤمنين. وقد أشار المفسرون، وهم يفسرون هذه الآية، ما ذكرناه من أنّ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لما بلغه ما قال أبوه، قال له: والله لا تدخل المدينة حتى تقرَّ على نفسك أنتَ الذليل ورسولُ الله هو العزيز، وأن يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول. فقال ابن أبي ما طلبه منه ابنه، ثم لم يدخل حتى أذن له ﷺ بالدخول بأن أرسل عليه الصلاة والسلام إلى ابنه عبد الله: أن خلّ عنه يدخل، ففعل وسمح له بالدخول[٢٦١٥].

(٢٦١٥) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٢٩، تفسير الألوسي ج٢٨ ص١١٥-١١٦، فتح البيان ج١٤ ص١٥١-١٥٢.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة غزوة بني المصطلق
وما وقع فيها

١٣٦٥- التعجيل في مواجهة العدو:

ذكرنا أن النبي ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون الجموع لقتاله، وأنه عليه الصلاة والسلام سار إليهم بجيشه حتى باغتهم على ماء المريسيع. ويستفاد من هذا أن من حسن التدبير والسياسة الحكيمة لولي الأمر في الدولة الإسلامية أن يباغت العدو إذا انكشفت نيته في محاربة المسلمين كأن يجمع لهم جموعه، وهذا إذا كان للمسلمين القوة الكافية للخروج إلى العدو وقتاله والهجوم عليه. أما إذا لم يكن للمسلمين القوة الكافية للقيام بما ذكرنا فعلى ولي الأمر فيهم أن يأخذ خطة الدفاع وعدم الهجوم، كما فعله ﷺ في معركة الخندق حيث حفر الخندق حول المدينة وتهيأ للدفاع عنها، ولم يخرج ﷺ لقتالهم لعلمه بضخامة جيش العدو، وعدم القدرة على ملاقاته وجهاً لوجه. فالمسألة تقديرية متروكة لولي الأمر. فعلى الدعاة بيان ذلك باعتباره من الفقه الشرعي الذي يشمل مختلف شؤون الحياة. كما ينبغي للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تباغت خصومها، بإفشال خططهم الخبيثة نحوها وذلك بكشف ما يثبت سوء نيتهم وقصدهم الخبيث لإيذاء الدعاة وجماعتهم المسلمة. ولا ينبغي للجماعة المسلمة الانتظار حتى يباشر أعداؤها فعلاً تنفيذ ما يؤذيهم ويلحق الضرر بهم. ويعتبر هذا الكشف من جماعة الدعاة لخطط الاعتداء عليها وعلى أفرادها من نوع الهجوم على العدو قبل أنْ يبدأ هو بالهجوم. كما أن على الدعاة وهم يقومون بتبليغ دعوتهم، إذا شعروا بما يبيت لهم من سوء وكيد، أن يكشفوا ذلك للمسؤولين في منطقتهم، ويبينوا القرائن الدالة على ذلك حتى لا يؤخذ الدعاة على حين غرة، كما لو أراد أحد الدعاة إلقاء محاضرةٍ في منطقة معينة أو في مسجد، علم بأن خصوم الدعوة يبيتون ما يمنع هذه المحاضرة، كأن يجندوا بعض

الجهال للتحرش بالداعي، أو بمنع من يريد الحضور لسماع المحاضرة من دخول مكان إلقائها، فعلى الداعي أخذ ما يلزم لمنع الخصوم من تنفيذ ما يريدون، كأن يخبر المسؤول الإداري أو الأمني في المنطقة بذلك، ليأخذ ما يلزم لمنع حدوث ذلك. أما إذا لم يعلم الداعي من خصوم الدعوة النية على إفشال عمله الدعوي، فعليه أن يأخذ الحيطة من كيدهم بمراقبة من يريد الإخلال بجو المحاضرة ومنعه من ذلك.

١٣٦٦- محاربة العصبية الجاهلية بجميع أنواعها:

المراد بالعصبية الجاهلية اشتراكٌ في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك. والذي كان في الجاهلية من العصبية: العصبية القبلية. ولكن العصبية الممقوته والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها. واستدل على ما أقول بما وقع في غزوة بني المصطلق، وسبق وأن ذكرته وأعيده هنا، وهو عن جابر بن عبد الله، قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة - غزوة بني المصطلق - فكسع - أي ضرب برجله - رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ، فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[٢٦١٦] ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادى استعمل اسماً استعمله القرآن وهو «المهاجرين» و«الأنصار». فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم؛ لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو «المهاجرة»، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحداً ومعنى واحد وهو مدلول كلمة «الأنصار». وكان حق الاثنين - إذا كان لا بد من الاستنصار بالغير - أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً. وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها،

(٢٦١٦) تفسير فتح البيان ج١٤ ص١٥١-١٥٢.

سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، مشترك آخر، من بلد أو مذهب أو حرفة أو حزب، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ويقول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم. .» وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصراً على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي. مهما كانت صلاتهم بالمحق أو بالمبطل، بالمعتدي أو بالمعتدي عليه. وأن يحققوا المعنى الصحيح الذي صرح به ﷺ بقوله: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل يا رسول ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم».

إن مهمة الدعاة في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها البالغة يجب بذل كل جهد ممكن لقلعها من النفوس.

١٣٦٧- رابطة الإيمان تعلو ما سواها من الروابط:

ذكرنا قول المنافق ابن أبي بن سلول: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يريد بالأعز نفسه وأتباعه، والأذل من أعزه الله وهو رسوله ﷺ، وإن هذه المقالة الخبيثة بلغت عبد الله ابن هذا المنافق، وكان هذا الابن الصالح من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، فأغاظته وأغضبته؛ لأن رسول الله ﷺ أحب إليه من أبيه، ورباطه أعظم وأقوى من رباطه النسبي بأبيه؛ لأن رباطه برسول الله رابطة إيمان وهي تعلو على ما سواه من الروابط ولو كانت رابطة الأبوة، ولهذا استأذن رسول الله ﷺ أن يقتل أباه، فأبى ذلك ﷺ. ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقف عبد الله على مداخل المدينة، فلما قدم أبوه ليدخل منعه ابنه، وأقسم بالله أن لا يدخل حتى يعلن بأن رسول الله هو العزيز وأنه هو الذليل، فقالها الأب، ثم لم يأذن له ابنه حتى يأذن له رسول الله ﷺ بالدخول، فلم يسمح له بالدخول حتى أذن له رسول الله ﷺ. فعلى الدعاة أن يربوا أنفسهم ومن يدعوهم على هذا الولاء لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين، وأن يكون ولاؤهم وبراؤهم على هذا الأساس، فالقريب منهم الولي لهم هو كل مؤمن، والبعيد منهم من كان عدواً لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين وإن كان قريباً منهم نسباً.

١٣٦٨- المؤمن لا يكون إلا عزيزاً:

العزة تعني الغلبة والقوة، وهي لله أصلاً فهو القوي الذي لا يغلب، ولمن اتصل به وأيده وأعزه من رسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. والعزة غير الكبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، العزة معرفة المسلم بحقيقة نفسه وبقيمة وعظيم قدر ما يحمله من معاني الإسلام، ولذلك فهو يكرمها ولا يضعها لأي غرض من أغراض الدنيا. كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها. فعلى الدعاة أن يربوا نفوسهم وأتباعهم على معاني العزة؛ لأنهم موصولون بالقوى العزيز الذي أعزهم بالإسلام، فلا يجوز أن يذلوا أو يشعروا بمهانة لضعفهم وقوة خصومهم، فإن الأسد يبقى شاعراً بأسديته ولو وقع في أسر الصياد، فلا يجوز أن يكون المؤمن أقل إحساساً من هذا الحيوان، إن على الدعاة أن يحسوا بقدر وعظم ما يحملونه من معاني الإسلام التي لا قيمة ولا قدر للإنسان بدونها، فلا تتضعضع ذايتهم أمام الكافر إذا قدر وآلت السلطة إليه، فإن الخنزير يبقى خنزيراً، ويُرَى على أنه خنزير وإن وقف على مكان عالٍ. إن على الدعاة أن يذكّروا المسلمين بأنهم أعزاء ما أعزوا الإسلام وإن الذلة والهوان من حق ونصيب الكافر. وليعلم الدعاة بأن دعوتهم لا يمكن أن يحملها الذليل الذي لا يستشعر في قلبه عزة الإيمان.



الفصل الثاني عشر
حديث الإفك

المبحث الأول
خلاصة قصة حديث الإفك

١٣٦٩- خلاصة حديث الإفك:

في هذه الغزوة، غزوة بني المصطلق، وقعت قصة الإفك، وهي تتعلق بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبما أثاره حولها المنافق عبد الله بن أبي وتبعه في إفكه من تبعه، وخلاصة ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يخرج لسفر أو لغزوة أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بين أزواجه لما أراد الخروج لغزوة بني المصطلق، فخرجت القرعة لها، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وحدث لها في أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن نصره الله على بني المصطلق ما رواه البخاري ومسلم، فلنذكر ما أخرجه البخاري عن عائشة بشأن هذه القصة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها - هي غزوة بني المصطلق - فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أُحْمَلُ في هودجي وأُنزَلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حتى آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظَفَار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يُرحِّلوني، فاحتملوا هودجي، فرَحَلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهبُلنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلْقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة هودجي حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية

حديثة السنّ، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد أن استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ. فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطّل السُّلمي من وراء الجيش فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرتُ وجهي بجلبابي. ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهَوَى حتى أناخ راحلته، فوطىءَ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش مُوغِرين في نَحْر الظهيرة وهم نزول(٢٦١٧).
قالت عائشة رضي الله عنها: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبْر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول. قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَرِيبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يَرِيبُني ولا أشعر بالشرّ حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المصانع - وكان متبَرّزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل - وذلك قبل أن تُتخذ الكنف قريباً من بيوتنا. قالت: فانطلقتُ أنا وأم مسطح، فعثرت أم مِسْطح في مِرْطها فقالت: تَعِس مِسْطح، فقلتُ لها: بئس ما قلتِ أتسبين رجلاً شهد بدّراً؟ فقالت أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ، فسلّم فقال: «كيف تيكم(٢٦١٨)؟» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ. فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟

(٢٦١٧) موغرين: أي نازلين في وقت الوغرة وهي شدة الحر. ونحر الظهيرة أي وقت القائلة وشدة الحر.

(٢٦١٨) كيف تيكم: هذه إشارة إلى المؤنث وكذلك إلى المذكر.

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحلُ بنوم ثم أصبحت أبكي. قالت: ودعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه. فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرَةَ فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يَريبكِ؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أَغْمِضُه غير أنها جارية حديثة السن تنام على عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي - وهو على المنبر - فقال: يا معشر المسلمين من يَعْذِرُني من رجلٍ قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعدُ بن معاذٍ فقال: أنا يا رسول الله أعْذِرُكَ فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أَمْرَك. قالت: فقام رجل من الخزرج وهو سعدُ بن عُبادة وهو سيدُ الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحَمِيَّةُ فقال لسعد بن معاذ: كذبت لَعَمْرُ الله لا تقتُلُهُ ولا تقْدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أُسيْدُ بن حُضَيْرٍ وهو ابن عَمِّ سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتُلَنَّه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين. قالت فثار الحيّان: الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهمْ حتى سَكَنُوا وسكتَ. قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأُ لي دمع ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أني لأظُنُّ أن البكاء فالق كَبِدي. قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، ولقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنتِ بريئة فسيُبَرِّئكِ الله، وإن كنت أَلممْتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تابَ تاب الله عليه». قالت: فلما قال رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمْعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً، فقلتُ

لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً - : إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتُصدِّقُنِّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ثم تحَوَّلتُ فاضطجعْتُ على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأنَّ الله مبرِّئي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزّلٌ في شأني وحياً يُتلَى، ولشأني في نفسي كان أحقَرَ من أن يتكلم اللهُ فيَّ بأمْرٍ، ولكن كنتُ أرجو أن يَرَى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبرِّئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنْزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليتحدَّرُ منه العرق مثلُ الجُمانِ - وهو في يوم شاتٍ - من ثِقَلِ القول الذي أُنْزِلَ عليه، قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحكُ، فكان أول كلمة تكلم بها أَنْ قال: «يا عائشةُ أما الله فقد برَّأَكِ». قالت: فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، فإني لا أَحْمَدُ إلا الله عز وجل. قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..﴾ العَشْرَ الآيات ثم أنزل الله تعالى هذا في براءَتي [٢٦١٩].

١٣٧٠- تفسير الآيات ببراءة عائشة رضي الله عنها:

جاء في حديث البخاري بشأن حديث الإفك، أن الله تعالى أنزل في براءة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها آيات بينات تُتْلَى إلى يوم الدين، ولما كان في هذه الآيات من التوجيهات والضوابط التي يجب أن يلتزم بها المسلم إذا سمع ما ينبغي له تكذيبه إلى غير ذلك، فقد رأيت تفسير هذه الآيات ثم أتبعها إن شاء الله تعالى بذكر ما يستفاد منها ومن مجمل قصة الإفك.

١٣٧١- أصحاب الإفك لهم ما يستحقون من العقاب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍ

(٢٦١٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٢٩-٤٣٤.

مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٦٢٠].

الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك. والمراد به في الآية ما أُفِكَ به على عائشة رضي الله عنها. والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة. وهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وحسان بن ثابت ومِسْطح بن أُثاثة وحَمْنَةُ بنت جحش وزيد بن رفاعة[٢٦٢١].

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ والخطاب في ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ لكل من ساءه من المؤمنين حديث الإفك وخاصة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان بن المعطل. والشر ما زاد ضره على نفعه. والخير ما زاد نفعه على ضره. والخير الخالص الجنة، والشر الخالص هو النار. ومعنى كونه - أي حديث الإفك - خيراً لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء مبيناً ومحنةً ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لعائشة أم المؤمنين وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذنه[٢٦٢٢].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ﴾ أي يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي تولى كبر هذا الإفك هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فله عذاب عظيم؛ لأن معظم الشر كان منه[٢٦٢٣].

١٣٧٢ - المؤمن يظن خيراً فيما يسمعه عن أخيه المؤمن:

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ

(٢٦٢٠) سورة النور الآية ١١.

(٢٦٢١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٧، فتح البيان ج٩ ص١٧٩.

(٢٦٢٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٧، فتح البيان ج٩ ص١٧٩-١٨٠.

(٢٦٢٣) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٥٤، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٧.

مُّبِينٌ﴾[٢٦٢٤] هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّوء، فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ﴾ أي هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري، وهو خالد بن زيد الأنصاري، وامرأته، وذلك أنه دخل عليها، فقالت: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةَ ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة خير منك. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ . .﴾ الخ أي هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به. وقيل كان ينبغي لكم بمجرد سماعه أن تحسنوا الظن بأم المؤمنين فضلاً عن أن تتمادوا في سماعه فضلاً عن الإصرار عليه. وهذا الظن ما يتعلق في الباطن أي في قلوب المؤمنين: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي بألسنتهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن باعثاً على الشك والريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون - على فرض وقوعه وهو مستحيل - خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة[٢٦٢٥]. ويلاحظ هنا أنه لِمَ لَمْ يقلْ: لولا إذ سمعتموهم ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟ ولِمَ عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر؟ فالجواب للمبالغة في التوبيخ بطريقة الالتفات، وللتصريح بلفظ الإيمان، ليدل على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول غائب أو طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة سوء في أخيه المؤمن أو في أخته المؤمنة أن يظن فيهما خيراً ولا يشك

(٢٦٢٤) سورة النور، الآية ١٢.

(٢٦٢٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٣، تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٥٨، فتح البيان ج٩ ص١٨٣.

السوء فيهما، وأن يقول بناء على ظنه بالمؤمن أو المؤمنة الخير: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ هكذا باللفظ الصريح المصرح ببراءة ساحته وساحتها، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الإسلامي الرفيع الذي قلَّ القائم به والحافظ له، بل وقلَّ من يسمع مقالة السوء عن أخيه أو أخته فيسكت ولا يشيع ما سمعه[2626].

١٣٧٣- الذين جاؤوا بالإفك كذبة:

قال تعالى: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[2627] أي هلا ﴿جَآءُو عَلَيۡهِ﴾ أي على ما قالوه في أم المؤمنين ﴿بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك في حكم الله كاذبون فاجرون[2628].

١٣٧٤- لولا فضل الله لعذب الخائضين في الإفك:

قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2629] أي لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة، أيها الخائضون في شأن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم؛ لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ أي بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ولكن الله تعالى واسع الفضل والرحمة يمهل المذنب للتوبة، ويحلم عنه فلا يعاجله بالعقوبة للأوبة، أي لأوبته إلى الله تعالى. قال ابن كثير: وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش. فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه[2630].

(٢٦٢٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٨.

(٢٦٢٧) سورة النور الآية ١٣.

(٢٦٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢٦٢٩) سورة النور، الآية ١٤.

(٢٦٣٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤، تفسير القاسمي ج١٢ ص١٤٦.

وقال الألوسي: والخطاب - أي في هذه الآية - لغير ابن أبي من الخائضين، وجوز أن يكون الخطاب لهم جميعاً. ويُعقَّبُ بأن ابن أبي رأس المنافقين لاحَظَّ له من رحمة الله تعالى في الآخرة؛ لأنه مخلد في الدرك الأسفل من النار[٢٦٣١].

١٣٧٥- وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم:

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[٢٦٣٢]. قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان: كذا وذكر بعضهم كذا، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن التي تتكلون عنها زوجة رسول الله ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يُقَدِّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة؟ وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض» وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوى به في النار»[٢٦٣٣].. الخ. وعن بعضهم أنه جزع عند الموت فقيل له، فقال: أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم[٢٦٣٤].

(٢٦٣١) تفسير الألوسي ج١٨ ص١١٨.

(٢٦٣٢) سورة النور الآية ١٥.

(٢٦٣٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤.

(٢٦٣٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢٠.

١٣٧٦ - تأديب آخر للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٦٣٥] وهذا تأديب آخر بعد التأديب الأول الآمر بظن الخير، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول بشأن الأخيار فينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يكون في نفسه غير ذلك، فإن علق في نفسه شيء من الظن السيء وسوسةً أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» أخرجاه في الصحيحين. ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ » أي كان ينبغي عليكم، أيها المؤمنون، أن تنكروه ولا تتكلموا به ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن نقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوجة نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان عظيم. وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه[٢٦٣٦].

١٣٧٧ - التحذير من العود لمثل ما وقع منهم من إفك:

قال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٦٣٧] أي ينهاكم الله تعالى متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي فيما يستقبل إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تهييج لهم ليتعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود لمثل ما وقع منهم، وهو اتصافهم بالإيمان الذي من شأنه الصدّ عن كل قبيح. ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكم القدرية. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في شرعه وقدره[٢٦٣٨].

(٢٦٣٥) سورة النور، الآية ١٦.

(٢٦٣٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤، تفسير القرطبي ج١٢ ص٢٠٥.

(٢٦٣٧) سورة النور الآيتان ١٧، ١٨.

(٢٦٣٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢١.

١٣٧٨- تأديب ثالث وتحذير:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٦٣٩] وهذا تأديب ثالث وتحذير لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه، وتكلم به فليقطع كلامه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يختارون ظهور الكلام القبيح عنهم، ويشيعون الفاحشة في الذين آمنوا عن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي بالحد الشرعي ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ ولهم عذاب الله في الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم ما في القلوب من الأسرار والضمائر، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أنه تعالى قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو تعالى معاقبه عليها. وفي حديث أخرجه الإمام أحمد: أن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»[٢٦٤٠].

١٣٧٩- لولا فضل الله لعجل لهم العقاب:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٦٤١] كرر الله تعالى المنّة بترك المعاجلة بالعقاب لأولئك الذين جاؤوا بالإفك. فلولا فضل الله تعالى الذي منع التعجيل بالعقاب لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، قضية الإفك، وطهرّ من طهرَّ منهم بالحدّ الشرعي الذي أقيم عليهم[٢٦٤٢].

١٣٨٠- فليعفوا وليصفحوا:

كان من الذين وقعوا في الخطيئة، وشاركوا في الإفك مسطح بن أُثاثة، وكان من أقارب أبي بكر الصديق، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره، فلما أنزل الله آيات في براءة

(٢٦٣٩) سورة النور الآية ١٩.

(٢٦٤٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢١.

(٢٦٤١) سورة النور الآية ٢٠.

(٢٦٤٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢١.

عائشة حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح؛ لاشتراكه في الإفك الذي رميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٦٤٣).

يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الأَلية وهي الحلف، أي لا يحلف ﴿ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أي أهل الطول والصدقة والإحسان والسعة في المال ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكينِ والمهاجرين. وهذا في غايةِ الترفق والعطف على صلة الأرحام. ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى. وهذه الآية، كما قلت، وأشار إليه المفسرون، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح ولا ينفعه بنافعة أبداً بعدما قال في عائشة رضي الله عنها ما قال، وهو قريبه وابن خالته. فلما أنزل الله براءة عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحدّ على من أقيم عليه، شرع الله تبارك وتعالى بعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة فإنه كان ابن خالة الصديق كما قلت، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحدّ عليها، وكان الصدّيق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ما أذنبت في حقه تعالى، وكما تصفح عمن أساء إليك يصفح الله عنك، فعند ذلك قال أبو بكر الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً(٢٦٤٤). وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها ما ذكره المفسرون، إلا

(٢٦٤٣) سورة النور، الآية ٢٢.

(٢٦٤٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٥-٢٧٦، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢٢.

أنها عامة يتناول حكمها جميع الأمة إلى يوم القيامة بأن لا يغتاظ ذو فضل وسعة، فيحلف ألا ينفع أولى أرحامه الفقراء ونحوهم، وإنما عليه أن يحسن إليهم وإن أساؤوا إليه، أو كانت بينه وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعف عنهم وليصفح وليفعل بهم مثل ما يرجوا أن يفعل الله به من العفو والصفح[٢٦٤٥].

(٢٦٤٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢٢، تفسير القرطبي ج١٢ ص٢٠٧.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة الإفك
للدعوة والدعاة

١٣٨١- الحذر من المنافقين:

على الدعاة وجماعتهم المسلمة الحذر من المنافقين، الذين يعرفون من خلال صفاتهم وأقوالهم، لما فيها من تشكيك بوعد الله أو تثبيط همم المؤمنين، أو غير ذلك. قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾[٢٦٤٦] أي في فحواه ومعناه وإن لم يصرح به[٢٦٤٧]. أي يُعَرف المنافقون فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، لأن المتكلم يعرف من أي الحزبين هو: أَمِنْ حزب المؤمنين أم من حزب المنافقين. يعرف ذلك منه بمعاني كلامه وفحواه، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسّر أحدٌ سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[٢٦٤٨]. ووجه الحذر منهم التفطن لما يريده المنافق من إشاعة الفرقة والتهم بين المؤمنين، وإيقاع الشر فيما بينهم، واتهام الأخيار والقادة فيهم، وتأثر بعض المؤمنين بمقالة المنافق، ونشرها ونقلها وإشاعتها كما حصل في حديث الإفك. وليعلم الدعاة وجماعتهم أن تجمعهم الإيماني لا يجعلهم في نجوة وصيانة من التأثر بمقالات أهل النفاق وقيام بعضهم بنقلها، وإن كانوا ليسوا منافقين، كما فعل بعض المؤمنين الذين تأثروا بمقالة أهل الإفك. ففي مجتمع الصحابة الكرام وهو المجتمع الإيماني، وجد فيه من يسمع للمنافقين ويتأثر بأقوالهم. قال تعالى عن المنافقين: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ

(٢٦٤٦) سورة محمد الآية ٣٠.

(٢٦٤٧) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٥٢.

(٢٦٤٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٠.

لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٢٦٤٩] وقوله تعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي فيكم أيها المؤمنون نمامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون المنافقين ويطيعونهم[٢٦٥٠]، فعلى الدعاة الكشف عن مكائد المنافقين، وتحذير إخوانهم وأنصارهم من هذه المكائد.

١٣٨٢ - المؤمن قد يقع في الخطيئة:

وعلى الدعاة أن يعلموا أن المؤمن قد يقع في الخطيئة، كما وقع بعض المؤمنين في جريمة الإفك المتعلقةِ بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مع علو مقامْها ومنزلتها من رسول الله ﷺ، فليحذر الدعاة من الوقوع بمثل ما وقع فيه أصحاب الإفك، كما لو صدقوا أهل النفاق في طعنهم بعرض أو بسيرة أمير جماعتهم متعلقين بالشبهات التي يثيرها خصوم الدعوة، كاتهام أميرهم بالعمالة للأجنبي، لكونه رؤي يتكلم مع بعض أعداء الدعوة أو يختلي به، أو يزوره في سفارة بلاده، وما إلىٰ ذلك.

١٣٨٣ - الظن الحسن بالمؤمنين:

من ضوابط الأخوة الإيمانية الظن الحسن فيما بين المؤمنين، فلا يجوز حمل ما يصدر عن المؤمن محملاً سيئاً مع إمكان حمله على المحمل الحسن، وإذا كان هذا الضابط مطلوباً شرعاً بين عموم المؤمنين، فهو مطلوب طلباً آكد وأشد بين الدعاة أعضاء الجماعة المسلمة، فلا يجوز تأويل تصرفات الداعي من قبل إخوانه الدعاة تأويلاً سيئاً لا يليق به، ولا يتفق وكونه داعية إلى الإسلام. إن خصوم الدعوة يسعون إلى إشاعة سوء الظن فيما بين أعضاء الجماعة المسلمة من الدعاة وأنصارهم بما يلفقونه من اتهامات، ويزعمونه من أحداث ينسبونها إلى هذا أو ذاك من الدعاة. فعلى الدعاة أن يحصّنوا أنفسهم ضد هذا الأسلوب بالضوابط التي أشار إليها القرآن في حديثه عن أهل الإفك، وهذه الضوابط هي:

(٢٦٤٩) سورة التوبة الآية ٤٧.

(٢٦٥٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٧٧.

١٣٨٤- ضوابط الوقاية من تلفيقات أعداء الدعوة:

الضابط الأول - الظن الحسن فيما يسمعه عن إخوانه المؤمنين الدعاة، وأن يتذكر قوله تعالى في تحذيره للمؤمنين: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾.

الضابط الثاني - لا يكفي الظن الحسن في القلب بالنسبة لما يسمعه عن إخوانه الدعاة من أقوال السوء، وإنما عليه أن ينفيه بلسانه ويصرح بهذا النفي، لأن المنكر الظاهر يدفع بشيء ظاهر.

الضابط الثالث - ولا يكفي الظن الحسن والتصريح بنفي وإنكار مقالة السوء، بل على الداعي أن لا يسمح بتسرب شيء إلى نفسه مما يخالف الظن الحسن، وإذا حصل شيء من ذلك في نفسه فلا يجوز أن يتكلم بهذا، بل يردد بلسانه حتى يسمع نفسه وغيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴾.

الضابط الرابع - أن يبعد الداعي عن نفسه أي ميل أو محبة أو رغبة في إشاعة الفاحشة، ونهش الأعراض، واتهام الغافلين المؤمنين، ويعرف من نفسه حصول شيء مما ذكرنا فيها، إذا شعر بلذة في سماع أقوال السوء، أو رغبة في ترديدها، أو في قوله سمعت كذا وكذا من مقالة السوء، وليتذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

١٣٨٥- على الدعاة أن يروا في تلفيقات الأعداء خيراً لهم:

ولا يجوز أن تثبط تلفيقاتُ أعداء الدعوة هممَ الدعاة، ولا تضعف عزائهم، وأن لا يحدقوا وينظروا فقط إلى ما في هذه التلفيقات من أذى لهم وضرر عليهم، بل عليهم أن يبصروا من خلالها جانب الخير والمصلحة لهم المتمثلة بالأجر العميم، وبنصرة الله لهم وبتوعد أعداء الدعوة. وليتذكر الدعاة قول الله لرسوله وللمؤمنين الذين تأذوا بحديث الإفك: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ. . . ﴾.

١٣٨٦- احتمال وقوع أي تلفيق أو اتهام للدعاة:

ومما يجب أن يعرفه الدعاة وجماعتهم المسلمة معرفة جيدة، احتمال اتهامهم واتهام أميرهم ومن ينتسب إليهم بأي اتهام باطل، وإن كان ظاهر البطلان، ودليلنا على ذلك اتهام أم المؤمنين بما هي بريئة منه، بالرغم من القرائن القاطعة على براءتها واستحالة وقوع ذلك منها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا غرابة في اتهام أعداء الدعوة الدعاة بأي اتهام باطل غير مستساغ ولا مقبول ولا معقول، لأنهم لا يقيمون اتهاماتهم على أساس من الحق أو المنطق أو الواقع، إن قصدهم أن يقولوا السوء ويمضوا، ويأتي أنصار الشر ومحبو إشاعة الفاحشة فيكملوا ما بدؤوه، فعلى الدعاة مواجهة هذه الحالة، وتفقيه الدعاة والأنصار بهذا النهج والأسلوب، وليذكروهم بالحكمة التي تقول: «من يسمع يخل» أي من يسمع الباطل أو التلفيقات يقع في قلبه ظن الصدق بالمسموع، كما يذكروهم بقصة الإفك ففيها العبرة والتذكير.

١٣٨٧- إشاعة العفو والصفح بين الدعاة:

وعلى الدعاة وجميع أعضاء الجماعة المسلمة إشاعة حب العفو والصفح فيما بينهم، فيصفح بعضهم عن بعض إذا صدرت منه الإساءة أو التقصير، فإن الشأن بالأخ الصفح والعفو عن أخيه، وليتذكروا بأن الجزاء من جنس العمل، فإذا عفوا عن المسيء إليهم، جازاهم الله بالعفو عن زلاتهم وذنوبهم، وليتذكروا قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ...﴾.

١٣٨٨- المؤمن يرى ذنوبه كالجبال:

وعلى الدعاة أن ينظروا إلى ذنوبهم مهما صغرت كأنها جبال توشك أن تقع عليهم، وأن لا يستهينوا ولا يستصغروا أي ذنب، وأن يعلموا بأن الأقوال كباقي الذنوب، وأَن خطورتها عظيمة جداً لسهولة النطق بها، فليحذر الدعاة من زلات اللسان ومن النطق بما يسخط الله، أو يؤذي المؤمنين والمؤمنات، فرب كلمة لا يلقي قائلها لها بالاً تهوى به في جهنم، وهل أهلك أهل الإفك إلا كلامهم الباطل واتهامهم الآثم لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وليتذكر الدعاة خطر الكلمة تقال

في سخط الله، حتى لا يتكلموا إلا بخير. فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزلّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وقوله: «ما يتبين فيها»: أي ما يتفكر هل هي خير أو شر. وروى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه إلا أنهما قالا في روايتهما: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً»[٢٦٥١].

(٢٦٥١) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري ج٢ ص٨٥٣.



الفصل الثالث عشر

قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش

المبحث الأول

خلاصة القصة

١٣٨٩- خلاصة القصة:

زينب بنت جحش بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة الذي سبق وأن أعتقه وتبناه قبل النبوة، وكان التبني نظاماً شائعاً قبل الإسلام، وبقي نافذاً برهة بعد الإسلام. وكان من جملة أحكام هذا النظام أن المُتبنَّى يصير ابناً للمُتبنِّي لا فرق بينه وبين ابنه الصلبي، وبالتالي ما كان جائزاً في عرف الجاهلية بموجب هذا النظام أن يتزوج المُتبنِّي زوجة من تبناه إذا فارقها بطلاق أو موت، كما هو الحكم النافذ بالنسبة لزوجة الابن الصلبي لا يجوز لأبيه أن يتزوج امرأته إذا فارقها بطلاق أو وفاة، ولما أبطل الله التبني أراد تعالى إبطال أحكامه ومنها حرمة نكاح المتبني زوجة من تبناه بعد فراقه إياها، وأن يتولى رسوله ﷺ هذا الإبطال بنفسه، وذلك بأن يتزوج ﷺ زوجة زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه كما قلنا، وكان يُسمَّى بناء على هذا التبني: زيد بن محمد. فلما أبطل التبني وأنزل الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ قال زيد عن نفسه: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول، أنا زيد بن محمد. وخطب ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فتمنعت وأخوها في أول الأمر أن تتزوجه ثم رضيت كما سنبينه. ويفهم من قول أهل التفسير أن هذا الزواج كان بعد إبطال نظام التبني[٢٦٥٢]. ثم بعد هذا الزواج طلقها زيد، ثم تزوجها رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى؛ ليبطل بهذا الزواج أحكام التبني الذي أبطله الله.

(٢٦٥٢) تفسير فتح البيان ج١١ ص٩٦.

١٣٩٠- ما نزل من القرآن بشأن إبطال التبني:

قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢٦٥٣) أي ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجية وأمومة في امرأة، ولا بنوة ودِعوّة - أي بنوة بالتبني - في رجل. والمعنى: إن الله تعالى كما لم يرَ في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لم يرَ أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أماً لرجل وزوجاً له، كما لم يرَ تعالى أيضاً أن يكون الرجل الواحد دَعِيّاً لرجل - أي ابناً له بالتبني - وابناً صلبياً له، لأن البنوة الحقيقة أصالة في النسب، والدِعوّة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً وغير أصيل. وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، الذي سُبِي وهو صغير، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، فلما تزوجها رسول الله ﷺ قبل النبوة وهبته له، فأعتقه وتبناه وكان يُسمَى زيد بن محمد؛ لاعتيادهم نظام التبني، ثم تركوا على هذا النظام بعد الإسلام برهة، ثم أنزل الله هذه الآية إبطالاً لنظام التبني. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي النسب الذي تريدون إثباته لمن تتبنونه هو ﴿ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾: هذا ابني لا غير، ولكن هذا القول لا حقيقة له، فلا يقتضي دعواكم ذلك، أن يكون ابناً حقيقياً لمن ادعاه، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فلا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي الثابت المحقق في نفس الأمر ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي سبيل الحق(٢٦٥٤).

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي انسبوهم إليهم، ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أعدل وأحكم، ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ أي فتنسبوهم إليهم ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أي فإخوانكم في الدين ومواليكم فيه، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي ويا مولاي. ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿ فِيمَآ

(٢٦٥٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٤، ٥.

(٢٦٥٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٢٠.

﴿أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة، مخطئين بالسهو أو بالنسيان أو سبق اللسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه. ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ أي ففيه الجناح والإثم، لأن من تعمد الباطل كان آثماً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لعفوه عن المخطىء[٢٦٥٥].

١٣٩١- زينب ترضى بزواجها بزيد بعد تمنع:

خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب لزيد بن حارثة فأبت، لكونه مولى لا يماثلها في الشرف، وكذلك أبى أخوها عبد الله، فنزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٢٦٥٦] وقالت هي وأخوها: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها[٢٦٥٧]. ومعنى الآية: وما صح لرجل ولا لامرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل من واجبهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ واختيارهم تبعاً لاختياره[٢٦٥٨]. وقال بعضهم: إنما اعتبرت الآية الكريمة إباءها النكاح من زيد عصياناً للرسول ﷺ لما خطبها لزيد، وكأنه أرغمها على زواجه، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك وهو هدم تحريم زوجة المُتبنَّى على المُتبنِّي. وقال بعض آخر من أهل العلم: الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب، ولكن يحتمل أن تكون لا بطريق الوجوب، ولكن مخالفة قوله ﷺ يعتبر معصية لكونه قول الله في الحقيقة[٢٦٥٩].

وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

(٢٦٥٥) تفسير القاسمي ج٣ ص٢٢٥، ٢٢٧.

(٢٦٥٦) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٢٦٥٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٣٩، وتفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٣.

(٢٦٥٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٤٠.

(٢٦٥٩) تفسير القاسمي ج٣ ص٢٦١.

حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾. وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٢٦٦٠].

١٣٩٢- زيد يشتكي زينب عند رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . .﴾[٢٦٦١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وهو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي بالعتق من الرق، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي زينب بنت جحش وذلك أنها كانت ذا حدة، ولا زالت تغمز على زيد بشرفها ويسمع منها ما يكره، فجاء - رضي الله تعالى عنه - يوماً إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن زينب قد اشتدَّ علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها، فقال له عليه الصلاة والسلام: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها ولا تطلقها ضراراً وتعللاً بتكبرها واشتداد لسانها عليك. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي تقول له: أمسك عليك زوجك، وتخفي في نفسك ما أعلمك الله به بأن زيداً سيطلقها، وأنها ستكون من أزواجه. فهذا هو الذي كان يخفيه في نفسه ولكنه ﷺ فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف، فعاتبه الله تعالى على قوله: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمه الله بأنها ستكون زوجته. ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي تخفي في نفسك ما الله مظهره، وهذا التفسير للآية هو الذي يجب المصير إليه، وما قيل خلافه غير صحيح، لأن الآية صريحة في أن الله تعالى سيظهر ما كان يخفيه في نفسه من أنها ستكون زوجة له بعد أن يطلقها زيد، وهذا هو الذي أظهره وأوقعه وهو تزويجها منه ﷺ، فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ كما سنبينه بعد قليل. فلو كان الذي أخفاه وأضمره ﷺ غير ذلك، لأظهره الله تعالى، لأنه لا يجوز أن يخبر الله أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدلَّ على أنه إنما عوتب ﷺ على إخفاء ما أعلمه من أن زيداً سيطلقها، وستكون زوجته ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾

(٢٦٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٠.

(٢٦٦١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

أي تخاف أو تستحي أن تقول لزيد: طلقها، حتى تتزوجها كما أعلمك الله بذلك خشيةً أو حياءً من قول الناس أنَّ محمداً تزوج حليلة (زوجة) ابنه. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر فتفعل ما أباحه لك. فالعتاب على قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ مع علمه بإعلام الله له أن زيداً سيطلقها ويتزوجها هو ﷺ بعده، وهو عتاب على ترك الأولى، حيث كان الأولى في مثل تلك الحال أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الأمر إلى رأي زيد رضي الله تعالى عنه، ولكنه لم يفعل خشيةً من قالة الناس.

قالت عائشة وأنس، لو كان رسول الله يخفي شيئاً مما أنزله الله عليه لأخفى هذه الآية، ولكن حاشاه من ذلك. فقد بلَّغ ﷺ كل ما أنزله الله عليه حتى ما فيه عتاب له(٢٦٦٢).

١٣٩٣- تزويج الله نبيه عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾(٢٦٦٣). وقضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وطراً منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، والمراد هنا أنه - أي زيد - قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاصرت عنها همته وطابت عنها نفسه، وقيل المراد به الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة، فقضاء الوطر كناية عن الطلاق، وقوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ أي بعد أن طلقها زيد وانقضت عدتها جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد أصالة أو وكالة، فقد صحَّ من حديث البخاري وغيره أنها رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكنّ أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات. فمعنى ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ أي لم نحوجك إلى ولي من الناس بعقد لك عليها تشريفاً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن

(٢٦٦٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٠-٤٩١، تفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٣-٢٤، تفسير ابن عطية ج١٢ ص٦٩- ٧١، تفسير فتح البيان ج١١ ص٩٤- ٩٧.

(٢٦٦٣) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

ولا عقد ولا مهر وهذا من خصوصياته[٢٦٦٤].

١٣٩٤- تعليل تزويج الله نبيه بزينب:

قال تعالى: ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[٢٦٦٥] أي تزويج الله نبيه ﷺ بزينب لكي لا يكون على المؤمنين ضيق ومشقة ﴿ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ أي في التزوج بأزواج من يجعلونه ابناً، كما كانت تفعله العرب في الجاهلية، حيث كانوا يتبنون من يريدون ويعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه، كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة. والأدعياء جمع دعي وهو الذي يُدعَى ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فأخبرهم الله تعالى أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أي إذا طلقهن الأدعياء وانقضت عدتهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، واستدل بهذه الآية على أن ما ثبت له ﷺ من الأحكام يثبت لأمته إلا ما علم أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام بدليل ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن ﴿ مَفْعُولًا ﴾ مكوناً لا محالة[٢٦٦٦].

١٣٩٥- لا حرج على رسول الله ﷺ فيما أحلّ الله له:

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[٢٦٦٧].

والمعنى: ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له أي فيما أحلَّ له وأمره به من تزوجه بزينب رضي الله عنها التي طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبل محمد ﷺ، لم يكن يأمرهم الله تعالى بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌ على من توهم من المنافقين نقصاً في زواجه ﷺ بامرأة زيد - الذي سبق وأن تبناه - بعد

(٢٦٦٤) تفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٥-٢٦، تفسير فتح البيان ج١٢ ص٩٦-٩٧.

(٢٦٦٥) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

(٢٦٦٦) تفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٦، فتح البيان ج١٢ ص٩٦-٩٧.

(٢٦٦٧) سورة الأحزاب الآية ٣٨.

أن طلقها، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن(٢٦٦٨).

١٣٩٦- ثناء الله على الأنبياء السابقين:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(٢٦٦٩).

مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده وخشيته في كل قول وفعل ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا يخافون إلا الله وحده، ولا يبالون بقول الناس ولا بتعييرهم فيما أحلّ الله لهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه وتعالى. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حافظاً لأعمال خلقه يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسباً لهم في كل شيء(٢٦٧٠).

١٣٩٧- ما كان محمد أبا أحد من رجالكم:

ولما قال بعض عن محمد ﷺ: تزوج امرأة ابنه زيد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾(٢٦٧١).

قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ هذا دفع وردٌ لمن قال بجهل أو بسوء قصد: تزوج محمد ﷺ زوج ابنه زيد، فدفعه تعالى بأنه إنما يُتصَّور لو كان ﷺ أباً لزيد على الحقيقة، لكنه ليس أباً لزيد على الحقيقة، وليس أباً لأحد من أصحابه حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمه المصاهرة والنكاح، وزيد واحد منهم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمهم. ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ولكنه عليه الصلاة والسلام رسول الله ومبلغَ رسالته ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهذا نعته وهذه صفته، فليس هو في حكم الأب الحقيقي، وإنما ختمت النبوة به، لأن الله

(٢٦٦٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٢.

(٢٦٦٩) سورة الأحزاب الآية ٣٩.

(٢٦٧٠) فتح البيان ج١٢ ص١٠٠.

(٢٦٧١) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

شرع له من الشرائع ما يفي بحاجات الناس في جميع الأمكنة والأزمنة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي فلا يقضي إلا بما سبق به علمه ونفذت فيه مشيئته، واقتضته حكمته[٢٦٧٢].

وكان زواجه ﷺ بزينب في السنة الخامسة للهجرة، وهي أول من ماتت بعد النبي ﷺ ماتت بعده بعشر سنين عن ثلاث وخمسين سنه[٢٦٧٣].

(٢٦٧٢) تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٦٦.

(٢٦٧٣) فتح البيان ج١٢ ص٩٧.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة زواج
زينب بنت جحش

١٣٩٨- الأمير هو القدوة لأتباعه فيما يدعو إليه:

رأينا أن النبي ﷺ تولى بنفسه الكريمة إبطال آثار التبني بزواجه بامرأة زيد الذي كان قد تبناه بعد أن طلقها على النحو الذي بيناه، وبذلك زال الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج أدعيائهم إذا فارقوهم بموت أو طلاق على النحو الذي فصلناه. فعلى أمير جماعة الدعاة أن يقوم فعلاً بما يدعو إليه، أو بما يريد تقريره وإحداثه في الجماعة، أو بما يريد إبطاله، ليكون قدوة لأتباعه، ولئلا يقول ما لا يفعل، وكذلك على الدعاة أنفسهم أن يكونوا قدوة عملية فيما يدعون الناس إليه، أو فيما يدعون إليه أنصارهم ومحبيهم، ولهم أسوة حسنة برسول الله ﷺ.

١٣٩٩- من أدلة النبوة:

وعلى الدعاة أن يجعلوا من قصة زواج النبي ﷺ بزينب دليلاً من أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ، ومن ذلك أنه ﷺ لو لم يكن رسولاً يبلغ عن ربه ما يوحي إليه لما ذكر الآيات المتعلقة بقصة زينب ومنها قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فهذا دليل واضح على أنه رسول الله ومبلغ ما ينزله الله عليه من آيات، وقد أشارت إلى شيء من هذا عائشة رضي الله عنها وأنس حيث قالا: لو كان محمد كاتماً شيئاً مما أوحاه الله إليه لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا هذه الآية. فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك، ليزداد المسلم يقيناً بأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، وليكون هذا البيان أيضاً حجة من الحجج الكثيرة يقدمها الدعاة للشاكين والمرتابين بنبوة محمد ﷺ.

١٤٠٠- بيان العلة والحكمة في زواج النبي بزينب:

وعلى الدعاة أن يبينوا حيث يحتاجون إلى هذا البيان، أن زواج محمد ﷺ بزينب وهي ابنة عمته كان لما ذكره الله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ. .﴾ فكل قول في تعليل هذا الزواج المبارك غير الذي ذكره هو تعليل باطل ومردود ولا يلتفت إليه وإن ذكر في بعض التفاسير، فكل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله ﷺ. وكذلك ما ينفثه المستشرقون من باطل حول زواج محمد ﷺ هو من أقوالهم الباطلة الكثيرة التي قد تروج على الجهال، فكل ما ورد بشأن زواج زينب بزيد أولاً ثم بسيدنا محمد ﷺ ثانياً هو الحكمة التي ذكرها القرآن وهي تأكيد إبطال نظام التبني، وتأكيد إبطال آثاره، ومنها ما كانوا يعتقدونه من حرمة زواج المُتبنِّي بزوجة من تبناه إذا فارقها بطلاق أو موت.

١٤٠١- الطاعة المطلقة لله ولرسوله:

وعلى الدعاة أن يربوا أنفسهم وأتباعهم على الطاعة المطلقة لله ولرسوله ﷺ، وإن اقتضت هذه الطاعة المطلقة ما تهواه النفس، فقد ذكرنا كيف أن زينب بنت جحش وأخاها عبد الله كرها أن تتزوج زيد بن حارثة بعد أن عرض عليها النبي ﷺ هذا الزواج وأظهرا تمنعهما، ولكن لما أنزل الله تعالى قوله العزيز: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾، قالت زينب وأخوها: رضينا يا رسول الله. وسنة نبينا ﷺ قائمة مقامه، فكأنه ﷺ يكلمنا بها فيأمرنا وينهانا، فعلينا وعلى الدعاة أن يعملوا بها ويتبعوها مستشعرين كأن النبي ﷺ يخاطبنا ويخاطبهم بها. وطاعة الرسول هي من طاعة الله، فلا يجوز أن يكون للمسلم ولا للداعية أي رأي أو قول أو اختيار مع ما يأمر به أو يرشد إليه أو ينهى عنه ﷺ، ويشمل ما أقول سنته في نشر الدعوة وتبليغها، والعمل الدعوي للجماعة وما يستلزمه من تأمير أمير على الجماعة، ومنهج تسير عليه، وطاعة لهذا الأمير ومشاورة منه لهم.

١٤٠٢- لا اعتبار للعرف إذا عارض شرع الله:

ويلاحظ أن السيدة زينب بنت جحش في إبائها الأول خطبة رسول الله ﷺ لها

لزيد بن حارثة، كان هذا الإباء منها مرده اعتياد الناس على مراعاة اعتبارات النسب والمنزلة الاجتماعية، فزينب رأت أنها أعلى شرفاً ونسباً من زيد، فلم ترغب في زواجه، ولم تعتقد أن طلب النبي ذلك منها هو طلب إلزامي، فسوغت لنفسها الرفض ثم رضيت لما نزل قول الله الذي ذكرناه فعلمتْ أنَّ خطبتها من قبل النبي ﷺ لزيد يرقى إلى درجة الإلزام، الذي لا يسعها مخالفته فرضيت، مما يدل أن على المسلم أن لا يلتفت إلى ما يعتاده الناس إذا كان في هذه المراعاة معارضة لشرع الله.

إن على الدعاة أن يحملوا نفوسهم على هذا، فاستمساكهم في تصرفاتهم وفي أعمال دعوتهم تكون حسب شرع الله، شرع الإسلام، ولا يراعوا عادات الناس وأعرافهم إلا إذا لم تعارض أحكام الإسلام، فإذا عارضتها لم يلتفتوا إليها، ومن ذلك على سبيل المثال الترفع عن الفقراء والمساكين إذا اعتاده الناس، فالداعي لا يأخذ بذلك، لأن شرع الله في الدعوة ومتطلباتها تقتضي خلاف ذلك، وليتذكر الداعي سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وعتاب الله لرسوله ﷺ في هذه السورة.



الفصل الرابع عشر

قصة غزوة الحديبية (صلح الحديبية)

١٤٠٣- تمهيد:

رأيت في بحث غزوة الحديبية، أو صلح الحديبية كما يسمى في بعض الأحيان، أن أبدأ بإعطاء موجز عنها ثم أُتبع هذا الموجز بذكر آيات القرآن المجيد التي نزلت بشأنها مع تفسير لهذه الآيات.

ثم أُتبع ذلك ببيان ما يستفاد من أحداث وقعة الحديبية للدعوة والدعاة.

المبحث الأول

موجز غزوة الحُدَيْبِيَة[٢٦٧٤]

١٤٠٤- خروج النبي ﷺ إلى العمرة:

يوم الاثنين مستهل ذي العقدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء العمرة؛ ومعه ما يقرب من ألف وخمسمائة من المهاجرين والأنصار ومن لحقهم من الأعراب، واستخلف على المدينة نُميلة بن عبد الله الليثي، وأحرم ﷺ والمسلمون معه بالعمرة، وساق معه الهدي إيذاناً للناس بأنه خرج للعمرة لا لحرب ولا قتال.

١٤٠٥- وصول خبر خروج النبي ﷺ إلى قريش:

ولما وصل ﷺ والمسلمون معه إلى عُسْفَانَ - وهي قرية على بعد مرحلتين من مكة - لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش سمعت بمسيرك فخرجت بجيشها تمنعنك من دخول مكة وقد نزلوا بذي طُوى، وقد سبقهم خالد بن الوليد بخيله ومن معه من الفرسان ونزل قريباً من عُسْفان.

١٤٠٦- تحويل النبي ﷺ طريق سيره:

وقد غيَّر النبي ﷺ طريق سيره فلم يسلك الطريق المألوف؛ لئلا يصطدم بجيش قريش ولا بمقدمته جماعة خالد بن الوليد، ولما وصل الحديبية نزل ﷺ ومن معه فيها. والحديبية اسم لبئر فيها، ويحدث عنها البراء - كما يرويه البخاري - بقوله: فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا

(٢٦٧٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٢٩-٤٥٨، وج٨ ص٥٨١-٥٨٩، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٣٥-١٤٥، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ج٢ ص٣٢٥-٣٥١، السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٣٤-٤٥٣، الرحيق المختوم ص٣٠٨-٣١٨.

بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا. أي إنهم رجعوا عنها وقد رووا هم وركابهم أي إبلهم.

١٤٠٧- رسل قريش إلى النبي ﷺ:

ورأت قريش منع رسول الله ﷺ والمسلمين من دخول مكة متظاهرة بالعزم على ذلك وتنفيذه ولو بالقتال، ولكنها بدأت بإرسال مندوبيها إلى النبي ﷺ يستجلون حقيقة موقفه والغرض من مجيئه، وإعلامه بتصميم قريش على منعه، وكان من رسلها عروة بن مسعود الثقفي وهو رجل قدير على التفاوض، وتطمئن قريش إليه وإلى فطنته وشخصيته ورأيه، فلما أتى إلى رسول الله ﷺ أخبره كما أخبر من جاء من قبله من مندوبي قريش، بأنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً، فرجع عروة إلى قريش وأخبرها بما أجابه به رسول الله ﷺ، وقال لهم: يا معشر قريش لقد جئت كسرى وقيصر والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، فهم لا يسلمونه لشيء أبداً، فأذنوا له بالعمرة ودخول مكة. فقالت قريش: لا تكلم بهذا، ولكننا نرده عامنا هذا ويرجع في عام قابل.

١٤٠٨- النبي ﷺ يرسل عثمان بن عفان إلى مكة:

ورأى النبي ﷺ أن يرسل إلى قريش يخبرهم بما جاء من أجله خشية أن رسل قريش لم يخبروها بحقيقة جواب النبي ﷺ، فدعا عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة، فاعتذر وقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي - عشيرته - من يحميني. وعثمان بن عفان أَعزُّبها مني فأرسله، فقبل منه ﷺ اعتذاره واستحسن رأيه، فدعا عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرسله إلى أهل مكة ليخبرهم بغرض رسول الله ﷺ من المجيء: وهو زيارة الكعبة وأداء العمرة، ولم يأتِ والمسلمون للحرب، وأمره أيضاً أن يبشر المستضعفين من المؤمنين بالفتح قريباً وأن الله سيظهر دينه. ودخل عثمان مكة فعلاً، وأخبر زعماء قريش بما أمره به ﷺ وهو أنه قد جاء للعمرة لا للقتال، وقد قالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ.

١٤٠٩- بيعة الرضوان:

احتبست قريش عثمان، وبلغ النبي ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل، فقال ﷺ: لئن كانوا قتلوه لأناجزنهم. فدعا المسلمين إلى البيعة، فجاؤوه وهو ﷺ نازل تحت الشجرة التي كان يستظل بها. فبايعوه على القتال وعلى أن لا يفروا. ولما تمت البيعة للحاضرين ضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه لعثمان». وهذه البيعة تسمى ببيعة الرضوان، وأنزل الله فيها قرآناً نذكره فيما بعد إن شاء الله.

١٤١٠- توجه قريش إلى الصلح:

رأت قريش أن الصلح مع رسول الله ﷺ أنفع لها، على أن يرجع النبي ﷺ والمسلمون ولا يدخلوا مكة للعمرة، لأن عاقبة الدخول في حرب مع النبي مجهولة، فقد لا يتحقق النصر لهم، لا سيما وقد تأكد لديهم أن النبي ﷺ ما جاء لقتالهم. فدعوا سهيّل بن عمرو وقالوا له: ائتِ محمداً وصالحه على أن يرجع في عامة هذا وله أن يعتمر في عام قابل، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

١٤١١- التحرش بالمسلمين لحملهم على الحرب:

جاء في شرح العسقلاني لصحيح البخاري فيما رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع، قال: ثم إن المشركين راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض، قال: فاضطجعتُ في ظل شجرة، فأتاني أربعة من المشركين، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فتحولت عنهم إلى شجرة أخرى، فبينما هم كذلك إذ نادى مُنادٍ من أسفل الوادي: يا آل المهاجرين، قال: فاخترطت سيفي ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، ثم جئت بهم أسوقهم، وجاء عمي برجل يقال له: مِكْرَز في ناس من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم يكون لهم بدء الفجور»، فعفا عنهم. وروى مسلم أيضاً من حديث أنس: أن رجالاً من أهل مكة هبطوا إلى النبي ﷺ من قبل التنعيم ليقاتلوه، فأخذهم فعفا عنهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ

وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن مظاهر التحرش بالمسلمين أيضاً خروج ثلاثين شاباً من قريش على معسكر المسلمين أثناء كتابة معاهدة الصلح، فأسرهم المسلمون وأطلق سراحهم النبي ﷺ. والحقيقة أن النبي ﷺ وأصحابه قابلوا هذه التحرشات والاستفزازات بالصبر وضبط النفس؛ لتفويت الفرصة على مريدي الحرب.

١٤١٢- إبرام معاهدة الصلح:

أرسلت قريش سهيل بن عمرو للتفاوض مع رسول الله ﷺ على شروط الصلح، والتوقيع على المعاهدة مؤكدة على ممثلها سهيل أن تنص المعاهدة على رجوع المسلمين إلى بلادهم بلا دخول إلى مكة، وإجراء شعائر العمرة على أن يأتوا من عام قابل إذا شاؤوا. فلما انتهت المفاوضات حول شروطها أمر ﷺ علي بن أبي طالب بكتابة بنود المعاهدة، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: ما نعرف هذه التسمية ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال ﷺ لعلي: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال عليه الصلاة والسلام لعلي ليكتبه: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فأمر عليه الصلاة والسلام علياً أن يمحو عبارة (رسول الله)، فقال علي لا والله لا أمحاها، وقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه مكانها، فمحاه وأمر أن يكتب بدلها محمد ابن عبد الله، وكانت بنود المعاهدة ما يلي:

أولاً - وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة - أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع مطوي على الوفاء بالصلح - فلا إسلال - أي سرقة - ولا إغلال - أي خيانة -.

ثانياً - من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

ثالثاً - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل

في عقد قريش وعهدهم دخل. فدخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش.

رابعاً - أن يرجع النبي ﷺ وأصحابه من غير عمرة هذا العام، فإذا كان العام القابل خرج عنها المشركون، فيدخلها المسلمون ويقيمون بها ثلاثاً ليس معهم من السلاح إلا السيوف في قربها - أي أغمادها-.

١٤١٣- ردّ أبي جَندَل إلى قريش:

وبينما علي يكتب كتاب معاهدة الصلح جاء أبو جَندَل بن سهيل يرسف في قيوده إلى رسول الله ﷺ، فقام إليه أبوه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» فقال سهيل: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ «فأجزه لي» فأبى سهيل، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جَندَل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم».

١٤١٤- كيف تلقّى المسلمون معاهدة الصلح:

الواقع أن عموم المسلمين شعروا بشيء من الإحباط والأسى لما يبدو من ظاهر بعض بنودها أنه إجحاف بهم لم تتسع له صدورهم، كالشرط الذي ورد فيها وهو أن يرد المسلمون إلى قريش من جاءهم مسلماً من غير إذن وليه، بينما لا يُرَدُّ من جاء قريشاً من المسلمين، ولذلك قالوا: يا رسول الله نكتب هذا؟ قال: «نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». وكان وقع المعاهدة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديداً، لما ظنه من إجحاف فيها للمسلمين، فقد روى مسلم في صحيحه: أن عمر بن الخطاب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن

يضيعني الله أبداً». وفي مسند أحمد أن عمر قال أيضاً للنبي ﷺ: أو ليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت - أي الكعبة المشرفة - فنطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟» قال عمر: لا. فقال ﷺ: «فإنك آتيه ومطوفه». وفي صحيح مسلم أيضاً: أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر رضي الله عنهما، فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: «نعم» فطابت نفسه - أي نفس عمر - ورجع.

والحقيقة أن ما صدر عن عمر رضي الله عنه من كلام مع رسول الله ﷺ كان قصده منه معرفة وجه الحكمة من موافقته ﷺ على شروط المعاهدة، وفي ظاهر بعضها إجحاف بحق المسلمين، وكان يأمل ويرغب في إذلال المشركين فجميع ما صدر منه كان معذوراً فيه بل هو مأجور، لأنه مجتهد فيه كما يقول ابن حجر العسقلاني، ومع هذا فقد شعر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ما كان ينبغي له أن يراجع النبي ﷺ فيما راجعه فيه، ولذلك قال عمر - كما رواه عنه الإمام أحمد -: ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً[٢٦٧٥]. والدليل على أنَّ ما صدر عن عمر كان معذوراً فيه ومجتهداً فيه أن النبي ﷺ لم يعنف عليه فيما قال، بل دعاه وأقرأه سورة الفتح التي أنزلت عليه ﷺ. فلم يكن سؤال عمر رضي الله عنه، وكلامه مع رسول الله ﷺ شكاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار، ورغبة فيه كما عرف من خلقه رضي الله عنه وقوته في نصرة الدين وإبطال المبطلين. وأما جواب أبي بكر رضي الله عنه بمثل جواب النبي ﷺ، فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله، وبارع علمه، وزيادة عرفانه، ورسوخه في كل ذلك، وزيادته فيه كله على غيره رضي الله عنه.

(٢٦٧٥) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٤٤-٤٤٥.

١٤١٥- تعليل ما رضيه رسول الله من شروط المعاهدة وصيغ كتابتها:

وافقهم ﷺ على ترك كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتابة «باسمك اللهم» بدلاً عنها، وكذا وافقهم في كتابة محمد بن عبد الله وترك كتابة رسول الله ﷺ، وكذا وافقهم في ردّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناها واحد، وكذا قوله «محمد بن عبد الله» هو أيضاً رسول الله ﷺ، وليس في ترك وصف الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النبي ﷺ هنا في الرسالة ما ينفيها، فلا ضرر ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك.

وأما شرط ردّ من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بين النبي ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ثم كان كما قال ﷺ.

هذا وإن المصلحة التي ترتبت على إتمام هذا الصلح ما ظهر بعده من فوائد التي كانت عاقبتها فتح مكة، وإسلام أهلها، ودخول الناس في دين الله أفواجاً؛ لتيسر اختلاطهم - بعد هذا الصلح - بالمسلمين، وسماعهم من المسلمين عن أحوال النبي ﷺ ومعجزاته وحسن سيرته، وتعرفهم على أحوال المسلمين وأثر الإسلام فيهم، ومعاني الإسلام التي يدعو إليها، فهذا وغيره مما ليَّنَ قلوبهم، وقربهم من الإسلام حتى أسلم خلق كثير قبل فتح مكة، كما أسلم أهل مكة بعد الفتح كما قلنا، فأسلمت العرب من غير قريش.

والخلاصة فإنه بهذا الصلح أمكن التنقل واختلاط المسلمين بغيرهم ودعوتهم إلى الإسلام، فحصلوا بهذه الحرية: حرية الدعوة، وحرية التنقل والاختلاط بغيرهم، على نجاح كبير في مجال الدعوة، حتى إن عدد المسلمين صار عند فتح مكة عشرة آلاف بعد أن كان قبل هذا الصلح لا يزيد على ثلاثة آلاف.

١٤١٦- تباطؤ المسلمين في الحلق والنحر ثم إسراعهم إليه:

ولما تم الصلح، وتعذر دخول مكة والقيام بالعمرة، أمر النبي ﷺ بالتحلل من العمرة بأن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا هديهم، ولكن تباطأ المسلمون فلم يقم منهم أحد؛ لأنه أذهلهم هذا الصلح، فلذلك ربما كانوا يأملون الرجوع عن هذا الصلح. فدخل ﷺ على زوجه أم سلمة، وكان قد اصطحبها معه في هذه الغزوة، وذكر لها تباطؤ أصحابه في تنفيذ ما طلبه منهم من نحر هديهم، وحلق رؤوسهم تحللاً من العمرة، فقالت له: يا رسول الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر هديك وتحلق رأسك، فخرج ﷺ ولم يكلم أحداً وفعل ما أشارت به أم سلمة، فلما رأى المسلمون ما فعل رسول الله ﷺ، قاموا فنحروا هديهم، وحلقوا رؤوسهم، بل أخذ بعضهم يحلق بعضاً. فدعا رسول الله ﷺ لمن حلق منهم ثلاثاً، ولمن قصّر - أخذ شيئاً من شعر رأسه - مرة، وكان عدد ما نحره المسلمون من الإبل سبعين.

المبحث الثاني
ما نزل من القرآن بشأن صلح الحديبية
وما يتعلق به

١٤١٧- إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً:

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(٢٦٧٦). نزلت هذه السورة - سورة الفتح - لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي العقدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة معه ﷺ، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من عام قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب. فنزلت هذه السورة مؤنسة للمؤمنين، لأنهم كانوا استوحشوا من ردّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة التي هادنهم النبي ﷺ، فنزلت هذه السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت، ومُذهِبةً ما كان في قلوبهم من بنود هذه المهادنة التي هادن بها المشركين ريثما يتقوى هو، كما قال الإمام المفسر ابن عطية. وقال عن هذه رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾» والمقصود بهذا الفتح المبين هو صلح الحديبية باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما رُوِيَ عن ابن مسعود وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وعن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وعن البراء بن عازب فيما يرويه عنه البخاري أنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، وعن أنس فيما يرويه عند البخاري أنه قال: المراد بالفتح صلح الحديبية. وروى القرطبي في تفسيره: أن رجلاً قال عند رجوعهم من

(٢٦٧٦) سورة الفتح، الآيات ١-٣.

الحديبية: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت. فقال النبي ﷺ: «بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا».

وقال الإمام الزهري: لقد كان صلح الحديبية أعظم الفتوح، وذلك أن النبي ﷺ كان معه ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى بعضهم في بعض، وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان اللتان بعد صلح الحديبية إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة يوم فتحها في عشرة آلاف[٢٦٧٧].

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال الألوسي في تفسيره: والمراد بالذنب ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام، فهو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد يقال: المراد ما هو ذنب في نظره العالي ﷺ، وإن لم يكن ذنباً ولا خلاف الأولى عنده تعالى[٢٦٧٨]. وقال الإمام ابن عطية في تفسيره: والمعنى: التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة[٢٦٧٩]. وفي تفسير فتح البيان: المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى، وسمي ذنباً في حقه؛ لجلالة قدره وإن لم يكن ذنباً في حق غيره، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين[٢٦٨٠]. وقال أبو السعود في تفسيره: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى. وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل[٢٦٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وإظهاره على الأديان كلها، وانتشاره في البلاد، وغير ذلك مما أفاضه الله تعالى عليه ﷺ من النعم الدينية والدنوية. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وبما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم. وأصل الاستقامة وإن كان حاصلاً قبل الفتح، لكن

(٢٦٧٧) ابن كثير ج٤ ص١٨٢، ابن عطية ج١٣ ص٤٢٨، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٦٠-٢٦١، صحيح البخاري ج٨ ص٥٨٢.

(٢٦٧٨) تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩١.

(٢٦٧٩) تفسير ابن عطية ج٣ ص٤٣٢.

(٢٦٨٠) فتح البيان ج١٣ ص٨٨.

(٢٦٨١) نقلاً عن تفسير القاسمي ج١٥ ص٦٦.

حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلاً من قبل ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ أي نصراً غالباً قوياً ذا عز لا يتبعه ذل بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يتحقق لك هذا النصر على أعدائك[٢٦٨٢].

١٤١٨- إنزال السكينة في قلوب المؤمنين:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾[٢٦٨٣] أي أنزل الله في قلوب المؤمنين السكون والطمأنينة بسبب الصلح الذي وقع بين النبي ﷺ وبين المشركين، وحصول الأمن بعده، ليعرف المؤمنون فضل الله عليهم بتيسير سبل الأمن بعد الخوف، والهدنة بعد القتال، ليزدادوا يقيناً منضماً إلى يقينهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي من الملائكة والإنس والجن يسلطهم على من يشاء، وينتقم بهم ممن يشاء من عباده، كما يقتضيه علمه وحكمته. ومن حكمته تعالى وفعله بعباده المؤمنين أن سكّن قلوبهم بصلح الحديبية، ووعدهم بالفتوحات التي تلت ذلك الصلح، وإنما قضى سبحانه ذلك؛ ليعرف المؤمنون نعمة الله فيما يسَّره لهم ويشكروها، فيستحقوا الثواب، فيثيبهم على شكرهم[٢٦٨٤].

١٤١٩- تعذيب المنافقين والمشركين:

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾[٢٦٨٥] أي ويعذب المنافقين والمشركين لما غاظهم من نصر الله للمؤمنين وكرهوه. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، أي ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي ما يظنونه

(٢٦٨٢) فتح البيان ج١٣ ص٨٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٤.

(٢٦٨٣) سورة الفتح الآيتان ٤، ٥.

(٢٦٨٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٣-٣٣٤، تفسير القاسمي ج١٦ ص٦٧.

(٢٦٨٥) سورة الفتح، الآية ٦.

ويتربصونه بالمؤمنين، فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسوء: الهلاك والدمار[٢٦٨٦].

١٤٢٠- توقير الله وتعظيمه:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[٢٦٨٧]. ﴿شَٰهِدٗا﴾ أي تشهد على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ بالجنة للمطيعين لك ﴿وَنَذِيرٗا﴾ من النار للعاصين؛ ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تؤيدوا دينه وتقووه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أي تسبحوه غدوة وعشياً، أي أول النهار وآخره. والضمائر كلها لله تعالى، وجوز بعضهم إعادة الأولين أي ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للرسول ﷺ والأخير ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ لله تعالى، إلا أن فيه تفكيكاً اللضمائر[٢٦٨٨].

١٤٢١- المسلمون يبايعون رسول الله «بيعة الرضوان»:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٢٦٨٩]. أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه له، وهي بيعة الرضوان بالحديبية. فإنهم بايعوه ﷺ تحت الشجرة على قتال قريش، فأخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية إن هذه البيعة لرسوله ﷺ هي بيعة له تعالى، كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ والمعنى أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما[٢٦٩٠]. وفي تفسير الألوسي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يوم الحديبية على الموت في نصرتك، أو على أن لا يفروا من قريش، والمبايعة وقعت قبل نزول الآية. فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهي مفاعلة من البيع يقال: بايع السلطان مبايعة إذ ضمن بذل الطاعة له ﴿إِنَّمَا

(٢٦٨٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٤.

(٢٦٨٧) سورة الفتح الآيتان ٨، ٩.

(٢٦٨٨) تفسير القاسمي ج١٦ ص٦٨-٦٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٥.

(٢٦٨٩) سورة الفتح الآية ١٠.

(٢٦٩٠) فتح البيان ج١٣ ص٩٣-٩٤.

﴿ يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾؛ لأن المقصود من بيعة الرسول ﷺ وإطاعته إطاعة الله وامتثال أمره، فمبايعة الله بمعنى طاعته[٢٦٩١]. ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ استئناف مؤكد لما قبله ﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾ نقض العهد ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وهو الجنة. ويقال: وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه[٢٦٩٢].

١٤٢٢- المخلفون من الأعراب:

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢٦٩٣] والمعنى: أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي؛ ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت. وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي، ليُعلَم أنه لا يريد حرباً، فتثاقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره في المدينة وقتلوا أصحابه، فيقاتلهم، فتركوا الخروج مع النبي ﷺ، واختاروا المقام في أهليهم وشغلهم واعتذروا بشغلهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾. ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراد الله فيكم. وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل

(٢٦٩١) تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩٦.

(٢٦٩٢) تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١٥ ص٩٦.

(٢٦٩٣) سورة الفتح الآيات من ١١-١٤.

تخلف نفاق، أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتُستأصل شأفتهم ولا يرجع منهم أحد، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وزين لكم الشيطان تخلفكم عن رسول الله ﷺ ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو ظنكم عدم نصر الله لرسوله ﷺ، وعدم رجوعه وأصحابه من سفرهم هذا. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين مستوجبين لسخط الله، أو فاسدين في أعمالكم ونياتكم. ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وقد أعدَّ الله للكافرين سعيراً أي نار جهنم. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فمن صفاته أنه غفور رحيم[٢٦٩٤].

١٤٢٣- منع المتخلفين عن غزوة الحديبية من الخروج إلى خيبر:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٦٩٥]. يقول الله تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في خروجه إلىٰ العمرة في عام الحديبية إذا ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم - أي مع المسلمين -؛ ليصيبوا من غنائم خيبر بعد فتحها، وقد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ خوفاً من أن يؤول هذا الخروج إلى القتال مع قريش، فأمر الله رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في الخروج معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو الوعد الذي وعد به الله أهل الحديبية. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية أن غنيمة خيبر تكون لهم وحدهم قبل سؤالكم الخروج معهم، ولهذا فليس لكم أن تتبعوهم إلى خيبر، لأن غنيمتها لغيركم، ولا نصيب لكم فيها. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي يقول هؤلاء المتخلفون

(٢٦٩٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٩، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٦-٣٣٧، تفسير القاسمي ج١٥ ص٧٩-٨١.

(٢٦٩٥) سورة الفتح الآية ١٥.

من الأعراب: تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً إن خرجنا معكم إلى خيبر، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يفقه أولئك الأعراب عن الله تعالى مالهم وعليهم من أمر الدين إلا فهماً قليلاً وهو ما كان من أمور الدنيا[٢٦٩٦].

١٤٢٤- استنفار الأعراب المتخلفين إلى القتال:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لأولئك المخلفين من الأعراب بأنهم سيُدعَون إلى قتال عدو ذي بأس شديد، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام، وإلا فلم يكونوا أهلاً لهذه الدعوة. واختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فقال عكرمة وقتادة وابن جبير: هم هوازن ومن حارب رسول الله ﷺ. وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم رسول الله ﷺ عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة. وقال الزهري: هم أهل الردة وبنو حنيفة في اليمامة. وقال الحسن: هم فارس والروم. وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيارهم. ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه يؤتكم الله أجراً حسناً، أي الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي كما توليتم زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لتضاعف جرمكم[٢٦٩٧].

١٤٢٥- رفع الحرج عن أصحاب الأعذار:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(٢٦٩٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٠-٨١.

(٢٦٩٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٠، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٢، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٤٩-٤٥١ والآية في سورة الفتح، ورقمها ١٦.

وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[2698]. تبين هذه الآية الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال الله تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ كما حذر من يتولى عن الجهاد، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ينكل عن الجهاد ﴿يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار[2699].

١٤٢٦- رضوان الله على أهل بيعة الحديبية:

قال تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[2700]. يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وكانت عدتهم ألفاً وأربعمائة، وإن الشجرة كانت بأرض الحديبية. ولكن أمر عمر بن الخطاب بقطعها خوفاً من الفتنة بها. فقد قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: «ثم وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت»[2701] والآية فيها تشريف للمؤمنين، وإعلام برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سميت بيعة الرضوان. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة لرسول الله ﷺ. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة عليهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر، وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ وهي مغانم خيبر، وكانت أرضاً ذات عَقار وأموال،

(٢٦٩٨) سورة الفتح الآية ١٧.

(٢٦٩٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٠.

(٢٧٠٠) سورة الفتح الآيتان ١٨، ١٩.

(٢٧٠١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٤٤٨.

فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي ذا عزة في انتقامه من أعدائه، وحكمة في تدبير خلقه[٢٧٠٢].

١٤٢٧- ما وعد الله به أهل بيعة الرضوان:

قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[٢٧٠٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما وعد الله تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها المقدرة لكل واحدة من الغنائم. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي مغانم خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنكصوا على أعقابهم، ورجعوا عما عزموا عليه من نصرة يهود خيبر ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح لهم. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله. ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أي: فعجل لكم هذه المغانم - مغانم خيبر - ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين. وقال: ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لها. ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾أي قدر عليها واستولى،وأظهركم عليها وجعلها غنيمة لكم. أو أن الله أعدّها لكم فهي،كالشيء الذي أحيط به من جميع جوانبه،فهو محصور لا يفوت. فأنتم، وإن لم تقدر عليها في الحال، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم[٢٧٠٤].

(٢٧٠٢) ابن كثير ج٤ ص١٩٠-١٩١، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٧٨، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٦.

(٢٧٠٣) سورة الفتح الآيتان ٢٠، ٢١.

(٢٧٠٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٠-٣٤١، القرطبي ج١٦ ص٢٧٩، الألوسي ج٢٦ ص١٠٩، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٦-٨٧.

١٤٢٨- سنة الله الثابتة في نصر المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[٢٧٠٥] والمعنى: لو قاتلكم الذين كفروا أي كفار قريش وأهل مكة في الحديبية، ولم يصالحوكم، وقيل أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي لَولوْكم أعجازهم في الحرب فعل المنهزم من عدوه في الحرب. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجدون من يواليهم على حربكم وينصرهم عليكم. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي هذه طريقة الله وعادته التي قد مضت في الأمم السابقة من نصر أوليائه من الرسل والمؤمنين؛ على أعدائه وأعدائهم. وانتصاب ﴿ سُنَّةَ ﴾ على المصدرية بفعل محذوف أي سنَّ الله سنةً هي نصر الله أولياءه من رسله والمؤمنين على أعدائهم. أو أن ﴿ سُنَّةَ ﴾ نصبت على أنها مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة من هزيمة الكفار ونصر المؤمنين، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أي تغييراً بل هي مستمرة وثابتة[٢٧٠٦]. وقال ابن كثير: أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فَيْصَلٍ إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى في معركة بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعُددهم[٢٧٠٧].

١٤٢٩- امتنان الله على المؤمنين بمنع الحرب بينهم وبين المشركين:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٢٧٠٨]. قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كفَّ أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من

(٢٧٠٥) سورة الفتح الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢٧٠٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤١، فتح البيان ج١٣ ص١٠٩، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٨.

(٢٧٠٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٢.

(٢٧٠٨) سورة الفتح، الآية ٢٤.

الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة[2709].
وقال قتادة بطن مكة: الحديبية[2710]. وقال بعضهم: أكثر الحديبية من الحرم[2711].
وفي تفسير الألوسي: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحديبية. وقد تقدم أن بعضها من حرم مكة ويكون إطلاق بطن مكة عليها مبالغة[2712]. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد أن أقدركم الله وسلطكم عليهم، لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة. وعن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة أي غفلة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذناهم سَلَماً - أي مستسلمين مذعنين - فعفا عنهم رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية. وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية: أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم وأبصارهم، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فنزلت هذه الآية[2713].

والخلاصة أن الله تعالى منع من وقوع الحرب بين المسلمين وبين المشركين، وأن المشركين كلما حاولوا إشعال الحرب وقتال المسلمين خذلهم الله، وطردوا وأبعدوا عن المسلمين، أو أخذهم المسلمون وعفا عنهم النبي ﷺ، وأن المسلمين لم يريدوا قتالاً مع قريش بالرغم من تحرشاتها بالمسلمين، لما أراده الله تعالى من إيقاع الصلح بين الفريقين لحكمة ظهرت آثارها فيما بعد.

١٤٣٠- منع القتال لدرء المفسدة الراجحة على المصلحة:

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ

(٢٧٠٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٢.
(٢٧١٠) تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٩.
(٢٧١١) فتح البيان ج١٣ ص١٠٩.
(٢٧١٢) تفسير الألوسي ج٢٦ ص١٣١.
(٢٧١٣) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٨١، فتح البيان ج١٣ ص١٠٩-١١٠.

﴿مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢٧١٤). أي هؤلاء المشركون من قريش ومن مالأهم على حرب رسول الله ﷺ، هم الذين كفروا بجحدهم توحيد الله ونبوة محمد ﷺ ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ أي ومع كفرهم صدوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم من الدخول فيه وأنتم أحق به منهم وأنتم أهل في نفس الأمر، وصدوا أيضاً الهدي، وهو ما يُهدَى إلى الكعبة المشرفة ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي محبوساً عن أن يباع، منعوه أن يصل إلىٰ محله وهو مكانه الذي يحل فيه نحره وهو أرض الحرم. وكان رسول الله ﷺ قد ساق معه الهدي حين خروجه إلى مكة سبعين بدنة من الإبل. وفي الآية دليل على أن محل ذبح الهدي هو أرض الحرم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي لولا وجود مؤمنين ومؤمنات بمكة مع الكفار لم تعلموهم بصفة الإيمان، وهم بمكة حبسهم المشركون فيها، فلم يستطيعوا الخروج إليكم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تقتلوهم مع الكفار غير عالمين بهم لو أذن لكم بفتح مكة عنوة بدل الصلح معهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي يصيبكم بقتلهم إثم، لولا هذا المحذور لما كف أيديكم عنهم ولأذن لكم في دخول مكة ومقاتلتهم. وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي يؤخر عقوبتهم؛ ليخلّص من بين أظهرهم المؤمنين، وليدَخلَ كثير من المشركين في الإسلام. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لسلطناكم عليهم ولقتلتموهم قتلاً ذريعاً(٢٧١٥).

١٤٣١- صلح الحديبية كان بتوفيق الله:

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ

(٢٧١٤) سورة الفتح، الآية ٢٥.

(٢٧١٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٣، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٢-٣٤٣، تفسير القاسمي ج١٥ ص٩٠-٩١.

ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[٢٧١٦] الحمية: الأنفة، وحمية الذين كفروا أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، وحمية أهل مكة في صد المسلمين عن دخول مكة معتمرين، وحمية سهيل بن عمرو الذي أوفدته قريش لعقد الصلح - صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ - حميته امتناعه من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله، ولّج في ذلك حتى قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: امح بسم الله الرحمن الرحيم واكتب بدلها باسمك اللهم، وامح محمد رسول الله واكتب بدلها محمد بن عبد الله، وجعلها الله تعالى حمية الجاهلية، لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها كما قال الإمام ابن عطية، لأن رسول الله ﷺ لم يأتهم محارباً، وإنما جاء معتمراً معظماً لبيت الله، فكانت حميتهم جاهلية صرفاً. والسكينة هي الطمأنينة والوقار وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فَهَمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك أي لا يكتبوا ما أراده سهيل بن عمرو، ويقاتلوا من أجله، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين يعني الوقار والتثبت حتى صالحوهم على ما ذكرناه من بنود الصلح. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله. يعني أن المشركين لم يقروا بهذه الكلمة، فخصَّ الله بها المؤمنين. و﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي التي يُتَّقَى بها من الشرك ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي أحق بها من كفار مكة، لأن الله تعالى اختارهم لدينة وصحبة نبيه. وقال أبو السعود: أي متصفين بمزيد استحقاق لها. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي المستأهل لها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي فيعلم حق كل شيء فيسوقه إلى مستحقه[٢٧١٧].

١٤٣٢- لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق:

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٢٧١٨]. رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه

(٢٧١٦) سورة الفتح الآية ٢٦.

(٢٧١٧) ابن عطية ج١٣ ص٤٦٧، الزمخشري ج٤ ص٣٤٤، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٨٩، تفسير القاسمي ج١٥ ص٩٣.

(٢٧١٨) سورة الفتح، الآية ٢٧.

قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إن رؤيا رسول الله حق، فلما تأخر ذلك، ولم يقع وإن الذي وقع هو الصلح مع قريش ببنوده التي ذكرناها، وحصل تساؤل عن سبب عدم وقوع تحقق الرؤيا في عام الحديبية، فأجاب النبي ﷺ من سأله عن ذلك بأنه ﷺ لم يخبره

وهو يقص رؤياه بأنهم يدخلون مكة في عامهم هذا، ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ . .﴾ الخ الآية، والمعنى لقد صدّقَ الله رسوله في رؤياه ولم يكذبه، أي جعل رؤياه صادقة محققة، ولم يجعلها أضغاث أحلام، وإن كان تفسيرها لم يقع في عام الحديبية، وإنما في العام الذي تلاه. وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف: أي صدقاً ملتبساً بالحق، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وهو ظهور حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه، ولأجل ذلك أخر وقوع تحقق الرؤيا إلى العام القابل. ويجوز أن تتعلق كلمة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالرؤيا أي ملتبسة بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام.

وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وتعليق الدخول على مشيئة الله هو لتحقيق الخبر كما جاء في الرؤيا وتوكيده وليس هو من الاستثناء في شيء. وقيل إن هذا الاستثناء ورد لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه فيما يعدونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي في حال دخولكم. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، حيث كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره. وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ زيادة تأكيد لما فهم من قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾ فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في مكة لا يخافون من أحد مدة مكثهم فيها. وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة، ودخولكم إليها عام الحديبية ما لم تعلموا أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعُدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين، أي صلح الحديبية الذي قال فيه الإمام الزهري: لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، ولقد دخل في السنتين اللتين تلتا صلح الحديبية مثل من كان قد دخل في الإسلام قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين

في سنة ست للهجرة وهي سنة الحديبية، الذين كانوا معه ﷺ ألف وأربعمائة وكانوا معه في سنة ثمان للهجرة، وهي سنة فتح مكة، أكثر من عشرة آلاف[٢٧١٩].

١٤٣٣- وعد الله بإظهار الإسلام:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[٢٧٢٠].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي متلبساً بالهدى، والتباسه بالهدى بمعنى أنه هاد. ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ دين الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ ﴾ أي يعليه بحججه وبراهينه وآياته على جنس الدين كله، أي على الأديان المختلفة وما يدان به من الشرائع والملل، فيشمل الحق والباطل، وإظهار الإسلام على الحق - أي على الدين الذي في أصله كان حقاً كدين أهل الكتاب - فإظهاره عليه يكون بنسخ أحكامه المتبدلة بتبدل الأعصار، وإظهاره على الأديان الباطلة بإظهار بطلانها، ويبقى الإسلام هو الواجب الاتباع في جميع أصوله وفروعه. وفي هذه الآية تأكيد لما وعد الله المسلمين من الفتوحات، وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ما يستقلون بالنسبة إليه فتح مكة. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على أن ما وعده الله تعالى كائن لا محالة[٢٧٢١].

١٤٣٤- من أوصاف أصحاب رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[٢٧٢٢].

(٢٧١٩) ابن كثير ج٤ ص٢٠١-٢٠٣، الزمخشري ج٤ ص٣٤٥، الألوسي ج٢٦ ص١٢٠-١٢٢، فتح البيان ج١٣ ص١١٦-١١٨.

(٢٧٢٠) سورة الفتح الآية ٢٨.

(٢٧٢١) تفسير الألوسي ج٢٦ ص١٢٢، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٦.

(٢٧٢٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ وهذا مبتدأ وخبر وهو مشتمل على كل وصف جميل. ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً على الكفار ورحيماً براً بالمسلم. ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وقوله عز وجل: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ عن ابن عباس سيماهم يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: الخشوع والتواضع. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي وصفهم أو صفتهم في التوراة وفي الإنجيل ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه. قال الإمام ابن عطية في قوله تعالى ﴿كَزَرْعٍ﴾: هو على كل الأقوال، وفي أي كتاب منزَّل فَرْضُ مثلٍ للنبي ﷺ وأصحابه في أن النبي ﷺ بُعِثَ وحده، فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء وهم فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانه وقواه، فيحتمل أن يكون الضمير المستتر في ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ للزرع، والضمير البارز للشطء. وقال النسفي: الضمير المستتر للشطء، والضمير البارز للزرع، وما صنعه النسفي أنسب، فإن العادة أن الأصل يتقوى بفروعه فهي تعينه وتقويه، وهو ما رجحه أيضاً الإمام ابن عطية، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ..﴾ الخ: وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام، وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع بما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع. فمآل قول الزمخشري هو ما ذهب إليه النسفي وابن عطية. وهو ما قاله أيضاً البغوي من أن (الزرع) مثل لمحمد ﷺ (والشطء) أصحابه، فهو مثل لمحمد ﷺ وأصحابه معه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي الزرع فصار من الدقة إلى الغلظ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على سوقه: جمع ساق. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي يُعجبُ هذا الزرع الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه وحسن نباته وبلوغه وانتهائه، يعجب الذين زرعوه. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ تعليل لما دلّ عليه تشبيههم في نمائهم وقوتهم وتقويتهم رسول الله ﷺ بإيمانهم به وجهادهم معه. وقال الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾: علة لما يعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم - أي للصحابة - على الوجه الذي تضمنه التمثيل. وقال الإمام القرطبي في قوله تعالى ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون ﴿مِنْهُم﴾ للبيان وليس للتبعيض، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾. وقوله تعالى ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي وعدهم مغفرة لذنوبهم وأجراً عظيماً أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبّق والكمال الذي لا يلحقهم فيه، قال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٢٧٢٣].

(٢٧٢٣) ابن كثير ج٤ ص٢٠٣-٢٠٥، ابن عطية ج١٣ ص٤٧٧-٤٧٩، الزمخشري ج٤ ص٣٤٦-٣٤٨، القرطبي ج١٦ ص٢٩٥ تفسير الألوسي ج٢٦ ص١٢٧، تفسير القاسمي ج١٥ ص١٠٣-١٠٤.

المبحث الثالث
المستفاد
من غزوة الحديبية

١٤٣٥- مراجعة الأمير فيما يطلبه لا تعارض واجب طاعته:

ذكرنا أن سيدنا محمداً ﷺ لما نزل في أرض الحديبية، وأراد أن يخبر قريشاً بأنه جاء والمسلمون معه للعمرة لا للحرب، دعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى مكة لهذه المهمة، فاعتذر عمر رضي الله عنه مبيناً وجه اعتذاره بأنه يخاف قريشاً على نفسه، وليس له من عشيرته في مكة من يحميه، وأن عثمان بن عفان أقدر منه على هذه المهمة؛ لوجود قرابته ذات النفوذ في مكة. فأخذ النبي ﷺ بقول عمر، وأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة لهذا الغرض. وعلى هذا فمن الجائز أن يُراجَع أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيما يطلبه من أحدهم، مع بيان وجه هذه المراجعة، ولا يعتبر ذلك خروجاً على واجب الاتباع في طاعة الأمير فيما يأمر به. ولكن لو قُدِّر أن الأمير لم يقتنع باعتذار من كلفه بعمل ما، أو لم يوجد غيره للقيام بهذه المهمة ولذلك اختاره لها، فعلى هذا المختار أو الذي لم يقتنع الأمير بعذره، أن يسارع إلى تنفيذ المطلوب منه. كما في مسألة حذيفة بن اليمان لما اختاره النبي ﷺ، لإرساله إلى جيش المشركين في معركة الخندق؛ للتعرف على أحوالهم ومدى عزمهم على البقاء أو الرحيل، حيث سارع حذيفة إلى تنفيذ الأمر.

١٤٣٦- البيعة على أمر مشروع شيء مشروع:

ذكرنا بيعة الرضوان وسببها، وعلى هذا يجوز لأمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يطلب منهم مبايعته على أمر مشروع حتى يستوثق من عزمهم على القيام بمتطلبات هذا الأمر الذي يريد البيعة من أجله، كما بايع المسلمون في الحديبية رسول الله ﷺ على مناجزة قريش إذا صح ما بلغه عنهم أنهم قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما أرسله إلى مكة؛ ليخبرهم بسبب مجيء النبي ﷺ.

١٤٣٧- مجاراة العدو في بعض ما يريد لتحقيق مصالح للمسلمين:

رأينا أن مندوب قريش في معاهدة صلح الحديبية أصرّ على كتابة باسمك اللهم، بدلاً عن بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب اسم النبي ﷺ واسم أبيه دون ذكر محمد رسول الله، فوافق رسول الله ﷺ حتى أنه أمر علي بن أبي طالب بمحو ما كتبه من بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله. وأن يكتب بدلهما ما أراده مندوب قريش سهيل، أي باسمك اللهم، وهذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. ولا شك أن هذه المجاراة لرغبات سهيل كانت ضرورية لإتمام عقد الصلح الذي فيه مصلحة كبيرة للمسلمين، يهون معها مجاراتهم فيما طلبوه، وهي شيء لا يغير من الحقيقة شيئاً، وهي أن محمداً هو رسول الله حقاً، وإن أنكر المشركون. وعلى هذا فعلى الدعاة أو جماعتهم أو أميرهم أن لا يصروا على أشياء لا تنفي الحقيقة أو لا تؤثر في جوهر الدعوة، وليس فيها إقرار بمنكر، في سبيل تحقيق مصالح كبرى للدعوة، وعليهم الاستهداء بمسلك رسول الله ﷺ في مجاراته بطلبات المشركين؛ لتحقيق الصلح الذي فيه مصلحة للمسلمين، فيجاروا خصوم الدعوة بتلبية بعض مطالبهم ورغباتهم في سبيل تحقيق مصالح مؤكدة للدعوة وإيجاد المجال المريح لنشر الدعوة.

١٤٣٨- مصالح الدعوة لا تقاس بمصالحها الآنية بل بها وبالمستقبلية:

إن مصالح الدعوة الحقيقة لا تقاس بمصالحها الآنية دون نظر إلى عواقب الأمور، وما تؤول إليه من مصالح مؤكدة في المستقبل، أو من أضرار تقع في المستقبل إذا أريد تحقيق مصالح آنية. ولهذا ضاقت صدور بعض المسلمين، أو كثير منهم من صلح الحديبية لما ظنوه من إجحاف في حقوقهم، وتجاوز عليها، ومن مهانة حلت بهم في منعهم من أداء العمرة في عامهم ذلك. ومرد ذلك أنهم لم يمتد نظرهم إلى مستقبل هذه المعاهدة - معاهدة الصلح مع قريش - وإيقاف الحرب معها لمدة عشر سنوات، وما يترتب على ذلك من مصالح مؤكدة للإسلام، وهذا هو ما لاحظه رسول الله ﷺ وحمله على عقد تلك المعاهدة، التي نزل القرآن بشأنها، وجعلها فتحاً مبيناً للمسلمين.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن لا يجعلوا تأكيدهم على مصالح الدعوة الآنية دون نظر

إلى مصالحهم في المستقبل في سبيل تحقيق مصالح وقتية، لأن قدر المصلحة تقاس بمدى ضخامتها بذاتها وإن كانت آجلة، وعلى هذا إذا رأت جماعة الدعاة اتباع سياسة معينة، أو عقد مهادنة مع خصومها لما يُرَى من أن هذه المهادنة، أو السياسة تحقق مصالح عظيمة دلت القرائن والحسابات الصحيحة على احتمال تحققها احتمالاً راجحاً، أقول فعلى الدعاة في هذه الحالة أن لا يعارضوا جماعتهم وقيادتهم فيها في سلوك هذه السياسة ما دام الشرع يبيحها ولا يمنعها.

١٤٣٩- تفويت مقاصد خصوم الدعوة:

ذكرنا أن زعماء قريش وكبراءها أو معظمهم كانوا يريدون الصلح مع النبي ﷺ على أن يرجع في هذا العام ولا يعتمر. إلا أن بعض شباب قريش ومن ورائهم بعض رجال قريش كانوا لا يريدون هذا الصلح، فقاموا بتحرشات بالمسلمين وبمحاولات الغارة عليهم، ولكن المسلمين صدوهم وأسروا كثيراً منهم، ولكن النبي ﷺ عفا عنهم وأرجعهم إلى مكة، وهكذا بهذه السياسة الحكيمة من رسول الله ﷺ فوَّت على ذلك النفر مقاصدهم الخبيثة في إفشال توجيه قريش إلى عقد الصلح مع المسلمين. فعلى الدعاة وعلى جماعتهم إذا ارتضوا مع خصومهم سياسة معينة في علاقاتهم فيما بينهم، فقد يقوم بعض أنصار الدعاة أو بعض خصومهم باستفزاز جماعة الدعاة؛ ليحملوها على القيام بأعمال تفسد السياسة التي ارتضوها، وبالتالي عدم الالتزام بها. والسبيل إلى إفشال مثل هذه المساعي صبر الجماعة على تحرشات بعض خصوم الدعوة، وتفهيم الجماعة أنصارها بضرورة ضبط أعصابهم، وعدم الرد على تحرشات هذا النفر من خصوم الدعوة، وأن لا يقوموا هم ابتداءً بما يفسد هذه السياسة على الجماعة؛ لاعتقادهم بأنها سياسة خاطئة لا تجوز.

١٤٤٠- نرضى على من يرضى عليه الله:

أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، قد رضي الله عنهم، وكانوا كما ذكرنا ألف وأربعمائة، وقد أخبرنا الله تعالى برضاه عنهم ﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ . . . ﴾ فينبغي للمسلم أن ينطوي قلبه على محبتهم والرضا عنهم، لأن من رضي الله عنه فقد أحبه، فيلزم المسلم ذلك، وهذا هو شأن المسلم. ولكن قد تعم الجهالة فئة من الناس في مكان معين أو زمان معين، فلا

يرضون على أصحاب بيعة الرضوان وهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فعلى الدعاة أن يبينوا وجوب محبة هؤلاء؛ والرضا عليهم وتوليهم؛ لئلا يقعوا في مشاقة الله ورسوله، فيكرهون من أحبهم الله ورضي عنهم. وإذا عرفنا أن سبب رضا الله عليهم هو ما قام في قلوبهم من إيمان وإرادة نصرة رسول الله ﷺ التي ظهرت في إعلان هذه الإرادة ببيعة رسول الله ﷺ، فإن المسلم يرضى على أخيه المسلم، ويحبه إذا رأى أعماله الخيرة المرضية عند الله تعالى، والدعاة يقومون بأعمال مرضية عند الله قطعاً، فالشأن بالمسلمين أن يحبوا الدعاة ويرضوا عنهم وعن عملهم الدعوي، لأنه عمل مرضي عند الله تعالى، ولا يجوز بغضهم أو معاداتهم لعملهم الدعوي، وهذا المعنى والتعليل يجب على الدعاة بيانه وتبيينه للناس في دروسهم ومحاضراتهم، فإنه المدخل السليم السديد الواضح لجمع الأنصار على الهدى، وعلى حب الدعوة والدعاة ومناصرتهم.

١٤٤١- سنة الله التي لا تتغير:

ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي سنّ الله سنة لا تتغير ولا تتبدل، وهي أن الله ينصر أولياءه المؤمنين على أعدائهم[٢٧٢٤]. فعلى الدعاة أن يوضحوا ويبينوا ويكرروا هذا البيان وذاك التوضيح لهذه السنة الإلَهية حتى يبعثوا الأمل في نفوس المسلمين، ويقلعوا من نفوسهم اليأس، ويذكروهم بما وعد الله به المؤمنين، لأن وعده لا يتخلف ويدخل في مضمون سننه في نصره للمؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[٢٧٢٥]. أي ننصرهم في الدنيا والآخرة بأن يغلبوا أعداءهم في الدنيا بالحجة والبرهان وبالقتال، وإن غُلِب المؤمنون في بعض الأحيان؛ لتقصير منهم أو لامتحان لهم من الله تعالى، ولكن العاقبة دائماً لهم ما داموا مؤمنين قائمين بمقتضيات الإيمان[٢٧٢٦].

(٢٧٢٤) انظر الفقرة ١٤٢٨.

(٢٧٢٥) سورة غافر الآية ٥١.

(٢٧٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٧٢، تفسير القرطبي ج١٥ ص٣٢٢.

١٤٤٢- تعمد الخصام والحرص عليه مع خصوم الدعوة:

ومما ينبغي أن يعرفه الدعاة ولا ينسوه أن من نعم الله عليهم، أن يجنبهم الخصام مع خصوم الدعوة مع بقائهم واستمرارهم في أعمالهم الدعوية، ولا يجوز لهم تعمد الخصام معهم أو الحرص عليه، مع أن أعمالهم الدعوية لا تقتضي ولا تستدعي ولا تستلزم هذا الخصام، وإنما الذي تستدعيه نيتهم الخفية، وتطلعهم الخفي إلى هذا الخصام، لينالوا ثناء الناس عليهم، ومدحهم لهم بأنهم مجاهدون مضمون لاسيما إذا كانت الخصومة مع رجال الحكم. فليحذر الدعاة ذلك، وليعلموا أن ساحة العمل الدعوي واسعة جداً، يمكن ولو جهاراً القيام بالأعمال الدعوية الضرورية للدعوة دون حاجة إلى تعمد الاحتكاك والتحرش بخصوم الدعوة وهم غافلون عنهم، فإن فعلهم هذا دليل على ريائهم وإرادتهم لفت النظر إليهم.

لقد ذكرنا امتنان الله تعالى على عباده المؤمنين أصحاب الحديبية بأن منع المشركين من الاقتتال معهم، كما منع المؤمنين من الاقتتال مع المشركين، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقد ذكرنا في تفسيرها، أن الله تعالى يمتن على المخاطبين - أصحاب الحديبية - بأن منع المشركين كما منع المسلمين من الاشتباك والاقتتال[٢٧٢٧]. إن الدعوة تحتاج إلى الجو والمناخ المريح الخالي من الغبار والخصام، إن الدعاة يبنون ويهيؤون، والبناء والتهيؤ لا يكونان مع الخصام والشجار والتشابك بالأيدي والانشغال بغير البناء، إن الدعاة كالسائرين في طريقهم، فلا يجوز لهم إيقاظ الكلاب النائمة، فتنبح عليهم وتهجم عليهم، وتحسس أصحابها بسير الدعاة فيضطرون إلى التوقف ومهاوشة ومناوشة الكلاب، وليس هذا من حكمة الدعاة ومسيرهم المحمود.

١٤٤٣- درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المنافع:

ذكرنا قول الله تعالى: ﴿. . . وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ . .﴾ وذكرنا قول المفسرين فيها، وهي: لولا وجود رجال

(٢٧٢٧) انظر الفقرة ١٤٢٩.

مؤمنين ونساء مؤمنات يعيشون في مكة، ومختلطين مع المشركين لا تعرفونهم وقد تطؤوهم، أي تقتلونهم، لو أذنا لكم في دخول مكة عنوة وبقتال أهلها فيصيبكم من ذلك إثم، لولا هذا المحذور لأذنا - أي لأذن الله - لكم بدخول مكة وقتال أهلها[٢٧٢٨]. فهذا صريح في أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع. المنفعة هنا دخول مكة واحتلالها عنوة عن طريق القتال. والمفسدة في هذا الأسلوب في فتح مكة: قتل المؤمنين والمؤمنات، وأيضاً قتل المشركين الذين يحتمل في بعضهم أن يسلم فيدخل في رحمة الله، كما جاء في آخر الآية ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وعلى هذا فعلى الدعاة، وجماعتهم، أن يزنوا بالميزان الشرعي الدقيق المفاسد المترتبة على انتهاجهم منهجاً معيناً أو سياسة معينة أو عملاً بالذات، ويزنوا المنافع المترتبة على ما ذكرنا، فإذا رأوا المفاسد - ويدخل في مفهوم المفاسد: الأضرار - أكبر من المنافع وجب ترك ما هم عازمون على فعله أو انتهاجه من سياسة أو منهج، وهذا إذا كانت المنافع المرجوحة القليلة مُؤَكدٌ حصولها، أما إذا كان حصولها على وجه الاحتمال والشك مع بقاء احتمال حصول المفاسد احتمالاً كبيراً، فهنا يتحتم الإقلاع عن العمل المراد فعله، والسياسة المراد اتباعها. وعلى الدعاة وجماعتهم وهم يزنون بالميزان الشرعي الدقيق ما يترتب على عملهم من مفاسد ومنافع أن لا يتأثروا بضجيج الآخرين ولا برغبات المحبين. إن عليهم أن يكونوا كالمحلل في مختبره وهو يختبر مادة بين يديه ليعرف آثارها وصفاتها، كما هي بمعزل عن رغبات الآخرين وضجيجهم، فلا تؤثر فيه صيحات المتظاهرين خارج المختبر، ولا تحرفه عن حرصه في أن يعرف خواص وآثار المادة التي يفحصها، فكذلك يجب أن يكون الدعاة وجماعتهم في وزنهم أعمالهم لمعرفة أضرارها ومنافعها.

١٤٤٤- حذار من الحمية الجاهلية:

قلنا فيما سبق[٢٧٢٩] إن مشركي مكة أخذتهم الحمية الجاهلية، أي الأنفة من قبول الحق والانقياد إليه ومن قبول ما هو صحيح في ذاته. فكانت أنفتهم جاهلية، وعلى أساسها منعوا النبي ﷺ من دخول مكة للعمرة، وفي العمرة تعظيم لبيت الله الذي هم

(٢٧٢٨) انظر الفقرة ١٤٣٠.

(٢٧٢٩) انظر الفقرة ١٤٣١.

يدعون تعظيمه، ومن أنفتهم الجاهلية رفض الإقرار بنبوة محمد ﷺ مع ظهور دلائل نبوته ظهور الشمس في رابعة النهار، ومن أنفتهم امتناع مندوبهم إلى عقد الصلح: سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر المعاهدة بسم الله الرحمن الرحيم، وامتناعه أن يكتب صفة محمد ﷺ بالرسالة، فرفض أن يكتب: محمد رسول الله باعتباره طرفاً في عقد الصلح. وبخلاف أولئك المشركين كان رسول الله ﷺ وأصحابه بعيدين عن كل معاني الحمية الجاهلية دقيقها وعظيمها، لأن الله تعالى كما قال ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ. . .﴾ فثبتهم الله تعالى، ولم تستفزهم حمية المشركين، وحمية مندوبهم الجاهلية، فيصروا على رفض ما أراده سهيل من كتابة باسمك اللهم، وبكتابة اسم سيدنا محمد ﷺ، باسمه المجرد واسم أبيه دون نعته بنعت النبوة والرسالة. لأن الصحيح كان عقد ذلك الصلح ولو بإجابة طلبات المشركين ومندوبهم، ولو أن الموقف كان يستدعي رفض طلبات المشركين لتعنتهم في باطلهم، ولكن كان النظر السديد والحكيم والعمل الصحيح، هو المضيّ في عقد الصلح، وعدم التأثر باستفزازهم برفض طلباتهم.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن يلاحظوا ذلك، إذا حصلت لهم حاجة ومصلحة في عقد مهادنة مع أعداء الدعوة، أن يركزوا ويؤكدوا على الجوهر والأساس، وعلى ما يسهل عقد هذه المهادنة ما دامت في مصلحة الدعوة، وأن لا تستفزهم طلبات الخصوم غير الصحيحة في نفسها، ولكن الأخذ بها لا يمس الدعوة وأصولها ومعانيها. ومن أمثلة ذلك أيضاً إذا أراد خصوم الدعوة عقد المفاوضات في مكان معين وزمان معين، فلا مانع من الأخذ بما يريدون، وإن كان في إجابتهم شيء من الغضاضة في أعين بعض الناس، أو في أعين أنصار الدعوة، ما دام يؤمل في هذه المفاوضات خير للدعوة.

١٤٤٥- لا حوار مع أصحاب الأديان إلا على أساس دعوتهم للإسلام:

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليعليه على جميع الأديان السابقة، وعلى ما قد يظهر من أديان باطلة. فالإسلام وحده هو الدين الحق، وهو المهيمن على غيره الناسخ لغيره، الذي لا يسع أحداً من الخلق إلا اتباعه، هكذا أراد الله لدينه الإسلام، وهكذا يجب أن ينظر المسلم لدينه

بذاته وفي علاقته بالأديان الأخرى. وبناء على هذا الذي أقوله على الدعاة وجماعتهم، أن يفقهوا جيداً أنه لا يجوز أي حوار أو عقد مؤتمر مع أصحاب الأديان الأخرى، تحت أي شعار أو عنوان إلا على أساس دعوتهم لاعتناق الإسلام، وبيان أدلته وبراهينه، وبيان بطلان أديانهم ونسخها، فلا يجوز الاعتراف بهم وبإقرارهم على دينهم، واستعداد جماعة الدعاة التعاون معهم بحجة تعاونهم ضد الإلحاد مثلاً، أو ضد الشيوعية، فالدعاة وجماعتهم يحاربون الإلحاد والشيوعية وكل باطل تحت راية الإسلام فقط، وبمنهجهم الإسلامي، ولا يرضون أن يقف معهم في هذه المنازلة للملحدين أصحاب الأديان الباطلة الرافضين دعوة الإسلام المنكرين نبوة محمد ﷺ ورسالته العامة لجميع البشر. إن معاني إظهار الإسلام على جميع الأديان لا تظهر في عقد المؤتمرات مع أصحاب هذه الأديان، وغض البصر عن باطلهم، والرضا بهم ضمناً أو صراحة بحجة التعاون معهم ضد العدو المشترك: الإلحاد. إنهم هم أعداء الإسلام كما أن الملحدين أعداء الإسلام.

١٤٤٦- يسع الفرد ما لا يسع الجماعة ولا عضواً فيها:

كان من بنود صلح الحديبية أن من جاء محمداً ﷺ من قريش مسلماً من غير إذن وليه ردّه النبي ﷺ إلى قريش، ولم يقبله في صفوف جماعة المسلمين في المدينة، وعلى أساس هذا البند أو الشرط لم يقبل النبي ﷺ أبا جندل عندما جاء يرسف بقيوده، فألقى بنفسه بين يدي النبي ﷺ، ولم يفرغ بعد من كتابة بنود المعاهدة، وطلب سهيل ردَّ ابنه أبا جندل إلى قريش حسب بنود المعاهدة المتفق عليها شفهياً، ولكن لم تكتب بعد، فرده النبي ﷺ، وقال له: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً...» وحصل أن انفلت من قريش رجل من المسلمين هو أبو بصير، ثم انفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فصاروا يغيرون على قوافل قريش السائرة إلى الشام، فيقتلون حراسها ويأخذون أموالها، فأرسلت قريش تطلب من رسول الله قبول أولئك المسلمين المنفلتين منها، وعدم ردهم إلى قريش، لتتخلص منهم ومن تعرضهم لقوافل قريش،

فأرسل النبي ﷺ إليهم، فقدموا عليه في المدينة[٢٧٣٠].

ويستفاد من قصة أبي جندل وأبي بصير أنه يسع الفرد المسلم غير المرتبط بجماعة ما لا يسع الجماعة ولا عضواً فيها، بمعنى أن الفرد المسلم السائب غير المرتبط له أن يعمل من الأعمال المباحة له شرعاً ومنها ما فيه ضرر على المشركين يستحقونه، بينما لا يجوز للجماعة المسلمة ولا عضواً فيها أن يفعل ما يفعله المسلم السائب وإن كان العمل بذاته جائزاً.

فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك وتفقه أعضاءها فيه، حتى لا يعملوا أي عمل لا ترتضيه الجماعة، ولا يتفق وسياستها في العمل، أو لا يتفق مع ما اتفقت عليه مع خصومها، لأن مقياس جواز العمل للجماعة المسلمة لا يقف عند حدّ مشروعية العمل في ذاته، وإنما يتجاوزه إلى مدى ما يحققه من مصلحة راجحة، أو دفع مفسدة راجحة، باعتبارها جماعة ذات هدف معين واسع، تريد الوصول إليه ولا تقف عند حدّ تحصيل المصالح الجزئية، إذا كان من شأن تحصيل هذه المصالح تفويت المصلحة الكبرى، أو تأخير تحصيلها وما في تأخيرها من احتمال تفويتها بالكلية. وإذا كانت الجماعة تلتزم بما قلت فعلى كل عضو في الجماعة أن يلتزم بما التزمت به أو تلتزم به من أعمال فعلاً أو تركاً، لأن أعماله تنعكس على الجماعة، لأنه عضو فيها ولا يمكن براءة الجماعة من أعماله، فليتق الله عضو الجماعة المسلمة وأن يلتزم بكل دقة ما تلتزم به الجماعة من أعمال فعلاً لها أو تركاً لها، وليعتبر الأخ الداعية العضو في الجماعة المسلمة بقصة أبي جندل وأبي بصير وبما فعله النبي ﷺ من رده لأبي جندل ومن التزام المسلمين في المدنية ببنود الصلح - صلح الحديبية - ولا يجوز الخروج على ما ذكرته، هذا ويجب أن يكون معلوماً أن التزام عضو الجماعة المسلمة بما تلتزم به الجماعة، لا يشترط في التزام الجماعة الذي يلتزم به أعضاؤها أن يكون هناك معاهدة أو اتفاق تحريري بين الجماعة المسلمة وبين خصومها، وإنما يكفي لالتزام العضو بما تلتزم به جماعته من سياسة ومن منهج في العمل باختيار منها أو باجتهاد منها أو نتيجة اتفاق مع خصومها، سواء كان اتفاقاً تحريراً أو اتفاقاً شفهياً.

(٢٧٣٠) الرحيق المختوم ص٣١٧ وما بعدها.

١٤٤٧- ثناء الله على أصحاب رسول الله ﷺ:

ذكرت ثناء الله على أصحاب محمد ﷺ، ومدحه لهم، وشهادته لهم، بالعمل الصالح وبنيتهم الصالحة، وأعيد هنا ثناء الله عليهم وإن كان في إعادته تكرار قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[٢٧٣١] هذه الآية صريحة في دلالتها على علو منزلة أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى كثرة عبادتهم وصلاتهم، وإرادتهم الظفر بفضل الله ورضوانه، وأنهم كانوا أعواناً وتقوية لرسول الله ﷺ، وأن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وليكونوا جنوده يشدون أزره ويجاهدون معه، ويكونون بين يديه، يأمرهم فيطيعون، يحبونه أكثر من نفوسهم ويفدونه بأرواحهم، ويؤثرون أن يموتوا دونه ولا تصيبه الشوكة.. إن أولئك الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ، لا ينطوي قلب مسلم إلا على محبتهم، وإلا على الحرص على اتباعهم؛ لينال رضوان الله تعالى. فهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده ونشروا الإسلام ونقلوا إلينا كتاب الله وسنة رسوله، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

فعلى الدعاة أن يعرفوا قدرهم ومنزلتهم ويبينوها للناس، ويزيلوا عن أذهانهم الشبهات والأباطيل التي وضعها وأثارها ويثيرها المبتدعة الفجرة الذين يتدينون ببغضهم وسبهم وشتمهم وإلصاق النقائص بهم، وهذا علامة نفاقهم وزيغهم عن سبيل الحق. فعلى الدعاة تفهيم المسلمين منزلة الصحابة وقدرهم عند الله ولا يعوزهم الدليل على ما يقولون، ففي كتاب الله آيات صريحة في الثناء عليهم، ومنها هذه الآية، فليحفظها الدعاة وليقرؤوها على الناس. وكذا في السنة نصوص كثيرة في الثناء على الصحابة، فليقرأها الدعاة على الناس أيضاً، فهذا من معاني دعوتهم، ومن واجبهم في تبيين هذه المعاني للناس.

(٢٧٣١) انظر الفقرة ١٤٣٤، والآية في سورة الفتح ورقمها ٢٩.

الفصل الخامس عشر
غـزوة خيبر

المبحث الأول
خلاصة الغزوة وما يتعلق بها

١٤٤٨- وعد الله لأهل الحديبية بفتح خيبر:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[٢٧٣٢]. وهذه المغانم الكثيرة التي وعد الله أهل الحديبية - أصحاب بيعة الرضوان - هي ما يغنمه المسلمون من الكفار إلى يوم القيامة. ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني مغانم خيبر. ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فنكصوا ورجعوا ولم ينصروا يهود خيبر[٢٧٣٣].

١٤٤٩- النبي ﷺ يسير إلى خيبر:

كانت خيبر مركزاً لتجمع اليهود بعد أن أخرج النبيﷺ يهود المدينة، ولم تنته دسائس اليهود وتحريضاتهم الآخرين على محاربة المسلمين، فأراد النبي ﷺ القضاء على هذا الوكر الخبيث لليهود فلما انصرف النبي ﷺ من الحديبية نزلت سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، وفيها وعد الله تعالى للمسلمين، أهل بيعة الرضوان، بمغانم خيبر بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني خيبر فقدم ﷺ المدينة في ذي الحجة، فأقام فيها حتى سار إلى خيبر في المحرم من سنة سبع للهجرة.

(٢٧٣٢) سورة الفتح الآية ٢٠.

(٢٧٣٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٦٤.

١٤٥٠- لم يشترك في غزوة خيبر غير أهل الحديبية:

هذا ولم يسمح رسول الله ﷺ لغير أهل الحديبية في السير إلى خيبر، ولذلك لما أراد الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية الخروج مع النبي ﷺ إلى خيبر رفض طلبهم، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٧٣٤]. والمعنى: سيقول المخلفون الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ أي إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يقول هؤلاء المتخلفون: دعونا نتبعكم في ذهابكم وسيركم إلى خيبر، يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية أن غنائم خيبر تكون لهم لا يشاركهم فيها غيرهم[٢٧٣٥]. وهكذا سار سيدنا محمد ﷺ والمسلمون الذين كانوا معه في الحديبية متوجهين إلى خيبر.

١٤٥١- اقتراب النبي ﷺ من خيبر:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر، وكان ﷺ قد اختار مكاناً لنزول جيشه، فأتاه حباب بن المنذر، فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلكه الله أم هو الرأي في الحرب؟ قال ﷺ: «بل هو الرأي» فقال حباب: إن غير هذا المكان أحسن من هذا، وبيَّن له سبب ذلك، فأخذ النبي ﷺ برأيه، ثم تحول إلى مكان آخر[٢٧٣٦].

١٤٥٢- لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه:

وفي الليلة التي بدأ القتال في صباحها، قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه»، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه». فبات الناس ليلتهم فلما أصبحوا

(٢٧٣٤) تفسير البخاري ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨ والآية من سورة الفتح ورقمها ١٥.

(٢٧٣٥) تفسير البخاري ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢٧٣٦) الرحيق المختوم ص٣٣٦.

غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطى الراية فقال ﷺ: «أين عليّ بن أبي طالب»؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله. قال: «فأرسلوا إليه فأتوني به» فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع فأعطاه الراية. فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم». وفي رواية للبخاري في إعطاء الراية في قتال خيبر، قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله عليه» فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه(٢٧٣٧).

١٤٥٣- انتصار المسلمين:

وكانت خيبر تضم ثمانية حصون منيعة، يتحصن بها اليهود، وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم، وكان هذا الحصن حصن مرحب اليهودي المشهور بشجاعته، فخرج علي بالمسلمين إلى هذا الحصن فخرج مرحب يريد المبارزة فبارزه علي فقتله، ودارت معارك حول هذا الحصن، وقتل فيها عدد من اليهود انهارت بعدها مقاومة اليهود، فتسللوا منه وتركوه خالياً فهاجمه المسلمون، ثم تهاوت حصونهم الباقية فاستسلمت للمسلمين. وكان من أجل ذلك أن طلب اليهود الصلح، والخروج من حصونهم سالمين على أن تُحقَن دماء المقاتلين منهم، وعلى أن يخرجوا من خيبر ويتركوا أموالهم لرسول الله ﷺ. وهكذا تم فتح خيبر، وقسمت الغنائم على أفراد الجيش الإسلامي.

١٤٥٤- إبقاء اليهود في خيبر لزراعتها ورعاية شجرها:

ولما أراد النبي ﷺ إجلاء اليهود من خيبر، طلبوا بقاءهم أجراء فيها ليزرعوها ويقوموا على رعاية شجرها، فوافق النبي ﷺ على ذلك ما بدا لرسول الله أن يقرهم(٢٧٣٨). وأن يكون لهم الشطر من زرعها وثمرها. فقد أخرج البخاري عن

(٢٧٣٧) صحيح البخاري ج٧ ص٧٠.

(٢٧٣٨) صحيح البخاري ج٢ ص٦٠٩ نقلاً من الرحيق المختوم ص٣٤٣.

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها[٢٧٣٩]. ثم قسمّ النبي ﷺ الغنائم على أهل الحديبية، أي الذين ساروا إليها مع النبي ﷺ كما وعدهم الله تعالى، من شهد منهم القتال ومن غاب عنه[٢٧٤٠].

١٤٥٥- زواج النبي ﷺ بصفية:

كانت صفية بنت حيي بن أخطب من جملة السبي، فعرض عليها ﷺ الإسلام فأسلمت فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها. فصارت من أزواج النبي ﷺ. وجاء في قصة زواجها بالنبي ﷺ أن صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير وقد قتل أبوها مع بني قريظة وقتل زوجها في معارك خيبر، فقال الصحابة: يا رسول الله إنها سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك، فاستحسن رأيهم، فاشتراها من دحية الكلبي التي وقعت في سهمه من غنائم خيبر، وأعتقها وأسلمت، وتزوجها بعد أن خيرها ﷺ بين أن يعتقها وترجع إلى أهلها، أو تسلم ويتزوجها، فقالت: أختار الله ورسوله، فتزوجها ﷺ، وماتت رضي الله عنها في سنة خمسين للهجرة، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة[٢٧٤١].

١٤٥٦- يهودية تهدي لرسول الله ﷺ شاة مسمومة:

أهدت زينب بنت الحارث امرأة اليهودي سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة، وأكثرت من سمّ ذراعها لما علمت أن هذا العضو أحب إلى رسول الله ﷺ من سائر أعضاء الشاة. ثم جاءت بالشاة المشوية المسمومة ووضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، فتناول الذراع فلاك منها قطعة فلم يسغها فلفظها، وقال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم». وكان معه بشر بن البراء بن معرور وقد أخذ منها قطعة فأساغها - أي بلعها. ثم أرسل إليها النبي ﷺ فاعترفت، فقال لها ﷺ: «ما حملك على

(٢٧٣٩) صحيح البخاري ج٧ ص٤٩٦.

(٢٧٤٠) الرحيق المختوم ص٣٤٣.

(٢٧٤١) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٦٦، تفسير المنار ج٤ ص٣٧٢، صفوة الصفوة لابن الجوزي ج٢ ص٢٧.

هذا»؟ قالت: بلغتَ من قومي ما قد علمتَ، فقلتُ: إن كان كذاباً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبره ربه، فتجاوز عنها. ثم مات بشر من أكلته تلك. ويروى أن النبي ﷺ قتلها به قصاصاً. ولم يزل هذا السم يعاود النبي ﷺ كل عام حتى اختاره الله لجواره ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى قطعت أبهري»[٢٧٤٢].

(٢٧٤٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٩٧-٤٩٨، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤١٨.

المبحث الثاني
ما يستفاد من غزوة خيبر
للدعوة والدعاة

١٤٥٧- الأخذ برأي الغير إذا ظهر صوابه:

رأينا أن النبي ﷺ أخذ برأي حباب في ضرورة التحول من المكان الذي اختاره النبي ﷺ لنزوله ونزول جيش المسلمين لما تبين صواب رأي حباب بما ذكره من أسباب. وعلى هذا فينبغي للدعاة وأمير جماعتهم أن يأخذوا برأي أحدهم أو برأي غيرهم إذا ظهر صوابه إذ قد يخفي الرأي الصواب في أمر ما على أمير جماعة الدعاة أو عليهم فيما يباشرونه من أعمال دعوية، فعليهم الأخذ بهذا الرأي الصائب بلا تردد.

١٤٥٨- يجوز ابداء الرأي وإن لم تسبقه استشارة:

يجوز للدعاة أن يبدي أحدهم ما يراه صواباً في أمور الدعوة لأمير الجماعة وإن لم يستشره، لأن إبداء الرأي الصواب من باب الدلالة على الخير، ولا يشترط فيها سبق سؤال الدال، ولأن أمور الدعوة تهم الجميع، ولا يختص هذا الاهتمام بأمير الجماعة ولا بواحد من أعضائها، وقديماً أخبر الهدهد سليمان عليه السلام ما رآه من خلل وشرك في قوم سبأ يستلزم إزالته، ولم ينكر عليه سليمان ذلك أو يقول: أنا لم أكلفك بذلك لتخبرني عنهم.

١٤٥٩- يناط العمل بمن هو أقدر عليه من غيره:

رأينا أن النبي ﷺ أعطى الراية - راية القتال - إلى علي رضي الله عنه، وعلل ذلك: بأن الله سيفتح على يديه. أي يفتح عليه حصن يهود خيبر، فيكون ذلك مفتاح النصر وخذلان اليهود. ويقتضي هذا الفتح قدرة علي رضي الله عنه وصلاحيته، ليكون سبباً للفتح الذي يأتي به الله تعالى. وعلى هذا ينبغي لأمير جماعة الدعاة

تقسيم الأعمال الدعوية على الدعاة، فيعطي كل واحد من أعمال الدعوة ما هو قادر عليه ومتمكناً منه، وهذا هو نهج رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، فقد أعطى ﷺ القيادة في بعث السرايا إلى خالد بن الوليد منذ أن أسلم، وكذلك فعل أبو بكر مع خالد، وأيضاً فإن كل إنسان مُيسَّر لما خلق له، فمن السياسة الحكيمة ومن النصح للأمة أن يلاحظ أمير الجماعة ذلك فيما ينسبه من أعمال إلى أعضاء جماعته، فيكلف كل واحد منهم ما يقدر عليه، بل وأقدر عليه من غيره، ولكن قد يكون الشخص أقدر من غيره على عمل ما وأولى به من غيره، ولكن لا تتحقق به مصلحة الدعوة، فعلى أمير الجماعة ملاحظة ذلك، ويلاحظ ما تتحقق به المصلحة عند إسناد هذا العمل لهذا أو لهذا، فلا ينظر إلى القدرة على العمل بل ينظر أيضاً إلى ما تتحقق به المصلحة. ومن أمثلة ذلك إسناد مسؤولية العمل الدعوي في مكان معين لعضو في الجماعة مع أن غيره أقوى على العمل منه، ولكن مصلحة الدعوة تتحقق على يد العضو المرجوح؛ لكونه معروفاً في هذا المكان، أوله منزلة عند أهل هذا المكان كأن يكون ابن رئيس عشيرة، ونحو ذلك من المرجحات في إسناد العمل له مع وجود من هو أولى بالعمل منه، ولكن المصلحة تقضي بإسناد العمل له لما ذكرناه. وهذا الجواز في إسناد العمل للمفضّول مع وجود الفاضل، مشروط بأن يتحقق الحدّ الأدنى من الصفات والمعاني في عضو جماعة الدعاة، كما أنه في هذه الحالة يجوز لأمير الجماعة أن ينسّب القادر على العمل لمعاونة المفضول الذي أسند إليه هذا العمل للأسباب التي ذكرتها.

١٤٦٠- يجوز استخدام الكفار بشروط:

رأينا أن النبي ﷺ أبقى يهود خيبر في مكانهم كأجراء يقومون بزرع الأرض وبالعناية بالشجر، وشرط عليهم أن استمرارهم في القرار بخيبر مرهون بإقرار النبي ﷺ لهم. كما يشترط أن لا يكون هناك من المسلمين ما يسد مسدهم، والظاهر أن يهود خيبر كانوا أقدر من غيرهم على القيام على أرض خيبر وزروعها وشجرها، وما كان المسلمون بمستطعين أن يفعلوا ذلك وهم في المدينة غير مقيمين في خيبر، ويشترط أيضاً أن لا يكون في المسلمين من يسدّ مسدهم، ويشترط أيضاً الاطمئنان بهم والوثوق بأمانتهم على هذا العمل الذي يناط بهم على سبيل الإجارة أو المزارعة.

١٤٦١- دسائس اليهود وأضرارهم بالمسلمين:

رأينا قصة الشاة المسمومة، ومن قبلها ذكرنا في أسباب إجلاء يهود بني النضير غدرهم وإرادتهم قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر كبير عليه من مكان عالٍ. وعلى هذا فعلى الدعاة وجماعتهم الحذر كل الحذر منهم، لأن حنينهم أو نفعهم مقصور على أبناء دينهم، أما بالنسبة لغيرهم لا سيما للمسلمين فهم يكيدون لهم ويريدون الشرّ بهم، بل ويستحلون إيذاء المسلمين ولا يرون حرجاً في هذا الإيذاء، قال تعالى عنهم: ﴿ . . . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢٧٤٣] أي عدم أدائهم الحقوق بسبب قولهم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وقولهم: وما حَبْسُنا أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يُجعَل لهم في كتابنا حُرْمة[٢٧٤٤]. ومن المعلوم أن اليهود أشد عداوة للمسلمين من غيرهم، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ . . ﴾[٢٧٤٥]. ومع هذه العداوة الشديدة فيتوقع منهم كل شر وضرر بالمسلمين.

(٢٧٤٣) سورة آل عمران الآية ٧٥.

(٢٧٤٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٣٧٥.

(٢٧٤٥) سورة المائدة الآية ٨٢.

الفصل السادس عشر

معركة مؤتة (٢٧٤٦)

المبحث الأول

خلاصتها وأحداثها

١٤٦٢- سبب المعركة:

إن شرحبيل بن عمرو الغساني وهو من أمراء قيصر على الشام قتل رسولاً أرسله النبي ﷺ إلى صاحب بصرى واسم الرسول الحارث بن عمير، فجهز إليهم النبي ﷺ عسكراً في ثلاثة آلاف رجل، وبعثه إلى مؤتة وهي من أرض الشام بالقرب من البلقاء، وكان إرسال هذا الجيش إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة(٢٧٤٧).

١٤٦٣- الرسول ﷺ يعين أمراء للجيش:

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أمَّرَ رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة». قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورَميه.

وفي هذا الحديث جواز تعليق الإمارة بالشرط، وتعيين عدة أمراء بالترتيب(٢٧٤٨). ويلزم هذا الترتيب، ولا يُصَار إلى غيره، لأن اختياره مقدم على

(٢٧٤٦) موضوع الكتاب قصص القرآن ومعركة مؤتة وإن لم يرد لها ذكر في القرآن ولكن تضمنها الأمر بالجهاد وذكرتها هنا لأنها أول معركة مع دولة الرومان، وفيها فوائد كثيرة للدعوة والدعاة.

(٢٧٤٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥١٣.

(٢٧٤٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٥١٢-٥١٣.

اختيار غيره، لأنه أعرف بالمصلحة، فلو لم يرد هذا الترتيب لاكتفى بالأول وترك اختيار الثاني إذا قتل الأول لأفراد الجيش.

١٤٦٤- النبي ﷺ يودع الجيش ويوصيه:

وخرج رسول الله ﷺ يودع الجيش ويوصيه، فكان مما قاله لهم: «اغزوا باسم الله، قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء..»[٢٧٤٩].

١٤٦٥- وصول الجيش إلى معان:

وبعد توديع النبي ﷺ للجيش، مضى في سبيله حتى وصل مَعَانَ من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قيصر الروم قد نزل مآب في أرض الشام في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من متنصرة العرب من لخم وجُذَام وغيرهم. فلما بلغ ذلك جيش المسلمين أقاموا في معان ليلتين وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ بواقع الحال، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، ولكن عبد الله بن رواحة لم يوافقهم على هذا الرأي، وشجعهم على القتال مذكراً بأنهم جاؤوا للنصر أو للشهادة فتشجع القوم ومضوا إلى لقاء العدو[٢٧٥٠].

١٤٦٦- بدء القتال واستشهاد قادة الجيش الإسلامي:

التقى الجيشان، مع هذا التفاوت الهائل في العدة والعدد، ولكن المسلمين لم ترهبهم كثرة عدد العدو فاندفعوا في قتال العدو، فقاتل زيد بن حارثة قتال الأبطال فاستشهد. فتولى القيادة بعده جعفر بن أبي طالب، وحمل الراية وكان راكباً فرسه الشقراء فنزل عنها وتقدم يقاتل وهو حامل الراية ويقول:

يا حبذا الجنةُ واقترابُها ... طيبةً وبارداً شرابُها
والروم رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةً بعيدةً أنسابُها
عليّ إن لاقيتها ضِرابُها

(٢٧٤٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٢٦.

(٢٧٥٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٢٦-٤٢٧.

وكان جعفر رضي الله عنه يحمل الراية في يمينه فقطعت،فأخذها بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى استشهد، وكان جزاؤه من ربه أن أبدله الله بجناحين عوضاً عن يديه اللتين قطعتا في سبيل الله، فهو يطير بهما في الجنة حيث شاء، وقد ذكرنا أن جراحه بلغت بضعاً وتسعين جرحاً، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وظل يقاتل وهو يحمل الراية حتى استشهد، فاختار المسلمون خالد بن الوليد أميراً عليهم(٢٧٥١).

١٤٦٧- النبيُّ يخبر أصحابه باستشهاد أمراء الجيش الإسلامي:

وقد نعى النبي ﷺ أمراء الجيش قبل أن يأتيه خبر استشهادهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه ﷺ تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»(٢٧٥٢) ومعنى «نعى» أي أخبرهم بقتله. «وعيناه تذرفان» أي تدفعان الدموع، وقوله: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله» وفي حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ قال عن خالد: «اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره» فمن يومئذ سمي سيف الله. «حتى فتح الله عليهم» وقد اختلف أهل النقل في المراد بهذه العبارة: هل كان هناك قتال فيه هزيمة المشركين، أو المراد بالفتح انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين؟ فقد جاء في المغازي لموسى بن عقبة ما نصه: «ثم أخذ - يعني اللواء - عبد الله بن رواحة فقتل. ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين» والظاهر أن خالداً رأى من مصلحة المسلمين الإنسحاب المنظم الذي لا يفطن إليه الروم، فقام رضي الله عنه بتغيير تنظيم جيشه، فجعل الميمنة مكان الميسرة، والميسرة مقام الميمنة، وغيرّ مقام مقدمة الجيش حتى توهم العدو أن مدداً وصل إلى المسلمين فرعبوا وتراجعوا، وتراجع خالد بجيشه بانتظام، وكان يناوشهم وهو ينسحب. حتى روى البخاري في صحيحه عن خالد أنه قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤته تسعة أسياف، فما بقي في

(٢٧٥١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٢٧-٤٢٨.

(٢٧٥٢) صحيح البخاري ج٧ ص٥١٢.

يدي إلا صفيحة يمانية[٢٧٥٣].

١٤٦٨- حزن رسول الله ﷺ على قتل أمراء الجيش:

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما جاء قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم - جلس رسول الله ﷺ يُعَرفُ فيه الحزن. . . أي لما جعل الله فيه من الرحمة. ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء، ويؤخذ منه أن ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يخرجه عن كونه صابراً راضياً بقضاء الله وقدره إذا كان قلبه مطمئناً.

١٤٦٩- لا يجوز التمادي في الحزن:

ولكن إذا كان الحزن عند المصيبة لا يخرج الحزين عن دائرة الصبر، إلا أنه لا يجوز التمادي في الحزن، فقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري في حديث عبد الله بن جعفر: ثم أمهل - أي الرسول ﷺ - آل جعفر ثلاثاً ثم أتاهم، فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم». ومما يخفف الحزن على المصاب الحزين أن يذكر الثواب الذي يُرجَى أن يلقاه الفقيد، فقد ذكر ابن حجر أيضاً وهو يشرح حديث البخاري في حادثة استشهاد أمراء الجيش في معركة مؤتة، قال ابن حجر في رواية للبخاري في هذه الحادثة «وما يسرهم أنهم - أي الذين استشهدوا - عندنا» لما رأوا من فضل الشهادة[٢٧٥٤].

١٤٧٠- النبي ﷺ ولي من لا وليّ له:

ومن أخبار استشهاد أمراء الجيش في معركة مؤتة أن النبي ﷺ ذهب إلى بيت جعفر بن أبي طالب، وقال: «ائتوني ببني أخي» - أي أبناء جعفر - فجيء بهم فدعا الحلاق وحلق رؤوسهم، وقال لأمهم وهي تذكر يتمهم: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[٢٧٥٥] والحقيقة أن رعاية رسول الله ﷺ ليتامى المسلمين عامة فيدخل فيها يتامى الشهداء من باب أولى، فإن كان هؤلاء الشهداء تجمعهم

(٢٧٥٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥١٣.

(٢٧٥٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥١٣.

(٢٧٥٥) المصدر السابق، والسيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٧٠.

قرابة الرحم من رسول الله ﷺ، فدخول يتامى هؤلاء الشهداء في رعاية وكفالة رسول الله ﷺ أكثر أولوية. ويدل على عموم رعاية رسول الله ﷺ ليتامى المسلمين قوله عليه الصلاة والسلام: «فأي مؤمن مات وترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه» قال الشوكاني في شرح هذا الحديث ما نصه: «الضياع: قال الخطابي هو وصف لمن خلفه الميت بلفظ المصدر أي ترك ذوي ضياع، أي لا شيء لهم..»(٢٧٥٦).

١٤٧١- ليسوا بالفرارّ ولكنهم الكرار:

وصل جيش المسلمين إلى المدينة بعد أن هيأ خالد بن الوليد خطة ذكية محكمة في الانسحاب بتبديل تنظيم جيشه كما أشرنا من قبل، بحيث جعل العدو يعتقد بأن مدداً جاء إلى جيش المسلمين، فآثر العدو الرجوع وعدم ملاحقة جيش المسلمين. ولما وصل خالد بن الوليد وجيشه إلى المدينة خرج الناس لاستقباله، وأخذوا يحثون عليه التراب ويقولون: يا فرار فررتم من القتال في سبيل الله. والرسول ﷺ يقول: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى»(٢٧٥٧) والحقيقة أن انسحاب خالد يعتبر انتصاراً للمسلمين وإن بدا في ظاهره هزيمة، لأن الثبات في وجه العدو يكون مطلوباً إذا أدى إلى هزيمة العدو والاستيلاء على أرضه، فإذا خلا من هذه الغاية، وصار وسيلة لفناء الثابتين صار الثبات غير مطلوب، بل ربما صار محظوراً، ويكون النجاح في تخليص الجيش من قبضة العدو أو من أسره لجنوده، وهذا ما حققه خالد بانسحابه الجريء الذكي المنظم، وهذا هو ما لاحظه سيد العارفين محمد ﷺ بقوله: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى». فقد حفظ خالد قوته وجيشه لمعارك أخرى قادمة يكون النصر فيها قريباً من المسلمين إن شاء الله تعالى.

(٢٧٥٦) نيل الأوطار للشوكاني ج٦ ص٥٧.

(٢٧٥٧) كتابنا أصول الدعوة ص٣٥٤.

المبحث الثاني
المستفاد
من غزوة مؤتة

١٤٧٢- إظهار القوة لإرهاب العدو ومن يناصره:

إن إرسال النبي ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل إلى خارج المدينة وبعيداً عنها إلى مشارف الشام حيث يحكم الرومان، وحيث توجد كيانات من القبائل العربية المتنصرة والمتعاونة بل والعملية للرومان وحكامهم في الشام، أقول إن إرسال النبي ﷺ هذا الجيش لم يكن فقط بسبب قتل مبعوثه من قبل أحد الحكام العرب على البلقاء ومن أرض الشام من قبل قيصر الروم، وإنما انضمت إلى هذا السبب أمور أخرى تستدعي إرسال جيش المسلمين إلى تلك النواحي، ومن هذه الأمور إرهاب القبائل العربية الممتدة ما بين حدود الشام والمدينة، والحكام المنصوبين من قبل الرومان، والذين يتربصون بالمسلمين، فكان لا بد من إرهاب هؤلاء جميعاً والتحرك نحوهم، وعدم انتظارهم حتى يأتوا إلى غزو المسلمين في عقر دارهم، ويستفاد من هذا أن لا قرار ولا استقرار للحق وأهله ما دام هناك باطل يتحرك أهله للإجهاز على الحق وأهله.. والحق الوحيد الخالص هو الإسلام، وهذا ما يخيف أهل الباطل، ويحاولون ضرب الحق وإخفات صوته بضرب حملة الحق والداعين إليه. وهذا الذي أقوله ينطبق على الدول الباطلة الكافرة في نظرتها وتخوفها من الدولة المسلمة ولذلك فهي تتربص بها وتسعى للإجهاز عليها، كما ينطبق ما قلته على الجماعات المبطلة في نظرتها إلى الجماعة المسلمة وأعضائها من الدعاة العاملين، كما يشمل ما قلته الأفراد الكفرة في نظرتهم إلى الأفراد المسلمين. وعلى هذا فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يفقه ما قلته، فلا ينتظر أن يهاجمه الأعداء بل عليه أن يريهم قوته وقوة جماعته؛ ليرهبهم ذلك فلا يفكرون في التحرش بالدعاة وبجماعته.

١٤٧٣- تأمير أكثر من أمير:

وعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يختار من يخلفه، ومن يخلف خليفته الأول، وذلك على وجه الحيطة والحذر من حدوث فراغ مفاجيء في قيادة الجماعة لأي سبب كان، مما يزعزع كيان الجماعة ويجعل اختيار أمير جديد في حالة فراغ منصب الأمير المفاجيء أمراً صعباً. ونحبذ أن يكون اختيار من يخلف الأمير الحالي عن طريق مشاورة أهل الحل والعقد، وكذلك ينبغي لأمير الجماعة عند تكليف جماعة من الدعاة بعمل ما أن يؤمّر عليهم أميراً يخلفه ثان وثالث حسب ترتيب الأمير. ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد أمر على الجيش الذي أرسله إلى مؤتة ثلاثة أمراء يتولون أمرة الجيش بالترتيب الذي أمر به رسول الله ﷺ.

١٤٧٤- وصية الأمير لمن يؤمرهم:

وعلى الأمير أن يوصي من يؤمرهم على الجماعة التي يكلفها بالقيام بعمل من أعمال الدعوة بتقوى الله، وإخلاص العمل لله، وبالرفق بمن هم تحت إمرته، وأن يعرفهم بما هو المطلوب منهم، وما يحتاجونه للقيام بما كلفوا به، وما يجب عليهم أو يندب أو يحرم أو يكره أو يباح في قيامهم بما هو مطلوب منهم. وأن يحرص مع جماعته على الوفاق وعدم الاختلاف. وأن يحسن هو وجماعته القيام بدعوة الناس إلى الإسلام، ويجمع بين التبشير والإنذار، وهذا كله يستفاد من سنة النبي ﷺ في وصاياه لمن كان يرسلهم ويؤمرهم على السرايا والبعوث التي كان يرسلها. من ذلك(٢٧٥٨):

أ- روى الإمام مسلم في صحيحه عن سليمان بن بُرَيدة عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال له: «اغزو باسم الله في سبيل الله.. الخ» وقال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: في الحديث فوائد. (ومنها) استحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم

(٢٧٥٨) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص٣٧-٤١، وصحيح البخاري بشرح العسقلاني، ج٨ ص٦٠-٦١، وج١٣ ص١٦٢-١٦٣.

وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم وما يحل لهم وما يحرم عليهم وما يكره وما يستحب.

ب- وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا..» وجاء في شرحه للإمام النووي: جمع في هذا الحديث بين الشيء وضده: التبشير والتنفير، والتيسير والتعسير، لأنه قد يفعلهما في وقتين، فإن اقتصر على «يسروا» لصدق ذلك على من يسرَّ مرة أو مرات، وعسرَّ في معظم الحالات، فإذا قال: «ولا تعسروا» انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب. وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة - أي فقط - من غير ضمها إلى التبشير، وفي الحديث أيضاً تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي، فهؤلاء كلهم يتُلطَف بهم، ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يسّر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التزايد منها. ومتى عسّرتَ عليه أوشَكَ أن لايدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم أو لا يستحليها.

فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يوصي الدعاة ومن يؤمره عليهم الأخذ بالرفق في الدعوة وعدم تنفير الناس منها، وأن يجمع بين التبشير والإنذار، وأن يأخذ المدعوين بالتدريج في حملهم على الطاعة بأن يأمرهم بالواجبات أولاً حتى إذا استقاموا عليها ندبّهم إلى المندوبات، وأن يأمرهم بترك المحرمات، فإذا استقاموا عليها ندبهم إلى ترك المكروهات، وأن يترفق بمن أسلم حديثاً أو بمسلم عاص تاب حديثاً فيأخذ بما قاله الإمام النووي يرحمه الله.

جـ- وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري: أن النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال له: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا

تختلفا» قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث وصية الإمام لولاته وإن كانوا أهل فضل وصلاح كمعاذ وأبي موسى.

د- وروى الإمام البخاري عن أبي بردة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذبن جبل إلى اليمن، قال وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال واليمن مخلافان ثم قال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا». المخلاف: الإقليم وفي رواية أخرى للبخاري وفيها: «وتطاوعا». وجاء في شرحه لابن حجر العسقلاني: «وتطاوعا» أي توافقا في الحكم ولا تختلفا، لأن ذلك يؤدي إلى اختلاف أتباعكما، فيفضي إلى العداوة ثم المحاربة. والمرجع في الاختلاف إلى ما جاء في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. وفي الحديث الأمر بالتيسير في الأمور والرفق بالرعية وتحبيب الإيمان إليهم وترك الشدة، لئلا تنفر قلوبهم ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حدّ التكليف من الأطفال؛ ليتمكن الإيمان من قلبه ويتمرن عليه. وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد عليها بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة وداومت عليها نقلها إلى حالة أخر.

١٤٧٥- لا يجوز التمادي في الحزن وليتذكر المحزون نعم الله عليه:

قد تصاب جماعة الدعاة بنكبة مثل فقد أميرها أو أحد دعاتها أو حبسه أو قتله بغير وجه حق، أو تبتلى بمنعها من نشاطها الدعوي. أو بمصادرة أموالها ونحو ذلك. فهذه أمور تبعث الحزن في القلوب، ولا ذم على حزن الجماعة وأفرادها بسبب هذه النكبات والمصائب التي تصيبها، ولكن تُذَم وتعاب إذا تمادت في حزنها. وجعلت من أيامها مآتم ومن نشاطها الدعوي المقدور عليه مناحة وعويلاً... وعلى الجماعة ودعاتها وسائر أعضائها أن يلحظوا في مصيبتهم نعم الله عليهم في هذه المصائب، يلحظوا منزلة الشهادة التي نالها فقيدهم بقتله من قبل أعداء الدعوة، وبأن المصيبة لم تكن في دينهم ولم تزعزع إيمانهم، وبأن المصيبة مدخل لامتحان الله لهم؛ ليفوزوا بالثواب إن نجحوا في الامتحان، فليجدوا لينجحوا فيه لا أن يبكوا وينوحوا، وأن يتذكروا بأنهم ليسوا أحسن حالاً من رسول الله إيماناً وقرباً من الله

تعالى، ولا أحسن حالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من المؤمنين أتباع رسل الله الماضين، فكلهم أوذوا لإيمانهم، فهذه هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، وليرددوا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ مستحضرين معناها في قلوبهم، وليتذكروا قول رسول الله ﷺ حين بلغه استشهاد من أمرهم على الجيش: «إنهم ما يسرهم أن يكونوا عندنا» لما نالوه من عظيم ثواب الله.

١٤٧٦- أمير الجماعة كربّ العائلة لأفراد جماعته:

ويجب أن يكون أمير الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - لأفراد جماعته كرب العائلة لأفراد عائلته، فهو ينظر إليهم كأبنائه أو إخوانه، يشفق عليهم ويرعاهم ويهتم بأمرهم ويحرص على ما ينفعهم، ويجنبهم الضيق والعنت ولا يتعسف في استعمال سلطته الشرعية عليهم، ويحزنه إن نالهم مكروه، ويدفع عنهم الشر والضرر. وإذا فُقِدَ أحدهم بموت أو قتل أو استشهاد، أو أصابه مكروه دون القتل كالحبس أو النفي أو الفصل من عمله، أو تضييق الرزق عليه في أي عمل يعمله، كان أمير الجماعة نعم المواسي والمعين له دون منة أو تضجر. وإذا ترك الداعي وراءه صبية صغاراً يتامى لا مال لهم ولا معيل ولا كافل كان هو المعيل والكافل. وليتذكر أمير الجماعة قول النبي ﷺ لامرأة جعفر بن أبي طالب وقد زارها بعد استشهاد جعفر وهي تذكر يتم أولادها: «العيلة تخافين عليهم؟ وأنا وليهم في الدنيا والآخرة» كما ذكرنا من قبل. وقد يكون من المرغوب فيه وضع نظام للتكافل والتضامن بين أفراد الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وتهيئة ما يلزم لتحقيقه من أموال وغيرها.

١٤٧٧- مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث:

إن مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث مثل سحق قوات العدو واحتلال دياره، وإنما قد يكون من خلال ظواهر أحداث لا تسرّ عموم المسلمين، وإن كانت هذه الحوادث في جوهرها تحقق نصراً حقيقياً للمسلمين، وإن كان في الآجل وليس في العاجل. ويكفي للتدليل على ما أقول أن أذكر صلح الحديبية، فإن ظاهره ما كان يوحي بأنه نصر للمسلمين، ولكن في حقيقته نصر مبين للمسلمين، وإن كان في الآجل وعلى غير النمط والأسلوب والكيفية التي رغب فيها المسلمون، ولذلك سمى الله تعالى ذلك الصلح «بالفتح» كما جاء في سورة الفتح.

وكذلك انسحاب خالد بن الوليد، وتخليصه جيش المسلمين من الهلاك، وابقاؤهم لمعارك قادمة، كان ذلك نصراً حقيقياً للمسلمين، وقد أبصر ذلك رسول الله ﷺ وعبرَّ عنه بكلمته الخالدة: «إنهم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» فعلى الجماعة المسلمة وأميرها والدعاة فيها أن يفقهوا ذلك ولا يحسبوا النصر، نصرهم، يكون بالضرورة على النمط الذي يشتهون: كثرة الأتباع أو شدة الإقبال عليهم، فإن غيث السماء رحمة للعباد، ولكن لا يشترط أن يبقى على سطح الأرض تراه أعين الناس، فهو رحمة وإن اختفى في باطن الأرض، وإن نصرهم وفوزهم بقدر بذل طاقتهم في عملهم المبرور وبقدر إخلاصهم فيه بأن يفعلوه خالصاً لوجه الله.. ورب تأخير في الوصول إلى المطلوب خير من التعجل والعجلة في الوصول إليه تتبعه نكسة وتراجع..



الفصل السابع عشر
قصة غزوة فتح مكة

المبحث الأول
خلاصة وقائعها

١٤٧٨- أسبابها:

كان سبب هذه الغزوة أن قريشاً نقضوا العهد الذي وقع بينهم وبين النبي ﷺ، وبيان ذلك أنه كان من شروط صلح الحديبية: من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل، فدخلت بنو بكر في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، فتشاغلو عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت معاهدة الحديبية خرج نوفل بن معاوية من بني بكر مع جماعة وبيّتَ خزاعة على ماء لهم يقال له الوتير، فأصاب منهم رجلاً، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال، وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلاً خفية، فلما انقضت الحرب خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ، فأنشده شعراً يستنصره على قريش؛ لنقضها العهد بإعانتها بني بكر على خزاعة، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم» فكان ذلك ما هاج فتح مكة[٢٧٥٩]. وشعرت قريش بخطئها في إعانة بني بكر وما قد يؤدي إليه عونها لبني بكر من نقض الصلح مع رسول الله ﷺ، فأرسلت أبا سفيان لتجديد الصلح ولكن فشل في مسعاه. إذ لم يحصل من النبي على شيء فرجع وأخبر قريشاً بذلك[٢٧٦٠].

(٢٥٧٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢٠.

(٢٧٦٠) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٦-٧.

١٤٧٩- استعداد النبيِّ ﷺ لغزو قريش وإخفاء قصده:

وأخذ ﷺ بالاستعداد لغزو قريش في عقر دارها في مكة، ولذلك حرص ﷺ على إخفاء قصده؛ لئلا يبلغ قريشاً ما عزم عليه ويستعد له، حتى يبغتهم فيسهل التغلب عليهم، وبذلك تحقن دماء كثيرة لا تراق في البلد الحرام. ومن مظاهر إخفاء قصده من استعادته:

(أ) أنه ﷺ قال لعائشة: «جهزيني - أي للخروج للغزو - ولا تعلمي بذلك أحداً»[٢٧٦١].

(ب) وأنه ﷺ استنفر المسلمين وأمرهم بالتهيؤ للخروج ولكن لم يعلمهم بقصده ووجهته[٢٧٦٢].

(جـ) وأنه ﷺ بعث سرية من ثمانية أشخاص إلى بطن أضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على مسافة بعيدة من المدينة في أول رمضان سنة ٨ للهجرة؛ ليظن الظان أنه ﷺ يريد التوجه إلى تلك الناحية، وأن السرية طليعة للجيش الذي يعده حتى إذا وصلت هذه الأخبار إلى قريش لم تظن أنها هي المقصودة[٢٧٦٣].

١٤٨٠- خروج النبي ﷺ إلى مكة:

ولما كمل استعداد النبي ﷺ للخروج، وتجمعت الجموع التي استنفرها النبي ﷺ، وتهيأت للخروج والمسير، أخبرهم ﷺ بوجهته وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، وكان خروجه ﷺ لعشر خلون من شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة للهجرة بجيش بلغ عشرة آلاف مقاتل من الصحابة الكرام وكان فتح مكة في شهر رمضان باتفاق، ولكنهم اختلفوا في أي يوم من رمضان، وقد وقع اختلافهم ما بين ١٣-١٨ من رمضان[٢٧٦٤].

(٢٧٦١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢٠.

(٢٧٦٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ص٤٣٧.

(٢٧٦٣) الرحيق المختوم ص٣٦٥.

(٢٧٦٤) شرح العسقلاني للبخاري ج٨ ص٤ والسيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٣٧، والسيرة النبوية للعمري ج٢ ص٤٧٥.

١٤٨١- قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة:

وقبل أن يخرج النبي ﷺ من المدينة، أعلمه الوحي بما صنع حاطب بن بلتعة من إرساله كتاباً إلى قريش يعلمهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على الخروج وغزوهم في عقر دارهم، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد قال: «انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ» - مكاناً خارج المدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فذهبنا حتى أتينا الروضة فإذا بنا بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتُخرِجنَّ الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنت امرأً من قريش ولم أكن من أنفُسِهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذا فاتني من النسب فيهم أن اصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي ﷺ: «إنه قد صدقكم». فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه. فقال: «إنه شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله عز وجل اطلّع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم..»[٢٧٦٥]. وقد استدل باستئذان عمر على قتل حاطب لمشروعية قتل الجاسوس ولو كان مسلماً، وهو قول مالك ومن وافقه، ووجه الدلالة أنه ﷺ أقرَّ عمر على إرادة القتل لولا المانع، وبيّنَ المانع هو كون حاطب شهد بدراً وهذا منتف في غير حاطب، فلو كان الإسلام مانعاً من قتله لما عللّ بأخص منه[٢٧٦٦].

وذكر بعض أهل المغازي أن لفظ كتاب حاطب إلى قريش «أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام»[٢٧٦٧].

(٢٧٦٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص٦٣٣-٦٣٤.

(٢٧٦٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٦٣٥.

(٢٧٦٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢١.

١٤٨٢- إسلام العباس عم النبي ﷺ:

ولما وصل رسول الله ﷺ وجيشه إلى الجحفة وقيل إلى رابغ لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج من مكة هو وأهله مسلماً مهاجراً إلى المدينة فأسلم. وقد سُرّ الرسول ﷺ بإسلامه غاية السرور، فقد كان ناصراً له ومؤيداً وفي هَمٍّ شاغل به وبدعوته مع بقائه على دين قريش[٢٧٦٨].

١٤٨٣- وصول النبي ﷺ إلى مرّ الظهران:

وصل النبي ﷺ وجيشه إلى (مر الظهران) وهي قرية بالقرب من مكة بوادي الظهران يقال لها اليوم وادي فاطمة. وقد عميت الأخبار عن قريش لا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل بهم، فخرج أبو سفيان بن حرب يستطلع الأمر لقريش.

١٤٨٤- إسلام أبي سفيان:

قلنا إن أبا سفيان خرج يستطلع الأخبار عن النبي ﷺ وما هو عازم عليه بعد أن فعلت قريش ما فعلته في نصرتها لبني بكر حليفها ضد خزاعة حليفة رسول الله ﷺ. كما أن العباس خرج راكباً بغلة رسول الله ﷺ البيضاء؛ لعله يجد من يبلغ قريشاً بضرورة خروجهم، وطلب الأمان من رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة عنوة. وحصل أن تلاقيا: العباس وأبو سفيان، وبعد محاورة بينهما أركب العباس أبا سفيان خلفه عجز البغلة، وأتى به إلى رسول الله ﷺ، وقد لحق بهما عمر بن الخطاب فقال للنبي ﷺ: دعني يا رسول الله أضرب عنقه. فقال العباس: أنا أجرته. ثم قال النبي ﷺ: «اذهب يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به». فلما جاء الصباح جاء به العباس إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»[٢٧٦٩].

(٢٧٦٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٣٩.

(٢٧٦٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٠-٤٤٢.

١٤٨٥- اطلاع أبي سفيان على قوة المسلمين:

وقد أمر النبي ﷺ العباس أن يوقف أبا سفيان في مكان عينه له ليرى كتائب الجيش وهي تمر من هذا المكان، فيرى بنفسه قوة المسلمين، فيكون نذيراً لقريش ويأمرهم بالتسليم والجنوح إلى السلام إبقاءً على أرواحهم، وفي حديث أخرجه البخاري عن هشام عن أبيه، وفيه: أن النبي ﷺ قال للعباس، بعد أن أسلم أبو سفيان: «احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين» فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ: تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان. . حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذِّمار. ثم جاءت كتيبة فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام، فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: - أي أبو سفيان مخاطباً النبي ﷺ - ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: «ما قال؟» قال أبو سفيان: قال كذا وكذا. فقال ﷺ: «كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة. .» وجاء في شرحه: وفي رواية أن العباس هو الذي عرض على رسول الله ﷺ أن يوقف أبا سفيان في مكان يرى فيه كتائب الجيش وهي تمر أمامه ليرى قوة المسلمين، ففعل ﷺ وأمر بايقافه عند خطم الجبل أي عند أنف الجبل، وإنما أوقفه هناك لكونه مضيقاً؛ ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم. وفي رواية موسى بن عقبة: «وأمر النبي ﷺ منادياً ينادي: لتظهر كل قبيلة معها من الأداة والعدة». وقول سعد لأبي سفيان: «اليوم يوم الملحمة» أي يوم حرب لا مخلص منه، أي يوم قتل. ومراد سعد يوم المقتلة العظمى. وقول أبي سفيان: «يا عباس: حبذا يوم الذمار» أي يوم الهلاك. وقيل المراد: هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدرعليه، وقيل المراد: هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي من أن ينالني مكروه، وقد روى الأموي في المغازي: أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه: أمرت بقتل قومك؟ فقال ﷺ: «لا». فذكر له ما قاله سعد بن عبادة ثم ناشده الله والرحم، فقال ﷺ: «يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً» ويبدو لي أن المراد بقوله عليه السلام:

«اليوم يعز الله قريشاً» هو أن تسلم فتنال عزة الإسلام، وهذا ما وقع - ثم أرسل ﷺ إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس. قوله: «فقال - أي رسول الله ﷺ - كذّب سعد» فيه إطلاق الكذب على الإخبار بغير ما سيقع، ولو كان قائله بناه على غلبة ظنه وقوة القرينة. وقوله: «يوم يعظم الله فيه الكعبة» يشير إلى ما وقع من إظهار الإسلام وأذان بلال على ظهرها، وغير ذلك مما أزيل عنها مما كان فيها من الأصنام ومحو ما فيها من الصور وغير ذلك. قوله: «ويوم تكسى فيه الكعبة» قيل إن قريشاً كانوا يكسون الكعبة في رمضان فصادف ذلك اليوم، أو المراد باليوم الزمان كما قال يوم الفتح، فأشار النبي ﷺ إلى أنه هو الذي يكسوها في ذلك العام(٢٧٧٠).

١٤٨٦- رجوع أبي سفيان إلى مكة:

أسرع أبو سفيان في رجوعه حتى دخل مكة، وأخذ يصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد إلا من غلبت عليه الحمية وصمم على القتال(٢٧٧١).

١٤٨٧- الرسول ﷺ وجيشه بذي طوى:

ومضى رسول الله ﷺ حتى وصل إلى ذي طوى، وهناك فرّق جيشه فرقاً، وأوصاهم عند دخولهم مكة أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأمر خالداً وفرقته أن يدخل مكة من أسفلها من كُدي، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل بفرقته من شمالها، وأن يدخل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري من جانبها الغربي(٢٧٧٢).

١٤٨٨- الدخول إلى مكة:

ودخلت كتائب الجيش الإسلامي مكة من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، ودخل هو ﷺ من أعلاها من كَداء، وبين يديه أبو عبيدة بن الجراح في فرقة من الجيش، دخل مكة ﷺ وهو راكب ناقته منكساً رأسه حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله تواضعاً

(٢٧٧٠) صحيح البخاري وشرحه لابن حجر العسقلاني ج٨ ص٥-١٠.

(٢٧٧١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٣، الرحيق المختوم ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢٧٧٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٣.

لله وشكراً ومعظماً له ومكبراً، وقد أردف وراءه أسامة بن زيد. فلما بلغ الحجون[٢٧٧٣]. أمر ﷺ أن تركز رايته هناك وأن تضرب له قبة، فضربت فاستراح بها هو وزوجتاه: ميمونة وأم سلمة.

ودخلت فرق الجيش الإسلامي مكة ولم تلق منها مقاومة تذكر إلا فرقة خالد بن الوليد، فقد كان يقيم في أسفل مكة أشد قريش عداوة للرسول ﷺ، ومن اشتركوا مع بني بكر في اعتدائهم على خزاعة، ونقضهم باعتدائهم هذا صلح الحديبية، فهؤلاء لم يقنعوا بالأمان الذي منحهم إياه رسول الله ﷺ فأبوا إلا القتال، ومن هؤلاء صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلما دخل خالد بجنده أمطروه بنبالهم، ولكن لم يلبث أن فرقهم، ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا الطريق، فقتلهما المشركون. وقتل من هؤلاء الذين تعرضوا لخالد بن الوليد ثلاثة عشر رجلاً وفي رواية أربعة وعشرين رجلاً، ولم يلبث صفوان وعكرمة وسهيل أن ولوا الأدبار منهزمين. ولما قيل لرسول الله ﷺ: هذا خالد بن الوليد يقتل، قال: «قم يا فلان فأت خالداً فقل له يرفع يديه من القتل»[٢٧٧٤].

١٤٨٩- تطهير المسجد الحرام والكعبة المشرفة من الأصنام[٢٧٧٥]:

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد، وأقبل إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود، ثم طاف بالبيت سبعاً وفي يده قوس، وحول الكعبة وعليها ثلاث مئة وستون صنماً فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢٧٧٦]. ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا

(٢٧٧٣) الحجون: مكان بأعلى مكة بالقرب من مقبرتها. و(كَداء) جبل بأعلى مكة و(كُدي) جبل بأسفل مكة.

(٢٧٧٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٠-١١، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٤، الرحيق المختوم ص٣٧٠-٣٧١.

(٢٧٧٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٥-١٧، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٦، الرحيق المختوم ص٣٧١.

(٢٧٧٦) سورة الاسراء، الآية ٨١.

يُعِيدُ﴾[٢٧٧٧]. ثم دعا النبي ﷺ عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها وكبرَّ في جوانبها وصلى فيها ركعتين، وأمر ﷺ بالصور التي على جدرانها فأزيلت وبالأصنام فأخرجت، ثم أمر ﷺ بلالاً فأذن فوقها.

١٤٩٠- خطبة النبي ﷺ:

وقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة وقد تكاثر الناس في المسجد، وكان مما قاله ﷺ في خطبته: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية أو دم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحج، فإنهما أمضيتهما لأهلها على ما كانت. ألا وإن قتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نحوة الجاهلية وتَعظُّمها بالآباء، الناس لآدم، وآدم من تراب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾» ثم قال ﷺ: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٢٧٧٨].

١٤٩١- تسليم مفتاح الكعبة إلى أهله:

روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن صفية بنت شيبة: أن النبي ﷺ دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتح له فدخلها، ثم وقف على باب الكعبة فخطب.

وروى ابن عائذ من مرسل عبد الرحمن بن سابط: أن النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، فقال: «خذها خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم ولا ينزعها منكم إلا ظالم» وفي رواية عن طريق ابن جريج: أن علي بن أبي طالب قال للنبي ﷺ: اجمع لنا الحجابة والسقاية، فنزلت: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فدعا ﷺ عثمان بن طلحة، فقال: «خذوها يا بني شيبة خالدة

(٢٧٧٧) سورة سبأ الآية ٤٩.

(٢٧٧٨) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٨، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٧ - ٤٤٨، وآية ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم﴾ في سورة الحجرات ورقمها ١٣.

تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» ودفع إليه مفتاح الكعبة(٢٧٧٩).

١٤٩٢- إسلام قريش:

لقد كان من أثر عفو النبي الشامل لأهل مكة أن دخل أهل مكة رجالاً ونساءً وأحراراً وموالي في الإسلام طواعية واختياراً، وتبعهم معظم العرب في الدخول في الإسلام، وقد أشارت سورة النصر إلى فتح مكة ودخول قريش وغيرهم في دين الله، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾(٢٧٨٠).

١٤٩٣- البيعة لرسول الله ﷺ:

ثم تبع إسلام أهل مكة أن بايعوا رسول الله الرجال منهم والنساء، وبدأ ﷺ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. ولما فرغ ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء على ما جاء في سورة الممتحنة، وهو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٢٧٨١). وجاء في تفسيرها: أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه(٢٧٨٢). وقد بايعهن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلَّها الله له، أو ذات محرم منه. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا والله، ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط. وفي رواية: ما كان يبايعهن إلا كلاماً، ويقول:

(٢٧٧٩) شرح العسقلاني ج٨ ص١٨-١٩.

(٢٧٨٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٥٦ وسورة النصر نزلت في حجة الوداع، ولكن لفظ الفتح فيها يشير إلى فتح مكة وما تبعه من الدخول في الإسلام.

(٢٧٨١) سورة الممتحنة، الآية ١٢.

(٢٧٨٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٨.

«إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة»[٢٧٨٣].

١٤٩٤- المحيا محياكم والممات مماتكم:

لما رأى الأنصار سرور رسول الله ﷺ بفتح مكة تخوفوا أن يقيم فيها ويتركهم والمدينة وأخذوا يتساءلون فيما بينهم حول هذه المسألة، فأعلمه الله تعالى بما تحاوروا فيه وتخوفوا منه، فأخبرهم بما قالوه فيما بينهم، فأقروا وطمأنهم قائلاً: «كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله، فقال رسول الله: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم»[٢٧٨٤].

١٤٩٥- تكسير الأصنام خارج مكة وداخلها:

فقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم العُزَّى، وكانت بنخلة تعظمها قريش وكنانة ومضر، فذهب وهدمها، كما أرسل ﷺ عمرو بن العاص لهدم سُواع وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة. وبعث ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة وهي على جبل على ساحل البحر يهبط إلى قُدَيد فتوجهوا إليها وهدموها[٢٧٨٥]. ثم إن النبي ﷺ أمر من نادى بمكة على لسانه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره»[٢٧٨٦].

(٢٧٨٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٥٨.

(٢٧٨٤) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٦٢.

(٢٧٨٥) المصدر السابق ج٢ ص٤٦٤-٤٦٦.

(٢٧٨٦) الرحيق المختوم ص٣٧٦.

المبحث الثاني
المستفاد
من غزوة فتح مكة

١٤٩٦- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان:

رأينا كيف أن النبي ﷺ لما بلغه غدر قريش بمعاونتها بني بكر على خزاعة حليفة رسول الله ﷺ مما اعتبر نقضاً للصلح، إنه عليه الصلاة والسلام عزم على غزو قريش في عقر دارها، ولكن لم يفصح عن قصده هذا، ولم يبلغ عموم الصحابة بنيته، وأخذ يقوم بالاستعداد لهذا الغزو، واستنفر المسلمين للتهيؤ للخروج للغزو دون أن يعلمهم جهته، فعلى جماعة الدعاة، أن تتأسى برسول الله ﷺ في الأخذ بأسلوب الكتمان فيما هي عازمة على فعله من الأمور الخطيرة التي يجب اخفاؤها حتى لا يعلمها أعداء الدعوة. وعلى الجماعة أن تكتم ذلك حتى على أعضائها من الدعاة وغيرهم، إذ لا حاجة لإخبارهم بذلك، إذ من الجائز أن يتكلموا فيما استُودِعوا من سرّ أو من معلومات حول ما تريد الجماعة فعله. نعم يجوز لأمير الجماعة إعلام بعض الدعاة فيها الذين يخصهم الأمير بثقته الكبيرة، ويستشيرهم في الأمور التي تحتاج إلى سرية ولا تحتاج إلى مشورة عامة لمنتسبي الجماعة. وقد نستأنس لهذا الذي أقوله بما ذكره ابن حجر العسقلاني وهو يتكلم عن استعداد الرسول ﷺ لغزو قريش، فقال رحمه الله: «وفي مرسل أبي سلمة المذكور عند ابن أبي شيبة: ثم قال النبي ﷺ لعائشة: «جهزيني ولا تعلمي بذلك أحداً». فدخل عليها أبو بكر فأنكر بعض شأنها فقال: ما هذا؟ فقالت له، فقال: والله ما انقضت الهدنة بيننا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فذكر له أنهم أول من غدر»[٢٧٨٧].

(٢٧٨٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢٠.

١٤٩٧- لا سابقة يقتدى بها في عمل حاطب:

لا يجوز الاقتداء بعمل حاطب في العفو عمن يعمل عمله، لأن العفو عنه كان لعلة لم يعد يمكن تحققها في غيره بعد عصر الصحابة وهو كونه شهد بدراً. فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم. مما يدل على أن إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه. فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطب أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقه.

١٤٩٨- يُتسَامح مع فاعل الخير الكثير ما لا يتسامح مع غيره:

ذكرنا قصة حاطب وما فعله من إرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه بما عزم عليه رسول الله من المسير إليهم بجيش ضخم لغزوهم. وقد عفا عنه ﷺ معللاً ذلك بقوله: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، قال ذلك لعمر لما أراد قتله. فدلّ ذلك على أن اشتراكه في القتال في معركة بدر أعطاه رصيداً ضخماً من فعل الخير وقاه من إنزال العقاب به، وجعله أهلاً للعفو عنه. مما يستدل به على أن فاعل الخير الكثير يُتسَامح معه ما لا يتسامح مع غيره. وعلى هذا فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تسامح من يصدر منه شيء من التقصير إذا كانت له سوابق معلومة ومشكورة في مجال الدعوة، وأن لا يفقده هذا التقصير مكانته في الدعوة. ولكن لا يبلغ هذا التسامحُ التسامحَ الذي ناله حاطب عن عمله إذا عمل عمله أحد من منتسبي الجماعة، وإن كان له عمل مشكور سابق في مجال الدعوة، كما ذكرنا هذا في الفقرة السابقة.

١٤٩٩- المعاينة تعطي من اليقين ما لا يعطيه مجرد الإخبار:

ذكرنا في إسلام أبي سفيان أن النبي ﷺ أمر العباس أن يوقف أبا سفيان في المكان الذي تمر منه كتائب جيش المسلمين، ليبصر بعينه قوة المسلمين ويخبر قريشاً بذلك عن يقين حصَّله من الرؤية البصرية لجيش المسلمين التي تعطي من اليقين أكثر مما يعطيه مجرد الإخبار بقوة جيش المسلمين. فعلى الجماعة المسلمة إذا أرادت أن تقوي مؤيديها أو المترددين في تأييدها أو المترددين في الكيد لها أن

تُرِي هؤلاء قوتها في كثرة عدد منتسبيها، وانتظامهم واستجابتهم لدعوتها مما يقوى المؤيد الضعيف، أو ينقل المتردد في تأييدها أو في عضويتها فتنقله هذه الرؤية إلى منزلة المؤيد أو مرتبة العضوية، وتمنع المتردد في الكيد لها من المضي في كيده خوفاً منها.

١٥٠٠- الاستعانة بالمباح لتقوية ضعيف الإيمان:

ذكرنا أن العباس قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. فقال النبي ﷺ: «نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..» الخ والدخول في دار أبي سفيان مباح يتحقق به نفس المقصود إذا دخل الإنسان بيته وأغلق عليه بابه، وهو عدم مقاومة النبي ﷺ، ولكن في تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه، وعلى هذا يجوز لأمير الجماعة المسلمة أن يتوسل بالمباحِ لتقوية الدعاة في إيمانهم بالدعوة، وفي نشاطهم في مجال عملهم الدعوي، كلاً منهم يقويه بما يناسب رغباته المشروعة وتطلعاته المباحة من المباحات التي يقدمها له، فيكلف هذا بالعمل الفلاني، أو يجعل آخرَ مرجعاً في كذا من أمور الدعوة، أو يجعل آخر أميراً على المجموعة الفلانية، أو يجعل فلاناً مسؤولاً عن المنطقة الفلانية التي يعيش فيها وهكذا.

١٥٠١- الاحتياط لمنع وقوع المحظور:

ذكرنا أن النبي ﷺ لما بلغه ما قاله سعد بن عبادة، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. وفي رواية اليوم تستحل الحرمة، سارع ﷺ وأخذ الراية منه، راية كتيبة الأنصار، وأعطاها لابنه قيس خوفاً من إِبقائها في يده فيأمر بتنفيذ ما قاله، فكان الاحتياط نزع الراية منه وتسليمها إلى ابنه، وفي هذا النزع والتسليم يحصل الاحتياط المشروع دون إغضاب سعد أو بقاء شيء في نفسه من ذلك، لأن الراية سلمت لابنه. والأب يسره أن ينال ابنه من الفخار ما يريده لنفسه. فكان في أخذ الراية من سعد نوع من الزجر والتأديب لما قال، وفي تسليمها لابنه نوع من السياسة الحكيمة التي تحقق المقصود، وتحقق الحذر والاحتياط المشروع دون إغضاب له.

١٥٠٢- إزالة المنكر فوراً عند القدرة:

ذكرنا أن النبي ﷺ حطم الأصنام التي كانت حول الكعبة وعليها بالإشارة إليها بعود كان بيده يردد قول الله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ثم دخل الكعبة وأزال ما فيها من أصنام ومحا ما على جدرانها من صور، ولم يتأخر في هذه الإزالة. وحيث كان من المحتمل جداً وجود أصنام في بيوت المشركين فقد أمر ﷺ أن ينادي مناديه في مكة أن يكسروا ما في بيوتهم من أصنام.

فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن لا تتأخر أبداً عن إزالة المنكر عند القدرة عليه، إزالة باليد، وما لا تستطيع إزالته باليد أو لا تصل إليه مع احتمال وجوده فعليها أن تنبه إليه، وتطلب إزالته ممن هو متلبس به أو موجود عنده. ولا يقف وجوب إزالة المنكر عند القدرة حالاً على المنكر الموجود المرئي القريب، بل يشمل البعيد ما دام في الإمكان الوصول إليه وإزالته في مكانه، ولذلك رأينا أن النبي ﷺ قد أرسل خالد بن الوليد وغيره لإزالة الأصنام الموجودة خارج مكة وبعضها بعيد عنها. وعلى هذا فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تبعث بعض الدعاة إلى الأماكن التي هي خارج مقرها؛ لإزالة المنكرات التي توجد في تلك الأماكن ما دامت الجماعة قادرة على هذه الإزالة. ولا يجوز لها التباطؤ في ذلك ما دامت قادرة عليه، ولأن في التأخير عن إزالة المنكرات آفات، ومن هذه الآفات زوال القدرة. وعلى سبيل المثال لما أقول، قد تكون قدرة الجماعة المسلمة على تغيير المنكر وجود حاكم أي موظف إداري هو المسؤول عن تلك المنطقة كالمحافظ في محافظته، وهو رجل مسلم لا يتوانى عن إزالة المنكر بموجب مسؤوليته وسلطته. فمن المطلوب من الجماعة المسلمة أن تسارع وترسل بعض دعاتها لإزالة المنكر هناك بالاستعانة بهذا الموظف المسلم، ولا تتأخر في ذلك، فقد يُنقَل هذا المحافظ ويؤتى بغيره الذي هو ليس مثله في الغيرة على الإسلام، والحرص على إزالة المنكرات، فتعجز الجماعة المسلمة من تغيير المنكر هناك.

والخلاصة فعلى الجماعة المسلمة أن تعلم أن إزالة المنكر باليد تتوقف على القدرة، فإذا وجدت القدرة وجبت الإزالة حالاً وعدم التأخير.

١٥٠٣- العفو عند المقدرة:

ذكرنا عفو رسول الله ﷺ عن أهل مكة، وقال لهم في عفوه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». وكان في ذلك العفو أثره السريع حيث أسلم أهل مكة، وبايعوا رسول الله ﷺ كما ذكرنا. فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك ويكون شعارها قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾. وهذا لا يمنع الجماعة من أن تستثني من عفوها من ترى من لا يستحق هذا العفو بأي وجه من الوجوه؛ لإيغاله في عداوته للدعوة، وكما أهدر ﷺ دم بعض المشركين؛ لعظم جرائمهم في حق الله ورسوله وحق الإسلام، ولما كان يخشاه ﷺ منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح. ومن هؤلاء الذين أهدر دمهم رسول الله ﷺ من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول ﷺ، وبعضهم من قتل ولم يتجاوز عدد هؤلاء الذين قتلوا فعلاً أربعة أشخاص(٢٧٨٨).

١٥٠٤- المبايعة لأمير جماعة الدعاة:

ذكرنا مبايعة من أسلم في مكة من الرجال على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ فيما استطاعوا. وبايع النساء اللاتي أسلمن على ما جاء في سورة الممتحنة أي على عدم الشرك بالله وعدم السرقة وعدم الزنا.. الخ. وحقيقة المبايعة توكيد ما أوجبه الشرع على المسلم، وقد تكون ابتداءً للمسلم، كما في مبايعة من أسلم من أهل مكة. وقد تكون المبايعة على عمل شيء جديد مشروع، كما في مبايعة أهل بيعة الرضوان في الحديبية حيث بايعوا رسول الله ﷺ على الثبات في قتال قريش إذا تبين أنهم قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أرسله إليهم ليخبرهم في الغرض الذي من أجله جاء رسول الله ﷺ والمسلمون. وعلى هذا يجوز لأمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يبايعه من يريد الانضمام إلى جماعته، لأنها تقوم بالدعوة إلى الله وبما يوجبه الله على المسلمين من الجهاد في سبيله، وهذه أمور مشروعة واجبة شرعاً، فالمبايعة عليها يزيدها وجوباً. كما أن هذه المبايعة تعني القيام بها بصورة جماعية، أي من خلال الجماعة، والعمل الجماعي تعاون

(٢٧٨٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٥١-٤٥٣.

على البر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فالمبايعة على هذا يؤكد وجوب هذا التعاون. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله: إن ما وجب بالشرع إذا نذره العبد أو عاهد الله عليه، أو بايع عليه الرسول ﷺ، أو الإمام، أو تحالف عليه جماعة، فإن هذه العهود والمواثيق تقتضي له - أي ما أوجبه الشرع - وجوباً ثانياً غير الوجوب الثابت له بمجرد الأمر الأول، فتكون - أي الأمور الواجبة بالشرع - واجبة من وجهين، بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهود والمواثيق، وما يستحقه العاصي لله ولرسوله[٢٧٨٩]. وكما تجوز البيعة للرجال تجوز البيعة للنساء، ولهذا بايعن رسول الله ﷺ. فيجوز للداعيات أن يبايعن أمير جماعة الدعاة على الانضمام إلى هذه الجماعة، والعمل من خلالها في مجال الدعوة إلى الله وفقاً للضوابط الشرعية.

(٢٧٨٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٣٥ ص٣٤٥-٣٤٦.

الفصل الثامن عشر

قصة غزوة حنين

المبحث الأول

ملخص الغزوة[2790]

١٥٠٥- سبب غزوة حنين وتاريخ وقوعها:

كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرع ﷺ من فتح مكة، واستقرت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، بلغه أن هوازن[2791] جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النصري ومعه ثقيف بكمالها قد أقبلوا ونزلوا حنيناً، ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بجيشه الذي جاء معه لفتح مكة، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من قبائل العرب، ومعه ﷺ الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء، وعددهم بلغ الألفين، فصار مجموع جيش النبي ﷺ اثني عشر ألفاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له حنين، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات. وكان خروجه ﷺ وجيشه من مكة لست ليالٍ خلت من شوال سنة ثمان من الهجرة.

١٥٠٦- الجولة الأولى من المعركة:

كان مالك بن عوف قد سبق جيش المسلمين في نزوله بوادي حنين، وهناك تهيأ لقتال المسلمين، فوضع الرماة من جيشه على مداخل الوادي وجوانبه، وأقبل النبي ﷺ مع جيشه ونزلوا في الوادي في عماية الصبح، فثارت في وجوههم خيل العدو،

(٢٧٩٠) صحيح البخاري وشرحه للعسقلاني ج٨ ص ٢٦-٣٥، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١١٣-١٢١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٣-٣٤٤، تفسير الألوسي ج١٠ ص٧٤.

(٢٧٩١) هوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إليها.

وبدأ الرماة من العدو يرشقونهم بالنبل، وكانوا ماهرين في الرماية حتى لا يكادون يخطئون، وكان في جيش المسلمين شبان لم يكن معهم سلاح خرجوا متحمسين للقتال، فلما رشقوا بالنبل بكثافة من كل مكان انكفؤوا راجعين مما أحدث خللاً في جيش المسلمين، فقد روى الإمام مسلم عن البراء بشأن غزوة حنين وقد سأله رجل: أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبان أصحابه وأَخفَّاؤهم حسَّراً ليس عليهم سلاح، أو كثير سلاح، فلقُوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر، فرشقوهم رشقاً ما يكادوا يخطئون.. وجاء في شرحه للنووي: «شبان» جمع شاب و«اخفاؤهم» جمع خفيف وهم المسارعون المستعجلون. وفي تفسير ابن كثير بشأن ما حصل: انحدر النبي ﷺ وجيشه في وادي حنين، وقد كمنتْ فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ورشقوهم بالنبال، وأصلتوا سيوفهم، وحملوا حملة رجل واحد على المسلمين، كما أمرهم أميرهم مالك بن عوف، فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين.

١٥٠٧- أسباب فرار المسلمين في الجولة الأولى:

ويبدو أن أسباب تراجع المسلمين وفرارهم من العدو في الجولة الأولى يرجع إلى جملة أسباب.

(منها) أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد جاء في شرح العسقلاني لصحيح البخاري: أن يونس بن بكير روى عن الربيع بن أنس قال: قال رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

(ومنها) خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع كما روى الإمام مسلم، وقد تقدموا الجيش فاستقبلهم جمع من هوازن، ومن الكمائن التي نصبت لهم، ومن الرماة على جانبي الوادي، فرشقوهم رشقاً أي رموهم بالنبال، فولوا مدبرين مما سبب خللاً في جيش المسلمين وتراجعاً للآخرين.

(ومنها) أن عدد المشركين، كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

(ومنها) أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هناك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

(ومنها) كان العدو مُهَيَّئاً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء في شرح العسقلاني لصحيح البخاري بشأن غزوة حنين: وفي حديث أنس عند الإمام مسلم وغيره قال أنس: افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حنيناً، قال: فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

(ومنها) وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم.

١٥٠٨- ثبات النبي ﷺ وشجاعته:

في حديث للإمام مسلم، عن العباس عم رسول الله ﷺ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس نادِ أصحاب السمرة» - أي أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان في الحديبية - فقال عباس: - وكان رجلاً صيتاً - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة. قال: فوالله لكأن عَطْفَتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: لبيك لبيك.. وجاء في شرحه للنووي: قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في مواطن الحرب، وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه يكون معتمداً يرجع المسلمون إليه فتطمئن قلوبهم به وبمكانه، وأن فعله ﷺ عمداً، وإلا فقد كانت له ﷺ أفراس معروفة. ومما ورد في هذا الحديث من شجاعته ﷺ تقدمه إلى جهة المشركين، وأنه كان يركض بغلته نحوهم، أي يسرع بها إلى جهتهم، وقد فرَّ الناس عنه إلا القليل. وفي حديث آخر أخرجه مسلم عن البراء قال: كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا

هو الذي يحاذي به يعني النبي ﷺ. وكان ﷺ يقول وهو يتجه إلى العدو: «أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب». هذا وقد ثبت مع النبي ﷺ عدد قليل، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد، وآخرون لا يتجاوز عددهم العشرة أو الاثني عشر.

١٥٠٩- النبي ينادي الفارين ويأمر بمناداتهم:

ذكرنا أن النبي ﷺ أمر عمه العباس أن ينادي الفارين، ويذكرهم بأنهم أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، كما أنه ﷺ ناداهم بقوله: «إليّ عباد الله إليَّ أنا رسول الله» ومما روي من ندائه لهم: «أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله». كما دعي الأنصار بهذه المناداة باسمهم. ولما سمع المسلمون نداء رسول الله ﷺ ونداء العباس انعطف الناس، ورجعوا مسرعين إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع أخذ سلاحه ونزل عن بعيره، وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ.

١٥١٠- انتصار المسلمين وما غنموه من الكفار:

ولما وصلت جماعة من المسلمين إلى رسول الله ﷺ أمرهم أن يصدقوا الحملة على المشركين، وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره وقال: «اللهم انجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بقبضة التراب، وقال: «شاهت الوجوه» وقال: «انهزَموا ورب الكعبة» فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه مما شغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما رجع بقية الفارين إلا والأسرى من العدو بين يدي رسول الله ﷺ. وقد بلغت غنائم المسلمين من هوازن وثقيف ستة آلاف من النساء وقيل: وبضمنهم الأبناء، وأما الأموال فكانت أربعة آلاف أوقية من الفضة، ومن الإبل أربعة وعشرون ألفاً، ومن الشياه أكثر من أربعين ألف شاة. وأمر النبي ﷺ بحبس الغنائم في الجعرانه لحين عودته من حصار الطائف[٢٧٩٢].

(٢٧٩٢) السيرة النبوية للعمري ج٢ ص٥٠٤. والجعرانه موضع بين الطائف ومكة وهو إليها أقرب. أبو شهبة ج٢ ص٤٧٩.

١٥١١- وفد هوازن يأتي رسول الله ﷺ:

وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة أموالاً كثيرة كما وقع في أيديهم من الأسرى والسبي ستة آلاف، وقد جاء وفد من هوازن رسول الله ﷺ مسلمين يسألونه أن يرد إلى هوازن ما غنمه منهم من سبي وأموال. فقد روى البخاري عن المسور بن مخرمة: أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال. وقد كنت استأنيت بكم» - وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين رجع من الطائف - فلما تبين لهم - أي لوفد هوازن - أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحبَّ منكم أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم». فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا. وقد ساق هذه القصة موسى بن عقبة في المغازي مطولة، ولفظه: «ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف في شوال إلى الجعرانة وبها السبي، يعنون سبي هوازن، وقدمت عليه وفد هوازن مسلمين فيهم تسعة نفر من أشرافهم فأسلموا وبايعوا، ثم كلموه فقالوا: يا رسول الله إنَّ فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام، فقال ﷺ: «سأطلب لكم، وقد وقعت المقاسم، فأي الأمرين أحب آلسبي أم المال؟» قالوا: خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال، فالحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير. فقال: «أما الذي لبني هاشم فهو لكم وسوف أكلم لكم المسلمين، فكلموهم وأظهروا إسلامكم». فلما صَلَّى رسولُ الله ﷺ الهاجرة قاموا فتكلم خطباؤهم فأبلغوا ورغبوا إلى المسلمين في ردّ سبيهم. ثم قام رسول الله ﷺ حين فرغوا فشفع لهم وحضّ المسلمين عليه، وقال: «قد رددت الذي لبني هاشم عليهم». وجاء في شرح

الحديث للعسقلاني: قوله: «وقد كنت استأنيت بكم» ومعنى استأنيت: انتظرت، أي أخرت قسْمة السبي لتحضروا فأبطأتم. وقد كان ﷺ قد ترك السبي بغير قسمة وتوجه إلى الطائف وحاصرها كما سنذكره فيما بعد. ثم رجع ﷺ عنها إلى الجعرانة ثم قسمَّ الغنائم هناك، فجاءه وفد هوازن بعد ذلك، فبيَّن لهم أنه أخرّ القسمة ليحضروا فأبطؤوا. وقوله: «قفل» أي رجع. وقوله: «فمن أحبَّ أن يطيِّب ذلك» أي يعطيه عن طيب نفس منه من غير عوض.

وقوله: «على حظه» أي بأن يرد السبي بشرط أن يُعطَى عوضه. قوله: «فقال الناس قد طيَّبنا ذلك» في رواية موسى بن عقبة: «فأعطى الناس ما بأيديهم إلا قليلاً من الناس سألوا الفداء».

١٥١٢- ما حدث عند تقسيم الغنائم[٢٧٩٣]:

روى البخاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قَسَّمَ في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال: كلما قال شيئاً. قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة: لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعْبَها. الأنصار شعار، والناس دثار. إنكم ستلقون أَثْرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

قوله: «لما أفاء الله على رسوله يوم حنين» أي أعطاه غنائم الذين قاتلهم يوم حنين. وأصل الفيء الرد والرجوع، ومنه سمي ظل الشمس بعد الزوال فيئاً، لأنه رجع من جانب إلى جانب، فكأن أموال الكفار سميت فيئاً؛ لأنها كانت في الأصل للمؤمنين، إذ الإيمان هو الأصل والكفر طارىء عليه، فإذا غلب الكفار على شيء

(٢٧٩٣) صحيح البخاري وشرحه لابن حجر العسقلاني ج٨ ص٤٧-٥٢.

من المال فهو بطريق التعدي، فإذا غنمه المسلمون منهم فكأنه رجع إليهم ما كان لهم.

قوله: «قسم في الناس» أي قسم الغنائم التي كان قد حبسها في الجعرانة، ثم ذهب ﷺ إلى الطائف وحاصرها، ثم عاد إلى الجعرانة وقسم فيها الغنائم.

وقوله: «في المؤلفة قلوبهم» والمراد بالمؤلفة ناس من قريش أسلموا يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً. وقيل: كان فيهم من لم يسلم بعد كصفوان بن أمية.

قوله: «ولم يعط الأنصار شيئاً» ظاهر في أن العطية المذكورة كانت من جميع الغنيمة، وقال الإمام القرطبي: الإجراء على أصول الشريعة أن العطاء المذكور كان من الخمس، أي من خمس الغنيمة الذي أخذه النبي ﷺ ليضعه في مواضعه، ومن هذا الخمس كان أكثر عطايا النبي ﷺ. وعلى الأول - أي أن ما أعطاه النبي ﷺ كان من جميع الغنائم فيكون ذلك العطاء مخصوصاً بهذه الواقعة، وقد ذكر السبب في ذلك في رواية قتادة عن أنس حيث قال: «إن قريشاً حديث عهد بجاهلية وعصبية، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم» وهذا ما رجحه ابن حجر العسقلاني، والذي جزم به القرطبي جزم به الواقدي. واختار أيضاً أبو عبيد أن العطاء كان من الخمس.

وقوله: «فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس» والمعنى أنهم غضبوا، والموجدة الغضب، يقال: وجد في نفسه إذا غضب، ويقال أيضاً وجد إذا حزن، وفي مغازي سليمان التيمي أن سبب حزنهم أنهم خافوا أن يكون رسول الله ﷺ يريد الإقامة بمكة، والأصح ما في الصحيح حيث قال: «إذ لم يصبهم ما أصاب الناس» على أنه لا يمتنع الجميع وهذا أولى. وفي رواية للبخاري عن الزهري عن أنس بن مالك: «فقالوا - أي الأنصار - يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم» وفي رواية أخرى للبخاري عن هشام بن أنس بن مالك قال الأنصار: «إذا كانت شديدة فنحن نُدعَى، ويُعطَى الغنيمة غيرنا» وهذا ظاهر في أن العطاء كان من صلب الغنيمة بخلاف ما رجحه القرطبي.

قوله: «فخطبهم» أي خطبهم النبي ﷺ. وفي رواية الزهري عند البخاري في هذه المسألة: «فحُدِّثَ رسول الله ﷺ بمقالتهم - أي بمقالة الأنصار - فأرسل إلى

الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قال، أي النبي ﷺ: «ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا».

وقوله: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي» والمراد هنا ضلالة الشرك، وبالهداية الإيمان. وقد رتبَّ ﷺ ما منَّ الله عليهم على يده من النعم ترتيباً بالغاً فبدأ بنعمة الإيمان التي لايوازيها شيء من أمر الدنيا، وثنّى بنعمة الألفة، وهي أعظم من نعمة المال، لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع، لما وقع بينهم من حرب بعاث وغيرها، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ ﴾. وقوله: «عالة» أي فقراء لا مال لهم. والعيلة الفقر. وقوله: «كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن».

قوله: «قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا». قوله: «بالشاة والبعير» اسم جنس فيهما. والشاة تقع على الذكر والأنثى وكذا البعير. قوله: «إلى رحالكم» أي إلى بيوتكم. وفي رواية الزهري عن أنس: «فوالله لما تنقلبون به» خير مما ينقلبون به قالوا: يا رسول الله قد رضينا» وبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم.

وقوله: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» قال ابن الجوزي: لم يرد النبي ﷺ تغير نسبه ولا محو هجرته، وإنما أراد، أنه لولا ما سبق من كونه هاجر، لانتسب إلى المدينة وإلى نصرة الدين، فالتقدير: لولا أن النسبة إلى الهجرة نسبة دينية لا يسع تركها لانتسبت إلى داركم. وقال القرطبي: المعنى لولا الهجرة لتسميت باسمكم، وانتسبت إليكم، كما كانوا ينتسبون بالحلف، لكن خصوصية الهجرة وترتيبها سبقت فمنعت ذلك. قوله: «وادي الأنصار» الوادي المكان المنخفض، والمراد به هنا بلدهم. وقوله: «شعب الأنصار» الشعب اسم لما انفرج بين جبلين، وقيل الطريق في الجبل. وأراد ﷺ بهذا وبما بعد التنبيه على جزيل ما حصل لهم من ثواب النصرة لدين الله ولرسوله، والقناعة بالله ورسوله عن الدنيا، ومن كان هذا وصفه فحقه أن يُسلَك طريقه ويُتبَع حاله.

قوله: «الأنصار شِعار والناس دثار» الشعار: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد.

والدِثار الثوب الذي فوق الشعار. وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه. وأراد أيضاً بهذا القول أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم، وزاد في حديث أبي سعيد: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

وقوله: «إنكم ستلقون بعدي أُثْرَةً» أي أنه يُستأثَر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق. والأثرة هي الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه. قوله: «فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» أي يوم القيامة. أي اصبروا حتى تموتوا، فإنكم ستجدوني عند الحوض، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، والثواب الجزيل على صبركم.

١٥١٣- عمرة الجعرانة ثم رجوعه ﷺ إلى المدينة:

وبعد قسمة الغنائم في الجعرانة، خرج منها معتمراً في أواخر ذي القعدة من سنة ثمان للهجرة، ودخل مكة بليل، فطاف وسعى ثم تحلل من عمرته، ثم عاد هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة بعد أن استتب له الأمر بمكة وما جاورها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً[٢٧٩٤].

١٥١٤- ولاية مكة وتعليم أهلها:

وقد ولّى رسول الله ﷺ على مكة، عَتَّاب بن أَسِيد، وقد أسلم يوم الفتح، وقد ولاه رسول الله ﷺ على مكة بعد أن رجع من الطائف، وقيل لما سار إلى حنين، واستمر والياً عليها إلى أن مات، وكان عمره يوم ولاه نَيِّفاً وعشرين سنة، وأخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن[٢٧٩٥].

(٢٧٩٤) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٨٤-٤٨٥.

(٢٧٩٥) المرجع السابق ج٢ ص٤٨٥.

المبحث الثاني
ما نزل من القرآن
بشأن غزوة حنين

١٥١٥- تذكير الله للمسلمين بنصره لهم في حنين وغيرها:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[٢٧٩٦]. يذكّر الله تعالى المؤمنين بفضله عليهم وإحسانه إليهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة. ومواطن الحرب: مقاماتها ومواقعها، والمراد بها غزواتهم مع النبي ﷺ مثل بدر وخيبر وغيرهما، فقد نصرهم الله فيها بالرغم من قلة عددهم وعُددهم، ونصرهم أيضاً في يوم حنين، وهو اليوم الذي أعجبتهم فيه كثرتهم حتى قال قائل منهم معبراً عن رأي الكثيرين الذين غرتهم وأعجبتهم الكثرة: لن نغلب اليوم من قلة. ولكن هذه الكثرة التي أعجبتكم لم تدفع عنكم شيئاً ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي ضاقت الأرض مع سعتها عليكم، ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ أي منهزمين حال كونكم مدبرين أي مولين ظهوركم لعدوكم إلا القليل منكم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ[٢٧٩٧].

١٥١٦- إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢٧٩٨]. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(٢٧٩٦) سورة براءة الآية ٢٥.

(٢٧٩٧) ابن كثير ج٢ ص٣٤٣، الزمخشري ج٢ ص٢٥٨-٢٥٩، تفسير المنار ج١٠ ص٢٩٤، الألوسي ج١٠ ص٧٤.

(٢٧٩٨) سورة براءة الآية ٢٦.

﴿سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي طمأنينته. وقال الإمام الألوسي: أي رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن اطمئناناً كلياً مستتبعاً للنصر القريب. وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له ﷺ ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنزل الله سكينته على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ. وقيل: الذين فروا. والظاهر على جميعهم الذين ثبتوا والذين فروا، لأن الذين فروا ثبتوا بعد ذلك، وقاتلوا مع الذين ثبتوا ونصرهم الله. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: وأنزل مع هذه السكينة جنوداً لم تروها، وهم الملائكة تقوية لقلوب المؤمنين، وإدخال الرعب في قلوب المشركين وإن كانوا لا يرونهم. ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ذلك التعذيب الذي حلّ بهم ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، سمّى ما نزل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف، بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له(٢٧٩٩).

١٥١٧- ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٨٠٠). أي ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين، فيهديهم إلى الإسلام ويتوب توبة نصوحاً، وقد حصل هذا فقد أسلم من بقي من هوازن وتابوا وتاب الله عليهم(٢٨٠١).

(٢٧٩٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٦، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٦٠، تفسير المنار ج١٠ ص٢٩٤ - ٢٩٦، تفسير الألوسي ج١٠ ص٧٥ - ٧٦، تفسير فتح البيان ج٥ ص٢٦٤.

(٢٨٠٠) سورة براءة الآية ٢٧.

(٢٨٠١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٦٠، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٦.

المبحث الثالث
المستفاد
من قصة غزوة حنين

١٥١٨- أعداء الدعوة يحاربونها لفوزها ونجاحها:

رأينا في معركة حنين، أن هوزان ومعها ثقيف، تجمعوا وساروا إلى قتال النبي ﷺ بعد أن نصر الله رسوله ﷺ على قريش، ودخل مكة ومعه المسلمون من المهاجرين والأنصار. وهم قد فعلوا ذلك، لأنهم لا يروق لهم انتصار المسلمين، ولخوفهم من أن تأتي النوبة عليهم فيصيبهم ما أصاب قريش. فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك، وتعرف أن أعداء الدعوة لا يتركونها تنجح في مجالها ويعلو شأنها، ولذلك يحاربونها في مختلف الأساليب، ويضيقون عليها مجالات العمل، ثم يعمدون إلى حبس أعضائها من الدعاة بتلفيق التهم الباطلة عليهم. فعلى الجماعة المسلمة أن تأخذ كل أسباب الحيطة والحذر في حالة نجاحها وفوزها، وجذب الأنصار لها وإقبال الناس عليها، فهذه المظاهر تغيظ أعداء الدعوة، وتحملهم على الإسراع في وأد الدعوة، وتشتيت أفراد الجماعة من الدعاة والأنصار. وعلى هذا لا يجوز للجماعة المسلمة أن تأخذها نشوة نجاحها، وإقبال الناس عليها، فينسيها ذلك ما يبيته لها أعداء الدعوة من الشر، وإنما عليها أن تزيد من حذرها وحيطتها منهم كلما اتسعت دائرة الدعوة، وكلما علا شأنها وأقبل الناس عليها.

١٥١٩- حذار من الإعجاب بكثرة الأعضاء والدعاة:

ذكرنا عتاب الله لعباده المؤمنين على ما ظهر منهم من الإعجاب بكثرتهم، ولما يتضمنه ذلك الإعجاب من الركون إلى هذه الكثرة، وإلى شيء من الاعتماد عليها لتحصيل النصر على الأعداء، مع أن النصر بيد الله يسوقه للمؤمنين إذا شاء. فليكن الاعتماد في تحصيل النصر على الله وحده، وليس على الأسباب من كثرة عدد أو

عُدد، وإن كنا مُطالَبين بتحصيلها. فلتحذر الجماعة المسلمة جماعة الدعاة من الإعجاب بما تراه من كثرة عدد أعضائها من الدعاة والمؤيدين والأنصار، وليكن اعتمادها وتوكلها في بلوغ أهدافها على الله وحده دون إغفال لما يجب عليها من بذل الجهد المستطاع في مجال أعمالها الدعوية.

١٥٢٠- الأمير ينّبه أتباعه بلطف عما يغفلون عنه:

ذكرنا أن النبي ﷺ خصّ نفراً من ضعاف الإيمان بالعطاء من غنيمة هوازن، ولم يعط الأنصار شيئاً من ذلك العطاء، مما جعل بعضهم يتكلم في ذلك حتى بلغ كلامهم رسول الله ﷺ، وكان ذلك منهم من نوع الغفلة عما ينبغي أن يرضوا به، ولا يضمروا في قلوبهم ويتكلموا بألسنتهم بما يخالف ما ينبغي لهم من الرضا بما فعله رسول الله ﷺ من تخصيصه العطاء بمن أعطاهم من ضعاف الإيمان الذين أسلموا بعد فتح مكة. ثم رأينا كيف عالج الموضوع الرسول الكريم ﷺ بأن جمع الأنصار وحدهم، وخطب فيهم، وقال لهم قولاً مؤثراً بَيّنَ فيه غفلتهم عما كان يجب أن لا يغفلوا عنه في مسألة تخصيص عطائه بمن أعطاهم من ضعاف الإيمان، وكان عليهم أن لا يغفلوا عن أن ما فعله ﷺ إنما فعله لحكمة وغرض شرعي، وإن لم يصبهم من ذلك العطاء شيء. ومع هذا فالرسول الكريم ﷺ عا تبهم برفق ولطف وبما استل به ما وقع في نفوسهم من شيء من عدم الرضا بسبب حرمانهم من عطاء رسول الله ﷺ، فكان مما قاله الرسول الكريم من كلام رقيق مؤثر: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟» مما جعلهم يبكون ويقولون: رضينا. وفي قول النبي ﷺ: «ألا ترضون الخ» فيه تنبيه على ما غفلوا عنه من عظيم ما اختصوا به منه ﷺ بالنسبة إلى ما حصل عليه غيرهم من عرض الدنيا الفانية. فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يسارع ويكشف دوافع عمله الذي يثير الكلام فيما بين أتباعه، لعدم معرفتهم الحكمة فيما صنعه أميرهم، وأن يترفق ويتطلف في عتابه لهم لما صدر منهم من كلام بصدد عمله، وما ينطوى عليه كلامهم من عدم الرضا بما فعله أميرهم. ولهم في هذا المسلك الحكيم برسول الله إسوة حسنة، ففيه التنبيه على ما قد يغفلون عنه أو يخطئون فيه مع لطف في العتاب ينزع من القلوب ما قد غشيها من عدم رضا بتصرفات أميرهم، هذا ولأمير الجماعة أن يجعل خطبته في

بيان دوافع عمله لمن صدر منهم الاعتراض الصريح أو الضمني على عمله، كما له بل عليه أن يجعل خطبته في هذا البيان لدوافع عمله عاماً لجميع أعضاء الجماعة إذا فشا هذا الاعتراض الصريح أو الضمني على عمله، ولكن في الحالتين يسلك مسلك البيان الصريح لدوافع عمله، ولغفلة الأعضاء عما كان يجب عليهم من التسليم لأميرهم بحقه في الاجتهاد فيما يعمله مع الرفق واللطف في البيان.

١٥٢١- لابد من النظام والتنظيم:

ذكرنا فيما سبق أنَّ وفد هوازن أتوا النبي ﷺ يطلبون منه ردّ ما أُخِذ منهم، وأنه خيرهم بين رد أموالهم أو نسائهم. فاختاروا رد نسائهم، ثم خطب النبي ﷺ في المسلمين في ذلك، فوافقوا على ردّ نسائهم، فقال ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا» والعرفاء جمع عريف وهو القائم بأمر طائفة من الناس بأن يتولى سياستهم وحفظ أمورهم، وسمي بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يُعرِّف بها من فوقه عند الاحتياج، وقال ابن بطال: في الحديث مشروعية إقامة العرفاء، لأن الإمام لا يمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه، فيحتاج إلى إقامة من يعاونه ليكفيه ما يقيمه فيه، فإذا أقام على كل قوم عريفاً لم يسع كل أحد إلا القيام بما أُمر به[٢٨٠٢]. فيستفاد من ذلك أن على أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يجعل على كل فئة أو على كل قسم من أقسام الجماعة مسؤولاً عنهم وأميراً عليهم؛ ليبلغهم ما تأمر به الجماعة أي قيادتها، وليبلغ أيضاً طلباتهم وآراءهم إلى من فوقه، فهذا تنظيم بديع ويعتبر من السنة، لأن النبي ﷺ لم ينكر وجود عرفاء لهم، سواء كان هو عليه الصلاة والسلام أمرّهم أو كان الذي أمرّهم غير النبي ﷺ. ويمكن لأمير الجماعة أن يحدد واجبات كل عريف عند تعيينه أميراً على فئة من فئات الجماعة أو على قسم من أقسامها.

١٥٢٢- على الأمير أن يوكل عنه عند غيبته:

قلنا: إن النبي ﷺ عندما أراد الرجوع إلى المدينة عين أميراً على مكّة عتاب بن

(٢٨٠٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٣ ص١٦٩.

أَسِيد، وهذا كان من سنة النبي ﷺ إذا خرج لغزوة أن يوكل عنه من يقوم مقامه في إدارة شؤون ما وكله فيه. وعلى هذا ينبغي لأمير الجماعة المسلمة أن يُعيِّن من ينوب عنه، ويختاره من الأكفاء والقادرين على أداء ما وكلوا فيه.

١٥٢٣- على الأمير أن يكلف من يعلّم الناس أمور الدين:

ذكرنا أن النبي ﷺ ترك معاذ بن جبل في مكة ليفقه أهلها ويعلمهم أمور دينهم. فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يحرص على تكليف بعض الدعاة بتعليم أهل قرية أو بلدة فتحوا فيها لهم فرعاً لجمعيتهم، أو يرسل إلى بلدة بعض الدعاة ويقيم هناك لتعليم الناس أمور دينهم وأمور الدعوة، وأن يهيء واسطة نقل تذهب به إلى ذلك البلد وترجع. أو يقيم هناك ويُعطَى كفايته من صندوق الجماعة المسلمة.



الفصل التاسع عشر

غزوة الطائف (٢٨٠٣)

المبحث الأول

خلاصة الغزوة ووقائعها

١٥٢٤- غزوة الطائف امتداد لغزوة حنين:

تعتبر غزوة الطائف في الحقيقة امتداداً لغزوة حنين، وذلك أن فلول هوازن وثقيف بعد أن حلت بهم الهزيمة، دخلوا الطائف مع رئيسهم وقائدهم في معركة حنين مالك بن عوف، وتحصنوا فيها، لأن الطائف كانت مدينة حصينة بموقعها الجبلي وحصونها المنيعة وسورها، فلا ينفذ إليها أحد إلا من خلال أبوابها التي أغلقتها ثقيف لتحكم مع هوازن تحصنهم في داخلها.

١٥٢٥- النبي يأمر بالمسير إلى الطائف ويحاصرها:

وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من معركة حنين، وحبس الغنائم في الجعرانة أمر جنده من أصحابه الكرام بالتوجه إلى الطائف، وكان ذلك في شوال من السنة الثامنة للهجرة، وضرب عليها الحصار الذي دام بضع عشرة ليلة. وبدأ القتال تراشقاً بالسهام.

١٥٢٦- استعمال المنجنيق والدبابة:

وقد استعمل المسلمون المنجنيق ضد المشركين المتحصنين وراء أسوار

(٢٨٠٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص٤٣ - ٤٦، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٢٢ - ١٢٤، السيرة النبوية، للدكتور أبي شهبة ج٢ ص٤٧٥ - ٤٧٨، السيرة النبوية الصحيحة للدكتور العمري ج٢ ص٥٠٧-٥٢٠، الرحيق المختوم ص٣٨٤ -٣٨٦. والطائف: مدينة كبيرة كثيرة الأعناب والنخيل على ثلاث مراحل من مكة.

الطائف، والمنجنيق آلة يُرمَى بها الحجارة، وقد أمر النبي ﷺ باستعماله. فكان المسلمون أول من استعمل هذه الآلة الحربية، كما استعملوا في حصارهم للطائف ما يسمى (بالدبابة) وهي آلة تصنع من الخشب، وتكسى بالجلود الغليظة، وكان المقاتلون يدخلون في جوفها ويقيمونها على عجلات فيدفعونها إلى سور المدينة؛ ليحدثوا فيه نقباً ينفذون منه، ولكن المحاصرين قذفوهم بقطع من الحديد ممحاة فأحرقتها، وخرج من فيها من المقاتلين فرماهم العدو بالسهام وقتل بعضهم.

١٥٢٧- تحريض العبيد على الخروج إلى المسلمين:

وأمر ﷺ من ينادي: أي عبد خرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً بعد أن تسوروا الحصن الذي كانوا فيه ونزلوا إلى المسلمين، ومنهم أبو بكرة واسمه نفيع بن الحارث، تسور حصن الطائف وتدلىٰ منه ببكرة مستديرة كان يستقي عليها، فسماه رسول الله ﷺ أبا بكرة. فأسلم أولئك العبيد، فأعتقهم النبي ﷺ، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يعوله. ولما قدم أهل الطائف بعد مسلمين قالوا يا رسول الله: ردّ علينا رقيقنا، فقال: «لا أولئك عتقاء الله».

١٥٢٨- تقطيع الأعناب:

الطائف بلدة مشهورة بكثرة الأعناب، فأمر رسول الله ﷺ بتقطيعها عسى أن يكون ذلك حاملاً لهم على الاستسلام، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فلما رأى المشركون ذلك وعلموا أن الأمر جدّ لا هزل، طلبوا من النبي ﷺ أن يأخذ العنب لنفسه ولا يقطعه، أو يتركه لله وللرحم، فتركها ﷺ وأمر أصحابه بالكف عن تقطيعها.

١٥٢٩- الرسول ﷺ يعلن عن رغبته في الرجوع:

ولما طال الحصار، ووقعت إصابات غير قليلة في صفوف المسلمين فقد كانت سهام العدو تصيب المسلمين بينما سهام المسلمين لا تكاد تصيب المشركين، لأنهم يرمون وهم في أسفل السور، بينما العدو يرمى سهامه وهو في أعلى السور، فرأى النبي ﷺ أن يرجع عن حصارها إذ ما كانت هناك ضرورة للبقاء في هذا الحصار مع احتمال إسلامهم، وهذا ما كان يأمله ﷺ، يدل على ذلك أن بعض المسلمين قال:

يا رسول الله ادع على ثقيف فقد أحرقتنا نبالهم، فقال ﷺ: «اللهم اهدِ ثقيفاً». ولكن لما سمع المسلمون برغبته ﷺ بالرجوع دون أن يفتحوا الطائف، أظهروا رغبتهم في البقاء ومناوشة المشركين حتى يفتحوها، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالبقاء والاستمرار بالقتال، ولما كثرت فيهم الجراح أعلن ﷺ عزمه على فك الحصار والرجوع إلى المدينة، أظهروا رضاهم وسرورهم بذلك، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئاً قال: «إنا قافلون إن شاء الله» فثقل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابهم جراح، فقال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ. وقال سفيان مرة: فتبسم. قال الحُميدي: حدثنا سفيان الخبر كله. وجاء في شرحه لابن حجر العسقلاني: وفي مرسل ابن الزبير عند ابن أبي شيبة قال: لما حاصر النبي ﷺ الطائف قال أصحابه: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً». وذكر أهل المغازي أن النبي ﷺ لما استعصى عليه الحصن، وكانوا - أي أهل الطائف قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة، ورموا على المسلمين سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا قوماً، فاستشار ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: هم ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، فرحل عنهم. وقوله: «إنا قافلون» أي راجعون إلى المدينة. قوله: «فثقل عليهم» بين سبب ذلك بقولهم: «نذهب ولا نفتحه» وحاصل الخبر أنهم لما أخبرهم بالرجوع بغير فتح لم يعجبهم، فلما رأى ذلك أمرهم بالقتال فلم يفتح لهم فأصيبوا بالجراح، لأنهم رموا عليهم من أعلى السور، فكانوا ينالون منهم بسهامهم ولا تصل سهام المسلمين إلى من على السور، فلما رأوا ذلك تبين لهم تصويب الرجوع. فلما أعاد عليهم القول بالرجوع أعجبهم ذلك، ولهذا قال: فضحك، أو تبسم ﷺ. ورواه أيضاً الإمام مسلم بتغيير بسيط في بعض ألفاظه لا يغير معنى الحديث، وقد جاء في شرح النووي له: معنى الحديث أنه ﷺ قصد الشفقة على أصحابه والرفق بهم بالرحيل عن الطائف؛ لصعوبة أمره وشدة الكفار الذين فيه، وتقويتهم بحصنهم مع أنه ﷺ عَلِمَ أو رجى أنه سيفتحه بعد هذا بلا مشقة كما جرى، فلما رأى حرص أصحابه على المقام والجهاد أقام وجدَّ في القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع ﷺ إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا من

المشقة الظاهرة، ولعلهم نظروا فعلموا أن رأي النبي ﷺ أبرك وأنفع وأحمد عاقبة وأصوب من رأيهم، فوافقوا على الرحيل وفرحوا، فضحك النبي ﷺ تعجباً من سرعة تغير رأيهم.

١٥٣٠- إسلام ثقيف:

قلنا: إن رسول الله ﷺ لما قيل له: يا رسول الله ادع على ثقيف فقد أحرقتنا نبالهم، قام النبي ﷺ يدعو لهم ولم يدع عليهم، فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً». وقد استجاب الله دعاءه، فقد أتوا رسول الله ﷺ في العام المقبل في رمضان مسلمين.

المبحث الثاني
المستفاد
من غزوة الطائف

١٥٣١- استعمال الجديد النافع من آلات القتال وغيرها:

رأينا أن النبي ﷺ أمر جنده باستعمال المنجنيق لرمي المشركين في الطائف، وكان هذا الاستعمال حصل لأول مرة من قبل المسلمين وفي حصار الطائف، ولم تكن تعرفه العرب في حروبها، وأيضاً استعملوا ما سمي بالدبابة؛ لغرض الاقتراب من سور الطائف وإحداث ثقب فيه، وعلى هذا فينبغي أن يبين الدعاة في دروسهم أن على ولي الأمر، الحكومات في البلاد الإسلامية أن تُعنَى بتزويد جيشها بكل جديد من آلات الحرب حتى لا تتخلف عن مستوى قوة أي دولة، وعلى ولي الأمر في سبيل ذلك أن يأمر بتعلم طائفة من المسلمين العلوم الحديثة الضرورية لإنتاج وسائل الحرب وآلاته وأسلحته، كما أن على الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تستعين بكل جديد نافع من الآلات المستخدمة والأساليب النافعة في مجال الدعوة، كاستعمال الآلات الحديثة للطبع، واستعمال وسائل النقل الحديثة التي يحتاجها الدعاة في تنقلاتهم ونحو ذلك.

١٥٣٢- إتلاف أشجار العدو وزروعه:

رأينا أن النبي ﷺ أمر أصحابه بتقطيع الأعناب التي كانت لأهل الطائف، فعلى الدعاة أن يذكّروا ولاة الأمور بجواز ذلك في الحرب إذا كان في هذا الإتلاف مصلحة وفائدة للمسلمين، كإلقاء الرعب في قلوب العدو أو لإغاظته، أو لضرورات تنقل الجنود، أو لتسهيل مراقبة العدو ونحو ذلك، لأنه إذا جاز أو وجب إتلاف النفوس في الحروب الشرعية المشروعة، جاز ما دون ذلك من الإتلاف مما تقضي به ضرورات الحرب.

١٥٣٣- الأسلوب العملي في الإقناع:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ أعلم أصحابه وجنده برغبته في الرجوع إلىٰ المدينة بعد أن طال الحصار من دون أن تظهر بوادر إمكان فتح الطائف والانتصار على المشركين، إلا أن أصحابه ثقل عليهم أن يرجعوا قبل فتح الطائف، ورغبوا في الاستمرار بالحصار والقتال، فأمر النبي ﷺ بذلك، فلم يحصل لهم فتح للمدينة المحاصرة، وإنما حصلت لهم جراحات كثيرة، فعاد النبي ﷺ وأعلن عزمه على الرجوع، فأظهر الجميع رضاهم بذلك.

فعلى أمير الجماعة المسلمة، إذا رأى من المصلحة عدم الإصرار على تحقيق شيء معين وتحصيله، وأن الخير في الانفضاض عنه، ورأى أن بعض الأنصار والدعاة المنتسبين لجماعته يحرصون على الاستمرار في موقفهم وتحصيل بغيتهم، فيجوز لأمير الجماعة أن يأذن بالاستمرار في النهج القديم لتحقيق المقصود إذا كان يسعه ذلك، ولا ضرر في الاستمرار عليه وإن كان لا جدوى منه، وأن يكون ذلك لفترة وجيزة. أما إذا لم يكن هناك سعة من الوقت، ولا قدرة على الاستمرار على النهج القديم، فلا يجوز الاستمرار عليه، وعلى الأتباع أن يطيعوا أميرهم، وهذا من حقه عليهم.

١٥٣٤- تحريض أتباع خصوم الدعوة على تركهم:

يجوز للجماعة المسلمة أن تحرض أتباع خصوم الدعوة على تركهم إذا كان خصوم الدعوة يستعملون هؤلاء الأتباع لإلحاق الأذى بالدعاة، وأن تعدهم على ما يحملهم على الانفضاض عنهم. ويجوز لأمير الجماعة المسلمة في هذا المجال أن يستعين بمن لهم مكانة لدى أتباع خصوم الدعوة؛ لحملهم على الانفضاض من حولهم، كما يجوز للجماعة المسلمة أن تقدم العون إلى اتباع خصوم الدعوة سواء كان هذا العون مادياً أو معنوياً. فقد ذكرنا أن رسول الله ﷺ أمر من ينادي بأن أي عبد يترك المشركين ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ، مما شجع العبيد على الخروج إلى المسلمين، فقد خرج منهم ثلاثة وعشرون رجلاً.

الفصل العشرون
قصة غزوة تبوك

المبحث الأول
خلاصة الغزوة وأحداثها

١٥٣٥- تاريخ هذه الغزوة وأهميتها:

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من سنة تسع للهجرة قبل حجة الوداع بلا خلاف. وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق، وتسمى هذه الغزوة أيضاً بـ«غزوة العسرة» مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وهي غزوة تبوك. ووجه تسميتها بـ«غزوة العسرة»، لأن الجيش كان في عسرة من الماء، ونقص في الظهر- أي في الحيوانات التي تستعمل للركوب- وفي النفقة فسميت غزوة العسرة. وتبدو أهمية هذه الغزوة أنها وقعت في ظروف شديدة: من شدة الحرّ، وبعد المسافة، وقلة الإبل والخيول التي تحمل المجاهدين. وهي الغزوة الوحيدة التي أعلن عنها ﷺ، إذ كانت عادته ﷺ عدم التصريح بالوجهة التي يقصدها في غزوته. ولكن في هذه الغزوة أعلم المسلمين بوجهته فيها؛ ليكونوا على علم تام بما هم سائرون إليه. وتمتاز هذه الغزوة أيضاً أنها وقعت ومعركة مؤتة التي وقعت قبلها في مواجهة الروم، وليس في مواجهة العرب، فقد جهز الروم جيشاً كثيفاً لمناجزة الرسول ﷺ، ويعاونه في ذلك القبائل العربية المتنصرة[٢٨٠٤].

١٥٣٦- أسباب هذه الغزوة:

وكان السبب في هذه الغزوة ما ذكره ابن سعد وغيره، فقد قالوا: بلغ النبي ﷺ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب. وجاء مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم

(٢٨٠٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١١١.

بجهه غزوه[٢٨٠٥]، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ويكون جهازهم من زاد وماء ولباس الحرب، وما يحتاجه من يخرج للجهاد مناسباً ذلك كله لهذه الغزوة التي تقع بعيداً عن المدينة.

١٥٣٧- تبرع المسلمين للإعداد لهذه الغزوة:

وقد حثَّ النبي ﷺ على الجهاد والتبرع بالمال، فاستجاب المسلمون لما دعاهم إليه رسول الله ﷺ، فتبرع عثمان بن عفان رضي الله عنه بثلاثمائة بعير وبألف دينار جاء بها فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل يقلبها ويقول: «اللهم أرض عن عثمان فإني راض عنه». ويقول أيضاً: «ما على عثمان ما عمل بعد اليوم». وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال له الرسول: «وهل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب. وتبرع غيرهم بما استطاعوا عليه حتى إن أحدهم تبرع بصاع من تمر، لأن هذا هو ما استطاعوه. وتبرعت النساء بحليهن[٢٨٠٦].

١٥٣٨- استنفار المسلمين للقتال:

ومع هذه الحملة من التبرعات بالمال كانت معها حملة استنفار عام للمسلمين ليجاهدوا بأنفسهم، فقد استنفر ﷺ المسلمين في المدينة وفي مكة، كما استنفر الأعراب وسكان البوادي الذين أسلموا، وقد استجابوا جميعاً إلى هذا الاستنفار إلا المنافقين؛ كما سنذكره عند كلامنا على ما نزل من القرآن بشأن هذه الغزوة وشأن المتخلفين عنها.

١٥٣٩- يبكون لعدم تيسر الجهاد لهم:

وجاء جماعة إلى رسول الله ﷺ يسألونه ما يحملهم عليه، أي ما يركبونه للوصول إلى ساحة القتال ليقاتلوا مع إخوانهم، فلما لم يجدوا بغيتهم رجعوا يبكون أسفاً وحزناً أن لا يجدوا ما يذهبون به إلى القتال، كما أشار إلى ذلك القرآن، وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(٢٨٠٥) المرجع السابق ج٨ ص١١١.

(٢٨٠٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٩٦.

١٥٤٠- خروج جيش المسلمين من المدينة:

ثم خرج رسول الله ﷺ بجيش المسلمين وقد بلغوا أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، واستخلف النبي ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، واستخلف على أهله علي بن أبي طالب الذي كان حريصاً على الخروج للقتال مع المسلمين حتى قال للنبي ﷺ: أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال له: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»(٢٨٠٧).

١٥٤١- فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم:

لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك ومعه جيشه، كان بعضهم يتذكر من تخلف عن المسير معهم، فيقولون لرسول الله ﷺ: تخلف فلان، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره، فقال لهم مقالته هذه. أما أبو ذر فقد حدث له التأخر أنه انتظر بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره وخرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً. ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله وهو يتجه إلى تبوك، ونظر القوم فإذا رجل مقبل عليهم وهو يمشي، فأخبروا النبيَّ ﷺ بذلك، فلما رآه قال: «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم فإذا هو أبو ذر. فقال ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده». وكان أبو خيثمة قد تخلف من غير عذر، وإنما هو الكسل، فلما رجع إلى بيته بعد أن خرج رسول الله ﷺ بجيشه، وجد أبو خيثمة زوجتيه في عريشين لهما في بستان له، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردّت فيه ماء وهيأت فيه طعاماً، فلما رأى ذلك قال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحرّ وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام شهي مهيأ وامرأة حسناء، ما هذا بالعدل، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته وسلاحه وزاده ولحق برسول الله ﷺ حين نزل بتبوك، فلما دنا من الجيش قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فنظروا فإذا هو أبو خيثمة. فسلمّ على رسول الله ﷺ وأخبره

(٢٨٠٧) المصدر السابق ج٢ ص٤٩٧، وصحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١١٢.

خبره، فدعا له ﷺ بخير[2808].

١٥٤٢- معجزات لرسول الله ﷺ[2809]

خرج جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ مع نقص في الزاد والماء، ونقص في وسائط النقل: الإبل وغيرها، حتى كان الرجلان والثلاثة يعتبقون على بعير واحد، وكان الرجلان والثلاثة يقتسمون التمرة فيما بينهم حتى كادوا أن ينحروا رواحلهم من الإبل ليأكلوها. فتقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يدعو الله بالبركة لما بقي من أزوادهم حتى يكفيهم، فدعا ﷺ بفضل أزوادهم ووضعه على بساط وكان يسيراً، ثم دعا ﷺ ربه بأن يبارك في هذه الأزواد، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة». وأصيبوا بعطش شديد جداً حتى أن بعضهم نحر بعيره؛ ليعتصر ما في كرشه من ماء ليشربه. فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، فرفع ﷺ يديه نحو السماء ودعا ربه، فلم يرجعهما حتى أمطرت السماء، فشربوا وملؤوا ما معهم من الأوعية، ثم ذهبوا فنظروا، فلم يجدوا السحابة التي أمطرتهم جاوزت معسكرهم.

١٥٤٣- وصول المسلمين إلى تبوك:

ولما وصل جيش المسلمين إلى تبوك لم يجدوا أحداً هناك؛ لأن الروم لما بلغهم مسير جيش المسلمين لملاقاتهم آثروا الانسحاب إلى بلاد الشام ليحتصنوا بحصونها. وأقام النبي ﷺ والمسلمون فيها عشرين ليلة، وفي أثناء إقامته ﷺ أرسل خالد بن الوليد مع ثلة من المقاتلين إلى دومة الجندل، فأسروا ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي، فصالحه النبي ﷺ على الجزية[2810].

(٢٨٠٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٠٠-٥٠١.

(٢٨٠٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٠٠-٥٠١.

(٢٨١٠) السيرة النبوية للدكتور العمري ج٢ ص٥٣٤-٥٣٥.

١٥٤٤- رجوع النبي ﷺ وجيشه:

وبعد أن مكث النبي ﷺ المدة التي ذكرناها، استشار أصحابه في السير إلى الروم في الشام ومنازلتهم هناك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله إن كنتَ أُمِرتَ بالسير فسرْ، فقال ﷺ: «لو كنتُ أمِرتُ بالسير لما استشرت» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا منهم وقد أفزعهم ذلك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى ما تراه أو يُحدث الله أمراً. فاستجود رسول الله ﷺ رأي عمر، وأمر بالرجوع إلى المدينة[٢٨١١].

١٥٤٥- أصناف المتخلفين عن غزوة تبوك[٢٨١٢]:

وكان الذين تخلفوا عن غزوة تبوك أصنافاً:

(الصنف الأول) الذين أمرهم رسول الله ﷺ بالبقاء في المدينة، وهم محمد بن مسلمة حيث استخلفه رسول الله على المدينة، وعلي بن أبي طالب على أهله ﷺ مع حرصه رضي الله عنه على الخروج مع رسول الله ﷺ للقتال، فقال له: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

و(الصنف الثاني) المعذورون أي أصحاب الأعذار كالشيوخ والمرضى والفقراء الذي لا يجدون ما ينفقونه للخروج ولا من يحملهم إلى ساحة القتال.

و(الصنف الثالث) مؤمنون تخلفوا كسلاً وتقصيراً وعصياناً وهم: أبو لبابة وأصحابه والثلاثة الذين تخلفوا.

و(الصنف الرابع) المنافقون وهم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لنفاقهم وعدم إيمانهم. وسنتكلم عن أصحاب الأعذار، ثم عن المؤمنين العصاة، ثم عن المنافقين. وذلك بذكر ما نزل من القرآن بشأن غزوة تبوك وبشأن هؤلاء الأصناف.

(٢٨١١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٠٤.

(٢٨١٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥١٠.

المبحث الثاني
ما نزل من القرآن
بشأن غزوة تبوك وأصناف المتخلفين عنها

١٥٤٦- تمهيد:

نزلت أكثر آيات سورة براءة بشأن غزوة تبوك وبشأن أصناف المتخلفين عنها. وقبل ذكر هذه الآيات، أذكر الآيات التي حثت على القتال في سبيل الله بمناسبة ذكر غزوة تبوك، والنفير إليها، وعتاب المتخلفين والمتباطئين عنها من المؤمنين.

المطلب الأول
الحث على الجهاد بالنفس والمال
وعتاب المتخلفين والمتباطئين من المؤمنين

١٥٤٧- آية في عتاب المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(٢٨١٣) لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أو تباطأ في الخروج إليها(٢٨١٤). قوله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ النفر هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه، ومنه قوله ﷺ: «إذا استنفرتم فانفروا» والاسم النفير. وقوله تعالى: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ أي تباطأتم ولم تسرعوا إلى الخروج إلى غزوة تبوك. ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ متعلق بـ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ لتضمينه معنى الميل، أي اثاقلتم مائلين

(٢٨١٣) سورة التوبة، الآية ٣٨.

(٢٨١٤) تفسير فتح البيان ج٥ ص٣٠١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٧.

إلى الدنيا وشهواتها الفانية، أو مائلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في غزوة تبوك، كما قلنا، لغزو الروم في وقت عسرة وقحط وقيظ، وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو، فشق على بعضهم الخروج. والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من جميعهم، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلىٰ الكل، وهو كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي مالكم فعلتم هكذا - أي: تثاقلتم - أَرِضاً منكم بالدنيا الفانية بدلاً من نعيم الآخرة الدائم؟ ثم زهدَّ تبارك وتعالى في الدنيا ومتاعها ورغّبَ في الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما الحياة الدنيا والتمتع بها وبلذائذها بالنسبة إلى نعيم الآخرة إلا قليل، أي إلا متاع صغير لا يُعبأ به؛ لأن لذات الدنيا خسيسة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطة عن قرب لا محالة، بينما منافع الآخرة، ولذائذها شريفة عالية خالصة من الآفات والكدورات، دائمة أبدية سرمدية، وذلك يوجب اليقين بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة شيء قليل وتافه وحقير لا يجوز أن يؤثره المؤمن على نعيم الآخرة. والحرف (في) يسمى «في القياسية» لأن المقيس - وهو متاع الحياة الدنيا - موضوع بجنب المقيس به، وهو نعيم الآخرة. وقال ﷺ، في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع»[٢٨١٥].

١٥٤٨- توعد الله لمن ترك الجهاد:

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٨١٦].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس رضي الله

(٢٨١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٧ - ٣٥٨، تفسير الألوسي ج١٠ ص٩٥، فتح البيان ج٥ ص٣٠١ - ٣٠٢، القرطبي ج٨ ص١٤٠.

(٢٨١٦) سورة التوبة الآية ٣٩.

عنهما: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم المطر، فكان ذلك هو عذابهم. وقال الإمام ابن عطية: ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أشد تخويفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعد بأن يبدل الله لرسوله ﷺ قوماً لا يتخلفون عنه عند استنفاره إياهم. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بترككم امتثال أمره بالنفير، لأن الله غني عن العالمين، أو لا تضروا رسوله شيئاً بترك نصره والنفير معه، فإن الله ناصره على أعدائه، ولا يخذله أبداً سواء نفرتم أو لم تنفروا. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم[٢٨١٧].

١٥٤٩- تكفل الله بنصر رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢٨١٨]. والمعنى أي أنكم إن تركتم نصره بأن لم تنفروا إذا استنفركم على من أرادوا قتاله، فسينصره الله بقدرته وتأييده كما نصره إذ أجمع المشركون على الفتك به وأخرجوه من داره وبلده[٢٨١٩]. وقد سبق أن ذكرنا أقوال العلماء في تفسير هذه الآية عند كلامنا على هجرة النبي ﷺ[٢٨٢٠].

١٥٥٠- انفروا خفافاً وثقالاً:

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ

(٢٨١٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٨، تفسير ابن عطية ج٦ ص٤٩٥، فتح البيان ج٥ ص٣٠٣.

(٢٨١٨) سورة براءة، الآية ٤٠.

(٢٨١٩) تفسير المنار ج١٠ ص٤٩٦.

(٢٨٢٠) انظر الفقرات السابقة من ١٠٧٥-١٠٧٨.

﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2821] أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر، فقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾[2822]. وفي فتح البيان ﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها، وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها. وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة. فقيل المراد: منفردين ومجتمعين، نشاطاً وغير نشاط، فقراء وأغنياء، شباباً وشيوخاً، ركباناً ومشاة، رجالاً وفرسانا، مقلين من السلاح ومستكثيرين منه، مشاغيل وغير مشاغيل، عزاباً ومتأهلين، خفافاً من الحاشية والأتباع وثقالاً مستكثرين منهم، مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وبعد التروي فيه والاستعداد له. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني؛ لأن معنى الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت، فالأولى أن هذا عام لكل الأحوال فيهما[2823]. وعلى هذا ما ورد عن مفسري السلف من تفسير الخفاف والثقال بما ذكرنا فهو على سبيل المثال لا الحصر[2824]. ثم رغبّ تعالى في بذل المال في سبيله وبذل النفوس في مرضاته، فقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وقدمت الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز[2825]. فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من أكبر الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي ما تقدم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ خير لكم من السكون والدعة، لأن فيه مرضاة الله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2826].

(٢٨٢١) سورة التوبة الآية ٤١.

(٢٨٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٩.

(٢٨٢٣) فتح البيان ج٥ ص٣٠٧.

(٢٨٢٤) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٠٢، وتفسير المنار ج١٠ ص٥٣٥.

(٢٨٢٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٠.

(٢٨٢٦) فتح البيان ج٥ ص٣٠٨.

المطلب الثاني
المتخلفون عن غزوة تبوك
من أصحاب الأعذار

١٥٥١- الضعفاء والمرضى ومن يلحق بهم:

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٨٢٧].

قوله: «ليس على الضعفاء» جمع ضعيف وهو ضد القوي، أي من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنّهم من الجهاد. قال ابن عباس يعني: الزمني والشيوخ والعجزة. والزمنى هم الذين أصابتهم الزمانة وهي العاهة التي لا تزول بل تبقى على الزمان، ومنها الكُساح والعمى والعرج. كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ المرضى: جمع مريض وهم الذين عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد، وعذرهم ينتهي بالشفاء منها. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ وهؤلاء هم الفقراء الذين لا يجدون مالاً ينفقون منه على أنفسهم إذا خرجوا إلى الجهاد، ويتركون لعيالهم ما يكفيهم. وقد كان المؤمنون في عصر النبي ﷺ يجهزون أنفسهم للقتال، فالفقير ينفق على نفسه، والغني ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته، كما فعلوا في غزوة تبوك إذ لم يكن للمسلمين بيت مال غني ينفق منه النبي ﷺ على الغزاة في سبيل الله. وهذا العذر خاص بالمال، ويزول إذا كان للأمة في بيت المال ما ينفقون منه على الغزاة. فليس على هذه الأصناف الثلاثة ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي: ضيق في حكم الشرع يعدون به مذنبين، ولا إثم في القعود عن الجهاد الواجب. ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟

(٢٨٢٧) سورة براءة الآية ٩١.

﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في حال قعودهم عن الجهاد لعجزهم، إذا أخلصوا لله تعالى في الإيمان وللرسول ﷺ في الطاعة، وأداء الأمانة بالقول والعمل، ولا سيما الذي تقتضيه حالة الحرب، فالنصيحة والنُصح تحري ما يصلح به الشيء، ويكون خالياً من الغش والخلل والفساد. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري: أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً. قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». قال العلماء: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه. والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من ولاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره ومحبته ومحبة آل بيته وأصحابه، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها والتفقه فيها، والدفاع عنها ونشرها والدعوة إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ. «والنصح لكتابه»: قراءته والتفقه فيه وتعليمه وإكرامه والتخلق به «والنصح لأئمة المسلمين» إرشادهم إلى الحق وعدم الخروج عليهم وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم. «والنصح للعامة»: ترك معاداتهم وإرشادهم، وحب الصالحين منهم والدعاء لجميعهم، وإرادة الخير لكافتهم. وفي تفسير الخازن: النصح أن يقيموا في البلد، ويحترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل الجهاد، ويقوموا بمصالح بيوتهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ السبيل: الطريق السهل يطلق على الحسِّي والمعنوي في الخير وفي الشر و﴿مِن﴾ لتأكيد النفع العام. والمعنى ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم والنيل منهم، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم. والمحسنون ضد المسيئين، وهو عام في كل من أحسن عملاً من أعمال البر والتقوى. والشرع الإسلامي يجزي المحسن بأضعاف إحسانه، ولا يؤاخذ المسيء إلا بقدر إساءته، فإذا كان أولئك المعذورون في القعود عن الجهاد محسنين في سائر أعمالهم بالنصح المذكور انقطعت طرق المؤاخذة دونهم[٢٨٢٨].

(٢٨٢٨) تفسير المنار ج١٠ ص٦٧٨-٦٨١، فتح البيان ج٥ ص٣٦٨-٣٦٩، تفسير القرطبي ج٨ ص٢٢٦-٢٢٧.

١٥٥٢- البكاؤون:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ولا حرج على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل؛ ليخرجوا معك، فلم تجد ما تحملهم عليه ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ أي: انصرفوا من مجلسك وهم في بكاء شديد هاجه حزن عميق، فكانت أعينهم تمتلىء دمعاً فتسيل ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ أي حزناً منهم على عدم وجدانهم عندك ولا عندهم ما ينفقون ولا ما يركبون في خروجهم معك جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته. وعن محمد بن كعب قال: هم سبعة نفر جاؤوا إلى الرسول ﷺ؛ ليحملهم على الرواحل. فهذه الآية نزلت في شأنهم، فهم معذورون كالضعفاء والمرضى[٢٨٢٩].

١٥٥٣- لا تكليف على العاجز:

ويلاحظ هنا أن هذه الآية الكريمة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ...﴾ الخ أصل في سقوط التكليف عن العاجز، فكل من عجز عن شيء سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل. وتارة إلى بدل هو عزم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة، أو العجز من جهة المال[٢٨٣٠].

١٥٥٤- المعذورون مأجورون بنياتهم:

وهؤلاء المعذورون يُؤجَرون بنياتهم، وإن ظلوا في المدينة ولم يشتركوا في القتال، وذلك بسبب عذرهم المشروع، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: يا رسول الله كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال ﷺ: «حبسهم العذر»[٢٨٣١]، وما ذلك إلا بنياتهم الصادقة المنطوية على رغباتهم المؤكدة على القتال التي حال دون تحقيقها عجزهم.

(٢٨٢٩) تفسير المنار ج١٠ ص٦٨٠-٦٨١.

(٢٨٣٠) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٢٦.

(٢٨٣١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٢. والحديث رواه البخاري بلفظ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم». قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» فتح الباري ج٨ ص١٢٦.

المطلب الثالث
المتخلفون كسلاً وعصياناً لا نفاقاً

١٥٥٥- أبو لبابة وأصحابه:

وهؤلاء قوم تخلفوا كسلاً وعصياناً لا شكاً ونفاقاً، ولكن سرعان ما عرفوا ذنبهم، فندموا وتابوا إلى الله تعالى فتاب عليهم، قال تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢٨٣٢) وهذه الآية تتعلق بالذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقاً بالحق، فقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أقروا بها واعترفوا بها فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية وإن نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين.
قال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أبي لبابه وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقام أبو لبابة وتسعة من أصحابه المتخلفين وربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، ويلاحظ هنا أنه قال تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ولم تذكر توبتهم؟ والجواب ذكر في الآية اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فكان ذلك بمنزلة ذكر توبتهم(٢٨٣٣).

١٥٥٦- خذ من أموالهم صدقة:

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢٨٣٤)، روى أن أبا لبابة والجماعة التائبة معه التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ جاءت رسول الله ﷺ لما حصلت لها التوبة من الله عز وجل، فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض بأموالكم إلا بأمر من

(٢٨٣٢) سورة براءة الآية ١٠٢.

(٢٨٣٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٧.

(٢٨٣٤) سورة براءة، الآية: ١٠٣.

الله» فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فَهُمُ المراد بها. فروي أن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المفسرين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ و﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ خطاب للنبي ﷺ. والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه. أو بمعنى الإنماء والبركة في المال. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم، وطمأنينة لقلوبهم بأن الله قد تاب عليهم. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع اعترافهم بذنبهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم[٢٨٣٥].

١٥٥٧- توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢٨٣٦]. ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. ومعنى ﴿خُلِّفُوا۟﴾ خلفوا عن الغزو أي عن غزوة تبوك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برُحْبها أي ضاقت عليهم الأرض مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور، لأنها حرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي: وعلموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا ملجأ من سخط الله ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي: لا ملجأ من سخط الله إلا باستغفاره والرجوع إليه بالتوبة. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ ثم رجع إليهم بالقبول والرحمة كرة بعد أخرى؛ ليستقيموا على توبتهم، ويثبتوا وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علماً منهم أن الله تواب على من تاب، ولو عاد في اليوم مائة مرة[٢٨٣٧].

(٢٨٣٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٧-٣٠٨، تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٠-٢٢.

(٢٨٣٦) سورة التوبة الآية ١١٨.

(٢٨٣٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨-٣١٩.

١٥٥٨- كعب يروي قصة تخلفه وتوبة الله عليه وعلى صاحبيه:

روى البخاري عن كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها. كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد. والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظنَّ أن سيخفي له، ما لم ينزل فيه وحي من الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز، معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقضِ من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئاً. ثم غدوت ثم رجعت ولم أقضِ شيئاً. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن ارتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقَدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْدَاه ونظرُه في عِطفهِ. فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقتُ أتذكر الكذب

وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي - فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عَنِّي الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلمت عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظَهْرَكَ؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جَدَلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئنْ حَدَّثْتُك اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسْخِطك عليَّ، ولئن حَدَّثْتُكَ حديثَ صِدقٍ تَجِدُ عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أَقْوَى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فَقُم حتى يقضي الله فيك»، فقمتُ. وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عَجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يُؤنِّبُونَني حتى أردتُ أَنْ أرجع فأُكذِّب نفسي. ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت مَن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقِفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أَيُّها الثلاثةُ من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرَتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج، فأشهد الصلاةَ مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفتُ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة

الناس، مشيت حتى تسورت جدارَ حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام. فقلت: يا أبا قتادة: أنشدك بالله، هل تعلمني أُحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت. فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أَنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءَني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنَه قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هَوانٍ ولا مَضيَعة، فالْحَقْ بنا نواسيكَ. فقلت لما قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاء. فتيمَّمتُ بها التنور فسَجَرْتُه بها - حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعلُ؟ قال: لا. بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك. فقلت لأمرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هِلال بن أمية رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتك، كما أَذِنَ لأمرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. فلبثتُ بعد ذلك عشر ليالٍ، حتى كملَتْ لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليتُ صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَتْ، سمعت صوت صارخ أَوْفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالكٍ أَبْشِرْ. قال: فَخَررتُ ساجداً وعرفت أن قد جاء فرجٌ. وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يُبَشِّرُونَنَا، وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أَسْلَمَ، فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس. فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يُبَشِّرُني نزعتُ له ثَوْبَيَّ، فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما

يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنوني بالتوبة، يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناسُ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يُهَروِلُ حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهُهُ من السرور: «أَبْشِر بخير يوم مرَّ عليك منذُ ولدْتكَ أمُّكَ». قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أنْ أنْخَلِعَ من مالي صَدَقَةً إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قلت: فإني أمسك سهمي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيتُ، فوالله ما أَعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث - منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ - أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدْتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزَل الوحي شرَّ ما قاله لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ..﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وارجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلفْنا عن الغزو؟ إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه

أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه[٢٨٣٨].

١٥٥٩ - شرح حديث كعب بن مالك:

وجاء في شرح ابن العسقلاني لهذا الحديث ما يلي[٢٨٣٩]:

قوله: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها» أي أوهم غيرها. والتورية أن يذكر لفظاً يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر. فيوهم إرادة القريب وهو يريد البعيد. وقوله: «فجلّى» أي أوضح. «أمرهم ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم» أي أوضح لهم ﷺ وجهته في هذه الغزوة؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم. والأُهْبة: ما يحتاج إليه في السفر والحرب. وقوله: «حتى اشتد بالناس الجدُّ» الجدُّ في الشيء: المبالغة فيه. وقوله: «مغموصاً» أي مطعوناً عليه في دينه متهماً بالنفاق. وقوله: «وتفارط» أي فات وسبق. والفرط: السبق. وفي رواية ابن أبي شيبة: «حتى أمعن القوم وأسرعوا فطفقت أغدو للتجهيز، وتشغلني الرجال، فأجمعتُ القعود حين سبقني القوم». قوله: «حبسه برداه والنظر في عطفه» كنى بعطفه عن حسنه وبهجته، والعرب تصف الرداء بالحسن وتسميه عِطفاً لوقوعه على عطفي الرجل. قوله: «والله لقد أعطيتُ جدلاً» أي فصاحة وقوة كلام بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إليّ بما يُقبَل ولا يُرَد.

قوله: «تَجِدُ عليَّ» أي تغضب قوله: «وثار رجال» أي وثبوا. قوله: «فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً» وممن جزم بأنهما شهدا بدراً أبو بكر الأثرم، وتعقبه ابن الجوزي ونسبه إلى الغلط، فلم يصب. واستدل بعض المتأخرين لكونهما لم يشهدا بدراً بما وقع في قصة حاطب، وأن النبي ﷺ لم يهجره، ولا عاقبه مع كونه جسَّ عليه، بل قال لعمر لما همَّ بقتله: «وما يدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قال - أي ابن الجوزي في ادعائه أنهما لم يشهدا بدراً -: وأين ذنب التخلف من ذنب التجسس؟ قلت - أي ابن حجر العسقلاني -: وليس ما استدل به بواضح، لأنه يقتضي أن البدري - أي الذي شهد

(٢٨٣٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١١٣-١١٦.

(٢٨٣٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١١٦-١٢٥.

معركة بدر - عنده إذا جنى جناية ولو كبرت لا يُعاقَب عليها، وليس كذلك، فهذا عمر رضي الله عنه مع كونه المخاطب بقصة حاطب، فقد جلد قدامة بن مظعون الحدَّ لما شرب الخمر وهو بدري، وإنما لم يعاقب النبي ﷺ حاطباً ولا هجره، لأنه قبل عذره في أنه إنما كاتب قريشاً خشيةً على أهله وولده، وأنه أراد أن يتخذ له عندهم يداً، فعذره بذلك بخلاف تخلف كعب وصاحبيه، فإنهم لم يكن لهم عذر أصلاً، قوله: «لي فيهما أسوة» قال ابن التين: التأسي بالنظير ينفع في الدنيا بخلاف الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ قوله: «فأسارقه النظر» أي: أنظر إليه في خفية. قوله: «من جفوة الناس» أي: من إعراضهم. وفي رواية ابن أبي شيبة: «وطفقنا نمشي في الناس، لا يكلمنا أحد، ولا يرد علينا سلاماً، قوله: «حتى تسورت» أي علوت سور الدار. قوله: «جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي» ذكر أنه ابن عمه لكونهما معاً من بني سلمة وليس هو ابن عمه؛ أخي أبيه الأقرب. قوله: «أنشدك» أي أسألك. قوله: «نبطي من أنباط الشام» نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه. وهؤلاء كانوا في ذلك الوقت أهل الفلاحة، وهذا النبطي الشامي كان نصْرانياً. قوله: «من ملك غسان» هو جبلة بن الأيهم قوله: «ولم يجعلك الله بدار هوان وَمضيَعة» أي حيث يضيع حقك. قوله: «فالحق بنا نواسيك» من المواساة وزاد في رواية ابن أبي شيبة: في أموالنا. قوله: «فالحق بنا» فقلت - أي قال كعب -: إنا لله، قد طمع فيَّ أهل الكفر. قوله: «فتيممت» أي قصدت «والتنور» ما يخبز فيه. وقوله: «فسجرته» أي أوقدته، وأنّثَ الكتاب على معنى الصحيفة. ودلّ صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وقد تحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة، وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء، والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فقد غلب عليه دينه، وقوي عنده يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد، والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله ﷺ. كما قال ﷺ: «وأن يكون الله

ورسوله أحب إليه مما سواهما». قوله: «فأوفى»: أي أشرف واطلع. قوله: «على جبل سَلْع» سَلْعٍ: جبل في أرض المدينة. قوله: «وآذن»: أي أعلم. قوله: «وركض إليّ رجل فرساً»: أي أسرع بها، قوله: «ليهنك» من الهناء، قوله: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» استشكل هذا الاطلاق بيوم إسلامه، فإنه مرّ عليه بعد أن ولدته أمه، وهو خير أيامه. والجواب أن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير جميع أيامه، وإن كان يوم إسلامه خيرها، فيوم توبته المضاف إلى يوم إسلامه خير من يوم إسلامه المجرد عنها، وقوله: «إن من توبتي أن أنخلع من مالي» أي: أخرج من جميع مالي قوله: «فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله» أي: أنعم عليه.

١٥٦٠- توبة الله على المشاركين في غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٨٤٠].

١٥٦١- اختلاف أقوال المفسرين في آية التوبة

اختلفت أقوال أهل التفسير في المراد بتوبة الله على النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، ونذكر فيما يلي بعض أقوالهم.

١٥٦٢- التفسير الأول:

قال الإمام ابن عطية: التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ؛ لأنه رجع به من حالة قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين. وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة

(٢٨٤٠) سورة براءة الآية ١١٧.

محطوطة إلى غفران ورضا[٢٨٤١].

١٥٦٣- التفسير الثاني:

وقال الإمام القرطبي: قال ابن عباس كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود، دليله قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وتوبته على المؤمنين من المهاجرين والأنصار من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عن النبي ﷺ. وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة، وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعُبّر عن ذلك بالتوبة، وإن خرج من عرفها؛ لوجود معنى التوبة فيه، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى[٢٨٤٢].

١٥٦٤- التفسير الثالث:

وقال الزمخشري قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين؛ ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل: معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٢٨٤٣].

١٥٦٥- التفسير الرابع:

وقال الألوسي: قال أصحاب المعاني: المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي ﷺ تشريفاً لهم، وتعظيماً لقدرهم، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾. فالمراد توبته على المهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم عفوه سبحانه وتعالى عن زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين. وقيل: المراد ذكر التوبة عليه عليه الصلاة والسلام وعليهم، والذنب بالنسبة إليه ﷺ من باب خلاف الأولى نظراً إلى مقامه الجليل، وفُسِرّ هنا

(٢٨٤١) تفسير ابن عطية ج٧ ص٦٧.

(٢٨٤٢) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٧٨.

(٢٨٤٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٩٦. والآية في براءة: ٤٣.

على ما روي عن ابن عباس بالإذن للمنافقين في التخلف، وبالنسبة إليهم رضي الله تعالى عنهم لا مانع من أن يكون حقيقياً، إذ لا عصمة عندنا لغير الأنبياء، ويُفسَر بما فسر أولاً. ويجوز أن يكون من باب خلاف الأولى بناء على ما قيل: أن ذنبهم كان الميل إلى القعود عن غزوة تبوك، حيث وَقعت في وقت شديد. وقد تفسر التوبة بالبراءة عن الذنب، والصون عنه مجازاً، حيث أنه لا مؤاخذة في الكل، وظاهر الاطلاق الحقيقة، وفي الآية ما لا يخفى من التحريض على التوبة للناس كلهم[(٢٨٤٤)].

١٥٦٦- التفسير الخامس:

وقال صديق حسن خان في تفسيره القيم فتح البيان: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي أدام توبته على النبي فيما وقع منه ﷺ من الإذن في التخلف عن غزوة تبوك، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، وليس من لوازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله؛ لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه على النبي ﷺ من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق، كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ؛ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لابسوه منها. وقال أهل المعاني: التوبة على النبي هو مفتاح كلام للتبرك، وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم إلى توبة النبي ﷺ، كما ضُمَّ اسم الرسول إلى اسم الله في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فهو تشريف له ﷺ. وكذلك تاب الله على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب، ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». والإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل[(٢٨٤٥)].

١٥٦٧- التفسير السادس:

وجاء في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى

(٢٨٤٤) تفسير الألوسي ج١١ ص٣٩-٤٠.

(٢٨٤٥) فتح البيان ج٥ ص٤١٦-٤١٧.

﴿ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم مع حرف التحقيق، بيّنَ به تعالى فضل عطفه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة، وفي غيرها لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها. وللتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين إلى الله تعالى من كل إعراض عنه، وتوبته تعالى على عباده لها معنيان: عطفه عليهم وهذا أعلاهما. وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم وإنما يتوبون من ذنب، وكل ذنب معصية لله عز وجل؟ وقد فسرَّ ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾[٢٨٤٦].

١٥٦٨- التفسير السابع:

وجاء في تفسير القاسمي: اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك ختم بفرقة من المؤمنين كانوا تخلفوا ميلاً للدعة، وهم صادقون في إيمانهم ثم ندموا فتابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم، فقبلها، ثم أنزل توبتهم في هذه الآية، وصدّرها بتوبته على رسوله، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار كل على حسبه، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى. وقد جمع الله تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ووصفهم بأتباعه، فوجب القطع بموالاتهم[٢٨٤٧].

١٥٦٩- تفسير بقية الآية:

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهذا وصف للمهاجرين والأنصار بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي اتبعوا النبي ﷺ، فلم يتخلفوا عنه ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ وقد وقع الاتفاق بين الرواة والمفسرين أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك، وتسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار يسمى جيش العسرة، والمقصود بساعة العسرة أي

(٢٨٤٦) تفسير المنار ج١١ ص٦٤.

(٢٨٤٧) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٤٥-٢٤٦.

وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشي واليوم. والعسرة: حالهم في غزوة تبوك، فقد كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العشرة على البعير الواحد. وفي عسرة من الزاد: تزودوا التمر المدود، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة - أي الدهن المنتن، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان. وفي عسرة من الماء حتى إن بعضهم نحر بعيره؛ ليعتصر فرثه ويشرب ماءه. وفي شدة زمان: في شدة الحرّ، ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة[٢٨٤٨]. وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: اتبعوا النبي ﷺ من بعد ما قرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الإسلام بعصيان الرسول ﷺ حين أمر بالنفير العام إذ تثاقل بعضهم عن النفر[٢٨٤٩]. وفي تفسير القرطبي: واختلف في معنى (تزيغ) فقيل تتلف بالجهد والمشقة والشدة. وقال ابن عباس: تميل عن الحق بترك النصرة، وقيل من بعد أن همَّ فريق منهم بالتخلف والعصيان، ثم لحقوا به، وقيل هموا بالرجوع[٢٨٥٠]. قوله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تأكيد ظاهر للتوبة التي تفضل الله بها على من تقدم ذكر التوبة عنهم، ويحتمل أن تكون التوبة للفريق الذين كادوا أن تزيغ قلوبهم، لأنهم لا جرم محتاجون إلى التوبة عليهم[٢٨٥١].

المطلب الرابع
المتخلفون عن غزوة تبوك نفاقاً
«المنافقون»

١٥٧٠- تمهيد:

وردت في سورة التوبة آيات كثيرة بشأن المنافقين، وما صدر منهم فيما يتعلق بغزوة تبوك، مع بيان لبعض أخلاقهم وأوصافهم، فكانت هذه الآيات فاضحة لهم وهاتكة لأسرارهم. ونذكر فيما يلي هذه الآيات تباعاً مع تفسير موجز لها.

(٢٨٤٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨، فتح البيان ج٥ ص٤١٧.

(٢٨٤٩) تفسير المنار ج١١ ص٦٥.

(٢٨٥٠) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٨٠-٢٨١.

(٢٨٥١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨، تفسير الألوسي ج١١ ص٤١.

١٥٧١- المنافقون يحلفون بالله كذباً:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٢٨٥٢). ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ العرض هو ما يعرض من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البرّ والفاجر، ﴿قَرِيبًا﴾ صفة إلى ﴿عَرَضًا﴾ أي سهل المأخذ والتناول. والمعنى: لو كان ما تدعوهم إليه غنيمةسهلة قريبة التناول غير بعيد، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسطاً بين القرب والبعد لا مشقة فيه، وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي لوافقوك في الخروج، ولخرجوا معك طمعاً في تلك المنافع التي يرجون الحصول عليها، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة: السفر إلى أرض بعيدة، والشقة المسافة التي تقطع بمشقة، والمراد بها هنا غزوة تبوك، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي هؤلاء المنافقون المتخلفون عن غزوة تبوك. وأتى بالسين في ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأنه من قبيل الإخبار بالغيب، لأن الله تعالى أنزل هذه الآية قبل رجوعه من غزوة تبوك، أي سيحلفون «بالله» بعد رجوعكم إلى المدينة قائلين في حلفهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ أي: لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه من العدة والصحة في أجسامنا ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. وقوله ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بحلفهم الكاذب، وادعائهم العجز عن الخروج، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم الذي سيحلفون به لك؛ لأنهم كانوا مستطيعين الخروج(٢٨٥٣).

١٥٧٢- عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم:

قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(٢٨٥٤).

قال الإمام ابن عطية في تفسير هذه الآية: «هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق،

(٢٨٥٢) سورة التوبة الآية ٤٢.

(٢٨٥٣) فتح البيان ج٥ ص١٢٠٢-١٢٠٣.

(٢٨٥٤) سورة التوبة الآية ٤٣.

استأذنوا رسول الله ﷺ في عدم الخروج معه إلى غزوة تبوك دون اعتذار، مثل عبد الله بن أبي والجدّ بن قيس ورفاعة بن التابوت ومن اتبعهم، فقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني، وقال بعضهم ائذن في الإقامة. فأذن لهم رسول الله ﷺ استبقاء منه عليهم، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكلاً على الله. قال مجاهد: قال بعضهم: نستأذنه - أي رسول الله ﷺ - فإن أذن لنا في القعود قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا، فنزلت الآية. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ يريد: في استئذانك، وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك. وقوله: ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ يريد: في أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند ما يصدر منك من إذن وعدمه، وهم كذبة قد عزموا على العصيان أي على عدم الخروج، أذنت لهم أو لم تأذن»[٢٨٥٥]. وذهب العلامة الألوسي في تفسيره إلىٰ أن المقصودين بهذه الآية من المنافقين هم نفسهم المشار إليهم في الآية السابقة الذين سيحلفون.. الخ، وليسوا صنفاً آخر من المنافقين، فقد قال يرحمه الله: «قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ أي لأي سبب أذنت لهؤلاء - الحالفين المتخلفين - في التخلف حين استأذنوا فيه معتذرين بعدم الاستطاعة، وهذا عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه وتعالى لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى إنجلاء وانكشاف الحال المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي في ذلك»[٢٨٥٦].

والراجح كما يبدو لي قول الإمام ابن عطية وهو أن هؤلاء صنف آخر غير المنافقين المتخلفين الحالفين. كما أرجح قول الإمام الألوسي بأن الإذن من النبي ﷺ كان خلاف الأولى ليس إلا، خلافاً لما قاله الزمخشري من أن هذا الإذن كان جناية، وهذا منه سوء أدب، وذهول عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى بدأ رسوله ﷺ بالعفو قبل العتاب، وهذا من لطف الله تعالى بنبيه، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حقه ﷺ، لأنه هو الذي ورد في القرآن، ومما يدل على أن إذنه ﷺ كان من قبيل خلاف الأولى، ما ذكره الألوسي عن بعضهم في تفسير هذه

(٢٨٥٥) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٠٥-٥٠٧.

(٢٨٥٦) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٠٩.

الآية، فقد قال يرحمه الله: «والمحققون على أنها خارجة مخرج العتاب، كما علمت على ترك الأولى والأكمل، قالوا: ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم - أي خروج المنافقين - مصلحة للدين، أو منفعة للمسلمين، بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ وقد كرهه سبحانه وتعالى كما يفصح عنه قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروا رسول الله ﷺ وأرضوه بالأكاذيب. . .»(٢٨٥٧). هذا وإن الإذن الذي عوتب عليه ﷺ كان اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نصّ فيه من الوحي، ومثل هذا الاجتهاد جائز في حقه ﷺ كما قرره علماء الأصول(٢٨٥٨).

١٥٧٣- المؤمن لا يستأذن في الجهاد:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢٨٥٩). أي ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر، ولا من عادتهم أن يستأذنوك أيها الرسول في أمر الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا وُجِدَ المقتضي للجهاد، لأن الجهاد من لوازم الإيمان التي لا تتوقف على الاستئذان. فإذا كان هذا هو شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر، فهم أحرى أن لا يكون من شأنهم أن يستأذنوك في التخلف عنه، كما فعل المنافقون في استئذانهم في التخلف عن غزوة تبوك دون عذر. ويحتمل أن يكون المعنى: لا يستأذنك هؤلاء المؤمنون في القعود، والتخلف كراهية أن يجاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد لا يكرهه المؤمن الصادق الذي يؤمن بالله واليوم الآخر. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون ربهم باجتناب ما يسخطه وبفعل ما يرضيه. وقد استنبط من هذه الآية أنه لا ينبغي الاستئذان في أداء الواجبات، ولا في الفضائل والفواضل من العادات، كقرى

(٢٨٥٧) المرجع السابق، وتفسير المنار ج١٠ ص٥٤٢.

(٢٨٥٨) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٠٩.

(٢٨٥٩) سورة التوبة، الآية ٤٤.

الضيوف، وإغاثة الملهوف، وسائر عمل المعروف[٢٨٦٠].

١٥٧٤- استئذان المنافقين:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[٢٨٦١]. أي إنما يستأذنك في القعود عن الجهاد ممن لا عذر له ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، وهم المنافقون الخلّص، فطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضي كراهيتهم للجهاد، وفرارهم منه كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك. ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكّتْ في صحة ما جئتهم به يا رسول الله. ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحيرون، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهم يوافقون المؤمنين فيما يسهل فعله من عبادات الإسلام، فإذا عرض لهم ما يشق عليهم فعله ضاقت به صدورهم، والتمسوا الخلاص منه بما استطاعوا من الحيل والمعاذير الكاذبة[٢٨٦٢].

١٥٧٥- الإرادة الجازمة تستلزم العمل المناسب لها:

قال تعالى عن المنافقين: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾[٢٨٦٣]. أي لو أرادوا الجهاد، أي لو كان أولئك المنافقون صادقين فيما يدعونه، ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاجون إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى ذلك أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً، ولا استعدوا للغزو. والعدة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح. فتركهم الاستعداد للجهاد دليل على إرادتهم التخلف عنه.

(٢٨٦٠) تفسير المنار ج١٠ ص٥٤٤-٥٤٥.

(٢٨٦١) سورة التوبة، الآية ٤٥.

(٢٨٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٠-٣٦١، تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٠٨ تفسير المنار ج١٠ ص٥٤٦.

(٢٨٦٣) سورة التوبة الآية ٤٦.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي: كره خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي حبسهم عن الخروج معك، وخذّلهم وكسّلهم، لأنهم قالوا إن لم يؤذن لنا في الجلوس - أي في القعود عن الجهاد - أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، ويدل على هذا أن بعده قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم. ومعنى ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي مع أولي الضرر والصبيان والزمنى والنسوان، وفيه من الذم لهم، والإزراء عليهم، والتنقص بهم ما لا يخفى[٢٨٦٤].

١٥٧٦- مفسدة خروج المنافقين مع المؤمنين:

قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢٨٦٥].

قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم. والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. وقوله تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ أي لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد. والإيضاع سرعة السير. والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال، أي الفُرَج التي تكون بين الصفوف. أي لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة أي الإفساد والتحريض.

وقوله: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ أي مطيعون لهم، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي يعلم أحوالهم[٢٨٦٦].

١٥٧٧- حرص المنافقين على الإفساد والإضرار بالمؤمنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ

(٢٨٦٤) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٦، فتح البيان ج٥ ص٣١٢-٣١٣.

(٢٨٦٥) سورة التوبة الآية ٤٧.

(٢٨٦٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦١، تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٧.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٢٨٦٧]. قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي لقد طلب المنافقون الإفساد والخبال، وتفريق كلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها، كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد حيث انصرف بأصحابه عنك. وقوله: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ تقليب الأمور يعني تصريفها من أمر إلى أمر وترديدها؛ لأجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة. والمعنى: لقد عملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك يا رسول الله، وكيد أصحابك، وخذلان دينك، وإخماده وإبطال ما جئت به. ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ ومجيء الحق نصر الله لرسوله محمد ﷺ، وظهور أمر الله، أي إعزاز دينه وإعلاء شريعته وقهر أعدائه، ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لمجيء الحق وظهور أمر الله، وكان ذلك على رغم منهم وكره له[٢٨٦٨].

١٥٧٨- التخلف عن الجهاد وقوع في الإثم العظيم:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢٨٦٩]. ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ أي بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي أن الفتنة هي التي سقطوا فيها. والفتنة تعني هنا الإثم والمعصية، وهي النفاق والتخلف عن غزوة تبوك بعدم الخروج إليها مع رسول الله ﷺ، فسقطوا هذه السقطة الشنيعة في هذه الفتنة العظيمة، وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره: أن محمد بن إسحاق وغيره قالوا: قال رسول الله ﷺ في أثناء استعداده لغزوة تبوك، قال للجد بن قيس: «هل لك يا جدّ هذا العام في جلاد بني الأصفر؟» يريد الروم أي

(٢٨٦٧) سورة التوبة الآية ٤٨.

(٢٨٦٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦١، تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٧، فتح البيان ج٥ ص٣١٦.

(٢٨٦٩) سورة التوبة الآية ٤٩.

غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» ففي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ الخ ثم قال ابن كثير: أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجدّ بن قيس، وقد كان الجدّ بن قيس من أشراف بني سلمة. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا محيد لهم عنها، ولا محيص ولا مهرب[٢٨٧٠].

١٥٧٩- من مظاهر عداوة المنافقين للنبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[٢٨٧١]. يخبر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بعداوة هؤلاء المنافقين له بأنه مهما أصابه من حسنة، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ أي وإن تصبك في بعض الغزوات مصيبة، أي نكبة وشدة نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك ﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا الذي وقع فقد احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، واعتزلناهم وقعدنا عن الحرب، فلم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له، تولوا إلى أهليهم مسرورون[٢٨٧٢].

١٥٨٠- لا يقع إلا ما قدره الله وقضاه:

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

(٢٨٧٠) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢، فتح البيان ج٥ ص٣١٧.

(٢٨٧١) سورة التوبة الآية ٥٠.

(٢٨٧٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٧٨.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[2873]. أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المتشفين بما أصابكم من مصيبة، وبياناً لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد الباطل: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، فنحن تحت مشيئته وقدره ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ أي ناصرنا، وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان. وفائدة هذا الجواب أن المسلم إذا علم أن ما قدره الله كائن لا محالة، وأن كل ما ناله ويناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء، وتشفي الحسدة. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل. والتوكل على الله تفويض الأمور إليه، والمعنى إن الشأن بالمؤمنين أن يجعلوا توكلهم في جميع أمورهم مختصاً بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره[2874].

١٥٨١- ما ينتظره المؤمنون والمنافقون:

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[2875].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي هل تنتظرون أيها المنافقون أن يقع بنا ﴿إِلَّآ إِحۡدَى﴾ الخصلتين أو العاقبتين ﴿ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إما النصر والغنيمة، أو الشهادة والمغفرة، وكلاهما مما يحسن لدينا. والحسنىٰ تأنيث الأحسن. والحاصل أن ما تنتظرونه لا يخلو من أحد هذين الأمرين، وكل منهما عاقبته حسنى، لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل في الغزو سوء، ولذلك سررتم به. ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ﴾ إحدى السوأتين من العواقب، إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ فيهلككم كما فعل بالأمم الخالية قبلكم، وكونه من عند الله تعالى كناية عن كونه منه جلَّ شأنه بلا مباشرة البشر، ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ أي أو بعذاب كائن بأيدينا، أي بالقتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم، فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم، أي

(٢٨٧٣) سورة التوبة الآية ٥١.

(٢٨٧٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢، فتح البيان ج٥ ص٣١٩.

(٢٨٧٥) سورة التوبة الآية ٥٢.

إذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا[٢٨٧٦].

١٥٨٢- لا يُقبَل إنفاق المنافق:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[٢٨٧٧]. والمعنى: أنفقوا أموالكم في مصالح الغزاة ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي طائعين أو كارهين، وصيغة ﴿أَنفِقُواْ﴾ وإن كانت للأمر إلا أن المراد به الخبر، وكثيراً ما يستعمل الأمر بمعنى الخبر، والمعنى: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحوه قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم. وهو في معنى الشرط، أي إن أنفقتم على أي حال فـ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾، وأخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في تساوي الأمرين في عدم القبول، كأنهم أمروا أن يجربوا، فينفقوا في الحالين، فينظر هل يُتقبَّل منهم، فيشاهدوا عدم القبول. ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم، ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه، وكل من المعنيين واقع في الاستعمال، فقبول الناس له يعني أخذه، وقبول الله تعالى له يعني ثوابه عليه، ويجوز الجمع بينهما. والآية نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما جواباً عما في قول الجدّ بن قيس حين قال له رسول الله ﷺ: «هل لك في جلاد بني الأصفر؟» فقال الجدّ: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أُفتَتن، لكن أعينك بمالي. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم وعدم قبوله. والمراد بالفسق: العتو والتمرد، فلا يقال كيف علل مع الكفر بالفسق الذي هو دونه، وكيف صح ذلك مع التصريح بتعليله بالكفر في قوله تعالى في الآية التالية[٢٨٧٨]. وقال صاحب تفسير المنار: والمراد بالفسوق الخروج من دائرة الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال مع الإخلاص. ثم بين تعالى ما في هذا

(٢٨٧٦) تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٥-١١٦.

(٢٨٧٧) سورة التوبة الآية ٥٣.

(٢٨٧٨) تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٦.

التعليل من الإجمال في الآية التالية[2879].

١٥٨٣- لا ثواب للكافر فيما ينفقه:

قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[2880]. أي وما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم بالله ورسوله، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: لا يأتون الصلاة المفروضة إلا حال كونهم متثاقلين، ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي: إلا وهم كارهون الإنفاق، لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً. وهاتان الجملتان داخلتان في حيز التعليل. واستشكل أن الكفر سبب مستقل؛ لعدم القبول فما وجه التعليل بالأمور الثلاثة، وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر؟ قال البعض: إنما جيء بهما لمجرد الذم، وليستا داخلتين في حيز التعليل. وقال صاحب تفسير المنار: إنما وصفهم بما ذكر؛ لتقرير كفرهم، ودفع للشبهة التي ترد عليه بالصلاة والزكاة[2881].

١٥٨٤- لا ينبغي الإعجاب بأموال المنافقين ولا بأولادهم:

قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2882]. الإعجاب بالشيء: أن تسر به سرور راضٍ به متعجب من حسنه. فلا يروقك شيء من ذلك، فإنه استدراج لهم ووبال عليهم. ويمكن أن يقال في تفسيرها: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يعرض لهم فيها من المنغصات والحسرات، أما الأموال فإنهم يتعبون في جمعها، ويحرصون على حفظها، ويشق عليهم ما ينفقون منها من زكاة، وإعانة على قتال، وإنفاق على قريب. وأما الأولاد فلأنهم يرونهم قد نشأوا في الإسلام، واطمأنت به قلوبهم، وأنهم يجاهدون في سبيل الله

(٢٨٧٩) تفسير المنار ج١٠ ص٥٦٠.

(٢٨٨٠) سورة براءة الآية ٥٤.

(٢٨٨١) تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٧، تفسير المنار ج١٠ ص٥٦١.

(٢٨٨٢) سورة التوبة الآية ٥٥.

بأموالهم وأنفسهم، وكل هذه حسرات في قلوبهم، ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، فيعذبون بها في الآخرة أشد مما عذبوا بها في الدنيا بموتهم على كفرهم المحبط لعملهم[٢٨٨٣].

١٥٨٥- المنافقون ليسوا من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[٢٨٨٤]. من أخلاق المنافقين الحلف الكاذب، فهم يحلفون بالله إنهم لمنكم، أي يحلفون إنهم مؤمنون مثلكم ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي ليسوا مثلكم مؤمنين لكفر قلوبهم، ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة. وأصل الفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر، وقيل: وهو من مفارقة الأمن إلى حال الخوف. ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أي حصناً يلجؤون إليه كما قال قتادة، ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ أي غيران في الجبال يسكنونها، ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ يعني موضع دخول يدخلون فيه، وهو النفق في الأرض، ﴿ لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ ﴾ أي لالتجؤوا إليه أي إلى أحد ما ذكره ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ بحيث يسرعون في الذهاب إليه، بحيث لا يردهم شيء، كالفرس الجموح، أي النفور الذي لا يرده لجام. أي لو وجدوا شيئاً من هذه الأمكنة التي هي منفور عنها، مستنكرة، لأتوه لشدة خوفهم وكراهتهم للمسلمين. لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً، لا مودة ولا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا فهم لا يزالون في هم وحزن، لأن الإسلام وأهله في عز ونصر مستمر منهم، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين حتى لا يروا عزهم ونصرهم، وهو ما يسوؤهم ويحزنهم[٢٨٨٥].

(٢٨٨٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٠، تفسير المنار ج١٠ ص٥٦٢-٥٦٣، تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٧.

(٢٨٨٤) سورة التوبة، الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٢٨٨٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٣، تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٩، تفسير القاسمي ج٨ ص٢٣٧.

١٥٨٦- رضا المنافقين وسخطهم لأنفسهم لا لله:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[٢٨٨٦] أي ومن المنافقين من يلمزك أي يعيبك - والخطاب لرسول الله ﷺ - ﴿ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي في الزكوات أو الغنائم في قسمتها وتفريقها ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا ﴾ أي من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ رَضُواْ ﴾ بقسمتك، وقالوا عنها بأنها عدل، ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ ﴾ ما يريدونه ويطلبونه ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم، ويجعلونه غير عدل. فهؤلاء المنافقون لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وحرصهم عليه، وليسوا من الدين في شيء، فرضاهم وسخطهم لأنفسهم، وليس لله تعالى[٢٨٨٧].

١٥٨٧- بيان ما هو خير للمنافقين لو أنهم فعلوه:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[٢٨٨٨]. والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الرسول ﷺ من الزكوات، أو من الغنائم، وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم. وذكر ﴿ ٱللَّهُ ﴾ عز وجل للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ من قسمة ما قسمه عليهم إنما كان بأمره تعالى. ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي كفانا فضل الله وما قسمه لنا، ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ أي سيرزقنا الله غنيمة أخرى، وعطاء آخر، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ في أن يغنمنا ويخوّلنا فضله لراغبون. هذا وإن الآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف بناء على ظهوره تقديره: لكان خيراً لهم[٢٨٨٩]. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: تضمنت هذه الآية أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله. وجعل التوكل على الله وحده بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾. وجعل الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ، وامتثال أوامره، وترك

(٢٨٨٦) سورة التوبة الآية ٥٨.

(٢٨٨٧) فتح البيان ج٥ ص٣٢٥، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٣.

(٢٨٨٨) سورة التوبة الآية ٥٩.

(٢٨٨٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٢، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٢٠.

زواجره، وتصديق أخباره[٢٨٩٠].

١٥٨٨- من إيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢٨٩١]. في الآية نوع آخر مما حكاه الله من قبائح المنافقين، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ على وجه الطعن والذم هو أذن. والأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل واحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة، على وجه المبالغة، ونظيره قولهم للربيئة أي الطليعة: عين. هذا وإن ﴿أُذُنٌ﴾ يستوي فيه الواحد والجمع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ وهذا ردّ على ما قالوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ هو ﷺ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن هو؛ لكونه أذن خير ﴿لَّكُمْ﴾، وليس بأذن في غير ذلك، والمعنى أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر، فهو ﴿أُذُنُ﴾ في الحق والخير وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدق بالله، ويصدق المؤمنين؛ لما علم فيهم من خلوص الإيمان، ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: وهو ﷺ رحمة للذين أظهروا الإيمان، وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة. ووجه هذه الرحمة لكم أيها المنافقون، لأنه ﷺ أذن خير لكم، هو أنه ﷺ يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يهتك أستاركم، ولا يفضحكم ببيان نفاقكم، ولا يفعل بكم ما يفعله بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من الحكمة في الإبقاء عليكم. فهو ﷺ ﴿أُذُنٌ﴾ كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء. فسلّمَ قولهم فيه، إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه ﷺ، وإن كانوا قصدوا بهذا اللفظ الذم، والتقصير بفطنته،

(٢٨٩٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٣-٣٦٤.

(٢٨٩١) سورة التوبة الآية ٦١.

وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بقولهم السابق، أو بأي أذى لهم عذاب شديد الألم[٢٨٩٢].

١٥٨٩- المنافق يرضي الناس ولا يرضي الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٨٩٣]. الخطاب في الآية الكريمة للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف الكاذب؛ ليعذروهم ويرضوا عنهم. فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة التامة، والإيمان بنبوته ورسالته. وإنما وحَّد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ، فكانا في حكم مرضي واحد. أو والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك[٢٨٩٤].

١٥٩٠- تحذير المنافقين من محاددة الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[٢٨٩٥]. والمعنى: ألم يعلم أولئك المنافقون، قال أبو السعود: والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة - أي من قبائحهم العظيمة - مع علمهم بسوء عاقبتها. أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من أنواع القوارع والإنذارات ﴿أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي من يخالف الله ورسوله. قال الليث: حاددته إذا خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة. واشتقاقه من الحدّ بمعنى الجهة والجانب، كما أن (المشاقة) من (الشق) بمعناه أيضاً، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعادين في حد وشق غير ما عليه صاحبه، فمعنى ﴿يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ يصير في حدّ غير حد أولياء الله بمخالفته أمر الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي أن دخوله نار جهنم على وجه الخلود هو

(٢٨٩٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٤، فتح البيان ج٥ ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢٨٩٣) سورة التوبة الآية ٦٢.

(٢٨٩٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٢.

(٢٨٩٥) سورة التوبة الآية ٦٣.

الخزي العظيم له[٢٨٩٦].

١٥٩١- خوف المنافقين من انكشاف حقيقتهم:

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[٢٨٩٧]. هذه الآية والآيات التي بعدها والتي قبلها كشفت قبائح المنافقين، ولذلك قال قتادة: كانت هذه السورة - سورة التوبة - لاشتمالها على كثير من الآيات المتعلقة بالمنافقين، كانت تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين. الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ و﴿ تُنَبِّئُهُم ﴾ للمؤمنين. والضمير في ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ للمنافقين. أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم وتفشي أسرارهم، وقال بعض آخر من المفسرين: إن الضمائر كلها راجعة إلىٰ المنافقين، فيكون المعنى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ أي في شأنهم، فإن ما نزل في حقهم نازل عليهم ﴿ تُنَبِّئُهُم ﴾ أي تنبىء المنافقين ﴿ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الأسرار الخفية فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم خاصة من أقاويل الكفر والنفاق. والمراد أن هذه السورة النازلة بشأنهم تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتنتشر فيما بين الناس، فيسمعونها من أفواه مذاعة، فكأنها تخبرهم بها، وإلا فما في قلوبهم معلوم لهم، والمحذور عندهم إطلاع المؤمنين على أسرارهم لا إطلاع أنفسهم عليها. والمراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على بيان أسرارهم، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه، فتنبئهم بها وتنعي عليهم قبائحهم، فإن قيل: المنافق كافر، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول أجيب: بأنهم وإن كانوا كافرين بدين الرسول ﷺ إلا أنهم شاهدوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يكتمونه، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم. وقال أبو مسلم: هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول ﷺ يذكر كل شيء، ويقول: إنه عن الوحي، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ ﴾ أي بالله وآياته

(٢٨٩٦) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٥١-٢٥٢.

(٢٨٩٧) سورة التوبة الآية ٦٤.

ورسوله، وهو أمر تهديد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ أي مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه من إنزال السورة، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة في قلوبكم الفاضحة لكم[٢٨٩٨].

١٩٥٢- اعتذار المنافقين قبيح كفعلهم القبيح:

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[٢٨٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾ أي سألت المنافقين عن إتيانهم بتلك القبائح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي في الاعتذار إنه لم يكن منا ذلك عن طريق الجدّ والاعتقاد، حتى يكون نفاقاً وكفراً، بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ أي ندخل هذا الكلام لترويح النفس، ﴿وَنَلۡعَبُۚ﴾ أي نمزح. ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي في ترويحكم ومزاحكم، ولم تجدوا لهما كلاماً آخر[٢٩٠٠]؟ والمعنى أن الخوض واللعب إذا كان موضوعه صفات الله، وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة، وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته، كان ذلك استهزاء بها؛ لأن الاستهزاء بالشيء عبارة عن الاستخفاف به، وكل ما يلعب به فهو مستخف به، كما أن من يحترم شيئاً أو شخصاً أو يعظمه، فإنه لا يجعله موضوع الخوض واللعب، والاستفهام عنه للإنكار التوبيخي، والمعنى: ألم تجدوا ما تستهزئون به في خضوكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله، فقصرتم ذلك عليهما، فهل ضاقت عليكم جميع مذاهب الكلام تخوضون فيها وتعبثون دونهما، ثم تظنون أن هذا عذر مقبول، فتدلون به بلا خوف ولا حياء[٢٩٠١].

١٥٩٣- لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم:

قال تعالى عن أولئك المنافقين المستهزئين: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن

(٢٨٩٨) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٣٠.

(٢٨٩٩) سورة التوبة الآية ٦٥.

(٢٩٠٠) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٥٣.

(٢٩٠١) تفسير المنار ج١٠ ص٦١٤.

﴿نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[2902]. أي قد كفرتم بهذا الخوض واللعب بعد إيمانكم، أي بعد إظهاركم الإيمان[2903] أو بعد إيمانكم الذي زعمتموه ونطقتم به[2904]. وقوله تعالى: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ بالتوبة النصوح من الكفر والنفاق، كما حصل لأحدهم المدعو مخشّن بن حُميِّر، والذي استشهد في اليمامة في حروب الردة، وكان قد تاب، ويسمى بـ«عبد الرحمن»، فدعا الله أن يستشهد ويجهل أمره، فكان استشهاده باليمامة ولم يوجد جسمه[2905]. ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ أي تعذيبهم في الآخرة[2906].

١٥٩٤- أهل النفاق متشابهون فيه وصفاً وعملاً:

قال تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[2907].

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ وتقرير قوله ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ هذا ما قاله الزمخشري[2908].

وقال ابن عطية: وقوله سبحانه ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ يريد في الحكم والمنزلة من الكفر[2909].

وقال صديق حسن خان ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ أي متشابهون في الدين كأبعاض الشيء الواحد، وإن ذكورهم كإناثهم، وإنهم متناهون في النفاق والبعد عن

(٢٩٠٢) سورة التوبة الآية ٦٦.

(٢٩٠٣) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٥٤.

(٢٩٠٤) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٥٦.

(٢٩٠٥) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٥٦.

(٢٩٠٦) تفسير المنار ج١٠ ص٦١٦.

(٢٩٠٧) سورة التوبة الآية ٦٧.

(٢٩٠٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٧.

(٢٩٠٩) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٥٧.

الإيمان، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين، ورد لقولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾[2910].

وقال الألوسي: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في النفاق كتشابه أبعاض الشيء الواحد، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة كالماء والتراب. والآية متصلة بجميع ما ذكر من قبائحهم. وقيل هي متصلة بقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ والمراد منها تكذيب قولهم المذكور، وإبطاله وتقرير لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ وما بعده من تغاير صفاتهم، وصفات المؤمنين كالدليل على ذلك[2911].

وقال محمد رشيد رضا في تفسير المنار: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كأن كلاً منهم عين الآخر. ثم بين التشابه بقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2912].

ثم قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ أي بالكفر والمعاصي، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الإيمان والطاعات، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في طاعة الله ومرضاته ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي نسوا الله أن يتقربوا إليه بالإنفاق في سبيله، وفي غير ذلك من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ ونسيان الله لهم هو عبارة عن مجازاتهم على نسيانهم بحرمانهم من فوائد ذكره، وفضيلة التقرب إليه، بالإنفاق والجهاد في سبيله، وغير ذلك من أعمال البرّ، وحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الراسخون في الفسوق، وهو الخروج عن محيط الإيمان وفضائله[2913].

(٢٩١٠) فتح البيان ج٥ ص٣٣٩.

(٢٩١١) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٣٢.

(٢٩١٢) تفسير المنار ج١٠ ص٦١٨.

(٢٩١٣) تفسير المنار ج١٠ ص٦٨٠، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٣٢-١٣٣.

١٥٩٥- جزاء المنافقين:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(٢٩١٤).

قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾ أي ماكثين في نار جهنم مخلدين، هم - المنافقون والمنافقات - والكفار ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ ﴾ أي كفايتهم في العذاب. ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ ﴾ أي طردهم وأبعدهم(٢٩١٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي وللمذكورين عذاب دائم، وهو ما يقاسونه من العذاب غير النار، فهو دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير، أو عذاب في الدنيا، وهو ما يقاسيه هؤلاء المنافقون والمنافقات من تعب النفاق إذ هم دائماً في حذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم(٢٩١٦).

١٥٩٦- المنافقون يقولون كلمة الكفر وينكرونها:

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(٢٩١٧) من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة، وقال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ﴾ وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: أنه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين قال جُلاَس، وهو من المنافقين-: لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شرٌّ من الحمير، فقال له عامر بن قيس: أجل والله إن محمداً لصادق مُصدَّق، وإنك لشر من الحمار، وأخبر عامر بذلك رسول الله ﷺ، وجاء جلاس، فحلف بالله أن عامراً لكاذب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللهم أنزل على نبيك شيئاً، فنزلت هذه الآية، وقيل إنه قول جميع

(٢٩١٤) سورة براءة الآية ٦٨.

(٢٩١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٨.

(٢٩١٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٧-٢٨٨، فتح البيان ج٥ ص٣٤٠.

(٢٩١٧) سورة التوبة الآية ٧٤.

المنافقين، وإن الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان، فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل، ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف. ثم ردّ الله على المنافقين أو على من قال تلك الكلمة، وأنكرها وحلف على إنكاره لها، فقال تعالى مبيناً كذبهم، وأنهم حلفوا أو حلف كذباً، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ وهي ما تقدم بيانه من كلمة جلاس، ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ أي كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم الإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن، والمعنى: إنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ أي همهم بقتل رسول الله ﷺ في أثناء رجوعه من غزوة تبوك، وكانوا بضعة عشر رجلاً، ولكن الله تعالى ردّ كيدهم، وأخبر رسوله ﷺ بصنيعهم. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي ما عابوا وكرهوا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم من فضله، فقد كان هؤلاء المنافقون في ضنك وضيق من العيش، فلما قدم النبي ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم، وكثرت أموالهم، فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ النقمة. وقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَتُوبُوا۟ ﴾ أي فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق ﴿ يَكُ ﴾ أي الذي فعلوه من التوبة ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ في الدين والدنيا. وقد تاب (جلاس) الذي قال كلمة الكفر، وحسن إسلامه[٢٩١٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي يعرضوا عن التوبة والإيمان، ويصروا على الكفر والنفاق ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي يعذبهم بمتاعب النفاق، وما يجلبه عليهم، وسوء الذكر ونحو ذلك. وقيل المراد به القتل ونحوه على معنى أنهم يقتلون إن أظهروا الكفر بناء على أنَّ التولي مظنة إظهار الكفر ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي ويعذبهم الله في الآخرة بالنار وغيرها من أنواع العذاب عقاباً لهم ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في الدنيا، والتعبير بالأرض للتعميم، أي مالهم في جميع بقاعها وسائر أقطارها ﴿ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة، أو المدافعة، وخصَّ ذلك في الدنيا، لأنه لا وليّ ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً، فلا حاجة لنفيه[٢٩١٩].

(٢٩١٨) فتح البيان ج٥ ص٣٥١-٣٥٢.

(٢٩١٩) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٤٠.

١٥٩٧- المنافقون يسخرون من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢٩٢٠]. وهذا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم إن تبرع أحد منهم بمال كثير، قالوا عنه: هذا مرائي، وإن تبرع بشيء يسير، قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا[٢٩٢١]، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقال المنافقون عنه: هذا مرائي، وجاء رجل، فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت هذه الآية. وروى هذا الحديث الإمام مسلم، أيضاً ولكن جاء فيه: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع[٢٩٢٢].

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يعيبون، وهم المنافقون، يعيبون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والمطوعين أي المتطوعين، والتطوع التبرع بما ليس بواجب، فالمراد بالمطوعين المتبرعين بمالهم، ووجه لمزهم المطوعين أنهم يرمونهم بالرياء في تبرعاتهم، وإنفاقهم المال في سبيل الله. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ أي إلا طاقتهم، والجهد: الشيء القليل يعيش به المقل. فكان المنافقون يعيبون هؤلاء المقلين الذين لا يجدون إلا جهدهم، يعيبونهم إذا جاؤوا بالشيء اليسير يتبرعون به في سبيل الله كما جاء في حديث البخاري الذي ذكرناه، قوله تعالى ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ﴾ أي يستهزؤون بهم لقلة ما يتصدقون به مع كون ذلك جهد المقل، وغاية ما يقدرون عليه ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ ﴾ أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ثابت مستمر شديد

(٢٩٢٠) سورة التوبة الآية ٧٩.

(٢٩٢١) معناه: نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق من تلك الأجرة، أو نتصدق بها كلها.

(٢٩٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٧٥-٣٧٦.

الألم في الآخرة[٢٩٢٣].

١٥٩٨- قل نار جهنم أشد حراً:

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[٢٩٢٤].

﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأذن لهم، وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم. ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ خلفه. يقال أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم، ظعنوا ولم يظعن معهم، وقيل هو بمعنى المخالفة، لأنهم خالفوه حيث قعدوا وهو ﷺ قد نهض وخرج للجهاد. وانتصابه على أنه حال أي قعدوا مخالفين له ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ كره المنافقون الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لأنه لا إيمان لهم يبعثهم على الجهاد بخلاف المؤمنين فقد بذلوا أموالهم وأرواحهم جهاداً في سبيل الله بدافع الإيمان الذي ملأ قلوبهم. ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ أي قال المنافقون لإخوانهم في النفاق تثبيتاً لهم على القعود وتواصياً بينهم بالفساد، أو قالوا ذلك للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد، ونهياً عن المعروف وإظهاراً لبعض الأسباب الداعية لهم إلى فرحهم بتخلفهم عن الخروج، لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر. ﴿ قُلْ ﴾ أي قل يا محمد رداً عليهم وتجهيلاً لهم: ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي هي مصيركم بتخلفكم عن الجهاد، وبإصراركم على الكفر والنفاق ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ من هذا الحرّ الذي ترونه مانعاً من النفير، فما لكم لا تحذرون نار جهنم التي هي أشد حراً من هذا الحرّ الذي تتعللون به للقعود عن الجهاد، وتعرضون أنفسكم لها - أي لنار جهنم - بإيثار القعود والمخالفة لله تعالى ولرسوله ﷺ. ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لو كان أولئك المنافقون يعلمون أنها كذلك، أو أن مرجعهم إليها لما آثروا راحة زمن قليل على عذاب الأبد، ومن يفعل ذلك هو أجهل الجاهلين[٢٩٢٥].

(٢٩٢٣) تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٥، فتح البيان ج٥ ص٣٥٥-٣٥٦.

(٢٩٢٤) سورة التوبة الآية ٨١.

(٢٩٢٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩٦، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٥١.

١٥٩٩- فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً:

قال تعالى عن المنافقين: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[٢٩٢٦]. ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾ أمرٌ معناه يعني التهديد وليس أمراً بالضحك، وقال الحسن: فليضحكوا قليلاً في الدنيا ﴿ وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ أي في الآخرة. ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من أنواع المعاصي[٢٩٢٧].

١٦٠٠- المتخلف عن غزوة تبوك لا يؤذن له بالاشتراك في غيرها:

قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾[٢٩٢٨].

قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي إلى طائفة من المنافقين، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، وقيل لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة المنافقين منهم. ﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أي إلى غزوة بعد غزوة تبوك، ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ أي عاقبهم بألا تصحبهم أبداً، وذكر القتال، لأنه هو المقصود من الخروج. ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وهذا تعليل لعدم الإذن لهم بالخروج معه ﷺ، وهو رضاهم بالتخلف عن غزوة تبوك، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۚ.. ﴾[٢٩٢٩] وقوله تعالى: ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ قال ابن عباس أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزوة - غزوة تبوك[٢٩٣٠].

(٢٩٢٦) سورة التوبة، الآية ٨٢.

(٢٩٢٧) تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٦، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٥٢.

(٢٩٢٨) سورة التوبة الآية ٨٣.

(٢٩٢٩) سورة الفتح، الآية ١٥، والمقصود بالمتخلفين هم الذين تخلفواعن الحديبية، والمقصود بالغنائم غنائم خيبر.

(٢٩٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٧٨، تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩٧.

١٦٠١- استئذان المنافقين بالقعود مع قدرتهم على الجهاد:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[٢٩٣١].

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي سورة أو بعض السورة، وقيل هي سورة التوبة. ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ الخطاب للمنافقين، أي أخلصوا في إيمانكم وجهادكم، وإنما قدم الأمر بالإيمان، لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان. ﴿ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ أي ذوو الفضل والسعة والقدرة وأهل الغنى والثروة كذا قال ابن عباس، وقال الأصم: هم الرؤساء والكبراء المنظور إليهم. وخصهم بالذكر، لأن الذم لهم ألزم إذ لا عذر لهم في القعود، ولأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان للقعود. ﴿ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا ﴾ أي قالوا اتركنا ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ أي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمني. ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ والخوالف جمع خالفة، ولذا قيل الخوالف: النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت. ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد، والخروج مع رسول الله في غزوة تبوك في سبيل الله. والطبع على القلوب، والختم عليها عبارة عن عدم قبولها لشيء جديد من العلم والموعظة غير ما استقر فيها، واستحوذ عليها، وصار وصفاً ووجداناً لها. ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه[٢٩٣٢].

١٦٠٢- منافقوا الأعراب:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢٩٣٣].

(٢٩٣١) سورة التوبة الآيتان ٨٦، ٨٧.

(٢٩٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٠، تفسير فتح البيان ج٥ ص٣٦٤-٣٦٥، تفسير المنار ج١٠ ص٦٧٣.

(٢٩٣٣) سورة التوبة الآية ٩٠.

﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ فيها وجهان: (أحدهما): أن يكون أصله المعتذرون، وهم الذين لهم عذر، فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم. (الوجه الثاني): المعذرون من عذر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له، يقال عذر في الأمر إذا قصَّر فيه، واعتذر بما ليس بعذر. فالمعذرون على هذا هم المبطلون، لأنهم اعتذروا بأعذار كاذبة باطلة لا أصل لها، والمعنى أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين. ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن غزوة تبوك، ﴿وَقَعَدَ﴾ طائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقوا الأعراب ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي كذبوا في ادعاء إيمانهم. ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا بل كذبوا الله ورسوله. وأتى بـ﴿مِنَ﴾ التبعيضية، لأن منهم من أسلم فلم يصيبه العذاب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي كثير الألم، فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل، وعذاب الآخرة بالنار المؤبدة[٢٩٣٤].

١٦٠٣- لا يُصدَّق المنافق بعد أن ظهر كذبه ونفاقه:

قال تعالى: ﴿۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢٩٣٥].

قوله تعالى: ﴿۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ بيان لما يتصدى له المنافقون عند رجوع المؤمنين إليهم. والخطاب قيل للنبي ﷺ، وجاء بصيغة الجمع للتعظيم، والأولى أن يكون الخطاب للنبي ﷺ ولأصحابه، لأن المنافقين كانوا يعتذرون للجميع، واعتذارهم هو عن تخلفهم عن غزوة تبوك. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من غزوة تبوك. ﴿قُل﴾ خطاب له ﷺ، وخُصّ بذلك، لأن الجواب وظيفته ﷺ: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا تعتذروا، أي لا تفعلوا الاعتذار، أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير؛ لأننا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ وهذه هي علة للنهي عن

(٢٩٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٠، فتح البيان ج٥ ص٣٦٦-٣٦٧.

(٢٩٣٥) سورة التوبة الآية ٩٤.

الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يُصدَق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مُكذَّب وجب عليه ترك الاعتذار، لأنه من قبيل العبث، وقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علة لانتفاء تصديقهم، لأن الله عز وجل إذا أعلم رسوله ﷺ بأخبارهم، وما في ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع هذا الإعلام تصديقهم في معاذيرهم. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي أتنيبون إلى ربكم بالتوبة النصوح، أم تثبتون على كفركم ونفاقكم. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فهو عالم كل غيب وشهادة، وسر وعلانية، فيجازيكم على حسب ذلك[٢٩٣٦].

١٦٠٤- لا فائدة من معاتبة المنافقين:

قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٢٩٣٧]. ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم. ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي فأعطوهم طلبتهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل لترك معاتبتهم، يعني إن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب من يحتمل منه القبول والرجوع إلى الحق والصواب والتوبة النصوح عما بدر منه من معاصي، أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم توبيخ ولا عتاب، لأن أعمالهم النجسة بلغت من القذارة والكثرة حتى كأنها صيرت ذواتها رجساً، وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، والتحذير من الشر بالمعاتبة ونحوها فليس لهم إلا الترك والإعراض عنهم، إعراض مقت لا إعراض صفح. وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وهذا من تمام التعليل، فإن من كان من أهل النار لا ينفع معه عتاب، ولا دعاء إلى الخير وإقلاع عن الشر[٢٩٣٨].

١٦٠٥- يحلف المنافق ليرضى عنه المؤمن:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

(٢٩٣٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠١-٣٠٢.

(٢٩٣٧) سورة التوبة الآية ٩٥.

(٢٩٣٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٢، فتح البيان ج٥ ص٣٧٥.

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2939].

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ أي إن المنافقين يحلفون للمؤمنين بالله تعالى على ما اعتذروا، لترضوا عنهم أيها المؤمنون، وهذا هو غرضهم في الحلف بالله هو طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم. ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم وحدكم لو حصل لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم غير راضٍ عنهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم[2940]. هذا والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم حتى لو رضي عنهم المؤمنون، هو نهي المؤمنين عن ذلك، لأن الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن، لأن الشأن بالمؤمن أن يرضى عمن يرضى الله عنه، ويسخط على من يسخط الله عليه[2941].

١٦٠٦- الأعراب أشد كفراً ونفاقاً:

قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2942]. الأعراب صيغة جمع، والعرب هذا الجيل المعروف من بني آدم مطلقاً، والأعرب سكان البادية منهم. وفي الأعراب كافر ومنافق ومؤمن، وهذه الآية تتكلم عن كفار ومنافقي الأعراب. قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر الكفار والمنافقين. والحكم على الأعراب بما ذكر هو من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده، إذ ليس كلهم كما ذكر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ..﴾ كما سنذكره. وإنما كان الأعراب كما ورد في هذه الآية الكريمة، وهي كون كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضر، لأنهم أغلظ طباعاً وأقسى قلوباً. وأقل ذوقاً وآداباً، كدأب أمثالهم من بدو سائر الأمم، وعدم مخالطتهم أهل العلم الحكمة، وحرمانهم

(٢٩٣٩) سورة التوبة الآية ٩٦.

(٢٩٤٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٢.

(٢٩٤١) فتح البيان ج٥ ص٣٧٦.

(٢٩٤٢) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

استماع الكتاب والسنة، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن». ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي أن الأعراب أجدر، أي أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى، من الشرائع والأحكام والفرائض وما أُمِرَ به من الجهاد، وما آتاه الله من الحكمة التي بيَّن بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله، لأن فهم ألفاظ القرآن اللغوية لا يكفي وحده في علم حدوده العملية، بل لا بد من معرفة سننه ﷺ القولية والعملية التي هي تطبيق لما أنزله الله في كتابه العزيز. وكان أهل المدينة المنورة وما حولها من القرى يتلقون عنه ﷺ كل ما ينزل من القرآن وقت نزوله، ويشهدون سننه في العمل به ولم يكن هذا كله ميسوراً لأهل البوادي. فالأعراب أجدر وأحق بالجهل من الحضر؛ لطبيعة البداوة، ولما ذكرنا من أسباب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي عليم، يعلم أحوال أهل البوادي والحضر، وعليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم والحكمة، حكيم فيما قسَّم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق لا يُسْأَلُ عما يفعل لعلمه وحكمته(٢٩٤٣).

١٦٠٧- من أوصاف منافقي الأعراب:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(٢٩٤٤) أي ومن الأعراب المنافقين من يعتبر ما ينفق، أي يصرفه في سبيل الله تعالى ويتصدق به ﴿مَغۡرَمٗا﴾ أي غرامة وخسراناً، لأنهم لا ينفقونه احتساباً ورجاءً لثواب الله تعالى؛ ليكون لهم مغنماً، وإنما ينفقونه تقيةً ورئاء الناس، فيكون غرامة محضة، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ أي ينتظر بكم

(٢٩٤٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٣، تفسير الألوسي ج١١ ص٤، تفسير المنار ج١١ ص٨.

(٢٩٤٤) سورة التوبة الآية ٩٨.

الدوائر، أي نوب الدهر ومصائبه التي تحيط بالمرء؛ لينقلب بها أمركم ويتبدل بها حالكم من حال القوة والعزة والانتصار إلى حال الضعف والذل والهزيمة، فيستريح هؤلاء المنافقون من أداء هذه المغارم لكم بالتبع لخروجهم من طاعتكم، والخوف منكم، والاستغناء عن إظهار الإسلام نفاقاً لكم. قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين. والسوء مصدر ساءه الأمر ضد سرّه. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع بمقالاتهم الشنيعة عند الإنفاق، عليم بنياتهم الفاسدة التي من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر[٢٩٤٥].

١٦٠٨- من الأعراب مؤمنون:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٩٤٦] والمعنى العام لهذه الآية الكريمة: وهذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، وأن ذلك حاصل لهم، و سيدخلهم الله في رحمته[٢٩٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ويتخذ ما ينفقه سبباً لحصول القربات عند الله تعالى، أي سبباً لما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي ويتخذ ما ينفقه سبباً لدعوات الرسول ﷺ لهؤلاء المنفقين، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ ومنه قوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه، بأن تكون نفقته كما أراد ورجى وأملّ. ثم فسرّ تعالى القربة أو مآلها، فقال تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ والسين في ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ لتحقيق هذا الوعد.

(٢٩٤٥) تفسير الألوسي ج١١ ص٥، تفسير المنار ج١١ ص١٠.

(٢٩٤٦) سورة التوبة، الآية ٩٩.

(٢٩٤٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٣.

وما أدلّ هذا القول على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها[2948].

١٦٠٩- مسجد الضرار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2949].

١٦١٠- سبب نزول آيات مسجد الضرار:

كان في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وشرف كبير في الخزرج، فلما قدم رسول الله ﷺ، وأخذ الإسلام بالانتشار، ونصر الله رسوله والمسلمين في معركة بدر، أظهر أبو عامر عداوته وحسده لرسول الله ﷺ ولدينه ولأصحابه. وبلغت به عداوته للإسلام أن خرج إلى مكة يحرض قريشاً على محاربة النبي ﷺ، وحصلت معركة أحد. وكان هذا الخبيث قد حفر حفائر في ساحة المعركة فيما بين المسلمين والمشركين، وقد وقع في إحداهن رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلىٰ الإسلام قبل فراره إلى مكة فأبى أن يسلم وتمرد. وبعد معركة أحد ذهب هذا الخبيث إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، وكتب إلى جماعة من إخوانه المنافقين، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يرسله إليهم من أعوانه المنافقين. فشرعوا في بناء مسجدهم، وأتموه قبل خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، فجاؤوا إليه، وسألوه أن يصلى فيه، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال لهم: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله. .» فلما رجع ﷺ وقبل وصوله إلى المدينة نزل عليه الوحي يخبره بصنيع أولئك المنافقين، وما كان

(٢٩٤٨) تفسير الكشاف ج٢ ص٣٠٣-٣٠٤.

(٢٩٤٩) سورة التوبة، الآيتان ١٠٧، ١٠٨.

قصدهم من بنائه، كما ورد في القرآن العظيم، وأمر الله بهدمه، فأرسل إليه ﷺ من هدمه[٢٩٥٠].

١٦١١- تفسير آيات مسجد الضرار:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي ومن المنافقين الذين ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي بنوا ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء من المسلمين الصادقين، ﴿وَكُفْرًا﴾ أي تقوية للكفر الذي يضمرونه، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تفريقاً بين الذين كانوا يجتمعون في مسجد قباء - وهو الذي بناه رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة - اجتماعاً واحداً يؤدون فيه الصلاة جماعة متآلفة قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي إعداداً وترقباً وانتظاراً، ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي كفر بالله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الراهب الذي سماه رسول الله ﷺ «فاسقاً» وكانوا أعدوه له؛ ليصلي فيه، وليلتقوا فيه رسله إليهم بما يرسلهم به من تعليماته وخططه وكيده.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي بعد ظهور نواياهم ومقاصدهم الخبيثة ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، أو الإرادة الحسنى. وهي الصلاة وذكر الله، والتوسعة على المصلين. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي كاذبون في حلفهم. ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تصلّ فيه في أي وقت من الأوقات لكونه موضع غضب الله، ولذلك أمر الله بهدمه وإحراقه كما يأتي. ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي بنيت قواعده على طاعة الله وذكره، وقصد التحفظ من معاصي الله بفعل الصلاة فيه، والصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، وهو مسجد قباء ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي تصلي فيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة[٢٩٥١].

١٦١٢- الفرق بين مسجد التقوى ومسجد الضرار:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

(٢٩٥٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٧-٣٨٨.

(٢٩٥١) تفسير القاسمي ج٨ ص٣٢١-٣٢٢.

﴿بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢٩٥٢).

والمعنى: أفمن أسَّس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد، وأرخاها وأقلها بقاءً وهو الباطل والنفاق، الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في قلة الثبات والاستمساك. والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشفا على التهدم والسقوط. وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار. فكلم بنو عمر بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا. أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليَّ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً. فعذره عمر رضي الله عنه وصدقه وأمره بالصلاة بقومه(٢٩٥٣).

١٦١٣- المنافق بكيده للإسلام يزداد نفاقاً:

قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢٩٥٤) ﴿رِيبَةً﴾ شكاً في الدين ونفاقاً، وكان القوم منافقين، وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم، كما قال عز وجل: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ فلما هدمه رسول الله ﷺ ازدادوا تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام. فمعنى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم، ولا يضمحل أثره ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً وتتفرق أجزاءً، فحينئذ يسلون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها. وقيل: معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على

(٢٩٥٢) سورة التوبة الآية ١٠٩.

(٢٩٥٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٢.

(٢٥٩٤) سورة التوبة الآية ١١٠.

تفريطهم[٢٩٥٥]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله عليم بأعمالهم وأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر[٢٩٥٦].

المطلب الخامس
المستفاد
من غزوة تبوك

١٦١٤- التورية والتصريح:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ لم يكن يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها إلا في غزوة تبوك، حيث إنه ﷺ صرح بها. والمقصود بالتورية أن تذكر لفظاً يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر، فيظن السامع أنك تريد المعنى القريب، لكونه هو المتبادر إلى الفهم، وأنت تريد المعنى البعيد. فيجوز لأمير جماعة الدعاة، وللداعي في نطاق إمرته على من معه التورية، حيث يرى أن الحزم والاحتياط والحذر المشروع يقتضي ذلك كله الأخذ بالتورية فيما هو عازم عليه أو ماضٍ فيه. ويصرح بما هو عازم عليه إذا رأى المصلحة في التصريح، كأن يحمل هذا التصريح أتباع الأمير بأخذ الأهبة والاستعداد لما هم قادمون عليه. وهذه كلها مسائل اجتهادية يختلف الحكم فيها باختلاف طبيعتها والظروف المحيطة بها. فيُترَكُ تقديرها والأخذ بالتورية أو التصريح لأمير الدعاة، أو للداعي في إمرته على من معه.

١٦١٥- تذكير المسلمين بالجهاد وبقصة البكائين:

على الدعاة تذكير المسلمين بالجهاد، وتكرار هذا التذكير، لأن المسلمين اليوم بحاجة شديدة، بل وضرورة لهذا التذكير، لقصورهم الشديد في حق الجهاد ومتطلباته، وعلى الدعاة أن يذكروا في تذكيرهم ما عاتب الله به المؤمنين، وهو ما ذكرناه من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وما توعد الله به المتخلفين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا..﴾ الآية. وفي قوله تعالى، داعياً المؤمنين إلى الجهاد في

(٢٩٥٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٢-٣١٣.

(٢٩٥٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٩١.

جميع أحوالهم، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا . .﴾ الآية. ويذكروهم بمضامين ومعاني هذه الآيات وقد ذكرناها[٢٩٥٧]: وعلى الدعاة أيضاً أن يثيروا غيرة المسلمين وحماسهم بما يقصون عليهم من قصص سلفنا الصالح، وعلى رأسهم الصحابة الكرام في معاني الجهاد في سبيل الله، ومنها قصة البكائين، الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليحملهم معه إلى الجهاد بالخروج إلى غزوة تبوك. فلما قال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه» تولوا وأعينهم تفيض من الدمع[٢٩٥٨]. ومن القصص النافعة في إثارة حمية المسلمين للجهاد التي يستعين بها الدعاة وبأمثالها في أثناء تذكيرهم الجهاد ما ذكره القرطبي في تفسيره، ومنها[٢٩٥٩]:

روى حماد عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن أبا طلحة رضي الله عنه قرأ سورة «براءة» فأتى على قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: شباناً وكهولاً. وقال: يا بنيّ، جهزوني، جهزوني - أي أعدوا لي عدة الخروج للقتال - فقال بنوه: يرحمك الله، لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. قال: لا، جهزوني، فغزا في البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها ولم يتغير رضي الله عنه.

وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب - الفقيه التابعي المشهور - إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه. فقيل له: إنك عليل. فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثَّرتُ السواد - أي سواد المسلمين، أي عددهم - وحفظت المتاع.

ولقد قال ابن أم مكتوم رضي الله عنه - واسمه عمرو - يوم أحد: أنا رجل أعمى، فسلموا لي اللواء، فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش، وأنا ما أدري من يقصدني بسيفة فما أبرح، أي فما أتحول عن مكاني وأنهزم.

وذكر ابن جرير الطبرى[٢٩٦٠]. عن حيان بن زيد قال: نفرنا - خرجنا للجهاد -

---

(٢٩٥٧) انظر الفقرات ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٥٠.

(٢٩٥٨) انظر الفقرة ١٥٥٢.

(٢٩٥٩) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥١.

(٢٩٦٠) نقلاً عن تفسير القاسمي ج٨ ص٢١٩-٢٢٠.

مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص، فرأيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من كبره من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه، فقلت يا عم: لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي: استنفرنا الله خفافاً وثقالاً.

وكان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه - الذي نزل عنده رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة يوم هاجر إليها - يقرأ هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ويقول: فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً، ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون إلا عاماً واحداً. وقد اشترك في الحملة التي نظمها الأمويون في أوائل الدولة الأموية، لفتح القسطنطينية، وقد صار شيخاً كبيراً، فاستشهد هناك خارج أسوار القسطنطينية، ودفن هناك.

١٦١٦- أمير الدعاة يتلقى التبرعات للجهاد:

ومن تذكير الدعاة للمسلمين بالجهاد، تذكيرهم بالجهاد بالمال، وقد قدمه الله تعالى على الجهاد بالنفس، فقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قال القرطبي: وقدم الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز، فرتب الأمر كما هو في نفسه[٢٩٦١]. والواقع أن إنفاق المال ضروري للقيام بالجهاد بالنفس لأن به يمكن تهيئة مستلزمات ومتطلبات الجهاد بالنفس، مثل إعداد وسائل القتال والنقل وإطعام المجاهدين ونحو ذلك. وقد ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ حثّ على التبرع بالمال إعداداً لغزوة تبوك، وأنه ﷺ كان يتلقى هذه التبرعات الكثير منها واليسير[٢٩٦٢].

فينبغي للدعاة وأميرهم أن يجلسوا لتلقي التبرعات، فقد يكون هذا من وسائل الحث المشروعة على التبرع، ولا بأس من الثناء على المتبرعين بالمال الكثير، فقد أثنى رسول الله ﷺ على عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قدم مالاً كثيراً تبرعاً منه؛ لتجهيز غزوة تبوك، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما على عثمان ما عمل بعد اليوم»

(٢٩٦١) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٣.

(٢٩٦٢) انظر الفقرة ١٥٣٧.

وهذا مع الدعاء لكل متبرع وإن قلّ تبرعه. وقد يكون من المفيد في الوقت الحاضر، أن يدعو الدعاة وأمير جماعتهم إلى إنشاء صندوق؛ لجمع التبرعات لأغراض الجهاد بالنفس، تصرف على المتطوعين في نصرة المسلمين المعتدى عليهم بالقتال. كما حصل في البوسنة والهرسك وقبله في أفغانستان، وهذا بالإضافة إلى ما يدعى إليه المسلمون من التبرع حين وقوع الاعتداء الفعلي على المسلمين؛ ليصرف ما جمع سابقاً وما يجمع لاحقاً على المتطوعين بالقتال مع إخوانهم المسلمين.

١٦١٧- اختيار أمير جماعة الدعاة من يخلفه في غيبته:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك استخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، واستخلف على أهله علي بن أبي طالب. فينبغي لأمير جماعة الدعاة أن يعين من يخلفه في إمرته على جماعته في حال غيبته، أو في حال انشغاله بأمور الدعوة الطارئة. كما يجوز لأمير الجماعة أن يستثني أحد أعضائها من الاشتراك في العمل الجماعي الذي يساهم فيه جميع الدعاة؛ لينيط بهذا المستثنى رعاية أهل الأمير المسؤول عن رعايتهم ما دام الأمير يشترك مع الدعاة فيما يقومون به، ويحبذ أن يكون من أقارب الأمير الأقربين، أسوة باختياره عليه الصلاة والسلام علياً لرعاية أهله.

١٦١٨- الإسراع في أداء الواجب:

الدنيا تفر، والتباطؤ في أداء الواجب فيه آفات، فالحزم المبادرة إلى أداء الواجب والإسراع فيه، فعلى الدعاة وأمير جماعتهم، أن يعرفوا ذلك، ولهم في قصة أبي خيثمة لعبرة، وإن كان قد تدارك ما فاته بسبب تباطئه. ولكونه وقع في محذور التباطؤ الثلاثة الذين خلفوا، وستأتي قصتهم ووجه العبرة فيهم، ومثل هؤلاء الثلاثة أبو لبابة وجماعته. أما أبو خيثمة فقد مرت قصة، وفيها أنه تباطأ في الخروج مع النبي ﷺ، فلما عاد إلى بيته وقد خرج رسول الله ﷺ، ورأى ما هيأته له زوجتاه، قال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحرّ وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام شهي وامرأة حسناء، ما هذا بالعدل ولحق حالاً بالنبي ﷺ حين نزل بتبوك[٢٩٦٣].

(٢٩٦٣) انظر الفقرة ١٥٤١.

فأبو خيثمة تدارك تقصيره، ولكن الثلاثة الذين خلفوا، وأبو لبابة وجماعة لم يتداركوا تقصيرهم وتباطؤهم، حتى رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان من أمرهم ما كان[٢٩٦٤]، وهو ما سنشير إليه فيما بعد إن شاء الله تعالى عند كلامنا عما يستفاد من قصتهم.

فعلى الدعاة أن يبادروا حالاً إلىٰ أداء ما يعهده إليهم أميرهم، وإن كان في الوقت متسع، لأن في التأخير آفات، وقد تحدث عوائق تمنع إنجاز العمل عندما ينهض إليه الدعاة. إن المبادرة إلى أداء متطلبات الدعوة هو من مظاهر الجدية في العمل والنشاط والرغبة فيه والحرص عليه، فليكن شعار الدعاة وجماعتهم وأميرهم المبادرة والإسراع في أداء متطلبات الدعوة، وعدم تأخير إنجازها، وهذا كله إذا لم تكن مطلوبة على الفور أو لم يصدر بها أمر من الأمير بانجازها فوراً. إن أداء الصلاة في أول وقتها أفضل من تأخيرها بلا مبرر، فكذا يجب أن ينظر الدعاة إلى أعمال الدعوة يؤدونها، حالاً وإن احتمل أداؤها التأخير، ليظفروا بالأجر والثواب، وينجو من مخاطر التأخير، وليكونوا قدوة حسنة لسائر المنتسبين إلى جماعتهم، جماعة الدعاة.

١٦١٩- معجزات النبي ﷺ:

وفي أثناء سير النبي ﷺ إلى غزوة تبوك وقعت معجزات لرسول الله ﷺ، وهي معجزة تكثير الطعام، وإنزال الغيث، فأكلوا وشبعوا وسقوا لما ذكرنا ذلك[٢٩٦٥]. فعلى الدعاة أن يذكروا ذلك للمسلمين في أثناء دروسهم ومحاضراتهم، وحذار من تأويل هذه المعجزات بما يخرجها عن كونها معجزة، كما يفعل بعض الكتاب في الأمور الدينية. وهذا لا يمنع من القول، مع ذكر هذه المعجزات المادية، بأن معجزة القرآن هي أعظم معجزاته ﷺ. كما أن على الدعاة وهم يذكرون هذه المعجزات لرسول الله ﷺ أن يبينوا بأن المسلمين الذين أصابتهم تلك المعجزات، وانتفعوا بها إنما حصل لهم ذلك، بمتابعتهم لرسول الله ﷺ، وفي خروجهم معه للجهاد، فلا يبعد إذا قام المسلمون بالجهاد الخالص في سبيل الله أن ييسر الله لهم

(٢٩٦٤) الفقرات ١٥٥٥-١٥٥٩.

(٢٩٦٥) الفقرة ١٥٤٢.

في جهادهم من خوارق العادات ما يعتبر بحق معجزة لرسول الله ﷺ. لأن الذي يتيسر لهم من هذه الخوارق التي ينتفعون بها، إنما تحصل لهم بمتابعتهم لرسول الله ﷺ وجهادهم في سبيل الله. وقد حصل هذا فعلاً للمجاهدين في أفغانستان، ولغيرهم في أماكن الجهاد الأخرى للمسلمين. فعلى الدعاة أن يذكروا ذلك للناس في محاضراتهم وخطبهم، ليزداد المؤمنون إيماناً.

١٦٢٠- المعذور من عذره الله:

إن المتخلف عن الجهاد بالنفس لا يكون تخلفه مقبولاً إلا إذا كان بسبب يعذر به شرعاً، فالمعذور من عذره الله، وهم الذين ذكر الله أعذارهم وتكلمنا عنهم كالضعفاء والمرضى والعميان ونحوهم[٢٩٦٦]. أما غير هؤلاء أمثال: الجبناء، والمؤثرون للراحة والعافية، والمقدمون رغبات أحبابهم أو أهليهم على واجب الجهاد العيني، فهؤلاء لا يعذرون عند الله، ويكون تخلفهم علامة على ضعف إيمانهم، أو علامة على نفاقهم، فإن من صفات المنافقين إيثارهم القعود عن الجهاد في سبيل الله، فكيف إذا كان الجهاد بالقول، ومع هذا يتخلف عنه المسلم القادر عليه، أو يكسل فيه الداعية؟

١٦٢١ - المشاورة في جميع الأحوال:

ذكرنا فيما سبق أن النبي ﷺ شاور أصحابه وهو في تبوك في مسألة ملاحقة الروم في بلاد الشام ومنازلتهم هناك بعد أن رآهم قد أنسحبوا، ولم يجد منهم أحداً في تبوك. فأشار عليه عمر بن الخطاب بالرجوع إلى المدينة؛ لأسباب ذكرها، فأخذ النبي ﷺ برأيه[٢٩٦٧]. فعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إذا كان معهم في عمل جهادي يقومون به أن يستشيرهم فيه وفيما يتعلق به، وكذلك إذا أرسل أحد الدعاة في إمرة جماعة منهم لعمل ما أن يوصيه بأن يشاور جماعته فيما يتعلق بالمهمة التي خرجوا من أجلها. إن المشاورة من شرع الإسلام ولا تأتي إلا بخير عند

(٢٩٦٦) الفقرات ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣.

(٢٩٦٧) الفقرة ١٥٤٤.

صفاء النيات، والإخلاص لله تعالى في الأعمال. فليكن الحرص عليها من مظاهر عمل الجماعة المسلمة جماعة الدعاة.

١٦٢٢ -جواز الهجر للتأديب:

ذكرنا أن النبي ﷺ أمر بهجر الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك وعدم تكليمهم[٢٩٦٨]. وعلى هذا يجوز لأمير جماعة الدعاة إذا وجد تقصيراً في أعمال الدعوة من أحد أفراد جماعته أن يأمر بهجره، وعدم الكلام معه تأديباً له وزجراً. وإن كان الهجر لأكثر من ثلاث أيام، أما النهي عن الهجر فوق الثلاث، فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعياً[٢٩٦٩] ولكن على أمير الجماعة أن يلاحظ مدى تحمل من يريد تأديبه بالهجر هذا الهجر، فإن رآه لا يتحمل ذلك اكتفى بوعظه وإرشاده، أو بغير ذلك مما يسهل على هذا الداعية تحمله. والثلاثة الذين خلفوا كانت عندهم من الصلابة في الدين ما جعلهم يتحملون العقاب والتأديب، وقد دلَّ على قدرتهم على هذا التحمل اعترافهم بأن تخلفهم عن غزوة تبوك ما كان عن عذر مطلقاً.

١٦٢٣ - على الدعاة أن يتحملوا العقاب والتأديب:

إن الجدية في العمل الدعوي الجماعي يقتضي محاسبة الدعاة، أعضاء جماعة الدعاة، إذا صدر من أحدهم تقصير واضح في حق الدعوة، وفي أعماله المطلوبة منه في مجال الدعوة. ومن مظاهر هذه الجدية، حق أمير الجماعة في محاسبة المقصر من أعضاء جماعته، ومعاقبته أو تعزيره بالهجر أو بغيره كما قلنا. وأما بالنسبة للداعية المعاقب لتقصيره، فالمطلوب منه أن يتلقى هذا العقاب بنفس رضية بعيدة عن التسخط وعدم الرضا، لأن علاقته بالجماعة وبأميرها أوثق وأكبر من علاقة الموظف بدائرته وبرئيسها، فهو يتحمل عقاب رئيسه على إخلاله بعمله ولا يحمله على ترك وظيفته، فينبغي أن لا يكون الداعية أقل من هذا الموظف الحكومي، لأنه يعمل لله، وطاعته للجماعة وأميرها هي طاعة لله، ويتذكر طاعة الثلاثة الذين خلفوا لما صدر بحقهم من رسول الله ﷺ من هجر وعدم الكلام معهم مدة خمسين يوماً.

(٢٩٦٨) الفقرة ١٥٥٨.

(٢٩٦٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٢٤.

وليعلم الداعية أن ما يصيبه مما يثقل على نفسه، سواء من جماعته أو من غيرها، إنما هو من الامتحان الذي يُمتَحن به الداعية، وأن يتحمل ذلك في سبيل الله، وطاعة له؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون مستحقاً لما أنزلته الجماعة من عقاب فيه، فلا يجوز أن يتسخطه، وإما أن لا يكون مستحقاً له، فعليه أن يتحمله ويحتسبه عند الله، لأنه جاء إلى جماعة الدعاة؛ ليخدم الإسلام، ويقوم بواجب الدعوة عليه، فلا يجوز أن يتخلى عن ذلك بسبب ما صدر من أميره نحوه وقد يكون مجتهداً فيه.

١٦٢٤ - سرور أمير الجماعة بما يسر أعضاءها:

ذكرنا في قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك أن النبي ﷺ ظهر السرور على وجهه الكريم عندما نزل عليه الوحي بتوبة الله عليهم. وهكذا الشأن بأمير جماعة الدعاة يسره ما يسر أتباعه، وأن يظهر ذلك منه في كل مناسبة تدعو إلى هذا الإظهار. إنه كالأب لهم وكالأخ الكبير لهم، ولكن هذا لا يمنعه من معاملتهم بالجدية كما يفعل رب الأسرة الحكيم مع أبنائه.

١٦٢٥ - على الدعاة أن يصدقوا فيما يقولون:

ذكر أن الثلاثة الذين خلفوا صدقوا رسول الله ﷺ فيما أخبروه عن سبب تخلفهم عن غزوة تبوك، إذ قالوا ما كان لنا عذر، وكان نتيجة صدقهم أن أنعم عليهم بتوبته، فعلى الدعاة أن يصدقوا فيما يقولون، وفيما يخبرون به أمير جماعتهم فيما يتعلق بأعمالهم الدعوية، فإن صدقهم هذا لا يجلب لهم إلا الخير وثقة أميرهم بهم، بل ويعينهم على معرفة أسباب تقصيرهم في أعمال الدعوة، حيث إن أميرهم وقد سمع حديثهم بصراحة وصدق يمكنه أن يتصرف معهم في ضوء ذلك بتوجيه النصح والإرشاد، أو بإزالة ما دعاهم إلى التقصير في عملهم، أو بتكليفهم بأعمال غير المكلفين بها، وعلى كل حال فإن الصدق من الصفات الأصيلة في المسلم، فعلى الداعي أن يتمسك بالصدق في جميع ظروفه، وفي جميع علاقاته، ولا يجوز أن يتخلى عن الصدق في علاقاته مع أفراد جماعته أو مع أميرها.

١٦٢٦ - على الدعاة تذكير الناس بمنزلة الصحابة الكرام:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي

سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٩٧٠]. فهذه الآية تبين منزلة المهاجرين والأنصار وهم صحابة رسول الله ﷺ، الذين اتبعوه في جيش العسرة في غزوة تبوك، فتصرح بتوبة الله عليهم، وتوبة الله على الإنسان فضل كبير عليه، ثم تصرح بأن الله تعالى بهم رؤوف رحيم، وهذه نعمة أخرى وفضل كبير عليهم. فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك للناس، ويذكروا لهم هذه الآية والتي قبلها ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢٩٧١] وغيرها من آيات كتاب الله العزيز في مدح الصحابة والثناء عليهم. لا سيما في الأماكن التي يشيع فيها الجهل إلى درجة أن بعض المسلمين لجهلهم يعتقدون أن من التقرب إلى الله كره الصحابة وسبهم، وهم في هذا المسلك مع ما ينالهم من العقاب ومن سخط الله عليهم، فإنهم ليفوتهم خير كثير من الاطلاع على سيرة الصحابة الكرام والتأسي بهم. فعلى الدعاة أن يولوا هذه المسألة عنايتهم، ويذكروا للناس من قصص جهادهم في سبيل الله، ومن متابعتهم لرسول الله ﷺ ما يزيل هذه الجهالة عن قلوبهم.

١٦٢٧ - على الدعاة الحذر من صفات المنافقين:

جاء في سورة التوبة آيات كثيرة عن المنافقين بمناسبة الكلام عن غزوة تبوك، وتخلفهم عنها فعلى الدعاة أن يقرؤوها بإمعان؛ ليحذروا ما جاء فيها من صفات المنافقين، لأنَّ ما قبح من المنافقين يقبح من المسلمين إذا فعلوه، وقد ذكرنا هذه الآيات مع تفسير موجز لها. ونذكر بعض ما يستفاد منها للدعوة والدعاة.

١٦٢٨ - عمل الدعاة يشمل المكان البعيد والقريب:

عمل الدعاة تبليغ موضوع دعوتهم - وهو الإسلام - للناس في أي مكان يمكن الوصول إليه، فلا يقتصر عملهم على المكان القريب، بل يشمل أيضاً المكان البعيد. لأن الذي يحرك الدعاة في تنقلاتهم، والأماكن التي يقصدونها للدعوة ليس

(٢٩٧٠) سورة التوبة الآية ١١٧.

(٢٩٧١) سورة التوبة الآية ١٠٠.

قربها، وإنما ما تقضي به مصلحة الدعوة من ضرورة توجه الدعاة إلى هذا المكان أو ذاك. وعلى هذا الأساس فأي اعتبار آخر غير اعتبار مصلحة الدعوة وما تقضي، به أو تقتضيه هذه المصلحة من انتقال الداعية أو الدعاة إلى هذا المكان أو ذاك، بغض النظر عن بعده وعن مشقة الوصول إليه.

أقول: إن ملاحظة الداعي لغير مصلحة الدعوة يعني اعتباره المنافع المادية والمعنوية لشخصه، وتقديمها على مصلحة الدعوة، وليس هذا من صنيع الدعاة المخلصين، وبالتالي يكون لمن يفعل ذلك نصيب من الذم الذي تضمنته الآية الكريمة في المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والعرض القريب يعني منافع الدنيا ومتاعها التي يسهل الظفر بها[٢٩٧٢]. ولا شك أن منافع الدنيا ومتاعها تشمل المنافع المادية والمعنوية التي يتطلع إليها الإنسان، ومن المعنوية حب السمعة والظهور وثناء الناس، وهذه قد يحصل عليها الإنسان في الأماكن القريبة، مثل حواضر المدن حيث يكثر المستمعون لخطب الداعية بخلاف الأماكن البعيدة التي لا يُتفطَن إليها ولا يتحقق فيها القدر الكافي من السمعة والظهور؛ لبعدها ولكون أهلها من المغمورين والفقراء. وعلى هذا فإذا كلف أمير جماعة الدعاة أحدهم، أو بعضاً منهم للذهاب إلى مكان بعيد في الوصول إليه مشقة ظاهرة، ولكن يحقق مصلحة مؤكدة للدعوة، فلا يجوز للمكلفين رفض هذا التكليف أو رده، أو الاعتذار منه بالمعاذير الواهية التي هي من جنس معاذير المنافقين الواردة في الآية التي ذكرناها، وهذا ما نعيذهم بالله منه. فعلى الدعاة أن يجاهدوا أنفسهم، ويحملوها على قصر نظرها على ما تقتضيه مصلحة الدعوة فقط دون غيرها، وإن كان تحقيق هذه المصلحة يستلزم تحمل المشاق كمشقة الوصول إلى الأماكن البعيدة النائية.

١٦٢٩ - العمل الدعوي يسبقه عزم عليه وإرادة له:

إن عمل الإنسان ما كان يمكن أن يحصل من غير إرادة له سابقة عليه، وعزم على

(٢٩٧٢) انظر الفقرة ١٥٧١.

إيقاعه، فعلى الدعاة أن يعزموا عزماً عاماً، وإرادة عامه؛ لإيقاع أعمال الدعوة ومتطلباتها. ثم إرادة خاصة جازمة للقيام بعمل معين. فإذا وجدت الإرادة العامة والإرادة الجازمة الخاصة صدر العمل الدعوي من الداعية، فإذا لم يقع العمل الدعوي المطلوب من الداعية أو المرجو وقوعه منه دلّ هذا التخلف على عدم وجود عزم على إيجاد هذا العمل، ولا إرادة جازمة لإيجاده، فعلى الدعاة إذا وجدوا من أنفسهم كسلاً أو فتوراً في القيام بما هو المطلوب منهم أو المرجو منهم فليعلموا أنَّ مرد ذلك خلو نفوسهم من الإرادة الجازمة لإيجاد هذا العمل، فعليهم أن يكونوها في أنفسهم مستحضرين أن ذلك واجب عليهم، لأنه وسيلة لأداء الواجب وهو القيام بالعمل، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وحذار من الاعتذار مع الغفلة عن السبب الحقيقي لكسلهم، وعدم قيامهم بالعمل المطلوب، وقد ذم الله تعالى المنافقين على تخلفهم عن غزوة تبوك بحجة عدم قدرتهم على الخروج، فكذّبهم الله تعالى بأن السبب هو عدم إرادتهم الخروج مع رسول الله ﷺ، فقال تعالى عنهم: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً . . . ﴾ إن الإرادة الجازمة تستلزم العمل المناسب لها. فعلى أمير الجماعة، جماعة الدعاة، أن يبين لهم ذلك إذا رأى منهم أو من بعضهم أو من أحدهم تباطؤاً أو كسلاً في أداء العمل، أو عدم القيام به أصلاً حتى تكون المعالجة جذرية تبدأ من العزم والإرادة. والذي يساعد على إيجاد الإرادة الجازمة تذكير الدعاة بأن من الوفاء للدعوة، وتعهدهم بالعمل لها، إيجاد الإرادة الجازمة التي تستلزم العمل الذي تعهدوا، وعاهدوا الله عليه باعتباره من أعمال الدعوة التي جرى عليها العهد والالتزام.

١٦٣٠- لا يجوز إشراك المنافقين فيما يقوم به الدعاة:

قد يندس بعض المنافقين في صفوف الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وقد يتظاهر أنه منهم، فهذا أمر ممكن الوقوع في أية جماعة، ولم يسلم منها حتى المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ، ولكن كان من فضل الله على المسلمين أن بيّن لهم علامات المنافقين، ليستهدوا بها في معرفتهم لهم إن لم يكن على وجه اليقين، فعلى وجه الظن الراجح الذي يحمل المسلمين على الحذر والوقاية منهم. وعلى هذا فإذا تبين لجماعة الدعاة وأميرهم أن هذا من المنافقين، أو غلب على

ظنهم أنه منهم، وجاء للكيد للجماعة، فعليهم أخذ الحذر منه، ولا نريد بالمنافقين المندسين في صفوف جماعة الدعاة، المنافقين النفاق الأكبر أي الذين يبطنون الكفر، وإنما نريد المنافقين الذين يبطنون الكره للدعوة أو للدعاة أو لجماعتهم، فهم يريدون الاطلاع على ما عندهم، والكيد لهم، والكذب عليهم ونحو ذلك. فمثل هؤلاء، لا يجوز إشراكهم في أعمال الدعوة والدعاة، كالخروج إلى السفر أو التنقل بين أماكن الدعوة، أو حضورهم مع الدعاة في اجتماعاتهم الخاصة ونحو ذلك. وإنما أقصى ما يسمح لهم قبولهم في الاجتماعات العامة لجماعة الدعاة، التي يحضرها عموم المؤيدين والمناصرين، وفي تكليفهم بأعمال خاصة بأنفسهم كقراءة كتاب إسلامي نافع وتلخيصه، وكاقتراح يقدمونه من تلقاء أنفسهم ونحو ذلك. فهذا الاحتياط مطلوب للوقاية من شرور هؤلاء المنافقين المندسين، لأن هذا ديدنهم، قال تعالى عن أسلافهم القدامى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد بينا تفسير هذه الآية[٢٩٧٣]. فهم يسعون للإفساد بين الدعاة أو بين المؤمنين المنتسبين لهذه الجماعة المؤيدين لها، ويبثون الأكاذيب، وما يثبط عن العمل.. كما فعل الذين تشير إليهم هذه الآية، وهم حريصون على الإفساد والإضرار بجماعة الدعاة، كما فعل أسلافهم. وأشار القرآن إلى ذلك بقوله عنهم: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٢٩٧٤].

١٦٣١- سرور المنافقين بمصائب المؤمنين:

من علامات أهل النفاق أنهم يفرحون بما يحل في الدعاة من مصائب ونكبات وأذى وأضرار، ويظهر فرحهم على وجوههم، وفي تكلفهم إظهار الحزن لما أصاب الدعاة، وكذلك من علاماتهم حزنهم على ما يصيب الدعاة من خير وتقدم، ونصر على خصوم وازدرياد تأثيرهم في الناس، ويعرف ذلك منهم في إظهار سرورهم الكاذب، بهذا الذي أصاب الدعاة. هذا من صفة المنافقين القدامى والمحدثين، والمنافقين النفاق الأكبر أو الأصغر، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن

(٢٩٧٣) انظر الفقرة ١٥٧٦.

(٢٩٧٤) الفقرة ١٥٧٧.

﴿تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[٢٩٧٥].

والمنافقون عادة يستغلون النكبات والمصائب التي تنزل بالدعاة، فينفثون سمومهم وأراجيفهم، ويظهرون حرصهم على الدعاة، وأنه ما كان ينبغي أن يفعلوا كذا وكذا. يقولون ذلك بأسلوب ناعم، وبكلمات يشوبها الأسى والتحسر على ما أصاب الدعاة بسبب أعمالهم الدعوية.

فعلى الدعاة أن يحذر بعضهم بعضاً من هذا الإرجاف الذي يقوم به أولئك المنافقون، ويردوا على أقاويلهم وشبهاتهم دون حاجة إلى ذكر أسمائهم، لأن كشف بطلان هذه الأقاويل يدل على سوء نية من يقولها، أويرددها فيبتعد عنه من يسمعها منهم، وهذا هو المطلوب.

١٦٣٢- من أساليب ردّ الدعاة على إرجاف المنافقين:

ومن الأساليب التي أشار إليها القرآن الكريم في الرد على أراجيف المنافقين التي يبثونها بين المؤمنين مستغلين ما يصيبهم من مصائب ونكبات في سبيل الله، وهو ما يفعله المنافقون المندسون في جماعة الدعاة، أن يقول الدعاة لهم ولعموم المنتسبين إلى جماعتهم: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[٢٩٧٦] ويقولون أيضاً، نحن دائماً على خير وفي خير، فإما أن ننال النصر وتقر أعيننا به، وإما أن ننال الشهادة، وكلا العاقبتين خير للمؤمنين. وهذا بخلاف المنافقين فإن عاقبتهم إما نزول عذاب الله بهم مباشرة، وإما أن يصيبهم ذلك على أيدي المؤمنين بعد أن تنكشف حقيقتهم، ويظهر نفاقهم ظهوراً يكفي لإنزال العقاب بهم الذي يستحقونه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[٢٩٧٧].

١٦٣٣- إسلام المنفق شرط لقبول إنفاقه:

ومما يجب أن يعرفه الدعاة، ويجيبوا به صراحة إذا سئلوا عنه، وهو أن الشرط

(٢٩٧٥) انظر الفقرة ١٥٧٩.

(٢٩٧٦) انظر الفقرة ١٥٨٠.

(٢٩٧٧) انظر الفقرة ١٥٨١.

لقبول إنفاق المنفق كونه مسلماً. وأعني بالقبول قبوله عند الله تعالى، وإثابته عليه في الآخرة. فلا ثواب لكافر على إنفاقه، بل وعلى سائر أفعاله من إنفاق وغيره، وإن كان فيما يفعله منفعة للمسلمين؛ لفوات شرط القبول وهو الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ . . ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

١٦٣٤- لا ينبغي للدعاة الإعجاب بما عند المنافقين:

الإعجاب بالشيء كما ذكرنا من قبل، أن تسرَّ به سرور راضٍ به متعجب من حسنه، فلا ينبغي للدعاة أن يعجبوا بما عند المنافقين من أموال وأولاد، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . . ﴾، لأن هذا الذي أوتوه استدراج لهم. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي لا تمدن نظر عينيك، ومدّ النظر تطويله حتى إنه لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ حتى واجههم أولو العلم والإيمان ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[٢٩٧٨] وأيضاً فإن النظر إلى ما عندهم من متاعها قد يجرّ إلى الرضا بكفرهم، وإلى استصغار المسلم ما عنده من نعمة الإسلام وهذا لا يجوز.

١٦٣٥- رضا المؤمن وسخطه لله لا لنفسه:

هذا ومما يجب أن يعرفه الدعاة ويعلموه الناس أن رضا المؤمن وسخطه لا يكونان إلا لله، أما المنافق فرضاه وسخطه لنفسه لا لربه. هذا وإن الدعاة في مقام التأسي والقدوة للناس، فيجب عليهم أن يروهم بأن رضاهم تابع لرضا الله وسخطهم تابع لسخط الله، فهم يرضون ما يرضى عليه الله، ويسخطون على ما يكرهه الله. أما الذي يرضى إذا أعطي ما أمله ورجاه، ويسخط إذا لم يعط ما أمَّله ورجاه، فهذا من صفات المنافقين قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ

(٢٩٧٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٩٧.

﴿يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[٢٩٧٩].

١٦٣٦- لا هزل في أمور الدين:

من الأمور التي يكثر وقوعها بين الجهال والسفهاء هزلهم في أمور الدين، جاهلين ما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة جداً، مثل كفرهم ووقوع الفرقة بينهم وبين أزواجهم؛ لارتدادهم بهزلهم بأمور الدين، فعلى الدعاة تفهيم الناس ذلك، وإعلامهم بحرمة الهزل بأمور الدين، مثل الهزل بالله وبآياته ورسوله، وأن هذا الصنيع هو صنيع المنافقين، كما أخبرنا الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ . . .﴾[٢٩٨٠]. فقد روى أبو داود والترمذي والدار قطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جدّ النكاح والطلاق والرجعة». وقال أبو بكر بن العربي إن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة[٢٩٨١].

١٦٣٧- المنافقون متشابهون فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف:

أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون في النفاق وصفاً وعملاً، ومن مظاهر تشابههم أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وفي البخل، وهذه من العلامات التي يعرف بها أهل النفاق، فعلى الدعاة التمعن والتأمل فيما يصدر عن المنافقين ليعرفوهم ويحذروهم، قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ . .﴾[٢٩٨٢].

١٦٣٨- من علامات المنافقين سخريتهم من المؤمنين:

ومن علامات المنافقين أنهم يسخرون من المؤمنين، ويحتقرونهم،

(٢٩٧٩) الفقرة ١٥٨٦.

(٢٩٨٠) انظر الآيتين ٦٥، ٦٦ من سورة التوبة.

(٢٩٨١) تفسير القرطبي ج٨ ص١٩٧-١٩٨.

(٢٩٨٢) انظر الفقرة ١٥٩٤.

ويستصغرونهم، ويستغلون أعمالهم الخيرة الطيبة، كما في سخريتهم من المتبرعين بالشيء اليسير، لأن هذا هو ما يملكونه[٢٩٨٣]. ولا شك أن هذه السخرية من المؤمنين تدل على غرورهم مع كفرهم ونفاقهم. فعلى الدعاة أن يرصدوا من يسخر بالمؤمنين حتى ينال جزاءه ويُبعَد ولا يُقرَّب.

١٦٣٩- فرح المنافق بتخلفه عن الجهاد وتحريض غيره على التخلف:

من علامات النفاق فرح المنافق بتخلفه عن الجهاد وتحريض غيره على هذا التخلف.

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ فالمنافقون يتخلفون عن الجهاد، ويفرحون بهذا التخلف، ويحرضون غيرهم عليه محتجين بالحر، فكان الجواب لاحتجاجهم بالحرّ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾. فعلامات النفاق التي أشارت إليها هذه الآية أن المنافقين يفرحون بقعودهم عن الجهاد، ويكرهون الجهاد بالمال والنفس، ويحرضون غيرهم على التخلف. وحجتهم أن غزوة تبوك وقعت في وقت الحرّ الشديد.

فعلى الدعاة أن يستدلوا بهذه الآية في التعرف على المنافقين، فإذا وجدوا من يتخلف عن الدعوة والتبشير بها، ويفرح لذلك، ويعلن كراهيته للجهاد بالمال والنفس، ويحرض غيره على القعود عن الجهاد، فهذه علامات لا تكاد تخطىء في دلالتها على المنافق. ومثل التخلف عن الجهاد بالنفس - وتخلفهم كان عن غزوة تبوك، في دلالته على نفاق المتخلف - القعود عن الجهاد القولي، أي عن الدعوة إلى الله بالقول، وتحريض الآخرين على التخلف عن هذا الجهاد القولي، بحجة ما قد يصيب الدعاة إلى الله من أذى وعنت. فإذا انكشف حال المنافق في ضوء هذه العلامات عومل بما يستحقه من هجر وإبعاد عن صفوف الجماعة، وعدم تكليفه بأي عمل من أعمالها، وهذا إذا لم يتيسر ترحيله إلى خارج هذا البلد. وحال هؤلاء المنافقين خلاف حال المؤمنين الذين يريدون الجهاد، ويأتون إلى رسول الله ﷺ

(٢٩٨٣) انظر الفقرة ١٥٩٧.

ليجد لهم ما يركبونه؛ ليوصلهم إلى ساحة القتال، فيعتذر لهم الرسول ﷺ؛ لعدم وجدانه ما يريدون تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، قال تعالى: ﴿.. وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾(٢٩٨٤).

فعلى الدعاة أن يهتموا بالمنتسبين إلى جماعتهم، ويتأملوا في تصرفاتهم، فمن وجدوه فرحاً مسروراً لقعوده عن الجهاد القولي، ومع هذا يثبط من يريده، فهذا يهمل ويهجر ويبعد، ومن وجدوه حريصاً على الجهاد، ويطلب تهيئة ما يلزمه لجهاده القولي أو غيره، فهذا هو المؤمن الذي تحتاجه الدعوة ويستحق التقريب والتكريم والتكليف.

١٦٤٠- لا يصدق من ظهر كذبه:

وليعلم الدعاة أن من ظهر كذبه وانكشف لم يعد أهلاً لتصديقه، لأن الكذب من خصال أهل النفاق، فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وفي حديث آخر للبخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خَصْلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢٩٨٥). وكذلك دل على ما قلناه، وهو عدم تصديق المنافق لا يُصدَّق إذا تبين كذبه. قال تعالى عن المنافقين الذي تخلفوا عن غزوة تبوك وجاؤوا يعتذرون، وهم كذبة في اعتذارهم، قال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ..﴾(٢٩٨٦) الآية. فعلى الدعاة أن لا تخدعهم أيمان الكذابين بعد أن تبين أن من صفاتهم الكذب، فلا ينبغي أن يصدقوهم.

(٢٩٨٦) انظر الفقرة ١٥٥٢، وهؤلاء لبكائهم سموا بالبكائين.

(٢٩٨٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٨٩.

(٢٩٨٦) الفقرة ١٦٠٣.

١٦٤١- معاتبة المنافقين لا تفيد:

إذا ثبت نفاق المنافقين بالدلائل والقرائن المعتبرة، فلا فائدة من معاتبتهم حتى ولو اعتذروا، وإنما علاجهم بتركهم وشأنهم بلا عتاب ولا خصام، قال تعالى عن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: سيحلفون لكم لتعرضوا عنهم، أي حتى لا تعاتبوهم ولا توبخوهم على تخلفهم عن غزوة تبوك، فأعرضوا عنهم أي أعطوهم طلبتهم، ولا تعاتبوهم إذ لا فائدة من معاتبتهم، ولا ينصلحون بها لأنهم رجس تمكن منهم النفاق[٢٩٨٧].

فعلى الدعاة أن لا يضيعوا وقتهم وجهدهم في معاتبة المنافقين الذين انكشف نفاقهم، ولم يعد بالإمكان إصلاحهم، وإنما كل المطلوب هو الوقاية من شرهم بالإعراض عنهم، وعدم معاقبتهم ولا معاتبتهم.

١٦٤٢- رضا المؤمن وسخطه يتبعان رضا الله وسخطه:

إن المؤمن يرضى على من يرضى عليه الله، ويكره من يكرهه الله، ورضا المؤمن وكرهه تابعان لما يرضى عليه الله أو يكرهه. وهذا الأسلوب هو ما يجب أن يؤكد عليه الدعاة في علاقاتهم مع الناس، ومع المنتسبين لجماعتهم - جماعة الدعاة -، وهو ما أرشد إليه قوله تعالى عن المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين، فقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فغرض المنافق من الحلف بالله هو طلب رضا المؤمنين عليهم بعد أن قدموا أعذارهم الكاذبة وحلفوا بالله عليها، فهم يريدون بهذا الحلف قبول أعذارهم ورضاكم - أيها المؤمنون - عليهم، ولكن رضاكم لو حصل لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم غير راض عنهم، هذا وإن المقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم حتى لو رضي عنهم المؤمنون، هو نهي المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن، لأن الشأن بالمؤمن أن يرضى عمن يرضى عنه الله

(٢٩٨٧) انظر الفقرة ١٦٠٤.

تعالى، ويسخط على من يسخط الله عليه[2988].

١٦٤٣- تحذير الدعاة من مسجد الضرار:

ذكرنا أن مسجد الضرار هو الذي بناه المنافقون مضارة للمسلمين لتفريق كلمتهم، وتقوية نفاقهم وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، أي وكراً لأبي عامر الفاسق وأعوانه المنافقين[2989].

١٦٤٤- حكم مسجد الضرار:

وحكمه هدمه وعدم الصلاة فيه، وهدمه إذا أُمنت الفتنة، وإلا وجب تحذير المسلمين من الصلاة فيه. ولا يمنعهم من ذلك كونه مسجداً، فقد أمر رسول الله ﷺ بهدمه بأمر ربه. وهكذا حكم كل مسجد ضرار بني لنفس الأغراض التي بنى المنافقون مسجدهم من أجلها.

١٦٤٥- ما يلحق بحكم مسجد الضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، نذكر فيما يلي بعض أقوالهم ليستفيد منها الدعاة في نظرتهم إلى ما قد يحدثه أعداء الدعوة من مراكز أو مساجد أو أو تجمعات للإضرار بهم وبجماعتهم.

أولاً - قول الزمخشري: وقيل كل مسجد بني مباهاة، أو رياء وسمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار[2990]. ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النبي ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال إن المسجد الذي لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى.

ثانياً - قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بُنِي على ضرار أو رياء

(٢٩٨٨) انظر الفقرة ١٦٠٥.

(٢٩٨٩) انظر الفقرات ١٦٠٩-١٦١١.

(٢٩٩٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٠.

وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه[٢٩٩١].

ثالثاً - وجاء في تفسير القاسمي: دلت الآية على أن كل مسجد بني على ما بني عليه مسجد الضرار أنه لا حكم له ولا حرمة ولا يصح الوقف عليه. وقد حرق الراضي بالله كثيراً من مساجد الباطنية والمشبهة. وقال الإمام ابن القيم (في زاد المعاد) في فوائد غزوة تبوك: ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلي فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ومأوى للمنافقين. وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم أو تحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما صنع له. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك وأوجب. وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر. وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه «فويسقاً» وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية[٢٩٩٢].

رابعاً - وجاء في تفسير سيد قطب يرحمه الله[٢٩٩٣]. هذا المسجد - مسجد الضرار - الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين.. هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنة لسحق الإسلام أو تشويهه.. وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتَتَتَرَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام؛ لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توجيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوف أو القلق عليه.

(٢٩٩١) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٥٤.

(٢٩٩٢) تفسير القاسمي ج٨ ص٣٢٨-٣٢٩.

(٢٩٩٣) في ظلال القرآن لسيد قطب يرحمه الله ج٣ ص١٧١٠-١٧١١.

١٦٤٦ - الخلاصة فيما يلحق بمسجد الضرار:

لأجل أن نحدد ما يلحق بمسجد الضرار وبالتالي يأخذ حكمه، لا بد أن نبين مقومات مسجد الضرار، فنقول: مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون اشتمل على شيئين:

(الأول) من حيث ظاهره كان مشروعاً، فهو مسجد يؤذن فيه وتقام فيه الصلاة، حتى إن المنافقين الذين بنوه عرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلي فيه افتتاحاً له وتيمناً بصلاته فيه، ولكن الله عصم رسوله من ذلك، فقال لهم: نحن على شغل في غزوة تبوك، وعند رجوعنا نصلي فيه إن شاء الله تعالى، فأنزل الله عليه عند رجوعه خبر مسجد الضرار وأمره بهدمه.

(الثاني) من حيث الغرض الذي من أجله بُنِي هذا المسجد. هو غرض غير مشروع، لأنه غرض الإضرار بمن لا يجوز الإضرار به، وهم جماعة المؤمنين، وذلك باتخاذ هذا المسجد مركزاً لتجمع المنافقين وتلاقيهم فيه، وتشاورهم فيما يفعلونه ويخططونه للإضرار بالمسلمين تمهيداً لإيقاع الضرر بالمؤمنين: بتفريقهم، وإشاعة ما يضعف وحدتهم، ويلحق الضرر بهم.

وخلاصة هذين العنصرين المكونين لمسجد الضرار، هي: ظاهر مشروع يخفي وراءه غرضاً غير مشروع هو الإضرار بالمؤمنين. فكل ما يتحقق فيه هذان العنصران فهو مسجد ضرار، سواء كان شكله الظاهري شكل «مسجد»، أو يأخذ شكلاً ظاهرياً آخر مشروعاً ما دام يتفق مع مسجد الضرار الذي بنوه في المدينة في الغرض غير المشروع. وهو الإضرار بالمؤمنين.

١٦٤٧ - القاعدة لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار:

وفي ضوء ما قلناه في حقيقة المسجد الضرار، وفي عنصرية المكونين له، يمكننا أن نضع القاعدة التالية لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار الأول الذي بناه المنافقون في المدينة. فنقول في بيان هذه القاعدة: «كل ما يُتَخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متخذوه تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق بالمسجد الضرار؛ لأنه يحمل روحه وعناصره». وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: «كل ما كان ظاهره

مشروعاً ويريد متخذوه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار».

وبناء على هذه القاعدة، يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك؛ لأن هذه منكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به، وإن استحقت الإزالة كمسجد الضرر باعتبارها منكرات ظاهراً وباطناً.

١٦٤٨- أمثلة لما يلحق بمسجد الضرار:

وفي ضوء ما قلناه من عناصر مسجد الضرار، والقاعدة في معرفة ما يلحق به، نقول أيضاً على وجه التعميم: كل ما يتخذ للإضرار بالمسلمين أو بالجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، مهما كان شكل هذا المُتَّخذ الذي في ظاهره مشروع؛ لتحقيق هذا الغرض الخبيث يعتبر ملحقاً بمسجد الضرار: مثل إقامة بناء لأعداء الإسلام أو أعداء الدعوة وجماعة الدعاة؛ لتجمعهم فيه والتشاور فيما بينهم؛ لوضع خطط التآمر والكيد والإضرار، سواء كان هذا البناء مسجداً أو مدرسة أو مستوصفاً أو مستشفى أو بيتاً أو حصناً، أو ما يعرف باسم مركز ثقافي أو اجتماعي، أو إنشاء تنظيمات أو جمعيات أو جماعات أو أحزاب ثقافية أو دينية أو خيرية، أو أية لافتة أو عنوان يمكن أن يوضع لهذه التنظيمات، وهي تخفي غرض متخذيها الخبيث، وهو الإضرار بمن ذكرناهم، فهي ملحقة بمسجد الضرار، لا نطباق ما قلناه عليها.

١٦٤٩- ما يلحق بمسجد الضرار يأخذ حكمه:

وما يلحق بمسجد الضرار يأخذ حكمه، وحكم مسجد الضرار إزالته بهدمه وتحريقه، أي إزالة شكله الخارجي، فإن كان بناء وجب هدمه وإزالته، إذا أمكن الهدم وأمنت الفتنة، فإن تعذر الهدم أو خيف حدوث الفتنة، اكتفى بتحذير المسلمين منه، بأن يقوم الدعاة بهذا التحذير مبينين وجه هذا التحذير، وذلك بكشف أغراض مؤسسي هذا البناء، وأن يُطلَب من المسلمين عدم ارتياده، فإن كان مسجداً يُنصَح المسلمون بعدم الصلاة فيه، وإن كان نادياً بعدم التردد عليه، وإن كان مدرسة بعدم إرسال أولادهم إليها، وعدم التدريس فيها لما في هذا التدريس من شهادة ضمنية وسكوتية بصلاح القائمين على هذه المدرسة، وهذا لا يجوز، وإن

كان الملحق بمسجد الضرار جمعية أو جماعة أو حزباً أو مركزاً ثقافياً، وما أمكن حلّها بالطرق القانونية، فعلى الدعاة أن يسعوا لكشف هذه التنظيمات، وبيان حقيقتها وأغراضها الخبيثة المتمثلة بإلحاق الأذى والضرر بالإسلام وبالمسلمين وبالجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وأن يطلب الدعاة من أنصارهم ومؤيديهم ومن عموم المسلمين مقاطعة هذه التنظيمات، ويقولوا لهم بصراحة ووضوح وتحديد: لا يجوز لهم حضور اجتماعاتهم وتجمعاتهم، واحتفالاتهم التي قد يقيمونها في مناسبات دينية أو في مناسبات أخرى، ولا يجوز للداعية ولا أي مسلم غيور إجابة دعوات أصحاب هذه التنظيمات بإلقاء المحاضرات الدينية أو الثقافية في مراكزها، لأن في هذه الاستجابة مشاركة في باطلهم، وتقوية لهم، وإيهام للمسلمين بأنها تنظيمات لا شائبة فيها ولا ضرر فيها، مع ما في هذه المشاركة بحضور اجتماعاتهم أو إلقاء الدروس فيها من تكثير سوادهم.

١٦٥٠- سؤال وجوابه:

وقد يسأل سائل، وهل يجوز الكشف عن هذه التجمعات والتنظيمات، وفي هذا الكشف نوع من الغيبة، وربما أكثر من الغيبة بادعاء أن أصحابها يكيدون للإسلام والمسلمين.. الخ والجواب: نعم يجوز هذا الكشف، وبيان أغراض هذه التنظيمات والتجمعات، لأن كشفها وبيان أغراضها يدخل من باب النصح للأمة حتى لا يقع أفرادها في شباكها وباطلها، ثم في هذا الكشف وبيان أغراضها الخبيثة نوع من رد شرهم وضرهم عن المسلمين، وعن جماعة الدعاة، وفي الحديث الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»، لأن هذه التنظيمات، وقد ظهر غرضها الخبيث، وهو الإضرار بالإسلام أو بجماعة الدعاة، تعتبر ظالمة، وقد أذن الله تعالى للمظلوم أن يجهر بمظلمته، ويذكر من ظلمه ووجه ظلمه، قال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ..﴾[٢٩٩٤]. وقد جاء في تفسيرها ما يبيح للمظلوم أن يجهر بمظلمته، ويذكر السوء في ظالمه، ونذكر فيما يلي بعض أقوال المفسرين في هذه الآية.

(٢٩٩٤) سورة النساء الآية ١٤٨.

أولاً: قال الزمخشري في تفسيرها: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي إلا جهر من ظُلِمَ. استثني من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء(٢٩٩٥).

ثانياً: وجاء في تفسير ابن عطية في كيفية الجهر بالسوء من قبل المظلوم. قال مجاهد: ذكر الظلامة والظلم(٢٩٩٦).

ثالثاً: وفي تفسير القرطبي: وقال ابن عباس والسدي: لا بأس لمن ظُلِمَ أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول(٢٩٩٧).

رابعاً: وفي تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من وقع عليه الظلم للدفاع عن نفسه(٢٩٩٨).

خامساً: وفي تفسير القاسمي: إلا جهر المظلوم، بأن يدعو على ظالمه، أو بتظلم منه، ويذكره بما فيه من سوء(٢٩٩٩).

فنخلص من أقوال المفسرين التي ذكرناها أن للمظلوم أن يذكر ظالمه بما فيه من سوء، وهو ما أوقعه فيه من ظلم، وأن هذا لا يدخل في معنى الغيبة المحرمة. وأيضاً فإن الظلم الواقع والمراد دفعه، هو في الحقيقة الاعتداء على المسلمين وتضليلهم، أو الواقع على الجماعة المسلمة جماعة الدعاة، فالرد على هذه التنظيمات التي قامت للإضرار بالمسلمين أو بجماعة الدعاة إنما هو دفاع عن حق الله ورد للاعتداء على من يدعون لدين الله، فالكشف عن هؤلاء المفترين هو رد ومنع لمن يريد الصدّ عن سبيل الله فهو أولى بجواز الرد عليه وكشف ظلمه، وأغراضه الخبيثة من رد المظلوم على ظالمه بظلامة تمس حقه الشخصي.

(٢٩٩٥) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٢.

(٢٩٩٦) تفسير ابن عطية ج٤ ص٢٧٤.

(٢٩٩٧) تفسير القرطبي ج٦ ص١.

(٢٩٩٨) تفسير المنار ج٦ ص٥.

(٢٩٩٩) تفسير القاسمي ج٥ ص٥٢٨.

وأيضاً فإن ما تقوم به هذه التجمعات والتنظيمات من سعي للإضرار بالمسلمين، أو بجماعة الدعاة، هو نوع غليظ من أنواع البغي، لأن فيه ضرراً عاماً، وصداً عن الدعوة إلى الله، وقد أذن الله لمن بغي عليه أن ينتصر ممن بغىٰ عليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾(٣٠٠٠). وجاء في تفسيرها: أي ينتقمون من ظالمهم من غير تعدٍ. وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح(٣٠٠١). وفي تفسير الزمخشري: فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار قلت: نعم، لأن من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به، فلم يسرف في رده على سفيه، محاماة على عرضه، وردعاً لظالمه، فهو مطيع لله، وكل مطيع فهو محمود(٣٠٠٢). ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي ما عليهم من سبيل للمعاتب ولا للمعاقب ولا للعائب(٣٠٠٣). وأقل مراتب الانتصار أن ترد اعتداء المعتدي وظلم الظالم، فإذا كان هذا الرد يتحقق بكشف نواياه وأغراضه، وما قد يتوسل به من وسائل كان ذلك مأذوناً فيه شرعاً، وتزداد هذه المشروعية إذا علمنا أن في رد هذا الظالم رد لسعيه الخبيث في الصد عن سبيل الله، لأنه في كيده وإيذائه وإضراره بجماعة الدعاة إنما يقوم بعمل خبيث من أعمال الصد عن سبيل الله، إذ ليس للدعاة عداوة شخصية مع هذه التنظيمات والقائمين عليها، وإنما يعادي هؤلاء القائمون على هذه التنظيمات الدعاة إلى الله، فكان في رد كيدهم وكشف باطلهم من باب النصح لله ولرسوله ودينه ولعامة المسلمين.

١٦٥١ - سؤال آخر وجوابه:

وقد يقول قائل على وجه الاعتراض أو السؤال: بأني ذكرت أن مما يلحق بالمسجد الضرار قيام الجماعات أو التنظيمات التي تريد الكيد والإضرار بالمسلمين وبجماعة الدعاة، فهل يعني هذا احتكار هذه الجماعة المسلمة التي أُسميها جماعة الدعاة - العمل - للإسلام؟ وهل من الممنوع شرعاً قيام جماعة إسلامية أخرى مع

(٣٠٠٠) سورة الشورى الآية ٣٩.

(٣٠٠١) تفسير فتح البيان ج١٢ ص٣١٢.

(٣٠٠٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٢٩.

(٣٠٠٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٣٠، والآية في سورة الشورى ورقمها ٤١.

وجود الجماعة الإسلامية القائمة، جماعة الدعاة؟ والجواب: لا، لا يجوز احتكار الدعوة إلى الله وإلى دينه من قبل أي فرد أو جماعة، لأن الدعوة إلى الله مخاطب بها كل مسلم ومسلمة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وساحة العمل الإسلامي تتسع لجميع العاملين للإسلام أفراداً كانوا أو جماعات ما داموا يعملون لوجه الله وبالطرق المشروعة. وإنما تضيق ساحة العمل الإسلامي إذا كان العاملون فيها يعوزهم الإخلاص في عملهم، أو المشروعية في أساليب عملهم، لأن ساحة العمل الإسلامي تصبح في نظرهم من مسوح الدنيا، وهي بطبيعتها تضيق بطلابها والعاملين فيها. وكذلك تصير ساحة العمل الإسلامي ضيقة إذا كان بعض العاملين فيها يريدون الدنيا بعملهم، ويتبعون في عملهم الطرق غير المشروعة، لأنهم سيصطدمون بالمخلصين من العاملين المستمسكين بالطرق المشروعة في عملهم، ويشغلونهم عن عملهم. ومن الواضح الجلي أنه ليس من العمل الإسلامي المشروع المرضي عند الله من يقيم تجمعه لغرض الكيد لجماعة إسلامية قائمة تضم الدعاة إلى الله، فلا يكون لهذا التجمع الجديد من غرض أو عمل سوى الدس والافتراء على هذه الجماعة القائمة، والاحتكاك بها، وتتبع مسالكها للإيقاع بها، مع أن ساحة العمل الإسلامي واسعة جداً لا تضيق بأحد. فمن حق هذه الجماعة الإسلامية جماعة الدعاة أن تدافع عن نفسها، وترد بغي الباغين عليها من أفراد وجماعات؛ لأن بغيهم في الحقيقة بغي واعتداء على دين الله؛ لأنه صدّ عن هذا الدين. أما إذا قامت جماعات تعمل للإسلام، ولا شأن لها بالآخرين، ولا تسعى للإضرار بهم، فلا مانع من قيام هذه الجماعات، ولا تضيق بها الجماعة الإسلامية القائمة، جماعة الدعاة، إذ لا احتكار في العمل الإسلامي لأحد كما قلت.

١٦٥٢- سؤال ثالث وجوابه:

وقد يقول قائل على وجه الاعتراض أو السؤال: وكيف تُعْرَفُ الجماعاتُ أو التنظيمات أنها تريد أو إحداها الكيد والإضرار بالمسلمين أو بالجماعة الإسلامية، جماعة الدعاة، القائمة فعلاً؟ وكيف تَعرِفُ هذه الجماعة الإسلامية، جماعة الدعاة، أن الجماعة الفلانية ما قامت إلا للإضرار بها وإيذائها؟ والجواب: يعرف ذلك من

خلال النظر في تصرفات هذه الجماعة من أقوال وأفعال، ووزن هذه الأقوال في ميزان الشرع، والتأمل في صفات القائمين على هذه الجماعة، والنظر في القرائن التي يستدل بها على بواطن الأمور. فالمنافق أو من فيه خصلة أو خصال من النفاق يعرف من خلال هذه الخصال، ومن يريد الشر والضرر يعرف من تصرفاته نحو من يريد إضراره، وقلما يخفى نافع أو باغ أو مريد الشر والإضرار على المؤمن الصادق، فإن له فراسة يميز بها الخبيث من الطيب، وهذا طبعاً مع وزن تصرفات هذه الجماعة التي تريد الشر والإضرار بالجماعة الإسلامية القائمة، جماعة الدعاة، فهذه العلامات قرائن على حقيقة مقاصدها الخبيثة، والأخذ بالقرائن في الأمور الشرعية جائز، والتوصل إلى معرفة صفة أو حال الشيء أو الشخص بناء على غلبة الظن أمر جائز شرعاً. ولذا قال الفقهاء إن غلبة الظن في المعاملات، أي في علاقات الناس ينزل منزلة اليقين من جهة الأخذ به والتعويل عليه. ألا يُرَى أن القاضي يأخذ بشهادة الشهود بناء على غلبة ظنه بصدقهم، ويحكم بالإعدام على المشهود عليه بجريمة القتل العمد.؟ والجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، قبل أن تقوم بالكشف عن أغراض المغرضين بالكيد لها لا تستعجل في ذلك، وإنما تتأنى حتى لا تقع في الخطأ.

١٦٥٣- ما يجب على الدعاة نحو مسجد الضرار وما يلحق به:

وعلى الدعاة أن يكون موقفهم وواجبهم نحو مسجد الضرار وما يلحق به. في ضوء ما قدمته، بمعنى أن يعرفوا هذا المسجد، وما في معناه وما يلحق به في منطقتهم، وتحقق عناصر المسجد الضرار فيما يرونه، فإذا تيقنوا ذلك أي تيقنوا أنه مسجد ضرار، أو ملحق به، أو غلب على ظنهم ذلك، وجب عليهم مباشرة ما يجب عليهم نحوه من هدمه وإزالته إن أمكن، وإلا تحولوا إلى التحذير منه بالابتعاد عنه، وعدم المساهمة في تقويته، وتكثير سواد أهله على النحو الذي فصلته. والله المستعان.

الفصل الحادي والعشرون
حجة الوداع
المبحث الأول
مختصر وقائعها

١٦٥٤- مختصر حجة الوداع(٣٠٠٤):

كانت هذه الحجة في السنة العاشرة للهجرة، وسميت بحجة الوداع؛ لقول رسول الله ﷺ فيها وهو يرمي جمرة العقبة: «لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه» رواه مسلم. وعند حلول شهر ذي القعدة أخذ رسول الله ﷺ في التجهز للحج، وأذن في الناس بذلك وأمرهم بالتجهز. فجاء المسلمون من كل فج وصوب، من القرى والبوادي، وسار النبي ﷺ ومعه أكثر من مائة ألف قاصدين بيت الله الحرام لأداء الحج، وهم يلبون ويكبرون ويهللون. ودخل رسول الله ﷺ مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة، ولما عاين ﷺ الكعبة المشرفة، قال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبراً، وزد من حَجَّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً». ثم طاف بالبيت وهو راكب ناقته، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم خرج إلى منى في اليوم الثامن من ذي الحجة بعد أن أحرم بالحج، وصلى فيها وأصحابه الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، وبعد شروق شمس اليوم التاسع من ذي الحجة خرج النبي ﷺ وأصحابه قاصدين عرفات.

(٣٠٠٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٠٢ وما بعدها، السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٥٤٩ - ٥٥١، السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج٢ ص٥٦٧ وما بعدها، الرحيق المختوم ص٤٢٠ - ٤٢٤.

١٦٥٥- خطبة النبي ﷺ في عرفات:

وفي عرفات خطب النبي ﷺ في هذه الجموع من المسلمين خطبته الجامعة، ومما جاء فيها قوله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس: اسمعواقولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع -أي باطل-، وربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية-أي خدمة الكعبة وسقاية الحج-، والعمد قود - أي قصاص -، وشبه العمل ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَدَ في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم... واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَان[٣٠٠٥] عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله - أي بعقد النكاح - فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، وإنه لا وصية لوارث، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث».

(٣٠٠٥) عوان جمع عانية وهي الأسيرة، أي كالأسيرات في ضعفهن.

١٦٥٦ - ما نزل من القرآن في يوم عرفة:

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال عن آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ أنها أنزلت ورسول الله ﷺ واقف بعرفة[٣٠٠٦]. ولما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه، ولما قيل له ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.

١٦٥٧ - من خطبته ﷺ يوم النحر في منى:

وفي يوم النحر بمنى خطب النبي ﷺ خطبة أخرى، ومما جاء فيها[٣٠٠٧] قوله: «أي شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى. قال فأي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال أليس بيوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. وستلقون ربكم فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

١٦٥٨- خطبة ثالثة لرسول الله ﷺ:

وخطب رسول الله ﷺ خطبة أخرى في منى أوسط أيام التشريق، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة ويوم النحر بمنى - والواقع أن تكرار الخطب في حجة الوداع كان أمراً لا بد منه لحاجة المسلمين، ولأن النبي ﷺ أحس بأن حجته هذه هي الأخيرة، بل وصرح بذلك ﷺ، فكان من شفقته بأمته أن كرر عليهم خطبه تأكيداً للمعاني التي وردت في خطبه، ورأى ﷺ حاجتهم إلى سماعها وتكرارها عليهم؛ ليحفظوها ويعوها ويبلغوها إلى من لا يحضر جمعهم،

(٣٠٠٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٠٨.

(٣٠٠٧) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٠٨.

بل وأمرهم بهذا التبليغ.

١٦٥٩- ما نزل من القرآن في أيام التشريق بمنى:

فقد روى الحافظان البزار والبيهقي بسندهما عن ابن عمر قال: نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ذكر ذلك ابن كثير في كتابه البداية والنهاية[٣٠٠٨]. وقال ابن حجر العسقلاني، ويقال: إن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ نزلت يوم النحر وهو بمنى في حجة الوداع[٣٠٠٩]. وقد سأل عمر بن الخطاب عبد الله ابن العباس، بعد أن سأل غيره، عن معنى سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ فقال عبد الله ابن العباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح: فتح مكة، فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٣٠١٠].

(٣٠٠٨) السيرة النبوية لأبي شبهه ج٢ ص٥٧٩.

(٣٠٠٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٧٣٤.

(٣٠١٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص٢٠.

المبحث الثاني
المستفاد
من حجة الوداع

١٦٦٠ - التعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علّم رسول الله ﷺ صحابته الكرام مناسك الحج بصور عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «خذوا عني مناسككم». وعلى هذا فيستحسن من الدعاة وهم يعلمون الناس معاني الإسلام أن يعلموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشرعية، أو بعضها في الأقل بصورة عملية، كما لو أرادوا تعليم الوضوء والصلاة لمن يجهلها من الصبيان، أو من العوام، فيقوم الداعية بالوضوء والصلاة فعلاً؛ ليروا بأعينهم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة. وكذلك إذا أرادوا تعليم قراءة القرآن بصورة سليمة فلا يكتفي بتعليمهم قواعد التلاوة والتجويد بالأقوال فقط، بل وبالتطبيق لها فعلاً بأن يقرأ القرآن أمامهم وفق قواعد التلاوة وهكذا.

١٦٦١ - تكرار الخطب:

رأينا أن النبي ﷺ كرر خطبه، فقد خطب في عرفة وفي منى مرتين، كما كرر معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ، فيكرروا خطبهم ويكرروا بعض معانيها التي يروا حاجة لتكرارها، حتى يحفظها السامعون ويعوها ولا ينسوها، لأن القصد من خطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصل، أو لا تتم إلا بتكرار الخطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديد في خطبه ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معاني معينة في أذهان السامعين.

إن الداعية همه أن يفيد السامعين، وليس همه أن يظهر براعته في الخطب، وفي

تنوع معانيها دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعاني واستيعابهم لها.

١٦٦٢ - فليبلغ الشاهد الغائب:

وعلى الدعاة عندما يلقون درساً أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس، فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه، حتى تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس فهذا من باب التعاون على الخير. ولأن الغائب قد يكون أوعى للعلم، وأكثر فهماً له من الحاضر الذي سمع، كما جاء في الحديث.

١٦٦٣ - جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النبي الحاضرين عن اسم اليوم الذي هم فيه، وكذا عن الشهر والبلد وهم يعرفونها مما يجلب انتباهم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة، فيصغون إليه إصغاءً تاماً. قال القرطبي: سؤال النبي ﷺ عن الثلاثة: أي عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم، وليقلبوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا». فعلى الدعاة أن يفعلوا ذلك في دروسهم ومواعظهم وخطبهم، بأن يقدموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السامعين ويشدهم إلى كلامه.

١٦٦٤ - التناوب في سماع العلم وتبليغه للغائب:

ويستحسن لأمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، إن كان له درس أسبوعي أن ينصح أتباعه أن يحضروا درسه هذا، وإن من كان له شغل يمنعه من الحضور، أو كان سكناه بعيداً فليتفق مع غيره في التناوب في حضور درس الأمير؛ ليبلغ معانيه إلى الغائب منهما، فقد أخرج الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.. الخ[٣٠١١].

(٣٠١١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٨٥.

الفصل الثاني والعشرون

مرض النبي صلى الله عليه وسلم وما قاله وما فعله قبل وفاته وما يستفاد من ذلك

المبحث الأول

مرضه ﷺ وأفعاله حتى وفاته

١٦٦٥ - بعث أسامة بن زيد بجيش لمقاتلة الروم:

بعد أن رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع، وفي آخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ندب الناس لغزو الروم، فانتدب لذلك ثلاثة آلاف من خيار المسلمين وفيهم كبار المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم، وأمَّر عليه أسامة بن زيد، فقد دعاه رسول الله ﷺ وقال له: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل؛ فقد وليتك هذا الجيش، وأسرعْ المسير تسبق الخير، فإن ظفر الله بهم فأقل اللبث فيهم». وكان ذلك قُبيل مرض رسول الله ﷺ. وكان أسامة شاباً لم يتجاوز العشرين من عمره، فتكلم في ذلك بعض الناس منهم عياش بن أبي ربيعة المخزومي، فردّ عليه عمر، وأخبر النبي ﷺ بذلك، فخطب في الناس، ومما قاله: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده». ثم اشتد برسول الله ﷺ المرض، فقال: «أنفذوا جيش أسامة». وخرج أسامة وعسكر بجيشه خارج المدينة استعداد للمسير، وإنهم لعلى ذلك بلغهم اشتداد المرض بالرسول ﷺ، فلم يكن بدٌّ من التريث والانتظار، لا سيما وقد كان في الجيش كبار المهاجرين والأنصار ممن تحتم الأحوال أن يكونوا في المدينة في هذا الظرف العصيب. وكان في تأمير أسامة حِكَمٌ بالغة: منها: إعطاء فرصة للشباب الصالح الكُفْء أن يتولى إمرة جيش. ومنها: القضاء على بقايا النظرة الاستعلائية المبنية

على الأحساب والأنساب، مما لا يتناسب والمستوى الرفيع الذي وصل إليه العرب بفضل الإسلام وإيمانهم بمعانيه[٣٠١٢].

١٦٦٦ - بدء مرض النبي ﷺ واشتداده عليه:

وكان ابتداء مرض النبي ﷺ في أواخر شهر صفر أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة. ثم اشتد عليه المرض ﷺ. وكان مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً، وكانت وفاته يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة. ولما اشتد به مرضه استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة، فأذن له. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما ثَقُلَ رسول الله ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يُمرَّض في بيتي فأذنَّ له»[٣٠١٣].

١٦٦٧- مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس:

ولما اشتد المرض برسول الله ﷺ قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. وأعاد النبي ﷺ قوله: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، فخرج أحد الحاضرين ليخبر بذلك أبا بكر فلم يجده، ووجد عمر بن الخطاب. فقال: قم يا عمر فصلِّ بالناس، فلما قام وكبرَّ سمع النبي ﷺ صوته، فقال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» وكررها. فلم يصل أحد بعد هذا إلا أبو بكر، فعاتب عمر الرجل على ما فعل، فقال: والله ما أمرني رسول الله ﷺ، ولكن لم أرَ أبا بكر، ورأيتك أحق من حضر بإمامة الصلاة[٣٠١٤].

١٦٦٨- خروج النبي ﷺ إلى المسجد وخطبته فيه:

وفي يوم الخميس الذي قبل وفاته، عزم ﷺ على الخروج إلى الناس في المسجد

(٣٠١٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٥٢، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ص٥٨٥-٥٨٦

(٣٠١٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٢٩، ١٤١.

(٣٠١٤) السنة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٨٩، ومعنى أسيف: رقيق القلب يغلبه البكاء عند قراءة القرآن.

كي يوصي المسلمين ويخطبهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي، واشتد به وجعه، قال: أهريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن؛ لعلي أعهد إلى الناس. فأجلسناه في مِخضَب لحفصة زوجِ النبي ﷺ. ثم طفقنا نصب عليه من تلك القِرَب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتنَّ. قالت: ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم»[٣٠١٥]. ولما خرج ﷺ إلى المسجد كان الناس يصلون الظهر، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر، فأومأ إليه الرسول ﷺ أن ابقَ في مكانك، ثم جلس إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي بالناس قائماً، والرسول ﷺ يصلي قاعداً، وكانت هذه آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ مع المسلمين، ثم صعد المنبر فكان أول ما ذكر - بعد أن حمد الله وأثنى عليه - أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا، ثم قال: «يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون، والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم عيبتي التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٣٠١٦]، ثم قال ﷺ: «إن الله خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله». فبكى أبو بكر. قال أبو سعيد الخدري راوي هذا الخبر: فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّرَ، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّرُ، وكان أبو بكر أعلمنا. ثم قال ﷺ: إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربيّ، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر». وفي رواية مالك لهذا الحديث: فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ. يخبر رسول الله ﷺ عن عبد، وهو يقول: فديناك. وقوله: «وكان أبو بكر هو أعلمنا» أي بالنبي ﷺ، أو بالمراد من كلامه المذكور. وزاد في رواية محمد بن سنان فقال النبي ﷺ: «لا تبكِ». وقوله: «أَمَنّ» أفعل تفضيل من «المنّ» بمعنى العطاء والبذل. والمعنى: أن أبا بكر كان أبذل الناس لنفسه وماله. وقوله: «ولكن أخوة الإسلام ومودته» وأخوة الإسلام ومودته متفاوتة بين المسلمين بتفاوتهم في نصرة الدين، وإعلاء كلمة

(٣٠١٥) صحيح البخاري ج٨ ص١٤١، أوكيتهن: جمع وكاء وهو ما يربط به فم القربة.

(٣٠١٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٠-٥٩١، ومعنى عيبتي، خاصتي وموضع سري.

الحق، وتحصيل كثرة الثواب ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره[٣٠١٧]. وكان مما قاله أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد. فإن من أحبكم إلي من أخذ حقاً إن كان له عليَّ، أو حللني فلقيت الله وليس لأَحد عندي مظلمة»[٣٠١٨].

١٦٦٩- التحذير من بناء المساجد على القبور:

أخرج الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما صنعوا[٣٠١٩].

١٦٦٩- من وصايا رسول الله ﷺ في مرض موته:

وأوصى ﷺ المسلمين بثلاث، أوصاهم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وأما الثالثة: فقيل الوصية بالقرآن، وقيل تجهيز جيش أسامة وتسييره، كما أوصاهم بالصلاة وما ملكت أيمانهم[٣٠٢٠].

١٦٧٠- آخر نظرة لرسول الله للمسلمين وهم يصلون:

أخرج البخاري عن أنس بن مالك قال: «إن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي لهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصلَ الصف، وظن أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»[٣٠٢١]، وزاد أبو اليمان

(٣٠١٧) صحيح البخاري وشرحه لابن حجر العسقلاني ج٧ ص١٢ - ١٣.

(٣٠١٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٢. ومعنى فليستقد: فليقتص.

(٣٠١٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٠.

(٣٠٢٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٠، ٥٩٢، والرحيق المختوم ص٤٢٨.

(٣٠٢١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٣.

عن شعيب «وتوفي من يومه ذلك» أخرجه البخاري في باب الصلاة[٣٠٢٢].

١٦٧٢- إن للموت سكرات:

وأخرج البخاري عن ذكوان أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحْري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن - أخوها - بيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولتُه، فاشتدَّ عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته، فأَمرَّه، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده». قولها «فلينته» أي لينت السواك. قولها: «فأَمرَّه» أَي أمرَّه ﷺ على أسنانه فاستاك به[٣٠٢٣]. وقوله: «في الرفيق الأعلى» الأنبياء ومن ذكر في الآية وهي: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

١٦٧٣- مات رسول الله ﷺ:

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة: «أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنْح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيممَّ رسول الله ﷺ وهو مُغشًّى بثوب حبَرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أَنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها»[٣٠٢٤] ولابن أبي شيبة عن ابن عمر، في تقبيل أبي بكر لرسول الله ﷺ: فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ، فجعل يقبّله ويبكي ويقول: بأبي وأمي طبت حياً وميتاً. وللطبراني من حديث جابر: إن أبا بكر

(٣٠٢٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٣.

(٣٠٢٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٤. وقولها: بين سحري ونحري. السحر: الرئة. والنحر: الثغرة التي في أسفل العنق والمراد بالرفيق الأعلى الأنبياء ومن ذكروا في الآية التي ختمت بـ«وحسن أولئك رفيقا».

(٣٠٢٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٥.

قبّل جبهته[٣٠٢٥].

١٦٧٤- من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات:

وخرج أبو بكر بعد أن وقف على الحقيقة، حقيقة أن رسول الله ﷺ قد مات، وأن عليه الآن أن يخبر المسلمين بهذه الحقيقة، ويثبتهم بعد هذه الصدمة الهائلة التي لم يتحملوها، حتى إن عمر كان يقول للناس: ما مات محمد، خرج صديق هذه الأمة إلى الناس وهم مدهوشين من عظم ما أصابهم. قال ابن عباس فيما يرويه عنه البخاري: «إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمرَ، فقال أبو بكر: أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[٣٠٢٦]. قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

وقال عمر: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات»[٣٠٢٧].

وقوله: «وعمر يكلم الناس» أي يقول لهم: ما مات رسول الله ﷺ. قوله: «فعُقِرتُ» أي هلكت. وفي رواية «فعَقرتُ» أي: دهشت وتحيرت. قوله: «ما تُقلّني» أي ما تحملني.

قوله: «وحتى أهويت» وفي رواية «هَوَيتُ». وفي الحديث دلالة على قوة قلب أبي بكر وكثرة علمه. وقد وافق العباس أبا بكر في أن محمداً ﷺ قد مات، وكذا المغيرة كما في المغازي لأبي الأسود عن عروة قال: إنه - أي المغيرة - كان يتلو

(٣٠٢٥) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٧.

(٣٠٢٦) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

(٣٠٢٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٥ - ١٤٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وكان أكثر الصحابة على خلاف ذلك إذ كانوا يظنون أن محمداً لم يمت. قال ابن حجر: فيؤخذ منه أن الأقل عدداً في الاجتهاد قد يصيب ويخطىء الأكثر، فلا يتعين الترجيح بالأكثر، ولا سيما إن ظهر أن بعضهم قلد بعضاً(٣٠٢٨).

١٦٧٥- تاريخ وفاته، ومكان دفنه عليه الصلاة والسلام:

توفي في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة للهجرة(٣٠٢٩). وعمره ثلاث وستون سنة ﷺ. كما جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة(٣٠٣٠)». وبعد أن تم تغسيله ﷺ وتكفينه والصلاة عليه فرادى، وقد وضع على سريره في حجرة عائشة رضي الله عنها، اختلفوا في أي مكان يُدفَن ﷺ، فقال أبو بكر الصديق: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلاّ ودفن حيث قبض». وهكذا دفن في حجرة السيدة عائشة حيث مات ﷺ(٣٠٣١).

(٣٠٢٨) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٦.

(٣٠٢٩) انظر الفقرة ١٦٦٦.

(٣٠٣٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٥٠.

(٣٠٣١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٨-٥٩٩.

المبحث الثاني
المستفاد
من تأمير أسامة بن زيد
ومن أقوال النبي ﷺ قبل وفاته

١٦٧٦- الطاعة للأمير:

ذكرنا أن النبي ﷺ أمر بإعداد جيش لمحاربة الروم، وأنه أمَّر عليه أسامة بن زيد، وأنه كان في هذا الجيش كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب. وقد تكلم بعض المسلمين في هذا التأمير؛ لكون أسامة شاباً، وفي الجيش شيوخ المهاجرين والأنصار، وقد بلغ هذا الكلام رسول الله ﷺ فأنكره وفنده ورده. وعلى هذا فعلى الدعاة أن يسمعوا ويطيعوا إذا أَمَّرَ عليهم أميرُهم أحدَهم، لأن استحقاق الإمرة لا تقوم على العمر، وإنما على القدرة والكفاءة، ولأن تأمير شخص دون سواه على عمل معين يقوم على عدة اعتبارات يعرفها الأمير، أمير الجماعة جيداً، وقد لا يحيط بها أتباعه، ومن ثم جاء اختياره لمن أمَّره، فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك، ويحملوا نفوسهم على قبوله، ولا يجوز لهم رفض هذا التأمير، لأنه اجتهاد، وليس اجتهادهم أولى من اجتهاده.

١٦٧٧- التذكير بالعدل:

ذكرنا أن النبي ﷺ لما اشتد به المرض استأذن أزواجه في أن يتمرض في بيت عائشة فأَذِنَّ له. فعلى الدعاة أن يذكّروا المسلمين بمدى التزام رسول الله ﷺ بالعدل بين أزواجه. وهذا التذكير للمسلمين بعدل رسول الله ﷺ ضروري لا سيما في المناطق التي يكثر فيها تعدد الزوجات، فمن الخير أن يعرف المسلمون ضرورة تمسكهم بالعدل بين نسائهم في الأكل والشرب والسكن وفي المبيت، وإذا طرأ طارىء يستوجب المبيت والبقاء في بيت إحدى أزواجه فليستأذن.

١٦٧٨- مسامحة أصحاب السوابق في الدعوة:

ذكرنا أن النبي ﷺ أوصى في خطبته وهو في مرضه المسلمين بالأنصار، وقال لهم: «أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم»، لأنهم قاموا بأعمال جليلة في خدمة الإسلام، ونصرة الرسول ﷺ استحقوا بها أن يذكرهم الله في كتابه العزيز على وجه المدح والثناء لهم والإخبار برضاه عنهم. وهذا يعني أن صاحب الأعمال الجليلة في خدمة الإسلام يُوصّي به ويسامح ويصفح عنه إذا قصّر، وقد ذكرنا من قبل كيف أن النبي ﷺ عفا عن حاطب بن بلتعة لما أخبر قريشاً بنية رسول الله ﷺ بالتوجه إليهم؛ لفتح مكة، وقال لعمر بن الخطاب لما قال: دعني يا رسول الله أَضرب عنق هذا المنافق. فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فعلى أمير جماعة الدعاة أن يعرف لكل داع سابقته في خدمة الدعوة، وأن يصفح الصفح الجميل عن الداعية ذي السوابق الجليلة في خدمة الدعوة إذا صدر منه تقصير أو شيء من الإهمال، ويكتفي منه بقبول عذره، إن كان له عذر، وإذا رؤي في تقصيره ما يستوجب التوجيه والتعليم، فليفعل أمير الجماعة ذلك، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

١٦٧٩ - التحلل من المظالم:

ذكرنا قول رسول الله ﷺ: «ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فليستقد. فإن من أحبكم إليَّ من أخذ حقاً إن كان له أو حللي. . . الخ» فمن المستحسن لأمير جماعة الدعاة، أن يعلن مثل هذا القول أو بمعناه في أتباعه، حتى يُرِيهم أنه مستمسك بمقتضيات العدل، ومتأسي في ذلك برسول الله ﷺ، وحتى لا يبقى في قلب أحد من أتباعه شيء عليه. لأن أمير الجماعة قد يصدر منه على سبيل الاجتهاد أو الغفلة أو الخطأ نحو أحدهم ما لا ينبغي صدوره منه، فلهذا ونحوه يستحسن أن يعرض لهم ما قلته، وأن يطلب منهم أن يذكروا له ما ينقمونه منه، أو بما يرونه تجاوزاً منه عليهم بلا مبرر.

١٦٨٠ - رعاية الأمير لأتباعه وسروره بحسن أحوالهم:

ذكرنا خروج رسول الله ﷺ إلى المسجد يوصيهم ويخطب فيهم، وأنه من أجل

ذلك أمر بأن يصبّوا عليه الماءَ من سبع قِرَب لينشط للخروج. فهذا مظهر من مظاهر رعايته ﷺ وهو في حال مرضه. ومظهر آخر أنه ﷺ أوصاهم بعدم اتخاذ القبور مساجد؛ لخوفه عليهم من أن يقعوا فيما وقع اليهود والنصارى فيه من اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد. كما أوصاهم بالصلاة وبما ملكت أَيمانهم، وهذا مظهر آخر من مظاهر رعايته لهم وشفقته بهم ﷺ. فعلى أمير جماعة الدعاة ألا ينفك عن رعايته لجماعته، ووعظهم وتوجيههم وإرشادهم وتذكيرهم بما يراه مفيداً للتذكير به. وكذلك رأَينا سروره ﷺ عندما كشف ستر حجرة عائشة رضي الله عنها، فنظر إلى المسلمين وهم يصلون، فسره ذلك وتبسم ضاحكاً ﷺ رضاً منه وسروراً بما رآه من حسن أحوالهم وعبادتهم لربهم. فعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يتفقد أحوال أتباعه حتى إذا رأى منهم ما يسره أظهر سروره، كما يتفقد الأب أولاده حتى إذا رأى ما يسره منهم أعلن ذلك بابتسامة. إن هذه المواقف من أمير الجماعة تصيرها كعائلة كبيرة، والأمير هو رب هذه العائلة الكبيرة، فتشيع فيها المودة والاحترام والطاعة.

١٦٨١- إظهار فضل أبي بكر ومنزلته في الإسلام:

وعلى الدعاة أن يبينوا للناس في خطبهم وفي دروسهم ومواعظهم فضل أصحاب رسول الله ﷺ، وفضل أبي بكر الصديق، فهو خير الأمة بعد رسولها ﷺ، وليذكروا أوجه هذا الفضل، فقد ذكره ﷺ في خطبته التي ذكرناها، وذكر الله تعالى موقفه في الغار. وليذكر الدعاة موقفه الشجاع الذي لم يقفه غيره يوم بلغه وفاة رسول الله ﷺ، فقد أصاب المسلمين بهر ودهشة هائلة حتى إن عمر بن الخطاب أنكر موته وهدد من يقوله. ولكن الصديق أبا بكر رضي الله عنه لم يخرجه هول المصيبة عن ثباته وتوازنه، وإنما اكتفى بتقبيل رسول الله ﷺ وهو يبكي، ثم خرج إلى المسلمين، وقال قولته الشهيرة التي نسيها المسلمون وهي:

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

١٦٨٢- جماعة الدعاة عند فقد أميرها:

وإذا فقدت جماعة الدعاة أميرها بموت أو استشهاد، فعليها أن تتحمل هذا الفقد بالصبر الجميل وبالثبات على العمل والدعوة، دون كلل أو ملل أو ضعف، فليس موت أحد من الناس بأعظم وقعاً وأشد مصيبة على المسلمين من موت رسول الله ﷺ على صحابته الكرام، وقد تلقوها بالصبر والثبات والاستمرار على الدعوة إلى الله التي حملهم إياها رسول الله ﷺ، وليتذكروا قول صدّيق هذه الأمة أبي بكر رضي الله عنه: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

١٦٨٣- الخاتمة:

وبعد فهذا ما يسره الله لي من كلمات تضمنتها فصول هذا الكتاب فيما يتعلق بـ «المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة» فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فاستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً أن لا أقع في الخطأ. وعسى أن لا أُحرمَ من الأجر، فقد جاء في حديث رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد» أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرأه في دعائه فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبد الكريم زيدان

صنعاء في ٢٢ رمضان ١٤١٦هـ

الموافق ١١ شباط ١٩٩٦م



فهرس المجلد الأول

* تسهيلاً على القارىء الكريم، قمنا بفهرسة الكتاب وفق أرقام الفقرات والصفحات.

٩٣٠- أولاً- تحذير العالم من ترك العمل بما علم ٩٣١- ثانياً- عدم الغرور بعلم أو عمل ٩٣٢- ثالثًا- الخوف على العالم من فتنة الدنيا ٩٣٣- رابعاً- الانسلاخ الكلي أو الجزئي من آيات الله.

فهرس المجلد الثاني

وأخذ الفداء منهم ١١٣٥- ما روي عن العباس وفدائه ١١٣٦- ما نزل من القرآن بشأن الفداء بعد أخذه.

المبحث السادس ١٣٧-١٤٠

نصر المسلمين يوجب شكر الله

١١٣٧- معركة بدر وقعت من غير تخطيط مسبق، ولكن بتدبير من الله ١١٣٨- كان نصر المسلمين بتأييد من الله تعالى ١١٣٩- انتصار المسلمين ببدر يوجب شكر الله.

المبحث السابع ١٤١-١٤٢

أحداث بعد معركة بدر مباشرة

١١٤٠- أولاً- اتفاق على قتل النبي ﷺ ١١٤١- ثانياً- إجلاء يهود بني قينقاع.

المبحث الثامن ١٤٣-١٦١

المستفاد من غزوة بدر ومما حدث قبلها وأثناءها وبعدها للدعوة والدعاة

١١٤٢- تربية الأولاد على الجهاد ١١٤٣- الرغبة في الجهاد لا تكفي وحدها بل لا بد من القدرة عليه ١١٤٤- القاعدة والاستثناء في الاستعانة بغير المسلم ١١٤٥- الاستعانة بعصاة المسلمين ١١٤٦- المقصود بعصاة المسلمين ١١٤٧- ما كل جائز يجوز الأخذ به ١١٤٨- متطلبات الأخذ بالاستثناء ١١٤٩- الأمير يشارك أتباعه متاعبهم ١١٥٠- أعداء الدعوة يحاربونها ويصدون الناس عنها ١١٥١- لا بد من المواجهة والصدام مع أعداء الدعوة إذا اضطر الدعاة إليها ١١٥٢- مشاورة الأمير لأتباعه ١١٥٣- لا بد من استكشاف أحوال أعداء الدعوة ١١٥٤ الحفاظ على أمير جماعة الدعاة ١١٥٥- قد يشارك القائد جنوده في جهادهم القتالي ١١٥٦- الأخذ بالقرائن ١١٥٧- النظام والتنظيم في العمل الجماعي ١١٥٨- التحريض والتشجيع على أعمال الدعوة ١١٥٩- عوامل نصر الدعوة والدعاة ١١٦٠- أولاً- الثبات ١١٦١- ثانياً- دوام الاتصال بالله بدوام ذكره ١١٦٢- ثالثاً- طاعة الله

المبحث الثالث ١٧١-١٧٣

النبي ﷺ وأصحابه في ساحة المعركة

١١٧٩- تعبئة النبي ﷺ جيشه ١١٩٠- وصية رسول الله ﷺ للرماة بأن لا يتركوا أماكنهم ١١٩١- النبي ﷺ يحرض المسلمين على القتال ١١٩٢- محاولات العدو لإيقاع الفرقة بين المسلمين.

المبحث الرابع ١٧٤-١٧٨

نشوب القتال وما جرى فيه

١١٩٣- انتصار المسلمين وهزيمة المشركين في أول القتال ١١٩٤- استشهاد ثلة من المسلمين ١١٩٥- مخالفة الرماة لوصايا رسول الله ﷺ ١١٩٦- وقوع الهزيمة بالمسلمين ١١٩٧- الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين ١١٩٨- ثبات بعض المسلمين ١١٩٩- الدفاع عن رسول الله ﷺ ١٢٠٠- ما أصاب النبي ﷺ ١٢٠١- سعد بن أبي وقاص يحرص على قتل أخيه لما فعله برسول الله ﷺ ١٢٠٢- عدد من استشهد في معركة أحد وكيفية دفنهم.

المبحث الخامس ١٧٩-١٩٠

ما نزل من القرآن بشأن معركة أحد

١٢٠٣- أولاً: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ١٢٠٤- ثانياً- ليس لك من الأمر شيء ١٢٠٥- ثالثاً- إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله ١٢٠٦- رابعاً- تمني القتال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ١٢٠٧- خامساً- لا بد من الثبات وإن قُتِلَ القائد ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ١٢٠٨- سادساً- الآجال مفروغ منها ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ. ﴾ ١٢٠٩- سابعاً - ثبات المسلمين في جميع الأحوال ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا . .﴾ ١٢١٠- موالاة الله وطاعته، لا موالة الكفرة وطاعتهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ . .﴾ ١٢١١- تاسعاً- منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ . .﴾ ١٢١٢- عاشراً- لكيلا تحزنوا على ما فاتكم: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٢١٣- أحد عشر- الأمر كله لله ﴿. . يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ . .﴾ ١٢١٤- اثنا عشر- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ١٢١٥- ثلاثة عشر- الذنوب سبب المصائب ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ . . .﴾ ١٢١٦- أربعة عشر - حكمة ما أصاب المسلمين يوم أحد ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢١٧- خمسة عشر- لا بد من التمايز بين المؤمنين والمنافقين ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ . . .﴾.

المبحث السادس ١٩١-٢٢٨

المستفاد من غزوة أحد للدعوة والدعاة

١٢١٨- المسلمون أولى بالإنفاق لدعوتهم من الكفار لباطلهم ١٢١٩- يجب توظيف جميع المواهب والقدرات لدعوة الإسلام ١٢٢٠- لا بد للأمير من مشاورة أتباعه ١٢٢١- الشورى واجبة ولكنها مُعلِمةٌ وليست مُلزِمة ١٢٢٢- لا تردد في العزم على التنفيذ بعد المشاورة ١٢٢٣- إظهار القدرة على الجهاد ١٢٢٤- الحذر من تثبيط المنافقين ١٢٢٥- لا يجوز تكثير سواد العدو ١٢٢٦- الاعتصام بمعاني الإيمان يحبط مكايد الأعداء ١٢٢٧- مخالفة القائد تسبب الفشل لجنوده ١٢٢٨- إيثار الدنيا على الآخرة يوقع في الخطيئة ١٢٢٩- الأماني غير الأفعال ١٢٣٠-

انتهى